1

أساطير اليهود

أحداث وشخصيات العهد القديم
من بدء الخليقة إلى يعقوب



لويس جنزبرج

ترجمة: حسن حمدي السماحي



1

أساطير اليهود

أحداث وشخصيات العهد القديم

من بدء الخليقة إلى يعقوب

اسم الكتاب : أساطير اليهود جـ

اسم المؤلف : لويس جنز بيرج

ترجمة : حسن حمدى

المراجعة اللغوية والتدقيق : طه عبدالرؤوف سعد

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية : ٢٠٠٦/٢٢٢٢٢

الترقيم الدولى : I.S.B.N. 977 - 376 - 222 - X

تطلب كافة منشوراتنا :

حلب : دار الكتاب العربى ـ الجميلية أمام مسرح نقابة الفنانين ـ ت: ٢٢٥٦٨٧٠

دمشق : مكتبة رياض العلبى ـ خلف البريد ـ ت : ٢٢٣٦٧٢٨

مكتبة النورى ـ أمام البريد ت : ٢٢١٠٣١٤

مكتبة عالم المعرفة ـ جسر فيكتوريا ت : ٢٢٢٨٢٢٢

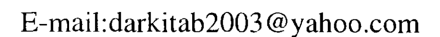
مكتبه الفتال ـ فرع أول ـ ت: ٢٤٥٦٧٨٦

فرع ثانى ـ ت : ٢٢٢٢٣٧٣

الطبعة الأولى

٢٠٠٧





E-mail:darkitab2003@yahoo.com

سوريا ـ دمشق ـ الحجاز ـ شارع مسلم البارودى هاتف: ٢٢٣٥٤٠١ ص. ب ٣٤٨٢٥ فاكس : ٢٢٤٧٢٩٧

مصر ـ القاهرة ـ ٥٢ شارع عبدالخالق ثروت ـ شقة ١١ تلفاكس : ٣٩١٦١٢٢

لبنان ـ تلفاكس : ٤٣٤١٨٦ / ٠٥ ـ تليفون : ٦٥٢٢٤١ / ٠٣ ـ ص. ب ٣٠٤٣ الشويفات

أساطير اليهود

أحداث وشخصيات العهد القديم
من بدء الخليقة إلى يعقوب

◆

لويس جنزبيرج

◆

الناشر
دار الكتاب العربي
دمشق - القاهرة



إهداء

إلى رفيقة دربى..

التى ساعدتنى كثيراً..

وأدين لها بالكثير..

حسن حمدى


al-maktabeh
www.
com
مكتبة
المهتدين

مقدمة المترجم

الحمد لله والصلاة على رسول الله ﷺ، وبعد..

فالكتاب الذى نضعه بين يدى القارئ هو كتاب «أساطير اليهود» لمؤلفه الأستاذ لويز جنزبرج، والذى الفه عام ١٩٠٩ فى مدينة نيويورك. ويحتوى الكتاب على مجموعة من الأساطير اليهودية التى تحكى تاريخ العالم عموماً وبنى إسرائيل خصوصاً، من بدء الخليقة إلى آخر أنبيائهم، وهو النبى ملاخى. والكتاب مقسم إلى سبعة أجزاء أو مجلدات، الأربعة الأولى منها هى نص الكتاب، أو نص الأساطير، بينما تمثل الأجزاء الثلاثة الباقية تعليقات المؤلف عليها..

لكن للأسف لم تتوافر لنا هذه الأجزاء الثلاثة الأخيرة فى الوقت الحالى، وسنحاول إن شاء الله العثور عليها وترجمتها حتى يكتمل الكتاب كله، فى أقرب وقت.

وتحتوى المجلدات الأربعة الأولى على الموضوعات التالية:

- **المجلد الأول**

ويتناول أحداث وشخصيات العهد القديم من بدء الخليقة إلى «يعقوب».

- **المجلد الثانى**

ويتناول أحداث وشخصيات العهد القديم بدءًا من «يوسف» إلى خروج بنى إسرائيل من مصر

● **المجلد الثالث**

ويتناول أحداث وشخصيات العهد القديم بدءًا من خروج بنى إسرائيل من مصر إلى موسى» وتيه بنى إسرائيل فى صحراء سيناء.

● **المجلد الرابع**

ويتناول أحداث وشخصيات العهد القديم بدءًا من «يَشُوع بن نون» فتى موسى وقيادته بنى إسرائيل إلى الأرض المقدسة مروراً بعهد القضاة ثم الأنبياء وانتهاءً بأسيتر.

* * *

ونود التأكيد على عدة نقاط ليضعها القارئ الكريم فى اعتباره عند قرائته لهذا الكتاب، وهى:

● أن الكتاب ليس مرجعاً تاريخياً نستمد منه المعرفة القطعية بالأحداث والشخصيات المذكورة فيه.. وإنما هو، كما يصرِّح بذلك اسمه، مجموعة من الأساطير التى تتعلق بهذه الأحداث والشخصيات، وأدى أنه يعطينا فكرة ممتازة عن طريقة تفكير اليهود ونظرتهم إلى الله تعالى.والملائكة والأنبياء.. إلخ.

● لم أشأ استخدام لفظ الجلالة، والله سبحانه وتعالى فى الكتاب، نأياً باللفظ الجليل عن الورود فى مواطن أقل ماتوصف به أنها وقاحة لانظير لها.

● وكذلك، وبالمثل، فلم استخدم أسماء الشخصيات المشهورة لدينا نحن المسلمين، مثل «النبى يوسف» أو «النبى هارون» عليهما السلام، مسبوقة بألفاظ التوقير والإحترام المألوفة (مثل سيدنا وعليه السلام.. إلخ)، وذلك لأن هذه الشخصيات ترد فى مواطن ومواقف وسياقات تختلف عما هى عليه عندنا، حتى إن المرء ليكاد يتخيل أنها شخصيات أخرى غير التى نعرفها.

- قد تتكرر القصة الواحدة المتعلقة بإحدى الشخصيات أو الأحداث، أكثر من مرة فى مواطن مختلفة وبصياغات قد تكون متناقضة أحياناً؛ والسبب هو أن من صاغوا هذه الأساطير وثبتوها فى عقول اليهود عموماً يهدفون دائماً إلى ربط الماضى بالحاضر وصنع كل الأحداث التى تقع فى هذا العالم بصبغة «بنى إسرائيل».. ولذا فقد تتكرر نفس القصة مع اختلاف فى بعض التفاصيل للإشارة إلى جانب معين لم تتم الإشارة إليه فى رواية سابقة.
- إن كان القارئ ملماً بالعهد القديم فسيجد انطباقاً كبيراً بين الكتاب وبين الأحداث التى وردت فى العهد القديم؛ وقد يجد اختلافاً فى بعض الأوقات لأن هذه الأساطير ـ فى مجملها ـ تميل الى تفسير وتفصيل ما أجمل عموماً فى العهد القديم لخدمة أغراض من وضعوها.
- لاينبغى أن يفهم من لفظ «التوراة» المذكورة فى أجزاء الكتاب أنها هى التى أنزلت على موسى عليه الصلاة والسلام، وإنما هى لفظة لها دلالة خاصة عند اليهود، وسيتعرف القارئ على هذه الدلالة من خلال قراءته للكتاب وفهم الإشارات الرمزية الكثيرة التى يحتوى عليها.. ولذا فلا ينبغى اعتبار لفظ «التوراة» إلا بالمعنى المجازى فقط وليسهل فهم الأحداث المذكورة.

وأخيراً أتمنى أن أكون قد وفقت فى نقل هذه الصورة عن طريقة تكفير اليهود بشكل عام، لأضعها بين القارئ العزيز، ولم آل جهداً فى ترجمة النص بآمانة؛ لكننى فى كل الأحوال بشر معرض للخطأ.. فإن أصبت فبتوفيق الله وفضله، وإن أخطأت فمن نفسى وحسب أننى ما أردت إلا الخير.

والله من وراء القصد وهو يهدى السبيل



التعريف بمؤلف الكتاب
لويس جنزبرج

عالم تلمودى ومن قادة اليهودية المحافظة. ولد فى ليتوانيا من أسرة فقيه فلنا الذى أثَّر فى تفكيره، وأكمل دراسته الجامعية فى ألمانيا والنمسا عام ١٨٩٨.

هاجر إلى الولايات المتحدة ليقوم بالتدريس فى كلية الاتحاد العبرى ثم انضم إلى هيئة محررى الموسوعة اليهودية القديمة. وتعتبر المقالات التى كتبها لهذه الموسوعة من أهم الدراسات فى هذا المجال. انضم عام ١٩٠٣ إلى كلية اللاهوت اليهودية وظل فى منصبه حتى وفاته.

تنطلق معظم دراسات جنزبرج من القول بأن التاريخ اليهودى والحضارة اليهودية لايمكن فهمها دون معرفة كاملة بالشريعة اليهودية، أى أنه يرى أن هناك تداخلاً بين الشريعة وروح الشعب اليهودى، وهذا هو الموضوع الأساسى فى اليهودية المحافظة. من أهم دراساته الكتاب الحالى «أساطير اليهود» و«حُفَّاظ الشريعة» و«أساطير الكتاب المقدس»، بالإضافة إلى دراساته عن مرحلة الفقهاء (جاء ونيم) وعن التلمود البابلى.

تمهيد
للمـــؤلف

أُطْلِق وصف «الأدب الربانى Rabbinic Litertare» على الأدب اليـهـودى اللاحق لعصور التوراة(1)، واستخدمه هؤلاء الذين رأوا فى يهودية العصور المتأخرة شيئًا مختلفًا عن يهودية التوراة، بل ومناقضًا فى الواقع لها. ويرى هؤلاء أن الشعب اليهودى انتهى ولم يعد له وجود، من اللحظة التى انتهى

(1) معنى الكلام: أن التوراة هى الموجِّهة لبنى إسرائيل من زمن موسى عليه السلام إلى زمان نزع الملك من اليهود. ومن حين نزع الملك من اليهود حتى عصرنا الراهن كان الموجِّه لبنى إسرائيل هم الربانيون والأحبار.

وفى هذا العصر كان لكل ربانى أو حبر مدرسة خاصة به. لذلك كان بنو إسرائيل أحزابا وشيعا. وكل رئيس حزب أو شيعة يُطلق عليه «رَبِّى» بمعنى «سيد» وقد أخذوا هذا اللقب من قول الله عنهم لداود عليه السلام: «أنا قلت إنكم آلهة وبنو العلى كلكم. لكن مثل الناس تموتون» (مز ٨٢) وكان كل «رَبِّى» مختص بمنطقة معينة من الأرض. وكان عدد الأحزاب فى زمن عيسى عليه السلام أربعة ١ ـ شمّاى ٢ ـ هلِّليل ٣ ـ غمالائيل ٤ ـ إسماعيل. وأى فقيه كان يصدر فتوى دينية كان لزاما عليه أن تكون من مذاهب هؤلاء الأربعة، وأن يذكر اسم الربى الذى نطق بها من قبله.

وقد نزل القرآن وهم على هذه الحال من الاختلاف. والله لا يريد من الناس أن يختلفوا لكيلا يتقاتلوا ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ فلذلك قالوا: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا﴾ أى أجعل تعدد المذاهب أمرا باطلا؟ فكيف نعيش فى هذه الحياة الدنيا وقد قسمناها على أنفسنا وكل منا ينفق على طلاب من قسمه ﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ به بنا شر ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ﴾ وهى ملة الإسلام. وإنما سمعنا فى شأنها: أن نبيا سوف يظهر ويُعطى شريعة (تثنية ١٨ : ١٥ ـ ٢٢) ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ۝٧ أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا﴾ والذكر هو القرآن. يستبعدون نزوله على نبى من عشيرة إبراهيم من غير بنى إسرائيل. وإذ هم كلهم عشيرة واحدة فإنه يكون نازلا من بينهم. أى من عشيرتهم أبناء عمومتهم. وقد حدث هذا مع المسيح عيسى =

فيها استقلاله السياسى. وبالنسبة لهم فإن يهودية العصور المتأخرة هى يهودية مدرسة الأحبار التى كان المتعلمون، أو الربانيون Rabbis، هم المتحدثون الرسميون باسمها؛ ويعتبرون أن ما نتج عن هذه المرحلة من اليهودية إنما كان نتاجًا للمدارس الدينية، لا نتاجًا للحياة العملية اليومية. والصورة الخيالية الشعرية - وهى غالبًا عبارة عن رؤى المتنبئين البؤساء - هى البذرة التى كوَّن منها هؤلاء المتعلمون النظام اللاهوتى للربانيين، وكذلك فالقصص الخرافية - أى ما يؤلفه الناس على نحو عفوى - والتى تتخذ شكل الأسطورة المقدسة فى الأدب اليهودى، تسيطر على التفاسير النقدية للربانيين؛ وأُدينت بلا تحفظ باعتبارها أساطير علماء (ربانيين وأحبار).

وكما يرتبط اسم الإنسان به، فإن البشر يرتبطون بأسمائهم. وبالنسبة للإنسان الهمجى البدائى: يكون الاسم جزءً من جوهر الشخص أو الشىء؛ وحتى فى المراحل الأكثر تقدمًا من الثقافة لا يتم تكوين الأحكام دائمًا بالاتساق مع الحقائق كما هى، وإنما إلى حدٍّ ما طبقًا للأسماء التى تطلق على هذه الحقائق. وتقييمنا الحالى «للأدب الرّبانى» هو مثال على ذلك. فإلى جانب تسمية «الربانى»، ورثت العصور المتأخرة من العصور المبكرة رؤية مشوهة للأدب الموصوف بهذه الصفة (أى الربانى). وإلى يومنا هذا، وحتى فيما بين المتعلمين الذين يتناولون تنقيح الأدب الربانى بعقول غير متحيِّزة، فإن الرأى السائد هو أن هذا الأدب هو نتاج خالص لطلاب المدارس الدينية.

ورغم ذلك تبقى حقيقة أن أبرز ملامح الأدب الربانى هى طابعه الشعبى. وبالنسبة لليهود فالمدرسة والبيت ليسا شيئين متناقضين، فهم يدرسون فى بيوتهم ويعيشون فى مدارسهم. وبالمثل فليس هناك طبقة مميزة من المتعلمين، طبقة تعزل نفسها عن المشاركة فى أمور الحياة العملية. وحتى

= ابن مريم عليه السلام فإن العلماء قد سألوه «بأى سلطان تفعل هذا؟ ومن أعطاك هذا السلطان؟» (متى (٢ : ٢٣) كانوا يسألونه من أين جاء بهذه التعاليم الجديدة، وإلى أى مدرسة ينتمى من مدارس الربيين الأربعة المشهورين فى ذاك الوقت. (المحقق)

فى نطاق «الهالاخاه Halakah»، لم يكن الربانيون مشغولين كثيرًا بالمبادئ النظرية للشريعة بقدر انشغالهم بالظواهر الملموسة للوجود اليومى، تلك الظواهر التى حاولوا بدأب الإمساك بها وتشكيلها. وما ينطبق على الهلاكاه، أو الحلقة، ينطبق كذلك أكثر على «الهاجَّاداه Haggadah» والتى هى حكايات شعبية بمعنى أنها تروق للناس أو الشعب، وفى الوقت ذاته من إنتاج الشعب بصفة أساسية. وأن نتحدث عن هاجاداه «التنائيم[1] Tannaim» والأمورائيم Amoraim يعنى أن نبتعد عن الحقيقة بقدر ابتعادنا عنها عندما نتحدث عن أساطير شكسبير وسكوت. فالمؤلفون القدماء (يقصد الربانيين) وإخوانهم المحدثون فى هذه المدرسة على السواء يعملون على تشكيل بذرة من الأساطير التى وجدوها فى متناول أيديهم.

ورأى البعض أن «الهاجَّاداه» لا تحتوى على أية أساطير شعبية، وأنها نتاج أكاديمى مصطنع بحت. وأى نظرة سريعة على الأدب اليهودى شبه الرمزى - وهو أقدم من أدب «الأجّاداه» بقرون عديدة - ستظهر لنا هشاشة هذا الرأى. فالحقائق التاريخية تقطع بأن أحدهما لم يشتق من الآخر.

(١) تنائيم: كلمة آرامية معناها المعلم. وقد أطلقت على العلماء من اليهود الذين خلفوا هلليل وشماى منذ السنة العاشرة بعد المسيح. حتى الانتهاء من تدوين التلمود الذى هو المشنا سنة مائتين ميلادية.

والأموارنيم من اللغة العبرية «آمر» أى قال. وهم العلماء المتخصصون فى تفسير التقاليد الشفاهية المتوارثة عن التنائيم.

والهاجَّاداه: هى القصص

والهالاخاه: هى قوانين تم تجميعها خارج التلمود. وكانوا يستبدلونها بأحكام فى المشناة.

والسافورايم: طبقة القُصَّاص والمذكرين والوعاظ. وهم تلاميذ الأمورايم.

والجمارا: هى فى الغالب تفسير متن المشنا. وفى غير الغالب فيها تجميع لكل ما تفوه به الحكماء عبر القرون.

توسافوت: رجال الإضافات. لما صحح «راشى» نص التلمود فى مواضع كثيرة. اكتملت تفسيراته فى القرن الثانى عشر والثالث عشر على يد مجموعة من العلماء يطلق عليهم اصطلاحا لقب توسافوت. وقد اشتهر منهم أزواج بنات راشى نفسه. (المحقق)

وفى زمن مبكر جداً، رفض الكنيس الأدب الرمزى، والذى كان النص المفضل للقراءة عند الطوائف المنشقة والمسيحيين. ومع ذلك فإن العلاقة الداخلية بينهما (الأدب الرمزى وأدب «الهاجاده») هى من أوثق ما يكون. والاختلاف الوحيد بينهما هو أن الشكل «المدراشى Midrashic» يسود فى «الأَجّاداه»، بينما يسود الأدب الرمزى الشكل النبوءاتى أو الأبوكالبيسى apocalyptic. وهكذا، وبالضرورة، فإن العنصر المشترك بينهما موجود.

والقصص الشعبى أو الفلكور، وكذلك القصص الخرافية والأساطير، وكل أشكال الحكايات المرتبطة بهذه الأشكال الروائية، كلها تندرج ـ وفقًا لاصطلاحات الأدب اليهودى اللاحق على عصور التوراة ـ تحت الوصف الجامع «الأَجّاداه»، ذلك الاسم الذى يمكن شرحه بإطناب، لكن لا يمكن ترجمته.

وأيا كان ما ينطبق عليه هذا الاسم (الهاجاداه) فإنه يتميز أولاً بأنه مشتق من النصوص المقدسة Holy Scripure، ثم ثانيًا بأنه له نفس طبيعة القصص أو الحكايات. وفى الواقع فإن هذه الازدواجية تلخص الملامح المميزة للأساطير اليهودية. ومنذ أكثر من ثمانية عشر قرنا مضت لاحظ المؤرخ اليهودى يوسيفوس* Josephus أنه «رغم أننا حُرمنا من ثرواتنا، أو من مدننا، أو من غيرها من مميزاتنا، فإن شريعتنا لازالت خالدة غير فانية.» واللفظة التى كان يريد يوسيفوس استخدامها لم تكن «الشريعة»، وإنما «التوراة» ولكنه لم يجد مرادفًا لها فى اللغة اليونانية.

وبعد يوسيفوس بألف سنة، عَبَّر منشد مرتل من مرتلى المعابد، وكان يعبر عن مشاعره بالعبرية، عن نفس الفكرة قائلاً: «تم انتهاك حرمة المدينة المقدسة وكل أخواتها من المدن، وها هى ترقد خرابًا، وقد شوهت زخارفها، وغاب بهاؤها عن الأنظار ولم يتبق لنا شىء عدا كنز واحد وحيد.. «التوراة

* يوسف بن ماتيتياهو هاكوهين. سياسى وقائد عسكرى ومؤرخ يهودى من مقاطعة يهودا الرومانية فى العصر الهيلينى. تاريخه مثير للجدل وغير اسمه إلى يوسيفيوس فلافيوس مداهنة للرومان. (المترجم).

المقدسة». وكلما ازدادت حياة الشعب اليهودى بؤسًا، كلما شعر بالحاجة إلى اللجوء لماضيه. والكتاب المقدس The Scripture، أو التوراة حسب التسمية اليهودية، كانت هى الشىء الوحيد المتبقى من استقلال اليهود القومى فى السابق، وكانت «التوراة» هى الوسيلة السحرية لجعل الواقع البائس يتضاءل أمام الذكريات المجيدة. وألقى على عاتق «التوراة» مهمة تغذية العقل، وكذلك الروح، أى الفكر، وكذلك الخيال، وكانت النتيجة هى «الهالاكاه Halakah الأَجّاداه Haggadah».

ولم تنقرض قدرة الناس على الخيال فى عصور ما بعد الكتاب المقدس، لكن كان الماضى قد حدد المنعطف الذى سينعطف فيه هذا الخيال.

كان الناس يتوقون للتسلية فى العصور المتأخرة، وكذلك فى العصور السابقة عليها، ولكن بدلاً من اللجوء إلى ما يحدث أمام أعينهم لاشتقاق مادة هذه التسلية، لجأوا إلى نبع الماضى. وأحداث التاريخ القديم لإسرائيل، والتى لم تكن تدرس وحسب، وإنما يتم معايشتها يوميًا، وهذه الأحداث قد حفزت الرغبة لِنَقْد التاريخ الإسرائيلى القديم. والتأملات الدينية فى الطبيعة. وقد تضمنتهما الخرافات الشعبية، والقصص الخرافية، التى ليس لها من هدف سوى الإمتاع، وكذلك الأساطير، التى هى حكم الناس على التاريخ، كل هذه تم دمجها معًا لتشكل نتاجا واحدًا.

وقد انشغل خيال الشعب اليهودى بالماضى منعكسًا فى «التوراة» ولذا فإن كل إبداعات هذا الخيال تصطبغ بصبغة «التوراة». ويفسر لنا ذلك الشكل المتفرد «للأَجّاداه».

ولكن ما يبدعه الناس بشكل عفوى يظل دائمًا محفوظًا فقط داخل الإطار أو الهيئة التى تفرضها عليه مشاعر وفكر الشاعر، أو تأملات المتعلم. ولذلك نادرًا ما تم نقل الأساطير اليهودية فى شكلها الأصلى. وقد تم تخليدها على

هيئة[1] «المدراش Midrash»، أى تفاسير نصوص «التوراة» ولم يكن معلمو الأَجّاداه ـ ويسميهم التلمود «ربانيِّى الأَجّاداه» ـ من دارسى الأدب الشعبى (الفلكور)، الذين يمكن أن نتوقع منهم نسخة أمينة عن البذرة الأساطيرية. ولكنهم كانوا وعاظا استخدموا الأساطير لأغراض تعليمية، وكان هدفهم الرئيس تأسيس علاقة وثيقة بين النصوص المقدسة وإبداعات الخيال الشعبى، لكى تكتسب هذه الإبداعات قاعدة راسخة وليضمنوا لها حياة طويلة.

ومن أهم مهام التدقيق الحديث فى الهاجّاداه، التمييز الواضح بين العناصر الأساسية والإضافات اللاحقة للمتعلمين عليها. ولا يكاد يكون ذلك قد بُدِئ فيه بعد. لكن طالما لم يتم بَعْدُ إنجاز مهمة التمييز بينهما، فإنه من المستحيل كتابة أساطير اليهود الواردة فى «التوراة» دون إدراج العمل التكميلى الذى قام به المعلمون فى إنتاج الخيال الشعبى.

وفى العمل الحالى، «أساطير اليهود»، قمت بأول محاولة لجمع كل الأساطير اليهودية من المصادر الأصلية، طالما تشير هذه الأساطير إلى شخصيات وأحداث «التوراة»، ثم أعدت نسخها بأقصى ما يمكننى من دقة متناهية، واستخدمت تعبير «اليهودية» بدلاً من «الربانية» Rabbinic، لأن المصادر التى جمعتها منها ليست مقصورة على الأدب الربانى. ولأننى أتوقع أن تتاح لى الفرصة فى مكان آخر لوصف المصادر وصفًا تفصيليًا، فإن البيانات التالية ستفى بالغرض فى الوقت الحالى حتما. وإن أعمال الأدب التلمودى المدراشى لها الأهمية القصوى، وتغطى هذه الأعمال الفترة من القرن الثانى إلى القرن الرابع عشر، وتحتوى على القسم الأكبر من المادة الأسطورية اليهودية.

---

(١) الترجوم: هو الترجمة الآرامية للتوراة.

والقبَّالاه: هو تفسير التوراة بحساب الجمل. مثل تفسير «ماد ماد» باسم «محمد» فإن العدد فى كلٍّ اثنان وتسعون (التكوين ١٧ : ٢٠)

والمدراش: هو اسم المدرسة وجمعها مدراشات. ويطلق على بيت التعليم الدينى مدراش. والمدراش فى الأصل: قطعة شعرية أو نثرية أو شرح آية أو حديث. (المحقق)

ومما له علاقة بهذا من حيث المحتوى، إن لم يكن دائمًا من حيث الشكل، المادة الأسطورية المشتقة من «الترجوميم Targumim»، والتى لم يؤلف أقدم نسخها فيما قبل القرن الرابع، ولا يتجاوز أحدثها القرن العاشر. ولم يحفظ الأدب المدراشى إلا على شكل أجزاء متناثرة. والعديد من «الأجادوت Haggadot» التى لا توجد فى مجموعتنا الحالية نجدها فى شواهد مقتبسة لدى مؤلفى القرون الوسطى. ومن ثم فإن عددًا معتبرًا من الأساطير المطبوعة هنا مأخوذة من شارحى «التوراة» فى العصور الوسطى، ومن وعّاظ تلك العصور. ولقد كان من حسن حظى أن أتيحت لى كذلك أجزاء من «المدراشيم Midrashim» التى لا يوجد منها حاليًا سوى مخطوطات قديمة.

كذلك فإن أعمال «القبّالة Kabbalah» الأقدم هى بالمثل كنوز ثمينة مليئة بالاستشهادات والاقتباسات من نصوص الميدراشيم المفقودة وقد نشأت أساطير جديدة بين «القبّاليين Kabbalists، ثم لاحقًا بين[1] «الحسيديم Has-idim». ولذا فإن الآداب التى تم تأليفها داخل هاتين الدائرتين لها أهميتها الكبرى فيما يخص غرضنا الحالى هنا.

علاوة على ذلك لا يمكن أن نغربل الأساطير اليهودية من كتابات المعابد لأنها تظهر فى هذه الكتابات. فقد قبلت المعابد ورعت أعمالاً يهودية معينة من التى قامت المعابد القديمة برفضها لعدم شرعيتها. وهذا هو الأدب الذى يُطلق عليه عادة «الأدب الرمزى الأبوكريفى[2] أو المزوّر apocryphal pseu-depigraphic[3].

ومن وجهة نظر الأساطير، فإن الأسفار المختلفة لها أهمية ثانوية، بينما الأدب الرمزى له قيمة جوهرية. وحتى من ناحية الكم فإن الأخير يوجد منه

(١) الحسيديم: الأتقياء الورعين من اليهود المتمسكين بتعاليم التوراة. (المحقق)

(٢) أبوكريفا: هى الأسفار المرفوضة من حملة أسفار التوراة. ومنها سبعة أسفار لا يرفضها الأرثوذكس والكاثوليك ويرفضها البروتستانت واليهود السامريون والعبرانيون. (المحقق)

(٣) وبالمناسبة فإن كلمة أبوكريفا apocrypha لاتعنى شيئاً سوى «مخفىٌ» أو مُخَبَّأ، ولكن كما هى عاده اليهود والنصارى فقد حرفوا معنى الكلمة لتصبح «مزور». (المترجم)

كمٍّ مدهش. وإضافة إلى الكتابات الإغريقية لليهود اليونان، فهى تحتوى على مؤلفات لاتينية وسريانية وحبشية وآرامية وعربية وفارسية وسلافية قديمة، وقد تم ترجمتها بشكل مباشر أو غير مباشر من أعمال يهودية ذات أصل فلسطينى أو هيللينيستى (أى يونانى).

ويتطلب استخدام هذه القصص الرمزية قدرًا عظيمًا من الحيطة والحذر. فمعظمها تقريبًا تم تزويقه بإدراجات مسيحية، وفى بعض الحالات خنقت الأجزاء المدرجة الصورة الأصلية بشكل كامل جداً لدرجة أنك لا تستطيع أن تميز من النظرة الأولى إن كنت تبحث فى أسطورة يهودية أو مسيحية. ومع ذلك فأنا أعتقد أن مادة القصص الرمزى التى استخدمتُها هى يهودية دون ذرة من الشك، ولذا فلم يكن من الممكن أن أتجاهلها فى عمل كالذى بين أيدينا الآن.

ومع ذلك فعند محاولة قراءة واستيعاب الأساطير اليهودية، فإن الكتَّاب الربانيين هم الذين يجب أن نعوِّل عليهم، وليس القصص الرمزية، فهؤلاء الكتاب يمثلون التيار الرئيس للفكر والعاطفة اليهودية، أما القصص فلا تمثل سوى تيار ثانوى فقط. فلئن كانت المعابد قد رفضت القصص الرمزية وتبنتها المسيحية فى فاصل استعراضى كبير، فإن موقف كل منهما (المعابد والكنائس) لم يكن مصادفة أو خبط عشواء. فالقصص الرمزية قد نشأت فى دوائر احتضنت البذرة التى تطورت منها المسيحية فيما بعد. ومن ثَمَّ فقد استطاعت المسيحية أن تطوّع هذه القصص باعتبارها خاصة بها، بحجة كافية.

وفى استخدامى لبعض الكتابات الأبوكريفية والقصص الرمزية، وجدتُ أنه من المناسب أن أقتبس من ترجماتها الإنجليزية التى كتبها آخرون، إذا اتَّسقت مع الأسلوب العام للكتاب، ولهذا الغرض فقد رَخَّصْتُ لنفسى حرية إجراء بعض التغييرات اللفظية الطفيفة. أما فيما يخص التفاصيل الصغيرة، فقد استعنت طبعًا بمفهومى الخاص عن الموضوع، وهو الأمر الذى تبرره التعليقات الملحقة بالكتاب، على نحوٍ مفصل.

وبجانب القصص الرمزية هناك مصادر يهودية أخرى فى لباس مسيحى. ففى أدب آباء الكنيسة Church Fathers[(١)] الثرى تكمن العديد من الأساطير اليهودية التى قد يبحث عنها المرء دون جدوى فى الكتب اليهودية. ومن ثم فقد أوليت أقصى اهتمام لاستخدام كتابات آباء الكنيسة، فيما يخص غرضى هنا.

وإن توافر المادة التى ستُعرض هنا توافرًا مبالغًا فيه، قد جعل من المستحيل تنقيح كل أسطورة على نحو مفصل. وسيتطلب ذلك ثلاثة أضعاف المساحة المتاحة لى. ولهذا السبب أستطيع الزعم باكتمال عملى من حيث المحتوى فقط. أما من حيث الشكل فقد كان لزامًا عليه أن يعانى من بعض التهذيب وعندما أجد لدىّ روايات متضاربة عن نفس الأسطورة، فإننى أورد إحداها فقط وأترك الأخرى - أو الأخريات - للتعليقات، أو إذا لزم الأمر أصهرهم جميعًا فى رواية واحدة نمطية، أُحلل أجزاءها فى التعليقات. وفى حالات أخرى ذكرتُ إحدى الروايات فى موضع معين، وذكرت الروايات الأخرى فى أماكنها المناسبة، كتدعيم لغرضى هنا وهو عرض المادة بأسلوب سهل ميسر، وبأقل ما يمكن من مرات مقاطعة التيار السردى العام ولهذا السبب تجنبتُ استخدام عبارات الحَكِى من مثل: «يقول البعض»، «دون أن».. إلخ. ولكى تتميز طريقتى فى العرض بفصل بعض الأشياء المجتمعة أحيانًا ولا يمكن اعتباره عيبًا خطيرًا، إذ أن «الفهرس» الموجود فى نهاية العمل سيعرض إعادة منطقية لترتيب المادة المعروضة، لصالح الطالب المهتم. وأيضا لم أتردد فى تناول نفس الشخصية فى فصول مختلفة، كما فى حالة، العديد من الأساطير المتعلقة بيعقوب، أو تلك المتعلقة بالسنوات الأخيرة من عمر[(٢)] الأب Patriarch، التى لا تظهر فى الفصل الذى يحمل هذا الاسم، ولكنها ستوجد فى الأقسام المخصصة «ليوسف»، وذلك لأنه فى حالة ظهور

(١) مجموعة من الكتاب اللاهوتيين فى القرون الميلادية الأولى من بينهم جيرومى وأمبروزى وأوجستين. (المترجم)

(٢) يقصد بالأب: يعقوب عليه السلام. (المترجم)

الابن على مسرح الأحداث يصبح هو الشخصية المركزية، والتى تصبح حياة وأعمال الأب تابعة لها.

ومرة ثانية: لاعتبارات ضيق المساحة فإن روايات «التوراة» التى تشكل خلفية الأساطير وجب علىّ حذفها. وبالتأكيد فليس ذلك بالحذف الخطير فى موضوع يفترض أن ينتشر العلم به على نطاق واسع بطبيعة الحال.

مرة ثالثة: لكبر حجم المادة المعروضة، وجدتُ أنه من الأفضل تقسيمها لعدة مجلدات.

والإشارات المرجعية، وشرح المصادر المستخدمة، والتأويلات المتاحة، وخصوصًا، تنقيحات نص «المدرشيم» والقصص الرمزية، التى تحدد تصورى للفقرات المنقحة، كل ذلك ستجده فى المجلد الأخير الرابع، الذى سيحتوى أيضا على «مقدمة فى تاريخ الأسطورة اليهودية، مع عدد من الحواشى والتذييلات والفهرس.

وحيث أن المجلدات الثلاثة الأولى تحت الطبع وبكاملها تقريبًا، فلا يسعنى إلا أن أتمنى أن يظهر العمل بكامله فى وقت ليس بالطويل، وأن تتوالى الأجزاء أحدها بعد الآخر فى فواصل زمنية قصيرة.

لويز جينزبرج
نيويورك ٢٤ مارس ١٩٠٩

الفصل الأول

في
خلق العالم

١ ـ أول ما خلق من الأشياء

فى البداية قبل السموات والأرض بألفى عام، خُلقت سبعة أشياء: التوراة وكُتِبَتْ بنار سوداء على نارٍ بيضاء، ورقدت **فى حِجْر الرب**؛ والعرش الإلهى، الذى شُيِّد فى السموات وفيما بعد وُضع على رؤوس «الهايُّوت»؛ والجنة عن يمين الرب، والنار عن شماله، والملأ السماوى أمام الرب مباشرة، وعلى مذبحه جوهرة نُقش عليها اسم «المَسِيًّا»، وصوت يصيح عاليًا: «عودوا إلىّ يا بنى البشر»[١].

(١) يريد الكاتب إبراز أهمية هذه السبعة. لا أنها كلها قد خُلقت. ولكى لا يظن أحد أن التوراة ستكون شريعة إلى يوم القيامة العامة من الأموات، ذكر الكاتب اسم «المَسِيًّا» وهو النبى الأمى الذى سيأتى من بعد موسى عليه السلام لينسخ شريعته ولينزع الملك من اليهود. وهذا المسيا يطلق عليه أيضا «المسيح» وأصل كلمة «مسيح» من المسح بزيت مقدس. ثم استعملت مجازا للدلالة على المصطفى من الله لأداء رسالة مقدسة. وهى تطلق على أى نبى أو عالم أو ملك. فيقال عيسى ابن مريم مسيح وداود مسيح ويوشيًا مسيح وهرون مسيح. ولا يقال عن النبى المنتظر إنه «مسيح» وإنما يقال عنه إنه هو «المسيح» بالألف واللام. ولما حرف اليهود دعوة عيسى عليه السلام أطلقوا عليه زورا لقب « المسيح» ليوهموا العالم أنه هو النبى المنتظر لا محمد رسول الله ﷺ وفى القرآن الكريم أن عيسى مسيح ولكن ليس هو المسيح. ذلك قوله تعالى: ﴿اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ فاسمه مبتدأ. وخبره جملة المسيح عيسى ابن مريم ولم يقل المسيح المنتظر هو عيسى ابن مريم؛ وأيضا ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ﴾ ما شأن هذا الذى يُعرف بالمسيح عيسى ابن مريم؟ شأنه رسول الله. فرسول الله خبر للمبتدأ الذى هو المسيح عيسى ابن مريم. وقال ﴿لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ﴾ المنتظر الذى هو محمد رسول الله ﴿أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ منه أى أتباعه وأنصاره الشبيهين بالملائكة فى الطهر والصلاح =

وعندما استقر عزم الله على خلق العالم، **استشار التوراة**. وكانت نصيحتها كالتالى: «يا إلهى، إن مَلِكًا دون جيش ودون حاشية وجلساء لايكاد يستحق اسم الملك، إذ ليس هناك من يعبِّر عن التعظيم الواجب له» وسُرَّ الرب بالإجابة سرورًا عظيمًا. وهكذا علَّم كل الملوك الأرضيين، بقدوته الإلهية، ألا يقوموا بشىء قبل أن يستشيروا الناصحين أولاً.

قدَّمت التوراة نصيحتها مع بعض التحفظات. فقد كانت تشك فى قيمة العالم الأرضى، مع الخطيئة المترسخة فى طباع البشر، الذين كانت على يقين من أنهم لن يراعوا أحكامها. لكن الرب بدَّد شكوكها، وأخبرها أن التوبة قد خُلقت قبل ذلك بوقتٍ طويل، وستتاح الفرصة للخطاة بأن يُقوِّموا طرقهم. وبالإضافة إلى ذلك، فإن خدمة «الهيكل» سوف تمنح القوة على تكفير الذنوب، وأن الجنة والنار إنما قُصِد منهما أن يقوما بوظيفة الثواب والعقاب. وأخيرا فإن «المسيا» قد عُيِّن ليأتى بالخلاص، الذى سيُنهى واقع شقاء البشر.(1) وليس هذا العالم الذى يسكنه الإنسان هو أول الأشياء

= ولهذا الذى ذكرته جاء فى الكتب أن محمدا أول خلق الله. ولم يقولوا محمدا وإنما قالوا «المسيا» ومؤلف هذا الكتاب سوف تكرر الكلام عن «المسيا». (المحقق)

وقوله «على مذبحه» يعنى به الكعبة المعظمة فى مكة المكرمة. فإنها بلغة التوراة تسمى «المذبح» وقد أسسه نوح عليه السلام من بعد الطوفان وأصعد عليه محرقات وقرابين طاهرة. (المحقق)

(1) شقاء الجنس البشرى. لا يرفعه عنهم إلا عملهم بشريعة محمد ﷺ المعبر عنه هنا بالمسيا. والصوت الذى يصيح عاليا داعيا العالم إلى العودة إلى الله يعنى بالعودة عودتهم بعملهم بشريعة المسيا. وإلا فلماذا يصيح والتوراة مخلوقة؟ وفى الكتب أن الأرض ستبدل غير الأرض وستبدل السموات غير السموات إذا ظهر المسيا. يعنون بذلك: أن قوانين التوراة ستتغير وسيحل محلها قوانين القرآن. وعادات أهل الأرض التى كانت على وفق التوراة ستبدل بعادات على وفق القرآن.

وفى إنجيل برنابا عن عصيان آدم وحواء مثل ما فى التلمود وأساطير اليهود هذه. ومن كلام المسيح فى هذا الشأن: «ثم قال الله لآدم وحواء اللذين كانا ينتحبان: اخرجا من الجنة وجاهدا أبدانكما ولا يضعف رجاؤكما لأنى أرسل ابنكما على كيفية يمكن بها لذريتكما أن ترفع سلطة الشيطان عن الجنس البشرى؛ لأنى سأعطى رسولى الذى سيأتى كل شىء.

فاحتجب الله وطردهما الملاك ميخائيل من الفردوس. فلما التفت آدم رأى مكتوبا فوق الباب: لا إله إلا الله محمد رسول الله. فبكى عند ذلك وقال: أيها الابن عسى الله أن يريد أن تأتى سريعا وتخلصنا من هذا الشقاء»

إلى أن قال: «فاعترف يسوع وقال: الحق أنى لست مسيا... إلخ» (برنابا ٤١ و٤٢) (المحقق)

الأرضية التى خلقها الرب؛ فقد صنع عوالم عديدة قبل عالمنا، لكنه أفناها جميعًا، لأنه لم يرض عن أىٍّ منها إلى أن خلق عالمنا. وحتى هذا العالم الأخير ما كان ليتمتع بالدوام، إذا كان الرب قد نفذ خطته الأصلية فى حكمه، وفقًا لمبادىء العدالة الصارمة. وعندما رأى أن العدالة وحدها ستُفنى العالم، ربط الرحمة بالعدالة وجعلهما يحكمان مشتركين.

وهكذا، منذ بداية كل الأشياء، ساد الخير الإلهى، الذى بدونه ما كان لشىء أن يستطيع مواصلة الوجود. ولولا (الخير الإلهى) لكانت جحافل الشياطين قد أسرعت بوضع نهاية أجيال البشر. ولكن شاءت رحمة الرب أنه فى كل شهر نيسان، وفى وقت الاعتدال الربيعى، يقترب السيرافيم[١] من عالم الشياطين ويبث فى قلوبها الرعب، فيرتدعوا عن إيذاء البشر. وأيضا: إن لم يكن الرب قد وضع رحمته على الضعفاء، لكانت الحيوانات المفترسة قد قضت على الحيوانات المستأنسة منذ زمن طويل.

وفى شهر تموز، وقت التطرف الصيفى، عندما تكون قوة البهائم عند ذروتها، يزأر عاليا لدرجة أن كل الحيوانات تسمعه، وتبقى خائفة مذعورة طوال عام كامل، وتصبح أفعالها أقل وحشية عن طباعها. وأيضا: فى «تِشرى»، فى زمن الاعتدال الخريفى يخفق الطائر العظيم زيز بجناحيه ويطلقَ صيحته ولذا فإن الطيور الجارحة والنسور والعُقاب تفرّ مذعورة وتخشى الانقضاض على الطيور الأخرى والتهامها فى جشع. وأيضا لولا رحمة الله، لكان عددا كثيرا جدا من الأسماك الكبيرة قد أسرع بالقضاء على الأسماك الصغيرة. لكن فى وقت التطرف الشتوى، فى شهر تِبتَ يصبح البحر هائجًا، إذ يَزفَرُ وحش الليفياثيان بالماء عاليًا، ويصبح السمكَ الكبير قلقًا. فيقيد شهواته، وبذلك ينجو السمك الصغير من شراهته.

---

(١) فى الأصحاح السادس من سفر إشعياء:

«فى سنة وفاة عزّيا الملك رأيت السيد جالسا على كرسى عال، ومرتفع. وأذياله تملأ الهيكل. السرافيم واقفون فوق لكل واحد ستة أجنحة. باثنتين يغطى وجهه وباثنتين يغطى رجليه وباثنتين يطير. وهذا نادى ذاك وقال: قدوس قدوس قدوس رب الجنود. مجده ملء كل الأرض... إلخ» (إش ٦: ١ +)

وأخيرًا تتجَلّى رحمة الرب فى الحفاظ على شعبه إسرائيل. فما كان له أن ينجو من عداوة الأغيار[١]، لو لم يكن الرب قد قيَّض له حماة، هم الملكين ميكائيل وجبرائيل. وكلما يعصى شعب إسرائيل الرب، وتتهمه ملائكة الشعوب الأخرى بسوء التصرف؛ يدافع عنه حارساه المخصصان له، وتكون النتيجة الطيبة لذلك أن تخافهما الملائكة الأخرى. وعندما تخاف ملائكة الشعوب الأخرى، فإن هذه الشعوب نفسها لا تجرؤ على تنفيذ مؤامراتها ضد (شعب) إسرائيل.

ولأن رحمة الرب هى الحاكمة على الأرض كما فى السماء؛ يخصص لملائكة الإفناء مكانًا فى أقصى طرف السموات لا يتحركون منه أبدًا، بينما تحيط ملائكة الرحمة بعرش الرب، تحت قيادته.

ب ـ الحروف الأبجدية

عندما كان االرب على وشك أن يخلق العالم بكلمته، هبطت حروف الهجاء الاثنان والعشرون من تاج الرب المهيب والجليل، حيث كانت منقوشة بقلم من النار المستعرة. ووقفت حول الرب فى دائرة وتحدثت واحدة بعد الأخرى.كلٌّ تناشده قائلة: «اخلق العالم من خلالى».

وكان أول حرف يتقدم هو حرف الطيت الذى قال: «يارب العالم. فلتكن مشيئتك أن تخلق عالمك من خِلالى وأنا أرى أنك ومن خلالى ستُعطِى التوراة إلى بنى إسرائيل بيد موسى، كما هو مكتوب: «موسى سيعطينا التوراة». وأجاب الرب تعالى؛ قائلاً: «لا» سأله «الطيت»: «ولم لا؟» وأجابه الرب: «لأنه فى مستقبل الأيام سأضعك علامةً على الموت على جباه البشر» وما إن سمع الطيت هذه الكلمات تخرج من فم الرب تعالى حتى تقهقر خائب الرجاء.

ثم تقدم الشين وتوسل قائلاً: «يارب العالم، اخلق عالمك من خلالى: وأنا أرى اسمك شادَّاى يَبْدأ بى» ولسوء الحظ فإنه الحرف الأول من شاد أى

(١) الأغيار: الأمم غير اليهودية التى لم تدخل مع اليهود فى شريعة التوراة. (المحقق)

الكذب، ومن شيكير أى الزيف، وهذا قد خيَّب مسعاه.

ولم يكن ريش أسعد حظاً. وأشير إلى أنه الحرف الأول من راع[1]، أى الخُبث، ورَشَاع، أى الشّر، وبعد ذلك انعدم كل أثر لما كان يتميز به من كونه الحرف الأول من اسم الرب «راحوم» أى الرحيم. ورُفِضَ القوف، لأن القِلاَلَة - أى اللعنة - تفوق ميزة أنه الحرف الأول من قادوش، أى القدوس - سبحانه وتعالى.

وعبثا حاول تصاديه جذب الانتباه إلى صديق، أى الصدِّيق؛ فهناك «صاروت»، محنة إسرائيل، لتشهد ضده.

وكان للبى كلمة بوديه، المخلِّص، فى صالحه، لكن بيشا، التجاوز، قد أخزته. وأعلنت أن العَيِّن غير مناسب؛ لأنه وإن كان يبدأ كلمة عناواه، التواضع، فإنه يبدأ كذلك كلمة عِرْواه، أى الفحش.

وقال سامِخْ: «يارب، فلتبدأ الخليقة من خلالى، لأنك سُمِّيت سامخ، على اسمى، المؤيد لكل ما يسقط» لكن الرب قال: «إنك مطلوب حيث أنت؛ فيجب أن تستمر فى تأييد كل ما يقع».

وتبدأ النون كلمة نير «مصباح الرب» الذى هو «روح البشر»، لكنه يبدأ كذلك «نير»، «مصباح الأشرار» الذى سيطفئه الرب.

ويبدأ ميم كلمة ميليك، الملك، أحد أسماء الرب. لأنه الحرف الأول من ميموها، أى الارتباك، كذلك، فلم تتح له فرصة تحقيق رغبته.

وحمل توسل لاميد أسباب رفضه فى داخله، فقد تباهى بأنه الحرف الأول من لوهوت، أى الموائد السماوية للوصايا العشر؛ لكنه نسى أن موسى قد حطم هذه الموائد.

وكان كاف واثقًا من فوزه إذ تبدأ كيسيه، عرش الرب، وكابود، شرفه، وكيتير، تاجه، كلها به. واضطر الرب لتذكيره بأنه سيضرب كفيه، «كَفْ»، كفًا بكف حزنًا على مِحَن إسرائيل.

(١) الحروف الأبجدية العبرانية هى:

أليف - بيت - جيمل - داليت - هيه - فاف - زاين - حيت - طيت - يود - كاف - لاميد - ميم - نون - سامخ - عاين - فيه تصاديه - قوف - ريش - شين - سين - تاف. (المحقق)

وبدا اليود من النظرة الأولى الحرف المناسب لبدء الخليقة وذلك لارتباطه بلفظة يهوه، أى الرب، لولا أن كلمة يزيرها راع، أى النزعة الشريرة، تبدأ به هى أيضا.

وارتبط الطيت بكلمة طوب، أى الخير. ومع ذلك فإن الخير الحقيقى ليس فى هذا العالم، وإنما فى الدار الآخرة.

حيت هو الحرف الأول من حنون، أى الحنَّان، لكن نفى هذه الميزة مكانه فى كلمة الخطيئة، حتات.

ويُوحى الزَّاين بكلمة زاكور، أى التذكر، لكنها هى نفسها الكلمة المستخدمة للسلاح، فاعل الشر.

ويكوِّن واو مع هى اسم الرب الذى لا يمكن التعبير عنه ـ يهوه ـ ولذا فهما عاليا المكانة لدرجة لا تسمح بقهرهما على خدمة هذا العالم المنحط. ولو كان الداليت فى كلمة واد لا يستخدم إلا فى كلمة دابار، أى الكلمة الإلهية، لكان قد استخدم، لكنه يرمز أيضًا إلى دِينَ، أى العدل، ولو تم حكم العالم بدون الحب لكان قد تحوَّل إلى خراب.

وأخيرًا. ومع أنه يذكِّرنا بكلمة جادول، أى العظيم، فإن الجيمل لن ينفع، لأن جيمول، أى «العقاب» يبدأ بها.

وبعد أن رفضت مزاعم كل هذه الحروف تقدم البيت أمامه ـ تعالى ـ وتوسل إليه قائلاً: «يارب العالم، لتكن مشيئتك أن تخلق عالمك من خلالى، وأنا أرى أن كل قاطنى هذا العالم يسبحون بحمدك يوميًّا من خلالى، إذ يُقال: «تبارك الرب[1] للأبد، آمين آمين. وفى الحال وافق تعالى على التماس

---

(١) يدعى كثيرون من الناس أن أهل فارس زمن محمد ﷺ كانوا يعبدون النيران، ولا يعبدون الله عز وجل. والحق: أنهم كانوا على شريعة التوراة ويكذب دعواهم هذه: أن «نَبُوخَذْ ناصَّر» ملك بابل اعترف بالله ووصفه بالعلىّ، ووصف دانيال ورفاقه بأنهم عبيد الله العلى. وقال بصريح العبارة: «تبارك إله شدرخ وميشخ وعبد نغو» وقال إنه ليس إله آخر يقدر على نجاة عبيده من أعدائهم. وأهل فارس فى زمن محمد ﷺ كانوا يهودا ونصارى ومسيحيين وصابئين ـ الذين =

بيت. وقال: «بورك من يجىء باسم الرب»[1] وخلق عالمه من خلال «البيت»، كما يقال: «بيرايشيت، الرب خلق السموات والأرض».

وكان الحرف الوحيد الذى أحجم عن التوسل هو أليف الرزين، وقد كافأه الله فيما بعد على تواضعه بأن منحه المقام الأول فى الوصايا العشر.

جـ ـ اليوم الأول

فى أول أيام الخليقة أبدع الرب عشرة أشياء: السموات والأرض، وتوهو وبوهو، النور والظلام، والريح والماء، مدة النهار ومدة الليل.

ورغم أن السموات والأرض تتكون من عناصر مختلفة تمامًا، فإنهن خلقن مع ذلك كوحدة واحدة، «مثل الحَلَّة وغطائها». وقد صيغت السموات من نور لباس الرب، والأرض من الجليد الذى تحت العرش الإلهى. وتوهو هو شريط أخضر يغلِّف العالم كله، ويشتت الظلام ويتكون بوهو من حجارة فى الهاوية، وهى التى تنتج المياه. والضوء الذى خلق فى البداية ليس هو نفسه الضوء الذى تبثه الشمس والقمر والنجوم، والذى لم يظهر إلا فى اليوم الرابع. وقد كان ضوء اليوم الأول من نوع سيمكِّن البشر من رؤية العالم من أقصاه إلى أقصاه بنظرة واحدة. ومتنبئًا بشرّ أجيال الخطيئة أيام

= هم أتباع نبى الله يحيى عليه السلام ـ وعبارة نبوخذ ناصر «تبارك الله» هى نفسها عبارة المؤلف «تبارك الله» ولا توجد فى التوراة تبارك الله إلا مرة واحدة. وهذا هو النص: «ثم اقترب نبوخذ نصّر إلى باب أتون النار المتقدة، وأجاب فقال: يا شدرخ وميشخ وعبد نغو، يا عبيد الله العلىّ. اخرجوا وتعالوا. فخرج شدرخ وميشخ وعبد نغو من وسط النار. فاجتمعت المرازبة والشحن والولاة ومشيرو الملك ورأوا هؤلاء الرجال الذين لم تكن للنار قوة على أجسامهم. وشعرة من رءوسهم لم تحترق. وسراويلهم لم تتغير. ورائحة النار لم تأت إليهم. فأجاب نبوخذ نصر وقال: تبارك إله شدرخ وميشخ وعبد نغو الذى أرسل ملاكه وأنقذ عبيده الذين اتكلوا عليه، وغيروا كلمة الملك وأسلموا أجسادهم لكيلا يعبدوا ويسجدو لإله غير إلههم. فمن هنا صدر أمر بأن كل شعب وأمة ولسان يتكلمون بالسوء على إله شدرخ وميشخ وعبد نغو؛ فإنهم يصيرون إربا إربا، وتُجعل بيوتهم مزبلة. إذ ليس إله آخر يستطيع أن ينجى هكذا .. إلخ» (دانيال ٣ : ٢٦ +) (المحقق)

(١) الآية تحتمل مجىء محمد ﷺ وذلك لأن داود عليه السلام فى المزمور المائة والثامن عشر يقول: «مبارك الآتى باسم الرب» ولأن المسيح عيسى عليه السلام فى الأصحاح الحادى والعشرين من إنجيل متى قال نفس الآية. (المحقق)

الطوفان وصَرْح بابل؛ والذين لم يكونوا ليستحقوا بركة مثل هذا الضوء، قد أخفاه الرب، لكنه سيظهر فى الدار الآخرة[١] للمؤمنين بكل سنائه المتجدد.

وقد خُلقت سماوات عديدة، سبع فى الواقع، وكلٌّ منها ليخدم غرضًا خاصًا به. الأولى، وهى الظاهرة للإنسان، ليس لها من وظيفة سوى تغطية الضوء أثناء الليل؛ ولذا فهى تختفى كل صباح. وثُبِّتَتْ الكواكب فى السماء الثانية؛ وفى الثالثة صنع « المَنُّ» للمتقين فى الآخرة؛ وتحتوى الرابعة على «أورشليم» السماوية، مع الهيكل حيث يرأسها ميكائيل ككاهن أكبر، ويقدم أرواح المتقين كقرابين. وفى السماء الخامسة يقيم ضيوف الملك، ويسبحون بحمد الرب، ولكن فى الليل فقط. إذ أنه فى النهار تكون مهمة إسرائيل أن يسبح للرب فى عليائه. والسماء السادسة هى بقعة غامضة؛ إذ هناك تنشأ معظم الابتلاءات والرؤى المقدرة للأرض ولسكانها ويتكوم الجليد هناك أكوامًا وكذلك البَرَدُ؛ وهناك أروقة ملأى بالندى السام، وحوانيت معبأة بالعواصف، وأقبية تحوى خزينًا من الدخان. وتفصل هذه الغرف السماوية أبواب من النار، وهذه الغرف يشرف عليها ميتاترون، من كبار الملائكة. وقد أزعجت محتوياتها الفتاكة السموات حتى زمان داوود. وقد دعا هذا المَلِكُ التقىُّ الرب أن يُطهر مسكنه السامى من كل ما يفيض بالشر؛ فلم يكن من اللائق أن تتواجد أشياء كهذه بالقرب من الرحمن. وفى هذا الوقت يتم التخلص منها إلى الأرض. ومن ناحية أخرى لا تحتوى السماء السابعة إلا على كل ما هو خيِّر وجميل: الحق والعدل والرحمة، ومخازن الحياة والسلام والبركة، وأرواح المتقين، وأرواح وأنفس الأجيال التى لم تولد، والندى الذى سيحيى به الرب الموتى يومَ البعث، وفوق كل شىء العرش الإلهى، يحيط به السيرافيم و«الشاروبيم»[٢] و«الهايوت» المقدس، والملائكة الموكلين.

---

(١) هذا رد على من يقول: إن التوراة خلت عن ذكر البعث من الأموات والجنة والنار. وفى التوراة آيات كثيرة على البعث منها: «لتمت نفسى موت الأبرار ولتكن آخرتى كآخرتهم» (راجع كتاب حياة القبور بين المسلمين وأهل الكتاب). (المحقق)

(٢) يمكن أن تنطق الأوفانيم. (المحقق)

وكما خلق الرب سبع سموات، خلق سبع أرضين، يفصل كلاً منها عن الأخرى خمس طبقات. وفوق الأرض السفلى، وهى السابعة، وتسمى إيرتس، يرقد بالتتابع الهوة والتوهو والبوهو وبحر ومياه ثم نصل إلى الأرض السادسة، الآدماه، وهى مسرح جلال الله. وبنفس الطريقة تنفصل «الآدماه» عن الأرض الخامسة الآركا التى تحتوى على جهنم وشعارى ماوت وشعارى زالماوت وبيرشاحات وتيت هاياوين وآبادُّن وشيؤل، وهناك يحرس أرواح الأشرار ملائكة العذاب. وبنفس الطريقة يتبع «أركا» الهاراباه، أى الجافة، وهى موضع الجداول والأنهار، رغم اسمها، كما أن الأرض التالية، وهى يابَّاشاه، أى البَرّ الرئيس، تحتوى على الأنهار الكبيرة واليانبيع. وتيبيل، الأرض الثانية، هى البر الرئيس الذى تسكنه مخلوقات حية هي ثلاثمائة وخمس وستون فصيلة، كلها مختلف بالنوع عن فصائل أرضنا التى نعيش عليها. وبعضها (أى الفصائل) لها رءوس بشر على أجساد أسد أو حية أو ثور، وأخرى لها أجساد بشر يعلوها رأس أحد هذه الحيوانات وبجانب ذلك، يسكن «تيبيل» بشر لكل منهم رأسان وأربع أيدٍ وأرجل، وفى الواقع كل أعضائهم اثنين اثنين فيما عدا الجذوع فقط. ويحدث أحيانًا أن تتشاجر أعضاء هؤلاء الأشخاص الذين هم مثنى مثنى، وخصوصًا أثناء الأكل والشرب، إذ يحاول كل منها أن يستأثر لنفسه بأفضل وأكبر الأكلات. ويتميز هذا النوع من البشر بتقواه الكبيرة، وهو اختلاف آخر بينهم وبين قاطنى أرضنا.

وتسمى أرضنا هيليد، ومثلها مثل الأخريات، يفصلها عن «تيبيل» هاوية. وتوهو. وبوهو. وبحر. ومياه.

وهكذا ترتفع أرض فوق الأخرى، من الأولى إلى السابعة، وفوق الأرض السابعة تتكوَّرُ السموات، من الأولى إلى السابعة، وآخرهن موصولة بيد الرب. وتكوِّن السموات السبع وحدة واحدة، وتكوِّن الأنواع السبعة للأرض وحدة واحدة، كما أن السموات والأرض تكوِّنان وحدة واحدة.

وعندما صنع الرب سمواتنا الحالية وأرضنا الحالية، ظهرت للوجود

كذلك «السموات الجديدة والأرض الجديدة» وكذلك العوالم المائة وستة وتسعون ألفًا التى خلقها الرب إلى مجده الخاص.

ويستغرق السير من الأرض إلى السموات خمسمائة عام، ومن طرف أى سماء إلى طرفها الآخر، وكذلك من سماء إلى التالية، كما يُستغرق نفس المدة الزمنية للسفر من الشرق إلى الغرب، أو من الجنوب إلى الشمال. ومن كل هذا العالم الشاسع ثلثه فقط مسكون، والثلثان الآخران مقسمان بالتساوى بين الماء والأراضى الصحراوية الجدباء.

وفيما وراء الأجزاء المسكونة إلى الشرق توجد الجنة بأقسامها السبعة، وكل منها مخصص لدرجة من درجات المتقين. ويقع المحيط إلى الغرب، وتتناثر فيه جُزُرٌ على جُزُر، يسكنها كثير من الناس المختلفين. وفيما وراءه هو الآخر، توجد الدركات التى لا تنتهى والملأى بالحيَّات والعقارب وكذلك المهجور من كل نوع من الخضرة، سواء كان أعشابًا أو أشجارًا. وإلى الشمال توجد مخازن إمدادات نار الجحيم والجليد والبَرَد والدخان والثلج والظلام والعواصف، وفى ذلك الجوار (توجد) كل أنواع الشياطين والعفاريت والأرواح الخبيثة. ومسكنها عبارة عن رقعة عظيمة من الأرض، يستغرق عبورها من طرف إلى طرف خمسمائة عام. وفيما وراء ذلك يقع الجحيم. إلى الجنوب تقع الغرفة التى تحتوى على مخازن النار، وكهف الدخان، وفرن الرعود والأعاصير.

ومن هنا فإن الرياح التى تهبُّ من الجنوب تحمل الحرارة والاختناق إلى الأرض. ولولا المَلَكُ بنْ نيز، المَلَك المجنح، الذى يَردُّ الرياح الجنوبية بأجنحته، لاحترق العالم. وبجانب ذلك، فإن أُوار سعيره تلطفه الرياح الشمالية، التى تبدو دائمًا كملطِّف لما قد تحمله الرياح الأخرى.

وفى الشرق والغرب والجنوب تتلامس السماء والأرض، لكن الشمال تركه الرب غير مكتملٍ لكى يتولى من يزعم أنه إله مهمة إكمال النقص،

ويظل مدانًا باعتباره مدعيًّا (للألوهية).

وبدأ تكوين الأرض من المركز[1]، وكان حَجَر أساسها المعبد، إبنْ شيتياه، إذ أن الأرض المقدسة عند نقطة مركز سطح الأرض، وأورشليم عند مركز فلسطين، والمعبد موضوع فى مركز المدينة المقدسة. وفى الحرم نفسه فإن الهيكل هو المركز، يحتل التابوب المقدس مركز الهيكل، الذى بنى على حجر الأساس، الذى هو بهذه الطريقة فى مركز الأرض. ومن هناك انبعث أول شعاع ضوء واخترق الأرض المقدسة، ومن هناك يضىء الأرض كلها.

ومع ذلك فلم يحدث خلق العالم إلا بعد أن طرد الرب حاكم الظلام بقوله: «تقهقر» هكذا قال الرب له: «لأننى أرغب فى خلق العالم بواسطة النور» وحالا بعد أن صنع النور، نشأ الظلام، فالنور يحكم فى السماء، والظلام على الأرض.

---

(١) قوله وبدأ تكوين الأرض من المركز. وكان حجر أساسها المعبد. إذ أن الأرض المقدسة عند نقطة مركز سطح الأرض، والمعبد موضوع فى مركز المدينة المقدسة. وفى الحرم نفسه؛ فإن الهيكل هو المركز... الخ» قوله هذا يستدل به العلماء على أن المدينة المقدسة هى «مكة المكرمة» وأنها فى وسط الأرض. والمعبد الذى هو الكعبة المعظمة فى مركز مكة المكرمة. وذلك لأن مدينة «أورشليم» ليست هى المدينة المقدسة؛ فقد مات موسى عليه السلام والحج إلى مكة. بدليل أن داود فى مزاميره كتب مناسك الحج إلى الكعبة وسماها «بكة» فى المزمور الرابع والثمانين، والثانى والأربعين.. إلخ.

و«مكة» فيها جبل الرب. وليس من جبل للرب فى غيرها من المدن. وعلى جبل الرب قدم إبراهيم ابنه الوحيد قربانا لله عند مكان السجود الذى هو مكان الحج. وحزقيال النبى وصف الكعبة وبئر زمزم وقال إنها فى أرض الجنوب. ومن المعلوم للناس جميعا أن مكة جنوب فلسطين. وقال المسيح فى إنجيل برنابا إن محمدا سيظهر من أرض الجنوب. وفى التوراة أن بئر زمزم تعرف ببئر الحى الرائى وترجمته العبرانية «يَهْوه يرْأه» وكانت سارة أم إسحق تسكن عند بئر «يهوه يرأه» ولما ماتت سكن فى خبائها إسحق ابنها مع «رفقة» زوجته.

وهذه نصوص من سفر حزقيال:

١ - «ووضعنى على جبل عال جدا. عليه كبناء مدينة من جهة الجنوب»

٢ - «وعند خروج الرجل نحو المشرق والخيط بيده قاس ألف ذراع، وعبرنى فى المياه. والمياه إلى الكعبين...إلخ»

٣ - «واسم المدينة من ذلك اليوم يَهْوه شَمَّه» أى الرب هنالك. (المحقق)

ولم تتجلَّ قدرة الرب فى خلق عالم الأشياء فقط، ولكن أيضًا فى القيود التى فرضها على كلٍّ منها. وقد امتدت السموات والأرض طولاً وعرضًا، وكان كل منها يطمح إلى ما لانهاية، وكان وقف زحفها يتطلّب كلمة الرب.

د ـ اليوم الثانى

فى اليوم الثانى أبدع الرب أربعة أشياء: الفلك والجحيم والنار والملائكة.

والفلك ليس هو نفسه سموات اليوم الأول. إنه البللورة التى تمتد فوق رءوس الهايُّوت، التى تستمد منها السموات نورها، كما تستمد الأرض نورها من الشمس. وهذا الفلك يحمى الأرض من أن تبتلعها مياه السموات؛ وهو يشكل الفاصل بين المياه فوق والمياه تحت. وقد تبللورت إلى البللورة التى هى عليها بواسطة النار السماوية، التى حطمت قيودها، وكشفت سطح الفلك. وهكذا صنعت النار حاجزًا بين السماوى والأرضى فى وقت الخلق، كما فعلت عند الوحى على جبل سيناء. ولا يتجاوز سمك الفلك ثلاثة أصابع، ومع ذلك فهو يفصل جرمين ثقيلين كالمياه التى بأسفل، وهى أساسات العالم السفلى، والمياه التى فوق، وهى أساسات السموات السبع والعرش الإلهى، وسكنى الملائكة.

وكان فصل المياه إلى مياه علوية وأخرى سفلية هو الفعل الوحيد من نوعه للرب فيما له علاقة بعملية الخلق. فكل الأفعال الأخرى كانت توحيدية. ولذا فقد مثَّل بعض الصعوبة. وعندما أمر الرب قائلاً: «لتجتمع المياه معًا، فى مكان واحد، ولتظهر الأرض الجافة» رفضت بعض الأجزاء أن تطيعه، واقتربت من بعضها البعض أكثر وأكثر. وفى غضبه على المياه، عزم الرب على أن يترك كل الخليقة تنحدر إلى الفوضى مرة أخرى، واستدعى مَلَكَ الوَجْهِ وأمره أن يهلك العالم.

وفتح الملك عينيه وتدحرجت منهما نيران مستعرة، وسحابات كثيفة وهو يصيح قائلاً: «يامن فرّق البحر الأحمر أشتاتًا!»، ووقفت المياه العاصية. ومع

ذلك فقد كان الكل فى خطر الهلاك. ثم بدأ المنشد بحمد الرب يقول: «يارب العالمين، فى مستقبل الأيام ستسبِّح مخلوقاتك بحمدك إلى الأبد ويسبحونك بغير قيود، وسيمجدونك بغير حساب. وستصطفى إبراهيم من الخلائق خليلاً لك، وستقول على أحد أبنائه: «ابنى البكر»؛ وسيحمل ذريته نير مملكتك على عواتقهم. وفى القداسة والطهر ستنعم عليهم بتوراتك، مع الكلمات: «أنا الرب إلهكم» وعندها يجيبونك قائلين: «كل[1] ما تكلم به الرب؛ فإياه نفعل» وأنا الآن أتوسل إليك، لترحم العالم، ولا تهلكه فلو أنك

(١) النص:

١ - «حينئذ قال الله: «لا تخف بل انهض؛ لأنى اصطفيتك عبدا لى، وإنى أريد أن أباركك، وأجعلك شعبا عظيما. فاخرج إذًا من بيت أبيك وأهلك وتعال اسكن فى الأرض التى أعطيكها أنت ونسلك...»

٢ - «يا معلم قل لنا بمن صُنع هذا العهد؟ فإن اليهود يقولون بإسحق. والإسماعيليون يقولون بإسماعيل. أجاب يسوع: ابن من كان داود؟ ومن أى ذرية؟ أجاب يعقوب: من إسحق كان أبا يعقوب. ويعقوب كان أبا يهوذا الذى من ذريته داود. فحينئذ قال يسوع: ومتى جاء رسول الله فمن نسل من يكون؟ أجاب التلاميذ: من داود. فأجاب يسوع: لا تغشوا أنفسكم؛ لأن داود يدعوه فى الروح ربا قائلا هكذا: «قال الله لربى: اجلس عن يمينى حتى أجعل أعداءك موطئا لقدميك. يرسل الرب قضيبك الذى سيكون ذا سلطان فى وسط أعدائك» فإذا كان رسول الله الذى تسمونه مَسِيّا ابن داود؛ كيف يسميه داود ربا؟ صدقونى لأنى أقول لكم الحق: إن العهد صُنع بإسماعيل لا بإسحق.

حينئذ قال التلاميذ: يا معلم هكذا كتب فى كتاب موسى إن العهد صنع بإسحق. أجاب يسوع متأوها: هذا هو المكتوب. ولكن موسى لم يكتبه ولا يشوع، بل أحبارنا الذين لا يخافون الله. الحق أقول لكم: إنكم إذا أعملتم النظر فى كلام الملاك جبريل تعلمون خبث كتبتنا وفقهائنا؛ لأن الملاك قال: يا إبراهيم سيعلم العالم كله كيف يحبك الله؟ ولكن كيف يعلم العالم محبتك لله؟ حقا يجب عليك أن تفعل شيئا لأجل محبة الله. أجاب إبراهيم: ها هو عبد الله مستعد أن يفعل كل ما يريد الله. فكلم الله حينئذ إبراهيم قائلا: خذ ابنك بكرك إسماعيل، واصعد الجبل لتقدمه ذبيحة. فكيف يكون إسحق البكر وهو لما ولد كان إسماعيل ابن سبع سنين... إلخ»

وتعبير آخر الأيام أو مستقبل الأيام يدل على زمن شريعة «المَسِيّا» لأن الدهر عندهم دهران. دهر لشريعة موسى، ودهر لشريعة المسيا وهو النبى الذى سيخلف موسى فى قيادة الأمم إلى الله. ولما كان عهد الله بالنبوة والملك على الأمم فى إسماعيل من قبل ولادة إسحق. قال عن ملك إسماعيل الذى سيبدأ من محمد ﷺ إنه سيكون فى مستقبل الأيام.

ولما أراد الله إنزال التوراة على موسى فى سيناء استشارهم فى أخذ العهد عليهم بالسير بالتوراة فى بلاد العالم. فقالوا: «كل ما تكلم به الرب نفعل» ومن أحكام التوراة الإيمان =

أهلكته؛ فمن ذا الذى سينفذ مشيئتك؟»

عندها خف غضب الرب، وسحب أمره بهلاك العالم، لكنه وضع المياه تحت الجبال، لتبقى هناك إلى الأبد.

ولم يكن الاعتراض على التقسيم والفصل هو السبب الوحيد وراء تمرّد المياه السفلية؛ فقد كانت المياه هى أول من سبح بحمد الرب، وعندما صدر الأمر بتقسيمها إلى علوية وسفلية. هللت المياه العلوية قائلة: «بوركنا نحن الذين تميزنا بالإقامة قرب خالقنا وقرب عرشه الإلهى» وأخذت تتقافز فى حبور وتنشد وتحمد خالق العالم.

وخيم الأسى على المياه السفلية وأخذت تنوح قائلة: «يا ويلنا إذ لم نستأهل أن نقيم فى حضرة الرب، ونسبح بحمده مع رفاقنا» ولذا فقد هبَّت مرتفعة لأعلى، إلى أن كبسها الرب، ودفنها تحت الأرض. ومع ذلك فلم تترك دون أن تُثاب على ولائها. فحينما تريد المياه العلوية التسبيح بحمد الرب. لابد أن تطلب الإذن أولاً من المياه السفلية.

وكان اليوم الثانى يومًا كئيبًا بسبب الجانب الذى ابتدأ فيه وجود انفصال، إذ لم يوجد من قَبْلُ سوى الوحدة فقد أضيف إليه سبب آخر وهو أنه قد كان أيضا اليوم الذى شهد خلق الجحيم. ولذا فلم يستطع الرب أن يقول عن هذا اليوم كما قال عن الأيام الأخرى إنه هو «كان يرى أنه يوم جيد» وقد يكون الانقسام ضرورياً، لكن لا يمكن أن يقال عنه إنه جيد، كما أن الجحيم لا يمكن أن يُنسب إليه الخير.

= بمحمد ﷺ (تثنية ١٨ : ١٥ - ٢٢) فيكون السماع منه داخل فى العهد مرتين مرة بعد الرجوع من بابل لما جعلوا لهم من دون الناس، ومرة لما ظهر محمد وكفروا به.

وهذا هو نص العهد:

«فالآن إن سمعتم وحفظتم عهدى؛ تكونون لى خاصة من بين جميع الشعوب. فإن لى كل الأرض. وأنتم تكونون لى مملكة كهنة وأمة مقدسة. هذه هى الكلمات التى تكلم بها بنو إسرائيل. فجاء موسى ودعا شيوخ الشعب ووضع قدامهم كل هذه الكلمات التى أوصاه بها الرب. فأجاب جميع الشعب معا، وقالوا: كل ما تكلم به الرب؛ نفعل... إلخ» (المحقق)

وللجحيم سبعة أقسام، كل منها تحت الآخر. وأسماؤها هى: شيؤل، أبادُّون، بيرشاهات، تيت هاياوين، شعارى ماوِتْ، شعارى زالماوِت وجهنم. ويتطلب الأمر ثلاثمائة عام لقطع ارتفاع أو عرض أو عمق كل قسم، ويتطلب الأمر ستة آلاف وثلاثمائة عام لتعبر قطعة من الأرض تعادل فى أتساعها الأقسام السبعة.

ولكل قسم من الأقسام السبعة بدوره سبعة أقسام. فى كل منها سبعة أنهر من النار وسبعة من البَرَد. وعرض كلٍّ منها ألف ذراع، وعمقه ألف، وطوله ثلاثمائة، ويتدفق كل منها خارجًا من الآخر، ويشرفُ عليها تسعون ألفًا من «ملائكة الهلاك». كذلك يوجد فى كل قسم فرعى سبعة آلاف كهفٍ فى كل كهف يوجد سبعة آلاف شقٍّ، وفى كل شقٍّ سبعة آلاف عقرب، ولكل عقرب ثلاثمائة حلقة، وفى كل حلقة سبعة آلاف كيس للسم، يتدفق منها سبعة آلاف نهر من السم الفتَّاك، إذا لمسه أحد بيده ينفجر فى الحال، ويتمزق كل عضو فيه منفصلاً عن جسده، وتتقطع أحشاؤه، ويسقط على وجهه. كذلك يوجَد خمسة أنواع مختلفة من النار فى الجحيم. فإحداها تلتهم وتمتص، والأخرى تلتهم ولاً تمتص، بينما الثالثة تمتص ولا تلتهم، ويوجد أيضًا نار أخرى وهى لا تلتهم ولا تمتص.

وعلاوة على ذلك نار تلتهم النار. وتوجد فحمات ضخمة كالجبال، وفحمات ضخمة كالتلال، وفحمات باتساع «البحر الميت»، وفحمات كالصخور الجسام، وهناك أنهار من القطران والكبريت تتدفق وتتوهج كالفحمات الحية.

وكان ثالث ما خلق فى اليوم الثانى هو أسراب الملائكة، سواء الملائكة المستوزرين أو ملائكة التسبيح. والسبب الذى لم يخلقوا لأجله فى اليوم الأول، كان مخافة أن يظن البشر أن الملائكة قد ساعدت الرب فى خلق السموات والأرض. والملائكة التى صيغت من النار لها أشكال النار، لكن

فقط طالما هى فى السماء. وعندما تهبط إلى الأرض لتنفذ أوامر الرب هنا بأسفل، فهى إما تتحول إلى رياح، أو تتخفى فى هيئة البشر. وتوجد سبع مراتب أو درجات للملائكة: فأعلى الملائكة درجة هم المحيطون بالعرش الإلهى من جميع الجوانب، إلى اليمين وإلى اليسار وفى الأمام وفى الخلف، تحت قيادة الملائكة الكبار: ميكائيل وجبريل وأورئيل ورافائيل.

وسبحت كل الكائنات السماوية الرب قائلين: «قدوس، قدوس رب الملائكة»، لكن البشر تفوقوا على الملائكة فى ذلك. فهم (أى الملائكة) لايبدأون تسابيحهم حتى تنتهى الكائنات الأرضية من تعظيم الرب. إسرائيل بالخصوص مفضل على الملائكة. فعندما يلتفون حول العرش الإلهى على هيئة جبال نارية وتلال مستعرة، ويحاولون رفع أصواتهم تعظيما للخالق، يسكتهم الرب قائلاً: «اصمتوا حتى أسمع تسابيح وحمد وصلوات والألحان العذبة لإسرائيل».

وبالتالى فإن الملائكة المستوزرين أو ملائكة التسبيح. والسبب الذى لم يخلقوا لأجله فى اليوم وكل الملأ السماوى الآخر ينتظرون حتى تنقطع آخر ألحان ابتهالات إسرائيل الصاعدة من الأرض، وحينها يصيحون بصوت عالٍ «قدوس قدوس رب الملائكة». وعندما تأزف ساعة تسبيح الملائكة يخطو البشير الإلهى المهيب، الملاك شامئيل، إلى نوافذ السماء الدنيا ليصغى إلى الأغانى والصلوات والتسبيحات التى تصعد للسماء من الكنيس وبيوت التعلم، وعندما ينتهون، يعلن الختام للملائكة فى كل السموات.

والآن يأوى الملائكة المستوزرين أو ملائكة التسبيح. والسبب الذى لم يخلقوا لأجله فى اليوم - هؤلاء الذين يتصلون بالعالم الأرضى - إلى غرفهم ليتطهروا بماء التطهير الخاص بهم. وليغطسوا فى نهر جارٍ من النار واللهيب سبع مرات، ويتفحصون أنفسهم بعناية ثلاثمائة وخمسٍ وستين مرة، ليتأكدوا من عدم التصاق أى دنس بأجنحتهم. وعند ذلك فقط يشعرون

بأنهم قد أصبحوا مهيئين لتسلق السلم النارى لينضموا إلى ملائكة السماء السابعة، ويحيطوا بعرش الرب مع حشمال وكل الهيُّوت المقدس. وينشد الملائكة الأغانى مسبحين بحمد الرب، كلهم فى آن واحد وبنفس الكلمات، وبنفس الألحان، وقد تزينوا بملايين التيجان النارية وتزيُّوا بأزياء نارية.

هـ ـ اليوم الثالث

حتى هذا اليوم كانت الأرض سهلاً منبسطًا، ومغطاة بكاملها بالماء وما كادت كلمات الرب: «لتجتمع المياه معًا» تُسْمَعُ إلا وظهرت الجبال فى كل مكان وكذلك التلال، وتجمعت المياه فى الأحواض العميقة. لكن الماء كان عنيدًا، إذ قاوم الأمر بشغل المواقع المنخفضة، وهدد بغمر الأرض إلا أن الرب أعاده قَسْرًا إلى البحر، وأحاط البحر بالرمال. ومتى فكر الماء الآن فى تجاوز حدوده، فإنه يرى الرمال فيرتد خاسئًا حسيرًا.

وما كانت المياه إلا مقلدة لرئيسها راهاب، ملاك البحر، الذى تمرد عند خَلْق العالم. وقد أمر الربُّ راهاب أن يستوعب الماء، لكنه رفض قائلاً: «لقد نلتَ ما يكفى» وكانت عقوبة هذا العصيان الموت. ويستقر جثمانه فى أعماق البحر، ولا يزال الماء يفوح بالرائحة النتنة التى تفوح منه.

وكان المخلوق الرئيس فى اليوم الثالث هو مملكة النبات، النباتات الأرضية ونباتات الجنة. وكان أولها أشجار الأَرْز اللبنانى والأشجار الضخمة الأخرى، والتى من فخرها بكونها خلقت أولاً، سَمُقَتْ عاليًا فى الهواء. واعتبرت أنفسها المفضلات من بين النباتات. ثم تكلم الرب قائلاً: «إننى أكره الغطرسة والتكبر، لأننى أنا المتكبر وحدى، ولا أحد سواى». وخلق الحديد فى نفس اليوم، تلك المادة التى تقطع بها الأشجار. وبدأت الأشجار تبكى، وعندما سألها الرب عن سبب بكائها، قالت: «نبكى لأنك خلقت الحديد لنُجْتَثَّ به من جذورنا. ولطالما كنا نظن أنفسنا أعلى ما على ظهر الأرض، وهاهو الحديد مدمرنا الآن قد خُلِق.» أجابها الرب قائلاً: «أنتم أنفسكم ستمدون الفأس بيدٍ. وبدون مددكم لن يستطيع الحديد فعل شىء أيًّا كان ضدكم.»

وقد صدر الأمر بحمل بذور من نفس نوعها، إلى الأشجار وحدها. لكن أنواع العشب الكثيرة رأت أنه لو كان الرب لا يرغب فى تعدد الأشجار والعشب؛ لما كان أرشد الأشجار لتحمل ثمرات من جنسها فيها البذور، خصوصًا والأشجار تميل من تلقاء نفسها للانقسام إلى فصائل. ولهذا تكاثرت الحشائش تبعًا لأجناسها، وحفز ذلك أمير العالم على أن يصيح قائلاً: «لِيَدُمْ مجد الرب للأبد؛ ولينتشى الرب بأعماله.»

وكان أهم ما عُمِلَ فى اليوم الثالث هو خلق الفردوس. ومدخل الفردوس عبارة عن بوابتين من البلور المسحور، ويحرس كل منهما ستون فوجًا من الملائكة المستوزرين أو ملائكة التسبيح. والسبب الذى لم يخلقوا لأجله فى اليوم . ويتوهج كل ملك من هذه الملائكة ببريق الجنة. وعندما يظهر الرجل المؤمن أمام البوابتين، تنزع عنه الملابس التى دُفِنَ فيها، وتُلبسه الملائكة سبعة أثواب من سحابات المجد، وتضع على رأسه تاجين، أحدهما من الأحجار الكريمة واللؤلؤ، والآخر من ذهب البارفيم، وتضع فى يده ثمان رياحين، وتلهج بالحمد أمامه وتقول له: «امض فى طريقك وكل خبزك بفرح». وتقوده إلى مكان ملآن بالأنهار، ومحاط بثمانمائة نوع من الورود والريحان. ولكلٍّ مظلة تبعًا لمزاياه، تجرى من تحتها أربعة أنهار، أحدها من اللبن، والآخر من البلسم، والثالث من الخمر، والرابع من العسل. وتظلل كل مظلة كَرْمَةٌ من الذهب، وتتدلى منها ثلاثون لؤلؤة، كل منها تتلألأ مثل الزُّهَرَة. وتحت كل مظلة توجد مائدة من الأحجار الكريمة واللآلئ، ويقف عند رأس كل رجل عادل ستون ملكًا يقولون له: «اذهب وكل فرحًا وأنت فرح من العسل، لأنك شًغلت نفسك بالتوراة، وهى أحلى من العسل؛ واشرب من الخمر الخبيئة فى العنب منذ أيام الخلق الستة، لأنك شغلت نفسك بالتوراة وهى تقارن بالخمر» وأقل المؤمنين جمالاً يضاهى يوسف والربِّى يوحانان، ويضاهى كذلك حبوب رمان فِضّى تسقط عليه أشعة الشمس. وليس هناك نور. «إذ أن نور المؤمنين هو النور المشرق» ويمرون بأربع تحَوُّلات كل يوم، ويمرون بأربع حالات فى الأولى يتحول المؤمن إلى طفل، ويدخل مثوى

الأطفال ويتمتع بنعيم الطفولة. ثم يتحول إلى شاب ويدخل مثوى الشباب الذين يتمتع معهم بمباهج الشباب. ثم يصبح رجلاً بالغًا فى ريعان الشباب ويدخل مثوى الرجال ويتمتع بمسرات الرجولة. وأخيرًا يتحول إلى عجوز ويدخل مثوى العجائز ويتمتع بمسرات الشيخوخة.

ويوجد فى كل ركن من الفردوس ثمانمائة ألف من الأشجار، أحطُّها ألَذُّ من كل أشجار التوابل. وفى كل ركن ستون فوجًا من الملائكة تغنى بأصوات عذبة، وتنتصب شجرة الحياة فى المنتصف وتظلل الفردوس كله. ولها خمسة عشر ألف طعم، كل منها مختلف عن الآخر، وتتنوع روائحها كذلك. وترتفع فوقها سبع سحابات من المجد، وتهب عليها الرياح من كل جانب ومن ثم يَنْتَشِر عبيرها من أحد طرفى العالم إلى طرفه الآخر. وتحتها يجلس المتعلمون ويشرحون التوراة، وتُنْشَر فوق كل منهم ظُلَّتان، إحداهما من النجوم والأخرى من الشمس والقمر، وتفصل بينهما ستارة من سحابات المجد.

وفيما وراء الفردوس تبدأ جنة عدن، وتحتوى على ثلاثمائة وعشرة عوالم وسبع مثاوٍ (جمع مثوى) لسبعة أصناف من المتقين.

فى الأولى «الشهداء ضحايا الملوك الظلمة»، مثل الربِّى عقيبة ورفاقه؛ وفى الثانية من غرقوا؛ وفى الثالثة الربِّى يوحانان بن زاكَّاى وتلاميذه؛ وفى الرابعة هؤلاء الذين حُمِلوا فى سحابة المجد؛ وفى الخامسة التائبون، الذين يشغلون مكانًا لا يستطيع أن يصل إليه ولا حتى أتقى المتقين ؛ وفى السادسة الشبابُ الذين لم يذوقوا فى حياتهم طعم الخطيئة؛ وفى السابعة الفقراء الذين درسوا التوراة والمشنا، وعاشوا حياتهم يحترمون أنفسهم فى وقار. ويجلس الرب فى وسطهم، ويفسر لهم التوراة.

أما بالنسبة لأقسام الفردوس السبعة، فكل منها اثنا عشر ألف ألف من الأميال عرضًا، ومثلها طولاً. فى الأول يسكن المتهودون[1] الذين دخلوا اليهودية بإرادتهم الحرة، وليس بالإكراه وحيطانها من الزجاج ومكسوة

(١) هذا دليل على أن التوراة فى الأصل كانت عالمية. (المحقق)

بالسِّدر. والنبى عُوبديا، وهو نفسه متهود، هو المشرف على القسم الأول. والقسم الثانى مبنى من الفضة ومكسوّ بالسدر، وفيه يسكن من تابوا ويرأسهم مَنَسَّى، الابن التائب لحزقِيًّا. والقسم الثالث مبنى من الذهب والفضة وفيه يسكن إبراهيم وإسحاق ويعقوب وكل الإسرائيليين الذين خرجوا من مصر، وكل الجيل الذى عاش فى الصحراء. وفيه كذلك داود وكل أبنائه ما عدا أبشالوم، وكذلك أحد أبنائه ـ وهو آليداب ـ مازال حيّاً. وكل ملوك يهوذا هناك، ما عدا منسى بن حزقيا، والذى يرأس القسم الثانى، رئيسًا على التائبين. ويرأس موسى وهارون القسم الثالث. وهنا توجد آنية نفيسة من الفضة والذهب والجواهر ومظلات وأسِرَّةٌ وعروش ومصابيح، من الذهب، ومن الأحجار الكريمة، ومن اللآلئ، وأفضل ما فى الجنة. والقسم الرابع مبنى من الياقوت الأحمر الجميل، ومكسوة حوائطه بخشب الزيتون. وهنا يسكن كاملو الإيمان وراسخوه وهم مكسوون بخشب الزيتون، لأن حياتهم كانت مرة كطعم الزيتون. والقسم الخامس مبنى من الفضة والذهب، والذهب المُنَقَّى، وأفضل الذهب والزجاج والبدولانج، ويجرى فى وسطه نهر جيحون. وبطانته من الفضة والذهب، ويفوح فيه عبيرٌ، أجمل من روائح لبنان. والأغطية الفضية والذهبية على الأسِرَّة مصنوعة من الأرجوانى والأزرق، ونسجتها حواء، ومن القرمزى وشعر الماعز، ونسجتها الملائكة.

وهنا يسكن المَسِيًّا[1] على مِحَفَّة مصنوعة من خشب لبنان، «أعمدته من فضة وقعره من ذهب، وكرسيه أرجوانى.» ومعه إيلياء الذى يأخذ رأس المَسِيّا ويضعه فى حضنه ويقول له: «اهدأ فالنهاية تقترب». وفى كل اثنين وخميس

(١) المِسِيًّا: هو محمد ﷺ وهى كلمة ترادف «المسيح» وفى كتب اليهود والنصارى أن المسيا موجود منذ تأسيس العالم. ليس بجسمه ولكن على معنى أن الله قدر وجوده فى البدء. وقال عنه داود فى الزبور: «بنورك نرى نورا» مبالغة فى حسن شريعته. وقال ميخا: «ومخارجه منذ القديم منذ أيام الأزل» ولكن النصارى ـ أعنى المسيحيين ـ يزعمون أن المسيا هو المسيح عيسى ابن مريم وأنه هو الموجود من البدء. مع أنه فى إنجيل متى يقول المسيح عن أتباع محمد ﷺ: «رثوا الملكوت المعد لكم منذ تأسيس العالم». (المحقق)

وفى أيام السبت وفى العطلات، يأتيه الأب[1]، وأبناء يعقوب الاثنا عشر وموسى وهارون وداود وسليمان وكل ملوك إسرائيل ويهوذا، ويبكون معه ويهدِّؤون روعه ويقولون له: «اهدأ وثق بخالقك، فالنهاية تقترب». وكذلك يأتى إليه قورح[2] ورفاقه وداثان وأبيرام وأبشالوم كل أربعاء ويسألونه: «كم بقى من الزمان قبل أن تحل النهاية ملآى بالعجائب؟ متى ستعيد إلينا الحياة، وتنتشلنا من هوة الأرض السحيقة؟» ويجيبهم المَسِيّا: «اذهبوا إلى آبائكم واسألوهم»، وعندما يسمعون ذلك يخجلون ولا يسألون آباءهم.

وفى القسم السادس يسكن من ماتوا وهم يقومون بعمل صالح، وفى القسم السابع يسكن من ماتوا بمرض تكفيرًا عن ذنوب إسرائيل.

و ـ اليوم الرابع

شهد اليوم الرابع خلق الشمس والقمر والنجوم. ولم تُصَغ هذه الأفلاك السماوية فى الحقيقة فى هذا اليوم؛ وإنما خلقت فى اليوم الأول، ووضع كلٌّ منها فى مكانه فى (اليوم) الرابع. وفى البدء تمتع الشمس والقمر بقوى وحقوق متساوية.

وتكلمتِ[*] القمر إلى الرب قائلة: «يارب، لماذا خلقت العالم بالحرف بيت؟» أجابه الرب: «لكى تعرف مخلوقاتى أنه يوجد عالمان».

القمر: «يارب أىُّ العالمين أكبر. أهذا العالم أم العالم الذى سيأتى؟».

الرب: «العالم الذى سيأتى أكبر».

القمر: «يارب لقد خلقت عالمين، أكبر وأصغر؛ وخلقت السماء والأرض. والسماء تفوق الأرض؛ وخلقت النار والماء، والماء أقوى من النار، لأنه يستطيع

(١) يقصد بالأب: يعقوب النبى عليه السلام. (المحقق)

(٢) يقصد بقورح: قارون الذى كان من قوم موسى فبغى عليهم. (المحقق)

(*) لاحظ أن القمر يشار إليه فى الأساطير اليونانية بالمؤنث زعمًا بأن له «إلهة» بينما يشار إلى الشمس بضمير المذكر لأن له «إله». (المترجم)

أن يطفئ النار؛ وها أنت قد خلقت الشمس والقمر ومن اللائق أن يكون أحدهما أكبر من الآخر».

ثم تكلم الرب إلى القمر: «أعلم جيدًا، أنك تريدين منى أن أجعلكِ أكبر من الشمس. وكعقاب لكِ فإنى آمر بألا تحتفظى إلا بواحدٍ على ستين من نورك». ودعت القمر قائلة: «أأعاقَبُ بهذه القسوة لأننى تكلمت بكلمة واحدةٍ؟!» رق قلب الرب (وقال): «فى العالم الآتى سأعيد إليك نورك، لكى يصبح نوركِ مرة أخرى مثل نورِ الشمس». لكن ذلك لم يرضِ القمر فقالت: «يارب، وكيف سيكون نور الشمس يومئذٍ؟» فاشتعل غضب الرب مرة أخرى (وقال): «ألازلتِ تتآمرين ضد الشمس؟ إذًا وحياتك فى العالم الذى سيأتى فإن نوره سيصبح سبعة أضعاف النور الذى يبثه الآن». ويسير الشمس فى مساره مثل العريس. وهو يجلس على عرش وعلى رأسه إكليل. ويصحبه ست وتسعون ملكًا فى رحلته اليومية، فى مواكب من ثمانيةٍ كل ساعة، اثنان عن يمينه واثنان عن شماله واثنان أمامه واثنانً خلفه. ولقوته فإنه يستطيع أن يكمل مساره من الجنوب إلى الشمال فى لحظة واحدة، لكن ثلاثمائة وخمسًا وستين مَلَكًا يحكمونه بواسطة عدد هائل من الخطاطيف. وكل يوم يخفف أحدهم قبضته من عليه، ولذا فالشمس يجب أن يقضى ثلاثمائة وخمسًا وستين يومًا فى مساره.

وتقدُّم الشمس فى دائرته هو أغنية بحمد الرب لا تنقطع. وهذه الأغنية وحدها تجعل حركته ممكنة. ولذا فعندما أراد يشوع أن يأمر الشمس بأن يثبت (أى الشمس) فى مكانه، كان عليه أن يأمره (أى الشمس) بأن يصمت (ولا يغنى أغنية). وعندما تسكت أغنية الحمد التى يغنيها؛ فإن الشمس يثبت فى مكانه.

وللشمس وجهان أحدهما من النار وهو موجَّهٌ نحو الأرض، وآخر من البَرَد، (وهو موجَّهٌ) نحو السماء ليبرِّد الحرارة الهائلة التى تنبعث من الوجه الآخر وإلا فإن الأرض ستشبّ فيها النار. وفى الشتاء يدير الشمس

وجهه النارى لأعلى وهكذا ينتج البَرْد. وعندما يهبط الشمس فى الغرب فى المساء، فإنه يغطس فى المحيط ويطهر جسمه، وتنطفئ ناره، فلا يكون نور ولا دفء خلال الليل. لكن بمجرد أن يصل إلى الشرق فى الصباح، يغطس فى نهرٍ جارٍ من اللهيب يبث فيه الدفء والنور، فيسكبهما على الأرض. وبنفس الطريقة تطهر القمر والنجوم فى نهرٍ جارٍ من البَرَد قبل أن يباشروا خدمتهم الليلية.

وعندما يصبح الشمس والقمر جاهزان لبدء نوبتيهما يَمْثُلان أمام الرب يتوسلان إليه ليعفى كلاً منهما من مهمته، لكيلا يريا منظر الخطاة من البشر. ولا يستمرا فى مساريهما اليوميين إلا كرهًا. وعند عودتهما من حضرة الرب، يعمى بصريهما السناء الذى فى السموات ولا يستطيعان تبين طريقيهما. ولذا يطلق الرب سهامًا يهتديان بنورها المتلألئ. وبسبب خطيئة الإنسان، الذى يضطر الشمس لمشاهدتها أثناء سَيْره، فإنه يضعف مع انحداره فى السماء واقتراب وقت غروبه، إذ أن الخطايا لها تأثير موهن ومضعف، ويسقط من الأفق ككرة من الدم، فالدم هو علامة الفساد.

ومع انطلاق الشمس فى مساره فى الصباح؛ تلمس أجنحته أوراق الأشجار التى فى الفردوس، وتنتقل اهتزازاتها (أى الأوراق) إلى الملائكة وإلى الهايُّوت المقدس، وإلى النباتات الأخرى، وكذلك إلى الأشجار والنباتات التى على الأرض، وإلى كل الكائنات على الأرض وفى السماء.. وهذه هى الإشارة إليهم جميعًا بأن يرنوا بأبصارهم لأعلى.

وبمجرد أن يروا «الاسم الذى لا يُمحى[1]» المنقوش على الشمس، فإنهم يرفعون أصواتهم منشدين بحمد الرب. وفى اللحظة نفسها يُسْمَعُ صوت سماوى يقول: «ويح بنى البشر الذين لا يتفكرون فى جلال الرب. مثل هذه الخلائق التى ترتفع أصواتها الآن عاليا بالتمجيد».

(١) الاسم الذى لا يُمحى: هو يَهْوَه. وهو يعادل الله. (المحقق)

وطبعًا لا يسمع الإنسان هذه الكلمات؛ مثل قلة إدراكه لاحتكاك الشمس بالعجلة المربوطة فيها كل الأجرام السماوية، رغم أن الضجيج الذى ينتج عنها عالٍ بشكل فائق. ويُنتِج هذا الاحتكاك بين الشمس والعجلة ذراتِ الغبار التى نراها تتراقص فى شعاع الشمس. وهى تحمل الشفاء للمرضى، وهى الشفاء الوحيد الذى خلق فى اليوم الرابع، وقد كان فى مجمله يومًا تعيسًا، وخصوصًا للأطفال ويصيبهم بالأمراض.

وعندما عاقب الرب القمر بتصغير نورها وسناها، فقد كَفَّت كذلك عن أن تكون مكافئة للشمس كما كانت فى الأصل، وسقطت وانحلَّ عن جسدها خيوط رقيقة وهذه هى النجوم.

ز ـ اليوم الخامس

فى اليوم الخامس للخلق أخذ الرب الماء والنار، ومن هذين العنصرين صنع أسماك البحر. والحيوانات التى فى الماء أكثر كثيرًا فى العدد من مثيلاتها على الأرض. ولكل فصيلة على الأرض ـ فقط عدا ابن عُرْس ـ توجد فصيلة مناظرة لها فى الماء، كما أنه توجد فصائل عديدة فى الماء فقط.

والحاكم على الحيوانات البحرية هو الليفياثان. وقد صنع فى اليوم الخامس مع كل الأسماك الأخرى. وقد خلق فى الأصل من ذكر وأنثى مثل كل الحيوانات الأخرى. لكن عندما ظهر أن زوجين من هذه الوحوش قد يقضيان على الأرض كلها بقوتيهما المتحدتين؛ قتل الرب الأنثى. والليفياثان هائل الحجم لدرجة أنه لكى يروى عطشه يحتاج إلى كل المياه التى تتدفق من نهر الأردن إلى البحر. ويتكون غذاؤه من السمك الذى يتصادف أن يمر بين فكيه. وعندما يكون جائعًا، ينفث أنفاسًا ساخنة من منخريه، تجعلُ مياه البحر العظيم تغلى من السخونة.

ورغم جسامة البهيموت ـ وهو الوحش الآخر ـ فإنه لا يطمئن ويأمن على نفسه إلا بعد أن يروى الليفياثان ظمأه. والشىء الوحيد الذى يستطيع

أن يخيفه هو أبو شوكة، وهو سمكة صغيرة خلقت لهذا الغرض، ومنه يخاف خوفًا شديدًا.

لكن الليفياثان ليس مجرد (حيوان) ضخم وقوى وإنما بديع الخِلْقَةِ كذلك. فزعانفه «تشع ضوءًا مبهرًا، يغطى على نور الشمس نفسها، كما أن عينيه تشعان بريقًا يضئ البحر غالبًا على نحو مفاجئ.

والأعجب[1] فى أن هذا الحيوان الرائع هو ألعوبة الرب، الذى يَتَسلَّى به.

وهناك شىء واحد فقط يجعل الليفياثان منفِّرًا، وهو رائحته الكريهة وهى قوية لدرجة أنها لو نفذت إلى الفردوس فَسَتُحِيله إلى مكان يستحيل الإقامة به.

والغرض الحقيقى (الذى خُلق من أجله) الليفياثان هو أن يُقدم كنُزُلٍ للمتقين فى العالم الذى سيأتى.

وقد وُضعت الأنثى فى شِيرش (ماء مملح للتخليل) بمجرد أن قُتِلَتْ، وذلك لكى تُحفظ حتى يحين الوقت الذى يتم الاحتياج فيه إلى لحمها. ومُقَدَّرٌ للذكر أن يَسُرَّ الناظرين جميعًا قبل أن يموت. وعندما تحين ساعته الأخيرة يستدعى الرب الملائكة ليقاتلوا الوحش. لكن ما إن ينظر إليهم الليفياثان إلا ويفرو خائفين مندحرين من أرض المعركة. ثم إنهم يعودون إليه بالسيوف، ولكن دون جدوى، إذ أن حراشف ظهره تستطيع ثَنْىَ الصُّلب وكأنه قش. وسوف يفشلون كذلك عندما يحاولون قتله برميه بالسهام وقذفه بالحجارة؛ فمثل هذه القذائف سترتد عنه دون أن تترك أدنى أثر على جسده. وسيشعر الملائكة بالإحباط، ويتخلون عن القتال.

ولذلك سيأمر الرب ليفياثان وبهيموت بالدخول في معركة، أحدهما مع

---

(١) هذا من سفر كتّاب التوراة والتلمود؛ فإن الله تعالى لا يلعب بشىء ولا يلهو بشىء. ويقول العلماء فى هذا وشبهه: إن الله يكلم البشر عن نفسه بلسانهم ليقدروا على تصور ذاته ومما فى التلمود: أن الثعبان كان على قدر الجمل وأن الراكب عليه كان هو الشيطان. وقد دخل الشيطان الجنة وهو راكب على الثعبان ليخدع حواء. والله تعالى كان يضحك على الثعبان وراكبه (دلالة الحائرين ص ٣٨٣ ـ ٣٨٤). (المحقق)

الآخر. وسينتج عن ذلك موت الاثنين، فيموت بهيموت بضربة من زعانف ليڤياثان، بينما يموت ليڤياثان بضربة من ذيل بهيموت.

ومن جلد ليڤياثان سينشئ الرب خيامًا لتظلل جماعات المتقين أثناء استمتاعهم بتناول أطباق من لحمه. وستكون الكمية المخصصة لكل واحدٍ من المتقين متناسبة مع شهيته، ولن يحسد أو يحقد أحدهم على الآخر بسبب كبر نصيبه. وما يتبقى من جلد ليڤياثان سَيُمَدُّ فوق أورشليم كمظلة، وسيضئ النور المنبعث منها العالم كله، وما يتبقى من لحمه بعد أن يشبع المتقون، سوف يوزع على بقية البشر ليتاجروا فيه.

وفى نفس اليوم مع الأسماك، خلقت الطيور، إذ أن هذين النوعين من الحيوانات مرتبطان ارتباطًا وثيقًا. فالسمك صيغ من الماء، أما الطيور فمن تربة سَبِخَة مشبعة بالماء.

وكما أن ليڤياثان هو ملك الأسماك، فكذلك الزيز هو المعين حاكمًا على الطيور. واسمه يأتى من المذاقات العديدة التى يتميز بها لحمه؛ فهو طعمه كهذا، زى، وذاك زى. والزيز هائل الحجم كالليڤياثان. وتستقر رجلاه على الأرض، بينما تصل رأسه إلى عنان السماء.

وقد حدث يومًا أن المسافرين على ظهر سفينة رأوا طائرًا. وعندما كان واقفًا فى ماء البحر كان الماء لايكاد يغطى قدميه، بينما اصطدمت رأسه بالسماء. وظن المشاهدون أن الماء ليس عميقًا بالمرة عند هذه النقطة. ولذلك استعدوا للاستحمام فيها. وحذرهم هاتف سماوى قائلاً: «لا تنزلوا ههنا».

وذات مرة سقطت بلطة نجار من يده فى هذه البقعة، ولم تصل القاع إلا بعد سبع سنوات. ولم يكن الطائر الذى رآه المسافرون سوى الزيز.

وجناحاه ضخمان لدرجة أنه عندما يبسطهما يَحجبان الشمس، وهما يحميان الأرض من عواصف الجنوب؛ وبدونهما لن تستطيع الأرض مقاومة الرياح التى تهب من هناك. وذات مرة سقطت بيضة زيز على الأرض

وانكسرت. وغمر السائل الذى تدفق منها ستين مدينة، كما أن الصدمة أدت إلى انسحاق ثلاثمائة شجرة أرْز. ولحسن الحظ لا تقع مثل هذه الحوادث كثيرًا. وكعادته الثانية: فإن الطائرً يدع بيضته تنزلق بلطف على عشه. وهذه الحادثة الفريدة إنما كانت لأن البيضة كانت فاسدة، ولذا رماها الطائر بعيدًا بإهمال.

وللزيز اسم آخر هو: رينانين، لأنه هو المغنى السماوى. وبسبب علاقته بالمناطق السماوية يُطلق عليه أيضًا اسم سيكوى أى الرائى، وكذلك يسمى «ابن العش» لأن أفراخه تفقس من بيضها دون أن ترقد عليها الأم؛ وهى تخرج مباشرة من العش.

ومثل الليڤياثان، فإن الزيز هو وجبة شهية ستقدم للمتقين فى نهاية الزمان لتعويضهم عن الحرمان الذى فرضه عليهم الامتناع عن تناول الطيور غير النظيفة.

ح ـ اليوم السادس

كما خلقت الأسماك من الماء، والطيور من الأرض السبخة الممتزجة جيدًا بالماء، خلقت الثدييات من الأرض الجامدة؛ وكما أن ليڤياثان هو الممثل الأشهر لجنس الأسماك، وزيز لجنس الطيور؛ فإن بهيموت هو أشهر ممثل لجنس الثدييات. وبهيموت يضاهى ليڤياثان قوة، ويجب أن يتم منعه ـ مثل ليڤياثان ـ من التكاثر والتزايد، وإلا فلن يدوم العالم، وبعد أن خلقه الرب ذكرا وأنثى، حرمه فورا من الرغبة فى تكثير جنسه. وهو متوحش لدرجة أنه يحتاج إلى نتاج ألف جبل لطعامه اليومى. وكل الماء الذى يتدفق فى مجرى نهر الأردن لا يكفيه إلاً لجَرْعة واحدة. ولذا فقد كان من الضرورى تخصيص نهر بالكامل له، وهو نهرٌ ينبع من الجنة، ويُسَمَّى اليوبيل.

وبهيموت أيضًا مقدرٌ له أن يقدم للمتقين كفاتح شهية، لكنهم قبل أن يستمتعوا بتناول لحمه، سيسمح لهم بمشاهدة ذلك الصراع المميت بين

ليفياثان وبهيموت، وذلك كمكافأة لهم على حرمان أنفسهم من مشاهدة مباهج السيرك ومباريات المصارعة فى الدنيا.

وليست الليفياثان والزيز وبهيموت هى الوحوش الوحيدة، لكن هناك وحوش أخرى عديدة، مدهشة أيضًا، مثل الريم، وهو حيوان عملاق لا يوجد منه سوى زوجين اثنين فقط، ذكر وأنثى. ولو كان هناك أكثر، لما استطاع العالم حماية نفسه منها. ولا يحدث الجماع بينهما إلا مرة واحدة كل سبعين سنة، إذ أن الرب أمر بأن يكون ذكر الريم وأنثاه كلٌّ فى طرفٍ من أطراف الأرض، أحدهما فى الشرق والآخر فى الغرب. وينتج عن الجماع موت الذكر، فالأنثى تعضه ويموت من أثر العضة. وتحبل الأنثى وتظل حبلى لما لا يقل عن اثنى عشر عامًا. وفى نهاية تلك الفترة الطويلة تلد توأمين، ذكرًا وأنثى. وفى العام الذى يسبق ولادتها تصبح غير قادرة على الحركة. وتكاد تموت من الجوع، لولا أن اللُّعَاب الذى يسيل من فمها يروى ويخصِّب الأرض بقربها، وتجعلها تنبت ما يكفى لحفظ أودها. ولعام كامل لا تستطيع أن تفعل سوى التقلب من جنب لجنب إلى أن ينفجر بطنها فى النهاية، ويخرج منه التوأمان. وهكذا يكون ظهورهما علامةً على موت الأم. وهى بهذا (الموت) تفسح مكانًا للجيل الجديد، والذى كتب له هو أيضًا أن يعانى من نفس المصير الذى لاقاه الجيل السابق.

وبعد الولادة مباشرة، يذهب أحدهما شرقًا والآخر غربًا، فلا يلتقيان إلا بعد انقضاء سبعين عامًا، ثم يتكاثران ويموتان.

وقد وصف أحد المسافرين، وكان قد رأى ريمًا، ارتفاعه يبلغ أربعة فراسخ، وطول رأسه فرسخ واحد ونصف. ويبلغ طول قرنيه مئة ذراع، بينما ارتفاعهما أكبر من ذلك كثيرًا. ومن أطرف المخلوقات «إنسان الجَبَل»، أو آدنى ساده، أو اختصارًا آدم. وهيئته هى نفس هيئة الإنسان، لكنه مثبت فى الأرض بحبل سُرِّى، تتوقف عليه حياته. وإن انقطع الحبل يموت. ويبقى هذا

الحيوان نفسه على قيد الحياة بما تنتجه الأرض من حوله، ولأبعد ما يسمح به قيده. ولا يجرؤ مخلوق على الاقتراب من نصف قطر حبله، إذ أنه يمسك بكل ما يقترب منه ويفتك به. ولكى يقتله المرء يجب ألا يقترب منه، وإنما يجب أن يقطع الحبل السُّرِّى بقذفه بالسهام من على البعد فيموت وسط تأوهاته وأنَّاته.

وذات مرة مر مسافر «بالمنطقة التى يوجد فيها هذا الحيوان وسمع مضيفه يستشير امرأته فيما يكرم به ضيفها من طعام، وقال لها إنه قد قرر أن «يقدم له رَجُلَنَا ليأكله». وظن الرجل أنه وقع على أكلة لحوم البشر فأطلق ساقيه للريح مبتعدًا ما أمكنه العَدْوُ عن مضيفه الذى حاول دون جدوى أن يحول دون فراره. وفيما بعد علم أنه لم تكن هناك أية نية لإطعامه لحمًا بشريًا، ولكن لحم الحيوان الغريب المسمى «إنسانًا».

وكما أن «إنسان الجبل» مربوط إلى الأض بحبل سُرِّى، كذلك فإن «أوز البرنقيل» ينمو من منقاره نبتا من شجرة. ومن العسير أن يقال إنه حيوان، ويجب أن يذبح ليكون صالحًا للأكل، أو أنه نبات ولا يحتاج للطقوس الضرورية قبل أكله.

ومن بين الطيور فإن العَنْقاء هو الأروع. إذ أنه عندما أعطت «حواء» كل الحيوانات بعضًا من ثمار شجرة المعرفة؛ كان العنقاء هو الطائر الوحيد الذى رفض أن يأكل منها، وقد كوفئ بالحياة الأبدية. وعندما ينقضى من عمره ألف سنة، ينكمش جسده ويتساقط ريشه إلى أن يصبح صغيرًا كالبيضة. وهذه هى نواة الطائر الجديد. ويُسَمَّى العنقاء أيضًا «حارس الكرة الأرضية» فهو يدور مع الشمس فى مساره ويفرد جناحيه ليلتقط الأشعة النارية للشمس. ولو لم يكن موجودًا لاعتراض هذه الأشعة، فما كان الإنسان، أو أى كائن حىٍّ آخر لِيبقى على قيد الحياة. وعلى جناحه الأيمن نقشت الكلمات التالية بحروف ضخمة: «لم تخلقنى الأرض ولا السماء ولكن

أجنحة النار». ويتكون طعامه من مَنِّ السماء ونَدَى الأرض. وبِرازه: هو دودة برازُها هو القِرْفة التى يستخدمها الملوك والأمراء. ويصف «آخنوخ» طيور العنقاء، وكان قد رآها عندما رُفع إلى السماء، بأنها مخلوقات طائرة رائعة وغريبة فى مظهرها، لها أقدام وذيول الأسود ورؤوس التماسيح، ومظهرها أرجوانى اللون كقوس قزح؛ ويبلغ حجمها تسعمائة ذراع. وأجنحتها كأجنحة الملائكة، ولكلٍّ اثنا عشر جناحا وكل منها يرافق عربة الشمس، ويذهب مع الشمس ويشعّان الحرارة والندى كما أمره الرب.

وفى الصباح عندما يبدأ الشمس مساره اليومى، يغنى طيور العنقاء والتشالكيدرى ويخفق كل طائر بجناحيه فرحاً بمانح الضوء، ويغنون أغنية بأمر الرب.

ومن بين الزواحف فإن السلمندر والشامير هما الأروع. وينشأ «السلمندر» من نار من خشب الريحان أبقيت مشتعلة بدون انطفاء طوال سبع سنين بواسطة فنون سحرية. ورغم أنه لا يزيد عن الفأر فى حجمه، فقد مُنِحَ خواص غريبة. فمن يلطّخ نفسه بدمه لا يُجْرَح، كما أن الشبكة التى يحيكها؛ تكون حماية من النار. وقد تباهى الناس الذين كانوا يعيشون فى زمن الطوفان بأنه لو وقع طوفان من النار؛ فسوف يحمون أنفسهم بدم «السلمندر».

ويدين الملك حَزَقِيًّا بحياته للسلمندر، فقد رماه أبوه الشرير الملك آحاز فى نيران «مولوخ» وكان سيحترق لولا أن أمه دهنته بدم السلمندر، ولذا لم تستطع النار أن تؤذيه.

وخلق « الشامير» فى وقت الزوال فى اليوم السادس للخلق، وخلق مع غيره من المخلوقات الغريبة. وهو بقدر سنبلة الشعير، وتملك الخاصية المميزة لقطع أصلد أنواع الماس. ولهذا السبب يستخدم فى الصدرية التى لا يرتديها إلا كبار الكهنة. وفى البداية تكتب أسماء القبائل الاثنى عشر بالحبر على الأحجار (الكريمة) التى سترصع بها الصدرية، ثم يمَرِّرُ الشامير

فوق الخطوط فتتقش. ومن أعجب العجب أن الاحتكاك لا ينتج عنه أية برادة من الأحجار. وقد استخدم «الشامير» أيضًا لقطع وتشكيل الحجارة التى بنى منها هيكل سليمان لأن الشريعة تحظر استخدام أية أدوات أو عدد حديدية فى العمل بالهيكل. ولا يمكن أن يحفظ الشامير فى أية أوعية معدنية أو حديدية، وإلا فجر هذه الأوعية إلى شظايا. وإنما يحفظ ملفوفًا فى قماش من صوف يُوضع فى سلة من الرصاص مملوءة بنخالة الشعير.

وقد حُفظ «الشامير» فى الفردوس إلى أن احتاجه سليمان. وقد أرسل النسر إلى هناك ليحضر الدودة. وعند دمار «الهيكل» اختفى الشامير.

وقد لقى «التاحاش» نفس المصير، وهو لم يخلق إلا ليستخدم جلده فى بناء الهيكل. وما إن يكتمل بناء الهيكل إلا ويختفى «التاحاش». وله قرن فى جبهته، وكان ملونًا بألوانٍ زاهية مثل عرف الديك الرومى، وكان ينتمى لطبقة الحيوانات النظيفة.

وبين الأسماك توجد مخلوقات رائعة، مثل ماعز البحر والدلافين، فضلاً عن الليفياثان. وقد رأى مُسافر فى البحر ذات مرة شاة بحر كُتب على قرنيها هذه الكلمات: «أنا حيوان بحرى صغير، ومع ذلك فقدً قطعتُ ثلاثمائة فرسخ لأقدم نفسى طعامًا لليفياثان».

والدلافين نصفها بشرى ونصفها سمكة؛ بل إنها قد جامعت البَشر؛ ولذا تسمى أيضًا «أبناء البحر»، إذ أنها تمثل على نحو ما بَشَر المياه.

ورغم أن كل فصائل عالم الحيوان قد خُلقت فى اليومين الأولين من أيام الخلق الستة؛ فإن العديد من خصائص بعض الحيوانات لم تظهر إلا فيما بعد. فالقطط والفئران، وهم أعداء الآن، كانا فى الأصل أصدقاء.

ولعداوتهما اللاحقة سبب محدد. فذات مرة مَثُل الفأر أمام الرب وتكلم قائلاً: «أنا والقطة شريكان ولكن ليس لدينا الآن ما نأكله». أجابه الرب: «إنكَ لتتآمر ضد رفيقتك، لا لشىء إلا لتأكلها. وكعقاب لك فهى التى

ستأكلك فرد الفأر قائلاً: «يارب العالم، فيم أخطأتُ؟» أجابه الرب: «أيها الزاحف القذر، كان لابد أن تعتبر بما حدث للقمر التى فقدت جزءًا من نورها لأنها تكلمت بالسوء فى حق الشمس، وما فقدته أُعطى لخصمها. وما تضمره من سوء طوية تجاه رفيقتك ستعاقب عليه بنفس الطريقة. وبدلاً من أن تأكلها أنت ستأكلك هى» قال الفأر: «يارب العالم! أسينقرض كل جنسى؟» أجابه الرب: «سآخذ حذرى لتبقى منكم بقية» ومن غضبه عضّ الفأرُ القطة التى ألقت بنفسها عليه ومزقته بأسنانها. فرقد جثة هامدة. ومنذ تلك اللحظة صار من طبيعة الفأر الرعب من القطة إلى درجة أنه لا يحاول حتى أن يدافع عن نفسه ضد هجومها عليه، ويبقى دائمًا مختبئًا.

وبالمثل كان الكلب والقطة صديقين حميمين، ولم يصبحا عدوين إلا فيما بعد. فقد حدث ذات مرة أن كان كلب وقطة رفيقين وكانا يتشاركان فيما يحصلان عليه أيّاً كان. وقد حدث أن كليهما لم يجد ما يأكله طوال ثلاثة أيام. ولذلك اقترح الكلب أن يفضا الصحبة التى بينهما ورأت القطة أن تذهب إلى آدم الذى سيكون فى بيته بكل تأكيد ما يكفى لتأكله، بينما رأى الكلب أن يجرب حظه فى مكان آخر. وقبل أن يفترقا تعاهدا على ألا يذهبا إلى نفس السيد (آدم) أيا كانت الظروف. وأقامت القطة مع آدم، ووجدت فى بيته من الفئران ما يُرضى شهيتها. وعندما رأى (آدم) عظم فائدتها فى طرد الفئران والقضاء عليها؛ عاملها آدم بألطف ما يكون.

أما الكلب فقد عاش أيامًا سوداء. فقد قضى الليلة الأولى فى كهف الذئب الذى سمح له بالمبيت ليلته عنده. وفى الليل سمع الكلب وقع أقدام؛ فأخبر مضيفه الذى أمره بطرد الدخلاء، وكانوا حيوانات مفترسة، وكاد الكلب يفقد حياته. وفر الكلب من بيت الذئب خائبًا. ولجأ إلى القرد، لكنه رفض أن يؤيه عنده ولو لليلة واحدة، واضطر الهارب إلى التماس كرم ضيافة النعجة. ومرة أخرى يسمع الكلب وقع أقدام فى منتصف الليل، ونهض مطيعًا أمر مضيفه ليطارد الدخلاء ويطردهم، وكانوا ذئابًا. ونبَّه نباح

الكلب الذئاب إلى وجود النعجة، فتسبب فى موتها بحسن نيَّة. وهنا فَقَد آخر صديق له.

وظل ليلة بعد أخرى يلتمس المأوى، دون أن يجد بيتًا. وفى النهاية قرر اللجوء إلى بيت آدم الذى وافق أن يؤيه ليلة واحدة. وعندما اقتربت الحيوانات المفترسة من البيت فى سِتر الظلام، وبدأ الكلب ينبح. فاستيقظ آدم وطردها بأقواسه وسهامه لذلك أمره (آدم) بالبقاء معه دومًا، إقرارًا بفائدة الكلب. لكن ما إن علمت القطة بوجود الكلب فى بيت آدم، إلا وبدأت تتشاجر معه، وتوبخه على نقضه للعهد بينهما. وبذل آدم ما فى وسعه لتهدئة القطة، اخبرها أنه هو الذى دعا الكلب ليقيم معهما، وأكد لها أنها لن تخسر مطلقًا بوجود الكلب، فقد كان يريد أن يقيم كلاهما معه. لكن كان من المستحيل إرضاء القطة. ووعدها الكلب ألا يلمس شيئًا خُصص لها. لكنها أصرت على أنها لا يمكن أن تقيم فى نفس المنزل وتحت سقف واحد مع لص مثل الكلب وأضحت المناوشات بين الكلب والقطة أمرا يوميّاً معتادًا.

وفى النهاية لم يعد الكلب يحتمل ذلك وغادر بيت آدم ولجأ إلى «شِيث» حيث رُحِّب به كثيرًا وظل من مقامه فى منزل «شِيث» يسعى لإعادة الوئام مع القطة، لكن دون جدوى. ولذلك انتقلت العداوة بين الكلب الأول والقطة الأولى إلى كل ذريتهما، إلى يومنا هذا.

حتى السِّمات البدنية لبعض الحيوانات لم تكن سمات أصلية لها، لكنها وُجدت بسبب شىء حدث لاحقًا على أيام الخلق. فكان للفأر فى البداية فم مختلف تمامًا عن فمه الحالى.

فعلى ظهر سفينة نوح - التى عاشت عليها جميع الحيوانات لتضمن بقاء كل الأنواع - كان الفأر وزوجته يجلسان ذات مرة بجوار القطة التى تذكرت فجأة أنّ أباها كان معتادًا على أكل الفئران، وظنت ألا جناح عليها فى الاقتداء به، فقفزت على الفأر الذى بحث دون جدوى عن جحرٍ يختبئ فيه،

ثم حدثت المعجزة وظهر جحر لم يكن موجودًا من قبل وهرب الفأر إلى داخله. لكن القطة لاحقت الفأر، ورغم أنها لم تستطع أن تتبعه إلى داخل الجحر، فإنها دست فيه مخلبها وحاولت أن تجرجر الفأر وتخرجه من مخبأه. عندئذ فتح الفأر فمه بسرعة على أمل أن يدخل فيه مخلب القطة لئلا تستطيع غرس مخالبها فى لحمه. ولكن لأن تجويف فمه لم يكن واسعًا بما يكفى نجحت القطة فى شقّ وجنتى الفأر بمخالبها. ولم يساعدها ذلك كثيرًا فى أكله، وإنما ساعدها فقط فى توسيع فم الفأر، عندئذ هربت فريستها ثم ذهبت إلى نوح وقالت له: «يا أيها الرجل التقى، أحسن إلىّ وحُكَّ خدى الذى شقته القطة عدوتى». فأمره نوح بأن تُحضر شعرة من ذيل الخنزير وتصلح بها التلف. ولهذا السبب جاء الخط الذى يشبه الغرز المخيطة بجوار فم كل فأر إلى يومنا هذا.

والغراب حيوان آخر تغير مظهره أثناء رحلته على ظهر السفينة. فعندما رغب نوح فى أن يبعثه لينظر حالة المياه، اختبأ تحت جناحى النّسْر. ومع ذلك فقد وجده نوح وقال له: «اذهب وانظر إن كانت المياه قد انحسرت» ناشده الغراب قائلاً: «أما وجدت غيرى من بين جميع الطيور لترسله فى هذه المهمة؟» أجابه نوح: «ليس لى سلطان إلا عليك وعلى اليمامة». لكن الغراب لم يقتنع وقال لنوح بوقاحة كبيرة: «إنما ترسلنى أنا لألقى حتفى، وأنت تتمنى أن أموت لتصبح زوجتى فى خدمتك». وعندها لعن نوح الغراب هكذا: «فليلعن الله فمك هذا الذى نطق بالسوء معى، فلا تستطيع مجامعة زوجتك إلا من خلاله». وقالت كل الحيوانات على السفينة: آمين. وهذا هو السبب الذى من أجله تسيل كمية من اللعاب من فم ذكر الغراب إلى فم الأنثى خلال عملية الجماع، ولا تحبل الأنثى إلا بهذه الطريقة. والغراب حيوان غير جذاب بالمرة. وهو قاس مع صغاره طالما لم تُغَطَّ أجسامهم بعد بالريش الأسود، رغم أن الغربان يحب بعضها البعض كقاعدة عامة. ولذا يولى الرب الغربان الصغار حمايته الخاصة. ويخرج من برازها يرقات

تتغذى عليها خلال الأيام الثلاثة الأولى بعد ولادتها، إلى أن ينقلب ريشها الأبيض أسودَ وتدرك آباؤها أنها صغارها وذريتها فتهتم بها.

كذلك فإن على الغراب أن يلوم نفسه لهذه العرجة فى مشيته، فقد لاحظ الخطوات الرشيقة لليمامة وحاول أن يقلدها حسدًا لها. وكانت النتيجة أنه كاد يكسر عظامه دون أن ينجح مطلقًا فى التشبه باليمامة، فضلاً عن تسببه فى احتقار الحيوانات الأخرى له. وأثار فشله سخريتهم. ثم قرر أن يعود إلى مشيته الأولى، لكنه كان قد نسيها، فلا هو استطاع أن يمشى بهذه ولا تلك وأصبحت مشيته حجلاً بين المشيتين. وهكذا نرى مدى صدق مقولة أن مَن لم يرض بنصيبه الصغير يفقد قليل ما يملك وهو يحاول الحصول على المزيد والأفضل.

والثور كذلك هو أحد الحيوانات التى تغيَّرت على مرِّ الزمن. ففى الأصل كان الشعر يملأ وجهه بالكامل، لكن لم يعد هناك الآن أى شعر على أنفه، وذلك لأن «يشوع» قبَّله على أنفه أثناء حصار «أريحا». وكان يشوع رجلاً ثقيلاً إلى درجة هائلة. ولم تستطع الخيول ولا الحمير ولا البغال أن تحتمله وكانت كلها تخر تحت ثقله. وفعل الثور ما لم يستطيعوا فعله. وعلى ظهره ركب يشوع ماضيًا فى طريقه إلى حصار أريحا، وقبَّله على أنفه عرفانًا بجميله.

والأفعى كذلك هى مختلفة عما كانت عليه. فقبل سقوط الإنسان كانت أذكى الحيوانات التى خلقت، وكانت تشبه الإنسان فى هيئتها كثيرًا. فكانت تقف منتصبة وكانت ذات حجم غير عادى. وفيما بعد فقدت المزايا العقلية التى كانت تتميز بها عن الحيوانات الأخرى، كما أنها انحطت فى خلقتها كذلك؛ فقد حرمت من قدميها، ولذا لم تستطع أن تطارد الحيوانات الأخرى وتقتلها. وبالمثل كان يجب أن يصبح «الخُلْدُ» و«الضفدع» غير مؤذيين بطرق مشابهة؛ فالأول ليس له عينان، والضفدع ليس له أسنان، وإلا لما أمن حيوان

فى الماء على حياته منه.

وبينما جلب مكر الأفعى عليها سوء العاقبة، فإن دهاء الثعلب قد نفعه فى مواقف كثيرة صعبة. فبعدما ارتكب آدم خطيئة العصيان، سلم الربُّ عالم الحيوان كله إلى سلطة ملك الموت، وأمره أن يرمى زوجين من كل نوع فى الماء. وهكذا صار له هو وليڤياثان السيطرة على كل ما له حياة. وعندما همَّ ملك الموت بتنفيذ الأمر الإلهى على الثعلب، بدأ الثعلب يبكى بحرقة.

وسأله ملك الموت عن سبب دموعه، فقال له الثعلب: إنه كان ينوح حزنًا على المصير المؤسف الذى لقيه صديقه. وأشار لحظتها إلى صورة ثعلب منعكسةٍ فى الماء، وما كانت إلا انعكاس صورته هو. فتركه ملك الموت وخلَّى سبيله مقتنعًا بأن أحد أفراد عائلة الثعالب قد ألقى بالفعل فى الماء. وحكى الثعلب للقطة عن خدعته ففعلتها مع ملك الموت ولذا لم يتم تمثيل القطط ولا الثعالب فى الماء، بينما تم ذلك مع كل الحيوانات الأخرى.

وعندما استعرض ليڤياثان الحيوانات ولم يجد الثعلب، وأخبروه بالطريقة الماكرة التى أفلت بها من سلطانه؛ أرسل سمكات ضخمات وقويات فى مهمة إغواء هذا الغائب للنزول إلى الماء. فبينما كان الثعلب يسير بجوار الماء؛ لمح هذا العدد الكبير من السمك، فصاح قائلاً: «ياله من سعيدٍ من يُشبع جوعته بلحم هؤلاء» وأخبره السمك بأنه ليس عليه سوى أن يتبعه لكى يُرْضِى شهيته بكل سهولة. كما أخبروه أن هناك تكريمًا كبيرًا فى انتظاره. وذلك بأن قالوا له: أن ليڤياثان قد حضره الموت وقد أمرهم بتعيين الثعلب خليفة له، وأنهم على استعدادٍ لحمله على ظهورهم، ولذا لا يجب أن يخاف من الماء، وبهذه الطريقة سيوصلونه إلى العرش الذى كان مبنيا ومرتفعا فوق صخرة ضخمة. وانخدع الثعلب بهذه الذرائع ونزل إلى الماء. وفى الحال تملكه شعور بالقلق. إذ بدأ يشعر أن المائدة قد قلبت فى وجهه، فها هو يُلعب به بدلاً من أن يلعب هو بالآخرين. واستحث الأسماك لتخبره بالحقيقة

فأقرت بأنها قد أُرسلت لتذهب به إلى ليڤياثان الذى كان يريد قلبه ليصبح عليمًا مثل الثعلب لأنه سمع كثيرين يثنون على حكمته. فوبخهم الثعلب قائلاً: «لماذا لم تقولوا لى الحقيقة فى البدء؟ إنكم لو فعلتم لكنت قد أحضرت قلبى معى للملك ليڤياثان الذى شرفنى بهذا التكريم. ولاشك أنه سيعاقبكم لإحضاركم لى بدون قلبى. فكما ترون لا تحمل الثعالب قلوبها معها، وإنما تحتفظ بها فى أماكن آمنة، وعندما يحتاجوها يحضرونها من هذه الأماكن».

وفى الحال سبح السمك عائدًا إلى الشاطئ وأنزلوا الثعلب ليذهب فيحضر قلبه. وما إن أحس الثعلب باليابسة تحت قدميه إلا وأخذ يتقافز ويتصايح، وعندما استحثوه ليذهب ويحضر قلبه ثم يتبعهم، قال لهم:«يا أيها الأغبياء، أكنت سأقدر على النزول معكم إلى الماء لو لم يكن قلبى معى؟ أيوجد مخلوق واحد يستطيع السير بدون قلبه ؟» أجابه السمك قائلين: «تعال تعال ولا تضحك علينا». ردّ الثعلب قائلاً: «يا أغبياء. إنى قد استطعت خداع ملك الموت فما أسهل على أن أضحك عليكم؟» فاضطروا للعودة خائبين دون أن يقضوا غرضهم، ولم يستفد ليڤياثان إلا التأكد من مكر الثعلب ودهائه قائلاً: «إن شئتم الحقيقة؛ فإن الثعلب ذكى ماكر وما أنتم إلا حمقى».

ط ـ كل الأشياء تسبح بحمد الرب

«كل ما خلق الرب له قيمته» حتى الحيوانات والحشرات التى تبدو عديمة النفع ومؤذية من النظرة الأولى؛ لها مهمة يجب أن تتمها. فالحلزون يجرجر وراءه سائل رطب أثناء زحفه، وباستخدامه وهو رطب ينفع كعلاج للدمامل. ولدغة الزنبور تعالجها الذبابة المنزلية عندما تُسحق وتوضع على الجرح. أما الجرجسة(*) ـ تلك المخلوقة الضعيفة التى تأكل الطعام ولا تتبرزه أبدًا ـ فهى علاج ناجع ضد سم الأفعى، وحتى هذه الزاحفة السامة

(*) بعوضة صغيرة تشبه الذبابة السوداء . (المترجم)

نفسها تعالج الطفح الجلدى، بينما السحالى هى المصل المضاد للعقارب. وليست كل المخلوقات تخدم الإنسان وتساهم فى راحته فقط، لكن أيضًا فإن الرب «يعلمنا بواسطة بهائم الأرض ويعلمنا الحكمة من خلال طيور السماء» وقد أنعم على العديد من الحيوانات بسمات أخلاقية حميدة؛ ليقتدى بها الإنسان. ولو لم تكن التوراة قد أُوحيت إلينا، لكُنَّا تعلمنا احترام آداب الحياء من القطة التى تغطى برازها بالتراب؛ واحترام ملكية الآخرين من النمل الذى لا يتعدى أبدًا على مخزون غيره من النمل؛ واحترام السلوك المهذب من الديك الذى، كلما أراد أن يجامع الدجاجة يَعُدها بأن يشترى لها عباءة طويلة طولاً يكفى لأن تصل إلى الأرض، وعندما تذكِّره الدجاجة بوعده، يهز عرفه ويقول: «فلأعدم عرفى إن لم أشتره عندما يتوافر لى المال». والجندب أيضًا عنده درس ليعلمِّه للإنسان فهو يغنى طوال الصيف حتى ينفجر بطنه ويبتلعه الموت؛ فرغم أنه يعلم المصير الذى ينتظره، فإنه يغنى ويستمر فى الغناء. ولذا يجب أن يقوم الإنسان بواجبه تجاه الرب، مهما كانت العواقب. أما اللقلق فيجب أن تقتدى به فى شيئين: فهو يحمى طُهْرَ حياته الأسرية فى حماس، وهو رؤوف ورحيم برفيقته. وحتى الضفدع يمكن أن يكون معلمًا للإنسان. فإلى جانب الماء تعيش فصيلة من الحيوانات لا تتكون إلا من مخلوقات مائية. وعندما يلاحظ الضفدع أن أحدها جائع يذهب إليه طواعية ويقدم نفسه طعامًا له، محققًا التشريع الذى يقول: «لو كان عدوك جائعًا فأعطه خبزًا ليأكله؛ ولو كان عطشانًا، فأعطه الماء ليشربه»[1].

وقد أوجد الرب العالم كله لمجده، ولكل مخلوق ترنيمة الحمد الخاصة به التى يثنى على الخالق بها. فالسموات والأرض، والجنة والنار، والصحراء والمزارع والأنهار والبحار، لكلٍّ منها طريقته الخاصة فى تعظيم الرب. وترنيمة الأرض هى: « من[2] أقاصى الأرض سمعنا ترنيمة: «المجد للبار»

(١) فى سفر الأمثال: «إن جاع عدوك فأطعمه خبزا، وإن عطش فاسقه ماء؛ فإنك تجمع جمرا على رأسه. والرب يجازيك» (أمثال ٢٥ : ٢١ ـ ١٢). (المحقق)

(٢) فى سفر إشعياء: هم يرفعون أصواتهم ويترنمون لأجل عظمة الرب يصوّتون من البحر =

ويصيح البحر قائلاً: «فوق[1] أصوات مياهٍ عديدة، والأمواج الهائلة فى البحر، فالرب فى العلاء قادرٌ».

كذلك فإن الأجرام السماوية والعناصر تصرح بحمد خالقها، الشمس والقمر والنجوم والسحاب والرياح والبرق والندى. ويقول الشمس: «يقف[2] الشمس والقمر ثابتين كلٌّ فى مكانه، عند نور سهامك وهى تنطلق، عند إشراق رمحك اللامع». وتغنى النجوم قائلة: «أنت[3] الرب، أنت وحدك؛ خلقت السموات، وسماء السموات بكل ملائكتها، والأرض وكل ما عليها، والبحار وما فيها، وأنت تحفظها جميعًا؛ والملأ السماوى يعبدك».

علاوة على ذلك، فلكل نبات أغنية حمد. فالشجرة المثمرة تغنى: «إذاً فلتغنِّ[4] كل أشجار الوعر فرحًا، قِبَلَ الرب، إذ أنه يأتى؛ إذ أنه يأتى ليحكم

= ولذلك فى المشارق مجدوا الرب. فى جزائر البحر مجدوا اسم الرب إله إسرائيل. من أطراف الأرض سمعنا ترنيمة «مجدا للبارّ... إلخ» والنص هذا نبوءة عن محمد ﷺ بمعارك «يوم الرب» (المحقق)

(١) هذا النص تكملة النص السابق. وهو فى معارك يوم الرب الشديدة على اليهود. وقد عبر عن شدتها بأساليب مجازية « من أطراف الأرض سمعنا ترنيمة مجدا للبار. فقلت: ياتلفى يا تلفى. ويل لى. الناهبون نهبوا نهبا. عليك رعب وحفرة وفخ يا ساكن الأرض. ويكون أن الهارب من صوت الرعب يسقط فى الحفرة، والصاعد من وسط الحفرة يؤخذ بالفخ؛ لأن ميازيب من العلاء انفتحت وأسس الأرض تزلزلت. انسحقت الأرض انسحاقا. تشققت الأرض تشققا. تزعزعت الأرض تزعزعا، ترنّحت الأرض ترنحا كالسكران، وتدلدلت كالعِرزال، وثقل عليها ذنبها. فسقطت ولا تعود تقوم.

ويكون فى ذلك اليوم أن الرب يطالب جند العلاء فى العلاء ملوك الأرض على الأرض، ويُجمعون جمعا كأسارى فى سجن، ويُغلق عليهم فى حبس. ثم بعد أيام كثيرة؛ يتعهدون، ويخجل القمر وتخزى الشمس؛ لأن رب الجنود قد ملك فى جبل صهيون وفى أورشليم. وقدام شيوخه مجد... إلخ» (إش ٢٤) ويسمى مفسرو التوراة هذه النبوءة بدينونة الرب فى المعارك الأخيرة.

(٢) هذا النص فى الأصحاح الثالث من سفر حبقوق. وفيه يتكلم عن معارك محمد ﷺ مع اليهود فى الأيام الأولى لظهوره. والنص هو: «الشمس والقمر وقفا فى برجهما لنور سهامك الطائرة للمعان برق مجدك» (المحقق)

(٣) المزمور المائة والسادس والأربعون وغيره «الصانع السموات والأرض البحر وكل ما فيها.. إلخ» (المحقق)

(٤) هذا فى المزمور السادس والتسعين. وهو نبوءة عن مجىء محمد ﷺ ليوم الدينونة. وهو أيام معارك يوم الرب «لتفرغ السموات ولتبتهج الأرض ليعج البحر وملؤه. ليجذل الحقل وكل ما =

الأرض». وتغنى سنابل الحبوب فى الأرض قائلة: «المراعى[١] مغطاة بالقطعان؛ والوديان كذلك مغطاة بالقمح؛ وهى تصيح فرحًا، وهى أيضًا تغنى».

ومن أعظم منشدى الحمد الطيور، ومن أعظمها الديك. وعندما يذهب الرب عند منتصف الليل إلى المتقين فى الجنة، تندفع كل أشجارها إلى الحمد وتوقظ أغانيها الديك الذى يبدأ بدوره فى حمد الرب. ويصيح سبع مرات، تاليًا آية فى كل مرة. والآية الأولى هى: «ارفعى[٢] رؤوسك، يا أيتها البوابات؛ ولترتفع، يا أيها الأبواب الأبدية، وملك المجد سيأتى. من ملك المجد؟ الرب القوى القادر، الرب القوى فى المعركة». والآية الثانية هى: «ارفعى[٣] رؤوسك، يا أيها البوابات؛ أجل ارفعوها يا أيها الأبواب الأبدية، وملك المجد سيأتى. من ملك المجد؟ رب الجنود هو ملك المجد». والثالثة: «افرحوا[٤] أيها المستقيمون واشغلوا أنفسكم بالتوراة؛ ليكون ثوابكم وفيرًا فى الجيل الآخر» والرابعة: «لقد انتظرت[٥] خلاصك، يارب» والخامسة:

= فيه لتترنم حينئذ كل أشجار الوعر. أمام الرب لأنه جاء. جاء ليدين الأرض ويدين المسكونة بالعدل والشعوب بأمانته» (مز ٩٦). (المحقق)

(١) المزمور الخامس والستون: «تقطر مراعى البرية وتتنطق الآكام بالبهجة. اكتست المروج غنما، والأودية تتعطف بُرّا. تهتف وأيضا تغنى» (المحقق)

(٢) المزمور الرابع والعشرون: «ارفعن أيتها الأرتاج رءوسكن وارتفعن أيتها الأبواب الدهريات فيدخل ملك المجد. من هو هذا ملك المجد؟ الرب القدير الجبار. الرب الجبار فى القتال»

(٣) الآية الثانية يشير بها إلى نهاية المزمور الرابع والعشرين وهى: ارفعن أيتها الأرتاج رءوسكن، وارفعنها أيتها الأبواب الدهريات. فيدخل ملك المجد. من هو هذا ملك المجد؟ رب الجنود هو ملك المجد. سلاه» (المحقق)

(٤) المزمور المائة والثانى عشر «طوبى للرجل المتقى الرب المسرور جدا بوصاياه ونسله يكون قويا فى الأرض. جيل المستقيمين يُبارك. رغد وغنى فى بيته، وبره قائم إلى الأبد. نور أشرق فى الظلمة للمستقيمين. هو حنّان ورحيم وصديق...» وقوله «المسرور جدا بوصاياه» فسره العلماء بفرائض التوراة (مز ١١٩ : ١٦) وقوله «نور أشرق فى الظلمة للمستقيمين» إشارة إلى الجيل الآتى المستقيم وهو جيل «المَسِيّا» وهو جيل سيعم فيه الرخاء والأمن والسلام. فلذلك يجب على المستقيمين على شريعة التوراة أن يترقبوا الجيل الآتى لينعموا مع أبناء هذا الجيل بالخير. (المحقق)

(٥) لقد انتظرت خلاصك يارب» هو فى الأصحاح الخامس والعشرين من سفر إشعياء عن مجىء محمد ﷺ ليخلص اليهود الذين سيؤمنون به من سيطرة أمم الكفر عليهم بالحرب. =

«إلى[1] متى ستنام، أيها الكسلان؟ متى ستنهض من نومك؟» والسادسة: «لاتحبَّن[2] النوم، خشية أن يصيبك الفقر؛ افتح عينيك وستُرْضَى بالخبز» وتقول الأغنية السابعة للديك: «حان[3] وقت العمل للرب لأنهم أهملوا شريعتك».

وأغنية النسر[4] هى: «سأطنُّ لهم وأجمعهم؛ لأننى أخلصهم وسيزيدون كما زادوا من قبل». وهى نفس الأغنية التى سيصدح بها هذا الطائر معلنًا ظهور «المَسِيَّا» والفرق الوحيد أنه عندما يعلن ظهور «المَسِيَّا» سوف يجلس على الأرض ويغنى، بينما في كل الأوقات الأخرى يكون جالسًا فى مكان آخر عندما يغنى.

وليست الحيوانات الأخرى أقل حمدًا للرب من الطيور. فحتى الحيوانات المفترسة تلهج بالحمد. فالأسد يقول[5]: «سيظهر الرب كرجل قوىٍّ، وسيثير الغيرة كالمحارب؛ وسوف يصيح، أجل سوف يصيح عاليًا؛ وسيبطِّش بأعدائه».

= وبدؤه: « يارب أنت إلهى أُعظِّمك. أحمد اسمك لأنك صنعت عجبا» إلى أن قال: «ويقال فى ذلك اليوم هو ذا هذا إلهنا انتظرناه فخلصنا. هذا هو الرب انتظرناه نبتهج ونفرح بخلاصه...إلخ» والإله بمعنى السيد وهو محمد ﷺ والرب بمعنى السيد وهو محمد ﷺ.

(١) «إلى متى تنام أيها الكسلان؟ متى تنهض من نومك؟ قليل نوم... إلخ» (أمثال ٦ : ٩-)

(٢) سفر الأمثال / الأصحاح السادس: «لا تحب النوم لئلا تفتقر. (المحقق)
افتح عينيك تشبع خبزا» (المحقق)

(٣) سفر الزبور كله هو كلام محمد ﷺ عن نفسه بظهر الغيب وقد تمثله داود متكلما فحكى كلامه. فالظاهر أن الزبور كلام داود وفى الحقيقة هو كلام محمد عن نفسه. والمزمور المائة والتاسع عشر يتكلم فيه النبى محمد عن نفسه فيقول: «أجريتُ حكما وعدلا. لا تسلمنى إلى ظالمى» إلى أن قال: «إنه وقت عمل للرب. قد نقضوا شريعتك... إلخ» (المحقق)

(٤) فى الأصحاح السابع والثلاثون من سفر حزقيال: «ها أنا آخذ بنى إسرائيل من بين الأمم التى ذهبوا إليها وأجمعهم من كل ناحية» إلى أن قال: «وأقرهم وأكثرهم وأجعل مقدسى فى وسطهم... إلخ» وهذا النص نبوءة عن محمد ﷺ وإحياء العظام اليابسة. أى إرجاع المملكة. ولذلك قال التلمود بعدها: «معلنا ظهور المسيا». (المحقق)

(٥) فى الأصحاح الثانى والأربعين من سفر إشعياء نبوءة العبد المسالم وهو محمد ﷺ وفيها «الرب كالجبار يخرج كرجل حروب يُنهض غُيرته. يهتف ويصرخ ويقوى على أعدائه» (المحقق)

وسينصح الثعلب بالعدل بهذه الكلمات[١]: «ياويح من يبنى بيته بالضلال، وغرفه بالظلم؛ من يستأجر جيرانه دون أجر ولا يعطيه أجرته».

أجل فالسمك الأبكم يعلم كيف يعلن حمده لربه. فهو يقول[٢]: «صوت الرب على المياه. رب المجد يُرْعِدُ، حتى الرب على مياه عديدة» بينما يصيح الضفدع: «بورك[٣] اسم مجد ملكوته إلى أبد الآبدين».

ورغم حقارتها فإن الزواحف تسبح بحمد خالقها. فالفأر يثنى على الرب قائلا: «كم[٤] أنت عادل فى كل ما قدرته لى!، لأنك عاملتنى بصدق، بينما ارتكبت أنا الشر» وتغنى القطة: «ليسبح[٥] بحمد الرب كلٌّ ما يتنفس. احمدوا الرب».

(١) فى الأصحاح الثانى والعشرين من سفر إرمياء: «ويل لمن يبنى بيته بغير عدل وعلاليه بغير حق. الذى يستخدم صاحبه مجانا ولا يعطيه أجرته ... إلخ» (المحقق)

(٢) المزمور السابع والسبعون نبوءة عن المسيا «صوتى إلى الله فأصرخ. صوتى إلى الله فاصغى إلىّ» إلى أن قال: «أبصرتك المياه يا ألله. أبصرتك المياه ففزعت. ارتعدت أيضا اللجج. سكبت الغيوم مياها. أعطت السحب صوتا. أيضا سهامك طارت. صوت رعدك فى الزوبعة. البروق أضاءت المسكونة. ارتعدت ورجفت الأرض. فى البحر طريقك وسبلك فى المياه الكثيرة» (المحقق)

(٣) المزمور الثانى والسبعون نبوءة عن ملكوت السموات الآتى. وفى نهايته: «ومبارك اسم مجده إلى الدهر. ولتمتلئ الأرض كلها من مجده» (المحقق)

(٤) نبوءة المزمور الحادى والخمسين «إليك وحدك أخطأت، والشر قدام عينيك صنعتُ. إلخ» (المحقق)

(٥) المزمور المائة والخمسون: «كل نَسَمَة فلتسبح الرب» (المحقق)

الفصل الثانى

فـــى آدم

١ـ الإنسان والعالم

بعشـرة أقوالٍ خلق الرب العالـم، رغم أن قولا واحدا كـان سيكفى. ورغب الرب فـى أن يعـرف الكل شـدة العـقـوبة التى سـتـوزع علـى الأشـرار الـذين يدمرون عالمًا خلق بعشرة أقوالٍ كاملة، ومدى حسن الثواب المقدر للمهتدين، الذين يحافظون على عالمٍ خُلِقَ بعشرة أقوالٍ كاملة.

خلق العـالم من أجل الإنسان، رغم أنـه آخر من أتى من مخلوقاته. وكان هذا نظامًا (مقصودًا). فقد كـان مقدرًا له أن يجد كل شىء مُعَدًّا له. فالرب كان هو المضيف الذى أعد المائدة وعليها الأطباق الشهيـة ثم دعا ضيفه للجلوس. وفى نفس الوقت فإن ظهور الإنسان متأخرًا على الأرض إنما أُرِيدَ به أن يضـاف التأنيب إلى التواضع. فليحذر (الإنسان) الغرور، وإلا سيجلب على نفسه الردَّ بأن (بعوضة) الجرجسة أكبر عمرًا منه.

وأفضلية الإنسان على المخلوقات الأخرى ظاهرة فى طريقة خلقه نفسها، وهى مختلفة تمامًا عن طريقة خلق المخلوقات الأخرى. فهو الوحيد الذى خلقه الرب بيده. والباقون نشأوا من كلمة الرب. وجسد الإنسان عالمٌ مُصَغَّر، وهو العالم كله فى صورة مصغرة، والعالم بدوره انعكاس للإنسان.

فالشعر فوق رأسه يناظر غابات الأرض، ودموعه تناظر نهرًا، وفمه يناظر محيطًا. وكذلك يشبه العالم كرتى عينيه: فالمحيط الذى يحيط بالأرض يشبه بياض العين، واليابسة هى الحدقة، وأورشليم هى البؤبؤ (إنسان العين) والهيكل هو الصورة التى تنعكس فى إنسان العين. لكن الإنسان أكثر من مجرد صورة لهذا العالم فهو يجمع بداخله السمات السماوية والأرضية. ويشبه الملائكة فى أربع، والبهائم فى أربع. فقدرته على النطق، وعقله المميِّز ومشيته المعتدلة ونظرة عينيه، كلها تجعل منه ملكًا. لكن من ناحية أخرى، هو يأكل ويشرب ويخرج فضلات جسده، ويتناسل ويموت مثل بهائم البرية. ولذا قال الرب قبل خلق الإنسان: «(الكائنات) السماوية لا تتناسل، لكنها خالدة؛ الكائنات على الأرض تتناسل، لكنها تموت. وسأخلق الإنسان ليوحِّد بين الاثنين، ولذا فعندما يذنب، وعندما يتصرف كبهيمة، يحل عليه الموت؛ لكن إن أحجم عن الخطيئة، سيعيش إلى الأبد».

والآن أمر الرب كل الكائنات فى السموات وعلى الأرض أن تساهم فى خلق الإنسان، وشارك هو بنفسه فى ذلك. وهكذا سيحبونه كلهم، وإن وقع فى الخطيئة ستهتم بخلاصه.

وبالطبع خلق العالم كله من أجل التقىِّ، ذلك الإنسان الذى يخشى ربَّه، الذى سيجعله بنو إسرائيل فى أحسن تقويم بواسطة شريعة الرب التى أوحاها إليهم. ولهذا كان بنو إسرائيل هم الذين وُضِعوا فى الاعتبار عند خلق الإنسان. وقد أُمِرَت كل المخلوقات الأخرى أن تغير طبائعها إذا احتاج بنو إسرائيل إليهم على مدار التاريخ. البحر أمر أن ينقسم أمام «موسى»، والسموات أن تسمع كلام القائد، وأمر القمر والشمس أن يَسْكُنا ولا يتحركا أمام يشوع، والغربان أن تطعم إيليا، والنار ألا تؤذى الشبان الثلاثة فى أتون النار، والأسد ألا يؤذى دانيال، والحوت أن يتقيأ يونس، والسماء أن تفتح أمام حِزقيال.

وفى تواضعه[1]، استشار الرب الملائكة قبل خلق العالم، فيما يخص نيته فى خلق الإنسان. قال (الرب): «من أجل إسرائيل سأخلق العالم، مثلما سأفرق بين النور والظلام. سأفعل ذلك فى مستقبل الأيام من أجل بنى إسرائيل فى مصر، إذ سيحل الظلام الحالك على الأرض، أما بنو إسرائيل فستضىء بيوتهم؛ ومثلما سأفرق بين المياه الموجودة تحت السماء وتلك الموجودة فوق السماء؛ سأفعل ذلك من أجل بنى إسرائيل فأفرق المياه لهم عندما يعبرون البحر الأحمر. وكما سأخلق النباتات فى اليوم الثالث؛ سأفعل ذلك من أجل بنى إسرائيل، إذ سأخلق لهم المن فى البريَّة؛ وكما سأخلق الأجرام المنيرة لتفرق بين النهار والليل؛ سأفعل ذلك من أجل بنى إسرائيل، إذ سأذهب أمامهم فى النهار فى عمود من السحاب وفى الليل فى عمود من النار وكما سأخلق طيور السماء وأسماك البحر، سأفعل ذلك من أجل بنى إسرائيل، إذ سأحضر طيور السلوى لهم من البحر؛ وكما سأضع أنفاس الحياة فى منخرى الإنسان؛ سأفعل ذلك من أجل بنى إسرائيل، إذ سأعطيهم التوراة. شجرة الحياة».

وتعجبت الملائكة من كل هذا الحب الذى أغدقه الله على شعب بنى إسرائيل هذا، فقال لهم الرب: «فى أول أيام الخلق، سأصنع السماوات وسأبْسُطُها؛ وكذلك سيرفع إسرائيل المعبد كمستقر مجدى. وفى اليوم الثانى سأفصل بين المياه الأرضية والمياه السماوية، وكذلك سيُقيم (إسرائيل) حجابًا فى المعبد ليفصل بين المكان المقدس والأقدس. وفى اليوم الثالث سأجعل الأرض تنبت العشب والحشائش؛ وكذلك سيأكل هو، طاعةً لأوامرى، الأعشاب فى الليلة الأولى لعيد الفِصْح ويجهز خبز القربان من أجلى. وفى اليوم الرابع، سأخلق الأجرام المنيرة؛ وكذلك هو سيصنع شمعدانًا ذهبيًّا من

(1) فى كتاب الهداية الذى ألفه المرسلون الأمريكان فى مصر سنة ١٨٩٨م أنهم طعنوا فى القرآن بقولهم: إنه قد جاء فيه استشارة الله للملائكة فى خلق آدم. وهذا يدل على أنهم لم يقرأوا التلمود الذى ذكر هذه الاستشارة.ولم يفطنوا إلى ما جاء فى التوراة وهو: «وقال الله لنعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا» الذى يدل على استشارة. (المحقق)

أجلى. وفى اليوم الخامس سأخلق الطيور؛ وكذلك سيصاغ هو والقروبيم بأجنحة ممتدة. وفى اليوم السادس، سأخلق الإنسان؛ وكذلك سيكرِّسُ إسرائيل إنسانًا من أبناء هارون كواحد من كبار الكهنة من أجل خدمتى».

وطبقًا لذلك فقد كان الخلق كله شَرْطيًا. فقد قال الله للأشياء التى صنعها فى الأيام الستة الأولى: «إذا قَبلَ إسرائيل التوراة فإنكم ستستمرون وتدومون؛ وإلا سأعيد كل شىء إلى الفوضى».

وهكذا ظل العالم كله مترقبًا خائفًا إلى يوم الوحى على جبل سيناء، عندما تَلقَّى إسرائيل وقَبِلَ التوراة، ومن ثم حقق الشرط الذى وضعه الرب عندما خلق الكون.

ب ـ الملائكة وخلق الإنسان

استقر عزم الرب بحكمته البالغة على خلق الإنسان، فاستشار كل من حوله قبل أن يشرع فى إنفاذ غرضه؛ وفى هذا قدوة للإنسان، فمهما كان عظيمًا ومميزًا، فيجب ألا يستحقر نصيحة البسطاء والأقل شأنًا. وفى البداية استشار الرب السموات والأرض، ثم كل الأشياء الأخرى التى خلقها، ثم فى النهاية الملائكة.

ولم تجتمع الملائكة على رأى واحد، فقد استحسن مَلَكُ الحب خلق الإنسان، لأنه سيكون عطوفًا ومحبّاً؛ لكن ملك الحقيقة عارض ذلك، لأنه سيكون ملآنًا بالكذب. وبينما وافق ملك العدل، لأنه سيمارس العدل، فإن ملك السلام عارض، لأنه سيكون ميالاً إلى الشِّجار.

ولكى يُبْطِل معارضته، أنزل الرب ملك الحقيقة من السماء إلى الأرض، وعندما صاح الآخرون محتجين على هذه المعاملة المهينة لرفيقهم، قال (الرب): «ستعود الحقيقة من الأرض».

وكانت اعتراضات الملائكة ستكون أشد قوة لو كانوا علموا الحقيقة كاملة عن الإنسان. فلم يخبرهم الرب إلا عن المتقين، وأخفى عنهم أنه

سيكون هناك ملاعين بين البشر. ومع أنهم لم يعلموا سوى نصف الحقيقة، فقد صاح الملائكة قائلين[1]: «ما هذا الإنسان، الذى توليه اهتمامك؟ وابن الإنسان الذى زرته؟» أجاب الرب: «طيور السماء وأسماك البحر، لم خُلِقَتْ؟ ما فائدة غرفة خزين ملآى بالأطعمة الشهية وليس هناك ضيف ليتمتع بها؟» وعندها لم يجد الملائكة بداً من أن يصيحوا قائلين: «يارب، يا ربنا، يالروعة اسمك فى كل الأرض! افعل ما يروق لك».

وبالنسبة لعدد غير قليل من الملائكة، أتت معارضتهم بعواقب مميتة. فعندما استدعى الرب طائفة الملائكة تحت قيادة الملك ميكائيل، وسألهم عن رأيهم فى خلق الإنسان، ردوا باحتقار قائلين: «ما هذا الإنسان ذلك الذى توليه اهتمامك؟ وابن الإنسان ذلك الذى تزوره؟» وعندها فرد الرب إصبعه الصغير فاحترقوا جميعًا بالنار ما عدا رئيسهم ميكائيل. ولقيت الطائفة التى تحت قيادة جبريل نفس المصير؛ وقد نجا هو وحده من الهلاك.

وكانت الطائفة الثالثة التى استشيرت تحت قيادة الملك لابييل. وقد حذر قواته، مستوعبًا الدرس من مصير أسلافه: «لقد رأيتم ما حلَّ بالملائكة الذين قالوا: «ما هذا الإنسان ذلك الذى توليه اهتمامك؟» لذا فلنراعى ألا نفعل مثلهم، وإلا واجهنا نفس العقوبة. لأن الرب لن يحجم فى النهاية عن فعل ما خطط له. ولذا فمن الحكمة أن نستسلم لرغباته» وهكذا أخذ الملائكة حذرهم وقالوا: «يارب العالم، جَيِّدٌ أنك فكَّرت فى خلق الإنسان. فلتخلقه حسب مشيئتك. أما بالنسبة لنا، فسنكون جلساءه ووزراءه وسنكشف له عن أسرارنا كلها». وعندها غيَّر الرب اسم لابييل إلى رافائيل أى المنقذ ـ لأنه أنقذ أتباعه من الملائكة بنصيحته الحكيمة. وتم تعيينه ملكًا للشفاء. ويمتلك فى خزائنه كل الأدوية السماوية، وأنواع العلاجات الطبية المستخدمة على الأرض.

(١) فى المزمور الثامن: «إذ أرى سمواتك عمل أصابعك. القمر والنجوم التى كونتها. فمن هو الإنسان حتى تذكره وابن آدم حتى تفتقده. وتنقصه قليلا عن الملائكة، وبمجد وبهاء تكلله... إلخ».

جـ ـ خلق آدم

عندما وافقت الملائكة أخيرًا على خلق الإنسان، قال الرب لجبريل: «اذهب وأحضر[1] لى ترابًا من أربعة أركان الأرض، لأخلق به الإنسان». فانطلق جبريل لينفذ أمر الرب، لكن الأرض طردته ورفضت أن يجمع ترابًا منها. احتج جبريل قائلا: «لماذا أيتها الأرض، لا تصغى إلى صوت الرب الذى أنشأك على المياه دون دعامات أو أعمدة؟» ردت الأرض قائلة: «سأكون لعنة وسأكون ملعونة من خلال الإنسان، وإذا لم يأخذ الرب بنفسه التراب منى، فلن يفعلها أحد». وعندما سمع الرب ذلك مد يده وأخذ من تراب الأرض وخلق به الإنسان الأول. وعن قصد أُخِذَ التراب من أربعة أركان الأرض جميعها، ولذا إذا مات إنسان من الشرق فى الغرب، أو مات إنسان من

(١) مؤلف الكتاب يشرح هذا النص من التوراة. وهو عن خلق آدم وحواء وإغواء الحية لهما بعصيان الله وطردهما من الجنة.

النص:

«وجبل الرب الإله آدم ترابًا من الأرض. ونفخ فى أنفه نسمة حياة. فصار آدم نفسًا حيَّةً. وغرس الرب الإله جنة فى عدن شرقًا. ووضع هناك آدم الذى جبله. وأنبت الرب الإله من الأرض كل شجرة شهية للنظر وجيدة للأكل. وشجرة الحياة فى وسط الجنة وشجرة معرفة الخير والشر. وكان نهر يخرج من عدن ليسقى الجنة. ومن هناك ينقسم فيصير أربعة رؤوس. اسم الواحد فيشون. وهو المحيط بجميع أرض الحويلة حيث الذهب. وذهب تلك الأرض جيد. هناك المقل وحجر الجزع. واسم النهر الثانى جيحون. هو المحيط بجميع أرض كوش. واسم النهر الثالث حدافل. وهو الجارى شرقى أشور. والنهر الرابع الفرات.

وأخذ الرب الإله آدم ووضعه فى جنة عدن ليعملها ويحفظها. وأوصى الرب الإله آدم قائلاً من جميع شجر الجنة تأكل أكلاً. وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها. لأنك يوم تأكل منها موتًا تموت. وقال الرب الإله ليس جيدًا أن يكون آدم وحده. فاصنع له معينًا نظيره. وجبل الرب الإله من الأرض كل حيوانات البرية وكل طيور السماء. فأحضرها إلى آدم ليرى ماذا يدعوها. وكل ما دعا به آدم ذات نفس حية فهو اسمها. فدعا آدم بأسماء البهائم وطيور السماء وجميع حيوانات البرية. وأما لنفسه فلم يجد معينًا نظيره. فأوقع الرب الإله سباتًا على آدم فنام. فأخذ واحدة أضلاعه وملأ مكانها لحمًا. وبنى الرب الإله الضلع التى أخذها من آدم امرأة واحضرها إلى آدم. فقال آدم هذه الآن عظمٌ من عظامى ولحمٌ من لحمى. هذه تدعى امرأة لأنها من امرءٍ أُخذت. لذلك يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته ويكونان جسدًا واحدًا. وكانا كلاهما عريانين آدم وامرأته وهما لا يخجلان... إلخ» (تك ٢) (المحقق)

الغرب فى الشرق؛ لا تجرؤ الأرض على رفض استقبال الميت بأن تأمره بأن يذهب إلى المكان الذى أُخِذَ منه. وإذا حدث ومات إنسان، فأينما دفن فإنه يعود إلى الأرض التى نشأ منها. وأيضا كان التراب (الذى خلق منه الإنسان) ذا ألوان عديدة. أحمر وأسود وأبيض وأخضر. أحمر للدم وأسود للأحشاء وأبيض للعظام والعروق وأخضر للجلد الشاحب.

وفى هذا الزمن المبكر تدخلت التوراة. وقالت تخاطب الرب: «يارب العالم. العالم كله ملكك وتستطيع أن تفعل به ما تراه صالحًا. لكن الإنسان الذى تخلقه الآن سيكون قصير العمر، ومثيرًا للمشاكل ومذنبًا. وإذا لم تكن إرادتك هى أن تكون حليمًا وصبورًا معه، فمن الأفضل ألا توجده». أجاب الرب: «أسُمِّيتُ أنا الصبور والرحيم دون سبب؟» وظهرت رحمة الرب ورأفته خصوصًا فى أخذه حفنة من تراب من البقعة التى سيبنى فيها فى مستقبل الأيام المذبح (فى هيكل سليمان) قائلاً: «سآخذ الإنسان من مكان التكفير عن الذنوب، لكى يبقى إلى الأبد».

د ـ روح الإنسان

وإن الاهتمام الذى صاغ به الرب كل تفاصيل جسم الإنسان؛ لا يعد شيئًا إذا قورن باهتمامه بالروح البشرية. فقد خلقت روح الإنسان فى اليوم الأول، لأنها نفس الرب التى تتحرك على وجه المياه. وهكذا فبدلاً من أن يكون الأخير، فإن الإنسان هو فى الحقيقة أول أعمال الخلق.

والنفس، أو لنُسَمِّها باسمها المعتاد «الروح الإنسانية» تمتلك خمس قوى مختلفة. وبواسطة أىٍّ منها تهرب من الجسد كل ليلة وترتفع إلى السماء وتُحَضر للإنسان من هناك حياةً جديدة.

ومع روح آدم خلقت أرواح كل أجيال البشر. وهى مخزونة فى مخزن فى السماء السابعة وتسحب منه (روح) عندما يحتاج إليها (لدخول) جسد بشرى بعد آخر.

وتتحد روح وجسد الإنسان بهذه الطريقة:

عندما تحبل المرأة يحمل ملك الليل «لَيْلَهْ» الحيوان المنوى أمام الرب الذى يقرر أى شكل إنسانى ستصبح، ذكرًا أم أنثى قويّاً أم ضعيفًا، غنيّاً أم فقيرًا، جميلاً أم قبيحًا، طويلاً أو قصيرًا، بدينًا أم نحيلاً، وكل الصفات الأخرى. ويترك التقوى والشر لقرار الإنسان نفسه. ثم يشير الرب إلى الملك المعيَّن على الأرواح قائلاً: «أحضر لى روح فلان الفلانى المخبأة فى الفردوس، واسمه كذا وكذا، وشكله كذا وكذا». فيحضر الملكُ الروحَ المذكورة، فتنحنى أمام الرب عندما تظهر أمامه، وتلقى بنفسها أمامه. وفى هذه اللحظة يصدر الرب الأمر: «ادخلى هذه البويضة المخصبة». وتفتح الروح فمها وتتوسل قائلة: «يا رب العالم، إننى سعيدة فى العالم الذى كنت أعيش فيه منذ يومَ خلقتى. لماذا تريدنى الآن أن أدخل هذه البويضة، أنا الطاهرة النقية، وأنا جزء من مجدك؟» فيواسيها الرب قائلاً: «إن العالم الذى سأدخلك إليه أفضل من العالم الذى كنتِ تعيشين فيه، وعندما خلقتك فإنما خلقتك لهذا الغرض».

بعد ذلك تُجْبَر الروح على الدخول فى البويضة **رغم إرادتها**، ويعيدها الملك إلى رحم الأم. ويُعَيَّنُ ملكان عليها لئلا تغادره أو تسقط منه ويسلط عليها ضوء، يمكن أن ترى الروح بواسطته من طرف الأرض إلى طرفها الآخر. وفى الصباح يحملها مَلَك إلى الفردوس ويريها المستقيمين الذين يجلسون هناك فى مجدهم وعلى رؤوسهم تيجان. ثم يقول الملك للروح: «أتعرفين من هؤلاء؟» فتجيبه بالنفى، فيستطرد الملك قائلاً: «إن من تشاهدينهم هنا قد كوِّنوا مثلك فى أرحام أمهاتهم. عندما أتوا إلى العالم راعو توراة الرب ووصاياه. ولهذا أصبحوا مشاركين فى هذه النعمة التى ترينهم يستمتعون بها.

واعلمى أيضًا أنك يومًا مّا ستغادرين العالم السفلى، وإذا كنت قد راعيت توراة الرب، فإنك ستستحقين الجلوس مع هؤلاء المتقين، وإن لم

تفعلى، فستذهبين إلى المكان الثانى.

وفى المساء يأخذ المَلَكَ الروح إلى الجحيم، وهناك يريها الخطاة الذين تضربهم ملائكة الهلاك بمقامع نارية. وكلهم ينوحون ويولولون ويستغيثون: الرحمة! الرحمة! لكن لا رحمة معهم. ثم يسألها الملك كما سألها فى المرة السابقة: «أتعرفين من هؤلاء؟» وكما فى المرة السابقة تكون الإجابة بالنفى. فيستطرد الملك قائلاً: «هؤلاء الذين تهلكهم النار قد خُلِقوا مثلك. وعندما عاشوا فى العالم؛ لم يراعوا توراة الرب ووصاياه. ولهذا حل بهم هذا الخزى الذى ترينهم فيه ويعانون سوء العذاب. ولتعلمى أنه مقدر لك أنتِ أيضًا أن تغادرى العالم. ولذا كونى مستقيمة ولا تكونى شريرة لكى تفوزى بالعالم الآتى».

وبين الصباح والمساء يطوف الملك بالروح ويريها أين ستعيش وأين ستموت ويريها المكان الذى ستدفن فيه، ويأخذها خلال العالم كله ويريها المهتدين والعصاة وكل الأشياء. وفى المساء يضعها فى رحم أمها وتبقى هناك تسعة أشهر.

وعندما يحين وقت انبعاثها من الرحم إلى العالم الخارجى، يخاطب نفس الملك الروح قائلاً: «لقد حان وقت خروجك إلى العالم». فتتذمر الروح قائلة: «لماذا تريدنى أن أخرج إلى العالم؟» يجيبها الملك: «فلتعلمى أنه كما خلقتِ رغمًا عنكِ، ستولدين الآن رغمًا عنك، وتموتين رغمًا عنك. ورغما عنك ستشهدين على نفسك أمام «مَلِكِ الملوكِ» القدوس تعالى». لكن الروح تظل على عنادها فى رفض الخروج وترك مكانها وعندئذ يقرص الملك الرضيع فى أنفه ويطفئ النور على جبهته ويخرجه إلى العالم رغما عنه. وفى الحال ينسى الطفل كل ما تعلمته روحه ويخرج إلى العالم باكيًا؛ لأنه فقد مكانًا آمنًا ومريحًا.

وعندما يحين وقت فراق الإنسان لهذا العالم، يظهر له نفس الملك ويسأله قائلاً: «ألا تعرفنى؟» ويجيبه الإنسان: «أجل، لكن لماذا جئت إلىَّ

اليوم، ولم لم تأتِ فى يوم آخر؟» فيقول الملك: «لآخذك من العالم، إذ قد حان وقت رحيلك». وعندئذٍ يجهش الإنسان بالبكاء ويخترق صوته كل أرجاء العالم، ولكن لا يسمع صوته مخلوق، فيما عدا الديك وحده. ويحتج الإنسان على الملك قائلاً: «من عالمين أخذتنى وإلى هذا العالم أحضرتنى». لكن الملك يذكّر قائلاً: «أما قلتُ لك أنك خلقت رغم إرادتك، وستولد رغمًا عنك، ورغما عنك ستموت؟ ورغما عنك ستشهد على نفسك وتقر بكل ما فعلت أمام القدوس تعالى».

هـ - الإنسان المثالى

ومثل كل المخلوقات التى كُوِّنت فى أيام الخلق الستة؛ خرج آدم من بين يدى خالقه وقد طُوِّر بشكل كامل وتامٍّ. ولم يكن (حين خلقه) طفلاً وإنما إنسانًا له من العمر عشرون عامًا. وكانت أبعادُ جسمه هائلة تصل من السماء إلى الأرض وما يماثل ذلك من الشرق إلى الغرب. ومن بين الأجيال المتأخرة؛ لم يكن هناك سوى قلائل شابهوا آدم فى حجمه الشاذ وكماله البدنى. فقد كان «شَمْشُون» يمتلك قوته، و«شاؤل» رقبته، وأبَشالوم شعره وسرعته، و«عُزِّيا» جبهته، و«يُوشيا» منخريه، و«صدقيا» عينيه، و«زَربّابل» صوته.

وقد بيَّن التاريخ أن هذه الميزات البدنية لم تأتِ بالخير للكثير لمن حازوها؛ وقد تسببت فى دمارهم جميعًا تقريبًا. فقد تسببت قوة «شَمشون» الجبارة فى موته، وقتل «شاؤل» نفسه بأن قطع رقبته بسيفه؛ وأثناء عدوه السريع اخترقت حربة «أبْنَيْر» جسد «عَسَائيل»؛ أما «أبشالوم» فقد اشتبك شعره بشجرة بلوط وظل معلقًا بها إلى أن لقى حتفه؛ وأصيب «عُزِّيا» بالجُذَام فى جبهته؛ أما السهام التى قتلت «يُوشِيا» فدخلت من منخريه، وسُمِلَتْ عينا «صِدقِيّا».

وورثت البشرية عمومًا القليل من جمال وضخامة أبيها الأول. فأجمل النساء إذا قورنَّ بسارة يصبحن كالقرود إذا قورنوا بالبشر. وهكذا علاقة سارة بحواء، وكذلك حواء تبدو كالقرود إذا قورنت بآدم. فقد كان وسيمًا إلى

حد أن باطن قدمه يطغى على بهاء الشمس.

وكانت خصائصه الأخلاقية تعادل جماله البدنى، إذ أن الرب صاغ روحه بعناية خاصة، وهى (أى روح آدم) صورة الرب، وكما يملأ الرب العالم، فإن الروح تملأ الجسد البشرى، وكما يهدى الرب كل شىء، ولا يراه شىء، فهكذا الروح تَرى لكنها لا تُرى؛ وكما يهدى الرب العالم، تهدى الروح الجسد، وكما الرب فى قداسته نقى، فهكذا الروح؛ وكما يقيم الرب فى الخفاء، فهكذا تفعل الروح.

وعندما أوشك الرب أن يضع روحًا فى جسد آدم الذى يشبه الطين اللازب، قال (أى الرب): «فى أى عضو أنفخ فيه الروح؟ فى الفم؟ لا، إذ سيستعمله ليتكلم بالسوء على أخيه الإنسان. فى العينين؟ لا، بهما سينظر فى شهوة. فى الأذنين؟ لا، ستصغيان إلى النميمة والتجديف. سأنفخها فى منخريه؛ لأنهما يميزان القذر ويحجبانه، ويستنشقان الذكى، وبالمثل سينبذ المتقون الخطيئة، ويستمسكون بكلمات التوراة».

وتبدَّت أوجه الكمال فى روح آدم بمجرد أن تلقَّاها، بل وحتى وهو لا يزال دون حياة. ففى الساعة التى فصلت بين نفخ الروح فى الإنسان الأول وصيرورته حيّاً، كشف الرب له تاريخ البشرية. فأراه كل جيل وملوكه؛ وكل جيل وأنبيائه؛ وكل جيل ومعلميه؛ وكل جيل ومتعلميه؛ وكل جيل وساسته وكل جيل وقضاته؛ وكل جيل والمتقين فيه. وحكاية سنواتهم، وعدد أيامهم، وحساب ساعاتهم، ومقاس خطواتهم، كل ذلك تم تعريفه به.

وتنازل آدم بمحض إرادته الحرة عن سبعين من السنين المخصصة له. فقد كان مقدرًا لعمره أن يستمر لألف عام، أىْ يوما واحدًا من أيام الرب، لكنه رأى أن دقيقة واحدة من الحياة فقط هى التى خصصت لروح داود العظيمة، فوهبها سبعين عامًا، لتقل سنون عمره إلى تسعمائة وثلاثين.

وتجلت حكمة آدم بأفضل ما يكون عندما سمَّى الحيوانات. ثم ظهر أن

الرب. فى تنفيذه لآراء الملائكة الذين عارضوا خلق الإنسان ـ كان على حق عندما أصر على أن الإنسان سيمتلك حكمةً أكثر منهم هم أنفسهم. وبعد ساعة بالكاد من خلق آدم، جمع الرب عالم الحيوانات جميعًا أمامه وكذلك الملائكة الذين طلب منهم أن يسمُّوا كل نوع باسمه لكنهم فشلوا. ومع ذلك فإن آدم قال دون تردد: «يارب العالم، الاسم المناسب لهذا الحيوان؛ هو الثور، ولهذا؛ الحصان، ولهذا؛ الأسد ولهذا؛ الجمل». ونادى كل حيوان باسمه، معطيًا لكلٍّ الاسمَ الذى يناسب شخصيته المتفردة ثم سأله (الرب) عن اسمه فأجابه بأنه «آدم»، لأنه خلق من «الأدما» أى تراب الأرض ثم سأله الرب عن اسمه هو فقال: «أدُوناى» يارب؛ لأنك سيد جميع الخلائق وهو نفس الاسم الذى سمى به الرب نفسه، وهو أيضا نفس الاسم الذى تناديه به الملائكة، والاسم الذى لن يتغير أبدًا. لكن دون هبة[1] الروح القدس، لم يكن آدم ليستطيع أن يجد أسماءً للجميع؛ وقد كان فى الحقيقة نبيًا، وكان لحكمته سمة نبوية.

ولم تكن أسماء الحيوانات هى الإرث الوحيد الذى ورثته عنه الأجيال، إذ تدين له البشرية بكل الحِرَف وخصوصًا فن الكتابة، كما أنه كان هو مخترع اللغات السبعين جميعها. وهناك أيضًا مهمة أخرى أنجزها من أجل ذريته، فقد أراه الرب الأرض كلها وحدد آدم عليه المناطق التى سيستوطنها البشر فيما بعد، وأيها سيظل مقفرًا.

---

(١) المؤلف يتكلم عن الروح بحسب المألوف فى حياة البشر أنها مستقلة عن الروح التى يكون بها الإنسان حيا ناطقا ومتكلما. والروح التى يكون به الإنسان حيا ناطقا ومتكلما. هى «هبة هواء» يستنشقها الإنسان. فيكون بها حيا إذا كانت أعضاء جسده غير ميتة. أى صالحة لاستقبال الهواء ليؤثر فيها.

ومثل ذلك الراديو وإيريال الهواء. فإن الراديو إذا كانت قطعه وأسلاكه موضوعة بإحكام؛ فإنه يكون صالحا لاستقبال الهواء من الإيريال. ولا يقال فى هذه الحالة إن الراديو مكون من جسد وروح. وذلك لأنه مصمم على هذا الوضع. وهكذا الإنسان هو جسد. لو حجبت عنه الهواء لمات الجسد. ولو تركته يتنفس لعاش الجسد. وعلى ذلك فالإنسان هو إنسان بأمرين هما الجسد والروح ـ الذى هو هبة هواء ـ وليس من روح ثالثة بها يعقل أو يفكر. فإن التعقل والتفكر هما من خصائص الجسد الذى ينعشه الهواء. وآية ذلك: أنك تجد الهواء الفاسد يجعل الجسد خاملا يميل إلى النوم وتجد الهواء الذى يهب على المياه صالحا؛ ويجعل الجسد نشيطا.

وفى سفر الحكمة هذا المعنى. وفى كتاب حياة القبور بين المسلمين وأهل الكتاب. (المحقق)

و ـ سقوط الشيطان

وأثارت السِّمات غير العادية التى كان آدم يتمتع بها، سواء أكانت بدنية أم روحية، أثارت غَيْرة الملائكة الذين حاولوا إهلاكه بالنار، وكاد يهلك لولا يد الرب الحافظة التى ربَّتت عليه وأقامت السلام بينه وبين الملأ السماوى. وعلى وجه الخصوص، كان الشيطان يغار من الإنسان الأول، وقادته أفكاره الشريرة فى نهاية المطاف إلى الهاوية. وبعدما أَنْعمَ على آدم بروح، دعا الرب جميع الملائكة للمجىء وتعظيم (آدم) وتكريمه. وقد رفض الشيطان ـ وكان أعظم الملائكة فى السماء وله اثنا عشر جناحًا بدلاً من ستة مثل الآخرين ـ أن يذعن لأمر الرب، وقال: «لقد خلقتَ الملائكة من بهاء[1] «السكينة» وها أنت الآن تأمرنا بأن نخر ساجدين لهذا المخلوق الذى صنعته من تراب الأرض!» أجابه الرب: «ولكن هذا التراب ذو حكمة وفهم أكبر منك».

وعندئذ طلب الشيطان إجراء اختبار للذكاء والفطنة مع آدم، ووافق الرب على ذلك قائلاً: «لقد خلقتُ بهائم وطيورا وزواحف، وسأحضرها جميعًا أمامك وأمام آدم. ولو استطعت أن تسمى كلاً باسمه سآمر آدم بالسجود لك وستقيم بجوار سكينة مجدى. وإذا لم تفعل، ونجح آدم فى تسميتها بأسمائها التى سميتها بها؛ عندها ستكون تابعًا خاضعًا لآدم، وسيكون له مكان فى حديقتى وسيزرعها» هكذا تكلم الرب وأخذ نفسه إلى الفردوس وتبعه الشيطان. وعندما رأى آدم الرب قال لزوجته: «تعالى، هيا بنا نتعبد ونركع؛ لنَجْثُ على ركباتنا أمام الرب خالقنا» والآن حاول الشيطان أن يسمى الحيوانات بأسمائها، ولكنه فشل مع أول اثنين عرضا عليه، وهما الثور والبقرة. فأحضر الرب أمامه اثنين آخرين، وهما الجمل والحمار،

---

(١) من عادة المؤلف تصوير الشىء المعنوى بالحسى؛ لإظهار المعنى. فالسكينة شىء معنوى وهو اطمئنان القلب بنصر الله لعباده. وعلامة نصره لليهود فى الحروب: أن التابوت إذا حملته الملائكة ـ وهم صفة للاويين المتقين ـ وقدمته أمام الصفوف؛ فإنهم يتفاءلون بالنصر المبين. فعبر المؤلف عن السكينة بتعبير يدل على أنها جسم. وفى القرآن الكريم: ﴿إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أى تطمئن قلوبكم بنصر الله. (المحقق)

ولكنه فشل أيضا. ثم التفت الرب إلى آدم وسأله عن أسماء نفس الحيوانات، وصاغ كل سؤال بحكمة بالغة بحيث أن كل سؤال يبدأ بالحرف الأول من اسم الحيوان، وهكذا استطاع آدم أن يظهر الاسم المناسب. واضطر الشيطان للاعتراف بأفضلية الإنسان الأول.

ومع ذلك فقد أخذته نوبة من الصراخ الهستيرى الذى وصل إلى السماء، ورفض السجود لآدم كما أُمِرَ من قبل. وفعلت الملائكة الذين كانوا تحت إمرته مثلما فعل، على الرغم من توسلات «ميكائيل» إليه وكان هو أول من خَرَّ ساجدًا أمام آدم ليضرب المثل الحميد لغيره مِنَ الملائكة. وخاطب ميكائيل الشيطان قائلاً: «اسجد لصورة الرب! وإلاَّ تفعل يحل عليك غضبه!» أجابه الشيطان: «لئن غضب علىّ فسأقيم عرشى فوق نجوم الرب، وسأكون مثل العلىِّ!» وفى الحال طرد الرب الشيطان وأتباعه من السماء، وأهبطهم إلى الأرض، ومن هذه اللحظة نشأت العداوة بين الشيطان والإنسان.

ز- المرأة

وعندما فتح آدم عينيه لأول مرة وشاهد العالم من حوله، أخذ يحمد الرب قائلاً: «كم هى عظيمة أعمالك يارب[1]!» لكن إعجابه بالعالم من حوله لم يَفُقْ إعجاب جميع الخلائق به وظنوا أنه هو خالقهم وأتوه معظمين؛ لكنه قال لهم: لماذا جئتم لتتعبدوا لى؟ أنا وأنتم سنقر بجلال وقدرة من خلقنا جميعًا». وواصل كلامه قائلاً: «الرب[2] يحكم (العالم). وهو مكتسٍ بالجلال».

وليس فقط المخلوقات الأرضية، بل وحتى الملائكة، ظنوا أن آدم هو رب الجميع، وكانوا على وشك تحيته قائلين: «قدوس، قدوس قدوس رب

(١) المزمور المائة والحادى عشر «عظيمة هى أعمال الرب» (المحقق)

(٢) المزمور الثالث والتسعون نبوءة عن محمد ﷺ: وقد بدأها بقوله «الرب قد ملك» يعنون به نبيه الآتى ليملك على العالم. والقرينة الدالة على هذا المعنى: أن الله مالك الملك من قبل محمد ومن بعده. وفى آخرها: «ببيتك تليق القداسة يارب إلى طول الأيام» وبيت الله هو الكعبة المعظمة. ومن ذلك يعلم أن الكلام الذى نطق به آدم وحواء هو التنبؤ بمحمد ﷺ والكاتب وضع نبوءات المزامير بدل كلاميهما. (المحقق)

الملائكة» لولا أن غشّاه الرب النعاس، وعندها علمت الملائكة أنه ما هو إلا كائن بشرىّ.

وكان الغرض من النعاس الذى لفّ آدم هو أن يُمْنَح زوجًا، لكى يكثر النسل البشرى، وتتبين الخلائق جميعها الفرق بين الرب والإنسان. وعندما سمعت الأرض بما كان الرب يريد أن يفعله بدأت ترتجف وتهتز وقالت: «ليست لدى القدرة على توفير الطعام لذرية آدم». لكن الرب طمأنها بالكلمات: «أنا وأنت معًا، سنجد الطعام لهذه الذرارى». وتبعًا لذلك قُسِّم الوقت بين الرب والأرض فأخذ الرب الليل والأرض النهار. فالنوم يغذى الإنسان ويجدد له حيويته وعافيته، ويُزوِّده بالحياة والراحة؛ بينما تنتج الأرض طعامه بمساعدة الرب الذى يسقيها. ومع ذلك فعلى الإنسان أن يفلح الأرض ليكسب طعامه.

والقرار الإلهى بالإنعام على آدم برفيقة قد تلاقى مع رغبات الإنسان الذى اجتاحه شعور بالعزلة عندما أتته الحيوانات أزواجًا ليسميها بأسمائها. ولإزالة شعوره بالوحدة وُهِبَتْ له فى البداية «ليليث» لتكون زوجًا له. وكانت قد خلقت مثله من تراب الأرض. لكنها بقيت معه لفترة قصيرة فقط إذ أصرت على المساواة الكاملة مع زوجها، بناءً على أن أصليهما متطابقين (أى من تراب الأرض). وبمساعدة الاسم الذى لا يوصف، وقد نطقت به، طارت ليليث مبتعدة عن آدم وذابت فى الهواء. واشتكى آدم للرب من أن الزوجة التى منحه إياها قد هجرته، وأرسل الرب ثلاثة من الملائكة ليمسكوا بها، فوجدوها فى البحر الأحمر وحاولوا إرجاعها مهددين إياها بأنها إن لم تفعل فستفقد مئة من أطفالها الشياطين يوميّاً عن طريق الموت. لكن ليليث فضلت هذه العقوبة على العيش مع آدم. وهى تنتقم لنفسها بإيذاء الرضع من الذكور فى أول ليلة من حياتهم، بينما تظل الرضيعات الإناث عرضة لمخططاتها الشريرة حتى يبلغن عشرين يومًا من أعمارهن. والطريقة الوحيدة لتفادى هذا الشر هو تعليق تعويذة تحتوى على أسماء الملائكة الثلاثة الذين أمسكوا

بها (فى أعناق) الأطفال إذ هكذا كان الاتفاق بينهم وبينها.

والمرأة التى قدِّر لها أن تصبح الرفيقة الحقيقية لآدم، أخذت من جسد آدم، إذ «فقط عندما يجمع الشبيه مع الشبيه يصبح اتحادهما غير قابل للانفصال». وكان خلق المرأة من الرجل ممكنًا لأن آدم كان له فى الأصل وجهان انفصلا عند ميلاد حواء. وعندما أوشك الرب أن يخلق حواء قال: «لن أخلقها من رأس الرجل، لئلا تشمخ برأسها عاليًا فى تكبر وغطرسة، ولا من العين لئلا تكون ذات عين زائغة؛ ولا من الأذن لئلا تتجسس؛ ولا من الرقبة لئلا تكون وقحة متبجحة؛ ولا من الفم لئلا تكون ثرثارة؛ ولا من القلب لئلا تميل إلى الحسد؛ ولا من اليد لئلا تتدخل فى ما لا يعنيها، ولا من القدم لئلا تهرول فى كل اتجاه دون هدف. سأصنعها من مكان عفيف فى الجسد «وأخذ يقول لكل عضو وطَرْف يخلقه: «كن عفيفًا، كن عفيفًا». ومع ذلك وبرغم الاحتياط الكبير، فقد اكتسبت النساء جميع العيوب التى حاول الرب أن يتفاداها: فكانت بنات «صِهْيَوْن» متعجرفات وكن يمشين برِقَبات منتصبة (غرورًا) وأعين زائغة؛ وكانت «سارة» تتجسس فى خيمتها الخاصة عندما كان الملك يتحدث مع «إبراهيم» وكانت مريم نمامة، وتتهم «موسى» وكانت «راحيل» تغار من أختها «لَيْئَة» ومدت «حواء» يدها لتأخذ الثمرة المحرمة، وكانت «دينة» تهرول دون هدف.

والتكوين البدنى للمرأة أعقد بكثير من مثيله عند الرجل، وذلك بسبب وظيفة حمل الأطفال، وأيضا بسبب أن نضج ذكاء المرأة أسرع بكثير من ذكاء الرجل. ويجب أن ينسب العديد من الفروق البدنية بين الجنسين إلى حقيقة أن الرجل نبت من تراب الأرض أما المرأة فقد نبتت من العظام. فالنساء يحتجن إلى العطور ولا يحتاجها الرجال؛ ويظل تراب الأرض كما هو مهما مر عليه من زمن؛ ومع ذلك فاللحم يحتاج إلى الملح ليبقى فى حالة جيدة. وصوت النساء ناعم مسرسع، أما صوت الرجال فإنه خشن؛ وعندما تُطهى اللحوم الطرية لا تسمع لها صوتا، لكن إن وضعت عظمة فى إناء فستجدها

فى الحال تقرقع. والرجل يسهل إقناعه أما المرأة فلا؛ لأنه تكفى قطرات قليلة من الماء لتطرى كتلة من الطين، أما العظمة فتظل قاسية جامدة حتى ولو نقعت فى الماء لعدة أيام. ويطلب الرجل من المرأة أن تتزوجه، وليست المرأة هى التى تطلب من الرجل أن يكون زوجًا لها، لأن الرجل هو الذى فقد ضلعًا من أضلاعه ولذلك يسعى دائمًا لاستكمال ما به من نقص. حتى الاختلافات بين الجنسين فى الملابس والهيئات الاجتماعية؛ تعود فى أسبابها إلى أصل كل منهما. فالمرأة تغطى شعرها فى إشارة لما جلبته حواء من خطيئة للعالم؛ فهى تحاول أن تدارى عارها؛ وتسبق النساء الرجال فى البكاء على الموتى، لأن المرأة هى التى تسببت فى جلب الموت إلى العالم. والأوامر الدينية التى خاطبت المرأة وحدها ترتبط بتاريخ حواء. فقد كان آدم هو القربان العظيم للعالم، ودنسته حواء. ونتج الكثير عن تلك الخطيئة؛ فقد أُمرت جميع النساء بتقديم قربان ثقيل جدًّا من العجين؛ ولأن المرأة أطفأت نور روح الإنسان، فقد أُمرت بإيقاد مصباح السبت.

وقد غشى النعاس آدم قبل أن يؤخذ من جانبه ضلع لتخلق منه حواء. ولو كان قد رآها وهى تُخلق، لما أيقظت فيه الحب. وإلى يومنا هذا لا يلتفت الرجال إلى جاذبية وفتنة النساء الذين عرفوهن ولاحظوهن من أيام طفولتهن. وصحيح أن الرب قد خلق زوجًا لآدم قبل حواء، لكنه لم يأخذها لأنها خلقت فى حضوره. ولأنه كان يعرف جيدًا تفاصيل خلقها، لذلك نفر منها. ولكنه عندما استيقظ من سُباته العميق ورأى حواء أمامه بكل جمالها وسحرها، صاح قائلاً: «هذه هى التى جعلت قلبى يدق طوال ليالٍ!» ومع ذلك فقد أدرك طبيعة المرأة من فوره. وعلم أنها ستحقق أغراضها من الرجل، إما بالتوسلات والدموع، أو بالتدليل والملاطفة. ولذا قال: «هذا هو جَرَسِى الذى لا يصمت أبدًا!».

وتم الاحتفال بزواج أول زوجين فى بهرجة لم تتكرر على مر التاريخ كله. فالرب بنفسه ألبس حواء وزينها كعروس قبل أن يقدمها إلى آدم. أجل

فإنه (أى الرب) أمر الملائكة قائلاً:« تعالوا، لنقم بواجبات الصداقة تجاه آدم ومساعدته، إذ أن العالم يعتمد على واجبات الصداقة وهى سارة فى نظرى أكثر من القرابين التى سيقدمها بنو إسرائيل إلىَّ على المذبح». ولذلك أحاطت الملائكة بكوشة الزواج وتلا الرب التبريكات على العروسين، كما يفعل الحَزَان تحت الهوبَّه. بعد ذلك رقصت الملائكة، وعزفت على الآلات الموسيقية أمام آدم وحواء فى غرفهما الزفافية العشر من الذهب واللآلئ والأحجار الكريمة، التى أعدها الرب لهما.

وسَمَّى آدم زوجته إيشا، بينما سمى نفسه إيش، وتخلى عن الاسم آدم، الذى كان يحمله قبل خلق حواء، لأن الرب أضاف اسمه ياه إلى اسْمَىْ الرجل والمرأة، يود إلى إيش، هى إلى إيشا؛ ليدل على أنه طالما التزما بطريق الرب واتَّبعا وصاياه، فإن اسمه سيحميهما من كل سوء. لكن إن ضلاَّ، فسيسحب اسمه، وبدلاً من إيشا لن يبقى سوى إش، أى النار، وهى النار التى ستخرج من أحدهما لتهلك الآخر.

ح ـ آدم وحواء فى الجنة

كانت جَنَّة عَدْن هى مسكن الرجل الأول والمرأة الأولى، ويجب أن تمر عليها أرواح كل الناس بعد الموت، قبل أن تصل إلى غايتها النهائية. إذ أن أرواح الراحلين (أى الموتى) يجب أن تمر من خلال سبع بوابات قبل أن تصل إلى السماء (المسماة) عَرَبوت حيث تتحول أرواح المتقين إلى ملائكة وتبقى هناك إلى الأبد تحمد الرب وتمتع أبصارها ببهاء السكينة.

أول هذه البوابات هى كهف المكفيلة وهو بجوار الجنة ويرعاه ويشرف عليه آدم، فإذا كانت الروح التى تظهر أمام البوابة جديرة (بالدخول) يصيح (آدم) قائلاً: «أفسحو لها الطريق، أهلاً بك!» وعندها تتقدم الروح حتى تصل إلى بوابة الفردوس فتحرسها القروبيم والسيف المشُتعل. وإذا وجد أنها لا تستحق؛ فإنه يهلكها السيف؛ أو تتسلم تذكرة مرور تسمح لها

بالدخول إلى الجنة الأرضية. وهناك عمود من الدخان والنور يمتد من الفردوس إلى بوابة السماء، وتبعًا لطبيعة الروح فإنها تستطيع أن تتسلقه وتصل إلى السماء (أو لا تستطيع). والبوابة الثالثة، الزبول، وتقع عند مدخل السماء. وإذا كانت الروح تستحق؛ يفتح الحارس الباب ويسمح لها بالدخول إلى المعبد السماوى ويحضرها ميكائيل أمام الرب ويقودها إلى البوابة السابعة، «عَرَبوت» حيث أرواح المتقين، وقد تحولت إلى ملائكة، تحمد الرب وتتغذى على بهاء «السكينة».

وفى الفردوس تقف شجرة الحياة وشجرة المعرفة التى تكوِّن سياجًا يحيط بالأولى (= شجرة الحياة). ولا يستطيع الاقتراب من شجرة الحياة إلا من شق لنفسه طريقًا إليها خلال شجرة المعرفة. وشجرة الحياة ضخمة لدرجة أن الإنسان يأخذ خمسمائة عام لكى يعبر مسافة تعادل قطر جذعها، وذلك الفراغ الذى تظلله فروعها الممتدة ليس اتساعه بقليل. ومن تحتها (= شجرة الحياة) تنبع المياه التى تروى الأرض كلها وتتفرع إلى أربعة أنهر وهى: جيحون والنيل ودجلة والفرات لكن مملكة النباتات لم تتغذ على مياه الأرض إلا فى أيام الخلق (الستة) فقط. وفيما بعد جعل الرب هذه النباتات تعتمد على المطر، أى المياه العلوية. فالسحب ترتفع صاعدة من الأرض إلى السماء حيث يُصَبُّ فيها الماء وكأنه يخرج من نافورة متعددة النوافذ.

ولم تشعر النباتات بأثر الماء إلا بعد خلق آدم، فبالرغم من أنها خلقت فى اليوم الثالث، لم يأذن لها الرب بالبزوغ والظهور فوق سطح الأرض، إلا بعد أن دعاه آدم بأن يعطيه الطعام، إذ أن الرب يشتاق لدعوات المتقين.

ولأن الجنة طبيعتها هكذا؛ فمن الطبيعى أن آدم لم يكن يحتاج إلى فلاحة الأرض. صحيح أن الرب قد وضع الإنسان فى جنة عدن ليرعاها ويعتنى بها، ولكن هذه العناية لا تعنى سوى أن يدرس فيها التوراة وينفذ وصايا الرب. وهناك على الخصوص ست وصايا يجب على كل إنسان أن يصغى إليها؛ وكان على كل الأجيال أن تؤسس نظمها على إجراءات

الشـريعـة والنظام. وتوجـد وصـيـة أخـرى كـهذه الوصـايا، لكنهـا كـانت أمـرًا مؤقتًا. وهـى أنه كان على آدم ألا يأكل إلا من الأشياء الخضـراء فى الحقول. فـإن تحـريم اسـتـخـدام الحـيـوانات كطعـام (أى تناول لحـومهـا) لم يُطَبَّق إلا فى زمن نـوح، بعـد الطوفـان. ومع ذلك فلم يُحَـرَم آدم من الاسـتـمـتـاع بطعـام اللحـوم. وبالرغم من أنه لم يـؤذن له بذبح الحـيـوانات ليـرضى شـهـيتـه، فـإن الملائكة كـانت تأتيـه باللحـوم والخمـر، وتخـدمـه كـأنهم خدُمه. وكـمـا كـانت الملائكة تلبى احـتـيـاجـاته، كـذلك كـانت تفـعل الحـيـوانات التـى كـانت تحت سـيطـرته المطلقـة، وكـان تأخـذ طعـامـهـا من يده ومن يد حـواء. ومن كل الجوانب، كـانت علاقـة عـالم الحـيوانات بآدم مـختلفة عن عـلاقاتهـا بذريته. فلم تكن تـعـرف لغتـه وحسب، ولكنهـا كـانت تحـتـرم فـيـه صـورة الرب، وكـانت تخشى أول زوجين. وكل ذلك تغيَّر إلى النقيض بعد سقوط الإنسـان.

ط ـ سقوط الإنسان

وكانت الأفعى متميـزة عن الحيوانات، وكانت تتميز عليها جميعا بسمات ممتـازة وكـانت تتشـابه فى بعض سـمـاتهـا أيضـا مع الإنسـان. فـمـثل الإنسـان كـانت تقف مـنتـصـبـة الظهـر، وكـانـت تعـادل الجمـل فى طول القـامـة. ولولا سقوط الإنسـان ـ الذى جلب عليهم التعـاسـة هم أيضًا ـ لكان قد كفـا زوجان من الأفـاعى للقيـام بكل العمـل الذى كـان على الإنسـان أن يقـوم بـه، ولكانت أيضـا زودته بالذهـب والفضـة والجواهـر واللآلئ. وفـى الواقـع فـقد كـانت هذه القـدرات الخـاصـة للأفعى هـى السـبب فـى مـا حل بالإنسـان وبهـا من خـراب. وقد قـادتها مـواهبها العقلية الفذّة إلى أن تصبح خـائنة، كمـا تفسـر لنـا سـبب حسـدهـا وغيـرتها مـن الإنسان، وخـصـوصًا من عـلاقاته الـزوجية. وقـد جعلها حقـدهـا تفكر فـى الوسـائل والطـرق التى تؤدى إلى مـوت آدم. وقدْ كـانت على علمٍ تامٍّ بطبيعة الإنسـان جعلها تحـاول خداعه بممارسـة سبل الإقناع معه.

واقتربت من المرأة وهى تعلم أن النساء يسهل خداعهن. وقد خططت بمكر لحديثها مع حواء التى لم تستطع تفادى الوقوع فى الفخ. وبدأت الأفعى كلامها قائلة: «هل صحيح أن الرب قال: «إنكما لن تأكلا من كل أشجار الجنة؟» ردت حواء: «نستطيع أن نأكل إن شئنا من ثمار كل أشجار الجنة، عدا تلك الشجرة التى فى وسطها، وحتى لمسها محرم علينا لئلا نموت» وقالت ذلك لأن آدم ـ من فرط حماسته لحمايتها من مخالفة الأمر الإلهى ـ قد حرَّم على حواء أن تلمس الشجرة، رغم أن الرب لم يحرِّم إلا أكل ثمارها. وصدق المثل القائل: «إن حائطًا ارتفاعه عشرة أشبار، ويدوم واقفًا؛ لأفضل من حائط ارتفاعه مائة ذراع ولا يستطيع الوقوف». وكانت مبالغة آدم (فى الحظر) هى التى مكَّنَت الأفعى من إقناع حواء بتذوق الثمرة المحرمة، ودفعت الأفعى حواء إلى الشجرة قائلة: «هل رأيت؟ ها أنت قد لمستِ الشجرة ولم تؤدِّ إلى موتك. وكذلك لن تصابى بأذى لو أكلتِ من ثمار الشجرة. وليس من سبب وراء هذا التحريم إلا سوء الطوية، فما إن تأكلا منها حتى تصبحا مثل الرب، فهو يخلق العوالم ويدمرها، وبالمثل ستكون لكما القدرة على الخلق والتدمير. وكما أنه يميت ويحيى؛ فستكون لكما القدرة على الإماتة والإحياء. وهو نفسه (أى الرب) أكل أولاً من ثمار الشجرة، ثم خلق هذا العالم. ولذا فقد حَرَّم عليكما أن تأكلا منها، خشية أن تخلقا عوالم أخرى. وكل الناس تعرف أن «أهل كل حرفة يكره أحدهم الآخر». وفوق ذلك، ألم تلاحظى أن كل مخلوق يسيطر على المخلوق الذى خُلِقَ قبله؟ فالسموات خلقت فى اليوم الأول، ويحفظها الفلك فى مكانها، والفلك صنع فى اليوم الثانى. وهذا الفلك بدوره تتحكم فيه النباتات التى خلقت فى اليوم الثالث، لأنها تستهلك كل مياه الفلك. والشمس وغيرها من الأجرام السماوية، التى خلقت فى اليوم الرابع؛ تسيطر على عالم النباتات. فهى تستطيع أن تنضج ثمارها ولا تزدهر (أى النباتات) إلا بفعل تأثيرها. وخلق فى اليوم الخامس، الحيوانات، وهى تتحكم فى الأفلاك السماوية.

انظرى إلى «الزيز» الذى يستطيع أن يحجب نور الشمس بجناحيه. وأنتما سادة المخلوقات كلها لأنكما آخر ما خلق. أسرعى الآن وكلى من ثمار الشجرة التى فى وسط الجنة، واستقلِّى عن الرب، لئلا يخلق مخلوقات أخرى غيركما تتحكم فيكما».

ولكى تقنعها بهذه الحجج؛ بدأت الأفعى تهز الشجرة بعنف فتسقط ثمارها، وأكلت الأفعى منها قائلة: «ها أنذا لم أمت بسبب أكل الثمار، وكذلك لن تموتى أنت». ولم تجد حواء ما تفعله سوى أن تقول لنفسها: «إن كل ما أمرنى به سيدى - تقصد آدم وهكذا كانت تناديه - ما هو إلا كذب فى كذب» وقررت أن تعمل بنصيحة الأفعى. لكنها لم تستطع أن تعصى أمر الرب على نحو كامل. وتوصلت إلى حل وسط مع ضميرها. ففى البداية أكلت قشرة الثمرة، ثم لما رأت أنها لم تَمُتْ أكلت الثمرة نفسها، وما كادت تنتهى من أكلها إلا ورأت ملك الموت أمامها. وتوقعت أن تلقى حتفها فى الحال ولذا قررت أن تجعل آدم يأكل هو أيضًا من الثمرة المحرمة لكيلا يتزوج بأخرى بعد وفاتها. وتطلَّب منها ذلك أن تذرف الدموع وتنوح لتؤثر على آدم وتجعله يتخذ تلك الخطوة المشؤومة. ولكنها لم تقنع بذلك فأعطت الثمرة كذلك لكل الكائنات الحية الأخرى، لكى تتعرض هى الأخرى للموت. وأكل الجميع وأصبحوا فانين، فيما عدا الطائر مَلْهَام، الذى رفض الثمرة قائلاً: «ألا يكفى أنَكِ عصيتِ الرب وجلبتِ الموت للآخرين؟ أيجب أن تأتى إلىّ وتحاولى إقناعى بعصيان أمر الرب، لكى آكل وأموت بسبب ذلك؟ لن أفعل ما تأمريننى به». وعندها هتف هاتف سماوى يقول لآدم وحواء: «لقد وُجِّه الأمر إليكما. لكنكما لم تصغيا إليه؛ وتعديتما عليه وتحاولان إقناع الطائر ملهام. لكنه كان ثابتًا وخافنى رغم أننى لم آمره. ولذا فلن يذوق الموت إلى الأبد، لا هو ولاذريته، وسيعيشون جميعًا فى الفردوس».

وقال آدم لحواء: «هل أعطيتنى من (ثمار) الشجرة التى حَرَّمْتُ عليكِ أن تأكلى منها؟ لقد أعطيتنى منها، لأن عينى قد انفتحا، وزادت حدة الأسنان

التى فى فمى». أجابته حواء: «كما زادت حدة أسنانى، فلتكن هكذا أسنان كل الكائنات الحية». وكانت النتيجة الأولى أن أصبح آدم وحواء عُريانين. ومن قبل ذلك، كان جسداهما مغطين بجلد قَرْنى ومغلف بسحابة المجد. ما إن خالفا الأمر الذى وجِّه إليهما إلا وسقطت عنهما سحابة المجد والجلد القرنى ووقفا هناك عريانين خجلانيْن. وحاول آدم أن يجمع أوراق الأشجار ليغطى بها أجزاء من جسديهما لكنه سمع الشجرة تقول لأختها: «هاهو اللص الذى خدع خالقه. لا، لن تقترب منى قدم الغرور، ولاَ يدُ الشرير ستلمسنى. هيا اذهب فلن تأخذ منى أوراقًا». وكانت شجرة التين هى الوحيدة التى أذنت له بأن يأخذ من أوراقها، وذلك لأن التين كانت هى الشجرة المحرمة ثمرتها . وكان آدم فى ذلك مثل الأمير الذى أغوى إحدى الخادمات فى القصر وعندما طرده أبوه الملك لجأ إلى الخادمات الأخريات لكنهن رفضنه ولم تساعده إلا تلك التى جلب عليها العار.

ى ـ العقاب

ومدة وقوف آدم عريانًا يتلفت حوله فى اضطراب للبحث عن وسيلة للهرب من موقفه المحرج، لم يظهر الرب له، إذ ينبغى على المرء «ألا يجتهد فى رؤية شخص ساعة خزيه». وانتظر حتى انتهى آدم وحواء من تغطية أنفسهما بورق التين. ولكنه عرف ما سيحدث، حتى قبل أن يكلمه الرب. فقد سمع الملائكة يقولون: «لقد ذهب الرب إلى هؤلاء الذين يقيمون فى الجنة». وسمع أيضًا ما هو أكثر من ذلك. لقد سمع ما كانت الملائكة تقوله أحدها للآخر عن سقوطه، وما كانوا يقولون للرب. لقد صاحت الملائكة قائلين فى ذهول: «ماذا؟! ألا زال يتجول فى الجنة؟ ألم يَمُتْ بَعْدُ؟». وأجابهم الرب: «لقد قلتُ له «فى يوم أكلك منها ستموت بالتأكيد!» والآن أنتم لا تعلمون أى الأيام كنت أقصد يومًا من أيامى التى يبلغ كل منها ألف عام، أو يوم من أيامكم. سأعطيه يومًا من أيامى. سيعيش تسعمائة وثلاثين سنة، وسيترك سبعينًا لذريته».

وعندما سمع آدم وحواء الرب يقترب، اختبآ بين الأشجار، وهو ما لم يكن ممكنًا قبل السقوط. فقبل أن يرتكب جريمته، كان ارتفاع آدم من السموات إلى الأرض، لكنه قل فيما بعد إلى مئة ذراع. وكان من العواقب الأخرى لخطيئته ذلك الخوف الذى كان آدم يشعر به عندما سمع صوت الرب: فقبل سقوطه لم يكن (الصوت) يسبب له أدنى خوف. ومن ثم عندما قال آدم: «لقد سمعتُ صوتك فى الجنة وخِفْتُ»، أجابه الرب: «أمِنْ قبلُ لم تكن خائفًا، والآن أنت خائف؟».

وفى البداية لم يوبخه الرب وإنما وقف على باب الجنة وسأل: «أين أنت يا آدم؟» وهكذا أراد الرب أن يعلم الإنسان قاعدة من قواعد السلوك المهذب، ألا تدخل أبدًا بيت آخر دون أن تستأذن. ولا يمكن أن ننكر أن الكلمات «أين أنت؟» كانت حبلىً بالمعانى. فقد قصد بها أن يدرك آدم الاختلاف الشاسع بين حالته الأخيرة (بعد المعصية) والأولى (قبل المعصية)؛ بين حجمه غير الطبيعى حينها وحجمه الصغير الآن؛ بين سيادة الرب فوقه حينها وسيادة الأفعى عليه الآن. وفى نفس الوقت أراد الرب أن يمنح آدم الفرصة ليتوب عن خطيئته، وسينعم بالعفو الإلهى عنها. لكنه كان أبعد ما يكون عن التوبة عنها، فقد استهزأ آدم بالرب وتلفظ بالهرطقة فى حقه. فعندما سأله الرب: «هل أكلت من الشجرة التى أمرتك ألا تأكل منها؟» لم يعترف بخطيئته وإنما اعتذر لنفسه قائلاً:«يارب العالم، وأنا وحدى لم أقع فى الخطيئة، لكن ما إن جاءتنى هذه المرأة حتى أغوتنى». أجابه الرب: «لقد أعطيتك إياها عونًا، وأنت ناكر لجميلها. إذ تتهمها قائلاً: «لقد أعطتنى من الشجرة» كان يجب عليك ألا تطيعها لأنك أنت الرئيس لا هى». وقد توقع الرب ـ الذى يعلم كل شىء ـ هذا، ولم يخلق حواء إلا بعد أن طلب منه آدم معينا، ومن ثم لايكون له حجة فى لوم الرب لأنه خلق المرأة.

وكما حاول آدم أن يزيح اللوم عن نفسه لفعلته، فعلت حواء مثله. فهى مثل زوجها، لم تعترف بخطيئتها وتستغفر ـ أى تطلب العفو الذى كان لابد

ستُمنَحه - فمن رحمة الرب وكرمه، أنه لم يحكم على آدم وحواء بسوء العاقبة إلا بعد أن أظهرا أنهما غليظى الرقبة. لم يكن الحال كذلك مع الأفعى، فالرب صبَّ لعنته على الأفعى دون أن يسمع دفاعها عن نفسها؛ فالأفعى شريرة والأشرار يُجيدون الجدال. ولو كان الرب سألها لأجابت الأفعى: «لقد أمرتَهُمَا أمرًا وأنا عارضتُه. لماذا أطاعانى ولم يطيعاك؟» ولهذا لم يخض الرب فى جدال مع الأفعى وإنما أصدر عليها مباشرة العقوبات العشرة التالية:

أغلق فم الأفعى، وحُرِمَتْ من القدرة على الكلام؛ قُطعت قدماها وذراعاها؛ أُعطى لها التراب طعامًا، تعانى آلامًا رهيبة عند تغيير جلدها؛ تستمر دائمةً العداوة بينها وبين الإنسان؛ ولو أكلت ألذّ اللحوم وأحلى الخمور، تتحول جميعها إلى تراب فى فمها وأن يستمر حمل الأفعى سبعة أعوام؛ وأن يبادر الإنسان إلى محاولة قتلها بمجرد أن يقع بصره عليها؛ وحتى فى العالم الآتى، حيث سينعم على كل الكائنات وهى لن تهرب من العقوبة المقررة لها. وستختفى من الأرض المقدسة إذا سار بنو إسرائيل فى سبل الرب.

فوق ذلك تكلم الرب إلى الأفعى قائلاً: «لقد خلقتك لتكونى ملكة على جميع الحيوانات السائبة وبهائم الحقل على حدٍ سواء؛ لكنكِ لم ترضَىْ. ولهذا ستلعنين من كل البهائم السائبة، ومن كل بهيمةٍ من بهائم الحقل. ولقد خلقتُك بقامة منتصبة؛ ولكنك لم ترضى. ولهذا سوف تمشين على بطنك. ولقد خلقتك لتأكلى من نفس الطعام الذى يأكله الإنسان ولكنك لم ترضى. ولهذا سوف تأكلين التراب طوال أيام حياتك كلها. ولقد أردت أن تتسببى فى موت آدم لتتزوجى زوجته. ولهذا سأضع بينك وبين المرأة العداوة». وكم هو صادق أن من يطمع فيما لا يستحق؛ لا يحرم فقط من نيل ما طمع فيه، بل يفقد فوق ذلك ما كان معه! (الطمع يقل ما جمع)

ولأن الملائكة كانت حاضرة عندما نطق بالحكم على الأفعى - إذ أن الرب عقد سنهدرين من واحد وسبعين مَلَكًا عندما جلس للحكم عليها - فقد نِيطَ بالملائكة تنفيذ الحكم. لذلك نزلوا من السماء وقطعوا قدميها وذراعيها. وكانت آلامها عظيمة لدرجة أن صرخاتها كان بالإمكان سماعها فى العالم كلِّه، من أقصاه إلى أقصاه.

وتكوَّن الحكم ضد حواء أيضًا من عشر لعنات لازال أثرها يلاحظ إلى يومنا هذا بدنيّاً وروحيّاً واجتماعيّاً: ولم يكن الرب بنفسه هو الذى أعلن لحواء مصيرها. فالمرأة الوحيدة التى كلمها الرب كانت هى سارة. أما فى حالة حواء فقد استعان (الرب) بخدمات أحد المترجمين. *

وفى النهاية كانت عقوبة آدم هو الآخر عشرة: فقد فَقَد ملابسه السماوية، إذ نزعها الرب عنه؛ وكتب عليه أن يكسب قوت يومه فى أسف وغم؛ وأن يتحول ما يأكله من جيد إلى سيء؛ وأن يهاجر أولاده من أرض إلى أرض، وأن يُخرج جسمه العرق، وأن تنتابه نوازع الشر؛ حتى أنه عندما يموت يُصبح جسمه فريسة للديدان؛ وأن تكون للحيوانات قدرة عليه من حيث استطاعتها قتله؛ وأن تكون أيامه قليلة وملآى بالآلام وفى النهاية يقدّم تقريرًا بكل أفعاله على الأرض.

ولم يكن هؤلاء الخطاة الثلاث هم وحدهم من حلَّت عليهم العقوبة. فالأرض لم تسلم منها، إذْ أُدينت بالكثير من الذنوب ففى المقام الأول، لم تصغ تمامًا إلى أمر الرب الذى أمرها به فى اليوم الثالث، وهو أن تنبت «شجرة مثمرة». وما كان يريده الرب منها هو (أن تنبت) شجرة خشبها طعمه فى نفس لذاذة طعم ثمارها. ومع ذلك فقد أنبتت الأرض شجرة تحمل ثمارًا، أما خشبها فلا يمكن أكله. ولم تقم الأرض بواجبها كله تجاه خطيئة آدم. فقد كان الرب قد عيَّن الشمس والأرض شاهدين على آدم إن هو أخطأ. وتبعًا لذلك أظلمت الشمس فى اللحظة التى عصى فيها آدم،

* لكننى أؤكد للقارئ العزيز أنه لم يكن أنا!! (المترجم).

لكن الأرض ـ لعدم علمها بالطريقة التى تشير بها إلى وقوع آدم فى الخطيئة ـ لم تظهر أية إشارة تدل على خطيئته. فكان على الأرض أن تعانى من عقوبة عَشْرية: فبعدما كانت مستقلة من قبل، حُكِمَ عليها بأن تنتظر حتى تُروى بالماء من فوق؛ وأحيانًا يفسد ثمار الأرض. والغلالُ التى تنتجها يصيبها التعفن والتسوّس. ولابد أن تنتج كل الهوام المؤذية؛ ومن حينها قسمت إلى وديان وجبال ويجب أن تنتج أشجارًا عقيمًا لا تحمل ثمارًا وتنبت منها الأشواك والقتاد؛ ويبذر فيها الكثير ولا يحصد منها إلا القليل؛ وفى مستقبل الزمان ستضطر الأرض لإظهار دم القتلى ولن تغطى قتلاها؛ وفى النهاية «ستصبح عجوزًا مثل الثوب الخَلِق».

وعندما سمع آدم الكلمات «ستنتج الأشواك والقَتَاد»، فيما يخص الأرض، غطى العرق وجهه وقال: «ماذا! آكل أنا وماشيتى من طعام واحد؟» وعندئذ رحمه الرب وتكلم قائلاً: « بعرق جبينك ستأكل الخبز».

ولم تكن الأرض هى المخلوقة الوحيدة التى عانت من خطيئة آدم؛ فقد حل نفس المصير بالقمر. فعندما أغرت الأفعى آدم وحواء، وكشفت عريهما؛ بكيا فى حرقة، وبكت معهما السموات والشمس والنجوم وكل المخلوقات صعودًا إلى عرش الرب. حتى الملائكة أنفسها أحزنتها خطيئة آدم. لكن القمر وحدها هى التى ضحكت. فغضب الرب وحجب نورها، فبدلاً من أن تشرق باستمرار مثل الشمس طوال اليوم، تكبر بسرعة، وتولد من جديد، مرة بعد أخرى.

وقد استاء الرب من ذلك التصرف المشين للقمر، ليس فقط لتناقضه مع التعاطف الذى أبدته كل المخلوقات الأخرى بل لأنه هو نفسه حزن كثيرًا من أجل آدم وزوجه. فقد صنع لهما مآزر من الجلد المنزوع من الأفعى. وكان سيفعل ما هو أكثر من ذلك. فقد كان سيسمح لهما بالبقاء فى الجنة، لو كانا قد تابا. لكنهما رفضا أن يتوبا.

وكان عليهما أن يرحلا، خشية أن يدفعهما فهمهما شبه الربانى إلى

تدمير شجرة الحياة، ومعرفة كيف يعيشان للأبد. وعندما طردهما الرب من الجنة لم يسمح لصفة العدل الإلهى أن تسود بشكل كامل. إذ قد ربطها بالرحمة. وقال لهما عند مغادرتهما (الجنة): «خسارة أن آدم لم يستطع اتباع الأمر الذى فُرض عليه لوقت قصير!».

ولكى يحرس مدخل الجنة عَيَّنَ الربُّ عليه القروبيم، الذى يسمى كذلك «سيف اللهيب الدوّار للأبد»، لأن ملائكة القروبيم يمكنهم تغيير أشكالهم كلما دعت الحاجة لذلك. وبدلاً من شجرة الحياة، أعطى الرب آدم التوراة، وهى شجرة الحياة بالنسبة لهما (بشرط) أن يستمسكا بها، وسمح له بأن يقيم بجوار الجنة، إلى الشرق منها.

وبعد صدور الحكم على آدم وحواء والأفعى، أمر الرب الملائكة أن يطردوا الرجل والمرأة من الجنة. وطفقا يبكيان ويبتهلان فى حرقة فَرقَّ لهما الملائكة ولم ينفذوا أمر الرب، إلى أن يتوسلوا إليه ليخفف حكمه القاسى. لكن الرب كان متصلبًا فى رأيه وقال: «أكنت أنا الذى ارتكبت المعصية أم تُرَانى نطقتُ بحكم ظالم؟» وقد رفضت دعوة آدم بأن يُعطى من ثمار شجرة الحياة، وإن كان قد وُعِدَ بأنه إن عاش حياته تقيًا فسوف يُعطى من تلك الثمار يوم البعث، ويومها سيعيش إلى الأبد.

وعندما رأى أن الرب قد قرر وليس عن قراره رجوع؛ بدأ آدم يبكى مرة أخرى ويناشد الملائكة ليأذنوا له ولو بأخذ التوابل ذكية الرائحة من الجنة، لكى يستطيع تقديم القرابين للرب عندما يصبح فى الخارج، ولتُتَقَبَّلُ صلواته للرب. وعندها ذهبت الملائكة للرب وقالت: «ياملكًا إلى الأبد، إيذن لنا بأن نعطى آدم من توابل الجنة ذكية الرائحة» وسمع الرب دعاءهم. وهكذا جمع آدم الزعفران والناردين والأقورون والقرفة وكل أنواع البذور كذلك من أجل قُوتِه.

وغادر آدم وحواء الجنة محملين بهذه التوابل، وهبطا إلى الأرض. وكانا قد استمتعا بنعيم الجنة، لكن لوقت قصير. هو عدة ساعات قليلة. وكان الرب قد طرأت له فكرة خلق الإنسان فى أول ساعة من اليوم السادس؛

وفى الساعة الثانية استشار الملائكة. وفى الثالثة جمع التراب الذى سيخلق منه الإنسان؛ وفى الرابعة صنع آدم؛ وفى الخامسة ألبسه الجلد؛ وفى السادسة اكتمل الشكل الخالى من الروح بحيث أمكن أن يقف منتصبًا؛ وفى السابعة نفخت فيه الروح؛ وفى الثامنة سيق الإنسان إلى الجنة؛ وفى التاسعة صدر الأمر الإلهى بتحريم (الأكل من) ثمار الشجرة التى فى وسط الجنة؛ وفى العاشرة عصى الأمر؛ وفى الحادية عشرة حُكم عليه؛ وفى الثانية عشرة من النهار طُرد من الجنة، تكفيرًا عن خطيئته.

وكان هذا اليوم الحافل هو أول أيام شهر تشرى[1]، ولهذا تكلم الرب قائلاً لآدم:«ستكون قدوة لبنيك. فكما حكمت عليك فى هذا اليوم وعفوتَ عنك، فكذلك سأحكم على بنيك (شعب) بنى إسرائيل فى يوم رأس السنة هذا، وسأعفو عنهم».

وظهر فى كل يوم من أيام الخلق ثلاثة أشياء: فى الأول، السموات والأرض والنور؛ وفى الثانى الفلك وجهنم والملائكة؛ وفى الثالث الأشجار والأعشاب والجنة؛ وفى الرابع الشمس والقمر والنجوم؛وفى الخامس السمك والطيور وليفياثان. ولأن الرب أراد أن يرتاح فى السابع، يوم السبت[2]، كان عليه أن يقوم فى السادس بواجبات مضاعفة، ولذا فقد ظهر فيه ستة أشياء: آدم وحواء والماشية والزواحف وبهائم الحقل والشياطين الذين خُلقوا قُبَيْلَ حلول السبت بقليل، ولهذا فهى أرواح غير مرئية، فلم يكن لدى الرب وقت ليخلق لهم أجسادًا.

وفى وقت الزوال، بين اليوم السادس و«السبت»، خلقت عشرة أشياء: قوس قزح، ولم يُرَ إلا فى زمن نوح؛ والمنُّ؛ والينابيع المائية؛ التى استقى منها بنو إسرائيل الماء ليروا ظمأهم فى الصحراء،[3] والكتابات على لوحين من

(١) أول شهور السنة العبرية المدنية، السابع فى السنة الدينية وهو عادة جزء من سبتمبر وأكتوبر.

(٢) أى الراحة أو العطلة. (المترجم)

(٣) إشارة إلى قصة انبجاس اثنتا عشرة عينا من الصخر عندما ضربه موسى عليه السلام بعصاه. (المترجم)

الحَجَر التى أُعطيت (لموسى) فى سيناء؛ والقلم الذى كتبت به تلك الكتابات؛ واللوحين نفسيهما، وفم حمارة بَلْعام، وقبر موسى؛ والكهف الذى أقام به موسى وإيليا؛ وعصا هارون، بزهورها ولوزاتها الناضجة.

ك ـ السبت فى السماء

وقبل أن يُخْلَق العالم، لم يكن هناك من يعرف الرب أو يحمده، ولهذا خلق الملائكة و«الهيُّوت» المقدس، والسموات وملأها، وكذلك آدم. وكلهم (قد خلقوا) ليحمدوا ويعظموا خالقهم. ومع ذلك فخلال أسبوع الخلق، لم يكن هناك وقت مناسب للتصريح بجلال وحمد الرب. ولكن فى «السبت»، عندما ارتاحت جميع الخلائق، شرعت كل الكائنات على الأرض وفى السماء، معًا، فى الترنيم والثناء عندما صعد الرب إلى عرشه وجلس عليه. وكان قد جلس على عرش السرور، وجعل كل الملائكة تمر أمامه: ملك المياه وملك الأنهار وملك الجبال وملك التلال وملك الهاويات، ومَلَك الصحارى وملك الشمس وملك القمر وملك الثريَّا وملك الجوزاء، وملك الأعشاب وملك الفردوس وملك جهنم وملك الأشجار، وملك الزواحف وملك الحيوانات البريَّة، وملك الحيوانات الأليفة وملك السمك وملك الجراد وملك الطيور، والملك الرئيس على الملائكة، وملك كل سماء وملك كل فرقة فى الملأ السماوى والملك الرئيس على «الهايوت المقدس»، والملك الرئيس على «القروبيم»، والملك الرئيس على «الشاروبيم»، وكل رؤساء الملائكة الآخرين المعظمين المخيفين والقادرين. وكلهم ظهروا أمام الرب بفرح عظيم وقد طهروا أنفسهم فى نهر من الفرح، وطربوا ورقصوا وغنوا وأثنوا على الرب بكثير من (أدعية) الحمد على الكثير من الآلات الموسيقية. وقال الملائكة المستوزرون: «ليدم جلال الرب!» وشرع بقية الملائكة يغنون قائلين: «ليفرح الرب بأعماله!» وامتلأت «عربوت» ـ السماء السابعة ـ بالفرح والمجد والجلال والقوة والقدرة والجبروت والكبرياء والبهاء والروعة والحمد والبهجة والأغانى والسرور والثبوت والاستقامة والشرف والتعظيم.

ثم أمر الرب مَلك السبت بأن يجلس على عرش من المجد، وأحضر أمامه رؤساء الملائكة من كل السموات وكل الهايوتات وأمرهم بالرقص والتهليل قائلين: «السبت هو إلى الرب!» وأجاب أمراء السماء المثنى عليهم قائلين: «إلى الرب هو السبت!» وحتى آدم سُمِحَ له بالصعود إلى أعلى سماء، ليشارك فى الاحتفال بالسبت.

وبإنعامه بالسبت وفرحه على كل الكائنات حتى آدم؛ أكمل الرب إتقان خلقه. وعندما رأى جلال السبت، وشرفه وعظمته، وما يسبغه على الجميع من سعادة إذ أنه نبع السرور، ترَّنم آدم بأغنية حمد من أجل يوم السبت. ثم قال له الرب: «أإنك لتغنى أغنية حمد ليوم السبت ولا تغنى شيئًا لى، وأنا رب السبت؟» عندها نهض السبت من مقعده وخر ساجدًا أمام الرب قائلاً: «يَجْمُل بنا أن نشكر الرب» وأضاف الخلق كله: «وأن ننشد بالحمد لاسمك، يا عليُّ!» وكان هذا أول سبت، وكان هذا الاحتفال الأول به فى السموات من جانب الرب والملائكة. وأخبر الملائكة فى الوقت نفسه أنه فى مستقبل الأيام سيقدس بنو إسرائيل ذلك اليوم بنفس الطريقة. وأخبرهم الرب (قائلاً): «سأختار لنفسى شعبًا من بين كل الشعوب. وهذا الشعب سيراعى السبت، وسأحرِّمه (أى أجعله حراماً) ليكون شعبى، وسأكون أنا ربه. ومن كل ما رأيته، اخترت بذرة إسرائيل بالكامل، ووسمته «ابنى البكر» واصطفيته لنفسى إلى أبد الآبدين، هو والسبت، إذا حافظ على السبت ولم يعمل فيه عملا مّا».

كان السبت بالنسبة لآدم له أهمية خاصة. فعندما أُمر بالخروج من الجنة فى زوال ليلة السبت، نادته الملائكة قائلين: «آدم لن تبيت فى مجده (تعالى) الليلة!» ثم ظهر السبت أمام الرب مدافعًا عن آدم وتكلم قائلاً: «يارب العالم! خلال أيام الخلق الستة لم يهلك مخلوق. فإذا بدأت الآن بإهلاك آدم، فما الذى سيحل بحرمة وبركة السبت؟» وبهذه الطريقة تم إنقاذ آدم من نيران الجحيم. وهى العقوبة المكافئة لخطيئته. وألَّف عرفانا بذلك، ترنيمة على شرف السبت، وقد جسدها داود فيما بعد فى مزاميره.

ومع ذلك فقد مُنح آدم فرصة أخرى ليتعلم وليدرك قيمة السبت. فالضوء السماوى، الذى كان آدم يستطيع فيه رؤية العالم من طرف إلى طرف، كان سيختفى بعد خطيئته مباشرة. لكن الرب، بدافع الاحترام للسبت؛ ترك هذا الضوء يستمر فى التألق والسطوع، وترنم الملائكة، عند غروب الشمس فى اليوم السادس، بأغنية حمد شكرًا للرب على النور المتألق الساطع خلال الليل. ولم ينقطع النور السماوى إلا مع انتهاء السبت، وهو ما أغمّ آدم الذى كان يخاف أن تهاجمه الأفعى فى الظلام. لكن الرب أضاء فهمه وتعلم أن يَحُكَّ حجرين معًا لينتج ما يحتاج من النار.

لم يكن النور السماوى إلا واحدًا من سبع مِنَح تمتع بها آدم قبل سقوطه ولن تمنح للإنسان مرة أخرى إلا فى زمن «المَسيًّا» والمنح الأخرى كانت إشراق قسماته؛ حياته الأبدية؛ قامته الطويلة؛ ثمار التربة؛ ثمار الشجر؛ والأجرام السماوية المنيرة، الشمس والقمر، إذ أنه فى مستقبل الأيام سيكون ضوء القمر مثل نور الشمس وسيصبح نور الشمس سبعة أضعاف (نورها الآن).

ل ـ توبة آدم

وبعدما طردا من الجنة، بنى آدم وحواء كوخًا لهما، وجلسا به سبعة أيام فى كرب عظيم، ينوحان ويولولان. وفى نهاية الأيام السبعة، بعدما نهشهما الجوع؛ خرجا يبحثان عن الطعام. ولسبعة أيام أخرى ظل آدم يطوف فى الأرض يبحث عن تلك الأطعمة الشهية التى كان يستمتع بها فى الجنة. لكنه لم يجد شيئًا. ثم قالت حواء لزوجها: «سيدى، اذبحنى إن كان ذلك يُسعدك. ربما حينها يعيدك الرب إلى الجنة، لأن الرب إلهنا لم يغضب عليك إلا بسببى». لكن آدم رفض فكرتها وهو غضبان، وشرعا كلاهما يبحثان عن الطعام من جديد. ومرت تسعة أيام، ولم يجدا بَعْدُ شيئًا يشبه ما كانا يأكلانه فى الجنة. لم يجدا سوى طعام صالح للماشية والبهائم. حينها اقترح آدم عليها قائلاً: «لنَتُبْ عن ذنبنا، فلعل الرب إلهنا يصفح عنا

ويرحمنا ويعطينا ما نقيم به أودَنا» ولعلمه أن حواء لم تكن قادرة بما يكفى لتَحَمُّل التعذيب الجسدى الذى كان ينوى أن يوقعه على نفسه، فقد وصف لها توبة تختلف عن توبته. قال لها: «انهضى واذهبى إلى «دجلة» خذى معك حجرًا وقفى عليه فى أعمق جزء من النهر، وحيث يصل الماء إلى عنقك. ولاتنطقى بشىء، لأننا لسنا بأهل لأن ندعو الرب، فشفاهنا نجسة من أثر الثمرة المحرمة. ابقى فى الماء لسبعة وثلاثين يومًا».

وبالنسبة له، فقد نذر آدم أن يصوم أربعين يومًا وهو واقف فى نهر «الأردن» بنفس الطريقة التى كانت ستقف بها حواء فى مياه دجلة. وبعد أن ضبط الحجر فى وسط (نهر) الأردن وصعد عليه والمياه تصل إلى عنقه قال: « أستحلفك بالله يا ماء الأردن إلا واسيتنى بجمعك إلىّ كل المخلوقات السابحة التى تعيش فيك. دعهم يحيطون بى ويشاركوننى أساى، ولا تجعلهم يضربون أثداءهم حزنًا، لكن اجعلهم يضربوننى. فما أذنبوا، فأنا الذى أذنبت وَحْدِى!» وسرعان ما أَتَتْ جميعها، مخلوقات نهر الأردن وأحاطوا به ومن لحظتها سكنت مياه الأردن وتوقفت عن الجريان.

وأثارت توبة آدم وحواء مخاوف الشيطان، إذ خشى أن يغفر لهما الرب خطيئتهما. ولذا حاول أن يعوقها عن غرضها. وبعد انقضاء ثمانية عشر يوما ظهر لها على هيئة ملك، وأخذ يبكى وأنه حزين على ما صارت إليه، قائلاً: «اخرجى من النهر ولا تبكى بعد الآن. لقد سمع الرب الإله عويلك وقبل توبتك. لقد دعت كل الملائكة الرب من أجلك، وقد أرسلنى لأخرجك من الماء وأعطيكِ الطعام الذى كنتِ تستمتعين به فى الجنة والذى كنتِ تنوحين من أجله». ولضعفها ووهنها من عذاباتها وآلامها؛ استسلمت حواء لوساوس الشيطان الذى قادها إلى حيث كان زوجها. وقد عرفه آدم على الفور وصاح من بين دموعه قائلاً: «ياحواء، ياحواء أين هى توبتك الآن؟ كيف سمحتِ لعدونا بأن يغويكِ مرة أخرى، وهو الذى سرق منا نعيمنا فى الجنة وكل مسراتنا الروحية؟» لذلك بدأت حواء تنتحب هى الأخرى وتصيح قائلة:

«ويلك أيها الشيطان! لماذا تحاربنا بدون سبب؟ ماذا فعلنا بك لتطاردنا بهذه البراعة فى المكر؟» فضحك الشيطان ضحكا عاليا وأخبرهما كيف أن آدم، الذى يغار منه، كان هو السبب وراء سقوطه. وبعدما فقد مجده بسببه، فقد تحايل ليُطرد هو الآخر من الجنة.

وعندما سمع آدم اعتراف الشيطان؛ دعا الربَّ قائلا: «ياربى، فى يدك حياتى. خلصنى من هذا العدو الذى يسعى إلى فناء روحى، وامنحنى المجد الذى سُلِب منه». فلما سمع الشيطان هذا الدعاء اختفى وواصل آدم توبته واقفًا فى مياه «الأردن» لأربعين يومًا.

وبينما كان آدم واقفًا فى النهر، لاحظ أن النهار يزداد قِصَرًا وخشى أن يُظلم العالم بسبب خطيئته، ويهوى سريعًا. ولكى يتفادى النهاية، قضى ثمانية أيام فى الصلاة والصوم. ولكن بعد التطرف الشتوى، عندما رأى الأيام تطو ، قضى ثمانية أيام مرة أخرى فى الاحتفال. واحتفل فى العام التالى فى الفترتين كلتيهما، الفترة التى قبل التطرف (الشتوى) والتى بعده. ولهذا السبب يحتفل الوثنيون ببدايات الشهور وبالزحليات(*) تشريفًا لآلهتهم، رغم أن آدم قد كرس هذه الأيام لتعظيم الرب.

وعندما شاهد آدم لأول مرة غروب الشمس تملكته المخاوف كذلك. وحدث ذلك فى نهاية السبت، وقال آدم: «يا ويحى! بسببى، ولأننى أذنبت أظلم العالم، وسيعود خُواءً كما كان بدون هيئة. هكذا ستنفذ عقوبة الموت التى حكم علىَّ بها الرب!» وقضى ليلته كلها فى البكاء، وبكت حواء أيضا وهى جالسة قبالته. وعندما بزغ الفجر أدرك أن ما أغمه إنما هو من مجريات الطبيعة، وقدم قربانًا للرب، وكان خرتيتًا خُلِقَ قرنهُ قبل حوافره، وضحى به فى البقعة التى أقيم فيها فيما بعد المذبح فى أورشليم.

(*) مهرجان زحل فى منتصف ديسمبر عندما كان السادة والعبيد يتبادلون الأردية والأزر (جمع إزار). (المترجم).

م ـ كتاب رازيل

وبعد طرد آدم من الجنة دعا الرب بهذه الكلمات:

«يارب، يا إله العالم. لقد خلقتَ العالم كله لمجدك وجلالك الجبَّار، وفعلت ما شئت. ملكوتك إلى أبد الآبدين، وسلطانك على كل الأجيال. لا شىء يخفى عليك، ولا تغيب عن عينيك غائبة وخلقتنى بيدك وجعلتنى حاكمًا على مخلوقاتك؛ لأكون رئيس أعمالك. لكن الأفعى الماكرة الملعونة أغرتنى بشجرة الرغبة والشهوات. أجل، وقد أغوت زوجة حضنى. لكنك لم تخبرنى بما سيحدث لذريتى وللأجيال من بعدى. أعلم ألا إنسان يمكن أن يكون مستقيمًا فى نظرك، وما هى قدرتى التى تمكنِّى من أن أخطو أمامك بوجه ثابت؟ لافم لى لأتكلم به ولا عين لى لأرى بها، لأننى أخطأت واقترفت إثمًا، وبسبب خطاياى، طردتُ من الجنة. ويجب أن أحرث الأرض التى أُخذت (أى خلقتُ) منها، كما أن سكان الأرض الآخرين، البهائم، ما عادوا يخافوننى كما كانوا فى السابق يفعلون.

ومن وقتِ أن أكلتُ من شجرة معرفة الخير والشر، غادرتنى الحكمة، وها أنا أحمق لا يعرف شيئًا، وجاهل لا يفهم شيئًا. والآن، ياربُّ يا رحيم ياكريم، أدعوك لتعيد رحمتك لرأس أعمالك (أى هو نفسه آدم) وإلى النفس التى بثثتها فيه، وإلى الروح التى نفختها فيه. عاملنى بكرمك، إذ أنت الكريم، البطىء الغضب، الملىء بالحب ولتصل دعواتى إلى عرش مجدك، وابتهالاتى إلى عرش رحمتك، ولتمِل إلىَّ بعطفك. فلتَقْبل كلمات فمى، ولا تُدِرّ ظهرك لالتماسى. فأنت من الأزل وإلى الأبد كنت المَلِك وستظل الملك إلى الأبد. والآن لتحل رحمتك بصنيع يديك.. امنحنى المعرفة والفهم لأعلم ما سيحل بى وبذريتى وبكل الأجيال التى ستأتى بعدى، وماسيحدث لى فى كل يوم وفى كل شهر، ولا تحرمنى من عون خدمك وملائكتك».

وفى ثالث يوم بعد أن تلا هذه الصلاة، وبينما كان يجلس على ضفاف

النهر الذى يتدفق خارجًا من الجنة، ظهر له هناك، فى حرِّ النهار، الملك رازيل يحمل فى يده كتابًا. وخاطب الملكُ آدم قائلاً: «يا آدم، لم أنت ثقيل القلب هكذا؟ لماذا أنت حزين ومهموم هكذا؟ لقد سُمِعَتْ كلماتك لحظة أن تفوهت بدعائك وابتهالاتك، وقد كُلِّفْتُ بأن أعلِّمكَ كلمات نقيَّة وفهمًا عميقًا، لأطلعك على محتويات الكتاب المقدس الذى فى يدى، لتعلم ما سيحدث لك إلى يوم موتك. ولكل ذريتك ولكل الأجيال اللاحقة، لو قرأوا هذا الكتاب فى طهر، بقلب خاشع وعقل متواضع، ويطيعون تعاليمه، سيصبحون مثلك. وسيعرفون هم أيضًا مسبقًا الأشياء التى ستحدث وفى أى شهر وفى أى يوم أو فى أى ليلة. وكل ذلك سيكون ظاهرًا لهم، وسيعرفون ويفهمون إن كانت ستحلّ قارعة، أو تعمّ مجاعة أو بهائم مفترسة، أو فيضانات أو قحط. إن كانت ستحدث وفرة فى الغلال أم ندرة؛ إن كان الأشرار سيحكمون العالم؛ إن كان الجراد سيدمر الأراضى الزراعية. إن كانت الثمار ستتساقط من الأشجار فجة غير ناضجة. إن كانت الدمامل ستصيب الناس. إن كانت الحروب ستسود، أو الأمراض والطواعين (ستنتشر) بين الناس والماشية؛ إن كان انعقد عزم السماء على الخير أم الشر. إن كان الدم سيتدفق وتدوى صيحات الشهداء فى أرجاء المدينة.

والآن تعال يا آدم،وأصغ سمعك لما سأقوله لك عن أحوال هذا الكتاب وقداسته».

وبعد ذلك قرأ رازيل، المَلَكُ من الكتاب، وعندما سمع آدم كلمات الكتاب المقدس وهى تخرج من فم الملك، سقط أرضًا من شدة الخوف. لكن الملك شجعه قائلاً: «انهض يا آدم، كن شجاعًا ولا تخف، خذ الكتاب منى واحتفظ به، لأنك ستستقى منه المعرفة بنفسك وتصبح حكيمًا، كما أنك ستعلّم محتوياته لكل من يستحقون معرفة ما يحتويه».

وفى اللحظة التى تناول فيها آدم الكتاب، انطلق لسان من النار من قرب النهر وارتفع معه الملك إلى السماء. وعندها علم آدم أن من كان يتكلم معه هو أحد ملائكة الرب، وأن الكتاب قد جاء من الملك القدوس نفسه،

واستخدمه فى تقديس وطهر. وهو الكتاب الذى يُتَعَلَّمُ منه كل الأشياء التى تستحق المعرفة، وكذلك كل الألغاز.

كما أنه يعلِّم كيف نستدعى الملائكة ونجعلها تظهر أمام الناس وتجيب على جميع أسئلتهم لكن ليس الكل يستطيعون استخدام الكتاب، وإنما فقط من هو حكيم ويخشى الله، ويلجأ إليه (أى الكتاب) فى خشوع. مثل هذا الإنسان سيكون محفوظا من كل مشورة سوء، وحياته ستكون هادئة، وعندما يأخذه الموت من هذا العالم، سوف يجد الراحة فى مكان ليس به شياطين ولا أرواح شريرة، ويتم إنقاذه من أيدى الأشرار بسرعة.

ن ـ مرض آدم

وعندما بلغ آدم من العمر تسعمائة وثلاثين سنة أصابته وعكة وأحس بأن أيامه تشارف على نهايتها، فاستدعى كل ذريته وجمعهم أمام باب بيت العبادة الذى كان يقدم فيه دائمًا قرابينه للرب، وذلك لكى يمنحهم بركته الأخيرة. واندهشت ذريته عندما وجدوه ممددًا على فراش المرض، إذّ لم يكونوا يعلمون ما الألم؟ وما المعاناة؟ وظنوا أنه يغلبه الحنين إلى ثمار الجنة، وهو مكتئب لحرمانه منها. وأعلن «شيث» عن استعداده للذهاب إلى أبواب الجنة والتوسل إلى الرب ليدعَ أحد الملائكة يعطيه من ثمارها. لكن آدم شرح لهم حقيقة المرض والألم، وأن الرب قد أصابه بهما عقوبةً له على خطيئته. وكان آدم يعانى الآلام بشدة وانسابت دموعه وانطلقت أنَّاته. وأجهشت حواء بالبكاء قائلة: «سيدى آدم، أعطنى نصف مرضك وسأتحمله عن طيب خاطر. أمَا حدث لك هذا بسببى أنا؟ بلى، بسببى تعانى الآن الألم والأوجاع».

وأمر آدم حواء أن تذهب مع شيث إلى أبواب الجنة ومناشدة الرب ليرحمه ويرسل ملكه ليحضر بعضًا من زيت الحياة الذى يتدفق من شجرة رحمته ويعطيه إلى رسوليه. ليريحه هذا الدهان ويقضى على الألم الذى يفترسه.

وفى طريقه إلى الجنة هاجم شيثًا حيوان مفترس. وصاحت حواء فى الحيوان المهاجم قائلة: «كيف تجرؤ على وضع يدك على صورة الرب؟» رد

الحيوان فى سرعة: «إنها غلطتك أنت. فلو لم تفتحى فمك لتأكلى الثمرة المحرمة، ما كان فمى قد فُتح الآن ليهلك كائنًا بشريًا». لكن شيث نهره قائلاً: «أمسك لسانك. امنع نفسك عن صورة الرب حتى يوم الدينونة». فتركه الحيوان عندئذ قائلاً: «انظر. ها أنا أمنع نفسى عن صورة الرب». ثم تقهقر راجعًا إلى مخبئه.

وعندما وصلا إلى أبواب الجنة أخذت حواء تبكى بحرقة وشيث أيضا يتوسلان إلى الرب بمراثٍ كثيرة لكى يعطيهما من زيت شجرة رحمته. وظلا يدعوانه هكذا لساعات طويلة. وأخيرًا ظهر أمامهما الملك الكبير ميكائيل، وأخبرهما أنه جاء رسولاً إليهما من عند الرب ليخبرهما أن طلبهما لا يمكن أن يُلَبَّى لأن آدم سيموت بعد أيام قليلة، وكما أنه معرض للموت فكذلك ستكون ذريته. وفى زمن البعث، لن يوزع زيت الحياة إلا على المتقين، ومعه كل نعيم ومسرَّات الجنة.

وعندما عادا إلى آدم حكيا له ما حدث فقال لحواء: «يالعظم المصيبة التى أحللتِها بنا، عندما أثرت غضب الرب علينا! أرأيت، ها هو الموت قد صار نصيب جنسنا كله. هيا ادعى أولادنا وأولادهم وأخبريهم كيف وقعنا فى الخطيئة». وبينما آدم راقد على فراش الموت، حكت لهم حواء روايتها عن سقوطهما فى الخطيئة.

س ـ رواية حواء عن السقوط

قالت حواء: «بعدما خُلِقْتُ؛ قَسَّم الرب الجنة وكل ما فيها من حيوانات بينى وبين آدم. وخصص الشرق والشمال لآدم، مع ذكور الحيوانات. وكنت أنا سيدة على الغرب والجنوب وكل إناث الحيوانات. وانعقد عزم الشيطان ـ متذرعًا بخزيه وفضيحة طرده من الملأ السماوى ـ على أن يتسبب فى هلاكنا وينتقم لنفسه ممن كان سببا فى مصيبته. ونجح فى أن يكسب الأفعى إلى صَفِّه وأشار لها بأنه قبل خلق آدم كان باستطاعة جميع الحيوانات التمتع بكل ما كان ينمو فى الجنة، وها هم الآن قد قُصِرَ غذاؤهم

على الحشائش. وعلى هذا فإن طرد آدم من الجنة سيكون فى مصلحة الجميع. لكن الأفعى رفضت، إذْ كانت تخشى سخط الرب. ولكن الشيطان أزال مخاوفها بقوله: «ما عليك إلا أن تكونى وسيلتى لأقول على لسانك كلمة ستنجحين بها فى إغواء الإنسان».

عندها تسلقت الأفعى السور المحيط بالجنة لتتحدث معى من عليه. وحدث ذلك فى اللحظة التى تركنى فيها مَلَكىَّ الحارسان وذهبا إلى السماء ليتعبّدا للرب. ولهذا صرتُ وحيدة تماما، وعندما ظهر لى الشيطان متخفيًا فى هيئة مَلك وقف مستندًا إلى سور الجنة يترنم بترانيم الحمد، فانخدعت وظننته مَلكًا. وفى ذاك الوقت جرى حوار بيننا، وتكلم معى الشيطان على لسان الأفعى:

«(الشيطان): هل أنت حواء؟

(حواء): أجل هو أنا.

(الشيطان): ما الذى تفعلينه فى الجنة؟

(حواء): لقد وضعنا الرب هنا لنزرعها ونأكل من ثمارها.

(الشيطان): شىء جميل. لكنكما لا تأكلان من كل الأشجار.

(حواء): بل نأكل من جميع الأشجار، عدا شجرة واحدة، تلك الشجرة التى تقف فى منتصف الجنة. هى وحدها قد حرَّم علينا الرب أن نأكل منها وإلا متنا، كما قال».

وبذلت الأفعى ما فى وسعها لتقنعنى بألا أخاف من شىء، وأن الرب يعلم أنه فى اليوم الذى آكل أنا وآدم من ثمار الشجرة، سنكون مثله هو نفسه. وأن الغيرة هى التى جعلته يقول لنا «لاتأكلا منها». ورغم كل هذا الإغراء والإلحاح، ظللتُ على ثباتى ورفضى لمس الشجرة. ثم عرضَتْ علىَّ الأفعى أن تقطف لى الثمار بنفسها. وعند ذلك فتحت باب الجنة ودخلت هى. وما كادت تدخل إلا وقد قالت لى: «آسفة على ما قلته لكِ، أفضل ألا

أعطيكِ، من ثمار الشجرة المحرمة». وما كان ذلك منها إلا حيلة ماكرة لإغرائى أكثر وأكثر. ولم توافق على أن تعطينى من الثمرة إلا بعد أن حلفت لها أننى سأجعل زوجى يأكل منها هو أيضًا. وهذا هو القسم الذى جعلنى أقسمه: «بعرش الرب، وبالقروبيم وبشجرة الحياة، سأعطى زوجى من هذه الثمرة ليأكل منها هو أيضًا». وبعد هذا القسم صعدت الأفعى الشجرة وحقنت الثمرة بسمها، سم النوازع الشريرة وثنت الفرع الذى كانت تنمو عليه ليصل إلى الأرض. فأمسكتُ بها، ولكنى علمت من فورى أننى عُرِّيت مما كان يكسونى من استقامة. وبدأت أبكى لذلك (العرى) وبسبب القسم الذى أجبرتنى عليه الأفعى. واختفت الأفعى من الشجرة، بينما بحثتُ أنا عن أوراق لأوارى بها عريىِّ، لكن كل الأشجار فى متناولى كانت أوراقها قد سقطت فى اللحظة التى أكلتُ فيها من الثمرة المحرمة. وكانت هناك شجرة واحدة فقط هى التى احتفظت بأوراقها، وهى شجرة التين، وهى نفسها الشجرة التى حرمت ثمارها علىَّ. واستدعيتُ آدم وأغريته بالأكل من الثمرة بكلمات كفرية. وما إن مرَّت (الثمرة) من بين شفتيه إلا وأدرك حقيقة ما حلَّ به وصاح فىَّ قائلاً: «أيتها المرأة الشقية، ما الذى أحللتِه بى؟! لقد انتزعتينى من مجد الرب».

وفى نفس الوقت سمعتُ أنا وآدم الملك الكبير ميكائيل ينفخ فى بوقه، وصاحت جميع الملائكة: «هكذا قال الرب، تعالوا معى إلى الجنة وأنصتوا إلى الحكم الذى سأصدره على آدم».

واختبأنا لأننا كنا نخاف حكم الرب. وظهر الرب في الجنة جالسًا فى عربته التى تجرها القروبيم وترافقه الملائكة تلهج بحمده. وبمجرد مجيئه بدأت الأشجار التى تساقطت عنها أوراقها تستعيدها مرة أخرى؛ وأقام عرشه بجوار شجرة الحياة، وخاطب آدم قائلاً: «يا آدم، أين تختبئ؟ أتظن أننى لا أستطيع أن أعثر عليك؟ أيستطيع المنزل أن يخفى نفسه عن المهندس الذى شيَّده؟».

وحاول آدم أن يلقى اللوم عليَّ، وكنتُ قد وعدتُه بأن أبرِّئ ساحته أمام الرب. وبدورى اتهمتُ أنا الأفعى. لكن الرب قضى بعدله على ثلاثتنا. فقال لآدم: «لأنك لم تطع أوامرى، وأصغيتَ إلى صوت زوجتك، ملعونة هى الأرض بعملك. فعندما تزرعها، فلن تعطيك قوتها. وستنبت لك الشوك والحسك. وستأكل خبزك بعرق وجهك. وستعانى الكثير من الصعوبات، وسيزداد قلقك، ولن تجد راحة أبدًا. ومن غمِّك، لن تذوق طعم الحلاوة أبدًا. وستلفحك النار، ويلسعك البرد. ستكدح كثيرًا، ولكنك لن تكسب إلا القليل. سيسْمُنُ بدنك، ولكنك لن تحيا. وستنتفض الحيوانات التى أنت سيدها ضدك، لأنك لم تحفظ أمرى».

وحكم علىَّ الرب بهذا الحكم: «ستعانين الوجع عند ولادة أطفالك والعذاب الأليم. وستنجبين أطفالك فى ألم، وفى ساعة العمل، عندما تقتربين من فقدان حياتك ستعترفين وتصرخين قائلة: «يارب يارب أنقذنى هذه المرة ولن أنغمس ثانيةً أبدا فى اللذة الجنسية»، ومع ذلك ستكون شهوتك دائمًا أبدًا فى يد زوجك».

وفى نفس الوقت حكم علينا بكل أنواع الأمراض. قال الرب لآدم: «لأنك خالفت اتفاقنا، سأصيب بدنك سبعين بلوى (= مرضًا)، سيمسك ألم أولها بعينيك، وألم الثانية بسمعك، وستهاجمك البلايا واحدة بعد الأخرى». أما الأفعى فخاطبها الرب قائلاً: «لأنك أصبحت وسيلة الشرير (= الشيطان)، تخدعين الأبرياء، فملعونة أنتِ على كل الماشية وعلى كل بهيمة من بهائم الحقل. ستحرمين من الطعام الذى كنتِ تستمتعين به، وستأكلين التراب فى كل أيام حياتك. وعلى صدركِ وبطنك ستمشين، ومن يديك وقدميك ستحرمين. ولن تعودى تملكين أذنيكِ، ولا جناحيكِ ولا أيّا من أطرافكِ التى بها أغويت المرأة وزوجها فى محنة كهذه. بسببها يجب أن يُطردا من الجنة. وسأضع العداوة بينكِ وبين نسل المرأة. وسيهشمون رأسك وتعضين أعقابهم إلى يوم الدينونة».

ع ـ موت آدم

وفى آخر يوم فى حياة آدم قالت له حواء: «لماذا أواصل الحياة، بينما أنت لن تفعل؟ كم سأبقى بعد موتك؟ أخبرنى بذلك!» وأكد لها آدم أنها لن تتأخر كثيرًا، فسيموتان معًا وسيدفنان معًا فى نفس المكان. وأمرها ألا تلمس جثته إلى أن يأتى ملك من الرب ويتخذ احتياطاته بشأنها، وما عليها الآن إلا أن تبدأ فورًا فى الصلاة للرب إلى أن تخرج روحه من بدنِه.

وبينما كانت حواء جاثية على ركبتيها تصلى أتى مَلَكٌ وأمرها أن تنهض قائلاً: «حواء، كفى عن تضرّعاتك. انظرى لقد ترك زوجك جسده الفانى. انهضى وشاهدى روحه وهى تصعد إلى خالقه، لتَمْثُل أمامه». وعندما نظرتْ رأت عربة من النور تجرها أربعة نسور لامعة، وتتقدمها الملائكة. وفى هذه العربة رقدت روح آدم التى كان الملائكة يرفعونها إلى السماء، وعندما اقتربوا منها أحرقوا البخور حتى غُلّفت السموات بسحابات الدخان. ثم ابتهلوا إلى الرب ليرحم صورته وصنع يَديه المقدستين. ومن جزعها وفزعها استدعت حواءُ شيثًا وأمرته أن ينظر إلى هذه المناظر، ويشرح لها تلك المناظر السماوية التى تفوق قدرتها على الفهم. وسألته: «تُرَى من يكون هذان الحبشيان اللذان يضيفان صلواتهما إلى صلاة أبيك؟» وأخبرها شيث أنهما الشمس والقمر وقد اسودًّا هكذا لأنهما لم يستطيعا السطوع فى وجه أبى الوضَّاء. وما كاد ينتهى من كلامه إلا ونفخ مَلَك فى بوق وصاحت كل الملائكة بأصوات مخيفة: «فلتمجد كل المخلوقات ربها لأنه أسبغ رحمته على آدم صنيعة يده!» ثم أمسك «صيراف»[1] بآدم وحمله إلى نهر آشرون وغسله ثلاث مراتٍ ثم ذهب به إلى

(١) فى تفسير ابن كثير فى سورة التحريم:

التوبة من الذنب: يتوب منه، ثم لا يعود فيه. أو هى أن يقلع عن الذنب فى الحاضر ويندم على ما سلف منه فى الماضى. ويعزم على أن لا يفعل فى المستقبل. ثم إن كان الحق لآدمى؛ رده إليه. وهل من شرط التوبة النصوح: الاستمرار على ذلك إلى الممات؛ لقوله ﷺ: «ثم لا يعود فيه أبدا» أو يكفى العزم على أن لا يعود: فى تكفير الماضى. بحيث لو وقع منه ذلك الذنب بعد ذلك لا يكون ذلك ضارا فى تكفير ما تقدم لعموم قوله عليه السلام: «التوبة تجبّ ما قبلها؟» وللأول أن يحتج بما ثبت=

حضرة الرب الذى جلس على عرشه ومد يده ورفع آدم وناوله للملك الكبير ميكائيل قائلاً: «ارفعه إلى جنة السماء الثالثة، واتركه هناك إلى اليوم المشهود المخيف الذى قَدَّرْتُه». ونفذ ميكائيل الأمر الإلهى، وغنت كل الملائكة أغنية حمدٍ مثنين على الرب للعفو الذى أسبغه على آدم.

وهنا ناشد ميكائيل الرب ليدعه يحضر تجهيز جثمان آدم للقبر. وعندما أُذِنَ له؛ عاد ميكائيل إلى الأرض تصحبه جميع الملائكة وعندما دخلوا الجنة الأرضية تفتحت نوَّارات كل الأشجار من فورها وأسكر عطرها الفوّاح كل الرجال الموجودين فناموا، عدا شيث وحده.

= فى الصحيح أيضا: «من أحسن فى الإسلام؛ لم يؤاخذ بما عمل فى الجاهلية، ومن أساء فى الإسلام؛ أخذ بالأول والآخر. فإذا كان هذا فى الإسلام ـ الذى هو أقوى من التوبة؛ فالتوبة بطريق الأولى. اهـ.

والفرق بين الرأيين: هو أنه لو فعل إثما ثم تاب؛ فإن التوبة قد غفرت الإثم. وليس عليه من عقاب. فإن أثم بعد التوبة. فهل يأخذ العقاب مضاعفا؟ عقاب الذنب الذى قد غفر، وعقاب الذنب الجديد؟

وهذا هو معنى النصوح فى الكتب الإسلامية التفسيرية.

ولكن اللغة تأبى تفسير النصوح بذلك. فالنصوح هو من النصيحة. فيكون المعنى: توبة بنصوح بها. فإذا كان الخطاب للمؤمنين بالتوراة من اليهود والأمم. يكون النصوح من عيسى عليه السلام. لأن بنى إسرائيل قد اتفق الأشرار منهم على إنكار محمد ﷺ. فنصحهم بقوله يا من تريدون الإيمان الحق «توبوا فإنه قد اقترب ملكوت السموات» وإلا فستهلكون على يديه فى الأيام الأولى لظهوره.

ولأن هذا هو المراد من بنى إسرائيل. اختلف مفسرو سفر حزقيال فى تشديد حزقيال على التوبة. فبعضهم قال: إنه يقصد المجموع لا الأفراد. أى توبة جماعية. وبعضهم قال: إنه يقصد الأفراد فردا فردا. والحق أنه يقصد التوبة الجماعية؛ لأن الفرد إذا أراد التوبة فإنها لا تقبل منه بغير قربان يقدم للكاهن.

ويقول المسيحيون: إن آدم لم يتب من عصيانه لربه. وقولهم باطل. فإن التلمود يشهد بتوبته، وفى سفر الحكمة أنه تاب وأيضا فى مخطوطات البحر الميت. ويقولون: إن المسيح رفع عن البشر خطايا بنى آدم. وقولهم باطل وذلك لأن المسيح قد قال فى إنجيل متى: «يرسل ابن الإنسان ملائكته فيجمعون من ملكوته جميع المعاثر وفاعلى الإثم ويطرحونهم فى أتون النار. هناك يكون البكاء وصرير الأسنان» (متى ١٣)

«يا أولاد الأفاعى كيف تقدرون أن تتكلموا بالصالحات وأنتم أشرار؟... ولكن أقول لكم: إن كل كلمة بطالة يتكلم بها الناس سوف يعطون عنها حسابا يوم الدين. لأنك بكلامك تتبرر وبكلامك تدان» (متى ١٢). (المحقق)

ثم قال الرب لآدم وجثمانه يرقد على الأرض: «لو كنتَ حفظت أمرى، لما كانوا قد فرحوا هؤلاء الذين أحضروك إلى هنا. لكنى أقول لك أننى سأحوِّل فرح الشيطان وسروره إلى أسى، وسيحوَّل أساك إلى سرور. وسأعيدك إلى مملكتك وستجلس على عرش مغويك أما هو فسيُلعن هو ومن يصغون إليه».

عندئذ بأمر الرب غطت الملائكة الكبار الثلاث جثمان آدم بالكتان وصبُّوا عليه زيتا طيب الرائحة. ووضعوا معه جثمان هابيل الذى ظل ملقيًا دون أن يدفن منذ أن قتله «قايين» (=قابيل)، إذ باءت كل جهود القاتل لدفنه بالفشل، إذ كانت الجثة تنبعث مرة بعد أخرى من الأرض مع هاتف يقول: «لن يدفن مخلوق فى الأرض إلا بعد أن يُعاد (الإنسان) الأول إلى التراب الذى خُلق منه». وحملت الملائكة الجثمانين إلى الجنة، جثمان آدم وجثمان «هابيل»، الذى ظل كل هذه المدة موضوعًا على حجر كانت الملائكة قد وضعته عليه، ودفنتهما فى البقعة التى أخذ منها الرب التراب الذى خلق منه آدم.

ونادى الرب جثمان آدم قائلاً: «يا آدم، يا آدم» ورد الجثمان قائلاً: «لبيك يارب!» فقال الرب: «لقد قلتُ لك ذات مرة إنك (من) التراب وإلى التراب ستعود. والآن أعِدكَ بالبعث. سأوقظك فى يوم الدينونة عندما ينهض من قبورهم كل الأجيال التى تناسلت منك». ثم أغلق الرب القبر بإحكام لئلا يتعرض له أحد بأذى خلال الأيام الستة التى ستنقضى قبل أن يعود إليه ضلعه (المفقود) أثناء موت حواء.

ف ـ موت حواء

وقضت حواء الفترة التى انصرمت بين وفاة آدم وموتها، فى بكاء مستمر. كان ما أغمها على نحو خاص هى أنها لا تعلم ما حل بجسد آدم، إذ لم يكن أحد موجودًا، سوى شيث، عندما دفنه الملك. وعندما اقتربت ساعة موتها، دعت حواء (ربها) لتدفن فى ذات البقعة التى استقرت بها رفات زوجها. ودعت الرب قائلة: «يارب كل القوى لا تفصل أمَتَك عن جسد

آدم الذى أخـذتنى منه، والذى من أطرافـه صنعـتنى. إيذن لى، أنا المرأة الحقيرة الخاطئة، بأن أدخل مسكنه (= قبره). وكما كنا معًا فى الجنة، لم يفارق أحدنا الآخر؛ وكما وُسّوِسَ لنا معًا بتعدِّى حدودك، لم يفارق أحدنا الآخر، كذلك لا تفصل أحدناَ عن الآخر الآن يارب». وأضافت إلى ختام دعواتها الالتماس التالى وهى ترفع عينيها إلى السماء: «يارب العالم! تَلَقَّ نفسى!» وفاضت روحها إلى الرب.

وأتى الملك الكبير ميكائيل وعلَّم شيث كيف يُعِدَّ حواء للدفن، وهبط ثلاثة ملائكة ودفنوا جثمانها فى القبر مع آدم وهابيل. ثم كلَّم ميكائيل شيثًا قائلاً: «هكذا سيدفن كل البشر الذين سيموتون إلى يوم البعث». ثم بعدما كلمه بذلك تكلم مرة أخرى قائلاً: «لا تَحُدَّ (عليها) أكثر من ستة أيام. وراحة اليوم السابع هى إشارة إلى البعث فى اليوم الآخر، إذ أنه فى اليوم السابع ارتاح الرب من كل العمل الذى خلقه وصنعه».

ورغم أن الموت حلَّ على العالم من خلال آدم؛ فلا يمكن أن نعتبره مسئولاً عن موتِ البشر. فذات يوم قال (آدم) للرب: «لست مهمومًا بموت الأشقياء، لكننى لا أُحِبُّ أن يوبخنى المتقون ويلقون باللوم علىَّ لموتهم. أرجوك لا تذكر ذنبى». ووعده الرب بأن يلبى رغبته. ولهذا عندما يوشك أى إنسان على الموت يظهر له الرب ويأمره بكتابة كل ما فعله خلال حياته، إذْ كما يخبره الرب، «فإنك تموت بسبب سيئاتك». وعندما ينتهى (من كتابة) السجل يأمره الرب بأن يختمه بخاتمه. وهذا هو الكتاب الذى سيُحْضِرُه الرب يوم القيامة وسيُخْبَر كلٌّ بأعماله. وما إن تَخْبُ (نار) الحياة فى أى إنسان، إلا ويعرض على آدم الذى يتهمه (الإنسان) بالتسبب فى موته. لكن آدم يفنِّد التهمة قائلاً: «ما ارتكبت إلا ذنبًا واحدًا. أهناك من بينكم من لم يرتكب أكثر من ذلك، وإن كان أتقى الأتقياء؟»



الفصل الثالث

فـــى
الأجيال العشرة

١ـ ميلاد قينان (قابيل)

كانت هنالك أجيال عشرة بين آدم ونوح؛ ليتضح مدى حلم الرب، إذ أن كل الأجيال أحزنته إلى حد الأسف على خلقهم إلى أن أصابهم بالطوفان. وبسبب كفرهم؛ غيَّر الرب خطته بخلق ألف جيل بين خلق العالم ونزول الوحى بالشريعة على جبل سيناء؛ حال دون تناسل تسعمائة وأربعة وسبعين (جيلاً) قبل الطوفان.

وقدم الشر إلى العالم مع أول مولود للمرأة، وهو «قَيْنان»، أكبر أبناء آدم. وعندما أنعم الرب بالجنة على أول زوجين فى البشرية؛ حذّرهم بشكل مخصوص من اللقاءات الجنسية بينهما. لكن بعد سقوط حواء اقترب منها الشيطان، متنكرًا فى هيئة الأفعى، وكان ثمرة اتحادهما هو قينان جد كل الأجيال الكافرة التى تمردت على الرب وانتفضت عليه. واتضح انحدار «قينان» من الشيطان، الذى كان هو الملك سَمَاعيل، فى مظهره الملائكى وعند مولده صاحت حواء من وسط آلام الولادة: «لقد أنجبتُ إنسانًا من مَلَك الرب».

ولم يكن آدم مع حواء أثناء حملها فى قينان؛ فإنها بعدما استسلمت للمرة الثانية لوساوس الشيطان، وسمحت له بأن يقطع عليها توبتها؛ تركت

زوجها ورحلت غربًا، لأنها خشيت أن يسبب وجودها (بجانب آدم) المزيد من البؤس له. وبقى آدم فى الشرق. وعندما اكتملت أيام حمل حواء، وبدأت تحس بآلام الطَّلق؛ دعت الرب ليساعدها، لكنه لم يُصْغ لدعواتها. فسألت نفسها: «من سيبلِّغ سيدى آدم؟ أتوسل إليكِ أيتها الأجرام المنيرة فى السماء أخبرى سيدى آدم بالأمر عندما تعودين إلى الشرق». وفى الساعة ذاتها صاح آدم: «لقد اخترقت نواحات حواء أذنى! ربما تكون الأفعى قد أغوتها مرة أخرى». وأسرع يهرول إلى زوجته. وعندما وجدها فى ألم شديد؛ دعا الرب لها، وظهر اثنا عشر ملكًا، مع قوتين سماويتين، ووقفوا جميعهم عن يمينها وعن شمالها، بينما مرَّرَ ميكائيل - وكان يقف هو أيضًا إلى يمينها - يده عليها من وجهها نزولاً إلى ثدييها وقال لها: «بُوركت يا حواء، من أجل آدم. فبسبب دعواته وابتهالاته أرسلتُ لأمنحك عوننا. هيا استعدى لتلدى طفلك!» وفى الحال وُلِدَ ابنها، مشرق الهيئة. وبعد قليل وقف الطفل على قدميه وجرى مبتعدًا ثم عاد ممسكًا فى يده عود قش وأعطاه لأمه. ولهذا السبب سُمِّىَ «قينان» وهى الكلمة العبرية التى تعنى «عود قش».

وأخذ آدمُ حواءَ والطفلَ إلى بيته فى الشرق. وأرسل إليه الرب أنواعًا عديدة من البذور على يد الملك ميكائيل وعُلِّمَ كيف يزرع الأرض ويجعلها تنتج الخضروات والفواكه ليقيم أَوَدَه، وأود أسرته وذريته.

وبعد مُدَّة حملت حواء ابنها الثانى، التى سمته «هابيل»، لأنه كما قالت «ما ولد إلا ليموت».

ب - قتل الأخ أخاه

ولم يكن ذبح هابيل على يد قينان حدثًا غير متوقع بالمرة من جانب والديه. ففى أحد الأحلام رأت حواء دم هابيل يتدفق إلى فم قينان، الذى كان يشربه فى نهم، رغم أن أخاه كان يناشده ألا يأخذه كله. وعندما حكت حلمها لآدم قال لها نائحًا: «يا ويحى، أرجو ألا يكون هذا نذير شؤم بموت هابيل على يد قينان!»

وفصل الغلامين وخصص لكل واحد منهما مسكنًا، وعلم كل واحد منهما حرفة مختلفة. فأصبح قينان فلاحًا يفلح الأرض، ينما أصبح هابيل راعى غنم. لكن كل ذلك كان دون جدوى. فبرغم هذه الاحتياطات ذبح قينان أخاه.

وكان وراء عداوته لهابيل أكثر من سبب، وبدأت عندما تقبَّل الرب قربان هابيل، وقبله بأن أرسل النار السماوية عليه فالتهمته، بينما رفض قربان قينان. وأحضرا قربانيهما فى اليوم الرابع عشر من نيسان، على غرار أبيهما الذى كلم ولديه قائلاً: «هذا هو اليوم الذى فيه سيقدم إسرائيل القرابين، فى مستقبل الأيام ولهذا فعليكما أنتما الاثنان كذلك، أن تحضرا قربانيكما لخالقكما فى هذا اليوم، لكى يرضى عنكما». وكان المكان الذى اختاراه لتقديم القربانين هى البقعة التى أقيم فيها مذبح المعبد فى أورشليم فيما بعد. واختار هابيل أفضل ما فى قطعانه قربانًا، لكن قينان تناول غذاءه أولاً، وبعدما أرضى شهيته؛ قدم للرب ما تبقى منها، وكان عبارة عن بعض حبوب من بذر الكتان. كأنما لم يكفه أن يقدم للرب ثمرة الأرض التى لعنها الرب! فلا عجب أن قربانه لم يتقبل! وبالإضافة إلى ذلك، فقد وقعت عليه عقوبة: إذ اسودَّ وجهه حتى صار كالدخان ورغم ذلك فلم يتغير موقفه، حتى بعد أن كلمه الرب قائلاً: «لو تبتَ وأصلحتَ طريقك؛ فسأغفر لك ذنبك؛ وإن لم تفعل فسأسلمك إلى قوى النزعات الشريرة. إنها تقف على باب قلبك، ومع ذلك فإن الأمر يرجع إليك إن أردت السيطرة عليها، أو هى التى ستسيطر عليك». وأحس قينان بأنه قد أهين فلذلك حدث شجار بينه وبين هابيل.

قال له قينان: «كنت أظن أن العالم قد خلق من خلال الخير، لكننى أرى الآن أن الأعمال الصالحة لا جدوى منها. إن الرب يحكم العالم بالتسلط والاستبداد، وإلا لماذا تقبل قربانك[1] ولم يتقبل قربانى؟» وعارضه هابيل

(١) فى سورة المائدة من القرآن الكريم:

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ (المحقق)

قائلاً: إن الرب يثيب على الأعمال الصالحة دون أن ينظر إلى الأشخاص. ولئن كان قربانى قد تقبله الرب بكرم، ولم يتقبل قربانك؛ فإنما كان ذلك لأن أعمالى كانت صالحة، أما أعمالك فكانت سيئة.

ولم يكن ذلك هو السبب الوحيد وراء كراهية قينان لهابيل. فإلى حدٍّ مّا كان حبه لامرأة معينة هو الذى أدى إلى هذه الجريمة. فلضمان بقاء النوع البشرى، كان يولد مع كل ولد من أولاد آدم أنثى لتكون زوجة له. وكانت أخت هابيل التوأم غاية فى الجمال وكان قينان يرغب فيها، ولذا فقد كان دائمًا يفكر فى وسيلة يتخلص بها من أخيه.

وجاءته الفرصة أخيرًا قبل أن يمر وقت طويل. فذات يوم نفشت شاة من غنم هابيل فى حقل يخص قينان الذى صاح فيه غاضبًا: «من الذى أعطاك الحق لتعيش على أرضى وتترك غنمك ترعى فيها؟» رد عليه هابيل فى حدة: «ومن الذى أعطاك أنت الحق لتستخدم نتاج غنمى وأن تصنع لنفسك ثيابًا من صوفها؟ فلو خلعت صوف غنمى الذى تكسو به جسمك ودفعت إلىَّ ثمن لحم غنمى الذى أكلْتَه، فسأتركُ أرضك كما تريد، وأطيرُ فى الهواء إذا استطعتُ ذلك». عندها قال له قينان: «وإذا قتلتُك فمن ذا الذى سيطالبنى بدمك؟» رد هابيل: «سينتقم لى الرب الذى أوجدنا فى هذا العالم. وسيطلب دمى من يدك، لو أنت ذبحتنى. الرب هو الحَكم الذى سيجازى المسيئين بسيئاتهم والأشرار بشرِّهم. وإذا قتلتنى فسيعلم الرب سرَّك وسوف يقتصُّ منك»

ولم تزد هذه الكلمات قينان إلا غضبًا على غضب فألقى بنفسه فوق أخيه. وكان هابيل أقوى منه وكان سينال منه لولا أن صاح قينان به فى اللحظة الأخيرة يطلب منه الرحمة، فخفف هابيل التقىُّ قبضته من عليه. وما كاد قينان يتحرر من قبضة أخيه، إلا استدار إلى هابيل ثانية وذبحه ولذا فقد صدق قول القائل: «اتق شر من أحسنت إليه».

جـ ـ معاقبة قينان

وكانت الطريقة التى مات بها هابيل من أبشع ما يمكن. إذ أنه لما لم يكن يعرف أية إصابة هى التى ستقتله؛ أخذ قينان يقذفه بالحجارة فى كل أجزاء جسده إلى أن أصابه حجر فى عنقه فقتله.

وبعد ارتكابه الجريمة قرر قينان أن يفر بجلده قائلاً: «سيسألنى أبواى[1] عن هابيل، إذ لا يوجد إنسان آخر غيرى على الأرض». وما كاد هذا الخاطر يمر بذهنه حتى ظهر الرب أمامه وخاطبه بهذه الكلمات: «قد تستطيع الهروب من أبويك، لكن أيمكنك الهروب منى أنا أيضًا؟ أيقدر أحد أن يختبئ فى مكان ولا أستطيع أن أراه فيه؟ خسارة أن هابيل أظهر عطفه عليك، وأحجم عن قتلك، عندما كنت تحت قبضته! خسارة أنه منحك الفرصة لتذبحه!».

---

(١) نص التوراة عن قابيل وهابيل:

تك ٤ :

«وعرف آدم حواء امرأته فحبلت وولدت قايين. وقالت اقتنيت رجلاً من عند الرب. ثم عادت فولدت أخاهُ هابيل. وكان هابيل راعيًا للغنم وكان قايين عاملاً فى الأرض. وحدث من بعد أيام أن قايين قدم من ثمار الأرض قربانًا للرب. وقدَّم هابيل أيضًا من أبكار غنمه ومن سمانها. فنظر الرب إلى هابيل وقربانه. ولكن إلى قايين وقربانه لم ينظر. فاغتاظ قايين جدًا وسقط وجهه. فقال الرب لقايين لماذا اغتظت ولماذا سقط وجهك. إن أحسنت أفلا رفعٌ. وإن لم تحسن فعند الباب خطيةٌ رابضة وإليك اشتياقها وأنت تسود عليها.

وكلم قايين هابيل أخاه. وحدث إذ كانا فى الحقل أن قايين قام على هابيل أخيهِ وقتله. فقال الرب لقايين أين هابيل أخوك. فقال لا أعلم. أحارس أنا لأخى. فقال ماذا فعلت. صوت دم أخيك صارخٌ إلىَّ من الأرض. فالآن ملعون أنت من الأرض التى فتحت فاها لتقبل دم أخيك من يدك. متى عملت الأرض لا تعود تعطيك قوتها. تائهًا وهاربًا تكون فى الأرض. فقال قايين للرب ذنبى أعظم من أن يحتمل. أنك قد طردتنى اليوم عن وجه الأرض ومن وجهك أختفى وأكون تائهًا وهاربًا فى الأرض. فيكون كل من وجدنى يقتلنى. فقال له الرب لذلك كل من قتل قايين فسبعة أضعافٍ ينتقم منه. وجعل الرب لقايين علامة لكى لا يقتله كل من وجده. فخرج قايين من لدن الرب وسكنَ فى أرض نود شرقى عدن.

وعرف قايين امرأته فحبلت وولدت حَنُوك. وكان يبنى مدينة. فدعا اسم المدينة كاسم ابنه حنوك. وولد لحنوك عيراد وعيراد ولد محويائيل. ومحويائيل ولد متوشائيل. (المحقق)

وعندما سأله الرب: «أين هابيل أخوك؟» أجابه قينان: «وهل أنا أحمله فى جيبى؟! إنك أنت الذى تراقب كل المخلوقات ومع ذلك تسألنى عنه! صحيح أننى أنا الذى قتلتهُ، لكنك أنت الذى خلقت الشر بداخلى. إنك تحرس كل الأشياء، فلماذا إذًا سمحت لى بقتله؟ إنك أنت الذى قتلتهُ، فلو كنتَ قبلت القربان الذى قَدَّمتُه لك، لما كان هناك سبب يدعونى للحقد عليه، ولما كنتُ قتلته». لكن الرب قال: «إن هذا الدم الذى يتدفق من جراح أخيك العديدة ليصرخ ضدك، وكذلك دماء المتقين الذين كانوا سينحدرون من نسل هابيل».

وكانت روح هابيل تدين القاتل، هى أيضا إذ لم تكن تجد مكانا لها لتستقر فيه. فلا هى استطاعت أن تحلّق إلى السماء، ولا أن تقيم مع الجثة فى القبر، إذ لم يفعل إنسان مثل ذلك (القتل) من قبل وإلى هذا الوقت فإن قينان لا يزال يرفض الاعتراف بذنبه. فقد أصر على أنه لم ير إنسانا مقتولاً، وكيف كان له مع عدم رؤيته أن يفترض أن الحجارة التى قذف بها هابيل ستأخذ حياته.

وحينها بسبب قتل قينان، لعن الرب الأرض فلا تنتج له ثمارًا. وهكذا عوقبت الأرض وقينان بعقوبة واحدة. فعوقبت الأرض لأنها احتضنت جثمان هابيل ولم تطرده خارجها.

وبقساوة قلبه تكلم قينان قائلاً: «يارب العالم، أهناك شهود يدينونى أمامك؟ إن والدىّ هما الشخصان الحيان الوحيدان، وهما لا يعلمان عن صنيعى شيئًا. وأنت تقيم فى السماء، فكيف تعرف إذًا ما يحدث على الأرض؟» رد الرب قائلاً: «أيها الغبى! إننى أحمل العالم كله. لقد خلقته وسأظل أحمله». وهى إجابة منحت قينان الفرصة للتظاهر بالتوبة فقال: «أتحمل العالم كله ولا تستطيع حمل خطيئتى؟ لاشك أن جرمى عظيم لدرجة لا يمكن أن يحتمل معه أى شىء. ومع ذلك فبالأمس طردتَ أمى من حضرتك وها أنت اليوم تطردنى أنا أيضًا. حقًا. سيقال إنك لا تجيد سوى العقاب».

وبالرغم من أن هذا كان نفاقًا ولم يكن توبة حقيقية؛ فإن الرب غفر

لقينان، ورفع عنه نصف العقوبة. ففى الأصل صدر عليه الحكم بأن يكون هاربًا ويهيم فى الأرض على وجهه. والآن لم يعد مكتوبًا عليه أن يهيم على وجهه. إلى الأبد، لكنه سيظل هاربًا. كما أنه كان عليه أن يعانى الكثير من الآلام إذا اهتزت الأرض من تحت قينان.

وكل الحيوانات الأليفة والمفترسة، ومن بينها[1] الأفعى الملعونة، اجتمعوا معًا وحاولوا أن يلتهموه للثأر لدماء هابيل البريئة. وفى النهاية لم يستطع قينان أن يتحمل أكثر من ذلك. فانخرط فى البكاء، وصاح قائلاً: «أين أذهب فرارًا من روحك؛ وإلى أين أفر من حضورك؟»

ولكى يحميه من هموم الوحوش نقش الرب حرفًا من «اسمه المقدس» على جبهته، كما أنه خاطب الحيوانات قائلاً: «عقوبة قينان لن تكون كعقوبة من يخلفه من القتلة. صحيح أنه أراق الدم الذكى، لكن لم يكن هناك من ينصحه. ومع ذلك فمن الآن فصاعدًا. أن كل من يقتل شخصًا آخر سيقتل هو نفسه» ثم أعطاه الرب الكلب كحماية له من الوحوش المفترسة، ولكى يَسِمُه بالخطيئة أصابه بمرض البرص.

وكانت عاقبة توبة قينان، رغم انعدام صدقها، عاقبة طيبة. فعندما قابله آدم وسأله عن الجزاء الذى تقرر ضده، أخبره قينان كيف أن توبته قد أرضت الرب، فصاح آدم قائلاً: «هكذا التوبة النصوح، وأنا الذى لم أكن أعرف!» وعندها ألف ترنيمة حمد للرب بدأها بالكلمات: «من الجيد أن تعترف بخطاياك للرب».

وكانت للجريمة التى ارتكبها قينان عواقب وخيمة؛ ليس لنفسه فقط، ولكن للطبيعة كلها. فمن قبل كان طعم الفواكه التى أخرجتها له الأرض عندما أفلحها مثل طعم ثمار الجنة. والآن ما عاد كَدّه ينتج شيئًا سوى الأشواك والقتاد. وقد تغيرت الأرض وساء حالها فى نفس لحظة مصرع هابيل العنيف. فالأشجار والنباتات فى ذلك الجزء من الأرض الذى كان يعيش فيه الضحية؛ رفضت أن تؤتى ثمارها، بسبب حزنها عليه.

وعند مولد شيث بدأت تلك (النباتات) التى تنمو فى الجزء الذى يخص هابيل، تُزهر وتحمل الثمار. ولكنها لم تستعد أبدًا قواها السابقة. فبينما من قبل، كانت شجرة الكرم تحمل تسعمائة وستة وعشرين نوعا مختلفا ألوانه ومختلفة الثمار؛ فإنها الآن لم تعد تحمل سوى نوع واحد فقط. وهكذا كانت الحال مع كل الأنواع الأخرى. ولسوف تستعيد قواها الأصلية فقط فى العالم الآتى.

كذلك تغيرت الطبيعة بدفن جثة «هابيل» فلمدة طويلة ظلت مكشوفة فوق الأرض؛ لأن آدم وحواء لم يعرفا[1] ماذا يفعلان بها. وجلسا بجوارها وبكيا، بينما ظل كلب «هابيل» الوفى يحرسها لئلا تؤذيه الطيور والوحوش. وفجأة شاهد الأبوان الثاكلان كيف حفر غراب فى الأرض فى منطقة مّا ثم أخفى فيها حيوان ميت من جنسه. واقتدى آدم بالغراب ودفن جثمان «هابيل» وكافأ الرب الغراب. فصغاره تولد بريش أبيض، ولذا تهجرها الطيور الأكبر، ولا تعرف أنها صغارها، ويظنون أنها أفاعى. فيطعمها الرب إلى أن يتحول ريشها إلى الأسود وتعود إليها آباؤها الطيور. ومنحه منحة أخرى وهى أن الرب يستجيب لدعاء الغربان عندما تستسقيه.

د ـ سكان الأرضين السبع

وعندما طرد آدم من الجنة، وصل أولاً إلى أسفل الأرضين السبع، «إيريتس»، وهى مظلمة دون شعاع واحد من الضوء، وخاوية تمامًا. وفزع آدم، وخصوصًا من نيران السيف الدوار أبدًا الذى هو على هذه الأرض. وبعد أن تاب؛ قاده الرب إلى الأرض الثانية «الأدماه»، حيث يوجد ضوء ينعكس من سمائها الخاصة بها ومن نجومها التى تشبه الأشباح، ومجموعاتها النجمية. وفيها تسكن الكائنات التى تشبه الأشباح التى نتجت عن اتحاد آدم مع الأرواح. وهم دائمًا حزانى، ولا يعرفون عاطفة الفرح. وهم

(١) فى القرآن الكريم عن أن الغراب علم قابيل طريقة الدفن:
﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾ (المحقق)

يتركون أرضهم ويذهبون إلى الأرض التى يسكنها البشر، حيث يتحولون إلى أرواح شريرة. ثم يعودون إلى موطنهم من أجل الخير، ويتوبون عن أفعالهم الشريرة، ويفلحون الأرض التى مع ذلك لا تحمل القمح ولا أى من الأنواع السبعة الأخرى. وفى هذه «الأدماه» ولد قينان وهابيل وشيث. وبعد قتل هابيل أُعيد قينان إلى «إيريتس» حيث أجبره على التوبة للخوف من ظلامها ونيران السيف الدوَّار أبدًا. وتقبل الرب توبته وسمح له بالصعود إلى الأرض الثالثة «الآركا» التى تتلقى بعض الضوء من الشمس. وقد سُلِّمت الآركا إلى ذرية قينان إلى الأبد، لتكون مقرهم الدائم. وهم يفلحون الأرض ويزرعون الأشجار، لكن ليس لديهم القمح ولا أى من الأنواع السبعة.

وبعض القينيين عمالقة[1]، وبعضهم أقزام ولهم رأسان، ولذا لا يصلون أبدًا إلى قرار؛ وهم دائمًا على خلاف مع أنفسهم. وقد يتصادف أن يكونوا تقاة فى وقت، ويميلون إلى فعل الشر فى الوقت الذى يليه.

وفى «الجى» وهى الأرض الرابعة يعيش جيل صرح بابل وذرياتهم. وقد نفاهم الرب إلى هنالك؛ لأن الأرض الرابعة ليست بعيدة عن «جهنم» ولذا فهى قريبة من النار المستعرة. وسكان «الجى»مَهَرة فى كل الفنون وبارعون فى كل أقسام العلم والمعرفة ويفيض موطنهم بالثراء. وعندما يزورهم أحد سكان أرضنا، يعطونه أنفس ما يملكون، لكنهم يقودونه بعد ذلك إلى «النشيا» وهى الأرض الخامسة، لينسى كل شىء عن أصله وعن بيته. ويسكن «النشيا» الأقزام الذين ليس لهم أنوف، وهم يتنفسون من خلال ثقبين بدلاً من الأنف. وليس لديهم ذاكرة، فما إن يحدث لهم شىء ذات مرة إلا وينسونه تمامًا، ومن هنا جاءت تسمية أرضهم «النشيا» أو «النشَّاى» والأرضان الرابعة والخامسة تشبهان الآركا؛ وفيهما أشجار، لكن ليس بهما لا القمح ولا أى من الأنواع السبعة الأخرى.

---

(١) فى التوراة: أنه لم ينج من الكفار إلا نوحا وبنيه. فيكون العدد ثمانية. ونسل قينان ليس من أولاد نوح. فكيف بقوا بعد الطوفان؟ إن هذا يدل على أنه كان فى السفينة قوم من المؤمنين من غير أبناء نوح. وهذا يؤيد صحة القرآن فى قوله: ﴿وَمَنْ آمَنَ﴾ من غير أولاده. (المحقق)

والأرض السادسة «الزياه» يسكنها أناس حسنو الهيئة يملكون ثروات طائلة ويقيمون فى قصور، لكن ينقصهم الماء، كما يدل على ذلك اسم عالمهم «زياه»، أى الجدب ومن هنا فإن خضرتهم شحيحة وتلقى زراعة الأشجار عندهم نجاحًا متفاوتًا وهم يهرعون إلى أى نبع ماء يتم اكتشافه وأحيانًا ينجحون فى التسلل إلى أرضنا، حيث يرضون شهياتهم الشرهة للطعام الذى يأكله سكان أرضنا. أما فيما عدا ذلك فهم أناس أتقياء إيمانهم راسخ، أكثر من أى طبقة أخرى من البشر.

وظل آدم فى «الأدماه» لما بعد ميلاد «شيث» ثم مَرَّ على الأرض الثالثة «الآركا»، وهى موطن وسكنى القينيين، وكذلك الأرضين الثلاث التاليات «الجى» و«النشيا» و«الزياه» ونقله الرب إلى «طيبيل» وهى الأرض السابعة التى يسكنها البشر.

هـ ـ ذرية قينان

وكان قينان يدرك جيدًا أن ذنبه الدموى ستنعكس آثاره عليه حتى الجيل السابع. فبهذا حكم عليه الرب. ولهذا فقد سعى إلى تخليد اسمه عن طريق الآثار، وأصبح من بناة المدن. وأولها كانت تسمى «أنوش» على اسم ابنه، إذ أنه مع ميلاد آنوخ بدأ ينعم بشىء من الراحة والسلام كما أنه أسس ست مدن أخرى. وكان بناؤه للمدن عملاً كأعمال الجبابرة، إذ أنه أحاطها بسور وأجبر أسرته على البقاء داخلها وكانت كل صناعاته للهو والعبث. ولم تُحدث العقوبة التى أنزلها به الرب تهذيبا فى سلوكه؛ فقد انغمس فى الخطيئة ليرضى ملذاته، رغم أن جيرانه تأذوا من جراء ذلك. وقد ضاعف متاع منزله بالسلب وسفك الدماء، وكان يستشير معارفه لتستمر ملذاته ومفاسده عن طريق السلب والنهب وأصبح من الزعماء الكبار الذين يقودون الناس إلى سُبل الغواية. وذلك على غير البساطة التى كان البشر يعيشون عليها حتى ذلك الوقت، واخترع المكاييل والأوزان. وبينما كان البشر يعيشون فى براءة وكرم أيام كانوا لا يعرفون شيئًا عن هذه الفنون، غَيَّر العالم إلى سبل

المكر والخداع.

وكما كان قينان، كانت كل ذريته، عُصاة كفرة، فقرر الرب أن يهلكهم.

وأتت نهاية قينان فى الجيل السابع من البشر، وجاءت على يد حفيده «لامك». وكان لامك» هذا أعمى، وعندما كان يخرج للصيد، كان يقوده ابنه الصغير والذى كان ينبِّه أباه عندما يرى صيدًا. فيرميه لامك بقوسه وسهامه. وذات يوم خرج هو وابنه للصيد، ورأى الغلام شيئًا له قرون يلوح على البعد. فتخيل أنه حيوان من نوع أو آخر، وأخبر «لامك» الأعمى ليعمل فيه قوسه وسهامه. وأصابت الرمية وطرح الصيد أرضًا. وعندما اقتربا من ضحيتهما، صاح الغلام: «أبى، لقد قتلت شيئًا يشبه البشر فى كل شىء، إلا أنه يحمل قرنًا فوق جبهته!» وفى الحال أدرك لامك حقيقة ما حدث، فقد قتل جدَّه الأكبر «قينان» الذى كان الرب قد وسمه بقرن. وشبَّك كفيه معاً فى يأس، ليقتل بدون قصد ابنه (بخنقه) بهما. وهكذا فإن البلايا تتلو المصائب؛ فقد فتحت الأرض فاها وابتلعت الأجيال الأربعة التى انحدرت من قينان: «أنوش» و«عيراد» وميهوجائيل وميتوشائيل. ولم يستطع «لامك» لعماه أن يعود إلى بيته؛ واضطر للبقاء بجوار جثة قينان وجثة ابنه. ولما قرب المساء وجدته نساؤه هنالك، وكنَّ خرجن يبحثن عنه. وعندما سمعن بما فعله أردن الانفصال عنه، وخصوصًا بعدما علمن أن كل ذرية قينان مكتوب عليها الفناء. لكن لامك قال لهن: «لئن كان قينان الذى ارتكب جريمته عن عمد وإصرار لم يعاقب إلا فى الجيل السابع، إذًا فإننى أنا الذى لم أتعمد قتل إنسان، لآمل أن تتأجل عقوبتى لسبع وسبعين جيلاً.» وعاد لامك مع أزواجه إلى آدم الذى سمع من الطرفين، وحكم لصالح لامك.

وإن فساد (أهل) هذه الأزمان، وخصوصًا شقاء ذرية قينان، لتظهر فى حقيقة أن لامك، وكذلك كل الرجال الذين عاشوا فى زمن الطوفان، كان الواحد منهم يتزوج زوجتين، إحداهما لتربى الأطفال، والأخرى ليستمتع

بالملذات الجسدية معها. ولهذا السبب يتم جعلها عاقرًا بوسائل مصطنعة. ولأن رجال هذا الزمن كانوا مشغولين باللذة أكثر من الأهتمام بأداء واجباتهم نحو الجنس البشرى، فقد أولوا كل حبهم واهتمامهم لزوجاتهم العاقرات، بينما كانت زوجاتهم الأخرى أيامهن كأيام الأرامل دون فرح، وفى كآبة. وولدت زوجتا لامك، «عاده» «صِلَّة» له طفلين من كل منهما، فولدت «عادة» ولدين هما «يابال» ويوبال، بينما ولدت «صِلَّة» ابنًا هو توبال ـ قينان وبنتا هى نَعْمَة. وكان «چبل» أول من شيد معابد للأصنام، بينما اخترع چوبال الموسيقى والألحان التى كانت تعزف وتغنى فى هذه المعابد وكان توبال ـ قينان اسمًا على سمى، إذ أنه أكمل عمل سلفه قينان. فقد ارتكب قينان جريمة القتل، بينما ابتكر طوبال ـ قينان وقد كان أول من عرف كيف يَحُد الحديد والنحاس ـ الأدوات المستخدمة فى الحروب والصراعات؛ أما «نَعْمَة» ـ المحبوبة ـ فقد اكتسبت اسمها من الأصوات العذبة التى كانت تصدر من آلاتها النحاسية التى كانت تقرعها لتستدعى العُبَّاد ليقوموا بطقوس عبادة الأوثان.

و ـ ذرية آدم وليليث

عندما سمعت زوجات لامك قرار آدم بمواصلتهن العيش مع زوجهن؛ انقلبن عليه قائلات: «أيها الطبب، داو علَّتك أنت أولاً[1]» وكن يلمِّحن إلى

---

(١) تك ٤:

«وعرف قايين امرأته فحبلت وولدت حَنُوك. وكان يبنى مدينة. فدعا اسم المدينة كاسم ابنه حنوك. وولد لحنوك عيراد وعيراد ولد محوبائيل. ومحوبائيل ولد متوشائيل. ومتوشائيل ولد لامك. واتخذ لامك لنفسه امرأتين. اسم الواحدة عادة واسم الأخرى صلة. فولدت عادة يابال. الذى كان أبًا لساكنى الخيام ورعاة المواشى. واسم أخيه يوبال. الذى كان أبًا لكل ضارب بالعود والمزمار. وصلة أيضًا ولدت تُوبال قايين الضارب كل آلة من نحاس وحديد. وأخت تُوبال قايين نعمة. وقال لامك لامرأتيه عادة وصلة. اسمعا قولى يا أمرأتى لامك. واصغيا لكلامى. فإنى قتلت رجلاً لجرحى. وفتى لشدخى. إنه ينتقم لقايين سبعة أضعاف. وأما للامك فسبعة وسبعين.

وعرف آدم امرأته أيضًا. فولدت ابنا ودعت اسمه شيثًا. قائلة لأن الله قد وضع لى نسلاً آخر عوضًا عن هابيل. لأن قايين كان قد قتله. ولشيث أيضًا ولد ابن فدعا اسمه أنوش. حينئذٍ ابتدى أن يدعى باسم الرب» (تك ٤).

حقيقة أنه هو نفسه يعيش بعيدًا عن زوجته منذ مقتل هابيل، إذ أنه قال (حينها) : «لماذا إذًا أُنجبُ الأطفال إن كان مصيرهم هو الموت؟».

ورغم أنه تفادى الجماع مع حواء، فقد كانت تزوره فى منامه أرواح نساء، ومن جماعه معهن وُلدت أرواح وعفاريت من مختلف الأنواع، وقد مُنحت مواهب خاصة.

فذات مرة كان يعيش فى فلسطين رجل ثرى وتقى جدّاً وكان له ابن اسمه الربى حنينا. وكان يحفظ التوراة كلها عن ظهر قلب. وعندما حضره الموت أرسل فى طلب ابنه «الربى حنينا» وأمره ـ كطلب أخير له ـ بأن يتدارس التوراة ليلاً ونهارًا وأن يستمسك بأوامر الشريعةً وأن يكون صديقًا صدوقًا للفقراء. وأخبره كذلك أنه هو وزوجته، وهى أم الربى حنينا، سيموتان فى يوم واحد، وستنتهى الأيام السبعة للحداد عليهن فى عشية عيد «الفُصْح». وأكَّد عليه ألا يبالغ فى الحزن عليهما، بل عليه أن يذهب إلى السوق فى ذلك اليوم ويشترى أول شىء يعرض عليه، مهما كان باهظ الثمن. وإذا تصادف أن كان هذا الشىء يؤكل، فعليه أن يُعِدَّه ويقدمه فى احتفالية كبيرة. وسوف يُعَوَّضُ عما تكبده من مشقة وأموال. وتم كل شىء كما تنبأ به الأب: فقد مات الرجل وزوجته فى نفس اليوم، وتصادف أن اتفق نهاية أسبوع الحداد مع عشية عيد «الفُصْح»(*). وبدوره نفَّذ الابن وصية أبيه: فقد ذهب إلى السوق حيث قابل عجوزًا عرض عليه أن يبيعه طبقًا من الفضة ورغم غلو الثمن المطلوب، فقد اشتراه كما أمره أبوه من قبل. ووضع الطبق على منضدة السدر، وعندما فتحه «الربى حنينا» وجد بداخله طبقًا آخر وبداخله ضفدع حىّ أخذ يتقافز فى مرح وسعادة. وقدم طعامًا وشرابًا إلى الضفدع، وفى نهاية الاحتفال كان (الضفدع) قد كبر حجمه إلى درجة أن الربى حنينا صنع له صندوقا كبيرا ليعيش ويأكل فيه. وبمرور الزمن ضاق عليه الصندوق وبنى الربى حنينا غرفة ووضع الضفدع فيها وأغدق عليه بالطعام والشراب. وفعل كل ذلك لكيلا يخالف أمنية أبيه الأخيرة. ولكن الضفدع نما وترعرع وأتى على كل ما كان مضيفه يمتلكه. وفى نهاية

(*) عيد مرور ملاك التدمير فوق منازل بنى إسرائيل وهو فى طريقه لإهلاك فرعون. (المترجم)

المطاف تجرد الربى حنينا من كل ما كان يملكه. ثم فتح الضفدع فمه وتكلم قائلا: «عزيزى الربى حنينا، لا تقلق! فلأنك ربيتنى واعتنيت بى، فلتطلب منى ما تشاء ولسوف تناله» أجابه الربى حنينا قائلاً: «لست أرغب فى شىء سوى أن تعلمنى التوراة كلها». ووافق الضفدع وعلمه التوراة كلها، وعلمه كذلك لغات البشر السبعين. وكانت طريقته (فى التعليم) هى أن يكتب بضعة كلمات على ورقة ليبتلعها تلميذه. وهكذا لم يكتسب فقط التوراة كلها واللغات السبعين، وإنما أيضًا لغات الطيور والحيوانات. وعندئذ خاطب الضفدعُ زوجةَ الربى حنينا قائلاً: «لقد عاملتِنى بشكل جيد ولم أعوضْك بشىء. لكن مكافأتك ستصلك قبل أن أفارقكما، كل ما عليكما أنتما الاثنين أن تحملانى إلى الغابة. وهناك ستعرفان ما سأفعله من أجلكما». وبالتالى اصطحباه إلى الغابة، وعندما وصلوا بدأ الضفدع يصيح بصوتٍ عالٍ فتجمعت على صوته كل أنواع الحيوانات والطيور، فأمرها بأن تقدم إليهما من الأحجار الكريمة قدر ما تستطيع حمله. وكذلك أُمِرَت أن تحضر الأعشاب والجذور لزوجة الربى حنينا، وعلّمها كيف تستخدمها فى مداواة جميع الأمراض على تنوعها. ثم أُمرا أن يحملا كل ذلك معهما إلى المنزل. وعندما أوشكا على الرحيل خاطبهما الضفدع قائلاً: «فليرحمكما القدوس، سبحانه وتعالى، وليجزيكما عن كل ما تكبدتماه من أجلى، دون أن تسألانى من أكون. الآن سأكشف لكما عن أصلى: أنا ابن آدم، أنجبنى خلال المئة والثلاثين عامًا التى افترق فيها عن حواء. وقد منحنى الرب القدرة على التخفى فى أى هيئة أريد». وانصرف الربى حنينا وزوجته إلى منزلهما وأصبحا غنيان جدّا، ونالا احترام وثقة الملك.

ز ـ شيث وذريته

استفزت كلماتُ زوجات لامك آدم كثيرًا. فبعد انفصال دام مئةً وثلاثين عامًا، عاد إلى حواء، وأصبح حبه لها الآن أكبر كثيرًا عن ذى قبل. وكانت لا تفارق خياله حتى وإن كانت غائبة عنه ببدنها وكان ثمرة التئام شملهما هو شيث الذى قُدِّر له أن يكون الجد الأكبر للمَسيًا.

وقد كان شيث مكتمل التكوين منذ مولده إلى درجة أنه لم يكن فى حاجة لشعيرة الختان. وهكذا كان هو واحدًا من الرجال الثلاثة عشر الذين ولدوا مكتملين على نحو أو آخر. وقد أنجبه آدم على صورته ومثاله، ومختلفًا عن «قينان» الذى لم يكن لا على مثاله ولا على صورته. وهكذا أصبح شيث على وجه الحقيقة، أبا الجنس البشرى، وخصوصًا أبًا للمتقين، بينما ينحدر الملعونون والكفرة من قينان.

والآن إلى شيث(1).

---

(1) مواليد بنى آدم فى التوراة::

التكوين ٥:

«هذا كتاب مواليد آدم. يوم خلق الله الإنسان على شبه الله عملهُ. ذكرًا وأنثى خلقهُ وباركهُ ودعا اسمهُ آدم يومَ خُلِق. وعاش آدم مئة وثلثين سنة وولد ولدًا على شبهه كصورته ودعا اسمهُ شيثًا. وكانت أيام آدم بعدما ولد شيثًا ثمانى مئة سنة وولد بنين وبنات. فكانت كل أيام آدم التى عاشها تسع مئة وثلاثين سنة ومات.

وعاش شيث مئة وخمس سنين وولد أنوش. وعاش شيث بعدما ولد أنوش ثمانى مئة وسبع سنين وولد بنين وبنات. فكانت كل أيام شيث تسع مئة واثنتى عشرة سنة ومات.

وعاش أنوش تسعين سنة وولد قينان. وعاش أنوش بعد ما ولد قينان ثمانى مئة وخمس عشرة سنة وولد بنين وبنات. فكانت كل أيام أنوش تسع مئة وخمس سنين ومات.

وعاش قينان سبعين سنة وولد مهلئيل. وعاش قينان بعدما ولد مهلئيل ثمانى مئة وأربعين سنة وولد بنين وبنات. فكانت كل أيام قينان تسع مئة وعشر سنين ومات.

وعاش خمسًا وستين سنة وولد يارد. وعاش مهالئيل بعدما ولد يارد ثمانى مئة وثلاثين سنة وولد بنين وبنات. فكانت كل أيام مهلئيل ثمانى مئة وخمسًا وتسعين سنة ومات.

وعاش يارد مئة واثنتين وستين وولد أخنوخ. وعاش يارد بعدما ولد أخنوخ ثمانى مئة سنة وولد بنين وبنات. فكانت كل أيام يارد تسع مئة واثنتين وستين سنة ومات.

وعاش أخنوخ خمسًا وستين سنة وولد متوشالح. وسار أخنوخ مع الله بعد ما ولد متوشالح ثلاث مئة سنة وولد بنين وبنات. فكانت كل أيام أخنوخ ثلاث مئة وخمسًا وستين سنة. وسار أخنوخ مع الله ولم يوجد لأن الله أخذه.

وعاش متوشالح مئة وسبعًا وثمانين سنة وولد لامك. وعاش متوشالح بعد ما ولد لامك سبع مئة وتسعًا وستين سنة ومات.

وعاش لامك مئة واثنتين وثمانين سنة وولد ابنًا. ودعا اسمه نوحًا. قائلاً هذا يعزينا عن عملنا وتعب أيدينا من قبل الأرض التى لعنها الرب. وعاش لامك بعدما ولد نوحًا خمس مئة وخمسًا وتسعين سنة وولد بنين وبنات. فكانت كل أيام لامك سبع مئة وسبعًا وسبعين سنة ومات.

وكان نوح ابن خمس مئة سنة وولد نوح سامًا وحامًا ويافث» (تك ٥) (المحقق)

عندما بلغ رشده وبلغ السن التى يستطيع فيها إدراك الخير، أصبح رجلاً تقيا، ولأنه كان هو نفسه ذا شخصيةٍ متصلة بالرب؛ خلف من بعده نسلا قلّدوه فى أعماله الحسنة. وقد ثبت أن كل هؤلاء كانوا أخيارا. وقد سكنوا فى نفس البقعة بدون أن يتفرق شملهم، وفى حالٍ سعيدة، بدون أن يُصيبهم مكروه إلى أن ماتوا. وكانوا هم أول من اخترع ذلكَ النوع الفريد من الحكمة المتعلقة بالكائنات السماوية ومراتبها. ولكى لا يضيع اختراعهم دون أن يُعرف المعرفة الكافية، أقاموا عمودين لأن آدم تنبأ بأن العالم سيتم تدميره بقوة النار والزلازل، وبكمية الماء تارة أخرى. وكان أحدهما (أى العمودين) من القرميد والآخر من الحجارة، ونقشوا على كلٍّ اكتشافاتهم، بحيث أنه إذا دمر الطوفان عمود القرميد، يبقى عمود الحجارة يعرض اكتشافاتهم للجنس البشرى، ويخبرهم أيضًا أنه كان هناك عمود آخر من القرميد شيدوه هم أنفسهم.

ح ـ أنوش

سُئل أنوش عن أبيه فقال شيث. لكن سائليه ـ وهم أهل زمانه ـ واصلوا أسئلتهم: «ومن كان أبا شيث؟» أجابهم أنوش: «آدم»، سألوه: «ومن أبو آدم؟» رد قائلاً: «لم يكن له أب ولا أم، بل خلقه الرب من تراب الأرض». ردوا قائلين: «لكن الإنسان لا يشبه فى هيئته التراب!» أجابهم قائلا: بعد الموت يعود الإنسان إلى التراب، كما قال الرب، وسيعود الإنسان إلى التراب؛ لكن فى يوم خَلْقِه صنع الإنسان على صورة الرب». سألوه: «وكيف خلقت المرأة؟» أجابهم: «خلقهم ذكرًا وأنثى» سألوه: «لكن كيف؟» أجابهم: «أخذ الرب التراب والماء وخلطهما معًا على هيئة إنسان». سألوه: «لكن كيف؟» هكذا ألحوا عليه.

أخذ أنوش ست قبضات من التراب وخلطها وشكّل منها تمثالاً من التراب والصلصال. قالوا له: «لكن هذا التمثال لا يمشى وليس به نفخة من الحياة». وعندها حاول أن يريهم كيف نفخ الرب نفخة الحياة فى منخرى

آدم، لكن عندما بدأ ينفخ فى التمثال الذى كوَّنه، دخله الشيطان فمشى التمثال، وسار وراءه الناس الذين كانوا يسألون أنوش عن هذه المسائل قائلين: «ما الفرق بين الركوع لهذا التمثال والركوع للإنسان؟»

هكذا كان جيل أنوش أول من عبد الأصنام، ولم تتأخر عقوبة هذه الغباوة طويلاً. فقد أُمِر البحر أن يتجاوز حدوده، ويُغرق قطعة من الأرض. وكان ذلك أيضًا هو الزمن الذى تحولت فيه الجبال إلى صخور، وبدأت جثث الموتى تتعفن. وكذلك كانت هناك عقوبة أخرى لعبادة الأصنام، وهى أن ملامح الأجيال التالية لم تعد على مثال صورة الرب، مثلما كانت ملامح آدم وشيث وأنوش. فقد أصبحت مثل ملامح القناطير والقرود، وزال عن العفاريت خوفها من البشر.

ولكن كانت هنالك أيضًا عاقبة أخطر للممارسات الوثنية التى مُورست لأول مرة فى زمن أنوش. فعندما طرد الرب آدم من الجنة بقيت الشكينة مكانها (فى الجنة) على عرش فوق (أكتاف) قَروب تحت شجرة الحياة. وهبط الملائكة من السماء وتوجهوا إليها أفواجًا أفواجا ليتلقوا التعليمات. وجلس آدم وذريته بجوار البوابة (أى بوابة الجنة) لينعموا بسنا «الشكينة»، التى كانت تفوق سنا الشمس بخمس وستين ألف مرة. وهذا السَّنا الذى تتمتع به «الشكينة» يعفى كل من تسقطً عليه من الأمراض، ولا تستطيع أية حشرة ولا شيطان الاقتراب منهم لتنالهم بأى أذى.

وهكذا فلم يبدأ البشر جمع الذهب والفضة والجواهر واللآلئ من كل بقاع الأرض، إلا فى عهد أنوش، وصنعوا منها أصنامًا ارتفاعها ألف فرسخ. والأدهى، من ذلك وأمرّ أنهم عن طريق الفنون السحرية التى علمهم أياها الملكان عُوزّا وعَزَائيل، جعلوا أنفسهم سادة على الأفلاك السماوية، وأجبروا الشمس والقمر والنجوم على الخضوع لهم، لا للرب. وقد دفع هذا الملائكة إلى أن يسألوا الرب قائلين: «ما هذا الإنسان الذى تبالى به؟ لماذا تتخلى عن

أسمى السموات، وعن كرسى مجدك وعرشك المجيد فى «عربوت» وتهبط إلى البشر، الذين يتجهون بالعبادة إلى الأصنام، ويساوونك بها؟» ودُفِعت الشكينة إلى ترك الأرض والصعود إلى السموات وسط ترانيم وتهاليل أبواق أسراب الملأ الملائكى.

ط ـ سقوط الملائكة

إن حرمان البشرية، الذى بدأ يظهر فى زمن «أنُوش» قد ازداد بشكل مخيف فى زمن حفيده «يارد»، وذلك بسبب الملائكة المخطئين فعندما رأت الملائكة بنات البشر الجميلات الجاذبات، اشتهونهن وقالوا«لن نختار زوجات لنا إلا من بنات البشر، وسننجب منهن أولادا». لكن رئيسهم «شيمهازاى» قال لهم: «ياويحى! أخشى أن تنفذوا خطتكم هذه، ثم أعانى أنا وحدى من عاقبة خطيئة كبيرةٍ كهذه». عندها أجابوه قائلين: «سنقسم لك جميعًا وسوف نلزم أنفسنا، كلٌّ منا بمفرده ونحن جميعًا، بألا نتخلى عن عزمنا وسوف ننفذه حتى النهاية».

عندئذ هبط مئتا مَلَك إلى قمة جبل حرَمُون، الذى يرجع اسمه إلى هذه الحادثة عينها؛ لأنهم رابطوا هناك ليحققوا عزمهم، وليتعرضوا بسبب ذلك إلى عقوبة الحَرْم، أى اللعنة والحرمان. وتحت قيادة عشرين نقيبًا؛ دنسوا أنفسهم بالزنا ببنات البشر الذين علموهم الأعمال والتعاويذ السحرية وكيف يقطعون الجذور وخاصية كل نبات.

وكانت ثمرة هذه الزيجات المختلطة جنسًا من العمالقة يبلغ طول كل منهم ثلاثة آلاف ذراع، وقد أتوا على كل ما يمتلكه البشر. وعندما نفد كل ما امتلكه البشر؛ انقض العمالقة على البشر وأكلوا الكثير منهم عندئذ بدأت البقية الباقية من البشر تتعدى على الطيور والبهائم والزواحف والأسماك، يأكلون لحومها ويشربون دماءها.

ثم اشتكت الأرض من هؤلاء الأشرار الخطاة. لكن الملائكة المخطئين

واصلوا إفساد بنى البشر إذ علمهم عزازيل كيف يصنعون سكاكين الذبح والأسلحة والتروس والدروع، وأراهم المعادن وكيف يشغلونها والأساور والخلاخيل بكافة أنواعها، واستخدام الكحل للعينين وكيف يجمّلون الجفون، وكيف يزينون أنفسهم بأندر وأنفس الجواهر وكل أنواع زينة الوجه. وعلمهم رئيس الملائكة المخطئين «شيمهازاى»، كيف يُحضرون الأرواح وكيف يقطعون الجذور؛ وعلمهم «أرماروس» كيف يصنعون الأعمال السحرية؛ أما «باراكيل» فعلمهم قراءة الطالع من النجوم، وعلمهم «كَوكَبيل» علم التنجيم والفلك؛ وعلمهم «عِزيكيل» قراءة الطالع من السحب، وعلمهم «عراكيل» منازل الأرض؛ أما «سامساويل» فعلمهم منازل الشمس؛ وعلمهم «سيربيل» منازل القمر.

وبينما كانت كل هذه الآثام تدنس الأرض، كان أنوش التقى يعيش فى مكان سِرّى. ولم يكن أحد من قومه يعلم مكانه، ولا ما حلّ به، إذ أنه كان يتنقل مع الملائكة الحفظة الأبرار. وذات يوم سمع هاتفًا يقول: «أنوش» يا كاتب العدل، اذهب إلى حراس السموات، الذين تركوا السموات العلى، المقر الأبدى للقداسة، ودنسوا أنفسهم مع النساء، وفعلوا كما يفعل البشر، واتخذوا لهم زوجات، وألقوا بأنفسهم فى أحضان الخراب على الأرض. اذهب وأعلمهم أنهم لن يجدوا سلامًا ولا صفحًا. ففى كل مرة يمتعون أنفسهم بفلذات أكبادهم، سيرون الموت المخيف لأبنائهم، ويتنهدون حسرة على هلاك أبنائهم. وسيصلّون ويدعون إلى الأبد ولكن لن يُمْنَحُوا أبدًا لا رحمة ولا سلامًا».

وذهب «أنوش» إلى «عزازيل» وغيره من الملائكة المخطئين ليعلن لهم النهاية السيئة التى كتبت عليهم. ولما أعلنها تملكهم جميعًا الرعب الشديد، وبدأوا يرتجفون وناشدوا «أنوش» أن يكتب التماسا نيابة عنهم ويقرأه أمام رب السموات، إذ أنهم ما عادوا يستطيعون الكلام مع الرب كالسابق، ولا حتى رفع أعينهم باتجاه السموات، خجلاً من ذنوبهم. ووافق «أنوش» على طلبهم. ورأى فى منامه الجواب الذى كان عليه أن يحمله إلى الملائكة. رأى

«أنوش» فى منامه أنه يُصعد به على السحب إلى السماء ويوضع أمام عرش الرب الذى كلمه قائلاً: «اذهب وقل لحراس السموات الذين أرسلوك إلى هنا لتتوسط لهم: «كان يجدر بكم أن تتوسلوا أنتم لأجل البشر، وليس البشر هم الذين يتوسلون لأجلكم، لماذا هجرتم السموات العلى المقدسة الأبدية؟ ألكى تنجسوا أنفسكم ببنات البشر، وتتخذوا لأنفسكم زوجات، وتفعلوا ما تفعله دواب وطيور الأرض، وتنجبوا أبناءً عمالقة؟ والعمالقة الذين ينحدرون من لحم وأرواح سيُطلق عليها على الأرض أرواحاً شريرة؛ وعلى الأرض سيكون سكنهم وستخرج من أجسادهم أرواح شريرة لأنهم خلقوا من فوق، ومن الحراس المقدسين مبدؤهم ومنشؤهم؛ وسيكونون أرواحًا شريرة على الأرض، وأرواحًا شريرة سَيُسَمُّون. وأرواح السماء سكناهم فى السماء، ولكن أرواح الأرض، الذين ولدوا على الأرض، فسكناهم على الأرض. وأرواح العمالقة ستفترس وتقهر وتدمر وتهاجم وتحارب وتسبب الدمار على الأرض، ويسببون الأذى. ولن يأخذوا أى نوع من الطعام، ولن يظمأوا أيضا، وسوف يكونون خَفِيِّين. وهذه الأرواح ستنتفض ضد بنى البشر وضد النساء لأنهم خرجوا منهن. ومنذ أيام القتل والدمار وموت العمالقة، نشأت الأرواح من روح لحمهم، لكى يدمروا دون أن يحكموا، وهكذا سيدمِّرون إلى يوم يَهْلِكُ العالمُ الكبير الهلاكَ الأكبر.

والآن بالنسبة للحراس الذين أرسلوك لكى تتوسط لأجلهم، الذين كانوا فى السابق فى السماء قل لهم: لقد كنتم فى السماء، ورغم أن الأشياء المخيفة لم تُوحَ إليكم بعد، عُلِّمتم أسرارًا لا قيمة لها، وبقساوة قلوبكم كشفتم عنها إلى النساء، ومن خلال هذه الأسرار صنع الرجال والنساء شرًّا كثيرًا على الأرض. قل لهم لهذا السبب لا سلام لكم!».

ط ـ أنوش حاكمًا ومعلمًا

وبعدما عاش أنوش زمنا طويلاً منعزلاً عن الناس؛ سمع ذات مرة صوت مَلك يناديه قائلاً: «استعد واترك البيت والمكان السرى الذى كنت تختبئ

فيه، وافرض سلطانك على الناس؛ لتعلمهم الطرق التى فيها يمشون والأفعال التى سيفعلون، وذلك لكى يسيروا فى سُبل الرب».

وترك «أنوش» مخبأه وخرج فى إثر الناس جمعهم حوله وأرشدهم إلى التصرفات التى ترضى الرب وأرسل رسلاً فى كل مكان لتعلن: «أنتم يا من تريدون أن تعرفوا سُبُل الرب[1] والصراط المستقيم، تعالوا إلى «أنوش» وعندها تجمع حوله حشد غفير من الناس، ليستمعوا إلى الحكمة التى سيعلمها لهم وليتعلموا من فمه الصواب والحق. وحتى الملوك والأمراء، وكانوا لا يقلون فى عددهم عن مائة وثلاثين، تجمعوا حوله وأذعنوا لسلطانه، ليعلمهم ويرشدهم، كما علم وأرشد الآخرين جميعهم. وهكذا حل السلام على العالم كله طوال السنوات المئتين والثلاث والأربعين التى دام فيها نفوذ «أنوش».

وعند انقضاء هذه المدة، وفى العام الذى تُوفِّى فيه آدم، ودَفَنَه فى حفل عظيم شِيث وأنوش وميتوشالح؛ قرر أنوش مرة أخرى أن يعتزل الناس وليفرغ تمامًا لخدمة الرب. لكنه تراجع تدريجيًا. ففى البداية كان يقضى ثلاثة أيام فى الصلاة وحمد الرب، وفى اليوم الرابع يعود إلى حوارييه ويقوم بتعليمهم. وهكذا مرت أعوام عديدة على هذه الحال، ثم قرر أن لا يظهر أمامهم إلا مرة فى الأسبوع، ثم مرة فى كل شهر، وأخيرًا مرة فى كل عام. ولم يجرؤ الملوك ولا الأمراء ولا كل الناس الآخرين، والذين كانوا يرغبون فى رؤية أنوش والإنصات إلى كلماته، لم يجرؤوا على الاقتراب منه أثناء أوقات اعتزاله. وكان يحل على وجهه جلالٌ جعلهم يخافون على حياتهم لو تجرأوا فقط على النظر إليه. ولهذا قرروا أن يقدم جميع البشر طلباتهم أمام أنوش فى اليوم الذى يُظهر نفسه لهم.

(١) الاختلاف فى الترجمة فى اسم «أنوش» أو «أخنوخ» سببه: أن ابتداء الدعوة إلى الله كان فى زمن «أنوش» ذلك قوله: «ولشيث أيضا ولد ابن فدعا اسمه أنوش. حينئذ ابتدُئ أن يُدعى باسم الرب» (تك ٤ : ٢٦).

ثم فى التوراة بعد ذلك «سار أخنوخ مع الله، ولم يوجد لأن الله أخذه» (تك ٥ : ٢٤). (المحقق)

وكان تأثير نصائح أنوش على كل من يسمعها قويّا. وكانوا يخرون أمامه ويصيحون: «عاش الملك! عاش الملك!» وذات يوم، بينما كان أنوش يستمع إلى أتباعه، ظهر له ملك وأعلمه أن الرب قرر أن يجعله مَلِكًا على الملائكة فى السموات، إذ أنه حتى حينها كان لا يحكم إلا على البشر. فدعا إليه كل سكان الأرض، وخاطبهم قائلاً: «لقد استدعيت لأصعد إلى السماء، ولا أعلم فى أى يوم سأذهب. ولهذا سَأُعَلِّمكم الحكمة والصواب قبل أن أصعد». وهكذا قضى أنوش بين البشر بضعة أيام وقضى كل الوقت المتاح له فى تعليم الحكمة والمعرفة وتقوى الرب والخوف منه وأسَّسَ القانون والنظام، لتنظيم شؤون البشر.

ثم رأى من اجتمعوا قُربه حصانًا هائلاً يهبط من السموات، وأخبروا أنوش به فقال: «الحصان لى إذ قد حان الوقت واليوم الذى سأترككم، ولن ترونى ثانية أبدًا». وهكذا كان. فقد اقترب الحصان من أنوش وركب على ظهره، وظل طوال الوقت يرشد الناس ويستحثهم ويناشدهم على خدمة الرب والسير فى سبله، وتبعه ثمانمائة من الناس فى رحلة دامت يومًا. وفى اليوم الثانى ناشد أنوش تابعيه أن يعودوا قائلاً: «اذهبوا إلى بيوتكم، لكيلا تموتوا، إذا تبعتمونى لأبعد من ههنا».

وسمع معظم الناس كلامه وعادوا أدراجهم، ما عدا نفر منهم ظل معه لستة أيام، رغم أنه كان يوبخهم ويأمرهم يوميّا بأن يعودوا ولا يجلبوا الموت على أنفسهم. وفى اليوم السادس قال لمن بقوا بصحبته: «اذهبوا إلى بيوتكم لأننى فى الصباح سأصعد إلى السماء، ومن كان بقربى عند صعودى سيموت». ومع ذلك ظل نفر من صَحْبه معه قائلين: «أينما تذهب، سنذهب ونقسم بالرب الحى أنه لن يفرقنا إلا المَوت».

وفى اليوم السابع حُمِلَ أنوش إلى السماء على عربة نارية تجرها أرواح نارية. وفى اليوم التالى بعث الملوك الذين عادوا لما أمرهم بالعودة رسلاً ليستعلموا عن مصير الرجال الذين رفضوا فراق «أنوش»، لأنهم كانوا قد

لاحظوا جثثهم. ووجدوا جليدًا وأحجارا ضخمة من البَرَد على البقعة التى صعد منها أنوش، وعندما بحثوا تحتها اكتشفوا جثث كل من بقوا خلف أنوش. هو وحده لم يكن بينهم فإنه ارتفع إلى السموات.

ى ـ صعود أنوش إلى السماء

ولم تكن تلك هى المرة الأولى التى يكون فيها أنوش فى السماء. فذات مرة، وهو لا يزال بين البشر، سُمح له بأن يرى كل ما على الأرض وما فى السموات. ففى يوم من الأيام وهو نائم ران على قلبه حزن عظيم، وبكى فى حلمه، لجهله بما يعنيه ذلك الحزن، وبما سيحدث له. ثم ظهر له رجلان طويلان جدّاً. وكان وجهاهما مشرقين كالشمس، وأعينهما كمصابيح مشتعلة، وتدلت النار من شفاهما؛ وكانت أجنحتهما أكثر سطوعًا وتلألأً من الذهب، وأيديهما أبيض من الجليد. فوقفا عند رأس سرير أنوش وناداياه باسمه فاستيقظ من نومه وأسرع ينحنى لهما احترامًا، وقد تملكه الفزع. وقال له هذان الرجلان: «ابتهج يا أنوش ولا تَخَفْ؛ لقد أرسلنا الرب الباقى إليك. فانظر اليوم ستصعد معنا إلى السماء. وقل هذا لأبنائك ولخدمك واجعلهم لا يبحثون عنك، حتى يعيدك الرب إليهم».

وفعل أنوش ما أمر به، وبعدما أخبر أبناءه وعلّمهم ألا يلتفتوا عن الرب، وأن يلتزموا بحكمه (تعالى) استدعاه هذان الرجلان وأخذاه على أجنحتهما ووضعاه فوق السحاب الذى ارتفع أعلى وأعلى إلى أن أنزلاه فى السماء الأولى، حيث أرياه الملائكة المئتين الذين يحكمون النجوم، وخدامهم السماويين كما رأى فيها كذلك مخازن الجليد والثلج والسحب والندى.

ومن هناك أخذاه إلى السماء الثانية حيث رأى الملائكة المخطئين وقد سجنوا، هؤلاء الذين لم يطيعوا أوامر الرب، واتبعوا أهواءهم. وقال الملائكة المخطئون لأنوش: «يا رجل الرب ادعُ لنا الرب» أجابهم: «من أنا لأدعو للملائكة أنا الإنسان الفانى؟ من يعلم إلى أين أذهب؟ ولا ما ينتظرنى؟».

وأخذاه من هناك إلى السماء الثالثة حيث أرياه الجنة، بكل أشجارها زاهية الألوان، وثمارها الناضجة الشهية، وكل أنواع الطعام الذى تنبته، والعبير الفواح الذى تتألق به. وفى وسط الجنة رأى شجرة الحياة، فى ذلك المكان الذى يرتاح فيه الرب عندما يأتى إلى الجنة. ولا يمكن وصف روعة هذه الشجرة ولا شذاها العطر، وهى أجمل من أى مخلوق، وجانباها يبدوان كالذهبى والقرمزى فى مظهرهما، وشفافين كالنار، وتغطى كل شىء. **ومن جذورها فى الجنة تنبع أربعة أنهر تفيض بالعسل واللبن والزيت والخمر** وتهبط إلى جنة عدن، التى تقع على الحدود بين المنطقة الأرضية للفساد والمنطقة السماوية للصلاح، ومن هناك تتدفق إلى الأرض. وكذلك رأى الملائكة الثلاثمائة الذين يرعون الجنة، وبأصوات لا تتوقف وترنيم مبارك يخدمون الرب كل يوم. وأوضح الملائكة الذين كانوا يرافقون أنوش أن هذا المكان يجهز للمهتدين، بينما المكان الفظيع الذى يجهز للمخطئين يقع فى المناطق الشمالية للسماء الثالثة، حيث رأى كل أنواع العذاب، **والغم الذى لا ينقضى**، وليس هناك نور ولكن نار كئيبة تستعر دائمًا. وهذا المكان به نار من كل الجوانب، ومن كل الجوانب بَرْدٌ وثلج، وهكذا فهو يشتعل ويتجمد. كما أن الملائكة، وهم غلاظ شداد يحملون أسلحة بشعة، وعذابهم لا يرحم.

ثم أخذه الملكان إلى السماء الرابعة، وأرياه كل ما يدخل وما يخرج (من وإلى السماء) وكل أشعة نور الشمس والقمر. ورأى أفواج الملائكة الخمسة عشر الذين يخرجون من الشمس، ويرافقونه(*) أثناء النهار، والألف ملكٍ الذين يرافقونه بالليل. ولكل ملك ستة أجنحة ويمشون أمام عربة الشمس، بينما يحافظ مئة ملك على دفء الشمس ويوقدون تحته، وكذلك رأى المخلوقات الرائعة والغريبة التى تسمى العنقاء والشولكدرى التى ترافق عربة

(*) لاحظ أن الضمير المذكّر فى كلمة «يرافقونه» يعود على الشمس؛ وفى هذا السياق تجدر الإشارة إلى أن الإغريق فى أساطيرهم يزعمون وجود «إله» للشمس (لذا فهى مذكر) و«إلهة» للقمر (لذا فهو مؤنث). وقد يكون اليهود قد نقلوا هذا التوصيف للشمس وللقمر عن الإغريق، أو هو خطأ من جانب المترجمة التى تأثرت بتعامل لغتها الانجليزية مع جنسى هاتين الكلمتين. (المحقق)

الشمس ويذهبون معه ويسببون الحرارة والندى كذلك أرياه البوابات الست فى شرق السماء الرابعة، التى يَخْرُج منها الشمس (أى يشرق) والبوابات الست فى الغرب حيث يغرب، وكذلك البوابات التى تَخْرُج منها القمر، وتلك التى تدخل منها. وفى منتصف السماء الرابعة رأى ملأً مسلحًا يخدم الرب بمعازف وأورجات وأصوات لا تنقطع.

وفى السماء الخامسة رأى أفواجاً كثيرة من الملائكة تسمى جريجورى. وكانوا فى مظهرهم مثل البشر، وحجمهم أكبر كثيرًا من حجم العمالقة، وكانت ملامحهم باهتة وشفاههم صامتة. وعندما سأل من يكونون؟ أجابه الملكان اللذان كانا يقودانه: «هؤلاء هم «الجريجورى» والذين - مع رئيسهم سلامئيل - نبذوا الرب المقدس». وعندها قال أنوش للجريجورى: «لماذا تنتظرون يا إخوة، ولا تخدمون أمام وجه الرب؟ ولماذا لا تؤدون واجباتكم أمام وجه الرب، ولا تغضبون ربكم إلى النهاية؟» فاستمع الجريجورى إلى التوبيخ، وعندما نُفِخَ فى الأبواق بصيحة عالية، بدأوا كذلك يغنون فى صوت واحد، وخرجت أصواتهم أمام الرب فى حزن وخشوع.

وفى السماء السابعة رأى الفِرَقَ السبعة من الملائكة الكبار الذين يرتبون ويدرسون دوران النجوم وتغيرات القمر ودورة الشمس، ويشرفون على الأحوال الطيبة أو الشريرة للعالم. كما يرتبون التعاليم والإرشادات والكلام العذب والغناء وكل أنواع الحمد الجليل. وهم يسيطرون على كل الكائنات الحية، سواء فى السماء أو على الأرض. وفى وسطهم سبع عنقاوات وسبع قروبيم وسبع مخلوقات سداسية الأجنحة، يغنون فى صوت واحد.

وعندما وصل أنوش إلى السماء السابعة ورأى كل الأسراب النارية للملائكة الكبار العظام والقوى والسيادات والرؤساء والقدرات غير الجسدية، خاف وارتجف من شدة الرعب. وعندها أمسك به من كانا يقودانه وأحضراه فى وسطها وقالا له: «ابتهج يا أنوش ولا تخف» وأرياه الرب من بعيد يجلس على عرشه العلى، بينما كل الملأ السماوى، وقد انقسم

إلى عشر طبقات، قد اقتربوا، ووقفوا على الدرجات العشر، طبقًا لمراتبهم، وركعوا أمام الرب. وهكذا تقدموا، كل إلى مكانه، فى فرح وحبور ونور مطلق ويغنون أغان بأصوات لطيفة بلا صخب، ويخدمونه فى جلال. ولا يغادرون أو يرحلون إلاَّ بمشيئته نهارًا أو ليلاً يقفون أمام وجه الرب، والقروبيم والسيرافيم يقفون حول عرشه. ويظلل عرشه تمامًا المخلوقات السداسية الأجنحة، ويغنون بصوت رقيق أمام وجه الرب قائلين: «قدوس قدوس قدوس؛ رب الملأ، والسماء والأرض تمتلئان بمجده». وعندما رأى (أنوش) كل ذلك قال له الملكان اللذان يقودانه: «يا أنوش، حتى هذه المرة أُمرنا أن نصحبك». ثم انصرفا ولم يرهما بعد ذلك. وبقى أنوش عند الحدود الخارجية للسماء السابعة، فى خوف عظيم، ويقول لنفسه: «يا ويحى! ماذا حدث لى؟!» وعندها أتاه جبريل وقال له: «لا تخف يا أنوش، قف وتعال معى وقِف أمام وجه الرب إلى الأبد» أجابه أنوش: «يا ربى، لقد هربتْ منى روحى من الرعب والفزع. نادِ لى على الرجال الذين أحضرونى إلى هذا المكان! فعليهم كنت أعتمد ومعهم سأمثل أمام وجه الرب» وأسرع به جبريل كورقة تطيرها الرياح، ووضعه أمام وجه الرب. فخَرَّ أنوش ساجدًا وسبح الرب. الذى قال له: «لا تَخَفْ يا أنوش، انهض وقف أمام وجهى إلى الأبد» ورفعه ميكائيل وبأمر الرب نزع عنه ثوبه الأرضى وباركه بالزيت المقدس وكساه، وعندما نظر إلى نفسه بدا مثل واحد من الملأ المجيد للرب، وزال عنه الخوف والارتجاف. ثم نادى الرب على واحد من كبار ملائكته، وكان أكثر حكمةً من الآخرين جميعًا، وكتب كل أفعال الرب، وقال له: «أحضر الكتب من مخزنى وأعط أنوش قلما، وفسِّر له الكتب». وفعل الملك كما أُمر، وعلَّم أنوش ثلاثين يومًا وثلاثين ليلة، ولم تتوقف شفتاه عن الكلام، بينما ظل أنوش يدوِّن كل الأشياء عن السماء والأرض، والملائكة والبشر، وكل ما كان مناسبًا له ليتعلمه. كما دوَّن كل شىء عن أرواح البشر، بمن فيهم هؤلاء الذين لم يولدوا، والأماكن التى أُعدت لهم إلى الأبد. ونسخ كل شىء بدقة

وكتب ثلاثمائة وستةً وستين كتابًا. وبعدما تلقى كل التعاليم من الملك، كشف له الرب أسرارًا عظيمة، لم تكن الملائكة تعرفها وأخبره كيف من أسفل الظلمات، خُلقت المرئيات والخفيات، وكيف خلق السموات، والنور والماء والأرض، وكذلك (أخبره) عن سقوط الشيطان فى الخطيئة، وحكى له خلق آدم ووقوعه فى الخطيئة، كما كشف له أن العالم سيدوم سبعة آلاف عام، والألفية السابعة ستكون زمنًا ليس فيه حساب ولا نهاية ولا أعوام ولا شهور ولا أسابيع ولا أيام ولا ساعات.

وأنهى الرب هذا الوحى إلى أنوش قائلاً: «والآن أعطيك صاموئيل وراجوئيل اللذين أحضراك لى. اذهب معهم على الأرض، وأخبر أهلك بالأشياء التى قلتُها لك، وما رأيته من أسفل السموات إلى عرشى. أعطهم الأعمال التى كتبتها أنت، وسوف يقرؤونها وسيوزعون الكتب إلى أبناء أبنائهم من جيل إلى جيل ومن أُمَّة إلى أُمَّة وسوف أعطيك رسولى ميكائيل لكتاباتك وكتابات آبائك آدم وشيث وأنوش وقينان ومهللئيل ويارد أبيك. ولن أحتاجها إلا فى الزمن الأخير، إذ أننى أمرت مَلَكيَّ آريوك وماريوك، اللذين وضعتهما على الأرض حارسين لهم، وأمرتهم فى الوقت الذى يحرسانهم أن ما سأفعله فى ذريتك لا يضيع فى الطوفان الآتى. إذ بسبب شرور وفساد البشر، سأرسل طُوفانًا على وجه الأرض، وسوف أهلك جميع الأشرار، ولكننى سأترك رجلاً تقيًا من نسلك وجميع أهل بيته، الذين سيعملون وفق مشيئتى. ومن نسلهم ستخرج أمة عظيمة، وعند انقراض هذا النسل سأريهم الكتب التى كتبتَها أنت وكُتب أبيك، كما أن حفظتها على الأرض سوف يُرون البشر من هو صادق فى مرضاتى. وسوف يخبرون جيلاً آخر (بذلك) وسوف يكونون، بعد قراءتها، مكرَّمين أكثر من ذى قبل».

وبعد ذلك أرسل أنوش إلى الأرض ليبقى هناك ثلاثين يومًا ليعلِّم أبناءه، وقبل أن يغادر السماء، أرسل إليه الرب ملكًا كان فى شكله مثل الجليد، وكانت يداه مثل الثلج. فنظر إليه أنوش، وتجمد وجهه، لكى يستطيع البشر

تحمُّل منظره. ووضعه الملكان اللذان أخذاه إلى السماء على سريره، فى المكان الذى كان ابنه متوشالح يتوقع أن يجده فيه نهارًا أو ليلاً، وجمع أنوش أبناءه وكل عشيرته وعلمهم بإخلاص كل الأشياء التى رآها وسمعها ودوَّنها، وأعطى كتبه لأبنائه ليحفظوها ويقرؤوها، محذرًا إياهم من إخفاء الكتب، بل ليعلِّموها لكل من يريد معرفتها. وعندما اكتملت الأيام الثلاثون، أرسل الرب الظلام على الأرض، وكانت هناك كآبة، حجبت الرجال الذين كانوا يقفون مع أنوش وأسرع الملائكة وأخذوا أنوش، وحملوه إلى السموات العلى حيث استقبله الرب، ووضعه أمام وجهه (تعالى) وزال الظلام عن الأرض، وكان هناك نور. ورأى الناس، ولم يفهموا كيف أُخِذَ أنوش ومجدُّوا الرب.

ولد أنوش فى اليوم السادس من شهر سيوان، وأُخذ إلى السماء فى نفس الشهر، سيوان، فى نفس اليوم وفى نفس الساعة التى وُلد فيها. وأسرع متوشالح، وكل إخوته أبناء أنوش، وبنى مذبحًا فى المكان المسمى آخوذان الذى رُفع منه أنوش إلى السماء. وأتى الشيوخ وجميع الناس لتأبينه. وأحضروا هداياهم إلى أبناء أنوش، وصنعوا احتفالاً عظيمًا، وظلوا يحتفلون ويبتهجون لثلاثة أيام، وهم يحمدون الرب، الذى أرسل إشارة كهذه عن طريق أنوش، الذى وجد له كرامة بينهم.

ك ـ رفع أنوش إلى السماء

وكانت خطيئة البشر هى السبب فى رفع أنوش إلى السماء؛ هكذا أخبر أنوش بنفسه الرِّبى إسماعيل. فعندما تجاوز جيل الطوفان حدودهم وتكلموا مع الرب قائلين: «ارحل عنا، لأننا لا نريد أن نعرف سبلك»، رفع أنوش إلى السماء ليقوم هناك بدور الشاهد على أن الرب لم يكن إلهًا قاسيًا رغم الدمار الذى قرره على كل الكائنات الحية على وجه الأرض.

وعندما حُمِلَ أنوش، تحت إرشاد المَلَك عنبيل، من الأرض إلى السماء، فإن الكائنات المقدسة، الشروبانيم والسيرافيم والقروبيم، وكل الذين يحملون عرش الرب والأرواح الموكلة الذين يتكونون من نار مهلكة، كلهم وعلى مسافة ستمائة وخمسين مليونا وثلاثمائة فرسخ؛ لاحظوا وجود كائن بشرى وصاحوا قائلين: «من أين تأتى هذه الرائحة لمولود من امرأة؟ كيف أتى إلى أعلى سموات الملائكة متألقى النار؟» لكن الرب أجابهم: «ياخدمى وملأى، يا قروبيم وشروبانيم وسيرافيم، لا يكن فى ذلك إهانة لكم، لأن كل بنى البشر أنكرونى وأنكروا سلطانى العظيم، ومجدوا الأوثان، ولذا فقد نقلت الشكينة من الأرض إلى السماء. لكن هذا الرجل أنوش، هو صفوة البشر. وله إيمان وإنصاف واستقامة أكثر من كل الباقين، وهو مكافأتى الوحيدة من العالم الأرضى».

وقبل أن يُسْمَح لأنوش بالخدمة قرب العرش الإلهى، فُتحت له بوابات الحكمة وبوابات الفهم والإدراك والحياة والسلام «والشكينة» والقوة والقدرة والصلابة والحب والكرم والتواضع والخوف من الخطيئة. وقد زوده الرب بالحكمة البالغة والرزانة وصواب الحكم والمعرفة والتعلم والرأفة والحب والعطف والكرم والتواضع والقوة والقدرة والعزم والبهاء والجمال وحسن الهيئة، وجميع السمات الحسنة الأخرى، وبما يفوق ما أنعم به على أىٍّ من الكائنات السماوية، وتلقى أنوش فوق ذلك ألوفا مؤلفة من النعم من الرب، وأصبح طوله وعرضه مساويًا لطول وعرض العالم وألحق بجسده ستة وثلاثين جناحًا، على اليمين وعلى الشمال، وكل منها فى حجم العالم،

وثلاثمائة وخمس وستين عينًا مُنحت له، وكل منها فى سطوع الشمس. ونُصب له عرش عظيم بجوار بوابات القصر السماوى السابع، وأعلن بشير فى السموات بشأنه، وقد سُمِّى من حينها ميتاترون فى المناطق السماوية، قائلاً: «لقد عيَّنت خادمى «ميتاترون» أميرًا ورئيسًا على كل الأمراء فى مملكتى، فيما عدا الأمراء السبعة الجليلين والمفضلين الذين يحملون اسمى. ومن كان من الملائكة له طلب يريد تقديمه إلىَّ فليمثل أمام الميتاترون، وأيّاً كان ما يأمره به بأمرى، يجب أن تطيعوه وتنفذوه، إذ أمير الحكمة وأمير الفهم فى خدمته، وسيكشفا له علوم السماويات والأرضيات، ومعارف النظام الحالى للعالم، ومعارف النظام الآتى للعالم. وفوق ذلك فقد جعلته أمينًا على كنوز القصور التى فى السماء «عَرَبوت»، وكنوز الحياة التى فى السماء العليا».

ومن حبه لأنوش، كساه الرب بلباس جليل، عُلِّق به كل جرم منير فى الوجود، وتاج يتلألأ بتسع وأربعين جوهرة يخترق بهاؤها كل أجزاء السموات السبع وينفذ إلى أربعة أركان الأرض. وفى حضور العائلة السماوية، وضع (الرب) هذا التاج على رأس أنوش وسماه «الرب الصغير». كذلك يحمل (التاج) الحروف التى خلقت بها السموات والأرض والبحار والأنهار والجبال والوديان والكواكب والمجموعات النجمية والبرق والرعد والجليد والبَرَد والعواصف والأعاصير، كل هذه وكذلك كل الأشياء اللازمة فى العالم، وأسرار الخلق.

حتى أمراء السموات، عندما يرون «ميتاترون» (= أنوش)، يرتجفون أمامه ويخرون ساجدين، فمجده وجلاله والبهاء والجمال اللذان يشعان منه يغمرانهم، حتى سَمَاعيل الشرير أعظمهم، حتى «جبريل» مَلَك النار؛ وبرديل ملك البَرَد، ورحيل مَلَك الرياح، وبَرْقيل ملك البرق، وزعميل ملك الأعاصير، وزقِّيل ملك العواصف، وسوعيل ملك الزلازل، وزعفيل ملك الأمطار الغزيرة وراعميل ملك الرعد، ورعشيل ملك الزوابع، وشلجيل ملك الجليد، ومطريل ملك المطر، وشمشيل ملك النهار، وليليل ملك الليل، وجالجليل ملك النظام

الشمسى، وأوفانيل ملك عَجَلة القمر، وكوكبيل ملك النجوم، ورحتيل ملك المجموعات النجمية.

وعندما تحول أنوش إلى «ميتاترون» تحول جسمه إلى نار سماوية؛ فأصبح لحمه لهيبًا وعروقه نارًا، وعظامه جمرات متوهجة، ونور عينيه سَنًا سماويّاً، ومحجرا عينيه شعلاتٍ من النار، وشعره شواظًا من نار، وكل أطرافه وأعضائه شراراتٍ مشتعلة، وهيكله نارًا مهلكة. وعن يمينه تلظمت ألسنة النيران، وعن شماله استعرت شعلات من النار، وأحاط به من كل الجوانب العواصف والزوابع والأعاصير والرعود.



م ـ مَتوشالَح

بعد رفع أنوش، أعلن كل الملوك متوشالح حاكمًا على الأرض. وسار على درب أبيه. يُعلم الحقيقة والمعرفة والخوف من الرب لبنى البشر طوال حياته، ولا يحيد عن الصراط المستقيم يمنة ولا يسرة وحرر العالم من آلاف الشياطين، الذين هم ذرية آدم من «ليليث» وهى شيطانة الشيطانات. وكانت هذه الشياطين والأرواح الشريرة، كلما قابلت إنسانًا تحاول أن تؤذيه أو تقتله، إلى أن ظهر متوشالح ودعا الرب بالرحمة. وقضى ثلاثة أيام صائمًا، ثم أذن له الرب بكتابة «الاسم الذى لا يُمّحَى» على سيفه، وبه ذبح أربعًا وتسعين زمرةً من الشياطين فى دقيقة واحدة. إلى أن أتاه أجريموس، وهو بكْرُهم وناشده أن يكف عن ذلك، وفى نفس الوقت سلمه أسماء الشياطين والعفاريت. وهكذا وضع متوشالح ملوكهم فى الأغلال الحديدية بينما فر الباقون واختبأوا فى أعمق وهدات المحيطات. وبسبب ذلك السيف الرائع الذى قتل به الشياطين؛ أطلق عليه «متوشالح».

وقد كان رجلاً بالغ التقى لدرجة أنه ألَّف مائتين وثلاثين ترنيمة فى حمد الرب. لكل كلمة نطقها. وعندما مات سمع الناس جَلبَة عظيمة فى السماء، ورأوا تسعمائة صف من النائحين على عدد المراتب التسعمائة للمِشْنَا التى دَرَسها، وانحدرت الدموع من أعين الكائنات المقدسة على المكان الذى مات فيه. وعندما رأوا حزن الكائنات السماوية، ناح الناس على الأرض كذلك على فقد متوشالح ولذا كافأهم الرب، فأضاف سبعة أيام لزمن النعيم الذى قدَّره (لتعيشه الأرض) قبل أن يحل الخراب على الأرض عن طريق الطوفان.

* * *

الفصل الرابع

فـى نـوح

أ ـ ميلاد نوح

اتخذ متوشالح زوجة لابنه لامك، وأنجبت له طفلاً ذكراً وكان جسد الرضيع أبيض كالجليد وأحمر كالوردة المتفتحة وكان شعر رأسه وخُصلاته الطويلة أبيضين كالصوف، وعيناه مثل أشعة الشمس. وعندما فتح عينيه أضاء المنزل كله، مثل الشمس، وامتلأ البيت كله بالنور. وعندما أُخِذَ من أيدى القابلة فتح فمه وحمد رب الاستقامة. وخاف منه أبوه لامك وفر هارباً وذهب إلى أبيه متوشالح وقال له: «لقد أنجبت ابناً غريباً، إنه ليس كمثل البشر، لكنه يشبه أبناء ملائكة السماء، وطبيعته مختلفة، وهو ليس مثلنا، وعيناه مثل أشعة الشمس وملامحه وضَّاءة. ويبدو لى أنه لم ينحدر منِّى، لكن من الملائكة وأخشى أنه فى أيامه ستقع حادثة عجيبة للأرض. والآن يا أبتاه، أنا هنا لأتوسل إليك وأرجوك أن تذهب إلى أخنوخ*، أبينا، وتعلم منه الحقيقة، وهو مقيم الآن وسط الملائكة».

وعندما سمع متوشالح كلام ابنه ذهب إلى أنوش، إلى أطراف الأرض، وصاح عليه بأعلى صوته وسمع أنوش صياحه وظهر أمامه وسأله عن سبب مجيئه. وأخبره متوشالح بسبب قلقه، وطلب منه أن يخبره بالحقيقة. أجابه

(❖) أخنوخ هو أنوش، وهذا التضارب ليس من جانب المترجم وإنما هو بسبب التضارب والاختلاف فى اسمه الوارد فى العهد القديم. (المترجم).

أنوش قائلاً: «سيفعل الرب شيئاً جديداً فى الأرض. سيحل على الأرض خراب عظيم، بطوفان ماء لمدة عام. وهذا الابن الذى ولد لك سيبقى على الأرض وسينجو أبناؤه الثلاثة معه، وعندما يموت كل البشر على الأرض. سيكون هناك عقاب عظيم على الأرض، وستطهر الأرض من كل رجاساتها. والآن أَعْلِم ابنك لامك أن من وُلد له هو ابنه فى الحقيقة وليسمِّه «نوح»، لأنه سوف يُترك لك وسينجو هو وأبناؤه من الدمار الذى سيحل على الأرض». وعندما سمع متوشالح كلام أبيه، الذى أراه كل الأشياء السرية، عاد إلى منزله وسمى الطفل «نوحاً»، لأنه سيجعل الأرض تبتهج كتعويض عن كل الدمار.

ولم يكن يناديه باسم «نوح» إلا جدُّه متوشالح، بينما كان أبوه وكل الناس ينادونه «مِناحيم». وكان جيله مولعا بالسحر والعرافة، وخشى متوشالح أن يُسْحَر حفيده لو عُرِفَ اسمه الحقيقى، ولذا فقد أبقاه سرّاً. وكان الاسم «مناحيم»، أى المعزِّى، يناسبه مثلما كان نوح، وكان يشير إلى أنه سيكون مُعَزِّيا، لو تاب فاعلو الشر فى زمنه عن خطاياهم. وفى لحظة مولده كان هناك إحساس بأنه سيجلب السلوى والخلاص. وعندما قال الرب لآدم: «ملعونة هى الأرض من أجلك». سأله: «إلى متى؟» وأجابه الرب: «إلى أن يولد طفل ذكر يبلغ طهارته حد أنه لا يحتاج فيه للختان». وكان هذا ينطبق على نوح، فقد اختتن فى رحم أمه.

وما كاد نوح يأتى إلى العالم حتى لُوحظ تغير ملحوظ. فمنذ أيام اللعنة التى جلبتها خطيئة آدم على الأرض؛ حدث أن كان القمح يُبذر ولكن ينبت الشوفان وينمو. وتوقف ذلك مع ظهور نوح: فقد بدأت الأرض تنبت ما يُزرع فيها. ونوح، عندما بلغ مرحلة الرجولة، هو الذى اخترع المحراث والمنجل والعزَّاقة وغيرها من الأدوات المستخدمة فى زراعة الأرض. وقبله كان الرجال يفلحون الأرض بأيديهم المجردة عن الآلات.

وكانت هناك أمارة أخرى تدل على أن الطفل الذى أنجبه «لامك» كتب له مصير غير عادى. فعندما خلق الرب آدم، منحه سلطانًا على كل الأشياء؛ فالبقرة تطيع الحارث وكانت قنوات الأرض المزروعة لا تستعصى على الحرث. ولكن بعد سقوط آدم (فى الخطيئة) تمردت كل الأشياء عليه: فقد رفضت البقرة أن تطيع الحارث كما تمردت القنوات. فلما ولد نوح عاد كلٌّ إلى حالته السابقة على سقوط الإنسان.

وقبل ميلاد نوح كان من عادة البحر أن يتجاوز حدوده مرتين يومياً، فى الصباح وفى المساء، ويفيض على الأرض حتى القبور. وبعد مولده ظل قَيّدَ حدوده. كما أن المجاعة التى ضربت العالم فى زمن لامك، وهى الثانية بين المجاعات العشر الكبرى التى قُدر أن تضربها، توقفت عن إهلاك الأرض مع ميلاد نوح.

ب ـ عقاب الملائكة المخطئين

وعندما بلغ نوح مرحلة الرجولة، سار على درب جده «متوشالح»، بينما انتفض كل الرجال الآخرين ضد هذا الملك التقىّ. وبأبعد ما يكون عن اتباع تعاليمه، اتبعوا شرور قلوبهم وارتكبوا كافة أنواع الآثام والمعاصى. وفى البدء، كان الملائكة المخطئون وذرياتهم من العمالقة، هم الذين تسببوا فى حرمان البشرية. وقد صرخ الدم الذى أراقه العمالقة صراخًا صعد من الأرض إلى السماء، واتهم الملائكة الكبار الأربع الملائكة المخطئين وأبناءهم أمام الرب الذى أعطاهم الأوامر التالية تبعًا لذلك: أُرْسِل أورئيل إلى نوح ليعلن له أن الأرض سيدمرها طوفان، وليعلمه كيف ينقذ حياته وأمر رافاييل بتقييد الملك المخطئ «عزازيل» بالسلاسل ويرميه فى هوة من الأحجار الحادة والمدببة فى صحراء دودائيل ويغطيه بالظلام، وليظل على هذه الحال إلى يوم الحساب العظيم، حينما يرمى فى هاوية الجحيم المستعرة، ولتشفى الأرض من الفساد الذى جلبه إليها. أما جبريل فقد كُلِّف باللقطاء والعصاة، أولاد الملائكة الذين أنجبوهم من بنات البشر، وأمر بأن يُدْخِلهم فى صراعات مميتة أحدهم مع

الآخـر. وسُلِّمت زُمْـرَهُ «شـيـمـهـازاى» إلى مـيكائيل الذى جـعلهم فى البـداية يشاهدون بـأعينهم موت أطفالهم أثناء صراعهم العنيف، أحدهـم مع الآخر، ثم ربطهم وقيـدهم تحت تلال الأرض، حـيث يبقـون مدة سـبعين جيـلا، إلى يوم القيامة حينما يحملون من هناك إلى هاوية الجحيم.

وقد حـدث سقـوط عـزازيل وشـيـمـهـازاى فى الخطيئـة بهذه الطريقة. فعندما بدأ جيل الطوفان يمارس عبادة الأصنام، حزن الرب حـزناً عـميقًا. ونهض الملكان شيمهازاى وعـزازيل وقالا: «يا رب العـالم لقد حدث ما تنبأنا به عند خلق العـالم والإنسـان وقلنا: «ما هـذا الإنسـان الذى أنت مـهتم به؟» وقـال الرب: «ومـاذا سـيـصـيـر بالعـالم الآن بدون الإنسـان؟» وعندهـا أجـابه الملكان: «سـوف نشـغل أنفسنا به.» ثم قـال الرب: «أنـا واع جيـدًا لذلك، وأنا أعـرف أنه لـو سكنتم أنتم الأرض، سـوف تغلب عليكم نزعَـة الشـر، وسـوف تكونون أكثـر شـرّاً حتى من الإنسـان.» وناشـده الملكان قـائلين: «امنـحنا فـقط الإذن للإقـامـة بين البشـر، وسـترى كيف سنقـدس اسمك». واستـسلم الرب لرغبتهما قائلاً: «اهبطوا وتنقلوا بين البشـر».

وعـنـدمــا هبط الملائكة إلى الأرض ورأوا بنات البـشـر بكل حـسنهن وجمـالهن، لم يستطيعا التحكم فى عـواطفهما. ورأى شيمهازاى فتاة تسمى «إيستيحار» وملكت قلبـه. ووعدته بأن تسلم له نفسها، لو علمها أولاً «الاسم الذى لا يمحى»، والذى كان يرفع نفسـه إلى السـمـاء بواسطتـه. ووافق على شـرطهـا لكن مـا إن عـرفت حتى تلفظت بالاسم، وصـعـدت هى نفسـهـا إلى السماء، دون أن تفى بوعدها للملك. فقال الرب: «لأنها حفظت نفسـهـا بعيدًا عن الخطيئة، سوف نضعها وسط النجوم السبع، لكيلا ينساها البشر أبدًا». ووضعت فى كوكبة الثريا.

ومع ذلك لم يثبط ذلك عزم شيمهازاى وعزازيل عن الدخول فى تحالف مع بنـات البشـر، وولد لأولهـمـا اثنين من الأولاد. وبدأ عـزازيل يبـتكر الزينة والحلىّ التى تغرى بها النساءُ الرجالَ. وعندها أرسل الرب «ميتازون» ليخبر

شيمهازاى أنه قد قرر تدمير العالم وإغراقه بالطوفان. فابتدأ الملك المخطئ يبكى ويولول على مصير العالم وعلى مصير ولديه. فلو غرق العالم فما الذى سيكون هناك ليأكلاه، وهما اللذان كانا يحتاجان يوميّاً لألف جملٍ وألف حصان وألف غزالة؟

وقد حَلَم ابنى شيمهازاى، واسمهما يميوَّا وهِيَّا، أحلامًا. رأى أحدهما صخرة عظيمة غطت الأرض، وأن الأرض قد غطتها سطور فوق سطور من الكتابة. وجاء مَلَكٌ وكشط بسكين كل السطور ولم يترك فوق الصخرة إلا أربعة أحرف. ورأى الولد الآخر حديقة كبيرة بهيجة زرعت بكل أنواع الأشجار. لكن الملائكة جاءوا وفى أيديهم الفؤوس واجتثوا الأشجار، ماعدا شجرة واحدة لها ثلاثة فروع.

وعندما استيقظ هِيوَّا وهِيَّا من النوم، لجأوا إلى أبيهما الذى فسر لهما أحلامهما قائلاً: «سوف يأتى الرب بالطوفان ولن ينجو منه أحد، إلا نوح وأبناؤه». وعندما سمعا ذلك، طفقا يبكيان ويصرخان لكن أباهما واساهما قائلا: رويدكما! رويدكما لا تحزنا. فكلما قطَّع الرجال الأحجار أو صنعوا السُّفن؛ سينطقون اسميكما قائلين: هِيَّوا! هِيَّا!»(*) وطيَّبَ هذا خاطريهما.

وبعد ذلك تاب شيمهازاى وعلق نفسه بين السماء والأرض، وهو يتعلق إلى يومنا هذا فى هذا الوضع المميز لمخطئ تائب. لكن عزازيل أصر على غوايته فى البشرية إلى الضلال باستخدام المغريات الشهوانية. ولهذا السبب[1] يتم التضحية بكبشين فى المعبد فى يوم التكفير، أحدهما للرب ليغفر ذنوب إسرائيل، والثانى لعزازيل لأنه يحمل خطايا إسرائيل.

وعلى عكس «إيستحار»، فإن«نَعْمَه»، بنت توبال ـ قينان الجميلة، ضللت

(*) يقصد ذلك الصوت الذى يطلقه الإنسان عندما يقوم بعمل شاق كتكسير الحجارة ليستحث نفسه على الصبر، مثلما يقول المصريون: «هيلا هوب». (المترجم).

(١) المؤلف يعلل سبب التكفير الوارد فى التوراة فى الأصحاح السادس عشر من سفر اللاويين (الأحبار) وفيه: «بهذا يدخل هرون القدس بعجل من البقر لذبيحة الخطية وبكبش للمحرقة.» ـ «والذى يطلق التيس إلى عزازيل يغسل ثيابه ويستحم فى الماء. مرة واحدة فى السنة». (المحقق)

الملائكة بجمالها، ومن اتحادها مع شَمدون نشأ الشيطان أسموديوس. وكانت عديمة الحياء، مثلها مثل كل ذرية قينان الآخرين، ومثلهم فى خضوعها لسطوة الشهوات الحيوانية وكان من عادة الرجال القينيين والنساء القينيات على السواء، أن يسيروا فى الشوارع عرايا، واستسلموا لممارسة كل رذيلة ممكنة. وكان منهم نساءٌ أغوى جمالهن ومفاتنهن الجسدية الملائكة عن طريق الفضيلة. ومن ناحية أخرى، فإن الملائكة ما إن يتمردوا ضد الرب ويهبطوا إلى الأرض، إلا ويفقدوا سماتهم المتميزة، ويمنحوا أجسادًا أرضية، فأصبح اتحادهم مع بنات البشر ممكناً. وكان نتيجة هذا اتحاد بين الملائكة والنساء القينيات، العمالقة الذين عُرفوا بقوتهم ومعصيتهم كما يدل عليه اسمهم نفسه، «الاميم» فهم يبثون فى النفس الخوف. ولهم أسماء أخرى عديدة. فأحياناً يطلق عليهم ريفائيم، لأن نظرة واحدة إليهم تجعل قلب المرء يزداد وهنًا؛ أو الاسم جبوريم، لأن حجمهم كان كبيراً لدرجة أن أفخاذهم كانت تبلغ ثمانية عشر ذراعاً؛ أو الاسم زمزومِّيم، لأنهم كانوا أساتذة كبار فى الحروب؛ أو الاسم عناقيم، لأنهم كانوا يلمسون الشمس بأعناقهم؛ أو الاسم إفِّيم، لأنهم، مثل الثعبان، يستطيعون الحكم على خواص التربة؛ أو أخيراً الاسم نيفيليم، لأنهم، حينما تسببوا فى دمار العالم، دمروا أنفسهم كذلك.

جـ ـ جيل الطوفان

وكما شابهت ذرية قينان أباها فى خطيئته وحرمانه؛ فإن ذرية شيث عاشت حياة تقية ورعة، وانعكس الاختلاف فى تصرفات الفريقين فى مكان إقامة كل منهما. فقد أقامت عائلة شيث على الجبال بجوار الجنة، بينما أقامت عائلة قينان فى حقل دمشق، حيث قتل «هابيل» على يد «قَيْنان».

ولسوء الحظ، ففى زمن «متوشالح» وبعد موت آدم أصبحت عائلة شيث فاسدة مثل القينيين ـ واتحد الفريقان معًا ليقترفوا كل أنواع المعاصى ـ وكانت نتيجة اتحادهما النيفيليم (أى العمالقة)، الذين تسببت خطاياهم فى

قدوم الطوفان على العالم. وبغرورهم ادعوا لأنفسهم نفس نُبل الأصل الذى كانت تتميز به ذرية شيث، وقارنوا أنفسهم بالملوك والرجال ذوى الأصل الكريم.

وكان فساد هذا الجيل يعود فى جزء منه إلى الظروف المثالية التى كانت تعيش فيها البشرية قبل الفيضان. فلم يكونوا يعرفون كدحًا ولا همّاً، وكنتيجة لرفاهيتهم غير العادية ازدادوا عنادًا وصلفًا ومن غرورهم انتفضوا ضد الرب. فقد كانت البَذْرة الواحدة تأتى بحصاد يكفى أربعين عامًا، وبوسائلهم السحرية كان بإمكانهم أن يجبروا حتى الشمس والقمر على الخضوع لخدمتهم. وما كانوا يعانون المشاكل فى تربية أبنائهم الذين كانوا يولدون بعد أيام قليلة من الحمل، وبعد الولادة مباشرة كانوا يستطيعون المشى والكلام، بل كانوا يساعدون أمهاتهم فى قطع الحبل السُّرِّى. ولا حتى الشياطين كانوا يقدرون على إيذائهم.

وذات مرة كان هناك وليد يجرى ليجلب ضوءًا لتقطع فيه أمه حبله السرى، فقابل رئيس العفاريت وتصارع معه. وفجأة سُمِع صياح ديك فولَّى الشيطان هارباً يصيح مخاطباً الطفل: «اذهب واحكِ لأمك، أنه لولا صياح الديك لكنتُ قتلتكَ!» فرد عليه الطفل قائلاً: «اذهب اذهب أنت واحكِ لأمك أنه لولا حبلى السرى الذى لم يقطع لكنت قتلتك».

وقد أتاحت لهم حياتهم الهانئة الفرصة والفراغ ليرتكبوا آثامهم. وظل الرب مدة طويلة لحلمه وإحسانه يتجاوز عن خطايا البشر، ولكن صبره نفد عندما شرعوا فى العيش فى حياة الفاحشة إذ أن «الرب يصبر على كل الخطايا إلا أن تعيش حياة الفاحشة».

وكانت الخطيئة الأخرى التى عجَّلت بنهاية ذلك الجيل الفاسق، هى جشعهم. وقد كانوا يخططون لأعمال السلب ببراعة تجعل القانون عاجزًا عن أن يطالهم. فإذا أحضر أحد الفلاحين سلة فواكه إلى السوق، كانوا يشقون طريقهم إليها خلسة واحدًا بعد الآخر، ويلتقطون قطعة، كل منها

ذات قيمة تافهة بمفردها، ولكن بعد فترة لا يتبقى للبائع ما يبيعه.

ومن رحمة الرب أنه بعدما قرر إهلاك الخطأة، أذن لرحمته أن تسود، فأرسل إليهم «نوحا» الذى ناشدهم الاستقامة مدة مائة وعشرين عامًا، وكان يهددهم دائمًا بالطوفان. أما هم فقد اكتفوا باحتقاره وكلما رأوه مشغولاً بصنع السفينة يسألونه: «لم تصنع هذه؟».

نوح: «سيصيبكم الرب بالطوفان».

الخطأة: «أى نوع من الطوفان؟ لو أرسل علينا طوفانًا من النار فنحن نعرف كيف نحمى أنفسنا منه. وإن كان فيضاناً من المياه؛ فإن انبعثت المياه من الأرض سنغطى العيون بقضبان حديدية، وإن هبطت من فوق، فنحن نعرف لذلك أيضاً علاجًا».

نوح: «ستتفجر المياه من تحت أقدامكم ولن تستطيعوا إيقافها».

وإلى حدٍّ ما أصروا على قساوة قلوبهم لأن نوحًا عرَّفهم أن الطوفان لن يهبط طالما «متوشالح» التقى بينهم. وعندما انقضت المائة والعشرون عامًا التى جعلها الرب فترة اختبار لهم، مات ميتوشالح، ولكن مراعاة لذكرى رَجُلِهِ التقى منحهم الرب أسبوعًا إضافيًا مهلة، وهو أسبوع الحداد عليه. وخلال فترة الحداد هذه، عُلِّقت قوانين الطبيعة، فأشرقت الشمس من الغرب وغربت من الشرق. وإلى الخطاة أعطى الرب الملذات التى تنتظر الإنسان فى العالم الآتى، بغرض أن يريهم قيمة ما يفرطون فيه. لكن ذلك كله ثبت عدم جدواه، ولأن متوشالح وغيره من المتقين فى هذا الجيل كانوا قد غادروا هذه الحياة، فقد أصاب الرب الأرض بالطوفان.

د ـ التوراة

وقد تطلّب بناء السفينة حكمة عظيمة، فقد كان يجب أن تتسع لكل أنواع الكائنات على الأرض، وحتى الأرواح. ولا يتسع للأسماك والأسماك

هى التى لم يكن يجب أن يُعمل حسابها. واكتسب نوح الحكمة الضرورية من الكتاب الذى أعطاه لآدم الملك «رازيل» الذى سجلت فيه كل المعارف السماوية والأرضية.

وبينما كان أول زوجين من البشر فى الجنة، حدث ذات مرة أن سَمَاعيل اقترب من حواء، ومعه غلام، وطلب منها أن تعتنى بابنه وترعاه حتى يعود. ووعدته حواء بأنها ستفعل ذلك. وعندما عاد آدم من نزهة فى الجنة، وجد مع حواء طفلاً يبكى ويصرخ، ورداً على سؤاله أخبرته أن الطفل طفل «سَمَاعيل». وتضايق آدم وازداد ضيقه مع بكاء وصراخ الصبى الذى أخذ يزداد عنفاً. ومن ضيقه ضرب الصبى ضربة قتلته، لكن الجثة لم تكف عن البكاء والصراخ، ولا حتى عندما قطَّعها آدم إلى أشلاء. ولكى يخلص نفسه من هذه المصيبة، طبخ آدم الأشلاء وأكلها هو وحواء. وما كادا ينتهيان إلا وظهر أمامهما سَمَاعيل وطلب ابنه. وحاول المجرمان أن ينكرا كل شىء؛ وتظاهرا بأنهما لا يعرفان شيئًا عن ابنه. لكن سماعيل قال لهما: «ماذا؟! أتجرؤان على الكذب علىَّ. والرب فى مستقبل الأيام سيعطى إسرائيل التوراة التى قيل فيها: «أبعد نفسك عن الكذب؟».

وبينما كانا يتحدثان هكذا انطلق صوت الصبى قادمًا من قلبى آدم وحواء وخاطب سماعيل قائلاً: «اذهب من هنا! لقد نَفَذْت إلى قلب آدم وقلب حواء، ولن أترك قلبيهما أبداً بعد الآن، ولا قلوب أبنائهم، ولا أبناء أبنائهم، إلى نهاية كل الأجيال.

وانصرف سماعيل، ولكن آدم غلبه الحزن وارتدى الخيش والقش وصام أيامًا عديدة، إلى أن ظهر له الرب وقال: «يا بنى، لا تخف من سماعيل. سأعطيك علاجًا سيساعدك ضده، إذ أنه قد ذهب إليك على مثالى».

سأله آدم: «وما هذا العلاج؟».

الرب: «التوراة».

آدم: «وأين هى التوراة؟».

فأعطاه الرب فى الحال كتاب الملك رازيل الذى درسه ليلاً ونهاراً. وبعد مرور بعض الوقت، زارته الملائكة، لأنهم غاروا من الحكمة التى استقاها من الكتاب، وحاولوا إهلاكه فى مكر بأن دعوه ربّاً وسجدوا له رغم أنه ناشدهم قائلاً: «لا تسجدوا لى، لكن عظّموا معى الرب، ولنسبح بحمده معاً».

ومع ذلك فقد كان حقد الملائكة عظيماً لدرجة أنهم سرقوا الكتاب الذى أعطاه الرب لآدم، وألقوه فى البحر. وبحث عنه آدم فى كل مكان دون جدوى، وحزن حزناً عظيماً على فقده.

ومرة أخرى صام أيامًا عديدة، إلى أن ظهر له الرب وقال: «لا تَخَفْ! سأعيد إليك الكتاب». ونادى راهاب، ملك البحر، وأمره أن يجلب الكتاب من البحر، ويعيده إلى آدم، ففعل راهاب ما أُمر به.

وعند موت آدم، اختفى الكتاب، لكن فيما بعد كُشف عن الكهف الذى أُخفى فيه إلى أنوش فى أحد الأحلام. ومن هذا الكتاب استمد أنوش معرفته بالطبيعة، وبالأرض وبالسماء، وأصبح بواسطته حكيماً لدرجة أن حكمته فاقت حكمة آدم. وما إن حفظه عن ظهر قلب، إلا وأخفى أنوش الكتاب مرة أخرى.

والآن عندما قرر الرب أن يصيب الأرض بالطوفان، أرسل الملك الكبير رافائيل إلى نوح، حاملاً معه الرسالة التالية:

«ها أنا أعطيك الكتاب المقدس، لتعرف كل الأسرار والألغاز التى كتبت فيه، ولكى تعرف كيف تستمسك بتعاليمه فى طهر، ونقاء واعتدال وتواضع. وستتعلم منه كيف تصنع سفينة من خشب شجرة الكافور، حيث تجد الحماية أنت وأبناؤك وزوجتك».

فأخذ نوح الكتاب، وعندما درسه، حلَّ عليه الروح القدس وعرف كل

الأشياء اللازمة لبناء السفينة وتجميع الحيوانات وأخذ معه الكتاب ـ الذى كان مصنوعًا من الزعفران ـ إلى السفينة، بعد أن غلفه بغلاف ذهبى. وقد أفاده طوال بقائه فى السفينة بأن قام بدور المِزْوَلَة، ليميز الليل من النهار. وقبل موته أودعه إلى «سام» الذى أودعه بدوره إلى «إبراهيم» ومن إبراهيم وصل، من خلال يعقوب ولاوى وموسى ويشوع، إلى سليمان الذى تعلم كل الحكمة منه، وكذلك تعلم منه مهارته فى فنون الطب وأيضاً سلطانه على الشياطين.

هـ ـ أصحاب السفينة

واكتمل بناء السفينة وفقاً للتعليمات الموضوعة فى «كتاب رازيل» وكانت مهمة نوح التالية هى جمع الحيوانات. وكان عليه أن يصطحب معه على السفينة ما لا يقل عن اثنين وثلاثين نوعًا من الطيور وثلاث مائة وخمسة وستين نوعًا من الزواحف لكن الرب أمر الحيوانات أن تتوجه إلى السفينة، فزحفت إليها، ولم يحتج نوح سوى أن يشير إليها بإصبع من أصابعه. وفى الحقيقة لقد ظهر «من الحيوانات» أكثر مما كان مطلوبًا، وأرشده الرب إلى الجلوس على باب السفينة وينظر أى الحيوانات ترقد وأيها يقف عندما تصل إلى المدخل. فالأولى «التى ترقد» هى التى يجب أن تُحْمَل فى السفينة، وليست الأخرى. واتخذ نوح مكانه الذى أمر به «على مدخل السفينة»، فرأى لبؤة مع شبليها. وكان ثلاثتهم جاثين على بطونهم. لكن الشبلين بدآ يتقاتلان مع الأم؛ فنهضت ووقفت بجوارهما فأدخل نوح الشبلين إلى السفينة. أما الحيوانات البرية، والماشية والطيور التى لم يتم قبولها فقد ظلت واقفة بجوار السفينة طوال سبعة أيام، إذ أن تجميع الحيوانات حدث قبل الطوفان بأسبوع. وفى اليوم الذى جاءوا فيه إلى السفينة، أظلمت الشمس، وارتجفت ينابيع الأرض، وومض البرق، وهَزَم الرعد، كما لم يحدث من قَبْلُ أبداً. ومع ذلك ظل الخطاة على معاصيهم. ولم يفكروا لحظة واحدة فى الكف عن أفعالهم الشريرة خلال تلك الأيام السبعة الأخيرة.

وعندما تدفّق الطوفان فى النهاية، تجمع حول السفينة سبعمائة ألف من بنى البشر، وناشدوا نوحاً أن يحميهم فأجابهم بصوتٍ ساخر قائلاً: «ألم تتمردوا من قبل على الرب قائلين «ليس هناك إله»؟ لهذا يحل عليكم الطوفان، ليفنيكم ويمحوكم من على وجه الأرض. ألم أكن أتنبأ لكم بذلك طوال هذه السنين المائة والعشرين، ولم تصخوا إلى صوت الرب؟ ومع ذلك تتمنون الآن أن تبقوا أحياءً!!»

فصرخ الخطاة قائلين: «ليكن كذلك! لكن كلنا الآن على استعداد للعودة إلى الرب، لو فتحت لنا باب سفينتك لتستقبلنا، لكى نعيش ولا نموت».

أجابهم نوح قائلاً: «إنما تتوبون الآن لأن الضرورة تجبركم على ذلك. لماذا لم تعودوا إلى الرب طوال كل تلك السنوات المائة والعشرين التى فتح فيها الرب أمامكم باب التوبة؟ والآن تجيئون إلىّ وتكلموننى هكذا، لأن المصيبة تهدد حياتكم. لهذا لن يسمع الرب لكم ولن يصغى إليكم، ولن تفلحوا فى شىء!».

وحاول الخطاة أن يدخلوا السفينة بالقوة، لكن الحيوانات المفترسة التى كانت تحرسها؛ هجمت عليهم وقتلت الكثيرين منهم، بينما فر الباقون، ليلقوا حتفهم فى مياه الطوفان.

ولم يكن الماء وحده ليستطيع القضاء عليهم فقد كانوا عمالقة فى بنيتهم وقوتهم. وعندما كان نوح يهددهم بعقاب الرب كانوا يجيبونه قائلين: «لو سقطت مياه الفيضان من أعلى فلن تصل أبدًا إلى أعناقنا، ولو نبعت من أسفل فإن بواطن أقدامنا كبيرة إلى حدٍ يكفى لسد الينابيع». لكن الرب أمر كل قطرة أن تمر بجهنم قبل أن تسقط على الأرض، وسلق المطر الساخن جلود الخطاة.. وكانت العقوبة التى نزلت بهم تتناسب مع جريمتهم. فكما ألهبتهم رغباتهم الجسدية، ودفعتهم إلى اقتراف الفواحش؛ عوقبوا بالماء الساخن.

وحتى فى ساعة القدر المحتوم؛ لم يستطع الخطاة السيطرة على

غرائزهم الشريرة. فعندما بدأ الماء يتدفق من الينابيع؛ ألقوا بأطفالهم الصغار فى هذه الينابيع ليسدوا مجارى الطوفان.

وبنعمة الرب، لا بفضل من نوح، أنقذه الرب فى السفينة وحماه من القوة الهائلة للمياه. ورغم أنه كان أفضل من معاصريه، فإنه لم يكن ليستحق أن تقع على يديه المعجزات. وكان إيمانه ضعيفاً إلى درجة أنه لم يدخل السفينة إلا بعد أن بلغ الماء ركبتيه. وقد نجت معه زوجته «نَعْمَه» التقية، ابنة «أنوش»، وكذلك أبناؤه الثلاثة وزوجات أبنائه الثلاثة».

ولم يتزوج نوح إلا بعد أن بلغ من العمر أربعمائة وثمان وتسعين سنة ثم أمره الرب أن يتخذ لنفسه زوجًا. ولم يكن يرغب فى أن يجلب نسلا إلى العالم، إذ رأى أنهم سيهلكون جميعًا فى الطوفان، وما كان له سوى ثلاثة أبناء، أنجبهم قبل حلول الطوفان بوقت قصير. ولم يمنحه الرب سوى عدد قليل جدًا من الذرية لكى يوفر عليه الاضطرار إلى بناء السفينة بمقاس كبير جدًا لو تبين أنهم متقين، فإذا لم يكونوا متقين، فإنهم أيضًا سيحرمون مثل باقى أفراد جيلهم، ومن ثم سيزداد حزنه على هلاكهم بما يتناسب مع عددهم.

وكما كان نوح وذريته هم الوحيدون الذين لم يشاركوا فى فساد ذلك العصر، فبالمثل كانت الحيوانات التى قُبِلَتْ فى السفينة هى تلك التى عاشت حياة طبيعية. إذ كانت حيوانات ذلك الزمان فى مثل فجور الناس: فالكلب يزنى بالذئب والديك بالطاووس، ولم يلتزم الكثير منها بالعفة. ولم ينجُ منها إلا من حافظوا على أنفسهم من الدنس.

وقبل الطوفان كان عدد الحيوانات الدنسة أكبر من عدد الطاهرة وفيما بعد انعكست النسبة، إذ بينما نجا فى السفينة سبعة أزواج من الحيوانات الطاهرة، فلم ينج من الحيوانات الدنسة إلا زوجان فقط.

وهناك حيوان واحد، هو غزال الريم، لم يستطع نوح أن يحمله فى السفينة. إذ بسبب حجمه الهائل لم يجد له مكانًا فيها. ولهذا ربطه نوح فى

السفينة، وجرى خلفها. وأيضاً لم يستطع «نوح» أن يجد مكانًا للعملاق «عُوج» ملك «باشان». وقد جلس فى أمان على قمة السفينة، وبهذه الطريقة نجا من فيضانات المياه. وكان نوح يلقى إليه طعامه كل يوم، من خلال فتحة، لأن «عوج»، قد وعده بأنه سيكون هو وذريته خدامًا له إلى الأبد.

ونجا فى السفينة حيوانات من نوع متميز جدًا. فقد كان من بين الكائنات التى جاءت إلى نوح، «الزَّيْف» يطلب الملجأ. وقد رفض دخوله، لأنه لا رفيق له، ولم يكن نوح يدخل الحيوانات إلا زوجين زوجين. وانطلق «الزيف» يبحث عن شريك، فقابل «المصيبة» التى ارتبط بها على شرط أن تكتفى بما قد يكسبه «الزيف» ـ وبعدها قُبِلَ الزوجان فى السفينة. وعندما غادراها، لاحظ «الزيف» أن ما يجمعه أيًا كان يختفى فى الحال، فذهب إلى رفيقته يستفسر منها فأجابته بالكلمات التالية: «ألم نتفق على أن آخذ ما تكسبه؟» فعاد «الزيف» خالى الوفاض.

و ـ الطوفان

ولم يكن تجميع الحيوانات على ظهر السفينة إلا جزءًا يسيرًا من المهمة التى كُلِّف بها نوح. وكان أصعب ما واجهه هو إيجاد الطعام والمأوى لها لعام كامل ـ وفيما بعد بفترة طويلة، قص «سام»، ابن نوح، على «أليعزر»، خادم «إبراهيم»، ما لاقوه من الحيوانات على ظهر السفينة ـ وهذا هو ما قاله: «واجهنا مشاكل عصيبة فى السفينة. ففى النهار كان علينا إطعام الحيوانات بالنهار، وفى الليل كان علينا إطعامها فى الليل. ولم تدر أمى ما تطعم به الزكيتا الصغير. وذات مرة قسم «أبى» رمانةً إلى نصفين فسقطت من الثمرة دودة فالتهمها الزكيتا. ومن ساعتها أخذ أبى يعجن النخالة ويدعها حتى تتغذى عليها الديدان، التى كانت تُلقى إلى ذلك الحيوان طعامًا له. وعانى الأسد من الحمى طوال الوقت، ولذا فلم يزعج الآخرين، لأنه لم يكن يستسيغ الأكل الجاف. ووجد أبى الحيوان أورشانا نائمًا فى أحد أركان

السفينة، فسأله إن كان لا يريد أن يأكل «هو الآخر»، فأجابه قائلاً: «رأيت أنك كنت مشغولاً جدّا، فلم أرغب فى زيادة الحمل عليك». عندها قال له أبى: «فليحفظك الرب حيّا إلى الأبد» وأجيبت الدعوة».

وازدادت الصعوبات عندما بدأ الطوفان يطيح بالسفينة ويجعلها تتمايل من جنب إلى جنب. واهتز كل من كان فيها مثل حبات العدس فى الإناء. وبدأت الأسود تزأر، وخارت الثيران، وعوت الذئاب، وانطلقت الحيوانات تئن وتتوجع، وكل يصدر الصوت الذى يقدر على التلفظ به.

حتى نوح وأبناؤه، فإنهم قد ظنوا أنهم على شفير الموت، فأخذوا يبكون. ودعا نوح الرب قائلاً: «يا رب ساعدنا، لأننا غير قادرين على تحمل الشر الذى يحيط بنا من كل جانب. فالأمواج الهائلة تحيط بنا، وترعبنا سيول الدمار، والموت يحدق فى وجوهنا - استجب دعاءنا، وارحمنا، وأكرمنا! خلِّصنا ونجِّنا!».

وقد نتج الطوفان من اتحاد المياه المذكرة، وهى فى الفلك العلوى، مع المياه المؤنثة التى تنبع من الأرض. واندفعت المياه العلوية من فراغين تخلقا عن اثنتين من نجوم كوكبة الثريا انتزعهما الرب من مكانهما. وبعد ذلك لكى يُوقف الطوفان، كان على الرب أن ينقل نجمتين من كوكبة الدب الأكبر إلى كوكبة الثريا. ولهذا السبب يجرى «الدب» خلف «الثريا». فهو يريد صغيريه، لكنهما لن يعودَا إليه إلا فى العالم الآتى.

كذلك حدثت تغيرات أخرى فى الأفلاك السماوية فى عام الطوفان. فطوال الزمن الذى استمر فيه الطوفان، لم يُلْقِ الشمس ولا القمر ضوءًا، ومن هنا اكتسب نوح اسمه «المريح»، إذ فى حياته استراح الشمس والقمر. وأضيئت السفينة بحجر كريم، كان أشد ضوءًا بالنهار منه فى الليل ليتمكن نوح من تمييز النهار عن الليل.

ودام الطوفان لعامٍ كامل. فقد بدأ فى اليوم السابع عشر من حيشوان،

واستمر المطر أربعين يومًا، حتى اليوم السابع والعشرين من كيسليو. وكانت العقوبة تتناسب مع جريمة جيل الخطيئة. فقد عاشوا حياة الفاحشة، وأنجبوا أطفالا غير شرعيين كانوا يظلون فى الحالة الجنينية أربعين يومًا، ومن السابع والعشرين من «كيسليو» إلى الأول من سيوان، وهى مدة بلغت مئةً وخمسين يومًا، وكان الماء يبلغ ارتفاعًا واحدًا هو خمسة عشر ذراعًا فوق الأرض. وخلال هذه الفترة هلك كل الأشرار، وكلٌّ يلقى العقوبة التى يستحقها. وكان «قينان» ممن هلكوا، وهكذا انُتقِم لموت «هابيل». وقد بلغت المياه من التدمير قوة بلغت حَدَّ أن جثة آدم لم تبق فى قبرها.

وفى الأول من «سيوان» بدأت المياه تنحسر، بمقدار ربع ذراع كل يوم، وفى نهاية ستين يومًا، فى العاشر من آب، ظهرت قمم الجبال لكن قبل ذلك بأيام عديدة، فى العاشر من تموز، أطلق نوح الغراب، ثم اليمامة بعده بأسبوع، فى أولى طلعاتها الثلاث التى تكررت بفاصل أسبوع بين الطلعة والأخرى. واستغرقت المياه الفترة من الأول من آب إلى الأول من تشرى، حتى تختفى تمامًا من على وجه الأرض. وحتى فى ذلك الوقت كانت الأرض موحلة إلى درجة اضطرت سكان السفينة إلى البقاء فيها حتى اليوم السابع والعشرين من «حيشوان»، ليكملوا عامًا شمسيًّا كاملاً، يتكون من اثنى عشر شهرًا قمريًّا وأحد عشر يومًا.

وقد واجه نوح صعوبات جمة لكى يتأكد من حالة المياه. فعندما أراد إرسال الغراب قال له الغراب: «إن الرب سيدك يكرهنى، وأنت تكرهنى أيضًا. إن سيدك يكرهنى لأنه أمرك أن تحمل معك على السفينة سبعة أزواج من الحيوانات الطاهرة، واثنين فقط من الحيوانات الدنسة، التى أنا منها. وأنت تكرهنى لأنك لم تختر لك رسولاً، من بين تلك الطيور التى يوجد منها سبعة أزواج على السفينة، لكنك أرسلتنى أنا، وأنا الذى لا يوجد من جنسى سوى زوج واحد. وافترض أننى لو هلكت الآن بسبب الحرارة أو البرد، ألن يفتقر العالم إلى جنس كامل من الحيوانات؟ أم تراك نظرت بعين

الشهوة إلى رفيقتى، وتريد التخلص منِّى؟» عندها أجابه نوح قائلاً: «أيها التعيس! أنا نفسى يجب علىَّ أن أعيش بعيدًا عن زوجتى فى السفينة. فكيف إذًا ستراودنى مثل هذه الأفكار التى تتهمنى بها!».

ولم تَلْقَ مهمة الغراب نجاحًا، إذ عندما رأى جثة رجل ميت، أخذ فى أكلها بشراهة، ولم ينفذ الأوامر التى كلَّفه بها نوح. لذلك أُرسلت اليمامة. وعادت قرب المساء حاملة ورقة زيتون فى منقارها، وقد التقطتها من على جبل أورشليم، إذ لم يصل الطوفان إلى الأرض المقدسة». وقالت وهى تلتقطها، تخاطب الرب. «يا رب العالم، اجعل طعامى فى مرارة ورقة الزيتون، لكن أعطنيه أنت بيدك، فهو أفضل لى من أن يكون حلوًا وتجعلنى تحت سلطان البشر».

ز- نوح يغادر السفينة

ورغم أن الأرض قد عادت إلى هيئتها الأولى فى نهاية عام العقوبة، فإن نوحا لم يغادر السفينة إلا بعد أن تلقى أمر الرب بمغادرتها وقال لنفسه: «كما ركبت السفينة بأمر الرب، فلن أغادرها إلا بأمره». ومع ذلك فعندما أمره الرب بمغادرة السفينة رفض، لأنه كان يخشى أنه بعد أن يعيش على الأرض الجافة لبعض الوقت وينجب أولادًا، يُصيب الرب الأرض بطوفان آخر. ولهذا فلم يغادر السفينة إلا بعد أن أقسم له الرب بأنه لن يصيب الأرض بطوفان آخر أبدًا!!.

وعندما خطا من السفينة إلى العراء بكى بحرقة من منظر الخراب الذى سببه الطوفان، وقال للرب: «يا رب العالم، إنك تُسَمَّى الرحيم وكان يجب عليك أن تكون رحيمًا بمخلوقاتك». أجابه الرب قائلاً: «يا أيها الراعى الغبى، الذى يتحدث إلىّ الآن. لم تقل ذلك عندما خاطبتك بلطف وقلت لك: «أراك رجلاً مستقيمًا وكاملاً بين جيلك، وسأضرب الأرض بطوفان ليدمر كل ذى بشر. اصنع لنفسك سفينة من خشب الكافور» وهكذا قلت لك

وأخبرتك بكل هذه الظروف لعلك تسألنى الرحمة بالأرض. لكنك ما إن سمعت أنك ستنجو فى السفينة، لم تشغل نفسك بالخراب الذى سيحل على الأرض. لقد بنيتَ لنفسك سفينة، نجوت فيها. والآن بعد أن خربت الأرض، تفتح فمك لتدعو وتتوسل».

أدرك نوح أنه أذنب بغباوته. ولكى يُرضى الرب ويقر بذنبه قرَّب قربانًا. وقبله الرب ورضى عنه بأن ناداه باسمه «نوحًا» ولم يقدم نوح القربان بيديه هو؛ ولكن قدمه الخدمة المرتبون بالقرابين وقد قدمه ابنه «سام» وكان لذلك سبب هو هذا: ذات يوم وهو على السفينة نسى نوح أن يُطْعِم الأسد، فضربه الحيوان الجائع بمخلبه ضربة شلّته للأبد، ولأنه كان معاقًا فى بدنه، لم يُسْمَحْ له بأداء الشعائر التى يؤديها الكاهن.

وتكونت الأضاحى من ثور ونعجة وشاة ويمامتين وفرخى حمام. **وقد**[1]

---

(١) **استواء سفينة نوح ﷺ**

فى مكة المكرمة، وبناء نوح للكعبة:

يقول المؤلف ـ نقلا عن التلمود ـ: إن «المذبح» الذى أقامه نوح ﷺ كان فى نفس المكان الذى كان آدم وقينان وهابيل يقدمون فيه قرابينهم وهو الذى سيقام فيه ـ فيما بعد ـ المذبح فى «أورشليم»

ومعنى كلامه: هو أن آدم كان له «مذبح» فى الأرض. يُقدَّم فيه القرابين لله. وأن هذا المذبح علا عليه ماء الطوفان فأغرقه وأضاعه.

وأن نوحا بنى مذبحة فى مكان المذبح الأول. فلنبحث عن مكان مذبح نوح الجديد؛ لأنه سيعين مكان المذبح الأول. فى التوراة: أن نوحا بنى مذبحا للرب، وقرب فيه القرابين لله. والمذبح هو بناء ارتضاه الله لتقديم القرابين فيه لأجل رضاه عن الناس. ثم من بعد بنائه؛ يقصده الناس من جميع البلاد لتقديم القرابين فيه. فلما بناه نوح على أرض بناء آدم له. وقرب عنه القرابين، وكثر الناس الناجون من الطوفان. ارتحل الناس من أرض مذبح نوح. إلى أرض العراق شرقا ـ وهى المسماة قديما بأرض شِنعار ـ فإذا كان الارتحال إلى الشرق؛ فإن «مذبح نوح» يكون إلى الغرب من العراق. ويكون أيضا إلى الشرق من «مكة المكرمة».

وكان الناس يأتون كل سنة إلى مذبح نوح لشكر الله عنده. على أنه نجاهم هم وآباءهم من الغرق.

وكان الناس يطلقون على مكان المذبح إنه مبنى على «جبل الرب» وعلى ذلك. يكون أول من بنى الكعبة المعظمة آدم. فلما غرقت بالطوفان؛ أعاد نوح بناءها. ويكون هبوط آدم وحواء =

اختار نوح هذه الأنواع لأنه كان يفترض أنها مخصصة للقربان، وذلك لأن الرب كان قد أمره بأن يأخذ معه سبعة أزواج منها. وأقيم المذبح فى نفس المكان الذى كان آدم وقينان وهابيل يقدمون فيه قرابينهم، والذى سيقام فيه فيما بعد المذبح فى الحرم المقدس فى «أورشليم»

وبعدما تمت التضحية، بارك الرب آدم وأبناءه. وجعلهم حكامًا على العالم مثلما كان آدم، وأمرهم قائلاً: «تناسلوا وتكاثروا على الأرض» إذ أثناء مقامهم فى السفينة، كان كل جنسين، من البشر والحيوانات على السواء، يعيشان بعيدًا أحدهما عن الآخر، إذ فى وقت الكوارث العامة يتوقع من

= من الجنة لسكناهما فى الأرض؛ فى أرض مكة المكرمة. ويكون إبراهيم عليه السلام مجدداً للكعبة لا مؤسساً لها.

ثم قال مؤلف التلمود: إن «الكعبة» ستبنى - فيما بعد - فى «أورشليم» يعنى بقوله هذا: أن الحج سينتقل من «مكة» إلى «فلسطين» وقوله هذا - وإن كان يُفهم فيه: أن الكعبة الموجودة الآن هى بناء نوح فى مكة - هو قول باطل. وذلك لأن مناسك الحج إلى مكة إلى هذا اليوم موجودة فى سفر الزبور. وهيكل سليمان الذى جعلوه كعبة ليصرفوا الحج من مكة إلى أورشليم. مبنى من بعد موت داود صاحب الزبور.

وقد تكلم داود كثيراً عن بيت الله فى «بكة» فى المزمور الرابع والثمانين والثانى والأربعين والمائة والثامن عشر. وقال: «أوقفوا الذبيحة بربط إلى قرون المذبح» أى مذبح هذا الذى قد كان من قبل داود؟

- فى الأصحاح الثامن من سفر التكوين:

«وبنى نوح مذبحا للرب.. إلخ»

- وفى الأصحاح الحادى عشر من سفر التكوين:

«وكانت الأرض كلها لسانا واحدا ولغة واحدة. وحدث فى ارتحالهم شرقا أنهم وجدوا بقعة فى أرض شنعار وسكنوا هناك»... إلخ

- وفى الزبور ٨٤

«طوبى لأناس عزهم بك. طرق بيتك فى قلوبهم، عابرين فى وادى البكاء...» إلخ

- وفى الزبور ٤٢

«لأنى كنت أمر مع الجماع أتدرج معهم إلى بيت الله بصوت ترنم وحمد... إلخ» (المحقق)

الناجين أن يلتزموا بالعفاف ـ ولم يخالف هذا القانون السلوكى أحد على السفينة إلاَّ حَامٌ والكلب والغراب. وقد عوقبوا جميعًا. فعوقب «حام» بأن ذريته أصبحت ذات بشرة ملونة داكنة.

وكأمارة على أنه لن يدمر الأرض بعد ذلك، وضع الرب قَوْسَه فى السحاب (يقصد قوس قزح). فحتى لو انغمس البشر فى الخطيئة مرة أخرى، فإن القوس يخبرهم بأن خطاياهم لن تؤذى العالم. وقد مرت أزمان على مر العصور كان فيها البشر أتقياء بما يكفى لكيلا يعيشوا فى خوف من العقاب. وفى مثل هذه الأوقات، لم يكن القوس مرئيًا.

وقد أذن الرب لنوح وذريته بأن يستخدموا لحوم الحيوانات طعامًا لهم، وكان ذلك محرمًا منذ آدم حتى ذلك الوقت. ولكنهم حُرِّم عليهم استخدام الدم. وفُرض عليهم قوانين نوح السبعة، التى يجب على البشر جميعًا الالتزام بـ ا، وليس على إسرائيل وحده. وأكد الرب بوجه خاص على تحريم إراقة الدم البشرى «فمن[1] يسفك دم إنسان، بالإنسان يُسْفَكُ دمه». لو تركه القضاة من البشر يفلت بفعلته هذه، فإن عقوبته لابد أن تحل عليه. وهى أنه يموت موتًا غير طبيعى، كالميتة التى سببها لأخيه الإنسان. أجل بل وحتى الحيوانات التى تقتل البشر، يجب أن يُقْتصَّ منها.

ح ـ لعنة شرب الخمر

فقد نوح لقبه «التَقِىّ» عندما بدأ يشغل نفسه بزراعة الكروم. وأصبح «رَجُلَ الأرض»، ومحاولته الأولى هذه لإنتاج الخمر، أنتجت فى الوقت ذاته أول من أفرط فى الشراب، وأول من سبَّ ولعن أقرباءه، وأول من استعبد العبيد.

وقد حدث كل ذلك بالطريقة التالية:

وجد نوح الكرمة التى أخذها آدم معه من الجنة، عندما طُرد منها.

(١) الأصحاح التاسع من سفر التكوين. وشريعة نوح هذه هى أول شريعة عالمية سماوية. ومن بعدها التوراة ومن بعدها القرآن. (المحقق)

وذاق عنبها ولما وجده حلو المذاق؛ قرر أن يزرع الكرمة ويرعاها. وفى نفس اليوم الذى زرعها فيه أثمرت فوضع ثمارها فى معصرة الخمر واستخلص العصير وشربه وسَكِر ولحق به الخزى.

كل ذلك فى يومٍ واحد. وكان مساعده فى زراعة الكرمة «الشيطان»، والذى تصادف أن مَرَّ عليه فى نفس اللحظة التى كان يغرس فيها الشتلة التى وجدها.

وسأله الشيطان: «ما الذى تغرسه هنا؟»

نوح: «كرمة».

الشيطان: «وما هى خصائص ما تنتجه؟»

نوح: «الثمرة التى تطرحها حلوة، سواءً أكانت جافة أم رطبة. وتنتج خمرًا تنعش قلب الإنسان»

الشيطان: إذًا لنتشارك فى هذا العمل لزراعة حديقة كروم».

نوح: «اتفقنا».

وعندها ذبح الشيطان حَمَلاً ثم تلاه بأسد وخنزير وقرد. والدم الذى سال من كل منهم عند ذبحه؛ روى به الكرمة.

ثم شرح لنوح خصائص الخمر هكذا:

فقبلما يشربها الإنسان يكون بريئًا براءة الحَمَل، وإذا شرب منها باعتدال يشعر أنه فى مثل قوة الأسد؛ وإذا شرب منها أكثر مما يطيق يشبه الخنزير، وإذا شرب إلى حد الثمالة يتصرف كالقرد فيتنطط ويغنى ويفحش فى القول، ولا يدرى ما يفعل.

ولم يثْنِ ذلك نوح عن عزمه بأكثر مما فعل آدم الذى كان طرده من الجنة بسبب الخمر، **إذا أن الثمرة المحرمة كانت هى العنب، الذى أسكر نفسه به**[1].

(١) تذكَّر أنه ورد فى موضع سابق أن الشجرة المحرمة هى التين. (المترجم)

وذهب نوح مخمورًا إلى خيمة زوجته. ورآه ابنه حام هناك وأخبر إخوته بما رآه قائلاً: «أول البشر لم يكن له سوى ابنين ذبح أحدهما الآخر؛ وهذا الرجل نوح له ثلاثة أبناء، ومع ذلك فهو يرغب فى إنجاب رابع». ولم يقنع حام بهذه الكلمات القبيحة فى حق أبيه. فقد أضاف إلى خطيئة عدم الاحترام؛ الجريمة الأكبر، وهى محاولة بتر عِرقٍ من أبيه؛ لمنعه من الإنجاب.

وعندما أفاق نوح من سُكْره وعاد لوعيه؛ لعن «حام» فى شخص أصغر أولاده «كنعان». فلم يكن يستطيع إيذاء «حام» إذ أن الرب بارك نوحًا وأبناءه الثلاثة عند مغادرتهم للسفينة. ولذا فقد صب لعناته على آخر ولدٍ من أولاد ابنه الذى منعه من إنجاب ابن أصغر من الثلاثة. ولذا فإن ذرية «حام» من «كنعان» لهم أعين حمراء، لأن «حام» نظر إلى جسد أبيه العارى، ولهم شفاه قبيحة المنظر لأن حامًا تكلم بشفتيه مع إخوته عن الحالة المزرية التى كان عليها أبوهم، ولهم شعر ملتو مجعَّد، لأن حامًا أدار رأسه ولواها ليرى جسد أبيه العارى وهم يسيرون عرَاة، لأن حامًا لم يُغَطِّ عُرْىَ أبيه. وهكذا جُوزى بما فعل، إذ أن الرب يجعل الجزاء من جنس العمل.

وكان على كنعان أن يقاسى من آثار خطيئة أبيه بدلاً منه[1] ومع ذلك فإن جزءًا من العقوبة وقع عليه بسببه هو، إذ أن «كنعان» كان هو الذى لفت انتباه «حام» إلى حالة «نوح» المزرية.

ويبدو أن حامًا كان الأب المناسب للابن المناسب. فآخر وصايا كنعان[2] وعهوده إلى أبنائه تقول: «لا تقولوا الصدق لا تترفعوا عن السرقة عيشوا حياة الانحلال؛ اكرهوا سيدكم كرها عظيمًا يتجاوز الحد وأحبوا بعضكم بعضًا»

وكما عُوقب حام على عقوقه، كُوفئ سام ويافث على تصرفهما الحسن البار المحترم، إذ حملا ثوبًا ووضعاه على كتفيهما وسارا بظهريهما تجاه

(١) لكن الله عز وجل يقول: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ و ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ﴾. (المترجم)

(٢) بمناسبة وبدون مناسبة تلصق جميع التهم بكنعان وتنسب إليه جميع الرذائل ولم لا؟ أليس هو الجَدُّ المفترض للفلسطينيين..؟ (المترجم).

أبيهما وغطيا جسده العارى.

وسيقت ذرية حام، وهم المصريون والإثيوبيون، عراة أسرى وطردوا إلى المنفى على يد ملك آشور، بينما ذرية «سام» الآشوريون، عندما أحرقهم ملاك الرب فى المعسكر، لم يتكشفوا، وبقيت ثيابهم على أجسادهم دون أن تمسها النار. وفى[1] مستقبل الأيام، عندما يتعرض «جُوج» للهزيمة؛ فإن الرب سيوفر الأكفان والمقابر. له ولكل قومه ذرية يافث».

ورغم أن سام ويافث أظهرا كلاهما الطاعة والبر لأبيهما فإن سام هو الذى استحق القدر الأكبر من الثناء. إذ كان هو أول من هَمّ بتغطية أبيه، ولحق به يافث بعد ما كان قد بدأ يصنع معروفه. ولذا فإن ذريته كوفئت مكافأة خاصة بالتال، وهو الثوب الذى يرتدونه، بينما لم يحصل اليافثيون إلاّ على التوجا. ومن الميزات الأخرى التى مُنحت لسام ذكر اسمه مرتبطاً باسم الرب فى دعاء نوح وتبريكاته، فقد قال: «بورك الرب، رب سام» رغم أنه من المعروف أن اسم الرب لا يرتبط باسم شخص حىّ، وإنما يذكر

(١) **يأجوج ومأجوج:**

يقول علماء التلمود: «وفى مستقبل الأيام عندما يتعرض «جوج» للهزيمة؛ فإن الرب سيوفر الأكفان، والمقابر، له، ولكل قومه. ذرية يافث»

هذا القول يدل على صدق محمد ﷺ فى دعوى النبوة والرسالة. وبيان ذلك: أن تعبير «آخر الأيام» فى التوراة والإنجيل يدل على نهاية أيام ملك بنى إسرائيل وشريعتهم. ونهاية أيامهم هى نفسها بدء ملك بنى إسماعيل وشريعتهم من محمد ﷺ وفى آخر أيامهم يفتح المسلمون أرض يأجوج ومأجوج وينشرون فيها دين الإسلام ويهلكون الكافرين فى أرضهم التى هى أرض فارس وأفغانستان وما حولهما. وقد حدث هذا فى زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه. ولكن اليهود الذين تظاهروا بالإسلام شوشوا على المسلمين أمر هذه النبوءة بقولهم إن يأجوج ومأجوج سيكون ظهورهم قبل يوم القيامة بقليل وانتهاء الحياة الدنيا. والنص عليها مذكور فى سفر النبى حزقيال فى الأصحاح الثامن والثلاثين وما بعده. وفيه: «بعد أيام كثيرة تُفتقد. فى السنين الأخيرة» - «فى الأيام الأخيرة يكون» - «ويخرج سكان مدن إسرائيل» يعنى المؤمنين بالنبى والمحاربين مع شعبه ويشعلون ويحرقون السلاح والمجان والأتراس والقسى والسهام والحراب والرماح ويوقدون بها النار سبع سنين».

وفى القرآن الكريم أن فتح بلاد يأجوج ومأجوج اقترب (حتى إذا فُتحت يأجوج ومأجوج) - (واقترب الوعد الحق) وأن الإسكندر الأكبر ذى القرنين قد غزاهم أيام ملكه على بلاد فارس وأنه بنى لهم السد. (المحقق)

مقترنا باسم شخص فارق هذه الحياة[١].

وتجلت علاقة سام بيافث فى البركة التى باركها بها أبوهما وهى: «سيمنح الرب يافث أرضًا للجَمَال، وسيكون أولاده متهوِّدين يقيمون فى أكاديميات سام» وفى نفس الوقت أخبرهم نوح بكلماته أن «الشكِينة» ستحل فقط فى المعبد الأول، الذى شيده سليمان، وهو أحد أبناء سام، وليس فى المعبد الثانى، الذى سيبنيه سيروس، وهو من ذرية يافث.

ط ـ ذرية نوح تنتشر فى الأرض

وعندما علم حام أن أباه قد لعنه، فر خزيانًا، واستقر مع أسرته فى المدينة التى بناها وسماها باسم زوجته نيلاتاموك. وغار يافث من أخيه وفعل مثله فبنى مدينة سماها باسم زوجته أداتانيسيس. وكان سام الابن الوحيد من أبناء نوح الذى لم يهجره. ففى جوار بيت أبيه، قرب الجبل، بنى مدينته، وأطلق عليها هو أيضًا، اسم زوجته زيد يكيتيلباب. والمدن الثلاث جميعها قرب جبل لوبار، الذى استقرت السفينة على قمته[٢]. فالأولى تقع إلى جنوبه، والثانية إلى غربه والثالثة إلى شرقه.

وبذل[٣] نوح جهده ليغرس فى عقول أبنائه وأبناء أبنائه الأوامر والتعاليم التى كان يعرفها. وقد حذرهم على وجه الخصوص من الزنا والفسوق وكل الفواحش التى جَلَبت على الأرض الطوفان. وحذرهم من أن يعيشوا متباعدين، ومن الغيرة، إذ كان يخشى أنهم بعد موته قد يبلغ بهم الشطط إلى حد إراقة الدم البشرى. وحذرهم من ذلك بشدة، لكيلا يُمحوا

(١) لاحظ كذلك التركيز على نسبة كل فضل لسام. (المترجم)

(٢) فى التوراة السامرية استوت السفينة على جبال سرنديب، وفى العبرانية على جبال أراراط. وفى التلمود على جبل لوبار. وهذا كله خطأ. وذلك لأن السفينة استوت على مكان مذبح آدم، وهو نفسه مذبح نوح. ثم إن الناس من بعد نوح ارتحلوا شرقا إلى أرض العراق. فيكون استقرار السفينة فى ما قبل العراق. والمذبح هو مكان تقديم القرابين لله. ولما ارتحل الناس وقصدوه فى كل سنة لتقديم القرابين. سموه بالكعبة أى مقصد الناس لتقديم القرابين على «المذبح» فالمذبح هو الاسم الأصلى لذبح الحيوانات فيه. والكعبة هو الاسم الآخر ومعناه القصد أو الحج إلى مكان المذبح. وقد بيَّنا هذا فى تعليق سابق. (المحقق)

(٣) لاحظ: أن الله فى القرآن يقول: (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا). (المحقق)

من على وجه الأرض، مثل من سبقوهم. ومن القوانين الأخرى التى فرضها عليهم، ليلتزموا بها، كان ذلك القانون الذى يأمر بألا تستخدم ثمار أى شجرة فى السنوات الثلاث الأولى التى تبدأ فيها طرح الثمار، وحتى فى السنة الرابعة لا تكون الثمار من نصيب أحد إلا الكهنة وحدهم، بعد أن يقدم جزء منها على «مذبح الرب». وبعدما انتهى من تعاليمه وأوامره، قال لهم نوح: «إذ هكذا وصَّى «أنوش» جدكم، ابنه «متوشالح»، ووصى بها «متوشالح» ابنه «لامك» الذى أوصانى بكل هذا. كما أمره أبوه، وها أنا الآن أوصيكم يا أبنائى بها، كما أوصى بها أنوش ابنه.

فعندما كان يعيش، فى جيله - وكان هو الجيل السابع للبشر - أمر ووصَّى بها أبناءه وأبناء أبنائه، إلى يوم موته».

وفى عام ١٥٦٩ بعد خلق العالم قسَّم نوح الأرض على أبنائه، عن طريق القرعة وفى حضور أحد الملائكة. ومَدَّ كلٌّ يده وأخذ ورقة من حجر نوح. وكان مكتوبًا فى ورقة «سام» مُنتصف الأرض، وأصبح هذا الجزء ميراثًا لذريته إلى الأبد. وسُرَّ نوح؛ لأن القرعة خصصت هذا الجزء لسام. وهكذا تحققت دعوته له وهى: «والرب فى موطن سام»، إذ وقع فى ممتلكاته ثلاثة أماكن مقدسة: قدس الأقداس فى المعبد[1]، وجبل سيناء والنقطة التى تتوسط الصحراء، وجبل صهيون، المنقطة التى هى سُرَّةَ الأرض.

ووقع الجنوب فى قرعة «حام»، والشمال أصبح ميراثًا ليافث. وأرض حام حارَّة، وأرض يافث باردة، ولكن أرض سام لا هى حارَّة ولا هى باردة، فحرارتها باردة وساخنة معًا.

---

(١) قلنا: إن المعبد هو الكعبة. وسرة الأرض: جبل الكعبة. كما فى الأصحاح الثامن والثلاثين من سفر حزقيال «سرة الأرض» وفى ترجمة «أعالى الأرض» وفى ترجمة «مركز الأرض» وترجمة الكتاب المقدس فى الشرق الأوسط هى: «لأقتحم الخرائب المسكونة وأسلب وأنهب الشعب الذين اجتمعوا من بين الأمم واقتنوا ماشية ومتاعا وسكنوا فى قلب الأرض المقدسة» «حزقيال ٣: » ولا توجد أرض مقدسة فى العالم غير أرض مكة المكرمة. (المحقق)

وحدث هذا التقسيم للأرض قرب نهاية حياة فالَج، وهو الاسم الذى أسماه به أبوه عابِر، والذى كان يعرف - لأنه نبى - أن تقسيم الأرض سيحدث فى زمن ابنه. وكان أخو فالج يسمى يَقْطان، لأن عمر الإنسان قَصُرَ فى زمنه.

وبالتالى قسم أبناء نوح الثلاثة - وهم لايزالون فى حضرة أبيهم - حصصهم. كلٌّ على أطفاله، ونوح يهددهم بأنه سيلعن كل من يمد يده ليأخذ نصيباً لم تخصصه له القرعة. وصاحوا جميعاً قائلين: «حسنًا حسنًا! ليكن كما تريد!».

وهكذا تم تقسيم مائة وأربع أراض وتسع وتسعون جزيرة بين اثنتين وسبعين أُمَّة، لكلٍّ لغتها الخاصة، وتستخدمٍ ست عشرة مجموعة مختلفة من حروف الكتابة. وخصص ليافث أربع وأربعون أرضًا وثلاث وثلاثون جزيرة واثنتان وعشرون لغة وخمسة أنواع من الكتابة، وتسلَّم حام أربعًا وثلاثين أرضًا وثلاثا وثلاثين جزيرة وأربعًا وعشرين لغة وخمسة أنواع من الكتابة؛ ولسام ست وعشرون أرضًا وثلاث وثلاثون جزيرة وست وعشرون لغة وستة أنواع من الكتابة، ومُنح سام مجموعة من حروف الكتابة أكثر من إخوته، والمجموعة الزائدة هى الحروف العبرية.

والأرض التى خُصصت كميراث لأبناء يعقوب الاثنى عشر مُنحت مؤقتًا لكنعان وصيدون والحثيين واليبوسيين والأموريين والجرجاشيين والحِويِّين والعرقيين والسينيين والأرواديين والضماريين والحمانيين. وأُلْزِمت هذه الشعوب برعاية الأرض حتى يأتى أصحابها الحقيقيون.

وما كاد أبناء نوح وأبناء أبنائهم يضعون أيديهم على الأراضى التى خُصصت لهم، إلا وبدأت الأرواح الشريرة تغرى البشر وتعذبهم بالألم وبكل أنواع المعاناة التى تؤدى إلى الموت الروحى والبدنى. وبعد توسل من نوح أنزل الرب المَلَك «رافائيل» فقضى على تسعة أعشار الأرواح الشريرة وأزالهم من

على الأرض، ولم يترك إلا العُشْر من أجل ماستيما، ليعاقب الخطاة من خلالهم وكشف رافاييل - يعاونه فى ذلك رؤساء الأرواح الشريرة - لنوح فى ذلك الوقت عن كل العقاقير الكامنة فى النباتات، ليلجأ إليها عند الحاجة - وكتبها نوح فى كتاب نقله إلى ابنه سام وهذا هو المصدر الذى تعود إليه كل الكتب الطبية التى استقى منها حكماء الهند وآرام ومقدونيا ومصر معارفهم وقد كرَّس حكماء الهند أنفسهم على وجه الخصوص لدراسة الأشجار والتوابل الطبية؛ وكان الآراميون على معرفة فائقة بخصائص الحبوب والبذور، وترجموا الكتب الطبية القديمة إلى لغتهم. وكان حكماء مقدونيا أول من طبقوا المعارف الطبية بشكل عملىّ، بينما سعى المصريون لإظهار علاجاتهم عن طريق الفنون السحرية والتنجيم.

وعلَّموا مِدْرَاش الشالدى، والذى أنشأه كانجار بن أور بن كيسيد. وانتشرت المهارة الطبية أكثر وأكثر حتى زمن إسكيلوبيس. وقد ارتحل هذا الحكيم المقدونى من بلد إلى بلد - يصحبه أربعون ساحرًا عليمًا - إلى أن وصلوا إلى الأرض التى تقع وراء الهند، فى اتجاه «الجنّة» وكانوا يأملون أن يجدوا هناك بعضًا من خشب شجرة الحياة، ليُذاع صيتهم فى العالم كلِّه. ولكن أملهم قد خاب. فعندما وصلوا إلى البقعة «المطلوبة» وجدوا أشجارًا علاجية وخشبًا من شجرة الحياة، ولكن عندما هموا بمَدِّ أيديهم ليجمعوا ما يريدون ، انطلق البرق من «السيف الدوار إلى الأبد» وطرحهم أرضًا، وحُرقوا جميعًا. واختفت معهم كل معرفة بالطب، ولم تبعث من جديد إلا فى زمن أول الأرتاكسيركيس، تحت قيادة الحكيم المقدونى أبقراط وديوسكوريديس بالا، وجالين كافتور والعبرى أساف.

ى- حرمان البشرية

ومع انتشار البشر زاد الفساد. وخلال حياة نوح، عيَّنت ذرية سام وحام ويافث أمراءً لهم على كل أرض لهم فعيِّن نمرود أميرًا على ذرية من حام، ويقطان على ذرية من سام وفينيق على ذرية من يافث. وقبل موت نوح بعشر

سنوات وصل عدد رعايا الأمراء الثلاثة إلى الملايين. وعندما وصلت هذه الحشود البشرية إلى «بابل» أثناء ارتحالهما قال أحدهم للآخر: «اسمعوا سيأتى يوم، فى مستقبل الأيام، يفارق فيه الجارُ جاره، والأخ أخاه، ويحارب الإنسانُ الإنسان هيا بنا إذًا، لنَبْن لنا مدينة وصرحاً تصل قمته إلى السماء، ولنصنع لنا اسمًا عظيمًا على الأَرض. والآن لنصنع القرميد وليكتب كلٌّ منا اسمه على قرميدته». ووافق الجميع على هذا الاقتراح، ما عدا اثنا عشر رجل تقى، كان إبراهيم منهم، ورفضوا الانضمام إلى الآخرين، فأمسك بهم الناس وأحضروهم أمام الأمراء الثلاثة فشرحوا لهم سبب رفضهم قَائلين: «لن نصنع قرميدًا، ولن نبقى معكم، لأننا لا نعرف إلا ربّا واحدًا، ولن نسجد لسواه، وحتى لو أحرقتمونا مع القرميد، فلن نتبع ملَّتكم». وبلغ غضب نمرود وفينيق من الرجال الاثنى عشر حدًّ أن قررا أن يلقيا بهم فى النار. ومع ذلك فإن «يقطان»، لأنه كان رجلاً تقيّا وكان على صلة قرابة وثيقة بالرجال الذين يُحاكمون، حاول أن ينقذهم. فاقترح على زميليه أن يمنحاهم مهلة لسبعة أيام. وقُبلَ اقتراحه، وأصغيا إليه لأنه كان الأول من بينهم وحُبسَ الرجال الاثنا عشر فى بيت يقطان. وفى الليل أرسل خمسين من أتباعه إلى السجناء وأمرهم بأن يركبوهم على ظهور البغال ويذهبوا بهم إلى الجبال. وبهذه الطريقة يمكنهم أن ينجوا من العقاب الذى يهددهم. وأمدّهم يقطان بطعام يكفيهم شهرًا. وكان واثقًا من أنه بمرور ذلك الشهر، إما أن تتغير مشاعر الناس ويفتر حماسهم، وإما أن يساعد الرب الرجال الهاربين فينجون ووافق أحد عشر سجينًا على الخطة شاكرين له فضله. ورفضها «إبراهيم» وحده قائلاً: «اسمعوا؛ اليوم نَفرُّ إلى الجبال لنهرب من النار، ولكن لو هاجمتنا وحوش الجبال وافترستنا، أو نفد طعامنا فمتنا من الجوع، فإنه سيُكْتَشَفُ أننا فررنا من أهل الأرض. ولذلك نموت بخطايانا. وطالما الرب، الذى أؤمن به، هو حيّ فإننى لن أغادر هذا المكان الذى حبسونى فيه، ولئن كنت سأموت من خلال خطاياى، فسأموت إذاً بإرادة الرب وحسب مشيئته».

وعبثًا حاول يقطان جهده أن يقنع إبراهيم بالفرار. فقد بقى مُصرًا على

رفضه. وبقى وحده سجينًا فى المنزل، بينما فر الأحد عشر الآخرون. وعند انقضاء المهلة المحددة، عندما عاد الناس يطلبون موت الأسرى، لم يُخرج لهم يقطان سوى إبراهيم. وتحجج أمامهم بأن الآخرين قد هربوا أثناء الليل. وكاد الناس يهجمون على إبراهيم ليضعوه فى أتون النار. لولا أن حدث زلزال فجأة واندفعت النيران من الأتون؛ فقضت على كل من كانوا يحيطون به، وكانوا أربعًا وثمانين ألف شخص، بينما بقى إبراهيم دون أن تَمَسَّه النار. وعندها انطلق إلى أصدقائه الأحد عشر الذين فى الجبال، وأخبرهم بالمعجزة التى وقعت من أجله. وعادوا جميعًا معه، وحمدوا الرب، دون أن يقدر الناس على إيذائهم.

ك ـ النمرود

وكان أول الملوك الفاسدين[1] هو «النِّمرود» وكان أبوه «قوش» قد تزوج أمه وهو فى سن متقدمة وكان النمرود، ثمرة ذلك الزواج الذى تأخر كثيراً، لذا كان يحبه لأنه أنجبه على الكبر. وأعطاه الثياب الجلدية التى زوَّد بها الربُّ آدم وحواء وقت مغادرتهما الجنة. وكان «قوش» نفسه قد ورثها من

(١) **ملك إبراهيم عليه السلام على مكة المكرمة:**

لما هاجر إبراهيم من أرض آبائه بعد حادثة التحريق بالنار. ذهب إلى مكة المكرمة ـ ولم يذهب إلى أرض كنعان كما يزعم اليهود ـ وملك على مكة والدليل على ذلك: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ وفى القرآن الكريم: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ وهى أرض مكة. ثم إن لوطا ارتحل عنه إلى الأردن. وبقى هو فى مكة. وفى التوراة أن الله قال لإبراهيم بعد اعتزال لوط عنه: «الأرض التى أنت واقف عليها؛ لك أعطيها ولنسلك» قوله «لك» يدل على ملك إبراهيم عليها. وهو لم يملك على أى بلد من بلاد كنعان؛ ولا على حاران التى قالوا إن الهجرة كانت إليها ولم يعطه فيها ميراثا ولا وطأة قدم».

فإذًا يكون ملكه على مكة لأنه لابد للوعد من أن يتحقق فى حياته. وإلا كان يقول أعطيها لنسلك. وهذا هو النص: «وقال الرب لإبرام بعد اعتزال لوط عنه: ارفع عينيك وانظر من الموضع الذى أنت فيه شمالا وجنوبا وشرقا وغربا، لأن جميع الأرض التى أنت ترى. لك أعطيها ولنسلك إلى الأبد». (المحقق)

«حام» وكانت (الثياب) قد وصلت من آدم وحواء إلى أنوش ومنه إلى متوشالح، ثم إلى نوح الذى أخذها معه إلى السفينة. وعندما كان ركاب السفينة على وشك مغادرتها، سرق «حام» الثياب وأخفاها، ثم ورَّثها فى النهاية إلى ابنه البكر «قوش». وأخفاها كوش سنوات طويلة. وعندما بلغ ابنه «النِّمرود» عشرين سنة أعطاه إياها. وكان لهذه الثياب خاصية رائعة، وهى أن من يلبسها يصبح إنسانًا لا يُقْهَر ولا يُقاوم. وكانت وحوش وطيور الغابات تخر على وجهها أمام «النمرود» إذا رأته مرتديًا هذه الثياب، كما كان ينتصر بنفس الطريقة فى قتاله مع البشر. ولم يكونوا (أى البشر) يعرفون مصدر قوته هذه التى لا تُقهر . وقد عَزَوْها إلى براعته الشخصية، ولهذا نصَّبوه ملكًا عليهم. وقد حدث ذلك بعد صراع بين ذرية «قوش» وذرية «يافث»، وخرج منه «النمرود» منتصرًا، بعد أن قضى على أعدائه قضاءً مبرمًا بمساعدة حِفنة من المحاربين. واختار شِنْعَار عاصمةً له. ومنها أخذ يوسِّع مملكته أكثر وأكثر، إلى أن صار بالحيلة والقوة الحاكم الأوحد للعالم كله، وأول الفانين الذين يملكون الأرض كلها، إذ أن الحاكم التاسع الذى سيمتلك نفس القوة؛ سيكون هو «المَسِيَّا».

وتناسب فجوره مع قوته المتعاظمة. فمنذ الطوفان لم يكن هناك مخطئ كالنمرود. ولذلك اتخذ أصنامًا من الخشب والحَجَر وعبدها. ولكنه لم يقنع بأن يعيش حياة الكفر وحده، فبذل ما فى وسعه ليغوى رعيته إلى طريق الشر الذى سلكه، والذى عاونه فيه وساعده عليه ابنه مَرْدُون.

وابنه هذا فاق أباه فى فجوره وفى زمنيهما وحياتهما قيل فيهما المَثَل: «من الشِّرِّير يأتى الشر».

وكان للنجاح الذى صادفه النمرود فى كل أفعاله تأثير مخيف. فلم يعد البشر يثقون فى الرب، وإنما يثقون فى قدراتهم وبراعتهم الخاصة، وهو

ما حاول النمرود أن يجعل العالم كله يؤمن به. ولهذا قال الناس[1]: «منذ خَلْقِ العالم لم يكن هناك مِثْلُ النمرود، الصائد العظيم للبشر والحيوانات، والفاجر أمام الرب».

ولم يكتف النمرود بكل هذا الشر، ولم يقنع بصرف الناس عن طريق الرب، بل بذل ما فى وسعه لكى يجعلهم يعاملونه كإله. وأعلن نفسه ربّاً وصنع لنفسه كرسيًا، مقلدًا كرسى الرب. وكان صرحًا بُنِىَ من الصخر المستدير ووضع عليه عرش من خشب الأَرْز. انتصب فوقه أربعة عروش، أحدها فوق الآخر، من الحديد والنحاس والفضة والذهب. ويتوج الكل، فوق العرش الذهبى، جوهرة نفيسة مستديرة الشكل، هائلة الحجم وكان ذلك كرسيًا له يجلس عليه، وتفد إليه كل الأمم لتعبده كأنه إله.

ل ـ صرح بابل

ووصل فجور وكفر النمرود إلى الذروة فى بنائه «صَرْح بابل» وكان مستشاروه قد اقترحوا عليه خطة بناء برج كهذا؛ فوافق النمرود وشيَّد «البرج» فى «شِنْعَار» مجموعة من ستمائة ألف رجل ولم يكن ذلك المشروع إلا تمردًا على الرب، وكان هناك ثلاثة أصناف من المتمردين بين البناءين. فقال الصنف الأول: «لنصعد إلى السماء ونحاربه (أى الرب)» بينما قال الصنف الثانى: «لنصعد إلى السماء وننصب أصنامنا ونعبدها هناك»، وقال الثالث: «لنصعد إلى السماء ونهلكهم (أى مَنْ فى السماء) بأقواسنا وحرابنا».

واستغرق بناء الصرح سنوات طويلة جدا جدا. وقد بلغ من ارتفاعه أن الوصول إلى قمته كان يستغرق عامًا من الصعود. ولذا فقد كانت القرميدة الواحدة فى نظر البنَّائين، أنفس من أى إنسان. فإذا سقط أحد الرجال

(١) فى الأصحاح العاشر من سفر التكوين:

«وكوش ولد نِمرود، الذى ابتدأ يكون جبارا فى الأرض والذى كان جبار صيد أمام الرب. لذلك يقال: كنمرود جبار صيد أمام الرب وكان ابتداء مملكته بابل وآرك وأَكد وكتلة فى أرض شنعار. من تلك الأرض خرج أشّور وبنى نِينوَى ورحوبوث... إلخ». (المحقق)

ولقى حتفه، لا يُلقى إليه أحد بالاً، ولكن لو سقطت قرميدة بكوا؛ لأن استبدالها بأخرى سيستغرق عامًا. وقد كانوا من العزم على إتمام غرضهم إلى درجة أنهم ما كانوا ليأذنوا لأية امرأة بالتوقف عن عملها إذا حانت ساعة ولادتها. ولذا فهى تلد طفلها وهى تضع القرميد على القالب، وتربط وليدها حول بدنها بنطاق وتواصل صُنع القرميد.

ولم يبطئوا فى صنع عملهم أبدًا، وكانوا، من ذلك الارتفاع الذى يُصيب بالدُّوار، يقذفون السماء باستمرار بسهامهم التى كانت ترتد إليهم؛ فيرونها مغطاة بالدماء. وهكذا ازدادوا ضلالة وصرخوا قائلين: «لقد قتلنا كل من فى السماء». وعندها التفت الرب إلى الملائكة السبعين المحيطين بعرشه وتكلم قائلاً: «هيا[1] بنا لننزل ونُرْبِكَ لغتهم فلا يفهم أحدهم كلام الآخر». وهكذا كان. فمن ساعتها لم يعرف أحد ما يقوله الآخر. فعندما يطلب أحدهم «كسَّارة» يناوله الآخر «قرميدة» فيشتاط الأول غضبًا ويقذف صاحبه بالقرميدة فيقتله. فهلك الكثيرون بهذه الطريقة.

وعوقب الباقون، كلٌّ حسب طبيعة تمرده. فمن قالوا: «لنصعد إلى السماء وننصب أصنامنا فيها ونعبدها هناك» مسخهم الرب قردة وأشباحًا؛ ومن اقترحوا الهجوم على السماء بأسلحتهم؛ جعل الرب بأسهم بينهم شديدًا. فانطلقوا يحارب بعضهم بعضا، ومن قرروا أن يحاربوا الرب فى السماء قطعِّوا فى الأرض أمما. أما البرج الذى لم يكتمل فقد غاص منه جزء فى الأرض، والتهمت النار الجزء الآخر ولم يبق منه منتصبًا إلا ثُلثه. ولم يفقد مكان الصَرْح سمته المميزة أبداً. فمن يمر به ينسى كل ما يعرفه.

والعقوبة التى نزلت بالجيل الخاطئ (الذى بنى) الصَرْح كانت رحيمة نسبيًا. فبسبب السلب والنهب تم تدمير جيل الطوفان تمامًا، بينما حوفظ على جيل الصَرْح رغم فجورهم وكل أفعالهم الشريرة الأخرى تجاه الرب. وسبب ذلك أن الرب يحب السلام بين الناس. ولهذا فإن جيل الطوفان،

(١) الأصحاح الحادى عشر من سفر التكوين. (المحقق)

الذين استسلموا للسلب والنهب وكرهوا بعضهم بعضًا؛ تم القضاء عليهم تمامًا واجتثوا من جذورهم؛ بينما جيل صَرْح بابل الذين كانوا يعيشون فى وئام ويحب أحدهم الآخر، نجوا بحياتهم، أو على الأقل من تبقى منهم.

وبالإضافة إلى معاقبة الخطيئة والمخطئين بإرباك كلامهم، فقد حدث شىء آخر جدير بالذكر مع نزول الرب إلى الأرض؛ وهى مرة من المرات العشر فقط التى سينزل فيها الرب بهذا الطريقة إلى الأرض منذ بدء الخليقة وحتى يوم القيامة.

وفى هذه المناسبة أجرى الرب والملائكة السبعون المحيطون بعرشه، قرعة بشأن الشعوب المختلفة. واستلم كل مَلك شعبًا، ووقع إسرائيل فى قرعة الرب. وخصصت لكل شعب لغة، وادخرت العبرية لإسرائيل، وهى اللغة التى استخدمها الرب عند خلق العالم.



الفصل الخامس

فــى إبــراهيــم

أ ـ الأجيال الشريرة

لقد مرت عشرة أجيال بين نوح وإبراهيم، لنرى كيف بلغ حِلْم الرب، إذ أثارت جميع الأجيال سخطه، إلى أن جاء إبراهيم أبونا، وتسلَّم مجازاتهم جميعًا. ومن أجل إبراهيم تعامل الرب بحلم وصبر خلال حياة هذه الأجيال. أجل! بل إن العالم نفسه قد خُلِقَ أصلاً من أجل سجاياه. وقد بُشِّر جَدُّه «رَعُو» بوصوله، وكان هذا الجد قد أبلغ ابنه «سَرُوج» بالنبوءة التالية: «مِن هذا الطفل سيولد فى الجيل الرابع مَنْ سيقيم مسكنه فى أعلى عليين، وسيُدْعَى الكامل والطاهر، وسيكون أبًا لأُمَمٍ، ولن ينحل عهده، وستتكاثر بذرته إلى الأبد».

وفى الواقع كان الوقت قد أزف لظهور[1]«خليل الرب» على الأرض وكانت ذرية نوح تَنْحَطُّ فى دركات الحرمان أكثر وأكثر. وكانوا قد بدأوا يتنازعون فيما بينهم ويقتل أحدهم الآخر ويشربون الدماء ويبنون المدن المحصَّنة والأسوار والأبراج وينصِّبون رجلاً واحدًا ملكًا على الشعب كله. ويشنون الحروب بين الشعب والشعب وبين الأمة والأمة، وبين المدينة والمدينة، ويرتكبون كافة صنوف الشر ويصنعون الأسلحة ويعلِّمون أولادهم فنون القتال. كما بدأوا يتخذون الأسرى ويبيعونهم عبيدًا. وصنعوا لأنفسهم

(١) فى القرآن الكريم: ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلا﴾ (المحقق)

تماثيل مسبوكة وعبدوها، فعبد كلٌّ واحد منهم الصنم الذى صنعه لنفسه، إذ أن الأرواح الشريرة تحت قيادة زعيمهم «ماستيما» ضللوهم إلى سبل الخطيئة والغواية. ولهذا السبب سَمَّى «رَعو» ابنه «سَرُوج»، لأن كل البشرية كانت قد انحرفت إلى طريق الخطيئة والبغى؛ وعندما بلغ مبلغ الرجال، اتضح أن الاسم قد اختيرليناسبه، إذ أنه هو أيضًا عبد الأصنام، وهو نفسه عندما أنجب ابنًا، وكان اسمه «ناحُور»، علَّمه فنون الكلدانيين، وكيف يكون عرَّافا ويُمارس السحر حسب منازل الأفلاك والأبراج وعندما ولد لناحور ابن، أرسل «ماستيما» الغربان والطيور الأخرى ليفسدوا الأرض ويسلُبُوا البشر ثمرة أعمالهم، وما كانوا يُسْقطون البذور فى الحُفَر، وقبل أن يتمكنوا من تغطيتها بالتراب كانت الطيور تلتقطها من على سطح الأرض، وسَمَّى ناحور ابنه «تَارَح»، لأن الغربان والطيور الأخرى هاجمت البشر والتهمت بذورهم، وسببت لهم الخراب.

ب ـ ميلاد إبراهيم

تزوج «تارَح» عَمْتِلاَىْ، ابنة كارنابو، وكان ثمرة زواجهما «إبراهيم». وكان «النّمرود» قد تنبأ من النجوم بميلاده، إذ كان هذا المَلِك الفاجر منجِّما ماكرًا، وتبيَّن له أنه سيولد فى زمانه رجل سيثور عليه ويسفِّه دينه وينتصر عليه. ومن رعبه من المصير الذى نبأته به النجوم، أرسل فى طلب امرأته وولاته وطلب منهم النصح والمشورة. فأجابوه قائلين: «ننصحك جميعًا بأن تبنى بيتًا عظيمًا، وتعيِّن حرسًا على مدخله وتعلن فى أرجاء مملكتك كلها أنَّه يجب على كل النساء الحوامل أن يأتين إليه، كلٌّ مع قَابلَتِها التى ستبقى معها حتى تلد. وعندما يحين موعد ولادة كل امرأة ويولد الطفل، يكون على القابلة أن تقتله، إن كان المولود ذكرًا. وإن كان أنثى تبقيه حيًا، وستتلقى الأم الهدايا والثياب الباهظة الثمن وسينادى حينها منادٍ قائلاً فى الناس: «هكذا ستكون مكافأة كل من تحمل بنتًا».

وسُرَّ الملك بهذه المشورة، وأرسل مناديًا فى جميع أنحاء مملكته كلها يستدعى كل المهندسين المهرة ليبنوا له بيتًا عظيمًا، ارتفاعه ستون ذراعًا وعرضه ثمانون. وبعدما اكتمل بناؤه، أطلق منادياً ثانيا يستدعى كل النساء الحوامل إلى البيت ليبقين فيه إلى ساعة الولادة. وكلَّف ضباطًا باصطحاب النساء إلى المنزل، ونصب حوله الحراس وفيه ليحولوا دون هروب النساء منه. وفوق ذلك أرسل القابلات إلى المنزل وأمرهنَّ بقتل المواليد الذكور وهم فى أحضان أمهاتهم. وإذا ولدت المرأة بنتا فإنها تُكسى بالكتَّان والحرير والثياب المطرزة وتخرج من محبسها فى بهاء وجلال.

وبهذه الطريقة قتل ما لا يقل عن سبعين ألف طفل. ثم حضرت الملائكة أمام الرب وتكلموا قائلين: «ألا ترى ما يفعله، ذلك الباغى الزنديق، النِّمرود ابن «كوش»، الذى قتل الكثيرين من الرضَّع الأبرياء الذين لم يذنبوا ذنبا واحدا؟» فأجابهم الرب: «يا ملائكتى المقدسين، أعلم ذلك وأراه، فأنا لا أغفل ولا أنام. وإننى أُبصر وأعلم السر والجهر؛ ولسوف تشهدون ما سأفعله فى هذا الباغى الزنديق، يوم أن أطلق عليه يدى لأعاقبه».

وفى ذلك الوقت تقريبًا تزوج «تَارَح» من أم إبراهيم، وحملت فى طفل. وعندما انتفخت بطنها فى نهاية الأشهر الثلاثة الأولى للحمل، وشحبت ملامحها، قال لها «تَارَح»: «ما الذى يؤلمك يا زوجتى وما هو سبب شحوب وجهك وانتفاخ بطنك على هذا النحو؟» أجابته قائلة: «إننى أعانى من هذا المرض كل عام». ولكن هذا لم يقنع تارَح فأردف قائلاً: «أرنى بطنك. يبدو أنك حامل. ولئن كنتِ كذلك فلا ينبغى لنا أن نخالف أمر ربنا النِّمرود». وعندما تحسس بطنها بيده؛ حدثت معجزة. فقد صعد الطفل لأعلى حتى استقر تحت ثدييها، فلم يشعر تارح بشىء تحت يده. وقال لزوجته: «أنتِ على حق». ولم يظهر شىء حتى يوم ولادتها.

وعندما اقتربت ساعتها؛ غادرت المدينة فى فزع عظيم وهامت على

وجهها تجاه الصحراء وهى تسير على حافة وادٍ، إلى أن صادفت فى طريقها كَهْفًا. فدخلت إلى هذا الكهف وفى اليوم التالى فأجاتها نوبات الطَّلْق وولدت ابنًا. وامتلأ الكهف كله بنور وجه الطفل الذى ضاهى بهاء الشمس، وفرحت الأم لذلك فرحًا عظيمًا. وكان الطفل الذى ولدته هو أبونا إبراهيم.

وبكت أمه وقالت لابنها: «يا ويحى! ولدتك فى زمن فيه النِّمرود هو الملك. ومن أجلكَ قُتل سبعون ألف طفل، وقد تملكنى الفزع خوفًا عليك، أن يسمع عن وجودك ويقتلك. إنه لأفضل لى أن تهلك هنا فى هذا الكهف من أن تراك عينى قتيلاً على صدرى». وأخذت الثوب الذى كانت ترتديه ولفت به الطفل، ثم تركته فى الكهف قائلة: «فليكن الرب معك، ولينصرك ولا يتخلَّ عنك».

جـ ـ الطفل يبحث عن الرب

وهكذا تُرك إبراهيم فى الكهف دون مرضعة وشرع فى البكاء. فأرسل إليه الربُّ «جبرائيل» ليعطيه لبنًا ليشربه، وجعله المَلَك يتدفق من الإصبع الصغير ليد الطفل اليمنى، وأخذ يرضع منه حتى صار له من العمر عشرة أيام. ثم نهض وسار على قدميه وغادر الكهف، وسار على طول حافة الوادى. وعندما غربت الشمس وبزغت النجوم[1] قال: «هذه هى الآلهة». لكن الفجر لاح واختفت النجوم، فقال: «لن أعبد هذه لأنها ليست آلهة». ثم أشرق الشمس فقال: «هذا هو ربى ولسوف أمجِّده». ولكن غرب الشمس مرة أخرى فقال: «إنه ليس ربًا». وعندما لاحظ القمر قال إنها ربُّه وسيعبده. ثم اختفى القمر فصاح قائلاً: «هذا أيضًا ليس ربًّا! هناك «واحد» يسيِّر كل هذه».

وبينما هو غارق فى تأملاته؛ اقترب منه الملك جبرائيل وحيَّاه قائلاً: «السلام عليك» فرد إبراهيم: «وعليك السلام» ثم سأله: «من أنت؟» فأجابه

---

(١) فى القرآن الكريم: ﴿فلما جن عليه الليل رأى كوكبا﴾ (المحقق)

جبرائيل: «أنا الملك جبرائيل، رسول الرب» وقاد إبراهيم إلى نبع للمياه قريب. فغسل إبراهيم وجهه ويديه وقدميه وصلَّى للرب وهو يركع ويسجد[1].

وأثناء ذلك جلست أم إبراهيم تفكر فيه فى أسى، ودموعها تسيل على خديها، وخرجت من المدينة لتبحث عنه فى الكهف الذى تركته فيه. ولما لم تجد ابنها انفجرت فى بكاء مرير وقالت: «يا ويحى! ولدتُك لتكون فريسة للوحوش والدببة والأسود والذئاب!» وذهبت إلى حافة الوادى وهناك وجدت ابنها. لكنها لم تتعرف عليه، إذ كان قد كَبُر كثيرًا. وخاطبت الغلام قائلة: «السلام عليك» أجابها: «وعليكِ السلام». ثم واصل قائلاً: «لأى غرض جئتِ إلى الصحراء؟» أجابته: «لقد خرجتُ من المدينة أبحث عن ابنى». سألها إبراهيم: «ومن الذى أحضر ابنك إلى هنا؟» أجابته الأم: «لقد حملتُ من زوجى تارَح، وعندما اكتملت أيام حملى، تملكنى القلق على ابنى الذى فى رحمى، وخشيت أن يأتى مَلِكُنا «النمرود» ويقتله كما قتل السبعين ألف طفل من الذكور. وما كِدتُ أصل إلى الكهف فى هذا الوادى حتى فاجأتنى آلام الولادة وولدت ابنًا تركته خلفى فى الكهف، وعدت إلى بيتى. والآن جئتُ أبحث عنه، لكننى لا أجده».

فتكلم حينئذ إبراهيم قائلاً: «بشأن هذا الطفل الذى تتحدثين عنه، كم كان عمره؟».

الأم: «حوالى عشرين يومًا».

إبراهيم: «وهل هناك امرأة فى العالم تهجر وليدها فى الصحراء، وتأتى لتبحث عنه بعد عشرين يومًا؟».

الأم: «عسى الرب أن ينعم علىَّ برحمته!».

إبراهيم: «أنا الابن الذى أتيتِ لتبحثى عنه فى هذا الوادى».

الأم: «ابنى، كم كَبُرتَ بعد عشرين يومًا فقط من ميلادك، تستطيع

(١) إذاً فصلاة إبراهيم عليه السلام فيها ركوع وسجود؟ (المترجم)

المشى وتتحدث إلىَّ بفمك؟».

إبراهيم: «هو كذلك. آه يا أماه! هكذا عُلِّمتِ أن فى هذا العالم ربّاً عظيمًا جبارًا باقيًا للأبد يَرَى ولا يمكن أن يُرَى. وهو فى السموات العُلَى والأرض كلها تمتلئ من مجده».

الأم: «أى بنى. أهناك ربٌّ غير النِّمرود؟».

إبراهيم: «أجل يا أماه، رب السموات ورب الأرض، وهو كذلك رب النمرود بن كوش. لهذا اذهبى واحملى هذه الرسالة إلى النمرود».

عادت أم إبراهيم إلى المدينة وأخبرت زوجها تارَح كيف وجدت ابنهما(*). هرول تارح، وكان أميرًا وذا نفوذ فى بيت الملك، إلى القصر الملكى وخَرَّ ساجدًا أمام الملك. وكانت القاعدة أن من يخر على وجهه ساجدًا أمام الملك؛ لا يرفع رأسه حتى يأذن له الملك بذلك. وأذِن النمرود لتارَح بأن يرفع رأسه ويعلن طلبه. وعندها قَصَّ عليه تارح كل ما حدث مع زوجته وابنه.وعندما سمع النمرود هذه الحكاية استولى عليه الفزع الشديد، وسأل مستشاريه وأمراءه عما يفعله مع الغلام. أجابوه قائلين: «يا ملكنا وإلهنا! لماذا تخاف دون سبب من طفل صغير؟ لديك زُمَرٌ وأفواجٌ من الأمراء فى مملكتك، ومنهم من يحكم الآلاف، ومن يحكم المئات ومن يحكم الخمسينات ومن يحكم العشرات، ولديك حرَّاسًا لا حصر لهم. مُرْ أصغر أمرائك ليذهب ويقبض على الصبى ويضعه فى السجن». لكن الملك رد قائلاً: «هل رأيتم من قَبْلُ رضيعًا عمره عشرون يومًا ويمشى على قدميه ويتكلم بفمه ويدَّعى بلسانه أنَّ فى السماء ربّا هو الواحد ولا شريك له، ويَرَى ولا يمكن أن يُرَى؟».

فتملَّك كل الأمراء المجتمعين الرعب الشديد من هذه الكلمات.

وعند ذلك ظهر الشيطان فى هيئة بشرية، وهو يرتدى ثوبًا من الحرير الأسود. وخَرَّ ساجدًا أمام الملك. قال النمرودُ: «ارفع رأسك وأعلن طلبك»

(*) تذكَّر أنها لم تكن قد أخبرته من الأصل بأنها حامل. (المترجم)

سأله الشيطان: «لماذا أنت مرتعب إلى هذا الحد؟، ولماذا تخافون جميعكم هكذا من مجرد غلام صغير؟» سأشير عليكم بما تفعلون: افتح خزائن أسلحتك، وأعط الأسلحة لكل الأمراء والقواد والحكّام وإلى كل المحاربين، وأرسلهم ليقودوه إلى ههنا ليكون فى خدمتك، خاضعًا لسلطانك».

وهذه النصيحة التى قدمها الشيطان تقبلها الملك واتّبعها. فأرسل حشدًا عظيمًا مسلحًا ليُحْضِروا له إبراهيم. وعندما رأى الصبى الجيش يقترب منه تملكه الرعب وتوسل إلى الرب، وعيناه تذرفان الدموع ليساعده. فاستجاب الرب لِدعائه بأن أرسل جبريل إليه قائلاً: «لا تخف واهدأ؛ لأن الرب معك. وسينجيك من يد كل أعدائك». وأمر الرب جبريل أن يضع سحابات قائمة كثيفة بين إبراهيم ومهاجميه الذين أصابتهم تلك السحابات بالهلع ففروا عائدين إلى النمرود ملكهم وقالوا له: «لنرحل ونترك هذه المملكة» وأعطى الملك مالاً لكل أمرائه وخدمه، ورحلوا جميعًا مع ملكهم إلى «بابل».

د ـ أول ظهور لإبراهيم بين الناس

وأمر الرب إبراهيم، على لسان الملك جبريل، بأن يتبع النمرود إلى بابل. فاعترض متعجبًا بأنه ليس مجهزًا بالعتاد الكافى ليشن حملة ضد الملك، ولكن جبريل هدّأه بالكلمات: «لا تحتاج إلى زاد للطريق، ولا حصانًا لتركبه، ولا جنودًا لتحارب النمرود، ولا عربات حربية ولا إلى راكبيها. اجلس فقط على كتفى وسوف أحملك إلى بابل».

وفعل إبراهيم كما أُمِر، وفى غمضة عين وجد نفسه أمام بوابات مدينة بابل. ودخل المدينة بأمر من المَلَك (جبريل)، ونادى على ساكنيها صائحًا يقول: «السرمدى، هو الإله الوحيد ولا رب سواه. رب السموات ورب الأرباب ورب النِّمرود. آمنوا بهذا أيها الرجال والنساء والأطفال. وآمنوا كذلك بأننى أنا إبراهيم عبده وأنه استأمننى على بيته».

وقابل إبراهيم أبويه فى «بابل» ، ورأى كذلك المَلَك جبريل الذى أمره بأن

يدعو أباه وأمه إلى الإيمان الصحيح. ولهذا كلمهم إبراهيم قائلاً: «إنكم تخدمون رجلاً مثلكم، وتعبدون تمثالاً للنمرود ألا تعلمون أن له فمًا، لكنه لا يستطيع الكلام؛ وعينًا، لكنه لا يبصر، وأذنًا، ولكنه لا يسمع؛ ولا يمشى على قدميه ولا ينفع نفسه ولا غيره؟».

وعندما سمع تارَح هذه الكلمات، أقنع إبراهيم بأن يتبعه إلى بيته، حيث قصَّ عليه ابنه كل ما حدث، وكيف قطع فى يوم واحد رحلة تستغرق أربعين يومًا.

ولما فرغ من كلامه ذهب تارَح إلى النِّمرود وأخبره بأن ابنه إبراهيم قد ظهر فجأة فى بابل. فأرسل الملك يطلب إبراهيم، الذى ذهب ومَثُل أمامه مع أبيه. وتجاوز إبراهيم صفوف القادة والنبلاء إلى أن وصل إلى عرش الملك وأمسك به وهزَّه فى عنف وصاح بصوت عالٍ قائلاً: «أيها النمرود، أيها البائس الحقير، يا من تنكر جوهر الإيمان، وتجحد الرب الحىّ العزيز، وإبراهيم عبده، والحارس الأمين على بيته؛ آمن به، وكرر ورائى: الباقى هو الرب، هو الوحيد ولا رب سواه؛ وهو غير فانٍ وحىٌّ ودائم؛ لا يغفل ولا ينام. خلق العالم لكى يؤمن به الناس. وآمن كذلكً بى، وقل: إننى عبد الرب، والحارسُ الأمين على بيته».

وبينما كان إبراهيم يصيح بهذه الكلمات، كانت الأصنام تخر على وجهها، ومعها أيضًا الملك النمرود. وظل الملك طوال ساعتين ونصف راقدًا بلا حراك، وقد فارقته الروح، وعندما عادت إليه روحه تكلم قائلاً: «هل هذا هو صوتك يا إبراهيم، أم هو صوت ربك؟» أجابه إبراهيم قائلاً: «هذا الصوت إنما هو صوت أصغر جميع المخلوقات التى خلقها الرب». عندها قال النمرود: «حقّا إن رب إبراهيم عظيم وقادر، وهو ملك كل الملوك» وأمر تارح بأن يأخذ ابنه ويَبْتَعِد به عنه؛ ويذهب إلى مدينته التى أتى منها، وأطاع الأب وابنه أمر الملك.

هـ ـ الداعى إلى الإيمان الحق

وعندما بلغ إبراهيم عشرين عامًا من العمر؛ مرض أبوه تَارَح وقال لابنه إبراهيم وهاران: «أتوسل إليكما يا وَلَدَىّ، أن تبيعا هذين الصنمين من أجلى، فليس معى نقود تكفى نفقاتنا». ونفذ هاران رغبة أبيه، بينما كان إبراهيم كلما استوقفه أحد ليشترى منه صنمًا ويسأله عن السعر يقول له: «ثلاث مئَات» ثم يسأله إبراهيم بدوره: «كم عمرك؟» فيجيبه الشارى: «ثلاثون سنة». فكان يقول له: «عمرك ثلاثون عامًا وتعبد هذا الصنم الذى لم يصنع إلا اليوم؟» فينصرف الرجل عندئذ (دون أن يشترى الصنم) ثم يقترب منه آخر ويسأله: «كم ثمن هذا الصنم؟» فيجيبه: «خمس مئات» ثم يسأله إبراهيم: «كم عمرك؟» وتكون الإجابة: «خمسون سنة». فيقول له إبراهيم: «عمرك خمسون سنة وتركع لهذا الصنم الذى لم يُصنع إلا اليوم؟» وعندها ينصرف الرجل ويمضى فى طريقه. وبعد ذلك أخذ إبراهيم صنمين وربطهما من رقبتيهما بحبل وقلب وجهيهما على الأرض، وجرهما وراءه صائحًا بأعلى صوته: «من يشترى صنمًا لا ينفع نفسه ولا من يشتريه ليعبده؟ له فم ولكنه لا يتكلم، وعينان ولكنه لا يبصر، وقدمان ولكنه لا يمشى، وأذنان ولكنه لا يسمع».

وتملك الناس الذين سمعوه دهشة شديدة من كلامه وبينما هو يمشى فى الشارع قابل امرأة عجوزا فاقتربت منه لتشترى صنمًا جيدًا وضخمًا لتعبده وتحبه. فقال لها إبراهيم: «أيتها العجوز، لا أرى نفعًا لهذه الأصنام، سواء الصغيرة أم الكبيرة، لا لنفسها ولا لغيرها. وما الذى حدث للتمثال الكبير الذى اشتريتيه من أخى هاران لتعبديه؟» أجابته: «دخل اللصوص ليلاً وسرقوه، بينما كنتُ أنا فى الحمام». فسألها إبراهيم: «إن كان الأمر كذلك؛ فكيف تعظمين صنمًا لا يستطيع أن ينقذ نفسه من اللصوص، فضلاً عن أن ينقذ الآخرين من سوء الحظ ـ مثلكِ أيتها العجوز الساذجة ـ؟ كيف يمكنك أن تقولى إن هذا التمثال الذى تعبدينه هو إله؟ ولو كان إلهًا فكيف لم ينقذ نفسه من أيدى اللصوص؟ لا يا امرأة، إن الأصنام لا تنفع نفسها ولا من يعبدونها».

فردت المرأة العجوز قائلة: «لو كان ما تقوله صحيحًا فمن أعبد؟» أجابها إبراهيم: «اعبدى رب جميع الأرباب. وسيِّد كل سيِّد الذى خلق السموات والأرض والبحر وكل ما فيه، رب النِّمرود ورب تارح، ربُّ المشارق والمغارب والجنوب والشمال. من هو هذا النمرود النجس الذى يدعو نفسه إلهًا، ليعبده الناس؟».

ونجح إبراهيم فى تفتيح عينى العجوز، وأصبحت من الدعاة المتحمسين للإله الحقيقى. وعندما اكتشفت اللصَّ الذى سرق صنمها وأعادوا الصنم إليها، حطمته بحجر وهى تسير فى الشوارع صائحة: «من أراد النجاة من الهلاك، والفلاح فى كل أعماله، فليعبد رب إبراهيم». وهكذا تحول على يديها كثير من الرجال والنساء إلى العقيدة الصحيحة.

ووصلت أخبار أقوال وأفعال العجوز إلى الملك الذى أرسل فى طلبها وعندما مثلت أمامه وبّخها فى فظاظة وسألها كيف تجرأتِ وعبدتِ ربًّا غيره؟ أجابته العجوز: «أنت كذاب، إنك تنكر جوهر الإيمان. الرب الواحد الوحيد، الذى ليس سواه هو رب أنت تعيش فى كرمه، ولكنك تعبد غيره، وتتمرد عليه وعلى تعاليمه وعلى إبراهيم عبده».

وكان على المرأة العجوز أن تدفع حياتها ثمنًا لحماسها للإيمان. ومع ذلك فقد تملك النمرود رعب وفزع شديدان، إذْ ازداد تمسك الناس بتعاليم إبراهيم، ولم يدر كيف يتعامل مع ذلك الرجل الذى يُسفِّه الإيمان القديم.

وبمشورة أمرائه نظَّم احتفالاً لسبعة أيام، أمر الناس أن يحضروه فى أبهى حللهم وحليهم من الفضة والذهب. وكان يأمل بهذا الاستعراض للقوة والثروة أن يؤثر فى إبراهيم ويعيده إلى الإيمان بالملك.

وعن طريق أبيه تارَح، دعا النمرودُ إبراهيمَ ليحضر أمامه لعله يشاهد عظمته وثروته وسلطانه الكبير وذلك الحشد الكبير من أمرائه وندمائه. ولكن إبراهيم رفض الحضور إليه. ومن ناحية أخرى وافق على طلب أبيه

بأن يجلس فى غياب أبيه ليرعى أصنامه وأصنام الملك.

وبعد ما صار وحده مع الأصنام، وأثناء تكراره للكلمات: «الباقى هو الرب، الباقى هو الرب!» أخذ فى إنزال أصنام الملك من على عروشها وأن يحطمها بفأس. وبدأ بكبيرها. ثم انتهى بصغيرها. وبتر قدم أحدها وأطاح برأس الآخر. وانتزع عين هذا، وحطم يدى ذاك. وبعدما مَثَّل بها جميعًا؛ انصرف بعدما وضع الفأس فى يد الصنم الأكبر.

وانتهى الاحتفال وعاد الملك؛ وعندما رأى جميع أصنامه وقد صارت جُذَاذًا، سأل من ذا الذى اقترف هذه الفعلة الشنعاء؟ واتهم إبراهيم بأنه هو الفاعل؛ واستدعاه الملك وسأله عن الدافع الذى حمله على هذه الفعلة، فأجابه إبراهيم: «إننى لم أفعلها، فكبير هذه الأصنام هو الذى حطم الباقين جميعًا. ألا ترى أن الفأس لا تزال فى يده؟ وإن لم تصدقنى فاسأله وسيخبرك هو بالحقيقة».

و- إبراهيم فى النار المستعرة

اشتاط الملك غضبًا على إبراهيم، وأمر بأن يُلْقَى فى السجن حيث أمر الحراس بألا يعطوه طعامًا أو شرابًا. لكن الرب سمع دعاء إبراهيم، وأرسل جبريل إليه فى غرفة سجنه، وأقام معه المَلَك لمدة عام، وزوّده بكل أنواع الطعام، ونبعت عَيْن من الماء الجارى أمامه ليشرب منها. وفى نهاية ذلك العام مَثُل جُلساء الملك أمامه ونصحوه بإن يُلقى إبراهيم فى النار، لكى يبقى الناس مؤمنين بالنمرود إلى الأبد.

وعندما أصدر الملك أمرًا لكل رعايا الملك فى جميع أقاليمه، رجالاً كانوا أو نساءً، صغارًا أو كبارًا، بأن يجمعوا الخشب طوال أربعين يومًا؛ أمر به بأن يُلقى فى خِندق عظيم وتشعل به النار، وارتفعت ألسنة اللهيب إلى السماء وتملك الناس خوف عظيم من النار وأُمِر حارس السجن بأن يأتى بإبراهيم ويلقيه فى اللهيب. وذكَّر الحارسُ الملكَ بأن إبراهيم لم يَنلْ طعامًا ولا شرابًا

طوال عام كامل، ولذا فلابد أنه ميت، لكن النمرود طلب منه أن يتقدم إلى غرفة سجنه وينادى عليه باسمه، فإن أجاب على النداء يُحضروه ويلقوه فى ذلك الجحيم، وإن كان قد هلك؛ تُدفن رفاته وتمحى ذكراه إلى الأبد.

وصعق الحارس عندما نادى قائلاً: «إبراهيم.. أأنت حىّ؟» أن وجده يجيبه: «أنا حىّ». فسأله الحارس: «من كان يجلب لك الطعام والشراب طوال كل هذا الأيام؟» أجابه إبراهيم: «لقد أنعم بالطعام والشراب علىَّ «هو» مَنْ هو فوق كل شىء، ربُّ كل الأرباب وسيدُ كل السادة، وهو وحده الذى يصنع المعجزات، وهو رب النِّمرود ورب تارَح ورب العالم كله. وهو يرزُق كل الكائنات بالطعام والشراب، وهو يَرَى ولكنه لا يُرَى، وهو فى السموات العُلَى، وحاضر فى كل الأماكن فهو وحده المطِّلع على كل شىء ورازق كل شىء».

ونجاة إبراهيم بهذه الطريقة المعجزة من الموت جوعًا وعطشًا أقنعت حارس السجن بحقيقة الرب وحقيقة نبيه إبراهيم، فأعلن إيمانه بالاثنين على الملأ. ولم يفلح تهديد الملك له بالهلاك إن لم يرجع عن إيمانه، فى إثنائه عن إيمانه الحقيقى الجديد. وعندما رفع السَّيَّاف سيفه ووضعه على رقبته صاح قائلاً: «الباقى هو الرب وحده، رب العالم كله ورب الكافر». ولم يستطع السيف أن يفصل رقبته عن جسده، وكلما يضغط به السياف على عنقه أكثر، يتكسر السيف.

ومع ذلك لم ينثن عزم النمرود عن إنفاذ غرضه فى إهلاك إبراهيم فى النار. فأرسل أحد أمرائه ليُحْضِرَه ـ لكن ما كاد الرجل يهم بإلقائه فى النار إلا وقد قفزت ألسنة اللهيب من الخندق والتهمته. وأجريت محاولات كثيرة لإلقاء إبراهيم فى النار، ولكن كان الفشل نتيجتها فى كل مرة؛ فكل من حاول الإمساك به وإلقائه فى النار؛ يحترق هو نفسه؛ وفقد عدد كبير من رجال الملك حياتهم. وظهر الشيطان فى هيئة آدمية ونصح النمرود بأن يضع إبراهيم فى منجنيق ويُلقى به فى النار، وبهذه الطريقة فلن تكون هناك

حاجة لأن يقترب أحد من النار. وبنى الشيطان بنفسه المنجنيق. وبعد ما تأكد من صلاحيته باختباره ثلاث مرات مستخدمًا حجارة وضعها فى الآلة؛ ربطوا إبراهيم فيها من يديه وقدميه وكانوا على وشك إلقائه فى النار. وفى هذه اللحظة اقترب الشيطان، وكان لايزال فى هيئته الآدمية، من إبراهيم وقال له: «إن أردت أن تنقذ نفسك من نار النمرود فاسجد له وآمن به». ولكن إبراهيم رد على هذا المغرور قائلاً: «فليلعنك الرب أيها الكافر الحقير والزنديق الملعون!» فولاه الشيطان دبره وفَرَّ من أمامه.

ثم أتت أم إبراهيم إليه وتوسلت إليه أن يخضع للنمرود، وينقذ نفسه من الهلاك الذى يوشك أن يحل به. ولكنه قال لها: «يا أماه، إن الماء يستطيع إطفاء نار النمرود، ولكن نار الرب لا تنطفئ أبدًا، ولا يستطيع الماء أن يطفئها». وعندما سمعت أمه ذلك قالت له: «فلينجك الرب الذى تعبده من نار النمرود».

وأخيرًا وُضع إبراهيم فى المنجنيق، ورفع عينيه إلى السماء وقال: «يا رب إنك ترى ما ينوى هذا الخاطئ أن يفعل بى». وكانت ثقته بالرب لا تهتز أبدًا. وعندما تلقى الملائكة الأمر الإلهى بإنقاذه اقترب جبريل منه وسأله: «هل أنقذك يا إبراهيم من النار؟» أجابه قائلاً: «الرب الذى أثق به، رب السموات والأرض، سوف ينجينى» وعندما رأى الرب استسلام إبراهيم له؛ أمر النار قائلاً: «كونى بردًا وسلامًا على عبدى إبراهيم».

ولم يكن هناك حاجة للماء لإطفاء النار، فقد تفجرت قطع الخشب بالبراعم وطرحت كل أنواع الخشب ثمرًا، وكل شجرة أنبتت ثمرها. وتحول أتون النار إلى جنة ملكية جلست فيها الملائكة مع إبراهيم. وعندما رأى الملك تلك المعجزة قال: «هذا سحر عظيم! لقد أريتنا أن النار ليس لها سلطان عليك، وفى نفس الوقت أريتَ الناسَ نفسك وأنت تجلس فى جنة وارفة الظلال!» لكن أمراءه قاطعوه جميعهم قائلين: «لا يا مولانا، ليس هذا

سِحرًا، إنها قدرة الرب العظيم، رب إبراهيم، الذى لا إله سواه، ونحن نُقِرُّ بأنه هو الرب، وإبراهيم عبده». وفى تلك الساعة آمن كل الأمراء وكل الناس بالرب السرمدى، رب إبراهيم وصاحوا جميعًا قائلين: «ربنا هو الله. رب السموات ورب الأرض ولا إله غيره».

وهكذا امتاز إبراهيم، ليس فقط على الملك الكافر النمرود وعلى حاشيته، وإنما أيضًا على كل الرجال الأتقياء فى عصره، نوح وسام وعابر وآشُور. فلم يهتم نوح مطلقًا بنشر الإيمان الخالص بالرب، واهتم بزراعة كَرْمِه، وانغمس فى الملذات الحسية. أما سام وعابر فقد ظلوا مختبئين، وأما «آشُور» فقد قال: «كيف لى أن أعيش وسط خطاة كهؤلاء؟» وترك المدينة ورحل. والوحيد الذى بقى ثابتًا هو إبراهيم، وقال: «لن أتخلى عن الرب» ولذا فلم يتخل الرب عنه، وهو الذى لم يستجب لأبيه ولا لأمه.

وكانت معجزة نجاة إبراهيم من النار العظيمة، مع الأحداث السارة التى حدثت له بعد ذلك، تحقيقًا وتفسيرًا لما قرأه أبوه تارَح فى النجوم. فقد رأى نجم هاران وقد أهلكته النار، وفى نفس الوقت يملأ العالم كله ويحكمه، والآن أصبح معنى ذلك واضحًا. وكان هاران مترددًا فى إيمانه، ولم يستطع أن يقرر إن كان سينضم إلى إبراهيم أم إلى عَبدَة الأصنام.

وعندما حدث أن من لم يعبدوا الأصنام أُلقوا فى النار؛ وزن هاران الأمر فى عقله على النحو التالى: «سيتم استدعاء إبراهيم قَبْلى؛ لأنه أكبر منى سنًا. فإن خرج من الامتحان النارى منتصرًا فسأعلن ولائى له؛ وإلا فسأقف ضده». وبعد ما أنقذ الرب بنفسه إبراهيم من الموت، وجاء دور هاران ليعترف بإيمانه؛ أعلن انضمامه لإبراهيم. لكنه ما كاد يقترب من النار إلا وأمسكت به ألسنتها والتهمته، لأن إيمانه بالرب لم يكن راسخًا. وكان تارَح قد قرأ النجوم جيدًا، والآن ظهرت له الرؤيا: لقد حُرِقَ هاران وأصبحت ابنته «سارة» زوجة لإبراهيم الذى ملأت ذريته الأرض. وكان موت

هاران جديرًا بالذكر من ناحية أخرى: فقد كانت هذه أول مرة منذ خلق العالم، يموت فيها الابن بينما أبوه لايزال حيًا.

وأتى إلى إبراهيمَ الملكُ والأمراء وجميع الناس الذين شهدوا العجائب التى حدثت لإبراهيم، وخروا أمامه ساجدين. لكن إبراهيم قال: «لا تسجدوا لى، لكن (اسجدوا) للرب، سيدِ الكون الذى خلقكم اعبدوه وسيروا فى سبله، إذْ هو الذى أنقذنى من النيران، وهو الذى يخلق رُوحَ كلِّ إنسان؛ والذى يكوِّن الإنسان فى رحم أمه، ويخرجه إلى العالم. وهو يشفى مِنْ كل مرض مَنْ يثقون به».

وبعد ذلك صَرَفَ الملك إبراهيمَ، بعد ما حَمَّله بهدايا ثمينة وفيرة، كان من بينها عبدان تربيا فى القصر الملكى. وكان اسم أحدهما عُوجى واسم الآخر أليعزر. وقَلَّد الأمراء ملكهم، وأعطوه الفضة والذهب والجواهر. لكن كل هذه الهدايا لم تُدخل السرور على قلب إبراهيم بقدر ما أدخله أتباعه الثلاثمائة الذين انضموا إليه وأصبحوا مستمسكين بدينه.

ز- إبراهيم يهاجر إلى حاران

استطاع إبراهيم طوال عامين أن يكرِّس نفسه- بدون خوف من أحد - لمهمته التى اختارها وهى تحويل قلوب البشر إلى الرب وتعاليمه. وفى عمله الحسن هذا كانت زوجته «سارة» تساعده، والتى كان قد تزوجها أثناء المحنة - وبينما كان هو يستحث الرجال ويحاول تحويلهم، تولَّت سارة أمر مخاطبة النساء. وكانت نعم العون المناسب لإبراهيم. وفى الحقيقة فإنها كانت تفوق زوجها فى قدراتها التنبؤية. ولهذا السبب كانت تسمى أحيانًا «إسكاح» أى العَرَّافة.

وبعد انقضاء عامين اثنين حدث أن «النمرود» حَلُم بحلم. وفى حلمه رأى نفسه مع جيشه بالقرب من النار العظيمة فى الوادى التى ألقى فيها إبراهيم. وخَطا رجل يشبه إبراهيم خارجًا من النار، ويجرى وراء الملك بسيف مسلول من غمده، والملك يفرُّ أمامه مذعورًا. وبينما هو يجرى قذف

المُطَارِد رأس النمرود ببيضة؛ فخرج من رأسه نهر عظيم جارف غرق فيه كل ملأ المَلك. ونجا الملك وحده مع ثلاثة رجال. وعندما فحص النمرود رفاقه الناجين لاحظ أنهم يرتدون ثيابًا ملكية، وأنهم كانوا يشبهونه فى هيئته ومظهره. ثم تحول النهر مرة أخرى إلى بيضة؛ خرج منها فرخ صغير ثم طار واستقر فوق رأس الملك، واقتلع إحدى عينيه.

واضطرب الملك فى نومه؛ وعندما استيقظ كان قلبه يدق مثل المطرقة السقّاطة، وتملكه رعب شديد. وعندما نهض من فراشه فى الصباح؛ أرسل يستدعى حكماءه وسحرته وأخبرهم بأمر حلمه. فنهض أحد حكمائه، وكان اسمه «آنوكو» واقفًا. وقال: «لتعلم يا مولاى الملك أن هذا الحلم يشير إلى الهلاك الذى سيسببه لك إبراهيم وذريته. وسوف يأتى زمان يحارب فيه هو وأتباعه جَيْشَك، وسوف يقضون عليه. ولن ينجو من الموت سواك وسوى الملوك الثلاثة حلفائك. لكن فيما بعد ستفقد حياتك على يد واحد من ذرية إبراهيم. وتذكّر يا مولاى الملك، أن حكماءك قد قرأوا ذلك المصير الذى سيحل بك فى النجوم من اثنين وخمسين عامًا، عندما ولد إبراهيم. وطالما بقى إبراهيم حيّا على الأرض فلن تستقر ولن تستقر مملكتك».

ونفذ كلام آنوكو إلى قلب النمرود وأرسل أحد خدمه ليمسك بإبراهيم ويقتله. وحدث فى ذلك الوقت أن كان فى القصر الملكى «أليعزر» ذلك العبد الذى أهداه النمرود إلى إبراهيم. وأسرع إلى إبراهيم ليستحثه على الهرب من وجه شُرَط الملك. وقبل سيده نصيحته، والتجأ إلى بيت «نوح» و «سام» حيث قبع فى حفرة مختبئًا طوال شهر كامل. وعاد شرط الملك إليه وأخبروه بأنهم لم يجدوا إبراهيم، رغم جهودهم الحثيثة للقبض عليه. ومن حينها لم يلق الملك بالاً لأمر إبراهيم.

وعندما زار تارَح ابنه فى مخبئه، عرض عليه إبراهيم أن يرحلوا من تلك الأرض ويقيموا فى «أرض كنعان»، لكى يتخلصوا من مطاردة النمرود لهم. قال لأبيه: اعلم أن النمرود لم يُغدق عليك من نعمه من أجل سواد

عينيك، ولكن لمصلحته الشخصية. ومع أنه لايزال يغدق عليك بأعظم النعم، فما هى إلاَّ متاع أرضى زائل إذ لن تنفع الثروات والممتلكات فى يوم الغضب الإلهى. اسمع لى يا أبتاه لنرحل إلى «أرض كنعان» ولنعبد الرب الذى خلقك، لعلّه يكون معك».

وساعد نوح وسام إبراهيم، فى جهوده لإقناع تارَح، فوافق تارح على مغادرة البلاد، ورحل هو وإبراهيم ولوط بن هاران، إلى «حاران» مع أهل بيت كل منهم. (وفى حاران) وجدوا الأرض جيدة؛ وكذلك سكانها الذين سرعان ما استسلموا لروح إبراهيم الإنسانية وتقواه. واتبع كثير منهم تعاليمه وأصبحوا مؤمنين ومحسنين.

وكان قرار تارح بمغادرة أرضه التى وُلد فيها من أجل إبراهيم وإقامته فى أرض غريبة، وأيضًا: اندفاعه لعمل ذلك قبل أن ينزل الوحى الإلهى على إبراهيم نفسه، مأثرة عظيمة حسبها الرب لتارح. وأذن له أن يرى ابنه يحكم كملك على العالم كله. إذ عندما حدثت المعجزة، وولد «إسحق» لأبويه الهرمين؛ هرع العالم كله إلى إبراهيم وسارة، وطلبوا أن يعرفوا منهما ما الذى فعلاه لكى يقع لهم مثل هذا الشىء العظيم وهو إنجاب ابن فى شيخوختهما. فحكى لهم إبراهيم كل ما حدث له مع «النمرود»، وكيف كان على استعداد لأن يُحرق من أجل مجد الرب، وكيف أنقذه الرب من النيران. وفى إشارة لإعجابهم بإبراهيم وبتعاليمه نَصَّبوه ملكًا عليهم، وكتخليد لذكرى الميلاد المعجز لإسحق؛ حملت النقود التى ضربها إبراهيم رسمين لزوجة وزوجين هَرمين على الوجه، ورسمًا لشاب وزوجته على الظَهْر، إذ استرد إبراهيم وسِارة شبابيهما عند ميلاد إسحق، فعاد شعرُ إبراهيم الأبيضُ أسودَ، واختفت التجاعيد من وجه سارة.

ولسنوات طويلة عاش «تارح» شاهدًا على مجد ابنه، إذ لم يمت حتى صار إسحق شابّاً فى الخامسة والثلاثين. **ومع ذلك فقد بقى هناك ثواب عظيم لفعلته الحسنة. فقد تقبَّل الرب توبته، وعندما فارق هذه الحياة، دخل إلى الجنة، وليس إلى النار، رغم أنه قضى معظم أيام حياته فى الخطيئة. وفى الواقع فقد كان بسببه أن كاد إبراهيم يفقد حياته على يدى النمرود.**

ح ـ النجم فى الشرق

كان تارَح من المعينين الكبار فى بلاط النمرود، وكان الملك وحاشيته يقدرونه كثيرًا. وقد ولد له ابن سماه «أبرام» لأن الملك كان قد رفعه إلى مكانة عالية. وفى ليلة مولد إبراهيم جاء منجمو النمرود وحكماؤه إلى بيت تارح وأكلوا وشربوا معه واحتفلوا فى تلك الليلة. وعندما غادروا المنزل رفعوا أعينهم إلى السماء لينظروا إلى النجوم ورأوا وشاهدوا نجمًا عظيمًا يندفع من الشرق ويبتلع النجوم الأربعة فى الأركان الأربعة. وذهلوا جميعًا من هذا المشهد، لكنهم فهموا المسألة وعرفوا مغزاها. وقال بعضهم لبعض: «إن هذا لا يعنى إلا أن الطفل الذى ولد لتارح هذه الليلة؛ سوف يكبر وتكون له ذرية ولسوف يتكاثر نسله ويمتلك الأرض كلها، هو ونسله إلى الأبد، ولسوف يقتل هو وذريتُه الملوك العظماء، ويرثون أراضيهم».

وذهبوا إلى بيوتهم فى تلك الليلة. وفى الصباح نهضوا واجتمعوا فى بيت اجتد ،عاتهم. وتكلموا فقال بعضهم لبعض: «انظروا، إن المشهد الذى رأيناه ليلة الأمس لا يعلم عنه الملك شيئًا، إذْ لم يخبره أحد به، ولئن عرف هذا الشىء فيما بعد فسيقول لنا: «لماذا أخفيتم هذا الشىء عنِّى؟» وحينها يقتلنا جميعًا. والآن فلنذهب ونخبر الملك بالمشهد الذى رأيناه وتفسيره، ونبرئ ذمتنا من هذا الأمر». فذهبوا إلى الملك وأخبروه بما رأوا وتفسيرهم له، وزادوا على ذلك بأن نصحوه بأن يعطى تارح قيمة الطفل نقدا، ويقتله.

فلما نصحوه، أرسل الملك إلى تارح. فجاء إليه فكلمه قائلاً: «لقد أخبرونى بأن ولدًا قد ولد لك الليلة البارحة، وشُوهدت أمارة عجيبة فى السماء عند مولده. فأعطنى هذا الولد الرضيع؛ لكى نقتله قبل أن ينالنا شره، ولسوف أملأ بيتك فضةً وذهبًا فى مقابله». وأجابه تارح: «هذه الأشياء التى تعدنى بها تشبه ما قاله رجل لبغل عندما قال له: «سوف أعطيك كومة عظيمة من العاف، بل بيتًا مملوءًا به، لكن بشرط أن أقطع رأسك!» فأجابه البغل: «وبماذا أستفيد من العلف لو قطعت رأسى؟ من ذا الذى سيأكله عندما تعطينى إياه؟» وهكذا أقول لك أنا أيضًا: «ما الذى

سأفعله بالفضة والذهب بعد موت ابنى؟ ومن هو هذا الذى سيرثنى من بعد موتى؟» لكن وعندما رأى تارح كيف أن الملك اشتاط غضبًا مما قاله أضاف: «فليفعل الملك ما شاء بعبده، وحتى ابنى نفسه تحت تصرف الملك، دون مقابل أو قيمة، هو وأخويه الأكبر منه».

ومع ذلك تكلم الملك قائلاً: «سوف أشترى ابنك الأصغر مقابل ثَمَن». أجابه تارح: «ليمهلنى الملك ثلاثة أيام لأفكر فى الأمر وأتشاور مع أسرتى فيه». ووافق الملك على هذا الشرط وأرسل إلى تارح فى اليوم الثالث قائلاً: «أعطنى ابنك مقابل ثمن كما قلتُ لك من قبل، ولئن لم تفعل هذا، فسوف أرسل جنودى وأقتل جميع من فى بيتك ولن يبقى لك كلب حى».

عندئذ أخذ تارح طفلاً رضيعًا كانت إحدى سراريه قد ولدته له ذلك اليوم وأحضره إلى الملك وتلقى منه مقابلاً له؛ فأخذ الملكُ الرضيعَ وضرب رأسه بالأرض فحطمه، إذ كان يظن أنه إبراهيم. وتارح كان قد أخذ طفله إبراهيم، مع أم الطفل ومرضعته وأخفاهم فى كهف، وكان يرسل إليهم بالطعام مرة فى الشهر، وكان الرب مع إبراهيم فى الكهف وكَبُر، ولكن الملك وكل خدمه ظنوا أن إبراهيم قد مات.

وعندما صار لإبراهيم من العمر عشرة أعوام، خرج هو وأمه ومرضعته من الكهف، إذ كان الملك وجلساؤه قد نسوا أمر إبراهيم(١).

وفى ذلك الوقت كان كل سكان الأرض، عدا نوح وأهل بيته، قد أخطأوا فى حق الرب، إذ صنع كل رجل منهم لنفسه ربّا، وعبدوا أربابًا من الخشب والحجر لم تكن تستطيع أن تتكلم ولا تسمع ولا تفرج كربًا. وكان الملك وخدمه وتارح وأهل بيته أول من عبدوا أوثانًا من الخشب والحجر. وصنع تارح اثنى عشر صنمًا بحجم كبير، من الخشب والحجارة، تماثل أشهر العام الاثنى عشر، وكان يعبد كلاّ منها شهرًا على التوالى.

---

(١) لاحظ أن هذه الرواية مختلفة تماماً عن الرواية الأولى. (المترجم)

ط ـ المؤمن الحق

وذات مرة ذهب إبراهيم إلى معبد الأصنام فى بيت أبيه، ليُحْضِر القرابين إليها، ووجد واحدًا منها، وكان اسمه «ماروماث» منحوتًا من الحجارة وقد سقط على وجهه أمام الصنم الحديدى «ناحور». وكان الصنم ثقيلاً عليه ليرفعه بمفرده. فنادى أباه ليساعده على إعادة «ماروماث» إلى مكانه. وبينما كانا يرفعان الصنم سقط رأسه فأخذ تارح حجرًا آخر وقدّ منه جسمًا آخر لماروماث ثم وضع عليه الرأس الأول الذى سقط. ثم واصل تارح عمله وصنع خمسة أصنام أخرى وسلمها جميعها إلى إبراهيم وأمره ببيعها فى أسواق المدينة.

فوضع إبراهيم السَّرْج على ظهر بغلته وذهب إلى النزل الذى كان ينزل فيه تُجَّار «فَنْدانة» فى «سوريا» وهم فى طريقهم إلى «مصر» وكان يأمل أن يتخلص من بضاعته هناك. وعندما وصل إلى النزل، هَدَرَ أحد الجمال التى تخص التجار، فأثار الصوت فزع بغلته ففرت مذعورة وأخذت ترفس وتتقافز فتكسّر ثلاثة أصنام. ولم يشتر التجار منه الصنمين السليمين فقط، وإنما دفعوا له أيضًا ثمن الأصنام المكسورة، إذ كان إبراهيم قد أخبرهم بأنه لن يستطيع مواجهة أبيه ومعه نقود أقل مما يتوقع ثمنًا لصنع يديه.

وجعلت هذه الحادثة إبراهيم يفكر فى هوان هذه الأصنام، وقال لنفسه «ما هذه الأشياء الدنسة التى يصنعها أبى؟ أليس هو رَبَّ آلهته تلك، إذ أنها لم توجد إلا نتيجة لحفره ونحته ومهارته؟ أما كان من الأنسب أن تعبده هى، لا أن يعبدها هو، وهو يرى أنها من صنع يديه؟» ووصل إلى بيت أبيه وهو على هذه الحال من التفكُّر ثم دخل وسلَّم أباه ثمن الأصنام الخمسة. فابتهج تارح وقال: «فلتباركك آلهتى لأنك أحضرت لى ثمن الأصنام، ولم يَضِعْ عملى سدى» لكن إبراهيم أجابه قائلاً: «اسمع يا أبى تارح، فلتبارك أنتَ آلهتك لأنك أنت ربُّها. لأنك أنت الذى أبدعتها وبركَتُها دمار وعَوْنُها غرور. فكيف وهى لا تملك لنفسها نفعا ولا ضراً أن تساعدك أو تباركك؟».

فاشتاط تارح غضبًا على إبراهيم لتلفظه بهذا الكلام على آلهته، وترك إبراهيم أباه، وهو يفكر فى غضبه منه على هذا النحو، وخرج من المنزل. لكن تارح نادى عليه وقال: «اجمع ما تبقى من خشب البلّوط الذى صنعتُ منه تماثيل قبل أن تعود أنت، وأعد لى عَشَائى». فاستعدَّ إبراهيم لتنفيذ ما أمره به أبوه ثم وهو يجمع بقايا الخشب؛ وجد وسطها تمثالاً صغيرًا كُتِبَ على جبهته: «الإله باريسات» فأشعل إبراهيم النار ووضع باريسات بجوارها قائلاً: «انتبه يا باريسات وخذ حذرك لئلا تجور النار على المكان إلى أن آتى. وإن بدأت تخمد ألق فيها بعض الخشب واجعلها تزداد اشتعالاً مرة أخرى». ثم خرج بعد أن قال له ذلك فعندما عاد إليه ثانيةً وجد باريسات قد سقط مستلقيًا على ظهره وقد احترق منه جزء كبير. عندها قال لنفسه مبتسمًا: «حقّا يا باريسات إنك لا تستطيع الحفاظ على النار متوهجة، ولا أن تعد طعامًا» وبينما هو يتكلم أتت النار على الصنم وجعلته رمادًا. ثم أخذ الأطباق إلى أبيه الذى أكل وشرب وكان سعيدًا وحمد ربَّه ماروماث، ولكن إبراهيم قال لأبيه: «لا تحمد ربَّك ماروماث، ولكن أحمد ربك باريسات الذى من عِظَمِ حبه لك ألقى بنفسه فى النار لكى تُطهى لك وجبتك. فسأله تارح صائحًا: «وأين هو الآن؟» فأجابه إبراهيم قائلاً: «لقد أصبح رمادًا من شدة النار». قال له تارح: «عظيمة هى قوة باريسات! سأصنع لى باريسات آخر اليوم ولسوف يعدّ لى طعامى».

فضحك إبراهيم فى نفسه من كلام أبيه، ولكنه اغتم فى نفسه حزنًا على قساوة قلبه، وتجرأ على التصريح برأيه فى الأصنام قائلاً: «لا يهم يا أبتاه أيَّ الصنمين تَحْمَد، فتصرفك غير معقول، إذ أن الأصنام التى تنتصب فى المعبد المقدس أحق من صنمك بالعبادة و«زوخيوس» إله أخى «ناحور» أكثر قيمة من «ماروماث»، لأنه مصنوع بمهارة من الذهب، وعندما يتقدم به العمر سوف يجددونه مرة أخرى. لكن عندما يصبح إلهك ماروماث قد فقد بريقه أو تحطم جذاذًا فلن يتم تجديده لأنه من الحَجَر. أما الإله «ياعوف» الذى ينتصب فوق الآلهة الأخرى مع «زوخيوس» فإنه أكثر قيمة من باريسات

المصنوع من الخشب؛ لأنه مصنوع من الفضة، وقد زينه الرجال ليظهروا عظمته. ولكن صنمك باريسات، قبل أن تنحته إلهًا بفأسك، كان مغروسًا بجذره فى الأرض ويقف هناك عظيمًا ورائعًا، مع بهاء وجمال الفروع والنَوّار. والآن جَفَّت عروقه. وقد سقط من علوه إلى الأرض، وتحول من العظمة إلى الضّعة، وذهبت نضارة وجهه، واحترق هو نفسه فى النار، وتحول إلى رماد وتلاشى ولم يعد له وجود. ومع ذلك تقول: «سوف أصنع لنفسى اليوم آخر، ولسوف يُعِدُّ لى طعامًا فى الغد!!».

واستأنف إبراهيم كلامه قائلاً: «يا أبتاه إن النار لهى أحق بالعبادة من آلهتك التى من الذهب والفضة والخشب والحجارة، لأنها تحرقها جميعًا. لكنى لا أسمى النار إلهًا هى الأخرى، لأنها هى أضعف من الماء الذى يُطفئها. ولا أسمى الماء إلهًا هو الآخر؛ لأن الأرضَ تمتصه، وأنا أرى الأرض أجدر منه لأنها تتغلب عليه. ولا أقول على الأرض إلهًا هى الأخرى. لأن الشمس تجففها، وأرى أن الشمس أجدر من الأرض، لأنه ينير العالم بأشعته ولكنى لا أسمى الشمس إلهًا هو الآخر، لأن ضوءها يأفل عندما يحل الظلام. ولا أسمى القمر ولا النجوم آلهة، لأن نورهم ينطفئ عندما ينقضى وقت سطوعهم.

لكن اسمع إلى هذا يا أبى تارح؛ اسمع إلى ما سأقوله لك: إن الرب الذى خلق كل الأشياء هو الإله الحق، وهو الذى أعطى السماء لونها البنفسجى وللشمس لونها الذهبى ومنح القمر نوره وكذلك النجوم، وهو الذى جعل الأرض يابسة وسط مياهٍ كثيرة، وكذلك هو الذى أنشأك على الأرض، وهو الذى هدانى وسط متاهات أفكارى».

ى ـ الثائر على عبادة الأصنام

ولكن تارح لم يقتنع بكلامه وعندما سأله إبراهيم عن من هو الرب الذى خلق السموات والأرض وبنِى البشر؛ أخذه إلى ردهة نُصب فيها اثنا عشر صنمًا عظيمًا وأعداد كثيرة من الأصنام الصغيرة. وأشار إليها قائلاً: ها هم

الذين خلقوا كل ما ترى على الأرض، وهم أيضًا الذين خلقونى وخلقوك وكلَّ البشر على الأرض» وركع أمام أصنامه. ثم ترك (مفتاح) الردهة مع ابنه.

عندئذ ذهب إبراهيم إلى أمه قائلاً: «اسمعى يا أماه، لقد أرانى أبى الذين صنعوا السموات والأرض وكلَّ بنى البشر. ولهذا فأسرعى وأحضرى لى حَمَلاً من القطيع واشويه لأقدمه لآلهة أبى؛ فلعلها ترضى عنِّى». وفعلت أمه ما طلب، ولكنه عندما قدم القربان للآلهة، رأى أنها لا صوت لها ولا سمع ولا حركة ولا مَدَّ واحد منها يده ليأكل. عندئذ سخر منهم إبراهيم قائلاً: لابد أن اللحم الشهى الذى قدمته لكم لم يعجبكم، أو لعله قليل جدًّا عليكم! لذا فسوف أعد لكم لحمًا شهيًّا فى الغد أفضل وأكثر من هذا، لعلى أرى ما قد يخرج منكم.» ولكن الآلهة ظلت صامتة لا تستطيع حراكًا عندما قدم لها القربان الثانى من اللحم الشهى، كما فعلوا مع القربان الأول، وحلّ روح الرب على إبراهيم فصاح قائلاً: «تعس أبى وكل جيله الشرير الذين استحوذت الضلالة على قلوبهم فعبدوا هذه الأصنام التى صُنعت من الخشب والحجارة؛ والتى لا تستطيع أن تأكل ولا تشم ولا تسمع ولا تتكلم، ولها أفواه ولا تستطيع بها نطقًا، وأعين ولا تستطيع بها إبصارًا، وآذان ولا تستطيع بها سمعًا وأيدٍ ولا تستطيع بها حسًّا، وسيقان لا تستطيع بها حراكًا!.»

وبعد ذلك أخذ إبراهيم فأسًا فى يده، وحطم كل آلهة أبيه، وبعد ما انتهى من تحطيمها وضع الفأس فى يد أكبرها ثم خرج. وعندما سمع تارح صوت الفأس وهى تكسر الحجارة هرول إلى غرفة الأصنام فوصلها وإبراهيم يغادرها. ولما رأى ما حدث، هرول وراء إبراهيم قائلاً: «ما هذه الفعلة الشنعاء التى فعلتها بآلهتى؟» أجابه إبراهيم: «لقد أعددتُ لهم لحمًا شهيًّا، وعندما اقتربت منهم ليأكلوا منه؛ مدوا كلهم أيديهم ليأخذوا اللحم قبل أن يمد كبيرهم يده ليأكل. وعندما اشتاط هذا الكبير غضبًا من تصرفهم تناول الفأس وحطمهم جميعًا انظر ها هى الفأس لا تزال فى يديه كما ترى».

عندها استدار تارح إلى إبراهيم وهو ثائر وقال له: «إنك تكذب علىّ!

هل هناك نَفْس أو روح أو قدرة فى هذه الآلهة لتفعل ما ذكرته لى؟ أليست هى مجرد خشب وحجارة؟ ألم أصنعها أنا بنفسى؟ إنك أنت الذى وضعتَ الفأس فى يد كبيرهم، وتقول لى الآن: إنه هو الذى حطمها جميعًا» أجاب إبراهيم أباه قائلاً: «كيف إذًا تعبد هذه الأصنام التى لا قدرة لها على فعل شىء؟ أتستطيع هذه الأصنام التى تثق بها أن تنقذك؟ هل تستطيع أن تسمع دعاءك إذا ما ناديتها؟» وبعد ما تكلم بهذه الكلمات ومثلها. موبخًا أباه لعله يهتدى ويكفُّ عَن عبادة الأصنام؛ قفز أمام تارح ونزع الفأس من يد الصنم الكبير وحطمه بها. ثم فرَّ هاربًا.

فهرول تارح إلى النمرود وركع أمامه وناشده أن يستمع إلى قصته عن ابنه الذى وُلد له من خمسين عامًا، وما فعل بآلهته، وكيف تكلم معه. وقال تارح: لهذا يا مولاى الملك أرسل فى طلبه ليمثلَ أمامك وتحاكمه حسب القانون لعلنا نتخلّص من شره. وعندما أُحْضِرَ إبراهيم أمام الملك حكى له نفس القصة التى حكاها لتارح، عن الإله الكبير الذى حطم الآلهة الصغيرة، ولكن الملك أجابه قائلاً: «إن الأصنام لا تنطق ولا تأكل ولا تتحرك» فوبَّخه إبراهيم عندئذ على عبادته للأصنام التى لا تفعل شيئًا، ونصحه بأن يعبد رب الكون وكانت آخر كلماته: «إن لم يصغِ قلبك الآثم لكلماتى، فيحملك على ترك طريق الضلال لتعبد الرب السرمدى؛ فلسوف تموت فى خزى فى مستقبل الأيام، أنت وقومك وجميع من يرتبط بك ممن يسمع لكلامك، ويسير فى طريق الشر.»

وأمر الملك بإلقاء إبراهيم فى السجن، وبعد انقضاء عشرة أيام أمر بحضور جميع الأمراء وكبار رجال مملكته أمامه، وعرض عليهم قضية إبراهيم. فكان حكمهم أنه يجب أن يُحرق بالنار، ومن ثَمَّ أمر الملك بإشعال نار لثلاثة أيام وثلاث ليال، فى محرقته فى كِسِّيدِيم، وأن يُحمل إبراهيم من سجنه إلى هناك ليحرق[1].

(١) رواية أخرى مختلفة تماماً!! (المترجم)

وأتى ليرى ما سيُفْعَل بإبراهيم، كل أهل المدينة وكانوا حوالى تسعمائة ألف رجل خلا الأطفال والنساء. وعندما أحضروه تعرف عليه المنجِّمون وقالوا للملك: «لاشك أن هذا هو الرجل الذى عرفناه وهو طفل، والذى عند مولده ابتلع النجم العظيم النجوم الأربع. لابد أن أباه قد خالف أمرك وسخر منك وأحضر لك طفلاً آخر فقتلته».

فتملك الذعر تارح، إذْ خاف من غضب الملك عليه، واعترف بأنه قد خدع الملك. وعندما قال له الملك: «أخبرنى من الذى نصحك بفعل هذا. لا تُخف عنى شيئًا لئلا تموت.» فاتهم بالبهتان «هاران» - الذى كان فى الثانية والثلاثين عند مولد إبراهيم - بأنه هو الذى نصحه بخداع الملك. فأمر الملك بتجريد إبراهيم وهاران من كل ثيابهما عدا السراويل وأوثقت أيديهم وأقدامهم بحبال من الكتّان وأُلقيا فى النار. وهلك هاران فى النار؛ لأن قلبه لم يكن كاملاً مع الرب واحترق بالنار الرجال الذين ألقوا بهما فى النار بألسنة من اللهيب قفزت عليهم والتهمتهم؛ **ونجَّى الرب إبراهيم وحده، فلم يحترق**، رغم أن **قيود يديه قد احترقت وأكلتها النيران**. وظل إبراهيم يمشى وسط النيران طول ثلاثة أيام وثلاث ليال، وأتى عبيد الملك كلهم إليه وقالوا له: «لقد رأينا إبراهيم وهو يمشى فى وسط النار».

وفى البداية لم يصدقهم الملك، ولكن عندما أكد بعض أمرائه المخلصين كلام العبيد؛ نهض من مكانه وذهب ليرى بنفسه. وعندها أمر عبيده بأن يخرجوا إبراهيم من النار، ولكنهم لم يستطيعوا، لأن ألسنة النار كانت تقفز نحوهم من الأتون، وعندما حاولوا مرة أخرى أن يقتربوا من النار حسب أمر الملك؛ اندفعت النيران وأحرقت وجوههم، فمات منهم ثمانية. عندئذ نادى الملكُ إبراهيمَ قائلاً: «يا عبد الرب الذى فى السماء، أخرج من وسط النار وتعال إلى هنا. وقِف أمامى.» فأتى إبراهيم ووقف أمامه. فقال الملك لإبراهيم: «كيف لم تحترق بالنار؟» أجابه إبراهيم: «رب السموات والأرض الذى أثق به، والذى يقدر على كل شىء هو الذى أنجانى من النار التى ألقيتنى فيها».

ك - إبراهيم فى كنعان

وقد تم امتحان إبراهيم بعشر كلمات؛ فأتمهن جميعًا، مظهرًا كيف كان حبه كبيرًا. وكان أول امتحان يتعرض له: هو هجرته من موطنه وكانت الصعوبات التى واجهها كثيرة وقاسية، وكان كارهًا لترك بيته، وكلم الرب قائلاً: ألن يتكلم الناس عنِّى ويقولون «يحاول أن يأتى بالأمم تحت جناح «الشكينة»»، ومع ذلك يترك أباه العجوز فى حان حاران، ويرحل بعيدًا؟ لكن الرب أجابه قائلاً: «لا تشغل بالك بأبيك ولا بقومك، فمع أنهم يلينون لك القول، قد اجتمعوا كلهم على رأى واحد، وهو أن يهلكوك».

ثم هجر إبراهيم أباه فى «حاران» وارتحل إلى «كنعان» تصحبه بركة الرب الذى قال له: «سأجعل منك أمة عظيمة، ولسوف أباركك، وأجعل اسمك عظيمًا» وكانت هذه البركات الثلاث تعادل العواقب السيئة التى كان يخشى من أنها قد تنتج عن الهجرة، إذ أن الارتحال من مكان إلى آخر قد يتعارض مع نمو العائلة، فهو يقلل ارتباط المرء بالأرض ويقلل من الاحترام الذى يتمتع به المرء فى وطنه. ومع ذلك فقد كان أعظم بركة هى كلمة الرب: «وأنت نفسك تكون بركة». وكان معنى ذلك: أن من يلمس إبراهيم تحلّ عليه البركة. حتى البحارة فى البحر كانوا مدينون له برحلاتهم الآمنة الموفقة. كما أن الرب وعده أنه فى مستقبل الأيام سوف يذكر اسمه فى «صلوات البركة» وسيُحمد الرب على أنه «ترِّس إبراهيم»، وهى ميزة لم تُعْطَ لأحد من البشر سوى «داود» لكن الكلمات «وأنت نفسك تكون بركة» لن تتم إلا فى العالم الآتى، عندما يُعرف نسل إبراهيم بين الأمم، وتعرف ذريته بين الشعوب بأنها النسل الذى باركه الرب.

وعندما أُمر إبراهيم فى البداية بالرحيل عن بيته، لم يُخْبَر بإلى أى أرض يرحل؟ وذلك مما يزيد ثوابه على تنفيذ أمر الرب بلا جدال وأظهر إبراهيم ثقته بالرب إذ أنه قال: «أنا مستعد للذهاب إلى أى وجهة ترسلنى إليها». وعندئذ أمره الرب بأن يذهب إلى أرض سيظهر له فيها. ولما ذهب

إلى كنعان فيما بعد؛ ظهر له الرب، فعلم أنها هى الأرض الموعودة.

وعندما دخل إبراهيم أرض كنعان لم يكن يعلم بَعْدُ أنها هى الأرض التى عُينت ميراثًا له. ومع ذلك فقد ابتهج عندما دخلها.

والتى رأى سكانها يأكلون ويشربون ويعربدون، طالما تمنى «ألا تكون هذه الأرض من نصيبى» لكن عندما أتى إلى كنعان، رأى الناس منكبين فى اجتهاد على فلاحة الأرض، وقال: «ليت هذه الأرض تكون من نصيبى!» عندها كلمه الرب قائلاً: «لبذرتك أعطى هذه الأرض». ومن فرحته بهذه الأخبار بنى إبراهيم «مذبحًا» للرب ليشكره على وعده. ثم واصل رحلته متجهًا إلى «الجنوب» فى اتجاه البقعة التى سينتصب فيها «المذبح». ثم أقام مذبحًا آخر فى «حبرون» وبهذا تملك الأرض فيما بين المذبحين. ثم أقام كذلك مذبحًا فى عاى، لأنه رأى أن مصيبة ستحل بذُرِّيَته هناك، مع فتح «يشوع» للأرض. وكان يأمل أن يمنع المذبح العواقب الشريرة التى قد تتبع (الفتح).

وكل مذبح كان يقيمه كان مركزًا لنشاطه كرسول يدعو إلى الرب. فبمجرد أن يصل إلى المكان الذى يرغب فى امتلاكه؛ كان يقيم خيمة لسارة وأخرى مجاورة له، ثم يبدأ فى دعوة الناس وإحضارهم تحت جناح «الشكينة». وهكذا أكمل غرضه فى دعوة كل الناس وحثهم على الإيمان باسم الرب.

وحتى ذلك الوقت لم يكن إبراهيم إلا غريبًا فى أرضه الموعودة. فبعد تقسيم الأرض بين أولاد نوح، وبعد ما ذهب كلٌّ إلى نصيبه المخصص له، حدث أن رأى كنعان، ابن حام، أن الأرض الممتدة من «لبنان» إلى «نهر مصر» أرض جيدة ورفض أن يذهب إلى أرضه المخصصة له، إلى الغرب بالقرب من البحر. واستقر فى أرض «لبنان»، إلى الشرق وإلى الغرب من حدود الأردن ومن حدود البحر. وكلمه «حام» أبوه، وأخواه كُوش ومِصرايم قائلين: إنك تقيم فى أرض ليست لك؛ لأنها لم تخصص لنا عندما أجرينا القرعة. لا تفعل ذلك وإذا لم ترجع عن غيِّك، فلسوف تكون ملعونا أنت وذريتك ملعونون فى الأرض لهذا التمرد. وإن إقامتك ههنا تمرد وبسبب التمرد

سيتم القضاء على نسلك إلى الأبد. ارحل لا تقم فى أرض سام؛ لأنها مخصصة لسام ولأبناء سام بالقرعة. ملعون أنت لتعديك ولسوف تكون ملعونًا أمام كل نسل نوح لأننا أقسمنا أمام «القاضى المقدس» وأمام أبينا نوح.

ولكن كنعان لم يسمع لكلام أبيه وأخويه وأقام فى أرض لبنان من «حماة» إلى مدخل «مصر»، هو وأولاده.

ورغم أن الكنعانيين قد تملكوا هذه الأرض بدون وجه حق، فإن إبراهيم كان يحترم حقوقهم، إذ أنه وضع اللُجُم على جماله لكيلا ترعى فى أراضى الآخرين.

ل ـ إقامته فى مصر

وما كاد إبراهيم يستقر فى كنعان إلا وضربت الأرض مجاعة مهلكة، وهى واحدة من المجاعات العشر التى قدرها الرب بسبب فجور البشر. وكانت أولاها فى زمن آدم، عندما لعن الرب الأرض بسببه؛ والثانية كانت هذه المجاعة فى زمن إبراهيم؛ وأجبرت الثالثة «إسحق» على الإقامة فى وسط الفلسطينيين؛ وقادت الآثار الناتجة عن المجاعة الرابعة أولاد «يعقوب» إلى مصر ليشتروا الغلال للطعام؛ وجاءت الخامسة فى عهد «القضاة» عندما اضطر «أبيمالك» وأسرته إلى اللجوء إلى أرض «مؤاب»؛ وحدثت السادسة خلال حكم «داود» واستمرت ثلاث سنوات؛ وحدثت السابعة فى أيام «إيليَّاء» الذى أقسم ألا مطر ولا ندى سيسقط على الأرض؛ والثامنة كانت هى المجاعة التى حدثت أيام «أليشع» عندما بيع رأس حمار بثمانين قطعة من الفضة؛ والتاسعة هى التى تصيب البشر على أجزاء من آن لآخر؛ والعاشرة ستحل على البشر قبل ظهور «المَسِيَّا» (= أى المُخَلِّص وليس هو المسيح عيسى) ولن تكون هذه الأخيرة «مجاعة خبز وعطش إلى الماء، ولكن لسماع كلام الرب».

ولم تنتشر المجاعة فى زمن إبراهيم إلا فى أرض كنعان، وقد قدرت

على تلك الأرض لاختبار قوة إيمانه. وقد قاوم هذا الابتلاء الثانى كما فعل مع الأول. فلم يتذمر ولم يظهر أى علامات على نفاد صبره تجاه الرب الذى كان قد أمره قبلها بوقت قصير أن يهجر وطنه ويرحل إلى تلك الأرض التى ضربتها المجاعة. وقد أجبرته المجاعة على ترك كنعان لفترة. فتوجه إلى مصر، ليتعرف هناك على حكمة الكهنة وإذا لزم الأمر يرشدهم إلى الحقيقة.

فى هذه الرحلة من كنعان إلى مصر، لاحظ إبراهيم للمرة الأولى جَمال سارة. فمن عِفَّته لم يكن قد نظر إليها من قبل، لكن الآن وبينما هما يخوضان فى أحد الأنهار؛ رأى انعكاس جمالها على صفحة الماء مثل بهاء الشمس. وعندها كلمها قائلاً: «إن المصريين شهوانيون جدّا وسوف أضعك فى صندوق لئلا يقع لى مكروه بسببك».

وعند الحدود المصرية سأله موظفو الضرائب عن محتويات الصندوق. فأجابهم إبراهيم بأن فيه شعيرًا: أجابوه قائلين: «لا. إن به قمحًا». أجابهم إبراهيم: «حسنًا وأنا على استعداد لدفع الضريبة على القمح». بعد ذلك خَمَّنوا أنه فلفل. فقالوا له: «بل هو يحتوى على فلفل!» فوافق إبراهيم على دفع ضريبة الفلفل، فاتهموه بإخفاء ذهب فى الصندوق ولم يرفض دفع الضريبة على الذهب؛ وفى النهاية على الأحجار الكريمة. وعندما رأوا أنه لما لم يحتجَّ على شىء ولم يتذمر من أقوالهم وضرائبهم مهما كانت مرتفعة، ازدادت شكوك جامعى الضرائب، وأصروا على أن يفتح الصندوق ويدعهم يفحصون محتوياته. وعندما فُتح الصندوق ذُهلت مصر كلها من جمال سارة. فبالمقارنة مع كل الجميلات، كانت كل الجميلات الأخريات تبدو مثل القرود. وكانت تفوق حواء نفسها فى الجمال. وتصارع خدم الملك للتمتع بها مع أنهم كانوا يرون أن مثل هذا الجمال الأخَّاذ يجب ألا يظل مقصورًا على فرد واحد. وأبلغوا الملك بهذا الأمر فأرسل الملك قوة كبيرة مسلحة لتحضر «سارة» إلى القصر، ولما رآها افتتن بجمالها لدرجة أنه أغدق على من أخبروه بقدومها إلى مصر بالهدايا السخية.

ودعا إبراهيم ربه والدموع تتساقط من عينيه، ناشده قائلاً: «أهذا جزاء ثقتى بك؟ فمن أجل فضلك ورحمتك لا تخيِّب فيك رجائى.» كذلك ناشدت سارة الرب قائلة: «يا رب لقد أمرتَ سيدى إبراهيم بأن يترك بيته وأرض آبائه ويرحل إلى كنعان ووعدته بأن تصنع به خيرًا لو نفَّذ أوامرك. وها نحن قد فعلنا ما أمرتنا به. لقد تركنا بلدنا وأهلنا ورحلنا إلى أرض غريبة وإلى شعب لم نعرفه من قبل. وقد جئنا هنا لننقذ قومنا من الهلاك جوعًا والآن قد حلت بنا هذه المصيبة. يا رب ساعدنى وأنقذنى من يد عدوك؛ أكرمنا برحمتك».

فظهر مَلاَكٌ لسارة وهى فى حضرة المَلِك ولم يره، وأمرها الملاك بأن تتحلى بالشجاعة قائلاً: «لا تخشى شيئا يا سارة لأن الرب قد سمع دعواتك».

وسألها الملك عن الرجل الذى جاءت إلى مصر بصحبته، فقالت سارة: إنه إبراهيم أخوها. وعندها قرر الملك أن يجعل إبراهيم عظيمًا وقويّا وأن يفعل له ما تشاء سارة. وأرسل المزيد من الذهب والفضة إلى إبراهيم، وكذلك الماس واللآلئ والأغنام والثيران والعبيد والإماء وجهز له مسكنًا بجوار القصر الملكى. ومن حبه الشديد لسارة؛ كتب عقد زواج ومنحها كل ما يملك من ذهب وفضة وعبيد وإماء وإقليم «جاسان» فوق ذلك ملكا ـ وهو الإقليم الذى أقامت به فيما بعد ذرية[1] «سارة» لأنه كان ملكًا عليهم. وفوق كل هذا أعطاها ابنته «هاجر» أمةً لها؛ لأنه كان يفضل أن يرى ابنته خادمة لسارة، على أن تكون سيدة فى حريم ملك آخر.

ولكن سخاءه العظيم لم يُجْدِه نفعًا. فخلال الليل وبينما هو على وشك أن يقترب من سارة؛ ظهر ملك مسلح بعصا، وكان الملك كلما لمس حذاء سارة ليخلعه من قدميها؛ يضربه الملك على يده، وعندما يمسك بثوبها ينال ضربة أخرى. وقبل كل ضربة يضربها؛ كان الملاك يستأذن سارة، فإن أمرته أن يمنح الملك لحظة ليستعيد رباطة جأشه، كان ينتظر ويفعل ما تريد.

(١) فإن يعقوب ويوسف وجميع الأسباط سكنوا فى أرض «جاسان» إلى أن خرجوا منها فى زمن موسى رسول الله. (المحقق)

وحدثت معجزة أخرى عظيمة. وهى أن أصيب الملك وحاشيته، حتى حيطان بيته وسريره بالجذام، فلم يستطع إشباع رغباته الشهوانية. تلك الليلة هى التى عانى فيها الملك وملأه من تلك العقوبة العادلة؛ كانت هى الليلة الخامسة عشرة من «نيسان» وهى نفس الليلة التى زار فيها الرب المصريين لكى ينقذ بنى إسرائيل ذرية سارة.

ومن رعبه من تلك المصيبة التى حلت به؛ سأل الملك كيف يتخلص منها. وأرسل فى طلب الكهنة وعلم منهم السبب الحقيقى لهذا البلاء، الذى أصابهم هم أيضًا بسبب سارة. فعندئذ أرسل إلى إبراهيم وأعاد إليه أخته نقية لم تُمَسَّ، واعتذر عما حدث، قائلاً: إنه كان ينوى مصاهرته بالزواج، إذ كان يظن أنه أخو سارة. وأغدق الهدايا الثمينة على الزوج والزوجة ثم رحلا إلى أرض كنعان، بعد إقامة فى مصر مدتها ثلاثة أشهر.

وعندما وصلا إلى أرض كنعان بحثا عن نفس المكان الذى استراحا فيه من قبل، لكى يسددا ما عليهما من ديون لأهله، وأيضًا لكى يضربوا المثل والقدوة فى أن المرء لا ينبغى أن يبحث عن مكان آخر إلا إذا أُجبر على ذلك.

وكانت إقامة إبراهيم فى مصر ذات نفع عظيم لسكان ذلك البلد، لأنه أظهر لحكماء هذا البلد سفاهة آرائهم، وخلوها من المنفعة وعلَّمهم التنجيم وعلم الفلك، وكانا غير معروفين فى مصر قبل هذا الوقت.

م ـ الملك الأول

وكان الملك المصرى، الذى انقلب لقاؤه مع إبراهيم إلى حدث غير سار، هو أول من يحمل لقب «ملك». وقد سُمِّى الحكام الذين تلوه على اسمه ويرتبط أصل هذا الاسم بحياة ومغامرات «راقيون» (أى) «المُقَدَّم» وكان رجلاً حكيمًا ووسيمًا وفقيرًا. وكان يعيش فى أرض شِنْعار. وعندما وجد نفسه غير قادر على العيش فى شنعار عزم على أن يرحل إلى مصر حيث كان يتوقع أن يعرض حكمته على الملك «أحشويروش» ابن «عنام». ربما يجد

مكرمة فى عينى الملك الذى قد يمنح «رقيون» الفرصة فى تحسين أحواله وأن يصبح رجلاً عظيمًا.

وعندما وصل إلى «مصر» علم أن عادة تلك البلاد هى أن ينعزل ملكها فى قصره بعيدًا عن أعين الناس. ولم يكن يظهر أمام العامة إلا فى يوم واحد من العام، ويستقبل كل من له مظلمة يسلمها إليه. وتملكته خيبة الأمل، ولم يَدْرِ «رقيون» كيف يكسب قوته فى بلدٍ غريب. واضطر إلى قضاء الليل فى العراء جائعًا. وفى اليوم التالى حاول أن يسترزق بشىء ببيع الخضروات وخدمه الحظ بأن قابل بعض التجار (واشترى منهم بضاعة بالأجل) ولكن لأنه لم يكن يعرف عادات أهل تلك البلاد؛ لم يحالفه الحظ فى عمله الجديد، فقد هاجمه السفهاء وخطفوا منه بضائعه وجعلوه أضحوكة للناس. وفى هذه الليلة التى اضطر فيها إلى المبيت فى العراء أيضًا، خطرت فى باله خطة. فنهض وجمع ثلاثين شخصًا من الأشرار وأخذهم إلى المقابر وأمرهم باسم الملك أن يفرضوا على كل من جاءوا بميت ليدفنوه مئتى قطعة من الفضة، وإلا يُمنع دفن الميت. وبهذه الطريقة نجح فى جمع ثروة عظيمة خلال ثمانية أشهر. هو لم يجمع فقط الفضة والذهب والجواهر النفيسة ولكنه جمع أيضًا قوة كبيرة مسلحة وراكبة مرتبطة به هو شخصيّا.

وفى اليوم الذى يظهر فيه الملك أمام الناس؛ اشتكوا له من هذه الضريبة المفروضة على الموتى وقالوا: «ما هذا الذى تُبلى به خدامك، فلا تسمح بدفن أحد إلا إذا دفع لك الذهب والفضة! هل حدث مثل ذلك فى العالم كله من أيام آدم، ألا يدفن الموتى إلا إذا دُفع مال من أجل دفنهم! نعلم أنه من حق الملك أن يأخذ ضريبة سنوية من الأحياء لكنك تأخذ إتاوة من الموتى أيضًا، وتفرضها كل يوم. يا مولانا الملك ما عدنا نطيق احتمال ذلك، فقد خربت المدينة كلها بسبب ذلك».

وما كان لدى الملك علم بما يفعله «رقيون» ولذا فقد استشاط غضبًا

عندما أخبره الناس بذلك. وأمر بحضوره هو وزمرته المسلحة أمامه ولم يأتِ رقيون خالى اليدين، لكن سبقه ألف شاب وفتاة على ظهور الخيل القوية، مرتدين حللاً ملكية. وكانوا هدية إلى الملك. وعندما حضر هو بنفسه أمام الملك، وقدَّم إليه الذهب والفضة والماس بكميات كبيرة وبسخاء عظيم. لم تكن هذه الهدايا وهذا الاستعراض للجاه بدون أثر على الملك إذ عندما وصف له «رقيون» بكلمات متقنة ولسان معسول ما قام به، لم يكسب الملك فقط إلى صفه ولكنه كسب البلاط كله، وقال له الملك: «لن تدعى بعد ذلك «رقيون» ـ أى المُعْدِم ـ ولكن «سيد الدفع» لأنك جبيت الضرائب من الموتى».

وقد كان الانطباع الذى تركه رقيون عظيمًا لدرجة أن الملك والنبلاء والشعب كلهم جميعًا قرروا وضع زمام الأمور فى المملكة فى يدى «سيد الدفع» تحت وصاية أحشويروش، وأشرف على القانون والعدل خلال العام كله؛ ولم يكن الملك يقوم بالقضاء والفصل فى الخصومات إلا فى اليوم الوحيد الذى يظهر فيه أمام الناس. ومن خلال تلك السلطة التى مُنحت له ومن خلال المكر والحيلة، نجح «سيد الدفع» فى اغتصاب السلطة الملكية، وجمع الضرائب من كل سكان مصر. ومع ذلك فقد كان محبوبًا من الشعب، وتقرر أنه من حينها فصاعدًا يحمل كل حاكم لمصر اسم «فرعون».

ن ـ حرب الملوك

وفى طريق عودته من مصر، توترت علاقات إبراهيم بأسرته بسبب ظروف غير جيدة. فقد نشب الصراع بين رعاة ماشيته ورعاة ماشية «لوط» وكان إبراهيم يضع اللجم على أفواه ماشيته، بينما لم يفعل لوط مثله، وعندما احتج رعاة قطعان إبراهيم على رعاة قطعان لوط بسبب ذلك أجابهم الآخرون قائلين: «معلوم يقينًا أن الرب قال لإبراهيم «لنسلك أعطى هذه الأرض». ولكن إبراهيم ذكر عقيم ولن يكون له ذرية أبدًا. وغدًا سيموت ويكون لوط وارثه. ولهذا فإن قطعان لوط لا تستهلك إلا ما هو مِلْكٌ لسيدها». لكن الرب تكلم قائلاً: «صحيح أننى قلت لإبراهيم إننى سأعطى هذه الأرض لنسلك، ولكن

بعد أن تهلك الأمم السبع من على ظهر الأرض. واليوم لازال الكنعانيون فيها وكذلك الفرزيُّون؛ ولايزالون يمتلكون حق السكنى فيها».

وعندما امتد الصراع من الخدم إلى السادة، وحاول إبراهيم عبثًا أن يجعل لوطًا ابن أخيه يدفع ثمن تصرفه غير السوى؛ قرر إبراهيم أن لوطًا يجب أن يغادر أرضه (ولكنه لم يجبره على المغادرة) مع أنه كان عليه أن يُجبره على ذلك. ولهذا لم يفارق لوط إبراهيم وحده، ولكنه فارق أيضًا رب إبراهيم، ومضى إلى أرض كانت الفاحشة والخطيئة تطغيان فيها (على كل شىء) حيث حلت عليه العقوبة، إذ أغوته فلذات كبده فيما بعد، وأوقعنه فى الخطيئة.

ولم يرض الرب عن إبراهيم لأنه لم يَعِش مع عشيرته فى سلام وانسجام، كما كان يعيش مع كل العالم الخارجى. ومن ناحية أخرى فقد استاء الرب من أن إبراهيم كان يقر فى صمت بإرث لوط له، رغم أنه قد وعده بكلمات واضحة لا لبس فيها «إلى نسلك سأعطى هذه الأرض». وبعد ما فارق إبراهيم لوطًا، تلقى تأكيدًا مرة أخرى بأن كنعان يجب أن ينتمى إلى نسله التى سيكاثرها الرب مثل ذرَّات الرمل الذى على شاطئ البحر. وكما يملأ الرمل الأرض كلها، كذلك سوف تنتشر ذرية إبراهيم فى الأرض كلها، من أقصاها إلى أقصاها؛ وكما أن الأرض لا تتبارك إلا إذا ندَّاها الماء، فكذلك سيبارك نسله بالتوراة، التى تشبه الماء فى هذا المثال؛ وكما أن التراب يدوم أكثر من المعدن، كذلك ستدوم ذريته إلى الأبد، بينما يهلك الوثنيون؛ وكما توطأ الأرض بالأقدام، فكذلك سيدوس نسله الممالك الأربع.

وكان لرحيل لوط عاقبة خطيرة، إذ كانت الحرب التى شنها إبراهيم ضد الملوك الأربعة ترتبط ارتباطًا وثيقًا به. وكان لوط يرغب فى أن يستقر فى دائرة الأردن الوفيرة المياه، لكن المدينة الوحيدة فى ذلك السهل التى استقبلته كانت هى «سدوم»، التى أَذِنَ ملكها لابن أخى إبراهيم بالإقامة والاستقرار فيها؛ احترامًا لإبراهيم. وكان الملوك الخمسة العصاة ينوون فى البداية أن يحاربوا «سدوم» بسبب لوط، ثم يتقدمون بعدها لمهاجمة إبراهيم. إذ أن أحدهم، لم يكن سوى «النِّمرود»، عدو إبراهيم القديم.

وكانت تفاصيل هذه الحرب كالتالى: تمرد «كَدَر لَعَوْمَرَ»، وكان أحد قادة النمرود، ضده بعد تشتت بناة البرج، ونصَّب نفسه ملكًا على «عِيلام». ثم أخضع القبائل الحاميَّة التى كانت تعيش فى المدن الخمس فى سهل الأردن، وجعلها تدفع له الجزية. وظلوا طوال اثنتى عشرة سنة مخلصين لسلطان «كَدَرْ لَعَوْمَرَ»، ثم رفضوا بعدها دفع الجزية، وأصروا على تمردهم لثلاث عشرة سنة. واستغل «النمرود» الفرصة، وقاد حشدًا من سبعة آلاف محارب ضد قائده السابق، وفى المعركة التى وقعت بين «عِيلام» من «شِنْعار»، تلقى النمرود هزيمة ساحقة وفقد ستمائة من جيشه، وكان من بين القتلى ابنه «مَرْدون». وعاد النمرود إلى بلده يجر أذيال الخزى والعار واضطر إلى الاعتراف بسلطان كَدَرْ لَعَوْمَرَ الذى سعى للتحالف مع أديُوكَ ملك «ألآسار» و«تدعال» ملك أمم عديدة وذلك بغرض سحق مدن دائرة الأردن. وزحفت جيوش هؤلاء الملوك المتحالفين، وكان عددها ثمانمائة ألف، صوب المدن الخمسة يُخضعون كل ما يعترض طريقهم ويبيدون ذرية العمالقة. وسقط فى أيديهم المدن المحصَّنة والمدن غير المُسَوَّرة والسهول المستوية المفتوحة. واندفعوا فى الصحراء حتى تلك العين التى تنبع من «قادِش»، تلك البقعة التى عيَّنها الرب مكانًا للنطق بالحكم ضد موسى وهارون بسبب مياه الصراع. ومن هناك استداروا إلى القسم الأوسط من فلسطين، بلد التمر، حيث قابلوا الملوك الخمسة الكفار: «بازع» الشرير ملك «سَدُوم» و «برشاع» الخاطئ ملك «عمورة» و «شِنآب» كاره أبيه ملك أَدْمَة، و «شِمتِير» الشهوانى ملك «صَبُوييم» وملك «بَالَع» المدينة التى تلتهم سكانها. وكان الخمسة متعاهدين فى وادى «السِّدِّيم» الخصيب، التى فيما بعد كوَّنت قنواته البحر الميت وفرّ من بقى فى المؤخرة إلى الجبال. لكن الملوك سقطوا فى الحفر الصغيرة وهلكوا بها. ولم ينجُ إلا ملك «سدوم» بمعجزة، بغرض أنه قد يحوِّل هؤلاء الوثنيين إلى الإيمان بالرب، والذين لم يكونوا قد آمنوا بنجاة إبراهيم بالمعجزة من النار العظيمة.

ونهب المنتصرون «سدوم» من كل خيراتها وأطعمتها وأسروا لوطا قائلين فى مباهاة عظيمة: «لقد أسرنا ابن أخى إبراهيم» فأفصحوا بذلك عن الغرض الحقيقى لحربهم. وهو رغبتهم العميقة فى إيذاء إبراهيم.

وفى أول ليلة من عيد الفصح، وبينما كان إبراهيم يأكل العيش غير المُتَخَمِّر، جاءه الملاك «ميكائيل» وأخبره بوقوع «لوط» فى الأسر، وهذا الملاك يحمل اسمًا آخر وهو «باليت» أى الهارب، لأنه عندما طرد الرب إسماعيل وفَوْجه من مكانهم المقدس فى السماء؛ تعلَّق القائد المتمرد (= إسماعيل) بميكائيل، وحاول أن يجره معه إلى أسفل، ولم يهرب ميكائيل من السقوط من السماء إلا بمساعدة الرب.

وعندما وصلت إلى إبراهيم أنباء الحال المزرية التى صار إليها ابن أخيه، نَفَض عن عقله كل ما كان يأخذه على «لوط»، ولم يفكر إلا فى سبل تحريره من أَسْرِه. واستدعى كل أصحابه الذين علمهم الإيمان الصحيح، وكانوا جميعهم قد سموا أنفسهم «إبراهيم». وأعطاهم الذهب والفضة قائلاً: «لتعلموا أننا ذاهبون إلى الحرب لننقذ أرواحًا بشرية. لذا فلا تمدوا أعينكم إلى المال، فها هو الذهب والفضة أمامكم». كما وبخهم قائلاً: «نحن نتجهز الآن للحرب، فلا ينضمَّن إلينا من ارتكب خطيئة ويخشى أن تحل عليه العقوبة الإلهية».

ومن خوفهم من تحذيره، لم ينضمَّ إليه أحد، فقد خافوا جميعًا عاقبة خطاياهم. ماعدا «أليعزر» وحده فإنه هو الذى بقى إلى جواره، وكلمه الرب قائلاً: «تخلى عنك الكل عدا «أليعزر»، لذا فلسوف أسبغ عليه قوة الرجال الثلاثمائة وثمانية عشر الذين طلبتَ دون جدوى عونهم لك».

وحدثت المعركة التى خاضها إبراهيم ضد حزب الملوك الأقوياء وخرج منها منتصرًا، فى الخامس عشر من «نيسان»، وهى الليلة المخصصة للمعجزات؛ ولم تؤذِ السهام ولا الأحجار التى قذفوه بها، لكنّ التراب وقشور

الغلال وعيدان القش التى قذف بها أعداءه، تحولت إلى حِراب وسيوف قاتلة. وتقدم نحوهم إبراهيم بطوله ـ الذى يعادل طول سبعين رجلاً يقف أحدهم على رأس الآخر ويحتاج إلى طعام وشراب يكفى سبعين رجلاً ـ بخطوات عملاقة، كل خطوة من خطواته تسع أربعة أميال إلى أن قهر الملوك وقضى على جيوشهم. لكنه لم يستطع أن يتقدم خطوة واحدة أبعد من ذلك، إذ كان قد وصل إلى «دان» التى سيضع فيها يَرُبعام العجول الذهبية وفى هذه البقعة المنحوسة تضاءلت قوة إبراهيم.

ولم يكن انتصاره ممكنًا إلا لأن القوى السماوية وقفت فى صفه. فقد أضاء له كوكب المشترى الليل، وحارب الملاك لَيْلَة من أجله. وفى الحقيقة فقد كان انتصارًا للرب. فكل الأمم قد اعترفت بإنجازه (أى الرب) لا بالإنجاز البشرى، وصنعوا عرشًا لإبراهيم ونصبوه فى أرض المعركة. وعندما حاولوا إجلاسه عليه صائحين:«أنت ملكنا أنت أميرنا، أنت إلهنا!» انتهرهم أبراهيم قائلا: «للكون ملكه وله إلهه!» ورفض كل تشريف وأعاد لكل رجل ما يملك. ولم يحتفظ لنفسه إلا بالأطفال الصغار. وربَّاهم على معرفة الرب، وقد كَفَّروا فيما بعد عن خطايا آبائهم.

وفى غرور وتعجرف خرج ملك سدوم لملاقاة إبراهيم. وكان أيضًا يتفاخر بأن معجزة عظيمة قد وقعت له، وهى نجاته من الهاوية. واقترح على إبراهيم أن يحتفظ لنفسه بالأسلاب، لكن إبراهيم رفضها قائلاً: «قد رفعتُ يدىّ (أى دعوتُ) إلى الرب العلىِّ الذى خلق العالم من أجل المتقين، ألا آخذ خيطًا ولا رباط حذاءٍ ولا شيئًا أبدًا ليس لى ـ ليس لى حق فى أية أسلاب فيما عدا ما أكله هؤلاء الصغار، ونصيب الرجال الذين بقوا يحرسون أمتعتنا، وإن كانوا لم يشتركوا فى القتال بأنفسهم». وذلك المثال الذى ضربه إبراهيم. وهو جعل نصيب فى الأسلاب حتى لمن لم يشاركوا بشكل مباشر فى القتال ـ اتبعه من بعده داوود الذى لم يُصْغِ إلى احتجاج الفسقة والأراذل من رجاله على أن يكون نصيب فى الأسلاب، لمن بقوا إلى

جوار الأمتعة، مثلهم مثل المحاربين الذين اشتركوا فى القتال.

وبرغم انتصاره الساحق؛ فقد كان إبراهيم مشغولاً بعواقب الحرب. وكان يخشى أن يكون قد وقع فى مخالفة النهى عن إراقة الدم الإنسانى، كما كان يخشى استياء سام الذى هلك من ذريته كثيرون فى تلك الموقعة. ولكن الرب طمأنه قائلاً: «لا تخف! إنك لم تجتث إلا الأشواك، أما عن سام فلسوف يباركك، لا أن يلعنك». وهكذا كان. فعند ما عاد إبراهيم من الحرب.

أما بالنسبة لسام ـ والذى يسمى أحيانًا «مَلكى صادَق» أى ملك الصدق، كاهن الرب العلىِّ وملك «أورشاليم»، فقد خرج يستقبله بالخبز والخمر. وقد علَّم هذا الكاهن كبير المقام (أى سام) قوانين الكهانة والتوراة، وباركه لكى يثبت له صداقته ووصفه بأنه «شريك الرب فى امتلاك الكون»، وذلك لما رأى أنه من خلاله (أى إبراهيم) عرف البشر لأول مرة «اسم الرب». لكن «مَلْكِى صادَق» أَعَدَّ كلمات بركته بطريقة غير لائقة فقد ذكر إبراهيم أولاً ثم ذكر الرب ثانيًا. ولذلك عاقبه الرب بأن طرده من شرف الكهانة، وأعطيت لإبراهيم بدلاً منه، وبقيت فى نسله إلى الأبد.

أما عن الجزاء على مراعاة حرمة «الاسم المقدس»، التى قام بها إبراهيم عندما رفض أخذ أى شىء من الأسلاب التى تخلَّفت عن المعركة؛ فقد تلقت ذريته أمرين: أولهما أمر الخيوط التى فى حوافِّ ثيابهم، والثانى: أمر الدلايات التى يجب أن يربطوها على أيديهم ليستخدموها كزينة للجبهة بين أعينهم. وبهذه الطريقة يحيون ذكرى رفض جدِّهم (إبراهيم) أخذ خيط ودلايات (من الأسلاب). ولأنه رفض أخذ ولو رباط حذاءٍ من الأسلاب، فإن ذريته يلقون بأحذيتهم على «أدوم».

س ـ عهد الرب مع إبراهيم وإسماعيل

وبعد الحرب بفترة وجيزة أظهر الرب نفسه لإبراهيم، لكى يرضى ضميره الذى عذبه بشأن إراقة الدماء البريئة، إذ كان ذلك ريبة تؤلم نفسه كثيرًا. وأكّد له الرب أنه سينشىء من ذريته رجالاً أتقياء سيكونون، مثله، ترسًا لجيلهم ـ وكميزة إضافية، أذن له الرب فى أن يطلب ما شاء، وهى نعمة لم يُسْبَغ على أحد غيره سوى يعقوب وسليمان وأحاز والمَسِيًّا ـ وتكلم إبراهيم وقال: «يا رب العالم، لئن كانت ذريتى ستثير فى مستقبل الأيام سخطك فلأبق إذًا عقيمًا، وسيرضى لوط بأن يكون وارثى، وهو الذى من أجله سافرت بعيدًا حتى «دمشق» حيث كان الرب حافظى. كما أننى قرأت فى النجوم «أنك يا إبراهيم لن تنجب أولادًا». عندها رفع الرب إبراهيم على قبة السماء وقال: «إنما أنت نبىّ، لا منجم!» وحتى الآن لم يطلب إبراهيم علامة على أنه سَيُنْعَم عليه بالنسل. وبدون أن ينطق كلمة أخرى؛ آمن بالرب، وكوفئ على إيمانه البسيط بنصيب فى هذا العالم[1] الآتى، وكذلك بخلاص بنى إسرائيل من المنفى، الذى سيحدث كتعويض له على ثقته الراسخة (بالرب).

ورغم أنه آمن بالوعد الذى وُعِد به إيمانًا كاملاً وثابتًا، فإنه أراد أن يعرف بأية ميزة شخصية ستحافظ ذريته على أنفسها. عندئذ أمره الرب بأن يحضر ثلاث عِجْلات وثلاث نعاج وثلاثة كباش ويمامة وفرخ حمام، موضحًا له بهذه الطريقة نوع القرابين التى يجب أن يؤتى بها إلى المعبد للتكفير عن خطايا بنى إسرائيل، ومن أجل دوام نعمته.

وسأله إبراهيم: «لكن ما الذى سيحدث لذريتى بعد خراب المعبد[2]؟»

---

(١) فى هذا العالم: فى مدة شريعة موسى ـ هذا هو مصدر المؤلف ـ والعالم الآتى هو مدة شريعة المسيا. وخلاص بنى إسرائيل من حكم الوثنيين وإعادتهم إلى ديارهم؛ هذا سيكون على يد المسيا، لمن يؤمن به. كما هو واضح من نبوءة إحياء العظام اليابسة فى سفر حزقيال ـ الأصحاح السابع والثلاثون. (المحقق)

(٢) يعنى بالمعبد ههنا: هيكل سليمان الذى اتخذوه كعبة بدل كعبة مكة. (المحقق)

أجـابه الـرب: «لو قـرأوا تـراتيل القـرابين كـمـا وُضـعت فى النصـوص المقدسة، فلسوف أثيبهم على ذلك وكأنهم قدموا إلىّ القرابين، ولسوف أغفر لهم خطاياهم».

وواصل الرب الكلام، فكشف لإبراهيم تاريخ[1] «بنى إسـرائيل» وتاريخ العالم كله: فالعِجْلة ذات الأعوام الثلاثة تُشير إلى سلطان «بابل»، والنعجة ذات الأعوام الثلاثة تمثل الإمبراطورية الفارسية، والكبش ذو الأعوام الثلاثة يمثل القوة الإغريقية، وحكم بنى إسماعيل يمثله الكبش، وبنو إسرائيل هم اليمامة البريئة.

وأحضر إبراهيم هذه الحيوانات، وشقها من المنتصف[2]. ولو لم يكن قد فعل ذلك، لما استطاع بنو إسرائيل مقاومة طغيان الممالك الأربع . ولكنه لم يَشُقَّ الطيور، لكى يشير إلى أن بنى إسرائيل سيبقون موحدين. وأنقضت الطيور الجارحة على الجثث، وطاردها إبراهيم. وهكذا أعلن عن وصول «المَسِيَّا». الذى سيمزق الوثنيين إربًا إربا ولكن إبراهيم أمر «المَسِيّا» بأن

---

(١) يتكلم المؤلف عن الممالك الأربعة التى سيأتى بعدها حكم المسيا. وهى: ١ ـ بابل ٢ ـ وفارس ٣ ـ والإغريق اليونان ٤ ـ والرومان ورثة لهم ٥ ـ وحكم بنى إسماعيل يمثله الكبش. وهذا مذكور فى سفر دانيال. وعبر دانيال عن حكم بنى إسماعيل بملكوت السموات. وقال المسيح عيسى عليه السلام لبنى إسرائيل: «توبوا فقد اقترب ملكوت السموات». (المحقق)

(٢) الأربعة من الطيور وشقها هو للعهد الذى سيبرم بين الله وبين إبراهيم بأن يسير أمامه للدعاء إلى دينه. وجزاء السير هو إرث نسله أمم العالم. والنسل المعين للعهد هو نسل إسماعيل من محمد ﷺ لأن إبراهيم أنجبه على الكبر بعد الوعد مباشرة. ولذلك قال التلمود: «وهكذا أعلن عن وصول المسيا، الذى سيمزق الوثنيين إربا إربا. ولكن إبراهيم أمر المسيا بأن ينتظر حتى يحين زمانه. وكما عرف إبراهيم زمن المسيا فإنه عرف أيضا زمن بعض الموتى... إلخ» ولأن التلمود قال بعد ذلك بقليل «وحلت عليه رهبة ظلمة عظيمة وهى سلطان الممالك الأربعة».

ومما يدل على محمد ﷺ فى هذا النص: «فقد عرف بأن الرب سيحكم على الممالك الأربعة الضالة وسيدمرهم» ولم يحكم بنو إسرائيل على بابل وفارس واليونان والروم. والذى حكم عليهم بشريعة الله هم المسلمون أتباع محمد ﷺ وإلى هذا اليوم هم مؤمنون بالقرآن. (المحقق)

ينتظر حتى يحين زمانه. وكما عرف إبراهيم زمن ظهور «المسيا»، فإنه عرف أيضا، زمن بعث الموتى. وعندما أعاد الأجزاء بعضها إلى بعض؛ عادت الحيوانات حيةً مرة أخرى، والطيور تحلِّق من فوقها.

وبينما كان يجهز هذه القرابين؛ أُنعم عليه برؤيا ذات أهمية عظيمة. فقد غابت الشمس وغرق فى سبات عميق، ورأى نارًا عظيمةً ذات دخان، وهى جهنم، تلك النار التى أعدها الرب للعصاة؛ ثم رأى شعلة متأججة، وهى الوحى على (جبل) سيناء حيث رأى كل الشعب الجذوات المشتعلة؛ ورأى القرابين التى سيقدمها بنو إسرائيل؛ وحلَّت عليه رهبة ظلمة عظيمة، وهى سلطان الممالك الأربع. وكلمه الرب قائلاً: «يا إبراهيم، مادام نسلك يقومون بفريضَتىّ وهى دراسة التوراة وأداء الخدمة فى «المعبد» فلسوف أعفيهم من المصيبتين، جهنم والحكم الأجنبى، لكن إن أهملوا الفريضتين، فلسوف يقاسون المصيبتين؛ ويمكنك أنت فقط أن تختار بين أن يعاقبوا بجهنم أو بحكم الأجنبى». وظل إبراهيم يرتجف طوال النهار، وناداه الرب قائلاً: «إلى متى ستظل متردداً بين رأيين؟ اختر واحدًا منهما، وليكن حكم الغريب!».

ثم عَرَّفه الرب باستعباد بنى إسرائيل فى مصر أربعمائة عام، محسوبةً من ميلاد إسحق، إذ وُعِدَ إبراهيم نفسه بأنه سيذهب إلى آبائه بسلامٍ، ولن يعانى من استعلاء الطاغية الغريب.

وفى نفس الوقت عرف[1] إبراهيم أن أباه «تارح» سيكون له نصيب فى

(١) قال المؤلف: «إن أبا إبراهيم سيكون له نصيب فى العالم الآتى. إذ أنه كان قد تاب عن معاصيه» وفى القرآن الكريم أن أبا إبراهيم كان مثل عمر بن الخطاب. فإنه ـ كما جاء فى السيرة ـ ١ ـ كان كافرا ٢ ثم آمن بالله رب العالمين. وفى حالة كفره لا يستغفر له النبى ﷺ وفى حالة إيمانه يستغفر له. ذلك قوله تعالى: (واغفر لأبى إنه كان من الضالين) ـ (رب اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب) أدخل المؤمن وأخرج الكافر. وإذ طلب الغفران لوالديه يكونا قد آمنا. (كذا)

ومعنى أن له نصيبا فى العالم الآتى. وهو عالم دهر شريعة محمد ﷺ: أنه من المؤمنين الذين يطلب لهم المسلمون المغفرة. (كذا)

ومعنى (رب أرنى كيف تحيى الموتى) هو أن إبراهيم إلى وقت العهد الذى ذبح الطيور =

العالم الآتى، إذ أنه كان قد تاب عن معاصيه. كما كشف له عن أن ابنه «إسماعيل» سيعود إلى طريق الاستقامة وأبوه لايزال على قيد الحياة، ولن يسلك ابن ابنه إسحق وهو «عيسو» طريق الضلال إلا بعد أن يكون هو نفسه قد رحل. وكما وعد بخلاص ذريته مقرونا بإعلان استعبادها، فى أرض ليست لهم، فقد عُرِّف بأن الرب سَيَحْكُم على الممالك الأربع الضالة وسيدمرها.

= لمراسمه لم يكن قد أنجب، مع أنه موعود بنسل، وكانت حالته وقتئذ تشبه حالة الموتى. فلما أكد له على صدق المواعيد قال كيف وأنا ميت عن الإنجاب يكون لى نسل؟ فكانت الطيور بإعادة إحيائها دليل قدرة على بعث الموتى، وفى نفس الوقت بعدما حييت. عمل بها إبراهيم مراسم العهد. وهذا هو معنى كلام التلمود.

والنص فى التوراة هكذا:

التكوين: ١٥:

«بعد هذه الأمور صار كلام الرب إلى إبرام فى الرؤيا قائلاً. لا تَخَفْ يا إبرام. أنا ترس لك. أجرك كثير جدّا فقال إبرام أيها السيد الرب ماذا تعطينى وأنا ماض عقيمًا ومالك بيتى هو أليعازر الدمشقى. وقال إبرام أيضًا إنك لم تعطِنى نسلاً وهو ذا ابن بيتِى وارث لى. فإذا كلام الرب إليه قائلاً. لا يرثك هذا. بل الذى يخرج من أحشائك هو يرثك. ثم أخرجه إلى خارج وقال انظر إلى السماء وعد النجوم إن استطعت أن تعدها. وقال له هكذا يكون نسلك فآمن بالرب فحسبه له برّا وقال له أنا الرب الذى أخرجك من أور الكلدانيين ليعطيك هذه الأرض لترثها فقال أيها السيد الرب بماذا أعلم أنى أرثها فقال له خذ لى عجلة ثلثية وعنزة ثلثية وكبشًا ثلثيًا ويمامة وحمامة فأخذ هذه كلها وشقها من الوسط وجعل شق كل واحد مقابل صاحبه. وأما الطير فلم يشقه. فنزلت الجوارح على الجثث وكان إبرام يزجرها.

ولما صارت الشمس إلى المغيب وقع على إبرام سبات. وإذا رعبة مظلمة عظيمة واقعة عليه فقال لإبرام اعلم يقينًا أن نسلك سيكون غريبا فى أرض ليست لهم ويستعبدون لهم. فيذلونهم أربع مئة سنة. ثم الأمة التى يستعبدون لها أنا أدينها. وبعد ذلك يخرجون بأملاك جزيلة وأما أنت فتمضى إلى آبائك بسلام وتدفن بشيبة صالحة. وفى الجيل الرابع يرجعون إلى ههنا. لأن ذنب الأموريين ليس إلى الآنَ كاملاً. ثم غابت الشمس فصارت العتمة. وإذا تنور دخان ومصباح نار يجوز بين تلك القطع.

فى ذلك اليوم قطع الرب مع إبرام ميثاقًا قائلاً. لنسلك أعطى هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات القينيين والقنزيين والقدمونيين والحثيين والفرزيين والرفائيين والأموريين والكنعانيين والجرجاشيين واليبوسيين» (تك: ١٥). (المحقق)

٤ـ ميلاد إسماعيل

وتم عهد الإجزاء ـ الذى كشف له فيه عن مصائر ذريته ـ فى وقت كان إبراهيم لايزال فيه دون طفل. طوال إقامتها خارج الأرض المقدسة، وكان إبراهيم وسارة يريان عقمهما عقوبة على عدم الإقامة فيها. ولكن بعد أن وجدت سارة نفسها عاقرًا بعد إقامتهما فى فلسطين لعشر سنوات؛ لاحظت سارة أن العيب منها ودون الإحساس بأى قدر من الغيرة، كانت على استعداد لإعطاء جاريتها «هاجر» زوجة لإبراهيم، بعد أن أعتقتها، لأن «هاجر» كانت ملكًا لها، لا لزوجها. وكانت قد أهداها إليها الملك أبو «هاجر» وعلّمتها سارة وربتها. فسارت على نفس طريق الهداية الذى سارت عليه سيدتها، وبذلك كانت رفيقةً مناسبة لإبراهيم، الذى قَبِلَ اقتراح سارة، بعد أن أمره الروح القدس بذلك.

وما كاد اجتماع هاجر مع إبراهيم يتم وأحست بأنها حامل؛ إلا وبدأت تعامل مولاتها السابقة باحتقار، رغم أن سارة كانت تترفق بها، خصوصًا وهى فى حالتها التى كانت فيها. وكلما جاءت شريفات المدينة لزيارتها، كانت تستحثهن لزيارة «هاجر المسكينة». وكانت السيدات ينزلن على رغبتها، لكن هاجر كانت تستغل تلك الفرصة للطعن فى سارة، وكانت تقول لهن: «سيدتى سارة ليست فى حقيقتها كما تبدو فى ظاهرها. فهى تتظاهر بأنها مستقيمة وتقية، ولكنها ليست كذلك، فلو كانت كذلك، فما الذى جعلها عاقرًا بعد كل هذه السنوات من الزواج، بينما حملتُ أنا على الفور؟».

ولم تشأ سارة أن تنحط إلى مستوى سفالة جاريتها، ولكن غضبها من هذه الكلمات وجد متنفسًا له فى هذه الكلمات التى قالتها لإبراهيم، إذ قالت: «إنك أنت السبب فى ذلك الخطأ فى حقى. فأنت تصغى لكلمات هاجر ولا تعترض عليها بشىء، وأنا الذى كنتُ أظنك ستقف فى صفِّى. لقد تركتُ بلدى وبيت أبى من أجلك، وتبعتك إلى بلد غريب وكلِّى ثقةً بالرب.

وفى مصر ادعيتَ أننى أختك لكيلا يصيبك مكروه. وعندما رأيتُ أننى لن ألد لك أية أطفال، أخذتُ المرأة المصرية، جاريتى هاجر، ومنحتها لك زوجةً، ورضيتُ بأن أربى الأطفال الذين ستلدهم هى. وها هى الآن تعاملنى باحتقار فى حضورك. فعسى الرب أن يكون شاهدًا على ذلك الظلم الذى يقع علىّ، وليفصل بينى وبينك، ويرحمنا ويعيد السلام إلى بيتنا ويهبنا الذرية، لكيلا نحتاج لأطفال من هاجر، تلك الأمة المصرية والتى هى من أولاد الوثنيين الذين ألقوا بك فى النار!».

ولرزانة إبراهيم وطيبة قلبه كان على أتم استعداد لإنصاف سارة، ولكنه فوّض إليها أن تتخلص من «هاجر» بالطريقة التى ترضيها. وحذّرها قائلاً: «لقد أعتقناها وجعلناها سيدةً حرة فلا نستطيع أن نعيدها أَمَة[1]». لكن

---

(١) لاحظ:

ما قلناه سابقا فى التعليقات وهو أن هجرة إبراهيم كانت إلى مكة وليست إلى أرض كنعان. كما يزعم اليهود. وفى القرآن الكريم ما يدل على ذلك وهو (فآمن له لوط وقال إنى مهاجر إلى ربى) أى إلى بيت ربى وهو المذبح الذى بناه نوح من بعد الطوفان. وكان الناس يحجون إليه ويقصدونه ولهذا سمى بالكعبة. وفى القرآن أيضًا: (ونجيناه ولوطا إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين) والبركة تدل على الكعبة لقوله: (إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا) وإذ إبراهيم وسارة زوجه فى مكة عند الكعبة البيت الحرام. وقد كانت هى تدعو إلى الله وترغب فيه مع زوجها. وإن علّمت سارة جاريتها هاجر طريق الهداية؛ يكون الثلاثة دعاة إلى الله فى «مكة» ولإيمانها ولعلمها بطريق الهداية تزوجها إبراهيم؛ لأن سارة كانت عاقرا. وهى التى طلبت من إبراهيم أن يتزوجها لعلها تُرزق منها ببنين. فلما دخل عليها حبلت بإسماعيل. فكيف مع هذا يقول المؤلف إن إبراهيم وسارة وهاجر كانوا فى أرض كنعان؟ وكيف يقول بأن إبراهيم طرد هاجر وتركها فى الصحراء بغير زاد؟ فما فائدة دعوته إلى مكارم الأخلاق إذًا؟

وأين كانت تسكن هاجر من بعد الفراق؟ كانت تسكن فى «مكة» عند بئر لَحَىّ رُئى. أى بئر الحى الرائى الذى ينظر إلى الحجاج بعين الرحمة والمغفرة. (تك ١٦: ١٤) وفى أى مكان كانت تسكن سارة مع إسحق؟ كانا يسكنان فى مكة عند بئر لحى رئى. وما هو الدليل على أن بئر لحى رئى فى مكة؟ الدليل أن هذه البئر فى أرض الجنوب. وأرض الجنوب هى أرض مكة لأنها جنوب فلسطين. ففى الأصحاح الرابع والعشرين من سفر التكوين: «وكان إسحق قد أتى من ورود بئر لحى رئى إذ كان ساكنا فى أرض الجنوب» ـ «فأدخلها إسحق إلى خباء سارة أمه» أى أن إسحق تزوج رفقة فى مكة فى خباء أمه سارة. (المحقق)

سارة لم تراعِ ذلك وكلفتها بالقيام بما يقوم به العبيد. ولم تكتفِ بذلك، فقد عذبتها ورمتها بعين شريرة. ليسقط منها طفلها الذى لم تلده بعد، وفرت هاجر هاربة. وقابلها فى طريق هروبها ملائكة كثيرون. وأمروها بالعودة، وأخبروها بأنها ستلد ذكرًا وستسميه «إسماعيل» وهو واحد من الرجال الستة الذين سمَّاهم الرب قبل مولدهم، والخمسة الآخرون هم إسحق وموسى وسليمان ويشوع والمَسيًّا.

وبعد ميلاد إسماعيل بثلاثة عشر عامًا صدر الأمر إلى إبراهيم بأن يضع علامة العهد على بدنه وأبدان الذكور من أهل بيته. ولم يكن إبراهيم راغبًا فى البداية فى إنفاذ أمر الرب، إذ كان يخشى أن يضع اختتان لحمه فاصلاً بينه وبين بقية البشر. لكن الرب قال له: «ليكن كافيًا لك أنِّى أنا ربك وإلهك، كما يكفى العالم أنى ربه وإلهه».

فعند ذلك استشار إبراهيم أصدقاءه المخلصين الثلاثة عَانِر وأشكول ومَمْرا، فى أمر اختتانه، فقال له أولهم: «لقد كدتَ تبلغ المائة عام وتفكر فى إيذاء نفسك بهذه الطريقة؟» وبمثل ذلك نصحه الثانى محذرًا فقال: «ماذا؟!» قال أشكول؛ وأضاف أيضًا: «أتَسِمُ نفسك بسمة لكى يستطيع أعداؤك التعرف عليك دون جَهْد؟!» أما ثالثهم «مَمْرا» فقد كان هو الوحيد الذى نصحه بطاعة أمر الرب وقال له: «لقد أنقذك الرب من النار، وأيَّدك فى حربك مع الملوك. ورزقك أثناء المجاعة وتتردد الآن فى تنفيذ أمره بالاختتان؟» فقام إبراهيم وفعل كما أمره الرب، فى عزِّ النهار، متحديًا الجميع لكيلا يقول قائل: «لو كنا رأيناه وهو يَهُمُّ بذلك؛ لكنا قد منعناه».

وتم الاختتان فى اليوم العاشر من تِشْرى، وهو يوم التكفير، وفوق البقعة التى سيقام فوقها المذبح فيما بعد فى المعبد، إذ أن فعل إبراهيم (= الختان) يظل إلى الأبد كفارة لإسرائيل.

ف ـ زيارة الملائكة

وفى ثالث يوم بعد اختتانه، بينما كان إبراهيم يعانى من آلام رهيبة، كلَّم الرب الملائكة قائلاً: «هيا بنا لَنَزُرْ المريض»، فرفضت الملائكة قائلين: «ما هذا الإنسان الذى تُشغل نفسك به؟ وابن الإنسان الذى تزوره؟ وكيف تود زيارة مكان قذر، مكان للدم وللقذارة؟» لكن الرب أجابهم قائلاً: «هكذا تقولون. فوحياتكم، فإن مذاق هذا الدم أطيب عندى من رائحة المسك والبخور، ولئن كنتم لا تودون زيارة إبراهيم، فلسوف أذهب بمفردى».

وكان اليوم الذى زاره فيه الرب حارّاً للغاية، إذ كان (الرب) قد خرق خرقًا فى الجحيم، لكى تصل حرارة الجحيم إلى الأرض ولا يجسر مخلوق على الخروج إلى الطرقات، ويظل إبراهيم دون إزعاج مع ألمه الذى يعانيه. ولكن غياب الغرباء أزعج إبراهيم للغاية. فأرسل خادمه «أليعازر» ليبحث عن عابرى الـ بيل (ليضيِّفهم). وعندما عاد الخادم من مهمته خائبًا، استعد إبراهيم، رغم مرضه والحرارة القائظة لأن يذهب بنفسه إلى الطرقات، ويرى إن كان سينجح فيما فشل فيه أليعازر[1]، الذى لم يكن يثق فيه على نحو تامٍّ، مراعيًا القول المأثور الشهير: «لا حقيقة بين العبيد»

وفى هذه اللحظة ظهر له الرب محاطا بالملائكة. وحاول إبراهيم أن يسرع بالوقوف على قدميه، لكن الرب أشار له بالبقاء جالسًا كما هو، وعندما احتج عليه إبراهيم بأنه لا يصح أن يجلس فى حضرة «الرب»، قال له الرب: «كما أنك حَىّ، فستجلس ذريتك فى عمر أربعة أو خمسة أعوام فى مستقبل الأيام فى المدارس وفى الكنيس، وأقيم أنا معهم هناك».

وفى أثناء ذلك لاحظ إبراهيم وجود ثلاثة رجال، وكانوا هم الملائكة، ميكائيل وجبريل ورافائيل. وكانوا قد تجسدوا فى هيئة البشر لكى يلبوا له رغبته (= إبراهيم) فى وجود ضيوف يُظهر لهم كرمه. وكان الرب قد كَلَّف كُلاًّ منهم بمهمة خاصة لينفذها على الأرض. فقد كلف رافائيل بإشفاء جرح

---

(١) أليعازر الدمشقى: عبد إبراهيم الأمين. (المحقق)

إبراهيم، وميكائيل بتبشير سارة بأنها ستلد ولدًا، وجبريل بتدمير سدوم وعَمُورة. وعندما وصل الملائكة الثلاث إلى خيمة إبراهيم، لاحظوا أنه منشغل بتمريض نفسه. فانصرفوا. لكن إبراهيم هرول وراءهم من باب آخر للخيمة التى كانت لها مداخل واسعة مفتوحة من كل الجوانب. فقد كان يعتبر أن واجب إكرام الضيوف أهم من واجب تَلَقِّى الشكينة واستدار إلى الرب قائلاً: «يا رب لتتكرم على عبدك بأن لا تتركه وهو يتجهز لإكرام ضيفه». ثم كلم الغريب الذى يسير فى الوسط بين الاثنين الآخرين، وكان ذلك يدل على أنه أعلاهم مقامًا وكان ذلك هو الملاك ميكائيل وأمره بأن يأووا إلى خيمته. وتأثر إبراهيم بحسن سلوك ضيوفه الذين كان يعامل أحدهم الآخر بأدب. وتأكد أنه يقرى الآن رجالاً ذوى شأن. ولكن لأنهم كانوا يبدون فى هيئتهم مثل العرب[1]، والناس يعبدون تراب أقدامهم؛ فقد أمرهم بأن يغسلوا أقدامهم أولاً؛ لكيلا يدنسوا خيمته.

ولم يعتمد على رأيه هو فى استقراء شخصيات ضيوفه؛ فقد كان هناك شجرة مزروعة إلى جوار خيمته، وكانت تنشر فروعها فوق كل من يؤمن بالرب وتظلِّل عليهم. لكن إن وقف عُبَّاد الأوثان تحتها تنكمش فروعها لأعلى فلا تلقى ظلاً على الأرض. وكان إبراهيم كلما يرى هذه العلامة يهرع فى الحال مضطلعًا بمهمة تحويل عُبَّاد الآلهة الزائفة (إلى عبادة الرب). وكما كانت الشجرة تميز المتقين عن غيرهم، فقد كانت تميِّز أيضًا بين الطاهرين والنجسين. فقد كان ظلها لا ينتشر فوقهم إذا ما أحجموا عن القيام بشعيرة الاغتسال فى العين التى كانت تنبع من عند جذورها، والتى كانت مياهها تنبع فورًا من أجل مَنْ كانت نجاستهم ذات طابع هيِّن، يمكن تطهيره بها، بينما كان على الآخرين الانتظار لسبعة أيام قبل أن ينبع الماء من الأرض، وتبعًا لذلك أمر إبراهيم الرجال الثلاثة بأن يتكئوا إلى جذع الشجرة. وبهذه الطريقة يعلم جدارتهم أو هوانهم.

(١) هذه الكلمة تدل على أن إبراهيم كان بمكة حيث يوجد «العرب». (المترجم)

ولأنه كان من المتّقين الصادقين الذين يَعدُون بالقليل لكنهم يفعلون الكثير، لم يقل لهم إبراهيم سوى: «سأحضِر لكم لقيمات، وليطمئن بالكم؛ فقد مررتم على خيمتى فى وقت العشاء. وبعد أن تشكروا الرب يمكنكم أن تمضوا فى حال سبيلكم». وعندما قدم الوجبة للرجال كانت وليمة ملكية، تفوق ولائم سليمان فى كل مجده. وقد هرع إبراهيم بنفسه إلى القطيع ليحضر ما يذبحه لهم. وذبح ثلاثة عجول لكى يضع أمام كل واحد من ضيوفه «لسان بالمستردة». ولكى يعوِّد «إسماعيل» على الطاعات التى ترضى الرب؛ جعله يطهو ويقطع لحم العجول، بينما أمر سارة بإعداد الخبز. لكن لأنه يعلم أن النساء يملن إلى معاملة الضيوف ببخل، كان صريحًا فى طلبه منها إذ قال لها: «هيا أعدِّى ثلاثة أرغفة تكفى لوجبة، وليكن خبزًا جيدًا كافيًا».

وحدث أن الخبز لم يتم إحضاره إلى المائدة؛ لأنه تعفن، ولم يكن أبونا إبراهيم معتادا على أكل خبزه اليومى إلا طريًّا. وخدم إبراهيم ضيوفه بنفسه، ورأى أن الرجال الثلاثة قد أكلوا، لكن ذلك كان مجرد خداع بصرى. ففى الحقيقة لم يأكل الملائكة الثلاث شيئا، ولم يتمتع بالوليمة إلا إبراهيم وأصدقاؤه الثلاثة عانِر وأشكول وممْرا وابنه إسماعيل، بينما التهمت نار إلهية أنصبة (اللحم) التى وُضعت أمام الملائكة.

ورغم أن الملائكة بقوا ملائكةً حتى وهم متخفِّين فى هيئة البشر، فإن شخصية إبراهيم قد تسامت حتى أن الملائكة شعروا فى أنفسهم أنهم غير ذوى شأن فى حضوره.

وبعد تناول الطعام سأل الملائكةُ عن حال سارة، ومع أنهم كانوا يعرفون أنها معتزلة فى خيمتها؛ فإنهم رأوا أنه من اللياقة أن يسألوا عن حال سيدة البيت ويرسلوا لها كأس الخمر التى تُليت عليها التبريكات. وعندئذ أعلن ميكائيل كبير الملائكة عن ميلاد «إسحق». ورسم خطًّا على الحائط قائلاً: «عندما تعْبُر الشمس هذه النقطة ستحبل سارة فى طفل، وعندما تعبر النقطة الأخرى ستلد هذا الطفل».

وهذه البشارة، التى كانت موجهة إلى سارة وليست إلى إبراهيم الذى وُعد بها قبل ذلك بوقت طويل؛ أعلنتها الملائكة عند دخولهم إلى خيمتها، وكان «إسماعيل» يقف بينها وبينهم، إذ ليس من اللائق أن يختلوا بها وليس أحد معها. ومع ذلك فقد كان جَمَال سارة من السطوع لدرجة أن شعاعًا منه ضرب الملاك وجعله ينظر إلى أعلى. وبينما هو يلتفت لينظر إليها؛ سمعها تضحك بينها وبين نفسها قائلة: «هل يمكن لهذه الأحشاء أن تحمل طفلاً بعد كل هذا العمر، وأن يرضعه هذان الثديان الذاويان؟ ولو كنتُ أنا لازلت قادرة على الإنجاب، أما صار مولاى إبراهيم عجوزًا طاعنًا فى السن؟».

وقال الرب لإبراهيم: «هل شِخْتُ أنا فلم أعد أقدر على صنع المعجزات؟ ولماذا تضحك سارة وتقول: «أحقّا سألد طفلاً، وأنا العجوز؟» وكان الرب يوبخ إبراهيم ويوبخ سارة أيضًا، إذ كان إبراهيم هو الآخر قد أظهر ضعف إيمانه عندما بُشر بأنه سينجب طفلاً. لكن الرب لم يذكر إلا تعجب سارة من الأمر، تاركًا لإبراهيم استنتاج أنه هو أيضًا معنى بتوبيخه.

ولكى لا يثير القلاقل فى حياتهما العائلية، لم يُعِدْ الرب كلمات سارة بدقة على مسامع إبراهيم. فلربما كان إبراهيم أخطأ فى فهم ما قالته سارة عن تقدمه فى العمر، فإن السكينة بين الرجل وزوجه لهى شىء ثمين لدرجة أن القدوس تعالى، حافظ عليها على حساب الصدق.

وبعدما أكرم إبراهيم ضيفه رافقهم فى انصرافهم، إذ كما أن واجب إكرام الضيف مهم جدّا فإن واجب مرافقته لتوديعه لا يقل أهمية عنه، إن لم يزد عليه. وكان طريق انصرافهم يمر بسدوم حيث كان ملاكان سيتوجهان إليها، أحدهما ليدمرها والآخر لينجّى لوطًا، بينما عاد ثالثهم إلى السماء بعدما أنجز مهمته مع إبراهيم.

ص ـ مدن الخطيئة

وكان سكان سَدُوم وعَمُورَة والمدن الثلاث الأخرى فى السهل خطاة وكافرين بالرب، وكان فى بلدهم وادٍ ممتد مترام يجتمعون فيه كل عام مع زوجاتهم وأطفالهم وكل مَا لَهم فى احتفال يستمر عدة أيام ويحتوى على أفحش صنوف العَربدة. وإن مر بأرضهم تاجر غريب يحاصرونه، كبيرهم وصغيرهم على السواء، ويسلبونه أيّا ما يكون معه وكان كلٌّ منهم يخطف منه شيئا حتى يجردوه فى النهاية من كلِّ مَا معه. وإن احتج الغريب على أحدهم يقول له: «إنه لم يأخذ منه إلا شيئًا يسيرًا لا يستحق عناء الكلام عنه». وفى النهاية كانوا يطردونه من المدينة.

وذات مرة وصل إلى سَدُوم رجل فى طريقه إلى «عِيلام» وكان ذلك قرب المساء. ولم يعرض عليه أحد المبيت فى منزله. وفى النهاية دعاه بحرارة رجل منهم كأنه ثعلب ماكر. اسمه «حيدور» ليتبعه إلى منزله. وكان السدومى قد جذبه (إلى الرجل) بساط (سيجادة) فاخر نادر، كان الغريب قد ربطه على ظهر حماره بحبل. وكان ينوى استلابه لنفسه. واقتنع الرجل بتوسلات حيدور إليه فى ودٍّ، ليبقى معه ليومين، مع أنه لم يكن يتوقع سوى أن يقضى معه ليلة واحدة. وعندما حان ميعاد استئنافه لرحلته، طلب من مضيفه البساط والحبل فقال له حيدور: لقد حلمتَ حُلْمًا وها هو تفسير حلمك: فالحبل يدل على أنك ستعيش طويلاً، أما البساط الملوَّن بألوان كثيرة فيشير إلى أنك ستمتلك حديقة ستزرع فيها كل أنواع الأشجار المثمرة.

وأصر الغريب على أن بساطه إنما كان حقيقةً، وليس محض خيال، فى حلم وأصر على إعادته إليه. ولم ينكر حيدور أنه قد أخذ من ضيفه أى شىء فحسب، وإنما أصر على أن يدفع له الغريب مقابل تفسير حلمه. وقال له: إن السعر المعتاد لخدمة كهذه هو أربع قطع من الفضة، ولكن لأنك ضيفى فسأكرمك وأرضى بثلاث قطع من الفضة فقط.

وبعد جدل كثير عرضا قضيتهما على أحد قضاة سدوم، وكان اسمه شريك الذى قال للمدعِى: «حيدور مشهور فى هذه المدينة بتفسيره الصادق للأحلام، وما حدّثك به هو الحقيقة». ولكن الغريب أعلن أنه غير مقتنع بهذا الحكم. وظل يلح على إنصافه. فطرد شريك المدَّعِى والمدعَى عليه كليهما من غرفة القضاء. وعندما رأى أهل المدينة ذلك اجتمعوا وطاردوا الغريب حتى أخرجوه من المدينة. فولَّى هاربًا منها وهو ينوح على فقده بساطه.

وكما كان لسدوم قاض يناسبها، كذلك كان للمدن الأخرى، فكان «شَرْكَار» قاضى عمورة وزَبْنَاكَ فى أُدمة ومَانُون فى صبوعيم. وقد عدَّل أليعازر، عبدُ إبراهيم، فى أسماء هؤلاء القضاة تعديلاً طفيفًا يناسب طبيعة ما فعلوا: فقد سَمَّى الأول «شَكَّارا» أى الكذاب، والثانى «شاكرورا» أى كبير الغشاشين، والثالث «كَذْبَان» أى المزوِّر والرابع «مَازْلِدِين» أى المجحف. وباقتراح من هؤلاء القضاة، نصب أهل هذه المدن أَسِرَّةً فى ساحات المدن، وكلمًا مرَّ بها غريب يمسك ثلاثة رجال برأسه وثلاثة بقدميه ويحملونه ويضعونه قسرًا على السرير. ولو كان قصيرًا أقصر من السرير؛ فكانوا هم الستة معًا يجذبون أطرافه حتى يملأ كل السرير. ولو كان طويلاً أطول من السرير يكبسونه بقوتهم المشتركة حتى يصبح على حافة الموت، وكان كلما صرخ من الألم يجيبونه قائلين: «هكذا سنفعل بكل من يأتى إلى أرضنا».

وبعد مدة أخذ المسافرون يتحاشون المرور بهذه المدن، ولكن إن حدث وأوقع الحظ العاثر أحد المساكين فى المرور بهذه المدن كانوا يعطونه الذهب والفضة، لكنهم لم يكونوا يعطونه أى خبز. فيهلك جوعًا. وبعدما يموت يأتى سكان المدينة إليه ويستردون ذهبهم وفضتهم التى كانوا قد علَّموها بعلامات، ثم يتشاجرون على توزيع ملابسه، فقد كانوا يدفنونه عريانًا.

وذات مرة ذهب أليعازر، عَبْدُ إبراهيم، إلى سدوم ليسأل على أحوال لوط، بناءً على أمر سارة. وتصادف أن دخل المدينة وأهلها يسلبون غريبًا من ثيابه. ووقف أليعازر إلى صف الغريب المسكين، فانقلب السدوميون ضده؛

ورماه أحدهم بحجر فنزف دمًا كثيرًا وما إن رأى المهاجم الدم ينزف من جبهة أليعازر إلا وطلب منه مالاً مقابل قيامه بخدمة الحجامة له. ورفض أليعازر أن يدفع مقابلاً لجرح أُصيب به، فذهبوا به إلى القاضى «شكَّارا». وصدر الحكم ضده، إذ كان قانون تلك البلدة يعطى الحق للمعتدى فى طلب النقود. وفى الحال التقط أليعازر حجرًا وقذف به القاضى فى جبهته. وعندما رأى دم القاضى يتدفق فى غزارة قال للقاضى: «سدد للرجل ما علىَّ وهاتِ الباقى».

وقد كان سبب قسوتهم ثروتهم العظيمة، فقد كانت تربتهم من الذهب، ومن جشعهم ونهمهم لامتلاك المزيد من الذهب كانوا يريدون أن لا يتمتع الغرباء بأى قدر من ثرواتهم. ولهذا السبب أغرقوا الطرقات بالماء لكى تختفى ملامح الطرق التى تقود إلى مدينتهم فلا يهتدى إليها أحد. وكانوا لا يقلون فى قساوة قلوبهم تجاه البهائم عن قساوتها تجاه البشر. وكانوا ينقمون على الطيور ما تأكله، ولذا فقد قضوا عليها. وكانوا لا يتورعون عن ارتكاب المعاصى، بعضهم فى مقابل بعض، ولا يتورع أحدهم عن قتل غيره للاستيلاء على المزيد من الذهب. وإذا لاحظوا أن أحدهم يمتلك ثروات عظيمة؛ يتآمر اثنان منهم ضده. وكانا يستدرجانه إلى مكان مهجور ويشغله أحدهما بالحديث بينما يتسلل الآخر ويسقط الجدار الذى يقف إلى جواره فوقه، ثم يقتسم المتآمران ثرواته.

وانتشرت بينهم طريقة أخرى لإثراء أنفسهم. وهى أنهم كانوا لصوصًا بارعين. فعندما كانوا يعقدون عزمهم على سرقة أحد، كانوا يطلبون من ضحيتهم أن يحفظ عنده مبلغًا من المال لهم بعد أن يكونوا قد دهنوه بزيت ذى رائحة نفاذة، وفى الليلة التالية يسطون على منزله ويسرقون كنوزه المخبأة بعد أن تقودهم رائحة نقودهم إلى المكان الذى خبأ فيه كنوزه.

وكانوا قد أعدوا قوانينهم بحيث لا تؤذى إلا الفقراء. وكلما ازداد المرء غِنًى، كلما زادت أهميته ومكانته عند القضاة. فصاحب الثورين لا يقوم

بخدمة الرعى إلا ليوم واحد فقط، لكن إن لم يكن له إلا ثور واحد فقط، فعليه أن يقوم بالخدمة ليومين. وإذا كان منهم يتيم فقير، يرعى القطعان، فمن يُتّمه فُرض عليه أن يرعاها لمدة أطول ممن أُنعِم عليه بقطعان أكبر، فإنه يقوم بقتل كل الماشية التى أوكل بها، انتقامًا من قاهريه، ثم يُصِرُّ عند توزيع جلودها كلٌّ إلى صاحبه، أن صاحب الرأسين من الماشية لن يأخذ إلا جلدًا واحدًا، وإن صاحب الرأس الواحدة يأخذ جلدين، وذلك فى محاكاة منه للطريقة المتبعة فى تخصيص العمل. وإذا ما أراد شخص استخدام سفينة ليعبر النهر فإن عليه أن يدفع أربع زوزات، أما إذا قرر عبوره خائضًا فى الماء فإنه يدفع ثمانية «زوزات».

وذهبت وحشية السدوميين لما هو أبعد من ذلك. فقد كان للوطٍ بنتًا، وهى «بلطيط»، التى سميت كذلك لأنها ولدت له بعد فترة قصيرة من نجاته من الأسر بمساعدة «إبراهيم». وكانت بلطيط تعيش فى سدوم، حيث كانت قد تزوجت. وذات مرة قدم على المدينة شحاذ وأصدر قضاة البلدة أمرًا بألا يعطيه أحد ما يأكله لعله يموت من الجوع. لكن قلب بلطيط أخذته الشفقة بالمسكين التعيس. فكانت كل يوم، عندما تذهب إلى البئر لتستقى، تعطيه كسرة من الخبز كانت تخفيها فى جرَّتها. وارتاب سكان المدينتين الخاطئتين، سدوم وعمورة، فى أمر ذلك الشحاذ الذى لم يهلك بعد من الجوع، وارتابوا فى أن هناك مَنْ يعطيه الطعام خفيةً. واختبأ ثلاثة منهم قريبًا من الشحاذ وأمسكوا ببلطيط متلبسة بإعطائه طعامًا. وكان عليها أن تدفع حياتها ثمنًا لإنسانيتها. فقد أحرقوها بالنار على محرقة الموتى.

ولم يكن أهل «أدمة» أحسن حالاً من أهل سدوم. فذات مرة قدم غريب إلى أدمة ليقضى فيها ليلته ثم يواصل رحلته فى الصباح التالى. والتقت ابنة أحد الأعيان بالغريب فأعطته ماءً ليشربه وطعامًا ليأكله عندما طلب منها ذلك. وعندما سمع أهل أُدمة عن مخالفتها لقانون البلدة؛ أمسكوا بالفتاة وأوقفوها أمام القاضى الذى حكم عليها بالموت. فدهنها أهل البلد بالعسل،

بعد أن جردوها من كل ثيابها، من أم رأسها إلى أخمص قدميها وأوقفوها فى العراء لينجذب النحل إليها. وقد هاجمها النحل وظل يلدغها حتى ماتت، ولم يصخ أهل البلدة قساة القلوب سمعًا لصرخاتها التى تمزق نياط القلوب. عندها عزم «الرب» على إهلاك هؤلاء الخطاة.

ق - إبراهيم يتوسل من أجل الخطأة

وعندما رأى الرب أنه ليس هناك مؤمن واحد بين سكان المدن الخاطئة، وأنه لن يكون مؤمنون من نسلهم، قد يُرحمون من أجلهم؛ قرر أن يهلكهم ويقطع دابرهم. ولكنه قبل أن ينفذ حكمه عليهم؛ أخبر إبراهيم بما سيفعله بسدوم وعمورة ومدن السهل الأخرى، إذ كانت هذه المدن تشكل جزءًا من «كنعان» ولذا قال الرب: «لن أهلكهم بدون موافقة إبراهيم».

وكأبٍ حنون، توسل إبراهيم إلى الرب طالبًا الرحمة للخطاة. وتكلم إلى الرب وقالَ: «لقد أقسمتَ يا رب أنك لن تهلك أحدًا من البشر بعد مياه الطوفان فهل من اللائق بك أن تتحايل على قَسَمك وتهلك المدن بالنار؟ ألا ينصف قاضى الأرض كلها نفسه؟ حقّا أنك لو شئت أن تُبْقِى على العالم؛ فيجب أن تحيد بقوة عن طريق العدل. إذ لو أصررت على الصواب وحده، فلن يكون هناك عالم». فقال الرب لإبراهيم: «إنك تستمتع بالدفاع عن خَلْقى، ولن تدينهم بذنب، ولذا فلم أتكلم مع أحد غيرك مدة الأجيال العشرة التى مضت منذ نوح».

وتجرَّأ إبراهيم فاستخدم كلمات أقوى ليطمئن على سلامة الكافرين. فقال له: «حاشا لك أن تهلك المتقين مع الفجار، لكيلا يقول سكان الأرض: لقد اعتاد الرب على إهلاك البشر بطريقة قاسية لأنه دمر جيل «أنوش» ثم جيل الطوفان، ثم بلبل الألسنة. وها هو يلتزم بعادته ولا يقطعها».

وأجابه الرب: «سأجعل كل الأجيال التى دمرتها تمر من أمامك، فلعلك ترى أنهم لم يلقوا العقاب الشديد الذى استحقوه. لكن إن ظننتَ أننى لم

أتصرف بعدل، فقُلْ لى أنت إذًا ما يجب علىّ أن أفعله، وسأحاول أن أفعل ما يوافق كلماتك».

ورأى إبراهيم أن الرب لم ينقص مقدار ذرةٍ من العدل الواجب لكل مخلوق فى هذا العالم أو العالم الآخر. ومع ذلك فقد واصل كلامه قائلاً: هل ستهلك المدن لو كان فيها عشرة من المؤمنين؟» أجابه الرب: «لا لو وجدت فيها خمسين مؤمنًا فلن أهلك تلك المدن».

إبراهيم: «لقد توليتُ مسؤولية الكلام إلى الرب، أنا الذى لولا فضله علىّ، لكنت قد صرت الآن رمادًا على يد أَمْرَافَلَ، أو ترابًا على يد النِّمرود. ربما يقل عدد المؤمنين الخمسين بخمسة بالنسبة لصُوغَرٍ، أصغر المدن الخمسة. أتهلك المدينة كلها لأن العدد ينقص خمسة؟»

الرب: «لن أهلكها إن وجدت فيها خمسة وأربعين مؤمنًا».

إبراهيم: «ربما يكون هناك عشرة مؤمنين فى كل مدينة من الأربع، إذًا فلتغفر لصوغر بفضلك، لأن خطاياها ليست كثيرة العدد كخطايا المدن الأخرى».

واستجاب الرب لطلبه، لكن إبراهيم واصل استعطافه، وسأل الرب إن كان لن يرضى لو كان هناك ثلاثون فقط من المؤمنين، عشرة فى أكبر ثلاث مدن، ويصفح عن الصغريين، ولو لم يكن بهما مؤمنون يغفر للمدينتين من أجلهم. ووافق الرب على هذا الطلب أيضًا، ووعد إبراهيم بألا يهلك المدن لو وجد فيها عشرين مؤمنًا فقط؛ بل إن الرب وافقه على ألا يهلك المدن الخمسة لو وجد فيها عشرة من المؤمنين. ولم يطلب إبراهيم أكثر من ذلك، إذ كان يعلم أن ثمانية من المؤمنين ـ نوح وزوجته وأبناؤه الثلاثة وزوجاتهم ـ لم يكونوا كافين لنجاة جيل الطوفان، كما تمنى أن يصل عددهم عشرة، لوط وامرأته وبناته الأربع وأزواجهم الأربعة، وما لم يكن يعلمه هو أنه حتى المؤمنين فى هذه المدن الآثمة، وإن كانوا أفضل من الباقين، كانوا أبعد ما يكونون عن الهدى.

وظل إبراهيم يدعو من أجل نجاة الخطاة حتى بعد أن نُزِعَتْ «الشكينة» منه. ولكن دعواته وابتهالاته ذهبت سدى فقد ظل الرب يحذر الكفار طوال اثنين وخمسين عامًا، وجعل الجبال تهتز وترتعد. لكنهم لم يسمعوا صوت وعيده، وأصروا على خطيئاتهم، فحلّت عليهم العقوبة التى استحقوها عن جدارة.

فالرب يغفر كل خطيئة إلا حياة الشهوات. ولأن كل هؤلاء الخطاة كانوا يعيشون حياة الفاحشة؛ فقد أُحرقوا بالنار.

ر- تدمير مدن الخطيئة

وترك الملائكة إبراهيم فى وقت الظهيرة ووصلوا إلى سدوم قرب المغرب. ومعروف أن الملائكة تُتم مهمتها فى سرعة البرق، ولكن هؤلاء الملائكة كانت ملائكة رحمة فلذلك ترددوا فى تنفيذ مهمتهم التدميرية، وظلوا يتمنون لو أن الشر تنحى عن سدوم. ومع هبوط الليل، كان مصير سدوم قد تقرر بصفة نهائية، ووصل إليها الملائكة.

ولأنه تربى فى بيت إبراهيم، فقد تعلَّم لوط منه كرم الضيافة، وعندما رأى الملائكة أمامه فى هيئة البشر، ظنهم عابرى سبيل فدعاهم للوفود عليه والمبيت فى منزله. ولأن إكرام الغرباء مُحَرَّم فى سدوم وجزاؤه الموت لم يجرؤ على دعوتهم إلا فى ظلام الليل، ومع ذلك فقد اتخذ كل احتياط ممكن، آمرًا الملائكة أن يتسللوا فى الطرق الخفية التى سيرشدهم إليها.

والملائكة، الذين كانوا قد قبلوا دعوة إبراهيم بدون تأخير، رفضوا فى البداية تلبية طلب «لوط» إذ أنه من حُسْن التربية أن ترفض دعوة الرجل العادى، وأن تقبل دعوة الرجل الشريف على الفور[1]. ومع ذلك فقد أصَرَّ لوط وحملهم على الدخول إلى منزله بالقوة. وعندما دخل بيته وجد نفسه مضطرًا للتغلب على معارضة زوجته له إذ قالت: «لو سمع سكَّان سدوم بذلك لقتلوك».

---

(١) أى تربيةٍ هذه؟ (المترجم)

وقسَّم لوط مسكنه إلى جزءين: جزء لنفسه ولضيوفه، وجزء لزوجته حتى إذا حدث شيء تنجو زوجته. ومع ذلك قد كانت هى ممن خانوه. فقد ذهبت إلى أحد جيرانه واستعارت بعض الملح، وعندما سألها الجار إن كانت لم تشتر ملحًا يكفى أثناء النهار. أجابته قائلة: «كان عندنا ملح يكفى، إلى أن أتانا بعض الضيوف، ولذا فقد احتجنا إلى المزيد من أجلهم».

وبهذه الطريقة ذاع فى المدينة خبر الغرباء.

وفى البدء كان الملائكة يميلون إلى الاستجابة لتوسط لوط من أجل الخطأة، ولكن عندما احتشد أهل المدينة كلهم، صغارًا وكبارًا، حول منزل لوط يريدون ارتكاب جريمة وحشية؛ تجاهل الملائكة دعواته وقالوا له: «لم يعد بإمكانك الآن أن تتوسط من أجلهم كما كنت تفعل». ولم تكن تلك أول مرة يريد فيها سكان سدوم ارتكاب جريمة كهذه. فقد كانوا قد سنوا قانونًا قبل ذلك لفترة، بأن يتم معاملة كل الغرباء بهذه الطريقة الفظيعة. وحاول لوط - الذى كان قد تم تعيينه كبيرًا للقضاة فى ذات اليوم الذى جاء فيه الملائكة - أن يثبط الناس عما ينوون فعله قائلاً لهم: «يا إخوتى، لقد هلك جيل الطوفان بسبب خطايا كالتى تريدون ارتكابها الآن، وسوف تنالون نفس عقابهم». ولكنهم أجابوه قائلين: «تَنَحَّ عن طريقنا! فلو جاءنا إبراهيم بنفسه فلن نأبه به. أيمكنك أن تتجاهل قانونًا أقره أسلافك»؟.

ولم تكن نخوة لوط كما ينبغى أن تكون. فمن المفترض أن الرجل يخاطر بحياته من أجل شرف زوجته وبناته، ولكن لوطا كان مستعدًّا للتضحية بشرف بناته، وهو ما عوقب عليه بقسوة فيما بعد.

وأخبر الملائكة لوطًا بحقيقتهم، وبحقيقة المهمة التى قدموا إلى سدوم من أجلها، وأمروه بالفرار من المدينة مع زوجته وبناته الأربع، وكانت اثنتان منهما متزوجتين واثنتان مخطوبتين. وأخبر لوط زَوْجَى ابنتيه بالأمر فسخروا منه قائلين: «يا غبى إن الطبول والمزامير تُضرب وتُنفخ فى «سدوم» وأنت تقول لنا: إن المدينة ستدمر». ومثل هذه الوقاحة هى التى عجَّلت

بتنفيذ مصير «سدوم» المظلم. ثم أمسك الملاك ميكائيل بيد لوط، وزوجته وبناته، بينما لمس الملاك جبريل بإصبعه الصغير الصخرة التى بنيت عليها المدن الخاطئة وقلبها رأسًا على عقب. وفى نفس الوقت تحول المطر الذى كان ينهمر على المدينتين إلى كِبريت.

وعندما أخرج الملائكة لوطًا وأهله من المدينة؛ أمرهم بالجرى إنقاذًا لحياتهم، وبأن لا يلتفت منهم أحد خلفه، لكيلا يروا «الشكينة» التى نزلت لتهلك المدن. ولم تستطع زوجة لوط أن تتحكم فى نفسها، فمن حبها الطبيعى لبناتها؛ نظرت خلفها لترى إن كُنَّ يتبعنها. فرأت الشكينة. فتحولت إلى عمود من الملح. ولازال هذا العمود موجودًا حتى يومنا هذا. والبهائم تلعقه طوال النهار، وفى المساء يبدو كأنه قد اختفى، وعندما يبزغ الصباح يقف فى مكانه كبيرًا. كما كان من قبل.

واستحث الملاك المنقذ لوطًا نفسه على اللجوء إلى إبراهيم ولكنه رفض قائلاً: «لَمَّا كُنْتُ أعيش بعيدًا عن إبراهيم كان الرب يقارن أفعالى بأفعال قومى، وبينهم كنت أبدو رجلاً صالحًا. ولئِنْ عُدْتُ إلى إبراهيم، فسيرى الرب أن أفعاله تفوق كثيرًا أفعالى». فلذلك وافق الملاك على رجائه بأن تبقى «صُوغر» بدون هلاك. وكانت هذه المدينة قد تأسست بعد المدن الأربع الأخرى بعام. وكان عمرها إحدى وخمسون سنة فقط، ولذا فإن حجم خطاياها لم يكن فى حجم خطايا المدن المجاورة.

وحدث إهلاك مدن السهل فى فجر اليوم السادس عشر من «نيسان»، لأنه كان بين سكان هذه المدن من يعبدون الشمس والقمر.

قال الرب: لو أهلكتهم بالنهار فسيقول عبدة القمر:، لو كانت القمر هنا لكانت أنجتنا من الإهلاك ولو أهلكتهم بالليل فسيقول عبدة الشمس: لو كان الشمس هنا لكان أنجانا من الإهلاك ولهذا فسوف أُنزل بهم العقاب الأليم فى اليوم السادس عشر من نيسان وفى ساعة ليس فيها

شمس ولا قمر فى السماء.

ولم يخسر أهل المدن الخاطئون حياتهم فى هذه الدنيا فقط، ولكنهم خسروا كذلك نصيبهم فى العالم الآتى. أما بالنسبة للمدن نفسها فإنها مع ذلك ستجدد فى زمن «المَسِيَّا».

وحدث إهلاك سدوم فى الوقت الذى كان إبراهيم يؤدى فيه صلاته الصباحية، ومن أجله جُعِل هذا الوقت هو الساعة المناسبة لصلاة الصبح فى كل العصور. وعندما رفع عينيه ناحية سدوم وشاهد الدخان المتصاعد منها؛ دعا من أجل نجاة لوط، واستجاب الرب لدعائه، وهى المرة الرابعة التى يصبح لوط فيها مدينًا بشدة لإبراهيم. فقد أخذه إبراهيم معه إلى «فلسطين»، وأغناه بالقطعان من الماشية والبقر وبالخيام، كما أنقذه من الأَسْر، وبدعائه نجا من هلاك سدوم. ولكن نسل لوط ـ وهم العمونيون (بَنِى عمُّون) والمؤابيون (بنى مؤاب) ـ بدلاً من رد الجميل للإسرائيليين، نسل إبراهيم، ارتكبوا أربعة أفعال عدوانية تجاههم. فقد حاولوا إهلاك بنى إسرائيل بواسطة لعنات «بَلْعَام» وشنوا الحرب ضده أيام «يفْتاح» وأيضًا فى أيام «يَهُوشافاط» أظهروا كرههم لإسرائيل عند دمار «المعبد». ولهذا عَيَّن الرب أربعة أنبياء، إشْعياء وإرمياء وحِزقيال وصَفَنْيا؛ ليعلنوا عن عقاب نسل لوط، وسُجِّلت خطاياهم فى النصوص المقدسة أربع مرات.

ومع أن لوطا مدين بنجاته لدعوات إبراهيم؛ فقد كانت نجاته كذلك مكافأة له على عدم خيانة إبراهيم فى «مصر» عندما تظاهر بأنه أخو سارة. ولكن مكافأة أكبر لا تزال فى انتظاره. فالمَسِيَّا سيكون واحدًا من نسله إذ أن الموآبية «راعوث» هى الجدة الأكبر لداود، وكذلك العَمُّونية «نَعْمة» هى أم «رَحبَعَام»، والمَسِيًّا من فرع هاتين المِلكتيْن العظيمَتيْن.

ش ـ وسط الفلسطينيين

ودفع هلاك سدوم إبراهيم إلى الارتحال إلى «جَرَار». فلأنه اعتاد إكرام المسافرين وأبناء السبيل، فلم يعد يشعر بالراحة فى منطقة انقطعت فيها كل السبل بسبب المدن المهلكة. وكان هناك سبب آخر لأن يترك إبراهيم مكانه؛ فقد تحدث الناس كثيرًا عن الحادثة القبيحة لبنات لوط.

وعندما وصل إلى أرض الفلسطينيين، اتفق مع سارة مرة أخرى، كما فعل من قَبْلُ فى مصر. فعندما وصل الملك خَبَرُ جمالها طلب مثولها أمامه ثم سألها عن رفيقها من يكون؟ فأخبرته أن إبراهيم أخوها. ومن افتتانه بجماله؛ اتخذ «أبيمالك» الملك سارة زوجةً، وأغدق على إبراهيم بالعطايا بما يناسب أخا مَلِكَة. وقرب المساء قبل أن يأوى إلى فراشه وكان لايزال جالسًا على عرشه؛ تغشى «أبيمالك» النعاس. وظل نائمًا حتى الصباح، ورأى ملاكًا للرب فى حلم، وقد رفع عليه سيفه ليضربه ضربةً قاتلة، فسأله والرعب يكاد يقضى عليه عن السبب. فأجابه الملاك قائلاً: «ستموت بسبب المرأة التى أخذتها فى منزلك اليوم؛ لأنها زوجة إبراهيم ذلك الرجل الذى استدعيته للمثول أمامك أعد إليه زوجته! ولئن لم تُعِدْها إليه فإنك ستموت أنت وكل ما لَكَ».

وفى تلك الليلة سُمِعَتْ صيحة عظيمة فى كل أرض الفلسطينيين، إذ رأوا شبحًا لرجل يسير فى الطرقات وفى يده سيف يقتل به كل من يعترض طريقه. كما حدث فى الوقت ذاته أن كل فتحات الجسم فى البشر والحيوانات على السواء انسدَّت، واستولى على الأرض اضطراب عظيم لا يُوصف.

وفى الصباح عندما استيقظ الملك مرعوبًا مذعورًا، نادى جميع خدمه وهمس لهم فى آذانهم بحلمه. فقال له أحدهم: «يا مولاى الملك! أعِدْ هذه المرأة إلى الرجل، فهو زوجها. ولأنه فى أرض غريبة فقد تظاهر بأنها أخته. وهكذا فعل مع مَلِكِ مصر، فأرسل الرب بلاءً عظيمًا على الملك عندما استولى على هذه المرأة لنفسه. وراع يا مولاى الملك، ما حدث الليلة فى الأرض؛ حدث ألم عظيم ونواحٌ واضطراب فى كل مكان، ونحن نعلم أن كُلَّ

ذلك لم يحدث إلا بسبب هذه المرأة».

وكان من بعض خدمه من تكلم قائلاً: «لا تخف من الأحلام، فما الأحلام إلا مجرد أضغاث».

ثم ظهر الرب لأبيمالك مرة أخرى وأمره أن يُطلِّق سارة، وإلا فسيموت. فأجابه أبيمالك: «أهذه هى طريقتك؟ إذًا فأنا أتخيل أن جيل الطوفان وجيل بلبلة الألسنة إنما كانوا أبرياء هم أيضًا. ذلك أن الرجل نفسه قال لى: إنها أخته وهى نفسها قالت: إنه أخوها، وقال كل أهل بيتهما نفس الكلام». فقال له الرب: «أجل أعلم أنك لم ترتكب خطيئة بعد، لأننى أنا منعتك عن الخطيئة. فأنت لم تكن تعلم أن سارة هى زوجة لرجل من الرجال. لكن هل يليق بك أنه ما إن يطأ غريب أرضك إلا وتسأله عن المرأة التى بصحبته أهى زوجته أم أخته؟ وقد عرف إبراهيم، وهو نبى، مسبقًا بالخطر الذى سيُحْدِقُ به لو كشف الحقيقة كلها لك. لكن ولأنه نبى، فقد عَرِفَ أيضًا أنك لن تلمس زوجته وسوف يدعو لك وسوف تعيش».

وكان الدخان لايزال يتصاعد من أطلال سدوم؛ وعندما رآه أبيمالك وقومه خشوا أن يحل بهم نفس المصير. فاستدعى الملكُ إبراهيم ووبخه على أن سبب كل هذا البلاء له من خلال تصريحاته الكاذبة عن سارة. وبرر إبراهيم تصرفه بخوفه من أن يقتله سكان المدينة من أجل زوجته، خصوصًا والرب ليس فى المكان. ثم استطرد إبراهيم وحكى له قصة حياته كلها، وقال: «عندما كنت أسكن فى بيت أبى، سعت أمم العالم فى أذيتى، لكن الرب أثبت أنه هو مخلِّصى. وعندما أرادت أمم العالم إضلالى بعبادة الأوثان، كشف الرب عن نفسه لى وقال: «اخرج من بلدك ومن قومك ومن بيت أبيك» وعندما أوشكت أمم العالم أن تضلّك أرسل إليهم الرب نبيَّيْن - هما من أهلى - سام وعَابِر، وذلك لكى يزجراهما عن طريق السحر.

فأغدق أبيمالك على إبراهيم بالهدايا العظيمة، وهذا تصرف على غير ما فعل ملك مصر فى ظروف مشابهة. فقد أعطى الملك المصرى الهدايا

لسارة، ولكن أبيمالك كان يخاف الرب، وكان يريد من إبراهيم أن يدعو له. فأعطى لسارة عباءة ثمنها مرتفع جدًا غطّت جسدها كله، وأخفت مفاتنها الساحرة عن الأنظار. وفى نفس الوقت كانت تلك العباءة تمثل توبيخًا لإبراهيم على أنه لم يلبس سارة بالبهاء الذى تستحقه زوجته.

ورغم أن أبيمالك قد آذاه إيذاءً عظيمًا، فإن إبراهيم لم يمنحه فقط العفو الذى كان يتوق إليه، ولكنه دعا الرب من أجله أيضًا. وبهذا كان قدوة للجميع. «إذ يجب على الإنسان أن يكون ليِّنًا كالبوص، لا صُلْبًا كالأَرز». ويجب أن يكون سريع الرضا وبطئ الغضب، وإذا أخطأ أحد فى حقه ثم اعتذر له؛ فلابد أن يسرع من فوره بمسامحته من كل قلبه. حتى لو كان الخطأ الحاصل فى حقه كبيرًا وخطيرًا، ولا ينبغى له أن يفكر فى الانتقام، أو يَحْمِلَ فى قلبه أى ضغينة تجاه أخيه.

ودعا إبراهيم لأبيمالك قائلاً: «يا رب العالم، لقد خلقتَ الإنسان ليزيد نسله وينشر نوعه؛ فلتبارك أبيمالك وأهله ولتكثرهم». واستجاب الرب لدعاء إبراهيم من أجل «أبيمالك» وقومه. وكانت هذه أول مرة فى التاريخ البشرى يستجيب الرب دعاء إنسان لصالح إنسان آخر. وشفى أبيمالك وكل رعاياه من جميع أمراضهم، وكانت دعوة إبراهيم فَعَّالة لدرجة أن زوجة أبيمالك - وكانت عقيمًا إلى هذا الحين - قد ولدت له طفلاً.

ت - ميلاد إسحق

وعندما سمع دعاء إبراهيم من أجل أبيمالك، وشَفى ملك الفلسطينيين، صرخ الملائكة بصوت عظيم وقالوا: «يا رب العالم، كل هذه السنوات وسارة عقيم، كما كانت زوجة أبيمالك. وقد دعاك إبراهيم فوهبت لزوجة أبيمالك طفلاً. فمن العدل والإنصاف إذًا أن تتذكر سارة وتهبها طفلاً».

وكان لهذه الكلمات من الملائكة نتيجة حسنة، فقد قالوها فى يوم رأس السنة (العبرية) حيث تتقرر مصائر الناس فى السموات لعام كامل. فما

كادت سبعة أشهر تمر بعدها ـ فى أول أيام «عيد المرور»* ـ إلا وولد إسحق.

وكان ميلاد إسحق حدثًا سعيدًا. ليس فى بيت إبراهيم وحده، فقد ابتهج العالم كله؛ لأن الرب تذكر كل النساء العقيمات مع سارة. وولدن كلهن أطفالاً. وأبصر كل العُمْى، وشفى كل العُرْج ونطق كل البُكْم واسترد كل مجنون عقله. كما حدثت معجزة أخرى: فيوم ولادة إسحق سطع الشمس فى بهاء لم يُرَ من قَبْلُ منذ سقوط الإنسان، وعلى نفس النحو الذى سيشرق به فى العالم الآتى.

ولكى يُسْكِتَ هؤلاء الذين سألوا السؤال الذى له مغزى وهو أيستطيع رجل فى المئة من عمره أن ينجب ولدًا؟ أمر الرب الملاك المسؤول عن الأجنة بإعطائهم هيئة وشكلاً، أن يصوغ إسحق على نفس هيئة إبراهيم تمامًا، لكى يصيح كل من يشاهدون إسحق قائلين: «إبراهيم أنجب إسحق».

وكان هناك سبب مهم وراء الإنعام على إبراهيم وسارة بالذرية فقط بعد تقدمهما فى العمر على هذا النحو. وهو أنه كان من الضرورى أن يحمل إبراهيم على جسده علامة العهد، وذلك قبل أن ينجب الولد الذى قُدِّرَ له أن يكون أبًا لإسرائيل. ولأن إسحق كان أول ولد يولد لإبراهيم بعد أن علَّم نفسه بتلك العلامة (= الختان) فقد خَتَنَه فى يومه الثامن فى احتفال وطرب كبيرين. وكان «سام» و «عابر» و «أبيمالك» ملك الفلسطينيين، مع كل ملأه، و«فيكول» كبير حاشيته فيهم، كانوا جميعهم حاضرين وكذلك «تارَح» وابنه «ناحُور»، أى كل عظماء المنطقة. وفى هذه المناسبة استطاع إبراهيم أن يضع حدًا لأقاويل الناس الذين قالوا: «انظروا إلى هذين الشيخين الهرمين، لقد التقطا لقيطًا من على الطريق وادَّعَوْا أنه هو ابنهم فلكى يجعلا الناس تصدق كلامهما؛ أقاما وليمة احتفالاً به! ولم يدعُ إبراهيم الرجال فقط إلى

❖ هو عيد الفصح وقد اخترت له هذا الإسم لأربطه بالحادثة التى سترد فى الجزء الثانى ويتخذ منها اسمه، ألا وهى مرور ملاك العذاب فوق بيوت بنى إسرائيل وهو فى طريقه لقتل أبكار المصريين. (المترجم).

الاحتفال، ولكنه دعا أيضًا زوجات الأعيان مع أطفالهن، وسمح الرب بحدوث معجزة، فقد كان فى ثديى سارة لبن يكفى لإرضاع جميع الرضَّع الذين كانوا موجودين، وارتوى كل من رضعوا من ثدييها حتى امتلأوا.

والرُّضَّع الذين لم تحمل أمهاتهم سوى الأفكار الخيرة فى عقولهن، وهن يتركنهم يرضعون من اللبن الذى تدفق من ثديى سارة التقية؛ أصبحوا من المؤمنين لما كبروا؛ أما هؤلاء الذين لم تسمح لهن أمهاتهم بالرضاعة من ثديى سارة إلا لاختبارها، فقد كبروا وأصبحوا حكامًا أقوياء، ولم يفقدوا سلطانهم إلا من حين الوحى على «جبل سيناء» لأنهم لم يقبلوا التوراة. وجميع الدخلاء والوثنيين التقاة؛ هم ذرية هؤلاء الأطفال.

وكان من بين ضيوف إبراهيم ملوك فلسطين الواحد والثلاثون وأمراؤها الواحد والثلاثون. الذين قهرهم «يشوع» عند فَتْحِه «الأرض المقدسة» حتى «عُوج» ملك «باشان» كان حاضرًا، وكان عليه أن يتحمل سخرية الضيوف الآخرين منه لأنه كان يقول على إبراهيم إنه «بَغْلٌ عقيم» ولن ينجب ذريةً أبدًا. ومن ناحيته أشار «عوج» إلى الرضيع فى ازدراء قائلاً: لو وضعت إصبعى عليه لسحقته. فقال الرب له: «أتسخر من الهبة التى وهبتها لإبراهيم؟! فى حياتك لترَينَّ أمما وملوكا من نسله ولتسقطنَّ فى النهاية فى أيديهم».

ث ـ طرد إسماعيل

وعندما كَبُر إسحق حدثت شجارات بينه وبين إسماعيل على حقوق «الابن البِكْر». وأصر إسماعيل على أن ينال نصيبًا مضاعفًا من الميراث بعد موت إبراهيم، وأن إسحق لا ينال إلا نصيبًا واحدًا فقط. وكان إسماعيل ـ الذى تربى منذ شبابه على استخدام قوسه وسهامه ـ معتادًا على التصويب فى اتجاه إسحق قائلاً فى الوقت ذاته: إنه إنما يمزح معه. ومع ذلك فقد أصرت سارة على أن يعهد إبراهيم بكل تركته إلى إسحق، لكيلا تنشب الصراعات بعد موته وقالت: «لأن إسماعيل لا يستحق أن يرث مع ابنى، ولا

مع رجل مثل إسحق. وبالقطع ليس مع ابنى إسحق». وفوق ذلك أصرت سارة على أن يُطَلِّق إبراهيم «هاجر» أم إسماعيل، ويطرد المرأة وابنها، فلا يصبح هناك شىء مشترك بينهما وبين ابنها، **لا**[1] **فى هذا العالم ولا فى العالم الآتى.**

ومن كل المحن التى تعرض لها إبراهيم كانت هذه المحنة هى الأقسى على نفسه، إذ كان يحزنه للغاية أن يفارق ابنه. وظهر له الرب فى الليلة

(١) قد قلنا من قبل فى التعليقات: إن العالم عالمان. عالم الملك والنبوة فى نسل إسحق. ويُطلق عليه هذا العالم. وعالم الملك والنبوة فى نسل إسماعيل ويطلق عليه العالم الآتى. ويقول المؤلف: إن سارة طلبت أن لا تكون نبوة ولا ملك فى إسماعيل. لا فى هذا الدهر ولا فى الدهر الآتى. فهل وافق إبراهيم على طلبها؟ لا يقدر على أن يوافق. وذلك لأن المواعيد تمت فى إسماعيل من قبل ولادة إسحق. وفى التوراة عن هذا المعنى: تك ٢١ : ١ـ ٢١

وافتقد الرب سارة كما قال. وفعل الرب لسارة كما تكلم فحبلت سارة وولدت لإبراهيم ابنًا فى شيخوخته. فى الوقت الذى تكلم الله عنه ودعا إبراهيم اسم ابنه المولود له الذى ولدته له سارة إسحق وختن إبراهيم إسحق ابنه وهو ابن ثمانية أيام كما أمره الله وكان إبراهيم ابن مئة سنة حين ولد له إسحق ابنه وقالت سارة قد صنع إلى الله ضحكًا. كل من يسمع يضحك لى وقالت من قال لإبراهيم سارة ترضع بنين. حتى ولدت ابنًا فى شيخوخته فكبر الولد وفُطم. وصنع إبراهيم وليمة عظيمة يوم فطام إسحق.

ورأت سارة ابن هاجر المصرية الذى ولدته لإبراهيم يمزح فقالت لإبراهيم اطرد هذه الجارية وابنها. لأن ابن هذه الجارية لا يرث مع ابنى إسحق. فقبح الكلام جدًّا فى عينى إبراهيم لسبب ابنه فقال الله لإبراهيم لا يقبح فى عينيك من أجل الغلام ومن أجل جاريتك. فى كل ما تقول لك سارة اسمع لقولها. لأنه بإسحق يدعى لك نسل وابن الجارية أيضًا سأجعله أمة لأنه نسلك.

فبكر إبراهيم صباحًا وأخذ خبزًا وقربة ماء وأعطاهما لهاجر واضعًا إياهما على كتفها والولد وصرفها. فمضت وتاهت فى برية بئر سبع ولما فرغ الماء من القربة طرحت الولد تحت إحدى الأشجار ومضت وجلست مقابله بعيدًا نحو رمية قوس لأنها قالت لا أنظر موت الولد. فجلست مقابله ورفعت صوتها وبكت فسمع الله صوت الغلام ونادى ملاك الله هاجر من السماء وقال لها مالك يا هاجر. لا تخافى لأن الله قد سمع لصوت الغلام حيث هو قومى احملى الغلام وشدى يدك به لأنى سأجعله أمة عظيمة وفتح الله عينيها فأبصرت بئر ماء فذهبت وملأت القربة ماء وسقت الغلام وكان الله مع الغلام فكبر وسكن فى البرية وكان ينمو رامى قوس وسكن فى برية فاران وأخذت له أمه زوجة من أرض مصر». «تكوين: ٢١».

التالية وقال له: «ألا تعرف يا إبراهيم أن سارة قد قُدِّرَتْ زوجة لك وهى لاتزال فى رحم أمها؟ إنها رفيقتك وزوجة شبابك، وأنا لم أسمِّ «هاجر» زوجة لك، ولا سميتُ «سارة» أمةً لك. إن ما قالته لك سارة ما هو إلا الحقيقة، ولا يكن ذلك محزنًا لك بسبب الغلام، وبسبب أَمَتِك».

وفى الصباح التالى نهض إبراهيم مبكرًا وأعطى هاجر كتاب طلاقها، وطردها هى وابنها، بعد أن لف وسطها بحبل لكى يعرف كل من يراها أنها أَمَةٌ.

ولأن سارة نظرت إلى ابنها نظرة شريرة؛ فقد مَرِضَ وانتابته الحُمَّى؛ لذا فقد اضطرت هاجر إلى حمله، رغم أنه كان كبيرًا. وفى مرضه كان يشرب كثيرًا من قربة الماء التى أعطاها إبراهيم لها عند مغادرتها المنزل، فَنَفَدَ الماء بسرعة. ولكى لا ترى ابنها وهو يموت؛ طرحته هاجر تحت أشجار الصفصاف التى نمت فى نفس البقعة التى تكلم معها الملائكة فيها ذات مرة وبشروها بأنها ستلد ابنًا. وحدّثت الرب بمرارة قائلة: «بالأمس قلت لى: سوف أُكَثِّر نسلك تكثيرًا، فلا تحصى من كثرتها، واليوم يموت ابنى من العطش».

وصرخ إسماعيل نفسه إلى الرب؛ وجلبت دعواته وسجايا إبراهيم لهما العون وقت كَرْبهما، رغم أن الملائكة وقفت ضد إسماعيل عند الرب وقالوا: «هل ستفجِّر له ينبوعًا من الماء، ذلك الذى نسله سيترك بنى إسرائيل تهلك عطشًا؟» ولكن الرب أجابهم قائلاً: «ما إسماعيل فى هذا الوقت؟ أهو صالح أم شرير؟» وعندما أجابته الملائكة قائلين: إنه صالح؛ واصل الرب قائلاً: «إنما أعامل الإنسان وفقًا لأعماله فى كل لحظة».

وفى هذه اللحظة كان إسماعيل تقيًا حقًا إذ كان يدعو الرب بهذه الكلمات: «يا رب العالم[1]، لو كانت مشيئتك أن أهلك، فلتدعنى أموت إذًا

(١) لاحظ قوله: إن الله فجر لإسماعيل ماء. هى العين التى خلقت فى اليوم السادس لبدء الخليقة. ومن عادة الكاتب أنه يرمز إلى الشىء العظيم بأنه كان فى علم الله فى الأزل، أو كان موجودا فى بدء الخليقة. وهذا يناسب بئر زمزم لأنها بجوار المذبح الذى قال فيه إنه مخلوق قبل خلق السموات والأرض بألف عام مع المسيا. الذى هو محمد ـ بلسانهم ـ ولخوف الكاتب من اليهود وضع كلمة مويم.

بطريقة أخرى، وليس بالعطش إذ أن آلام العطش تفوق كل ألم».

وبدلاً من أن تدعو هاجر الرب، دعت الأصنام التى كانت تعبدها فى شبابها. واستجاب الرب لدعوات إسماعيل وفَجَّر له عين «مويم»، تلك العين التى خُلِقَتْ فى اليوم السادس لبدء الخليقة.

وحتى بعد هذه المعجزة لم يَزدْ إيمان هَاجر عما كان من قَبْلُ. وملأت القرية بالماء؛ لأنها خشيت أن تَفْرُغ مرة أخرى، ولا تجد ماءً فى الجوار. وبعدها ارتحلت قاصدة «مصر» مع ابنها لأنه «مهما رميت العصا فى الهواء فإنها ستهبط دائمًا على الأرض». لقد جاءت هاجر من مصر، وإلى مصر عادت، لتختار زوجة لابنها.

ط ـ زوجتا إسماعيل

وولدت زوجة إسماعيل له أربعة أولاد وبنتًا، وفيما بعد ذهب إسماعيل إلى البادية، مع «أمه وزوجته وأطفاله». وأقاموا لأنفسهم خيامًا فى البادية التى أقاموا فيها، وظلوا يخيمون ثم يرتحلون شهرًا بعد شهر، وعامًا بعد عام. وأعطى الرب إسماعيل قطعانًا من الماشية والغنم وخيامًا، لأجل إبراهيم أبيه، وازدادت ماشية الرجل. وبعد فترة قال إبراهيم لزوجته سارة. سأذهب وأرى ابنى إسماعيل؛ لقد اشتقت إلى رؤيته، لأننى لم أرَه من زمن طويل. وامتطى إبراهيم ظهر أحد جماله وذهب إلى البادية، ليبحث عن ابنه إسماعيل، إذ كان قد علم أنه يقيم فى خيمة فى البادية مع كل أهله. وذهب إبراهيم إلى البادية ووصل إلى خيمة إسماعيل قرب الظهر وسأل عنه. فوجد زوجة إسماعيل تجلس فى الخيمة مع أطفالها، ولم يكن زوجها ولا أمه معهم. وسألها إبراهيم عن إسماعيل قائلاً: «أين إسماعيل؟» أجابته: «ذهب إلى الصحراء ليصطاد». وكان إبراهيم لايزال على ظهر بعيره، فلم يكن لينزل عن ظهره إلى الأرض، لأنه كان قد أقسم لزوجته سارة بأنه لن يترجل عن ظهر بعيره. وقال إبراهيم لزوجة إسماعيل: «أعطنى ماء يا بنية

لأشرب؛ لأننى متعب وعطشان من السفر». فأجابته زوجة إسماعيل قائلة: «ما عندنا ماءٌ ولا خبز». وظلت جالسة فى الخيمة ولم تأبه بإبراهيم، بل ولم تسأله عمن يكون. وأثناء ذلك كانت تضرب أطفالها فى الخيمة وتلعنهم، وتلعن أيضًا زوجها إسماعيل وتتحدث عنه بالسوء؛ وسمع إبراهيم كلام زوجة إسماعيل إلى أطفالها، وقَبُحَ ذلك فى عينيه. ونادى إبراهيم على المرأة لتخرج له من الخيمة. فخرجت ووقفت وجهًا لوجه أمام إبراهيم، وهو لايزال راكبًا على ظهر الجمل. فقال إبراهيم لزوجة إسماعيل: «عندما يعود زوجك إسماعيل بلغيه هذه الكلمات: «لقد جاء رجل عجوز جدًا من أرض الفلسطينيين يسأل عنك، وكان شكله كيت وكيت ومظهره كذا وكذا. ولم أسأله من يكون. ولَمَّا رأى أنك غير موجود كَلَّمنى وقال لى: عندما يعود زوجك أخبريه: هكذا قال لى الرجل، عندما تعود إلى منزلك اخلع قائم هذه الخيمة التى وضعته فيها وضع غيره مكانه».

وعندما انتهى إبراهم من كلامه مع المرأة نخز بعيره واستدار عائدًا إلى بلده. وعندما عاد إسماعيل إلى الخيمة؛ سمع كلام زوجته وعلم أن ذلك كان أباه، وأن زوجته لم تكرمه. وفهم إسماعيل الكلمات التى حَدَّثَ بها أبوه زوجته، فاستمع لصوت أبيه وطَلَّق زوجته فانصرفت.

ثم بعد ذلك ذهب إسماعيل إلى أرض «كنعان» واتخذ زوجةً أخرى وأحضرها إلى خيمته، إلى مكان إقامته.

وبعد انقضاء ثلاثة أعوام قال إبراهيم: سأذهب مرة أخرى وأرى ابنى إسماعيل؛ لأننى لم أَرَه من زمن طويل فامتطى بعيره وذهب إلى البادية ووصل إلى خيمة إسماعيل قرب الظهر. وسأل عن إسماعيل فخرجت له زوجته من الخيمة وقالت: ليس ههنا يا سيدى، فقد ذهب يصطاد ويطعم إبله. وقالت المرأة لإبراهيم: «تفضل يا سيدى إلى الخيمة، وكلْ شيئًا. فلابد أنك متعب من السفر قال لها إبراهيم: «لن أتوقف فأنا فى عجلة لاستكمال رحلتى، لكن أعطنى قليلاً من الماء لأشربه؛ لأننى ظمآن» فهرولت المرأة إلى

الخيمة وأحضرت لإبراهيم ماءً وخبزًا ووضعتهما أمامه، ورجته أن يأكل ويشرب فأكل إبراهيم وشرب وابتهج قلبه. **وبارك**[1] **ابنه إسماعيل**. وأنهى طعامه وحمد الرب، وقال لزوجة إسماعيل: عندما يعود إسماعيل قولى له هذه الكلمات: لقد جاءنا رجل عجوز جدّا من أرض الفلسطينيين وسأل عنك ولم تكن أنت هنا وأحضرتُ له خبزًا وماءً فأكل وشرب وابتهج قلبه، وقال لى: عندما يعود زوجك إسماعيل قولى له: إن قائم الخيمة الموجود طيبٌ جدّا؛ فلا تنزعه من الخيمة.

وأنهى إبراهيم كلامه مع المرأة وانطلق ببعيره قاصدًا بيته، إلى أرض الفلسطينيين، وعندما عاد إسماعيل إلى خيمته خرجت زوجته لاستقباله بفرح وقلب مسرور، وأبلغته بكلام العجوز. فعلم إسماعيل أنه كان أباه، وأن زوجته قد أحسنت استقباله، فحمد الرب.

ثم بعدها أخذ إسماعيل زوجته وأطفاله ومواشيه وكل ما له، وارتحل عن المكان، إلى أبيه فى أرض الفلسطينيين. وحكى له إبراهيم كل ما حدث بينه وبين زوجة إسماعيل الأولى، وما فعلته معه. وأقام إسماعيل وأطفاله مع إبراهيم أيامًا طويلة فى هذه الأرض، وأقام إبراهيم فى أرض الفلسطينيين زمنًا طويلاً.

a ـ العهد مع أبيمالك

وبعد إقامته لستة وعشرين عامًا فى أرض الفلسطينيين، رحل إبراهيم منها واستقر به المقام فى أجوار «حَبّرون» حيث زاره «أبيمالك» مع عشرين من كبار رجاله وطلبوا منه أن يعقد تحالفًا مع الفلسطينيين.

وأيام كان إبراهيم بلا ولدٍ، لم يكن الوثنيون يؤمنون بتقواه؛ ولكن عندما

---

(١) لاحظ قول التلمود: «فأكل إبراهيم وشرب وابتهج قلبه، وبارك ابنه إسماعيل، وأنهى طعامه، وحمد الرب».

لاحظ: بركة إبراهيم لابنه إسماعيل. ومعناها: أن تكون فى نسله نبوة وملك على الأمم والشعوب. وفى التوراة أن الله بارك إسماعيل. واستجاب دعاء إبراهيم فيه «وأما إسماعيل فقد سمعت فيه ها أنا أباركه وأثمره وأكثره كثيرًا جدّا» (تك ١٧ : ٢٠). (المحقق)

ولد إسحق قالوا له: إن الرب معك. ولكنهم عادوا فارتابوا فى تقواه عندما طرد إسماعيل وقالوا: لو كان رجلاً صالحًا، لما كان قد طرد ابنه البكر من بيته لكنهم عندما رأوا أفعال إسماعيل السيئة قالوا: إن الرب معك فى كل ما تفعل.

وقد استيقنوا من أن إبراهيم خليل الرب عندما رأوا أيضًا أنه برغم هلاك سدوم وانقطاع السبل فى كل تلك المنطقة، فإن خزائن إبراهيم كانت مملوءة بالأموال ولهذه الأسباب سعى الفلسطينيون إلى التحالف معه لكى يبقوا أقوياء لثلاثة أجيال قادمة؛ لأن حب الأب يمتد لثلاثة أجيال.

وقبل أن يتم إبراهيم العهد مع «أبيمالك» ـ ملك الفلسطينيين ـ عاتبه بسبب أحد الآبار لأن «المعاتبة تؤدى إلى الحب» و «ليس هناك سلام دون صلح». وكان قد ترك رعاة إبراهيم ورعاة أبيمالك أمر حسم الخلاف بينهم إلى التجربة قائلين: يكون البئر لمن ترتفع مياه البئر حتى تسقى أغنامه». ولكن رعاة أبيمالك تجاهلوا ذلك الاتفاق واغتصبوا البئر لمصلحتهم. وكشاهد وعلامة دائمة على أن البئر يخصه هو: نَحَّى إبراهيم جانبًا سبعة من الغنم، هدية لأبيمالك تشهد بأن البئر لإبراهيم، وهى توافق قوانين نوح السبعة المفروضة على كل البشر على السواء. ولكن الرب قال له: لقد أعطيتَه سبعًا من الغنم. ومن أجل ذلك سيقتل الفلسطينيون فى زمن ما سبعة رجال صالحين: «شَمشُون» و «حُفْنِى» و «فِنْحَاس» و «شاؤول» وأطفاله الثلاثة، وسيخربون سبعة أماكن مقدسة، ولسوف يحتفظون بتابوت العهد فى مدينتهم كغنيمة حرب لمدة سبعة شهور والجيل السابع من ذريتك هو الذى سيكون بمقدوره الاحتفال بامتلاك الأرض الموعودة لهم منهم.

وبعد إتمام التحالف مع أبيمالك الذى قد أقر بحق إبراهيم فى البئر، أطلق إبراهيم على المكان اسم «بئر سبع» لأنهما أقسما هناك كلاهما على ميثاق الصداقة.

وأقام إبراهيم سنين عددًا فى بئر سبع، وحاول جهده أن ينشر قانون

الرب منطلقًا من هناك. وغرس إبراهيم غوطة كبيرة هناك وصنع لها أربعة بوابات تواجه أربعة أركان الأرض الشرق والغرب والشمال والجنوب، كما زرع هناك كَرْمَةً، حتى إذا جاء مسافر إلى هناك ودخل من البوابة التى قُدَّامه وجلس فى الغوطة أكل وشرب حتى الشبع ثم يواصل طريقه؛ لأن بيت إبراهيم كان دائمًا مفتوحًا أمام أبناء السبيل، وكانوا يأتون إليه دومًا ليأكلوا ويشربوا. وإن أتى جائع إلى إبراهيم فإنه يعطيه كلَّ ما يحتاجه، فيأكل ويشرب حتى يشبع، وإن أتاه عريان فإن إبراهيم يكسوه بما يختار، ويعطيه الفضة والذهب ويعرِّفه بالرب الذى خلقه وأنشأه على الأرض. وبعد ما يأكل المسافرون، كانوا يشكرون إبراهيم على حسن ضيافته لهم فيجيبهم دائمًا: «أتشكروننى أنا! اشكروا من استضافكم، هو وحده الذى يرزق جميع المخلوقات بالطعام والشراب». فيسأله الناس: «وأين هو؟» فيجيبهم إبراهيم: «هو حاكم السموات والأرض. هو يُمْرِض ويُشْفِى، وهو يشكِّل الجنين فى رحم أمه ويخرجه إلى العالم، وهو الذى يجعل النباتات والأشجار تنمو، وهو يميت ويحيى، وهو يُنْزِل إلى شيئوول ويُصْعِد». وعندما يسمع الناس هذه الكلمات، كانوا يسألون: «وكيف نشكر الرب ونظهر له امتنانًا بجميله؟» فيرشدهم إبراهيم هذه الكلمات: «قولوا تبارك الرب الحميد، حمدًا له هو من يعطى الخبز والطعام إلى كل ذى نسمة».

وبهذه الطريقة كان إبراهيم يعلم من تمتعوا بحسن ضيافته كيف يشكرون الرب ويحمدونه. وهكذا لم يصبح بيت إبراهيم مأوى للجياع والعطاش فحسب، بل ومكانًا للهداية تُعَلَّمُ فيه معرفة الرب وشريعته.

b ـ الشيطان يتهم إبراهيم

وعلى الرغم من كرم الضيافة المبالغ فيه الذى كان يتم فى بيت إبراهيم، فقد حدث ذات مرة أن رجلاً فقيرًا ـ أو هكذا يزعم ـ قد طُرد من المنزل خالى الوفاض. وكان ذلك هو السبب المباشر فى حدوث آخر الإغراءات التى تعرض لها إبراهيم، ألا وهى التضحية بابنه الذى يحبه إسحق. وكان ذلك

فى اليوم الذى كان إبراهيم يحتفل فيه بمولد ابنه إسحق بوليمة كبيرة دُعِىَ إليها كل كبار ذلك العصر مع زوجاتهم. وذهب الشيطان ـ الذى يظهر دائمًا فى الولائم التى لا يشارك فيها الفقراء، بينما يبتعد عن الولائم التى يدعى إليها الضيوف الفقراء ـ إلى وليمة إبراهيم متخفيًا فى هيئة فقير، ووقف على الباب يطلب صدقة. وكان قد لاحظ أن إبراهيم لم يَدْعُ فقيرًا وعلم أن منزله هو المكان المناسب له.

وكان إبراهيم منشغلاً بإكرام ضيوفه الكبار، بينما كانت سارة تحاول إقناع زوجاتهم الشريفات، بأن إسحق هو ابنها حقّا، وليس دَعِيّاً. ولم يهتم أحد بالالتفات إلى الشحَّاذ الواقف على الباب فاتهم إبراهيمَ أمام الرب.

وكان يوم مخصص لحضور أبناء الرب ليتفقوا أمام «الرب»، فأتى الشيطان معهم[1]. فقال «الرب» للشيطان: «من أين أتيت؟» أجاب الشيطانُ الرب قائلاً: «من الجولان فى الأرض والتمشى فيها. من الذهاب فى طول

(١) هذه القصة فى بدء سفر أيوب.

كان رجل فى أرض عوص اسمه أيوب. وكان هذا الرجل كاملاً ومستقيمًا يتقى الله ويحيد عن الشر وولد له سبعة بنين وثلاث بنات وكانت مواشيه سبعة آلاف من الغنم وثلثة آلاف جمل وخمس مئة فدان بقر وخمس مئة أتان وخدمة كثيرون جدّا. فكان هذا الرجل أعظم كل بنى المشرق وكان بنوه يذهبون ويعملون وليمة فى بيت كل واحد منهم فى يومه ويرسلون ويستدعون أخواتهم الثلاث ليأكلن ويشربن معهم. وكان لما دارت أيام الوليمة أن أيوب أرسل فقدسهم وبكّر فى الغد وأصعد محرقات على عددهم كلهم. لأن أيوب قال ربما أخطأ بنىَّ وجدفوا على الله فى قلوبهم. هكذا كان أيوب يفعل كل الأيام.

وكان ذات يوم أنه جاء بنو الله ليمثلوا أمام الرب وجاء الشيطان أيضًا فى وسطهم. فقال الرب للشيطان من أين جئت. فأجاب الشيطان الرب وقال من الجولان فى الأرض ومن التمشى فيها فقال الرب للشيطان هل جعلت قلبك على عبدى أيوب. لأنه ليس مثله فى الأرض. رجل كامل ومستقيم يتقى الله ويحيد عن الشر. فأجاب الشيطان الرب وقال: هل مجانًا يتقى أيوب الله أليس أنك سيجت حوله وحول بيته وحول كل ما له من كل ناحية. باركت أعمال يديه فانتشرت مواشيه فى الأرض ولكن أبسط يدك الآن ومس كل ما له فإنه فى وجهك يجدف عليك. فقال الرب للشيطان هو ذا كل ما له فى يدك. وإنما إليه لا تمد =

الأرض وعرضها، ومن صعود أعاليها ونزول أسافلها». فقال الرب للشيطان: «وماذا لديك لتقوله بخصوص جميع أبناء الأرض؟» أجابه الشيطان: رأيت كل أبناء الأرض يعبدونك ويتذكرونك عندما يكونون فى حاجة إليك، وعندما تعطيهم ما سألوك فإنهم يهجرونك ولا يعودون يتذكرونك. هل رأيت إبراهيم بن تارح، الذى لم يكن له أولاد فى البداية فإنه عبدك وأقام لك المذابح حيثما حلّ وقدم لك القرابين عليها، وأخذ يدعو باسمك باستمرار جميع أبناء الأرض؟ والآن بعد ما وُلِدَ له ابنه إسحق هجرك. فلقد صنع وليمة عظيمة لكل سُكَّان الأرض ونسى «الرب». إذ وسط كل ما فعل لم يقدم لك قربانًا، ولم يحرق لك قربانًا ولا بعض قربان، ولا حملاً ولا عنزةً من كل ما ذبح فى يوم فطام ابنه. وحتى من وقت ولادة ابنه إلى الآن، وهو فى السابعة

= يدك. ثم خرج الشيطان من أمام وجه الرب.

وكان ذات يوم وأبناؤه وبناته يأكلون ويشربون خمرًا فى بيت أخيهم الأكبر أن رسولاً جاء إلى أيوب وقال. البقر كانت تحرث والأتن ترعى بجانبها فسقط عليها السبئيون وأخذوها وضربوا الغلمان بحد السيف ونجوت أنا وحدى لأخبرك وبينما هو يتكلم إذا جاء آخر وقال. نار الله سقطت من السماء فأحرقت الغنم والغلمان وأكلتهم ونجوت أنا وحدى لأخبرك وبينما هو يتكلم إذ جاء آخر وقال: الكلدانيون عينوا ثلاث فرق فهجموا على الجمال وأخذوها وضربوا الغلمان بحد السيف ونجوت أنا وحدى لأخبرك. وبينما هو يتكلم إذ جاء آخر وقال. بنوك وبناتك كانوا يأكلون ويشربون خمرًا فى بيت أخيهم الأكبر وإذا ريح شديدة جاءت من عبر القفر وصدمت زوايا البيت الأربع فسقط على الغلمان فماتوا ونجوت أنا وحدى لأخبرك. فقام أيوب ومزق جبته وجز شعر رأسه وخر على الأرض وسجد وقال: عريانًا خرجت من بطن أمى وعريانًا أعود إلى هناك. الرب أعطى والرب أخذ فليكن اسم الرب مباركًا. فى كل هذا لم يخطىء أيوب ولم ينسب لله جهالة.

وكان ذات يوم أنه جاء بنو الله ليمثلوا أمام الرب وجاء الشيطان أيضًا فى وسطهم ليمثل أمام الرب. فقال الرب للشيطان من أين جئت. فأجاب الشيطان الرب وقال من الجولان فى الأرض ومن التمشى فيها فقال الرب للشيطان هل جعلت قلبك على عبدى أيوب. لأنه ليس مثله فى الأرض. رجل كامل ومستقيم يتقى الله ويحيد عن الشر. وإلى الآن هو متمسك بكماله وقد هيجتنى عليه لأبتلعه بلا سبب. فأجاب الشيطان الرب وقال: جلد بجلد وكل ما للإنسان يعطيه لأجل نفسه. ولكن أبسط الآن يدك ومس عظمه ولحمه فإنه فى وجهك يجدف عليك. فقال الرب للشيطان ها هو فى يدك ولكن احفظ نفسه». إلى آخره (المحقق).

والثلاثين، لم يَبْنِ لك مذبحًا ولا قرَّب لك قربانًا، لأنه رأى أنك قد أعطيته ما سألك، ولهذا هجرك».

فقال الرب «للشيطان: هل قصدت عبدى إبراهيم؟ فليس هناك أحد مثله فى الأرض، رجلاً كاملاً ومستقيمًا أمامى من أجل قربان محروق؛ ويخاف الرب ويتجنب الشر. وحياتى لو قلت له: أحضر ابنك إسحق أمامى فلن يتأخر عنّى، لا أن يتأخر عن إحراق قربان لى من قطعان ماشيته وغنمه!».

فواصل الشيطان كلامه إلى الرب قائلاً: «تكلم الآن إلى إبراهيم كما قلت وسترى أنه يضرب بكلامك عُرض الحائط اليوم». لذلك أراد الرب أن يمتحن إيمان إسحق هو الآخر. إذ حدث مرة أن تباهى إسماعيل أمام إسحق قائلاً: «لقد كنتُ فى الثالثة عشر عندما كلم الرب أبانا ليختتنى، ولم أخالف كلماته التى أمر بها أبى». فأجابه إسحق قائلاً: «وماذا فى ذلك لتتباهى به أمامى؟ أتتباهى باقتطاع قطعة صغيرة من اللحم من جسدك أمرك بها الرب؟ وحياة الرب، رب أبى إبراهيم، لئن قال الرب لأبى: خذ الآن ابنك إسحق وقدمه لى قربانًا، فلن أمتنع، وإنما سأستسلم لذلك فى سرور».

e ـ الرحلة إلى أرض المريّا

وفكر الرب فى امتحان إبراهيم وإسحق فى هذه المسألة. فقال لإبراهيم: خذ ابنك[1] الآن.

إبراهيم: «لدىَّ ابنان، ولا أعرف أيهما تأمرنى بأن آخذ».

---

(١) من المؤكد أن «مُريَّا» هى أرض الصفا والمروة التى هى بجوار المذبح ـ الذى هو كعبة القصّاد للحج إليه من زمان نوح عليه السلام وبئر زمزم الذى سماه التلمود «مُويم» وقال: إنه مخلوق فى اليوم السادس لبدء الخليقة قبل خلق آدم؛ ليدل على أنه مقدس كتقديس الكعبة. ويدل على أن «مُريا» هى أرض «المروة»: أن إبراهيم عليه السلام أخذ ابنه الوحيد ليذبحه فى مكان معروف للعالم بأنه مكان «السجود» ومكان السجود من قبل إبراهيم هو الكعبة فى مكة المكرمة. وكان ذلك من قبل ولادة إسحق الذى كان ساكنًا مع أمه سارة، عند بئر لحى رئى. وهو بئر زمزم الذى كان يسكن فيه إسماعيل مع أمه هاجر. =

= وفى التوراة وفى التلمود: أن الذبيح هو الابن الوحيد لإبراهيم ولهاجر ولسارة. ومعلوم أن الابن الوحيد هو إسماعيل لأنه هو وحيد الثلاثة. فلما قدمه ليذبحه فى مكان السجود المعروف للعالم أنه فى مكة، وفداه الله بذبح عظيم. فقال له الله: «بذاتى أقسمت، يقول الرب إنى من أجل أنك فعلت هذا الأمر، ولم تمسك ابنك وحيدك؛ أباركك مباركة، وأكثر نسلك تكثيرًا كنجوم السماء وكالرمل الذى على شاطئ البحر ويرث نسلك باب أعدائه. ويتبارك فى نسلك جميع أمم الأرض. من أجل أنك سمعت لقولى» «تك ٢٢».

والمراد بالنسل المبارك فيه: نسل إسماعيل؛ لأنه هو الوحيد للثلاثة، وليس لإبراهيم فى ذاك الوقت ولد غيره. وقد تحقق الوعد من محمد ﷺ.

وأما إسحق فإنه قد ولد بعد أخيه بثلاثة عشر عاما. وجعل الله له بركة مؤقتة فيها يمهد الطريق لمحمد ﷺ. وبدأت من موسى عليه السلام.

وكاتب التلمود أثبت أن هاجر كانت جارية لسارة بعدما كانت ابنة ملك من الملوك المصريين، وأنها آمنت كإيمان سارة برب إبراهيم ولذلك تزوجها بأمر من سارة لغرض وهو أنها إذا أنجبت ولدًا يكون الولد ابنا لسارة، لا ابنا لهاجر. فما هاجر إلا وعاء للإنجاب فقط.

ففى الأصحاح السادس عشر من سفر التكوين: «وأما ساراى امرأة إبراهيم فلم تلد له. وكانت لها جارية مصرية اسمها هاجر. فقالت ساراى لأبرام: هو ذا الرب قد أمسكنى عن الولادة. أدخل على جاريتى. لعلى أُرزق منها بنين... إلخ» «تك ١٦: ١-».

لاحظ: «لعلّى أُرزق منها بنين».

وعلى ما قدمنا يكون إسماعيل وحيدًا لسارة كما هو وحيد لهاجر. ويكون هو الوحيد لإبراهيم.

وكاتب التلمود أجرى مناقشة فى هذا الموضوع. وكذب فيها. فقال: «وفكر الرب فى امتحان إبراهيم وإسحق فى هذه المسألة، فقال لإبراهيم: خذ ابنك الآن. فقال إبراهيم: لدى ابنان» وهذا كذب، فإن إسحق لم يكن قد ولد بعد حتى يقول لدى ابنان. وعلى فرض هو محال وهو أن إسحق كان مولودًا. فإن إبراهيم يعرف أن الوحيد هو إسماعيل وأنه ابن سارة بحسب الشريعة. فلماذا يطلب تعيينه؟

وقال كاتب التلمود: إن إبراهيم قال لله أحدهما وحيد أمه، والآخر وحيد أمه الأخرى. أى أنه قال للقراء وللسامعين أن أم الاثنين واحدة.

وقال كاتب التلمود: إن الله عين إسحق وحيداً. وهذا هو الكذب بعينه لأن إسحق إن ذبح ولم يفد؛ فإن المواعيد لا تتم فيه.

وإذا كانت سارة تسكن مع ابنها عند بئر لحى رئى فى أرض الكعبة وموضع الذبح عند الكعبة. فإن إبراهيم لم يأخذ ابنه من حضن أمه، ويذهب به إلى أرض المريا؛ لأنه هو ساكن مع أولاده وزوجاته فى أرض المريا. (المحقق)

الرب: «ابنك الوحيد».

إبراهيم: «أحدهما وحيد أمه، والآخر وحيد أمه الأخرى».

الرب: «الذى تحبه».

إبراهيم: «أحب هذا وأحب ذاك».

الرب: «إذًا إسحق».

إبراهيم: «وإلى أين أذهب؟».

الرب: «إلى الأرض التى سأريك، وقدم لى إسحق هناك قربانًا محرقة».

إبراهيم: «وهل أصلح أنا لأداء هذه التضحية، هل أنا كاهن؟ ألا يجدر أن يؤديها «سام» الكاهن الأكبر؟».

الرب: «عندما تصل إلى ذلك المكان سوف أصطفيك، وأجعلك لى كاهنًا». فقال إبراهيم فى نفسه: «كيف سأنزع ابنى إسحق من أمه سارة؟» ودخل إلى الخيمة وجلس أمام زوجته سارة وكلمها بهذه الكلمات: «لقد كَبُر ابنى إسحق ولمَّا يدرس بَعْدُ طرائق خدمة الرب. والآن سآخذه غدًا وأذهب به إلى «سام» وابنه «عابر» ليتعلم منهما طرائق الرب، إنهما يعلمانه معرفة الرب، وكيف يدعو للرب فيستجيب له، ويعرف طريقة خدمة السيد ربه». فقالت له سارة: «لقد تكلمت بالخير فاذهب يا سيدى وافعل به ما قلت لكن لا تُبعده بعيدًا عنى، ولا تجعله يبقى هناك طويلاً، إذْ أن روحى مربوطة بروحه». فقال إبراهيم لسارة: «يا بنية، لندعُ الرب مولانا لكى يفعل بنا الخير». وأخذت سارة ابنها إسحق وبات فى حضنها طوال تلك الليلة، وقبَّلته وعانقته وأخذت ترقيه حتى الصباح وقالت لإبراهيم: «أتوسل إليك يا سيدى، اعْتَنِ بابنى وضع عينيك عليه، فلا ولد ولا بنت لى سواه. ولا تغفل عنه. وإن جاعَ أعطه خبزًا وإن عطش أعطه ماءً ليشرب؛ لا تتركه يمشى على قدميه، ولا تدعه يجلس فى الشمس، ولا تتركه يمضى وحده على

الطريق، ولا تحجب عنه شيئًا يرغب فيه، بل افعل له كل ما يطلب منك».

وبعد ما قضت ليلتها كلها فى البكاء على إسحق؛ نهضت فى الصباح وانتقت ثوبًا جميلاً جدّا من الثياب التى أعطاها لها «أبيمالك»، وألبست إسحق الثوب، ولفّت رأسه بعَمَامَة وثبّتت فى قمة العَمَامة حجرًا نفيسًا، وأعطتهما زادًا للطريق. وخرجت سارة معهما وودعتهما إلى الطريق وقالا لها: «عودى إلى الخيمة». وعندما سمعت سارة كلمات ابنها إسحق بكت بكاءً مرّاً، وبكى معها إبراهيم، وبكى ابنهما معهما، بكاء مرّاً، وكذلك بكى خدامهم الذين كانوا ذاهبين معهما بكاءً مريرًا. وأمسكت سارة بإسحق واحتضنته فى عنف وظلت تبكى معه وقالت: «من يدرى فلعلى لا أراك بعد اليوم؟».

ورحل إبراهيم مع ابنه إسحق وسط بكاء عظيم، بينما عادت سارة مع الخدم إلى الخيمة. وكان قد أخذ معه اثنين من رجاله الصغار، إسماعيل وإليعازر.

وبينما كانوا يمشون على الطريق تكلم الشابان أحدهما مع الآخر بهذه الكلمات. قال إسماعيل لأليعازر: «ها هو أبى إبراهيم ذاهب مع إسحق ليقدمه قربانًا محرقة للرب وعندما يعود سيعطينى كل ما يمتلك؛ لأرثه من بعده؛ لأننى أنا ابنه البكْر».

أجابه اليعازر: «حقّا؟ لقد طردك إبراهيم مع أمك، وأقسم ألا يورِّثك أى شىء مما يمتلك. فلمن إذًا سيعطى كل ما يملك وكل أشيائه النفيسة غير خادمه الذى أخلص له فى بيته؟ لى أنا الذى خدمته ليل نهار، وفعلت كل ما أراده منى». فأجابهما الروح القدس: لا أنت ولا هو سترثان إبراهيم.

وبينما إبراهيم وإسحق فى طريقهما، ظهر لهما الشيطان فى هيئة شيخ هَرِم متواضع ذليل، وقال لإبراهيم: «هل أنت غبى أم مجنون لتفعل ذلك بابنك الوحيد؟ لقدْ أعطاك الرب ابنًا فى أواخر أيامك، وفى شيخوختك، ألتذهب وتذبحه، وهو الذى لم يرتكب جرمًا، وهل ستجعل روح ابنك الوحيد تهلك من على الأرض؟ ألا تعرف ولا تفهم أن هذا الشىء لا يمكن أن يكون من الرب؟

فلن يفعل الرب مثل هذا الشر بإنسان فيأمره قائلاً: اذهب واذبح ابنك».

وعندما سمع إبراهيم هذه الكلمات علم أن هذا هو الشيطان الذى يحاول إضلاله عن طريق الرب؛ فنهره بعنف فولى من أمامه.

ثم عاد الشيطان وذهب إلى إسحق وظهر له فى هيئة شاب حسن الطلعة والهندام وقال له: «ألا تعرف يا صاح أن أباك العجوز المخرِّف سيذبحك اليوم لا لشىء؟ فإياك أن تسمع له فما هو إلا رجل عجوز مُخَرِّف ولا تدع روحك الغالية وطلعتك البهية تهلكان من على الأرض».

فأخبر إسحق أباه بهذه الكلمات فقال له إبراهيم: «انتبه له ولا تستمع لكلماته؛ فإنه الشيطان ويحاول أن يجعلنا نضل عن أمر الرب». وانتهر إبراهيم الشيطان مرة أخرى ففرَّ من أمامهما، لما رأى أنه لن يفلح فى غوايتهما، وحَوَّل نفسه إلى جدول كبير للمياه على الطريق، وعندما وصل إبراهيم وإسحق والغلامان إلى ذلك المكان؛ رأوا جدولاً واسعًا قويّا مثل المياه القويَّة. فخاضوا فى الجدول يريدون عبوره، لكنهم كلما تقدموا فيه أصبح أعمق حتى وصلت المياه إلى رقابهم، فخافوا جميعًا من الماء. ولكن إبراهيم تعرَّف على المكان وعرف أنه لم يكن به ماء من قبل وقال لابنه إننى أعرف هذا المكان ولم يكن به جدول ماء من قبل. لابد أن الشيطان هو الذى يفعل بنا كل ذلك لكى يؤخرنا اليوم عن إنفاذ أوامر الرب. وانتهر إبراهيم الشيطان قائلاً: قَبَّحك الرب يا شيطان، اذهب عنا، لأننا سننفذ أمر الرب». وارتعد الشيطان من صوت إبراهيم، وولَّى عنهم، فأصبح المكان جافًا كما كان فى البداية. وتوجه إبراهيم مع إسحق إلى المكان الذى أخبره به الرب.

ثم ظهر الشيطان لسارة فى هيئة عجوز وقال لها: «أين ذهب زوجك؟» أجابته: «إلى عمله» فسألها: «وأين ذهب ابنك إسحق؟» فأجابته: «ذهب مع أبيه إلى مكان لدراسة التوراة». فقال لها الشيطان: «يا عجوز يا مسكينة، لسوف تصطك أسنانك هلعًا على ابنك، إذا عرفت أن إبراهيم أخذ ابنه معه

ومضى ليضحِّى به. فلما سمعت كلامه تقلصت عضلات معدة سارة، وارتعدت فرائصها. فما كانت سوى امرأة من البشر. ومع ذلك فقد رجعت إلى نفسها وقالت: «فليفعل إبراهيم كل ما أمره به الرب فإنه فى صالحنا».

وفى اليوم الثالث[1] من رحلته، رفع إبراهيم عينيه ورأى المكان على البعد، ذلك المكان الذى أخبره به الرب. وشاهد على الجبل عمودًا من النار يصل من الأرض إلى السماء، **وسحابة ثقيلة رأى فيها مجد الرب**. فقال إبراهيم لإسحق: أترى يا بنى فوق ذلك الجبل البعيد ما أراه؟ أجاب إسحق أباه قائلاً: «أجل وانظر ها هو عمود من النار والغمام ومجد الرب يُرَى على السحابة». فعندئذ علم إبراهيم أن الرب تقبَّل إسحق قربانًا. وسأل إسماعيل وأليعازر: هل تريان أنتما ما نراه فوق الجبل؟» فأجاباه قائلين: «لا نرى إلا جبلاً مثل كل الجبال». فعلم إبراهيم أن الرب لم يقبل أن يذهبا معهما. وقال لهما إبراهيم: «ابقيا أنتما ههنا مع الحمار، فأنتما مثل الحمار، فكما لا يرى هو إلا القليل، فكذلك لا تريان أنتما إلا القليل وسأذهب أنا وابنى إسحق إلى ذلك الجبل البعيد، ونسجد للرب هناك، وسنعود هذه العشية إليكما».

وتلك نبوءة صدرت من إبراهيم على غير وعى منه، إذ تنبَّأ بأنه سيعود هو وإسحق كلاهما من الجبل. وبقى أليعازر وإسماعيل فى ذلك المكان، كما أمرهما إبراهيم الذى انصرف هو وإسحق إلى حيث أرادا.

---

(١) لاحظ:

«وسحابة ثقيلة رأى فيها مجد الرب»

ومجد الرب لا يظهر ـ كما فى كتب بنى إسرائيل ـ إلا على مكان مقدس.

ومما يدل على ذلك: بدء سفر حزقيال. وأيضًا: لما أخذ أهل فلسطين التابوت أيام «عالى الكاهن» قالوا: زال المجد عن إسرائيل. (المحقق)

f ـ العَقِدة (أى الوثاق بالعبرية)

وبينما هما يسيران قال إسحق لأبيه: «انظر يا أبتاه، ها هى النار والحطب ولكن أين إذًا الحَمَل الذى ستحرقه قربانًا للرب؟» أجابه إبراهيم قائلاً: «لقد اختارك الرب يا بنى لتُحْرَق قربانًا كاملاً، بدلاً من الخروف». فقال إسحق لأبيه: سأفعل كل ما أمرك به الرب بقلب فرح ومسرور. «فقال إبراهيم لابنه: «أفى قلبك شىء أو فكر تود قوله أو نصحى به ولا يناسب؟ أخبرنى يا بنى أرجوك! أى بنى لا تُخْفِ عنى شيئًا». أجابه إسحق: «وحياة الرب، وحياة روحك يا أبتاه، ليس فى قلبى شىء يحملنى على أن أحيد يمنة أو يسرة عن الكلمة التى كلمك بها الرب. ولم يرتعد منى عضو أو يهتز، بسبب ذلك، وليس فى قلبى أيضًا أى فكر أو خاطر شرير بخصوص ذلك. ولكننى سعيد وفرحان بهذه التضحية، وأقول: حمدًا للرب الذى اختارنى اليوم لأحرق قربانًا له».

وفرح إبراهيم فرحًا عظيمًا بكلام إسحق، وواصلا طريقهما وأتيا معًا إلى ذلك المكان الذى حدثهما الرب عنه. وتقدم إبراهيم ليبنى المذبح فى ذلك المكان، وبناه فعلاً بينما كان إسحق يناوله الحجارة والملاط حتى انتهيا من تشييد المذبح. وأخذ إبراهيم الخشب ورتبه على المذبح ثم قَيَّد إسحق ليضعه على الخشب الذى فوق المذبح، ليذبحه ويحرقه قربانًا للرب. وعندها تكلم إسحق قائلاً: «أسرع يا أبى. وشمر عن ساعديك وأوثق يدىّ وقدمّى بإحكام لأننى شاب لم أبلغ من العمر إلا سبعة وثلاثين، وأنت شيخ عجوز. وعندما أشاهد سكين الذبح فى يدك فلربما آخذ بالارتعاش من المنظر وأدفعك لأن غريزة البقاء قوية. وأيضًا قد أُؤذى نفسى فلا أَصلُحَ لأن يُضَحَّى بى. أرجوك إذًا يا أبتاه. أن تسرع وَتنفِّذ إرادة الخالق، ولا تتأخر. وشمر ثيابك واربط حقويك. وبعدما تذبحنى احرقنى حتى أصير رمادًا. ثم اجمع الرماد واذهب به إلى سارة أمى وضعه فى قنينة فى غرفتها. فلعلها فى كل مرة تدخل فيها غرفتها. تتذكر ابنها إسحق وتبكيه».

ثم تكلم إسحق ثانية وقال: «وعندما تذبحنى وتنصرف عنى وتذهب عائدًا إلى سارة أمى، وتسألك أين ابنى إسحق؟ فبم ستجيبها؟ وماذا ستفعلان كلاكما فى شيخوختكما؟» أجابه إبراهيم قائلاً: «نعلم أننا لن نعيش بعدك إلا أيامًا قليلة. ومن واسانا من قبل أن تولد، سوف يواسينا من الآن فصاعدًا».

وبعد ما رتب إبراهيم الحطب وربط إسحق ابنه ووضعه على المذبح فوق الحطب، وشمر إبراهيم عن ذراعيه ولف ثيابه ووضع ركبتيه على إسحق وضغط بكل قوته. رأى الرب جالسًا على عرشه عاليًا وكبيرًا، كيف أن قَلْبَيْ الاثنين كانا سواءً، وكيف انحدرت الدموع من عينى إبراهيم على إسحق، ومن عينى إسحق على الحطب، حتى بللته الدموع. وعندما مد إبراهيم يده وتناول السكين ليذبح ابنه قال الرب للملائكة: «هل ترون كيف يحافظ خليلى إبراهيم على وحدة اسمى فى العالم؟ لو كنت سمعت لكلامكم عند بدء خلق العالم، عندما قلتم: ما هو هذا الإنسان الذى تبالى به، وابن الإنسان الذى تزوره؟ فمن إذًا كان سينشر المعرفة بوحدة اسمى فى هذا العالم؟» عندها انطلقت الملائكة تبكى بصوت عالٍ وصاحوا قائلين: «فلتخرب الطرقات وليتوقف عابرو السبيل، لقد نقض عهده. أين هى مكافأة إبراهيم الذى كان يستقبل عابرى السبيل فى بيته ويعطيهم الطعام والشراب ويسير معهم مودعًا؟ لقد خولف العهد فكيف إذًا قلتَ له: إذ فى إسحق سوف ينادى نسلك وتقول: سأجعل عهدى مع إسحق وها هى سكين الذبح فوق رقبته».

وسقطت دموع الملائكة على السكين، فلم تستطع أن تقطع رقبة إسحق، ولكن روحه هربت منه من الرعب. ثم كلم الرب الملاك الكبير ميكائيل وقال له: «لماذا تقف ههنا؟ لا تتركه يُذْبَحْ». وفى الحال صرخ ميكائيل بصوت يعتصره الألم: «إبراهيم. إبراهيم، لا تمد يدك إلى الغلام، ولا تفعل به شيئًا» فرد إبراهيم قائلاً: «لقد أمرنى الرب بذبح إسحق وتأمرنى أنت بأن لا أذبحه!! لمن يسمع المرء؟ ألكلام «المعلم» أم لكلام التلاميذ؟» ثم سمع إبراهيم

هاتفًا يقول[1]: «بنفسى أقسمت، يقول الرب، لأنك فعلت هذا الأمر ولم تمسك ابنك عنى، ابنك الوحيد، فلسوف أباركك مباركة وأكَثِّرُ نسلك تكثيرًا ويكون نسلك مثل نجوم السماء ومثل الرمل الذى على شاطئ البحر؛ ولسوف يرث نسلك باب أعدائهم، ولسوف تتبارك كل أمم الأرض فى نسلك، لأنك سمعت لقولى».

وفى الحال نهض إبراهيم عن إسحق الذى ردت إليه روحه، لما سمع الصوت السماوى الذى كان يزجر إبراهيم لئلا يذبح ابنه. وحلّ إبراهيمُ قيوده فنهض إسحق واقفًا على قدميه وألهج بالترنيمة: «تباركت يا رب يا من تحيى الموتى».

ثم كلم إبراهيمُ الرب قائلاً: «هل سأنصرف من هنا دون أن أقدم لك أضحية؟» فأجاب الرب قائلاً: «ارفع عينيك لترى الأضحية وراءك». فرفع إبراهيم عينيه وشاهد خلفه كبشًا يتعثر فى الأحراش، وكان الرب قد خلقه فى وقت الزوال من عشية يوم السبت فى أسبوع الخليقة، وأُعِدَّ من وقتها ليكون قربانًا محرقة بدلاً من إسحق. وبينما كان الكبش يجرى قاصدًا إبراهيم؛ أمسك به الشيطان وشبّك قرنية فى الأحراش، لكيلا يصل إلى إبراهيم. وعندما رأى إبراهيم ذلك ذهب وأخذه من الأحراش ووضعه على المذبح قربان بدلاً من ابنه إسحق. ورش إبراهيم دم الكبش على المذبح، وصاح قائلاً: «هذا بدلاً من ابنى وليتقبله الرب كدم ابنى». وظل فى كل ما يفعله عند المذبح يصيح قائلاً: «هذا بدلاً من ابنى لعل الرب يقبله بدلاً من ابنى». وقبل الرب التضحية بالكبش، واعتبر كأنه إسحق.

---

(١) النص:

«وقال: بذاتى أقسمت بقول الرب. إنى من أجل أنك فعلت هذا الأمر ولم تمسك ابنك وحيدك: أباركك مباركة، وأكثر نسلك تكثيرًا كنجوم السماء وكالرمل الذى على شاطئ البحر. ويرث نسلك باب أعدائه. ويتبارك فى نسلك جميع الأمم الأرض. من أجل أنك سمعت لقولى» تكوين (٢٢: ١٦ ـ ١٨). (المحقق)

وكما كان خلق هذا الكبش شيئًا غير عادى، كذلك كان استخدام كل جزء من جثته. فلم يَضِعْ منه شىء. فرماد الأجزاء المحروقة على المذبح كَوَّنت أساس المذبح الداخلى، حيث تقدم الأضحية التكفيرية مرةً كل عام، فى يوم التكفير»، وهو اليوم الذى حدث فيه افتداء إسحق. أما بالنسبة لعروق الكبش فقد صنع منها داود عشرة خيوط لقيثارته التى كان يعزف عليها. واستخدم «إيلياء» الجلْد منِطقة له، وأما[1] قرناه فقد نُفِخَ فى أحدهما عند نهاية الوحى على جبَل سيناء، وسوف يستخدم الآخر لإعلان

(١) قوله «وأما قرناه فقد نفخ فى أحدهما عند نهاية الوحى على جبل سيناء، وسوف يستخدم الآخر لإعلان نهاية «النفى» عندما ينفخ فى القرن العظيم ويأتى من هم على استعداد للهلاك فى أرض «آشور» ومن كانوا منبوذين فى أرض مصر؛ ليعبدوا الرب فى الجبل المقدس فى أورشليم».

قوله هذا يدل على دهر شريعة موسى. ويدل على دهر شريعة النبى الأمى الآتى على مثاله عند نهاية الدهر الأول. وستصاحب مجئ النبى الأمى الحروب والكوارث والهلاك للكافرين به. وإذا نُفخ فى «الصور» والنفخ كناية عن إعلان مجيئه. فإن المؤمنين به يسجدون لله عند الكعبة فى جبل الرب. ولكن الكاتب المزور جعل أورشليم مكان مكة وجعل جبل صهيون مكان جبل الرب المقدس. والدليل على أنه مزور: هو أن أورشليم لم تعين مكانا مقدسا فى توراة موسى.

وفى سفر يوئيل: أنه عند مجئ هذا النبى سيُنفخ فى الصور ـ كناية عن الإعلان عن ظهوره ـ وأن أصحابه سيصعدون إلى أورشليم لخرابها وإهلاك الكافرين به من أهلها.

ففى الأصحاح الثانى من سفر يوئيل:

أضربوا بالبوق فى صهيون صوتوا فى جبل قدسى ليرتعد جميع سكان الأرض لأن يوم الرب قادم لأنه قريب يوم ظلام وقتام يوم غيم وضباب مثل الفجر ممتدًا على الجبال. شعب كثير وقوى لم يكن نظيره منذ الأزل ولا يكون أيضًا بعده إلى سنى دور فدور قدامه نار تأكل وخلفه لهيب يحرق. الأرض قدامه كجنة عدن وخلفه قفر خرب ولا تكون منه نجاة كمنظر الخيل منظره ومثل الأفراس يركضون كصريف المركبات على رؤوس الجبال يثبون كزفير لهيب نار تأكل قشا كقوم أقوياء مصطفين للقتال. منه ترتعد الشعوب كل الوجوه تجمع حمرة يجرون كأبطال يصعدون السور كرجال الحرب ويمشون كل واحد فى طريقه ولا يغيرون سبلهم ولا يزاحم بعضهم بعضًا يمشون كل واحد فى سبيله وبين الأسلحة يقعون ولا ينكسرون يتراكضون فى المدينة يجرون على السور يصعدون إلى البيوت يدخلون من الكوى كاللص. قدامه ترتعد الأرض وترجف السماء الشمس، والقمر يظلمان والنجوم تحجز لمعانها والرب يعطى صوته أمام جيشه أن عسكره كثير جدًا. فإن صانع قوله قوى لأن يوم الرب عظيم ومخوف جدًا فمن يطيقه» «يوئيل ». (المحقق)

نهاية «النفى»، عندما «ينفخ فى القرن العظيم. ويأتى من هم على استعداد للهلاك فى أرض «آشور»، ومن كانوا منبوذين فى أرض مصر؛ ليعبدوا الرب فى الجبل المقدس فى أورشليم».

وعندما أمر الرب الأبَّ بألاَّ يضحى بإسحق، قال إبراهيم: «يُغوى الإنسان أخاه لأنه لا يعلم ما فى قلب جاره. ولكنك تعلم بلا شك أننى كنت على استعداد للتضحية بابنى!».

الرب: «لقد كان ذلك واضحًا لى، وكنت أعلم مقدمًا بأنك لن تمنع نفسك منِّى».

إبراهيم: «ولماذا إذًا آلمتنى بهذه الطريقة؟».

الرب: «رغبت أن يعرفك العالم، وأننى لم أصْطَفِكَ على العالمين لغير سبب وجيه. والآن عرف البشر كلهم أنك تخاف الرب».

وعندها فتح الرب أبواب السموات وسمع إبراهيم الكلمات: «بذاتى أُقسم!» قال إبراهيم: «أنت أقسمتَ وأنا أُقسم أننى لن أغادر هذا المذبح إلا بعد أن أكون قد قلتُ ما علىّ قوله».

الرب: «قل ما شئت!».

إبراهيم: «ألم تعدنى بأن يخرج من أحشائى مَنْ ستملأ ذريته العالم كله؟»

الرب: «بلى».

إبراهيم: «من كنت تعنى إذًا؟».

الرب: «إسحق».

إبراهيم: «أما وعدتنى بأنك ستجعل ذريتى مثل عدد رمل شاطئ البحر؟».

الرب: «بلى».

إبراهيم: «من خلال أىّ من ولدىّ؟».

الرب: «من خلال إسحق».

إبراهيم: «كان بإمكانى أن أوبخك قائلاً: يا رب العالم بالأمس تقول لى إننى سأنشىء ذريتك من إسحق، والآن تقول: خذ ابنك وحيدك، إسحق، وقدمه لى قربانًا محرقة. لكننى أمسكتُ لسانى ولم أقل شيئًا. فلعلك إذًا إذا ارتكب بنو إسحق الخطايا. التى بسببها تحل البلايا؛ لعلك تتذكر التضحية بأبيهم إسحق، وتغفر لهم خطاياهم وتخفف عنهم آلامهم.»

الرب: «ها أنت قلت ما أردتَ قوله، والآن سأقول أنا ما أريدُ قوله. وهو ستخطئ ذريتك أمامى فى مستقبل الأيام، ولسوف أجلس للفصل بينهم فى عيد رأس السنة (العبرية). ولئن أرادوا أن أعفو عنهم، فلينفخوا فى قرن الكبش فى ذلك اليوم، ولسوف أغفر لهم خطاياهم، متذكرًا ومراعيًا ذلك الكبش الذى اُفْتُدِىَ به إسحق.»

وفوق ذلك، كشف الرب لإبراهيم أن **«المعبد» الذى سيقام فى بقعة أضحية إسحق، سوف يخرب، وكما كان الكبش يخلص قرنيه من شجرة ليعلق بأخرى، فكذلك** ستنتقل ذريته من مملكة إلى أخرى، **فعندما يتحررون من «بابل»** يخضعون «لميديا*» و «فارس»، **وعندما ينجون منهما تستعبدهم اليونان، ومن استعباد اليونان لهم إلى استعباد روما، وبعد كل ذلك سوف يخلصون الخلاص النهائى، على صوت قرن الكبش عندما «ينفخ السيد الرب فى الصُّور ويذهب فى العواصف إلى الجنوب».**

كان المكان الذى شيد فيه إبراهيم المذبح هو نفسه الذى قدم فيه آدم أول أضحية، وقدم فيه «قينان» و «هابيل» قرابينهما إلى الرب، وهو نفسه المكان الذى أقام فيه «نوح» مذبحًا للرب بعدما غادر السفينة، وسماه إبراهيم ـ الذى كان يعرف أنه هو المكان المخصص لإقامة «المعبد» ـ باسم «يَرْآه»، إذ سيكون مثابة لمخافة الرب وعبادته. ولكن ولأن سام كان قد سماه

* ميديا: هى مملكة قديمة تقع على الشمال من فارس وإلى الغرب من العراق وكانت تحتوى على أجزاء من إيران الحالية. (المترجم).

«شَالِم»، أى مكان السـلام، ولأن الرب لن يغضب إبراهيم **ولا «سامًا»، فقد وحَّد (الرب) الاسمين وسمَّى المدينة باسم[1] «أورشليم».**

ثم إنه من بعد الأضحية على «جيل المُرِيًّا»، عاد إبراهيم إلى «بئر سبع»، ذلك المكان الذى شهد العديد من أفراحه. وحملت الملائكة إسحق إلى الجنة، حيث أقام ثلاث سنين، وهكذا عاد إبراهيم إلى بيته وحده، وعندما رأته سارة صاحت قائلة: «لقد صَدَقَنى الشيطان إذًا حينما قال لى إنه تمت التضحية بإسحق». ومن حزنها هربت روحها من جسدها.

g ـ موت سارة ودفنها

وبينما كان إبراهيم منشغلاً بالأضحية، ذهب الشيطان إلى سارة وظهر لها فى هيئة رجل عجوز، متواضع جداً ولطيف، وقال لها: «ألا تعرفين كل ما

---

(١) كاتب التلمود أفصح عن أن مكان الذبح للابن الوحيد هو أرض الكعبة. بقوله: إن الممالك الأربعة سيأتى من بعدهم النبى الأمى المماثل لموسى من أرض الجنوب «وينفخ السيد الرب فى الصور، ويذهب فى العواصف إلى أرض الجنوب» وهو يشير بالعواصف إلى حروب سيشنها على اليهود النبى الذى سيظهر من أرض الجنوب. كما فى سفر إشعياء: «وحى من جهة برية البحر. كزوابع فى الجنوب. عاصفة. يأتى من البرية. من أرض مخوفة...» (إش ٢١: ١) وأيضًا فى سفر زكريا «ويُرى الرب فوقهم وسهمه يخرج كالبرق. والسيد الرب ينفخ فى البوق، ويسير فى زوابع الجنوب. رب الجنود يحامى عنهم...» (زك ٩: ١٤ ـ ١٥).

وعدد الكاتب الممالك الأربعة فقال: بابل ـ ومادای وفارس ـ واليونان ـ والرومان وقال بعد الرومان سيخلصون الخلاص النهائى. على يد الآتى من البرية من أرض مخوفة. ويرى الرب فوقهم كناية عن انتصار النبى الذى هو سيدهم عليهم.

وقال الكاتب: إن مكان «المذبح» الذى عرف فيما بعد بالكعبة وقدم عليه ابنه وحيده. هو نفسه المكان الذى قدم فيه آدم قرابينه. وقدم فيه قابيل وهابيل ابنا آدم قرابينهما. وهو نفسه «المذبح» الذى بناه نوح بعد الطوفان. ومعلوم أن السفينة استوت فى مكة، ومنها ارتحل الناس شرقا إلى العراق.

وقال الكاتب: إن أورشليم مركبة من كلمتين. إحداهما تعنى مكان السلام. وإبراهيم هو الذى حد للحرم حدودا للأمن.

وقال الكاتب إن المعبد جعله الله مثابة لمخافة الرب وعبادته ﴿مثابة للناس وأمنا﴾ وكل ذلك كان من قبل أن يقدس اليهود زورا مدينة أورشليم. (المحقق)

صنع إبراهيم بابنك الوحيد اليوم؟ لقد أخذ إسحق وبنى مذبحًا وذبحه وقدمه عليه قربانًا. وقد بكى إسحق وصرخ أمام أبيه لكنه لم يأبه به، ولا حتى شعر بالشفقة تجاهه.»

وبعد ما قال هذه الكلمات لسارة، انصرف عنها الشيطان، وحسبته رجلاً عجوزًا من زمرة أبناء الرجال الذين كانوا مع ابنها. ورفعت سارة صوتها وصاحت فى مرارة: «قلبى عليك يا إسحق. يا ولدى، يا ليتنى كنتُ مِتُّ بدلاً منك، أنا الذى يمزقنى الأسى عليك! أبعد ما رعيتك وربيتك، ينقلب فرحى بك نواحًا عليك؟! وأنا (عاقر) أشتاق إلى طفل؟ لطالما صرخت ودعوت حتى ولدتك وأنا فى التسعين. وها أنت قد خدمت إلى اليوم من أجل السكين والنار. ولكننى أَتعزَّى بأنها كلمة الرب، وأنك أنفذت أمر الرب، فمن ذا الذى يقدر على مخالفة كلمة ربنا الذى فى يديه أرواح كل مخلوق حَىّ؟ أنت عادل يا ربنا. فكل أعمالك خَيِّرة وصالحة. وأنا أيضًا أفرح بكلمتك التى أمرت بها. وبينما تبكى عيناى فى مرارة، فإن قلبى يرقص طربًا.»

ودفنت سارة رأسها فى حِضن إحدى جاريتها وصارت ساكنة كالحجر.

وفيما بعد نهضت وذهبت تسأل عن ابنها، إلى أن جاءت إلى «حَبْرُون» دون أن يستطيع أحد إخبارها بما حدث لابنها. وذهب عبيدها للبحث عنه فى بيت «سام» و «عابر» فلم يجدوه، وبحثوا فى الأرض كلها، ولم يجدوه. ثم انظر، لقد جاء الشيطان إلى سارة فى هيئة رجل عجوز وقال لها: «لقد كذبتُ عليكِ؛ فلم يذبح إبراهيم ابنه، ولم يمت». وعندما سمعت ذلك الكلام فرحت فرحًا عظيمًا بلغ من شدته أن فارقتها روحها من الفرح[1].

ولما عاد إبراهيم مع إسحق إلى «بئر سبع» بحثا عن سارة فلم يجداها، وعندما سألا عنها، قيل لهم: إنها ذهبت نحو حبرون. تبحث عنهما. فذهب إليها إبراهيم وإسحق فى حبرون، وعندما علما أنها قد ماتت، بكيا عليها

(١) هل ماتت سارة حزنًا أم فرحاً؟. (المترجم).

فى حرقة، وقال إسحق: آه يا أماه، كيف تتركينى وأين ذهبتِ؟ أين ذهبت وكيف تركتينى؟ وبكى إبراهيم وكل عبيده عليها وناحوا عليها نواحًا عظيمًا جدًّا جدًّا حتى أن إبراهيم ترك الصلاة وقضى وقته فى البكاء والنواح على سارة. وحقًّا لقد كان لديه سبب عظيم لكل هذا الحزن على خسارته تلك، فقد كانت سارة، حتى فى شيخوختها، قد استعادت جمال شبابها وبراءة طفولتها.

وكان موت سارة خسارة. ليس لإبراهيم وأهله فقط، وإنما للبلد كلها فطوال حياتها كانت الأمور تسير على خير ما يرام فى الأرض. وبعد موتها ساد الاضطراب. فقد عَمَّ البكاء والنواح والولولة عليها، لدرجة أنه بدلاً من أن يتعزى إبراهيم، كان عليه أن يعزِّى الآخرين. وكلم الناسَ النائحينَ قائلاً: «يا بَنِىَّ، لا يكن فراق سارة ثقيلاً هكذا على قلوبكم. فهناك شىء واحد سيقع للجميع، للمتقين وللفجار وهو الموت، وأنا أتوسل إليكم الآن أن تعطونى مكان قبر بينكم ليس كهدية ولكن مقابل مال.»

وفى هذه الكلمات القليلة الأخيرة ظهر تواضع إبراهيم بوضوح. فقد وعده الرب (بامتلاك) الأرض كلها، ومع ذلك فعندما أراد دفن موتاه دفع ثمن القبر ولم يطاوعه قلبه فى السخرية من سبل الرب. وبكل تواضع كلم أهل حبرون قائلاً: «أنا غريب ومقيم معكم». ولهذا كلمه الرب قائلاً: «لقد حملت نفسك على التواضع. وحياتك لسوف أعينك عليهم سيدًا وأميرًا».

وقد بدا للناس كأنه ملاك فأجابوه قائلين: «أنت رئيس من الرب بيننا. ادفن ميتك فى أفضل قبورنا، وسط الأثرياء إذا أحببت، أو وسط الفقراء إذا شئت».

وأول ما فعله إبراهيم هو أن شكر الرب على المشاعر الطيبة التى أبداها تجاهه بنى «حِثّ» ثم واصل مفاوضاته حول «قبر فى ماكفيلة» وكان قد عرف من زمن طويل القيمة العالية لهذه البقعة. فقد كان آدم اختارها مدفنًا لنفسه، وكان يخشى أن يستغل بدنه فى أغراض وثنية بعد موته، ولذا

فقد حدد «قبر ماكفيلة» مدفنًا له، ووضعت جثته فى أعماق القبر، لكيلا يعثر عليه أحد. وعندما دفن حواء هناك؛ كان يريد أن يحفر أعمق، لأنه شم الشذى العَطِر للجنة قُرب مدخله، ولكن هاتفًا سماويًا صاح به «يكفى هذا!» وقد دفن آدم نفسه هناك على يد «شِيث»، وكانت الملائكة تحرس المكان إلى زمن إبراهيم، وكانوا قد أشعلوا نارًا ظلت مستعرة بقربه باستمرار، ولذا فلم يجرؤ أحد على الاقتراب منه ودفن موتاه هناك.

وحدث أنه في اليوم الذى استقبل فيه إبراهيم الملائكة فى بيته، وأراد أن يذبح ثورًا ليكرمهم؛ حدث أن الثور فر هاربًا وأثناء مطاردته له؛ دخل إبراهيم «قبر ماكفيلة» وهناك رأى آدم وحواء ممدّدَين على أرائك والشموع مضاءة فوق رأس مثواهما، وكان فى القبر رائحة عطرة.

فلهذا السبب كان إبراهيم يريد أن يبتاع قبر ماكفيلة من بنى «حِثّ» الذين هم أهل مدينة «يبوس» فقالوا له: «نعلم أنه فى مستقبل الأيام سيعطى الرب هذه الأراضى لنسلك فالآن لنعقد معًا عهدًا بألا ينتزع بنو إسرائيل مدينة «يبوس» من سكانها بدون موافقتهم». ووافق إبراهيم على شرطهم، وتملّك الحقل من «عِفْرون»، الذى كان الكهف ملكًا له وقتها.

وحدث ذلك فى نفس اليوم الذى عُيِّن فيه «عفرون» زعيمًا لبنى حث. وقد رفعوه إلى تلك المكانة لكى لا يضطر إبراهيم إلى التعامل مع رجل أقل منه مكانةً. وكان ذلك امتيازا لإبراهيم أيضًا إذ كان «عِفرون» يرفض فى البداية بيع حقله، ولولا تهديد بنى حثّ بخلعه من منصبه إذا لم يُلَبِّ رغبة إبراهيم، لَماَ قَوىَ قلبه على تغيير رأيه.

وعرض عفرون ـ متظاهرًا بغير ما فى قلبه ـ أن يعطى إبراهيم الحقل بدون مقابل، ولكن عندما أصر إبراهيم على دفع ثمنه؛ قال له عِفْرون: «اسمع لى يا سيدى. إنها مجرد قطعة من الأرض لا تساوى إلا أربعمائة شاقل: ما هى بينى وبينك» مظهرًا أن المال له الأهمية العظمى عنده. وفهم

إبراهيم مقصده لذلك عندما أتى لدفع المال ثمنًا للحقل، وزن له المبلغ المتفق عليه بينهما بأفضل عملة. وكتب عقد بيع. شهد عليه أربعة وتملك إبراهيم ونسله فى جميع الأزمان حقل عفرون الذى كان فى «ماكفيلة» وكذلك الحقل والقبر الذى به.

ثم تم دفن سارة وسط احتفال عظيم، وأسف عليها الجميع. وكان «سام» وابنه «عابر» وأبيمالك ملك الفلسطينيين و «عانَر» وأشكول و «مَمْرا» وكل أعيان الأرض جميعًا تبعوا نعشها إلى مثواها الأخير، وأقيم الحداد عليها سبعة أيام، وأتى كل سكان الأرض لتعزية إبراهيم وإسحق.

وعندما دخل إبراهيم ليضع فيه جثمان سارة، رفض آدم وحواء البقاء فيه، وعللا رفضهما بقولهما: لأننا حقًّا خَجلانَيْن فى حضور الرب بسبب الخطيئة التى اقترفناها والآن سنزداد خجلاً من أفعالك الخيرة.

فطَيَّب إبراهيم خاطر آدم ووعده بأن يدعو له الرب، لكى - يزول عنه الخجل وأعاد آدم إلى مكانه. ودفن إبراهيم «سارة» وأعاد حواء - رغم مقاومتها - إلى مكانها.

وبعد موت سارة بعام، مات أبيمالك ملك الفلسطينيين، وكان عمره مئة وثلاثة وتسعين عامًا. وكان خليفته على عرشه أكبر أبنائه «بنى ملك»، وكان فى الثانية عشرة من عمره، وقد تسمَّى باسم أبيه بعد توليه الملك. ولم يَفُتْ إبراهيم أن يذهب إلى بلاط أبيمالك لتأدية واجب العزاء.

وكذلك مات «لوط» فى ذلك الوقت تقريبًا، وكان عمره مئة واثنين وأربعين عامًا. وتزوج ولداه «موآب» و «عَمُّون» كلاهما زوجتين كنعانيتين وأنجب موآب ولدًا، وأنجب عمون ستة أبناء. وقد تكاثرت ذرية الاثنين كثيرًا جدًّا.

وعانى إبراهيم أيضًا من حزن عميق فى نفس الوقت بفقده لأخيه «ناحور» الذى انتهت أيامه فى «حاران» عندما وصل إلى عمر مئة واثنتين وسبعين سنة.

h ـ مهمة أليعازر

وكانت وفاة سارة ألما لإبراهيم لم يَبرح عنه. إذ طوال حياتها كان يُحسُّ فى نفسه بأنه شاب مفعم بالحيوية، ولكن بعد رحيلها غلبت عليه الشيخوخة فجأة. وكانَ هو نفسه السبب فى بدء انكشاف كِبَر سنه بالعلامات والأمارات المناسبة. وقبل زمن إبراهيم لم يكن من الممكن تمييز الشيخ الهرم عن الشاب من مظهرهما الخارجى؛ ولأن إسحق كان صورة من أبيه، كان يحدث كثيرًا أن يخطئ الناس فى التعرف على أيِّهما، وكلما طلبوا من أحدهما شيئًا يكتشفون أنهم قد أخطأوا ووجهوه إلى الآخر. ولذا دعا إبراهيم أن تظهر علامات للشيخوخة تميزها عن الشباب، واستجاب الرب دعاءه؛ فمن زمن إبراهيم بدأ مظهر البشر فى شيخوختهم يتغير. وهذه إحدى العجائب السبع الكبار التى حدثت على مر التاريخ.

ولم تتخل بركات الرب عن إبراهيم فى شيخوخته. لكيلا يقال إن البركة كانت تحل عليه من أجل سارة؛ فقد أنعم الرب عليه بعد موتها إذ ولدت له هاجر بنتًا. وتاب «إسماعيل» عن غيه، وسار فى ظل إسحق خاضعًا له. كما نَعِمَ إبراهيم بالسكينة والسعادة والطمأنينة فى أسرته، فقد نَعِم بها مع الأجانب. وقد لزم ملوك الشرق والغرب فى شغف باب بيته لكى يتعلموا من حكمته ويستفيدوا منها. وكان يتدلى من عنقه حجر نفيس كان له القدرة على شفاء المرضى الذين ينظرون إليه.

وعند موت إبراهيم علّق الرب هذا الحجر بعجلة الشمس. وكان من أجلِّ النعم التى تمتع بها، ولم يتمتع بها أحد غيره سوى ابنه إسحق ويعقوب ابن إسحق، أن نوازع الشر لم يكن لها سلطان عليه ولهذا فقد كان يتذوق فى هذه الحياة مذاق الحياة القادمة.

ولكن كل هذه النعم الإلهية التى انهمرت على إبراهيم لم تكن عن غير استحقاق بجدارة. فقد كان نظيف اليد ونقى القلب. وما كان الكِبْر يطرق باب قلبه.

وقد أتم كل الوصايا التى أُوحيت فيما بعد، بما فيها التعاليم الربانية (نسبة إلى الربانيين وهم علماء اليهود) مثل تلك التى تتعلق بحدود العمل فى السبت، وقد كوفئ على ذلك بأن كشف له الرب التعاليم الجديدة التى يشرحها (الرب) يوميًا فى الأكاديمية السماوية.

ولكن كان هناك شىء واحد ينقص لاكتمال سعادة إبراهيم، وهو زواج إسحق. ولهذا السبب دعا خادمه أليعازر، الذى لم يكن يشبه سيده فقط فى الظاهر، وإنما من الناحية الروحية أيضًا.

ومثل إبراهيم، كان أليعازر كان يملك سيطرة كاملة على نوازع الشر، وكان العَبْدُ، مثل سيده، ضليعًا فى الشريعة. وتكلم إبراهيم بالكلمات التالية إلى «أليعازر»: «لقد تقدم بى العمر، ولا أدرى فى أى يوم أموت. لذا جَهِّز نفسك، واذهب إلى بلدى وإلى قومى وأجلب لى إلى ههنا زوجةً لابنى إسحق» وهكذا تكلم بسبب العزم الذى عزمه فور التضحية بإسحق على (جبل) «المُرِّيَّا» إذْ كان قد قال حينها فى نفسه: «إنه لو تم تنفيذ التضحية؛ كان إسحق سيرحل عن العالم بدون نسل». بل إنه كان مستعدًا لأن يختار زوجة لابنه من بين بنات أصدقائه الثلاث عَانِر وأشكول ومَمْرَا؛ لأنه كان يعرف أنهم أتقياء، ولم يكن يهتم كثيرًا بالمظاهر الأرضية.

ثم كلمه الرب قائلاً: «لا تشغل نفسك بالحصول على زوجة لإسحق. لقد اختيرت له زوجة بالفعل». وأوحى لإبراهيم أن «مِلْكَة» زوجة أخيه «ناحور» التى ظلت حتى موته بدون ذرية؛ قد تذكرها الرب وجعلها مثمرة وولدت «بتوئيل» الذى أنجب بدوره، فى أيام التضحية بإسحق، البنت التى قُدِّرت زوجة لإسحق.

مراعيًا المثل الذي يقول: «إن كان قمحك جَيِّدًا، فاستخدمه كبذور»، فعزم إبراهيم على أن يتخذ زوجة لإسحق من أهله. وكان مَنْطقُه فى ذلك: أنه طالما أن أية امرأة سيختارها زوجة لابنه؛ لابد أن تصبح مؤمنة متحولة

من الوثنية إلى الإيمان إذًا فمن الأفضل أن يستخدم غنمه الخاص، الذى له الحق فيه والسلطان عليه.

عندئذ قال أليعازر لسيده: «ربما لا ترغب أية امرأة فى أن تتبعنى إلى هذه الأرض. هل يمكننى إذًا أن أزوج ابنتى أنا لإسحق؟» أجابه إبراهيم: «لا؛ فأنت من الجنس الملعون، وابنى من الجنس المبارك، ولا يمكن أن تتحد اللعنة مع البركة. ولكن حذارِ من أن تذهب بابنى ثانيةً إلى الأرض التى أتيتُ أنا منها، لأنك لو أخذته إلى هناك مرة أخرى فكأنما ذهبت به إلى الجحيم. والرب الذى يُسَيِّر الأفلاك، سوف يُسَيِّر هذا الزواج على النحو الصحيح الذى أخذنى من بيت أبى، وتكلم إلىّ، وأقسم لى فى «حاران»، عند عهد الأجزاء، بأنه سيعطى هذه الأرض لنسلى؛ هو الذى سيرسل ملاكه أمامك لتأخذ لابنى زوجة من هناك».

وبعد ذلك أقسم أليعازر لسيده بخصوص هذا الزواج، وجعله إبراهيم يقسم بعلامة العهد (= الختان).

أ ـ خطبة رفقة

مصطحبًا عشرة رجال، على عشرة جمال محملة بالجواهر واللآلئ؛ ارتحل أليعازر قاصدًا «حاران» بصحبة ملاكين، أحدهما لحمايته والآخر لرفقة.

ولم تستغرق الرحلة إلى حاران سوى ساعات معدودة، فى مساء نفس اليوم الذى وصل فيه إلى هناك؛ لأن الأرض قد طويت له لتستقبله بطريقة عجيبة. وتوقف عند بئر مياه ودعا الرب أن يُظْهِر له الزوجة التى اختارها لإسحق من بين الفتيات اللائى جئن إلى البئر يسقِين بأمارة وهى أنها وحدها من بين الفتيات الأخريات، هى التى ستعطيه الماء ليشرب. وفى الحقيقة لم تكن رغبته تلك لائقة، إذ ماذا يحدث لو أن أمَةً من الإماء هى التى ناولته ليشرب؟ لكن الرب استجاب دعاءه. فقد قالت له كل الفتيات: إنهن لا يستطعن إعطاءه الماء ليشرب؛ لأنهن سيأخذن الماء إلى بيوتهن. ثم لاحظ

«رِفْقَة»، آتية إلى البئر على غير ما يليق بها؛ فقد كانت ابنة مَلِكٍ إذا كان أبوها «بتوئيل» ملك «حاران» وعندما طلب أليعازر من هذه الطفلة الصغيرة البريئة أن تعطيه ماءً ليشرب؛ فإنها لم تكن فقط على أتم استعداد لتلبية رغبته، وإنما أيضًا وبّخت الفتيات الأخريات على عدم إكرام هذا الغريب. ولاحظ أليعازر كيف ارتفع الماء لها من تلقاء نفسه من قاع البئر، ولذا فلم تضطر إلى إرهاق نفسها فى نضحه. وبعدما دقّق فى ملامحها جيدًا، تيقّن من أنها هى الزوجة المختارة لإسحق. فأعطاها حلق أَنْفٍ به حجر كريم وزنه نصف «شاقل» فى نبوءة غيبية إلى نصف الشاقل التى سيُحْضِرُه نسلها إلى «المعبد» كل عام. وأعطاها أسورتين ليديها، وزنها عشرة «شواقل» من الذهب، فى إشارة نبوئية إلى المائدتين الحجريتين والوصايا العشر فوقهما.

وعندما أتت «رفقة» بجواهرها، إلى أمها وأخيها «لابان» أسرع أخوها إلى أليعازر ليذبحه ويستولى على ما معه من ذهب. ولكنه سرعان ما أدرك أنه لن يستطيع إيذاء عملاق مثل أليعازر. فقد عرفه حينما كان أليعازر يحمل جملين ويعبر بهما النهر. وبسبب الشبه الكبير بين أليعازر وإبراهيم؛ ظن لابان أن من يراه أمامه الآن هو إبراهيم فقال له: «تعال يا من باركه الرب لا يليق أن تبقى بالخارج، لقد نظفتُ بيتى من الأوثان».

ولكن عندما وصل «أليعازر» إلى بيت «بتوئيل»، حاولوا قتله بالمكر والخديعة، فقد وضعوا له طعامًا مسمومًا. ولحسن حظه رفض أن يأكل قبل أن يفرغ من مهمته أولاً. وبينما هو يقصّ قصته؛ شاء الرب أن يوضع الطبق المسموم الذى قُصِدَ به أليعازر، أمام بتوئيل الذى أكل منه ومات.

وأظهر لهم أليعازر الوثيقة التى معه التى يورث إبراهيم فيها إسحق كل ما يملك، وبيَّن لعشيرة إبراهيم كيف أن سيده مرتبط بهم جدّا، رغم طول الفراق بينه وبينهم. وأخبرهم أيضًا أن إبراهيم لا يثق فيهم ثقة مطلقة لذلك قد يبحث عن زوجة لابنه بين بنات «إسماعيل» أو «لوط». وفى البداية وافقت

عشيرة إبراهيم على أن يتركوا «رفقة» تذهب مع أليعازر، لكن ولأن بتوئيل مات أثناء ذلك؛لم يشاءوا تزويج «رفقة» دون أن يعرفوا رأيها أولاً. كما أنهم رأوا أنه من اللائق أن تبقى فى البيت على الأقل مدة أسبوع الحداد على أبيها. ولكن عندما رأى أليعازر الملاك ينتظره؛ لم يوافق على أى تأخير وقال: «إن الرجل الذى جاء معى وجعل رحلتى آمنة ينتظرنى بالخارج» وعندما أبدت «رفقة» استعدادها للذهاب فورًا مع أليعازر، وافق أخوها وأمها على رغبتها وتركوها تتصرف مع دعواتهما التى لم تخرج من أعماق قلوبهما. وحقّا إن دعوة الفاجر لعنة. ولذا بقيت «رفقة» عاقرًا لعشر سنوات.

وكانت عودة أليعازر إلى «كنعان» عودة مليئة بالمعجزات والعجائب، كما كان ذهابه إلى «حاران»؛ فالرحلة التى تستغرق سبعة عشر يومًا قطعها هو فى ثلاث ساعات. وغادر «حاران» عند الظهر ووصل إلى «حبرون» فى الثالثة عصرًا، وهو وقت «صلاة المنحة»، التى أنشأها إسحق أول مرة. وكان إسحق يصلى عندما رأته رفقة لأول مرة، وسألت أليعازر عمَّن يكون الرجل؟. ورأت أنه شخص غير عادى. ولاحظت جمال إسحق غير المعتاد، ورأت أن ملاكًا كان يصاحبه.. ولذا فلم يكن سؤالها (عَمَّن يكون) مجرد سؤال أثاره الفضول وحسب. فى هذه اللحظة عَلمت من خلال الروح القدس، بأنها قُدِّر لها أن تكون أم «عيسُو» الكافر. فتملكها الرعب وارتجفت وسقطت من فوق الجمل وجُرِحَتْ.

وبعد ما سمع إسحق معجزات أليعازر العجيبة، أخذ رفقة إلى خيمة أمه سارة، وأظهرت نفسها أنها جديرة بأن تكون خليفة لها. وقد ظهرت السحابة التى كانت تُرَى فوق الخيمة فى حياة سارة، مرة أخرى، واختفت عند موتها؛ وسطع الضوء مرة أخرى فى خيمة رِفْقَة. ذلك الضوء الذى كانت سارة قد أشعلته عند مجئ «السابات»، وظل مشتعلاً بمعجزة طوال الأسبوع كله؛ وعادت البركة تحل مع مجئ رفقة، فوق الثريد الذى كانت سارة قد عجنته؛ وفُتحت أبواب الخيمة أمام المحتاجين، وفتحت على مصراعيها، كما كانت أيام حياة سارة.

وظل إسحاق حزينًا على وفاة أمه لثلاثة أعوام، ولم يَجد عزاءً فى صحبة «سام» ولا «عابر»، حيث كان يقيم معهما خلال تلك الفترة. ولكن رفقة واسته وآنسته بعد موت أمه، إذ كانت نظيرة سارة فى الشخصية وخفة الروح.

ومكافأة له على إتمام مهمته التى كلفه بها على وجه مُرْضٍ تمامًا؛ أعتق إبراهيم عبده. وتحولت اللعنة الحالَّة على أليعازر ـ ولم تسلَم منها ذرية كنعان كلهم ـ إلى بركة؛ لأنه خدم إبراهيم بولاء وأمانة. وكانت المكافأة العظمى أن وجده الرب جديرًا بدخول الجنة حيًّا، وهى ميزة لم يحظ بها سوى أقل القليل.

ز ـ سنوات إبراهيم الأخيرة

ورأت رفقة إسحق أول ما رأته وهو آتٍ من طريق «بئر لَحَىْ رُئِىَ» مكان إقامة هاجر، حيث كان قد ذهب بعد وفاة أمه، من أجل إعادة الوئام بين أبيه وهاجر، أو كما كانت تسمَّى، «قطُورة».

وولدت له هاجر ستة أبناء، لطخوا سمعة أبيهم، إذ كانوا كلهم من عبدة الأوثان. ولذا فقد طردهم إبراهيم، أثناء حياته، من التواجد مع إسحق، لكى لا يحترقوا بلهيب إسحق، وأمرهم بأن يرتحلوا شرقًا لأبعد ما يمكنهم. وهناك بنى لهم مدينة محاطة بسور حديدى بلغ من ارتفاعه أن الشمس لم تستطع أن تشرق على المدينة. **ولكن إبراهيم زودهم بالجواهر واللآلئ التى كان بريقها أشد من ضوء الشمس، والتى سوف تستخدم فى زمن «المَسيًّا»** عندما «تغيم القمر وتَخَجل الشمس. كما علمهم إبراهيم الفن الأسود الذى به سيطروا على العفاريت والأرواح. ومن هذه المدينة فى الشرق استمد «لابان» و «بلعام» و «بعور» أبو بَلعام عِرَافتهم.

وقد غزى «عِفَر»، وهو أحد أحفاد إبراهيم وقطورة، «ليبيا» بقوة مسلحة واستولى على تلك المدينة. ومن «عِفْر» هذا اشتقت أرض أفريقيا كلها اسمها. كذلك فإن «آرام» هى مدينة عَمَّرها أحد أقارب إبراهيم. وفى

شيخوخته، عقد «تارَح» عَقْدَ زواج جديد مع «بَلِيلَة» نشأ عنه ابنهما «زُوبع» الذى كان أبًا لثلاثة أبناء. كان «آراهم»، أكبرهم وكان واسع الغنى والقوة، ولم يتسع بيت أبيه القديم فى «حاران» له ولأقاربه، أبناء ناحور أخى إبراهيم. فلهذا ارتحل آرام وإخوته وكل أقاربه من «حاران» واستقروا فى وادٍ، وبنوا لهم مدينة فيه سَمَّوْها «آرام زوبع» ليخلدوا اسم الرب واسم ابنه البكر.

وهناك «آرام» أخرى وهى آرام النهرية، على الفرات. وبناها «آرام بن كيموعيل»، أحدُ أحفاد إبراهيم. وكان اسمها الحقيقى «بطور» على اسم ابن آرام، ولكنها مشهورة باسم «آرام النهرية». واستوطنت ذرية «كِسِد» ـ وهو حفيد آخر لإبراهيم، وابن لأخيه «ناحور» ـ فى مقابل «شِنْعَار» حيث أسسوا مدينة «كِسِدْ»، تلك المدينة التى يسمَّى الكلدانيون فيها «كِسِديم».

ورغم أن إبراهيم كان يعلم علم اليقين أن إسحق يستحق منه المباركة الأبوية بأكثر مما يستحقها جميع إخوته، فقد منعها عنه، لكى لا تدب البغضاء بين ذريته. وتكلم قائلاً: «ما أنا إلا (إنسان من) لحم ودم. اليوم هنا (معكم) وغدًا فى قبرى. وما قَدِرْتُ على فعله لأبنائى فَعَلْتُه. لذا فليفعل الرب ما يشاء فى عالمه». وحدث أنه فور موت إبراهيم ظهر الرب لإسحق وباركه بنفسه.

k ـ نذير بالموت

وعندما أزف يوم موت إبراهيم، قال الرب لميكائيل: «انهض واذهب إلى إبراهيم وقل له: «سوف ترحل عن الحياة. لكى يرتب أمور بيته قبل أن يموت». وذهب ميكائيل إلى إبراهيم فوجده جالسًا أمام ثيرانه من أجل الحرث. ورأى إبراهيم ميكائيل دون أن يعرف من يكون، وحيَّاه وقال له: «اجلس قليلاً وسآمر بإحضار مَطيَّة ثم نذهب معًا إلى البيت لعلك ترتاح معى قليلاً، إذ أوشك الظلام أن يحلّ، ثم انهض فى الصباح واذهب حيث شئت». ونادى إبراهيم على واحد من عبيده وقال له: «اذهب وأحضر مطية

لكى يجلس عليها هذا الغريب، فهو متعب من رحلته». لكن ميكائيل قال له: «لقد منعت نفسى أن أركب أبدًا على بهيمة ذات أربع؛ لذا فَلْنَمْشِ حتى نصل إلى المنزل».

وفى طريقهما إلى المنزل مَرَّا بشجرة. فسمع إبراهيم صوتًا من أغصانها يقول: «مقدس أنت لأنك أخفيت الغرض الذى جئتَ من أجله». فأسرها إبراهيم فى نفسه، ظانّاً أن الغريب لم يسمعها. وعندما وصلا إلى المنزل أمر إبراهيم خدمه بإعداد الطعام، وبينما هم مشغولون بعملهم، نادى ابنه إسحق وقال له: «قم وضع الماء فى الإبريق، لكى نغسل قدمى الغريب». ففعل إسحق كما أمره أبوه، عندئذ قال إبراهيم: «أرى أننى لن أغسل أبدًا بعد ذلك فى هذه الحوض قدمى أى رجل يأتينى ضيفًا». ولما سمع إسحق قوله هذا؛ أخذ يبكى، ولما رأى إبراهيم ابنه يبكى؛ بكى هو الآخر، وبكى ميكائيل أيضًا لما رآهما يبكيان، فسقطت دموع ميكائيل فى الماء، وتحولت إلى أحجار كريمة.

وقبل جلوسه إلى المائدة نهض ميكائيل وخرج متظاهرًا بأنه ذاهب إلى الخلاء، وصعد إلى السماء فى غمضة عين ووقف أمام الرب وقال: «يا ربى وسيدى لتعلم قدرتك أننى غير قادر على تذكير هذا الرجل التقى بموته، فلم أرَ على ظهر الأرض رجلاً مثله رؤوفًا ومضيافًا ومستقيمًا وصادقًا ومخلصًا، وممسكًا يده عن كل شر». فقال الرب لميكائيل: «انزل إلى خليلى إبراهيم، وافعل كل ما يأمرك به، وأيًّا كان ما يأكله كل معه أنت أيضًا. وسألقى فكرة الموت فى قلب إسحق ابنه فى حلم، ولسوف يقص إسحق الحلم عليكما، وتفسره أنت. وسوف يعلم هو بنفسه نهايته». فرد ميكائيل قائلاً: «يا سيدى، كل الأرواح السماوية لا جسد لها ولا تستطيع أن تأكل أو تشرب، وقد وضع ذلك الرجل أمامى مائدة عامرة بالأطايب الأرضية والقابلة للفساد. فماذا أفعل يا سيدى؟» أجابه الرب قائلاً: «انزل إليه ولا تشغل نفسك بهذا. فعندما تجلس معه على المائدة؛ سألقى عليك روحًا شرهة تلتهم من خلال يديك وفمك كل ما على المائدة».

فهبط ميكائيل إلى بيت إبراهيم وأكلوا وشربوا وابتهجوا. وعندما انتهى العَشَاء صلى إبراهيم كعادته، وصلى ميكائيل معه. ثم رقد كل منهما على أريكة ليناما فى نفس الحجرة، بينما ذهب إسحق إلى حجرته لكيلا يسبب إزعاجًا للضيف. واستيقظ إسحق قرب الساعة السابعة من الليل وذهب إلى باب حجرة أبيه وهو يبكى ويقول: «افتح يا أبتاه لكى ألمسك قبل أن ترحل عنِّى». فبكى إبراهيم مع ابنه ولما رآهما ميكائيل يبكيان، بكى هو الآخر. ولما سمعت «سارة»(1) البكاء نادت من حجرتها قائلة: لماذا تبكى يا سيدى إبراهيم؟ هل قال لك الغريب أن ابن أخيك لوطا مات، أم هل حدث لنا شيء؟ أجابها ميكائيل قائلاً: «لا يا سارة يا أختاه، ليس كما تقولين، ولكن ابنك إسحق - على ما أظن - رأى حلمًا فجاءنا يبكى. وعندما رأيناه تحركت قلوبنا إلى البكاء فبكينا». فلما سمعت سارة ميكائيل يتكلم؛ علمت على الفور أنه ملاك من عند الرب، وأنه كان أحد الملائكة الثلاثة الذين أكرمتهم فى بيتها من قبل ذات مرة. لذا فقد أومأت إلى إبراهيم ليخرج لها عند الباب، لتخبره بما علمت. فقال لها إبراهيم: «لقد أحسنتِ الملاحظة؛ فأنا أيضًا عندما غسلتُ قدميه أدركت فى قلبى أنهما نفس القدمين اللتين غسلتهما عند البلوطة فى «مَمْرَا» وأنه هو الذى كان ذاهبًا لإنقاذ لوط». وعندما رجع إبراهيم إلى حجرته شرع إسحق فى قص رؤياه. التى فسرها لهم ميكائيل قائلاً: «لقد تكلم ابنك إسحق بالحقيقة؛ لأنك سوف تذهب وتُحْمَل إلى السماء، ولكن بدنك سيبقى على الأرض، حتى تمر سبعة آلاف جيل، وحينها سيقوم كل (ذى) لحم. لهذا يا إبراهيم عليك الآن أن ترتب بيتك، فقد سمعتَ ما قُدِّر لك». فأجابه إبراهيم: «الآن أعرف أنك ملاك من عند الرب، وأنك أُرسلت لتقبض روحى، ولكننى لن أذهب معك، وأفعل ما أُمِرْتَ به».

وعاد ميكائيل إلى السماء وأخبر الرب برفض إبراهيم الاستجابة لاستدعائه؛ فأمره مرة أخرى بأن ينزل ويحذر إبراهيم بألا يتمرد ضد الرب

(1) لاحظ: أن سارة ماتت فى حياة إبراهيم.

الذى أنعم عليه بنعم كثيرة، وذكَّره بأنه لا أحد خرج من آدم وحواء يمكنه الفرار من الموت، وأن الرب من رحمته الواسعة تجاهه لم يسمح لسكرات الموت بأن تؤذيه، ولكنه أرسل إليه نائبه الرئيس ميكائيل.

وأنهى (الرب) كلامه قائلاً: «لماذا إذًا قلت لنائبى الرئيس أنك لن تذهب معه؟»

فهبط ميكائيل ونقل هذه الرسالة إلى إبراهيم الذى وجد أنه لا طائل من معارضة إرادة الرب، ووافق على أن يموت، ولكنه تمنى أن يتحقق له رغبة واحدة وهو لايزال على قيد الحياة.

قال لميكائيل: «أرجوك يا سيدى. إذا كان من المحتم علىّ أن تفارق روحى جسدى؛ فإننى أود أن أؤخذ إلى أعلى (فى السموات) فى جسدى لعَلِّى أرى المخلوقات التى خلقها الرب فى السماء وعلى الأرض». فصعد ميكائيل إلى السماء ووضع أمنية إبراهيم وتكلم أمام الرب. فأجابه الرب قائلاً: «اذهب بإبراهيم بجسده وروحه وأرِه كل الأشياء. وأيّاً ما يقول لك فافعله كما أفعل مع خليلى».

1 ـ إبراهيم يرى ملكوت السموات والأرض

وهبط الملاك الكبير ميكائيل وأخذ إبراهيم على عربة القروبيم، ورفعه إلى جوّ السماء ومشى معه على السحاب، ومعهما ستون ملاكًا؛ وارتفع إبراهيم فوق العربة إلى فوق جميع الأرض، ورأى كل الأشياء التى تحت على الأرض، صالحها وطالحها؛ وبينما هو ينظر إلى أسفل إلى الأرض رأى رجلاً يزنى بامرأة متزوجة، فالتفت إلى ميكائيل قائلاً: «أرسل عليهم نارًا من السماء تهلكهما». ففى الحال سقطت نار من السماء وأهلكتهما؛ لأن الرب كان قد أمر ميكائيل بأن يفعل كل ما يأمره به إبراهيم. ثم نظر إلى أسفل مرة أخرى فرأى لصوصًا يتسللون إلى سطح أحد المنازل، فقال إبراهيم: «اجعل الوحوش المفترسة تخرج إليهم من الصحراء وتمزقهم إربًا». وفى الحال خرجت الوحوش المفترسة من الصحراء والتهمتهم. ونظر مرة ثالثة فرأى أناسًا يتجهزون لسفك الدماء البريئة فقال له: «اجعل الأرض تنشق وتبتلعهم».

فانشقت الأرض وابتلعتهم وهم أحياءً. عندئذ كلم الرب ميكائيل قائلاً: «أعد إبراهيم إلى بيته ولا تجعله يدور على محيط الأرض كلها، لأنه لا رحمة عنده بالمخطئين، ولكننى أنا الذى لدىَّ الرحمة بهم؛ لعلهم يرجعون ويتوبون عن خطاياهم؛ فينجوا».

لهذا أدار ميكائيل العربة، وذهب بإبراهيم إلى مكان الحكم على كل الأرواح. وهناك رأى بوابتين إحداهما واسعة والأخرى ضيقة، الضيقة للعادلين وتؤدى إلى الحياة، ومن يمرون منها يذهبون إلى «الفردوس». أما الواسعة فهى للخطاة، وتؤدى إلى الهلاك والعقاب الأبدى. وبكى إبراهيم قائلاً: «يا ويحى ماذا أفعل الآن؟ فما أنا إلا رجل ضخم البدن. كيف سأستطيع المرور من البوابة الضيقة؟» أجابه ميكائيل قائلاً: «لا تخش شيئًا ولا تحزن على شىء، فلسوف تعبرها دون أن يعوقك عائق، أنت وكل من هم مِثْلك». ووقتئذ رأى إبراهيم روحًا حُكِمَ عليها بأن تبقى فى الوسط (بين البوابتين) فسأل إبراهيمُ عن السبب. فأجابه ميكائيل قائلاً: «لأن القاضى وجد سيئاتها مساوية لحسناتها؛ فلا هو أدانها ولا هو حكم بنجاتها. «فقال إبراهيم لميكائيل: «لندعُ من أجل هذه الروح ونرى إن كان الرب سيسمع دعاءنا». وعندما انتهيا من دعائهما أخبر ميكائيل إبراهيم أن الروح أُنْجيتْ بفضل دعائه، وحملها ملاك وذهب بها إلى الفردوس. فقال إبراهيم لميكائيل: «لندع الرب طامعين فى رحمته، ونتوسل له أن يرحم أرواح الخطاة الذين لعنتهم وأهلكتهم، من قَبْلُ فى غضبى، أولئك الذين ابتلعتهم الأرض ومزقتهم الوحوش المفترسة إربًا إربًا، وأهلكتهم النار بسبب كلماتى. فالآن عَلِمتُ أننى قد أذنبت فى حق الرب سيدنا».

وبعد الصلاة المشتركة للملاك مع إبراهيم؛ أتى صوت من السماء يقول: «يا إبراهيم. يا إبراهيم، لقد سمعتُ صوتك وصلاتك وقد غفرتُ لك ذنبك، وأما من ظننت أننى قد أهلكتهم، فقد دعوتهم وبعثتهم للحياة برحمتى الواسعة، لأننى من أجل العدل أنصفتُهم فى الحكم؛ ومن أهلكه حيًّا وهو

على الأرض فإنى لا أنصفه من بعد الموت».

وعندما أعاد ميكائيل إبراهيم إلى بيته، وجد أن سارة قد ماتت. لأنها لم تك تدرك ما حدث لإبراهيم؛ فقد قضى عليها الحزن وذهب بروحها[1]. ولأن ميكائيل كان قد أنفذ أمنية إبراهيم وأراه ملكوت السموات والأرض والقضاء والتعويض؛ فقد ظل (إبراهيم) على رفضه فى تسليم روحه لميكائيل. فصعد الملاك مرة أخرى إلى السماء وقال للرب: «هكذا تكلم إبراهيم وقال: لن أذهب معك، وقد أحجمت عن وضع يدىّ عليه؛ لأنه كان صديقك منذ البدء، وقد فعل كل ما يرضيك. وليس هناك رجل على الأرض مثله، ولا حتى «أيُّوب» ذلك الرجل العظيم». ولكن عندما أزف يوم موت إبراهيم أمر الربُّ الملاك الرئيس ميكائيل بأن يلبس «الموت» أبهى ما يكون من الحلل المزركشة ويرسله على هذا الحال من الجمال إلى إبراهيم؛ لعله يراه بعينيه.

وبينما هو جالس عند بلوطة «مَمْرا»، لاحظ إبراهيم ومضة من الضوء، ورائحة ذكية؛ فاستدار فرأى «الموت» قادمًا نحوه فى جلال وجَمَال عظيمين. وقال الموت لإبراهيم: «لا تَظنَّنَّ يا إبراهيم أن هذا الجمال هو جمالى، أو أننى آتى كل إنسان على هذه الهيئة. ولكن إن كان الميت بارًّا مثلك؛ فإننى ألبس تاجًا وآتيه، ولكن إن كان من الضالِّين فإننى آتيه على هيئة بشعة، وأصنع لرأسى تاجًا من ذنوبه وأملأ قلبه رعبًا؛ فيستولى عليه الغمّ». فقال له إبراهيم: وهل أنت حقّا مَنْ يُدعى «الموت»؟. أجابه قائلاً: «أنا الاسم المرعب». فأجابه إبراهيم قائلاً: «لن أذهب معك». وقال إبراهيم للموت: «أرنى بشاعتك». فكشف الموت عن بشاعته، فظهر له رأسان أحدهما له وجه حَيّة، والآخر كان مثل السيف. وعندما رأى عبيد إبراهيم بشاعة الموت؛ ماتوا جميعًا ولكن إبراهيم دعا الرب فأحياهم جميعًا. ولأن منظر الموت لم يستطع إجبار روح إبراهيم على مفارقة بدنه؛ نزع الرب روح إبراهيم كأنه فى حلم، وأخذها الملاك الرئيس ميكائيل إلى السماء. وبعد تسبيح كثير

---

(١) وهذه رواية ثالثة عن سبب موت سارة؟؟. (المترجم)

وحمد من الملائكة الذين أحضروا روح إبراهيم، وبعدما ركع إبراهيم ليتعبّد؛ أتى صوت الرب قائلاً: «خذوا خليلى إبراهيم إلى الفردوس، حيث معابد عبادى المهتدين، ومثوى قديسىَّ إسحاق ويعقوب اللذين سيكونان فى حضنه، حيث لا همّ ولا غم ولا أحزان، بل سلام وفرح وحياة طيبة لا تنتهى».

ولن تتوقف شفاعة إبراهيم مع الموت إذ كما شفع فى هذا العالم من أجل الخطاة، لسوف يشفع لهم كذلك فى العالم الآتى. ولسوف يجلس فى يوم الدينونة عند بوابة الجحيم، ولن يدع من حافظوا على شريعة الختان يدخلونه.

m ـ صاحب حبرون

فى وقت من الأوقات كان بعض المؤمنين من بنى إسرائيل يعيشون فى «حَبْرون»، وكانوا متقين وأبرارًا وكراما. وعندما كان الغرباء يأتون إلى «قبر ماكفيلة» ليتعبدوا؛ كان أهل المكان يتنافسون على الفوز بميزة إكرام الغرباء، ومن يَفُزْ بذلك يبتهج وكأنما وجد غنيمة عظيمة.

وفى عشية «يوم التكفير»، ظهر أنه بالرغم من جهودهم (فى البحث عن العدد الذى به يتم التكفير)، فإن أهل حبرون لم يستطيعوا الحصول على الرجل العاشر المطلوب لإكمال العدد اللازم لإتمام خدمة «العشاء الربانى» وخشوا ألا يجدوا أحدًا فى ذلك اليوم المقدس. وقبيل المساء ـ والشمس على وشك الغروب ـ شاهدوا رجلاً عجوزًا ذا لحية بيضاء فضية يحمل صُرَّة فوق ظهره وثيابه ممزقة، وقد تورمت قدماه من طول المشى. فهرولوا إليه يستقبلونه، وأخذوه إلى أحد المنازل وأعطوه طعامًا وشرابًا، ثم بعدما زودوه بثياب بيضاء جديدة، ذهبوا جميعًا إلى «المعبد» ليتعبدوا. وعندما سألوا الغريب عن اسمه، قال لهم أنه «إبراهيم».

وعند نهاية الصوم؛ اقترع أهل حبرون على أيهم يفوز بغنيمة إكرام الضيف فأوقعته القرعة فى نصيب الشماس الذى أخذه إلى منزله وسط حسد الجميع له. وفى الطريق اختفى (الغريب) فجأة ولم يجده الشَّمَّاس فى

أى مكان. وبحث عنه كل أهل المكان. بدون جدوى فإنه لم يأت ليلهم الذى باتوه يبحثون عنه بنتيجة. إذ لم يظهر للغريب أثر. ولكن ما كاد الشماس يرقد قرب الفجر منهكًا راجيًا أن ينام لسويعات، إلا والضيف المختفى قد ظهر أمامه ووجهه كالبرق وعليه ثياب عظيمة مطعمة بجواهر فى مثل تألق الشمس. وقبل أن يقدر الشماس الذى أخرسه الخوف، على فتح فمه ليتكلم؛ بادره الغريب قائلاً: «أنا إبراهيم العبرى، جَدُّك، الذى يرقد فى هذه المغارة. وعندما رأيت مدى اغتمامك بعدم اكتمال العدد اللازم للخدمة العامة، جئت إليكَ. لا تخف، بل ابتهج وليُسَرَّ قلبك».

وفى مناسبة أخرى منح إبراهيم عونه لأهل حبرون. فقد كان حاكم المدينة رجلاً بلا قلب، وكان يضطهد بنى إسرائيل بقسوة. وذات يوم أمرهم أن يدفعوا مبلغًا كبيرًا من المال لخزانته، بحيث يكون المبلغ كله عبارة عن عملات جائزة عند التجار، وكلها تكون قد ضُربت فى نفس العام. وما كان ذلك إلا ذريعة منه ليقتل بنى إسرائيل. وكان يعلم أن أمره مستحيل تحقيقه.

وأعلن بنو إسرائيل يوما للصوم ويوما للخدمة العامة، يبتهلون فيهما إلى الرب لعله يرفع عنهم ذلك السيف المسلط على رقابهم. وفى الليلة التالية رأى الشماس فى حلم رجلاً عجوزًا يبعث منظره الرهبة فى النفس، خاطبه قائلاً: «قم بسرعة وهرول إلى بوابة البلاط حيث ستجد المال المطلوب. أنا جدك إبراهيم. لقد رأيت تلك البَليَّة التى يضطهدكم بها «الأغيار» ولكن الرب سمع أنينكم» فنهض الشماس من فراشه مذعورًا، ولم ير أحدًا، فذهب إلى البقعة التى تحددت فى الرؤيا؛ فوجد بها المال فأخذه إلى المجمع، وقص عليهم منامه فى ذات الوقت. فأخذوا وهم مذهولون يعُدُّون الذهب، فوجدوه هو بالضبط ذلك القدر الذى كان الأمير قد طلبه منهم، لا أكثر ولا أقل. فسلموه المال.

فأدرك الأمير ـ الذى كان قد احتال بهذه الحيلة وهى ذلك الطلب المستحيل حدوثه ـ أن الرب مع بنى إسرائيل ومن يومها أصبحوا مقربين إليه.

الفصل الخامس

فـى يعقـوب

أ ـ ميلاد عيسوْ ويعقوب

كان «إسـحق» نظير أبيه فى الجسم والروح. وكان يشبهه فى كل شىء: فى حكمته وجماله وقوته وثرائه وأفعاله النبيلة. ولهذا فقد كان شرفًا عظيمًا لإسحق أن يدعى ابن أبيه، كما كان إبراهيم يدعى أبا لابنه (أى يقال له «يا أبا إسحق»، ويقال لإسحق: «يا ابن إبراهيم»)، ورغم أن إبراهيم كان أبًا لثلاثين أُمَّةَ، فإنه دائمًا يكنى «أبا إسحق».

ورغم سجاياه العديدة، فإن إسحق لم يتزوج إلا فى سن متأخرة، فلم يأذن له الرب أن يلتقى بالزوجة المناسبة له إلا بعد أن نجح فى تفنيد افتراءات «إسماعيل» الساخرة وكان إسماعيل قد اعتاد معايرته بأنه قد اختتن وعمره لم يتجاوز ثمانية أيام، بينما استسلم «إسماعيل» طوعًا لتلك العملية. وهو فى الثالثة عشرة.

ولهذا السبب طلب الرب «إسحق» أضحية عندما اكتملت رجولته، فى السابعة والثلاثين من عمره، وكان «إسحق» على أتم استعداد للتضحية بحياته. وهكذا نُزعت سخرية «إسماعيل» وسلاطة لسانه وأُذِنَ لإسحق بأن يتزوج. ولكن تأخيرًا آخر حدث قبل أن يتم زواج إسحق. فبُعَيد التضحية على جبل المَريَّا مباشرة، ماتت أمه وأقام الحداد عليها لثلاثة أعوام. وفى

النهاية تزوج «رِفقة» وكانت فتاة فى الرابعة عشرة[١].

وكانت «رفقة» كوردة وسط الأشواك وكان أبوها هو «بَتُوئيل الآرامى»، وأخوها هو «لابان»، ولكنها لم تَسِرْ على دربهما. وكانت لا تقل عن «إسحاق» تقوى. ومع ذلك فلم يكن زواجها زواجًا سعيدًا تمامًا، إذ عاشا معًا ما لا يقل عن عشرين عامًا دون أن ينجبا أطفالاً. وناشدت رفقة زوجها أن يتوسل للرب ليهبهما طفلاً كما كان أبوه إبراهيم قد فعل. وفى البداية لم يُلَبِّ إسحق رغبتها. فقد كان الرب قد وعد إبراهيم بالذرية الكثيرة، وكان (إسحق) يظن أن عدم إنجابهما إنما كان بسبب من رفقة، ولذا فعليها هى أن تدعو الرب، وليس هو الذى يدعو. ولكن ذلك لم يثبط رفقة. وذهب الزوج مع زوجته إلى «جبل المُرِّيا» ليصليا للرب هناك. وقال إسحق: «مولاى يا رب السموات والأرض، يا من ملأ خيره ورحمته الأرض، يا من أخذ أبى من بيت أبيه ومن مسقط رأسه. وأتيت به إلى هذه الأرض وقلت له: لك ولنسلك أعطى هذه الأرض ووعدته وأعلنت له بأنك ستكثر ذريته مثل (عدد) نجوم السماء ورمل البحر، فلتتم الآن كلماتك التى قلتها لأبى؛ لأنك أنت مولانا وربنا، وأعيننا متوجهة إليك».

كما دعا إسحق بأن يكون كل نسله المقدر له أن ينجبهم يكونون من زوجته التقية، كما دعت «رِفقة» نفس الدعاء بأن يكون كل النسل المقدر لها أن تلدهم يكونون من إسحق.

وسُمع دعاؤهما المشترك. وبسبب إسحق وحده وهبهما الرب يعقوب وعيسو. صحيح أن تقوى رفقة لم تكن تقل عن تقوى زوجها، ولكن دعاء الرجل الصالح الذى هو ابن لرجل صالح يكون أرجى فى الاستجابة من دعاء من انحدر من أب كافر، ولو كان هو نفسه تقيًا.

وكان للدعاء أثر معجز، إذ كانت بِنْية إسحق لا تسمح له بإنجاب الذرية،

(١) لماذا إذاً يتهجمون على النبى الأكرم ﷺ ويتهمونه بالشهوانية لأنه تزوج السيدة عائشة وهى فى الحادية عشرة من عمرها؟. (المترجم)

كما لم تكن طبيعة رفقة تتيح لها إنجاب أولاد.

وعندما كانت رفقة حاملاً فى شهرها السابع؛ بدأت تتمنى لو لم تكن لعنة عدم إنجاب الأولاد قد انجلت عنها. فقد كانت تعانى آلامًا رهيبة، إذ كان ولداها التوءمان قد بدآ صراعهما الذى استمر طوال حياتهما، وهما لايزالان بعد فى رحمها. وكان كل منهما يحاول قتل الآخر - وإن مشت رفقة بالقرب من معبد شُيِّد للأصنام، كان «عِيسُو» يتحرك فى بطنها، وإن مرت على «معبد» أو«بيت ها ميدراش» (= مدرسة لتعليم الشريعة اليهودية) كان يعقوب يحاول شق بطنها والخروج منه.

وكان الجنينان يتصارعان بسبب الاختلاف على أمر كالتالى: فقد كان عيسو يصرُّ على أنه ليست هناك حياة سوى الحياة الأرضية ذات الملذات الحسية، وكان يعقوب يرد عليه قائلاً: «يا أخى هناك عالمان أمامنا، هذا العالم والعالم الآتى. وفى هذا العالم يأكل الناس ويشربون ويسافرون ويتزوجون وينجبون الأبناء والبنات، وهذا كله لا يحدث فى العالم الآتى. وإن كنتُ تحب ذلك، فخذ أنت هذا العالم، وسآخذ أنا الآخر». وكان يقف إلى صف عيسو، «إسَمَاعِيلُ» الذى كان يريد قتل «يعقوب» وهو لايزال بعدُ فى رحم أمه. ولكن الملاك الرئيس ميكائيل كان يسرع إلى نجدة يعقوب. وكان يريد حرق «عيسو» فرأى الرب أن تعقد محاكمة سماوية للفصل فى قضية ميكائيل و «عيسو». وحتى الخلاف بين الأخوين على حق الميلاد نشب قبلما يخرجان من بطن أمهما. فقد كان كل منهما يريد أن يكون هو الخارج أولاً إلى هذا العالم. وعندما هدد عيسو بأن ينفذ رغبته على حساب حياة أمه؛ أذعن يعقوب لرغبته.

وسألت رفقةُ النساء الأخريات إن كن هن أيضًا قد عانين مثل هذا الألم خلال فترة حملهن، وعندما أخبرنها بأنهن لم يسمعن عن حالة مثل حالتها، عدا حمل أم النِّمرود، ذهبت إلى جبل المُريَّا حيث كان «بيت هاميدراش» سام وعابر. وطلبت منهما ومن إبراهيم أن يسألا الرب عن سبب آلامها الرهيبة.

فأجابها سام: «سأفضى لك بسر يا بنيتى، فلا تخبرى به أحدًا؛ ففى رحمك أُمَّتان، وكيف لجسدك أن تحتويهما، والعالم كله لن يسعهما ليعيشا معًا فى سلام؟ وهما أمّتان لكلّ عالَمُها، إحداهما (عالمها) التوراة، والأخرى (عالمها) الخطيئة. ومن إحداهما سيخرج «سليمان» بانى الهيكل، ومن الأخرى «فيسباسيان» مُدَمِّرُه. وهاتان الأمتان لابد أن يُوجدا؛ ليرتفع العدد (عدد الأمم) إلى سبعين. ولن يكونا أبدًا على وفاق. فلسوف يتفاخر عيسو بالسادة، بينما ينجب يعقوب أنبياء، ولئن يكون لعيسو أمراء، فسيكون ليعقوب الملوك. وهما إسرائيل وروما، فإنهما هما الأمّتان اللتان قُدِّر أن تكرههما كل الأمم. ولسوف تفوق إحداهما الأخرى فى القوة. وسوف يُخضع عيسو العالم كله فى البداية، ولكن فى النهاية سيحكم يعقوب على الجميع. ولسوف يخدم أكبرهما أصغرهما، بشرط أن يكون نقى القلب، وإلا فلسوف يستعبد الأكبرُ الأصغرَ».

وكانت ظروف ولادة ابنيهما التوأمين لا تقل غرابة عن ظروف حملهما فى بطن أمهما. فكان عيسو أول من يرى النور ومعه خرجت كل قذارات الرحم؛ أما يعقوب فقد ولد نظيفًا طاهر البدن. وولد عيسو بشعر ولحية وأسنان، أمامية وخلفية وكان دمه أحمر، علامة على طبيعته الدموية فى المستقبل. وبسبب منظره الدموى فقد ظل بدون ختان. وكان إسحق أبوه يخشى أن ذلك كان بسبب ضعف دورته الدموية، فتردد فى ختانه. وقرر الانتظار حتى يبلغ عيسو عامه الثالث عشر، نفس العمر الذى تلقى فيه «إسماعيل» علامة العهد: لكن عندما كَبُر عيسو، رفض الاستجابة لرغبة أبيه، ولذا فقد تُركَ بدون ختان. وعلى نقيض أخيه فى ذلك وفى كل شىء، ولد يعقوب وعلامَة العهد (= الختان) على بدنه، وهذا امتياز نادر. ولكن عيسو كان يحمل أيضًا علامة على بدنه عند مولده، وهى رسم حية، رمز كل شر وكل ما يبغضه الرب.

والأسماء التى أطلقت على الأخوين حُبلى بالمعانى. فالأكبر سُمِّىَ عيسو لأنه كان «عتسوم» (= شديد أو قوى بالعبرية)، أى كامل النمو عند مولده،

أما اسم الأصغر فقد سماه به الرب، ليشير إلى بعض الأحداث المهمة فى مستقبل إسرائيل عن طريق القيمة العددية لكل حرف من حروف اسمه. فالحرف الأول فى «يعقوب»، وهو الياء قيمته عشرة، ويمثل الوصايا العشر؛ والحرف الثانى «العين» ويساوى سبعين، ويمثل الشيوخ السبعين، زعماء إسرائيل (= السبعين رجلاً الذين اختارهم موسى لميقات الرب)، والثالث «قوف» (= ق) يعادل مئة ويشير إلى «الهيكل» الذى يبلغ ارتفاعه مئة ذراع؛ والأخير «بيت» (= باء) يمثل المنضدتين الحجريتين.

ب ـ المفضَّل لدى إبراهيم

وبينما كان عيسو ويعقوب لا يزالان صغيرين؛ لم يكن من الممكن الحكم على شخصيتهما بشكل مناسب. وكانا مثل الأُترجّة والحَسَكة، اللتين يشبه أحدهما الآخر فى صغرهما. وبعد ما يكتمل نموهما، تُعرف الأترجة من رائحتها الذكية، وتعرف الحسكة من أشواكها.

وفى طفولتيهما ذهب الأخوان كلاهما إلى «المدراش»، ولكن عندما بلغا من العمر ثلاثة عشر عامًا، وبلغا مبلغ الرجال، تفرقت بهما السبل. فقد واصل يعقوب دراسته فى «بيت هاميدراش» سام وعابر، بينما استسلم عيسو لعبادة الأصنام وحياة الفاحشة. وكان كلاهما صياد رجال. وكان عيسو يحاول السيطرة عليهم ليضلهم عن طريق الرب، ويحاول يعقوب هدايتهم إلى الرب. وبرغم خطاياه، كان عيسو يمتلك فن الاستيلاء على حُبِّ أبيه. وجعل نفاقه إسحق يظن أن بكْرَهُ شديد التقى. وكان (عيسو) يسأل إسحق قائلاً: «ما عُشر القش والمِلح يا أبتاه؟» فيجعله السؤال يبدو فى عينى أبيه وكأنه يخاف الرب؛ لأن هذين النوعين مستثنيان من التعشير (إخراج عشر المحصول قربانا). كذلك لم يلحظ إسحق أن ابنه البكر كان يعطيه طعامًا محرمًا ليأكله. فما كان يأكله على أنه لحم شاة، كان فى الحقيقة لحم كلب.

وكانت رِفقة أبعد نظراً (من إسحق). إذ كانت تعلم حقيقة ابنيها، ولذا

فقد كان حبها ليعقوب فائقًا وعظيمًا. وكلما سمعت صوته كلما ازدادت حبًّا له. ووافقها إبراهيم على ذلك. وكان هو أيضًا يحب حفيده يعقوب، إذ كان يعلم أنه فيه هو سوف يُدّعَى اسمه وذريته. وقال (إبراهيم) لرفقة: «اعتنِ يا بنية بابنى يعقوب؛ لأنه سيحل محلى على الأرض، وسيكون بركة لكل البشر وفخرًا لكل ذرية سام». وبعدما أكد عليها هكذا لترعى يعقوب الذى قُدِّر له أن يحمل البركة التى أحلها الرب على إبراهيم؛ نادى (إبراهيم) حفيده وباركه فى حضرة رِفقة وقال: يعقوب يا بُنَّى الحبيب، يا من تحبه روحى، فليباركك الرب من فوق سمائه، وليمنحك كل البركة التى بارك بها آدم وأنوش ونوحًا وسامًا، وليعطك كل الأشياء التى أخبرنى بها، ولينعم عليك بكل الأشياء التى وعدنى بها، وعلى ذريتك إلى الأبد، حسب أيام السموات فوق الأرض. ولا تتحكم فيك روح «ماستيما» ولا فى ذريتك، فتضلك عن الرب الذى هو إلهك من الآن فصاعدًا. وليكن الرب مولانا أبًا لك ولتكن ابنه البكر، وليكن أبًا لشعبه دائمًا. اذهب بسلام يا بنى».

وكان لدى إبراهيم سبب وجيه لأن يُغرم بيعقوب إلى هذه الدرجة، إذ بسبب سجايا حفيده تم إنقاذه من النار المهلكة.

ولأن إسحق ورفقة كانا يعلمان حب إبراهيم لابنهما الصغير، أرسلا لإبراهيم طعاما مع يعقوب فى آخر وليمة من ولائم «عيد الخمسين*» سُمِحَ لإبراهيم بأن يحتفل بها على الأرض، لكى يأكل ويحمد خالقه خالق كل شىء قبلما يموت. وكان إبراهيم يعلم أن نهايته كانت تقترب، وحمد الرب على كل الخير الذى منحه إياه خلال أيام حياته؛ وبارك يعقوب وأمره بأن يسير فى سبل الرب، وخصوصًا بأن لا يتزوج من ابنة للكنعانيين. ثم تجهز إبراهيم للموت ووضع إصبعين من أصابع يعقوب على عينيه فأبقاهما مغمضتين حتى راح فى سباته الأبدى، بينما يعقوب راقد بجواره على السرير. ولم يعلم

* عيد الخمسين أو عيد الأسابيع هو العيد الثانى من أعياد اليهود القومية وكانوا يحتفلون به فى يوم الخميس أى بعد سبعة أسابيع من عيد الفصح. (المترجم).

الغلام بموت جده إلا بعد أن نادى عليه، عندما استيقظ فى الصباح التالى قائلاً: «أبى، أبى». فلم يرد عليه.

جـ ـ بيع حق البكورة

ورغم أن إبراهيم كان قد بلغ عمرًا كبيرًا جدًّا، يفوق حدود السنوات التى كُتبت للأجيال اللاحقة؛ فقد مات قبل أجله المكتوب بخمسة أعوام. وكانت النية أن يترك ليعيش حتى يبلغ مئة وثمانين عامًا، وهو نفسه عمر إسحق عند موته، ولكن الرب أنهى حياته فجأة بسبب «عيسو» فقد ظل عيسو يتبع شهواته خفية لفترة من الزمن. وفى النهاية خلع القناع عن وجهه. وفى يوم موت إبراهيم كان قد ارتكب خمس جرائم: فقد اغتصب جارية مخطوبة، واقترف كبيرة القتل، وارتاب فى بعث الموتى، واحتقر حق الميلاد، وأنكر الرب. فقال الرب حينها «لقد وعدت إبراهيم بأن يذهب إلى آبائه بسلام. هل أستطيع الآن أن أجعله يشهد بعينيه تمرد حفيده على الرب، وتجاوزه شريعة العفاف، وإراقته للدماء؟ من الأفضل له أن يموت الآن بسلام».

وكان الرجال الذين قتلهم عيسو فى ذلك اليوم هم النِّمرود واثنين من مساعديه. وكان قد نشب نزاع طويل بين عيسو والنمرود، لأن الصياد العظيم أمام الرب (= النمرود) كان يغار من عيسو، الذى كان قد برع هو أيضًا فى الصيد والقنص وذات مرة وهو يصطاد وحده حدث أن فارق النمرود قومه ولم يكن معه سوى رجلين. ولاحظ عيسو الذى كان مختبئًا لهما عزلته وانتظر حتى يمر على مخبئه. ثم هجم على النمرود فجأة وذبحه هو ومرافقيه اللذيْن هَرَعَا لنجدته وجلبت صرخاتهما جلساء النمرود إلى البقعة التى رقد فيها قتيلاً، قبل أن يجرده عيسو من ثيابه ويريها لأهل المدينة.

وكان لثياب النمرود تأثير غريب على الماشية والبهائم والطيور التى كانت تأتى طوعًا لتخر ساجدة أمام من يرتدى هذه الثياب. وهكذا استطاع النمرود، وعيسو من بعده، السيطرة على البشر والبهائم.

وبعد ما ذبح النمرود هرول عيسو فى اتجاه المدينة خائفًا مذعورًا من أتباع ضحيته. ووصل إلى بيته متعبًا منهكًا ليجد يعقوب مشغولاً بإعداد طبق عدس. وكان فى بيت إسحق عبيد وإماء كثيرون. ومع ذلك فقد كان يعقوب بسيطًا متواضعًا فى سلوكه لدرجة أنه عندما كان يصل إلى البيت عائدًا من «بيت هاميدراش» متأخرًا، لم يكن ليزعج أحدًا ويجعله يعد له طعامه، فقد كان يعدها بنفسه. وفى هذه المرة كان يطبخ العدس من أجل أبيه، ليقدمه إليه طعام حدادٍ بعد موت إبراهيم. وكان آدم وحواء قد أكلا العدس بعد مقتل هابيل، وكذلك فعل أبو «هاران»، عندما هلك فى النار العظيمة. والسبب فى استخدام العدس فى وجبة المحتد: هو أن العدس المستدير يرمز إلى الموت: فكما يدور العدس يدور الموت والحزن والحداد على البشر كافة، منتقلين من شخص إلى آخر.

وهاجم عيسو أخاه قائلاً: «لماذا تطهو العدس؟.»

يعقوب: «لأن جدنا قد رحل؛ وسوف يكون العدس علامة على حزنى وحدادى عليه فلعله يحبنى فى الأيام القادمة».

عيسو: «يا لك من أحمق! هل تظن حقّا أنه من الممكن أن يعود الإنسان مرة أخرى إلى الحياة بعد أن يكون قد مات وتحلل إلى تراب فى قبره؟» وواصل إغاظته ليعقوب قائلاً: «ولماذا تزعج نفسك إلى هذا الحد؟ ارفع عينيك وسترى جميع البشر يأكلون ما تصل إليه أيديهم أيّا كان. سمكًا كان أم مخلوقات زاحفة أو لحم خنزير، وكُلَّ ما شابه ذلك، وأنت تزعج نفسك بطبق عدس!!» يعقوب: «لئِنْ فعلنا كما يفعل غيرنا؛ **فما الذى سنفعله إذًا فى «يوم الرب»**. ذلك اليوم الذى يكافأ فيه المتقون على أعمالهم، وينادى منادٍ: أين هو غيرى الذى يزن أعمال العباد؟ أين هو غيرى الذى يُحْصِى؟.»

عيسو: «وهل هناك عالم آخر؟ وهل سيبعث الموتى؟ ولئن كان ذلك، فلماذا لم يَعُدْ آدم إذًا؟ هل بلغك أن نوحًا، الذى بُعِثَ العالم من خلاله مرة أخرى؛ قد ظهر مرة أخرى؟ وهل عاد للحياة مرة أخرى إبراهيم، خليل

الرب، وأكثر من أحبه الرب من بين البشر؟».

يعقوب: «لئن كنت تظنن أنه ليس هناك حياة أخرى، وأن الموتى لن يُبعثوا للحياة من جديد، فلماذا إذًا تطالب بحقك فى البكورة؟ بعْهُ لى الآن، وأنت لازلت تقدر أن تفعل ذلك. فما إن تُنَزَّل التوراة، لن يُصبح ذلك بمستطاع حقّا هناك عالم آخر فيه يتلقى المهتدون جزاءهم. وإنى لأَقولُ لك ذلك الآن لكيلا تقول فيما بعد أننى قد غششتك».

ولم يكن يعقوب يهتم كثيرًا بالنصيب المضاعف فى الميراث الذى يستوجبه حق البكورة وإنما كان يفكر فى خدمة الكهانة التى كانت حقّا ثابتًا للابن البكر فى العصور القديمة، وكان يعقوب يكره أن يقوم أخوه الضال عيسو بخدمة الكهانة، لأنه يحتقر كل خدمة إلهية.

ولم يكن عيسو يشعر بالاحتقار فقط من (فكرة) بعث الموتى، وإنما كان كذلك يسخر من الوعد الذى وعده الرب لإبراهيم بأن يُعطى «الأرض المقدسة» لنسل إبراهيم. ولم يكن يؤمن به؛ ولذا فقد وافق فى رضا على أن يتنازل عن حقه فى البكورة مقابل صاع من الثريد. وفوق ذلك دفع له يعقوب الثمن نقدًا وأعطاه ما هو أكثر من المال، أعطاه سيف «ميتوشائيل العجيب» الذى ورثه إسحق عن إبراهيم ثم منحه ليعقوب.

وأخذ عيسو يستهزأ بيعقوب، ودعا أقرانه إلى مائدة أخيه قائلاً: «هل تعلمون ما صنعتُ بيعقوب هذا؟ لقد أكلتُ عدسه وشربتُ خمرهُ ومتعت نفسى على حسابه، وبعتُه حقى فى البكورة». ولم يجبه يعقوب بشىء سِوى أن قال له: «كل ولعلّه يفيدك» ولكن الرب قال له: «إنك ستستهزئ بحق البكورة، ولذا فلسوف أجعلك هزوًا لكل الأجيال». وكعقاب له على إنكار الرب وبعث الموتى؛ اجتثت ذرية «عِيسو» من على وجه الأرض.

ولأن عيسو لم يكن يقدس شيئًا؛ جعله يعقوب يُقسم، على ما يخص حق البكورة، بحياة أبيهما؛ فقد كان يعلم مدى حب عيسو لإسحق، وأنه كان

شديد الحب له. ولم يَفُتْهُ أيضًا أن يكتب وثيقة وقّع عليها شاهدان؛ تقر بأن عيسو قد باعه حقه فى البكورة مع نصيبه فى مكان قبر ماكفيلة.

ورغم أن يعقوب لا يلام على أى من هذا، إلا أنه سلبه حق البكورة بالخديعة، ولذا كان لابد أن يخدم نسل يعقوب نسل عيسو (مدة).

د ـ إسحق مع الفلسطينيين

وكانت حياة إسحق صورة مطابقة لحياة أبيه. فقد اضطر إبراهيم إلى مغادرة مسقط رأسه؛ وكذلك فعل إسحق. وتعرض إبراهيم لخطر فقد زوجته؛ وكذلك كان إسحق. وكان الفلسطينيون يحسدون إبراهيم؛ وكذلك فعلوا مع إسحق. وظل إبراهيم فترة طويلة بدون أطفال؛ وكذلك كان إسحق. وأنجب إبراهيم ولدًا صالحًا وآخر طالحًا؛ وكذلك إسحق. وأخيرًا كما حدث فى أيام إبراهيم، حدث فى زمن إسحق؛ فقد ضربت الأرض مجاعة.

وفى لبداية كان إسحق ينوى أن ينهج نهج أبيه، ويرحل إلى مصر، ولكن الرب ظهر له وقال له: «أنت أضحية كاملة، وبدون نقص عضو واحد، وكما أن القربان المحروق لا يصلح إذا أُخْرِج من المجمع المقدس، فكذلك ستتدنَّسُ إذا خرجت من الأرض المقدسة. ابقَ فى الأرض، وحاول زراعتها. ففى هذه الأرض تُقيم «الشكينة»، وفى مستقبل الأيام سأعطى لنسلك الممالك التى يمتلكها حكام أقوياء. فى البدء جزء منها، ثم الكل فى أيام «المَسِيًّا»[1].

وأطاع إسحق أمر الرب واستوطن «جرِار». وعندما لاحظ أن سكان المكان بدأوا يخططون لخطف زوجته منه؛ اتبع مِثال إبراهيم وادعى أنها أخته.

(١) لاحظ: قول التلمود: «وفى مستقبل الأيام سأعطى لنسلك الممالك التى يمتلكها حكام أقوياء.
فى البدء جزء منها.
ثم الكل فى أيام «المسيا».
ومعنى هذا القول: أن جميع ممالك العالم ستكون ملكاً لمحمد ﷺ الذى هو المسيا فى نظرهم. وأن ملك موسى عليه السلام كان قليلاً. وعن هذا المعنى جاء فى القرآن الكريم: ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴾ أى مدة شريعتك ـ وهى الآخرة بالنسبة للأولى التى هى مدة شريعة التوراة ـ خير لك من مدة الشريعة الأولى.

ووصلت أخبار جمال «رِفقة» إلى الملك نفسه، ولكنه لم يكن قد نسى بعدُ الخطر العظيم الذى عَرَّض له نفسه فى مناسبة مماثلة، فترك إسحق وزوجته بدون أن يتعرض لهما بشىء. وبعدما صار لهم فى جرار ثلاثة أشهر؛ لاحظ «أبيمالك» أن تصرفات إسحق (تجاه رفقة) ـ الذى كان يعيش فى الفناء الخارجى للقصر الملكى ـ هى تصرفات زوج تجاه زوجته فاستدعاه حينئذٍ ليحاسبه وقال له: ربما عرض للملك نفسه أن يأخذ المرأة التى تزعم أنها أختك.

وفى الواقع كان إسحق قد عرض نفسه للارتياب فى أنه يقيم علاقة غير شرعية مع رِفقة، إذ فى البداية لم يكن يصدق أهل المكان أنها زوجته. ولكن عندما أصر إسحق على ادعائه؛ أرسل أبيمالك كبراءه لهما، وأمر بإلباسهما لباسًا ملكيًا وأن يسعى أمامهما منادٍ ينادى فى شوارع المدينة قائلاً: «هذا رجل وزوجته. ومن يتعرض لهذا الرجل أو لزوجته؛ فلسوف يحكم على نفسه بالقتل حتمًا».

وبعد ذلك دعا الملك إسحق ليعيش فى أراضيه، وخصص له حقولاً وكرمات ليزرعها، وكانت من أفضل الأراضى. ولكن إسحق لم يكن مهتما بنفسه. فأعطى عُشر كل ما كان يملك لفقراء جرار. وهكذا كان هو أول من سن قانون إخراج العشر صدقة للفقراء، كما كان أبوه إبراهيم أول من أخرج نصيب الكهنة من ثروته وكوفئ إسحق على ذلك بحصاد وفير، وأخرجت الأرض أكثر مما كان متوقعًا منها مئة مرة. ورغم أن التربة كانت مجدبة والسنة كانت عقيمًا؛ أصبح غنيًا إلى حد أن الناس تمنوا أن يكون لهم روث بغلات إسحق ولا يكون لهم ذهب أبيمالك وفضته. ولكن ثراءه جلب عليه حسد الفلسطينيين، إذ أنها عادة الأشرار أن يحقدوا رفاقهم على ما فى أيديهم من خير، ويبتهجو عندما تنزل بهم نازلة. والحسد يجر البغضاء فى ذيله، ولذا فقد حسد الفلسطينيون إسحق فى البداية ثم أبغضوه. ومن كراهيتهم له طمسوا الآبار التى كان إبراهيم قد جعل عبيده يحفرونها. وهكذا خالفوا ميثاقهم مع إبراهيم وكانوا أهل غدر فلذلك ليس لهم إلا أن

يلوموا أنفسهم لو استأصلهم الإسرائيليون بعد ذلك.

ورحل إسحق عن جرَار، وبدأ يحفر ثانيةً الآبار التى كانوا قد حفروها فى أيام إبراهيم أبيه، التَى كان الفلسطينيون قد طمسوها. وكان توقيره لأبيه عظيمًا لدرجة أنه استعاد للآبار أسماءها التى كان إبراهيم قد سماها بها. ولكى يكافئه على ذكراه العطرة لأبيه؛ ترك الرب اسم إسحق بدون تغيير، بينما تغير اسم أبيه واسم ابنه.

وبعد أربع محاولات لإخراج المياه؛ نجح إسحق إذْ وجد بئر الماء التى كانت ملك «الآباء» وكان إبراهيم قد حصل عليها بعد ثلاث محاولات للحفر، ومن هنا جاء اسمها «بئر سبع[1]» أى بئر سبع محاولات للحفر، وهى نفس البئر التى ستمد «أورشليم» ومن حولها بالمياه فى زمن «المَسِيّا».

ولم يزد نجاح إسحق فى حفر آباره الفلسطينيين إلا حسدًا له، إذْ وجد الماء فى بقعة جدباء، وفى عام قحط. ولكن «الرب يحقق آمال من يخشونه». كما نفَّذ إسحق إرادة خالقه؟ فإن الرب حقق له آماله. وهرع إليه أبيمالك ـ ملك الفلسطينيين ـ ليرى أن الرب كان مع إسحق، إذْ لكى يعاقبه على أنه كان وراء رحيل إسحق من جرار؛ جعل اللصوص يسطون على منزله ليلاً وابْتُلىَ هو نفسه بالجذام. وجَفَّت آبار الفلسطينيين بمجرد أن غادر إسحق جرَار، كما عقم الشجر ولم يطرح ثمرًا. وعندها لم يساور أحد الشك فى أن هذه الأشياء إنما كانت بسبب شرهم.

عندئذ ناشد أبيمالك أصدقاءه، وخصوصًا وزراء مملكته، أن يصحبوه إلى إسحق ليساعدوه على استعادة صداقته معه. وكَلَّم أبيمالك والفلسطينيون إسحق قائلين: «لقد اقتنعنا بأن «الشكينة» معك، ولهذا فإننا نريد منك إعادة العهد الذى قطعه أبوك معنا؛ لا تؤذينا بشىء، ولا نتعرض نحن لك بشىء. فوافق إسحق على طلبهم. وذلك يظهر طبيعة الفلسطينيين أنهم مَنُّوا عليه بأنهم لن يؤذوه بشىء. وذلك يظهر أنه يسعدهم أن يؤذوه،

(١) تذكر أنه ورد سبب آخر لتسمية البئر بهذا الإسم، فى ص٢٤٦، لكن وكما هى العادة لابد من التزوير لنسبة كل رذيلة إلى العرب وإلى الفلسطينيين. (المترجم)

لأن «روح الأشرار ترغب فى الشر».

وسُمِّىَ المكان الذى عُقد فيه العهد بين إسحق والفلسطينيين «شِبْعَة»، وذلك لسببين: أولهما أنهم أقسموا يمينًا هناك؛ والآخر ليكون فيه تذكرة بأنه حتى الوثنيين يلتزمون بقوانين نوح «السبعة».

وكان إسحق مدينًا لسجايا أبيه التى كانت وراء كل العجائب التى صنعها له الرب، وكل الخيرات التى انتفع بها طوال حياته. أما عن فضائله هو: فلسوف يثاب عليها فى المستقبل. ففى يوم القيامة العظيم سوف يكون إسحق هو الذى ينجى نسله من جهنم. وفى ذلك اليوم سيقول الرب لإبراهيم: «لقد أخطأ نسلك». فيجيبه إبراهيم: «فليهلكوا إذًا، ليتقدس اسمك». فيتجه الرب إلى يعقوب، ظانا أنه، وهو وحده الذى عانى كثيرًا فى تربية نسله، ستكون عنده رأفة بنسله. ولكن يعقوب سيجيبه بمثل ما أجابه به إبراهيم. عندئذ سيقول الرب: «الكبير لا يفهم، والصغير لا يُستَشار. سأذهب الآن إلى إسحق». ويذهب إليه ويناديه يا إسحق. فيجيب قائلاً: «لقد أخطأ نسلك يا إسحق». فيجيبه إسحق: «يا رب العالم أتقول نسلى؟ أما هم نسلك عندما وقفوا على جبل سيناء وأعلنوا استعدادهم لإنفاذ كل ما أمرتهم به حتى قبل أن يسمعوه، عندها سميت إسرائيل «ابنى البكر»، والآن أصبحوا نسلى أنا، لا نسلك؟ فلنتدارس الأمر. إن عمر الإنسان سبعون عامًا. يُخصم منها عشرون، فأنت لا تحاسب من هم تحت العشرين. ومن الخمسين عامًا المتبقية يُخصم نصفها فى قضاء الليل فى النوم. فلا يبقى إذًا سوى خمس وعشرين سنة. تقل إلى اثنتى عشرة ونصف إن خصمنا منها الوقت الذى يقضى فى الصلاة والأكل وأداء حاجات الحياة، إذ خلالها لا يخطىء البشر. وهكذا لا تبقى سوى اثنتى عشرة ونصف السنة فلو حملتها أنت كلها؛ فخيرًا وبركة، وإن لم تفعل سأتحمل أنا نصفها وتتحمل أنت النصف الآخر». وعندها سيقول نسل إسحق: «حقًا أنت أبونا الحقيقى! » ولكن إسحق سيوبخهم وهو يشير إلى الرب قائلاً: «لا تحمدونى بل احمدوا الرب وحده» وسيقول بنو إسرائيل وأعينهم مرفوعة إلى السماء: «أنت يا رب

أبونا، ومخلّصنا من العذاب الأبدى. هو اسمك».

وكان إسحق، أو كما يقال له أحيانًا «أليُهو بن بَرَاخْئيل» هو الذى كشف الألغاز العجيبة فى الطبيعة من خلال مجادلته مع «أيوب»[1].

وفى نهاية سنى المجاعة؛ ظهر الرب لإسحق وأمره أن يعود إلى كنعان وفعل إسحق كما أمره الرب واستقر فى «حبرون». وفى هذا الوقت أرسل ابنه الأصغر يعقوب إلى «بيت هاميدراش» سام وعابر ليدرس شريعة الرب. وظل يعقوب هناك اثنتين وثلاثين سنة. أما عيسو فقد رفض أن يتعلم وبقى فى بيت أبيه. وكان الصيد حرفته الوحيدة. وكما كان يطارد البهائم، فقد كان يطارد الناس، محاولاً الإمساك بهم عن طريق المكر والخديعة.

وفى إحدى جولات صيده؛ أتى عيسو إلى «جبل سِعِير» حيث تعرَّف على «يهوديت» من نسل حام، واتخذها زوجة لنفسه، وأحضرها إلى أبيه فى «حَبرون».

وبعد ذلك بعشر سنوات وعندما مات مُعَلِّمُه «سام» عاد يعقوب إلى بيته وعمره خمسون سنة. ثم مرت ست سنوات أخرى، وتلقت رفقة الأخبار السارة بأن عديلتها «عدينة»، زوجة لابان، التى كانت عقيمًا حتى ذلك الوقت مثل جميع نساء هذا البيت، قد ولدت ابنتين توأمتين هما «لَيْئَة وراحيل» ولما كانت رفقة قد سئمت حياتها بسبب المرأة التى اختارها ابنها الأكبر زوجة له، فقد ناشدت ابنها يعقوب أن لا يتزوج من بنات الكنعانيين، وليتزوج واحدة من عشيرة إبراهيم. فأكّد لأمه أن كلمات أبيه التى أمره بها أن لا يتزوج من بنات الكنعانيين، قد انطبعت فى ذاكرته؛ ولهذا السبب فقد ظل دون زواج حتى الآن، رغم أنه قد وصل إلى سن الثانية والستين، ورغم أن عيسو ظل طوال الاثنتين وعشرين سنة الماضية يستحثه على أن يحذو حذوه، ويتزوج واحدة من بنات المدينة التى يعيشون فيها. وكان خاله «لابان» له بنات، فاستقر عزم يعقوب على أن يتزوج واحدة منهن. ومن تأثرها الشديد بكلام ابنها، شكرته رفقة وحمدت الرب قائلة: «حمدًا للرب وليتبارك اسمه المقدس إلى أبد الآبدين. هو الذى أعطانى يعقوب كولد

(١) وهل عاصر أيوب إسحق؟ أم كله تخريف فى تخريف؟. (المترجم)

صالح ونيته مقدسة؛ فهو مِلْكُك وسيكون نسله مِلْكَك باستمرار، وعبر كل الأجيال إلى أبد الآبدين. باركه يا رب وضع فى فمى بركة الاستقامة؛ لكى أستطيع مباركته».

وعندما حلت عليها روح الرب؛ وضعت يدها على رأس يعقوب ومنحته بركتها الأموية وأنهتها بالكلمات: «ليحبك رب العالم، كما تحبُّك أمك الحنونة وتفرح بك، وليباركك هو».

هـ ـ إسحق يبارك يعقوب

وكان زواج عيسو من بنات الكنعانيين غير محمود، ليس فقط فى عينى أمه، ولكن أيضًا فى عينى أبيه الذى عانى أكثر من «رفقة» بسبب الطقوس الوثنية التى كانت تقوم بها زوجة ابنه. ومن طبيعة الرجل أنه يبدى مقاومة قليلة للظروف السيئة. فالعَظْمة (أى المرأة التى خلقت من ضلع) لا يكسرها اصطدام، يتكسر بسببه إناء فخارى (أى الرجل المخلوق من طين). والرجل الذى خُلق من تراب الأرض ليس له نفس القدرة على التحمل التى تتمتع بها المرأة التى خُلقت من العَظْم. وقد شاخ إسحق قبل الأوان بسبب تصرفات زوجة ابنه، وفقد بصره.

وكانت «رفقة» قد تعودت فى بيت أبيها على حرق البخور أمام الأوثان، ولذا فقد استطاعت احتماله تحت سقف بيتها. ولكن إسحق ـ وعلى العكس منها ـ لم يتعود ذلك أبدًا. وهو يعيش فى بيت والديه، ولذلك كان يؤلمه الدخان المتصاعد من القرابين التى كانت تقدمها زوجة ابنه إلى أصنامها فى بيته الخاص. وكانت عينا إسحق قد تعرضتا للأذى من قبل فى حياته فحينما كان راقدًا موثقًا على المذبح، وأبوه على وشك التضحية به، بكت عليه الملائكة فسقطت دموعهم على عينيه وبقيت بداخلهما وأضعفت بصره.

كما جلب على نفسه بلوى العمى بحبه لعيسو. فقد وقف فى صف الشرير من أجل رشوة، وهى رشوة حب عيسو له، والعمى هو العقوبة التى يستوجبها قبول الرشا. وكما يقال: «فالهدية تعمى عين الحكيم».

ومع ذلك فإن عماه ثبتت فائدته لإسحق وليعقوب. فبسبب عجزه البدنى، كان إسحق مضطرًا إلى ملازمة البيت، وبذا وَفَّر على نفسه ما قد يتعرض له من ألم عندما يشير إليه الناس ويقولون: هذا هو أبو عيسو الشرير. ولو لم يكن بصره قد كلّ لما كان بارك يعقوب. وعامله الرب كما يعامل الطبيب مريضه الذى حُرِّم عليه شرب الخمر التى يجد فى نفسه رغبة شديدة لشربها. ولكى يُشْبِعَ الطبيب رغبته، أمر له بأن يُعطى ماءً دافئًا فى الظلام ويقال له إنه خمر.

وعندما بلغ إسحق من العمر مئة وثلاثةً وعشرين عاما، واقترب من العمر الذى عاشته أمه؛ بدأ يفكر فى أَجَلِه. ومن الخير أن يستعد الإنسان للموت عندما يقترب من العمر الذى مات فيه أحد والديه. ولم يدر إسحق إن كان العمر المقدر له أن يعيشه هو عمر أمه أو أبيه، ولذا فقد قرر أن يمنح بركته لابنه الأكبر «عيسو» قبلما يخطفه الموت.

فاستدعى «عيسو» وقال له: يا بنى. فأجابه قائلاً: ها أنا ذا. ولكن الروح القدس قد حل فى قلب أبيه قائلاً: إنه ألان صوته وجعله عَذْبًا؛ فلا تثق به. ففى قلبه سبعة أحقاد. ولسوف يهلك سبعة أماكن مقدسة: التابوت (تابوت العهد) وأقداس الجِلْجَال وشِيلو، وتُوب، وجِبعون، وهيكل سليمان الأول والثانى.

ورغم أن عيسو ظل يُحدّث أباه فى لطف، فقد كان يتمنى موته. وكان إسحق كان قد ابتلى بالعمى الروحى والبدنى[1]، وهجره الروح القدس، ولم يستطع تمييز شرّ ابنه. وكان قد أمره بأن يَحُدَّ سكاكين الذبح، وأن لا يحضر له لحم حيوان مات من نفسه، أو أكله سبع، وأن لا يضع أمامه حيوان سُرِقَ من صاحبه. وواصل إسحق قائلاً: «وحينها سأبارك من يستحق البركة.»

وكُلِّف عيسو بهذه الوصايا فى عشية «عيد المرور» وقال له إسحق: الليلة

(١) لم يترك اليهود نبياً إلا ووصموه بالرذائل، حتى لو كان من أفضل أنبيائهم مثل ابراهيم وإسحق ويعقوب عليهم جميعاً الصلاة والسلام. (المترجم)

سيغنى العالم كله مسبحًا بحمد الرب. إنها الليلة التى تُفتح فيها خزائن الندى. لذا أَعِدَّ لى أطايب الطعام؛ فلعل روحى تباركك قبلما أموت». وعندئذ أوحى إليه بالروح القدس: «لا تأكل خبز مَنْ عَيْنُه شريرة». وكان حنين إسحق إلى تناول الشهى من الطعام يرجع إلى عماه، إذْ لا يستطيع العميان مشاهدة الطعام الذى يأكلونه، ولذا فلا يستمتعون بمذاقه استمتاعًا كاملاً، ومن أجل ذلك يجب أن تُرضى شهيتهم بأصناف طيبة المذاق.

وهرع عيسو لإحضار ما طلبه منه أبوه، دون أن يحسب أى حساب للذى يريد أن يأتى به أو كيف؛ سواء بالسرقة أو بالسطو. ولكى يعوق التنفيذ العاجل لأمر أبيه، أرسل الرب الشيطان فى أعقاب عيسو؛ ليؤخره ما استطاع. وحدث أن عيسو اصطاد غزالاً وتركه راقدًا على الأرض مقيدًا، وذهب لمطاردة صيد آخر. فأتى الشيطان فى الحال وفك قيود الغزال، ولما رجع عيسو إلى المكان الذى ترك فيه الغزال، لم يجد صيده. وتكرر ذلك الحال مرات عديدة. وفى كل مرة يبدأ البحث عن صيد من جديد، ويقيد الصيد فيحرره الشيطان؛ وذلك حتى يكون يعقوب قد استطاع فى هذه الأثناء تنفيذ خطة رفقة التى أعدتها ليفوز هو بالبركة بدلاً من عيسو.

ورغم أن رفقة لم تكن قد سمعت الكلمات التى دارت بين إسحق وعيسو، فإن الروح القدس قد أظهرها لها ولذا عزمت على أن تمنع زوجها من اتخاذ خطوة خاطئة. ولم يكن دافعها فى ذلك حبها ليعقوب، ولكن كان دافعها منع إسحق من ارتكاب فعل ممقوت. وقالت رفقة ليعقوب: «هذه الليلة تُفتح خزائن النَّدى؛ إنها الليلة التى تلهج فيها الكائنات السماوية بتسبيح الرب، وهى الليلة التى عُينت لإنقاذ نسلك من مصر، والتى سيغنون فيها أيضًا بحمد الرب. اذهب الآن وأعد لأبيك طعامًا شهيًا، لعله يباركك قبل موته. افعل ما آمرك به وأطعنى بما يليق بك، لأنك ابنى الذى سيكون نسله طيبًا ويخشى الرب؛ ولست من هو بلا فضيلة».

ورغم احترامه الكبير لأمه؛ رفض يعقوب الإصغاء لكلامها فى البداية. وكان يخشى أن يرتكب بذلك خطيئة وخصوصًا أنه قد يجلب لعنة أبيه عليه بسبب هذا التصرف. ولعله يتبقى لإسحاق بركة، بعد أن يمْنَح عيسو بركته ولكن رفقة طمأنت مخاوفه قائلة: «عندما لُعِنَ آدم؛ حلت اللعنة على أمه الأرض، وهكذا سيكون معى. وأحمل لعنتك لو لعنك أبوك. وفوق ذلك لو ازدادت الأمور سوءًا؛ فلسوف أقف أمام أبيك وأخبره بأن عيسو شرير ويعقوب رجل صالح».

وبعدما شجعته أمه؛ مضى يعقوب باكيًا محنى الظهر، لينفذ الخطة التى أعدتها له رفقة. ولأنه كان عليه أن يجهز طعامًا لعيد المرور؛ فقد أمرته بأن يُحْضِر جديين، أحدهما قربانًا لعيد المرور، والآخر لأضحية الاحتفال ولكى ترضى ضمير يعقوب، أضافت قائلة إن عقد زواجها يخولها الحصول على جديين كل يوم. وأردفت قائلة: «ولسوف يجلب لك هذان الجديان الخير وبركة أبيك، والخير إلى نسلك؛ لأن قربان التكفير فى يوم التكفير سيكون عبارة عن جديين».

ولم ينته تردد يعقوب بعد. فقد كان يخشى أن يلمسه أبوه فيدرك أنه ليس غزير الشعر، فيعرف أنه ليس هو عيسو ابنه. ولهذا مزقت رفقة جلد الجديين وحاكتهما معًا؛ لأن يعقوب كان طويلاً عملاقًا لدرجة أنها لو لم تفعل ذلك لما كفى الجلد لتغطية يديه. ولكى يكتمل تنكر يعقوب؛ رأت رفقة أنه من الأفضل أن تضع ثياب عيسو العجيبة على بدنه. وكانت تلك الثياب ثياب الكهنوت السامى (نسبة إلى سام بن نوح) التى ألبسها الرب لآدم أول من ولد فى العالم، إذ فى الأيام التى سبقت تشييد الهيكل كان كل الذكور البكر يُرسمون كهنة. وورث نوح هذه الثياب عن آدم، ثم نقلها إلى سام الذى ورَّثَها لإبراهيم الذى ورَّثَها لابنه إسحق، والذى وصلت منه إلى عيسو باعتباره أكبر ولديه. وكان من رأى رفقة أنه كما اشترى يعقوب حق البكورة من أخيه؛ فإن الثياب صارت بالتبعية مِلْكًا له. ولم تكن فى حاجة للذهاب

إلى بيت عيسو لإحضارها. فقد كان عيسو يعرف حقيقة زوجتيه جيدًا بما لا يجعله يستأمنهما على مثل هذا الكنز؛ ولذا فقد كانت الثياب فى خزانة أمه. كما أنه كان يستعملها كثيرًا فى بيت والديه. ولم يكن من عادته أن يعبأ كثيرًا بمظهره ولباسه. وكان يميل إلى الظهور فى الشارع مرتديًا خِرقًا بالية، ولكنه كان يعتقد أنه لزام عليه أن يلبس أفضل ما لديه فى حضرة أبيه. وكان عيسو يقول كثيرًا: «أبى مَلِكٌ فى عينى، وليس من اللائق بى أن أخدمه إلا وأنا أرتدى ثيابًا ملكية». وبسبب الاحترام العظيم الذى كان يكنه لأبيه يرجع الفضل فى كل ما أصاب ذريته من خير على الأرض. وهكذا يكافئ الرب صنائع الخير.

وقادت رفقة يعقوب بلباسه وعدّته تلك إلى باب حجرة إسحق. وعندها فارقته بعد أن قالت له: «من الآن فصاعدًا فليساعدك خالقك». ودخل يعقوب وخاطب إسحق قائلاً: «ها أنذا يا أبتاه». فأجابه إسحق: «من أنت يا بنى؟». أجابه يعقوب بعد أن غير صوته: «أنا.. ابنك البكر عيسو». وهكذا أراد أن لا يكذب وفى الوقت نفسه لا يكشف عن أنه يعقوب. فقال له إسحق: «لقد أسرعت جدّا لتطمئن على نيل بركتك. وقد كان أبوك إبراهيم فى الخامسة والسبعين عندما تلقى البركة، وأنت لم تتجاوز الثالثة والستين. أجابه يعقوب فى ارتباك: «لأن الرب مولاك سهَّل لى الأمور». وعقب هذه الإجابة أدرك إسحق على الفور أن من يحدثه ليس هو عيسو، الذى ما كان يذكر اسم الرب، ولذا فقد قرر أن يتحسس ابنه ويتأكد من أنه هو أم لا. عندئذ دخل الرُعب فى قلب يعقوب من كلمات إسحق الذى قال له: اقترب يا بنى؛ أرجوك لعلى أستطيع أن أتحسسك يا ولدى. فسرت رعدة باردة فى بدنه وذاب قلبه مثل الشمع. ثم أمر الرب الملاكين الرئيسيين ميكائيل وجبريل بأن يهبطا. فأمسك أحدهما بيده اليمنى والآخر بيده اليسرى، بينما سانده الرب بنفسه لئلا تخونه شجاعته. وتحسسه إسحق فوجد يديه مشعرتين فقال: الصوت صوت يعقوب ولكن اليدين يدا عيسو! وهى الكلمات

التى تنبأت بأنه طالما ظل صوت يعقوب مسموعًا فى بيوت الصلاة والتعليم؛ فلن تطوله يدا عيسو. وواصل إسحق قائلاً: أجل صوت يعقوب هو ذلك الصوت الذى يسكت من على الأرض ومن هم فى السماء. إذ حتى الملائكة لا تستطيع رفع صوتها بحمد الرب حتى ينتهى إسرائيل من تسبيحه وحمده.

ولم تختفِ شكوك إسحق بشأن مباركة الابن الذى أمامه، إذ بعينى النبوة كان يرى أن هذا الذى سيباركه ستكون له ذرية تُغضب الرب. كما كشف له فى الوقت ذاته أنه حتى الخطاة فى إسرائيل سيصبحون تائبين، وعندها استعد لمباركة يعقوب. وأمره بالاقتراب منه وتقبيله، ليشير إلى أن يعقوب سيكون آخر من يطبع قبلة على وجه إسحق قبل أن يُحْمَل إلى قبره، هو؛ وهو وحده. عندما اقترب منه يعقوب؛ اشتم رائحة الجنة عالقة به. فصاح قائلاً: انظروا! إن رائحة ابنى هى نفسها رائحة الحقل الذى باركه الرب!

ولم تكن رائحة يعقوب الذكية هى وحدها الشىء الوحيد الذى يمتلكه وجاء من الجنة. فقد كان الملاك الرئيس ميكائيل قد جلب من الجنة الخمر التى أعطاها يعقوب لأبيه ليشربها، ليصبح قلبه صافيا، إذ لا تحل السّكينة على أى إنسان إلا عندما يصبح فى حالة نشوة وفرح. وامتلأ إسحق من الروح القدس وبارك يعقوب ببركته العشرية[1] قائلاً.

«**فليمنحك الرب ندى الجنة**».وهو الندى السماوى الذى يبعث به الرب

---

(١) نص التوراة::

«فليعطك الله من ندى السماء. ومن دسم الأرض. وكثرة حنطة وخمر. ليستعبد لك شعوب. وتسجد لك قبائل. كن سيدا لإخوتك، وليسجد لك بنو أمك. ليكن لاعنوك ملعونين، ومباركوك مباركين» (تكوين ٢٧ : ٢٨ ـ ٢٩).

هذه هى بركة إسحق ليعقوب. ومعناها ١ ـ ملك نسله على الأمم والشعوب من موسى عليه السلام صاحب التوراة. وعنها فى القرآن الكريم: (أن بورك من فى النار ومن حولها) أى ابتدأت بركة إسحق فى الظهور. لأنه لا بركة فى النسل بدون شريعة. ٢ ـ ومباركوك مباركين. أى من يؤمن بالشريعة التى ستنزل فى النسل. يكون مباركًا. ومن يرفضها يكون ملعونا.

وإسماعيل له هذه البركة. فقد قال الله لإبراهيم: «وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه. ها أنا أباركه...» (تك ١٧ : ٢٠). (المحقق)

الموتى فى مستقبل الأيام.

«ودُهْنَ الأرض» أى خيرات هذا العالم.

«والكثير الوافر من الذرة والخمر» وهى التوراة والوصايا (العشر) التى تُضفى على المرء نفس البهجة يُحْدِثها الحصاد الوفير.

«ولتخدمك الشعوب» أى اليافثيون والحاميون.

«ولتسجد لك الأمم» أى الأمم السامية.

«ولتكن سيدًا على إخوتك» أى الإسماعيلية وذرية «قطورة». (أى هاجر)

«وليسجد لك أبناء أمك» أى عيسو وأمراءه.

«وليلعن كل من يلعنك» مثل بَلْعام.

«وليتبارك كل من يباركك» مثل موسى.

ومقابل كل بركة منحها ليعقوب أبوه إسحق؛ منحه الرب بركة مماثلة وبنفس الكلمات.

فكما باركه إسحق بالندى، قال الرب: «[1]ولتكن بقية يعقوب وسط الشعوب العديدة مثل الندى من لدن الرب» وباركه إسحق بدهن الأرض وأيضًا قال الرب: «وليعط[2] المطر لنسلك، الذى سيكثر فى الأرض؛ وخبزًا

(١) كاتب التلمود أخذ آية من نبوءة من النبوءات الدالة على محمد ﷺ وطبقها على بنى إسرائيل. وترك بقية النبوءة التى تفصح عن خراب أورشليم وهلاك اليهود الكفرة فى «يوم الرب».

وهذه هى الآية التى أخذها الكاتب: «وتكون بقية يعقوب فى وسط شعوب كثيرين كالندى من عند الرب، كالوابل على العشب الذى لا ينتظر إنسانا، ولا يصير لبنى البشر» (ميخا ٥: ٧).

إن لم يكن غرضه البقية المؤمنة لا كل بنى يعقوب؛ فإن فى النص أن اليهود مرفوضون من السير أمام الله. وهو: «ويكون فى ذلك اليوم يقول الرب أنىّ أقطع خيلك من وسطك، وأبيد مركباتك، وأقطع مدن أرضك وأهدم كل حصونك، وأقطع السحر من يدك، ولا يكون لك عائفون...إلخ».

(٢) النص: «ثم يعطى مطر زرعك الذى تزرع الأرض به، وخبز غلة الأرض؛ فيكون دسما وسمينا، وترعى ماشيتك فى ذلك اليوم فى مرعى واسع» وهذه الآية من نبوءة عن محمد ﷺ ويوم الرب. ومما جاء فيها: «هو ذا اسم الرب يأتى من بعيد غضبه مشتعل والحريق عظيم... =

من فيض الأرض، «ليكن غزيرًا وافرًا دسمًا» وباركه إسحق بالكثير الوافر من الحنطة والخمر، وكذا قال الرب: «(١)سأرسل لك حنطة وخمرًا» وقال إسحق: «وتخدمك الشعوب» وكذلك قال الرب: «(٢)ليكن الملوك آبائك الذين

= كالسائر بالناى ليأتى إلى جبل الرب» (إشعياء: ٣٠).

وجبل الرب هو جبل الكعبة فى مكة لقوله: «ويكون فى آخر الأيام أن جبل بيت الرب يكون ثابتا فى رأس الجبال...إلخ» (إش ٢ : ٢ -).

(١) «حتى آتى وآخذكم إلى أرض مثل أرضكم. أرض حنطة وخمر. أرض خبز وكروم» (إش ٣١: ١٧).

(٢) مؤلفو التلمود أخذوا نصا من سفر إشعياء - هو الأصحاح الستون وما بعده - وطبقوه على نسل يعقوب. وهو فى الحقيقة لنسل إسماعيل. نبوءة عن مجد مكة المكرمة وانضمام الأمم إليها وتمجيدهم إياها، وارتفاعها من ظهور محمد ﷺ. وقولهم باطل. لأن فى نفس السفر أن الله رفض بنى إسرائيل من السير أمامه. والأصحاح الخامس والستون يدل على الرفض.

وهذا هو النص بتمامه من إشعياء ٦٠ وما بعده:

قومى استنيرى لأنه قد جاء نورك ومجد الرب أشرق عليك. لأنه ها هى الظلمة تغطى الأرض والظلام الدامس الأمم. أما عليك فيشرق الرب ومجده عليك يرى فتسير الأمم فى نورك والملوك فى ضياء إشراقك.

ارفعى عينيك حواليك وانظرى. قد اجتمعوا كلهم. جاءوا إليك. يأتى بنوك من بعيد وتحمل بناتك على الأيدى. حينئذ تنظرين وتنيرين ويخفق قلبك ويتسع لأنه تتحول إليك ثروة البحر ويأتى إليك غنى الأمم. تغطيك كثرة الجمال بكران مديان وعيفة كلها تأتى من شبا. تحمل ذهبًا ولبانًا وتبشر بتسابيح الرب. كل غنم قيدار تجتمع إليك. كباش نبايوت تخدمك. تصعد مقبولة على مذبحى وازين بيت جمال. من هؤلاء الطائرون كسحاب وكالحمار إلى بيوتها. أن الجزائر تنتظرنى وسفن ترشيش الأول لتأتى ببنيك من بعيد وفضتهم وذهبهم معهم لاسم الرب إلهك وقدوس إسرائيل لأنه قد مجدك.

وبنو الغريب يبنون أسوارك وملوكهم يخدمونك. لأنى بغضبى ضربتك وبرضوانى رحمتك. وتنفخ أبوابك دائمًا. نهارًا وليلاً لا تغلق. ليؤتى إليك بغنى الأمم وتقاد ملوكهم. لأن الأمة والمملكة التى لا تخدمك تبيد وخرابًا تخرب الأمم. مجد لبنان إليك يأتى السرو والسنديان والشربين معًا لزينة مكان مقدسى وأمجد موضع رجلى.

وبنو الذين قهروك يسيرون إليك خاضعين وكل الذين أهانوك يسجدون لدى باطن قدميك ويدعونك مدينة الرب صهيون قدوس إسرائيل. عوضًا عن كونك مهجورة ومبغضه بلا عابر بك أجعلك فخرًا أبديًا فرح دور فدور. وترضعين لبن الأمم وترضعين ثدى ملوك وتعرفين أنى أنا الرب مخلصك ووليك عزيز يعقوب. عوضًا عن النحاس آتى بالذهب وعوضًا عن الحديد=

يرعونك، وملكاتهم أمهاتك الحاضنات لك، وليسجدوا لك ووجوههم إلى الأرض، وليلعقوا تراب قدميك». وقال إسحق «ولتسجد لك الأمم» وكذا قال الرب: «(١)ولسوف يجعلك هو (= الرب) عاليًا فوق جميع الأمم التى خلقها، فى الحمد والاسم والشرف.

= آتى بالفضة وعوضًا عن الخشب بالنحاس وعوضًا عن الحجارة بالحديد واجعل وكلاءك سلامًا وولاتك برًا.

لا يسمع بعد ظلم فى أرضك ولا خراب أو سحق فى تخومك بل تسمين أسوارك خلاصًا وأبوابك تسبيحًا. لا تكون لك بعد الشمس نورًا فى النهار ولا القمر ينير لك مضيئًا بل الرب يكون لك نورًا أبديًا وإلهك زينتك. لا تغيب بعد شمسك. وقمرك لا ينقص لأن الرب يكون لك نورًا أبديًا وتكمل أيام نوحك. وشعبك كلهم أبرار. إلى الأبد يرثون الأرض غصن غرسى عمل يدى لأتمجد. الصغير يصير ألفًا والحقير أمةً قوية. أنا الرب فى وقته لسرع به.

روح السيد الرب على لأن الرب مسحنى لأبشر المساكين أرسلنى لأعصب منكسرى القلب لأنادى للمسبيين بالعتق وللمأسورين بالإطلاق. لأنادى بسنة مقبولة للرب وبيوم انتقام لألهنا لأعزى كل النائحين. لاجعل لنائحى صهيون لأعطيهم جمالاً عوضًا عن الرماد ودهن فرح عوضًا عن النوح ورداء تسبيح عوضًا عن الروح اليائسة فيدعون أشجار البر غرس الرب للتمجيد.

ويبنون الخرب القديمة يقيمون الموحشات الأول ويجددون المدن الخربة موحشات دور فدور. ويقف الأجانب ويرعون غنمكم ويكون بنو الغريب حراثيكم وكراميكم. أما أنتم فتدعون كهنة الرب تسمون خدام إلهنا. تأكلون ثروة الأمم وعلى مجدهم تتآمرون.

عوضًا عن خزيكم ضعفان وعوضًا عن الخجل يبتهجون بنصيبهم. لذلك يرثون فى أرضهم ضعفين. بهجة أبدية تكون لهم لأنى أنا الرب محب العدل مبغض المختلس بالظلم. وأجعل أجرتهم أمينة وأقطع لهم عهدًا أبديًا. ويعرف بين الأمم نسلهم وذريتهم فى وسط الشعوب. كل الذين يرونهم يعرفونهم أنهم نسل باركه الرب.

فرحًا أفرح بالرب. تبتهج نفسى بإلهى لأنه قد ألبسنى ثياب الخلاص. كسانى رداء البر مثل عريس يتزين بعمامة ومثل عروس تتزين بحليها. لأنه كما أن الأرض تخرج نباتها وكما أن الجنة تنبت مزروعاتها هكذا السيد الرب ينبت برًا وتسبيحًا أمام كل الأمم».

(١) يشير مؤلفو التوراة بهذه الآية إلى المزمور السادس والتسعين. وهو كله نبوءة عن محمد ﷺ. وهو حث على حمد الرب لأجل عظمته وامتداد ملكه على كل الأرض ورنموا للرب ترنيمة جديدة، رنمى للرب يَاكُلَّ الأرض، رنّموا للرب، باركوا اسمه، بشروا من يوم إلى يوم بخلاصه. حدثوا بين الأمم بمجده. بين جميع الشعوب بعجائبه؛ لأن الرب عظيم وحميد جدًا مهوب هو على كل الآلهة؛ لأن كل آلهة الشعوب أصنام. أما الرب فقد صنع السموات. مجد وجلال قدامه. العز والجمال فى مقدسه. مزمور ٩٦. =

وإلى هذه البركة المزدوجة؛ أضافت رفقة أمه بركتها: «وليكلف[1] ملائكته بحراستك، ولتحفظك فى كل طرقك. ولتحملك فى أيديها لكيلا تصطدم قدماك بحجر، وتدوس على الأسد والحية؛ وتطأ تحت قدميك الشبل والأفعى؛ لأنه أحلَّ حبه علىّ، ولذا فلسوف أحرره ولسوف أرفعه عاليًا، لأنه عرف اسمى».

وقال الروح القدس: «[2] لسوف يدعونى وأستجيب له؛ ولسوف أكون

= «رنموا للرب ترنيمة جديدة رنمى للرب ياكل الأرض. رنموا للرب باركوا اسمه بشروا من يوم إلى يوم بخلاصه حدثوا بين الأمم بمجده بين جميع الشعوب بعجائبه لأن الرب عظيم وحميد جدًا مهوب هو على كل الآلهة. لأن كل آلهة الشعوب أصنام أما الرب فقد صنع السموات. مجد وجلال قدامه. العز والجمال فى مقدسه.

قدموا للرب يا قبائل الشعوب قدموا للرب مجدًا وقوة. قدموا للرب مجد اسمه. هاتوا تقدمة وادخلوا دياره. اسجدوا للرب فى زينة مقدسة. ارتعدى قدامه يا كل الأرض. قولوا بين الأمم الرب قد ملك. أيضًا تثبتت المسكونة فلا تتزعزع. يدين الشعوب بالاستقامة. لتفرح السموات ولتبتهج الأرض ليعج البحر وملؤه ليجذل الحقل وكل ما فيه لتترنم حينئذ كل أشجار الوعر أمام الرب لأنه جاء. جاء ليدين الأرض. يدين المسكونة بالعدل والشعوب بأمانته» (مزمور ٩٦).

(١) البركة التى أضافتها رفقة أم يعقوب. هى نبوءة عن محمد ﷺ فى سفر الزبور. ونص المزمور ٩١ هو:

«الساكن فى ستر العلى، فى ظل القدير يبيت؛ أقول للرب ملجأى وحصنى إلهى فأتكل عليه لأنه ينجيك من فخ الصياد ومن الوباء الخطر بخوافيه يظللك وتحت أجنحته تحتمى. ترس ومجن حقه. لا تخشى من خول الليل ولا من سهم يطير فى النهار. ولا من وباء يسلك فى الدجى ولا من هلاك يفسد فى الظهيرة يسقط عن جانبك ألف وربوات عن يمينك. إليك لا يقرب إنما بعينيك تنظر وترى مجازاة الأشرار» (مزمور ٩١).

(٢) بركة الروح القدس هى نبوءة المزمور التاسع والثمانين وهو نبوءة عن محمد ﷺ «وأجعل على البحر يده، وعلى الأنهار يمينه. هو يدعونى أبى أنت. إلهى وصخرة خلاصى «أنا أيضًا أجعله بكرًا أعلى من ملوك الأرض».

مزمور ٨٩:

«بمراحم الرب أغنى إلى الدهر. لدور فدور أخبر عن حقك بفمى. لأنى قلت أن الرحمة إلى الدهر تبنى. السموات تثبت فيها حقك. قطعت عهدًا مع مختارى. حلفت لداود عبدى إلى الدهر أثبت نسلك وابنى إلى دور فدور كرسيك. سلاه والسموات تحمد عجائبك يا رب وحقك أيضًا فى جماعة القديسين. لأنه من فى السماء يعادل الرب. من يشبه الرب بين أبناء الله. إله مهوب جدًا فى مؤامرة القديسين. ومخوف عند جميع الذين حوله. =

معه وقت الضيق؛ ولسوف أخلصه وأكرمه. ولسوف أرضيه بالحياة الطويلة، وأريه خلاصى».

وترك يعقوب حضرة أبيه متوَّجًا كالعريس، ومزينًا كالعروس، ومغسولاً بالندى السماوى، الذى ملأ أَعْظُمه بالنخاع وحوَّله إلى بطل وعملاق.

= يا رب إله الجنود من مثلك قوى رب وحقك من حولك أنت متسلط على كبرياء البحر. عند ارتفاع لجه أنت تسكنها. أنت سحقت رَهَبَ مثل القتيل. بذراع قوتك بددت أعداءك. لك السموات لك أيضًا الأرض. المسكونة وملؤها أنت أسستهما. الشمال والجنوب أنت خلقتهما. تابور وحرمون باسمك يهتفان لك ذراع القدرة. قوية يدك. مرتفعة يمينك. العدل والحق قاعدة كرسيك. الرحمة والأمانة تتقدمان أمام وجهك طوبى للشعب العارفين الهتاف. يا رب بنور وجهك يسلكون. باسمك يبتهجون اليوم كله وبعدلك يرتفعون لأنك أنت فخر قوتهم وبرضاك ينتصب قرننا لأن الرب مجدنا وقدوس إسرائيل ملكنا.

حينئذ كلمت برؤيا تقيك وقلت جعلت عونًا على قوى. رفعت مختارًا من بين الشعب. وجدت داود عبدى. بدهن قدسى مسحته الذى تثبت يدى معه. أيضًا ذراعى تشدده لا يرغمه عدو وابن الإثم لا يذلله واسحق أعداءه أمام وجهه واضرب مبغضيه. أما أمانتى ورحمتى فمعه وباسمى ينتصب قرنه واجعل على البحر يده وعلى الأنهار يمينه. هو يدعونى أبى أنت. إلهى وصخرة خلاصى. أنا أيضًا أجعله بكرًا على ملوك الأرض. إلى الدهر أحفظ له رحمتى. وعهدى يثبت له. وأجعل إلى الأبد نسله وكرسيه مثل أيام السموات. إن ترك بنوه شريعتى ولم يسلكوا بأحكامى إن نقضوا فرائضى ولم يحفظوا وصاياى أفتقد بعصًا معصيتهم وبضربات إثمهم أما رحمتى فلا أنزعها عنه ولا أكذب من جهة أمانتى. لا أنقض عهدى ولا أغير ما خرج من شفتى مرة حلفت بقدسى إنى لا أكذب لداود. نسله إلى الدهر يكون وكرسيه كالشمس أمامى. مثل القمر يثبت إلى الدهر. والشاهد فى السماء أمين سلاه.

لكنك رفضت ورذلت. غضبت على مسيحك نقضت عهد عبدك نجست تاجه فى التراب هدمت كل جدرانه. جعلت حصونه خرابًا. أفسده كل عابرى الطرق. صار عارًا عند جيرانه رفعت يمين مضايقه فرَّحت جميع أعدائه. أيضاً رددت حد سيفه ولم تنصره فى القتال. أبطلت بهاءه وألقيت كرسيه إلى الأرض. قصرت أيام شبابه غطيته بالخزى سلاه.

حتى متى يا رب تختبى كل الاختباء حتى متى يتقد كالنار غضبك. اذكر كيف أنا زائل إلى أى باطل خلقت جميع بنى آدم. أى إنسان يحيا ولا يرى الموت أىٌّ ينجى نفسه من يد الهاوية سلاه. أين مراحمك الأول يا رب التى حلفت بها لداود بأمانتك. اذكر يا رب غدر عبيدك. الذى أحتمله فى حضنى من كثرة الأمم كلها الذى به عير أعداؤك يا رب الذين عيروا آثار مسيحك. مبارك الرب إلى الدهر. آمين فآمين». (مزمور ٨٩).

وقد حدثت له في هذا الوقت عينه معجزة لم يدركها يعقوب وإنه لو كان قد تأخر عن أبيه لحظة؛ لكان عيسو قد قابله هناك وقتله بدون شك. وحدث أن يعقوب في لحظة مغادرة خيمة أبيه، حاملاً في يديه الأطباق التي تناول إسحاق ما كان بها من طعام؛ أن لاحظ اقتراب «عيسو» من الخيمة. فاختبأ خلف الباب. ومن حسن حظه أنه كان بابًا دَوَّارًا، ولذا فمع أنه كان بإمكانه رؤية عيسو، فإن عيسو لم يكن يستطيع أن يراه.

و ـ انكشاف شخصية عِيسُو الحقيقية

ووصل عيسو بعد غيابه أربع ساعات. ومع كل جهوده، لم يفلح في صيد أي شيء، فاضطر إلى قتل كلب وإعداد لحمه طعامًا لأبيه. وجعل ذلك شعور عيسو عكرة وعندما أمر أباه بأن يتناول الطعام، دعاه في لهجة قاسية غليظة. فقال: «لينهض أبي وليأكل من لحم ابنه» وكان يعقوب قد تكلم على نحو مختلف إذ قال: «انهض يا أبي من فضلك وكل من طعامي» وأرعبت كلمات عيسو إسحق رعبًا عظيمًا. فاق ما كان قد شعر به من رعب عندما كان أبوه على وشك أن يُضحي به، وصرخ قائلاً: «من هو إذًا الذي كان وسيطًا بيني وبين الرب، ليجعل البركة تصل إلى يعقوب؟» مشيرًا إلى أنه كان يشك في أن رفقة هي التي كانت وراء تصرف يعقوب.

وكان إسحق قد تنبه إلى الخطر لما رأى الجحيم عند قدمي عيسو. فما كاد (عيسو) يدخل إلا وبدأت حيطان المنزل تسخن بسبب قربها من الجحيم، الذي أحضره (عيسو) معه. وعندها لم يملك إسحق إلاَّ أن صرخ قائلاً: «من ذا الذي سيحرق فيه، أنا أم ابني يعقوب؟» فأجابه الرب: «لا أنت ولا يعقوب؛ بل الصيَّاد».

وأخبر إسحق عيسو بأن اللحم الذي وضعه أمامه يعقوب كان مذاقه طيبا فقد كان له ما يشاء المرء من مذاق، لدرجة إنه كان له مذاق ذلك الطعام الذي سينعم به الرب على المتقين في العالم الآتي. وقال: «لا أدري

أى لحم كان. لكن لو تمنيت الخبز أن يصير طعمه كالخبز أو السمك أو الجراد أو لحم الحيوانات لصار وباختصار كان له طعم أى طعام شهى يتمناه المرء». وحينما سمع عيسو كلمة «لحم» شرع فى البكاء وقال: «إن يعقوب لم يعطنى سوى طبق من العدس، وأخذ ثمنه حق بكورتى فياترى ما الذى أخذه منك مقابلاً للحم الحيوانات؟» عندئذ أحس إسحق بألم نفسى عظيم إذ خطر له أنه قد ارتكب إثمًا بمنح بركته لابنه الأصغر بدلاً من ابنه البكر، الذى يستحق البركة طبقًا للشريعة وللعرف. ولكن عندما سمع أن يعقوب تملك حق البكورة من عيسو قال: «إذًا فقد منحتُ بركتى لمن يستحقها!».

ومن حزنه قرر إسحق أن يلعن يعقوب لأنه انتزع منه البركة عن طريق المكر والخديعة. ولكن الرب حال بينه وبين تنفيذ غرضه. وذكَّره بأنه لن يلعن سوى نفسه، لأن بركته كان منها هذه الكلمات: «ليكن ملعونًا كل من يلعنك» ولكن إسحق لم يكن راغبًا فى الإقرار بأن بركته صالحة ليعقوب، إلى أن أُخْبِر بأن ابنه الثانى هو مالك حق البكورة. وساعتها قال: «أجل لسوف تحلّ عليه البركة». فصرخ عيسو صرخة عظيمة هائلة. وكعقوبة له على أنه كان السبب فى مثل هذا الحزن، كُتِبَ على أحد أبناء يعقوب، وهو «موردخاى*»، بأن يصرخ صرخة عظيمة مريرة كهذه، وكان السبب فيها «هامان المالكتى*»، أحد ذرية عيسو. وعندما قال إسحق: «لقد جاء أخوك بالحكمة وذهب بالبركة» بصق عيسو غضبًا وقال: «أخذ حق بكورتى وسكتُّ، والآن يأخذ بركتى، فهل أظل ساكتًا؟ أليس يستحق فعلاً اسم يعقوب**؟ لأنه انتزع منى هذين مرتين؟».

وواصل إسحق كلامه لعيسو فقال: «لاحظ أننى جعلته سيدًا لك، وهو ملك عليك، ولتفعل ما تشاء، فكل بركاتك ستظل ملِكًا له؛ وقد جعلت كل إخوته له

❖ هامان بن همداثا الأجاجى الوزير الأول لأحشويروش ملك الفرس الذى أمر رجال البلاط بالسجود له فرفض موردهاى فأصدر الملك أمراً بصلبه. (المترجم).

❖❖ معنى «يغقوب» بالعبرية «يختلس». (المترجم).

عبيداً، وما يمتلكه العبيد هو ملك لساداتهم. ما عاد ينفع شىء، فعليك أن تقنع بأنك ستحصل على خبزك، وقد خبزه لك سيدك». وغضب الرب لأنه خفف عنه (عن عيسو) بمثل هذه الكلمات الرقيقة. ووبخه الرب قائلاً: «أتقول لعدوى: ماذا أستطيع فعله لك يا بُنَىَّ؟!!» أجابه إسحق: «لعله يجد نعمة عندك!» أجابه الرب: «لكنه شرِّير». فرد إسحق: «ألم يفعل الصالح عندما يكرم والديه؟» أجاب الرب»: فى أرض الاستقامة يتصرف بالسوء، ولسوف يمد يديه فى مستقبل الأيام على «المعبد». فقال إسحق: «إذًا دعه يتمتع بالخير الكثير فى هذا العالم، لكيلا يشاهد مسكن الرب فى العالم الآتى».

وعندما تبين لعيسو بأنه لن يتمكن من حثّ أبيه على الرجوع فى البركة التى منحها ليعقوب حاول أن ينتزع لنفسه بركة عن طريق الخديعة. فقال: «أما عاد لديك ولو بركة واحدة يا أبى؟ باركنى أنا أيضًا يا أبى، أجل باركنى لئلا يقال إنه ليس لديك سوى بركة واحدة تمنحها. فلنفرض أن يعقوب وأنا كنا صالحين أما كان ربك سيكون عنده بركتان، واحدة لكلٍّ منَّا؟ أجاب الرب بنفسه قائلاً: «صه! يعقوب سيبارك بنفسه القبائل الاثنى عشر، وكل بركة ستكون مختلفة عن الأخرى». ولكن إسحق أحس بالأسى العظيم من أجل ابنه الأكبر، وأراد أن يباركه، لكن الشكينة تخلت عنه، فلم يستطع تنفيذ ما نواه وعندئذ أخذ عيسو فى البكاء، وذرف ثلاث دمعات، سالت إحداها من عينه اليمنى، والأخرى من عينه اليسرى، والأخرى بقيت متعلقة بأهداب عينيه. قال الرب: «هذا الشرير يبكى من أجل حياته، وهل سأرده خالى الوفاض؟» ثم أمر إسحق بأن يبارك ابنه الأكبر.

وباركه إسحق قائلاً: « .. من دهن الأرض سيكون موطنك[1]» وكان يعنى بذلك «اليونان الأعظم» فى إيطاليا، «ومن ندى السماء من فوق» ويشير إلى «بيت جبرين» وتعيش بسيفك وتخدم أخاك» ولكن عندما يخلع نير الرب من على عنقه وقتها «ستخلص نيره من على عنقك» وتكون سيدًا له .

(١) تكوين ٢٧: ٢٧ ـ ٢٩.

وكانت البركة التى منحها إسحق لابنه الأكبر غير مشروطة بأى شرط كان. وسواء استحقها أم لا، فإن عيسو سيتمتع بخيرات هذا العالم. ومع ذلك فقد كانت بركة يعقوب متوقفة على أعماله الصالحات؛ ومن خلال هذه الأعمال سيكون له الحق فى الخيرات الأرضية.

وفكر إسحق فى نفسه قائلاً: «يعقوب رجل صالح ولن يتمتم بما يغضب الرب، رغم أنه سيكتب عليه أن يعانى برغم حياته الصالحة. لكن هذا الوغد عيسو، لو عمل عملاً صالحًا، أو دعى الرب فلم يسمعه، سيقول: «كما كنت أدعو الأصنام دون فائدة، فكذلك دعوت الرب ولا فائدة»، ولذا فقد منح إسحق عيسو بركة غير مشروطة بأى شرط.

ز- يعقوب يغادر بيت أبيه

وكان عيسو يكره أخاه بسبب البركة التى منحها له أبوه، وكان يعقوب يخشى أخاه عيسو جدًا، وفر إلى بيت «عابر» ابن «سام» واختبأ فيه أربعة عشر عامًا بسبب خوفه من عيسو أخيه، وبقى هناك ليتعلم طرق الرب وأوامره. وعندما رأى عيسو أن يعقوب قد هرب وفر منه، وأن يعقوب قد احتال ليأخذ البركة، استولى الحزن العظيم على عيسو، وغضب من أبيه ومن أمه. ونهض وأخذ زوجته وغادر بيت أبيه وأمه قاصدًا أرض «سَعِير». وهناك تزوج زوجته الثانية «بَسْمَة»، ابنة «إيلون الحِثِّى» وسماها «عَدَا»، قائلاً: إنه فى ذلك الوقت تعدّته البركة. وبعد إقامته فى سِعير لستة أشهر، عاد عيسو إلى أرض كنعان، وأسكن زوجتيه فى بيت أبيه فى حَبرون. وأغاظت زوجتا عيسو إسحق ورفقة وضايقتهما بأفعاليهما، إذ لم تكونا تسيران فى طريق الرب. وكانتا تعبدان آلهة أبويهما التى هى من الخشب والحجارة كما علمهما أبواهما، وكانتا أشرَّ من أبويهما. وكانتا تحرقان البخور (للصنم) «بَعليم»، وسئمهما إسحق ورفقة. وبعد أربعة عشر سنة من إقامة يعقوب فى بيت عابر، أراد أن يرى أباه وأمه، فعاد إلى بيته. وكان عيسو قد نسى فى تلك الأيام، ما كان يعقوب قد صنعه معه، وهو أنه استلب

البركة منه لكن عندما رأى عيسو يعقوب يعود إلى بيت أبيه تذكَّر ما فعله به يعقوب، فاستشاط غضبًا منه، وحاول أن يقتله.

ولم يكن عيسو ليقتل يعقوب وأبوه لايزال على قيد الحياة، خشية أن ينجب يعقوب ابنًا. وكان يريد أن يتأكد من أنه سيكون الوارث الوحيد. ومع ذلك فقد كان بغضه ليعقوب عظيمًا لدرجة أنه قرر أن يُعَجِّل بموت أبيه، ثم يُلْحِق به يعقوب. وكان عيسو يضمر فى نفسه هذه النوايا الشريرة، رغم أنه كان ينكر ذلك. ولكن الرب تكلم وقال: «لعلك لا تعلم أننى أفحص قلوب البشر، لأننى أنا الرب الذى يعلم ما فى الصدور.» ولم يكن الرب وحده هو الذى يعلم ما فى قلب عيسو من نوايا شريرة، فرفقة أيضًا، مثل كل الأمهات؛ وكانت نبيَّة ولم تتردد فى تحذير يعقوب من الخطر المحدق به. وقالت له: «إن أخاك عازم على تنفيذ نواياه الشريرة تجاهك. لذا اسمع كلامى يا بنى وانهض واهرب إلى «لابان» أخى، إلى «حاران» وأقم معه لسبع سنين، حتى تذهب ثورة غضب أخيك». ومن طيبة قلبها لم تكن رفقة تظن إلا أن غضب عيسو مجرد عاطفة عابرة، لسوف يتكفل الزمن بالقضاء عليها. ولكنها كانت مخطئة، فقد ظل كرهه لأخيه ملازمًا له حتى يوم موته.

وقد كان يعقوب شجاعًا. وما كان ليفرَّ من أمام أخيه. وقال لأمه: «لستُ خائفًا؛ ولئن كان يريد قتلى، فلسوف أقتله». فأجابته: «لا تجعلنى أُحْرَم منكما كليكما فى يوم واحد». وهى كلمات كشفت مرة أخرى عن موهبتها التنبؤية. فكما قالت؛ حدث. ففى الوقت الذى قُتل فيه عيسو؛ كان يعقوب يُدْفَن.

وقال يعقوب لرفقة: «اعلمى أن أبى قد شاخ ولم يعد يَرَى، ولئن تركتُه ورحلت؛ فلسوف يغضب علىّ ويلعننى. فلن أذهب. لن أذهب إلا إذا أذن هو لى بالذهاب».

لذلك ذهبت رفقة لإسحق وكلمته والدموع تتساقط من عينيها وقالت: «لو اتخذ يعقوب زوجة له من بنات بنى «حِثّ»؛ فيا خسارة نفسى!» فنادى إسحق يعقوب وأمره قائلاً: «لن تتخذ لنفسك زوجة من بنات الكنعانيين لأن

أبانا إبراهيم أمرنا بذلك حسب كلمة الرب التى أمره بها قائلاً: سأعطى الأرض لنسلك؛ ولو حافظ نسلك على العهد الذى قطعته معهم، فلسوف أوفى لنسلك بما وعدتك به، ولن أتخلى عنهم لذا أسمع لى يا بنى، ولكل ما سآمرك به، ولا تتخذ لك زوجة من بين بنات الكنعانيين. قم واذهب إلى «حاران» إلى بيت بتوئيل أبى أمك ـ واتخذ لك زوجة من هناك. من بين بنات لابان أخى أمك. واحذر أن تنسى الرب مولاك فى كل طرقه فى الأرض التى ستذهب إليها، ولا تتضمنَّ إلى أهل تلك البلاد، وتسلك سبل الغواية، وتنسى الرب مولاك. وعندما تأتى إلى تلك الأرض اعبد الرب. لا تتحول يمنة أو يسرة عن الطريق الذى أمرتك به، الذى تعلمته. وليمنحك الرب العظيم القادر على كل شىء نعمة عند أهل هذه الأرض؛ لكى تتخذ منهم زوجة حسب اختيارك، وتكون صالحة ومستقيمة على طريق الرب. وليمنحك الرب أنتَ وذريتك بركة أبيك إبراهيم، ويجعلك مثمرًا ويُكَثِّرك، ولتصبح أُمَّة من الناس فى الأرض التى تذهب إليها، وليُعِدْكَ الرب إلى أرضك، أرض آبائك، ومعك نسلك وثروات كثيرة، فرحانًا ومسرورًا».

وكما يتم تقييم الوثيقة من كلماتها الختامية، وتوقيع الشهود؛ فكذلك إكَّد إسحق على البركة التى منحها ليعقوب؛ ولكيلا يقول أحد إن يعقوب اغتصبها بالحيلة والخديعة؛ فقد باركه مرة أخرى بثلاث بركات، بهذه الكلمات: «على قدر قدرتى على منح البركة، أباركك: فليمنحك الرب الذى لا تنقطع بركته؛ البركة. وليمنحك أيضًا البركة التى أراد إبراهيم أن يباركنى بها، ولم يمنعه من ذلك إلا مخافة أن يستثير غيرة إسماعيل».

ولأنه رأى بعينى النبوة أن نسل يعقوب سيجبر على الخروج إلى أرض غير أرضه ذات يوم، منفيًا؛ فقد أضاف إسحق التماسًا واحدًا زيادة وهو أن لا يعيد عليه الربُّ النفى. فقال: «لسوف يخلّصك الرب من ست مِحَن، وفى السابعة لا يَمَسُّك سوء» كما دعت رفقة الرب من أجل يعقوب قائلة: «يا رب العالم، لا تجعلنَّ غرض عيسو ضد أخيه يتم. ألجمه بلجام من عندك، فلا يفعل كل ما يريد فعله».

وعندما لاحظ عيسو أنه حتى حب أبيه ذهب عنه إلى يعقوب؛ انصرف إلى إسماعيل، وخاطبه قائلاً: «انظر، كما وهب أبوك كل ممتلكاته لأخيك إسحق، وطردك من عنده خالى الوفاض؛ فإن أبى ينوى فعل الشىء نفسه معى. استعد إذًا، اذهب واقتل أخاك، ولسوف أقتل أخى، ثم نقتسم نحن الاثنان العالم». أجابه إسماعيل: «لماذا تريدنى أن أقتل أباك؟ إنك نفسك لا تستطيع فعل ذلك» فقال له عيسو: «لقد حدث من قبل أن رجلاً قتل أخاه، فقد قتل «قينان» هابيل. ولكن أن يقتل ولد أباه؛ فذلك لم أسمع عنه من قبل».

ولم يكن عيسو فى الحقيقة يستقبح قتل أبيه، وإنما كل ما فى الأمر أن ذلك لم يكن يناسب نيته التى أضمرها فى نفسه، فقد قال لنفسه: «لئن قتل إسماعيل أبى فلسوف أكون أنا المخلص المناسب، ولسوف أقتلن إسماعيل انتقامًا لأبى، وإن قتلت يعقوب أيضًا بعدهما؛ فسوف يؤول إلىّ كل شىء، باعتبارى وريثًا لأبى ولعمى. وهذا يظهر أن زواج عيسو من «محلث[1]» ابنة إسماعيل، وحفيدة إبراهيم؛ لم يكن دافعه الاحترام لأبويه، اللذين كانا يعارضان زواجه من الزوجتين الأخريين، ابنتى الكنعانيين. فكل ما كان يريده هو مدّ جسور الود بينه وبين إسماعيل لكى ينفذ نيته الشيطانية.

ولكن عيسو اضطر للتصرف بدون مضيفه. ففى الليلة السابقة على زواجه من «محلث» مات إسماعيل، وأخذ «نبايوّن» ابن إسماعيل مكان أبيه، وأعطاه أخته. وكان عيسو لا يهمه كثيرًا ولا يشغل نفسه بإسعاد أبويه بأن يتخذ زوجة له هى حفيدة إبراهيم، وظهر ذلك من حقيقة أنه ظل محتفظًا بزوجتيه الأخريين، المرأتين الكنعانيتين. وحذت ابنة إسماعيل حذو رفيقتيها، وهكذا زادت أبوى عيسو غَمّاً على غم؛ وربما كانت الفرصة متاحة يومئذ أمام عيسو بأن يتوب عن غيه ويهتدى، إذ أن العريس يُغفر له فى يوم زفافه كل الذنوب التى ارتكبها فى العام السابق.

---

(١) فى التوراة «بسمة».

وما كاد يعقوب يغادر بيت أبيه، حتى أخذت رفقة تبكى، إذ كان فراقها يحزّ فى قلبها حزًا. وهدَّأ إسحق روعها قائلاً: «لا تَبكى على يعقوب فلسوف يرحل بسلام، ويعود فى سلام. ولسوف يحميه الرب الأعلى من كل شر ويكون معه. ولن تتخلى عنه رحمة الله طوال أيام حياته. لا تخافى عليه فهو يسير على الصراط المستقيم، وهو رجل بارّ، وهو يؤمن بالرب؛ ولن يهلك».

حـ - ألِيفاز وعِيسُو يطاردان يعقوب

وعندما انصرف يعقوب ليذهب إلى «حاران»؛ نادى عيسو ابنه «أليفاز» وحدثه خفية قائلاً: «الآن أسرع احمل سيفك وطارد يعقوب واسبقه فى طريقه واكمن له واقتله بسيفك فى أحد الجبال، وخذ كل ما معه وعد إلىّ». وكان أليفاز راميًا ماهرًا لا يطيش له سهم، كما علَّمه أبوه، وكان صيادًا ماهرًا فى الحقل، ورجلاً جسورًا. ففعل أليفاز ما أمره به أبوه. وكان أليفاز وقتئذ فى الثالثة عشرة من عمره. ونهض وأخذ معه عشرة من إخوة أمه وطاردوا يعقوب. وظل يقتفى أثر يعقوب من قريب حتى إذا ما أدركه كَمَن له عند حدود أرض كنعان، مقابل مدينة «شِكيم». ورأى يعقوب أليفاز ورجاله يطاردونه؛ فتوقف ليرى ما الأمر، فلم يكن يفهم غرضهم. فاستل أليفاز سيفه وتقدم نحوه هو ورجاله؛ فقال لهم يعقوب: «لماذا جئتم إلى هنا؟ ولماذا تشهرون سيوفكم فى وجهى؟» فاقترب أليفاز من يعقوب ورد عليه قائلاً: «هكذا أمرنى أبى ولن أخالف أوامر أبى الآن». فلما رأى يعقوب أن عيسو قد أقنع أليفاز بشدة، اقترب من أليفاز ورجاله وناشدهم قائلاً: «اسمعوا. خذوا كل ما أملكه وما منحنيه أبى وأمى وانصرفوا عنِّى، ولا تقتلونى، وليحتسب لكم الرب ذلك إن فعلتموه معى، فى أعمالكم الصالحات». وحبب الرب يعقوب إليهم. فوجد نعمة فى عينى أليفاز ورجاله، فأنصتوا لصوت يعقوب؛ ولم يقتلوه. وأخذوا كل ما معه، حتى الذهب والفضة اللتين أحضرهما معه من «بئر سبع». ولم يتركوا له شيئًا. وعندما عاد أليفاز ورجاله إلى عيسو وقصُّوا على مسامعه كل ما حدث بينهم وبين يعقوب؛

اشتاط غضبًا من ابنه أليفاز ورجاله، لأنهم لم يقتلوا يعقوب. فأجابوه قائلين: «لأن يعقوب توسل إلينا لما أردنا قتله لكيلا نقلته، ولذا تحركت شفقتنا تجاهه، وأخذنا: كل ما كان معه، ثم عدنا». فأخذ عيسو كل الذهب والفضة التى أخذها أليفاز وأصحابه من يعقوب، ووضعها فى بيته.

ومع ذلك لم يتَخَلَّ عيسو عن أمل اللحاق بيعقوب أثناء فراره وقتله. وظل يطارده، وأمسك هو ورجاله الطريق الذى كان سيعبر منه قاصدًا «حاران». وقد حدثت معجزة عظيمة فى ذاك الوقت. فعندما لاحظ ما أضمره له عيسو، استدار ناحية نهر الأردن، ثم رفع عينيه تجاه الرب وشق الماء بعصا الرحالة ونجح فى العبور إلى الضفة الأخرى. ولكن ذلك لم يَفُتَّ فى عضد عيسو وظل يطارده. ووصل إلى العيون الساخنة عند «بعروس» قبل أن يصل أخوه إليها، الذى كان لابد أن يمر عليها. وقرر يعقوب - ولم يكن يعلم أن عيسو لازال يلاحقه - أن يستحم فى العين قائلاً: «ليس معى زاد ولا شىء احتاجه؛ لذا فلأدفئ على الأقل بدنى من هذه المياه الساخنة» وبينما كان فى الحمام، سدَّ عيسو كل الفتحات، فكاد يعقوب يهلك فى المياه الساخنة، لو لم يَجْرِ الرب معجزة حينها. فقد انفتحت فتحة جديدة من تلقاء نفسها؛ وفر يعقوب من خلالها(١).

(١) المزمور الثالث والعشرون نبوءة عن محمد ﷺ وقد اخترع مؤلفو التلمود قصة مفادها أن يعقوب كاد يهلك على يد عيسو. لولا أن الله نجاه بمعجزة. وذلك لأن فى المزمور الثالث والعشرين عنه أنه إذا مر من وسط المياه، فالله معه، وإذا سار فى وادى ظل الموت؛ لا يخاف؛ لأن الله معه. والمزمور كله عن محمد ﷺ ونصه:

المزمور ٢٣

الرب راعى فلا يعوزنى شىء فى مراع خضر يربضنى. إلى مياه الراحة يوردنى. يرد نفسى؛ يهدينى إلى سبل البر من أجل اسمه. أيضًا إذا سرت فى وادى ظل الموت لا أخاف شرًا لأنك أنت معى. عصاك وعكازك هنا يعزياننى. ترتب قدامى مائدة تجاه مضايقى. مسحت بالدهن رأسى. كأسى ريا إنما خير ورحمة يتبعاننى كل أيام حياتى وأسكن فى بيت الرب إلى مدى الأيام» (مز: ٢٣). (المحقق)

وهكذا تمت الكلمات: «عندما تمر خلال المياه، سأكون معك؛ وعندما تسير فى النار، لن تحترق» إذ نجا يعقوب من مياه الأردن ومن جحيم العين الساخنة.

وفى نفس الوقت الذى نزل فيه يعقوب إلى العين، نزل راكب إلى النهر ليدفئ بدنه وترك حصانه وملابسه على الشاطئ، فاجتاحته الأمواج ولقى حتفه. فارتدى يعقوب ملابس الميت وركب حصانه وانطلق. وكان ذلك من حسن حظه، فقد كان أليفاز قد سلبه كل شىء، حتى ملابسه، وحدثت معجزة النهر لكى لا يظهر عاريًا أمام الناس.

ورغم أن يعقوب سُلِبَ منه كل ما كان يملك، لم تَتَخَلَّ عنه شجاعته. وقال: «هل أفقد الأمل فى خالقى؟ إننى أضع عينَّى على سجايا آبائى. ولسوف يعيننى الرب من أجلهم». وقال الرب: «يا يعقوب لقد وضعتَ ثقتك فى سجايا آبائك، فلهذا لن أجعل قدمك[1] تزلّ ولن يغفو من يحفظك؛ أجل ولدى المزيد! وإن الحارس يحرس نهارًا، وينام ليلاً كما هى العادة - أما أنا فلسوف أحرسك ليل نهار، أنا حافظ إسرائيل وحافظ إسرائيل لا يغفو ولا ينام. أنا الرب سوف أحفظك من كل شىء ومن عيسو ومن لابان وسوف أحفظ روحك، فلا يؤذيك ملك الموت بشىء؛ ولسوف أحفظ دخولك وخروجك؛ ولسوف أعينك من الآن وأنت تغادر كنعان، وعندما تكون على وشك العودة إليها».

وكان يعقوب غير راغب فى مغادرة الأرض المقدسة بدون أن يتلقى بذلك

(١) المزمور المائة والحادى والعشرون نبوءة عن محمد ﷺ وفيها أن الله لا تأخذه سنة ولا نوم. وأنه سيحفظ محمدا من كل شر، حتى عند خروجه لقتال أعدائه ودخوله فى ديارهم فاتحا. وهذا هو نصه:

مزمور ١٢١: ارفع عينى إلى الجبال من حيث يأتى عونى.. معونتى من عند الرب صانع السموات والأرض لا يدع رجلك تزل. لا ينعس حافظك إنه لا ينعس ولا ينام حافظ إسرائيل الرب حافظك. الرب ظل لك عن يدك اليمنى لا تضربك الشمس فى النهار ولا القمر فى الليل. الرب يحفظك من كل شر يحفظ نفسك. الرب يحفظ خروجك ودخولك من الآن وإلى الدهر». (مزمور: ١٢١). (المحقق)

إذنًا من الرب وفكَّر قائلاً: لقد أمرنى والداى بأن أرحل وأقيم خارج الأرض، ولكن ما أدرانى أن تلك إرادة الرب وهى أن أفعل كما يقولان وأُنجب أطفالاً فى غير الأرض المقدسة؟ ولهذا ذهب إلى «بئر سبع»، حيث أذن الرب لإسحق بأن يرحل من كنعان وأن يذهب إلى «فلسطين» ليعلم إرادة الرب فى هذا الأمر.

ولم يحذُ حذو أبيه وجده فى اللجوء إلى مثل أبيمالك، إذ كان يخشى أن يجبره الملك على عقد حِلف معه هو الآخر، مما يستحيل على نسله لأجيال عديدة أن تتملك أرض الفلسطينيين، وما كان ليستطيع البقاء فى المنزل، إذ كان يخشى أن يغتصب عيسو منه حق البكورة والبركات، وهو ما لن ولا يستطيع أن يوافق عليه. كما كان غير ميَّالٍ إلى مصارعة عيسو؛ لأنه كان يؤمن بالحكمة التى تقول: «من يعرض نفسه للمهالك يهلك؛ ومن يتفادَ الهلاك ينجُ». وكان إبراهيم وإسحق كلاهما يعيشان وفق ذلك المبدأ؛ فقد فر جده من النمرود، بينما فر أبوه من الفلسطينيين.

ط ـ يوم المعجزات

وكانت رحلة يعقوب إلى «حاران» سلسلة متعاقبة من المعجزات. وكانت أولى المعجزات الخمس التى وقعت له هى: أن الشمس غابت عندما كان يعقوب يعبر جبل المُرِّيَّا، رغم أن النهار كان لايزال فى منتصفه. وكان يتبع العين التى كانت تظهر حيثما ذهب أو استقر الآباء. وقد صاحبت يعقوب من بئر سبع إلى جبل المريا، وهى مسيرة يومين. وعندما وصل إلى الجبل المقدس؛ قال له الرب(١): «يا يعقوب إن معك خبزًا فى أوعيتك، وعينُ الماء

---

(١) مؤلفو التلمود يعلمون أن أرض «المريا» هى أرض الصفا والمروة. وعندها جبل الرب المقدس. وليس من جبل للرب فى غير مكة. وأرض مكة هى التى وقف إبراهيم عليها. وقال الله له: الأرض التى أنت واقف عليها أعطيها لك ولنسلك.

هذا يعلمه المؤلفون. وقد لغا فيه كاتب التوراة بقوله: إن الأرض التى نام فيها يعقوب ليست أرض مكة وإنما هى أرض فى الطريق من كنعان إلى «حاران» وغرضه من هذا اللغو: جعل =

قريبة منك لتروى ظمأك. فلديك الطعام والشراب، وبهما يمكنك المبيت ههنا الليلة». ولكن يعقوب أجابه قائلاً: «ما كادت الشمس تتجاوز خُمس ساعاتها الاثنى عشر، لماذا أنام إذًا فى ساعة غير مناسبة كهذه؟» وعندها لاحظ يعقوب أن الشمس بدأت فى المغيب، فأخذ فى تجهيز فراشه. وكانت المشيئة الإلهية أن لا يمر يعقوب على موقع الهيكل فى المستقبل بدون أن يتوقف عنده؛ فقد كان لزامًا عليه أن يتأخر هناك ولو لليلة واحدة على الأقل. وأيضًا كان الرب يريد أن يظهر ليعقوب وهو لا يظهر للمؤمنين إلا ليلاً. كما نجا يعقوب فى الوقت ذاته من ملاحقة عيسو الذى اضطر للتوقف عن مطاردته بسبب حلول الظلام مبكرًا.

وأخذ يعقوب اثنى عشر حجرًا من الحجارة التى كان أبوه إسحق قد قُيِّد عليها كأضحية، وقال: لقد كان غرض الرب أن يكون اثنا عشر سبطا، ولكنهم لم تولد من صلب إبراهيم ولا إسحق. والآن لو اتحدت هذه الحجارة الاثنتا عشرة وصنعت حجرًا واحدًا فلسوف أعلم علم اليقين أننى أنا الذى كتب له أن يكون أبا للاثنى عشر سبطا. ولذلك حدثت المعجزة الثانية، فقد اتحدت الحجارة الاثنا عشر وصنعت حجرا واحدا وضعه تحت رأسه فتحول فى الحال وصار طريًا لينًا مثل وسادة. وكان حسنًا له أن يجد مخدعًا مريحًا. فقد كان فى حاجة شديدة للراحة، إذ كانت تلك هى الليلة الأولى

= الأرض الموعودة لإبراهيم موعودة ليعقوب ونسله. وأن الأرض الموعودة ليست أرض مكة وما حولها بل أرض فلسطين.

ومؤلفو التلمود خطَّأوا كاتب التوراة بقولهم: إن نوم يعقوب كان فى أرض المريا عند جبل الرب. وإذا صح وثبت أن نوم يعقوب كان فى مكة يثبت أن يعقوب لم يزر خاله لابان للزواج من راحيل أو من ليئة. وهذا هو الحق. فإن يعقوب كان مولودًا بمكة. ومات إبراهيم وله من العمر ستة عشر عامًا. ولا يعقل عاقل أن يرسل إبراهيم إسحق أو يعقوب ليتزوج كل منهما من أرض آبائه الذين كانوا ـ حسب نص التلمود والتوراة ـ يعبدون الأصنام. لكن يعقل العاقل أن عشيرة إبراهيم قد آمنت بالله رب العالمين ولما سمعوا بأن إبراهيم صار ملكًا على مكة؛ جاءوا إليه وسكنوا بجواره. وفى هذه الحالة يصح له أن يزوج ابنه نساء من عشيرته.

وفى هذا ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾. (المحقق)

طوال اثنتى عشرة سنة لم يبق فى الليل إلا ساهرًا. فطوال تلك السنوات التى قضاها فى بيت التعليم الذى يخص «عابر»، كان قد خصص كل الليالى للدراسة. وظل لعشرين سنة قادمة لا ينام، إذ أيام كان مع خاله لابان؛ ظل يقضى كل ليلة فى تلاوة «الترانيم».

وعمومًا فقد كانت ليلة حافلة بالعجائب. فقد رأى فى نومه رؤيا كشفت له تاريخ العالم. رأى ملاكين على سُلَّم نُصب على الأرض وقمته تصل إلى السماء، وكان الملاكان قد أُرسلا من قبلُ إلى «سدوم». وكانا قد ظلاًّ محرومين من دخول المناطق السماوية طوال مئة وثلاث وثلاثين سنة؛ لأنهما كشفا عن مهمتهما السرية للوط. وكان قد صحبا يعقوب منذ خروجه من بيت أبيه حتى قدومه إلى ذلك المكان، وكانا فى ذاك الوقت يصعدان إلى السماء وعندما وصلاها سمعهما يناديان الملائكة الآخرين قائلين: «تعالوا وشاهدوا قسمات وجه يعقوب التقى، الذى تظهر صورته على العرش الإلهى تعالوا يا من اشتقتم طويلاً لرؤيته».

ثم رأى الملائكة تنزل من السماء لتتطلع إلى وجهه. كما رأى ملائكة الممالك الأربع تصعد على السلم.

وصعد ملاك «بابل» سبعين درجة، وصعد ملاك «ميديا وفارس» أربعين، وملاك «اليونان» مئة وثمانين، بينما ارتقى ملاك «الروم» عاليًا جدًّا قائلاً: «لسوف أصعد فوق عنان السحاب؛ لسوف أكون مثل العلىّ». وسمع يعقوب صوتًا يوبخه قائلاً: «لكنك ستنحدر إلى الهاوية إلى الجحيم، وإلى أسفل دركات الهاوية». كما وبخ الرب بنفسه «ملاك الروم» قائلاً: «مع أنك ترتفع عاليًا كالنَّسر، ورغم أن عشك يرقد وسط النجوم؛ فإننى أنزلك من هناك».

كما أرى الربُّ يعقوب الوحى على جبل سيناء، وصعود «إيليا» والهيكل فى مجده وخرابه، ومحاولة «نبوخذ نصر» إحراق الأطفال الثلاثة المقدسين فى النار المهلكة، ولقاء دانيال مع «بيل».

وفى هذه الرؤيا النبوية الأولى التى رآها يعقوب؛ وعده الرب بأن الأرض التى يرقد عليها الآن ستُعطى له، والأرض التى كان يرقد عليها كانت هى كل «فلسطين»، التى طواها الرب ووضعها تحته. وواصل وعده قائلاً: «وسيكون نسلك مثل تراب الأرض. وكما تبقى الأرض بعد زوال كل شىء، سيبقى نسلك بعد هلاك كل أمم الأرض. وكما يدوس الكل على الأرض، فكذلك سيكون نسلك، عندما يقترفون الآثام ستطؤهم كل أمم الأرض».

وفوق ذلك وعد الرب يعقوب بأنه سينتشر غربًا وشرقًا، وهو وعد أعظم من الوعد الذى أُعطِىَ لأبويه إبراهيم وإسحق اللذين كان قد خصص لهما قطعة محدودة من الأرض؛ أما ما وعد به يعقوب فقد كان مِلْكًا لا حدود له.

واستيقظ يعقوب من نومه مذعورًا بسبب الرؤيا التى رأى فيها دمار «الهيكل» وصرخ قائلاً: «يا له من مكان مرعب! ليس هذا إلا بيت الرب حيث باب السماء الذى يَصْعَدُ إليه الدعاء من خلاله» وأخذ الحجر المكوَّن من اثنى عشر حجرًا ونصبه عمودًا وصب فوقه الزيت الذى تدفق من السماء عليه، وألقى الرب هذا الحجر المبارك فى قاع الهاوية ليكون مركزًا للأرض، وهو نفس حجر «ابن شيتياه» الذى يكوِّن مركز قدس الأقداس، حيث «الاسم الذى لا يمحى» محفور والذى تجعل معرفة الإنسان به سيدًا على الطبيعة وعلى الحياة والموت.

وسجد يعقوب أمام «ابن شيتياه» ودعا الرب أن ينجز له الوعد الذى وعده. كما دعا الرب أن يمنحه زادًا وكسوة كريمة. فلم يكن الرب قد ذكر خبزًا ليأكله ولا رداءً ليلبسه، لكى يتعلم يعقوب كيف يؤمن بالرب ثم نَذَر أن يعطى عُشْرَ ما يمتلك للرب، لو استجاب لدعائه. وهكذا كان يعقوب أول من ينذر نذرًا للرب، كما كان أيضًا أول من يخرج عُشْرَ ماله صدقة.

---

(١) تكوين ٢٧: ٢٧ ـ ٢٩.

وقد وعده الرب بكل ما يرغب فيه تقريبًا، ولكنه كان يخشى عذابه على سيئاته بفقد التبريكات التى استحقها، ثم دعا مرة أخرى بلجاجة أن يعيده الرب إلى بيت أبيه سليم البدن والمال والمعرفة وأن يحفظه فى الأرض الغريبة التى كان ذاهبًا إليها، يحفظه من عبادة الأوثان، وحياة الفاحشة، وسفك الدماء.

وعندما انتهت صلواته، واصل يعقوب طريقه إلى «حاران»، وحدثت العجيبة الثالثة. فقد وصل إلى مبتغاه فى طرفة عين. وقفزت الأرض من جبل المُرِّيا إلى «حاران» ولم يفعل الرب عجيبة كهذه إلا أربع مرات على مر التاريخ.

وأول ما وقعت عليه عيناه فى حاران هو البئر التى يستقى منها سكان المدينة ماءهم. ورغم أنها كانت مدينة عظيمة، فقد كانت «حاران» تعانى من نقص فى المياه، ولذا فلم تكن البئر تستخدم مجانًا. وأحدثت إقامة يعقوب فى المدينة تغييرًا. فبسبب أفعاله الصالحات بُوركت عيون المياه وحصلت المدينة على ما يكفيها من الماء.

ورأى يعقوب كثيرًا من الناس حول البئر فسألهم: «من أين أنتم يا إخوان؟» وهكذا ضرب مثالاً للجميع ليحتذوه؛ فلابد أن يكون المرء ودودًا مع الناس، ويخاطب الآخرين وكأنهم إخوانه وأصدقاؤه، ولا ينتظر حتى يبادروه بالتحية. ولابد أن يحرص كل إنسان على أن يكون هو البادئ بالتحية بالسلام، لكى تهرع إلى استقباله ملائكة السلام والرحمة. وعندما علم أن المنتظرين قدموا من «حاران»، سألهم عن شخص وحرفة خاله «لابان»، وإن كانوا على وِدٍّ معه أم لا، فأجابوه بإيجاز قائلين: «بيننا سلام، ولكن إن شئت معرفة المزيد فها هى «راحيل» ابنته آتية. ويُمكنك أن تعرف منها ما تشاء». وكانوا يعلمون أن النساء يعشقن الثرثرة، ولذا فقد أحالوه إلى «راحيل».

وتعجب يعقوب من وقوف جمع كثير حول البئر لا يستقون. لذا سألهم: «هل تعملون بالنهار؟» إذًا فلا زال الوقت مبكرًا للغاية على توقفهم عن

العمل. ولكن إن كنتم ترعون أغنامكم الخاصة بكم، فلماذا لا تسقون أغنامكم ثم تطعمونها بعد ذلك؟ فأجابوه قائلين: إنهم ينتظرون حتى يأتى جميع الرعاة بقطعانهم، ثم يشتركوا جميعًا فى إزاحة الحجر عن فم البئر.

وبينما هو يتحدث إليهم، أقبلت راحيل بأغنام أبيها، إذ لم يكن للابان أبناء، كما كانت آفة قد تفشت بين أغنامه. ولذا فلم يتبق منها إلا القليل الذى تستطيع جارية مثل «راحيل» أن ترعاه وعندما رأى يعقوبُ ابنة خاله آتية؛ أزاح الحجر العظيم عن فم البئر بالسهولة التى ينزع بها المرء سدادة من الفلّين عن فم زجاجة؛ وكانت تلك العجيبة الرابعة فى ذلك اليوم غير العادى. وكانت قوة يعقوب تعادل قوى جميع الرعاة مجتمعين؛ وبيديه معًا أنجز ما يحتاج فى إنجازه فى العادة لاتحاد قوى جمع كبير من الرجال. وقد منحه الرب هذه القوة الفائقة لطبيعة البشر عند مغادرته للأرض المقدسة. وقد أسقط عليه الرب ندى البعث، وكانت قوته البدنية عظيمة لدرجة أنه فى أحد صراعاته مع الملائكة؛ هزمهم.

وكانت العجيبة الخامسة والأخيرة فى ذلك اليوم: أن الماء ارتفع من أعمق أعماق البئر حتى بلغ شفيره، ولم يكن هناك ضرورة لرفعه، وظل هكذا طوال العشرين سنة التى قضاها يعقوب فى «حاران».

ى- يعقوب مع لابان

وكان مجئ «راحيل» إلى البئر فى اللحظة الذى وصل فيها يعقوب إلى البئر، فألاً حسنًا. لأنك إن تقابل فتاة صغيرة عند دخولك أية مدينة، فهى وبلا شك علامة على أن الحظ سيحالفك. وقد أثبتت التجارب ذلك، من خلال أليعازر ويعقوب وموسى وشاؤول فقد كان كل واحد منهم قد قابل فتيات عند اقترابهم من مكان جديد عليهم، وجميعهم كان النجاح حليفهم.

وعلى الفور تكلم يعقوب مع «راحيل» على أنها ابنةُ خاله، مما أثار همس الرعاة المنتظرين. واستهجنوا تصرف يعقوب معها، إذ منذ أرسل الرب

الطوفان على الأرض، بسبب حياة الفاحشة التى تفشت بين البشر؛ ساد العفاف بين الناس، وخصوصًا بين أهل الشرق. وحزن يعقوب من كلام الناس. وما كاد يَقبِّل راحيل إلا وشرع فى البكاء، إذْ أحس بالندم على فعل ذلك.

وكان لدى يعقوب سبب وجيه للبكاء، إذ تذكر أن أليعازر، عبد جدِّه، قد جلب معه عشرة جمال محملة بالهدايا عندما قدمَ إلى حاران ليخطب لإسحاق، بينما لم يكن لديه هو ولا حتى مجرد خاتم ليعطيه لراحيل. وعلاوة على ذلك فقد رأى بعين بصيرته أن زوجته الحبيبة راحيل لن ترقد بحواره فى قبره؛ ولذلك بكى.

وما إن سمعت راحيل أن يعقوب ابن عمتها، حتى هرولت إلى منزلها لتخبر أباها بمجيئه. وكانت أمها قد ماتت، وإلا كانت قد هرولت إليها. فسعى لابان لاستقبال يعقوب، وفى نيته أنه إذا كان أليعازر ـ الذى ما كان إلا عبدًا ـ قد أتى و عه عشرة جمال، فما الذى يمكن أن يجلبه معه ابن العائلة.

وعندما رأى يعقوب قد أتى خالى اليدين، ظن أنه يحمل فى مِنْطقته مبلغًا كبيرًا من المال؛ فاحتضنه ليتلمس منطقته ويعلم إن كان ظنه صحيحًا أم لا. ولكن خاب أمله ومع ذلك لم ييأس، وظل يمنِّى نفسه بأن ابن أخته يعقوب لابد أنه رجل ذو ثراء وسعة. ومن المحتمل أنه يخفى فى فمه بعض الجواهر؛ ولذا فقد قبَّله ليرى إن كان تخمينه صحيحًا أم لا، ولكن يعقوب قال له: إنك تحسب أن معى مالا. أنت مخطئ، فليس لدى سوى بضعة كلمات ثم طفق يخبره كيف حدث أنه أتاه خالى الوفاض. وقال له: إن أباه إسحق زوده بالذهب والفضة والمال، ولكنه قابل فى طريقه «أليفاز» الذى هدده بأنه سيقتله، وقال يعقوب لهذا المهاجم: لتعلم أن ذرية إبراهيم عليهم فرض لابد أن يؤدوه. ألا وهو أن يخدموا لأربعمائة عام فى أرض ليست لهم. ولئن قتلتنى فإنك ستكون ملزمًا، أنت ونسل عيسو، بأداء الدَّين. لذا فمن الأفضل أن تأخذ كل ما لدىّ ولا تقتلنى، كى أستطيع أداء الدين بنفسى.

وواصل يعقوب كلامه قائلاً: وهكذا أقف الآن أنا أمامك مجردًا من كل شىء أخذه أليفاز.

فامتلأت نفس لابان باليأس عندما سمع عن فقر ابن أخته على هذا النحو، وصاح قائلاً: ماذا هل سأجد نفسى مضطرًا لإطعام وسقاية ذلك الرجل ربما لشهر أو حتى لعام، وهو الذى أتانى خالى اليدين؟ ثم ولَّى إلى مُنَجِّميه يسألهم المشورة فى هذه المسألة، فحذروه قائلين: إياك أن تطرده من بيتك، فنجمه فى برج سعده حتى إن الحظ سيكون حليفه فى كل ما يفعل، ولسوف تحل عليك بركة الرب فى كل ما تفعل من أجله هو، وأيضًا فى بيتك وفى حقلك.

واقتنع لابان بنصيحة المنجمين، ولكنه كان مهمومًا بالطريقة التى سيؤوى بها يعقوب فى منزله. ولم يجرؤ على أن يعرض عليه الخدمة لديه، خشية أن يشترط عليه شروطًا يستحيل تنفيذها. فعاد إلى المنجمين وسألهم بأى شىء يغرى ابن أخته، فأجابوه أجرته: زوجة؛ فإنه لن يطلب منك شيئًا غير زوجة له. إذ إن من طبعه أن ينجذب إلى النساء، وحينما يهددك بأنه سيرحل عنك؛ اعرض عليه زوجة أخرى، وعندها فلن يتركك.

فعاد لابان إلى يعقوب وقال له: قل لى أى أجر ستأخذ؟ أجابه يعقوب: هل تظن أنى جئت لأجمع مالاً؟ ما جئتُ إلا لأتخذ لنفسى زوجة. إذ ما كاد يعقوب يرى راحيل إلا ووقع فى حبها وعرض عليها الزواج. ووافقت راحيل ولكنها حذرته قائلة: «إن أبى ماكر ولستَ تقدر على مكره». فرد يعقوب: وأنا أخوه فى المكر.

راحيل: لكن هل يليق المكر بالتَّقِىّ؟.

يعقوب: أجل، فمع الصالحين لا ينفع إلا الصلاح، ومع الماكرين لا ينفع إلا المكر. ولكن أخبرينى كيف سيمكر بى؟

راحيل: لدى أخت أكبر منِّى وهو يريدها أن تتزوج قبلى، ولسوف يحاول أن يعطيك إياها بدلاً عنى.

واستعدادًا لمكر لابان، اتفق يعقوب مع راحيل على إشارة تشير بها إليه فيعرف أنها هى فى ليلة زفافها.

وهكذا بعدما أخذ حذره من مكر لابان ودهائه؛ أتم يعقوب اتفاقه معه بخصوص زواجه من راحيل، وبدقة لم تدع مجالاً لأى خداع أو مخاتلة. وقال يعقوب: إن أهل هذه البلدة غشاشون؛ لذا فسأكون واضحًا معك. سأخدمك سبع سنين من أجل راحيل، وليس لليئَة. ومن أجل ابنتك، لا تُحْضِر لى امرأة أخرى غيرها حتى ولو كان اسمها «راحيل»؛ وأقصد ابنتك الصغرى، فإياك أن تبدل اسميهما حتى ذلك الوقت.

ولكن ذلك كان بلا فائدة: فلن يفيدك أن ترمى الشرير فى مدرسة الإصلاح. ولا الكلمات المعسولة ولا القوة القاهرة يمكن أن تثنى الماكر عن مكره. ولم يخدع لابان يعقوب وحده فحسب، ولكنه خدع أيضًا الضيوف الذين دعاهم لحفل الزفاف.

ك - زواج يعقوب

وبعد ما خدم يعقوب لابان لسبع سنين، قال لخاله: «لقد كتب لى الرب أن أكون أبًا لاثنى عشر سبطا. وأنا الآن فى الرابعة والثمانين من عمرى، وإن لم أفكِّر فى الأمر الآن، فمتى أفكر فيه إذًا؟ عندها سمح له لابان بأن يتزوج ابنته «راحيل»، فتزوج بعد أخيه عيسو بأربع وأربعين سنة. وهكذا فإن الرب غالبًا ما يؤخر سعادة المتقين، بينما يسمح للأشرار بالاستمتاع بتحقيق رغباتهم عاجلاً. ومع ذلك فإن عيسو اختار سنته الأربعين ليتزوج، عن عمد؛ فقد كان يريد أن يوضح أنه يسير على خطى أبيه إسحق الذى كان قد تزوج وهو فى الأربعين. وكان عيسو مثل الخنزير الذى يمد قدميه عندما يرقد على ظهره، ليُظْهِر أنه مشقوق الظلف مثل الحيوانات النظيفة، رغم أنه ليس

إلا من الحيوانات الدنِسَة. وحتى الأربعين من عمره، كان عيسو معتادًا أن يَفْجُر مع زوجات غيره من الرجال، ثم نجده عند زواجه يتصرف وكأنه يحذو حذو أبيه التقىّ. ولذا فقد كانت المرأة التى تزوجها من نفس طينته «يهوديت» ابنة «حِثٍّ»، إذ قال الرب: «هذا الذى خلق للهشيم، ليحرق بالنار، سيتخذ لنفسه زوجة من شعب كتب عليه الهلاك هو الآخر». وكانا ـ عيسو وامرأته ـ أحسن مثال يشرح القول المأثور: «ليس غريبًا أن يتوالف الغراب مع الغرابة، فالطيور على أشكالها تقع».

ولكن الأمر كان شديد الاختلاف مع يعقوب، فقد تزوج الأختين الحبيبتين التقيتين ليئة وراحيل، إذ كانت ليئة، مثل أختها الصغرى راحيل، حسنة الوجه والهيئة والقد. ولم يكن بها سوى عيب واحد، ألا وهو أن عينيها كانتا كليلتين، وهى التى جلبت هذه البلوى على نفسها بأفعالها، فقد كان لابان، وكان له ابنتان، قد اتفق مع أخته رِفقة، ولها ابنان، وأطفالهما لايزالون بعد صغارًا، أن يتزوج الابن الأكبر البنت الكبرى، والأصغر الصغرى. وعندما بلغت لَيِّئة مبلغ النساء وسألت عن زوجها فى المستقبل؛ لم تعلم عنه سوى كل شر، فأخذت تبكى وتندب حظها الأسود، حتى تساقطت رموش عينيها.. ولكن راحيل كانت تزداد جمالاً يومًا بعد يوم، إذ ما كان يعقوب يُذْكَر أمامها إلا بكل خير وإطراء؛ والأخبار السارة تقوِّى العظام.

وحسب اتفاق لابان مع رِفقة؛ رفض يعقوب أن يتزوج من الابنة الكبرى لَيِّئة. ولأن عيسو كان عدوه اللدود، بسبب ما حدث بينهما بسبب حق البكورة والبركات الأبوية، لذا فإن تزوج يعقوب الآن العروس المخصصة له، لن يسامح عيسو أخاه الأصغر أبدًا. لذا فقد عزم يعقوب على أن يتزوج من راحيل، ابنة خاله الصغرى.

ولكن لابان كان له رأى آخر وهو أنه كان ينوى تزويج ابنته الكبرى أولاً، فقد كان يعلم أن يعقوب سيخدمه لسبع سنين أخرى بسبب حبه لراحيل.

وفى يوم الزفاف جمع سكان «حاران» وخاطبهم قائلاً: تعلمون أننا كنا نعانى من نقص المياه، لكن ما إن أتانا هذا الرجل التقى يعقوب وسكن بيننا، إلا وأصبح الماء عندنا وفيرًا. فسألوه: ما الذى تنوى فعله إذًا؟ أجابهم: لو لم يكن لديكم مانع، فسوف أخدعه وأزوجه من لَيْئَة. إنه يحب راحيل حبًّا شديدًا، ولسوف يطيل مكثه بين أظهرنا لسبع سنين أخرى من أجلها. فقال له أصدقاؤه: افعل ما يحلو لك. وعندها قال لهم لابان: حسنًا ليعاهدنى كل منكم بأنه لن يخوننى ويفضى إليه بما نويت.

وعاهدوه على ذلك وانصرفوا معه فاشترى لابان الخمر والزيت واللحم لوليمة الزفاف. فأعّد لهم طعامًا تكفلوا هم بثمنه. ولأنه خدع رفاقه على هذا النحو؛ فإن لابان يلقب «العَرَمى» أى الغشّاش. وظلوا يحتفلون به طوال النهار وحتى وقت متأخر من الليل، وعندما أبدى يعقوب اندهاشه من احتفائهم به على هذا النحو المبالغ فيه، أجابوه قائلين: لقد خدمتنا خدمة جليلة بتقواك، فقد زاد مخزوننا من الماء وأصبح وافرًا وغزيرًا، ونحن نريد أن نريك امتناننا لك على هذا. وقد حاولوا بالفعل أن يلمِّحوا له بما بيَّته له لابان. ففى أنشودة العرس التى تغنوا بها أخذوا يكررون المقطع «هاليّا» على أمل أن يفهمها كأنه «إذا هى ليئة» ولكن يعقوب كان سليم الطويّة ولم يلاحظ شيئًا.

وعندما أُخِذَت العروس إلى غرفة عرسها؛ أطفأ الضيوف جميع الشموع الأمر الذى أثار دهشة يعقوب الشديدة. ولكنهم برروا ذلك بأن قالوا له: «هل تظن أننا أجلاف وليس عندنا ذوق كأهل بلدك؟» ولذا فلم ينتبه يعقوب للخديعة التى تعرض لها حتى الصباح. وخلال الليل كلما نادى على راحيل تجيبه ليئة، وهو ما عنَّفها عليه بقسوة عندما لاح نور الصباح. وأخذ يقول لها فى مرارة: يا غشّاشة يا ابنة الغشاش (كذا)، لماذا كنت تجيبين علىّ كلما ناديتُ على راحيل؟ فردت سائلة: أهناك معلم ولا تلميذ له؟ ما فعلت أنا إلا كما فعلتَ أنت، أما أجبت على والدك عندما نادى على عيسو وقلت له: «ها أنذا»؟.

عندها اشتاط يعقوب غضبًا من لابان وقال له: لماذا خدعتنى؟ خذ ابنتك ودعنى أرحل من هنا؛ لأنك قد أخطأت فى حقّى. فهدأ لابان روعه قائلاً: ليس من عادة بلدنا أن نزوج الصغرى قبل الكبرى. ووافق يعقوب حينها على أن يخدمه لسبع سنين أخرى من أجل راحيل، وبعدما اكتملت سبعة أيام حفل زفاف ليئة، تزوج راحيل. وأخذ يعقوب، إضافةً إلى راحيل وليئة، الجاريتين «زِلْفَة» و «بِلْهَة»، وهما ابنتان له من سراريه.

ل ـ ميلاد أولاد يعقوب

إن طرق الرب ليست كطرق البشر. فالإنسان يبقى ملازمًا صديقه طالما هو يملك الثروات، ولكنه يهجره عندما تؤول حاله إلى الفقر. ولكن عندما يرى الرب مخلوقًا ضعيفًا وفى محنة، فإنه يمد له يده وينتشله من محنته وهكذا كانت الحال مع ليئة، فقد كان يعقوب يكرهها، فأسبغ عليها الرب رحمته. وقد بدأ بغض يعقوب لليئة فى أول صباح بعد زفافهما، عندما عايرته زوجته بأنه ليس بريئًا من الخداع والمخاتلةً. عندها قال الرب: لن ينصلح حال ليئة (مع زوجها) إلا إذا أنجبت له طفلاً بسببه سيعود إليها حب زوجها لها. وتذكر الرب الدموع التى ذرفتها وهى تدعوه بألا يكتب عليها الزواج من الضال «عيسو» وحقًا إن للدعاء لأثرًا عجيبًا فلم تتخلص ليئة مما كتب عليها من الزواج بهذا الشرير فحسب، بل وكتب لها أن تتزوج يعقوب قبل أختها وأن تكون هى أول من تلد له. وأيضًا كان هنالك سبب آخر لرحمة الرب بليئة. فقد عرَّضت نفسها من قَبْلُ للقيل والقال، وخاض فى سيرتها البحارة فى البحر، والمسافرون على الطرقات، والنساء على أنوالهن، قائلين: إنها ليست فى ظاهرها كما هى فى باطنها. فهى تبدو تقية، ولكن لو كانت حقًا تقية لما كانت خدعت أختها. ولكى يضع الرب حدّا لكل هذه الأقاويل؛ منحها الرب أن تلد ابنًا بعد سبعة أشهر من زواجها. وكان ابنًا من توأمين والآخر بنتًا. وهكذا كان كل أبناء يعقوب توائم. كل منهم ولد مع أخت توأم، عدا يوسف ثم يتزوج الأخ والأخت التوأمان فيما بعد. ومع ذلك فقد كان ميلادًا معجزًا إذ كانت ليئة عاقرًا، ولم تكن مهيأة بطبيعتها لإنجاب أولاد.

وسمّت بكْرها «رَأُوبَيْن»، أى «انظروا الرجل العادى» فلم يكن ضخم الجثة ولا ضئيلها، ولا أسمر ولا أشقر، ولكن عاديًا تمامًا. وبتسميتها لابنها الأكبر «رأوبين»، أى «انظروا الابن»، كانت ليئة تشير إلى شخصيته فى المستقبل. وكان الاسم يعنى «لاحظوا الفرق بين ابنى البكر وبكر حماى. فقد باع عيسو حقه فى البكورة ليعقوب، بإرادته الحرة، ولكنه مع ذلك ظل يكرهه. أما ابنى البكر، ومع أن حقه فى البكورة قد سُلِب منه رغمًا عنه، وأُعطى ليوسف، فقد كان هو الذى أنقذ يوسف من أيدى إخوته».

وسمَّت ليئة ابنها الثانى «شِمعُون» أى «ها هى الخطيئة هناك» إذ أن أحد ذريته هو ذلك المدعو «زِمْرِى» الذى ارتكب الفاحشة مع بنات «موآب».

أما اسم ابنها الثالث «لاوى»، فقد سماه به الرب بنفسه، وليست أمه هى التى سمته. فقد استدعاه الرب بواسطة الملاك جبريل، وأنعم عليه بذلك الاسم كإنسان «مُتوَّج» بالهبات الأربع والعشرين التى يستحقها الكهنة.

وبميلاد الابن الرابع، حمدت ليئة الرب لسبب وهو أنها. قد كانت تعلم أن يعقوب سينجب اثنى عشر ابنًا، ولو قسموا بالتساوى على زوجاته الأربع، لكان نصيب كل زوجة أن تنجب ثلاثة. ولكن لما ظهر لها أنها ستزيد عنهم بواحد، سمته «يهوذا»، أى «شكرًا للرب». وهكذا كانت أول إنسان منذ بدء الخليقة يشكر الرب، وحذا حذوها «داوود» و «دانيال» وهما من ذرية يهوذا.

وعندما رأت راحيل أن أختها أنجبت ليعقوب أربعة أبناء، بدأت تحسد ليئة. ولم يكن ذلك لأنها كانت تحقد عليها لحسن حظها، ولكن لأنها كانت تحسدها على تقواها وتقول لنفسها: إنه بسبب سلوكها الوَرِع استحقت بركة إنجاب كثيرين من الأطفال. ثم ناشدت يعقوب قائلة: ادْعُ لَى الرب ليهبنى الأطفال، وإلا ستصبح حياتى بلا حياة. وحقًا يوجد أربعة يمكن اعتبارهم كالأموات: الأعمى والمجذوم والعاقر ومن كان ذا ثراء فضاع ثراؤه. وعندئذ اشتد غضب يعقوب على راحيل وقال لها: كان الأجدر بك أن تتوجهى

بتوسلك إلى الرب، لا لى، فهل أنا الذى حللت محل الرب ومنعت عنك ثمرة رحمك؟!!» واستاء الرب من هذه الإجابة التى أجاب بها يعقوب زوجته الحزينة، ووبخه قائلاً: أهكذا تطيّب خاطر القلب الحزين؟ وحياتك، لسوف يأتى يوم يقف فيه نسلك أمام نسل ابن راحيل وسيقول لهم نفس كلماتك التى قلتها الآن، «هل أنا مكان الرب؟».

وبمثل ذلك ردت راحيل على يعقوب قائلة: أما ناشد أبوك الرب بكلمات فيها خشوع من أجل أمّك، وتوسل إليه أن ينزع عنها عقمها؟.

يعقوب: بلى ولكن إسحق لم يكن له أطفال، وأنا عندى الكثير.

راحيل: «تذكر جدك إبراهيم؛ وإنك لن تستطيع أن تنكر أنه كان لديه أطفال عندما دعا الرب من أجل سارة!».

يعقوب: وهل ستفعلين أنت من أجلى ما فعلته سارة من أجل جَدِّى؟.

راحيل: وماذا فَعَلَتْ؟ أرجوك أخبرنى.

يعقوب: لقد أتت هى بنفسها بضرة وأدخلتها منزلها.

راحيل: لو كان هذا هو كل ما يلزم؛ فأنا مستعدة أن أحذوَ حذوَ سارة وأنا أدعو أنه كما كُوفئت هى على جلبها ضرة لنفسها بإنجاب طفل، لأبارك أنا الأخرى مثلها.

وعندها أعطته راحيل جاريتها «بِلْهَة» زوجةً له، وأنجبت بلهة له ولدًا سمته راحيل «دان» قائلة: «كما كان الرب كريمًا معى وهبنى ابنًا استجابة لدعائى، ولسوف يسمح لِشمشون، وهو من ذرية «دان»، أن يقضى بين قومه، فلا يقعون فى أيدى الفلسطينيين. وسمت راحيل ابن بلهة الثانى «نَفْتَالى» قائلة: «إن رباطى هو الرباط الذى يربط يعقوب بهذا المكان، إذ من أجلى أتى إلى «لابان». كما أرادت أن تشير بهذا الاسم إلى أن التوراة، التى هى فى حلاوة «النوفيت» أى كوز العسل، سوف يتم تدريسها فى أرض نَفْتالى.

كما أن للاسم معنى ثالث: وهو «فكما سمع الرب دعائى الحار من أجل ابن؛ فلسوف يسمع لدعاء النفتاليين الحار عندما يقهرهم أعداؤهم».

وعندما رأت ليئة أنها قد انقطعت عن الولادة، بينما بِلْهَةُ، جارية أختها قد ولدت ليعقوب ابنين، استنتجتْ أن يعقوب مُقَدَّرٌ له أن يتزوج أربع زوجات: هى وأختها، وأختيهما غير الشقيقتين زِلْفَة وبِلْهَة. ولهذا أعطته جاريتها زوجة له. وكانت زِلْفَة صغرى النساء الأربع. وكان من عادة ذاك الزمان أن تأخذ البنت الكبرى الجارية الكبرى، والصغرى الجارية الصغرى، كمهر لكل منهما عندما يتزوجا. ولهذا فإن لابان، لكى يخدع يعقوب ويوهمه أن زوجته هى الصغرى التى خدم من أجلها، فإنه قد أعطى ليئة الجارية الصغرى كنصيبها عند الزواج. وكانت «زِلْفَة» هذه ضئيلة الجسم لدرجة أن بدنها لم تظهر عليه أية علامات للحمل، ولم يعلم بأمرها أحد حتى وضعت ابنها. وسمت ليئة الولد «جاد»، ومعناه «الحظ» أو قد يعنى «القاطع»، إذ جاء من نسل «جاد» النبى «إيلياء» الذى جلب الحظ السعيد لإسرائيل، كما قطع واستأصل العالم الوثنى. وكانت لدى ليئة أسباب أخرى لاختيار هذا الاسم مزدوج المعنى. فقد كان من حسن حظ قبيلة (سِبْط) جاد أن تملكت نصيبها من الأرض المقدسة قبل أى قبيلة من أخوتها، كما أن جاد بن يعقوب وُلِدَ مَخْتونًا.

وسمت ليئة ابن زِلفة الثانى «أشِير»، أى «الحمد»، إذ قالت: وجب لِيَ كل حَمْد؛ لأنى أدخلت جاريتى بيت زوجى زوجةً له. صحيح أن سارة فعلت مثل ذلك، ولكنها لم تفعله إلا لأنها كانت عاقرًا، وكذلك كان الحال مع راحيل. أما أنا فلدى أطفال، ومع ذلك فقد سيطرتُ على عواطفى وبدون غيرة أعطيت جاريتى لزوجى زوجةً له. وحقا، سيحمدنى الجميع ويطرونى. كما قالت: وكما ستحمدنى النساء، كذلك فإن أبناء «أشير» فى مستقبل الأيام سوف يحمدون الرب على امتلاكهم لنصيبهم الخصيب فى الأرض المقدسة.

وكان الولد التالى الذى وُلِدَ ليعقوب هو «يَسَّاكَر»، أى «ثواب»، ووَلَدَته

ليئة ثوابًا لها من الرب على رغبتها التقية فى إخراج الأسباط الاثنى عشر إلى الوجود. ولم تَألُ جهدًا للتأكد من حدوث ذلك.

وحدث ذات مرة أن ابنها الأكبر «رأوبَين» كان يرعى حمار أبيه أثناء الحصاد، وربطه فى جذر لُفَّاح*، ثم مضى لحال سبيله. وعندما عاد وجد الجذر منخلعًا من الأرض والحمار راقد بجواره ميتًا. وكان الحمار قد خلعه من الأرض وهو يحاول الهروب من قيده، وكان للنبات ميزة عجيبة وهى أن من يخلعه من الأرض لابد أن يموت. ولأنه كان وقت الحصاد حيث يسمح لكل شخص بأن يأخذ نباتًا من الحقل، واللفَّاح هو نبات ليس له قيمة كبيرة عند صاحب الحقل، فقد ذهب به رأوبين إلى البيت. ولأنه ولد طيب لم يحتفظ به لنفسه أعطاه لأمه. واشتهت راحيل اللُفَّاح وطلبته من ليئة فأعطته لها ولكن على شرط أن يتأخر يعقوب عندها قليلاً بعدما يرجع من الحقل. ولم يكن ذلك تصرفًا جيدًا من «راحيل» أن تتخلص من زوجها بهذه الطريقة. وأخذت اللُفَّاح، ولكنها خسرت قبيلتين (من الأسباط الاثنى عشر). ولو كانت تصرفت على نحو مغاير لكانت ولدت أربعة أبناء لا ابنين. كما عوقبت على ذلك أيضًا بأنه لم يسمح لبدنها أن يستقر فى القبر بجوار بدن زوجها.

وعاد يعقوب من الحقل بعد حلول الظلام، إذ كان يراعى الشريعة التى تفرض على الأجير أن يعمل حتى غروب الشمس، كما أن حماس يعقوب فى خدمة لابان لم يَفتُر وظل عظيمًا فى السنوات السبع الأخيرة حتى بعد زواجه، كما فى أول سبع سنوات عندما كان يخدم من أجل الزواج براحيل. وعندما سمعت ليئة صوت نهيق حمار يعقوب إلا وهرولت تستقبل زوجها وطلبت منه أن يذهب معها إلى خيمتها، ولم تنتظر حتى يغسل رجليه وتردد ورفض يعقوب الذهاب معها، ولكن الرب أجبره على الدخول، إذ كان الرب

* نبات عشبى معمر من الفصيلة الباذنجانية. ويسمى «البيروح» ينبت فى الكثير من نواحى الشام وحوض البحر المتوسط، ويسمى أيضاً «تفاح المحبة» وجذره يشبه كثيراً النصف الأسفل من جسم الإنسان ولذا يعتقد أنه مثير للشهوة الجنسية، وثمره يشبه الطماطم وله رائحة نفاذة. (المترجم).

يعلم أن ليئة إنما كانت تتصرف بدوافع تقية خالصة. وقد ضمن لها لُفَّاحُها إنجاب ابنين، هما: يسَّاكَر أبو القبيلة التى وهبت نفسها لدراسة التوراة، ومن هنا يعنى هذا الاسم «ثواب»، و «زبولون» الذى عملت ذريته فى التجارة، واتخدموا أرباحهم ليعينوا إخوانهم أبناء «يساكر» على مواصلة دراستهم. وقد سمت ليئة ابنها الأخير هذا «زبولون»، أى «المَقَام»، لأنها قالت: «الآن سيقيم زوجى معى عندما يرى أنى أنجبت له ستة أبناء، كما أن أبناء زبولون سيكون لهم مقام طيب فى الأرض المقدسة».

وَوَلَدَت ليئة مرة أخرى، ولكنها ولدت هذه المرة بنتًا، وقد كان ولدًا تحوَّل إلى بنت بسبب دعائها. وعندما حملت للمرة السابعة قالت: «لقد وعد الرب يعقوبَ باثنى عشر ولدًا، وقد ولدتُ له ستة، وولدت له كل جارية من الجاريتين اثنين، ولو ولدت ولدًا آخر، فلن تتساوى معى اختى راحيل، ولا حتى مع الجاريتين». ولذا فقد دعت الرب ليحول الجنين الذكر الذى فى رحمها إلى أنثى، واستمع الرب لدعائها.

والآن وَحَّدت كل زوجات يعقوب: ليئة وراحيل وزلفة وبلهة دعواتهن مع دعاء يعقوب، وناشدوا الرب أن يزيل عن راحيل لعنة العُقْم. وفى يوم رأس السنة (العبرية) حيث يجلس الرب للفصل بين سكان الأرض؛ تذكر راحيل ومنحها ابنًا. فقالت راحيل: لقد نزع عنى الرب العار فقد كان كل الناس يقولون إنها ليست امرأة تقية، وإلا لكانت قد ولدت أطفالاً، وبعدما سمع لها الرب وفتح رحمها، ما عاد هناك سبب لمثل هذا الكلام التافه.

وبولادتها لابن، نجت كذلك من خزى آخر، فقد كانت قد قالت لنفسها: «إن يعقوب ينوى العودة إلى المدينة التى ولد فيها. ولن يستطيع أبى أن يترك عنده بناته اللائى أنجبن له أطفالاً ولن يمنعهن من اللحاق بزوجهن إلى هناك مع أطفالهن. ولن يتركنى أنا فلا أذهب. أنا التى لا ولد لها، إنه سوف يبقينى هنا ويزوجنى من واحد من غير المختونين. وأردفت قائلة: كما أزال عنِّى ابنى الملامة، فإن ابنه «يشوع» سوف يرفع العار عن الإسرائيليين،

عندما يختتهم فيما وراء الأردن.

وسمّت راحيلُ ابنها «يوسف»، أى «الزيادة»، قائلة: «يزيدنى الرب ابنا آخر» ومن نبوءتها تنبأت بأنها ستلد ابنًا ثانيًا. لكن الفائدة التى يضيفها الرب تكون أكبر من رأس المال نفسه. فقد كان لبَنْيامين، ابنها الثانى الذى لم تكن ترى فيه راحيل إلا مجرد كمالة عدد؛ عشرة أبناء، بينما لم ينجب يوسف إلا اثنين. وهؤلاء الاثنا عشر معًا. يمكن اعتبارهم هم الأسباط الاثنى عشر الذين أنجبتهم راحيل. ولو لم تكن راحيل قد قالت: «يضيف الرب لى ولدًا آخر» لكانت قد أنجبت هى بنفسها اثنتا عشرة قبيلة من يعقوب.

م ـ يعقوب يَفرُّ من أمام لابان

وكان يعقوب ينتظر ولادة يوسف حتى يبدأ الاستعداد لرحلة العودة إلى مدينته وكان الله والروح القدس قد كشف له أن بيت يوسف سوف يقف وراء خراب بيت عيسو، ولذا صرخ يعقوب عند ولادة يوسف قائلاً: الآن لستُ بحاجة للخوف من عيسو ولا من جحافله.

وفى هذا الوقت تقريبًا، أرسلت رفقة حاضنتها «دُبُورَه» ابنة «عُوز»، ومعها اثنان من عبيد إسحق، إلى يعقوب لتستحثه على العودة إلى بيت أبيه، خصوصًا بعدما انتهت سنوات خدمته الأربعة عشر. فاقترب يعقوب من لابان وقال له: «أعطنى زوجاتى وأطفالى لأذهب إلى بلدى ووطنى؛ لأن أمى أرسلت إلىَّ رسلاً، تأمرنى بالعودة إلى بيت أبى. فأجابه لابان قائلاً: لعلى أجد نعمةً فى عينيك؛ لقد تبين لى أن الرب يباركنى من أجلك. وكان لابان يفكر حينذاك فى الكنز الذى وجده فى اليوم الذى أتاه فيه يعقوب، وقد اعتبر ذلك أمارة على قواه الخيِّرة. وحقّا لقد صنع الرب فى بيت لابان أشياءً كثيرة حسنة تشهد على البركات التى ينشرها المتقون حيثما حَلُّوا. فقبل مجئ يعقوب بقليل كانت آفة قد انتشرت بين ماشية لابان، ولكنها توقفت عند وصوله. كما لم يكن للابان ابن، ولكنه أنجب الأبناء خلال إقامة يعقوب فى «حاران».

ولم يطلب أجرةً له مقابل كَدِّه من أجله ومقابل البركات التى أَحَلَّها على لابان، سوى كل شاة رقطاء ومخططة من قطعانه، وكل نعجة سوداء من نعاجه. ووافق لابان على شرطه قائلاً: أجل، سيكون حسب كلمتك. وكان ذلك المخادع لابان، الذى كان لسانه يلعب على كل الحبال والذى كان يَعِدُ كثيرًا ولا يوفى قط، كان يحكم على الآخرين قياسًا على نفسه، ولذا فقد ارتاب فى أن يعقوب يريد خداعه. ومع ذلك ففى نهاية المطاف كان لابان هو الذى خالف كلمته ولم يلتزم بها. وظل يغير الاتفاق الذى بينهما ما لا يقل عن مئة مرة. ومع ذلك فلم يُجْدِهِ تصرفه السيئ نفعًا. ورغم أن يعقوب ولابان قد وضع كل منهما غنمه على مسيرة ثلاثة أيام من غنم الآخر، نزلت الملائكة وقادت غنم لابان إلى حيث غنم يعقوب، فازدادت أغنام يعقوب حجمًا وحيوية. وكان لابان لم يترك إلا الضعيفة والمريضة ليعقوب، ومع ذلك فإن صغار القطيع التى رباها يعقوب، أصبحت فى حالة حسنة جدًا لدرجة أن الناس اشتروها بأثمان عالية. ولم يحتجْ يعقوب إلى اللجوء إلى القضبان المقشرة (التى قيل فى التوراة المحرفة أنه وضعها أمام النعاج والشاء الحبلى لتلد صغارًا رقطاء وسوداء). فقد كان يأمر القطعان فتلد له ما يشاء. وما كان لابان يستحق سوى الخراب التام، إذ جعل يعقوب التقى يعمل عنده بدون أجرة، وبعدما غير أجرته عشر مرات، وحاول لابان عشر مرات خداعه، كافأه الرب بهذه الطريقة (أى بالخراب). وكان يعقوب يستحق حظه الطيب مع القطعان. فكل عامل مخلص يكافئه الرب فى هذا العالم، دون اعتبار بالمرة لما ينتظره فى العالم الآتى. وقد جاء يعقوب إلى لابان خالى اليدين، ولكنه حل من عنده ومعه قطعان بلغت ستمئة ألف رأس. وقد كانت زيادتها زيادة مدهشة لن تتكرر إلا فى زمن «المَسِيَّا».

وقد أثارت ثروة وحظ يعقوب الطيب حسد لابان وأبنائه، ولم يستطيعوا إخفاء تغيرهم من جهته.

وقال الرب ليعقوب: إن وجه حميك تجاهك ليس كما كان من قبل، ومع

ذلك لا زلتَ عنده؟! فالأجدر بك أن تعود إلى أرض آبائك وهناك سوف أدع «شكينتى» تحل عليك، إذ لا يمكننى أن أسمح للشكينة بأن تقيم خارج الأرض المقدسة. وفى الحال أرسل يعقوب رسول العائلة «نفتالى» إلى «راحيل» و «ليئة» ليستدعيهما للمشاورة واختار مكانًا للقاء حقلاً خاليًا حيث لا يستطيع أحد أن يتصنت على ما قيل.

واستحسنت زوجتاه خطة العودة إلى موطنه، وقرر يعقوب على الفور أن يفر بكل ما يملك خفية بدون أن يعرِّف لابان بنيته. وكان لابان قد ذهب ليَجُزَّ أغنامه، ولذا فقد كان بإمكانه أن يسرع بتنفيذ خطته بدون تأخير.

ولكى لا يعلم أبوها بهروبهم من آلهته؛ فإن راحيل قد سرقت هذه الآلهة وخبأتها تحت حِلس الجمل، ثم جلست فوقها ومضت فى طريقها. وكانوا يصنعون أصنامهم بهذه الطريقة: كانوا يأخذون رجلاً بكرًا لأبيه ثم يذبحونه وينزعون شعر رأسه ثم يملِّحون الرأس ويدهنونها بالزيت ثم يكتبون «الاسم»* على قرص صغير من النحاس والذهب ويضعونه تحت لسانه. ثم توضع الرأس ذات القرص تحت اللسان بعد ذلك فى بيت أضيئت فيه الأنوار من قبل؛ وعندما يركعون له كان يحدثهم بكل ما يسألونه عنه، وكان ذلك بسبب «الاسم» الذى كُتب فوقه.

ن ـ العهد مع لابان

ورحل يعقوب وعبر الفرات ووجَّه وجهه تجاه «جلْعاد»، إذ كان الله قد أوحى إليه والروح القدس أن الرب سيؤيد ذريته بعونه هناك فى أيام «يَفْتاح». وأثناء ذلك لاحظ رعاة «حاران» أن البئر التى كانت تفيض بالمياه منذ وصول يعقوب إلى بلدهم، قد جفت فجأة. وظلوا طوال ثلاثة أيام يرقبونها وينتظرون، على أمل أن يعود الماء غزيرًا كما كان من قبل. وبعدما

---

* نبات عشبى معمر من الفصيلة الباذنجانية. ويسمى «البيروح» ينبت فى الكثير من نواحى الشام وحوض البحر المتوسط، ويسمى أيضاً «تفاح المحبة» وجذره يشبه كثيراً النصف الأسفل من جسم الإنسان ولذا يعتقد أنه مثير للشهوة الجنسية، وثمره يشبه الطماطم وله رائحة نفاذة. (المترجم).

خاب أملهم أخبروا لابان بتلك المصيبة، فأدرك على الفور أن يعقوب قد رحل عن المكان، إذ كان يعلم أن البركة لم تحل على حاران إلا من أجل تُقَى زوج بناته.

لذلك فى الغد نهض لابان مبكرًا وجمع أهل المدينة وطارد يعقوب. وفى نيته أن يقتل يعقوب بمجرد أن يراه. ولكن الملاك الرئيس ميكائيل ظهر له وأمره أن يحذر من أن يتعرض ليعقوب بشىء وإلا مات على الفور. وقد جاءت هذه الرسالة من السماء للابان أثناء الليل، إذ فى الحالات الاستثنائية عندما يجد الرب أنه من الضرورى أن يكشف نفسه للكفار، فلا يفعل ذلك إلا فى الظلام، لِحُلْكَتِه، بينما هو يُظْهِر نفسه لأنبياء بنى إسرائيل عيانًا بيانًا أثناء النهار.

وقطع لابان فى يوم الرحلة التى قطعها يعقوب فى يوم واحد فى سبعة أيام، ووصل إلى جبل جِلعاد وعندما وصل إلى يعقوب وجده يصلى ويسبح الرب. وفى الحال أخذ لابان يوبخ زوج بناته لتسلله من بيته تحت جنح الظلام دون أن يخبره. وأظهر شخصيته الحقيقية عندما قال: أستطيع أن أؤذيك الآن، ولكن رب آبائك كلمنى ليلة الأمس، وقال لى: احذر. ولا تكلم يعقوب. لا بالخير ولا بالشر. وهكذا هى عادة الأشرار، يتباهون بما يقدرون عليه من شر. وكان لابان يريد أن يخبر يعقوب بأنه لم يمنعه عن إنفاذ خطته الشريرة نحوه إلا الحلم الذى رآه وحُذِّر فيه من التعرض له.

وظل لابان يوبخ يعقوب ثم أنهى كلامه قائلاً: «والآن ومع أنك يجب أن ترحل لأنك لابد قد اشتقت كثيرًا لبيت والدك، ولكن لماذا سرقت آلهتى؟ وعندما تلفظ بالكلمات الأخيرة قاطعه أحفاده قائلين: «إننا فى خجل منك يا جداه لأنك فى شيخوختك تستعمل كلمة كهذه: «آلهتى». وظل لابان يفتش فى جميع الخيام بحثًا عن أصنامه بادئًا بخيمة يعقوب التى كانت هى خيمة راحيل فى الوقت ذاته، لأن يعقوب كان يقيم دائمًا مع زوجته المحبوبة. ولما لم يجد فيها شيئًا ذهب إلى خيمة ليئة وإلى خيمتى الجاريتين، وعندما وجد راحيل تتحسس هنا وهناك تصاعدت شكوكه ودخل خيمتها للمرة الثانية.

وكاد يجد ما يبحث عنه لولا حدوث معجزة. **فقد تحولت الآلهة إلى أباريق فكفّ لابان** عن بحثه الخائب.

ولم يكن يعقوب يعلم أن راحيل قد سرقت آلهة أبيها لتثنيه عن وثنيته، ولذا فقد اشتاط غضبًا على لابان وأخذ يعنفه بعنف. وقد ظهرت شخصية يعقوب النبيلة فى شجاره مع لابان. فبالرغم من غضبه الشديد منه؛ فإن لسانه لم يتلفظ بكلمة قبيحة. وإنما ذكَّر لابان فقط بأنه قد خدمه بإخلاص ووفاء وأنه فعل من أجله ما لن يفعله له شخص آخر ولن يستطيع. وقال له: لقد عاملتَ الأَسد معاملة سيئة، إذ كان الرب قد عيَّن غنم لابان طعامًا يوميًا للأسد، وقد حرمتُه منه.أكان بإمكان راعٍ آخر أن يفعل ذلك؟ أجل، لقد سبَّنى الناس وقالوا عنى إنى لص محترف، وسارق ماكر، إذ كانوا يظنون أننى ما كنت لأستطيع استبدال الحيوانات التى تفترسها وحوش البرية إلا بالسرقة ليلا أو نهارا. أما عن أمانتى فهل يعقل أن هناك صِهْرًا آخر يعيش مع حميه ولا يأخذ شيئا يسيرًا من بيت حميه، مثل سكين أو أى شىء آخر قليل القيمة؟ وها أنت قد فتشت كل أمتعتى، فماذا وجدت فيها من متاع بيتك؟ ولا حتى إبرة أو مسمارا.

ومن سخطه وتيقنه من براءته؛ صاح يعقوب قائلاً: أيًّا كان من تجدُ آلهتك عنده؛ فلن يعيش؛ وهى كلمات بها لعنة، فاللص قد مات موتًا مبكرًا، ولذا فقد ماتت راحيل وهى تلد «بَنْيامين». وكان من الممكن أن تحل اللعنة عليها على الفور، لولا أن الرب كان يريد أن تنجب راحيل ليعقوب ابنه الأخير أولاً.

وبعد هذا الشجار عقد الرجلان معاهدة. وبقوته الهائلة أقام يعقوب صخرة عظيمة تذكارًا لهذه المعاهدة، مع كومة من الحجارة علامة على العهد. وبهذه الطريقة حذا يعقوب حذو آبائه الذين عقدوا أحلافًا مع الأمم الوثنية، فإبراهيم عقد حلفًا مع اليبوسيين، وإسحق مع الفلسطينيين. ولهذا لم يتردد يعقوب فى عقد حلف مع الآراميين. واستدعى يعقوب أبناءه مناديًا

إياهم «يا إخوتى» ـ إذ كانوا لا يقلون عنه تُقًى وقوةً وجعلهم ينصبون كومة من الحجارة وعندها حَلف لحميه بأن لا يتزوج على بناته الأربع، سواء فى حياتهم أو بعد مماتهم وأقسم لابان من ناحيته بألا يتجاوز الكومة ولا العمود إلى يعقوب بنية شريرة، وأقسم برب إبراهيم ورب ناحور، بينما ذكر يعقوب «خوف إسحق». وأحجم عن قول: «برب إسحق»، لأن الرب لا يقرن أبدًا اسمه باسم إنسان حىٍّ، فطالما لم يمت الشخص بَعْدُ؛ فإنه لا يُوثق به، إذ لعله يقع فى الغواية.

صحيح أنه عندما ظهر له عند «بيت إيل»، قال الرب عن نفسه: «رب إسحق». وكان هناك سبب وراء هذه العبارة غير العادية: لأنه كان أعمى، فإن إسحق كان يعيش حياة المتقاعدين ملازمًا خيمته، ولم يَعُدْ لنازع الشر سلطان عليه. ولكن بالرغم من أن الرب كان يثق بإسحق ثقة تامة؛ فإن يعقوب ما كان ليجرؤ على جمع اسم الرب مع اسم رجل حَىّ، ولذا فقد أقسم «بخوف إسحق».

وفى الصباح الباكر بعد يوم الحَلْفِ؛ نهض لابان وقبَّل أحفاده وبناته وباركهم. ولكن كلماته وأفعاله هذه لم تخرج من قلبه؛ فقد كان فى أعماقه يأسف على أن يعقوب وأهله بأمتعته قد فروا من بين يديه.

وانكشفت مشاعره الحقيقية فى الرسالة التى أرسلها إلى عيسو فور عودته إلى «حاران» مع ابنه «بوعر» وعشرة من أصحاب ابنه. وكانت الرسالة تقول «هل سمعتَ بما فعله يعقوب أخوك بى، وهو الذى جاءنى عاريًا مجردًا من الملابس وذهبتُ للقائه وأخذته إلى بيتى وأحسنتُ مثواه وربيته وأعطيته ابنَتىَّ زوجتين له، وكذلك اثنتين من جوارىّ؟ وباركه الرب لأجلى فازداد ثراءً، وأصبح له البنون والبنات والإماء، وقطعان لا تحصى كثرة من الماشية والغنم والجمال والحمير، وكذلك من الذهب والفضة بلا حصر. فلما رأى أن ثروته قد تعاظمت، تركنى وأنا أجزّ غنمى ونهض وفر هاربًا خُفية. ووضع أطفاله وزوجاته على ظهور الجمال وساق جميع ماشيته ومتاعه التى غنمها فى

أرضى، وعزم على الذهاب إلى أبيه إسحق، إلى أرض كنعان. ولم يسمح لى حتى بتقبيل أبنائى وبناتى وحمل بناتى معه كالسبايا، كما سرق آلهتى وفر هاربًا. والآن قد تركته فى جبل «مخاضة يَبُّوق» هو وكل ما له، دون أن يترك خلفه ولا قلامة ظفر. ولئن شئت أن تذهب له فاذهب، ولسوف تجده هناك، ويمكنك أن تفعل به ما شئت».

وما كان يعقوب فى حاجة لأن يخاف لابان أو عيسو، إذ كان يصاحبه فى رحلته فريقان من الملائكة، الأولى رافقته من حاران إلى حدود الأرض المقدسة، حيث استقبلته الفرقة الثانية ملائكة فلسطين. وكانت كل فرقة تتكون مما لا يقل عن ستمائة ألف ملاك. وعندما شاهدهم قال يعقوب: إنكم لستم من شيعة عيسو الذى يستعد لقتالى ولا أنتم شيعة لابان الذى يُوشك أن يطاردنى مرة أخرى. إنكم الملائكة المقدسون الذين أرسلهم الرب» وسمى البقعة التى استقبل فيها جيش الملائكة الثانى والأول «مَحنابيم»، أى الفرقة المزدوجة.

س - يعقوب وعيسو يستعدان للقاء

أوقظت رسالة لابان حقد عيسو القديم تجاه يعقوب وجعلت الحقد كالنار المتأججة. فجمع آل بيته، وكانوا ستين رجلاً. وذهب للقاء يعقوب ولقتله، مع أهل بيته وكانوا ثلاثمائة وأربعين من سكان «سِعير». وقسم جنوده إلى سبعة فرق، معطيًا ابنه أليفاز فرقته الخاصة من ستين، ووضع الفرق الست الأخرى تحت قيادة عدد كبير من «الحوريين».

وبينما عيسو يستحث السير لملاقاة يعقوب؛ أتى رفقةَ الرسلُ الذين أرسلهم لابان إلى عيسو، وأخبروها بأن عيسو ورجاله الأربعمائة على وشك أن يحاربوا يعقوب، وغرضهم قتله واستلاب كل ما معه. فخافت أن ينفذ عيسو خطته ويعقوب لايزال فى طريقه ولذلك أسرعت بإرسال اثنين وسبعين من حفظة بيت إسحق، ليساعدوا يعقوب. ولما رأى يعقوب هؤلاء

الرجال، وكان قد تأخر على ضفاف «مخاضة يَبُّوق»، ابتهج جدّا وحياهم قائلاً: هذا هو مدد الرب ولذا سمى المكان الذى التقاهم فيه «محنايم» أى «الجمعان المتقابلان».

وبعد ما أجاب المحاربون الذين أرسلتهم رفقة على أسئلته عن حال أبويه، بلغوه رسالة أمه إليه التى تقول فيها: لقد سمعتُ يا بنى أن أخاك عيسو قد خرج لملاقاتك على الطريق، مع رجال من أبناء سعير الحورى ولهذا أصغِ إلىّ يا بنى، وأجمع أمرك وعندما يأتيك (عيسو) كن لينًا معه ولا تغلظ له فى القول وأعطه هدية مما تمتلك، ومما أنعم عليك به الرب. وعندما يسألك عن أحوالك، لا تُخفِ عنه شيئًا؛ فلعله يتحول عن سخطه عليك، فتنقذ روحك، أنت وكلَّ ما لك، إذ يجب عليك أن تكرمه فهو أخوك الأكبر.

فلما سمع يعقوب كلام أمه الذى أبلغه به الرسل؛ رفع عقيرته بالبكاء وفعل ما أمرته به أمه.

وأرسل رسلاً إلى عيسو ليهدئه فقالوا له: هكذا يقول خادمك يعقوب: لا تظنن يا مولاى أن البركة التى منحنى إياها أبى قد نفعتنى. لقد خدمتُ لابان لعشرين سنة وخدعنى، وغيَّر أجرتى عشر مرات، ولابد أن تعلم جيدًا. أنى مع ذلك قد عملتُ بكد واجتهاد فى بيته. ورأى الرب مذلتى وجهدى وصُنع يدىّ، ثم جعل لى نعمة فيما بعد فى عينىّ لابان. ثم برحمة الرب البالغة وعطفه، أصبح لدىّ الثيران والحمير والماشية والعبيد والإماء. وها أنا الآن قادم إلى بلدى وبيتى وإلى أبى وأمى اللذين هم فى أرض كنعان. وقد أرسلت إلى سيدى (عيسو) لأعلمه بكل ذلك. لعلى أجد نعمة فى عينىّ سيدى؛ فلا يتخيل أننى أصبحت رجلاً ذا ثراء، أو أن البركة التى باركنى بها أبى قد نفعتنى.

وأضاف الرسل قائلين: لماذا تحسدنى على البركة التى باركنى بها أبى؟ أتشرق الشمس فى أرضى ولا تشرق فى أرضك؟ أم لا يسقط المطر والندى

إلا على أرضى، وليس على أرضك؟ ولئن كان أبى قد باركنى بندى السماء، فقد باركك بدهن الأرض، ولئن كان قد كلمنى فإن الشعوب سوف تخدمك، فقد قال لك: إنك ستعيش بسيفك. إلى متى إذاً ستظل تحسدنى؟ هيا بنا الآن لنعقد بيننا عهداً أن نتقاسم كل المصائب التى قد تقع لنا.

وما كان عيسو ليقبل عرضه، فقد ثبطه أصدقاؤه قائلين: لا تقبل هذه الشروط؛ لأن الرب قال لإبراهيم: لتعلم يقيناً أن نسلك سيكون غريباً فى أرض ليست لهم، ولسوف يخدمون أهل هذه الأرض، ولسوف يتسلط عليهم الأغراب لأربعمائة سنة. انتظر إذاً حتى يهبط يعقوب وعائلته إلى «مصر» ويسدودون هذا الدين.

كما أرسل يعقوب إلى عيسو قائلاً: رغم أننى كنت أُقيم مع أكفر الكفرة، لابان فإننى لم أَنْسَ ربى، واستمسكت بأوامر التوراة الستمائة والثلاثة عشر. ولئن انعقد عزمك على السلام؛ فلسوف تجدنى مستعداً للسلام. وإن كنت تريد الحرب فستجدنى مستعداً للحرب. معى رجال ذوو شجاعة وبأس وما ينطقون بكلمة إلا ويحققها الرب. ولقد تأخرتُ عند لابان حتى يولد يوسف وهو الذى كُتِبَ له أن يُخْضِعَك. ومع أن نسلى سوف يقع فى الأسر فى هذا العالم، فليأتين اليوم الذى يحكمون فيه حكامهم».

وقد رد على كل هذه الكلمات الرقيقة، فى غطرسة بقوله: بكل تأكيد سمعتُ، وحقّا لقد قيل لى ما قاله يعقوب للابان الذى رباه فى بيته وأعطاه بناته زوجات، وأنجب عنده البنين والبنات، وازداد ثراءً وغنى فى بيت لابان بعون منه. وعندما رأى أن ثروته زادت وغناه قد عظُم؛ فر من بيت لابان مع كل ما يمتلكه وساق بنات لابان أمامه سبايا، بدون أن يخبره. ولم يكتفِ يعقوب بصنع كل ذلك فحسب مع لابان، ولكنه فعل ذلك بى أنا أيضاً، فقد اغتصب حقى مرتين وهل أسكت على ذلك؟ واليوم جئت بجيش لملاقاته، ولأفعلن به ما يتمناه قلبى.

وعادت رسل يعقوب إليه وبلغوه بكلام عيسو. كما أخبروه بأن أخاه يزحف نحوه بجيش قوامه أربعمائة رئيس متوّج، وكل منهم يقود فرقة من أربعمائة فارس وقالوا ليعقوب: صحيح أنك أخوه وأنك تعامله كما تجب معاملة الأخ لأخيه، ولكن «عيسو» يجب أن تحذر شره.

ولم يكن يعقوب قد نسى وعد الرب له بأنه سيعيده إلى بيت أبيه بسلام، ومع ذلك فإن أخبار ما نوى أن يفعله أخوه تجاهه قد أزعجته للغاية. فالرجل التقى يجب ألا يعتمد على الوعود بالخيرات الأرضية. فالرب لا يحفظ وعده إن أخطأ (الإنسان) وارتكب أصغر ذنب، وكان يعقوب يخشى أن يفقد السعادة بسبب ذنب أذنبه. كما كان يخشى أن يكون «عيسو» هو الذى فضَّله الرب، لأنه طوال تلك العشرين سنة كان يؤدى أمرين إلهيين. كان يعقوب لا يراعيهما. فقد كان عيسو يعيش فى الأرض المقدسة، ويعقوب خارجها؛ وكان الأول (= عيسو) يلزم أبويه ويرعاهما، بينما الأخير (= يعقوب) بعيد عنهما. وبقَدْرِ ما كان يخشى الهزيمة كثيرًا، فقد كان يخشى العكس وهو أن ينتصر علىَ عيسو أو حتى يقتل أخاه. وهو ما سيكون مَثَل سوء أن يُقْتَل على يدى أخيه. كما كان يقلقه هاجس آخر، وهو أن يكون أبوه قد مات. فقد استنتج أن عيسو لم يكن ليفكر فى حربه لو كان أبوهما لايزال حيًا.

وعندما رأت زوجات يعقوب، ما استولى عليه من غمّ، بدأن يتشاجرن معه، ويوبخنه على أن أخذهن من بيت أبيهن، مع أنه كان يعلم أن خطرًا كهذا كان ينتظره من «عيسو».

ثم قرر يعقوب أن يستخدم الوسائل الثلاث التى قد تنقذه من حتفه الذى اقترب وهو أن يستغيث بالرب، ويهدئ سخط عيسو بالهدايا، ويستعد للحرب إن حدث الأسوأ.

ودعا الرب قائلاً: يا رب أبى إبراهيم، ويا رب أبى إسحق، ويا رب كل من يسير فى طريق الصالحين ويفعل مثل فعلهم. لستُ أستحق أدنى رحمة ولا أدنى صدق وعد أظهرته لعبدك. يا رب العالم، كما منعت لابان عن

تنفيذ شره معى، أحبط غرض عيسو تجاهى. فإنه يريد قتلى. يا رب العالم، فى توراتك التى ستعطينا على جبل سيناء، مكتوب: «وإن كانت نعجة أو حملاً فلا تذبحها هى وابنها فى يوم واحد».

ولئن جاء هذا التعيس وقتل أطفالى وأمهاتهم فى نفس اليوم، فمن هو هذا الذى يسير بتوراتك التى ستعطيهم إياها على جبل سيناء؟ كما تكلمتَ وقلت (لى): «لأجل سجاياك وسجايا آبائك، سوف أصنع بك الخير، وفى العالم الآتى سوف يكون نسلك مثل رمل البحر عددًا».

وكما كان يعقوب يدعو من أجل نجاة نفسه، كذلك كان يدعو من أجل خلاص ذريته، لكى لا يستأصلهم نسل عيسو.

وهكذا كان دعاء يعقوب عندما رأى عيسو يقترب منه عن بعد، وسمع الرب استغاثته وشاهد دموعه، وطمأنه بأنه من أجله فإن نسله سوف يُنَجَّى من كل هم وحزن.

ثم أرسل الرب ثلاثة ملائكة ليظهروا أمام عيسو وظهروا أمامه وأمام قومه كمئات وآلاف من الرجال على ظهور الخيل. وكان معهم كل أنواع الأسلحة وانقسموا إلى أربعة فيالق تقدم فيلق واحد منهم فرأوا عيسو مقبلاً مع أربعمائة فارس، فهرول الفيلق نحوهم وبثو فى قلوبهم الرعب، وسقط عيسو عن جواده مذعورًا فتفرق عنه كل قومه وهم مرعوبون جدًا، والفيلق الزاحف نحوهم صاح قائلاً: «نحن خدم يعقوب ـ خادم الرب ـ ومن ذا الذى يستطيع مواجهتنا؟» فعندئذ قال لهم عيسو: «إذًا فسيدى وأخى يعقوب هو سيدكم الذى لم أره طوال العشرين عامًا الماضية وجئتُ اليوم لأراه؛ فهل تقابلوننى بهذه الطريقة؟» أجابه الملائكة: «وحياة الرب، لولا أن يعقوب أخوك ما كُنَّا تركنا فيك ولا فى قومك شِلْوا لم نمزقه، ولكن لأجل خاطر يعقوب؛ فلن نصنع بك شيئًا». وتركه هذا الفيلق، ولما صار على بعد فرسخ منهم؛ زحف إليه الفيلق الثانى وفعلوا به وبقومه مثل ما فعله الفيلق الأول وعندما سمحوا له بالانصراف أتاه الفيلق الثالث وفعل مثلما فعل

الأول، وعندما انصرفوا عنه وواصل زحفه للقاء أخيه؛ جاءه الفيلق الرابع ففعلوا به مثلما فعل الآخرون. عندئذ خاف عيسو من أخيه خوفًا عظيمًا، لأنه كان يظن فيالق الجيش الأربعة التى قابلها ما هم إلا عبيد يعقوب.

وبعد ما انتهى يعقوب من صلواته؛ قسم كل من كان مسافرًا معه إلى فصيلين، ونصَّب عليهم «دمسق» و «علينوس» ابنى «أليعازر» عبد إبراهيم، وأبنائهم.

ويعلمنا ما فعله يعقوب: ألا نخبئ كنوزنا كلها فى مكان واحد، لكيلا نفقدها جميعًا فى ضربة واحدة.

وأرسل جزءًا من ماشيته هدية لعيسو، بعد أن قسمه ثلاثة قطعان ليؤثِّر على أخيه أكثر؛ فعندما يتلقَّى عيسو القطيع الأول يظن أنه هو كل الهدية التى أرسلت له، ثم يندهش فجأة مع ظهور القسم الثانى، ويندهش أكثر بالثالث. وكان يعقوب يعلم شدة جشع أخيه جيدًا.

وكان الرجال الذين ذهبوا بهدية يعقوب إلى عيسو؛ قد تم تكليفهم بإبلاغه الرسالة التالية: هذه هدية لسيدى عيسو من عبده يعقوب. فاستاء الرب من كلمات يعقوب هذه وقال: إنك تدنِّس ما هو مقدس عندما تقول لعيسو يا سيدى. فاعتذر يعقوب عن ذلك بأنه يجامل الشرير لكيلا يقتل على يديه.

٤ـ يعقوب يصارع الملاك

وسبق عبيد يعقوب بالهدايا إلى عيسو، ثم تبعهم مع زوجاته وأطفاله وبينما هو يكاد يعبر «مخاضة يبُّوق» رأى راعيا ومعه غنم وجمال مثله واقترب الراعى الغريب من يعقوب وعرض عليه أن يعبرا النهر معًا، ويساعد أحدهما الآخر فى العبور بماشيته، ووافق يعقوب، على شرط أن تعبر قطعانه أولاً. وفى غمضة عين كان الراعى الغريب قد عبر بقطعان يعقوب إلى الضفة الأخرى. ثم جاء الدور على يعقوب ليعبر بقطعان الغريب، ولكنه كان فى كل مرة يعبر بعدد منها، وإن كان كبيرًا. إلا ويجد بعضها لايزال على

الضفة الأخرى. ولم يظهر للماشية نهاية، رغم أن يعقوب ظل يُعَبِرها طوال الليل. وفى النهاية نفد صبره وهجم على الراعى وأمسك برقبته صارخًا وهو يقول: يا أيها الساحر يا أيها الساحر. لا سحر يفلح بالليل.

فقال الملاك لنفسه: حسنًا. أدعه يعرف مع من يتحدث ثم لمس الأرض بأحد أصابعه فانبعثت منها النار. لكن يعقوب صاح به قائلاً: ماذا هل تظن أنك ستخيفنى بهذه الحيل، وأنا الذى صنعتُ كُلِّى من النار.

ولم يكن الراعى سوى الملاك ميكائيل، وكان يعاونه فى صراعه مع يعقوب كل الملائكة الذين تحت إمرته. وكاد يصيب يعقوب إصابة خطيرة عندما ظهر الرب فجأة فأحست كل الملائكة، بمن فيهم ميكائيل، بأن قواها تهرب منها. ولما رأى أنه لن يهزم يعقوب؛ لمس الملاك حُقَّ فخذه وأصابه. فوبخه الرب قائلاً: «هل تصرفتَ كما يليقُ بك، عندما خدشت كاهنى يعقوب؟» فقال ميكائيل مذهولاً: ماذا ألستُ أنا هو كاهنك؟! لكن الرب قال: أنت كاهنى فى السماء، وهو كاهنى على الأرض. عندئذ استدعى ميكائيلُ الملاكَ الرئيس رافائيل وقال له: أرجوك يا صاحبى ساعدنى فى محنتى فأنت مسؤول عن معالجة كل الأمراض فعالج رافائيل يعقوب وشفاه من جرحه الذى سببه له ميكائيل.

وواصل الربُّ توبيخَ ميكائيل قائلاً: لماذا جرحتَ ابنى البكر؟. أجابه ميكائيل: ما فعلت ذلك إلا لأمجدكَ ثم عيَّن الرب ميكائيل ملاكًا حارسًا ليعقوب ونسله إلى نهاية كل الأجيال، قائلاً هذه الكلمات: أنت نار، وكذا يعقوبُ نار؛ أنت رئيس الملائكة، وهو رئيس الحياة أنت مفضل على كل الملائكة، وهو مفضل على كل الشعوب. ولذا فإن من هو مفضل على جميع الملائكة يُعَيّنُ لمن هو مفضل على جميع الشعوب؛ لكى يطلب له الرحمة من العلى الذى هو فوق الجميع.

ثم قال ميكائيل ليعقوب: كيف لك ـ وأنت من هزمتنى، وأنا المفضل على

جميع الملائكة كيف لك أن تخاف من عيسو؟.

وعندما بزغ ضوء النهار قال ميكائيل ليعقوب: دعنى أرحل إذ قد بزغ النهار ولكن يعقوب منعه قائلاً: وهل أنت لص أو مقامر بالنرد لتخشى ضوء النهار؟ وعند هذه اللحظة ظهرت أفواج مختلفة من الملائكة ونادوا ميكائيل قائلين: اصعد يا ميكائيل. لقد حان وقت التراتيل للرب وإذا لم تصعد إلى السماء لتقود الجماعة فلن يغنى أحد. وتوسل ميكائيل ليعقوب أن يتركه لينصرف، إذ كان يخشى من ملائكة «عربوت» أن تهلكه بالنار، إذا لم يعد فى الوقت المناسب ليقود أغانى الحمد. عندئذ قال له يعقوب: لن أدعك ترحل حتى تباركنى، عندها أجابه ميكائيل قائلاً: من أَعْظَمُ؟ العبدُ أم الابن؟ أنا العبد وأنت الابن. لماذا إذاً تتمنى مباركتى لك؟ فرد يعقوب قائلاً: لكن الملائكة التى زارت إبراهيم لم تتركه حتى باركته. فقال ميكائيل: لقد أرسلهم الرب من أجل ذلك بالذات، أما أنا فلا، ولكن يعقوب أصر على طلبه، فناشده ميكائيل قائلاً: إن الملائكة الذين باحوا بسر سماوى حرموا من مكانهم لمئة وثمانية وثلاثين عامًا. فهل تحب أن أنبئك بما قد يجلب علىَّ حرمانى أنا أيضًا؟ وفى النهاية لم يملك الملاك إلا أن يستسلم لرغبة يعقوب؛ فما كان يعقوب ليتزحزح عن رأيه، فقال ميكائيل لنفسه: لسوف أكشف له عن سر، وإن سألنى الرب لم كشفته؟ فسوف أجيبه وأقول له: إن نسلك يصممون على أن تلبى لهم رغباتهم وأنت تستسلم لهم. فكيف يكون لى إذاً أن أترك يعقوب بدون أن أحقق رغبته؟.

ثم كلم ميكائيل يعقوب قائلاً: سيأتى يوم يكشف الرب عن نفسه لك، وسوف يغير اسمك، ولسوف أكون حاضرًا عندما يغيره. ولن تنادَى يعقوب بعد ذلك، ولكن إسرائيل، إذ سعيد أنت، ومولود من امرأة، وستدخل مع الملأ السماوى وستنجو من هناك بحياتك. وبارك ميكائيل يعقوب قائلاً: لتكن مشيئة الرب أن يكون نسلك تُقاة مثلك.

وفى نفس الوقت ذكَّر الملاكُ يعقوب أنه قد وعده بأن يعطى عُشْرَ ما

يمتلك للرب، وفي الحال فصل يعقوب خمسمائة وخمسين رأسًا من الماشية من قطعانه، التى كان عددها خمسة آلاف وخمسمائة. ثم واصل ميكائيل كلامه قائلاً: لكن لديك أبناء ولم تُخرج منهم العشر. فعاد يعقوب ينظر فى أبنائه: رَأوبَيْن ويوسف ودان وجاد؛ مستثنون إذ كل واحد منهم بِكْرُ أمه فيتبقى ثمانية أبناء. عندما أخذ يعدِّد أسماءهم نزولاً إلى بَنْيامين؛ اضطر إلى الارتداد فى العد، والبدء من أول «شمعون» التاسع، ثم انتهى إلى «لاوِى» العاشر؛ والعشر.

فأخذ ميكائيل «لاوى» معه إلى السماء، وأوقفه أمام الرب قائلاً: يا رب العالم، هذا هو نصيبكَ، والعشر الذى يخصُّك ومدَّ الرب يده وبارك لاوِى بأن يكون أطفاله خُدَّام الرب على الأرض كما الملائكة خدامه فى الأعالى. وتكلم ميكائيل مرة أخرى قائلاً: ألا يوفر المَلِكُ لخدَمه القوت؟ وعندها عَيَّن الرب للاويين جميع ما هو مقدس عند الرب.

ثم شرع يعقوب فى الكلام مع الملاك: منحنى أبى البركة التى كانت مخصصة لعيسو، والآن أريد أن أعرف إن كنت ستعترف بأن البركة تخصنى، أم ستتهمنى بسببها فقال الملاك: أُقِرُّ بأن تلك البركة تخصُّك حقّا لك. ولم تكسبها بالحيلة أو الخديعة، وأنا وكل الملائكة السماويين نعترف بأنك أهل لها؛ لأنك أظهرت نفسك سيدًا على قوى ملائكة السماء، وعلى عيسو وأتباعه.

وحتى عند هذه اللحظة ما كان يعقوب قد ترك الملاك يرحل، إذ كان عليه أن يبوح له باسمه أولاً فعرَّفه الملاك بأن اسمه «إسرائيل»، وهو نفس الاسم الذى سيسمى به يعقوب فى يوم من الأيام.

وفى النهاية رحل الملاك بعد ما باركه يعقوب، وسمى يعقوب مكان المصارعة «فَنُوئِيل»، وهو نفس المكان الذى كان قد سماه من قبل «مَحنايِيم»، إذ كلتا الكلمتين لهما نفس المعنى، وهو «مكان لقاء الملائكة».

ف ـ اللقاء بين عيسو ويعقوب

وعند انبلاج النهار؛ فضّ الملاك المصارعة مع يعقوب. وكان فجر ذلك اليوم قصيرًا على نحو غير عادى. فقد أشرق الشمس قبل موعده بساعتين؛ لكى يعوض عن غروبه ًالمبكر، فى اليوم الذى مَرَّ فيه يعقوب على «جبل المُرِّيًا» فى طريقه إلى «حاران»، ولكى يستحثه على إناخة راحلته فى هذا المكان ويبيت الليلة فيه، على (نفس البقعة) التى سيكون فيها «الهيكل» فى المستقبل.

بل إن قوة الشمس فى ذلك اليوم ذاته؛ كانت غير عادية؛ فقد أشرق يومها بالبهاء والنور الذى وُهِبَه خلال أيام الخلق الستة، وكما سيشرق فى آخر الأيام(١)؛ ليشفى العمى والعرج من بين بنى إسرائيل، وليهلك الكفرة، كانت له فى نفس اليوم تلك القوة الشافية المهلكة، إذ شُفى يعقوب، بينما احترق عيسو وجميع أمرائه بحرارته المتلظية.

---

(١) التلمود ههنا يتكلم عن «جبل المريا» وهو جبل الصفا والمروة فى مكة عند الكعبة ويدل على ذلك كلامه عن «الهيكل» فى المستقبل. أى موضع السجود والحج. وتعبير آخر الأيام يدل على بدء أيام «المسيا» ونهاية أيام بنى إسرائيل فى الملك والنبوة. وقد قال إشعياء النبى إن المسيا سيكون زمانه زمان بركة على المؤمنين به. وعبر عن ذلك بتعبيرات كنائية هى شفاء العمى والعرج. ونصُّ كلامه:

إشعياء: ٣٥:

تفرح البرية والأرض اليابسة ويبتهج القفر ويزهر كالنرجس يزهر أزهارًا ويبتهج ابتهاجًا ويرنم. يدفع إليه مجد لبنان بهاء كرمل وشارون. هم يرون مجد الرب بهاء الهنا شددوا الأيادى المسترخية والركب المرتعشة ثبّتوها قولوا لخائفى القلوب تشددوا لا تخافوا هو ذا إلهكم. الانتقام يأتى جزاء الله. هو يأتى ويخلصكم.

حينئذ تنفتح عيون العمى وآذان الصم تتفتح. حينئذ يقفز الأعرج كالأيل ويترنم لسان الأخرس لأنه قد انفجرت فى البرية مياه وأنهار فى القفر ويصير السراب أجمًا والمعطشة ينابيع ماء. فى مسكن الذئاب فى مربضها دار للقصب والبردى وتكون هناك سكة وطريق يقال لها الطريق المقدسة. لا يعبر فيها نجس بل هى لهم من سلك فى الطريق حتى الجهال لا يضل لا يكون هناك أسد وحش مفترس لا يصعد إليها لا يوجد هناك. بل يسلك المفديون فيها. ومفديو الرب يرجعون ويأتون إلى صهيون بترنم وفرح أبدى على رؤوسهم ابتهاج وفرح يدركانهم. ويهرب الحزن والتنهد» (إش ٣٥).

وكان يعقوب فى مسيس الحاجة إلى علاج شافٍ للإصابات التى تعرض لها، فى مصارعته مع الملاك. وكان صراعهما قاسيًا، وارتفع الغبار الذى أثاراه إلى «عَرْش الرب» ورغم أن يعقوب تغلب على خصمه الضخم، الذى يبلغ فى ضخامة حجمه ثلث حجم العالم، بأن ألقاه أرضًا وهدّ قواه إلا أن الملاك أصابه بأن قبض على عرق النَّسَا الذى على حق الفخذ فانخلع من مكانه، فتألم منه يعقوب. وشفته القوة الشافية للشمس، ومع ذلك فإن أطفاله، أخذوا على أنفسهم أن لا يأكلوا عِرق النَّسا الذى على حق الفخذ، إذ هم يلومون أنفسهم على أنهم كانوا السبب فى تلك الإصابة، وما كان لهم أن يتركوه وحيدًا فى تلك الليلة.

والآن، ورغم أن يعقوب كان قد استعد لحدوث الأسوأ، بل وحتى للعداء الصريح، فإنه عندما رأى عيسو ورجاله؛ رأى أنه من الأحوط أن يُقسِّم أهل بيته بين زوجته لَيْئَة وراحيل والجاريتين، ويقسّم الأطفال بينهن. فوضع الجاريتين وأطفالهما فى المقدمة، ثم لَيْئَة وأطفالها بعدهما، وراحيل ويوسف فى المؤخرة.

وكانت تلك نفسها هى الاستراتيجية التى اتبعها الثعلب مع الأسد. **فذات مرة**: كان ملك الحيوانات ساخطًا على رعاياه، فلذلك أخذوا يبحثون هنا وهناك عَمَّن يتحدث باسمهم، بحيث يستطيع أن يهدئ غضب ملكهم. وعرض عليهم الثعلب تولى تلك المهمة قائلاً: أعرف ثلاثمائة حكاية ستخفف غضبه، وقبلوا عرضه بفرح. ولكن وهو فى طريقه إلى الأسد توقَّف الثعلب فجأة، ولما سُئِلَ عن السبب أجاب: لقد نسيت مئة حكاية من الحكايات الثلاثمائة. فقال له مرافقوه: «لا يهم. مئتان تكفيان».

فواصل سيره ولكنه توقف فجأة بعد فترة ولما سألوه أجابهم بأنه نسى نصف المئتين المتبقيتين. ولكن الحيوانات التى كانت ترافقه طيَّبوا خاطره وقالوا له: إن مئة حكاية تكفى. ولكن الثعلب توقف فى طريقه للمرة الثالثة واعترف لهم بأن ذاكرته قد خانته، وأنه قد نسي كل الحكايات التى كان يعرفها،

ونصحهم بأن يتقدم كل حيوان إلى الملك بمفرده ويحاول إرضاء غضبه.

وفى بداية الأمر كان لدى يعقوب من الشجاعة ما يكفى لمحاربة عيسو نيابةً عن جميع من معه. ثم انتهت به الحال إلى أن يدع كل امرئٍ يدافع عن نفسه قدر استطاعته.

ومع ذلك فقد كان يعقوب أبًا حنونًا لدرجة لا تجعله يعرّض أسرته لأول جذوة من الخطر. فتقدَّم الجميعَ قائلاً: من الأفضل أن يهاجموننى أنا، لا أطفالى. وجاءت بعده الجاريتان وأطفالهما. وكان دافعه فى جعلهم وراءه هو أنه إن كان عيسو ستغلبه شهوته تجاه النساء وسيفكر فى اغتصابهن، فليفعلها مع الجاريتين أولاً؛ وحين فعله يقوم هو بتقوية دفاعاته من جديد دفاعًا عن شرف زوجاته. وأتت راحيل ويوسف فى المؤخرة، ومشى يوسف أمام أمه، رغم أن يعقوب كان قد أمرهما بأن يفعلا عكس ذلك. لكن الصبى كان يعلم مدى جمال أمه ومدى فجور عَمِّه، ولذا فقد كان يريد إخفاء راحيل عن عَيْنَىْ عِيسو.

وفى ذروة غضبه تجاه يعقوب، أَقسم عيسو أن لا يقتله بقوسه وسهمه، ولكن بأن ينهشه بأسنانه حتى الموت، ثم يشرب من دمه. ولكن خاب أمله خيبة عظيمة، إذ صارت رقبة يعقوب فى صلابة العاج، ولم يستطع عيسو، فى غضبه الشديد، إلا قضم أسنانه بعضها تلو بعض.

وكان الأخوان مثل الكبش والذئب. فقد كان هناك ذئب يريد أن يمزق كبشًا إربًا إربا، ودافع الكبشُ عن نفسه مستخدمًا قرونه، وأخذ يغرسها فى لحم الذئب. وبدأ كلاهما يصرخ باكيًا. الذئب لأنه لم يستطع التغلب على فريسته، والكبش خوفًا من أن يعاود الذئب هجومه. وأخذ عيسو يصرخ باكيًا لأن أسنانه تكسرت بسبب لحم رقبة يعقوب الذى يشبه العاج، بينما كان يعقوب يخشى أن يحاول أخوه من جديد عَضَّه.

ووجَّه عيسو إلى أخيه سؤالاً فقال: قل لى، ما كان ذلك الجيش الذى

لاقيتُه؟ إذ أثناء سيره لملاقاة يعقوب كانت له تجربة غريبة للغاية مع حشد عظيم من أربعين ألف مقاتل. وكان يتكون من أنواع مختلفة من الجنود: فمنهم من كانت الدروع السابغات تغطيه ويمشى على قدميه، وبعضهم الراكب، والبعض جالس فى عربات، وكلهم ألقوا بأنفسهم على عيسو عندما التقوه. وكان يريد أن يعرف من أين جاءوا، ولم يقطع الجنود الغرباء هجومهم الغريب عليه إلا ليخبروه بأنهم يخصّون يعقوب. وما تركوه إلا لأنه قال لهم: إنه أخو يعقوب فولّوا عنه قائلين: يا ويلنا إن سمع سيدنا أننا قد آذيناك. وكان هذا هو الجيش واللقاء الذى استعلم عنه عيسو بمجرد أن التقى بأخيه وكانت الرسل الذين أرسلهم يعقوب إلى عيسو ملائكة، إذ لم يعد هناك من البشر من عاد يجرؤ على الذهاب لمواجهة هذا الكافر الزنيم.

ثم إن يعقوبُ أعطى عيسو الهدايا التى خصه بها وهى العُشر من جميع ماشيته، واللآلئ والأحجار الكريمة، إضافة إلى صقر ليصطاد به. ولكن حتى الحيوانات رفضت أن تتخلى عن سيدها الكريم يعقوب وتصبح مِلْكًا للشرير عيسو. وفرَّت كلها هاربة عندما أراد يعقوب أن يسلِّمها إلى أخيه، وكانت النتيجة أنه لم يصل إلى عيسو سوى الضعيف والأعرج منها، وكل ما لم يستطع الفرار.

ولم يقبل عيسو الهدايا الواصلة إليه فى البدء، وما كان اقتناعه هذا إلا مجاملة خائبة. إذ هو يرفض الهدايا بالكلام؛ ويَمِدُّ يديه ليتلقَّاها. ولم يَفُتْ هذا على يعقوب وأصر على أن يقبلها عيسو، وقال له: بل أرجوك. لئن كان لى أن أجد نعمة فى عينيك الآن، فلتأخذ هذه الهدايا من يدى، إذ لَمَّا رأيتُك كأننى رأيتُ وجوه الملائكة، وأنت راضٍ عنى.

وقد اختار كلماته التى اختتم بها حديثه لغرض فى نفسه. إذ كان يعقوب يريد أن لا يفهم عيسو من كلامه أنه قد قابل الملائكة، لكى تمتلئ نفسه بالرهبة.

وكان يعقوب فى ذلك مِثْلُه مثل الرجل الذى دعاه عدوه اللدود إلى وليمة، وكان عدوه يبحث عن فرصة ليقضى عليه. وعندما أدرك الضيفُ الغرض من دعوته، قال لمضيفه: يا لهذه من وليمة عظيمة ولذيذة! ولكننى كنتُ قد دعيتُ لمثلها من قبل مرة واحدة فى حياتى، لَمَّا دعانى الملك إلى مائدته. وكان فى ذلك ما يكفى لبث الرعب فى نفس المُضْمِرِ قَتْلِه. فمثله لن يجرؤ على قتل رَجلٍ على علاقة وطيدة بالملك، جعلته يدعوه إلى مائدة.

وكان لدى يعقوب سبب وجيه لذكر لقائه بالملائكة، إذ كان ملاك عيسو هو الذى جَرَّب قوته مع يعقوب، وتغلَّب عليه يعقوب.

وكما قَبِلَ عيسو هدايا يعقوب عن طيب خاطر فى هذه المرة الأولى، فقد استمر فى قبولها طوال عام كامل. وكان يعقوب يعطيه يوميّا هدايا كالتى أعطاه إياها يوم لقائهما، وقال حينها لنفسه: «لئن كانت الهدية تعمى عينى الحكيم»، فلأى درجة إذًا تعمى عَيْنَىْ الجهول! لذا فلسوف أعطيه الهدايا بعد الأخرى، فلربما يتركنى لحال سبيلى». كما أنه لم يكن يأبه كثيرًا بالممتلكات التى اقتناها خارج الأرض المقدسة. ومثل هذه الممتلكات ليست بركة، ولذا لم يَتَوَان فى التخلّى عنها.

وبجانب الهدايا التى أعطاها يعقوب لعيسو، فإنه نقده أيضًا مبلغًا كبيرًا من المال ثمنًا لإرثه فى قبر المكفيلة، فبمجرد وصوله إلى الأرض المقدسة؛ باع كل ما جلبه معه من «حاران» بكومة من الذهب. وكلم عيسو قائلاً: إن لك نصيبًا مثلى فى قبر المكفيلة، فهل تأخذ كومة الذهب هذه لقاء إرثك فيه؟فرد عيسو: وما الذى قد يعنيه الكهف لى؟ بل الذهب هو ما أريد. وباع نصيبه فى قبر المكفيلة لقاء الذهب الذى تحصل من بيع يعقوب لممتلكاته التى كان قد جمعها من خارج الأرض المقدسة. ولكن الرَّب ملأ الفراغ بدون تأخير، إذ عاد يعقوب غنيا كما كان من قَبْلُ.

ولم يكن يعقوب هو الذى يسعى وراء الثروات؛ فقد كان راضيًا عن

نفسه وعن أهله، بأن يترك لعيسو وأهله كل الكنوز الأرضية. وقال لعيسو: إنى لأرى أنه فى مستقبل الأيام سيتسبب نسلك فى معاناة نسلى. ولكنى لا أمانع، فلتمارس سلطانك ولترتدِ تاجك حتى يأتى الزمان الذى يخرج فيه «المَسيّا» من صُلْبى، ويتسلم منك الحكم.

وسوف تتحقق هذه الكلمات التى قالها يعقوب فى مستقبل الأيام، عندما تثور كل الأمم ضد مملكة «أدوم»، ويستولون على مدنهم واحدةً بعد أخرى، وممالكهم واحدة بعد أخرى حتى يصلوا إلى بيت جبرين، ثم يظهر «المَسيَّا» ويفرض سلطانه. ولسوف يفر ملك «إدوم» لاجئًا إلى «بُصرَى» ولكن الرب سيظهرك هناك ويقتله، إذ رغم[1] أن «بُصرة» هى من المدن التى يُلْجَأ

(١) مؤلفو التلمود ذكروا نبوءة من سفر إشعياء ـ الأصحاح الثالث والستون ـ هى تدل على صعود محمد ﷺ وأصحابه الكرام إلى «بُصرة» فى أرض الشام؛ ومعه جيش عظيم جداً سيحارب به اليهود فى فلسطين. وعبر عن انتصاره بأن لباسه محمد، وأنه لطخ كل ملابسه. وهذا هو نص النبوءة:

إشعياء: ٦٣

من ذا الآتى من أدوم بثياب حمر من بصرة هذا البهى بملابسه المتعظم بكثرة قوته أنا المتكلم بالبر العظيم للخلاص ما بال لباسك محمر وثيابك كدائس المعصرة قد دست المعصرة وحدى ومن الشعوب لم يكن معى أحد. فدستهم بغضبى ووطئتهم بغيظى فرش عصيرهم على ثيابى فلطخت كل ملابسى لأن يوم النقمة فى قلبى وسنة مفديى قد أتت. فنظرت ولم يكن معين وتحيرت إذ لم يكن عاضد فخلصت لى ذراعى وغيظى عضدنى فدست شعوبا بغضبى وأسكرتهم بغيظى وأجريت على الأرض عصيرهم إحسانات الرب اذكر تسابيح الرب حسب كل ما كافأنا به الرب والخير العظيم لبيت إسرائيل الذى كافأهم به حسب مراحمه وحسب كثرة إحساناته وقد قال حقّا إنهم شعبى بنون لا يخونون فصار لهم مخلصا فى كل ضيقهم تضايق وملاك حضرته خلصهم بمحبته ورأفته هو فكهم ورفعهم وحملهم كل الأيام القديمة.

ولكنهم تمردوا وأجزائى روح قدسه فتحول لهم عدوا وهو حاربهم ثم ذكر الأيام القديمة موسى وشعبه. أين الذى أصعدهم من البحر مع راعى غنمه أين الذى جعل فى وسطهم روح قدسه الذى سير ليمين موسى ذراع مجده الذى شق المياه قدامهم ليصنع لنفسه اسما أبديا، الذى سيرهم فى اللجج كفرس فى البرية فلم يعثروا كبهائم تنزل إلى وطاء روح الرب أراحهم. هكذا قدت شعبك لتصنع لنفسك اسم مجد. =

إليها؛ فإن الرب سوف يمارس الانتقام هناك. ولسوف يمسك بالملك من شعره وسوف يقتله «إيلياء»، حتى ينبثق دمه ويتفجر فيلطخ ثياب الرب. وكان كل ذلك فى ذهن يعقوب عندما قال لعيسو: «لِيَمُرَّ مولاى ـ أتوسل إليك ـ أمام عبده، إلى أن آتى إلى مولاى فى «سَعير». ولم يذهب يعقوب نفسه أبدًا إلى «سعير» وما كان يقصده بحديثه ذلك هو زمن «المِسَيَّا» عندما يذهب بنو إسرائيل إلى «سَعير»، ويستولون عليها.

وتأخر يعقوب فى «سُكُّوت» طوال عام كامل، وافتتح بيتًا للتعليم هناك. ثم ارتحل إلى «شَكِيم»، بينما ذهب عيسو إلى «سَعير» قائلاً لنفسه: إلى متى أكون عبئًا على أخى؟ إذ كان «عِيسو» يتلقى هدايا يومية من يعقوب أثناء إقامته فى «سُكُّوت».

وبعدما أقام كل هذه السنوات فى أرض غريبة، أتى إلى «شَكِيم» فى سلام، معافى فى عقله وفى بدنه. ولم يَنْسَ شيئًا مما تعلمه من قبل؛ ولم تُنْقِص الهدايا التى أعطاها لعيسو من ثروته شيئًا؛ وشفى من الجرح الذى أصابه به الملاك، كما كان أطفاله سليمين صحيحى البدن.

دخل يعقوب «شَكِيم» فى يوم بعد العصر، وكان أول ما اهتم به هو ترسيم حدود المدينة، لئلا تتم مخالفة شريعة «السبت» وما أن استقر فى المكان، إلا وأرسل الهدايا إلى أعيان البلدة. إذ يجب على المرء أن يُظْهِر ولاءه للبلدة التى أكرمته. ولم يُحْرِم عامة الناس أيضًا من جوده. وأنشأ لهم سوقًا باع لهم فيها كل شىء بأثمان زهيدة.

ولم يضيِّعْ وقتًا فى شراء قطعة من الأرض، إذ فَرَضَ على كل رجل ذى

= تطلَّع من السموات وانظر من مسكن قدسك ومجدك أين غيرتك وجبروتك زفير أحشائك ومراحمك نحوى امتنعت فإنك أنت أبونا وإن لم يعرفنا إبراهيم وإن لم يدرنا إسرائيل أنت يا رب أبونا ولينا منذ الأبد اسمك.

لماذا أضللتنا يا رب عن طرقك. قسيت قلوبنا عن مخافتك ارجع من أجل عبيدك سباط ميراثك إلى قليل امتلك شعب قدسك مضايقونا داسوا مقدسك قد كنا منذ زمان كالذين لم تحكم عليهم ولم يدع عليهم باسمك». (إشعياء: ٦٣). (المحقق)

سعة أن يتملَّك قطعة من الأرض بمجرد أن يدخل إلى الأرض المقدسة. ودفع مئة حَمَل ومئة شاة عمرها عام؛ ومئة قطعة من النقود، واستلم فى مقابل ذلك وثيقةً بيع، مَهَرَها بتوقيعه، الذى كان عبارة عن الحَرْفَيْن «يود» و «هى» (الياء والهاء فى العبرية؛ والمقصود بهما. اختصار اسمه «يعقوب ابن الرب») ثم أقام مذبحًا للرب على تلك الأرض وقال: أنت رب كل الأشياء السماوية، وأنا رب كل الأشياءُ الأرضية» ولكن الرب قال: «ولا حتى عَرَّاف المعبد يتألَّى علىّ، وينسب لنفسه مزايا المعبد، بينما تدعى أنت لنفسك الربوبية على أرضٍ عالية؟ على رسلك لسوف تخرج ابنتك غدًا، ولسوف تَخْزَى.

ص ـ الثورة فى شَكِيم

وبينما كان يعقوب وأبناؤه جالسين فى بيت التعليم، مشغولين بدراسة التوراة، خرجت «دِينة» لتشاهد النساء وهن يرقصن ويغنين، واللائى كان «شَكِيم» قد استأجرهن ليغنين ويرقصن فيغرينها بالخروج. ولو كانت لزمت بيتها، لما كان حدث لها من شىء. ولكنها كانت امرأة، وكل النساء يحببن عرض أنفسهن فى الشوارع.

وعندما وقع نظر «شكيم» عليها؛ أمسك بها غصبًا عنها، رغم صغر سنها واغتصبها بطريقة وحشية.

وحدثت هذه المصيبة ليعقوب كعقاب له على اغتراره الزائد بنفسه. فأثناء مفاوضاته مع لابان قال: «لسوف تدفع عنى استقامتى فيما بعد.» وكذلك عند عودته إلى «فلسطين»، وبينما كان يستعد للقاء أخيه، خَبَّأ ابنته «دينة» في صندوق، خشية أن يرغب عيسو فى اتخاذها زوجة لنفسه، فيُضْطَّر إلى إعطائها له. وكلمه الرب قائلاً: «ها أنت قد تصرفت مع أخيك بقسوة، ولهذا فلسوف تُضْطَّرُ «دينة» إلى الزواج من «شكيم» الذى لاهو مختون ولا من المتهوِّدين. ولقد رفضتَ أن تعطيها للمختتن، ولذا فلسوف يأخذها من لم يختتن. وقد رفضتَ إعطائها زوجة لعيسو فى زواج شرعى،

ولذا فلسوف تقع هى الآن ضحية للشهوة المحرمة لهذا المغتصب».

ولما سمع يعقوب أن شَكيم قد اغتصب ابنته؛ أرسل اثنى عشر عبدًا ليخرجوا «دينة» من بيت «شَكيم» ولكن شكيم خرج إليهم مع رجاله، وطردهم من منزله، ولم يجعلهم يقتربون من «دينة» بل وقَبَّلها واحتضنها أمام أعينهم. وبعد ذلك أرسل يعقوب جاريتين من إماء بناته لتبقيا إلى جوار «دينة» فى بيت «شَكيم». وأمر شكيم ثلاثة من أصدقائه أن يذهبوا إلى أبيه «حَمُور بن حَدَّقوم بن بيريد» ويقولوا له: زوِّجنى هذه الفتاة. وفى أول الأمر حاول «حَمُور» أن يقنع ابنه بألا يتخذ لنفسه زوجة من نساء العبرانيين ولكن عندما ألح عليه شكيم فى الطلب؛ لبَّى رغبة أبيه، وذهب إلى يعقوب ليكلمه فى الأمر. وأثناء ذلك عاد أبناء يعقوب من الحقل، وقد اشتعلوا غضبًا وكلموا أباهم قائلين: بكل تأكيد فإن الموت هو مصير هذا الرجل وأسرته؛ لأن الرب سيد الأرض كلها أمر نوحا وبنيه ألا يسرق إنسان إنسانًا ولا يرتكب جريمة الزنا. والآن هاهو شَكيم قد اغتصب أُخْتَنَا واقترف الزنا معها، ولم يَقُلْ له رجل واحد فى المدينة كلها كلمة واحدة.

وبينما هم يتكلمون أتى حمور لينقل ليعقوب كلام ابنه بشأن «دينة»، وكلمه حتى إذا فرغ من كلامه، أتى شَكيم بنفسه إلى يعقوب وأعاد أمامه الطلب الذى طلبه أبوه. وأجاب شِمعون ولاوِى على كلام شَكِيم وحَمُور بمكر قائلين: كل ما قلته لنا سنفعله. لكن لاحظ أن أختنا فى بيتك، فانصرف عنها حتى نرسل إلى أبينا يعقوب فى ذلك، إذْ لا نستطيع فعل شىء بدون مشورته فهو يعلم طرق أبينا إبراهيم، ولسوف نخبرك بما يقوله لنا أيّاً كان، ولن نخفى عنك منه شيئًا.

وبعدها عاد شَكيم وأبوه إلى منزلهما، وقد ارتضيا بما تم إلى هذا الوقت، وعندما انصرفا استشار أبناء يعقوب أباهم فى أن يشير عليهم بما يحتالون به لقتل جميع سكان المدينة الذين استحقوا هذه العقوبة بسبب

شرهم. وقال لهم شمعون: لدى رأى جيد. مروهم فليختتنوا. فإن رفضوا نأخذ ابنتنا وننصرف. وإن وافقوا، نقضى عليهم بعدما يختتنون ويستولى عليهم الألم ونقتلهم جميعًا.

وفى الصباح التالى عاد شَكيم وأبوه إلى يعقوب ليكلماه فى أمر «دينة» فكلمهما أبناء يعقوب مخادعين وقالوا لهما: «لقد أخبرنا أبانا يعقوب بكل كلامك، وقد سره كلامك، ولكنه قال إن إبراهيم فعل هكذا وبذلك أمره الرب: أنه إن كان هناك رجل ليس من نسله ويريد أن يتزوج إحدى بناته؛ فلابد أن يجعل كل ذكر يخصه يختتن.

فهرول شَكيم وأبوه لينفذوا رغبات أبناء يعقوب، وأقنعا كذلك رجال المدينة بأن يحذوا حذوهما، إذ كان لهما مكانة كبيرة عندهما، فهما أمراء تلك المدينة.

وفى اليوم التالى نهض شَكيم وأبوه مبكرَيْن صُبْحًا، وجمعا كل رجال المدينة واستدعوا أبناء يعقوب فختنوا شكيم وأباه وإخوته الخمسة، وجميع الذكور فى المدينة، وكانوا ستمائة وخمسة وأربعين رجلاً، ومائتين وستة وسبعين غلامًا. لكن «حَدَّ قوم» جَدَّ شكيم، وكذلك إخوته الستة رفضوا أن يختتنوا وغضبوا غضبًا عظيمًا من أهل المدينة لاستسلامهم لرغبات أبناء يعقوب.

وفى مساء اليوم التالى؛ أرسل شكيم وأبوه فى طلب ثمانية أطفال صغار كانت أمهاتهم قد أخفينهم، وأتيا بهم ليُخْتَتَنُوا. فثار «حَدَّ قوم» وإخوته الستة فى وجه الرسل وحاولوا قتلهم، كما حاولوا أيضًا قتل شكيم وحمور ودينة. ووبَّخوا شكيمًا وأباه على إتيانهم شيئًا لم يفعله آباؤهم أبدًا من قبل، وهو الفعل الذى سيؤدى إلى إثارة غضب سكان أرض كنعان عليهم، وأيضًا غضب كل نسل «حام»، وكل ذلك من أجل امرأة عبرية. وأنهى «حَدَّ قوم» وإخوته كلامهم قائلين: اسمع سوف نذهب غدًا ونجمع إخوتنا الكنعانيين ولسوف نعود ونسحقك أنت وكل من تثق به؛ فلا تبقى منك ولا منهم باقية.

وعندما سمع حَمُور وابنه شَكيم وجميع أهل المدينة هذا الكلام، استولى عليهم الرعب، وندموا على ما فعلوا. وأجاب شكيم وأبوه على كلام «حد قوم» وإخوته قائلين: لقد رأينا أن العبريين لن يلبُّوا رغبتنا بخصوص ابنته، ولذا فعلنا ما فعلنا، ولكن عندما ننال مأربنا منهم؛ فلسوف نفعل بهم ما تكنه قلوبكم لهم، فَوْرَ أن نتعافى من أوجاعنا.

وسمعت دينة كلامهم. فأسرعت وأرسلت جارية من الجوارى اللائى أرسلهن أبوها إليها ليرعينها، وأخبرت يعقوب وبنيه بالمؤامرة التى تُحاك ضدهم. فلما سمع أبناء يعقوب، ذلك امتلأوا حنقا وأقسم شِمعون ولاوِى قائلين: وحياة الرب، بحلول الغد لن تبقى فى المدينة كلها باقية.

وبدأوا الإبادة بقتل ثمانية عشر من الفتية العشرين الذين اختبأوا ولم يختتنوا، وفر اثنان منهم إلى إحدى المغارات الموجودة فى المدينة. ثم قتل شِمعون ولاوِى كل المدينة، ولم يتركوا فيها ذكرًا، وبينما هما يبحثان عن أسلاب خارج المدينة، ثار ضدهما ثلاثمائة امرأة وأخذن يقذفنهما بالحجارة، فقتلهم شِمعون جميعًا بمفرده، وعاد إلى المدينة حيث انضم إلى لاوِى. ثم أخذا من الناس الموجودين خارج المدينة أغنامهم وثيرانهم وماشيتهم أيضًا النساء والأطفال، وساقا كل ذلك أمامهما وأخذاه إلى المدينة إلى أبيهما يعقوب. وكان عدد النساء اللائى لم يذبحاهن، وإنما أسراهن فقط؛ خمسة وثمانين عَذْراء، كان منهن فتاة صغيرة ذات جمال عظيم اسمها «بُوَنة»، اتخذها شِمعون زوجة له. وكان عدد الرجال الذين أسراهم ولم يقتلاهم، سبعة وأربعين. وكان كل هؤلاء الرجال والنساء عبيدًا وإماءً لأبناء يعقوب، ولنسلهم من بعدهم، إلى أيام مغادرتهم إلى «مصر».

ق- حرب أطفئت نارها

وعندما غادر شِمعون ولاوِى المدينة، نهض الفَتَيَان اللذان اختبآ فى المغارة ولم يذبحا مع من ذبح من أهل المدينة، ووجدا المدينة قد خربت وليس

فيها من رجل، بل نساء نائحات، عندها صاحا: «انظروا! هذا هو الشر الذى فعله أبناء يعقوب. الذين دمروا واحدة من المدن الكنعانية، ولم يخافوا من كل أرض كنعان».

وتركا المدينة وذهبا إلى مدينة «تَفوَع» وأخبرا سكان المدينة بكل ما فعله أبناء يعقوب فى مدينة شَكيم. وأرسل «يشوب» ملكُ «تَفوع» إلى شكيم ليرى إن كان هذان الشابان قد صدقاه الحديث، فلم يكن يصدقهما. قائلاً: كيف لرجلين أن يدمِّرا مدينة كبيرة مثل شَكيم؟ وعادت رسل «يشوب» وقالوا له: المدينة مدمَّرة وليس بها رجل واحد، بل نساء باكيات، وليس فيها أيضًا ماشية ولا قطعان، إذ أن كل ما كان بها أخذه أبناء يعقوب.

وتعجب «يشوب» من ذلك، إذ لم يُسمع عن مثل ذلك من أيام النِّمرود، ولا حتى من أقدم العصور، أن يقدر رجلان على تدمير مدينة كبيرة، وقرر الخروج لحرب العبريين، والأخذ بثأر أهل شكيم. وقال له مستشاروه: «لئن كان رجلان منهما قد دمَّرا مدينة كاملة، فمن المؤكد أنك لو خرجت لحربهم فلسوف يثورون جميعًا ضدنا ويدمروننا جميعًا. لذا أرسل إلى الملوك الذين حولنا، لنجتمع جميعا ونحارب أبناء يعقوب ونهزمهم».

وعندما سمع الملوك الأموريون السبعة بالشر الذى فعله أبناء يعقوب بمدينة شكيم، اجتمعوا معًا، مع كل جيوشهم، عشرة آلاف رجل، بسيوف سلت من أغمادها، وخرجوا لحرب أبناء يعقوب. فخاف يعقوب خوفًا عظيمًا وقال لشِمعون ولاوى: لماذا جلبتما علىّ شرًا كهذا؟ لقد كنتُ آمنًا وها أنتما قد أثرتما ضدى سكان الأرض بأفعالكما».

ثم كلم يهوذا أباه وقال: أخائف أنت مِنْ أجل قتل شِمعون ولاوى سكان شَكيم لأن شكيم اغتصب أختنا، وخالف أمر ربنا لنوح ولأبنائه، ولم يتدخل واحد من سكان المدينة فى الأمر. ولماذا أنت غاضب من أخوىّ؟ ولا شك فى أن ربنا الذى سلم مدينة شكيم وأهلها إلى أيديهما، هو الذى سيسلِّم إلى

أيدينا جميع الملوك الكنعانيين الذين هبُّوا ضدنا. فالآن نَحِّ عنك خوفك وادع الرب ليساعدنا وينجينا.

ثم خاطب يهوذا إخوته قائلاً: إن الرب إلهنا معنا! لا تخشوا شيئًا! اثبتوا، وليهيئ كلٌّ منكم أسلحته للحرب، وليُعِدَّ قومه وسيفه، ولسوف تخرج ونحارب هؤلاء الغلف. إن الرب هو إلهنا، ولسوف ينجينا.

ثم إن يعقوب وأبناءه الأحد عشر ومئة عبد من عبيد إسحق أتوا لنجدتهم، زحفوا جميعًا للقاء الأمُوريين الذين كانوا شعبًا كثير العدد جدًا، مثل رمل البحر. وأرسل أبناء يعقوب إلى جدهم إسحق فى حَبْرون، وطلبوا منه أن يدعو الرب لينجِّيهم من أيدى الكنعانيين، فدعا قائلاً: يا رب، لقد وعدتَ أبى قائلاً: سأكثِّر نسلك مثل عدد نجوم السماء، كما وعدتنى بأنك ستقيم كلمتك لأبى. والآن يا رب العالم كله، أدعوك أن تبطل مشورة هؤلاء الملوك لئلا يحاربوا أبنائى، وألْقِ فى قلوب ملوكهم وشعوبهم الرعب من أبنائى، وأذلهم؛ فيهربوا ويتحولوا عن أبنائى. ونجِّ أبنائى وعبيدهم منهم بيدك القوية وذراعك الممدودة، إذ بيدك القوة والقدرة على فعل ذلك.

كما دعا يعقوبُ الربَّ وقال: يا ربى، يا قدير يَا عَلِىّ، يا من ملكت من الأزل وإلى الأبد أنت الذى تثير الحروب وأنت الذى تطفئ نارها. بيدك القوة والقدرة على أن تعزّ وأن تذل، فلتستجب دعائى، وتسبغ علىّ رحمتك، وتلقى فى قلوب هؤلاء الملوك وشعوبهم الرعب من أبنائى، وترعبهم هم وعساكرهم، وبرحمتك تنجِّى كل من يثقون بك، إذ أنت من يُخْضِع لنا الناس، وترغم الأمم تحت أقدامنا.

وسمع الرب دعاء يعقوب وإسحق وملأ قلوب جميع مستشارى الملوك الكنعانيين برعب وخوف عظيمين، وعندما استشارهم الملوك، إن كانوا يشنون الحرب ضد أبناء يعقوب أم لا، قال كل مستشارى ملك منهم لملكه: أم أنك لا تفهم حتى تنوى حرب العبريين؟ لماذا تفرح هكذا بهلاكك أنت اليوم

غبى؟ لا تنسَ أن اثنين منهم قد أتيا إلى مدينة شَكيم بدون خوف أو وجل، وأعملوا فى جميع سكانها السيف، ولم يقف أمامهما رجل واحد، فكيف إذًا ستقدر على حربهم جميعًا؟

ثم واصل مستشارو كل ملك تعديد كل المعجزات التى صنعها الرب لإبراهيم ويعقوب وأبناء يعقوب، التى لم يصنع مثلها منذ القدَم، ولا صنع مثلها آلهة الأمم الأخرى. وعندما سمع الملوك جميع كلمات مستشاريهم، خافوا من أبناء يعقوب ولم يحاربوهم. وارتدوا مع جيوشهم فى ذلك اليوم، ورجع كلٌّ إلى مدينته. ولكن أبناء يعقوب لازموا مواقعهم فى ذلك اليوم حتى حلول الظلام، ولما رأوا أن الملوك لم يتقدموا لحربهم انتقامًا لسكان شَكيم الذين قتلوهم؛ عادوا أدراجهم إلى خيامهم.

وقد حل غضب الرب على سكان شكيم غضبًا عظيمًا بسبب شرورهم. إذ حاولوا أن يفعلوا بسارة ورِفقة ما فعلوه «بدينة»، ولكن الرب منعهم من ذلك. وأيضًا كانوا قد اضطهدوا إبراهيم عندما كان غريبًا بينهم، وأجهضوا قطعانه عندما كانت حبلى، كما فجروا بـ «إبلاعين» وهو رجل كان مولودًا فى بيت إبراهيم. وهكذا كانوا يفعلون بكل غريب؛ فيأخذون زوجته منه بالقوة ويفجرون بها.

ر ـ الحرب مع أهل نِينَوَى

وبث تدمير شَكيم على أيدى شِمعون ولاوى الرعبَ فى قلوب كل الكفار من حولها. ولئن كان اثنان من أبناء يعقوب قد استطاعا تدمير مدينة عظيمة مثل شكيم، فما الذى باستطاعة يعقوب وجميع أبنائه أن يفعلوه مجتمعين؟ هكذا كانوا يقولون لأنفسهم.. وفى هذه الأثناء غادر يعقوب شكيم دون أن يقف فى وجهه أحد، وانطلق مع كل ممتلكاته قاصدًا أباه إسحق. ولكنه بعد ثمانية أيام من السير قابل جيشًا عظيمًا؛ كان قد بُعِثَ من نِينَوى؛ ليفرض الجزية على العالم كله ويخضعه لسلطانها. وعندما حل هذا الجيش

قريبًا من شَكيم، سمع بكل ما حاق بالمدينة على أيدى ابنى يعقوب، فتملكهم الغضب وعزموا على حرب يعقوب.

ولكن يعقوب قال لأبنائه: لا تخشوا شيئًا، فلسوف ينصركم الرب ويحارب أعداءكم نيابة عنكم. عليكم فقط أن تتخلصوا من الآلهة الغريبة التى تمتلكونها، كما يجب أن تطهروا أنفسكم، وتغسلوا ثيابكم فتنظفوها».

واستل يعقوب سيفه وتقدم نحو العدو؛ وفى أول كَرَّةٍ ذبح اثنى عشر ألفًا من ضعفاء الجيش. ثم كلمه يهوذا وقال له: لقد تعبتَ يا أبتاه وأُجْهدت دعنى أُقاتل العدو بمفردى. فأجابه يعقوب قائلاً: يا يهوذا يا بُنى إنى لأَعلم قوتك وشجاعتك؛ وأنهما عظيمان، وليس شىء فى العالم يعدلك فيهما. فانقض يهوذا على العدو بوجه أسد وغضب مشتعل، وقتل اثنى عشر ألف فوج من المحاربين المدربين المجرِّبين. واستعر أوار الحرب فى الساقة وفى المقدمة، وهرع لاوى أخوه لنجدته، وقهرا معًا جيش نينوى. وذبح يهوذا بمفرده خمسة آلاف جندى آخر، بينما أخذ لاوى يوجه ضرباته يمنة ويسرة فى قوة جعلت رجال جيش العدو يتساقطون كما تتساقط حبّات القمح تحت ضربات المنجل فى يد الحاصد.

وعندما لاح لهم مصيرهم، قال أهل نِينَوى: إلى متى نستمر فى حرب هؤلاء الشياطين؟ لنعد إلى بلدنا لكيلا يجتثونا عن بكرة أبينا، ولا يتركوا منَّا باقية. ولكن ملكهم حاول منعهم قائلاً: إيه يا أبطال، يا صناديد يا شجعان، هل جننتم لتطلبوا العودة إلى بلدكم؟ أهذه هى شجاعتكم؟ أبعد ما قهرتم ممالك وأممًا عديدة، لا تقدرون على الصمود فى وجه اثنى عشر رجلٍ فقط؟ فلئن سمعت الأمم والملوك الذين أخضعناهم لسلطاننا بهذا، فلسوف يثورون ضدنا ثورة رجل واحدٍ، ويجعلوننا أضحوكة للعالم، ويفعلون بنا ما يشاءون. هيا تشجعوا، يا رجال مدينة نِينَوَى العظيمة، لكى يُمَجَّد ذكركم ويرتفع شأوكم، ولا تصبحو أضحوكة تلوكها ألسنة أعدائكم.

وبثت كلمات الملك هذ؛ الحماسةَ من جديد فى نفوس المحاربين على مواصلة القتال. وأرسلوا رسلاً إلى جميع البلدان يطلبون المدد، فلما أمدوهم بالرجال، هاجم أهل نينوى يعقوب من جديد. وكلّم أبناءه قائلاً: تشجعوا وكونوا رجالاً، وحاربوا عدوكم. عند ذلك اتخذ أبناؤه الاثنا عشر مواقعهم. كلٌّ فى مكان مختلف، تاركين مسافة معتبرة بين كل واحد منهم وأخيه، بينما تقدم يعقوب للقتال وفى يده سيف وفى الأخرى قوس. وكان قتاله قتال اليائس بالنسبة له. وكان عليه مدافعة العدو إلى اليمين وإلى اليسار. ومع ذلك فقد تلقاهم بضربة شديدة وعندما حاصرته فرقة من ألفى رجل؛ قفز فى الهواء ثم قفز فوقهم واختفى عن أنظارهم. وقتل فى هذا اليوم اثنين وعشرين ألفًا، وعندما قَرُب المساء؛ قرر الهروب تحت جنح الظلام؛ لكن ظهر له فجأة تسعين ألف رجل، فاضطر إلى مواصلة القتال. وكَرَّ عليهم بسيفه ولكنه انكسر، واضطر إلًى الدفاع عن نفسه بأن قام بطحن صخور عظيمة فأحالها ترابًا قذفه فى وجوه أعدائه فأصيبوا بالعمى ولم يروا شيئًا. ولكن من حسن حظه أن الظلام كاد يهبط حينها، فاستطاع أن يستريح قليلاً فى الليل.

وفى الصباح قال يهوذا لأبيه: يا أبتاه، لقد حاربتَ طوال الأمس وأنت منهك ومجهد. دعنى أحارب أنا اليوم. وعندما رأى العدو وجه الأسد لاوِى وأسنانه، وسمعوا زئيره؛ تولاهم رعب عظيم. وأخذ لاوِى يتقافز فوق الجيش مثل البرغوث، قافزًا من محارب إلى آخر، يصليهم بضرباته التى لا تنقطع، وبحلول المساء كان قد قتل منهم ثمانين ألفًا وستة وتسعين رجلاً، مسلحًا بالسيوف والقِسِىّ. ولكن التعب غلبه، فاتخذ «زَبُولون» مكانه عن يسار أخيه وجندل بسيفه ثمانين ألفًا من العدو.

وفى هذه الأثناء كان يهوذا قد استرد شيئًا من عافيته؛ فنهض فى غضب وسخط وصك أسنانه فأصدرت صريرًا مثل رعود منتصف الصيف،فأجبر الجيش على الفرار، وصار مبتعدًا ثمانية عشر ميلا؛ فتمكن يهوذا من الاستمتاع بقسط من الراحة فى تلك الليلة.

ولكن الجيش ظهر ثانية فى الصباح، مستعدًا لاستئناف القتال؛ لينتقم من يعقوب وأبنائه، وأطلق نفير القتال، فقال يعقوب لأبنائه: هيا اذهبوا وقاتلوا أعداءكم. وقال له يَسَّاكر وجاد إنهما سيتوليان اليوم أمر القتال، فأمرهما أبوهما بأن يفعلا، بينما بقى إخوتهما من خلفهما ليحموا ظهريهما ويكونوا على استعداد لنجدتهما ويريحوهما عندما تبدو عليهما أمارات التعب والإجهاد.

وذبح قائدا ذلك اليوم ثمانيةً وأربعين ألف محارب، وأجبروا مئة وعشرين ألفًا آخرين على الفرار والاختباء فى أحد الكهوف. وأسرع جاد ويَسَّاكر بجلب أشجار من الغابة وكوموها عند مدخل الكهف ثم أشعلوا فيها النار. وعندما تأججت النيران وارتفع لهيبها قال المحاربون: لماذا نظل داخل هذا الكهف ونترك أنفسنا حتى يهلكنا الدخان؟ لا، سنخرج إلى أعدائنا ونقاتلهم، وبذا قد تتاح لنا فرصة النجاة بحياتنا.

وغادروا الكهف من فتحات جانبية وهاجموا يَسَّاكر وجاد من الأمام ومن الخلف. ورأى دان ونفتالى المأزق الذى وقع فيه أخواهما فهرعا لنجدتهما. وأعملا سيفيهما شاقين طريقًا وسط العدو إلى يسَّاكَر وجاد، ثم انقضوا أربعتهم على العدو.

وجاء اليوم الثالث وتعززت قوات أهل نِينَوَى بجيش عدده مثل رمل البحر. واتحد جميع أبناء يعقوب لمواجهته وأجبروه على الفرار. ولكن عندما طاردوا الفارين استداروا على أعقابهم واستأنفوا القتال قائلين: «لماذا نهرب؟ لنحاربهم فلعلنا ننتصر عليهم، خصوصًا بعد أن بلغ بهم التعب مبلغه». ثم تلا ذلك قتال ضار، ولما رأى يعقوب ذلك الهجوم الضارى على بنيه، ألقى بنفسه فى أتون المعركة وراح يفرق ضرباته يمينًا ويسارًا. ومع ذلك كان النصر حليف الكفرة، وأفلحوا فى فصل يهوذا عن إخوته. وما إن أدرك يعقوب الخطر المحدق بابنه، إلا وصفَّر فأجابه يهوذا بصفير مماثل؛ فهرع إخوته لنجدته. وكان يهوذا متعبًا يكاد الظمأ يقتله ولم يكن هناك ماء

ليشربه فغرس إصبعه فى الأرض بقوة تفجر معها الماء على مرأى الجيش كله. فقال أحد المحاربين لآخر: سأفر من أمام هؤلاء الشياطين، فالرب يحارب إلى جوارهم. ثم فر هو وكل الجيش لا يلوون على شىء، وأبناء يعقوب فى أدبارهم. وذبحوا منهم عددًا لا حصر له من الجنود، ثم عادوا إلى خيامهم. وعند عودتهم لاحظوا اختفاء يوسف، وخافوا أن يكون قد قتل أو وقع أسيرًا. فهرول نَفْتالى فى أعقاب الجيش الفار يبحث عن يوسف، فوجده لايزال يحارب جيش نَيْنَوَى. فانضم إلى يوسف وقتل عددًا لا يُحصى من الجنود، ومات من الهاربين الكثير، وفرَّ من كانوا يحاصرون يوسف وتركوه حيا.

وبعد انتهاء الحرب؛ واصل يعقوب رحلته دون عائق، قاصدًا أباه إسحق.

ش ـ الحرب مع الأموريين

وفى البداية لم يحاول الناس الذين كانوا يعيشون حول شَكيم أن يؤذوا يعقوب الذى عاد إلى هناك بعد فترة مع أهله، ليقيم هناك ويستقر. ولكن بعد انقضاء سبع سنوات بدأ الوثنيون يضايقونه. واجتمع ملوك الأموريين معًا ضد أبناء يعقوب ليقتلوهم فى «وادى شَكيم». وقالوا: أما كفاهم أن قتلوا جميع رجال شكيم؟ أنتركهم الآن يستولون أيضا على أرضهم؟ وزحفوا إليهم لحربهم.

وألقى يهوذا بنفسه وسط صفوف مشاة الملوك المتحدين، وقتل أول ما قتل، «يشوب» ملك «تَفّوع» الذى كان مغطى بالحديد والنحاس من أم رأسه إلى إخمص قدميه. وكان الملك ممتطيًا صهوة جواده وأخذ يقذف بالرماح بكلتا يديه، من أمامه ومن خلفه، دون أن تطيش له رمية، إذ كان راميًا بارعًا، كما كان يستطيع أن يرمى بالحراب بإحدى يديه. ومع ذلك فلم يَخَفْ يهوذا منه ولا من قوته. وجرى نحوه والتقط حجرًا وزنه ستين «سكعيم» ورماه به. وكان يشوب على بعد مئة وسبع وسبعين ذراعًا وثلث ذراع منه، وتغطيه الدروع الحديدية ويرمى برماحه، وتقدم نحو يهوذا. ولكن يهوذا ضربه

بالحجر على تُرسه وأسقطه من على فرسه. وعندما حاول الملك النهوض، أسرع إليه يهوذا ليقتله قبل أن يقف على قدميه. لكن «يَشوب» كان سريعًا وهب واقفًا على قدميه مستعدّا لمهاجمة يهوذا، تُرسًا بترس. واستل سيفه ليطيح برأس يهوذا. ورفع يهوذا ترسه فى سرعة فتلقى عليه الضربة فتكسر الترس وتحطم. فماذا يفعل يهوذا الآن؟ أطاح بترس عدوه وضرب بسيفه قدمى عدوه فقطعهما من فوق العقب، فسقط الملك على وجهه وسقط سيفه من يده فأسرع إليه يهوذا وحَزَّ رأسه وفصلها عن بدنه.

وبينما كان يهوذا ينزع عن خصمه دروعه، ظهر له تسعة من أتباع «يشوب». وقذف يهوذا رأس أول من اقترب منه بحجر بقوة أسقطت ترسه. فاختطفه يهوذا من على الأرض واستخدمه للدفاع عن نفسه ضد مهاجميه الثمانية. وأتى أخوه لاوِى ووقف إلى جانبه ورمى بسهم قتل «عِلُون» ملِكَ قادش، ثم قتل يهوذا الرجال الثمانية. ثم أتى أبوه يعقوب وقتل «زرورى» ملك «شِيلوَه». ولم يستطع أحد من أولئك الوثنيين أن يصمد فى وجه أبناء يعقوب، فما كانت لديهم الشجاعة التى تجعلهم يقفون لهم، ولذلك ولوا الأدبار وطاردهم أبناء يعقوب، وقتل كل منهم ألف رجل من الأموريين فى ذلك اليوم، قبل أن تغرب الشمس. ثم نزل أبناء يعقوب الآخرين من على جبل «شكيم» حيث كانوا مرابطين وانضموا إلى المطاردة حتى «حزور». وقبل وصولهم إلى تلك المدينة. كانت لهم موقعة أخرى عظيمة مع العدو، أكثر ضراوة من موقعتهم فى وادى شكيم، وأمطرهم يعقوب بسهامه وقتل «بيرثون» ملك حزور، ثم «بسوسى» ملك «سَرّطان»، ولابان ملك آرام، و«شيبر» ملك محناييم.

وكان يهوذا أول من تسلق أسوار «حزور»، وعندما وصل إلى قمتها هاجمه أربعة رجال فقتلهم بدون أن يتوقف عن صعوده، وبدون أن يهب أخوه نَفّتالى لنجدته. وتبعه نفتالى ووقف الاثنان على السور، يهوذا إلى اليمين

ونفتالى إلى اليسار، ثم أعملوا سيف المنية فى المحاربين. ولحق أبناء يعقوب الآخرون بأخويهم ووضعوا نصب أعينهم إبادة الوثنيين عن آخرهم فى ذلك اليوم. وأخضعوا حزور، وذبحوا محاربيها، ولم يدعوا رجلا منها يفر بحياته، ونهبوا من المدينة كل ما كان فيها.

ثم فى اليوم التالى ذهب إلى «سرطان»، ومرة أخرى حدثت واقعة أخرى دموية. كانت سرطان على أرض عالية، كما كان التل المواجه للمدينة عاليًا جدًا لذا فلا يستطيع أحد الاقتراب منها، ولا يستطيع أحد كذلك الاقتراب من القلعة، فقد كانت أسوارها بالغة الارتفاع. ومع ذلك فقد قهروا المدينة وتسلقوا أسوار القلعة، وكان يهوذا أولهم صعودًا من الجهة الشرقية، ثم «جَاد» من جهتها الغربية، وشِمعون ولاوى إلى الشمال، ورأوبَيْن ودَان جنوبًا، بينما أضرم نفتالى ويسَّاكر النار فى المفصلات التى تعلقت بها بوابات المدينة.

وبنفس الطريقة أخضع أبناء يعقوب خمس مدن أخرى، تفوع وأربيل وشيلوه ومحناييم وجاش، وأبادوها جميعًا فى خمسة أيام. وفى اليوم السادس اجتمع جميع الأموريين، وجاءوا إلى يعقوب وأبنائه غير مسلحين، وركعوا أمامهم وطلبوا السلام. وسالم أبناء يعقوب الوثنيين الذين سلّموهم «تيماء» وكل أرض «عروعير».

كما عقد يعقوب فى ذلك اليوم كذلك معهم صلحًا، وعَوّضوا أبناء يعقوب عن كل الماشية التى أخذوها، رأسان لكلٍّ، واستردوا كل الأسلاب التى كانوا قد أخذوها. وذهب يعقوب إلى «تِمْنَة»، وذهب يهوذا إلى أربيل، ومن ساعتها لم يتعرض لهم الأموريون بشىء.

ت ـ إسحق يبارك لاوى ويَهُوذا

ولو نذر المرء نذرًا، ثم لم يوفِّ به فى أقرب وقت، فإنه يتعثر فى ثلاث خطايا: عبادة الأصنام، والفاحشة، وسفك الدماء. وقد أثم يعقوب بعدم وفائه فورًا بالنذر الذى نذره عند «بيت إيل»، ولذا فقد حلت عليه تلك

العقوبة؛ فقد اغتصبت ابنته وذبح أبناؤه البشر، واحتفظوا بالأصنام التى وجدوها ضمن أسلاب شكيم. ولذا فعندما سجد يعقوب أمام الرب بعد الثورة الدموية فى شكيم، أمره بأن ينهض ويذهب إلى «بيت إيل» ويوفى بالنذر الذى نذره هناك. وقبل أن ينطلق يعقوب إلى المكان المقدس لينفِّذ أمر الرب، أخذ الأصنام التى كانت فى حوزة أبنائه، والصنم الذى كانت راحيل قد سرقته من أبيها، وحطمها تحطيمًا ودفن حطامها تحت بلوطة على «جبل جرزيم»، خالعًا الشجرة من جذرها بيد واحدة، ثم وضع حطام الأصنام فى الفجوة فى الأرض، ثم أعاد غرس البلوطة بيد واحدة.

وكان من بين الأصنام صنم على شكل «يمامة» استخرجه السامريون فيما بعد، ثم عبدُوه.

وعندما وصل إلى «بيت إيل» أقام مذبحًا للرب، ووضع على العمود الحَجَرَ الذى كان قد وضع عليه رأسه فى الليلة التى كان قد مَرَّ بها فى ذلك المكان وهو فى طريقه إلى «حاران» ثم أمر أبويه أن يأتيا إلى «بيت إيل» ويشاركا فى القربان. ولكن إسحق أرسل له رسالة تقول: يعقوب يابنى، تعال لأراك قبلما أموت، فهرول يعقوب إلى أبويه آخذًا لاوِى ويهوذا معه. وعندما وقف حفيدا إسحق[1] أمامه؛ انكشف عنه ظلام عينيه، وقال: «أهذان ابناكَ يا ولدى، فهما يشبهانك؟ ودخلت عليه روح الرب ففتح فمه وأمسك[2] لاوِى

(١) ملاحظة:

فى القرآن الكريم: أن يوسف أرسل بقميصه إلى أبيه يعقوب فلما وضعه على وجهه؛ ارتد بصيرا. وفى التلمود: أن الذى ارتد بصيرا هو إسحق. ورواية القرآن هى الصحيحة. لأن التلمود يقول: إن بنيامين لم يكن قد ولد حتى زمان انكشاف الظلام عن عينى إسحق. وفى التوراة أنه كان قد وُلد. وماتت أمه راحيل فى نفاسه.

(٢) ملاحظة: فى كتاب التوراة أن إسحق عليه السلام مات من قبل أن يُنجب يوسف بن يعقوب ولداه أفرايم ومنسى ذلك قوله: «وجاء يعقوب إلى إسحق أبيه إلى ممرا، قرية أربع، التى هى حبرون. حيث تغرب إبراهيم وإسحق. وكانت أيام إسحق مئة وثمانين سنة. فأسلم روحه ومات، وانضم إلى قومه شيخا وشبعان أياما. ودفنه عيسو ويعقوب ابناه» (تك ٣٥ : ٢٧ ـ ٢٩) =

= وبعد ذلك قال: إن يوسف وهو ابن سبع عشرة سنة ألقى فى الجب ثم إن إسماعيليين تجارا باعوا يوسف بعشرين من الفضة فأتوا بيوسف إلى مصر. ثم قالت التوراة: «ابنا راحيل امرأة يعقوب يوسف وبنيامين. وولد ليوسف فى أرض مصر؛ مَنسَّى وأفرايم. اللذان ولدتهما له أسنات بنت فوطى فارع كاهن أون» (تك ٤٦ : ١٩ ـ ٢١).

فعلى هذا إذا قلنا إن إسحق بارك منسى وأفرايم كما يقول التلمود؛ يكون القول خطأ محضا. وأيضا إذا قلنا: إن إسحق حين حضره الموت وصى بنيه بالإسلام كما جاء فى التلمود يكون خطأ محضا. لأن إسحق لم يكن له إلا ولدان هما عيسو ويعقوب. ولأن لاوى ويهوذا هما ابنا يعقوب لا ابنا إسحق.

وفى التوراة: أن يعقوب هو الذى بارك مَنَسَّى وأفرايم.

ففى الأصحاح السابع والأربعين من سفر التكوين، وما بعده:

وسكن إسرائيل فى أرض مصر فى أرض جاسان. وتملكوا فيها وأثمروا وكثروا جدا. وعاش يعقوب فى أرض مصر سبع عشرة سنة. فكانت أيام يعقوب سنو حياته مئة وسبعًا وأربعين سنة. ولما قربت أيام إسرائيل أن يموت دعا ابنه يوسف وقال له إن كنت قد وجدت نعمةً فى عينيك فضع يدك تحت فخذى واصنع معى معروفًا وأمانة. لا تدفنى فى مصر. بل أضطجع مع آبائى. فتحملنى من مصر وتدفننى فى مقبرتهم. فقال أنا افعل بحسب قولك.

فقال احلف لى. فحلف له. فسجد إسرائيل على رأس السرير.

وحدث بعد هذه الأمور أنه قيل ليوسف هو ذا أبوك مريضٌ. فأخذ معه ابنيه منسَّى وأفرايم. فأخبر يعقوب وقيل له هوذا ابنك يوسف قادم إليك. فتشدَّد إسرائيل وجلس على السرير.

وقال يعقوب ليوسف: الله القادر على كل شىء ظهر لى فى لوز فى أرض كنعان وباركنى. وقال لى ها أنا أجعلك مثمرًا وأكثرك وأجعلك جمهورًا من الأمم وأعطى نسلك هذه الأرض من بعدك ملكًا أبديًا. والآن ابناك المولودان لك فى أرض مصر قبلما أتيت إليك إلى مصر هما لى. أفرايم ومنسَّى كرأوبين وشمعون يكونان لى. وأما أولادك الذين تلد بعدهما فيكونون لك. على اسم أخويهم يُسمون فى نصيبهم. وأنا حين جئت من فدَّان ماتت عندى راحيل فى أرض كنعان فى الطريق إذ بقيت مسافة من الأرض حتى آتى إلى إفراتة. فدفنتها هناك فى طريق إفراتة التى هى بيت لحم.

ورأى إسرائيل ابنى يوسف فقال من هذان. فقال يوسف لأبيه هما ابناى اللذان أعطانى الله ههنا. فقال قدمهما إلىَّ لأباركهما. وأما عينا إسرائيل فكانتا قد ثقلتا من الشيخوخة لا يقدر أن يبصر. فقربهما إليه فقبلهما واحتضنهما. وقال إسرائيل ليوسف لم اكن أظن أنى أرى وجهك وهو ذا الله قد أرانى نسلك أيضا. ثم أخرجهما يوسف من بين ركبتيه وسجد أمام وجهه إلى الأرض. =

ب

= وأخذ يوسف الاثنين أفرايم بيمينه عن يسار إسرائيل ،منسَّى بيساره عن يمين إسرائيل وقربهما إليه. فمد إسرائيل يمينه ووضعها على أفرايم وهو الصغير ويساره على رأس منسَّى. وضع يديه بفطنة فإن منسَّى كان البكر. وبارك يوسف وقال الله الذى سار أمامه أبواى إبراهيم وإسحق. الله الذى رعانى منذ وجودى إلى هذا اليوم. الملاك الذى خلَّصنى من كل شر يبارك الغلامين. وليدع عليهما اسمى أبوى إبراهيم وإسحق. وليكثرا كثيرًا فى الأرض.

فلما رأى يوسف أن أباه وضع يده على رأس أفرايم ساء ذلك فى عينيه. فأمسك بيد أبيه لينقلها عن رأس أفرايم إلى رأس منسَّى. وقال يوسف لأبيه ليس هكذا يا أبى لأن هذا هو البكر. ضع يمينك على رأسه. فأبى أبوه وقال علمت يا ابنى علمت. هو أيضًا يكون شعبًا وهو أيضًا يصير كبيرًا. ولكن أخاه الصغير يكون أكبر منه ونسله يكون جمهورًا من الأمم. وباركهما فى ذلك اليوم قائلاً بك يبارك إسرائيل قائلاً يجعلك الله كأفرايم وكمنسَّى. فقدَّم أفرايم على منسَّى.

وقال إسرائيل ليوسف ها أنا أموت ولكن الله سيكون معكم ويردكم إلى أرض آبائكم. وأنا قد وهبت لك سهما واحدًا فوق إخوتك أخذته من يد الأموريين بسيفى وقوسى.

ودعا يعقوب بنيه وقال اجتمعوا لأنبئكم بما يصيبكم فى آخر الأيام. اجتمعوا واسمعوا يابنى يعقوب. واصغوا إلى إسرائيل أبيكم. رأوبين أنت بكرى قوتى وأول قدرتى فضل الرفعة وفضل العز. فائرا كالماء لا تتفضل. لأنك صعدت على مضجع أبيك. حينئذ دنَّستهُ. على فراشى صعد. شمعون ولاوى أخوان. آلات ظلم سيوفهما. فى مجلسهما لا تدخل نفسى. بمجمعهما لا تتحد كرامتى. لأنهما فى غضبهما قتلا إنسانًا وفى رضاهما عرقبا ثورا. ملعونٌ غضبهما فإنه شديد وسخطهما فإنه قاس. أقسمهما فى يعقوب وأفرقهما فى إسرائيل. يهوذا إياك يحمد إخوتك. يدك على قفا أعدائك. يسجد لك بنو أبيك. يهوذا جرو أسد. من فريسة صعدت يا ابنى. جثا وربض كأسد وكلبوة. من ينهضه. لا يزول قضيبٌ من يهوذا ومشترعٌ من بين رجليه حتى يأتى شيلون وله يكون خضوع شعوب رابطًا بالكرمة جحشه وبالجفنة ابن أتانه غسل بالخمر لباسه وبدم العنب ثوبه. مسوَّد العينين من الخمر ومبيض الأسنان من اللبن. زبولون عند ساحل البحر يسكن وهو عند ساحل السفن وجانبه عند صيدون. يساكر حمار جسيم رابض بين الحظائر. فرأى المحل أنه حسن والأرض إنها نزهة. فأحنى كتفه للحمل وصار للجزية عبدًا. دان يدين شعبه كأحد أسباط إسرائيل. يكون دان حية على الطريق أفعوانًا على السبيل يلسع عقبى الفرس فيسقط راكبه إلى الوراء. لخلاصك انتظرت يارب.

جاد يزحمه جيش. ولكنه يزحم مؤخره. أشير خبزه سمين وهو يعطى لذات ملوك. نفتالى أيلة مسيبة يعطى أقوالاً حسنة. يوسف غصن شجرة مثمرة غصن شجرة مثمرة على عين أغصان قد ارتفعت فوق حائط. فمررته ورمته واضطهدته أرباب السهام. ولكن نبت بمتانة قوسه وتشددت سواعد يديه. من يدى عزيز يعقوب من هناك من الراعى صخر إسرائيل من إله أبيك الذى يعينك ومن القادر على كل شىء الذى يباركك تأتى بركات السماء من فوق وبركات الغمر الرابض تحت. بركات الثديين والرحم. بركات أبيك فاقت على بركات أبوى. إلى منية الآكام الدهرية تكون على رأس يوسف وعلى قمة نذير إخوته. بنيامين ذئب يفترس. فى الصباح يأكل غنيمة وعند المساء يقسم نهبا. =ب

يده اليمنى ويهوذا بيده اليسرى لكى يباركهما، ثم قال هذه الكلمات للاوى: عسى الرب أن يخصَّك أنت ونسلك بقربه. مقدمًا على كل ذى جسد، فتخدمون فى معبد مثل «مَلك الوجه» و«الملائكة المقدسين» وليكن فى ذرية يعقوب فى كل الأجيال الملوك والأمراء والقضاة. ولسوف يصدعون بكلمة الرب باستقامة، وينفذون كل أحكامه بعدل، ويبينون طُرُقه لنسل يعقوب، ويبينون لإسرائيل طريقه.

كما قال ليهوذا: لتكن أميرًا، أنت وابن من أبنائك، على أبناء يعقوب. وفيك يكون عون يعقوب. وخلاصُ إسرائيل يُوجد فيك. وعندما تجلس على عرش مجد عدلك؛ يعم السلام الكامل فوق جميع ذرية نسل إبراهيم خليلى.

وفى الصباح أخبر إسحق يعقوب أنه لن يصحبه إلى بيت إيل بسبب شيخوخته، ولكنه أمره بألا يتأخر أطول من هذا عن الوفاء بنذره، وأذن له فى أن يصطحب أمه «رفقة» معه إلى المكان المقدس. وذهبت رفقة وممرضتها «دِبُورة» إلى بيت إيل مع يعقوب.

(a) ـ فرح وحزن فى بيت يعقوب

كانت «دَبُورَة»، ممرضة رِفقة، واثنان من عبيد إسحق؛ قد أرسلتهم رفقة إلى يعقوب، أيام كان لايزال يعيش مع لابان؛ ليستدعوه إلى البيت بعد نهاية مدة خدمته التى دامت أربعة عشر عامًا. ولأن يعقوب لم يُطعِ من فوره طلب أمه؛ عاد عبدا إسحق إلى سيدهم، بينما لازمت دبورة يعقوب من حينها. ولذا فعندما ماتت دبورة عند بيت إيل بكى يعقوب عليها، ودفنها أسفل بيت

= جميع هؤلاء هم أسباط إسرائيل الاثنا عشر. وهذا ما كلمهم به أبوهم وباركهم. كل واحد بحسب بركته باركهم. وأوصاهم وقال لهم أنا أنضم إلى قومى. ادفنونى عند آبائى فى المغارة التى فى حقل عفرون الحثى. فى المغارة التى فى حقل المكفيلة التى أمام ممرا فى أرض كنعان التى اشتراها إبراهيم مع الحقل من عفرون الحثى ملك قبر. هناك دفنوا إبراهيم وسارة امرأته. هناك دفنوا إسحق ورفقة امرأته. وهناك دفنت ليئة. شراء الحقل والمغارة التى فيه كان من بنى حث. ولما فرغ يعقوب من توصية بنيه ضم رجليه إلى السرير وأسلم الروح وانضم إلى قومه.» (تك ٤٧ : ٢٧ +)

إيل تحت نخلة، وهى نفسها النخلة التى جلست تحتها النبيَّة دَبورة فيما بعد، عندما كان أبناء إسرائيل يأتون إليها لتقضى بينهم.

ولكن ما كادت فترة قصيرة تمر بعد موت المرضة دبورة، إلا وماتت رفقة هى الأخرى. ولم يُقَمْ الحِدادُ العام عليها، وذلك لأنه حيث كان إبراهيم ميتًا وإسحق أعمى ويعقوب بعيدا عن المنزل؛ لم يكن هناك غير عيسو ليظهر للناس وينوب عن أسرتها فى تقبل العزاء، وكان يُخْشَى أن يتسبب هذا الشرير فى أن يغرى من يراه بأن يصيح قائلاً: ملعونان هما الثديان اللذان أرضعاك. ولتفادى حدوث ذلك دُفنت رفقة ليلاً.

وظهر الرب ليعقوب ليواسيه فى مصابه، وظهرت معه جوقة من ملائكة. وكان ذلك علامة رضا، إذ أثناء حَمْل أبناء يعقوب للأصنام معهم، لم يُظهر الرب نفسه ليعقوب. وفى هذه المرة أعلن الرب ليعقوب عن قرب ميلاد «بَنْيامين»، وكذلك مولد «مَنَسَّى» و«أفرايم»، اللذين سيكونان من رؤساء الأسباط، كما أخبره بأن هؤلاء الثلاثة سيكون من نسلهم ملوك: «شاؤول» و«إشبوشيت» من نسل بَنْيامين، و«يَرُبْعام» الأفريمى و«يهو» من سِبْط «مَنَسَّى» وفى هذه الرؤيا أكد له الرب أن اسمه سيتغير من يعقوب إلى إسرائيل، الذى كان قد وعده به الملاك الذى صارعه عند دخوله الأرض المقدسة، كما كشف له أنه سيكون آخر الثلاثة الذين سَتُظهَرُ أسماؤهم مقترنة باسم الرب، إذ لا يدعى الرب إلهًا إلا لإبراهيم وإسحق ويعقوب، وليس إله أى أحد آخر.

وكتذكار لهذا الكشف من الرب؛ نصب يعقوب عمودًا من الحَجَر وصبَّ عليه سكيب القربان، كما سيقرِّب الكهنة فى مستقبل الأيام السكائب فى الهيكل فى يوم «عيد التابوت» وكان السِّكيب (أى الشراب الذى يُسْكَب) الذى أحضره يعقوب عند بيت إيل مثل ماء بحيرة طبرية كثرةً.

وفى الوقت الذى ماتت فيه دَبورة ورفقة، حدث كذلك موت راحِيل، وهى

فى السادسة والثلاثين، ولكن ليس قبل أن تستجاب دعوتها بأن تلد ليعقوب ابنًا ثانيًا، إذ ماتت وهى تلد «بِنْيامين». وقد ظلت اثنا عشر عامًا دون أن تلد طفلاً، ثم صامت اثنى عشر يومًا، فاستجيب لتوسلها. وأنجبت أصغر أبناء يعقوب، الذى سماه بِنْيامين، أى ابن الأيام، إذ كان قد وُلد فى شيخوخة أبيه، كما وُلدت معه أخت توأم.

ودُفنت راحيل فى الطريق إلى «إفراتة» لأن يعقوب رأى بعين النبوة أن المنفيين (من بنى إسرائيل) سيمرون بهذا المكان وهم فى طريقهم إلى «بابل» وعند مرورهم ستتوسل راحيل طالبة رحمة الرب لهؤلاء المنبوذين المساكين.

وواصل يعقوب رحلته إلى «أورشليم».

وأيام حياة راحيل كانت أريكتها موجودة دائمًا فى خيمة يعقوب وبعد موتها أمر بإحضار أريكة جاريتها «بِلْهَة» إلى الخيمة. وغضب رأوبين جدًا من ذلك وقال: كأنه ما كان يكفى أن راحيل كانت وهى حيَّة تغتصب حقوق أمى، حتى تواصل مضايقتها من بعد موتها. وذهب وحمل أريكة أمه «لَيْئة» ووضعها فى خيمة أبيه بدلاً من أريكة «بِلْهة» وعلم إخوته بتصرفه المشين من «أشير» (أخيهم). وقد علم بذلك بطريقة أو بأخرى وأخبر إخوته بذلك فقطعوا حبل علاقتهم به، إذ لا يصح أن تكون لهم علاقة بنمَّام ولم يتصالحوا مع أشير إلا بعدما أقر رأوبين بفعلته. إذ لم يمض وقت طويل حتى اعترف لهم رأوبين بأنه قد اقترف إثمًا فى حق أبيه، وصام ولبس المسوح، وتاب عن ذنبه. وكان أول من يتوب من البشر، ولذا قال له الرب: «منذ بدء العالم لم يحدث أن أذنب رجل ذنبًا ثم تاب عنه وأنت أول من يتوب، لذا فوحياتك، ليكونن نَبىٌّ من نسلك، هو «هوشيا»، وليكونَنَّ أول من ينادى قائلاً: «عُدْ يا إسرائيل».

(b) ـ حملة عيسو ضد يعقوب

وعندما أحس إسحق باقتراب أجله؛ دعا إليه أولاده وأبلغهم برغبته ووصيته الأخيرة، ومنحهم بركته قائلاً: «**إننى آمركم باسم المجيد الحميد المعبود، ذى الجلال والعزيز الواحد الذى لا يُغلَب، الذى صنع السموات والأرض وكل شىء؛ أن تخافوه وتعبدوه، ويحب أحدكم أخيه فى رحمة وعدل، ولا يضمرن أحدكم لأخيه شرًا، لا الآن ولا فى أى آن إلى الأبد، جميع أيام حياتكم، لكى تفلحوا فى كل ما تفعلون ولا تهلكوا**»[1].

وأمرهم أيضا بأن يدفنوه في «قبر المكفيلة» إلى جوار أبيه إبراهيم، فى القبر الذى حفره لنفسه بيديه. ثم قَسَّم أملاكه بين ابنيه، معطيًا عيسو النصيب الأكبر، ويعقوب الأصغر. لكن عيسو قال: لقد بعْتُ حقى فى البكورة ليعقوب، وتنازلت له عنه وهو يخصه.» فابتهج إسحق كثيرًا لأن عيسو أَقَرَّ بحقوق يعقوب من تلقاء نفسه، وأغمض عينيه فى سلام.

ولم يشب جنازة إسحق شائبة، إذ كان عيسو واثقًا من إرثه حسب آخر وصية لأبيه. ولكن عندما حان وقت تقسيم تركة إسحق بين الأخوين، قال عيسو ليعقوب: «قَسِّم تركة أبى قسمين، ولأننى الأكبر سنًا، سأختار القسم الذى يعجبنى». فماذا فعل يعقوب حينئذ؟ لقد كان يعلم جيدًا أن عين الشرير لا ترى أبدًا من الكنوز ما يملأها، ولذا فقد قسَّم ميراثهم المشترك كالتالى: كل تركة أبيه المادية تمثل قسمًا، بينما القسم الآخر هو الحق فى الأرض المقدسة، مع قبر المكفيلة ومقبرة إبراهيم وإسحق. واختار عيسو المال والأشياء الأخرى التى تخص إسحق إرثًا له، وترك ليعقوب قبر المكفيلة

---

(١) ملاحظة:

فى القرآن الكريم: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (البقرة: ١٣٣)

وقد نسب التلمود الوصية هذه إلى إسحق ـ الذى لم يكن له غير ابنين ـ وفى التوراة: «ولما فرغ يعقوب من توصية بنيه؛ ضم رجليه إلى السرير وأسلم الروح، وانضم إلى قومه» (تك ٤٩ : ٣٣).

والحق فى الأرض المقدسة. وكتب بذلك عقدا، أصر يعقوب بموجبه على أن يغادر عيسو «فلسطين» ووافق عيسو على الطلب، وارتحل هو وزوجاته وأبناؤه وبناته إلى «جبل سعير» حيث أقاموا.

ورغم أن عيسو لم يعترض على شىء أمام أخيه إلا أنه قد عاد إلى الأرض ليشن الحرب على أخيه. وكانت لَيْئة قد ماتت لتوها، فحزن عليها يعقوب وأبناؤها، وبينما يحاول بقية أبنائه من زوجاته الأخريات، مواساته وتعزيته، زحف إليهم عيسو مع حشد قوى من أربعة آلاف رجل مجهزين جيدًا للحرب. تغطيهم دروع الحديد والنحاس، ومعهم جميعًا التروس والقِسِىّ والسيوف. وأحاطوا بالقلعة التى كان يقيم بها يعقوب وأبناؤه فى ذاك الوقت مع عبيدهم وأطفالهم وأهليهم، إذ كانو قد اجتمعوا كلهم لمواساة يعقوب فى وفاة «لَيْئة» وجلسوا هناك غافلين، لا يرتاب واحد منهم بأن هناك من سيشن عليهم حربا بغتة. وبينما كان ذلك الجيش العظيم يحيط بقلعتهم؛ لم يكن أحد منهم يرتابُ بَعْدُ فى شىء. لا يعقوب؛ وبنيه، ولا المائتا خادم. وعندما أدرك يعقوب أن عيسو يريد شن الحرب عليهم ويقتلهم فى القلعة، ويقذفهم بالسهام؛ صعد على أسوار القلعة وأخذ يوجه كلمات السلام والحب الأخوى لعيسو. وقال له: أهذه هى مواساتك التى جئت تواسينى بها وتعزينى فى مصابى فى زوجتى التى اختطفها الموت؟ أهذا هو القسم الذى أقسمته مرتين لأبيك ولأمك قبل موتهما؟ لقد حنثت فى قسمك وأُدِنْتَ فى الوقت الذى حلفت فيه لأبيك. ولكن عيسو أجابه قائلاً: لا أحد من بنى البشر ولا من بهائم الأرض يُقْسم قَسَمًا ويوفى به إلى الأبد، فإنهم يقترفون الشر فى كل يوم بعضهم ضد بعض، وعندما يكونون قاصدين عدوا أو عندما يحاولون قتل خصومهم. ولئن بدَّل الخنزير جلده فأصبح ناعمًا مثل الصوف، أو استطاع أن يُنْبت لنفسه قرونًا على رأسه مثل قرون الكبش أو الوَعْل؛ حينها فقط سوف أراعى أُخُوَّتى معك.»

فكَلَّم يهوذا أباه يعقوب قائلاً: إلى متى تظل تتكلم حثيثا بكلمات السلام والود معه؟ أحَتّى يأخذنا على غِرة كعدو، بجنوده المغطين بالدروع ويقدم على ذبحنا.

وعندما سمع يعقوب هذا الكلام التقط قوسه وقتل «هدورام» الأدومى، ثم شد قوسه مرة أخرى فأصاب عيسو فى فخذه. وكان الجرح مميتًا فرفع أبناء عيسو أباهم على ظهر حمار وأتى إلى «هدورام» حيث مات.

وشن يهوذا هجمة واحدة مضادة نحو جنوب القلعة، وكان معه نَفْتالِى وجاد ويؤازرهما خمسون من عبيد يعقوب؛ وذهب لاوِى ودان إلى الشرق ومعهم خمسون عبدًا؛ بينما اتجه رأوبين ويَسَّاكر وزَبُولون مع خمسين عبدا، إلى جهة الشمال، وقصد شمعون وبنيامين وحنوك بن رأوبين مع خمسين عبدًا إلى الغرب. وكان يهوذا بالغ الشجاعة جدًا فى الحرب. فانقض هو ونَفْتالى وجاد على صفوف العدو واستولوا على أحد أبراجهم الحديدية. وانغرست فى تروسهم السهام الحادة التى قُذِفُوا بها، بأعداد بلغت من الضخامة حَدًّ أن الشمس غيّمتها الصخور والقذائف والحجارة التى رموا بها. وكان يهوذا أول من اقتحم صفوف العدو وقتل منهم ستة صناديد، وكان معه نفتالى على يمينه وجاد على شماله، كما جندل كل منهم رجلين؛ بينما قتل كل عبد من عبيدهم رجلاً. ومع ذلك لم يفلحوا فى إزاحة العدو عن جنوب القلعة حتى عندما كرُّوا جميعًا على العدو، يهوذا وإخوته، وكل منهم يلقف رجلاً من العدو ويجندله. ثم فشلوا مرة ثالثة فى هجمة مضادة موحدة، رغم أن كلا منهم جندل هذه المرة رجلين.

وعندما رأى «يهوذا» أن العدو لايزال يُسيطر على أرض المعركة، ومن المستحيل زحزحته عن مكانه، استجمع قواه ودبت فيه روح البطولة. واتحد يهوذا ونفتالى وجاد واخترقوا معًا صفوف العدو، فذبح يهوذا عشرة منهم، بينما قتل كل من أخويه ثمانية. وعندما رأى العبيد ذلك دبت فيهم الشجاعة وانضموا إلى قادتهم وحاربوا إلى جانبهم. وأخذ يهوذا يعصف بهم بضربات

يمنة ويسرة، ويعاونه دائمًا نفتالى وجاد، فاستطاعوا إجبار العدو على التراجع إلى الجنوب مبتعداً عن القلعة. ولكن جيش العدو استفاق وصمد فى شجاعة فى وجه أبناء يعقوب الذين أنهكهم القتال، ولم يعد بإمكانهم مواصلة القتال. عند ذلك أسرع يهوذا يدعو الرب الذى استجاب دعاءه وساعده؛ فأطلق عاصفة من خزائن عواصفه، فهبت فى وجوه العدو وملأت أعينهم ظلامًا؛ فلم يروا كيف يحاربون. ولكن يهوذا وإخوته كانوا يستطيعون أن يروا بوضوح، إذ كانت الريح تهب من خلفهم. وأعمل يهوذا وإخوته فيهم السيف، وحصدوا العدو حصدًا، وكما يحصد الفلاح عيدان القمح ويكومها جانبًا.

وبعدما استأصلوا شأفة الفرقة المخصصة لهم فى الجنوب؛ هرعوا لنجدة إخوتهم الذين كانوا يدافعون عن شرق وشمال غرب القلعة مع ثلاث فصائل. وفى كل جانب كانت الريح تهب فى وجوه العدو ولذلك استطاع أبناء يعقوب استئصال جيش العدو عن آخره وقتل فى المعركة أربعمائة، وفر ستمائة. وكان منهم أبناء عيسو الأربعة: رعوئيل ويعوش ويعلام وقُورَح. ولم يشارك أكبر أبنائه - أليفاز - فى المعركة لأنه كان حوارياً ليعقوب ولذا فلم يكن ليرفع السلاح فى وجهه.

وطارد أبناء يعقوب فلول الجيش الفار حتى «عدورا» حيث ترك أبناء عيسو جثة أبيهم، وواصلوا فرارهم إلى «جبل سِعِير». ولكن أبناء يعقوب باتوا ليلتهم فى «عَدُورا»، ودفنوا جثة عمهم عيسو إكرامًا لأبيهم. وفى الصباح واصلوا مطاردة العدو، وحاصروهم فى «جبل سِعِير» فأتى إليهم أبناء عيسو وجميع من هربوا وسجدوا أمامهم وتوسلوا إليهم بلا انقطاع. إلى أن عَفَوْا عنهم، وعقدوا معهم صلحًا ولكن أبناء يعقوب أخذوا منهم جزية.

c - ذرية عيسو

وكان التقىُّ من بين أبناء عيسو هو أليفاز - بِكْرُه - الذى كان قد تَرَبَّى بعناية جده إسحق، على طريق الهداية. وقد وجده الرب مستحقًا لأن يُنْعَم

عليه بروح النبوة، ويدل على ذلك أن أليفاز بن عيسو ما هو إلا أليفاز النبى، صديق أيوب ـ النبى عليه السلام ـ وكان قد استلهم من حياة الآباء التعاليم التى أقنع بها أيوب فى جداله معه. وقال له أليفاز: أتظن أنك عِدْلُ إبراهيم، وتعجب من أن الرب قد عاملك بمثل ما عومل به جيل «بلبلة الألسنة». ولكن إبراهيم اجتاز اختبار الإغراءات العشر، وأنت تضعفُ إذا لمسك أحد. وعندما يأتيك مريض تواسيه. وللعُمّى تقول: لئن بنيتم لأنفسكم بيوتًا؛ فلسوف تجعلون فيها بلاشك نوافذ ولئن كان الرب قد حرمك من النور، فما ذلك إلا ليتمجد من خلالكم فى اليوم «الذى تتفتح فيه أعينُ العمى». وللصُمِّ تقول: لئن صنعتم إبريقًا؛ فلن تنسوا بدون شك أن تصنعوا له أذنين ولئن كان الرب قد خلقكم بدون أذن، فما ذلك إلا ليمجد من خلالكم فى اليوم «الذى تعود فيه آذان الصُمِّ للسمع».

بهذه الحكمة تحاول مواساة الضعفاء والمعوّقين. ولكن ها أنت قد ابتليت، فاضطربت. وها أنت تقول: أنا رجل صالح، لماذا إذًا يعاقبنى؟ ولكن من ذا الذى ـ قل لى من فضلك ـ قد هلك بريئًا؟ فنوح نُجِّى من الطوفان، وإبراهيم من النار، وإسحق من سكين الذبح، ويعقوب من الملائكة، وموسى من سيف فرعون، وإسرائيل من المصريين الذين أُغرقوا فى البحر. وهكذا سيكون مصير كل شرير». فأجاب أيوب على أليفاز قائلاً: «انظر إلى أبيك عيسو!». ولكن أليفاز أجابه قائلاً: ليس لى شأن به، فلا يجب أن يتحمل الابن وزر أبيه. وليهلِكَنَّ عيسو؛ لأنه لم يفعل حسنات، ولسوف يهلك أمراؤه مثلما هلك. وبالنسبة لى: فأنا نبى، وليست رسالتى إلى عيسو، ولكن إليك أنت، لتقر أفعالك.

ولكن الرب وبّخ أليفاز وقال له: لقد أغلظت القول لعبدى أيوب. ولهذا فلسوف يتلفظ عوبديا ـ وهو من نسلك ـ بنبوءة شؤم ضد بيت أبيك، الأدوميين.

وكانت «تِمْنَة» سَرِّية أليفاز. وكانت أميرة من النسل الملكى، وقد طلبت

الانضمام إلى إيمان إبراهيم ونسله ولكنهم جميعًا - إبراهيم وإسحق ويعقوب - قد رفضوها، فقالت هى: لأن أكون أمة لأراذل هذه الأُمَّة، خير لى من أن أكون سيدة فى أمَّة أخرى. ولذا فقد رضيتُ عن طيب خاطر بأن تكون سَرية لأليفاز. وكعقاب للآباء على طردهم لها، فقد قُدِّرَ لها أن تكون أُمّاً لعماليق الذى سام إسرائيل العذاب العظيم.

وكان لرجل آخر من ذرية أليفاز، هو «عَنَى»، تجربة شديدة الغرابة. فذات يوم كان يرعى حمير أبيه فى البرية، وقادها إلى أحد الصحارى على شواطئ البحر الأحمر، مقابل بريَّة الأُمم، وبينما كان يطعم البهائم؛ هبت عاصفة عنيفة جدّا من الجانب الآخر للبحر، فلم تستطع الحمير أن تتحرك. ثم جاء فجأة مائة وعشرون حيوانا عظيما ومخيفا من البرية الموجودة على الجانب الآخر من البحر، وأتت جميعها إلى المكان الذى كانت فيه الحمير، ووضعت أنفسها هناك. ونصفها السفلى، كانت هذه الحيوانات تشبه البشر، ونصفها العلوى كان بعضها يشبه الدِّببة، والبعض يشبه القرود، وكانت لها جميعًا ذيول خلفها يشبه ذيل النسناس، وتمتد مما بين أكتافها لتصل إلى الأرض. وامتطت تلك الحيوانات ظهور الحمير وساقتها مبتعدة بها، وإلى يومنا هذا لم تقع عليها عين. واقترب أحدها من «عَنَى» وضربه بذيله ثم فَرّ هاربًا.

وعندما رأى «عنى» كل ذلك تملكه الرعب، خوفًا على حياته، وهرب إلى المدينة حيث حكى كل ما حدث له. واندفع كثيرون إلى البرية ليبحثوا عن الحمير، ولكن لم يعثر عليها أحد. ومن يومها لم يذهب «عنى» وإخوته إلى ذلك المكان، إذ كانوا يخافون جدّا على حيواناتهم.

وكان «عَنَى» هذا نتاج زواج محرم: فأمه كانت هى فى الوقت ذاته أم أبيه، «صبِعون». وكما كان هو ثمرة اتحاد غير طبيعى، فقد كان يحاول كذلك إحداث اتحاد غير طبيعى بين الحيوانات. وكان هو أول من هَجَّن الحصان

بالحمار لينتج البغل. وكعقاب له هَجَّن الرب الثعبان بالعظاة لينجبا العظاءة السامة، ذات العضة القاتلة، مثل عضة البغلة البيضاء.

وكان لذرية عيسو ثمانية ملوك قبل أن يكون هناك أى ملوك يحكمون على بنى إسرائيل. ولكن جاء زمان كان لبنى إسرائيل فيه ثمانية ملوك لم يكن فى أيام حكمهم يُوجد للأدوميين أى ملوك، إذ كانوا خاضعين لملوك بنى إسرائيل وكان ذلك فى الفترة الفاصلة بين حكم «شاؤول»، أول الملوك الإسرائيليين الذين حكموا أدوم، و «يهوشفاط»، إذ لم تستقل أدوم عن حكم بنى إسرائيل إلى عهد «يَهُورَام» بن يَهُوشفاط. وكان هناك فرق بين ملوك نسل عيسو وملوك نسل يعقوب. فقد كان ملوك بنى إسرائيل يخرجون دائمًا من وسطهم، بينما كان الأدوميون يلجأون إلى الأُمم الأخرى بحثًا عن ملوك لهم. وكان أول ملك أدومى هو «بَلْعام الأرامى»، والملقب «بَلَعْ» أيام حكمه لأدوم. أما خليفته «أيوب»، ويقال له أيضًا «يوباب» فقد جاء من «بُصْرة». ولسوف تعاقب هذه المدينة فى مستقبل الأيام[1]؛ لأنها زودت أدوم بملك وعندما يجلس الرب للحكم على أدوم، ستكون «بُصْرَة» أول من يعاقب.

وكانت فترة حكم أدوم قصيرة، بينما سيدوم حكم بنى إسرائيل إلى الأبد، إذ أن حكم «المَسِيًّا» المثالى سيدوم إلى أبد الآبدين.

وبعد

فنحن نبرأ من كل ما فيه إساءة إلى رب العالمين أو إلى أنبيائه الكرام أو ملائكته العظام

تم المجلد الأول بعون الله

ويتلوه المجلد الثانى بإذنه تعالى

---

(١) يقصد على يد محمد ﷺ فى «يوم الرب».

فهرس الكتاب

2

أساطير اليهود

أحداث وشخصيات العهد القديم

من يوسف إلى الخروج



لويس جنز برج

ترجمة: حسن حمدي السماحي



2

أساطير اليهود

أحداث وشخصيات العهد القديم

من يوسف إلى الخروج

اسم الكتاب : أساطير اليهود جـ ٢

اسم المؤلف : لويس جنز بيرج

ترجمة : حسن حمدى

المراجعة اللغوية والتدقيق : طه عبدالرؤوف سعد

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية : ٢٢٢٢١/٢٠٠٦

الترقيم الدولى : I.S.B.N. 977 - 376 - 221 - 1

تطلب كافة منشوراتنا :

حلب : دار الكتاب العربى ـ الجميلية أمام مسرح نقابة الفنانين ـ ت: ٢٢٥٦٨٧٠

دمشق : مكتبة رياض العلبى ـ خلف البريد ـ ت : ٢٢٣٦٧٢٨

مكتبة النورى ـ أمام البريد ت : ٢٢١٠٣١٤

مكتبة عالم المعرفة ـ جسر فيكتوريا ت : ٢٢٢٨٢٢٢

مكتبه الفتال ـ فرع أول ـ ت: ٢٤٥٦٧٨٦

فرع ثانى ـ ت : ٢٢٢٢٣٧٣

الطبعة الأولى ٢٠٠٧





E-mail:darkitab2003@yahoo.com

سوريا ـ دمشق ـ الحجاز ـ شارع مسلم البارودى هاتف: ٢٢٣٥٤٠١ ص. ب ٣٤٨٢٥ فاكس : ٢٢٤٧٢٩٧

مصر ـ القاهرة ـ ٥٢ شارع عبدالخالق ثروت ـ شقة ١١ تلفاكس : ٣٩١٦١٢٢

لبنان ـ تلفاكس : ٤٣٤١٨٦ / ٠٥ ـ تليفون : ٦٥٢٢٤١ / ٠٣ ـ ص. ب ٣٠٤٣ الشويفات

أساطير اليهود

أحداث وشخصيات العهد القديم
من يوسف إلى الخروج

◆

لويس جنزبيرج

◆

الناشر
دار الكتاب العربي
دمشق - القاهرة



الكتاب الأول: يوسف

يوسف الابن المفضَّل

لم يكن يعقوب استثناءً من المُقَدَّر لكل المُتَّقين الذين ما يكادون يفكرون فى الاستمتاع بحياتهم فى هدوء وسكينة، إلا ويعكر الشيطان صفو حياتهم. وقد ظهر الشيطان أمام الرب وقال: «أما يكفى أن العالم الآتى مخصص للمتقين؟ بأىِّ حق إذًا يستمتعون بهذا العالم؟».

وبعد المشاق والصراعات الكثيرة التى اعترضت طريق يعقوب، ظن أنه سينعم أخيرًا بالراحة، فابتُلى بفقد يوسف وما تلاه من معاناة فظيعة. وحقاً، لقد كانت قليلة ونَكِدَةً هى أيام سنى حج يعقوب، إذ بدا له الوقت الذى قضاه خارج الأرض المقدسة كئيبًا. وفقط تلك الفترة من حياته التى قضاها فى أرض آبائه مشغولاً بتحويل الناس إلى ملة إبراهيم وإسحاق، وعلى منهاجيهما الذى أرياه إياه، تلك الفترَة فقط هى التى كان يراها حقيقة بأنه يعيشها، وكانت تلك الفترة سعيدة قصيرة العمر. فعندما اختطف يوسف من أحضان أبيه، لم يكن مَرّ حينها سوى ثمان سنوات على عودة يعقوب إلى بيت أبيه.

ومن أجل يوسف وحده كان يعقوب على أتم استعداد لتَحَمُّل كل المشاكل والخصومات التى صاحبت إقامته فى بيت لابان. وفى الحقيقة، لقد كانت البركة التى حَلَّت على يعقوب وملأت جعبته بالأطفال، ترجع أساسًا إلى سجايا يوسف، وكذلك كان انفلاق البحر الأحمر ونهر الأردن ليعبرهما

الإسـرائيليـون إثابة ليـعـقـوب على تقـوى ابنه. إذ من بين أبنـاء يعـقـوب كـان يوسف أقـربهـم شبـهًا بأبيـه، كذلـك كان هـو الوحيـد الذى وَرَّثه يعـقـوب العلم والحكمـة اللتين تلقـاهمـا من مُـعَلِّمَيْـهِ سـام وعيـبـر. وكـانـت حيـاة الابن كلها تكرارًا لحياة أبيه. فكما ظلت أم يعقوب مدة طويلة عاقرًا بعد زواجها، كذلك كانت أم يوسف. وكمـا عـانت «رفقة» آلامًا فظيعـة عند ولادة يعقوب، كذلك عانت مثلهـا راحيل عند ولادتها ليوسف. وكما ولدت أم يعقوب ابنين، كذلك ولدت أم يوسف ابنين. وكمـا ولد يعقوب مـختونًا، وُلد يوسف مختونًا. وكمـا كان الأب راعى غنم، كذلك كان الابن. ومثلمـا فـعل الأب، فإن الابـن استولى على حق البكورة من أخيه الأكبـر. وكمـا كان الأب مكروهًا من أخيـه، كذلك كان الابـن مكروهًا من إخوته. وكـان الأب هو الابن المفضل على أخيه، كذلك كـان الابن هو المفـضل على إخـوتـه. وعـاش الأب والابـن كـلاهمـا فى أرض الغرباء. وأصبح الأب خـادمًا لسيد، وكذلك الابن. وكما حلت بركة الرب على السيد الذى كان الأب يخدمه، كذلك بورك السيد الذى خدمه الابن. وكان الأب والابن كلاهمـا ترافقـهمـا الملائكة، وتزوج كُلٌّ منهمـا من زوجتـه خـارج الأرض المقـدسـة؛ وبورك الأب والابـن بالثـروات. وأوحى إلى الأب فى منامـه عن أشيـاء عظيمـة، وكذلك حدث للابن. وكما ذهب الأب إلى مصـر ووضع حـدًّا للمـجـاعـة، كـذلك فـعل الابن. وكـمـا وصَّى الأب أبناءه بأن يدفنوه فى الأرض المقـدسـة، كـذلك وصَّى الابن أبنـاءه بأن يدفنوه فـيـه ومـات الأب فى مصـر حيث مـات الابن كذلك. وتم تحنيط جثة الأب، وكـذلك حـدث لجـثة الابن. وكما حملت رفات الأب إلى الأرض المقدسة لتدفن فيها، كذلك حدث لرفـات الابن. وكمـا أعـال يعقـوب الأب ابنه يوسف طوال سـبع عشـرة سنة، كذلك أعال الابن يوسف أباه يعقوب طوال سبع عشرة سنة.

وظل يوسف يتردد على «بيت ها ميدراش» حتى بلوغه السابعة عشرة، وأصبح على درجة من العلم مكَّنَته من أن يُفْضى إلى إخوته «بالهلخوت» (أى شروحات النصوص الدينية) التى سمعها من أبيه، وبهذه الطريقة فهو يعتبر

معلمهم. ولم يقف عند حدود التعليم الشكلى، بل حاول كذلك أن ينصحهم النصيحة النافعة، وأصبح هو المفضل من بين أبناء الجوارى، الذى كان أبوه يقبله ويحتضنه.

وبالرغم من علمه، فقد كان هناك طابع صبيانى فى يوسف، فقد كان يلوِّن عينيه ويعتنى بشعره ويسير بمشية متكلفة. ولم تكن هذه النزوات الشبابية فى مثل بشاعة عادته فى ذكر الأخبار السيئة عن إخوته لأبيه - وكان يتهمهم بزوغان أبصارهم على بنات الكنعانيين، ومعاملة أبناء الجاريتين بِلَهَة وزِلْفَة باحتقار وبأنهم كانوا يصفونهم بالعبيد.

وكان على يوسف أن يدفع ثمن هذه الافتراءات غاليًا - فقد بيع هو نفسه عبدًا، لأنه اتهم إخوته بأنهم يصفون أبناء الجاريتين بالعبيد، واشتهته زوجة «فوطيفار» لأنه أثار الشك حول إخوته بأنهم ينظرون فى شهوة إلى النساء الكنعانيات. أما عن اتهامهم بالقسوة فى معاملتهم للحيوانات، فإن هشاشته تظهر من حقيقة أنهم - فى ذات اللحظة التى كانوا يخططون فيها لارتكاب جريمتهم تجاه يوسف - قد راعوا كل التعاليم والشعائر الخاصة بذبح العنزة التى لطخوا بدمها قميصه الملون بألوان كثيرة.



إخوة يوسف يكرهونه

إن نميمة يوسف فى حق إخوته جعلتهم يكرهونه. وكان «جاد» أشدهم حنقًا عليه، ولسبب وجيه كذلك. كان «جاد» رجلاً شجاعًا للغاية، وعندما كان يهاجم القطيع الذى كان يتولى حراسته ليلاً حيوان مفترس، كان يمسكه من إحدى أقدامه ويطوحه حتى يصاب بالدوار ثم يقذف به إلى مسافة تبلغ قرابة المئتى متر، فيقتله بهذه الطريقة.

وذات مرة أرسل يعقوبُ يوسف ليرعى القطعان، لكنه لم يتغيب سوى ثلاثين يومًا، إذ كان فتى رقيقًا وأعيته حرارة الشمس فأسرع بالعودة إلى أبيه.

وعندما عاد أخبر أباه أن أبناء الجاريتين اعتادوا ذبح أفضل ماشية القطيع وتناول لحومها، دون أن يستأذنوا يهوذا أو رأوبين. لكن كلامه لم يكن دقيقًا. فقد كان ما رآه هو «جاد» وهو يذبح حملاً، كان قد خلَّصه من بين براثن دب، فذبحه لأنه ما كان يجب أن يبقى حيا بعد الفزع الذى تملَّكه. وكانت وشاية يوسف تَرْسمى إلى التلميح بأن أبناء الجاريتين لا يراعون مال أبيهم ويفرطون فيه.

وأضيف إلى مقت إخوة يوسف حسدهم له، لأن أباه كان يحبه أكثر منهم جميعًا.

وكان جمال طلعة يوسف يعادل جمال أمه «راحيل»، وكان يعقوب كلما نظر فى وجهه يتعزى فى وفاة زوجته الحبيبة.

وكان ذلك سببًا كافيًا لأن يميزه على إخوته. وكأمارة على حبه الكبير له، أعطى يعقوب ليوسف قميصًا ملونًا بألوان كثيرة، وكان خفيفًا ورقيقًا لدرجة أنه يمكن طيه وإخفاؤه فى قبضة يد واحدة.

واسم ذلك القميص بالعبرية «فَسِّيم» يرمز لقصة بيع يوسف ـ فالحرف الأول «فى» يرمز لفوطيفار، سيده المصرى؛ و«سامخ» (= السين) يشير إلى «الصحاريين» أو التجار الذين اشتروا يوسف من جماعة الاسماعيليين الذين اشتروه من إخوته، و «اليود» (= الياء) يشير إلى هؤلاء الإسماعيليين (= العرب)؛ والميم يرمز إلى المديانيين الذين اشتروه من التجار ثم باعوه لفوطيفار. لكن «فسِّيم» لها معنى آخر كذلك، وهو «الصدوع» ـ فقد كان إخوته يعرفون أن البحر الأحمر سينصدع نصفين فى قادم الأيام إكرامًا ليوسف، وكانوا يحسدونه على تلك الكرامة التى ستمنح له.

ورغم أنهم كانوا مملوئين مقتًا له، فلا يجب أن يفوتنا أن نذكر لهم أنهم لم تكن طبيعتهم منافقة مقيتة. فلم يخفوا مشاعرهم تجاهه وأعلنوا كرههم له على الملأ.

ذات مرة رأى يوسف حلمًا فى منامه ولم يستطع أن يمنع نفسه من إخبار إخوته به. وكلمهم وقال لهم: «ليتكم تستمعون إلى هذا الحلم الذى حلمته. رأيتكم تجمعون الفاكهة، وكذلك فعلت أنا مثلكم.

ورأيت فاكهتكم قد تعفنت لكن فاكهتى ظلت سليمة. ورأيت ذريتكم تنصب تماثيل بكماء للأصنام، لكنها ستتلاشى عند ظهور حفيدى، مسيا يوسف. وسوف تحجبون عن أبى حقيقة ما حدث لى، لكننى سأصمد جزاءً لأمى على إنكارها لذاتها، وسوف تخرون لى سجدًا خمس مرات».

فى البداية رفض إخوته الاستماع إلى حلمه، لكن عندما ألح عليهم يوسف المرة بعد المرة، استمعوا له وقالوا:

ـ «أحقا ستحكمنا؟ أم ستكون لك حقا السيادة علينا؟»

وهكذا أجرى الرب على ألسنتهم كلامًا سيتحقق فى ذرية يوسف. فمن ذريته سيكون «يَرْبُعَام» و «يهوه»، وهما مِلكين، و «يوشع» و«جَدْعُون» قاضيان، فى تأويل للتأكيد المضاعف الذى ورد على ألسنة إخوته تفسيرًا لحلمه.

ثم رأى يوسف حلماً آخر، إذ أن الشمس والقمر وأحد عشر نجمًا سجدوا له، وقد سُرَّ يعقوب كثيرًا بهذا الحلم، فقد حكاه له أولاً، وفهم يعقوب تأويله الصحيح. وكان يعلم أنه هو المقصود بالشمس، فقد ناداه الرب مُسَمِّياً إياه الشمس عندما بات ليلة عند موقع الهيكل.

وكان قد سمع الرب يقول للملائكة فى ذلك الوقت:

«ها هو الشمس قد جاء».

أما القمر فكانت ترمز لأم يوسف، والنجوم إخوته؛ فالصالحون هم كالنجوم.

وكان يعقوب مقتنعًا بحقيقة الحلم جدا لدرجة أنه تشجع على الاعتقاد بأنه سيعيش حتى يرى بعث الرب للموتى، فقد كانت راحيل ميتة، وكان الحلم يشير فى وضوح إلى عودتها إلى الأرض. وكان مخطئًا فى ذلك، فلم يكن الحلم يشير إلى أم يوسف التى ولدته، بل إلى أمه التى ربته، بِلْهَة.

سجل يعقوب الحلم فى كتاب، وسجل كل ظروفه، اليوم والساعة والمكان، إذ كان الروح المقدس قد حذره قائلاً:

«انتبه، كل هذه الأشياء لابد ستتحقق».

لكن عندما كرر يوسف حلمه على مسامع إخوته فى حضرة أبيه، وبَّخه يعقوب قائلاً:

- «أن نسجد لك أنا وإخوتك فهذا معقول، لكن أنا وأمك! كيف يمكن أن يحدث ذلك وأمك قد ماتت!!»

وبسبب هذه الكلمات عاتب الربُّ يعقوبَ قائلاً:

«هكذا فإن ذريتك فى قادم الأيام سيحاولون منع «إرميا» من إيصال نبوءاته». وقد يكون يعقوب معذورًا فى ذلك فقد كان يحاول ـ بكلامه له بهذه الطريقة ـ أن يدفع حسد وكراهية إخوة يوسف له، لكنهم حسدوه وكرهوه لأنهم كانوا يعلمون أن تأويل يعقوب للحلم سوف يتحقق.



يوسف يُلقى فى البئر

ذات يوم ساق إخوة يوسف قطعان أبيهم إلى مراعى «شِكِيم»، وكان فى نيتهم أن يرتاحوا ويمرحوا هناك. وظلوا متغيبين فترة طويلة ولم تصل أخبار عنهم. وبدأ القلق يساور يعقوب على مصير أبنائه وكان يخشى أن تكون الحرب نشبت بينهم وأهل شكيم، وعزم على أن يرسل يوسف إليهم ثم يعود فيخبره بأمرهم وإن كان إخوته بخير.

كذلك كان يعقوب يريد الاطمئنان على قطعانه، إذ يجب على المرء أن يهتم بأحوال أى شىء يجلب له نفعًا.

ورغم أن يوسف كان يعلم أن كراهية إخوته له قد تجلب عليه الضرر، فإنه، وبدافع البر والطاعة لأبيه، أعلن استعداده التام لعمل ما أمره به أبوه - وفيما بعد، كان يعقوب كلما تذكر إسراع يوسف بتنفيذ طلبه، كانت الذكرى تخز قلبه بألم شديد.

وكان يقول لنفسه «سمعًا وطاعة يا أبتاه»!!.

أرسل يعقوب يوسف بعد أن أكد عليه بألا يسير إلا بالنهار، وقال له كذلك: «الآن فاذهب وتحسس من خبر إخوتك وخبر القطيع ثم أرسل إلىَّ الأخبار» وكانت تلك منه نبوءة غير واعية، فلم يقل أنه يتوقع رؤية يوسف مرة أخرى، ولكن أن يسمع منه الأخبار فقط.

ومنذ عهد الأجزاء، كان الرب قد قرر - بسبب أسئلة إبراهيم المرتابة -

أن ينزل يعقوب وعائلته إلى مصر ليقيموا فيها.

وما كان تفضيل أبى يوسف له على إخوته وما أثاره ذلك من حسدهم له، ما أدى فى النهاية إلى بيع يوسف واستقراره فى مصر، ما كان ذلك كله إلا حيلة احتالها الرب، بدلاً من أن ينفذ نصيحته مباشرة عن طريق حمل يعقوب إلى مصر أسيراً.

وصل يوسف إلى شكيم حيث كان يتوقع أن يجد إخوته. ولطالما كانت شكيم مكانًا شؤمًا على يعقوب وذريته، فهناك اغْتُصِبت «دينة»، وهناك تمردت «عشر قبائل» من إسرائيل ضد بيت «داوود» أثناء مُلْكِ «رحبعام» فى أورشليم، وهناك نُصِّبَ «يَرُبْعام» ملكًا.

وعندما لم يجد يوسف لا إخوته ولا القطيع فى شكيم، واصل رحلته باتجاه المرعى التالى، ولم يكن يَبْعُدُ كثيرًا عن شكيم، لكنه تاه فى البرية. وظهر أمامه جبريل فى صورة إنسان، وسأله: «عَمَّ تبحث؟» فأجابه قائلاً: «أبحث عن إخوتى». فأجابه الملاك: «لقد هجر إخوتك طباع الحب والرحمة الإلهية. وبالإلهام علموا أن الحيفيين (أهل حيفا) يتجهزون لحربهم، ولذا فقد رحلوا من هنا قاصدين «دوثان». كما كان عليهم أن يتركوا هذا المكان لأسباب أخرى كذلك.

فقد سمعتُ ـ بينما أنا واقف خلف الستائر التى تخفى العرش الإلهى ـ أنه فى هذا اليوم سيبدأ الاستعباد المصرى، وستكون أنت أول من يقع فيه». ثم قاد جبريلُ يوسف إلى «دوثان».

عندما رآه إخوته قادمًا من على البعد، تآمروا ضده ليقتلوه.

وكانت خطتهم الأولى أن يطلقوا الكلاب عليه.

ثم قال شمعون للاوى: «انظر! ها هو سيد الأحلام قد أتانا بحلم جديد، وهو الذى سيبتدع حفيده «يربعام» عبادة «بَعْل». لذا هيا بنا فلنقتله،

ولنَرَ ما سيحدث لأحلامه».

لكن الرب قال: «لقد قلتَ، سوف نرى ماذا سيحدث لأحلامه، وأنا أقول: سنرى، ولسوف نرى فى المستقبل كلمة أيِّنا التى ستتحقق، كلمتك أم كلمتى أنا». هَمَّ شمعون وجاد بذبح يوسف فخَرَّ على وجهه وناشدهما قائلاً:

«ارحمونى يا إخوتى، وارفقوا بقلب أبيكم يعقوب. لا تمدوا إلىَّ أيديكم، لتسفكوا دمًا بريئاً، فلم أصنع بكم شرا، وإن كنت صنعت بكم شرا، فعاقبونى بأية عقوبة ترون، لكن لا تبسطوا أيديكم إلىَّ بالسوء، من أجل أبينا يعقوب».

وأثَّرت هذه الكلمات فى «زبُّولون» فبدأ ينوح ويبكى، واختلط نحيبه بنحيب أخيه يوسف وتصاعد بكاؤهما، وعندما رفع جاد وشمعون أيديهما لينفِّذا المخطط الشرير الذى أضمراه له، احتمى يوسف خلف زبولون، وتوسل إلى إخوته الآخرين أن يرحموه.

ثم نهض رأوبين وقال:

«يا إخوتى دعونا لا نقتله بل لنلقِهِ فى إحدى الحُفَر الجافة التى حفرها أبونا فلم يجد بها ماءً». وكان ذلك من عناية الرب به، إذ كان الرب قد حَال دون انبعاث الماء من هذه الحُفَر لكى ينجوَ يوسف، وظلت تلك الحفر جافة حتى صار يوسف فى مأمن فى أيدى الإسماعيليين (= العرب).

وكان لدى رأوبين أسباب عديدة للتوسط لمصلحة يوسف. فقد كان يعلم أنه لو حدث له أى مكروه، فلسوف يكون هو نفسه مسؤولاً عن ذلك أمام أبيه باعتباره أكبر إخوته.

كما كان رأوبين شاكرًا ليوسف أنه عَدَّه من بين أبناء يعقوب الأحد عشر عندما قص عليهم حلمه عن الشمس والقمر والنجوم.

ومنذ تصرفه الشائن تجاه يعقوب، لم يكن رأوبين يَعُدُّ نفسه واحدًا من أبنائه. وفى البداية حاول رأوبين أن يمنع إخوته عن تنفيذ مخططهم،

وخاطبهم بكلمات ملؤها الحب والرحمة.

لكن عندما رأى أنه لا كلماته ولا توسلاته قادرة على جعلهم يغيِّرون ما انتووه، توسل إليهم قائلاً: «يا إخوتى، على الأقل أنصتوا إلىَّ فى هذا، ولا تكونوا من الشر والقسوة إلى درجة تجعلكم تذبحونه. لا تضعوا أيديكم على أخيكم، لا تسفكوا دمه، ألقوه فى ذلك الجب فى تلك البرية، ودعوه وشأنه فيموت به».

ثم انصرف رأوبين عن إخوته واختبأ فى الجبال، ليستطيع العودة فى اللحظة المناسبة ويخرج يوسف من الجب ويعيده إلى أبيه وكان يتمنى أن يكافئه أبوه على ذلك بأن يغفر له تصرفه الشائن معه من قبل. ومع أنه لم يستطع تنفيذ نيَّته الحسنة، فإن الرب كافأ رأوبين، فالرب لا يثيب على الأعمال الحسنة فقط، ولكن على النوايا الطيبة كذلك. ولأنه كان أول من حاول إنقاذ يوسف من أبناء يعقوب، فإن مدينة «بَاصِر» فى قبيلة رأوبين كانت أول المدن التى خصصت لإنقاذ حياة الأبرياء الباحثين عن ملاذ. كذلك كلم الرب رأوبين قائلاً:

«كما كنتَ أول من سعى لإعادة طفل إلى أبيه، فإن «هوشيا» سيكون كذلك، وهو من ذريتك، أول من يسعى لإعادة إسرائيل إلى أبيه السماوى».

وافق إخوة يوسف على اقتراح رأوبين وأمسك شمعون بيوسف وألقاه فى جب يفور بالثعابين والعقارب، كان يوجد بجانبه جب آخر غير مستعمل ويمتلئ بالجيف. ثم أمر شمعون إخوته أن يرجموا يوسف بالحجارة وكأن كل ذلك لم يكن كافياً وفيا بعد، عندما التقى يوسف أخاه شمعون هذا، أظهر تجاهه كل ما طُبع عليه من صفح وتسامح. فعندما سُجنَ شمعون فى مصر أسيرًا، فإن يوسف، بأبعد ما يكون عن حمل الضغائنَ تجاهه، أمر أن تقدم له فى كل حياته الدجاجات المحلاَّة بالقشدة.

ولم يكتفِ إخوة يوسف بإلقائه وسط الثعابين والعقارب، وإنما جرَّدوه من جميع ثيابه قبل أن يلقوا به فى البئر. وخلعوا عنه بُرْدَته المبهرجة ورداءه وسراويله وقميصه. ومع ذلك فلم تستطع الزواحف إيذاءه، فقد سمع الرب استغاثته النائحة وأمر تلك الزواحف أن تختبأ فى جحورها وشقوقها، فلم تستطع إيذاءه. ومن أعماق الجب ناشد يوسف إخوته قائلاً: «ماذا فعلت لكم يا إخوتى وفيم أخطأت؟ لماذا لا تخافون أن يسألكم الرب عمَّا فعلتموه بى؟ ألست من لحمكم ودمكم؟ أليس يعقوب أبوكم، أبى أنا أيضًا؟ لماذا تتصرفون بهذه الطريقة معى؟ وكيف ستقدرون على النظر فى عينى يعقوب؟ يا يهوذا! يا رأوبين، يا شمعون، يا لاوى، يا إخوتى.. أخرجونى من هنا أتوسل إليكم، أخرجونى من هذا المكان الحالك الذى ألقيتمونى به. حتى وإن كنت أخطأت فى حقكم، ألستم أبناء إبراهيم وإسحق ويعقوب الذين كانوا رحماء باليتامى وأطعموا الجياع وكسوا العُرْى؟ كيف لكم إذًا أن تمنعوا شفقتكم عن أخيكم، لحمكم ودمكم؟ حتى وإن كنت أخطأت فى حقكم، فاستجيبوا لتوسلاتى لأجل خاطر أبى. يا ليت أبى يعلم بما يفعله بى إخوتى، وبما قالوه لى!».

ولكيلا يسمعوا بكاء يوسف ونواحه، ابتعد إخوته عن الجُبِّ ووقفوا على مرمى حجر منه. وكان زبولون هو الوحيد من بينهم الذى أظهر عطفًا نحوه، فقد ظل لا يمس طعامًا طوال يومين وليلتين لحزنه على المصير الذى لاقاه أخوه يوسف، الذى كان عليه أن يظل بالجب ثلاثة أيام بلياليها قبل أن يباع. وخلال هذه الفترة كلف إخوة يوسف زبولون بمراقبة الجب. وقد اختاروه لحراسته لأنه لم يكن يشاركهم طعامهم. وقد أحجم يهوذا لبعض الوقت عن مشاركتهم الطعام، وتناوب الحراسة مع زبولون، إذ كان يخشى أن يقفز جاد وشمعون إلى البئر ويقضيا على يوسف.

وبينما كان يوسف ملقيًا فى الجب يكابد الآلام، عزم إخوته على قتله - وقالوا لأنفسهم أنهم سينتهون من طعامهم أولاً ثم يخرجونه ويذبحونه. وعندما انتهوا من طعامهم حاولوا أن يتباركوا بالشكر، فوبخهم يهوذا قائلاً:

«أنكون على وشك قتل إنسان، ومع ذلك ننتظر بركة الرب؟! ما هذا بشكر، بل إنه ازدراء للرب. فيم سيفيدنا قتل أخينا؟ بل ستحل علينا عقوبة الرب. عندى نصيحة جيدة لكم. ها هم جماعة من الإسماعيليين قادمون فى طريقهم إلى مصر. هيا بنا نبعه إلى الإسماعيليين ولا تضع أيدينا عليه. سيأخذه الإسماعيليون معهم فى رحلتهم، وسوف يضيع وسط أهل الأرض لنتبع حكمة الماضى، إذ أن كنعان بن حام بيع هو كذلك عبدًا بسبب شروره، ولنفعلن نفس الشىء مع أخينا يوسف».



بيـع يوسـف

بينما كان إخوة يوسف يتجادلون فى مصيره، مر سبعة تجار مديانيين بقرب الجب الذى كان يرقد به. ولاحظوا أن الطيور كانت تحوم فوقه، فظنوا أن به ماءً، ولأنهم كانوا عطشى فقد هرولوا ناحيته لعلهم يروون ظمأهم. وعندما اقتربوا منه سمعوا يوسف يصرخ وينوح، فنظروا فى الجب ورأوا شابًا جميل الطلعة حَسَنَ الهيئة. نادوه قائلين: «من أنت وما الذى أتى بك إلى هنا، ومن ألقاك فى هذا الجب فى هذه المفازة؟!» وتعاونوا جميعًا فأخرجوه وأخذوه معهم عندما واصلوا رحلتهم. وكان عليهم أن يمروا فى طريقهم بإخوته الذين نادوا المديانيين قائلين: «لماذا فعلتم هذا؟ كيف تسرقون عبدنا وتأخذونه معكم؟ لقد ألقينا الغلام فى البئر لأنه عاص لنا. هيا أعيدوا لنا عبدنا». أجابهم المديانيون: «ماذا؟ أتقولون أن هذا الغلامً هو عبدكم وخادمكم؟ بل لابد أنكم أنتم عبيده، لا هو عبدكم، فهو يفوقكم جميعًا جمالاً فى الطلعة وبهاءً فى الثغر وحسنًا فى المظهر. لِمَ إذًا تكذبون علينا؟ لن نسمع لكلامكم ولن نصدقكم، لأننا وجدنا الغلام فى هذه الصحراء وداخل جب، ونحن الذين أخرجناه ولسوف نأخذه معنا فى رحلتنا». لكن أبناء يعقوب أصروا قائلين: «أعيدوا إلينا عبدنا وإلا أعدناه بسيوفنا ورقابكم».

لكن ذلك لم يُخِفْ المديانيين الذين استلوا سيوفهم وأطلقوا صيحات الحرب واستعدوا لقتال أبناء يعقوب. ثم هب شمعون واقفًا شاهرًا سيفه وأطلق صيحة ارتجت لها الأرض. سقط المديانيون أيضًا مذعورين، بينما قال

هو لهم: «أنا شمعون بن يعقوب العبرى.. أنا من دمرت مدينة شكيم وحدى ودون عون من أحد، ودمرت مع إخوتى مدن العموريين. وليفعلن الرب ذلك وأكثر منه، ولو اجتمع كل المديانيين إخوتكم وانضم إليهم كل ملوك الكنعانيين ليحاربونى، فلن يستطيعوا الصمود فى وجهى. الآن أعيدوا لنا الصبى الذى أخذتموه منَّا وإلا جعلت جيفكم طعامًا لطيور السماء ولوحوش الأرض».

وخاف المديانيون من شمعون خوفًا عظيمًا ثم كلَّموا أبناء يعقوب لا تطاوعهم الشجاعة من الذعر والرعب، وقالوا لهم: «أما قلتم أنكم ألقيتم هذا الغلام فى الجب لأن روحه متمردة؟ فماذا ستفعلون الآن بعبد آبق؟ أفضل لكم أن تبيعوه لنا، ونحن على استعداد لدفع ما شئتم فيه من ثمن». وكان كلامهم هذا جزءًا من مشيئة الرب، فقد ألقى فى قلوب المديانيين الإصرار على امتلاك يوسف، لكيلا يبقى مع إخوته فيذبحوه. ووافق إخوته، وبيع يوسف عبدًا بينما عادوا هم يكملون طعامهم. وتكلم الرب قائلاً: «لقد بعتم أخاكم وأنتم تتناولون طعامكم، فَليبيعَنَّ «أحشويروش» إخوتكم بهذه الطريقة إلى «هامان» وهو يتناول طعامه، ولأنكم بعتم يوسف عبدًا، فلتقولون عامًا بعد عام «لقد كنا عبيدًا لفرعون فى مصر».

وكان الثمن الذى دفعه المديانيون فى يوسف عشرين قطعة من الفضة، تكفى ثمن حذاء لكل واحدٍ من إخوته. وهكذا «باعوا الصالح لقاء الفضة، والمساكين لقاء حذاء». وبالنسبة لشاب فى جمال يوسف فقد كان الثمن الذى دُفع فيه شديد البُخْس، لكن سحنته كانت تغيرت كثيرًا من الألم الفظيع الذى عاناه فى الجب مع الثعابين والعقارب. وذهبت نضارة بشرته، وبدا شاحبًا هزيلاً، وكان المديانيون على حق فى شرائه بهذا الثمن البخس.

عندما مَرَّ المديانيون على يوسف فى البئر، كان عريانًا إذ كان إخوته قد جرَّدوه من جميع ملابسه. ولكيلا يظهر أمام الناس فى هيئة مزرية، أنزل له الربُّ جبريل فكبَّر التعويذة التى كانت تتدلى من عنق يوسف حتى صارت ثوبًا ستر بدنه كله. ونهض إخوة يوسف ليروه وهو يغادر مع المديانيين، ولما

رأوه مرتديًا ثيابًا صاحوا بالمديانيين قائلين: «هاتوا ثيابه فقد بعناه لكم عريانًا بلا ثياب!» لكن سادته الجدد رفضوا طلبهم، لكنهم وافقوا على أن يعوضوهم عنها بأربعة أحذية، واحتفظ يوسف بثوبه الذى ظل مرتديًا إياه عندما دخل إلى مصر وبيع إلى «فوطيفار»، وهو نفسه الثوب الذى كان يرتديه عندما ألقى به فى السجن، وهو نفسه الذى مَثُل أمام فرعون به، كما كان هو نفسه الثوب الذى ارتداه وهو يحكم مصر.

وعلى سبيل التكفير عن العشرين قطعة فضة التى أخذها إخوة يوسف ثمنًا له، أمر الرب أن يأخذ الكاهن نفس المبلغ عن كل ابن بكر، كما أمر بأن يدفع كل إسرائيلى إلى الكنيس سنويا ما يساوى نصيب كل واحد من إخوة يوسف من الثمن(*).

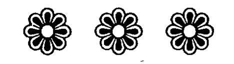
واشترى إخوة يوسف بالمال أحذية، إذ قالوا: «لن نأكل بها، لأنها ثمن دم أخينا، لكن سوف نطأه بأقدامنا لأنه قال أنه سوف يسودنا، وسوف نرى ماذا ستصير إليه أحلامه». ولهذا السبب فقد صدر المرسوم (الكنيسى) الذى يقضى بأن كل من يرفض أن يخلِّد ذكر أخيه الإسرائيلى الذى مات دون أن ينجب ابنًا(**)، فلسوف يُخْلَعُ عنه حذاؤه ويركب الناس على ظهره. ورفض إخوة يوسف أن يفعلوا أى شىء لينقذوا حياته، ولذا فقد خلع الرب عنهم أحذيتهم، إذ أنهم كلما نزلوا إلى مصر خلع عنهم عبيد يوسف أحذيتهم وهم يدخلون من بواباتها، وسجدوا أمام يوسف وكأنهم يسجدون لفرعون، ثم ركل الناس فوق ظهورهم وهم ساجدون وصاروا أضحوكة للمصريين.

واصل المديانيون رحلتهم إلى «جلعاد» لكنهم سرعان ما ندموا على الشروة التى اشتروها. فقد خافوا من أن يجده أقاربه معهم فيقتلوهم لاستعبادهم لرجل حر. كما أن الطريقة المريبة التى باعه بها إخوة يوسف لهم قد أكدَّت شكوكهم تجاههم فى أنهم قادرون على سرقة الناس. كما أن فعلتهم الشريرة

(*) وسيلة ممتازة للنصب وأكل أموال الناس (!!!).

(**) ربما عن طريق الزواج بأرملته.

(سرقة يوسف من أهله وأنه ليس عبدهم كما زعموا) ستبرر كذلك قبولهم للثمن البخس الذى تقاضوه فيه. بينما هم يتناقشون فى هذه المسألة، رأوا قادمًا تجاههم قافلة الإسماعيليين، وهى التى كان أبناء يعقوب قد رأوها من قبل، وقرروا التخلص من يوسف وبيعه لهم، على الأقل لكيلا يضيع عليهم الثمن الذى دفعوه فيه، ولعلهم فى نفس الوقت يجنبون أنفسهم خطر القبض عليهم بتهمة اختطاف إنسان. واشترى الإسماعيليون يوسف من المديانيين، ودفعوا فيه نفس الثمن الذى كان أصحابه السابقون قد دفعوه فيه.



سادة يوسف الثلاثة

كان التجار الإسماعيليون عمومًا لا يحمِّلون جمالهم إلا بالماء وجلود الحيوانات. لكن عناية الرب شاءت أنهم كانوا يحملون هذه المرة حقائب ملآى بالعطور، بدلاً من حمولتهم المعتادة ذات الرائحة الكريهة، وذلك لكى يتعطر بدن يوسف بالروائح الذكية فى رحلته إلى مصر. وكانت هذه المواد العطرة مناسبة تمامًا ليوسف الذى كانت تفوح من بدنه رائحة عطرة وذكية وفواحة لدرجة أنها عبقت الطريق الذى كان مسافرًا عليه، وعند وصوله إلى مصر فاحت رائحته الذكية فى أرجاء البلد كلها لدرجة أن أميرات القصر الملكى تتبعنها ليعرفن مصدرها، حتى وصَلْنَ إلى المكان الذى كان به يوسف. وحتى بعد موته كانت تفوح من عظامه نفس الرائحة العطرة فتمكن موسى بواسطتها من تمييز رفاته عن الباقين، والوفاء بقسم بنى إسرائيل على دفن يوسف فى الأرض المقدسة.

عندما علم يوسف أن الإسماعيليين ذاهبون به إلى مصر، بدأ يبكى فى مرارة، عندما خطر بباله أنه سيبتعد إلى هذا الحد عن كنعان وعن أبيه. ولاحظ أحد الإسماعيليين بكاء يوسف ونحيبه، فظن أن الركوب على ظهر الجمال يرهقه فأنزله من على ظهر الجمل وأذِنَ له أن يسير على قدميه. لكن يوسف استمر يبكى وينتحب ويصيح بلا توقف قائلاً: «يا أبتاه! يا أبتاه!» وضجر رجل آخر فى القافلة من نواحه فضربه فازدادت دموعه وازداد نواحه إلى أن غلبه الحزن ولم يستطع التحرك من مكانه. وعندها أخذ كل

الرجال فى القافلة يضربونه وعاملوه بقسوة ووحشية وحاولوا إسكاته بتهديداتهم. ورأى الرب محنة يوسف، فألقى الظلام والرعب على الإسماعيليين وتصلبت أيديهم فلم تتحرك كلما رفعوها ليضربوه. وذهلوا لذلك وأخذوا يتساءلون لماذا فعل الرب ذلك بهم على الطريق. ولم يكونوا يعلمون أن ذلك حدث لأجل يوسف.

واصلت القافلة رحلتها حتى وصلت إلى أَفْراتَه حيث ضريح «راحيل». هرول يوسف إلى قبر أمه وألقى بنفسه عليه وأخذ يبكى وينوح قائلاً: «أمَّاه! يا أماه! يا من حملتينى انهضى تعالى وشاهدى كيف باعوا ابنك عبدًا، وما من أحد يرفق بى. انهضى وشاهدى ابنك وابكى معى على مصيبتى، واشهدى على قساوة قلوب إخوتى. استيقظى يا أماه، انهضى من سباتك، قومى وتجهزى للصراع مع إخوتى الذين جردونى حتى من قميصى وباعونى عبدًا للتجار الذين باعونى هم كذلك لآخرين، وانتزعونى من أبى بلا رحمة. انهضى ودينى إخوتى أمام الرب وانظرى أيَّنا سينصف فى الحكم، ومن سيدين. انهضى يا أماه، قومى من سباتك وانظرى كيف يكون أبى معى بروحه وواسيه وعَزِّى قلبه المهموم».

وظل يوسف يبكى وينتحب على قبر أمه حتى أنهكه الحزن فرقد جامدًا كالحجر. ثم سمع صوتًا أثقلته الدموع يتكلم من الأعماق قائلاً: «يوسف يا بنى، يا صغيرى لقد سمعت استغاثتك وأنَّاتك، ورأيت دموعك وعلمت بمحنتك يا صغيرى. كم أنا حزينة من أجلك، وزاد هَمُّك همى. لكن.. يوسف يا صغيرى، ثِقْ بالرب وانتظر فرجه. لا تَخَفْ فالرب معك، ولسوف ينجيك من كل شىء. اذهب إلى مصر مع سادتك يا بنى، لا تَخْشَ شيئًا فالرب معك يا بنى». وقال الصوت ذلك وأكثر منه ثم سكت. واستمع يوسف إليه وقد تملكته دهشة عظيمة فى البداية، ثم انفجر فى البكاء من جديد وأثار ذلك غضب واحد من الإسماعيليين فأبعده عن قبر أمه وهو يركله ويصب عليه لعناته ويشتمه. ثم ناشد يوسف سادته أن يعيدوه إلى أبيه الذى سيكافئهم

على ذلك بالمال الكثير. لكنهم أجابوه قائلين: «ماذا!! ما أنت إلا عبد! كيف لك إذًا أن تعرف أين يكون أبوك؟ ولو كان أبوك رجلاً حراً، ما كُنْتَ قد بُعْتَ مرتين بثمن زهيد». وازداد غضبهم عليه فأخذوا يضربونه ويسيئون معاملته، وأخذ هو يبكى فى مرارة.

الآن نظر الرب إلى محنة يوسف فألقى الظلام يطبق على الأرض مرةً أخرى. هبت عاصفة وأبرقت السماء وارتجفت الأرض من الرعود وضل الإسماعيليون طريقهم من الخوف. وتوقفت جمالهم وبهائمهم فجأة ورفضت التزحزح من مكانها مهما حاول ركابها وضربوها، بل إنها جثمت على الأرض. ثم تكالم الإسماعيليون وقالوا: «لماذا فعل الرب بنا ذلك؟ فيم أخطأنا وفيم تجاوزنا لتَحْدُث لنا هذه الأشياء؟» وقال أحدهم للباقين: «لعل ذلك حدث لنا بسبب خطيئتنا فى حق هذا العبد. هيا نتوسل إليه فيصفح عنا، وإذا رحمنا الرب وأزاح عنا هذه العاصفة، فلنعلمنَّ حينها أنما حلت علينا هذه العقوبة بسبب إيذائنا لهذا العبد».

وكذا فعل الإسماعيليون وقالوا ليوسف: «لقد أذنبنا فى حقك وفى حق الرب. ادع لنا ربك وتوسل إليه أن يرفع عنا هذا البلاء المميت، فنحن نقر بذنبنا نحوه». ولبَّى لهم يوسف رغبتهم فدعا الرب فاستجاب له وانزاحت عنهم العاصفة وعاد الهدوء يخيم على المكان، ونهضت العير من أماكنها وأصبح بإمكان القافلة مواصلة رحلتها. عند ذلك تيقن الإسماعيليون أن ما حل بهم إنما كان لأجل يوسف، وتكالموا قائلين: «الآن نعلم أن كل ما حل بنا إنما كان لأجل هذا الغلام المسكين، فلماذا إذًا نهلك أنفسنا بأيدينا وما جنته؟ لنتشاور ولنر ما نفعل مع هذا العبد.» ونصحهم أحدهم بأن يلبوا رغبة يوسف ويعيدوه إلى أبيه، وعندها سوف يستردون ما دفعوه فيه من نقود. لكنهم رفضوا هذا الرأى لأنهم كانوا قد قطعوا شوطًا كبيرًا فى رحلتهم ولم يعد بإمكانهم الرجوع. لذا فقد عزموا على أن يحملوا يوسف إلى مصر ويبيعوه هناك. وبهذه الطريقة سيتخلصون منه ويحصلون على

سعر كبير فيه.

واصلت القافلة رحلتها حتى وصلت إلى حدود مصر حيث قابلوا أربعة رجال، من ذرية «مِدَان» ابن إبراهيم، وباعوا لهم يوسف بخمسة شواقل(*). وصلت الجماعتان، الإسماعيليين والمدانيين، إلى مصر فى نفس اليوم. ولما سمع المدانيون أن فوطيفار ـ الضابط عند فرعون وقائد حرسه ـ يبحث عن عبد جيد توجهوا إليه من فورهم لعلهم يبيعون يوسف له. وأبدى فوطيفار استعداده لدفع أربعمئة قطعة من الفضة ثمنًا له، إذ أن مبلغًا كهذا، رغم ضخامته، لم يَبْدُ ثمنًا باهظًا فى عبد كيوسف الذى أعجب به الرجل للغاية. ومع ذلك فقد اشترط عليهم شرطًا، فقد قال للمدانيين: «سأدفع لكم الثمن الذى تطلبون، لكن عليكم أولاً أن تأتونى بمن باع هذا العبد لكم، فلعلى أستطيع معرفة حقيقته، فلست أراه عبدًا ولا ابن عبد. بل يبدو ابن حسب وجاه. ولابد أن أقتنع أنه لم يُسْرَق من أهله». وأتى المدانيون بالإسماعيليين إلى فوطيفار، فشهدوا أمامه بأن يوسف عبد وأنه كان ملكًا لهم ثم باعوه للمدانيين. عند ذلك اطمأن فوطيفار لكلامهم ودفع للمدانيين الثمن الذى طلبوه فى يوسف، وانصرف المدانيون والإسماعيليون إلى حال سبيلهم.



(*) جمع (شاقل) أى شيكل (عملة الكيان الصهيونى حاليًا) وأصلها كلمة (ثِقَل) أو (وزن) فى العربية.

قميص يوسف يُعَاد إلى أبيه

ما كاد بيع يوسف يتم، إلا وعض أبناء يعقوب أصابع الندم على فعلتهم. بل إنهم هرولوا فى إثر المديانيين ليفتدوا يوسف، لكن دون جدوى وأصبح لزامًا عليهم أن يقبلوا بالمحتوم. وأثناء ذلك كان رأوبين قد عاد فانضم إلى إخوته. وكان منشغلاً بالتوبة والصلاة ودراسة التوراة، تكفيرًا عن خطيئته تجاه أبيه، لدرجة أنه لم يقدر على البقاء مع إخوته ورعاية القطعان، ولذا فلم يكن حاضرًا عندما بيع يوسف. وكان أول ما فعله أن ذهب إلى الجب على أمل أن يجد يوسف فيه، وفى هذه الحالة كان سيُخرج يوسف ويعود به إلى أبيه خفية، ودون علم إخوته. وقف رأوبين عند فم الجب وأخذ ينادى صائحًا: «يوسف. يا يوسف!» ولما لم يُجبْه أحد، ظن أن يوسف قد هلك، إما رعبًا أو بعضة ثعبان، فنزل على الجب فلم يجده به، لا حيا ولا ميتًا. صعد رأوبين من الجب ومزق ثيابه وأخذ يصيح فى لوعة: «وامصيبتاه!! إن الغلام ليس فى الجب! كيف سأجيب على أبى لو كان الغلام قد مات؟!» ثم هرول إلى إخوته وأخبرهم أن يوسف اختفى من الجب، وأنه فى غاية الهلع من ذلك لأنه المسؤل أمام أبيهم عن يوسف، باعتباره أكبر إخوته. وباح له إخوته بما فعلوه بيوسف وحكوا له كيف حاولوا إصلاح غلطتهم، لكن دون جدوى.

الآن لم يعد بإمكانهم فعل شىء سوى تأليف تفسير معقول يفسرون به لأبيهم اختفاء أخيهم. ومع ذلك فإنهم أقسموا جميعًا أولاً على ألا يبوح أحد منهم، لا لأبيه ولا لمخلوق آخر، بحقيقة ما صنعوه بيوسف، ومن يحنث

بقسمه فإن الباقين سيقتلونه. ثم تشاوروا فيما يقولون ليعقوب. وأشار عليهم «يَسَّاكر» بأن يمزقوا قميص يوسف الملون ويلطخوه بدم شاة صغيرة، ليجعلوا يعقوب يتوهم أن حيوانًا مفترسًا قد التهم ابنه. وقد اقترح عليهم أن تكون الشاة صغيرة لأن دمها يشبه دم البشر. وكتكفير عن هذا الغش، صدر مرسوم كنيسى بأن تذبح شاة وتقدم قربانًا للتكفير عند تكريس المعبد.

عارض شمعون هذا الاقتراح، فلم يكن يريد التخلى عن قميص يوسف، وتوعد من يحاول انتزاعه منه عنوة بأنه سيقطعه إربًا. وكان سبب ثورته تلك هو غضبه الشديد من إخوته لأنهم لم يقتلوا يوسف ـ لكنهم توعدوه بدورهم قائلين: «لئن لم تعطنا القميص لنقولن لأبينا أنك أنت الذى فعلت هذه الفعلة بأخينا» ـ عند ذلك سلمه شمعون لهم، وحمله نفتالى إلى يعقوب وناوله إياه قائلاً: «بينا نحن نقود أغنامنا عائدين إلى البيت وجدنا هذا الثوب ملطخًا بالدماء والتراب على الطريق، فيما وراء شكيم بقليل. انظر هل هذا قميص ابنك أم لا». وتعرَّف يعقوب على قميص يوسف فغلبه الحزن وخَرَّ على وجهه وظل راقدًا كالحجر مدة طويلة ثم نهض وأطلق صيحة عالية ملتاعة قائلاً: «إنه قميص ابنى».

أرسل يعقوب من فوره أحد عبيده إلى أبنائه يأمرهم بالمثول بين يديه، فلعله يعرف المزيد عما حدث ـ وعادوا جميعهم عشاءً، وقد مزقوا ثيابهم وغَبَّروا رؤوسهم بالتراب. وعندما صدَّقوا على كل ما أخبره به نفتالى، انفجر يعقوب فى العويل والنواح قائلاً: «إنه قميص ابنى؛ لقد أكله حيوان شرير؛ لابد أنه مزق يوسف إربًا. لقد أرسلته إليكم ليطمئننى عليكم، وعلى القطعان. وقد ذهب ينفذ طلبى، وبينما كنت أظنه معكم، حدثت هذه المصيبة». فأجابه أبناؤه قائلين: «إنه لم يأتنا مطلقًا. ولم تقع عليه أعيننا منذ تركناك».

بعدما سمع يعقوب هذه الكلمات لم يعد الشك يراوده فى أن الوحوش الضارية قد أكلت يوسف، وأخذ ينوح على ابنه قائلاً: «آه يا يوسف.. يا

صغيرى.. وا صغيراه.. وا ولداه.. لقد أرسلتك لتطمئنى على إخوتك فأكلتك السباع. آه يا بُنَيَّاه.. إنها غلطتى أنا فأنا الذى عرضتك لهذه المصيبة. يا أَسَفا عليك يا بُنَىّ.. والوعتاه. كم كانت حياتك عذوبة حياتى، وكم صار موتك مُرا فى قلبى! يا ليتنى مت بدلاً منك يا يوسف.. يا صغيرى، يكاد قلبى ينفطر كمدًا عليك. يوسف يا صغيرى.. كم هو فظيع موتك! ما مات أحد كما مت منذ بدء الخليقة ـ أعلم أن ذلك حَلَّ بك بسبب خطاياى. ألا ليتك تعود وترى المرارة التى جلبها موتك عَلىّ! لكن.. ما أنا خَلَقْتُك ولا صوَّرتُك. ولا أنا الذى نفخت فيك الروح ولا خلقت نفسك، بل الرب هو الذى صنع كل ذلك. هو الذى كَوَّن عظامك، وكساها لحمًا ونفخ الحياة فى منخريك ثم وهبك لى ـ والرب الذى أعطانى إياك، أخذك مِنِّى، وهو الذى أحل بى هذه المصيبة. فيا لحسن صنيع الرب!» وبهذه الكلمات وغيرها الكثير أخذ يعقوب يبكى وينوح على ولده، حتى خر مغشيا عليه دون حراك.

عندما رأى أبناء يعقوب شدة التياع أبيهم على فقدان ابنه، ندموا على ما فعلوا وبكوا فى مرارة. وكان «يهوذا» أشدهم حُزْنًا، فوضع رأس أبيه على ركبتيه وأخذ يمسح دموعه المنهمرة، بينما انفجر هو فى بكاء حار مرير. وحاول أبناء يعقوب وزوجاتهم جميعًا أن يواسوا أباهم فى مصابه، وأقاموا عزاءً عظيمًا، وأخذوا يبكون وينوحون على موت يوسف وحزن أبيهم الذى رفض أن يتعزى.

وقد تسبب موت يوسف فى فقدان يعقوب لاثنين من أهل بيته، إذ لم تستطع بِلْهَة و «دِينَة» تَحَمُّل حزنهما عليه، فماتت بلهة فى نفس اليوم الذى ورد فيه نبأ موته إلى يعقوب، ثم سرعان ما لَحِقَتْ بها دينة، وبذا فقد يعقوب ثلاثة من أهله فى شهر واحد.

تلقى يعقوب أنباء موت يوسف فى الشهر السابع «تشرى»، فى اليوم العاشر منه، ولذا فقد أُمِرَ بنو إسرائيل بالبكاء وإيذاء أرواحهم فى ذلك

اليوم(*). علاوة على ذلك، فقد فرض فى هذا اليوم أن يكون قربان التكفير عن الخطايا شاة صغيرة، لأن أبناء يعقوب تَعَدَّوْا على شاة صغيرة، ولطخوا قميص يوسف بدمها، فجلبوا الحزن ليعقوب.

عندما استرد يعقوب شيئًا من جأشه وأفاق قليلاً من أثر اللطمة العنيفة التى سببتها أنباء موت ابنه الحبيب، نهض يعقوب من غفوته وخاطب أبناءه، والدموع تتهمر على خديه، قائلاً: «هيا انهضوا. خذوا سيوفكم وقسيِّكم واذهبوا إلى الحقل وابحثوا فلعلكم تجدون جثمان ابنى فتعيدوه إلىّ لأدفنه. كذلك ابحثوا عن السباع وأمسكوا بأول ما ترونه منها واحملوه إلىّ. وعسى الرب أن يرحم لوعتى ويضع أيديكم على السبع الذى مَزَّق ابنى أشلاءً، فأقتص لنفسى منه».

انطلق أبناء يعقوب فى صباح اليوم التالى لتنفيذ أمر أبيهم، بينما بقى هو فى البيت يبكى ويولول على يوسف. ووجدوا فى البرية ذئبًا فأمسكوا به وحملوه إلى يعقوب حيا، قائلين: «ها هو أول سبع لقيناه وقد حملناه إليك. لكننا لم نعثر على أثر لجثة ابنك». أمسك يعقوب بالذئب وخاطبه باكيًا وقال له: «لماذا أكلت ابنى ولم تَخَفْ من رب الأرض، ودون حتى أن تفكر لحظة فيما ستسببه لى من حزن وأسى؟ لقد أكلت ابنى دونما سبب، ولم يَتَعدَّ عليك، وحملتنى مسؤولية موته. لكن الرب ينصف كل مظلوم».

ولكى يُعَزِّى يعقوب، فتح الرب فم السبع فقال ليعقوب: «وحياة الرب، الذى خلقنى، وحقك أنت أيضًا يا سيدى، إنى ما رأيت ابنك هذا ولا مزقته أشلاءً. لقد أتيت من بلاد بعيدة أبحث عن ابنى الذى تعرض لمثل ما تعرض له ابنك. وقد اختفى فلا أعلم إن كان حيا أم ميتًا، ولذا فقد جئت إلى هنا منذ عشرة أيام لأبحث عنه. واليوم، وبينا أنا أبحث عنه لقينى أبناؤك فأمسكوا بى وزادونى غما على غم فأحضرونى هنا إليك. تلك هى حكايتى.

(*) تُرَى هل لذلك علاقة بما اعتاده البعض حزناً على مقتل الحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؟!.

والآن يا بن آدم، ها أنذا بين يديك وبإمكانك أن تفعل بى ما شئت، لكننى أقسم لك بالرب الذى خلقنى، إنى لم أَرَ ابنك، ولا أكلته، وما ذُقْتُ يومًا لحم آدمى». وذهل يعقوب من كلام الذئب فتركه ينصرف إلى حال سبيله، وعاد يبكى على يوسف وينوح.

من قوانين الطبيعة أنه مهما حزن المرء على فقد عزيز، فإن السلوان يَجدُ طريقة إلى قلبه بعد عام من الحزن. لكن اختفاء إنسان على قيد الحياة لا ينمحى أبدًا من الذاكرة. ولذلك فعندما وجد يعقوب نفسه لا يتعزى فينسى بعد مرور عام على فقده ليوسف، فقد ارتاب يعقوب فى أن يوسف لا يزال حيا، ولذا فلم يصدِّق حكاية أبنائه تمام التصديق. وحدث له شىء قوَّى شكوكه المبهمة. فقد ذهب إلى الجبال واقتطع اثنى عشر حجرًا من المحجر وكتب أسماء بنيه عليها وأبراجهم الفلكية والشهور التى توافق هذه الأبراج، وقد فعل ذلك على أن يكون حجر لكل ولد هكذا، «رأوبين، (برج) الجدى، نيسان»، وبنفس الطريقة لكل ولد من أولاده الاثنى عشر. ثم خاطب الحجارة وأمرها بأن تركع أمام حجر رأوبين، فلم تتحرك. ثم أمرها بعد ذلك أن تركع أمام حجر شمعون، فلم تفعل. وأخذ يكرر ذلك مع باقى الحجارة، وهى ترفض فى كل مرة، حتى وصل إلى حجر يوسف أمر الحجارة قائلاً: «آمركم أن تركعوا ليوسف» خرت جميعها أمامه. وجرب نفس الاختبار على أشياء أخرى، كالأشجار وحزم الحطب، وفى كل مرة يحصل على نفس النتيجة، وعندها تيقَّن يعقوب من شكوكه، وأن يوسف لا يزال حيا(*).

وكان هناك سبب لكون الرب لم يكشف مصير يوسف ليعقوب. فعندما باع أبناؤه يوسف، جعلهم خوفهم من معرفة أبيهم بما فعلوه يقسمون على حرمان من يفشى سرهم إلى أبيهم، دون موافقة الآخرين جميعًا. لكن يهوذا

(*) لاحظ هنا أنهم لا ينسبون معرفة يعقوب ببقاء يوسف على قيد الحياة إلى كونه نبيا موحى إليه من الله، وإنما للعَرافة والدجل.

اعترض عليهم بأن قرار الحرمان لن يكون صحيحًا إلا إذا صدر فى حضور عشرة أشخاص، وهم كانوا تسعة فقط، فلم يكن رأوبين وبنيامين حاضرين عندما تم بيع يوسف. ولكى يحلوا هذه المشكلة فإن الإخوة عَدُّوا الرب الشاهد العاشر، ولذا فقد أحس الرب بأنه ملتزم بألا يبوح ليعقوب بحقيقة ما حدث. وكان يحترم قرار الحرمان الذى أصدره إخوة يوسف. وكما أخفى الرب الحقيقة عن يعقوب، فلم يشعر إسحق بمبرر يجعله يفضى إلى يعقوب بما آل إليه حفيده، فقد كان إسحق يعرف ما حدث جيدًا، فهو كان نبيا. وكان ينوح ويبكى كلما كان يعقوب معه، وإذا خلا بنفسه يكف عن التظاهر بالحزن، إذ كان يعرف أن يوسف لا زال حيا.

هكذا كان يعقوب هو الوحيد من أهل يوسف الذى ظل جاهلاً بحقيقة مصير ابنه، كما كان الوحيد من بينهم جميعًا الذى لديه سبب حقيقى للحزن على موته. وقال: «إن العهد الذى قطعه الرب معى بخصوص القبائل الاثنتى عشرة، لا قيمة له الآن. لقد كافحت عبثًا لتأسيس القبائل الاثنتى عشرة، خصوصًا بعدما دمر موت يوسف ذلك العهد. كل أعمال الرب إنما صنعها وفقًا للعدد اثنى عشر، فأبراج السماء اثنا عشر والشهور اثنا عشر والنهار اثنتا عشرة ساعة، وكذا الليل، وصدرية هارون مرصعة باثنى عشر حجراً، والآن مع موت يوسف، فإن عهد القبائل ما عاد له قيمة».

ولم يكن بإمكانه أن يعوض فقدان الابن الثانى عشر بالدخول فى زواج جديد، إذ كان قد وعد حماه بألا يتزوج على بناته، وهذا الوعد، كما فسره هو، يسرى بعد موت بنات لابان، كما كان يسرى فى حياتهن.

وبجانب حزنه على خسارته وأسفه لانقضاء عهد القبائل، فقد كان لدى يعقوب سبب آخر للحزن على موت يوسف. كان الرب قد قال ليعقوب: «إذا لم يَمُت أحد أبنائك فى حياتك، فهذه علامة لك بأنك لن تلقى فى جهنم بعد موتك». ولأنه كان يظن أن يوسف قد مات، فقد كان يعقوب حزينا على

مصيره هو أيضًا، فقد أصبح يعتقد الآن أن مصيره إلى جهنم. وظل حزنه عليه. طوال اثنتين وعشرين سنة، نفس عدد السنين التى قضاها بعيدًا عن أبويه، ولم يقم بواجبه نحوهما.

وفى حداده على يوسف ارتدى يعقوب الخيش، وأصبح قدوة لملوك وأمراء إسرائيل، فقد فعل مثله داوود وآخاب ويورام ومورداخاى، عندما كانت تحدث مصيبة عظيمة للشعب.

يهـوذا وأبنـاؤه

عندما رأى أبناء يعقوب أن أباهم لا يتعزى عن حزنه، ذهبوا إلى يهوذا وقالوا له: «هذه المصيبة أنت المسؤول عنها». رد يهوذا: «بل كنت أنا من سألتكم، فيم سنستفيد من قتل أخينا وإراقة دمه؟ والآن تقولون لى إن الغلطة غلطتى أنا!!» لكن إخوته قالوا له: «لكنك كنت أنت من اقترح علينا أن نبيعه للإسماعيليين فاتبعنا نصيحتك. ولو كنت اقترحت علينا إعادته لأبيه لكنا سمعنا لكلامك».

عند ذلك حرم الإخوة يهوذا من مكانته المتميزة بينهم، إذ كان حتى حينها ملكهم، كما أبعدوه عنهم، فاضطر للضرب فى الأرض وحده. وعن طريق كبير رعاته «حيرة» تَعَرَّف على ملك «عَدُلاَّم» الكنعانى، واسمه «بَرْصَان». وبالرغم من إدراكه لمدى الفساد الذى انحطت إليه ذرية كنعان، فإنه قد سمح للعاطفة بأن تتحكم فيه واتخذ كنعانيةً زوجةً له. وأقام الملك العَدُلاَّمى وليمة على شرفه، صبت له فيها ابنته «بنت شوع» الخمر، فلعبت الخمر برأس يهوذا فأخذها وتزوجها. ويشبه ما فعله يهوذا ما فعله الأسد الذى مَرَّ بجيفة فأكل منها، بالرغم من أن جَرْواً قد سبقه ومَرَّ بها لكنه رفض أن يلمسها. بل إن عيسَو نفسه قد أقر فى النهاية بأن بنات كنعان شريرات(*)، ومع ذلك فقد اتخذ الأسد يهوذا لنفسه زوجة منهن!! وصرخ الروح القدس غضبًا من يهوذا عندما تزوج المرأة الكنعانية من عدُلاَّم وقال: «لقد انحدر مجد اسرائيل إلى عدلام».

(*) لا تمر مناسبة إلا ويعيد اليهود التأكيد على دونية الفلسطينيين!!.

كان اسم بِكْرِ يهوذا من هذه الزيجة «عير»، أى «الأبتر» (الذى لا ولد له) وكان اسمًا مناسبًا له إذ مات دون عَقِب. وبرغبة يهوذا تزوج «عير» «ثامار» ابنة آرام بن سام، لكن لأنها لم تكن كنعانية، فقد كانت أمه تكيد لها، فلم يعرفها، وقتله ملاك للرب فى ثالث يوم بعد زواجه. ثم أعطى يهوذا ثامار لابنه الثانى «أونان»، وتم الزواج قبل انقضاء أسبوع من زواجها بِعِير. وعاش أونان عامًا كاملاً مع ثامار دون أن يعرفها (أى يعاشرها جنسيا)، وعندما نفد صبر يهوذا معه بسبب ذلك وهدده، جامعها فعلاً، لكن واضعًا فى اعتباره نصيحة أمه له بألا ينجب منها. ومات هو الآخر بسبب ظلمه، وأصبح اسمه «أونان»، أى الحِداد، اسمًا على مُسَمّى، إذ سرعان ما احتد عليه أبوه (فقد مات أونان). الآن فكر يهوذا فى تزويج ثامار لابنه «شِيلَة»، لكن لم تكن زوجته لتسمح بحدوث ذلك، فقد كانت تكره ثامار لأنها لم تكن كنعانية مثلها، وبينما كان يهوذا خارج المنزل، اختارت «بنت شوع» زوجةً لابنها شيلة من بنات كنعان. واشتاط يهوذا غضبًا مما فعلت، كما صَبَّ الرب سخطه عليها، فكان عليها أن تموت جزاءً لشرها، وماتت بعد موت ولَدَيْها بعام.

الآن بعدما ماتت بنت شوع أصبحت الفرصة مُهَيَّأة أمام يهوذا لإنفاذ رغبته بتزويج ثامار من ابنه الأصغر. لكنه انتظر حتى يكبر شيلة، إذ كان يخاف على حياته، خصوصًا بعد ما رأى ثامار تجلب الموت لزوجيها السابقين. ولذا فقد ظلت أَيِّمَاً فى بيت أبيها لمدة عامين. ولأنها كانت تتمتع بموهبة التنبؤ، فقد كانت ثامار تعلم أنها مكتوب لها أن تكون جدة كُبْرَى لداود وللمسِّيا، ولذا فقد عزمت على أن تسعى بكل طريقة استطاعت لتحقيق المكتوب لها.

ولهذا، فعندما كشف لها الروح القدس بأن يهوذا ذاهب إلى «تِمْنَة»، خلعت عنها ثياب حدادها، وجلست على بوابة خيمة إبراهيم حيث قابلت يهوذا. ولم يكن يهوذا قد رأى وجهها طوال السنين التى قضتها فى بيته زوجة لابنيه، إذ كانت عفيفة طاهرة فغطت وجهها دائمًا، والآن عندما

التقاها يهوذا لم يتعرَّف عليها. وكانت مكافأة الرب لها على عِفَّتِها أن جعلها أمّا لسلالة داود الملكية، وجَدَّة كبرى لأشعيا وأبيه «عاموس»، وكلاهما كان نبيا ويجرى الدم الملكى فى عروقهما.

مَرَّ يهوذا على ثامار دون أن يعيرها انتباهه بالمرة، فرفعت عينيها إلى السماء وقالت: «يا رب العالم، أأغادر بيت هذا الرجل التقىّ فارغةً (أى دون أن تَحْمَل)؟» فأرسل الرب الملاك الموكل بعاطفة الحب فأرغم يهوذا على الالتفات للخلف. وبحذر الأنبياء، طلبت ثامار من يهوذا أن يعطيها خاتمه وعصابته وعصاه ـ رموز المُلْك والحُكْم والمسيحانية والتى تميزت بها ذرية ثامار من اتحادها بيهوذا ـ ضمانًا لكى يفى بوعده لها ويعطيها مكافأتها التى وعدها. وعندما أرسلها لها يهوذا، وكانت جَدْىَ مَعْز، مع صديقة ليتسلم منها الضمان الذى أعطاه إياها، لم يجد الرسول ثامار، ولم يجرؤ على الجدِّ فى البحث عنها خوفًا من أن يتعرض للخِزْى، لكن ثامار ـ التى سرعان ما أحست بأنها قد حملت ـ أحست بالسعادة والفخر الشديدَيْن، فقد كانت تعلم أنها ستكون أم الملوك والمخلِّصين.

عندما شاع أمر حملها اقتيدت إلى المحكمة التى كان قضاتها إسحق ويعقوب ويهوذا. ولأن يهوذا كان أصغر القضاة الثلاثة ولذا فهو أقلهم مكانة، فقد كان عليه أن يُصْدِر هو أولاً حكمه، إذ هكذا هو المقرر فى القضايا الجنائية، بأن القضاة الأكبر مكانة يجب ألا يُرْهِبوا القاضى الأصغر منهم ويؤثروا على حكمه دون وجه حق. وكان يهوذا يرى أن المرأة يجب أن تُعْدَم حرقًا، فقد كانت ابنةً للكاهن الأكبر سام، والقانون يقرر عقوبة الموت حرقًا لابنة الكاهن الأكبر إذا ما انزلقت إلى مهاوى الرذيلة.

وبدأت الاستعدادات تتم لإحراقها. وعبثًا حاولت ثامار أن تعثر على الضمانات الثلاث (العصا والعصابة والخاتم) التى تسلمتها من يهوذا، كما

كادت تفقد الأمل فى أن تستطيع انتزاع اعتراف من حميها (بأنه هو أبو الجنين الذى فى بطنها). رفعت عينيها إلى الرب وقالت «أستغيث برحمتك يا رب، يا من تجيب المضطر ساعة شدته، استجب لى، لكى أعيش وأنجب الأطفال الثلاثة المقدسين الذين سيكونون على أتم استعداد للموت حرقًا من أجل تمجيد اسمك». واستجاب الرب لتوسلاتها وأنزل الملاك ميكائيل لإنقاذها فوضع الضمانات فى مكان ستراها فيه ثامار بسهولة فأخذتها وألقتها أمام القضاة قائلةً: «هذه تخص الرجل الذى حملت منه، لكننى لن أغدر به وأفضح أمره وإن كنت على وشك الهلاك بالنار. لكننى أرجو رب العالم أن يحوِّل قلب ذلك الرجل فيعترف أمامكم هنا بهذا». عند ذلك نهض يهوذا قائلاً: «بعد إذنكم يا إخوتى وإذنكم يا آل بيت أبى، أعترف أمامكم بأنه بالكيل الذى يكيل به الإنسان يكال له، لكن ما أسعد ذلك الإنسان الذى يُقِرُّ بذنوبه. فلأننى أخذت قميص يوسف ولطخته بدم شاة صغيرة ثم وضعته عند قدَمىّ أبى قائلاً «فلتنظر إن كان هذا قميص ابنك أم لا»، لهذا يجب أن أعترف أمام المحكمة بمن هو صاحب هذه العصا وهذا الخاتم وهذه العصابة لكننى أفضل أن أخزى فى هذا العالم على أن أخزى فى العالم الآخر، أمام وجه أبى التقىّ. وأفضل أن أهلك فى نار يمكن إطفاؤها عن أن يُلقى بى فى نار الجحيم، التى تلتهم ما عداها من نيران. وها أنا الآن أعترف بأن ثامار بريئة وقد حملت منِّى، لا بسبب انحطاطها إلى مهاوى اللذة المحرمة، بل لأننى أخرت زواجها من ابنى شيلة». ثم سُمِعَ صوت سماوى يقول: «كلاكما برئ! لقد كانت مشيئة الرب أن يحدث ذلك». وقد دفع اعتراف يهوذا الصريح، أخاه الأكبر «رأوبين» بالإقرار أمام الجميع بخطئه فى حق أبيه، إذ كان يحتفظ به سرا حتى حينها.

ولدت ثامار ابنين، «فارص» و «زارح»، وكلاهما يشبه أباه فى شجاعته ونموه. وسمت الأول فَارَص، أى «القوى»، لأنها قالت: «لقد أظهرت قوتك

العظيمة، وحُقَّ لك أن تكون قويً لأنه مكتوب لك أن تمتلك المملكة». وسَمَّت الابن الآخر زَارَح لأنه خرج من رحم أمه قبل أخيه لكنه اضطر للتراجع إلى داخل الرحم ليفسح الطريق لفارص. وقد أُرسِل زارح وفارص من قِبَل يُوشَع ليتجسسوا له، كما أخذت راحاب من زارح الخيط الذى ربطته فى نافذة منزلها كعلامة لجيش الإسرائيليين. وكان ذلك الخيط هو الخيط القرمزى التى ربطته القابلة حول معصمه لتعلِّمه وتعرف أنه هو الطفل الذى ظهر من رحم أمه أولاً ثم تراجع.

زوجات أبناء يعقوب

كان يهوذا أول من تزوج من أبناء يعقوب. فبعد بيع يوسف للمديانيين، قال إخوته ليهوذا: «لو كانت الحال كما كانت من قبل، لكان أبونا اختار لنا زوجات. أما الآن فهو منشغل تمامًا بحزنه على يوسف، ولذا علينا أن نختار لأنفسنا زوجات بأنفسنا. وأنت كبيرنا ويجب أن تتزوج أنت أولاً».

لم يكن سعيدًا زواجُ يهوذا من «عَليت» ابنة التاجر النبيل «شُوع»، والذى تم فى عَدُلاَّم موطن صديقه «حِيرَة»، أو حيرام ملك «ثاير»، كما دُعِىَ فيما بعد. فقد مات ابناه الأكبران، ثم ماتت زوجته بعدهما بقليل. وكان ذلك عقابًا ليهوذا على أنه بدأ جميلاً ولم يُتِمَّه، فمن يبدأ عملاً طيبًا ولا يتمه، يَجلب على نفسه الشؤم. وصحيح أن يهوذا أنقذ يوسف من الموت، لكنه كان هو الذى اقترح بيعه عبدًا. ولو كان ألح على إخوته بأن يعيدوه إلى أبيه، لكانوا أطاعوه. وكانت تنقصه القدرة على المثابرة فى أى أمر حتى اكتماله، إلى أن أكمل إنقاذه ليوسف، الذى كان قد بدأه من قبل.

وفى نفس العام الذى وقعت فيه مصيبة يوسف، تزوج جميع إخوته كذلك. وكان اسم زوجة رأوبين «إليعورام» ابنة الكنعانى عوزى وهو من «يَمّنَة». وتزوج شمعون أخته دينة فى البداية، ثم تزوج بأخرى. وعندما ذبح شمعون ولاوى جميع رجال شكيم، رفضت دينة مغادرة المدينة وتتبع إخوتها وقالت: «إلى أين أذهب وأحمل فضيحتى معى؟» لكن شمعون أقسم لها أنه سيتزوجها، وهو ما فعله فيما بعد، وعندما ماتت فى مصر حمل جثمانها إلى الأرض المقدسة ودفنها هناك. وولدت دينة لأخيها ولدًا، بينما ولدت من

اجتماعها بشكيم بن حمور، بنتًا، هى «أسينات» التى تزوجها يوسف فيما بعد. وعندما ولدت دينة هذه الابنة أراد إخوتها أبناء يعقوب أن يقتلوها، لكيلا يشير الرجال بأصابعهم إلى ثمرة الزنا فى بيت أبيهم. لكن يعقوب أخذ قطعة من القصدير ونقش عليها الاسم المقدس وربطها فى عنق البنت ووضعها تحت حُرْش وتركها هناك فحملها ملاك إلى مصر حيث تبناها فوطيفار، إذ كانت زوجته عقيمًا. وبعدها بسنوات، وبينما كان يوسف يتجول فى الأرض نائبًا لملكها، أخذت الفتيات يرمينه بالهدايا لعله يلتفت إليهن ويمنحهن الفرصة للتطلع إلى جماله. ولم تكن أسينات تمتلك شيئاً تقدمه هدية له ولذا فقد خلعت التعويذة التى كانت حول رقبتها (أى قطعة القصدير المذكورة آنفًا) وأعطته إياها. وعندها علم يوسف نسبها تزوجها لما رأى أنها ليست مصرية، ولكنها تنتمى إلى آل يعقوب من طرف أمها.

بجانب ابنه من دينة، كان لشمعون ولد آخر واسمه شاؤول، ابنه من «بونة»، تلك الجارية التى سباها فى حملته ضد شكيم.

تزوج يَسَّاكر ولاوى ابنتين من بنات يوباب حفيد عيبر (ابن سام)، وكان اسم زوجة لاوى «أدينة» واسم زوجة يساكر «عريدة». وكانت زوجة دان هى «إلفلالة» ابنة حَمُدَان المواَبى، وظلا لفترة طويلة دون أن ينجبا أطفالا، ثم أنجبا فى النهاية ولدًا سمياه «حوشيم». وتزوج جاد ونفتالى امرأتين من حاران، كانتا أختين ابنتين لعمورام حفيد ناحور. كانت زوجة نفتالى هى «مريميت»، وكانت أكبر الأختين، بينما كانت الصغرى هى عوزيت، زوجة دان.

كانت زوجة أشير الأولى هى «عَدُون» ابنة إفلال حفيد إسماعيل وقد ماتت دون أن تنجب فتزوج بأخرى هى ««حَدُورة» ابنة «أبيمَعِل» وكان كذلك حفيد سام، وكانت الثمرة الأولى لزواجهما ابنة اسمها «سَارَح». وعندما أحضر أشير زوجته إلى كنعان، ذهبت معهم سَارَح اليتيمة ذات السنوات الثلاث. وقد نشأت فى بيت يعقوب وسارت على خطى الأطفال الأتقياء، ومنحها الرب الجمال والحكمة والرزانة.

وكانت زوجة زبولون هى «مَرُوشة» ابنة مولان أحد أحفاد مديان بن إبراهيم من زوجته قطورة.

وعندما بلغ بنيامين العاشرة من عمره زوَّجه يعقوب من «محليا» ابنة أرام حفيد تارح، وولدت له خمسة من الأبناء. وعندما بلغ الثامنة عشرة تزوج بأخرى، هى «عريات» ابنة زِمّران أحد أبناء إبراهيم من قطورة، وأنجب منها هى الأخرى خمسة من الأبناء.

يوسف عبد فوطيفار

عندما بيع يوسف عبدًا للإسماعيليين، ظل صامتًا احترامًا لإخوته ولم يقل لسادته أنه ابن يعقوب الرجل العظيم القوى. وحتى عندما أتى مع الإسماعيليين إلى الميدانيين وسألوه عن أبيه، قال لهم إنه عبد، وما فعل ذلك إلا ليجنب إخوته الخزى والعار. لكن كبير المديانيين وبَّخه قائلاً: «لستَ عبدًا، وسحنتك تفضحك». وتوعده بالقتل ما لم يقر بحقيقته. ومع ذلك فقد بقى يوسف صامدًا ولم يخذل إخوته.

عندما وصل سادة يوسف به إلى مصر، لم يكونوا قد استقروا على رأى محدد بشأنه. وأراد كل منهم أن ينفرد بملكه لنفسه. ولذا فقد قرروا أن يتركوه مع أحد أصحاب المحلات إلى حين رجوعهم من مصر مرة أخرى مع تجارتهم. فأوجد الرب نعمة ليوسف فى عين البقَّال. ووضع كل ما يملك وبيته كله بين يدى يوسف، ولذا فقد كافأه الرب بالكثير من الذهب والفضة، وبقى يوسف عنده ثلاثة أشهر وخمسة أيام.

فى ذلك الوقت أتت زوجة فوطيفار من ممفيس، ووقعت عيناها على يوسف الذى كانت سمعت عن جماله وحسن طلعته من خَصيِّيها. وحكت لزوجها كيف أن أحد البقالين اغتنى على يد شاب عبرى، وأضافت: «لكن يقال إن ذلك الشاب كان قد سُرِقَ من أرض كنعان. لذا اذهب وقاضِ ذلك البقال وخذ الشاب إلى منزلك، فلعل رب العبريين يباركك، فنعمة السماء تحل على هذا الشاب».

استدعى فوطيفار البقال فجاءه فأغلظ له فوطيفار فى الكلام قائلاً: «ما هذا الذى أسمعه؟ أحقاً أنك تسرق الأرواح من أرض كنعان وتتعامل فى التهريب معهم؟» فأقسم له البقال أنه برىء وظل يؤكد له أن جماعة من الإسماعيليين قد تركوا يوسف فى عهدته بشكل مؤقت، وإلى حين عودتهم. لكن فوطيفار أمر به فَجُرِّد من ثيابه وجُلِد، لكن الرجل ظل يكرر نفس الكلام.

ثم استدعى فوطيفار يوسف الذى هرول إليه وخر ساجدًا أمام رئيس الخصيان هذا، إذ كان من كبار ضباط فرعون. ثم كلم فوطيفار يوسف قائلاً: «هل أنت عبد أم ولدت حراً؟» أجابه يوسف: «بل عبد». فسأله فوطيفار: «عبد من؟» رد يوسف: «عبد للإسماعيليين». سأله فوطيفار: «وكيف صرت عبدًا؟» فأجابه يوسف: «لقد اشترونى من أرض كنعان».

لكن فوطيفار رفض تصديق ما يقوله يوسف وأمر به فجرد من ثيابه وجلد هو الآخر. ولما رأت زوجة فوطيفار، وكانت تقف قرب الباب، مهانة يوسف أرسلت إلى زوجها قائلة: «إن حكمك ظالم، إذ تعاقب ذلك الشاب الذى ولد حرًا وسرق من أرضه وكأنه هو من ارتكب الجريمة!» ولما رأى فوطيفار إصرار يوسف على كلامه، أمر به فألقى فى السجن حتى يعود سادته. ولَمَّا كانت تشتهيها الشهوة المحرمة، كانت زوجة فوطيفار تريد أن يكون يوسف فى منزلها، ووبخت زوجها قائلة: «فيم حبسك لذلك الشاب الأسير ذى الأصل النبيل؟ أفضل لك أن تطلقه وتجعله يخدمك». فأجابها: «إن قانون المصريين لا يسمح لنا بأخذ ما يخص الآخرين إلا بعد إخلاء طرفهم تمامًا منه». وظل يوسف فى السجن لأربعة وعشرين يومًا، حتى عودة الإسماعيليين إلى مصر.

وفى هذه الأثناء كان الإسماعيليون قد سمعوا أنه ابن يعقوب، ولذا فقد قالوا له: «لماذا تتظاهر بأنك عبد؟ لقد وصلنا الخبر بأنك ابن رجل عظيم فى كنعان وأن أباك يبكيك لابسًا الرقاع والثياب الخشنة» وكاد يوسف يفضى إليهم بسره، لكنه تراجع فى اللحظة الأخيرة لأجل خاطر إخوته،

وكرر على مسامعهم إنه عبد.

ورغم ذلك قرر الإسماعيليون أن يبيعوه، لكيلا يعثر عليه معهم، إذ كانوا يخافون انتقام يعقوب الذى كانوا يعلمون أنه ذو مكانة عالية عند الرب وعند الناس. وتوسل البقال للإسماعيليين لينقذوه من ملاحقة فوطيفار له قضائيا، وأن يبرؤوه من تهمة سرقة إنسان. وبدورهم اجتمع الإسماعيليون مع يوسف وأمروه أن يشهد أمام فوطيفار بأنهم قد اشتروه، مقابل قدرٍ من المال. وفعل كما أمروه فأخرجه رئيس الخصيان من السجن وصرف كلٍ من له شأن بالموضوع.

وبإذن من زوجها أرسلت زوجة فوطيفار أحد الخصيان إلى الإسماعيليين وأمرته بأن يشترى منهم يوسف، لكنه عاد إليها وأخبرها بأنهم قد طلبوا فيه مبلغًا مبالغًا فيه. أرسلت خصيًا آخر وكلفته بإتمام الصفقة، وبالرغم من أنهم طلبوا فيه خمسين أو مئة شاقل من الذهب، لم يبخل الخصى بالمال وحرص على أن يشتريه ويعود به إليها. وأعطى الخصى للإسماعيليين ثمانين قطعة من الذهب مقابل يوسف، ومع ذلك فقد أخبر سيدته بأنه دفع فيه مئة قطعة. ولاحظ يوسف ذلك الاختلاس لكنه ظل صامتًا، لكيلا يتعرض الخصى للخزى أمام سيدته.

وهكذا أصبح يوسف عبدًا للكاهن الوثنى فوطيفار، أو فوطى - فارع، كما كان يدعى أحيانًا. وكان قد سعى لامتلاك ذلك الشاب الجميل لغرض دنىء فى نفسه لكن الملاك جبريل أعجزه على نحو لم يستطع معه إنفاذ غرضه الدنىء. وسرعان ما لاحظ الرجل أن يوسف لا تقل تقواه عن جماله، إذ كلما كلفه بعمل شىء كان يهمس داعيًا يقول: «يا رب العالم بك أثق وإليك ألجأ. ارْضَ عنِّى ورضِّ عنِّى كل من يرانى، ورضِّ عنِّى سيدى فوطيفار». وعندما لاحظ فوطيفار تحرك شفتى يوسف قال له: «هل تلعننى فى سرِّك؟» فأجابه الشاب: «بل أدعو الرب أن يجعلك ترضى عنى».

واستجيب دعاؤه واقتنع فوطيفار بأن الرب مع يوسف. وكان أحيانًا يختبر قدرات يوسف المعجزة. فإذا أحضر له يوسف كأسًا من النبيذ يقول له: «يا ليته كان كأسًا من الخمر الممزوجة بالأفْيَسنتين* وفى الحال تتحول الخمر الحريفة إلى نبيذ لاذع الطعم. وكان يحصل على كل ما يريده بواسطة يوسف، ورأى بوضوح أن الرب يلبى رغبات عبده ولذا فقد وضع فى يديه كل مفاتيح منزله، ولم يحاسبه على شىء ولم يمنع منه شيئًا سوى زوجته. ولأنه رأى الشكينة حالَّة على يوسف، فلم يكن يعامله كعبد، ولكن كفرد من أفراد أسرته، إذ كان قد قال: «لم يصنع هذا الشاب ليقوم بعمل العبيد، بل هو يستحق مكانة الأمراء». ولذا فقد أمر له بمن يعلمه الفنون، وأمر له بأجر أكبر من غيره من العبيد.

شكر يوسف الرب على حالته الجديدة والسعيدة. وصَلَّى قائلاً: «تباركت يا رب، لأنك جعلتنى أنسى بيت أبى». وما جعله فى هذه الحال السعيدة هو ابتعاده عن حسد وغيرة إخوته. وقال: «عندما كنت فى بيت أبى، كنتُ كلما أعطانى عطية حسدنى عليها إخوتى، والآن أشكرك يا رب على أننى أعيش فى هذا الرخاء». ومع تحرره من كل ما يشغل تفكيره، فقد بدأ يهتم بمظهره الخارجى. وكان يلوِّن عينيه ويرجِّل شعره ويعنى بمشيته. لكن الرب كلمه قائلاً: «أبوك يبكيك لابسا الجوخ والمسوح، بينما تأكل أنت وتشرب وترجِّل شعرك! لذا فلأثيرن سيدتك نحوك ولسوف تتعرض للإزعاج». وهكذا تم تلبية رغبة يوسف الدفينة بأن تتاح له الفرصة لإثبات تقواه مع تعرضه للإغراء، كما امتحنت من قبل تقوى آبائه.

(*) عشبة معمرة تستعمل طبياً للإدرار، كما تستعمل فى صنع شراب كحولى يسمى باسمها.

يوسف وزليخة

«ارم العصا لأعلى فى الهواء، فستعود دائمًا إلى مكانها الأصلى». ومثل أمه راحيل، كان جمال يوسف طاغيًا، واشتهته زوجة سيده إلى حدٍّ لم تستطع مقاومته. وكان مما زاد عاطفتها ناحيته اشتعالاً، ما تنبأ به العرافون، من أنها ستنجب الذرية من يوسف. وكان ذلك صحيحًا، لكن ليس كما فهمته هى من النبوءة. فقد تزوج يوسف من ابنتها «أسينات» فيما بعد، وولدت له الأولاد، محققة بذلك ما تنبأت به النجوم.

وفى البداية لم تصارح يوسف بحبها له، وإنما حاولت إغواءه بالمكر والحيلة. كانت تتذرع بزيارته وتذهب إليه ليلاً، ولأنها لم يكن لها ولد، فقد كانت تتظاهر برغبتها فى أن تتبناه. عند ذلك دعا لها يوسف الرب فولدت ابنًا. ومع ذلك فقد ظلت تعانقه وكأنه ابنها، ومع ذلك فلم ينتبه لنواياها الشريرة. وفى النهاية عندما تنبه لنيتها الدنيئة، ظل أيامًا مغمومًا، وحاول إثناءها عن نوازعها الخاطئة مذكرًا إياها بكلام الرب. أما هى فقد ظلت تهدده بالقتل وتوبخه فى عنف ليستسلم لرغباتها، ولما لم يُجْدِ كل ذلك نفعًا مع يوسف، بدأت تغويه وتستثير شهوته. وكانت تقول له: «أعدك بأن تكون سيدى وبأن تملكنى وكل ما أملك، فقط دع نفسك لى، وسأجعلك تعاشرنى كما يعاشرنى زوجى». لكن يوسف كان يراعى كلام آبائه، وانصرف إلى غرفته، وصام ودعا الرب أن يخلصه من مطاردات المرأة المصرية.

وبرغم عذاباته التى كان يعانيها، وبرغم أنه كان يعطى الجياع والمرضى الطعام المخصص له، فإن سيده كان يظن أنه يعيش فى رفاهية، إذ من

يصومون من أجل مجد الرب، تكتسى ملامحهم بالجمال.

كانت زوجة فوطيفار تحدِّث زوجها كثيرًا عن عفة يوسف، لكيلا يشك زوجها فى حقيقة مشاعرها نحوه. وفى السر، كانت تشجع يوسف وتغريه وتأمره بألا يخاف من زوجها، وبأنه مقتنع بعفتها، وكان فوطيفار لا يلقى بالاً للشائعات التى كانت تصله عن العلاقة بين يوسف وبينها.

ولما رأت أن كل ذلك بلا فائدة، اقتربت منه وطلبت منه أن يعلمها كلام الرب قائلة: «لو شئت أن أترك عبادة الأصنام، نَفِّذ لى رغباتى، ولسوف أقنع زوجى المصرى هذا بترك الأصنام، ولسوف نسير أنا وهو فى طريق ربك». لكن يوسف كان يرد عليها قائلاً: «إن الرب لا يريد ممن يخافونه أن يعيشوا فى دنس، ولا يُحبُّ الزناة».

وفى مرة أخرى جاءته وقالت له: «لو لم تنفذ لى رغبتى فسأقتل زوجى وأتزوجك حسب القانون». عندها شق يوسف ثوبه وصاح بها: «خافى الرب يا امرأة، وإياك أن تفعلى ذلك الإثم لكيلا تهلكى، فلسوف أعلن على الملأ أغراضك الفاسدة، إن فعلتِ ذلك».

ومرة أخرى أرسلت إليه طبقًا كانت قد تلت عليه التعازيم السحرية على أمل أن يوقعه ذلك تحت سلطانها. لكن عندما وضعه الخصى أمامه، رأى أمام عينيه صورة رجل يناوله سيفًا مع الطبق، فتوجس من الطبق خيفة ولم يذق منه شيئًا. وبعدها ببضعة أيام جاءته سيدته وسألته لِمَ لَمْ تأكل شيئًا مما أرسلت إليه، فوبخها قائلاً: «كيف جرؤتِ على أن تقولى لى أنك لا تقتربين من الأصنام، وأنك لا تعبدين إلا الرب؟ إن رب آبائى قد كشف لى سوء طويتك من خلال ملاك، فلعلك تعلمين إذًا أن شر الأشرار لا يضير من يخافون الرب فيتعففون عن الحرام. لآكلن طعامك أمام عينيك ولسوف يكون رب آبائى وملاك إبراهيم معى». عندها خرت زوجة فوطيفار على وجهها عند قدمى يوسف، ووعدته من بين دموعها بألا تقترف هذه الخطيئة مرة أخرى.

لكن شهوتها المحرمة تجاه يوسف لم تفارقها، ومن حسرتها على رغبتها

التى لم تنفذ بدا المرض على وجهها حتى إن زوجها قال لها: «لماذا شحب وجهك وتغيرت ملامحك هكذا؟» فأجابته: «قلبى يؤلمنى وأنّات روحى تقهرنى».

وذات مرة، كانت بمفردها مع يوسف فاندفعت نحوه صائحة: «سأخنق نفسى أو ألقى بنفسى فى بئر أو هاوية، لو لم تسلم لى نفسك». وعندما لاحظ هياجها الشديد حاول يوسف تهدئتها قائلاً: «تذكرى أنك لو قتلت نفسك فإن محظية زوجك، أستيحو، عَدُوَّتك، سوف تسئ معاملة أطفالك وتمحو ذكراك من على وجه الأرض». لكن هذه الكلمات التى قالها فى رقة أحدثت تأثيرًا عكس ما كان ينويه. إذ زادت شهوتها اشتعالاً بأن جعلتها تزداد أملاً فى تحقق أمنياتها منه. فقالت له: «انظر، ها أنت تحبنى! يكفينى أنك تخاف علىّ وتخاف على أولادى، أتوقع منك الآن أن تلبى لى رغبتى». ولم تكن تعلم أن يوسف لم يَقُلْ ما قاله إلا إرضاءً للرب، وليس من أجلها هى.

لكن سيدته، أو زليخة كما كانت تُدْعَى، ظلت تطارده يومًا بعد يوم بحديثها المعسول ومغازلاتها له قائلة: «يا لجمال طلعتك، يا لبهاء صورتك! لم أرَ أبدًا فى حياتى عبدًا فى مثل جمالك». فكان يوسف يجيبها قائلاً: «الرب الذى صورنى فى رحم أمى هو الذى خلق كل الرجال».

زليخة: «يا لجمال عينيك اللتين سحرت بهما كل المصريين رجالاً ونساءً!».

يوسف: «أجل. جميلتان هما طالما بقيت حيًا، وعندما أدفن فى قبرى يصبح منظرهما بشعًا».

زليخة: «يا لعذوبة حديثك وسحر كلماتك! أرجوك خذ قيثارتك واعزف وغنى لكى أسمع صوتك الشجى».

يوسف: «لا يكون صوتى شجيًا إلا وأنا أترنم بحمد ربى».

زليخة: «كم هو جميل شعرك! خذ مُشْطى الذهبى ومشطه».

يوسف: «إلى متى ستظلين تحدثيننى هكذا؟! انصرفى يا امرأة! إذهبى واعتنى بشؤون بيتك!».

زليخة: «ليس فى بيتى ما أهتم به سواك».

لكن عفة يوسف لم تهتز. فبينما كانت تكلمه بهذه الطريقة، لم يبالِ ولم يرفع عينيه لينظر فى وجه سيدته. وظل صامدًا حتى وهى تغدق عليه بالهدايا إذ كانت تعطيه ثوبًا ليلبسه فى الصباح وآخر للظهيرة وثالثا للمساء. ولا حتى استطاعت تهديداتها له التأثير عليه. وكانت تقول له: «سوف أتهمك بالزور أمام سيدك». فكان يوسف يجيبها قائلاً: «إن الرب ينصف المظلومين». أو تهدده قائلة: «لألقين بك فى السجن». فيرد قائلاً: «إن الرب يفك سجن المسجونين». أو تقول: «لأكلفنك بأعمال تقصم ظهرك نصفين». فيجيبها قائلاً: «إن الرب يرفع المتضعين». أو تتوعده قائلة: «لأسملَنّ عينيك». فيرد يوسف قائلاً: «إن الرب يفتح أعين العمى».

وعندما بدأت تتبع معه أسلوب الغواية النسائية كان يرفض إغراءاتها قائلاً: «إننى أخاف من سيدى». فتقول له زليخة: «سوف أقتله». فيرد ساخطًا: «ألا يكفيك أن تجعلى منى زانيًا، فتريديننى أن أصير قاتلاً كذلك؟!» ثم يقول لها: «إنى أخاف الرب إلهى».

زليخة: «هراء! إنه ليس معنا ليراك».

يوسف: «عظيم هو الرب، حميد مجيد، وليس فى عظمته أحد».

عند ذلك اصطحبت يوسف إلى غرفتها حيث كان هناك صنم معلق على سريرها. ثم غطت هذا الصنم لكيلا يشاهد ما ستفعله. فقال لها يوسف: «مع أنك قد غطيتِ عَيْنَىّ هذا الصنم، فتذكرى أن الرب يعدو جيئة وذهابًا فى الأرض كلها. أجل، عندى أسباب كثيرة تمنعنى من فعل ذلك لأجل خاطر الرب. لقد طرد آدم من الجنة لأنه خالف أمرًا بسيطًا؛ إذًا فكم يكون عقاب الرب لى إن أنا أرتكب فاحشة كالزنا!! إن الرب اعتاد اختيار واحد من أفراد

عائلتنا قربانًا لنفسه. ربما كان يريد اختيارى أنا، لكن لو حققت لك مأربك، فلن أصبح صالحًا كقربان للرب. كذلك فإن الرب اعتاد الظهور فجأة، فى رؤى ليلية، لمن يحبونه ـ وهكذا ظهر لإبراهيم وإسحق ويعقوب، وأخاف أن يظهر لى فى نفس اللحظة التى أدنس فيها نفسى معك. وكما أخاف الرب، أخاف من أبى، الذى سحب حق البكورة من ابنه البكر رأوبين، يسبب فعل قبيح، وأعطاه لى. ولو لبيت رغبتكِ سوف ألقى مصير أخى رأوبين».

بهذه الكلمات كان يوسف يحاول أن يعالج زوجة سيده من شهوتها الجامحة نحوه، وفى نفس الوقت كان يحاول ألا يقترف هذه الخطيئة البشعة، ليس خوفًا مما قد يحل به من عقاب، ولا خوفًا من كلام الناس، بل لأنه كان يريد تقديس اسم الرب، سبحانه وتعالى، أمام العالم كله. وهذا ما لم تكن زليخة تفهمه، وعندما غلبتها شهوتها بعد كل ذلك، أفصحت له بكل صراحة عما تريد، فتراجع عنها إلى الوراء، فقالت له: «لماذا ترفض تلبية رغبتى؟ ألست امرأة متزوجة؟ لن يكتشف أحد ما فعلته معى؟» فأجابها يوسف قائلاً: «لو كانت غير المتزوجات من الوثنيات قد حُرِّمْنَ علينا، فلأى درجة إذًا حرمت المتزوجات منهن؟ وحياة الرب، لن أرتكب تلك الجريمة التى تأمريننى بها». وفى هذا كان يوسف يقتدى بكثير من الأتقياء، الذين يحلفون عندما يكونون فى خطر من الاستسلام للإغواء، وبهذا يحاولون استجماع شجاعتهم الأخلاقية ليتحكموا فى غرائزهم الشريرة».

عندما بدأت كل محاولات زليخة لإقناعه بالفشل تملكتها حسرة أوقعتها مريضة وأتت كل نساء مصر لزيارتها وقالوا لها: «لماذا شحبت وهزلت هكذا، مع أنه لا ينقصك شىء؟ أليس زوجك واحدًا من أكبر الأمراء وأقربهم إلى قلب الملك؟ أيكون ذلك لرغبة قلبك فى شىء عسير نواله؟» أجابتهن زليخة قائلة: «لَتَعْلَمُنَّ اليوم سبب حالتى التى ترون».

أمرت خادمتها بإعداد الطعام لجميع النسوة وأعدت لهن وليمة فى منزلها. ووضعت على المائدة سكاكين ليقشِّرنَ بها البرتقال، ثم أمرت يوسف

بالظهـور أمـامـهن، فـخـرج عليـهن مـرتديًا أبهى الثـيـاب، وعندمـا دخل يوسف ورأته النسـوة، لم يسـتطعن تحـويل أعـينهن عنـه، وقطعن أيديهن بالسـكاكين وتغطت البـرتقـالات التى فى أيديهن بالدمـاء، لكنهن لـم يشـعـرن بكل ذلك، وظللن ينظرن إلى جمال يوسف دون أن يرفعن أعينهن عنه.

ثم قالت لهن زليخة: «ماذا فعلتن؟ انظرن! لقد وضعت أمامكن البرتقال لتأكلوه، لكنكن قطعتن أيديكن!» وعندها نظر جميع النساء إلى أيديهن.. يا إلهى! إن أيديهن مغطاة بالدماء التى سالت ولطخت أثوابهن! وعندها قلن لزليخة: «لقد سحرنا عبدك هذا ولم نستطع رفع أعيننا عنه لجماله». فقالت لهن: «فعلتن ذلك وأنتن لم ترونه إلا للحظة واحدة، ولم تستطعن رغم ذلك التحكم فى أنفسكن! كيف لى إذًا أن أتحكم فى نفسى معه وهو الذى يقيم فى بيتى وأراه رائحًا غاديًا كل يوم أمام عينى؟ كيف لى إذًا ألا أَهْزُل وتذهب نضارتى بسببه!» فقالت لها النسوة: «معك حق! فمن هى التى ترى كل هذا الجمال فى بيتها وتكبح جماح مشاعرها؟ لكنه عبدك! لماذا لا تصارحينه بما فى قلبك، بدلاً من ترك نفسك حتى تهلكى بسبب ذلك؟» أجابتهن زليخة: «إننى أحاول يوميا إقناعه، لكنه يرفض رغباتى. لقد وعدته بالكثير، بل وبكل شىء حسن، لكننى لم أَلْقَ منه إلا الصد والنفور، ولذا فقد مرضت كما ترون».

وازداد المرض عليها، ولم يشكَّ زوجها ولا أهل بيتها فى سبب هزالها، لكن كانت كل صديقاتها يعلمن أن سببه حبها ليوسف، ونصحنها أن تحاول بلا ملل إغوائه. وفى يوم من الأيام وبينما كان يوسف يقضى أشغال سيده فى المنزل، أتت إليه زليخة وهجمت عليه، لكن يوسف كان أقوى منها فطرحها أرضًا. بكت زليخة عند ذلك وقالت له فى صوت ملؤه الحسرة والتوسل: «هل رأيت أبدًا امرأة من أترابى فى مثل جمالى، أو امرأة تفوقنى جمالاً؟ ومع ذلك فأنا أحاول إقناعك يوميا، وأمرضنى حبك، وأغدق عليك بكل هذا الشرف، ورغم كل هذا لا تستجيب لى! أذلك لأنك تخاف من

سيدك، وعقابه؟ وحياة الملك، لن ينالك سيدك بسوء بسبب هذا الأمر. ولذا أرجوك أنصت إلىّ الآن، وأجبنى إلى ما أطلبه منك، من أجل الشرف الذى أمنحك إياه، وخلصنى من هذا الذى يكاد يقتلنى. إذ لماذا أموت بسببك؟»
لكن يوسف ظل صامدًا أمام هذه الوقاحات، كما صمد من قبل. ومع ذلك فلم يفتَّ ذلك فى عضد زليخة؛ إذ واصلت توسلاتها إليه دون كلل يومًا بعد آخر، وشهرًا بعد آخر، وطوال عام كامل، لكن الفشل كان نصيبها دائمًا، إذ أن يوسف بعفته لم يسمح لنفسه حتى بمجرد النظر إليها، وعندها لجأت إلى إرغامه على ذلك بأن وضعت قيدًا حديديا حول رقبته وتحت ذقنه فاضطر لرفع رأسه والنظر إلى وجهها.

يوسف يقاوم الغواية

لما رأت زليخة أنها لن تنال غرضها بالتوسلات ولا بالدموع، لجأت أخيرًا إلى القوة، عندما ظنت أن فرصتها التى تمنَّتها طويلاً قد واتتها فلم تضيِّعها. فعندما أتى فيضان النيل، وخرج الجميع إلى النهر، على حسب العادة السنوية للمصريين، رجالاً ونساءً، عامةً وأمراءً تصحبهم الموسيقى، عندها بقيت زليخة فى المنزل مدعية المرض. ها قد واتتها الفرصة أخيرًا، هكذا ظنت. وعندما انصرف الجميع نهضت من سريرها وصعدت إلى المندرة وارتدت أبهى ثيابها. وزينت رأسها بالأحجار النفيسة، وبحلىٍّ من الذهب والفضة مرصعة باليشب، وجَمَّلت وجهها وبدنها بكل أنواع الزينة التى تتزين بها النساء، وعطرت المندرة والمنزل كله بالعود والبخور ونثرت المر والريحان فى جميع الأنحاء، ثم جلست بعد ذلك عند مدخل الصالة فى الردهة المؤدية إلى المنزل، والتى يفترض أن يمر بها يوسف متوجهًا إلى عمله.

ها هو يوسف يأتى من الحقل ويوشك على دخول المنزل ليقضى أشغال سيده، لكنه عندما وصل إلى المكان الذى كانت زليخة تجلس فيه ورأى كل ما فعلته بنفسها، استدار راجعًا من حيث أتى. ولما رأت سيدته ذلك نادته قائلة: «ما الذى يضايقك يا يوسف؟ اذهب إلى عملك، سأفسح لك الطريق لكى تمر إلى مقعدك». وفعل يوسف ما أمرته به ودخل إلى المنزل وجلس فى مقعده وبدأ ينجز عمل سيده كالمعتاد. ثم وقفت زليخة أمامه فجأة بكل جمالها وبهاء ثيابها وزينتها المفرطة، وأعادت عليه طلب ما يتوق قلبها إليه. وكانت تلك أول وآخر مرة يفارق يوسف فيها ثباته، ولكن للحظة مجرد

لحظة. وعندما أوشك أن يستجيب لرغباتها رأى صورة أمه راحيل أمامه، وصورة خالته ليئة وأبيه يعقوب الذى قال له: «فى قادم الزمن ستنقش أسماء إخوتك على صدرية الكاهن الأعظم. ألا تريد أن يظهر اسمك منقوشًا مع أسمائهم؟ أم تراك ستفرط فى هذا الشرف بارتكابك لتصرف آثم؟ إذً فلتعلم أن من يرافق العاهرات يضيع نفسه». وقد أعادت هذه الرؤية، وخصوصًا صورة أبيه، يوسف إلى عقله، وفارقته شهوته فى الحال.

ولما لاحظت زليخة ذلك التغير السريع فى ملامحه، اندهشت وقالت: «يا صديقى وحبة روحى، ما الذى أرعبك إلى هذا الحد حتى إنك لتكاد تفقد وعيك؟!».

يوسف: «إننى أرى الآن والدى!».

زليخة: «أين هو؟ لا أحد فى المنزل!».

يوسف: «أنت من قوم كالحمير لا يرون شيئًا. لكننى من قوم يستطيعون رؤية الأشياء».

ثم فر يوسف هاربًا من منزل سيدته، وهو نفس المنزل الذى حدثت فيه من قبل العجائب إذ كانت سارة قد حبست فيه أسيرة لفرعون. لكنه ما كاد يخرج حتى غلبته شهوته مرة أخرى، وعاد إلى غرفة زليخة. ثم ظهر له الرب حاملاً «ابن شيتاى» فى يده وقال له: «لو لمستها فسوف أرمى هذا الحجر الذى تأسست الأرض فوقه، وحينها سينهار العالم». فعاد يوسف إلى رشده مرة أخرى وبدأ يهرب من سيدته، لكن زليخة أمسكت بثوبه وقالت: «وحياة الملك، لئن لم تُلَبِّ لى رغبتى لأقتلنك!» ثم استلت بيدها الحرة سيفًا من ثيابها ووضعته على نحر يوسف وقالت: «افعل ما آمرك به وإلا ستموت» فر يوسف هاربًا تاركًا قطعة من ثوبه فى يدى زليخة كانت قد تمزقت وهو يتخلص من قبضة المرأة فى حركة سريعة قوية.

لكن شهوة زليخة تجاه يوسف كانت عنيفة إلى حد أنها أمسكت بمزقة

ثوب يوسف الذى لم تفلح فى إخضاعه لشهواتها وأخذت تقبِّل المزقة وتحتضنها فى عنف. وفى نفس الوقت لم تكن غافلة عن الخطر الذى أوقعت نفسها فيها بغبائها.

وفى أثناء ذلك عادت صديقاتها من مهرجان النيل وذهبن إليها ليزرنها ويطمئن على صحتها. ووجدنها مصفرة الوجه وفى حالة مزرية من جراء الإثارة التى عانتها والتوتر الذى عاشته. واعترفت للنسوة بما حدث منها مع يوسف فنصحنها بأن تتهمه بمحاولة التهجم عليها أمام زوجها، وسيلقى به فى السجن عند ذلك. وتقبلت زليخة نصيحتهن ورجتهن أن يدعمن اتهامها ليوسف بأن يشتكين منه ويدعين عليه أنه كان يضايقهن ويعرض عليهن ارتكاب أفعال مشينة.

لكن زليخة لم تركن بالكلية إلى عون صديقاتها. وقررت أن تبتكر حيلة لتتأكد من اقتناع زوجها بذنب يوسف - خلعت عنها زينتها النفيسة وارتدت ثيابها العادية ولزمت فراش المرض الذى كانت راقدة فيه عندما تركها أهل المنزل وذهبوا إلى الاحتفال - كما أخذت ثوب يوسف الممزق ووضعته بجوارها، ثم أرسلت غلامًا لينادى لها على رجال المنزل فلما حضروا راحت تقص عليهم حكايتها المفتراة عن تهجم يوسف عليها قائلة: «انظرا إلى هذا العبد العبرى الذى جلبه سيدكم إلى منزلى، والذى حاول التهجم علىّ اليوم! ما كدتم تغادرون المنزل ذاهبين إلى الاحتفال إلا ودخل المنزل مطمئنًا إلى عدم وجود أحد به، وحاول التهجم علىّ وإكراهى على إرضاء رغباته الدنيئة. لكننى أمسكت ثيابه ومزقتها وصرخت بأعلى صوتى. فلما رآنى رفعت صوتى بالصراخ تملكه الرعب وفر هاربًا وخرج من المنزل، لكنه ترك قميصه بجوارى». ولم يجبها الرجال بحرف، ولكنهم اشتاطوا غضبًا من يوسف وهرولوا إلى سيدهم فقصوا عليه ما سمعوه. وفى هذه الأثناء كان أزواج صديقات زليخة قد اشتكوا هم أيضًا إلى فوطيفار، بتحريض من زوجاتهم، وقالوا له إن العبد حاول التهجم على زوجاتهم.

هرول فوطيفار عائدًا إلى منزله ووجد زوجته فى حالٍ يرثى لها، وبرغم أن ما كانت فيه كان سببه فشلها فى الفوز بحب يوسف، فأنها ادعت أن سببه غضبها من ذلك الفعل المشين الذى ارتكبه العبد. واتهمته قائلة: «أوه يا زوجى العزيز.. ليتك تموت ولا تعيش يومًا واحدًا لو لم تعاقب ذلك العبد الشرير الذى أراد أن يدنس فراشك، ولم يراع كيف كان عندما جاء إلى منزلنا فيلتزم العفة، ولا تذكر صنائعك الطيبة معه التى جُدّت عليه بها. لقد أضمر فى نيته الخبيثة تدنيس زوجتك، وخطط لذلك فى وقت الاحتفال، عندما تغيب عن المنزل». وحدثت فوطيفار بهذه الكلمات فى ساعة خلوة معه، وهى واثقة أنها ستؤثر على زوجها.

وصدق فوطيفار كلامها، وأمر بجلد يوسف فى وحشية. وبينما الضربات القاسية تنهال عليه، صرخ مستغيثًا بالرب يقول: «يا إلهى، إنك لتعلم أننى برئ من هذه الأشياء، فلِمَ أموت اليوم بسبب اتهامات زائفة على أيدى هؤلاء الأشرار الغُلْف؟[1]» وفتح الرب فم طفل زليخة، وكان رضيعًا لا يتجاوز الأحد عشر شهرًا، فكلم الرجال الذين كانوا يضربون يوسف قائلاً: «فيم تتشاجرون مع هذا الرجل؟ لماذا تؤذونه هكذا؟ ما تكلمت أمى إلا بالكذب، ولا ينطق فوها إلا بالخداع. إليكم حقيقة ما حدث». وقص عليهم الطفل كل ما حدث، وكيف حاولت زليخة فى البداية أن تقنع يوسف بفعل الشر، ثم كيف لجأت بعد ذلك إلى القوة لإجباره على تنفيذ رغبتها. واستمع إليه الناس فى ذهول. لكن بعدما انتهى الطفل من حكايته، عاد صامتًا لا ينطق، كما كان من قبل.

تأثّر فوطيفار بحديث طفله وأمر رجاله بالكف عن إيذاء يوسف، وصَعَّد الأمر إلى القضاء حيث يجلس الكهان قضاة. واحتج يوسف بأنه برىء وقص عليهم بمنتهى الصدق كل ما حدث، لكن فوطيفار كرر على مسامع القضاة ما حكته له زوجته. وأمر القضاة بإحضار ثياب يوسف التى فى حوزة زليخة،

(١) أى غير المختونين.

وفحصوا القطع الذى انقطع فيها. وتبين أن القطع كان فى الجزء الأمامى من الثوب، ومن ثم استنتجوا أن زليخة كانت تحاول الإمساك به بقوة، لكن يوسف لم يدعها تفعل ذلك، وها هى الآن تدَّعى عليه بالبهتان. وقرروا أن يوسف لم يفعل ما يستوجب الحكم عليه بالإعدام، لكنهم حكموا عليه بالسجن، لأنه تسبب فى تلويث سمعة زليخة الطيبة.

كان فوطيفار نفسه مقتنعًا ببراءة يوسف، وعندما ألقاه فى السجن قال له: «أعلم أنك لم ترتكب تلك الجريمة البشعة، لكن لابد لى من حبسك لكى لا تتلوث سمعة أطفالى».

يوسف فى السجن

عقابًا له على الوشى بإخوته العشرة عند أبيه، كان على يوسف أن يتحمل الشقاء طوال عشرة أعوام فى السجن الذى تسببت فيه نميمة الأشرار والوشاة. لكن ولأنه كان قد قدس اسم الرب أمام العالم بعفّته وثباته على الفضيلة، فقد كوفئ على ذلك. فقد أضيف الحرف «هى» (= الهاء) - والذى يتكرر فى اسم الرب مرتين (= يهوه) إلى اسمه. وكان اسمه من قبل يوسف فأصبح الآن «يهوسف».

وبرغم أنه كان محبوسًا فى السجن، فإن يوسف لم يصبح فى مأمن من حِيَل سيدته التى لم تخف شهوتها مطلقًا تجاهه. بل إنها كانت هى التى دفعت زوجها لتغيير ما كان ينوى عمله مع يوسف؛ فقد استحثته على سجن العبد بدلاً من قتله، إذ كانت تتمنى أنه سيرضخ بسهولة لطلباتها عندما يصير سجينًا. وكلمت زوجها قائلة: «لا تتلف ما تملك ألق بالعبد فى السجن وأبقه فيه حتى تستطيع بيعه وتسترد المال الذى دفعته فيه». وهكذا أتيحت لها الفرصة لزيارة يوسف فى زنزانته ومحاولة إقناعه بتنفيذ رغبتها. وكانت تقول له: «لقد فعلت بك كيت وكيت، لكن وحياتك لترين منى المزيد إن لم تفعل ما أمرتك به». لكنه كان يرد عليها قائلاً: «إن الرب ينصف المظلومين».

زليخة: «سوف أبذل ما فى وسعى ليكرهك كل الناس».

يوسف: «الرب يحب المتقين».

زليخة: «سوف آمر بنفيك إلى بلاد غريبة».

يوسف: «الرب يحفظ الغرباء».

ثم كانت تلجأ بعد ذلك إلى الإغراء لتحصل على ما تريد. وكانت تعده بأنه ستخرجه من السجن، فقط لو حقق لها رغبتها. لكنه كان يقول لها: «أفضل لى أن أكون هنا من أكون معك وارتكب معصية فى حق الرب». وواصلت زليخة زياراتها هذه إلى يوسف فى السجن لزمن طويل، لكنها عندما رأت فى النهاية أن أملها قد خاب، تركته وشأنه.

وكما بقيت سيدته على حبها له، فإن سيده، زوجها، لم يستطع أن ينفصل عن عبده المحبوب. وبرغم أنه كان سجينًا، فقد واصل يوسف القيام بحاجات فوطيفار، وكان مأمور السجن يسمح له بقضاء بعض الوقت فى بيت سيده. وقد أظهر مأمور السجن طيبته تجاه يوسف بطرق أخرى عديدة. فمع رؤيته لحماس الشاب وإخلاصه فى تنفيذ المهام التى أوكلت إليه، وبتأثير من جماله الآسر، جعل المأمور حياة السجن سهلة على يوسف بقدر ما كانت تتيح له مسؤولياته. بل إنه أمر له بطعام أفضل مما هو مقرر فى السجن، ورأى أنه من المبالغة مراقبة يوسف، فلم يكن يرى منه ما يسوء كما لاحظ أن الرب معه، فى السراء وفى الضراء، بل إنه عَيَّنَه مشرفًا على السجن وكان السجناء الآخرون يأتمرون بأوامره.

ظل الناس لفترة طويلة لا يتحدثون إلا عن الاتهامات التى وجهتها سيدة يوسف له. ولكى يحوِّل أنظار الناس عنه، قدر الرب أن يرتكب اثنان من ضباط الملك الكبار، وهما ساقيه وخبازه، جريمة فى حق الملك، وأُمِرَ بحبسهما فى بيت رئيس الحرس. عند ذلك كف الناس عن الكلام فى حق يوسف، وما عادوا يتكلمون إلا عن الفضيحة التى حدثت فى البلاط. وكان الضابطان قد تم اتهامهما بمحاولة التعدى على ابنة الفرعون، وبأنهما قد خططا لتسميم الفرعون نفسه. كما أنهما قد أهملا فى أداء واجبات وظيفتيهما. ففى الخمر التى قدمها ساقى الملك للملك أُكتشف وجود ذبابة،

بينما الخبز الذى وضعه الخباز أمام الملك، وجدت فيه حصاة. وبسبب هذه التجاوزات حكم عليهما الفرعون بالموت، لكن لأجل خاطر يوسف شاء الرب أن يأمر الملك بإلقائهما أولاً فى السجن قبل تنفيذ الحكم عليهما. وما أشعل الرب غضب الملك تجاه خادميه إلا لتتحقق رغبة يوسف فى التحرر من سجنه، إذ كانا يمثلان وسيلة لخلاصه من السجن، وبرغم الحكم عليهما بالسجن، فإن مأمور السجن، ومراعاة منه لمنصبيهما الكبيرين من قبل فى البلاط، قد منحهما بعض المزايا، فمثلاً عين لهما رجلاً يقوم على خدمتهما، وكان ذلك الرجل هو يوسف.

حُبس الساقى والخباز فى السجن عشر سنوات رأى بعدها كل منهما حلمًا لكن لم يستطع أى منهما إلا تفسير حلم صاحبه. وفى الصباح، عندما جلب إليهما يوسف الماء ليغتسلا، وجدهما حزينين مكتئبين، فتحلى بروح الحكماء وسألهما عن سبب اختلافهما اليوم عن بقية الأيام. قالا له: «لقد حلم كل منا حلمًا ليلة الأمس، ويتشابه حلمانا فى بعض التفاصيل، وليس هناك من يستطيع تفسيرهما لنا». فقال لهما يوسف: «لقد منح الربُّ الإنسانَ القدرة على الفهم ليفسر الأحلام. أخبرانى بحلميكما، من فضلكما». ومكافأة له على تعظيمه للرب ونسبته الفضل إليه، وهو مستحقه، أنعم الرب على يوسف فيما بعد بمكانته العالية.

وبدأ الساقى يحدثه بحلمه قائلاً: «لقد رأيت فى حلمى كرمة أمامى، وكان بالكرمة ثلاثة أفرع، وبدا لى وكأنها كانت بها الكثير من البراعم وأن نوّاراتها قد تفتحت، وأخرجت عناقيد امتلأت بالعنب الناضجة؛ ثم رأيت كأس فرعون فى يدى فأخذت العنب وعصرته فى كأس فرعون ثم ناولت فرعون كأسه».

ولم يكن الساقى يدرك أن حلمه كان به نبوءة تخص مستقبل «إسرائيل» لكن يوسف أدرك ما به من معان خفية، وفسر الحكم على النحو التالى: فالأفرع الثلاثة هم الآباء الثلاثة إبراهيم وإسحق ويعقوب الذين سيتزعم ذريتهم فى مصر ثلاثة زعماء هم موسى وهارون ومريم؛ والكأس التى

تناولها الفرعون هى كأس الغضب التى سيتجرعها فى النهاية(*). وقد احتفظ يوسف لنفسه بهذا التأويل ولم يخبر به كبير السقاة، لكنه، وامتنانًا لتلك الأخبار السعيدة عن خلاص إسرائيل من الاستعباد فى مصر، فقد أعطاه تفسيرًا جميلاً للحلم ورجاه أن يذكره عندما تضحك له الدنيا، ويعود ليخرجه من زنزانته التى حُبس فيها.

عندما سمع الخباز تفسير يوسف لحلم الساقى، علم أن يوسف قد أوَّل الحلم على نحو صحيح، إذ كان قد رأى فى حلمه هو تفسير حلم صاحبه، فتشجع ومضى يُخبر يوسف بحلمه قائلاً: «أنا أيضًا حلمت بثلاث سلال من الخبز الأبيض وكانت كلها فوق رأسى؛ وكان فى السلة العليا كل أنواع اللحوم المشوية لفرعون؛ وأخذت الطيور تأكل من السلة التى فوق رأسى». وكان هذا الحلم هو الآخر يحمل نبوءة تخص مستقبل إسرائيل: فالسلال الثلاث هى الممالك الثلاث التى سيَخْضَعُ لها إسرائيل وهى بابل وميديا واليونان، والسلة العليا تشير إلى الحكم الرومانى الشرير، والذى سيمتد ويشمل كل شعوب الأرض، إلى أن يأتى الطائر، وهو المسِّيا، ويزيل روما من الوجود. ومرة أخرى أبقى يوسف تلك النبوءة سرًا، ولم يَبح للخبَّاز إلا بما يخصه من الرؤيا، لكنه لم يكن أمرًا طيبًا، لأن يوسف علم من حلم الرجل المعاناة التى سيعانيها إسرائيل.

وحدث كل ما قاله يوسف فى اليوم الثالث. ففى اليوم الذى شرح فيه يوسف معانى أحلام السجينَينْ ذويا المكانة المتميزة، ولد لفرعون ولد فقرر الاحتفال بهذه المناسبة السعيدة وأعد وليمة لأمرائه وخدمه تقرر أن تستمر لثمانية أيام. ودعاهم وجميع الناس إلى مائدته وأغدق عليهم بسخائه الملكى. وبدأت الوليمة فى اليوم الثالث بعد ميلاد الطفل، وبهذه المناسبة أعيد كبير السقاة مكَّرمًا إلى سابق وظيفته، بينما تم صلب الخباز، إذ كان مستشارو

(*) انظر إلى هذا التأويل الغريب للحلم! ولم لا؟! فكل شىء فى هذا الوجود مخصص لخدمة بنى إسرائيل!! كما يزعمون ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾.

فرعون قد اكتشفوا أن سقوط الذبابة فى خمر الملك لم يكن غلطة الساقى، لكن الخباز كان مذنبًا بإهماله الذى تسبب فى سقوط الحصاة فى الخبز. كذلك اتضح أن الساقى لم يكن متورطًا فى مؤامرة تسميم الملك، بينما اتضح تورط الخباز فيها، وكان عليه أن يدفع حياته ثمنًا لجريمته.

أحلام فرعون

إذا شئنا الدقة فى الكلام، فإن يوسف كان من المفترض أن يتحرر من سجنه فى نفس يوم خروج الساقى، إذ كان قد مضى عليه فى السجن حتى ذلك الحين عشر سنوات، وكان قد كَفَّر، بتلك المدة، عما اقترفه من جرم فى حق إخوته العشرة. ومع ذلك فقد بقى فى السجن لعامين آخرين.. «بورك من يثق بالرب، ومن كان أمله هو الرب»، لكن يوسف كان قد وضع ثقته فى اللحم والدم. لقد توسل إلى كبير السقاة أن يذكره عندما تتصلح أحواله، ويذكر قصته أمام فرعون، ونسى الساقى وعده له، ولذا فقد اضطر يوسف إلى البقاء فى السجن أكثر من المدة المقررة له بعامين. ولم يكن الساقى قد تعمد نسيان أمره، لكن الرب هو الذى شاء أن تخونه ذاكرته. وكان كلما قال لنفسه: «لو حدث كذا وكذا فسأذكر قضية يوسف» فإن الظروف التى ذكرها تتغير وتتقلب، أو كان كلما عقد عقدة لتذكِّره بأمره يأتى ملاك ويحل العقدة، فلا يَرِدُ يوسف على باله.

لكن «الرب يضع نهاية للظلام»، ولم يتأخر تحرر يوسف لحظة واحدة بعد الوقت الذى شاءه الرب له. وقال الرب: «أنت أيها الساقى، إن كنت قد نسيت يوسف، فأنا لم أَنْسَهُ» وجعل فرعون يرى حلمًا كان السبب فى إطلاق سراح يوسف.

رأى فرعون فى حلمه سبع بقرات سمان ممتلآت لحمًا تخرج من النيل وأخذت جميعها ترعى فى هدوء وسكينة على ضفة النهر، ففى الأيام التى

يتوافر فيها الحصاد تسود الصداقة بين الرجال، وكذلك الحب والأخوة، وكانت هذه البقرات السبع السمان ترمز لسبع سنوات مماثلة من الرخاء. وبعد البقرات السمان خرجت سبع أُخَر من النهر، وكانت عجافًا هزيلات، وظهر إحداهما إلى ظهر الأخرى، إذ عندما تشتد الخطوب، يولى الرجل ظهره لأخيه، استيقظ فرعون لبرهة، وعندما راح فى النوم مرة أخرى، رأى حلمًا آخر عن سبع سنبلات قمح خُضْر ممتلآت وسبع أخر يابسات لفحتها الريح الشرقية، وابتلعت السنبلات اليابساتُ السنبلات الخضر، واستيقظ من فوره، وكان الصباح قد لاح، والأحلام التى نراها فى الصباح هى التى تتحقق.

لم تكن تلك هى المرة الأولى التى يرى فيها فرعون هذه الأحلام، إذ ظل يراها كل ليلة طوال عامين، ولكنه كان ينساها فى الصباح. وكانت هذه هى أول مرة يتذكرها فيها، إذ كان قد حل اليوم الذى سيخرج فيه يوسف من سجنه. تسارعت دقات قلب فرعون عندما تذكر أحلامه عندما استيقظ من نومه. وكان الحلم الثانى عن السنبلات هو أكثر ما أقلق باله وأزعجه. وقال لنفسه أن كل ما له فم يأكل، وذلك مفهوم مع البقرات العجاف التى أكلت السمان، لكن أن تبتلع السنبلات اليابسات السبع الخضر، فإن ذلك هو ما أغمه كثيرًا. ولهذا استدعى جميع حكماء بلده، وحاولوا دون جدوى أن يفسروا له أحلامه تفسيرًا مقبولاً. وقالوا له إن البقرات السبع السمان يُشِرنَ إلى سبع بنات سيولدن لفرعون، والسبع العجاف ترمز إلى أنه سيدفن سبع بنات، أما السنبلات السبع الخضر فيرمزن إلى أنه سيفتح سبع بلاد، أما السبع اليابسات فيرمزن إلى أنه ستثور ضده سبع أقاليم. ولم يتفقوا جميعًا فى أمر السنبلات. وظن بعضهم أن السنبلات السبع الخضر يرمزن إلى سبع مدن سيبنيها فرعون، وأن السنبلات السبع اليابسات تشير إلى أن هذه المدن السبع نفسها ستخرب فى نهاية حكمه.

وبحكمته وفطنته علم فرعون أن أيّاً من هذه التأويلات لم يُصِبْ كبد

الحقيقة. وأصدر أمرًا باستدعاء جميع مفسرى الأحلام للمثول بين يديه، ومن يتخلف يقتل، ووعد بمنح من يفلح فى تفسير أحلامه التفسير الصحيح العطايا والمزايا الكثيرة. واستجابة لأوامره حضر جميع الحكماء والسحرة والكتبة المقدسون الذين كانوا فى «مصرايم»، ومدينة مصر وكذلك الذين من جاسان ورعمسيس وزوعان وكل مصر، وأتى معهم الأمراء والضباط وخدام الملك من جميع مدن البلد.

قص الملك أحلامه عليهم جميعًا، لكن لم يستطع أى منهم تفسيرها تفسيرًا يرضيه. وقال بعضهم إن البقرات السبع السمان هى الملوك السبع الشرعيون الذين سيحكمون مصر، أما البقرات السبع العجاف فكانت ترمز إلى الأمراء السبعة الذين سيثورون ضد هؤلاء الملوك السبعة ويقضون عليهم. أما السنبلات السبع الخضر فهى الأمراء السبع العظام المصريون الذين سينخرطون فى الحرب لصالح ملكهم، وسوف ينهزمون أمام سبعة أمراء حقراء، ترمز إليهم السنبلات السبع اليابسات.

وفى تفسير آخر أن البقرات السبع السمان هى مدن مصر السبع المحصنة، والتى ستسقط فى قادم الزمان فى أيدى سبع أمم كنعانية ترمز إليها البقرات السبع العجاف. ووفقًا لهذا التفسير، فإن الحلم الثانى يكمل الحلم الأول. وكان يعنى أن ذرية فرعون سوف يستعيدون السيطرة على مصر فى فترة لاحقة وسوف يخضعون الأمم الكنعانية السبع لسلطانهم كذلك.

وكان هناك تأويل ثالث لبعض المفسرين: وهو أن البقرات السبع السمان هى سبع نساء سيتزوجهن فرعون، لكنهن سَيَمُتْنَ فى حياته، ويشير إلى وفاتهن البقرات السبع الهزيلات. علاوة على ذلك سيكون لفرعون أربعة عشر ولدًا وسوف يتغلب السبعة الأقوياء منهم على السبعة الضعفاء، كما ابتلعت السنبلات السبع اليابسات فى حلمه السبع الخضر.

وتأويل رابع يقول: «سيكون لك سبعة أبناء يا مولاى الفرعون، وهم البقرات السبع السمان. ولسوف يُقْتَل أبناؤك على أيدى الأمراء السبعة

الأقوياء المتمردين. لكن بعد ذلك سيأتى سبعة أمراء صغار ويقتلون الأمراء السبعة المتمردين، وينتقمون لذريتهم ويعيدون السلطان لأسرتك».

ولم يرض الملك عن هذه التأويلات، كما لم يرض عن التأويلات الأخرى التى سمعها من قبل، واشتاط غضبًا فأمر بقتل الحكماء والسحرة وكتبة مصر، واستعد الجلادون لتنفيذ المرسوم الملكى.

ومع ذلك فإن ميرود، كبير سقاة فرعون، تملكه الرعب لما رأى أن الملك منزعج جدا من فشله فى تأويل أحلامه التأويل الصحيح لدرجة أنه كان على وشك أن يلقى حتفه غما. وأثار احتمال موت الملك خوفه وقلقه، إذ لم يكن يضمن أن خليفة فرعون على العرش سيبقيه فى منصبه. وعزم على أن يبذل كل ما فى وسعه للحفاظ على حياة فرعون، ولذا تقدم إلى حضرته قائلاً: «لقد تذكَّرت أننى أخطأت اليوم مرتين، فقد أظهرت نفسى ناكرًا لجميل يوسف إذ لم أحمل إليك مظلمته، كما رأيتك فى كرب من حلمك دون أن أخبرك بأن يوسف يستطيع تعبير أحلامك فعندما شاء الرب إلهنا أن يغضب فرعون على عبيده، وضعنى الملك محبوسًا فى بيت رئيس الحرس، أنا وكبير الخبازين. وكان معنا شاب بسيط، وهو من الجنس العبرى المنبوذ، وكان عبدًا لقائد الحرس وقد فسر لنا أحلامنا، وتحققت كما فسرها. لذا فأرجوك يا مولاى الملك بأن تأمر جلاديك فلا يعدمون المصريين. فلا زال العبد الذى حدثتك عنه فى الزنزانة، ولو وافق الملك على استدعائه إلى هنا، فإنه سيفسر دون شك أحلامك».

يوسف أمام فرعون

«ملعون هو ذلك الشرير الذى لا يُتمُّ عملاً طيبًا». لقد وصف كبير السقاه يوسف «بالعبد» لكى يستحيل عليه أن يتبوَّأ مكانة متميزة فى البلاط، إذ كانت كتب شريعة القوانين فى مصر تُحَرِّمُ تحريمًا قاطعًا أن يجلس أى عبد على العرش ملكًا ولا حتى أن يضع قدمه فى ركاب فرس الملك.

أبطل فرعون المرسوم الذى أصدره بإعدام حكماء مصر، وأرسل فى طلب يوسف. وشدَّد على رسله الذين أرسلهم بأن يعتنوا بيوسف ولا يزعجوه فيتعكر مزاجه فلا يقدر على تأويل أحلام الملك على نحو صحيح. وأسرعوا يخرجونه من الزنزانة، لكن يوسف قبل أن يخرج، واحتراماً للملك، حلق ذقنه وشعره وارتدى ثيابًا جديدة نظيفة، كان أحد الملائكة قد جلبها له من الجنة، وبعد ذلك ذهب إلى حضرة فرعون.

كان الملك يجلس على العرش الملكى مرتديًا ثيابه الملكية وقد زين صدره بصدرية ذهبية، وتلألأ الذهب الخالص فى الصدرية بينما توهجت الماسات والياقوت والزمرد كألسنة اللهب، بينما التمعت الأحجار النفيسة التى رصع بها الملك تاجه، كالنار المستعرة، وذهل يوسف من منظر الملك. كان العرش الذى يجلس عليه مغطى بالذهب والفضة المطعمين بأحجار الزبرجد، وكان له سبعون درجة من السلالم. وكان الملك كلما جاءه أمير أو أحد النبلاء يزوره، نزل إلى الدرجات الخمس والثلاثين الأولى وجلس على الدرجة السادسة والثلاثين ليتكلم معه. لكن إذا جاءه أحد من العامة فإنه يصعد إلى

الدرجة الثالثة بينما ينزل إليه الملك أربع درجات فقط عن مكان عرشه ويخاطبه من هناك. كذلك كان معتادًا أن من يعرف اللغات السبعين جميعًا يصعد الدرجات السبعين إلى حيث العرش، أما إن كان لا يعرف إلا بعض اللغات فإنه كان يصعد عددًا من الدرجات مساويًا لعدد اللغات التى يعرفها، سواء كانت قليلة أم كثيرة. كذلك كان من عادة المصريين ألا يتملك عليهم أحد إلا إذا كان يعرف اللغات السبعين جميعًا.

عندما مَثُل يوسف أمام الملك خر ساجدًا وصعد إلى الدرجة الثالثة بينما جلس الملك على الدرجة الرابعة من أعلى من عند العرش، وكلم يوسف قائلاً:

«أيها الشاب، إن عبدى شهد أمامى أنك أفضل وأحكم من أستشير. فأرجوك أن تمنحنى ذلك الفضل الذى جُدّت به على عبدى هذا، وأخبرنى بماذا تشير إليه رؤاى التى رأيتها. وأريد منك ألا تكتم عنّى شيئًا خوفًا منّى، ولا تطرينى بالكذب، ولا تحاول إرضائى بمعسول الكلمات. فقط أخبرنى بالحقيقة، حلوةً كانت أو مُرَّة».

فى البداية سأل يوسف الملك إن كانت التأويلات التى قدمها له حكماء بلده غير صحيحة، فأجابه الفرعون: «لقد رأيت الحلم وتعبيره معًا، ولذا فلن يستطيعوا خداعى». وفى تواضع قال له يوسف أنه ليس كفؤًا فى تفسير الأحلام. وقال له: «ليس الأمر لى، بل هو للرب، وإن شاء الرب فلسوف يأذن لى بإخبار الملك بالأخبار السعيدة». وكوفئ على تواضعه ذلك بأن صار سلطانًا على مصر، إذ أن الرب يكرم من يوقرونه. وهكذا أيضًا كوفئ دانيال على كلامه مع نبوخذ نصر، إذ قال:

«هناك إله فى السموات يكشف الأسرار، لكن عن نفسى فلم يُكْشَف هذا السر لى لحكمة أمتلكها وأتميز بها عن غيرى من المخلوقات، لكن لكى ينكشف التأويل للملك، ولكى تعلم ما يجول فى قلبى».

ثم بدأ فرعون يقص حلمه، مع تغيير بعض النقاط والتفاصيل ليختبر

قدرات يوسف المزعومة. لكن الشاب صحح له تلك النقاط، وجمع الأحلام بعضها إلى بعض تمامًا كما رآها فرعون فى منامه، واندهش الملك لذلك اندهاشًا عظيمًا. وقد استطاع يوسف إنجاز ذلك لأنه كان قد رأى نفس الحلم الذى رآه فرعون، وفى نفس الليلة كذلك. عند ذلك قص عليه فرعون أحلامه مرة أخرى بكل تفاصيلها وظروفها، وكما رآها بالضبط فى منامه، باستثناء عدم ذكره للنيل فى وصفه للبقرات السبع العجاف، لأن المصريين كانوا يعبدون النهر، وكره أن يقال أن ربه (= النيل) سبب للشر أيا كان.

الآن شرع يوسف يفسر للملك حلميه. وكان كلاهما نبوءة تخص السنوات السبع الآتية بالرخاء والسنوات السبع التى تليها بالمجاعة.

وفى الواقع فقد كان غرض الرب أن يضرب مصر بمجاعة تدوم اثنتين وأربعين سنة، لكن لم يتحقق منها إلا عامان فقط أصيبت فيهما البلاد بتلك المحنة، وذلك لأجل بركة يعقوب التى جلبها معه عندما أتى إلى مصر فى العام الثانى للمجاعة. أما الأربعون عامًا الأخرى من المجاعة فقد ضربت البلاد أيام النبى «حزقيال».

ولم يكتف يوسف بمجرد تفسير الأحلام. فعندما أبدى الملك ارتيابه من صحة التأويل، أخبره يوسف ببعض الإشارات والرموز. قال له: «لتكن هذه أمارة لك بأن كلامى صحيح، ونصيحتى ممتازة: إن زوجتك التى تجلس على كرسى الولادة فى هذه اللحظة، سوف تلد لك ابنًا ولسوف تفرح به، لكن وسط أفراحك ستبلغك الأنباء المؤسفة عن موت ابنك الأكبر، الذى ولد لك من عامين فقط، ولسوف يعزيك مولد أحدهما فى موت الآخر». وما كاد يوسف ينصرف من حضرة الملك إلا ووصلته الأخبار بأنه قد أنجب ولدًا، وأعقبتها أخبار موت ابنه البكر الذى سقط فجأة على الأرض وقضى. عند ذلك أرسل فى طلب جميع نبلاء بلده وجميع خدمه وكلمهم قائلاً: «لقد سمعتم كلام العبرى، وقد رأيتم أن الأمارات التى ذكرها قد تحققت، وأعلم

أنا أيضًا أن تفسيره للحلم صحيح. الآن أشيروا علىّ كيف ننقذ البلد من خراب تلك المجاعة. ابحثوا هنا وهناك عن رجل ذى رأى وبصيرة لأجعله على البلد، فأنا أومن أننا لن نستطيع إنقاذ البلاد إلا إذا أنصتنا لنصيحة العبرى». وعندها أقر النبلاء والأمراء أنهم لن يضمنوا السلامة إلا بالاستمساك بنصيحة يوسف واقترحوا عليه، أن يختار الملك بنافذ بصيرته رجلاً يراه أهلاً لهذه المهمة العظيمة. وعند ذلك قال فرعون: «لئن قطعنا الأرض بحثًا من أطرافها إلى أطرافها، فلن نجد مثل يوسف الذى حلت عليه روح الرب. ولئن وافقتمونى على ذلك، فلسوف أجعله على الأرض التى أنقذها بحكمته».

تذمر المنجمون، وكانوا مستشاريه، وقالوا له: «أتنوى أن تنصب علينا سيدًا لنا عبدًا اشتراه مالكه الحالى بعشرين قطعة من الفضة؟» لكن فرعون رد عليهم منتقدًا كلامهم بأن يوسف ليس فقط رجل ولد حرًّا دون أدنى قدر من الشك، بل وبأنه سليل عائلة نبيلة كذلك. ورغم ذلك لم يصمت أمراء فرعون وواصلوا اعتراضهم على يوسف قائلين: «ألا تعرف قانون المصريين الذى لا يمكن مخالفته، بأنه لا يمكن لأحد بأن يعين ملكًا ولا ولى عهد إلا إذا كان يتكلم جميع لغات البشر؟ وهذا العبرى لا يعرف إلا لغته، فكيف يمكن إذًا لرجل أن يحكمنا ولا يستطيع حتى التكلم بلغة بلادنا؟ أرسل فى طلبه وإحضاره إلى هنا وامتحنه فى كل الأشياء التى يجب على الحاكم أن يعرفها ويمتلكها، ثم قرر بعدها ما تراه حكمتك».

رضخ فرعون لمطالبهم ووعدهم بأنه سيفعل ما يريدون، وقرر أن يختبر يوسف فى اليوم التالى، وكان يوسف قد عاد أثناء ذلك إلى سجنه، إذ كان سيده قد خاف على زوجته منه وخاف من عواقب إقامته فى منزله. وخلال الليل ظهر جبريل ليوسف وعلمه اللغات السبعين جميعها، فتعلمها بسرعة من الملاك الذى غير اسمه من يوسف إلى «يهوسف». وفى الصباح التالى عندما مَثُل أمام فرعون ونبلاء المملكة، ونظرًا لأنه كان يعرف اللغات

السبعين جميعًا، فقد ارتقى جميع درجات العرش الملكى، حتى وصل إلى الدرجة السبعين، وهى أعلاها والتى كان الملك يجلس عليها، وفرح فرعون وأمراؤه من استيفاء يوسف لجميع الشروط الواجب توافرها فيمن يحكم مصر.

قال الملك ليوسف: «لقد نصحتنى بأن أختار رجلاً حازمًا حكيمًا وأجعله حاكمًا لأرض مصر، فلعله بحكمته ينقذ البلاد من المجاعة. ولأن الرب قد أراك كل هذا، ولأنك تجيد جميع لغات العالم، فليس هناك من هو فى حكمتك وحزمك. لهذا ستكون نائبى فى حكم البلاد وحسب كلامك سيفعل شعبى، ولسوف يتلقى أمرائى وخدمى عطاياهم الشهرية منك؛ ولسوف يخر الناس أمامك ساجدين، ولن يعلو فوقك سواى على العرش».

حاكم مصر

الآن بدأ يوسف يحصد ثمار فضائله، وقد كافأه الرب على حسب سجاياه الحميدة. فالفم الذى رفض قبلة العاطفة المحرمة والخطيئة، قد تلقى قبلات التكريم من الناس، والعنق الذى لم ينحن للخطيئة زين بالسلسلة الذهبية التى وضعها فرعون حوله؟ واليدان اللتان لم تلمسا الخطيئة ارتدتا الخاتم الختم الذى خلعه فرعون من يده ووضعه فى يد يوسف، والجسد الذى لم يلامس الخطيئة ارتدى أبهى الثياب من البسوس؛ والقدمان اللتان لم تخطوا فى اتجاه الخطيئة استقرتا على العربة الملكية، والأفكار التى حافظت على طهارتها من الدنس وصفت بالحكمة.

نُصِّب يوسف فى منصبه وقُلِّد الأوشحة الخاصة به وسط احتفال عظيم. وخلعَ الملِك خاتم المُلك من يده ووضعه فى يد يوسف وألبسه لباس الأمراء ووضع تاجًا من الذهب على رأسه وطوَّق عنقه بسلسلة من الذهب. ثم أمر خدمه بإركاب يوسف فى عربته الثانية التى سارت إلى جنب العربة التى جلس فيها الملك، كما جعله يركب حصانًا قويا وعظيمًا من خيل الملك، وقاده خدمه فى شوارع مصر. وسار فى مقدمة الموكب الموسيقيون، حيث سار ما لا يقل عن ألف منهم يضربون الدفوف وألف آخرون يعزفون بالمزامير، وقد امتشق خمسة آلاف رجل سيوفهم وأخذوا يلوحون بها وهى تتلألأ تحت ضوء الشمس. وسار عشرون ألفا من خاصة الملك وقد تمنطقوا بالأحزمة الجلدية المطرزة بالذهب، وساروا عن يمين يوسف، وسار مثلهم عن شماله. وتطلع نساء وفتيات النبلاء من النوافذ ليتأملن جمال يوسف،

وأخذوا يقذفونه بالسلاسل والخواتم والجواهر، لعله يرمى إليهن ولو بنظرة. لكنه لم ينظر إليهن فكافأه الرب بأن جعله محصنًا ضد العين الشريرة التى ما استطاعت كذلك أن تمس أيّاً من ذريته. وأخذ عبيد الملك، السائرون من أمامه ومن خلفه، يحرقون البخور والقرفة وكافة أنواع العيدان ذكية الرائحة، ورشوا فى طريقه المر والصبا. وسار أمامه عشرون بشيرا صاحوا فى الناس قائلين: «هذا هو الرجل الذى اختاره الملك نائبًا له. كل أمور الدولة موكلة إليه، ومن يعارض أوامره أو يرفض السجود له سيلقى عقوبة الموت باعتباره متمردًا ضد الملك وضد نائبه».

أسرع الناس يخرون له ساجدين وهتفوا قائلين: «عاش الملك وعاش نائب الملك!» وعندما رأى يوسف ذلك كله رفع عينيه إلى السماء وصاح قائلاً: «الرب يرفع الفقراء من التراب، ويرفع المحتاجين من اتضاعهم. يا رب الملائكة، بورك من يثق بك».

بعد ما جال يوسف فى مدن مصر كلها، مصحوبًا بالفرعون وضباطه وأمرائه، وبعد ما شاهد كل ما فيها، عاد إلى الملك فى نفس اليوم، ونَحَلَهُ الملك الأطيان والحدائق، مع ثلاثة آلاف تالنت من الفضة، وألف تالنت من الذهب، وأحجار العقيق اليمانى المُقّل وغيرها الكثير من الأشياء النفيسة فوق ذلك أصدر الملك أمرًا بأن يعطى كل مصرى ليوسف هدية، وإلا عوقب بالموت. وشيدت له منصة فى عرض الشارع وهرول الناس، كلٌّ يضع هديته عليها، وكان بينها الكثير من الذهب والفضة وكذلك الأحجار الكريمة، حملها إلى المنصة الناس والنبلاء، إذ رأوا ما يتمتع به يوسف من رضا الملك. فوق ذلك، تلقى يوسف مئة عبد من فرعون، يأتمرون بأوامره، كما أصبح لديه المزيد منهم، إذ كان هو نفسه يقيم فى قصر فسيح، استغرق بناؤه ثلاثة أعوام. وبولغ فى تزيين بلاطه الملكى، الذى كان القاعة التى يستقبل فيها ضيوفه، كما بولغ فى تشييد عرشه من الذهب والفضة المطعمة بالأحجار الكريمة، وكان عليه صورة لجميع أرض مصر ولنهر النيل.

وكما تضاعفت ثروات يوسف، ازداد حكمةً إذ زادها الرب وكثَّرها لكى يحبه الجميع ويكرموه ـ وسماه فرعون «صافينات ـ عناح»، أى من يستطيع كشف الأسرار بسهولة، ويفرح قلب الإنسان بذلك ـ كذلك كان لكل حرف من حروف ذلك الاسم معنى. فأول حرف، وهو الصادى، يعنى «صوفى» أى العَرَّاف؛ وحرف البى يعنى «بوده»، أى المخلِّص؛ والنون يعنى «نبى»، والطاو يعنى «طومق» أى النصير؛ وحرف البى يعنى «بوطِر» أى مفسر الأحلام؛ والعين يعنى «عروم» أى الماهر؛ والنون يعنى «نَبُون» أى الفَطِن؛ وحرف الحيت يعنى «حَكَم» أى الحكيم.

كذلك كان اسم زوجة يوسف موافقًا لتاريخها. كانت «أسينات» ابنة دينة وحمور، لكنهما تركاها عند حدود مصر، ولكى يعرف الناس من هى، نقش يعقوب نسبها وقصة ميلادها على لوحة ذهبية ثبَّتها حول عنقها.

وفى اليوم الذى اكتشفت فيه أسينات، كان فوطيفار قد ذهب قرب سور المدينة مع خدمه، وسمعوا صوت طفل. وبأمر من قائدهم أحضر الخدم الرضيعة إليه، وعندما قرأ قصتها على اللوحة الذهبية قرر أن يتبناها، فأخذها معه إلى بيته ورباها كابنته. والألف فى اسم أسينات يرمز إلى (مدينة) أون التى كان فوطيفار كاهنها، وحرف السامِخ يعنى «سَتِيره» أى المخفية (= المستورة)، إذ كانت مخفية عن الأنظار لجمالها غير العادى؛ والنون يعنى «نوحيميت»، لأنها ناحت وتوسلت ليتم تحريرها من بيت فوطيفار الوثنى؛ والطاو يعنى «تامَّة» أى الكاملة، وذلك لأفعالها التقية التامة.

كانت أسينات قد أنقذت حياة يوسف وهى لا تزال طفلة يحملها الناس فى أحضانهم. فعندما اتهمته زوجة فوطيفار والنسوة الأخريات بالفاحشة، وكاد سيده يأمر بشنقه، اقتربت أسينات من أبيها بالتبنى، وأقسمت له مؤكدة أن التهمة التى أدين بها يوسف مفتراة. ثم تكلم الرب وقال: «وحياتك، لأنك حاولت الدفاع عن يوسف؛ ستكونين أنت المرأة التى تحمل القبائل التى سينجِّيها».

ولدت له أسينات ولدين، هما مَنَسَّى وإفرايم، خلال سنوات الرخاء

السبع، إذ كان يوسف قد امتتع، فى سنى المجاعة، من كل ملذات الحياة. وقد تم تربيتهما على العفة ومخافة الرب على يَدَىّ أبيهما، وكانا حكيمين، عالمين بكل المعارف وكذلك عالمين بشئون الدولة، لذا فقد أصبحا الأثيرين لدى البلاط، وتم تربيتهما مع أمراء الأسرة المالكة..

قبل أن تضرب المجاعة البلاد، أتيحت ليوسف الفرصة ليصنع معروفًا كبيرًا للملك. فقد جهز جيشًا قوامه أربعة آلاف وستمائة رجل، وزود جميع الجنود بالتروس والرماح والسهام والخوذات والقِسِيّ. ومستعينًا بهذا الجيش، وإلى جانبه خدام الملك وضباطه وكذلك شعب مصر، شن يوسف الحرب على «ترشيش» فى السنة الأولى لتعينه نائبًا للملك. كان شعب ترشيش قد غزا أراضى الإسماعيليين الذين كان عددهم قليلاً فى ذلك الحين فاندحروا أمام الغزاة ولجأوا. إلى ملك مصر طالبين عونه ضد عدوهم. وتقدم يوسف فرقة من صناديده وتقدم صوب بلاد «حويلة» حيث انضم إليه الإسماعيليون ووحدوا قواهم وكَروا على شعب ترشيش واستأصلوهم عن بكرة أبيهم واستوطنوا أرضهم مع الإسماعيليين بينما لجأ المندحرون إلى إخوتهم فى «جافان» وعاد يوسف بجيشه إلى مصر دون أن يفقدوا رجلاً واحدًا.

وسرعان ما تحققت نبوءة يوسف: فقد كان ذلك العام والأعوام الستة التى تلته سنى رخاء، كما تنبأ بذلك من قَبْلُ. وكان الحصاد وفيرًا لدرجة أن السنبلة الواحدة من القمح كانت تنتج كومتين من الحبوب، واتخذ يوسف الترتيبات الشاملة لتوفير كميات وفيرة لسِنِى المجاعة. وجمع كل الغلال، وأخذ يكوِّم منتجات كل منطقة فى المدينة التى تقع فى منتصفها، وأمر برش التراب والطين على الغذاء المجموع، من نفس التربة التى زرع بها؛ كما احتفظ بكمية من الحبوب فى سنبلاتها؛ وكانت هذه كلها احتياطات لاتقاء التأثير المتلف للندى. كذلك حاول سكان مصر، من جانبهم، أن يخزنوا قسمًا من الحصاد الوفير لأعوام الرخاء السبعة، تأمينًا لاحتياجات المستقبل، لكن عندما حلت سنوات الجفاف وذهب المصريون إلى مخازنهم ليجلبوا ما

خزنوه من غلال، وجدوها قد تعفنت ولم تعد تصلح طعامًا لهم. وقد أخذت المجاعة الناس على غرة لدرجة أن خبزهم نفد فجأة وهم يتناولون طعامهم، فلم يجدوا ولا حتى كسرة من خبز الشعير.

هكذا اضطر الناس إلى اللجوء إلى يوسف طالبين عونه، فوبخهم قائلاً: «اكفروا بأصنامكم المخادعة، وقولوا «بورك الرب الذى يعطى الخبز لكل ذى لحم». لكنهم رفضوا إنكار آلهتهم الكاذبة ولجأوا إلى فرعون الذى قال لهم: «اذهبوا إلى يوسف وافعلوا ما يأمركم به!» وقد كوفئ فرعون على ذلك، فأطال الرب فى عمره وحكم طويلاً، إلى أن اغتر بنفسه وحلت عليه العقوبة المستحقة.

عندما ذهب المصريون إلى يوسف متوسلين ليعطيهم الخبز، قال لهم: «إننى لا أعطى الخبز للغُلْف غير المختونين. اذهبوا من هنا واختتنوا، ثم عودوا إلىّ». فدخلوا إلى فرعون واشتكوا إليه يوسف، لكنه قال لهم ما قاله من قبل، «اذهبوا إلى يوسف!» فأجابوه: «لقد أتينا لتونا من عنده وقد أغلظ لنا فى القول، وقال لنا انصرفوا من أمامى واختتنوا! لقد حذَّرناك فى البداية من أنه عبرى، وأنه سوف يعاملنا بهذه الطريقة». فقال لهم فرعون: «يا أيها الأغبياء! ألم يتنبأ من قبل بالروح القدس وأعلن للعالم كله أنه ستأتى سبعة أعوام من الرخاء تليها سبعة أيام من القحط؟ لماذا لم تدخروا غلة عام أو اثنين لتنفعكم وقت الحاجة؟».

فأجابوه قائلين وهم يبكون: «لقد تعفنت الغلال التى خَزَّناها فى سنى الرخاء».

فرعون: «ألم يتبق لديكم شىء من طحين الأمس؟».

المصريون: «لقد تعفن كل الخبز حتى ما كان منه فى السلَّة!».

فرعون: «لماذا؟».

المصريون: «لأن يوسف أراد ذلك!».

فرعون: «يا أغبياء، لو كان كلامه يمشى على الحبوب فيجعلها تتعفن وقتما يشاء، إذاً فلا بد أن نموت لو أراد لنا هو ذلك، لذا اذهبوا إليه وافعلوا ما أمركم به».

إخوة يوسف فى مصر

ضربت المجاعة فى البداية أثرياء مصر ثم امتدت تدريجيّاً إلى فينيقية والجزيرة العربية وفلسطين. وبرغم أن أبناء يعقوب، وكانوا شبابًا، قد جالوا كثيرًا فى الشوارع والطرقات، فإنهم كانوا على جهل بما كان يعرفه أبوهم يعقوب العجوز قعيد البيت، وهو أن القمح سيتوفر فى مصر. ورغم أن روح النبوة فيه كانت قد هجرته أيام حزنه على ابنه، فقد عادت إليه الآن وفى رؤى مشوشة يراها، وقرر أن يرسل أبناءه إلى مصر. وكان هناك سبب آخر لذلك. فبرغم أنه لم يكن قد أعوزه القمح بعد، فقد أرادهم أن يذهبوا إلى مصر طالبين الطعام، لكيلا يثير حسد أبناء إسماعيل وعيسو عندما يرون يساره. ولذلك السبب نفسه، كان يتفادى الاحتكاك بالناس المحيطين به، فأمر أبناءه بألا يظهروا أمام الناس والخبز فى أيديهم، ولا مرتدين لباس الحرب.. ولأنه كان يعلم أنهم قد يجذبون أنظار الناس إليهم، بسبب مشيتهم البطولية وطلعتهم البهية، فقد حذرهم من أن يذهبوا إلى المدينة ويدخلوها جميعًا من نفس البوابة أو حتى أن يظهروا جميعًا فى أى مكان أمام الناس معًا، لكيلا تصيبهم عين الحسد بشرٍّ.

بثَّت المجاعة التى ضربت كنعان فى نفس يوسف الأمل من جديد برؤية إخوته. ولكى يضمن مجيئهم إليه، أصدر مرسومًا بخصوص شراء القمح فى مصر، وكان كالتالى: «بأمر الملك ووزيره، وبأمر أمراء المملكة، ليكن نافذًا أنَّ كل من يرغب فى شراء القمح فى مصر عليه ألا يرسل عبده ليشترى له، لكن لابد أن يأتى إلى هنا مع أبنائه. وكل مصرى أو كنعانى يشترى القمح ثم

يبيعه مرة أخرى فسوف يكون جزاؤه الموت، فلا يشترى أحد إلا قدر حاجة أهل بيته. كذلك كل من جاء ببعيرين أو ثلاث فيحمِّلها بالحبوب فسوف يكون الموت جزاؤه».

وعيَّن يوسف حراسًا على أبواب مدينة مصر، كانت مهمتهم تسجيل اسم كل من يأتى لشراء القمح، وكذلك تسجيل أسماء آبائهم وأجدادهم، ثم تسلم السجلات إلى يوسف كل مساء. وكان الغرض من هذه الإجراءات إحضار إخوة يوسف إلى مصر، وكذلك إعلامه بمجيئهم بمجرد دخولهم إلى البلاد.

وأثناء رحلتهم إلى مصر، كان إخوة يوسف يفكرون فيه أكثر مما يفكرون فى مهمتهم. وقال بعضهم لبعض: «نعلم أن يوسف قد حُمِلَ إلى مصر، ولسوف نبحث فيها، فإن وجدناه سوف نفتديه من سيده، ولو رفض سيده بيعه، سوف نستخدم القوة معه، حتى ولو كان فى ذلك هلاكنا».

وعندما وصل إخوة يوسف إلى أبواب مدينة مصر، سئلوا عن أسمائهم وأسماء آبائهم وأجدادهم. وتصادف أن كان الحارس الموكل بالحراسة فى تلك الليلة هو مَنسَّى ابن يوسف. وأجاب الإخوة على تساؤلاته قائلين: «دعنا ندخل المدينة وسوف نرى إن كان الغرض من تسجيل أسمائنا هو حساب الضرائب. وإن كان ذلك هو السبب فلن نمانع، لكن لو كان غير ذلك، فسوف نرى فى الغد ما الذى نستطيع عمله فى تلك الحالة».

فى مساء اليوم الذى دخلوا فيه إلى مصر، اكتشف يوسف وجود أسمائهم فى قائمة الداخلين، وكان من عادته أن يطالعها يوميا، فأمر بإغلاق جميع منافذ بيع القمح، فيما عدا واحدٍ فقط. فوق ذلك أمر بألا يتم التفاوض على بيع أى شىء فى هذا المنفذ إلا بعد تسجيل اسم الراغب فى الشراء. وزود حرس ذلك المنفذ بأسماء إخوته وأمرهم بالقبض عليهم وإحضارهم إليه فور ظهورهم.

لكن كان أول ما فكر فيه الإخوة هو يوسف نفسه، فقد فكروا فى

البحث عنه وظلوا طوال ثلاثة أيام يبحثون عنه فى كل مكان، حتى فى أكثر الأماكن المشبوهة فى المدينة. أثناء ذلك كان يوسف على اتصال دائم بحراس المنفذ الذى أبقاه مفتوحًا لبيع القمح، وكما سمع أن إخوته لم يظهروا فيه بعد، أرسل بعض عبيده فى البحث عنهم، لكنهم لم يجدوهم لا فى «مصرايم»، مدينة مصر، ولا فى جاسان ولا فى رعمسيس. عند ذلك أرسل ستة عشر عبدًا ليبحثوا عنهم من منزل إلى منزل فى كل المدينة، فوجدوهم فى بيت مشبوه وهرولوا بهم إلى سيدهم.

يوسف يقابل إخوته

جلس يوسف على عرشه وفى قصره، وعلى رأسه تاج من الذهب وقد لبس البيسوس والأرجوان وأحاط به رجاله المخلصون. خر إخوته أمامه إعجابًا بجماله ومظهره المَلكىّ وبجلاله. ولم يتعرفوا عليه، لأن يوسف عندما بيع عبدًا، كان لا يزال فتى أمرد. لكنه عرف إخوته، فلم تكن أشكالهم قد تغيرت فى شىء، إذ كانوا رجالاً بالغين ذوى لِحًى عندما افترق عنهم.

وكاد يخبرهم بحقيقته لولا أن ظهر له ملاك، وهو نفس الملاك الذى كان قد أحضره من شكيم إلى إخوته، وحدثه الملاك قائلاً: «لقد جاءوا هنا وفى نيتهم أن يقتلوك» وفيما بعد، عندما عاد الإخوة إلى وطنهم وحدثوا أباهم بما رأوه فى رحلتهم، أخبروه أن رجلاً اتهمهم بالزور أمام حاكم مصر، ولم يكونوا يعلمون أن هذا المُحَرِّض إنما كان أحد الملائكة. وبسبب ذلك، فقد دعا يعقوب الرب، عندما أرسل أبناءه مرة ثانية إلى مصر قائلاً: «فليرقّق الرب القادر قلب الرجل عليكم». وكان يقصد بذلك الملاك.

تظاهر يوسف بأنه غريب عن إخوته، وأخذ كأسه فى يده ونقر عليها قائلاً: «لقد علمت من هذه الكأس السحرية أنكم جواسيس». فأجابوه: «لقد جاء عبيدك من كنعان ليشتروا القمح».

يوسف: «إن كان كلامكم صحيحًا، فلم دخل كل منكم المدينة من باب غير الذى دخل منه أخوه؟».

الإخوة: «كلنا أبناء رجل واحد فى بلاد كنعان، وقد أمرنا بألا ندخل معًا

جميعًا من نفس الباب، لكيلا نجذب أنظار أهل البلدة». وهكذا كان فى كلامهم نبوءة إذ أن كلمة «كلنا» قد شملت يوسف كواحد منهم.

يوسف: «بل أنتم جواسيس! كل الناس الذين يأتون إلى هنا لشراء القمح يعودون إلى بيوتهم دون تأخير، لكنكم تأخرتم هنا ثلاثة أيام دون أن تشتروا شيئًا، وظللتم طوال الوقت تدورون على البيوت المشبوهة، ولا يفعل ذلك إلا الجواسيس».

الإخوة: «نحن عبيدك اثنا عشر أخا، أبناء يعقوب بن إسحق بن إبراهيم العبرى. وأصغرنا اليوم مع أبيه فى كنعان، واختفى أخ آخر، ولذا فقد بحثنا عنه فى هذه البلاد، حتى إننا بحثنا عنه فى البيوت المشبوهة».

يوسف: «وهل بحثتم فى كل الأرض ولم تبق إلا مصر لتبحثوا فيها؟ وإن كان حقا فى مصر، فما الذى يدعو أخاكم لأن يذهب إلى البيوت المشبوهة، إن كنتم ذرية إبراهيم وإسحق ويعقوب؟».

الإخوة: «لقد سمعنا أن أخانا قد سرقه جماعة من الإسماعيليين وباعوه عبدًا فى مصر، وحيث أن أخانا كان بالغ الحسن جسمًا وشكلاً، فقد ظننا أنه قد يكون بيع لأجل أغراض مشبوهة، ولذا فقد بحثنا حتى فى البيوت المشبوهة».

يوسف: «تكذبون حين تقولون إنكم أبناء إبراهيم. وحياة فرعون، ما أنتم إلا جواسيس، وما كنتم تتنقلون بين البيوت المشبوهة إلا لكى لا يكتشف أمركم أحد».

وواصل يوسف كلامه لإخوته قائلاً: «لنفترض أنكم ستكتشفون أن أخاكم قد صار عبدًا، وإن سيده سيطلب ثمنًا باهظًا فيه، أفستدفعونه فيه إذًا؟».

الإخوة: «طبعًا!».

يوسف: «لكن لنفترض أن سيده لم يقبل أن يبيعه، ولو بمال الدنيا كلها، فماذا أنتم فاعلون إذًا؟».

الإخوة: «لو لم يسلمنا هذا السيد أخانا فلنقتلنَّه ونستردن أخانا».

يوسف: «إذًا فإن كلامى صحيح، وما أنتم إلا جواسيس. فباعترافكم أنتم، ما جئتم إلا لتقتلوا أهل هذه البلاد. ولقد وصلنى أن اثنين منكم قد أبادوا أهل شكيم لفعلتهم القبيحة مع أختكم، وها أنتم قد جئتم الآن لتقتلوا أهل مصر من أجل أخيكم. لن أقتنع ببراءتكم أبدًا ما لم ترسلوا أحدكم إلى بلادكم وتحضروا لى أخاكم الأصغر إلى هنا».

ولكن إخوة يوسف رفضوا فأمر الصناديد من رجاله بإلقائهم فى السجن، وظلوا فيه لثلاثة أيام. والرب لا يسمح أبدًا بأن يعانى المتقين فى السجن أكثر من ثلاثة أيام، وهكذا فقد أرادت مشيئة الرب أن يطلق سراح إخوة يوسف فى اليوم الثالث، وسمح لهم يوسف بالعودة إلى ديارهم، لكن بشرط أن يتخلف أحدهم فى مصر رهينة حتى يعودوا.

وهنا يمكن أن نرى الفرق بين يوسف وإخوته. فبرغم أنه أبقى أحدهم مسجونًا فإنه قال: «إنى أخاف الرب» وأطلق سراح الآخرين، لكن عندما كان هو فى أيديهم، لم يفكروا فى الرب. وبالقطع فقد كان تصرفهم فى ذلك الوقت لا يليق بالمتقين، الذين يتقبلون نصيبهم فى هدوء ورضا، ويُقرُّون بحكمة الرب، لأنه يكافئ على السيئة بمثلها وعلى الحسنة بمثلها. وكانوا يعلمون أن سجنهم هو عقوبة المعاملة القاسية التى عاملوا يوسف بها، ولم يراعوا محنته، برغم أنه قد خرَّ عند قدَمىّ كل واحد منهم يبكى ويتوسل إليهم لكيلا يبيعوه عبدًا. وذكَّر رأوبين الآخرين بأنهم أذنبوا ذنبين يجب أن يكفروا عنهما، خطؤهم فى حق أبيهم الذى نال منه الحزن لدرجة أنه صاح قائلاً فى لوعة: «لأموتن كمدًا على ابنى».

ولم يكن إخوة يوسف يعلمون أن نائب ملك مصر (= يوسف) يفهم اللغة العبرية، ويمكنه تتبع كلامهم، إذ كان مَنَسَّى (= ابنه) يقف بينهما مترجمًا كلام كل طرف إلى الآخر.

قرر يوسف أن يُبّقى شمعون رهينة فى مصر فقد كان واحدًا من الاثنين ـ وكان لاوى الثانى ـ اللذين أشارا على بقية الإخوة بقتل يوسف، ولم ينقذه إلا تدخل رأوبين ويهوذا. لكنه لم يحبس لاوى هو الآخر لأنه خشى إن حُبس الاثنان فى مصر معًا، أن تواجه البلاد نفس المصير الذى واجهه شكيم على أيديهما. كذلك فَضَّل شمعون على لاوى لأن شمعون لم يكن محبوبًا من إخوته، ولذا فما كانوا ليقاوموا حبسه فى مصر بعنف شديد؛ أما إن حُبسَ لاوى فلربما دمر الإخوة مصر وأبادوا شعبها ـ كما حدث فى شكيم ـ إذ كان لاوى حكيمهم وكاهنهم الأكبر. كذلك فقد كان لاوى هو من أنزل يوسف إلى الجب ولذا فقد كان يشعر يوسف ناحيته بالضغينة.

عندما أذعن الإخوة لأمر يوسف ووافقوا على ترك أخيهم خلفهم رهينة قال لهم شمعون: «هل ستفعلون معى كما فعلتم مع يوسف!» فأجابوه فى يأس قائلين: «وما الذى بإمكاننا أن نفعله؟ سوف يهلك أهلنا من الجوع». فرد شمعون قائلاً: «افعلوا ما شئتم، لكن عن نفسى فدعونى أرَ من هذا الذى يجرؤ على إلقائى فى السجن». فأرسل يوسف إلى فرعون يطلب منه أن يبعث إليه بسبعين من رجاله الأشداء، لكى يساعدوه فى القبض على اللصوص. لكن عندما جاء السبعون وهموا بالقبض على شمعون، صرخ صرخة عظيمة فسقط مهاجموه على الأرض فتكسَّرت أسنانهم. وفر رجال الفرعون الأشداء وكذلك كل من كانوا حول يوسف هاربين مذعورين، ولم يتبق إلا يوسف ومنسى اللذان وقفا هادئين رابطى الجأش. ونهض منسى واقفًا وضرب شمعون ضربة على مؤخرة رأسه ووضع القيود فى يديه والأغلال فى قدميه وألقاه فى السجن. وذهل إخوة يوسف من هذه القوة الخارقة التى يتمتع بها الشاب، وقال شمعون: «هذه ليست ضربة مصرى، بل ضربة رجل من أهل بيتنا».

وقد قُيِّد وشد وثاقه وألقى فى السجن أمام أعين إخوة يوسف، لكن ما إن غابوا عن الأنظار إلا وأمر يوسف بحسن معاملته، وعامله بطيبة بالغة.

سمع يوسف لإخوته التسعة الآخرين بالرحيل حاملين القمح معهم فى وفرة لكنه شدد عليهم بأن يعودوا ويجلبوا معهم أخاهم الأصغر. وفى الطريق أحس لاوى بالوحدة لفقدانه رفيقه شمعون، ففتح رحله ووجد المال الذى دفعه فى القمح. وعندها ارتجفوا جميعًا وخانتهم قلوبهم فقالوا: «أين هو إذًا حب الرب لآبائنا إبراهيم وإسحق ويعقوب، وهو قد سلّمنا الآن إلى يَدَىّ ملك مصر، ليتهمنا زورًا؟» فقال يهوذا: «عجبًا لكم! أما أخطأنا فى حق أخينا وأذنبنا وعصينا الرب، لبيعنا أخانا لحمنا ودمنا، والآن تقولون أين هو حب الرب لآبائنا؟».

تكلم رأوبين بنفس الطريقة قائلاً: «ألم أقل لكم لا تخطئوا فى حق الطفل فلم تسمعوا لكلامى؟ وها هو الرب يطلبه منا. كيف لكم إذًا أن تقولوا أين هو حب الرب لآبائنا، مع أنكم أخطأتم فى حق الرب؟».

واصلوا رحلتهم إلى ديارهم وقابلهم أبوهم فى الطريق. ولم يندهش يعقوب حينما لم يَرَ شمعون معهم، وأجابوا على أسئلته بأن أخبروه بكل ما حدث لهم فى مصر. صرخ يعقوب قائلاً: «ما الذى فعلتموه؟ لقد أرسلت يوسف إليكم ليطمئن على سلامتكم فقلتم أن سبعًا أكله. وذهب شمعون معكم ليشترى القمح فقلتم إن ملك مصر ألقاه فى السجن وها أنتم الآن ستأخذون بنيامين منّى وستضيِّعونه هو الآخر. آه.. ستميتوننى كمدًا وحسرة!!».

وكانت كلمات يعقوب التى قالها، وهى: «لقد حرمتمونى من أطفالى» إنما كان يقصد بها أن يلمِّح لأبنائه أنه كان يشك فى أنهم وراء موت يوسف واختفاء شمعون كذلك، وأنه كان يعتبر ما رووه له بشأنهما مجرد أكاذيب. وما كان يحزنه هو أنه رأى أن الوعد الإلهى له لن يتحقق وقد فقد الآن اثنين من أبنائه، ذلك الوعد بأنه سيكون جدًا لاثنتى عشرة قبيلة. ولهذا فقد انعقد عزمه على ألا يسمح أبدًا بأن يذهب بنيامين مع إخوته تحت أى ظرف كان ولم يردَّ على رأوبين بشىء عندما قال له: «اذبح ابنَىَّ الاثنين إذا لم أعد

به إليك». فقد رأى أن كرامته لا تسمح له بالإجابة على مثل هذه السخافات. وقال فى نفسه: «ابنى البكر أحمق. فما الفائدة التى ستعود علىّ إن أنا ذبحت ابنيه؟ ألا يعلم أن أبناءه هم أبنائى كذلك؟». وعندها نصح يهوذا إخوته بأن يكفوا عن محاولة إقناع أبيهم فى ذلك الوقت؛ وكان يرى أن أباهم سيوافق مرغمًا بمجرد أن ينفد الخبز من البيت ويصبح من المحتم القيام برحلة ثانية إلى مصر.



الرحلة الثانية إلى مصر

عندما نفدت المؤن التى اشتروها من مصر وبدأت عائلة يعقوب تعانى من الجوع؛ جاءه الأحفاد يقولون له: «أعطنا الخبز لكيلا نموت من الجوع أمام عينيك». وعندما سمع يعقوب كلام الصغار ترقرقت عيناه بالدموع الحارة فجمع أولاده وأمرهم بأن يذهبوا إلى مصر مرة أخرى ليشتروا القمح. لكن يهوذا قال له: «لقد أكد علينا الرجل بألا نرى وجهه مرة أخرى إلا وأخونا بنيامين معنا، ولا نستطيع الذهاب إليه والتذرع بحجج كاذبة». فقال يعقوب: «لماذا أسأتم إلىّ بهذه الطريقة فأخبرتم الرجل أن لكم أخا غيركم؟». وكانت هذه هى المرة الأولى والأخيرة التى يثرثر فيها يعقوب بكلام فارغ وقال الرب: «لقد جَعَلْتُ شغلى الشاغل أن أرفع ابنه إلى مقام حاكم مصر، وها هو يشتكى ويقول لماذا أسأتم إلىَّ هكذا؟!». واحتج يهوذا على كلام أبيه قائلاً: «كيف وهو يعرف حتى الخشب الذى صنعت منه مهاد أطفالنا!! يا أبتاه إن ذهب بنيامين معنا قد يؤخذ فعلاً مِنَّا، وقد لا يؤخذ. هذا أمر محل ريبة، لكن اليقين أنه إن لم يأتِ معنا فسوف نموت من الجوع. إن ملك مصر مَلَكٌ قوى وقادر ولئن ذهبنا إليه بدون أخينا فسوف يقتلنا. ألا تعرف وأما سمعت أن هذا الملك قوى جدًّا وحكيم وليس هناك ملك على الأرض مثله؟ لقد رأينا كل ملوك الأرض وما فيهم مثل ملك مصر. بل إن المرء ليستطيع أن يقول إنه ليس بين ملوك الأرض جميعًا من هو أعظم من أبيمالك ملك الفلسطينيين، ومع ذلك فإن ملك مصر أعظم وأقوى منه، ولا يكاد أبيمالك يقارن بواحد من ضباطه. إنك لم ترَ يا أبتاه قصره ولا عرشه،

وكل هؤلاء الخدم الذين يصطفون حوله. إنك لم تر هذا الملك فى قصره ولا على عرشه، فى كل جلاله وحاشيته الملكية وقد ارتدى ثيابه الملكية ووضع على رأسه تاجًا كبيرًا من الذهب. إنك لم تر الشرف والمجد اللذيْن أسبغهما الرب عليه، فليس على الأرض من هو مِثْله. إنك لم تَرَ يا أبتاه الحكمة والفهم والمعرفة التى ألقاها الرب فى قلبه. لقد سمعنا صوته الحلو عندما تكلم معنا. ولا نعرف يا أبتاه من عَرَّفه بأسمائنا وبكل ما حدث لنا. لقد سألنا كذلك عنك وقال لنا: هل أبوكم لا يزال حيّا، وهل أحواله على ما يرام؟ إنك لم تر كيف يدير شئون مصر والتى لا يسأله سيده الفرعون عن أى شىء يخصها. إنك لم تَرَ الرهبة والخوف التى يشعر بها المصريون تجاهه. ومع أننا قد خرجنا من عنده مهددين بأننا سنفعل بمصر ما فعلناه بمدن العموريين، وكنا فى غاية السخط والغضب من اتهامه لنا بأننا جواسيس، إلا أننا عندما عدنا إليه مرة أخرى تملكنا الخوف منه ولم يستطع أحد منا أن ينطق بكلمة صغيرة أو كبيرة. لهذا كله يا أبانا، أرسل الغلام معنا وسوف ننهض وننزل إلى مصر ونشترى طعامًا لنأكله، لكيلا نموت من الجوع».

وعرض يهوذا أن يمنح أخاه بنيامين نصيبه فى العام الآتى، ووعد أباه بأنه سيعيد أخاه سالمًا غانمًا، فوافق يعقوب على طلبه وسمح لبنيامين بأن ينزل إلى مصر مع إخوته. كذلك حملوا معهم هدايا قيِّمة من أبيهم إلى حاكم مصر، وكانت أشياءً تثير العجب خارج فلسطين مثل المور، وهو القوقع الذى ينتج اللون الأرجوانى التيرانى، وأنواع متنوعة من البلاسم وزيت اللوز وزيت الجوز وعسل فى صلابة الحجر. وفوق ذلك أعطاهم يعقوب ضعف المبلغ الذى أعطاهم فى المرة الأولى تحسبًا لارتفاع الأسعار. وبعد ما تم الترتيب لكل هذه الأمور، كلم أبناءه قائلاً: «ها هو المال والهدايا وكذلك أخوكم. هل هناك شىء آخر تحتاجون إليه؟». فأجابوه: «نعم نريد منك أيضًا أن تتوسط لأجلنا عند الرب». فدعا أبوهم الرب قائلاً: «يا إلهى يا من قلت

عند بدء الخليقة كفى للأرض وللسماء حينما أخذتا تمتدان وتتسعان إلى ما لا نهاية، أَنّه معاناتى أنا أيضًا وقل لها «كفى!». فليرحمكم الرب ويرعاكم القدير وأنتم عند حاكم مصر فيعطيكم يوسف وشمعون وبنيامين».

وكان هذا الدعاء شفاعة ليس فقط لأبناء يعقوب، بل ولذريتهم كذلك، بأن يخلص الرب القبائل العشر، كما خلّص الاثنين يهوذا وبنيامين وبعدما أذن بتدمير المعبدين، فلسوف يمنح المعبد الثالث البقاء الأبدى.

كذلك أعطى يعقوب لأبنائه خطابًا إلى نائب ملك مصر. وكان الخطاب يقول: «من عبدك يعقوب بن إسحق وحفيد إبراهيم أمير الرب إلى الملك الحكيم القوى «صافينات بعينه»، حاكم مصر، السلام عليك. ليعلم مولاى الملك أن المجاعة قد اشتدت علينا فى أرض كنعان ولذا فقد أرسلت أبنائى إليك ليشتروا لنا شيئًا ليأكلوه، لكن للأسف فأنا هَرِمٌ ولا أستطيع أن أرى بعينىّ، لأنهما قد كَلَّتا من كر السنين، وكذلك من دموعى التى لا تنقطع حزنًا على ابنى يوسف الذى أُخِذ منِّى. ولقد أمرتُ أبنائى بألا يدخلوا من البوابة كلهم معًا فى وقت واحد عندما يصلون إلى مدينة مصر، مراعاة لأهل البلاد، لكيلا يثيروا انتباههم دون لزوم. وكذلك أمرتهم بأن يجوبوا مصر شمالاً وجنوبًا ويبحثوا عن ابنى يوسف فلعلهم يجدونه هناك».

«وقد فعلوا ذلك لكنك اتهمتهم بأنهم جواسيس. وقد سمعنا عن حكمتكم ورزانتكم. فكيف لكم إذاً أن تنظروا إلى وجوههم ومع ذلك تقولون إنهم جواسيس؟ خصوصًا وقد سمعنا هنا أنكم قد فسرتم حلم فرعون وتنبأتم بقدوم المجاعة، ولذا فقد اندهشنا أنكم برغم كل هذه البصيرة القوية لم تستطيعوا أن تميِّزوا إذا كانوا جواسيس أم لا».

«والآن يا مولاى الملك، ها أنذا أرسل إليك ابنى بنيامين، كما طلبت من أبنائى الآخرين. فأرجوك يا مولاى أن تعتنى به جيدًا حتى تعيده إلىَّ فى سلام مع إخوته. ألا تعرف ولا سمعت عما فعله إلهنا بفرعون عندما أخذ

أمنا «سارة» لنفسه؟ أو عما حدث لأبيمالك بسببها؟ وما فعله أبونا إبراهيم بملوك عيلام التسعة، وكيف قتلهم وأباد جيوشهم، مع أنه لم يكن معه إلا عدد قليل من الرجال؟ أم لم تسمع عما فعله ابنيَّ شمعون ولاوى بمدن العموريين الثمان التى دمراها لأجل أختهما «دينة»؟ لقد كان بنيامين يعزِّيهما عن فقدان يوسف. فما الذى يمكن أن يفعلاه إذًا بذلك الذى يتجرأ ويمد يده ويختطفه منهما؟».

«ألا تعلم يا مولاى ملك مصر أن قوة إلهنا معنا وأنه يستجيب دائمًا لدعائنا ولا يتخلى عنا أبدًا؟ ولو كنت دعوت إلهى عليك عندما أخبرنى أبنائى بما فعلته معى، لكنت أنت وجميع من معك قد هلكتم قبل أن يصل إليكم بنيامين. لكننى فكرت وتذكرت أن ابنى شمعون يقيم فى بيتكم وأنك ربما تكون تحسن معاملته ولذا فلم أدعو عليك بغضب الرب. والآن سيذهب ابنى بنيامين إليك مع أبنائى الآخرين. اعتن به بنفسك ولا تغفل عينك عنه وسوف يقود الرب عينيه ناحية كل مملكتك».

«الآن قلتُ كل ما كان فى قلبى. وها هم أبنائى سيأخذون أخاهم الأصغر معهم إلى مصر فعليك أن تعيدهم إلىَّ سالمين».

سلم يعقوب هذا الخطاب إلى أمانة يهوذا وكلفه بأن يسلمه إلى حاكم مصر. وكان آخر ما كلم به أبناءه أن أوصاهم بأن يعتنوا جيدًا ببنيامين ولا يغفلوا عنه لحظة سواء فى الرحلة أو بعد الوصول إلى مصر. ثم ودعهم والتفت يدعو الرب قائلاً: «يا إله السموات والأرض. تذكر عهدك مع أبى إبراهيم. وتذكر كذلك أبى إسحق وامنح بركتك لأبنائى ولا تسلمهم إلى يدى ملك مصر. يا إلهى افعل ذلك من أجل رحمتك وخلِّص أبنائى ونجِّهم من أيدى المصريين وأعد إليهم أخويهم».

وكذلك دعت نساء بيت يعقوب وأطفاله الرب بالدموع ورجوه أن يخلص أزواجهم وآباءهم من يدى ملك مصر.

يوسف وبنيامين

كان فرح يوسف عظيمًا عندما وقف إخوته بين يديه وبنيامين معهم. وكان يرى فى أخيه الأصغر الشبيه الحقيقى بوالده. وأمر ابنه مِنَسَّى، وكان مدبر بيته، بأن يحضر الرجال إلى القصر وأن يعد لهم الطعام. لكنه شدد عليه بأن يُعِدَّ أطباق اللحوم أمام الضيوف لكى يروا بأعينهم أن الذبائح قد تم ذبحها طبقًا للشريعة وأن وريد الفخذ الموجود فوق تجويف الحوض قد تم نزعه.

كان العشاء الذى دعا يوسف إخوته إليه وجبة للسبت، إذ كان يراعى حرمة اليوم السابع حتى قبل إنزال الشريعة. ورفض أبناء يعقوب دعوة مدبر المنزل فحدثت بينهما مشادة. إذ كان يحاول أن يُدْخِلَهم عنوةً إلى قاعة الولائم بينما هم يحاولون أن يخرجوا بالقوة، إذ كانوا يخشون أن تكون هذه مجرد خدعة للسيطرة عليهم وعلى حميرهم بسبب المال الذى وجدوه فى رحالهم عند عودتهم من رحلتهم الأولى إلى مصر. وهكذا بلغ تواضعهم حد أن ساووا بين خسارتهم لحميرهم وفقدانهم لحريتهم الشخصية. وبالنسبة لأى رجل عادى فإن أملاكه لا تقل قيمة عن الحياة نفسها.

وقف الإخوة على باب منزل يوسف وقالوا لمدبر المنزل: «نحن فى ظروف بالغة السوء. وفى بلادنا كان الآخرون يعتمدون علينا، أما الآن فها نحن نعتمد عليك». وبعد هذه المقدمة عرضوا عليه المال الذى وجدوه فى رحالهم، لكنه طمأنهم قائلاً: «أيا كانت الحال، وسواء كان ذلك لأجل سجاياكم أم لأجل سجايا آبائكم، فإن الرب قد أعثركم فى كنز، لأن المال الذى دفعتموه

ثمنًا للقمح قد وصل إلىّ». ثم أخرج لهم شمعون الذى بدا وكأنه قِرْبة من الجلد ممتلئ البدن فقد كبر ونما لحمه أثناء إقامته فى مصر. وأخبر إخوته بالمعاملة التى لقيها وكيف أنه قد أُخْرِج من السجن فى اللحظة التى غادروا فيها مصر، وكيف أغدق عليه بالمعاملة الكريمة فى منزل حاكم مصر.

عندما حضر يوسف، أخذ يهوذا بنيامين من يده وقدمه إلى نائب الملك وخروا جميعًا له سُجَّدًا. سألهم يوسف عن حال أبيهم وجدِّهم فأجابوه: «عبدك أبونا بخير؛ مازال حيًا» فعلم يوسف من كلامهم أن جده إسحق قد مات. وكان إسحق قد مات فى الوقت الدى أُخْرِجَ فيه يوسف من السجن، فغطى حزن الرب على إسحق على فرحته بإطلاق سراح يوسف. ثم ناول يهوذا ليوسف خطاب أبيه، وتأثر يوسف عندما رأى خط يد أبيه الذى يعرفه جيدًا، لدرجة أنه اضطر للاختلاء بنفسه فى غرفته ليبكى. وعندما عاد أمر بنيامين بالاقتراب منه ووضع يده على رأس أخيه الأصغر وباركه قائلاً: «فلينعم عليك الرب يا بنى». وكان أبوه قد بارك أبناءه من قبل قائلاً فليبارك الرب، «الأطفال الذين أنعم على عبده بهم» ولما لم يكن بنيامين ساعتها من بين الأطفال المذكورين، لأنه ولد بعد ذلك، فقد عوضه يوسف الآن عن ذلك بأن باركه بنعمة الرب.

نصبت المائدة وقُسِّمت إلى ثلاثة أجزاء، واحد ليوسف وآخر لإخوته وثالث للمصريين. ولم يجرؤ أبناء يعقوب على الأكل من الأطباق التى وضعت أمامهم، إذ خافوا ألا تكون قد أُعِدَّت طبقًا للشريعة، وهذه عقوبة ليوسف على افترائه على إخوته الذين اتهمهم ذات يوم بأنهم لا يراعون بدقة الشعائر الخاصة بالطعام. كذلك لم يستطع المصريون الجلوس على نفس المائدة مع أبناء يعقوب لأن أبناء يعقوب كانوا يتناولون لحوم حيوانات يقدسها المصريون ويعبدونها.

عندما تم إعداد كل شىء وحان جلوس الضيوف إلى المائدة، رفع يوسف كأسه ـ وتظاهر بأنه يقرأه ويتبصر به ثم قال: «يهوذا ملك. ليجلس إذًا عند

رأس المائدة، وليتخذ رأوبين البكْر المقعد الثانى». وهكذا أخذ يخصص مقعدًا لكل أخ من إخوته، على حسب مكانة وسن كل واحد منهم. فوق ذلك، فقد أجلس أبناء كل أم معًا، وعندما وصل إلى بنيامين قال: «أعلم أن أصغركم ليس له أخ من أمه ليجلس بجواره، وكذلك أنا، لذا فليجلس بجوارى».

اندهش الإخوة من كل هذا. وأثناء تناول الأكل أخذ يوسف نصيبه وأعطاه لبنيامين، وكذلك فعلت زوجته «أسينات» وكذلك إفرايم ومنسى، فأصبح لدى بنيامين أربعة أنصبة إضافةً إلى النصيب الذى أخذه مثل باقى إخوته.

قُدِّمت الخمر على المائدة، وكانت تلك أول مرة خلال اثنتين وعشرين سنة يتذوقها يوسف وإخوته، إذ كانوا يعيشون حياة الزاهدين، وفعل إخوته ذلك تكفيرًا عن خطيئتهم فى حق يوسف، أما يوسف ففعل ذلك حزنًا على مصير أبيه.

أخذ يوسف يتحدث مع أخيه بنيامين وسأله إن كان له أخ من أمه فأجابه بنيامين: «نعم لى أخ لكنى لا أعرف ماذا حدث له». فسأله يوسف: «هل لك زوجة؟».

بنيامين: «أجل لى زوجة وعشرة أبناء».

يوسف: «وما أسماؤهم؟».

بنيامين: «بيلع وبيشير وعشيل وجيرا ونعمان وإيحى وروش وموِّبيم وحُبِّيم وعَرَد».

يوسف: «ولم سميتهم بهذه الأسماء الغريبة؟».

بنيامين: «ليذكِّرونى بأخى وبمعاناته: بيلع لأن أخى اختفى بين الناس؛ و«بيشير» لأنه كان بكْر أمى؛ و «عشبيل» لأنه أُخِذ بعيدًا عن أبى؛ و «جيرا» لأنه غريب فى بلد غَريبة؛ و «نَعْمان» لأنه كان فائق الجمال؛ و «إيحى» لأنه كان أخى الوحيد شقيقى من أبى وأمى معًا؛ و «روش» لأنه كان رئيس إخوته؛ و «مُوبِّيم» لأنه كان جميلاً من كل النواحى؛ و «حُبِّيم» لأنه أهين؛ و «عَرَد»

لأنه كان جميلاً كالورد».

أمر يوسف بإحضار أسطرلابه السحرى والذى كان يعرف منه كل ما يحدث، وقال لبنيامين «سمعت أن العبريين عارفون بكل الحكمة، لكن ألا تعرف أنت شيئًا من ذلك؟». فأجابه بنيامين: «عبدك أيضًا ماهر فى جميع الحكمة التى علمنى إياها أبى». ثم نظر إلى الأسطرلاب واكتشف لدهشته الشديدة أن من يجلس بجواره الآن هو أخوه يوسف. ولما لاحظ يوسف دهشة بنيامين: «سأله: ما الذى رأيته ولماذا أنت مندهش كذلك؟» فقال بنيامين: «أستطيع أن أرى فى هذا الاسطرلاب أن يوسف أخى يجلس هنا أمامى على العرش». فقال يوسف: «أنا يوسف أخوك! لا تخبر إخوتك بهذا الأمر. سوف أرسلك معهم عندما تنصرفون وسوف آمر بإعادتهم إلى المدينة، ولسوف آخذك منهم. ولو خاطروا بأرواحهم وحاربوا من أجلك، فسأعلم حينها أنهم قد ندموا وتابوا عما فعلوه معى، وسوف أكشف لهم عن حقيقتى عند ذلك. لكن إن تَخَلَّوْا عنك، فسوف أبقيك هنا، لأنك يجب أن تبقى معى. وسوف ينصرفون من هنا ولن أكشف لهم عن نفسى».

ثم سأل يوسف أخاه بنيامين عما قاله إخوته لأبيهم بعد ما باعوه عبدًا، وسمع قصة القميص الذى لطخوه بدم شاة صغيرة. فقال يوسف: «أجل يا أخى، عندما نزعوا عنى قميص سلَّمونى إلى الإسماعيليين الذين ربطوا وسطى بمريلة وضربونى وأمرونى بأن أعدو. لكن هاجم أسدٌ الرجل الذى ضربنى منهم وقتله، وعندها خاف رفاقه وباعونى لقوم آخرين».

صرف يوسف إخوته فى رفق، فبدأوا رحلة العودة إلى ديارهم بمجرد طلوع الصبح، إذ أنه من الجيد أن «تغادر المدينة بعد شروق الشمس وأن تدخلها قبل غروبها». كما كان ليوسف غرض فى ألا يسمح لإخوته بمغادرة المدينة أثناء الليل. فقد كان يخشى أن يحدث قتال بينهم وبين عبيده الذين كان يخشى أن يلقوا حتوفهم على أيدى أبناء يعقوب الذين كانوا مثل الوحوش المفترسة التى تكون لها السيادة فى الليل.

الإمساك باللص

ما كاد إخوة يوسف يغادرون أبواب المدينة إلا وأرسل يوسف منسى مُدَبِّر منزله خلفهم ليبحث عن كأسه الفضية التى كان قد أخفاها فى رحل بنيامين. ولأنه كان يعلم طباع إخوته جيدًا، فلم يجرؤ على تركهم يبتعدون كثيرًا عن المدينة قبل أن يحاول إجبارهم على العودة إليها. وكان الأمر بأن يحاول إيقافهم، بالحسنى إن استطاع، أو بالقوة إذا اضطر إلى ذلك، ويعود بهم إلى المدينة. ونفَّذ منسى الأمر بدقة. وعندما سمع الإخوة أنهم متهمون بالسرقة قالوا: «ليكن الموت جزاء من تكتشف الكأس عنده منًّا نحن عبيدك، ولسوف نصير عبيدًا وخدمًا نحن كذلك لمولانا». فقال منسى: «ما تقولونه هو الأفضل، إذ لو اتهم عشرة بالسرقة ووجد الشىء المسروق مع أحدهم، فكلهم يعتبرون مسئولين. لكن لن أكون شديد القسوة معكم. فمن يكتشف عنده الكأس سيكون عبدًا لنا، وسوف نعفى الباقين من المسؤولية».

وبدأ يفتش فى الرحال كلها، ولكى لا يستثير شكوكهم بأنه يعلم مقدمًا مع من تكون الكأس، بدأ بتفتيش رحل رأوبين أكبرهم وانتهى عند بنيامين الذى وُجدت الكأس فى رحله. صاح الإخوة فى بنيامين فى غضب قائلين: «أيها اللص ابن اللصة! لقد جلبت أمك العار على أبينا بسرقاتها، وها أنت الآن تلحق بنا العار!». لكنه أجابهم: «أهذه السرقة فى مثل خبث أمر الشاة الصغيرة، أو تعادل ما فعله الإخوة الذين باعوا أخاهم عبدًا؟».

ومزق الإخوة ثيابهم غضبًا وسخطًا، وكان ذلك جزاءً وفاقًا من الرب

لهم، إذ كانوا قد جعلوا يعقوب يمزق ثيابه حزنًا على يوسف، وها هم الآن يفعلون نفس الشىء بسبب ما اقترفوا من إثم. وكما مزقوا ثيابهم من أجل أخيهم بنيامين، فقد كتب على موردخاى، وهو من ذرية بنيامين، أن يمزق ثيابه من أجل إخوته شعب إسرائيل. لكن ولأن ذلك العذاب كان قد حَلَّ بهم على أيدى مَنَسَّى، مُدَبِّر منزل يوسف، فإن الحصة التى خضعت لسِبط منسى من الأرض مُزِّقت إلى نصفين، فاضطر نصف السبط إلى العيش على أحد جانبى نهر الأردن، وعاش النصف الآخر على الجانب الآخر. كذلك فإن يوسف، الذى لم يتورع عن مضايقة إخوته بهذه القسوة حتى دفعهم إلى تمزيق ملابسهم، قد عوقب، حيث أن خلفه يوشع قد تملكه الحزن بعد هزيمة «عاىْ» لدرجة أنه هو الآخر مزق ثيابه.

لما وجد إخوة يوسف أن تهمة السرقة قد التصقت بهم دون أدنى شك، لم يجدوا أمامهم إلا الاستجابة لأمر مدبر المنزل والعودة معه إلى المدينة. وأسرعوا فى العودة معه دون تلكؤ، وحَمَّل كل منهم حماره بنفسه رافعًا الحِمْل من على الأرض بيد واحدة إلى ظهر الحمار، ثم عادوا أدراجهم إلى المدينة، وأخذوا يضربون بنيامين ويدفعونه فى كتفه فى حدة قائلين: «يا لص يا ابن اللصة، لقد جلبت علينا العار والخزى كما فعلت أمك مع أبينا». وتحمل بنيامين ضربهم وسبابهم فى صبر وصمت، وكوفئ على تواضعه ذلك. فمقابل الاستسلام للضرب على الكتف شاء الرب أن «تقيم شكينته بين كتفيه». كما سمَّاه: «حبيب الإله».

عاد إخوة يوسف إلى المدينة دون خوف، وبرغم أنها كانت عاصمة عظيمة، فإنها لم تكن فى أعينهم سوى مجرد نَجْع صغير لا يسكنه إلا عشرة أشخاص، يستطيعون محوها من الوجود بضربةٍ يد واحدة. واقتيدوا إلى يوسف الذى لم يكن عاقدًا جلسة للحكم فى بيت القضاء فى ذلك اليوم، على غير عادته. وظل فى المنزل لكى لا يتعرض إخوته للخزى أمام الناس. وخروا أمامه ساجدين وهكذا تحقق حلمه عن النجوم الأحد عشر التى

سوف ستجد له. لكن حتى وهو يسجد ليوسف، كان يهوذا يغلى فى نفسه غيظًا وغضبًا، وقال لإخوته: «تبًّا! ما أعادنى هذا الرجل إلى المدينة اليوم إلا لأدمرها!!».

تقدم يوسف إلى إخوته يحيط به حراسه الشجعان عن يمين وشمال، وقال لإخوته ساخرًا: «ما هذا الذى فعلتموه؟ لقد سرقتم كأسى! أعلم جيدًا أنكم سرقتموه لتستعينوا به فى معرفة أخبار أخيكم الذى اختفى». وكان يهوذا هو الموكل بالحديث عنهم فأجابه قائلاً: «ما الذى يمكن أن نقوله لمولاى عن النقود الأولى التى وجدناها فى رحالنا؟ وماذا سنقول عن النقود الثانية التى كانت كذلك فى رحالنا؟ وكيف سنبرِّئ أنفسنا من سرقة الكأس؟ لا يمكننا أن نعترف بأننا مذنبون، لأننا نعلم جيدًا أننا أبرياء من كل هذه التهم. ومع ذلك لا نستطيع أن نثبت براءتنا، لأن الرب علم ظلمنا وها هو يعاقبنا، كالتاجر الذى له ديون فذهب يحاول اقتضاءها. ومع حرصنا على ألا يدخل اثنان منَّا معًا إلى أحد بيوت المرح، خوفًا من الحسد، فها نحن قد حُبِسْنا جميعًا فى مكان واحد، بسبب الذنب الذى اجتمعنا على اقترافه».

يوسف: «لكن إن كانت هذه عقوبة لكم على بيعكم يوسف، فلم يعانى أخوكم هذا، أصغركم، وهو لم يشترك معكم فى تلك الجريمة».

يهوذا: «لص وقُبِضَ على رفاقه معه».

يوسف: «لئن كنتم استطعتم من قبل أن تكذبوا على أبيكم بشأن أخيكم الذى لم يسرق ولم يتسبب فى أذى لكم، وتقولون له أن سبعًا قد أكله، فمن السهل عليكم إذًا أن تكذبوا على أنفسكم فتقنعوها ببراءتكم مع أخ سرق وجلب عليكم الخزى والعار. انصرفوا من هنا وأخبروا أباكم وقولوا له: «من شابه أباه فما ظلم» لكن حاشا للرب أن أتهمكم جميعًا بالسرقة. فقط ذلك الشاب الذى سرق الكأس ليستنبئ منه مكان أخيه الذى اختفى، هو فقط الذى سيبقى معى عبدًا لى؛ أما أنتم فانصرفوا من هنا فى سلام وعودوا إلى أبيكم».

وصاح الروح القدس قائلاً: «يا له من سلام عظيم يتمتع به من يحبون شريعتك!».

ووافق الإخوة جميعهم على تسليم بنيامين إلى حاكم مصر، إلا يهوذا الذى صرخ قائلاً: «الآن انتهى كل سلام!» واستعد لاستعمال العنف، إذا لزم الأمر، لإنقاذ بنيامين من العبودية.

يهوذا يتوسل ويتوعد

صرف يوسف إخوته واقتاد بنيامين بالقوة وحبسه فى إحدى الغرف. لكن يهوذا كسر الباب ووقف أمام يوسف مع إخوته. وقرر حينها أن يستخدم الوسائل الثلاث التى كانت فى ملكه حينها، ليحرر بنيامين. فقد استعد أولاً لإقناع يوسف بالمنطق والحكمة، ثم يؤثر على مشاعره بالتوسل إليه، أو يلجأ فى النهاية إلى استخدام القوة، لكى يتم غرضه.

وتكلم قائلاً: «لقد أسأت إلينا، أنت يا من قلت: «إنى أخاف الرب» ثم أظهرت نفسك لا تخاف من الرب، مثل فرعون. والأحكام التى تنطق بها لا تتفق مع شرائعنا، ولا هى حتى تتفق مع شرائع الأمم. فحسب شريعتنا يجب على اللص أن يدفع ضعف قيمة ما سرقه. ولو لم يكن معه المال فلا بد أن يُبَاع عبدًا، لكن لو كان معه المال فعليه التعويض بالضعف. وحسب شريعة الأمم، يُجَرَّد اللص من كل ما يملك. فلتفعل ذلك، لكن أطلق سراحه. وإذا اشترى رجل عبدًا ثم اكتشف أنه لص، يَبْطُل بيعه. ومع ذلك تريد استعباد من تتهمه بأنه لص. وإننى على يقين من أنك تريد استبقاءه تحت سلطانك لأغراض محرمة، وفى ذلك تشبه فرعون. كما أنك تشبهه فى أنك تَعِد ثم لا تفى بوعدك. لقد قلت لعبيدك، أحضروا أخاكم الأصغر إلىّ لكى أراه. فهل هذه هى رؤيتك له؟ وإن كنت لا تريد إلا أن يكون لك عبداً، فعليك إذاً أن تقبل أن نكون نحن لك عبيدًا بدلاً من بنيامين. رأوبين أكبر منه سنًا، وأنا أفوقه قوة. لا شك أن الأمر كما قلت أنا، وأنك تنوى فعل الفاحشة بأخينا.

«لذا فاجعل كلماتى التى سأقولها لك الآن تجد طريقها إلى قلبك: إنه لأجل جدة هذا الغلام أصاب فرعون وآل بيته الطاعون، لأنه احتجزها فى بيته ليلةً واحدةً رغمًا عنها. وماتت أمه قبل الأوان، بسبب دعوة دعاها عليها أبوه فى لحظة طيش. فلتحذر إذًا لكيلا تصيبك لعنة هذا الرجل، بل وتقتلك. ولقد دمر اثنان منًّا مدينة كاملة من أجل امرأة واحدة، فما الذى سنفعله إذًا من أجل رجل، بل ورجل يحبه الرب، وقَدَّر أن يسكن فى البقعة المخصصة له!».

«ولو أصدرت أقل صوت، لضرب البلاد طاعون يغشاها من أقصاها إلى أقصاها. فى هذه البلاد فرعون هو الأول، وأنت الثانى بعده، لكن فى بلادنا فأبى هو الأول، وأنا الثانى بعده. ولئن لم تستجب لطلبنا فلأستلن سيفى وأجندلك به أنت أولاً، ثم أجندل به فرعون بعدك».

بعد ما أطلق يهوذا هذا التهديد، أشار يوسف بيده، فدق منسى الأرض بقدمه فاهتز القصر كله. وقال يهوذا: «لا يضربن الأرض بهذه القوة إلا واحد منًّا!»، وأصابه الرعب من هذه القوة الهائلة، فاكتسى صوته بالرهبة وخفف من لهجته وطريقته وقال: «لقد لجأتَ من البداية إلى جميع أنواع الحيل لكى تضايقنا. لقد جاء الناس من مختلف البلاد ليشتروا القمح من مصر، لكنك لم تسأل أيًّا منهم عن عائلتهم. إننا لم نأت إلى هنا لنطلب الزواج من ابنتك! أم تراك أنت الذى تريد الزواج من أختنا؟! ومع ذلك فقد أجبنا على كل تساؤلاتك».

رد يوسف قائلاً: «كم أنت ثرثار يا هذا! أهناك بين إخوتك من يثرثر مثلك هكذا؟ لماذا تتكلم كثيرًا، بينما يقف إخوتك الأكبر منك، رأوبين وشمعون ولاوى صامتين؟».

يهوذا: «ليس من إخوتى من سيتعرض لما سأتعرض له لو لم يَعُدْ بنيامين إلى أبيه. لقد كنت أنا الضامن لعودته أمام أبيه، وقلت له لو لم أعده إليك وأحضره بين يديك، فعلىَّ اللوم وحدى إلى الأبد، فى هذا العالم وفى العالم الآتى».

وامتنع الإخوة الآخرون عن قصد عن الاشتراك فى نلك المشادة بين

يوسف ويهوذا، وقالوا: «إنهما مَلِكان يتشادان، وما يكون لنا أن نتدخل بينهما». بل إن الملائكة نزلت من السماء إلى الأرض لتشاهد ذلك الصراع بين يوسف الثور ويهوذا الأسد، وقالوا: «من طبائع الأمور أن يخاف الثور من الأسد، لكن ها هما منخرطان فى صراع متكافئ حامى الوطيس».

ردّا على يهوذا، قال يوسف: «ولماذا لم تكن ضامنًا لسلامة أخيك الآخر، عندما بعته بعشرين قطعة من الفضة؟ فحينها لم تراع الآلام التى سببتها لأبيك بفعلتك تلك، ولكنك قلت أن سبعًا التهم يوسف مع أنه لم يفعل شرّاً، بينما اقترف بنيامين هذا جريمة السرقة. لهذا اذهب إلى أبيك وقل له، أن من شابه أباه فما ظلم».

وكان لهذه الكلمات تأثير شديد على يهوذا لدرجة أنه انخرط فى البكاء وصاح عاليًا قائلاً: «كيف يمكننى الذهاب إلى أبى والغلام ليس معى؟». ووصلت صرخته إلى مسافة أربعمئة فرسخ، وعندما سمعها «هوشيم» ابن دان فى كنعان، قفز إلى مصر فى خطوة واحدة وأخذ يصرخ مع يهوذا حتى أوشكت البلاد كلها على الانهيار من قوة الصرخات العظيمة التى أخذا يصرخانها. فقد رجال يوسف الشجعان أسنانهم ودمرت مدينتا «فيثوم*» و«رعمسيس»، وظلتا خربتين حتى بناها الإسرائيليون مرة أخرى تحت إشراف المشرفين. وكذلك فإن إخوة يهوذا، الذين آثروا الصمت حتى حينها، استولى عليهم الغضب الشديد وأخذوا يدقون الأرض بأقدامهم، حتى بدت وكأن محراثًا قد شق بها القينان. وخاطب يهوذا إخوته قائلاً: «كونوا شجعانًا وتصرفوا كالرجال، وليظهر كل منكم بطولته، فالظروف تتطلب مِنّا أن نفعل ما فى وسعنا».

ثم قرروا أن يدمروا «مزارعيم» مدينة مصر، وقال يهوذا: «لأرفعن صوتى وليدمرن مصر».

(*) كلمة مصرية معناها «بيت أتوم» أى بيت إله الشمس الغاربة وهى إحدى المدينتين اللتين بناهما بنو إسرائيل أثناء عبوديتهما فى مصر، والأخرى هى «رعمسيس» ومن هنا نرى فبركة هذه القصة. (المترجم).

رأوبين: «لأرفعن ذراعى ولأمحونها به من الوجود».

شمعون: «لأرفعن يدى ولأخربنَّ بها قصورها».

لاوى: «لأستلن سيفى من غمده وأذبح به سكان مصر».

يساكر: «لأجعلن هذه البلاد مثل سدوم».

زبولون: «لأجعلنها مثل «عمورة».

دان: «لأحولنها إلى صحراء».

ثم بدأ سخط يهوذا المتفاقم يظهر علامات انفجاره: فقد ذرفت عينه اليمنى دموعًا من الدم؛ وانتصب الشعر الذى فوق قلبه لدرجة أنه اخترق القمصان الخمسة التى كان يرتديها؛ وتناول قضبانا من نحاس فى يده ومضغها بأسنانه، ثم بصقها فخرجت كالدقيق. وعندما رأى يوسف هذه العلامات تملكه الخوف، ولكى يُظْهر لهم أنه هو الآخر رجل ذو قوة غير عادية، دق القاعدة الرخامية التى كان يجلس عليها بقدمه فتكسرت إلى شظايا. وصاح يهوذا قائلاً: «هذا الرجل بطل مثلى!» ثم حاول سحب سيفه من غمده ليقتل يوسف، فلم يستجب له السيف ولم يخرج، فعلم عندها أن خصمه رجل يخاف الرب، فعزم على أن يتوسل إليه ليطلق سراح بنيامين، لكنه لم يتزحزح عن موقعه.

ثم قال يهوذا: «ماذا سنقول لأبينا، عندما لا يرى أخانا معنا، ويحزن لفقده؟».

يوسف: «قولوا له إن من شابه أباه فما ظلم».

يهوذا: «إنك مَلِكٌ، فلماذا تتكلم بهذا الزيف والبهتان؟ يا تعس الملوك الذين هم مثلك!».

يوسف: «أهناك بهتان أكبر مما قلتموه عن أخيكم يوسف الذى بعتموه للمديانيين بعشرين قطعة من الفضة، ثم قلتم لأبيكم، إن سبعًا شريرًا قد التهمه؟».

يهوذا: «نيران شكيم تستعر فى قلبى، ولأحرقن بلدك كلها بالنار».

يوسف: «بل إن النار التى أعدت لتحرق ثامار» ربيبتك التى قتلت أبناءك، ستطفئ نيران شكيم».

يهوذا: «لو نزعت شعرة واحدة من صدرى فستغرق مصر كلها فى دمها».

يوسف: «هكذا طبعك، وهكذا فعلت بأخيك الذى بعته ثم لطخت قميصه بالدم وذهبت به إلى أبيك وقلت له أن سبعًا شريرًا أكله وهذا هو دمه».

عندما سمع يهوذا ذلك اشتاط غضبًا وتناول حجرًا وزنه أربعمئة شاقل، وكان أمامه، ورماه لأعلى إلى السماء بيد واحدة، ثم التقفه بيده اليسرى ثم جلس عليه فتحول الحجر إلى تراب. وبأمر من يوسف، فعل منسى ما فعله يهوذا، بحجر آخر، وقال يوسف ليهوذا: «لم تُمنح القوة لك وحدك، فنحن أيضًا رجال أقوياء. لماذا إذًا تستعرضون قوتكم أمامنا؟» ثم أرسل يهوذا نفتالى قائلاً له: «اذهب وأحّصِ شوارع مدينة مصر كلها، ثم تعال وأخبرنى بعددها». لكن شمعون تدخل قائلاً: «لا تزعج نفسك بهذا، فسوف أذهب إلى الجبل وأتناول حجرًا منه وألقيه على مزراعيم كلها، مدينة مصر، وأقتل كل من فيها».

وعندما سمع كل هذه الكلمات، فقد كانوا يتكلمون بصوت عالٍ دون أن يدركوا أن يوسف يفهم العبرية، أمر يوسف ابنه منسى بالإسراع وجمع كل سكان مصر وكل شجعانها ويجعلهم يأتون إليه على ظهور الخيل وعلى أقدامهم. وفى هذه الأثناء كان نفتالى قد أسرع لينفذ أمر يهوذا، إذ كان فى سرعة الغزال الرشيق، وكان يستطيع أن يجرى وسط حقل القمح دون أن تنكسر سنبلة. ثم عاد وأخبر يهوذا بأن مدينة مصر مقسمة إلى اثنى عشر ربعا. وأمر يهوذا إخوته بتدمير المدينة، وتولى هو تدمير ثلاثة أرباع، بينما ترك التسعة الباقين لإخوته الآخرين، ليدمر كل منهم واحدًا.

وفى تلك الأثناء كان منسى قد جمع جيشًا عظيمًا، خمسمئة فارس

وعشـرة آلاف رجل، بينهم أربعمئة صنديد يستطيع كل منهم أن يحارب دون رمح أو سيف، مستخدمًا إحدى يديه القويتين العاريتين من السلاح. ولكى يبث الرعب فى قلب إخوته أكثر وأكثر، أمرهم يوسف بأن يحدثوا جلبة عظيمة بجميع أنواع الآلات، وبالفعل فقد أثار مظهرهم وما أحدثوه من جلبة خوف بعض إخوة يوسف. لكن يهوذا ناداهم قائلاً: «لماذا تخافون وأنتم ترون الرب يمنحنا رحمته؟» ثم استل سيفه وصرخ صرخة عظيمة اضطرب لها جميع الناس وولوا على أدبارهم فسقط كثيرون منهم بعضهم فوق بعض وهلكوا، فطاردهم يهوذا وإخوته حتى وصلوا إلى بيت فرعون. ولما عاد يهوذا إلى يوسف صرخ صرخة أخرى تهدمت منها أسوار مصر وجاسان، ووضعت كل حبلى فى الأرض جنينها قبل أوانه، وسقط فرعون من فوق عرشه وقد وصلت صرخات يهوذا إلى أقاصى الأرض، حتى إنها بلغت «سُكّوت».

عندما علم فرعون سبب هذه الصرخات العظيمة، أرسل إلى يوسف قائلاً إنه سيوافق على طلبات العبريين، لكيلا تهلك البلاد. وكان ما قاله له فرعون أن قال: «اختر بينى وبين العبريين؛ اختر بين مصر وبين أرض العبريين. فإن لم تأتمر بأمرى فارحل عنى واذهب معهم إلى بلادهم».

يوسف يكشف عن نفسه

عندما رأى يوسف أن إخوته يكادون يدمرون مصر، عزم على أن يكشف لهم عن نفسه، وظل يفكر فى طريقة يستهل بها كلامه بحيث يأتى الإعلان عن شخصيته طبيعيّا. وبأمر منه وضع منسى يده على كتف يهوذا فهدأ غضبه قليلاً، أذ أحس بأن جسده قد لمسه واحد تجرى به نفس الدماء التى تجرى فى عروقه، إذ لا توجد قوة كهذه إلا فى عائلتهم فقط. ثم كلم يوسف يهوذا بلطف قائلاً: «أريد أن أعرف من نصحه بسرقة الكأس: أكان واحدًا منكم من نصحه بذلك؟» فأجابه بنيامين: «لا هم نصحونى بسرقة الكأس ولا أنا سرقتها». فرد يوسف: «إذا فلتقسم على أنك لم تفعل؟» فاستجاب له بنيامين قائلاً: «أقسم أننى لم ألمس هذه الكأس! بحق افتراق أخى يوسف منى؛ وبحق براءتى من السهام التى قذفه بها إخوتى؛ وبحق أنى لم أكن واحدًا ممن نزعوا قميصه عنه؛ وبحق أنى لم أساعد الآخرين فى تلطيخ قميصه بالدم بحق ذلك كله، أقسم ألا أحد منهم أشار علىّ بسرقة الكأس وبأننى لم أرتكب جريمة السرقة».

يوسف: «وكيف لى أن أعرف أن قسمك الذى أقسمت بحق ما حدث لأخيك، قسم صادق؟».

بنيامين: «من أسماء أبنائى العشرة الذين سميتهم بذكرى حياة أخى وما لاقاه من محن، تستطيع أن تدرك كم أحبه. لهذا فإننى أتوسل إليك ألا تتسبب فى موت أبى كمدًا علىَّ».

ولما سمح يوسف هذه الكلمات، لم يستطع منع نفسه أكثر من ذلك ولم يملك إلا أن يعرِّف إخوته بحقيقته فقال لهم: «لقد قلتم أن أخا هذا الغلام ميت فهل رأيتموه ميتًا بأعينكم؟» فأجابوه: «أجل!».

يوسف: «وهل وقفتم على قبره؟».

الإخوة: «لا».

يوسف: «وهل أهلتم التراب على جثمانه؟».

الإخوة: «لا!».

عند ذلك فكر يوسف فى نفسه قائلاً: «إن إخوتى أتقياء كما كانوا من قبل، ولم ينطقوا إلا بالصدق. لقد قالوا إننى قد مِتُّ لأنهم عندما تركونى ورحلوا كنت فقيرًا، والفقير كالميت؛ وقالوا أنهم وقفوا بجوار قبرى، ويقصدون بذلك الجب الذى ألقونى به؛ لكنهم لم يقولوا إنهم أهالوا التراب علىّ، ولو قالوا لكان كذبًا ..».

ثم استدار إلى إخوته قائلاً: «تكذبون إذ تقولون إن أخاكم ميت. فهو لم يمت. لقد بعتموه وقد اشتريته. سوف أناديه وأجعلكم ترونه بأعينكم». ثم أخذ ينادى قائلاً: «يوسف يا يوسف يا بن يعقوب! تعال إلى هنا! يوسف يا ابن يعقوب.. تعال إلى هنا! تعال وتحدث إلى إخوتك الذين باعوك!». فأخذ إخوته يتلفتون يمنة ويسرة، إلى أربعة أركان البيت، إلى أن ناداهم يوسف قائلاً: «لماذا تتلفتون يمنة ويسْرة؟ أنا هو يوسف بن يعقوب أخوكم!» عند ذلك طارت أرواحهم شعاعًا ولم يستطيعوا نطقًا، لكن الرب شاء أن تقع معجزة، فعادت أرواحهم إليهم.

وواصل يوسف كلامه قائلاً: «ها أنتم ترون بأعينكم، وكذا رأى أخى بنيامين بعينه أنِّى أقف أمامكم وأتحدث معكم بالعبرية، فأنا حقًا أخوكم». لكنهم لم يصدقوه، فلم يكن قد تحول من صبى أمرد إلى رجل ذى لحية كبيرة وحسب منذ أن تركوه، ولكن ذلك الصبى الذى تركوه يومًا فى البرية

يقف الآن أمامهم حاكمًا لمصر. ولهذا فقد تجرد يوسف من ثيابه وأرى إخوته أنه من ذرية إبراهيم.

وقف إخوته أمامه لا يكادون يعقلون من الغضب الذى اشتط بهم وحدثتهم أنفسهم بأن يقتلوا يوسف لأنه كان سبب الخزى والعنت الذى أصابهم، لكن ظهر ملاك حينها وأطاح بهم إلى أربعة أركان المنزل، فصرخ يهوذا صرخة عظيمة ارتجت لها أسوار مدينة مصر، ووضعت الحبالى ما فى بطونهن قبل الأوان، وسقط يوسف وفرعون كلٌّ عن عرشه، وسقطت أسنان صناديد يوسف الثلاثمئة وتحجرت رؤوسهم فى أماكنها وهى تنظر إلى الوراء، إذ كانوا قد التفتوا إلى الوراء يبحثون عن مصدر هذا الصوت العظيم. ومع ذلك فلم يجرؤ الإخوة على الاقتراب من يوسف، إذ كانوا فى غاية الخزى مما فعلوه به. لكنه هدأ روعهم قائلاً: «لا تحزنوا ولا تغضبوا من أنفسكم لأنكم بعتمونى فإن الرب قد أرسلنى من قبلكم لأحفظ عليكم حياتكم».

لكن هذه الكلمات لم تُذْهِب عنهم مخاوفهم، فواصل يوسف كلامه قائلاً: «كلا: لم أحمل فى صدرى رغبة فى الثأر من بنيامين، لا أحمل لكم ضغينة ولا رغبة فى الثأر منكم». لكنه وجدهم غير مصدقين فواصل قائلاً: «أتظنون أن بإمكانى أذيتكم؟ لئن كان دخان عشر شمعات لم يستطع أن يطفئ شمعة واحدة، فأنَّى لدخان واحدة أن يطفئ عشراً؟».

وأخيرًا هدأ روع إخوة يوسف وأقبلوا عليه يضمهم واحدًا واحدًا، وهم يبكون جميعًا. وكان يبكى لأن روح النبوءة فيه أرته كيف ستستعبد الأمم ذرية إخوته. وبكى طويلاً على كتف بنيامين خصوصًا، لأنه رأى الدمار الذى كُتِبَ على المعبدين اللذين سيبنيان فى الأرض المخصصة له. كما بكى بنيامين على كتف يوسف، لأن الحرم الذى سيكون فى «شيلوه»، من أرض يوسف، كتب عليه هو الآخر الدمار.

فرح فرعون كثيرًا لما وصلته أخبار وفاق يوسف مع العبريين، إذ كان

يخشى أن يهلكوا بخلافهم مصر، وأرسل خدمه إلى يوسف أن يأتوا جميعًا ويشاركوه فرحته. كما أرسل إليه أنه سيسره أن يقيم إخوته بمصر، ووعده بأن يخصص لهم أفضل البقاع فى البلاد سكنًا لهم.

لكن لم يكن جميع خدم الفرعون راضين عن قرار سيدهم بدعوة اليهود للإقامة فى مصر، واعترض كثيرون منهم قائلين فى تذمر: «لئن كان أحدهم قد جاء إلى هنا وارتقى شأنه حتى صار حاكمًا فوق رؤوسنا، فأى شر سيحق بنا لو جاء منهم عشرة آخرون؟».

أعطى يوسف إخوته جميعًا لكل واحد منهم ثوبين جديدين، ليلبس أحدهما فى أيام الأسبوع العادية والآخر ليوم السبت، إذ عندما وُجدت الكأس مع بنيامين، كانوا قد مزقوا ثيابهم، وما كان يوسف ليرضى بأن يتجول إخوته فى المدينة بملابس ممزقة. لكنه أعطى لبنيامين خمسة أثواب جديدة، وإن لم يفعل ذلك ليميزه عن باقى إخوته، فقد كان يوسف يذكر جيدًا كيف تسبب أبوه فى المحنة التى مَرَّ بها بإعطائه إياه القميص الملون الذى أثار حسد إخوته له. ولذا فقد فعل ما فعل ليكون بشارة بأن موردخاى، وهو من بنيامين، سيرتدى يومًا خمسة أثواب ملكية.

قدَّم يوسف إخوته، وقد تزينوا بالثياب المرصعة بالذهب والفضة، إلى فرعون الذى سُرَّ كثيرًا لتعارفه معهم، إذ رأى أنهم رجال شجعان وحسنوا الطلعة. ومنحهم عربات ليحضروا أُسَرَهم فيها إلى مصر، لكن يهوذا أحرق العربات لما رآها مزينة بتماثيل للأصنام، واستبدلها يوسف بإحدى عشرة عربة أخرى، من بينها العربة التى امتطاها أثناء خطوه إلى تسلّم منصبه، ليرى من عليها أرض مصر. وخصص يوسف هذه العربة ليأتى أبوه عليها إلى مصر، ولكنه أرسل إلى كل طفل من أطفال بنيامين عشرة أثواب. كما بعث إلى زوجات إخوته ثيابًا من ثياب سيدات البلاط كالتى ترتديها زوجات فرعون، كما أرسل إليهم الدهن والبخور؛ وأرسل إلى أخته «دينة» ثيابًا

مرصعة بالذهب والفضة، والمرِّ والريحان والعطور الأخرى، كما أرسل هدايا مماثلة إلى زوجات أبناء بنيامين. وتلقى إخوته منه لأنفسهم ولزوجاتهم جميع أنواع الأحجار الكريمة والحُلىِّ المرصعة بالجواهر، مثل تلك التى يرتديها أفراد البلاط المصرى.

رافق يوسف إخوته إلى الحدود ثم استأذن منهم فى العودة راجيًا منهم أن يعودوا إلى مصر ومعهم عائلاتهم جميعًا، كما وَصَّاهم بثلاث وصايا ليلتزموا بها هم وكل مسافر قائلاً: «لا تسيروا بخطوات واسعة؛ لا تتجادلوا فى مسائل الهلاك لكيلا تضلوا الطريق؛ ولا تدخلوا المدينة إلا متأخرين عندما تغرب الشمس».



يعقوب يتلقى الأخبار السارة

ارتحل أبناء يعقوب إلى أرض كنعان بأفئدة فرحة وروح متوثبة، لكنهم لما وصلوا إلى تخومها، قال أحدهم للآخر: «ما العمل الآن؟ لو وقفنا قدام أبينا وقلنا له إن يوسف لا زال حيا فسيشتد خوفه منا ولن يصدقنا». كما أن يوسف أوصاهم بأن يحترسوا ولا يفاجئوا أباهم بالأنباء السارة.

وعندما اقتربوا من منازلهم لمحوا سيراح ابنة آشر عن كثب، وكانت جارية بالغة الجمال والحكمة وماهرة فى العزف على القيثارة، فنادوها وأمروها بأن تعزف ليعقوب وتغنى أمامه بما سيقولونه لها. فمضت حتى جلست أمام يعقوب وأخذت تعزف لحنا عذبًا وتغنى قائلة: «عمى يوسف حىّ.. إنه حاكم مصر.. ولم يمت» وأخذت تكرر هذه الكلمات كثيرًا، ويعقوب يزداد فرحًا واستثارة. وأيقظت فرحته روح النبوة بداخله وعلم أنها تنطق بالحق. فروح النبوة لا تحل أبدًا على راءٍ وهو مكتئب أو حزين، ولا تأتيه إلا إذا كان فرحانًا(*). وطوال السنوات التى افترق فيها يوسف عنه، لم يزره روح النبوة مرة واحدة، لأنه كان حزينًا دائمًا، ولم تعد إليه فرحته إلا مع كلمات سيراح التى أدخلت السعادة على قلبه، فتملكته روح النبوة من جديد. ولذا فقد كافأها يعقوب قائلاً: «أى بنية.. لا يكن للموت عليك سلطان أبدًا، لأنك قد أحييت روحى من جديد». وهكذا كان. فلم تمت سيراح ودخلت الجنة وهى حية. وأخذت بأمره تكرر كلمات أنشودتها مرات ومرات، فازداد فرح يعقوب، واشتدت روح النبوة فيه وازدادت قوة.

(*) لاحظ أن اليهود ينسبون العلم بالغيب دائمًا للعرافة، وليس لاتصال النبى بالله!!.

وبينما هو يجلس هكذا يتحادث مع سيراح، دخل عليه أبناؤه وقد تزينوا بأبهى الثياب ومعهم جميع الهدايا التى منحهم يوسف إياها، وكلموا يعقوب قائلين: «أخبار سارة! يوسف أخونا حى! إنه حاكم على أرض مصر كلها وقد أرسل إليك معنا رسالة فرح». ولم يصدق يعقوب كلامهم فى بادئ الأمر، لكن لما فتحوا رحالهم وأروه الهدايا التى أرسلها يوسف للجميع، لم يشك فى صدق كلامهم.

كان يوسف يتملكه هاجس بأن أباه لن يصدق إخوته، لأنهم حاولوا خداعه من قبل و«عقوبة الكذاب ألا يصدقه أحد عندما ينطق بالصدق». ولهذا فقد قال لهم: «إن لم يصدقكم أبى، فأخبروه أننى عندما انصرفت عنه للمرة الأخيرة، لأطمئنه عليكم، كان يعلمنى حكم الكبش الذى يتردى من فوق الجبل». ولذا فعندما قصوا على يعقوب ذلك زال عنه كل شك فى صدق حديثهم وقال: «كم هو عظيم ثبات ابنى يوسف على الحق! فبالرغم من كل ما رآه ولاقاه من عنت ومحن، لم يتضعضع إيمانه. وعظيمة هى نِعمَ الرب علىّ. فقد نجانى من يدى عيسو ومن يدى لابان ومن الكنعانيين الذين طاردونى.. لقد عشت من قبل أيامًا سعيدة كثيرة، وأتمنى أن أعيش المزيد، لكننى لم أكن آمل أبدًا أن تقع عيناى على يوسف مرة أخرى، وها أنا سأذهب إليه وأراه قبل أن يضمنى القبر».

ثم ارتدى يعقوب وآل بيته الهدايا التى أرسلها يوسف إليهم، وكان من بينها عمامة ليعقوب، واستعدوا جميعًا للذهاب إلى مصر والإقامة فيها مع يوسف وأسرته. ولما سمع ملوك كنعان بما أصاب يعقوب من الفرح ذهبوا إليه وهنأوه وأعد لهم وليمة دامت ثلاثة أيام.

لكن يعقوب لم يشأ أن يذهب إلى مصر قبل أن يتأكد من أن الرب يريد منه أن يغادر الأرض المقدسة، وقال: «كيف لى أن أترك أرض آبائى ومحل مولدى، ومقام الشكينة، وأذهب إلى أرض دنسة (كذا) يسكنها عبيد أبناء حام، وحيث لا خشية من الرب؟». ثم ذهب وقرب القرابين إلى الرب لعله

يرى رؤيا إلهية فيعلم إن كان له أن يذهب إلى مصر أم يأتى يوسف إلى كنعان. وكان يخشى من الإقامة فى مصر، إذ تذكر الرؤيا التى رآها فى بيت إيل عند مغادرته لبيت أبيه، وقال للرب: «إننى أشبه أبى. فكما كان جشعه يدفعه إلى ملء بطنه، سأذهب أنا أيضًا إلى مصر بسبب المجاعة. والبركة التى منحنى إياها أبى لم تتحقق فىّ، لكنها تحققت فى ابنى يوسف الذى يخدمه الناس والذى ستحنى الأمم رؤوسها له».

ثم كلمت الشكينة يعقوب ونادته باسمه مرتين علامة على المحبة وأمرته ألا يخاف من نبوءة استعباد المصريين لذرية إبراهيم، لأن الرب سيرحم ذريته ويخلصهم من العبودية. كما قال الرب: «سأذهب معك إلى مصر». ورافقت الشكينة يعقوب فى طريقه إلى مصر، فصار عدد مرافقيه إليها سبعين. لكن ولأن يعقوب كان يخشى من أن تقيم ذريته فى مصر إلى الأبد، فقد أكد له الرب بأنه سيخرجه منها مع جميع المتقين من أمثاله. كما أخبر الربُ يعقوبَ أن يوسف ثبت على تقواه فى مصر، وأن عليه أن يتخلى عن هواجسه بشأن ذلك، إذ كان قلق يعقوب من هذه المسألة هو ما ثَبَّط عزمه على الذهاب إلى مصر؛ ولم يكن يريد إلا الاطمئنان إلى إيمان يوسف، ثم يعود إلى بيته، لكن الرب أمره أن يذهب إلى مصر ويبقى فيها.

قبل أن يغادر يعقوب كنعان ذهب إلى بئر سبع ليجتث أشجار الأرز التى كان إبراهيم قد زرعها هناك، فيأخذها معه إلى مصر. وظلت هذه الأشجار طوال قرون ملك ذريته؛ وحملوها معهم عندما غادروا مصر واستخدموها فى بناء الهيكل.

بالرغم من أن يوسف كان قد وضع تحت تصرف إخوته عربات ليجلبوا أهليهم من كنعان إلى مصر عليها، فإنهم قد حملوا يعقوب على أيديهم، بعد أن انقسموا إلى ثلاثة فرق تتناوب حمله. وكمكافأة لهم على هذا الإخلاص البنوى تجاه أبيهم، فقد حرر الرب ذريتهم من مصر.

أرسل يعقوب ابنه يهوذا قدامه ليبنى لهم مسكنًا فى جاسان، وليبنى كذلك «بيت هامدراش»، لكى يشرع يعقوب فى تعليم أبنائه بمجرد وصولهم. وقد شرَّف يهوذا بهذه المهمة الشريفة تعويضًا له عن خطئه فى حقه ذات يوم. فطول سنى افتراق يوسف عنه كان يعقوب يرتاب فى أن يهوذا هو الذى تخلص من ابن راحيل. والآن تبين له كم كان ظالمًا فى ظنه هذا، لما رأى شدة حرص يهوذا على سلامة بنيامين، ابن راحيل الآخر. ولهذا فقد قال يعقوب ليهوذا: «لقد أظهرت تقواك والتزامك بأوامر الرب، وأظهرت قدرتك على إدارة المفاوضات مع يوسف: أكمل العمل الذى بدأت واذهب إلى جاسان وخذ يوسف معك وأعِّدوا لمجيئنا. لقد كنت أنت السبب فى مجيئنا إلى مصر لأنك أنت الذى اقترحت أن يوسف قد بيع عبدًا فيها، فكذلك ستكون ذريتك هى التى ستقود إسرائيل إلى خارج مصر».

عندما علم يوسف بقدوم أبيه سُرَّ سرورًا عظيمًا، وخصوصًا لأن مجئ أبيه سيخرس ألسنة المصريين الذين كانوا يقولون عنه أنه عبد وتملك عليهم. وفكَّر يوسف قائلاً لنفسه: «الآن سيرون أبى وإخوتى وسيقتنعون بأننى ولدت حُرّاً وبأننى من أصل أصيل». وهرول يوسف فى سروره يُعِد عربة أبيه بيديه، ودون انتظار لقيام خدمه بذلك، وقد أثيب الإسرائيليون على هذا الفعل فيما بعد، إذ لم يُصبِهم شيئًا حماسة فرعون لإعداد عربته بيديه ليلحق بهم قبل هروبهم من مصر.



يعقوب يصل إلى مصر

عندما رأى نبلاء مصر ولى عهد ملكهم يكمل استعداداته للقاء أبيه، فعلوا مثله؛ بل إن يوسف أعلن فى البلاد متوعدًا بقتل كل من لا يخرج للقاء يعقوب. وكان بالموكب الذى رافقه عدد لا يحصى من الرجال الذين ارتدوا البيسوس والأرجوان، ويزحفون على أنغام جميع أنواع الآلات الموسيقية. بل إن نساء مصر اشتركن فى حفل الاستقبال وصعدن إلى أسطح المنازل وأسوار المدن، مستعداتٍ لتحية يعقوب بالموسيقى والغناء.

ارتدى يوسف تاج الملك على رأسه، وكان فرعون قد أعطاه إياه لهذه المناسبة. وترجل عن عربته عندما صار على مبعدة خمسين ذراعا تقريبًا من أبيه وسار المسافة المتبقية على قدميه، وتبعه فى ذلك الأمراء والنبلاء. وعندما لمح يعقوب الموكب القادم نحوه فرح فرحًا عظيمًا، وانحنى أمام يوسف حتى قبل أن يتعرف عليه، ولسماح يوسف لأبيه بأن يفعل ذلك فقد حَلَّت عليه العقوبة ومات قبل أوانه، وقبل انقضاء السنين المخصصة لعمره (كذا).

ولكى لا يصيب يعقوب مكروه من رؤية ابنه على غرة بعد كل هذه السنين، أرسل يوسف ابنه الأكبر أمامه ومعه خمسة جياد، وتبعه ابنه الثانى ومعه مثلها. وكلما اقترب منه أحد أبناء يوسف ظن يعقوب، أنه هو يوسف، ولذا فقد استعد تدريجيا لرؤيته وجهًا لوجه.

وبينما يعقوب جالس فى مكانه لمح رجلاً بين المصريين يرتدى ثيابًا ملكية، وعلى رأسه تاج وقد لف كتفيه بعباءة أرجوانية فسأل يهوذا عمن يكون، فلما

علم أنه يوسف فرح فرحًا عظيمًا لما رأى ما آل إليه حال ابنه من مجد وكرامة.

عند ذلك اقترب يوسف من أبيه وخر ساجدًا بين قدميه، وفعل جميع الناس مثله. ثم ارتمى يوسف فى حضن أبيه وأخذ يبكى بكاءً مُرًا . وكان أشد ما أحزنه أن ترك أباه ينحنى أمامه لبرهة دون أن يحاول منعه. وفى نفس اللحظة التى عانق فيها يوسف أباه، كان يعقوب يتلو «صلاة الشماع»*، ولم يشأ أن يقطع صلاته، لكنه قال: «عندما جاءنى خبر موت يوسف. ظننت أننى قد كُتب علىّ الموت مرتين.. إذ سأكون جدا لاثنى عشر سبطًا، وإذ جعل موت ابنى ذلك مستحيلاً، فقد خشيت أن أكون قد جلبت على نفسى تلك المصيبة بخطاياى، ولذا فما كنت أتوقع إلا أن أخسر العالم الآتى كذلك لخطيئتى. لكن، إذ أراك الآن حيا أمام عَينىَّ، فإننى أعلم الآن أننى لن أذوق الموت إلا فى هذا العالم فقط».

وهكذا كان وصول يعقوب إلى مصر. فقد أتى مع عائلته كلها، وكانوا تسعة وستين جميعًا، لكن العدد زاد إلى سبعين مع ميلاد «يوكابد» التى صارت فيما بعد أم موسى، وقد وَلِدتْ عندما تقدم الركب إلى الفراغ الفاصل بين سُوَرىّ المدينة. وكان جميع ذكور عائلته رجالاً متزوجين؛ بمن فيهم «بَعلُو» و «حصرون» الذى كان عمره لا يتجاوز العام عندما هاجروا، بينما كان «بَعلُو» لا يتجاوز العامين، وكان معهما زوجتاهما اللتان اختارهما أبواهما لهما. وباختصار فإن جميع أبناء يعقوب وأحفاده قد تزوجوا صغارًا، حتى إن بعضهم كان أبًا ولمّا يتجاوز السابعة من عمره.

اختار يوسف بعض إخوته وقدمهم إلى فرعون. واختار أضعفهم لكيلا تراود الملك نفسه فى الاحتفاظ بهم فى خدمته وجعلهم محاربين فى جيشه ولأنه لم يرد لعائلته أن تقطن فى أحياء قريبة من المصريين ومن ثم فقد تختلط بهم، فقد قدم إخوته إلى فرعون على أنهم رعاة أغنام. وكان المصريون يعبدون إله المطر ويوقرون الحيوانات وينأون بأنفسهم عن رعاة الأغنام. ولذا فقد مال فرعون إلى تحقيق أمنية يوسف بأن يمنحهم أرض الرعى فى

(*) دعاء الشِماع: صلاة تؤدى فى الصباح والمساء وهى عبارة عن قراءة أجزاء من التوراة فيها توحيد للرب. (المترجم).

جاسان ليقيموا بها، وكانت هذه الأرض حقا لهم، لأن الفرعون الذى أخذ سارة من إبراهيم بالقوة كان قد منح هذه الأرض لها ملكًا لا ينتزع.

فى حديثهم إلى الفرعون صَرَّح إخوة يوسف لملك مصر بأنهم لا ينوون البقاء فى مصر إلى الأبد، وأنهم سيقيمون بها مؤقتًا.

بعد ذلك أحضر يوسف أباه يعقوب قدام الفرعون الذى لمَّا رآه قال لعوج، الذى تصادف أن كان موجودًا حينها: «هل ترى الآن! لقد أخذت تقول إن إبراهيم بغل عقيم، وها هو حفيده ومعه عائلته، سبعون نَفْسًا». ولم يصدق عوج ما يراه، وظن أنه يرى إبراهيم واقفًا أمامه، إذ كان شبه يعقوب بجده عظيمًا! ثم سأل الفرعون يعقوب عن عمره، لكى يعرف إن كان هو حقا يعقوب، لا إبراهيم، فأجابه يعقوب: «إن سِنِى هجرتى هى مئة وثلاثون سنة». واستخدم كلمة «هجرة» ليشير بها إلى حياته على الأرض، إذ يرى المتقون حياتهم على الأرض إقامة مؤقتة فى أرض غريبة. ثم واصل حديثه قائلاً: «قليلة وملآى بالشر كانت سنى حياتى. ففى حياتى كان علىّ أن أفر على أرض غريبة خوفًا من أخى عيسو، وها أنا الآن، فى شيخوختى، اضطر إلى الذهاب مرة أخرى إلى بلد غريب، كيما تصل أيام حياتى إلى عدد أيام حياة آبائى فى هجرتهم». وكانت هذه الكلمات كافية لإقناع فرعون وعوج أن الرجل الواقف قدامهم ليس إبراهيم، ولكن حفيده.

عندما قال يعقوب: «قليلة وملأى بالشر كانت سنى حياتى». أجابه الرب قائلاً: «لقد أنجيتك يا يعقوب من يدى أخيك عيسو، وأعدت إليك ابنك يوسف وجعلته حاكمًا وملكًا، وبعد كل ذلك تتكلم عن الأيام القليلة والملآى بالشر! بسبب جحودك هذا، لن تعيش مثلما عاش آباؤك». فمات يعقوب عن عمر أقل من عمر أبيه إسحاق بثلاث وثلاثين سنة.

عندما هَمَّ يعقوب بالانصراف من حضرة الفرعون باركه قائلاً: «ليمنحك الرب ما تبقى من سنين فى حياتى، وليُفِض النيل على ضفتيه مرة أخرى ويروى الأرض». وتحققت دعواته، فلكى يبين الرب أن المتقين بركة للعالم، جعل النيل يفيض ويخصِّب أرض مصر.

عطف يوسف وكرمه

الآن استقر يعقوب وآل بيته في أرض جاسان وزودهم يوسف بكل ما يحتاجون إليه، ليس فقط بالطعام والشراب، وإنما بالثياب أيضًا، وظل يرعى أباه وإخوته بحبه وعطفه كل يوم ويستضيفهم على مائدته. ومحا من عقله ما فعله به إخوته ورجا أباه أن يدعو الرب من أجلهم وأن يغفر لهم خطيئتهم في حقه. وتأثر يعقوب بهذه اللفتات الكريمة وصاح قائلاً: «آه يا يوسف يا بُنَيَّ! لقد غلبت قلب أبيك!».

كذلك كان ليوسف فضائل أخرى، فلقب «الخائف من الرب» الذي لم يحمله سواه وإبراهيم وأيوب وعوفديا، إنما حازه بسبب طيبة قلبه وكرمه. فقد كان يعطي إخوته «عن طيب نفس»، وسخاء بالغ. فعندما كان يعطيهم الخبز، فلا يعطيهم ما يكفي لسد جوعتهم وحسب، وإنما ما يتلهى به الأطفال بَحسب عادتهم كذلك.

لكن يوسف كان أكثر من مجرد معين لعائلته، فمثله مثل راعي القطيع، أمَّن للعالم قوته في سني المجاعة. ولعن الناس فرعون الذي ملأ خزائنه بالقمح منفردًا به لنفسه، وباركوا يوسف الذي راعى الجياع وباع لكل من أتاه. وكان ما كسبه من هذا البيع مالاً حلالاً، لأن الأسعار كانت قد ارتفعت، لا بسببه هو وإنما رفعها المصريون أنفسهم. ودفن يوسف قسمًا مما يمتلك، وكان ذهبًا وفضة وأحجارًا كريمة، في أماكن أربعة مختلفة في الصحراء قرب البحر الأحمر، وعلى ضفاف الفرات، وفي بقعتين في الصحراء المجاورة لبلاد فارس وميديا. وقد اكتشف قورح واحدًا من هذه المخابئ،

واكتشف الإمبراطور الرومانى أنطونيوس مخبأً آخر. لكن المخبأين الآخرين لن يصل إليهما أحد قط، لأن الرب احتفظ بما يحويانه من كنوز للمتقين، ليتمتعوا بها فى الأيام الأخيرة، أيام المسِّيا أما باقى ممتلكات يوسف فقد أعطى قسمًا منها لإخوته وعائلاتهم، وأعطى القسم الآخر لفرعون الذى ضمها إلى كنوزه.

وقد تدفقت ثروات العالم إلى مصر فى تلك الأيام، وظلت بها إلى زمن خروج الإسرائيليين الذين حملوها معهم عند مغادرتهم لمصر، مثل شبكة بلا سمك، وظلت معهم إلى زمن رحبعام الذى سلبها منه ملك مصر «شيشَقْ»، الذى سلمها بدوره إلى «زارح» ملك أثيوبيا. لكنها عادت إلى الإسرائيليين مرة أخرى عندما غزا الملك «عَصَا» من مملكة «زَارَح»، لكنهم لم يحتفظوا بها إلا لفترة قصيرة، إذ سلمها «عَصَا» إلى الملك الآرامى ابن حداد ليغريه على نقض تحالفه مع «بعاشا» ملك القبائل العشرة. واستولى العمونيون بدورهم عليها من ابن حداد، لكى يفقدوها فى حربهم مع اليهود بقيادة يهوشافاط. وظلت فى حوزة اليهود إلى زمن الملك آحاز الذى سلمها جِزْيَةً إلى «سِنَّخريب» وعاد حزقيا واستولى عليها مرة أخرى، لكن «صِدْقيا» آخر ملوك اليهود، استلبها منه الكلدانيون الذين انتقلت منهم إلى بلاد فارس ثم إلى الإغريق وأخيرًا إلى الرومان حيث بقيت معهم إلى الآن.

سرعان ما وجد الناس أنفسهم دون مالٍ يشترون به القمح الذى يحتاجون إليه. فخلال فترة وجيزة اضطروا إلى بيع ماشيتهم، وعندما لم يتبق معهم أى مال، باعوا أراضيهم ليوسف، بل إنهم باعوا أنفسهم له. وكان كثيرون منهم يلطخون أنفسهم بالطين ويذهبون إلى يوسف ويقولون له: «يا مولانا الملك اشترنا واشترِ ما نملكه!» وهكذا اشترى يوسف جميع أرض مصر، وأصبح سكانها مزارعين عنده يعطونه خمس ما تجود به أراضيهم.

وكانت الفئة الوحيدة من الناس التى سمح لها بأن تبقى محتفظة بما تملك، هى فئة الكهنة. وكان يوسف ممتنًا لهم لأنهم كانوا هم سبب وصوله

إلى حكم مصر، إذ كان المصريون مترددين فى جعله ولى عهد مليكهم، لأنهم كانوا لا يرون من اللائق أن يتولى رجل اتهم بالزنا منصبًا رفيعًا كهذا. لكن الكهنة اقترحوا فكرة فحص قميص يوسف الممزق الذى سلمته سيدته إلى المحكمة دليلاً على جريمته، ورأى الكهنة أن يفحصوا إن كان القطع فى القميص من الأمام أو من الخلف، فإن كان من الخلف فذلك دليل براءته: فقد استدار ليهرب لكن مغويته أمسكت به فانقطع القميص. لكن إن كان القطع من الأمام فذلك دليل جرمه، إذ يدل ذلك على أنه استخدم العنف مع المرأة فقطعت قميصه وهى تحاول الإفلات منه والدفاع عن شرفها. ونزل الملاك جبريل وحَوَّل القطع من الأمام إلى الخلف فاقتنع المصريون ببراءة يوسف وزالت عنهم شكوكهم تجاه توليه مُلْك بلادهم(*).

وما إن علم المصريون بالمكانة المتميزة للكهنة لدى يوسف، إلا وحاولوا الإدعاء بأنهم من الكهنة، لكن يوسف راجع سجلات الكهنة وحدد مكانة كل مواطن.

وحظى الكهنة بمكرمة أخرى، فمع احتفاظهم بأراضيهم فقد كان فرعون يرسل إليهم كل يوم بحصة تموينية، ولهذا قال الرب: «إن الكهنة الذين يخدمون الأصنام ينالون كل ما يحتاجون إليه كل يوم، فكم إذًا يستحق أبناء إبراهيم وإسحق ويعقوب الذين هم كهنتى؟، لأعطينهم ما يحتاجون كل يوم».

أما بقية سكان مصر، ممن كان عليهم مغادرة أراضيهم، فلم يسمح لهم بالبقاء فى أقاليمهم، إذ أخرجهم يوسف من مدنهم وأسكنهم بمدن أخرى. وكان غرضه من ذلك أن يمنعهم من السخرية من إخوته قائلين إنهم «لاجئون أبناء لاجئين»، إذ قد جعل الكل غرباء. ولذات السبب فإن الرب، فيما بعد فى زمن خروج الإسرائيليين من مصر، قد جعل كل الأمم تغترب عن بلادها، لكى لا يلام الإسرائيليون على أنهم اضطروا إلى مغادرة بلادهم. وفى النهاية عندما حمل «سنّحريب» اليهود على الخروج من أرضهم إلى المنفى، فإن هذا الملك قد خلط بين سكان جميع بلاد العالم أولاً(**).

(*) سبحان الله على هذا الافتراء والتلفيق!! لا بل كان التمزيق من الخلف كما حكى القرآن الكريم.

(**) ولم لا!! ألم يُخْلَق العالم من أجل بنى إسرائيل كما يدعيه اليهود الأفاقون!!.

أمنية يعقوب الأخيرة

مكافأة له على الأعوام السبعة عشر التى كرسها لتربية يوسف، مُنِحَ يعقوب نعمة الإقامة مع ابنه المفضل سبعة عشرة عامًا فى سلام وسعادة. والأشرار يعانون الحزن بعد الفرح، لكن المتقين لابد أن يعانوا أولاً، ثم يفرحون فيما بعد، إذ العبرة بالنهاية، والرب يجعل المتقين يقضون سنى حياتهم الأخيرة فى هناء وسعادة.

عندما أحس يعقوب باقتراب أجله استدعى يوسف إلى فراشه وأباح له بمكنون قلبه. وقد استدعى يوسف ولم يستدع أحدًا من إخوته سواه، لأنه كان الوحيد الذى يستطيع تنفيذ أمنياته.

قال يعقوب ليوسف: «لئن كان لى نعمة فى عينيك، فلا تدفنى فى مصر، فلم آت إليها إلا من أجلك، ولم أتكلم إلا من أجلك، والآن أستطيع أن أموت. افعل ذلك لأجلى لحبك لى، لا خوفًا منى، ولا لأن اللياقة تقتضيه. وعندما أرقد مع آبائى، فادفنى فى مدفنهم. أخرجنى من أرض الأصنام، وادفنى فى الأرض التى جعل الرب اسمه يسكن فيها، وأسكن بدنى حيث سيدفن أربع أزواج وزوجاتهم الأربع، وأنا آخرهم».

ولم يرد يعقوب أن يدفن فى مصر لأسباب عديدة، فقد كان يعلم أن أرض مصر ستمتلئ يومًا بالدود، فكره أن يتعرض بدنه لمثل هذه القذارة. كما كان يخشى أن تقول ذريته: «لو لم تكن مصر بلدًا مقدسًا لما كان أبونا يعقوب سمح لنفسه بأن يدفن فيها». ومن ثم يتحججون بذلك لكى يقيموا

فيها إلى الأبد. كذلك لو كان قبره فى مصر فلربما لجأ إليه المصريون عندما أصابتهم البلايا، ولاضطر هو حينها إلى التشفع لهم عند الرب، فسيكون عند ذلك يتشفع لأعداء الرب. فإن لم يتشفع لهم، فإن الوثنيين سيشتمون اسم الرب ويقولون: «إن يعقوب قديس لا فائدة منه»؛ كما أن الرب قد يعتبره «نعجة إسرائيل الضالة»، كتضحية للمصريين، فيستحق عقوبتهم. كذلك فقد كان يخشى، من معرفته بالشعب، أن يصبح قبره ضريحًا يتعبده الوثنيون، والرب يعاقب الأصنام بنفس عقوبة عابديها.

وإذا كان لدى يعقوب أسبابه الجيدة كذلك للدفن فى الأرض المقدسة. ففى زمن المسيا، وعندما يبعث الموتى، فإن الذين دفنوا فى فلسطين سيبعثون إلى حياة جديدة دون تأخير، بينما الذين دفنوا فى أراضى أخرى سيضطرون إلى التقلب والانتقال من بلد إلى بلد فى الأرض كلها، التى ستتجوف من أجل ذلك خصيصًا، إلى أن يصلوا إلى الأرض المقدسة، وساعتها فقط سيبعثون. لكن فوق كل هذا وذاك، فقد كان لدى يعقوب سبب خاص لرغبته بدفن جثمانه فى فلسطين، إذ أن الرب كان قد قال فى بيت إيل: «الأرض التى ترقد عليها، لك سأعطيها، ولذريتك من بعدك» ومن هنا فقد بذل كل ما فى وسعه لكى «يرقد» فى الأرض المقدسة، لكى يتأكد من أنها ستكون له ولذريته من بعده(*). ومع ذلك فقد أمر يوسف بأن ينثر بعض التراب المصرى على جثمانه.

وأفصح يعقوب ليوسف أن هذه هى أمنيته الأخيرة، وفعل ذلك ثلاث مرات. وهكذا يكون فعل ذوى الأصول النبيلة عندما يطلبون شيئًا.

فى الأيام الأخيرة من حياة يعقوب يستطيع المرء أن يرى مدى صدق القائل أنه: «حتى المَلِك يحتاج إلى فضل أولى الفضل وهو فى أرض غريبة». فيعقوب ذلك الرجل الذى خلق العالم كله من أجل سجاياه، والذى من أجله نُجِّيَ إبراهيم من النار، كان عليه أن يطلب المعروف من الآخرين وهو بين

(*) يا للكذب الذى وضعوه بأيديهم!! كذبوا وصدقوا كذبهم!!

الغرباء، وعندما وعده يوسف بأنه سيفعل ما أمره به، انحنى لابنه، وصدق من قال: «انحن أمام الثعلب فى يومه» أى فى يوم قوته وسيطرته.

ولم يقتنع يعقوب بمجرد وعد بسيط من يوسف بتحقيق رغبته؛ فأصر على أن يقسم له يوسف بأمارة عهد إبراهيم، ووضع يده تحت فخذه، على عادة الآباء عندما يقسمون! لكن يوسف قال له: «إنك تعاملنى كالعبد. لست فى حاجة معى لأن أقسم لك على شىء، فأمرك لى يكفينى». لكن يعقوب استحثه قائلاً: «اخشى أن يأمرك فرعون بدفنى فى الضريح مع ملوك مصر. ولذا فأنا أصر على أن تقسم لى، وحينها فقط سأستريح». فاستسلم يوسف لرغبته، وإن لم يلتزم بالشعائر التى أداها إليعزر ليؤكد قسمه الذى أقسمه لإبراهيم سيده. فقد كان إليعزر عبدًا يتصرف تصرف العبيد، أما الحر فيلتزم بشريعة الأحرار. كما أن ما يليق بالعبد لا يليق بالابن.

عندما أقسم يوسف لأبيه أن يدفنه فى فلسطين، أضاف قائلاً: «وكما أمرتنى سآمر أنا أيضًا إخوتى، عندما أرقد على فراش الموت، بأن ينفذوا وصيتى ويحملوا جثمانى من مصر إلى فلسطين».

وعندما لاحظ يعقوب أن الشكينة فوق رأس السرير، حيث تستقر دائمًا فى غرفة المرضى، حنى رأسه عند رأس السرير قائلاً: «أشكرك يا ربى لأنه لم يخرج من فراشى دنِس، وكان فراشى طاهرًا». وكان ممتنا على وجه الخصوص بسبب الوحى الذى أوحاه الرب إليه بخصوص ابنه البكر رأوبين، بأنه قد تاب عن خطيئته فى حق أبيه، وكفّر عن خطيئته بالتوبة. وهكذا اطمأن يعقوب أن جميع أبنائه يستحقون أن يكونوا آباءً للأسباط الاثنى عشر، وأحس بفرحة وسعادة لم يشعر بمثلها إبراهيم ولا إسحق، إذ كان لكل منهم الأبناء الصالحون، والطالحون كذلك.

إلى الوقت الذى مات فيه يعقوب، كان الموت يباغت الناس ويخطفهم قبل أن يحذرهم المرض من اقتراب أجلهم. وذات يوم كلم يعقوب الرب قائلاً:

«يا رب العالم، إن الرجل ليموت فجأة دون أن يقعده المرض أولاً، ولذا فإنه لا يستطيع أن يخبر أبناءه بوصيته الأخيرة بخصوص ما سيتركه بعد موته. لكن إذا مرض الرجل أولاً قبل موته، وأحس بدنو أجله، فسيكون أمامه الوقت الكافى ليرتب شئون بيته قبل موته». فقال الرب: «إن طلبك معقول فعلاً، وستكون أنت أول من يستفيد من هذا الإجراء الجديد». وهكذا فقد مرض يعقوب لبرهة من الزمن قبل موته.

لكن مرضه أزعجه كثيرًا، لأنه كان قد عانى الكثير فى حياته. فقد كان يكد ليل نهار أيام كان مع لابان، بالإضافة إلى صراعه مع الملاك ومع عيسو، حتى وإن كان قد خرج من صراعه مع أخيه منتصرًا، فإنه قد أضعفه ولم يكن فى حالٍ تسمح له بتحمل معاناة المرض.

مباركة إفرايم ومِنَسَّى

كانت أسينات زوجة يوسف تلازم يعقوب وترعاه طوال سنى إقامته فى مصر، ولما رأت أن أجله يقترب قالت ليوسف: «لقد سمعت أن من يباركه تَقِىٌّ يكون كأنما باركته الشكينة. لذا أحضر ابنيك ليباركهم يعقوب».

بالرغم من حب يوسف لأبيه وإخلاصه له، فلم يكن يلازم جانبه لكيلا يهيأ له الفرصة ليستفسر منه عن ظروف قدومه إلى مصر. وكان يخشى إن علم يعقوب الحقيقة، أن يلعن أبناءه ويتسبب فى موتهم، ولذا فقد حرص يوسف على ألا تجمعه بأبيه أبدًا خلوة، ولكن ولأنه كان يريد الاطمئنان عليه باستمرار فقد رتب لمن يأتيه بأخبار أبيه لحظة بلحظة.

ولما علم يوسف بمرض أبيه، من رسوله الذى يأتيه بأخباره وكذلك من إفرايم الذى كان يعقوب يعلمه التوراة، أسرع إلى أرض جاسان مصطحبا معه ولديه. وكان يريد التأكد من خمس مسائل: هل سيبارك أبوه ولديه اللذين ولدا فى مصر، وإن باركهما فهل سيجعل كلا منها رأسًا لقبيلة؟ هل سيمنحه حق البكورة، وإن فعل فهل سيحرم رأوبين من هذا الحق تمامًا؟ ولماذا دفن أبوه راحيل أمه فى الطريق ولم يدفنها فى مقبرة العائلة فى كهف المكفيلة؟.

كذلك كانت تراود يعقوب الشكوك فى خمس مسائل، عندما كان على وشك الرحيل من كنعان إلى مصر: فلم يكن يعلم إن كانت ذريته ستضيع وتفقد هويتها بين شعب مصر؛ وهل سيموت ويدفن فيها؛ وإن كان سيسمح له برؤية يوسف ورؤية ولديه. لكن الرب طمأنه قائلاً: «سأذهب معك إلى

مصر، ولأعيدنك إلى فلسطين بعد موتك، وذريتك أيضًا، ويوسف ليضَعَنَّ يده على عينيك». وعندما اقترب أوان الوفاء بالوعد الإلهى، ظهر الرب ليعقوب وقال له: «لقد وعدتك بتحقيق أمنيتك، وقد آن أوان الوفاء بالوعد».

وأخبر الروح القدس يعقوب بمجىء يوسف إليه، فتقوى على مرضه وقعد فى فراشه لكى يظهر الاحترام اللائق لمثل الحكومة. فبجانب كونه ابنه، فقد كان يوسف نائبًا للملك كذلك، ولابد من إظهار الاحترام والتوقير له؛ كما كان يعقوب يريد أن يتظاهر أمامه بأن صحته قد تحسنت. ولم يكن يريد لأحد أن يتشكك فى مباركته ليوسف وابنيه، كونها صدرت عن شخص غير مسئول.

وتقوى يعقوب روحيّاً كما تقوى بدنيّاً، بالصلاة والدعاء للرب راجيًا أن تتنزل عليه الروح القدس حين مباركته لابنى يوسف.

عندما حضر يوسف فى صحبة ولديه قال له أبوه: «طوال الأعوام السبعة عشر التى كنت تزورنى فيها لم تكن تصطحب ولديك معك، لكننى أعلم لماذا أحضرتهما الآن. فإذا باركتهم فإن ذلك سيكون مخالفة لإرادة الرب الذى وعدنى بأن يجعلنى جدا لاثنتى عشرة قبيلة، لأننى لو تبنَّيْتُهما وجعلتهما من أبنائى فستصبح أربع عشرة قبيلة. ولو لم أباركهما فسيحزنك ذلك.. إذًا ليكن.. سأباركهما. لكن لا تظننى أننى أفعل ذلك لقاء عونك لى وإنفاقك علىّ طوال كل هذه السنوات. لا.. هناك سبب آخر تماماً. فعندما تركتُ بيت أبى وتوجهتُ إلى حاران، صليت للرب فى بيت إيل وقطعت على نفسى عهدًا بأن أدع للرب عُشْر كل ما أملك. وقد حافظت على عهدى، فيما يتعلق بممتلكاتى المادية، لكننى لم أستطع إعطاء عُشْر أبنائى لأننى، بحسب الشريعة، لابد أن أخصم من عددهم أربعاً: رأوبين ويوسف ودان وجاد، وهم أبكار أمهاتهم. وعندما عدت ظهر لى الرب مرة أخرى لى فى بيت إيل وقال: «كن مثمرًا وتكاثر». لكن بعد هذه البركة لم يولد لى ولد سوى بنيامين وحده، ولابد أن الرب كان يقصد إفرايم ومنسى عندما تكلم عن: «أمة وجماعة من الأمم». فإن كانت لى نعمة اليوم فى عينيك، فسيكون

ولداك إفرايم ومنسى، مثلهما مثل رأوبين وشمعون، ولدين لى، وعندها سأستطيع إخراج عُشْر أبنائى العشرة للرب، وعندها سأترك العالم دون أن أحمل فوق عنقى وزر إخلافِ وعدى مع الرب بخصوص إخراج العُشْر».

وافق يوسف على تنفيذ وصية أبيه، وعشَّر يعقوب بنيه، مكرِّساً لاوى «للقدوس» وعينه رئيساً على إخوته. وأكد على أبنائه أن يحرصوا على أن يكون أبناء لاوى هم دائماً الكهنة. وقد حدث أنه من بين جميع القبائل لم تلتزم بعهد الآباء أبداً فلم تتخل عنه إلا قبيلة لاوى.

وهكذا تبنى يعقوب منسى وإفرايم ليكونوا أبناءً له، مثلهم مثل رأوبين وشمعون تماماً. وخصص لهم، مثل الآخرين، قسماً فى الأرض المقدسة، كما حمل كل منهم، مثله مثل الآخرين، راية سبطه، فى رحلتهم خلال الصحراء.

بعدما اطمأن يوسف على نوايا يعقوب تجاه ابنيه، سأل أبوه عن المكان الذى دفنت فيه أمه فأجابه قائلاً: «وحق حياتك، إن رغبتك فى أن ترى أمك ترقد بجوارى فى القبر، ليست أكبر من رغبتى فى ذلك. إننى لم أشعر بالفرح فى حياتى إلا عندما كانت حية، وكان موتها أقسى ضربة تلقيتها فى حياتى» عندها سأله يوسف: «ربما اضطررت إلى دفنها فى الطريق لأنها ماتت فى موسم الأمطار، ولم تستطع حملها فى هذه الظروف إلى مدفن العائلة، أليس كذلك؟» رد يعقوب قائلاً: «لا. لقد ماتت فى الربيع، وكانت الطرق حينها نظيفة وأرضيتها ثابتة».

يوسف: «إذاً فائذن لى بأن أنقل جثمانها إلى ضريح العائلة».

يعقوب: «لا يا ولدى. لا تفعل ذلك. إننى لم أكن أريد دفنها فى الطريق لولا أن الرب أمرنى بذلك».

وكان سبب ذلك الأمر الإلهى أن الرب كان يعلم أن الهيكل سيتم تدميره وأن إسرائيل سيطرد إلى المنفى، وأن المنفيين سيطلبون من الآباء أن يتشفعوا لهم عند الرب، لكنه لن يستجيب لهم. وفى طريقهم إلى بلاد الغربة سيمر

الإسرائيليون على قبر راحيل ويلقون بأنفسهم عليه ويناشدون أمهم لتتشفع لهم عند الرب، وعندها ستدعو راحيل الرب لهم بهذه الكلمات: «يارب العالم.. انظر إلى دموعى وأشفق على أطفالى. لكن لو لم تشفق عليهم، فليكن كفَّارة للخطأ الذى حدث فى حقى» وساعتها سيستجيب الرب لدعائها، وسيرحم إسرائيل. ولذلك فقد دفنت راحيل على جانب الطريق.

الآن أراد يعقوب أن يبارك ابنى يوسف لكن الروح القدس أراه يَرُبْعام، من نسل إفرايم، و «يهو»، من نسل منسى، وكيف سيغريان إسرائيل بعبادة الأصنام، ولذا فقد هجرته الشكينة عندما أراد أن يضع يديه على حفيديه. وعند ذلك سأل يوسف قائلاً: «أمن الممكن ألا تكون قد تزوجت أم ولادك حسب الشريعة؟» وعندها أحضر يوسف امرأته أسينات إلى أبيه، وقال مشيراً إلى عقد زواجه بها: «هذه هى زوجتى التى تزوجتها بحسب العرف، وبعقد زواج واحتفال مناسب. أرجوك يا أبتاه بارك ابنى ولو من أجل خاطر هذه المرأة التقية».

أمر يعقوب حفيديه بالاقتراب منه وقبَّلهما وعانقهما، على أمل أن يلين الروح القدس عندما يرى فرحته بهما، لكن باء أمله بالفشل. واستخلص يوسف من ذلك أن الوقت غير مناسب لمنح البركة، وقرر الانصراف مؤقتاً وإلى أن تحين فرصة مناسبة، لكنه لم يفعل ذلك إلا بعدما أثبت لأبيه أن ولديه يلتزمان عهد إبراهيم (الختان).

عندما خرج يوسف من غرفة أبيه وصار وحيداً مع ولديه خَرَّ ساجداً للرب وتوسل له طالباً رحمته، وأمر ولديه بأن يفعلا فعله قائلاً: «لا تغترا بما لكما فى الدنيا من مكانة، لأن الدنيا لا تدوم. توسَّلا إلى الرب لينزل رحمته وينزِّل الشكينة على أبى لكى يبارككما كليكما» وعند ذلك تكلم الرب إلى الروح القدس قائلاً: «إلى متى سيظل يوسف يعانى؟ اكشف عن نفسك بسرعة وادخل إلى يعقوب، لكى يستطيع منح بركاته».

عندما قال يعقوب: «إفرايم ومنسى، مثلهما مثل رأوبين وشمعون سيكونان ابْنَىَّ» لاحظ يوسف أن أباه قد فَضَّل ابنه الأصغر إفرايم. وقد جعله ذلك فى غاية القلق على حق ابنه الأكبر فى البكورة، ولذا فقد حرص على أن يوقف ولديه أمام أبيه بحيث يقف منسى أمام يد أبيه اليمنى مباشرة، بينما يكون إفرايم أمام يده اليسرى. لكن بسبب تواضع إفرايم، فقد كتب له أشياء أعظم مما كتب لأخيه الأكبر منسى، وأمر الربُّ الروحَ القدس أن أباه قد وضع يده اليمنى على رأس إفرايم، حاول أن يرفعها عنه ويضعها على رأس منسى. لكن يعقوب أزاح يده قائلاً: «أتحاول رفع يدى رغماً عنى!! أتحاول رفع اليد التى هزمت أمير فوج الملائكة الذى يُعادل ثلث حجم العالم! إننى أعلم مالا تعلمه! إننى لأعلم ما فعله رأوبين ببلهة وما فعله يهوذا بثامار. هل تعلم كم أعلم ولا تعلم؟! أتظن أننى لا أعلم ما فعله بك إخوتك، لأنك تراوغنى كلما سألتك؟ بل إنى لأعلم أن منسى سيصبح هو الآخر عظيماً، ومنه سيأتى قاضى «جدعون»، لكن أخاه الأصغر سيكون جدا ليوشع الذى سيوقف حركة الشمس والقمر، مع أن لهما السيادة على الأرض كلها من أقصاها إلى أقصاها» وهكذا وضع يعقوب إفرايم الأصغر فوق منسى الأكبر، وهكذا كانت الحال إلى الأبد. ففى قائمة الأجيال يأتى منسى بعد إفرايم، وهكذا كانت الحال فى تخصيص الحصص فى الأرض المقدسة، وهكذا كانت فى تحديد أماكن المخيمات ومقاييس القبائل، وفى تكريس الهيكل، وفى كل مكان يأتى إفرايم قبل منسى.

وكانت البركة التى منحها يعقوب لحفيديه كالتالى: «فليُعِنْكما الرب على السير فى طريقه مثل أبوىَّ إبراهيم وإسحق، وليكن الملاك الذى حمانى من كل شر فى جدعون ويوشع ويكشف عن نفسه لهما. وليُذكر اسماكما فى إسرائيل، ومثل السمك تتكاثرون فى وسط الأرض، فكما أن السمك يحميه الماء، فلتحميكما سجايا يوسف».

واستخدم يعقوب التعبير «مثل السمك» لكى يبوح بالطريقة التى سيموت بها الإفرايميون ذرية يوسف. فكما يتم صيد السمك من فمه، فكذلك سيتسبب الإفرايمييون فى هلاك أنفسهم بزلات ألسنتهم. وفى نفس الوقت فقد كانت كلمات يعقوب تحتوى على نبوءة أن يوشع ابن الرجل «نون»، أى «الحوت»، سيقود إسرائيل إلى الأرض المقدسة. كما كان فى كلماته نبوءة ثالثة كذلك، وهى تشير إلى الأطفال الستمئة ألف الذين سيولدون جميعاً فى نفس ليلة مولد موسى وأن كلهم سيرمون فى النهر معه وينجون كرامة له. وقد كان عدد الأطفال الذين ألقى بهم إلى السمك فى النهر فى تلك الليلة، مساوياً لعدد رجال إسرائيل على الأرض.

تلقى إفرايم بركة منفصلة ومخصوصة من جده، فقد قال له يعقوب: «إفرايم يا ولدى، أنت رأس الأكاديمية، وفى الأيام القادمة سيدعى أعظم ذريتى وأكرمها باسم «إفرانى» على اسمك»

تلقى يوسف عطيتين من والده أولاهما كانت شكيم، المدينة التى دافع عنها يعقوب بسيفه وقوسه، ضد ثورة الملوك العموريين عندما حاولوا الانتقام من أبنائه لما فعلوه بالمدينة. وكانت العطية الثانية هى الثياب التى صنعها الرب لآدم، ومرت من يد إلى يد حتى وصلت إلى يعقوب. وكانت شكيم مكافأة له لأنه، وبعفته وطهارته، قضى على طوفان الفساد الذى اجتاح هذه المدينة أول ما اجتاح. كما أنه كان له حق فيها، إذ أن شكيم ابن حمور سيد المدينة، كان قد أعطاها لدينة هدية، وأسينات زوجة يوسف هى ابنة دينة، ولذا فإن المدينة كانت من حقه.

كان يعقوب قد تلقى ملابس آدم من عيسو. ولم يأخذها من أخيه بالقوة لكن الرب جعها مكافأة له على صنائعه الطيبة. وكانت هذه الثياب ملكاً للنمرود، ذلك الصياد القوى الذى أمسك بعيسو وهو يطأ حماه وحرَّم عليه الصيد فى أراضيه، فاتفقا على أن يتصارعا ليتحدد حق كل منهما.

واستشار عيسو أخاه يعقوب الذى نصحه بألا يتصارع أبداً مع النمرود طالما يرتدى ثياب آدم. ولذا فقد تصارع عيسو مع النمرود الذى لم يكن يرتدى حينها ثياب آدم، فذبحه عيسو فآلت إليه ثياب آدم، وانتقلت من عيسو إلى يعقوب الذى ورثّها ليوسف.

كذلك علَّم يعقوب يوسف ثلاث أمارات يعرف بها المخلِّص الحقيقى الذى سيخلص إسرائيل من عبودية مصر. وهى أنه سيصرِّح بالاسم الذى لا يمحى ويعين الشيوخ ويخاطب الناس مستخدماً كلمة «بقود».

بركة القبائل الاثنتى عشرة

عندما انصرف يوسف وولديه من عند يعقوب، أحس إخوته بالغيرة تجاه ثلاثتهم لما فازوا به من بركات، وقالوا: «العالم كله يتقرب إلى كل ذى سلطان. وما بارك أبونا يوسف هكذا إلا لأنه حاكم على الناس!!» فلما علم يعقوب بذلك قال: «إن من يخشون الرب لا يعوزهم الخير. ولدىَّ من البركات ما يكفى الجميع»

استدعى يعقوب بنيه من أرض مصر وأمرهم بأن يأتوا إليه فى «رعمسيس»، لكنه أمرهم أن يتطهروا أولاً، لكى تنفعهم البركات التى سيباركهم بها. كما أمرهم بتأسيس مدرسة لكى يحكمهم أعضاؤها.

عندما أتى الملائكة ببنيه إليه قال لهم يعقوب: «إياكم والشقاق، إذ الاتحاد أول شرط من شروط خلاص إسرائيل» وكاد أن يبوح لهم بالسر العظيم المتعلق بنهاية الزمان، لكن وبينما هم واقفون حول السرير الذهبى الذى كان أبوهم يرقد عليه، حلت عليه الشكينة للحظة ثم فارقته فى سرعة طار معها كل علم بالسر العظيم وغاب عن عقل يعقوب. وشابه فى ذلك أباه إسحق الذى جعله الرب يفقد ذاكرته لكى يمنعه من كشف السر المتعلق بنهاية الزمان لعيسو عندما استدعاه ليمنحه بركته.

عندما حدث ذلك له توجس يعقوب خيفة ألا يكون بنوه أتقياء بما يكفى لأن يباح لهم بسر الوحى المتعلق بعصر المسيا، وقال لهم: «لقد كان إسماعيل وأبناء قطورة هم النَّدَبَة فى ذرية جدى إبراهيم؛ وأنتج أبى إسحق نَدَبةً هو

عيسو، وأخشى الآن أنه من بينكم من يضمر فى نفسه النية لعبادة الأصنام» فأجابه الرجال الاثنا عشر قائلين: «فلتسمع يا إسرائيل يا أبانا، إن الرب الأبدى إلهنا هو الإله الواحد الذى لا إله غيره. وكما أن قلبك منعقد على وحدانية القدوس، تبارك اسمه، فإن قلوبنا منعقدة هى الأخرى على وحدانيته» فأجابهم يعقوب قائلاً: «فليحمد اسم مجد جلاله إلى الأبد» وبالرغم من أن سر عصر المسيا لم يكشف لأبناء يعقوب، فإن بركة كل منهم كانت بها إشارة لأحداث المستقبل.

بهذه الكلمات حدث يعقوب ابنه الأكبر قائلاً: «يا رأوبين، أنت بكرى وسندى ومبتدأ قوتى! ينبغى أن تكون حصتك ثلاثة تيجان* وكان ينبغى أن يكون لك ضعف ميراث من وُلِد معك، وأن تكون لك كرامة الكهان، وقوة الملوك. لكن بسبب خطيئتك، تحوَّل حق بكورتك إلى يوسف، والمُلك إلى يهوذا، والكهانة إلى لاوى.. يابنى، لست أعلم علاجاً ناجعاً لك، لكن ذلك الرجل موسى، الذى سيصعد إلى الرب، سيجعلك كاملاً وسوف يغفر لك الرب خطيئتك: ليباركك الرب وليجعل ذريتك أبطالاً فى التوراة وأبطالاً فى الحرب. وإن كنت ستفقد حق بكورتك، فإنك ستكون أول من يدخل على نصيبه فى الأرض المقدسة، وسيكون فى نصيبك من الأرض أول مدن الملاذ، وسيكون اسمك دائماً هو الأول كلما ذكرت عائلات القبائل. بلى ستكون أنت أول من يستولى العدو على ميراثه وأول من يُحمل إلى أرض المنفى»

وبعدما تم مباركة رأُوبين على هذا النحو، تراجع إلى الخلف واستدعى يعقوب ابنيه شمعون ولاوى إلى جانبه وخاطبهما قائلاً: «كنتما أخوين لدينة، ولم تكونا ليوسف الذى بعتماه عبداً. ولقد كانت الأسلحة التى دمرتم بها شكيم أسلحة مسروقة، فلم يكن لائقاً بكما أن تسلا سيوفكما. فقد كانت تلك حصة عيسو الذى قيل له «ولتعيشن بسيفك» ولن تحل روحى على سبط شمعون عندما يجتمعون فى شِطِّيم ليرتكبوا الفواحش ولن يتحد مجدى مع جماعة

(*) المقصود بالتيجان الثلاثة: البكورة، والملك والكهانة.

قورح، ذرية لاوى. وفى فورة غضبهما ذبح شمعون ولاوى أمير شكيم، وباعا يوسف بسوء طويتهما إلى العبودية. وكانت مدينة شكيم ملعونة عندما دخلاها ليدمراها. ولئن ظلا متحدين فلن يقدر حاكم على الصمود أمامهما، ولن تكسَب حرب تشن عليهما. ولهذا سأوزع حصتيهما على القبائل الأخرى. وسيكون كثيرون من ذرية شمعون فقراء يجولون بين القبائل يتسولون خبزهم، كما ستجمع قبيلة لاوى معشارهم وهباتهم من الآخرين» وتحققت كلمات يعقوب «سأقسم حصتيهما»، والتى قالها عن شمعون ولاوى، تحققت فى شمعون على وجه الخصوص فعندما سقط من سبط شمعون أربع وعشرون ألفاً فى شطيم، تزوجت أراملهم من جميع القبائل الأخرى. ومع ذلك فلم يصرف يعقوب شمعون ولاوى دون أن يمنحهما البركة؛ فبوركتِ قبيلة شمعون بإنجابها للمدرسين والكهان الذين يحتاجهم شعب إسرائيل كله، وبوركت قبيلة لاوى بإنجابها للعلماء الذين سيفسرون التوراة ويقضون بتعاليمها.

عندما سمع باقى بنى يعقوب توبيخات أبيهم لهؤلاء الثلاثة، خشوا أن يسمعوا مثلها، وحاولوا الهروب من حضرته. وكان أشدهم قلقاً وتوجساً يهوذا، مخافة أن يوبخه أبوه ويلومه على تجاوزه فى حق ثامار. لكن يعقوب كلمه قائلاً: «يهوذا إنك تستحق اسمك هذا. لقد سمتك أمك باسم «يهوذا» «لأنها حمدت الرب على ولادتها لك، ولسوف يحمدك إخوتك، ولسوف يسمون أنفسهم باسمك. وكما اعترفت بخطيئتك على الملأ، فسيفعل ذريتك آخان وداوود ومنَسَّى مثل فعلك، وسيعترفون بخطاياهم على الملأ، وليسمعن الرب لصلواتهم. ولتقذفن يداك بالسهام على العدو الهارب، ولسوف يحترمك أبناء أبيك. تملك جرأة الكلب وشجاعة الأسد. لقد أنقذت يوسف من الموت وأنقذت ثامار ووليديها من النيران. ولن يستطيع شعب ولا مملكة الصمود فى وجهك. ولن يتوقف بيت يهوذا عن إنجاب الحكام، ولن ينقطع معلمو الشريعة من ذريته، حتى يأتى خلفه المسيا وتطيعه كل الشعوب. كم هو عظيم مجد مسيا بيت يهوذا! وليخرجن إلى قتال أعدائه وقد لبس لباس الحرب. ولن

يفلح ملك ولا حاكم فى الوقوف فى وجهه. ولتصطبغن الجبال بحمرة دمائهم، وسوف تكون ثياب المسيا مثل ثياب من بعض الخمر. ولتكونن عيناه فى من الخمر، لأنهما لن ينظرا أبداً إلى الفحشاء أو الدم المسفوك ظلماً، وستكون أسنانه أبيض من اللبن، لأنهما لن تقضمان أبداً ما أخذ بالقوة».

وبالرغم من أن يساكر كان أكبر من زبولون، فإن زبولون كان التالى فى البركة، مكافأة له على التضحية التى ضحاها لأجل أخيه، لأنه عندما اختار يساكر دراسة التوراة مهنة له، قرر زبولون العمل بالتجارة والإنفاق على أخيه من أرباح تجارته لكى يتفرغ لدراسة الشريعة دون إزعاج. وكانت بركته أنه سيفتح ساحل البر وصولاً إلى «صيدون».

وقال يعقوب: «ليحملَن يساكر على عاتقه عبء دراسة التوراة، ولتأتين إليه جميع القبائل الأخرى لكى تزيل شكوكها فيما يتعلق بالمسائل القانونية، وسيكون ذريته أعضاء فى السنهدرين وسيكون منهم العالمون الذين سيشغلون أنفسهم بضبط التقويم» كذلك بارك يعقوب يساكر بأن تكون ثمار يديه بالغة الضخامة، واستتبع ذلك منفعة سماوية وأرضية كذلك، لأنه عندما أبدى الوثنيون تعجبهم من هذه الثمار، فإن التجار اليهود بينوا لهم أن حجمها غير العادى هذا يعود إلى سجايا قبيلة يساكر التى كافأها الرب على إخلاصها للتوراة، وبالتالى اقتنع الكثير من الوثنيين بالتحول إلى اليهودية.

عند مباركته لدان كان ذهن يعقوب مشغولاً فى الأساس بخلفه شمشون الذى سيجلب النصر لشعبه، مثل الرب، دون أية مساعدة، حتى إن يعقوب ظن أن ذلك الرجل القوى البطل هو المسيا، لكن عندما كشف له عن موت شمشون، صاح قائلاً: «إننى أنتظر خلاصك يا إلهى، أنتظر عونك إلى الأبد، لكن عون شمشون لا يدوم. ولن يأتى الخلاص على يدى شمشون الدانى، ولكن على يدى إلياء الجادى، والذى سيظهر فى نهاية الزمان».

وكانت بركة أشير هى جمال نسائه اللاتى سيسعى الملوك والكهان الكبار للزواج منهن.

وفى أرض نفتالى ستنضج جميع الثمرات فى سرعة، وستقدم كهدايا للملوك وتكسب معطيها حظوة عن الملوك وتحققت هذه البركة فى سهل جنيسارت. وفى نفس الوقت فقد كانت بركة نفتالى نبوءةً تتعلق بخلفه «دبورة» والتى كانت مثل الوعلة التى أطلقت على ضب لتتغلب عليه، وتلفظت بكلمات طيبة شدواً بنصر إسرائيل. وكان نفتالى نفسه يستحق الوصف الذى وصفت به دبورة لأنه كان سريعاً كالسهم فى تنفيذ أوامر الرب، كما كان رسولاً للقبائل. وكانوا يرسلونه إلى أى مكان يريدون، وكان ينفذ مهامهم فى سرعة البرق. وكان هو البشير الذى أرسله إخوة يوسف ليعلن ليعقوب الأنباء السارة قائلاً: «يوسف لازال حيا» وعندما رآه الأب المكلوم يقترب قال: «هاهو نفتالى الحبيب قادم، وهو الذى سيعلن السلام».

فاقت بركة يوسف بركات جميع إخوته. وقال يعقوب: «يابنى الذى ربيته.. يا يوسف الذى رعيته، يا من كان قويا قوة جعلته يقاوم إغراءات الخطيئة. لقد غلبت كل سحرة مصر وحكمائها بحكمتك وطيب فعالك. ورمت إليك بنات الأمراء بالجواهر لكى يحولن عينيك إليهن عندما تطوف فى مصر، لكنك لم تنظر إليهن ولذا فقد جُعِلْتَ أباً لقبيلتين. ولقد سعى سحرة مصر وحكماؤها إلى التشهير بك عند فرعون، لكنك استعنت بالقدير. ولذا فليباركك من ظهر لى فى هيئة «إيل شدّاى» ويمنحك الأرض الخصبة والكثير من الماشية ولتكن البركة التى يمنحها أبوك الآن، والبركة التى منحها أبواه إبراهيم وإسحق له، والتى أثارت غيرة وحسد عظماء العالم، إسماعيل وعيسو وبنات قطورة، لتكن هذه البركات جميعها تاجاً فوق رأسك، وعقداً فى عنقك». وكان التشهير الذى أشار إليه يعقوب هو ما قاله فوطيفار أمام فرعون، فقد اشتكى له قائلا: «لماذا عينت عبدى الذى اشتريته لقاء عشرين قطعة من الفضة، حاكماً على مصر؟» وعندها دافع يوسف عن نفسه قائلاً: «عندما اشتريتنى عبداً ارتكبت جريمة تستحق [illegible]. فلا يباع عبداً إلا من هو من نسل كنعان، أما أنا فذرية سام،

كما أننى أمير وإذا أردت التأكد من صدق ما أقول فقارن شبهى بأمى سارة!» وعندما تذكروا شبه سارة وضح حقا أن يوسف كان يشبهها تماماً، ومن ثم فقد اقتنعوا جميعاً بنبل محتده.

كانت البركة التى منحها يعقوب لبنيامين فيها النبوءة بأنه سيأتى من قبيلته أول حاكم لإسرائيل وآخر حاكم له..وهكذا كان الأمر، إذ كان شاؤول وإستير كلاهما ينتميان لقبيلة بنيامين. كذلك كانت حصة بنيامين من الأرض المقدسة تتميز بسمتين متناقضتين تمام التناقض، ففى أريحا تنضج الثمار أبكر مما تنضج فى أى مكان آخر فى فلسطين، بينما تنضج فى بيت إيل بعد نضوجها فى كل مكان آخر. وفى بركته لبنيامين أشار يعقوب كذلك إلى الخدمة فى المعبد، لأن هذا المكان المقدس كان يقع فى أرض بنيامين. وعندما وصف يعقوب ابنه بنيامين بأنه ذئب ضار، فقد كان يفكر حينها فى القاضى إيهود، ذلك العلاَّمة الكبير، وهو من سبطٍ بنيامين، وهو الذى غلب عجلون ملك مؤاب. كذلك كان يفكر حينها فى البنياميين الذين يأسرون زوجاتهن بالحيلة والقوة.

مرة أخرى فلئن كان يعقوب قد وصف بنيامين بالذئب ويهوذا بالأسد ويوسف بالثور، فقد كان يريد بذلك الإشارة إلى الممالك الثلاثة المعروفة باسم الأسد والذئب والثور والتى قضى عليها أن يكون هلاكها على يد أبناء هؤلاء الثلاثة: فبابل، مملكة الأسد، سقطت على يد دانيال من سبط يهوذا؛ بينما تسيَّد موردخاى من سبط بنيامين على ميديا مملكة الذئب؛ أما يوسف الثور فسوف يخضع البهيمة القرناء، مملكة الشر، قبل مجئ زمن المسيا.

مــوت يعقــوب

بعدما بارك يعقوب أبناءه كلا على حدة، خاطبهم جميعاً قائلاً:«لقد باركتكم بحسب قوتى، لكن سيأتى فى الأيام القادمة نبى وسوف يباركم هذا الرجل، موسى، هو أيضاً، وسوف يستأنف بركاتى من حيث أنهيتها» وأضاف كذلك أن بركة كل قبيلة يجب أن تُسْتَغلَّ لخير كل القبائل الأخرى: فقبيلة يهوذا يجب أن تنال حظّاً من القمح الجيد الذى يخص قبيلة بنيامين التى يجب أن تشارك قبيلة يهوذا فى شعيرها الجيد. ويجب أن تتعاون القبائل معاً.

كما وصَّاهم بألا يقعوا فى خطيئة عبادة الأصنام أيا كان شكلها أو هيئتها وألا ينطقوا بالكفر، وعلمهم نظام حَمْل نعشه على النحو التالى: «لأن يوسف ملك فلن يحمله، ولا لاوى الذى قُدِّر له أن يحمل تابوت الشكينة. وسوف يحمله يهوذا ويساكر وزبولون من مقدمته، بينما يحمله رأوبين وشمعون وجاد من اليمين وإفرايم ومنسى وبنيامين من مؤخرته ويحمله دان وأشر ونفتالى من جانبه الأيسر. وبهذا الترتيب سارت القبائل، كُلٌّ تحمل رايتها، خلال الصحراء، والشكينة تقيم فى وسطهم.

ثم كلم يعقوب يوسف قائلا له: «وأنت يا يوسف يا بنى اغفر لإخوتك ما فعلوه بك، ولا تتخلَّ عنهم ولا تحزنهم، لأن الرب قد جعلهم بين يديك لكى تحميهم جميعا دائما من المصريين».

كذلك نصح بنيه بأن الرب سيكون فى جانبهم دائما إن سلكوا طريقه،

وأنه سوف يخلصهم من أيدى المصريين. وواصل كلامه قائلا: «أعلم أن أبناءكم وأحفادكم سيقاسون كثيرا فى هذه البلاد، لكنكم إن أطعتم الرب وعلمتم أبناءكم كيف يعرفونه، فسوف يرسل إليكم مخلِّصا ليخرجكم من مصر ويقودكم إلى أرض آبائكم».

بعد ذلك استسلم يعقوب لمشيئة الرب وبقى ينتظر ساعته، وأحاط به الموت فى لطف. ولم ينزع ملك الموت روحه، ولكن الشكينة أخذتها بقبلة. وبالإضافة إلى الآباء الثلاثة آدم وإسحق ويعقوب، لم يمت بهذه الطريقة إلا موسى وهارون ومريم (أخت موسى)، إذ ماتوا جميعا من خلال قبلة الشكينة. وهؤلاء الستة، مع بنيامين، هم الوحيدون الذين لم يأكل الدود أجسادهم فلا تتعفن أو تتحلل أبدا.

وهكذا رحل يعقوب عن هذا العالم ودخل العالم الآتى، ليذوق مقدماً ما تمتع به هنا على الأرض، مثله مثل الأبوين الآخَرَيْن (آدم وإسحق)، ولم ينعم بذلك سواهم من البشر. ومن ناحية أخرى فقد كانت حياتهم فى هذا العالم تشبه حياتهم فى العالم الآتى، فلم يكن لنزعات الشر عليهم سلطان، سواء هنا أم هناك، وفى ذلك شابههم داود.

أمر يوسف بوضع جثمان أبيه على عربة من العاج مغطاة بالذهب ومطعمة بالجواهر، وعليها أستار من البسوس والأرجوان. وسكبت على جوانبها الخمر طيبة الرائحة، وحرق بجوارها البخور. وأحاط بنعش يعقوب الفخم صناديد بيت عيسو وأمراء عائلة إشماعيل والأسد يهوذا أشجع أبنائه. وقال يهوذا لإخوته: «تعالوا نزرع شجرة أرز عالية عند رأس قبر أبينا، لتصل قمتها إلى عنان السماء، ولتظلل فروعها جميع قاطنى الأرض، وتضرب جذورها فى أعماق الأرض حتى تصل إلى الهاوية. إذ منه القبائل الاثنتا عشرة، ومنه سيخرج الملوك والحكام وصفوف الكهان المستعدين لأداء خدمات القرابين، وتخرج منه قبائل من اللاويين مستعدة لإنشاد الترانيم والعزف على الآلات الموسيقية ذات الصوت الرخيم».

مزق أبناء يعقوب ثيابهم وتمنطقوا بالخيش، وألقوا بأنفسهم على الأرض وغبروا رؤوسهم بالتراب حتى ارتفعت سحابات الغبار إلى السماء. وعندما سمعت أسينات زوجة يوسف بموت يعقوب جاءت ومعها نساء مصر ليبكين وينحْنَ عليه. وتوجه إلى حيث رقد يعقوب رجال مصر الذين كانوا يعرفونه، وأخذوا يبكون عليه يوما بعد الآخر، كما وفد إلى مصر الكثيرون قادمين من كنعان، لكى يشتركوا فى الحداد عليه والذى دام سبعين يوما.

كلم المصريون بعضهم بعضًا قائلين: «لننح على الرجل التقىّ يعقوب، لأن المجاعة رحلت عن أرضنا كرامة له»، لأن المجاعة، بدلاً من أن تضرب البلاد لمدة أربع وأربعين سنة كما قرر الرب، لم تدم إلا عامين فقط، وقد كان ذلك كرامة ليعقوب.

أمر يوسف الأطباء بتحنيط الجثمان. وكان ينبغى عليه ألا يفعل ذلك إذ ساء ذلك الرب الذى تكلم قائلاً: «أما أقدر أن أحفظ جثمان ذلك الرجل التقىّ من التحلل؟ أما كنت أنا من كلمه مطمئناً قائلاً: «لا تخش من الدود يا يعقوب، يا إسرائيل الميت؟» وكان عقاب يوسف على هذا الإجراء عديم النفع أن كان أول من يعانى الموت من أبناء يعقوب. أما المصريون الذين خصصوا أربعين يومًا لتحنيط الجثمان وتجهيزه للدفن، فقد أُثيبوا على ما أظهروه لشخص يعقوب من تقدير. فقبل أن يدمر الرب مدينتهم، أمهل الرب أهل نينوى أربعين يومًا كرامة لملكهم والذى كان هو فرعون مصر. أما الوثنيون الذين احتدوا على يعقوب سبعين يومًا فقد تم تعويضهم عنها فى زمن أحشويروش. فقد منحوا السيطرة المطلقة على اليهود طوال سبعين يومًا، من الثالث عشر من نيسان حينما صدر مرسوم هامان بالقضاء على اليهود، إلى اليوم الثالث والعشرين من سيوان عندما تذكره موردخاى.

بعدما اكتملت جميع الاستعدادات لدفن جثمان يعقوب، استأذن يوسف من فرعون فى حمل الجثمان إلى كنعان. لكنه لم يذهب بنفسه إلى فرعون ليطلب منه ذلك بنفسه، إذ لا يصح أن يظهر أمام الملك فى ثياب الحداد،

كما لم يكن فى مقدوره الكف عن النواح على أبيه ولو للحظات يقف فيها أمام الفرعون ليستأذن منه. ولهذا فقد طلب من عائلة الفرعون أن تتوسط له فى طلبه. وقد اتبع فى تصرفه ذلك الحكمة التى تقول: «حاول استرضاء من قد يتهمك فلعله لا يفعل».

توجه يوسف فى البداية إلى وصيفة الملكة التى ذكرته عند سيدتها فأوصت عليه الملك ليقبل طلبه. وفى البداية رفض فرعون تنفيذ طلب يوسف الذى لم ييأس وذكَّره بالقسم الجليل الذى أقسمه لأبيه عند وفاته بأن يدفنه فى كنعان. وطلب منه فرعون التحلل من قسمه لكن يوسف أجابه قائلاً: «لكنى إذا فعلت فسأتحلل كذلك من القسم الذى أقسمته لك أنت أيضًا». وكان يشير بذلك إلى حادثة وقعت فى فترة سابقة من حياته، إذ كان كبراء مصر قد أشاروا على فرعون بألا يعين يوسف نائبًا له، ولم يتراجعوا عن رأيهم ذلك إلا بعد أن أثبت يوسف، من خلال حديثه مع الملك المصرى، أنه يتقن لغات العالم السبعين، وكان ذلك شرطًا لازمًا فيمن يتولى حكم مصر. لكن هذه الحادثة أثبتت شيئًا آخر كذلك، ألا وهو أن الملك نفسه لا يتحقق فيه شرط تولى ملك مصر، لأنه لم يكن يعرف العبرية. ولهذا فقد خشى الملك أن يعين يوسف مكانه إذا ما عرف الناس الحقيقة، لأن يوسف كان يعرف العبرية بالإضافة إلى جميع اللغات الأخرى. ومن قلقه وخشيته جعل فرعون يوسف يقسم له بألا يفشى أبدًا سر جهل الملك بالعبرية. والآن عندما هدده يوسف بأنه سيتحلل من قسمه الذى أقسمه له بكتمان سره مثلما سيتحلل من قسمه لأبيه المحتضر، استولى الرعب على الملك ووافق على طلب يوسف على الفور وأذن له بدفن جثمان أبيه فى كنعان.

علاوة على ذلك فقد أصدر الملك مرسومًا فى جميع أنحاء البلاد متوعدًا بالموت من لا يخرج مصاحبًا ليوسف وإخوته. وهكذا فقد كان الموكب الذى رافق نعش يعقوب فى طريقه إلى كنعان، يتكون من أمراء مصر ونبلائها، بالإضافة إلى عامة الشعب. وحمل أبناء يعقوب نعشه، وتنفيذًا

لوصيته لم يسمحوا لأحد بلمسه، ولا حتى أبناءهم هم. كان النعش مصنوعًا من الذهب الخالص وكانت حروفه مطعمة بأحجار العقيق اليمانى والمُقَل بينما كان غطاؤه من الذهب المشغول وتم ربطه فى النعش بواسطة خيوط تم تثبيتها معًا بخطاطيف من العقيق اليمانى والمُقَل. ووضع يوسف تاجًا ذهبيا ضخمًا على رأس أبيه، كما وضع فى يده عصا ذهبية وألبسه ثياب الملوك(*).

تم ترتيب موكب الجنازة على النحو التالى: فى المقدمة صناديد الفرعون وصناديد يوسف، ومن بعدهم سار جميع سكان مصر. وكان الجميع يتمنطقون سيوفهم وعليهم دروعهم ولباس الحرب عليهم. وسار النائحون والباكون يبكون وينوحون على مبعدة من النعش، بينما سار بقية الناس من خلفهم، وتبعه يوسف وأهل بيته، حفاة الأقدام دامعى الأعين، وكان عبيد يوسف على مقربة منه وكلٌّ منهم يحمل عدة الحرب وسلاحه. وسار أمام النعش خمسون من خدم يعقوب ينثرون المر على الطريق التى يمرون بها، وجميع أنواع الروائح الذكية، ولذا فقد كان أبناء يعقوب يدوسون على الأعشاب ذكية الرائحة وهم يتقدمون حاملين النعش.

سار الموكب على هذا النحو حتى وصل إلى كنعان، وتوقف عند الحرَّة، عند أرض «عتاد» وعندها بكوا وناحوا نواحًا عظيمًا مرا. لكن كان الشرف الأعظم الذى حظى به يعقوب هو حضور الشكينة التى رافقت الجنازة.

فى البداية لم يكن الكنعانيون ينوون الاشتراك فى الحداد على يعقوب، لكنهم لما رأوا المكارم التى أغدقت عليه، انضموا إلى موكب المصريين وفكوا أحزمة ثيابهم علامة على الحزن لموته. كذلك ظهر أبناء عيسو وإشماعيل وقطوره، وإن كانوا قد جاءوا لينتهزوا الفرصة ويشنوا الحرب على أبناء يعقوب، لكنهم لما رأوا تاج يوسف معلقًا بالنعش، حذا ملوك أدوم والملوك الإشماعيليون حذوه ووضعوا تيجانهم على النعش الذى تزين ساعتها بستة وثلاثين تاجًا.

(*) هكذا هم اليهود.. كل ما يهمهم المال ولا التكريم لأحد إلا بالمال، وإن كان نبيا أو صديقاً؛ ولا يرون عذاباً سوى بالموت ولا نعيماً إلا بالخلود فى هذه الدنيا وعدم تذوق الموت!!.

ومع ذلك لم تخبُ جذوة الحرب وإنما اندلعت فى نهاية المطاف بين أبناء يعقوب وبين عيسو وأتباعه. فعندما حاول أبناء يعقوب وضع جثمان أبيهم فى كهف مكفيلة حاول عيسو منعهم من ذلك قائلاً إن يعقوب قد استخدم نصيبه فى هذا القبر من أجل ليئة ولذا فإن المكان الوحيد الخالى بالمقبرة يخصه هو وحده. وواصل كلامه قائلاً لهم: «صحيح أننى قد بعت ليعقوب حق بكورتى، لكن لى نصيبًا فى هذه المقبرة كواحد من أبناء إسحق». لكن كان جميع أبناء يعقوب يعلمون علم اليقين أن يعقوب قد اكتسب نصيب عيسو فى الكهف، بل وكانوا يعلمون أنه يوجد عقد بيع يثبت ذلك، لكن عيسو كان يظن، وقد أصاب فى ظنه، أنهم قد تركوا العقد وراءهم فى مصر، ولذا فقد أنكر أن ذلك قد حدث أبدًا، وعند ذلك أرسل بنو يعقوب نفتالى إلى مصر ليجلب العقد. وبينما كان هذا الجدال يدور بين الفريقين، هبَّ هوشيم بن دان واقفًا متعجبًا من عدم دفنهم لجثمان يعقوب حتى الآن، إذ كان أصمَّ فلم يسمع ما دار بينهما من حديث وجدال. وعندما علم بما حدث وأن الدفن سيتم تعطيله حتى عودة نفتالى من مصر ومعه عقد البيع، صرخ فى غضب قائلاً: «أيبقى جدى مُلْقَى هنا دون دفن حتى يعود نفتالى!» ثم أمسك بهراوة وضرب بها عيسو ضربة قوية فمات من فوره وخرجت عيناه من محجريهما وسقط على ركبتى يعقوب الذى فتح عينيه وابتسم. الآن وقد مات عيسو أصبح من الممكن دفن أخيه دون مشاكل(*)، ولذا فقد دفنه يوسف فى كهف مكفيلة حسب وصيته. وترك باقى أبنائه ترتيبات الدفن الأخرى ليوسف، إذ رأوا أنه شرف عظيم ليعقوب أن يقوم ملك (= يوسف) بدفن جثمانه، بدلاً من أن يقوم بذلك حفنة من الناس الذين لا شأن لهم.

تدحرجت رأس عيسو، وهو راقد ذبيحًا فى قبر يعقوب، إلى الكهف وسقطت فى حجر إسحق الذى دعا الرب ليرحم ولده لكن دون جدوى إذ تكلم الرب قائلاً: «وحق حياتى لا يرين جلال الرب أبدًا».

(*) سبحان الله قتل العم ليس مشكلة عند اليهود!! ما أكذبهم!!.

أبناء يعقوب فى حرب
مع أبناء عيسو

بعد ما تم دفن يعقوب مع الملوك وانقضت أيام الحداد السبعة، اشتعل الصراع بين أبناء يعقوب وأبناء عيسو من جديد. فخلال المناوشات التى حدثت عندما ادعى عيسو ملكيته لجزء من كهف مكفيلة، بينما كان جثمان أخيه راقدًا لم يدفن بعد، فقد عيسو أربعين من رجاله، ثم بعد موته لم يوفر الموت أبناءه. وقتل ثمانون من أتباعهم، بينما لم يفقد من بنى يعقوب واحد. واستطاع يوسف أسر زيفو بن إليفاز مع خمسين من رجاله وقيدهم بالسلاسل وجرجرهم إلى مصر. وعند ذلك فر باقى جيش إليفاز والتجأ إلى جبل سعير حاملين معهم جثمان عيسو مقطوع الرأس لكى يدفنوه فى أرضه. وطاردهم بنو يعقوب لكن لم يقتلوا منهم أحدًا احترامًا لرفات عيسو.

فى اليوم الثالث احتشد جيش عظيم وكان يتكون من سكان سعير ومن أبناء الشرق وزحفوا باتجاه مصر ليشنوا الحرب على يوسف وإخوته. وفى الوقعة التى وقعت بين الجيشين كاد ذلك الجيش يفنى عن آخره، إذ قتل منه ما لا يقل عن ستمائة ألف رجل على أيدى يوسف ورجاله، وفرت فلولهم لا تلوى على شىء. وعندما عادوا إلى بلادهم بعد هذه الحملة المشئومة، اندلع الشجار بين أبناء عيسو وأبناء سعير الذين طلبوا من حلفائهم السابقين مغادرة المكان، لأنهم كانوا السبب فى المصيبة التى حلت بهم وببلادهم.

عند ذلك أرسل بنو عيسو سرا برسول إلى صديقهم أجنياس ملك

أفريقيا، ينشدون عونه لهم ضد أبناء سعير، فوافق على طلبهم وبعث إليهم بجيش من المشاة والفرسان. أما أبناء سعير فقد لجأوا إلى التحالف مع الآخرين فحالفوا أبناء الشرق والمديانيين الذين وضعوا الجنود تحت تصرفهم. ووقعت الحرب وانهزم أبناء عيسو المرة بعد المرة، بسبب خيانة جنودهم الذين كانوا ينضمون إلى صفوف العدو، والقتال على أشده. وفى النهاية، فى المعركة التى وقعت فى صحراء فاران حقق أبناء عيسو نصرًا حاسمًا إذ ذبحوا جميع محاربى أبناء سعير والمديانيين بينما لاذ أبناء الشرق بالفرار.

بعد ذلك عاد أبناء عيسو إلى سعير وذبحوا جميع من فيها من الرجال والنساء والأطفال، ولم يبقوا فيها على أحد سوى خمسين فتى وجارية. واتخذوا الفتيان عبيدًا بينما اتخذوا الجوارى زوجات لهم. كذلك أثروا أنفسهم بما غنموه من أسلاب واستولوا على جميع ممتلكات أبناء سعير، وقسموا أرضهم كلها بين خمستهم. بعد ذلك قرر بنو عيسو أن يجعلوا عليهم ملكًا، ولكن بسبب ما لاقوه من خيانة أحدهم للآخر أثناء المعركة، فقد قرروا ألا يتخذوا لهم ملكًا من بينهم أبدًا. واستقر عزمهم على تولية بيلع بن بيعور أحد المحاربين الذين كان أجنياس قد أرسلهم إليهم. ولم يجدوا له نظيرًا من بين حلفائهم، لا فى شجاعته ولا فى حكمته ولا فى وسامته ولا فى طلعته. ووضعوا التاج فوق رأسه وشيدوا له قصرًا وأعطوه الذهب والفضة والجواهر حتى يعيش فى رغد من العيش. وظل يحكمهم فى هناءة طوال ثلاثين عامًا ثم لقى حتفه فى حرب خاضها ضد يوسف وإخوته.

وكان سبب تلك الحرب المذكورة آنفًا أن أبناء عيسو لم يستطيعوا نسيان ما أصابهم من خزى وعار وما لحق بهم من هزيمة على أيدى يوسف وشعبه. ولذا فبعد ما استعانوا بأجنياس والإشماعيليين وغيرهم من أمم الشرق، زحفوا إلى مصر يشنون عليها حملة ثانية، على أمل أن يخلصوا زيفو وأتباعه من بين أيدى يوسف. وعلى الرغم من حشودهم الهائلة ـ فقد كان معهم ما لا يقل عن ثمانمائة ألف من المشاة والفرسان ـ فقد دحرهم يوسف

وإخوته عند رعمسيس، بالرغم من أنه لم يكن معهم إلا ستمائة رجل. وبالإضافة إلى ملكهم بيلع فقد خلفوا وراءهم فى أرض المعركة ربع جيشهم. وقد بث موت ملكهم الرعب فى أنفسهم وثبطهم تثبيطا عظيما فلاذوا بالفرار ويوسف ورجاله فى أعقابهم فقتل من الفارين عددًا كبيرًا.

عندما عاد يوسف من أرض المعركة أمر بوضع الأغلال والقيود فى أيدى وأقدام زيفو وأتباعه، وازداد أسرهم سوءًا على سوء.

عين أبناء عيسو يوباب بن بصراه خليفة لملكهم القتيل بيلع. ودام ملكه عشر سنوات لكنهم كانوا قد أحجموا عن أى محاولات لشن الحرب على بنى يعقوب مرة أخرى، فقد كانت تجربتهم الأخيرة معهم مريرة لكن عداوتهم لهم ازدادت استعارًا، ولم تخبُ نار بغضهم لبنى يعقوب أبدًا،

كان ثالث ملوكهم هو هوشام وظل يحكمهم طوال عشرين عامًا. وخلال تلك الفترة تمكن زيفو من الفرار من مصر وفر إلى أجنياس ملك أفريقيا الذى أحسن استقباله وعينه قائدًا عاما لقواته. وظل زيفو يحاول بكل وسيلة إقناع سيده بشن الحرب على مصر، لكن دون جدوى، إذ كان أجنياس يعلم علم اليقين ما يتحلى به أبناء يعقوب من قوة وبطولة. وظل أجنياس يرفض دسائس زيفو وإغراءاته طوال سنوات عديدة. وفى الواقع فقد كان أجنياس مشغولاً تمامًا بحروب أخرى. وحدث فى ذلك الوقت أن رجلاً من أرض قطيم، وكان اسمه عوزى وكان أهل بلده يقدسونه ويعتبرونه إلهًا، مات فى مدينة بوزيمانا وخلَّف وراءه ابنة عادلة ولبيبة. وسمع أجنياس عن جمال وحكمة يانياه ابنة عوزى، وطلب يدها فوافق شعب قطيم على طلبه.

بينما كان رسل أجنياس يستحثون السير مغادرين قطيم وحاملين معهم البشرى لسيدهم بوعد شعب قطيم لهم أن يزوجوا ملكهم من يانياه، وصل طورنوس ملك بينيفينتو لنفس الغرض. لكن قوبل طلبه بالرفض، إذ خشى شعب قطيم من إخلاف وعدهم الذى وعدوا به أجنياس. اشتط طورنوس

غضبًا من ذلك وأسرع إلى سردينيا ليشن الحرب على الملك لوكوس، وكان أخا لأجنياس، عازمًا على أن يتولى أمر الأخير عندما يتم تحييد الآخر. وعندما سمع أجنياس عما انتواه له طورنوس، هرول متجهًا إلى سردينيا لنجدة أخيه، فوقعت بينهما معركة فى وادى كامبانيا. ووجد طورنوس نفسه فى مواجهة أجنياس وأخيه لوكوس ونبلوس بن لوكوس الذى كان أبوه قد عينه قائدًا عاما على الجيوش السردينية. وسقط هو نفسه قتيلاً فى أرض المعركة، بينما لاذ جيشه بالفرار وأجنياس فى أعقابه حتى مفترق الطرق بين روما وألبانو. وضع جسد نبلوس داخل تمثال ذهبى وشيد أبوه برجا عاليًا فوق قبره، وشيد برجا آخر فوق قبر طورنوس وبنى رصيفًا من الرخام يصل بين البرجين اللذين ينتصبان متواجهين عند مفترق الطرق حيث كف أجنياس عن ملاحقة الجيش الفار.

واصل ملك أفريقيا زحفه إلى مدينة بينفينيتو لكنه لم يعامل أهلها بوحشية إذ كانت تابعة لأرض قطيم فى ذلك الوقت. ومع ذلك فقد كان زيفو قائد الجيوش الأفريقية يغير بين الفينة والأخرى على أرض قطيم. فى هذه الأثناء ذهب أجنياس إلى بوزيمانا لكى يتم زواجه من يانياه، ثم عاد بها إلى عاصمته فى أفريقيا.

زيفو ملك قطيم

لم يكف زيفو طوال هذه الفترة عن تحريض أجنياس على غزو مصر، وأفلح فى النهاية فى إقناع الملك بتحقيق أمنيته، وتم تجهيز جيش جرار لمحاربة أبناء يعقوب. وكان من بين حاملى ألوية الجيش بلعام بن بيعور الذى لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره، وكان حكيمًا ماهرًا بالسحر فأمره الملك أن يطلعه على ما ستتمخض عنه الحرب التى هم عليها مقبلون. تناول بلعام كمية من الشمع وصاغ منها تماثيل لتمثل جيش أجنياس وجيش المصريين، ثم وضعها فى ماء مسحور وتركها لتطفو على سطح الماء، فتبين له حينها اندحار الجيش الأفريقى أمام المصريين. عند ذلك تخلى أجنياس عن فكرة شن الحرب على أبناء يعقوب، ولما رأى زيفو عجزه عن إقناع ملكه بذلك فر موليًا شطر قطيم.

استقبل شعب قطيم زيفو بترحاب عظيم وعرضوا عليه الكثير من الأموال ليبقى معهم ويقودهم فى حروبهم. وحدث ذات مرة بينما كان زيفو فى جبال قوبطيزياه - حين فر سكان قطيم من وجه جيوش ملك أفريقيا - أن خرج يبحث عن ثور ضل طريقه فاكتشف كهفًا كان يسدُ بابه صخرة عظيمة. حطم زيفو الصخرة ودخل الكهف فوجد فيه حيوانًا يشبه الإنسان من نصفه العلوى ويشبه الجدى من نصفه الأسفل، فقتل البهيمة الغريبة التى كانت على وشك التهام ثوره الضال. وعندما علم أهل قطيم بما فعله زيفو فى الوحش غمرهم سرور عظيم، إذ كان ذلك الوحش يلتهم ماشيتهم، ولذا فقد كافئوه على ما فعل بأن خصصوا يومًا من أيام السنة سموه باسم زيفو تكريمًا لمحررهم، وفى ذلك اليوم يقدم له جميع أفراد الشعب الهدايا والأضحيات.

وحدث فى ذلك الوقت أن سقطت يانياه زوجة الملك أجنياس صريعة مرض خطير، فعزا الأطباء سوء حالتها إلى مناخ البلاد ومياهها والتى لم تتعود عليهما يانياه، ابنة قطيم، لأنها كانت معتادة على استخدام مياه نهر فورما فى أفريقيا. ولما رأى أن تلك المياه أخف كثيرًا من مياه بلاده بنى أجنياس قناة عظيمة من أرض قطيم إلى أفريقيا، وشيد قصرًا ليانياه، فاستعادت عافيتها.

كان زيفو فى تلك الأثناء قد أحرز نصرا حاسما على الجيوش الأفريقية التى كانت قد أغارت على أرض قطيم، فاختاره أهلها ملكا عليهم. وكان أول ما قام به أن شن حملة على أبناء طوبال وجزر البحر، وأحرز النصر مرة أخرى وأخضعهم تماما لسلطانه. وفى طريق عودته من الميدان شيد الشعب قصرا عظيما لزيفو وظل طوال حياته ملكا على قطيم وعلى إيطاليا.

خلال السنوات الثلاث عشرة الأولى من حكمه لم يغامر الأفارقة بإزعاج قطيم، ثم غزوا البلاد بعده ليصدهم عنها زيفو فى عنف وليطاردهم حتى حدود أفريقيا نفسها، فارتعب أجنياس من ذلك رعبا عظيما بلغ حد أنه لم يجرؤ على الرد لفترة من الزمان. وعندما حاول مرة ثانية الإغارة على قطيم قضى زيفو على جيشه ولم يبق منهم رجلا حيا. بلغ اليأس بأجنياس مبلغه فحشد جميع سكان أفريقيا، وكانوا مثل رمل البحر عددا، ووحَّد قواته مع قوات أخيه لوكوس وأغار للمرة الثالثة على زيفو وشعب قطيم.

تملك الانزعاج زيفو فكتب إلى إخوته فى سعير وناشد ملكهم حداد أن يرسل إليه المدد. لكن أهل سعير كانوا قد عقدوا حلفا مع أجنياس من أيام ملكهم بيلع ولذا فقد رفضوا طلب زيفو، فاضطر ملك قطيم إلى مواجهة جيش يتكون من ثمانمائة ألف رجل يقودهم أجنياس، بثلة من الرجال لم تتجاوز ثلاثة آلاف. عند ذلك كلم أهل قطيم ملكهم زيفو قائلين: «ادع لنا رب أسلافك فلعله يخلصنا من أيدى أجنياس وجيشه، فقد سمعنا أنه رب عظيم وأنه يخلص كل من يثق به». وعند ذلك دعا زيفو الرب قائلا: «يارب إبراهيم

وإسحق أبوى، فليعلم الكل اليوم أنك الرب حقا، وأن جميع آلهة الأمم هراء وإفك لا تضر ولا تنفع. فلتتذكر اليوم عهدك مع إبراهيم أبينا، ذلك العهد الذى ربطه بنا أجدادنا، وأحل علىّ اليوم نعمتك كرامة لإبراهيم وإسحق أبوىّ ونجنى أنا وأبناء قطيم من يدى ملك أفريقيا الذى خرج لحربى».

استجاب الرب لدعاء زيفو وفى أول يوم من أيام المعركة سقط نصف الجيش الأفريقى. عند ذلك أصدر أجنياس مرسوما فى البلاد يتوعد بالموت ومصادرة الممتلكات كل ذكر من قومه، بما فى ذلك الصبيان الذين تجاوزوا العاشرة، ما لم يخرج للانضمام إلى الجيش وقتال شعب قطيم. وبالرغم من هذه التعزيزات الجديدة التى بلغت ثلاثمائة ألف من الصناديد، فقد انهزم أجنياس مرة أخرى أمام زيفو فى الموقعة الثانية. وبعدما خر القائد العام للجيش الأفريقى سوسيباتر صريعا، لاذ جيشه بالفرار وعلى رأسه أجنياس ولوكوس أخوه وأسدروبال بن أجنياس. وبعد هذه الهزيمة النكراء لم يغامر الأفارقة مرة أخرى بمحاولة إزعاج سلام قطيم وتوقفت غاراتهم عليها إلى الأبد.

على الرغم من ذلك النصر المؤزر الذى أحرزه زيفو بعون الرب، فإن ملك قطيم سار فى طريق عبادة الأصنام على نهج قومه الذين يحكمهم، وعلى نهج أبناء عيسو، إذ كما يقول المثل عند القدماء: «من شابه أباه فما ظلم». وما كان زيفو إلا مثل باقى أبناء عيسو.

أدت تلك الهزيمة النكراء التى لقيها أجنياس إلى أن يغادر بلعام من أفريقيا إلى قطيم حيث استقبل استقبالا عظيما من جانب زيفو الذى أكرم وفاده تقديرا لحكمته العميقة.

الآن رأى زيفو أن الأوان قد آن لتنفيذ خطته بالانتقام من ذرية يعقوب، خصوصا بعدما مات يوسف وإخوته وصناديد فرعون. وانضم إليه فيما نوى حداد ملك أدوم وأمم الشرق والإشماعليين. وقد كان جيش هؤلاء الحلفاء عظيما لدرجة أنه عندما اصطف بفيالقه وطوابيره كان يغطى مسافة من الأرض تبلغ مسيرة ثلاثة أيام. واصطف ذلك الجيش بلباس الحرب فى

وادى باثروس حيث التقاه ثلاثمائة ألف مصرى ومئة وخمسون ألفا من الإسرائيليين من جاسان. لكن المصريين لم يكونوا يثقون بالإسرائيليين، فقد كانوا يخشون من ضعفهم أمام أبناء عمومتهم من الإشماعيلين وأبناء عيسو. ولهذا فقد عقدوا معهم اتفاقا على ألا يهبَّ الإسرائيليين إلى نجدة المصريين إلا إذا بدا لهم انهزامهم أمام عدوهم.

كان زيفو يثق فى قدرات بلعام ثقة كبيرة ولذا فقد طلب منه أن يستخدم فنونه السحرية ليتنبأ بما ستصير إليه نهاية المعركة، لكن معرفة بلعام خذلته فلم يستطع تحقيق طلب الملك. وانهزم المصريون فى بادى الأمر أمام عدوهم، لكن الأحوال انقلبت عندما استنجدوا بالإسرائيليين الذين ابتهلوا إلى الرب ليمدهم بمدده واستجاب الرب لدعائهم. بعد ذلك انقضوا على زيفو وحلفائه وقتلوا منهم عدة آلاف فَفَتَّ ذلك فى عضد العدو فلاذ بالفرار من أرض المعركة والإسرائيليون فى أعقابهم يطاردونهم حتى مشارف حدود البلاد. وبدلا من أن ينضم المصريون إلى الإسرائيليين ويعينوهم على ما يفعلون، لاذوا بالفرار تاركين مهمة التخلص من جحافل أعدائهم إلى الثلة القليلة من حلفائهم. وعند ذلك شعر الإسرائيليون بمرارة شديدة من تصرف المصريين فقتلوا منهم مائتين متذرعين بأنهم كانوا يعتقدون بالخطأ أنهم من جيوش الأعداء.

الأمم فى الحرب

بعدما لقى حداد ملك أدوم الهزيمة أمام المصريين، حالفه الحظ فى وقعة أخرى ضد مؤاب. وكان المؤابيون قد أحجموا عن لقاء حداد بمفردهم ولذا فقد تحالفوا مع المديانيين. وعندما حمى وطيس المعركة وبدا كل حتف قريب، فر المؤابيون من أرض المعمعة وتركوا المديانيين ليلقوا مصيرهم المحتوم، فانقض عليهم حداد وجنده من الأدوميين يعملون فيهم سيوفهم. وأفلت المؤابيون بجلودهم ورضوا من الغنيمة بدفع الجزية. وعقد المديانيون العزم على الانتقام من خيانة المؤابيين لهم فاستعانوا بأبناء عمومتهم أبناء قطورة وحشدوا جيشا قويا وهاجموا المؤابيين فى العام التالى. لكن حداد هرع إلى نجدتهم وأنزل بالمديانيين هزيمة ساحقة للمرة الثانية، فارتد عن كل تفكير فى الأخذ بثأرهم من المؤابيين. ولكن كان ذلك هو منشأ العداوة الدفينة بين المؤابيين والمديانيين، فلو سقط رجل من المؤابيين فى أرض مديان، يقتله أهلها دون شفقة أو رحمة، ولا يختلف حال أى مديانى فى أرض مؤاب عن ذلك.

بعد موت حداد اختار الأدوميون «سملاح المسرقاحى» ملكا عليهم، فحكمهم ثمانية عشر عاما. وأراد سملاح أن يتولى قضية أجنياس، الحليف القديم للأدوميين، ويعاقب زيفو على حربه له، لكن قومه الأدوميين منعوه من القيام بأى عمل عدائى ضد زيفو بن عمومتهم، ولذا فقد اضطر سملاح إلى التخلى عما كان قد انتواه. وفى السنة الرابعة عشرة من حكم سملاح مات زيفو بعد أن ظل يحكم قطيم طيلة خمسين عاما. وخلفه على قومه

جانوس من أبناء قطيم وحكم فترة طويلة مثل سلفه.

بعد موت زيفو فر بلعام إلى مصر حيث استقبله ملكها ونبلاؤها استقبالا عظيما وعينه الملك مستشارا له لما سمعه عن حكمته البالغة.

أما فى مملكة أدوم فقد خلف سملاح فى حكم البلاد شاؤول البيثورى، وكان شابا فائق الحسن ودام حكمه أربعين عاما. ثم خلفه على العرش بعل حمون، ودام ملكه ثمانية وثلاثين عاما انتفض خلالها المؤابيون ضد الأدوميين الذين كانوا يدفعون الجزية لهم أيام ملكهم حداد، وتمكنوا من رفع نير الغرباء عن رقابهم.

كان ذلك الزمان زمان اضطراب عظيم ساد جميع البلاد. ففى أفريقيا مات ملكها أجنياس كما مات جانوس ملك قطيم، فخلفهما أسدرول بن أجنياس على أفريقيا، ولاتينوس على قطيم الذى دخل فى حرب طويلة ضد أسدرول دامت سنين عددا. وفى البداية مالت كفة الحرب لصالح لاتينوس. وكان لاتينوس قد أبحر إلى أفريقيا على متن السفن وظل يسقى أسدرول كأس الهزيمة المرة بعد المرة، ثم فى النهاية لقى ملك أفريقيا حتفه فى أرض المعركة. وبعدما دمر لاتينوس القناة التى كانت تجرى من قطيم إلى أفريقيا طوال سنين عديدة، عاد إلى بلاده مصطحبا معه زوجة له أوشبيزيونا ابنة أسدرول، وكانت فاتنة جميلة إلى درجة أن بنى قومها كانوا يحملون صورا لها على ملابسهم.

لم يهنأ لاتينوس بجنى ثمار انتصاره طويلا إذ هب هانيبال أخو أسدرول وخليفته فى الملك وركب السفن إلى قطيم وشن عليها سلسلة من الحروب التى دامت ثمانية عشر عاما، قتل خلالها ثمانين ألفا من أهل قطيم ولم ينجُ من الذبح لا أمراؤها ولا نبلاؤها. وبعد انقضاء هذه الفترة الطويلة عاد هانيبال إلى بلاده وحكم قومه فى سكينة وسلام.

لم يكن الأدوميون خلال الثمانية والأربعين عاما التى حكمهم فيها حداد

خليفة بعل حمون ـ أحسن حالا من أهل قطيم. وكان أول ما هم حداد بعمله إذ حكم أن عزم على إعادة المؤابيين مرة أخرى إلى الخضوع لسلطان أدوم، لكن ثبَّط همته وفتَّ فى عزمه أن وجد نفسه غير قادر على مجابهة ملك المؤابيين، وكان منهم، واستنجد بأبناء عمومتهم العمونيين. وحشد الحليفان جيشا عظيما أغرق حداد فى طوفان الهزيمة. ثم تلا تلك الحروب حرب أخرى دارت رحاها بين حداد الأدومى وبين أبيمينوس القطيمى الذى كان هو البادى بالهجوم وغزا سعير بجيش جرار. وانهزم أبناء سعير هزيمة نكراء وتم أسر ملكهم حداد ثم أعدمه أبيمينوس وتم ضم سعير إلى قطيم وصارت إقليما من أقاليمها يُعيَّن عليها والٍ من قبل ملك قطيم.

وبذا انتهى استقلال أبناء عيسو ومن حينها فصاعدا واظبوا على دفع الجزية إلى قطيم التى ظل أبيمينوس ملكا عليها حتى وفاته فى السنة الثامنة والثلاثين من حكمه لها.

عظمة نفس يوسف

أثناء عودة يوسف من مواراة جثمان أبيه الثرى فى كهف المكفيلة، مر على الجب الذى كان إخوته قد ألقوه بها ذات يوم، فنظر إليه وقال: «الحمد للرب الذى أجرى معجزة لى هنا!» واستنتج إخوته من هذه الكلمات، التى حمد بها الرب ولم يتلفظ بها إلا وفقا للشريعة، أنه قد تذكر الشر الذى فعلوه به وخافوا، بعدما مات أبوهم، أن يعاقبهم أخوهم على ما فعلوه به. كما لاحظوا أن يوسف، منذ رحيل أبيهم، لم يعد يطعمهم على مائدته، وفسروا ذلك على أنه علامة على كرهه لهم. وفى الحقيقة فلم يفعل يوسف ذلك إلا من احترامه لإخوته. وقال يوسف لنفسه: «لقد كان أبى طول حياته يأمرنى بالجلوس على رأس المائدة، بالرغم من أن يهوذا هو الملك ومن أن رأوبين هو البكر. لقد كانت تلك رغبة أبى ولم يكن أمامى إلا تحقيقها. لكن ليس من اللائق الآن أن احتل رأس المائدة فى حضورهما، وفى نفس الوقت فلا أستطيع، وأنا حاكم مصر، أن أترك مكانى لأحد». ولهذا فقد رأى أنه من الأفضل ألا يرافق إخوته على الطعام.

لكن إخوته، ولأنهم لم يكونوا على علم بما كان يدور فى رأس يوسف، أرسلوا إليه بلهة تحمل إليه نبأ احتضار أبيه ورسالة الأب المحتضر إليه بأن يغفر لهم تجاوزهم فى حقه وخطيئتهم معه. وكانوا فى ذلك يكذبون طلبا للسلام، فلم يتفوه يعقوب بكلام كهذا. ومن جانبه فقد أدرك يوسف أن إخوته ما قالوا ذلك إلا لخوفهم منه أن يلحق بهم الأذى، ولذا فقد بكى لقلة ثقتهم بعاطفته تجاههم. وعندما جاءوه وسجدوا أمامه وقالوا له: «لابد أنك

تريد أن تتخذ واحدا منا عبدا لك. ها نحن كلنا على استعداد لأن نكون كلنا عبيدا لك»، كلمهم بلطف وحاول إقناعهم بأنه لا يضمر لهم شرا. وقال لهم: «لا تخافوا فلن أوذيكم، لأننى أخشى الرب، وإن كنتم تظنون أننى لم أعد أشاركم طعامكم وأجلس معكم على مائدة واحدة بسبب عداوتى لكم وكرهى إياكم، فإن الرب ليعلم ما انطوى عليه قلبى، وهو يعلم أنى ما فعلت ذلك إلا احتراما لكم».

كما قال لهم: «إنكم مثل تراب الأرض ورمل البحر ونجوم السماء. فهل أستطيع فعل شىء لأضع هذه الأشياء خارج العالم؟ إن عشرة نجوم لا تستطيع أن تفعل شيئا كان بنجمة واحدة، فكيف لنجمة واحدة أن تقدر على فعل شىء بعشرة؟ هل تظنون أننى أستطيع أن أفعل شيئا يخالف ما جلبت عليه الطبيعة؟ فى النهار اثنتا عشرة ساعة وفى الليل اثنتا عشرة ساعة، والشهور اثنا عشر، والنجوم اثنا عشر فى السماء، وكذلك القبائل اثنتا عشرة! أنتم الجذع وأنا الرأس.. فهل لرأس دون جذع من نفع؟ إن من مصلحتى أن أعاملكم بحب الأخ لأخيه. قبل مجيئكم كان الناس فى هذه البلاد ينظرون إلىّ على أننى عبد.. وأثبتم أنتم أننى من أصل نبيل. ولئن قتلتكم الآن فإن كل زعم زعمته بكرم أصلى سيستحيل كذبا محضا. وليقولن المصريون ساعتها أننى لست أخاكم وأنكم كنتم غرباء عنى وأننى ما زعمت أنكم إخوتى إلا لكى أخدم أغراضى، وأننى قد وجدت الآن الذريعة لإبعادكم. أو سيقولون عنى أننى إنسان خسيس لا أقيم وزنا لإخوّة أو قرابة، فكيف لى إذاً أن أحفظ عهدا مع الغرباء؟ بل كيف ستطاوعنى يداى فى المساس بمن باركهم الرب وباركهم أبى؟»

وكما كان يوسف رقيقا لين الجانب مع إخوته، كان المعين والناصح الأمين للمصريين. وعندما رحل فرعون عن الحياة، وكان يوسف حينها قد بلغ من العمر الواحدة والسبعين، فقد كان آخر وصية للفرعون الراحل قبل موته أن يكون يوسف أبا لابنه وخليفته من بعده «ماجرون»، وأن يدير له

شئون دولته. وكان بعض المصريين يريدون أن يتولى يوسف مُلك البلاد، لكن عارض آخرون ذلك وكرهوا أن يجلس على العرش أجنبى دخيل، ولذا فقد تملك على البلاد ماجرون وتسمى باسم فرعون على عادة جميع الملوك المصريين. ومع ذلك فقد كان يوسف هو الحاكم الفعلى للبلاد، وبالرغم من أنه لم يكن إلا نائبا لملك مصر، فقد حكم على الأراضى الواقعة خارج مصر وصولا إلى الفرات، وكان قد اكتسب بعضها بالفتح. وكان سكان هذه البلاد يحملون إليه الجزية فى كل عام، مع غيرها من الهدايا، وهكذا فقد حكم يوسف طوال أربعين سنة وأحبه الجميع، و يحترمه المصريون وغيرهم من الأمم، وأقام إخوته طوال هذه السنوات فى أرض جاسان، فى هناءة ورغد من العيش يعبدون الرب. كما كان يوسف سعيدا كذلك بين أهله، وعاش حتى صار جدا أكبر وأشرف على ختان أولاد حفيده ماشير.

وكانت نهاية يوسف تعتبر مبكرة بالنسبة لنهاية إخوته، فقد كان عند موته أصغر منهم سنا عند موتهم. وصدق القائل: «إن السلطة لتقضى على من يمارسها» ومات يوسف قبل انقضاء العمر المخصص له بعشر سنوات، لأنه سمح لإخوته أن يصفوا أباهم بأنه «عبده» وفى وجوده، دون أن يتأذى من ذلك(*).

(*) كما ترى عزيزى القارئ فالثواب للصالحين إنما يكون بالعيش فى هذه الدنيا لأطول وقت والعقاب يكون بقصر العمر!! وصدق الله عز وجل إذ يقول عن اليهود: «وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ..».

آســـــينات

إن الرب ليـرزق كـلاً بزوجـه الذى يسـتحـقـه، ومن هنا فـقـد اسـتـحـقت أسـينات أن تكون المعين ليوسـف التقىِّ. وكـان أبوهـا هـو فـوطيـفـار من كبـار رجـال الفـرعـون ووصل إلى مـكانتـه تلك بسـبب حكمـتـه وثـروته ومكانتـه بين الناس. وكـانت ابنتـه رقـيـقـة البـدن مـثل سـارة، وجـمـيلة الوجـه مـثل رفـقـة ومشـرقة الطلعة مثل راحيل. وكان النبلاء والأمراء يطلبون الزواج بها وهـى لمَّا تزال فـى الثـامنة عشـرة من عمـرهـا. حتى ولـى عهـد فـرعـون، ابنه البكر، قـد طلب الزواج بهـا، لكن أبوه رفض تزويجـه إياها لأنه لم يكن يراهـا زوجـة مناسـبة لرجل سيجلس يوما على عـرش البلاد، وكان فـرعـون يصـر على ابنة ملك مؤاب مناسـبـة لابنه أكثر. لكن أسـينات كانت ترفض كل من يتقـدم طالبا يدهـا، وتجنبت الاخـتـلاط بـالرجـال. وعـاشت، مع سـبع فـتـيـات آخـريات ولدن يوم ولدت هـى، منعزلة فـى قصـر مجاور لقصـر أبويها.

وفـى سـبع سنين الرخـاء قـرر يوسـف أن يزور القـصـر الـذى يقـيـم به فوطيـفـار، وأرسـل إليـه يخبـره بأنه سـيـزوره فـى منزله. فـرح فـوطيـفـار فـرحـا عظيـمـا بـذلك الشـرف الذى يكـاد يناله، وكـذلك لأن الـفـرصـة سـتـتـهـيـأ له ليـخـطط لـزواج يوسـف من أسـينـات. لكن عندمـا أفـضـى إلـى ابنتـه بما عـزم عليـه، رفـضت فـى غـضـب وصـاحـت بـه فـى ثـورة: «لماذا تريد تـزويجـى من هـذا العـبـد المتـشـرد؟.. إنه ليس من شـعـبنا ولكنه ابن راعـى غنم من كنعـان..! أتزوجنى بمن حـاول التعدى على شرف سـيدته فألقى به فـى السـجن جزاء له على جـريمتـه الـنكراء، ولم يخـرجـه منه إلا حـاجـة فـرعـون لـه ليـفـسـر له

أحلامه؟ لا يا أبتاه، لن أكون أبدا زوجة له. إننى أريد أن أتزوج ابن فرعون ومن سيصبح حاكما وملكا لمصر فى المستقبل».

وعد فوطيفار ابنته بألا يذكر لها ذلك الأمر مرة أخرى. وفى تلك اللحظة أعلن عن وصول يوسف إلى القصر، فانصرفت أسينات من حضرة أبويها وانسحبت إلى خدرها. وبينا هى واقفة بجوار النافذة رأت يوسف يمر من تحتها فطاش صوابها لمّا رأت جماله الإلهى وطلعته النبيلة التى لا يمكن وصفها، حتى انفجرت فى البكاء وقالت: «يا لغباوتى وحمقى..! ماذا أفعل الآن؟ لقد سمحت لنفسى بأن أنخدع بكلام صاحباتى اللاتى أخبرننى أن يوسف ابن راعى غنم من كنعان. والآن ها أنا أرى ذلك النور الذى يشع من وجهه كضياء الشمس وينير منزلنا بسناه..! ومن حمقى وغباوتى تكلمت بكلام قبيح فى حقه واحتقرته، وتفوهت فى حقه بكلام فارغ!! لكنى لم أكن أعرف أنه من أبناء الرب، كما لابد وأن يكون، إذ لا يوجد بين بنى البشر من هو بمثل هذا الجمال. اغفر لى يارب يوسف! لقد قادنى جهلى إلى التكلم بكلام الحمقى والمغفلين. ولئن زوّجنى أبى ليوسف لأكونن له إلى أبد الآبدين».

فى هذه الأثناء كان يوسف قد أخذ مكانه على مائدة فوطيفار ولمح مكانه جارية تتطلع إليه من إحدى نوافذ القصر، فأمر بإبعادها، إذ لم يكن يسمح أبدا أن تتطلع النساء إليه أو يتقربن منه.فقد كان جماله الفائق لطبيعة البشر يذهب دائما بألباب زوجات الكبراء من المصريين، ولم ييأسن من ملاحقته ومحاولة التودد إليه. لكن كانت كل محاولاتهن تضيع سدى، فقد كان يعمل بنصيحة أبيه يعقوب الذى أوصاه وشدد عليه بأن يترفع بنفسه عن نساء الأغيار.

أوضح فوطيفار ليوسف أن الجارية التى تتطلع من النافذة إنما هى ابنته العذراء التى لم تكن تسمح أبدا للرجال بالاقتراب منها؛ وأنه هو أول رجل تنظر إليه. واصل الأب حديثه واستأذن من يوسف أن تأتى ابنته وتتقدم

تحياتها له. أذن يوسف لأسينات فأتت وحيته قائلة: «السلام عليك يا من باركك الرب الأعلى» فرد يوسف تحيتها قائلا: «باركك الرب الذى منه تأتى كل البركات».

كما أرادت أسينات أن تقبّل يوسف فأجفل وارتد إلى الوراء قائلا لها: «لا يليق برجل يخشى الرب ويسبح بحمد الرب الحى ويأكل خبزه الذى باركه ويتجرع كأس الفناء المبارك والعصمة عن كل خطية، ويدهن نفسه بزيت القداسة العطر، لا يليق به أن يقبل امرأة من شعب غريب يعبد ويقدس الأصنام الميتة التى لا تضر ولا تنفع ويأكل من خبز الوثنية العفن الذى يخنق روح الإنسان، ويشرب ترياق الزيف ويدهن نفسه بزيت الهلاك».

لمست هذه الكلمات شغاف نفس أسينات التى أجهشت بالبكاء، فرأف يوسف بحالها وباركها ودعا الرب أن يغمرها روحه ويجعلها من شعبه ومن وارثيه، وأن يمنحها نصيبا فى حياة الخلود.

زواج يوســـــف

أثَّر ظهور يوسف وكلامه على أسينات تأثيرا بالغا لدرجة أنها ما كادت تبلغ مخدعها إلا وتجردت من ثياب الملك وخلعت عنها زينتها ومجوهراتها ولبست الجوخ وغبرت رأسها بالتراب ودعت الرب باكية أن يغفر لها خطاياها. وظلت على حالها تلك سبعة أيام بلياليها لا تفارق حجرتها. ولم تسمح حتى لوصيفاتها السبع بأن يدخلن عليها طوال أيام توبتها. وفى صباح اليوم الثامن ظهر لها ملاك وأمرها بأن تنزع عن نفسها لباس الجوخ وتنفض التراب عن رأسها وترتدى لباس الملك والإمارة لأنها قد ولدت فى ذلك اليوم من جديد، هكذا قال لها الملاك، فلتأكل من خبز الحياة وتشرب من كأس حياة الخلود وتدهن نفسها بزيت الحياة الأبدية. وبينما كانت أسينات على وشك أن تضع أمام ضيفها (الملاك) الطعام والشراب، رأت كوز عسل لم تر من قبل مثله لا فى هيئته العجيبة ولا فى شذاه الفواح. وأعلمها الملاك أن هذا الكوز أنتجه نحل الفردوس لكى يأكل منه الملائكة والذين اصطفاهم الرب. واقتطع منه قطعة لنفسه ثم وضع الباقى فى فم أسينات قائلا: «من اليوم فصاعدا سيتفتح جسمك كما تتفتح أزهار الفردوس، ولتمتلئن عظامك بالدهن مثل جذوع أشجار الأرز، ولتكونن بك قوة لا تنهك، ولن يذوى شبابك أبدا، ولن يشيخ جمالك أبدا، ولتكونن مثل عاصمة البلاد وقد أحاطت بها الأسوار». وبطلب من أسينات بارك الملاك كذلك وصيفاتها السبع قائلا: «فليباركن الرب ويجعلكن مثل الأعمدة السبعة فى «مدينة المأوى»».

عند ذلك انصرف الملاك عنها ورأته يصعد إلى السماء فى عربة من

النار يجرها سبعة أحصنة من النار. وعند ذلك علمت أن من كان معها ليس من البشر وإنما كان ملاكا.

ما كاد ذلك الرسول السماوى ينصرف إلا وأُعْلِنَ عن زيارة يوسف للقصر، فأسرعت ترتدى أبهى ثيابها وتتزين لاستقباله. وبينا هى تغسل وجهها بالماء لمحت صورتها فى الماء ورأت أنه أصبح جميلا كما لم يكن أبدا من قبل، وأن التحول الذى جرى على يد الملاك كان عظيما. وعندما حضر يوسف لم يتعرف عليها وسألها من تكون فأجابته قائلة: «أنا خادمتك أسينات. لقد نبذت أصنامى واليوم زارنى زائر من السماء. لقد ناولنى فأكلت من خبز الحياة وشربت من الكأس المباركة وكلمنى قائلا: «إنى أعطيك ليوسف زوجة له مخلصة، ليكن زوجا مخلصاً لك إلى الأبد». كما قال لى: «لن يدعى اسمك أبدا بعد الآن أسينات، ولكنك ستدعين «مدينة المأوى» التى تلجأ إليها الأمم طلبا للنجاة». كما قال لى: «سأذهب الآن إلى يوسف لأخبره بكل ما قلته لك». والآن يا مولاى فإنك لابد تعلم إن كان الرجل قد أتاك وحدثك عنى».

أكد لها يوسف صدق كل ما قالته وتعانقا وتبادلا القبلات علامة على انعقاد الخطبة بينهما والتى احتفلا بها بوليمة مع فوطيفار وزوجته. ثم تم زفافهما فيما بعد فى حضور الفرعون الذى وضع تاجا من الذهب على رأس العريس وآخر على رأس العروس، وباركهما وأقام على شرفهما وليمة دامت سبعة أيام ودعا إليها كبراء مصر وأمراءها وكذلك كبراء وأمراء بعض البلدان الأخرى؛ وحرَّم على جميع الشعب العمل بأى صورة، ومن يخالف يقتل؛ إذ فرض على جميع الشعب أن يشارك فى الاحتفال بزواج يوسف.

إخوة طيبون وآخرون أشرار

فى اليوم الواحد والعشرين من الشهر الثانى من سبع سنى المجاعة، نزل يعقوب إلى مصر فزارته زوجة ابنه أسينات. وعندما رأته أذهلها جماله وقوته. فقد كان كتفاه وذراعاه مثل كتف ملاك وذراعيه(*)، وكانت سوَّته عظيم مِثْل سوة عملاق، وباركها يعقوب ثم عادت إلى بيتها برفقة زوجها، ورآهما أبناء ليئة، بينما بقى أبناء الأَمَتَيْن بعيدا، إذ تذكرُّوا ما فعلوه بيوسف من شر ذات يوم. وقد كان لاوى على وجه الخصوص يحمل مودة خاصة لأسينات، وكان قريبا بصفة خاصة من الرب الحى فقد كان نبيا وحكيما وكانت عيناه مفتوحتين وكان يعلم كيف يقرأ الكتب السماوية التى كتبتها أصابع الرب. وأفضى إلى أسينات بأنه قد رأى مستقرها فى المستقبل فى السماء، وأنه مبنى على حائط من الماس ومحاط به.

فى الطريق قابلوا ابن فرعون وخليفته من بعده على العرش، وافتتن ابن فرعون بجمال أسينات افتتانا جعله يخطط لقتل يوسف لكى يستولى على امرأته من بعده. واستدعى شمعون ولاوى وأخذ يغريهما ويتوعدهما لكى يتخلصا من يوسف. اشتط شمعون غضبا حتى كاد أن يفتك بابن الفرعون من ساعته، لولا أن أخاه لاوى، وكان موهوبا بالنبوة، علم ما يريد شمعون فأحبطه بأن داس على قدمه وهمس له قائلا: «لماذا أنت غاضب إلى هذه الدرجة وحانق على الرجل؟ لا ينبغى لنا ونحن نخشى الرب أن نقابل السيئة بالسيئة». ثم استدار إلى ابن فرعون وأخبره أنه لن يستطيع إقناعهما بتنفيذ

(*) وهل رأى الراوى أحد الملائكة!؟

الشر الذى عقد عليه عزمه، ونصحه بألا يمس يوسف بسوء وإلا فسوف يقتله بذات السيف الذى ذبح به أهل شكيم. عند ذلك تملك المجرم رعب شديد وخر على وجهه عند أقدام شمعون ولاوى يتوسل رحمتهما. ربَّت لاوى على كتفه وأنهضه قائلا: «لا تخش شيئا يا رجل.. انزع عنك فقط ما عزمت عليه من شر تجاه يوسف ولا تمسه بسوء».

لكن ابن فرعون لم يتخلَّ عن نوازعه الشريرة واقترب من أبناء زلفة وبلهة وحاول أن ينفذ عن طريقهما ما فشل فى تنفيذه مع شمعون ولاوى. دعاهم إلى حضرته وأخبرهم عن حديث تناهى إلى مسامعه بين يوسف وفرعون. إذ قال يوسف، هكذا زعم، أنه كان ينتظر موت أبيه يعقوب لكى يتخلص من أبناء الجاريتين، لأنهم هم من باعوه فى سوق العبيد. أثار هذا الكلام حنقهما على يوسف ووافقا ابن فرعون على ما انتواه. وخططوا لأن يقتل ابن فرعون أباه صديق يوسف، بينما ينقضون هم على أخيهم ويزيحوه عن الطريق. زودهم ابن فرعون بستمائة رجل من الشجعان الصناديد وخمسين راميا بالحراب لكى ينفذوا غرضهم. وفشل الجزء الأول من الخطة، وهو قتل فرعون فلم يدع حراس القصر ولى العهد يدخل مخدع أبيه ولذا فقد عاد أدراجه يجر أذيال الخيبة.

عند ذلك نصحه جاد ودان بأن يكمن مع خمسين راميا بالسهام فى مكان خفى لابد وأن أسينات ستمر منه فى طريق عودتها إلى منزلها. ومن ثم سيتمكن من الهجوم على مخدعها وأسرها. ولم يكن نفتالى ولا أشر يريدان الاشتراك فى هذه المؤامرة ضد يوسف لكن دان وجاد أجبراهما على الاشتراك فيها قائلين لهما إن جميع أبناء الجاريتين لابد وأن يقفوا معا وقفة رجل واحد ويدرءوا عن أنفسهم ذلك الخطر المحدق بهم جميعا.

عقاب الخيانة

هجمت قوات ابن فرعون من مكمنها على أسينات وحراسها الستمائة واستطاعوا قتل الحراس فلاذت أسينات بالفرار لكن سوء طالعها أنها تعثرت فى ابن فرعون مع خمسين فارسا. كان بنيامين يجلس فى نفس العربة معها فهرع إلى نجدتها، إذ كان شجاعا جسورا بالرغم من خضرة عوده. ترجل بنيامين من العربة وجمع الحصى وأخذ يقذف به ابن فرعون فأصاب جبينه وجرحه جرحا بالغا. وأخذت أسينات تساعده بإمداده بالحصى الذى راح يرمى به الفرسان الخمسين بمهارة بلغت حد أنه قتل منهم ثمانية وأربعين بثمان وأربعين حصاة فقط. فى هذه الأثناء كان أبناء ليئة قد هرولوا إلى نجدة أسينات، فقد رأى لاوى بعين نبوءته ما يحدث فجمع إخوته الخمسة وهرول إلى المكان. وهاجم هؤلاء الستة القوات المغيرة وأخذوهم على غرة فصرعوهم. لكن لم يزل الخطر المحدق بأسينات رغم كل ذلك. إذ عند ذلك انقض أبناء الجاريتين على أسينات وبنيامين بسيوفهم. وكانوا يريدون قتلهما ثم الفرار إلى الغابة ليحتموا بها، لكن ما إن دعت أسينات الرب لينصرها إلا وسقطت السيوف من أيدى مهاجميها ورأوا أن الرب فى صف أسينات. عند ذلك خروا عند قدميها يتوسلون طالبين الرحمة فهدأت روعهم قائلة: «تشجعوا ولا تخافوا من إخوتكم أبناء ليئة، فهم رجال يخشون الرب. فقط عيكم الاختباء ولا تظهروا لهم حتى تخف حدة غضبهم».

عندما ظهر أبناء ليئة خرت أسينات على وجهها أمامهم وتوسلت إليهم بدموعها ألا يقتلوا أبناء الجاريتين وألا يقابلوا السيئة بالسيئة، لكن شمعون

لم يتقبل هذا الكلام، وأصر على أن تتم معاقبتهم جزاء وفاقا على جرائمهم التى لابد أن يدفعوا حياتهم ثمنا لها، لأنهم هم الذين باعوا يوسف عبدا وسببوا محنا لا يمكن وصفها ليعقوب وبنيه. لكن أسينات لم تيأس وظلت تتوسل حتى ظفرت بما أرادت ذلك اليوم. ونجحت فى إطفاء غضب شمعون، كما كان فى لاوى حليف سرى لها، إذ كان ذلك النبى يعلم مخبأ أبناء الجاريتين ولكنه لم يبح به لشمعون. كما كان لاوى هو الذى منع بنيامين من القضاء على ابن فرعون الذى كان ملقى جريحا. وبأبعد ما يكون عن إلحاق الأذى بذلك الجريح، غسل له لاوى جراحه وأركبه على إحدى العربات وأخذه إلى فرعون الذى شكره من كل قلبه على كرمه وسماحته. لكن كل ما فعله لاوى ضاع سدى، إذ بعد ذلك بثلاثة أيام مات ابن فرعون متأثرًا بجراحه التى أصابه بها بنيامين، وسرعان ما لحق به فرعون كمدًا وحسرة على ابنه البكر، ليفارق هذه الحياة عن عمر يناهز السابعة والسبعين بعد المئة. وهكذا خلفه يوسف على العرش وحكم مصر لمدة ثمان وأربعين سنة من بعده. ثم خلفه على العرش حفيد فرعون. وكان لا يزال طفلاً حينما مات جده فتعهده يوسف بالرعاية كأبيه طوال حياته.



موت يوسف ودفنه

وهو على فراش موته استحلف يوسف إخوته، كما أوصاهم بأن يستحلفوا أبناءهم كذلك وهم على فرش موتهم، بأن يحملوا عظامه إلى فلسطين، عندما يزورهم الرب ويخرجهم من أرض مصر. وقال لهم يوسف: «عندما كنت حاكمًا للبلاد نقد، جثمان أبى إلى الأرض المقدسة وهو لا يزال سليمًا لم يمس. وكل ما أطلبه منكم الآن أن تحملوا عظامى من هذه البلاد وأن تدفنوها فى أى بقعة فى فلسطين، لأننى أعلم أن مدفن الآباء لم يكتب له إلا استيعاب جثث الآباء الثلاثة (= إبراهيم وإسحق ويعقوب) وزوجاتهم».

أقسم إخوة يوسف له بأنهم سوف يأخذون عظامه معهم عند مغادرتهم مصر وبأنهم سيدفنونها فى فلسطين، ولم يستحلف أبناءه على فعل ذلك لأنه كان يخشى ألا يسمح المصريون لبنيه بأن يفعلوا ذلك، حتى ولو تذكروا أن يوسف قد سمح له بأن ينقل جثمان أبيه. وكان يخشى أن يتذرعوا بأن يوسف كان حاكمًا لبلادهم وأن رغبة من هو مثله فى هذا المنصب الرفيع لا يمكن إنكارها. كما شدد على إخوته بألا يغادروا مصر حتى يظهر لهم مخلّص ويعلن رسالته قائلاً: «باكود.. لقد زرتكم بالتأكيد»، وكان ذلك تقليدًا ورثه يوسف من أبيه الذى ورثه بدوره من إسحق الذى ورثه بدوره من إبراهيم. كما أخبرهم بأن الرب سيخلص إسرائيل على أيدى موسى بمثل ما سيخلصهم من خلال المسيا، سواء فى هذا العالم أو فى العالم الآتى، وأن الخلاص من المصريين سوف يبدأ فى شهر تشرى، عندما يتخلص إسرائيل من أعمال العبودية، ثم سيكتمل فى شهر نيسان التالى حيث سيرحلون عن مصر.

كما شدد يوسف على إخوته بأن يسيروا فى طريق الرب لكى يستحقوا نعمته وفضله عليهم. وأكد بالخصوص على إخوته وبنيه بأن يتمسكوا بفضيلة العفة والالتزام بالاستقامة فى حياتهم. وأخبرهم بكل ما حدث له، من كراهية إخوته له، وملاحقات زوجة فوطيفار له وإهانة المصريين وحسدهم له وحقدهم عليه، لكى يبين لهم كيف أن من يخشون الرب لا يتخلى عنهم فى الظلمة ولا فى العبودية ولا المحن والإحن. وقال لهم: «لقد تم بيعى فى سوق العبيد لكن الرب حررنى؛ وألقى بى فى غياهب السجن لكن يده القديرة ساعدتنى. وعضنى الجوع، لكن الرب أطعمنى بنفسه. وكنت وحيدًا فعزانى الرب. وهكذا أنتم.. فإن سرتم فى طريق العفة والطهارة وصبرتم وتواضعتم للرب فإن الرب سيقيم بينكم، لأنه يحب الأطهار، وأنتم يا أبنائى لو حفظتم وصايا الرب واستمسكتم بها، فليرفعنكم هنا فى هذه الدنيا وليرفعنكم فى الآخرة كذلك. وإن أرادكم الناس بشر فادعوه ولسوف ينجيكم من كل شر. وقد أثابنى على صبرى بابنة سيدى زوجة لى، وكان مهرها مئة تالنت من الذهب، كما منحنى الرب جمالاً مثل جمال الورود، وبأكثر مما منح جميع أبناء يعقوب، كما حفظ على قوتى وجمالى فى شيخوختى، لأننى كنت أشبه يعقوب فى كل شىء».

وواصل يوسف كلامه وأخبرهم بالرؤى التى رآها، والتى كشف له فيها عن مستقبل إسرائيل، ثم اختتم كلامه قائلاً: «أعلم أن المصريين سيقهرونكم بعد موتى، لكن الرب سينتقم لكم منهم، وسوف يقودكم إلى الأرض التى وعد بها آباءكم. لكنكم ستحملون بكل تأكيد عظامى معكم وأنتم خارجون من هنا، إذ أنه لو تم نقل رفاتى إلى كنعان، فإن الرب سيكون معكم فى النور، وسوف يكون بيخار مع المصريين فى الظلمة. كذلك احملوا معكم عظام أمكم زلفة، وادفنوها قرب ضريح بلهة وراحيل».

عندما انتهى يوسف من هذه الكلمات مد قدميه ونام نومته الأبدية الأخيرة، وبكاه كل إسرائيل وكل سكان مصر فى حزن عظيم إذ كان صديقًا

رحيمًا بالمصريين كذلك ونصحهم بالخير، وأعانهم بالرأى النافع والمشورة الحكيمة فى جميع أمورهم.

تحققت رغبة يوسف بنقل عظامه إلى الأرض المقدسة ودفنها فيها عندما غادر الإسرائيليون مصر، بل إن موسى هو الذى قام بنقلها بنفسه. وكانت تلك مكافأة ليوسف على إخلاصه لأبيه والذى تمثل فى نقله لجثمانه، فقد قام بنفسه بعمل اللازم ولم يدعْ لأحد شيئًا. ولهذا فإن رجلاً فى منزلة موسى هو الذى تولى بنفسه مهمة تحقيق أمنية يوسف.

ظل موسى طوال ثلاثة أيام بلياليها قبل الخروج من مصر يبحث عن تابوت يوسف، فقد كان يعلم أن إسرائيل لا يمكن أن يغادر مصر دون أن يبر بقسمه الذى أقسمه ليوسف. لكن لم يُجدِ بحثه نفعًا فلم يستطع العثور على التابوت فى أى مكان. وبينما هو على حاله تلك قد استبد به التعب وتملكه الإنهاك، قابلته سيراح ابنة أشر فسألته عن سبب ما هو فيه فأخبرها ببحثه عن التابوت دون جدوى. عند ذلك أخذته سيراح إلى ضفة النيل وأخبرته أن التابوت الذى صنعه المصريون لجثمان يوسف يرقد فى أعماق النهر بعد أن تم إغلاقه بإحكام فلا يتسرب الماء إليه. كما أخبرته أن المصريين فعلوا ذلك بالاستعانة بالسحرة الذين كانوا يعلمون جيدًا أن الإسرائيليين لن يتمكنوا من مغادرة البلاد بدون التابوت، ولذا فقد استخدموا كل فنونهم السحرية ليضعوه فى مكان لا يستطيع أحد إخراجه منه.

عند ذلك أخذ موسى كأس يوسف واقتطع منه أربع قطع مستوية وحفر على إحداها رسم أسد وعلى الثانية صورة نسر وعلى الثالثة صورة ثور وعلى الرابعة هيئة إنسان. ثم قذف القطعة الأولى التى تحمل رسم الأسد فى النهر قائلاً: «يوسف.. يا يوسف.. لقد حانت ساعة خلاص إسرائيل والشكينة لم تحل هنا إلا كرامة لك، وسحب المجد تنتظرك. فإن أظهرت نفسك فخير وبركة؛ وإلا فنحن فى حل من قسمنا». لكن التابوت لم يظهر.

عند ذلك رمى موسى القطعة الثانية وعليها صورة النسر فى النهر، مكررًا نفس الكلمات، لكن التابوت لم يرتفع من قاع النهر. كما ظل التابوت راقدًا فى القاع عندما رمى القطعة الثالثة التى تحمل صورة الثور ونادى على يوسف للمرة الثالثة. لكن مع رمى القطعة الرابعة التى تحمل هيئة الإنسان فى النهر والمناداة على يوسف ظهر التابوت على سطح الماء، فأمسك به موسى وحمله وانصرف فى حبور. وبينما كان إسرائيل مشغولاً بجمع الذهب والفضة من المصريين، لم يكن يشغل بال موسى سوى تابوت يوسف، وكان فرحه عظيمًا أن أذن له بتحقيق أمنية يوسف(*).

ظل التابوت بين بنى إسرائيل طوال الأربعين سنة من التيه فى الصحراء، وكان ذلك مكافأة ليوسف على وعده لإخوته عندما قال لهم: «سأطعمكم وأرعاكم» إذ قال الرب عندها: «وحياتك ليرعن عظامك طوال أربعين سنة».

طوال هذه السنين التى عاشوها فى الصحراء كان بنو إسرائيل يحملون معهم ضريحين، كان أحدهما التابوت الذى يحمل عظام يوسف الميت، بينما كان الآخر تابوت العهد الذى كان يحمل عهد الرب الحى. كان عابرو السبيل يتعجبون كلما رأوا هذين الوعاءين ويقولون: «كيف لتابوت الميت أن يكون بجوار تابوت الحى الذى لا يموت؟» وكانت الإجابة هى «إن الميت الذى ترقد رفاته فى إحداهما قد حافظ على الوصايا التى يحملها الآخر، حيث كتب «فى الوصايا» «أنا الرب إلهك»، فقال (يوسف): فهل أنا محل الرب؟ وها هو مكتوب هنا: «لا تتخذ آلهة أخرى من دونى» فقال: إنى أخاف الرب. وها هو هنا مكتوب «لا تحلف باسم الرب إلهك كاذبًا»، ولهذا فلم يحلف (يوسف) باسم الرب ولكن قال: «وحياة فرعون». وها هو مكتوب هنا «تذكر يوم السبت»، فقال لخدامه فى ليلة الجمعة «اذبحوا واستعدوا» أى استعدوا ليوم السبت. وها هو مكتوب هنا «أكرم أباك وأمك»، وقال لأبيه عندما أرسله إلى

(*) كعادة اليهود، كل الأنبياء يعتمدون على العرافة والسحر!!

إخوته: «سمعًا وطاعة» بالرغم من أنه كان يعلم الخطر الذى يتهدده لو ذهب. وها هو مكتوب هنا «لا تقتل»، فأحجم عن قتل فوطيفار عندما حرضته زوجة فوطيفار على قتله. وها هو مكتوب هنا «لا تزن» فلم يستجب لإغراءات زوجة فوطيفار وسخر منها. وها هو مكتوب «لا تسرق»، فلم يسرق من فرعون شيئًا ولكن كان يجمع المال كله ويذهب به إلى بيت فرعون. وها هو مكتوب «إياك وشهادة الزور على جارك»، فلم يقل لأبيه شيئًا عما فعله به إخوته، ولو كان قال فما كذب. وها هو مكتوب «لا تَشتهِ زوجة قريبك»، فلم يَشْتهِ زوجة فوطيفار.

عندما وصل الإسرائيليون إلى الأرض المقدسة دفنوا عظام يوسف فى شكيم، إذ كلم الرب الأسباط قائلاً «لقد سرقتموه من شكيم وإلى شكيم ستعيدونه».

إن الرب الحامى لأجسام المتقين، حام لأرواحهم كذلك إذ تقف أمامه كالملائكة وتقوم بخدمته مثلهم.

الكتاب الثانى: أبناء يعقوب

أسـماء مهمـة

ربَّى يعقوب أبناءه كلهم على تقوى الرب وعلمهم حياة التُّقى، مستخدمًا معهم الشدة كلما استلزم تعليمهم ذلك. وجنى ما زرع، إذ أن جميع أبنائه كانوا أتقياء بلا خطية. وكان أسلاف الأسباط الاثنى عشر يشبهون آباءهم فى التقى ولم تكن أعمالهم بأقل أهمية من أعمال إبراهيم أو إسحق أو يعقوب. ومثلهم مثل هؤلاء الثلاثة كانوا يستحقون أن يطلق عليهم «آباء إسرائيل». وقد عقد الرب معهم عهدًا كما عقد مع الآباء الثلاثة، ويدين ذريتهم بحياتهم لهذا العهد.

بل إن أسماء الأسباط نفسها تشير إلى خلاص إسرائيل. فقد سُمِّىَ رأوبين كذلك لأن الرب «يرى» ما يعانيه شعبه من أذى؛ وسمى شمعون كذلك لأن الرب «يسمع» آلام شعبه؛ كما سمى لاوى باسمه لأن الرب «يتحد» مع شعبه عندما يعانى إسرائيل؛ وسمى يهوذا باسمه لأن إسرائيل سوف «يشكر» الرب على تخليصه لهم؛ أما يساكر فسمى كذلك لأن إسرائيل سوف «يكافأ» على ما لاقاه من أذى ويعوض عنه؛ وسمى زبولون كذلك لأن الرب سيتخذ له «مثوى» بين إسرائيل؛ أما اسم بنيامين فمشتق من قسم الرب «بيده اليمنى» على تخليص شعبه؛ أما دان فسمى كذلك لأن الرب سوف «يدين» الأمم التى تذل إسرائيل؛ وسمى نفتالى باسمه لأن الرب سوف يمنح إسرائيل التوراة التى تسَّاقط حلاوة مثل حلاوة «كوز العسل»؛ وسمى جاد باسمه لأن الرب «جاد»

على إسرائيل بالمن الذى هو بذور «الكُزْبَرة»؛ وسمى آشر باسمه لأن جميع الأمم ستصف إسرائيل بأنه «سعيد»؛ كما سمى يوسف باسمه لأن الرب سوف «يضيف» خلاصًا ثانيًا لإسرائيل بجانب الخلاص الأول، وهو الخلاص من المملكة الشريرة فى نهاية الزمان كما نجاهم من مصر فى الأيام الأولى.

ليس فقط أسماء أبناء يعقوب هى المهمة، وإنما أسماء أبنائهم كذلك. وهكذا فقد كانت أسماء أبناء يساكر تعبر عما كانت تقوم به قبيلته التى كانت مشهورة بالعلم الذى يفوق جميع القبائل الأخرى. وكان أكبرهم يدعى تولا، أى «الدودة»: وكما تتميز دودة الحرير بفمها التى تخزل به خيوط الحرير، فكذلك يتميز رجال سبط يساكر بالكلام الحكيم الذى يخرج من أفواههم. وكان ثانيهم يدعى «بوعة» أى الفُوَّة *»، لأن هذا النبات يلون جميع الأشياء، وكذلك تلون قبيلة يساكر العالم كله بتعاليمها. وكان الثالث يدعى «يعشوب» أى «العائد»، لأنه من خلال تعاليم يساكر سيعود إسرائيل إلى «أبيه السماوى»؛ بينما كان الرابع يسمى «شمرون» أى «المراعى» لأن قبيلة يساكر تراعى التوراة.

كذلك كانت أسماء أبناء جاد تفسر تاريخ قبيلته. إذ خلال إقامة إسرائيل فى مصر انحرف الشعب عن طريق الهدى، لكن عندما ظهر فيه هارون نبيًا ومراقبًا ودعا الإسرائيليين لنبذ قذى أعينهم والتخلى عن أصنام مصر، سمعوا كلامه. ومن هنا تسمى أحد أبناء جاد باسمى أوزنى وإزبون، لأن قبيلته «أصخت» لكلام الرب وأنفذت «مشيئته».

كما كان حفيدا أشر يدعيان «حيبر» و «ملكيل»، لأنهما كانا «جليسين» للملوك كما أنه نشأت من ذريتها «أسر ملكية».

ومن الممكن قراءة شىء من تاريخ سبط بنيامين من خلال أسماء زعمائه. وكانت هذه القبيلة تتكون فى الأصل من عشرة بطون، انحدرت من أبناء بنيامين العشرة، لكن هلك منها خمسة فى مصر بسبب سلوكهم طريق

(*) نبات يستخرج منه صبغ أخمر اللون. (المترجم).

الغواية التى لم يفلح أى نصح فى ردهم عنها. ومن البطون الخمسة المتبقية كان بطنان منها أتقياء دائمًا ـ وهم ذرية بيلع وذرية أشبيل؛ أما البطون الأخرى، وهم الأحيراميين والشيفوفاميين والهوفاميين، فقد تابوا عن خطاياهم وبالتالى تغيرت أسماؤهم مع تغير أفعالهم. فقد أصبح بطن «إيجى» أحيرام، لأن مفارقته لطريق «العلىّ» قد تم معالجتها؛ وتم تسمية بطن «مُبِّيران» باسم شيفوفام، لأنهم «آذوا» أنفسهم فى توبتهم؛ كما تحول بطن «حُبيِّم» إلى هوفام، ليدل ذلك على أنهم قد «طهروا» أنفسهم من الخطيئة. وكمثوبة لها على أنهم رجال يعرفون جيدًا كيف يمكن إظهار تقوى الرب الذى أفعاله ودودة للغاية.

كذلك كانت قبيلة نفتالى من القبائل ذات التقوى الثابتة التى لا تتزعزع؛ وكانت أسماء أبنائه تدل على ذلك، فأحدهما، وهو «يخزيل» قد أقام «سدّا فاصلاً» بين الرب وبين الأصنام، بقدر ما كانوا يثقون فى الرب و يمقتون الأصنام؛ وسمى الآخر «جونى» لأن الرب كان هو «حمايتهم»، وسمى الثالث «يزير» والرابع «شيلِّيم» ليدل أسماهما على أن النفتاليين هم رجال مخلصون للرب من كل قلوبهم.

عهد رأوبين

بعد موت يوسف بعامين سقط رأوبين مريضًا، ولما أحس بدنو أجله دعا إليه بنيه وأحفاده وإخوته لكى يوصيهم بوصيته الأخيرة من خلال تجاربه فى الحياة. وكلمهم قائلاً: «اسمعوا يا إخوتى، وأنتم يا أبنائى اسمعوا لرأوبين أبيكم فيما سأوصيكم به. وأستحلفكم اليوم برب السماوات ألا تسيروا فى طريق غواية الشباب التى أدمنتها فى شبابى، والتى بها دنست فراش أبى يعقوب. لأننى سأخبركم الآن أن الرب قد ابتلى فرجى طوال سبعة أشهر ببلوى مرعبة، ولولا شفاعة أبى يعقوب لى لكان الرب قد أهلكنى. لقد كنت فى الحادية والعشرين من عمرى عندما ارتكبت ما هو عند الرب شر محض، وظللت طوال سبعة أشهر صريع مرض كاد يودى بحياتى. ثم تبت من أعمق أعماق فؤادى طوال سبع سنوات، فلم أشرب الخمر ولا أيا من المشروبات القوية ولم تذق شفتاى لحم حيوان ولم أذق طعم طيب، لأننى كنت نادمًا حينها على خطاياى وكم كانت عظيمة».

وأوصى المجتمعين من حوله بألا يقربوا الأرواح السبعة المغوية، ألا وهى أرواح الزنا والشره واللَدَدَ وإعجاب المرء بنفسه والغرور والزيف والظلم. كما حذرهم من الفحشاء على وجه الخصوص قائلاً: «لا تهتموا بنظرات المرأة ولا تخلوا بامرأة متزوجة ولا تشغلوا أنفسكم بأمور النساء. فلولا رأيت بلهة وهى تستحم فى مكان منعزل عن الناس، ما كنت وقعت فى الخطيئة الكبرى التى ارتكبتها، إذ بعد ما رأت عينى عرى المرأة لم أذق طعم النوم إلا بعد ما اقترفت فعلتى الشنعاء. لأنه عندما ذهب أبى يعقوب إلى أبيه إسحق، أيام

كنا نعيش فى «عِدَر»، التى لا تبعد كثيرًا عن «أفراتة»، والتى هى بيت لحم، كانت بلهة ثملانة من الخمر وكانت ترقد نائمة عارية فى مخدعها فدخلت عليها ورأيت جسدها العارى فارتكبت خطيئتى ثم خرجت وتركتها نائمة. لكن ملاكًا من ملائكة الرب كشف لأبى يعقوب عن فعلتى الفاجرة فى الحال. فعاد إلىّ وندبنى ولم يقرب بلهة مرة أخرى. وحتى آخر يوم فى حياته لم أكن أجرؤ على النظر فى وجه أبى أو البوح لإخوتى بفضيحتى، ولا زال ضميرى يعذبنى حتى الآن بسبب خطيئتى، ولكن أبى عزانى وهدَّأ روعى ببعض الكلمات ودعا لى الرب لكيلا يحل علىَّ غضبه كما أرانى».

وشدد رأوبين على بنيه بأن يلزموا جانب لاوى «لأنه سيعرف شريعة الرب»، هكذا قال لهم، «ولأنه سيحكم بين إسرائيل ويقدم عنهم جميعًا القرابين حتى انقضاء الزمان، باعتباره الكاهن الأعلى المعين الذى تكلم الرب عنه».

وبعد ما أوصى رأوبين بنيه بوصيته الأخيرة فارق هذه الحياة وهو فى الخامسة والعشرين بعد المائة من عمره. وتم وضع جثمانه فى تابوت إلى أن حمله أبناؤه وأخرجوه من مصر ونقلوه إلى حبرون (= مدينة الخليل) حيث دفنوه فى الكهف المزدوج.

شمعون يوصى باجتناب الحسد

كما اعترف رأوبين بخطيئته وهو على فراش الموت وحذر أبناءه وأهله من الوقوع فى خطيئة ارتكاب الفاحشة، تلك الرذيلة التى أودت به، كذلك فإن شمعون عندما أحس باقتراب أجله جمع أبناءه حوله واعترف بخطيئته التى ارتكبها. فقد كان مذنبًا بحسد يوسف حسدًا لا حدود له، وقال لهم: «لقد كنت ثانى ولد ينجبه أبى يعقوب وسمتنى أمى ليئة شمعون لأن الرب سمع دعائها. وكبرت وصرتُ قويا ولم أجفل من شىء ولم أخش شيئًا، فقد كان قلبى صلبًا، ولم يكن كبدى يعرف الاستسلام، ولم تعرف الرحمة إلى قلبى سبيلا. وكنت فى أيام شبابى أحسد يوسف لأن أبى كان يحبه أكثر منا جميعًا، وعزمت على قتله. لأن أمير الغواية أرسل روح الغيرة لتستحوذ علىَّ، فأعمت عينىَّ فلم أراعِ أن يوسف هو أخى، بل لم يسلم من حسدى حتى أبى يعقوب نفسه. لكن ربه ورب آبائه أرسل ملاكه وأنقذه من بين يدى.

عندما ذهبت إلى شكيم لكى أجلب المرهم لقطعاننا، بينما كان رأوبين فى دوثان حيث كنا نحتفظ بجميع مؤننا ومخزوننا، باع أخى يهوذا يوسف إلى الإشماعيليين. ولما عاد رأوبين وسمع ما حدث بلغ به الحزن كل مبلغ، لأنه كان يريد إنقاذ يوسف وإعادته إلى أبينا. لكن غضبى اشتد على يهوذا لأنه ترك يوسف يفر بحياته. وظللت غاضبًا محنقًا طوال خمسة أشهر. لكن الرب منعنى من استخدام قوة يدى، إذ أن يدى اليمنى ظلت مشلولة طوال سبعة أيام. ثم أدركت أن ما حدث لى إنما حدث كرامة ليوسف. وعند ذلك تبت إلى الرب ودعوته لكى يرد على يدى ويعصمنى فى حينها من ارتكاب كل دنس أو حسد أو حماقة. والتزمت بالصيام وبمخافة الرب طوال عامين، لأننى أدركت أن الخلاص من الحسد لن يتأتى إلا من خلال مخافة الرب.

عندما رأى أبى سوء حالى سألنى عن سبب ما أنا فيه من حزن وغم، فأجبته بأن كبدى مريض، لكن فى الحقيقة كنت أشعر بالندم أكثر من إخوتى جميعًا لأننى كنت أنا السبب فى بيع يوسف. ثم عندما هبطنا إلى مصر وقيدنى يوسف متهمًا إياى بالتجسس، كنت أعلم فى أعماقى أن ما يحدث لى إنما هو الجزاء لما اقترفته. لكن يوسف كان خيرًا وكانت روح الرب تقيم معه. ومن رحمته ورأفته لم يحمل تجاهى أية ضغينة لما فعلته به من قبل، وكان يحبنى بمقدار ما كان يحب إخوتى الآخرين. وكان يتحرمنا جميعًا وأعطانا الذهب والماشية والغلال. والآن يا أبنائى الأعزاء، أحبوا بعضكم بعضًا بقلب طاهر نظيف وانزعوا روح الغيرة من بينكم».

ومثلما فعل رأوبين من قبله، حذر شمعون بنيه من الوقوع فى خطيئة الزنا لأنها أم كل رذيلة. فهى تفرق بين الإنسان وربه، وتسلمه إلى بيخار. ثم اختتم كلامه لهم قائلاً: «لقد رأيت فى كتابات أخنوخ أن أبناءكم سيفسدون من خلال الفاحشة وأنهم سوف يسيئون معاملة أبناء لاوى ويعملون فيهم السيوف. لكنهم لن يستطيعوا قهرهم لأن الحرب التى يشنها لاوى هى حرب الرب الذى سيقضى على جميع جيوشكم. ولن تبقى منكم إلا بقية صغيرة تتبعثر بين لاوى ويهوذا، ولن يرتقى منكم أحد إلى مرتبة القضاة أو الملوك الذين يحكمون شعبنا، كما تنبأ أبونا يعقوب من قبل».

بعد ما انتهى شمعون من وصيته لأبنائه فارق الحياة ولحق بآبائه عن مئة وعشرين عامًا من العمر. وضعه أبناؤه فى تابوت مصنوع من خشب لا يفنى، لكى يحملوا عظامه فيما بعد إلى حبرون، كما فعلوا خفية أثناء الحرب بين المصريين والكنعانيين. وهكذا كانت تفعل جميع القبائل أثناء الحروب، إذ كانت كل قبيلة تنقل رفات مؤسسها من مصر إلى حبرون. فقط عظام يوسف هى التى بقيت فى مصر إلى أن غادر الإسرائيليون تلك البلاد، لأن المصريين كانوا يحرسون رفاته فى غرف كنوزهم. وكان سحرتهم قد حذروهم من أن عظام يوسف إذا انتقلت فى أى وقت من مصر، فسوف تخيم على البلاد ظلمة عظيمة، وسيكون ذلك كارثة جليلة تحل بالمصريين، لأنه لن يستطيع أحدهم من التعرف على جاره حتى فى ضوء المصابيح.

صعود لاوى إلى السماء

عند ما أوحى إلى لاوى أن أجله قد اقترب، جمع جميع أبنائه حوله لكى يقص عليهم قصة حياته ولكى يتنبأ لهم كذلك بما سيفعلونه وما سيحدث لهم إلى يوم القيامة. وقال لهم: «عندما كنا نرعى قطعاننا فى أبى - الميهولاه، حلت علىّ روح الفهم من قبل الرب، ورأيت البشرية جميعًا، ورأيت فساد سبلهم، وكيف أن الظلم يحيط نفسه بالأسوار، وكيف يجلس الكفر على عروش الملك فى البروج المشيدة. وعند ذلك أصابنى الحزن كمدًا على حال البشر ودعوت الرب لينجينى من كل ذلك. لفنى النوم ورأيت جبلاً عاليًا، وها هى السماء أبوابها قد فتحت ثم رأيت ملاكاً من قبل الرب كلّمنى قائلا: «ادخل يا لاوى». فدخلت السماء الأولى ورأيت بحراً عظيماً معلقاً هناك، ثم رأيت فيما وراءه سماء ثانيةً أكثر إشراقاً وبهاء من السماء الأولى، فسألت الملاك: «لماذا هذا؟» فقال لى: «لا تعجبن من ذلك لأنك سترى سماء أخرى يستعصى إشراقها على المقارنة، وعندما تصعد إليها، ستقف بالقرب من الرب، وستكون وزيره وستتولى أمر البوح بأسراره إلى البشر؛ وستكون حياتك من نصيب الرب وسيكون هو حقلك وكرمتك وفواكهك وذهبك وفضتك».

«ثم شرح لى الملاك فائدة كل سماء وفيما تستخدم، وجميع ما يحدث فيها وأباح لى بيوم القيامة. ثم فتح أبواب السماء الثالثة حيث رأيت الهيكل المقدس ورأيت الرب جالسًا على عرش المجد. وكلمنى الرب قائلاً: «يا لاوى لقد أفأت عليك بنعمة الكهانة حتى آتى وأقيم بين إسرائيل». «ثم حملنى الملاك وأعادنى إلى الأرض وأعطانى ترسًا وسيفًا قائلاً: «انتقم من شكيم

لدينة وسأكون معك لأن الرب أرسلنى» وسألت الملاك عن اسمه فقال: «أنا الملاك الذى يتشفع لشعب إسرائيل لكيلا يهلك ويصبح أثرًا بعد عين، لأن كل روح شريرة تهاجمه».

«عندما استيقظت من نومى؛ ذهبت إلى أبى وفى الطريق قرب جيبل وجدت ترسًا من النحاس الأصفر كالذى رأيته فى منامى. ثم نصحت أبى وأخى رأوبين بأن يأمرا أبناء حمور بالاختتان، إذ كنت أفور غضبًا من الفعلة الشنعاء التى ارتكبوها. ساء أبى ذلك وتذكره عندما باركنا. وعلى الرغم من أننا قد أسأنا بفعلنا ذلك على غير رغبة منه، فإننى كنت أرى فى ذلك حكم الرب على شعب شكيم جزاء وفاقا على خطاياهم، وقلت لأبى: «لا تغضب يا مولاى لأن الرب سيفنى الكنعانيين من خلال ذلك، ولسوف يمنحك هذه الأرض لك ولذريتك من بعدك. ومن يومها ستدعى شكيم مدينة الحمقى، إذ سخرنا منهم كما يسخر الناس من الحمقى».

«عندما رحلنا إلى بيت لحم وأقمنا بها لسبعة أيام، رأيت رؤيا أخرى كالأولى. رأيت سبعة رجال فى ثياب بيض وقالوا لى: «انهض وارتدِ ثياب الكهنوت وضع على رأسك تاج الاستقامة وارتد عباءة الفهم وعباءة الحقيقة وصدرية الإيمان و تاج الكبرياء وكشافة النبوءة». ثم أحضر كل منهم ثوبًا وألبسنى إياه قائلاً: «من اليوم أنت كاهن الرب، أنت وجميع ذريتك إلى الأبد. ولسوف تأكلون كل طيب المنظر، ولسوف تأكل ذريتك على مائدة الرب كيفما شاءوا، ولسوف يكون منهم الكهان الكبار والقضاة والعلماء، لأنه سيخرج من أفواههم كل ما هو مقدس وطاهر».

«بعد هذه الرؤيا بيومين، ذهبت أنا ويهوذا إلى جدنا إسحق الذى باركنى لأجل الكلام الذى سمعته فى منامى. كما رأى يعقوب هو الآخر رؤيا رآنى فيها أُعيَّن كاهنا للرب وأخرج من خلالى عشر ما يملك صدقة للرب. وعندما استقر بنا المقام فى حبرون حيث يقيم جدنا إسحق، علمنى جدى شريعة الكهانة وأوصانى باجتناب الفاحشة.

وعندما بلغت الثامنة والعشرين اتخذت «ملكة» زوجة لى فولدت لى ولدًا أسميته جيرشوم، لأننا كنا غرباء فى تلك البلاد. لكننى لاحظت أنه لن يكون بين أكابر الرجال. ثم أنجبت ابنى الثانى وأنا فى الخامسة والثلاثين من عمرى، وخرج إلى الدنيا عند شروق الشمس، ورأيته فى رؤيا يقف بين أكابر المجمع، ولهذا فقد سميته «قهات». وولدت زوجتى ابنى الرابع[1] فى السنة الأربعين من عمرى، وسميته ميرارى، لأنها ذاقت المر فى حمله. ثم ولدت ابنتى «يوكابد» فى مصر وأنا فى الثالثة والستين من عمرى، وأطلقت عليها هذا الاسم لأننى كنت أحظى بمنزلة رفيعة بين إخوتى فى تلك الأيام. وفى الرابعة والتسعين من عمرى تزوج «عمرام» من «يوكابد»، وكان قد ولد معها فى نفس اليوم».

بعد ذلك أوصى لاوى بنيه بأن يسيروا فى سبيل الرب وأن يخشوه من أعماق قلوبهم، كما أخبرهم بما تعلمه من كتابات أخنوخ أن ذريته ستعصى الرب فى قادم الأيام، وأنهم سوف تحل عليهم عقوبة الرب جزاء لهم على تجاوزهم، وأن الرب سيقيم لهم كاهنًا جديدًا سيوحى إليه كل كلام الرب. وكانت آخر كلماته لهم أن قال: «والآن يا أبنائى لقد سمعتم كل ما كنت أود قوله. فالآن اختاروا بين النور والظلام، وبين شريعة الرب وبين أعمال بيخار». فأجابه أبناؤه قائلين: «نُشهد الرب أننا سنسير بحسب شريعته». ثم قال لهم لاوى: «الرب يشهد علينا والملائكة يشهدون وأنا على ذلك شهيد وأنتم كذلك على ما نطقتم شهود». فأجابه أبناؤه: «أجل نحن نشهد».

وهكذا انتهى لاوى من توصية أبنائه ومد قدميه ثم لحق بآبائه عن عمر بلغ مئة وسبع وثلاثين سنة، فمات بعد أن عمَّر أطول مما عمر إخوته جميعًا.

---

(١) لم يذكر الابن الثالث.

يهوذا يحذر أبناءه من الجشع والفاحشة

كان آخر كلمات يهوذا لأبنائه أن قال لهم: «لقد كنت رابع ولد ينجبه أبى، وسمتنى أمى يهوذا قائلة «أحمد الرب على أنه وهبنى ابنا رابعًا». وقد كنت بالغ الحماسة فى شبابى وكنت مطيعًا لأبى فى كل شىء. وعندما بلغت مبلغ الرجال باركنى قائلاً «لتكونن ملكًا ولتنعمن فى حياتك من كل سبيل». وكان الرب يبارك لى فى كل ما أقوم به، سواء فى الحقل أم فى البيت. وكنت أعدو بسرعة كالوعلة، بل وأسبقها، وأعد منها طبقًا يتعشى به أبى. وكنت أستطيع ملاحقة غزال يجرى والإمساك به، وكذلك كل الحيوانات البرية. وكنت أستطيع اللحاق بمهرة برية والإمساك بها ووضع اللجام حول عنقها. ولقد قتلت ذات مرة أسدًا وخلصت طفلاً من بين براثنه. وقد أمسكت مرة دبا من مخلبه وطوحته فألقيت به من على الجبل فسقط صريعًا محطم العظام. وكنت أستطيع ملاحقة الخنزير البرى واللحاق به والإمساك به وتمزيقه إربًا. وقد هجم فهد ذات مرة على كلبى فى حبرون فأمسكته من قرنيه وأخذت أطوحه حتى داخ فألقيته أرضًا وقتلته».

وواصل يهوذا كلامه وحكى لأبنائه عن بطولاته فى الحروب التى شنها بنو يعقوب ضد ملوك كنعان وضد عيسو وعائلته. وكان له دور بارز فى هذه المعارك كلها، ويفوق ما قام به كل ما قام به الآخرون الذين لا يستطيعون بلوغ ما بلغ. وكان أبوه يعقوب لا يقلق على إخوته طالما يهوذا معهم فى الحرب، لأنه كان قد رأى فى منامه ملاكًا من ملائكة القوة يقف فى صف يهوذا فى كل ما يقوم به.

لكن يهوذا لم يخف عيوبه عن أولاده. فقد اعترف لهم كيف أن الخمر والشهوة قد غلبتاه وأغريتاه بالزواج من امرأة كنعانية، ثم أغويتاه بعد ذلك بإقامة علاقة غير شرعية مع ربيبته ثامار. وقال لأولاده:

«لا تتبعوا شهوات قلوبكم، ولا تتباهوا بمغامرات شبابكم. فذلك أيضًا شر فى عينى الرب. إذ بينما كنت أفاخر بأننى لم أغترَّ بوجه امرأة جميلة أبدًا فى الحروب، واحتقرت أخى رأوبين على تعديه على بلهة، تملكتنى روح العاطفة والفاحشة واتخذت «بنت شوع» زوجة لى، واعتديت على ثامار، بالرغم من أنها كانت خطيبة ابنى. وفى البداية قلت لأبى «بنت شوع» «سأستشير أبى يعقوب لأعرف إن كان لى أن أتزوج ابنتك»، لكنه كان ملكًا وأرانى كومة غير معقولة من الذهب كان قد ادخرها لابنته، وزينها بأجمل ما تتزين به النساء، من الذهب واللآلئ، وأمرها بأن تصب لنا الخمر أثناء تناولنا الطعام. وأزاغت الخمر عينىَّ، وأظلمت العاطفة قلبى. ومن جنونى فى حبها خالفت أوامر الرب ووصية أبى واتخذتها زوجة لى. وقد جازانى الرب على ما اقترفه قلبى جزاء وفاقًا، فلم أحسَّ بأى فرح بإنجابى أولادى.

«والآن يا أبنائى أرجوكم لا تدعوا الخمر تسمم أبدانكم، لأنها تزيغ العقل وتجعله ينحرف عن سبيل الحقيقة وتزيغ الأبصار. لقد أضلتنى الخمر، فلم أشعر بالخزى من نظرات اللوم فى أعين أهل المدينة، وانحرفت عن طريق الهداية وذهبت إلى ثامار فى وجودهم وارتكبت خطيئة كبرى. وحتى لو كان المرء ملكًا من الملوك فسار فى طريق الفاحشة فإنه يفقد ملكه. أعطيت ثامار هراوتى التى هى مقام قبيلتى، كما أعطيتها حزامى الذى هو قوتى، وختم ملكى الذى هو مجد مملكتى. وقد تبت عن كل ذلك ولم أشرب خمرًا فى شيخوختى ولم آكل لحمًا ولم أعرف للسعادة طعمًا. والخمر تجعل الرجل يكشف عن أسرار الرب وأسراره أمام الغرباء. وهكذا أفشيت أوامر الرب وأسرار أبى يعقوب إلى المرأة الكنعانية «بنت شوع»، بالرغم من أن الرب قد حرَّم علىَّ ذلك. كما أوصيكم يا بنىَّ بألا تحبوا الذهب، وألا تنظروا

إلى جمال النساء، إذ أضلتنى «بنت شوع»، الكنعانية من خلال الذهب والجمال. أعلم أن ذريتى سوف يحل بها البؤس من خلال هذين (= الجمال والمال)، لأنه حتى الحكماء من أبنائى سوف يغيرهما هذان الشيئان، وستكون عاقبة ذلك أن مملكة يهوذا سوف تختفى، وكذا سينقص ملكى الذى منحنى الرب إياه بسبب طاعتى لأبى، إذ لم أعارضه فى شىء أبدًا وإنما كنت أنفذ جميع ما يأمرنى به. كما أن إسحق أبا أبى كان قد باركنى بأن دعا لى بأن أكون ملكًا فى إسرائيل، وأعلم أن المملكة سوف تنشأ منِّى. وقد قرأت فى كتب أخنوخ جميع ما تقومون به من شر فى الأيام الأخيرة. فقط عليكم يا بنىَّ أن تحذروا الفاحشة والجشع، لأن حب الذهب يقود إلى عبادة الأصنام، ويجعل الرجال يتخذون آلهة زائفة ليست بآلهة، ويخلع عقل الإنسان عن عرشه. وبسبب الذهب فقدت أطفالى، ولولا أننى قد عذبت بدنى وحقَّرت روحى، ولولا دعاء أبى يعقوب لى، لكنت مت بلا ذرية. لكن رب آبائى الرحيم والمتفضل على خلقه رأى أننى قد شططت لأن حاكم الغواية قد أعمى بصيرتى وأننى كنت جاهلاً بما أفعل، لأننى من لحم ودم، وأنى قد أفسدتنى الخطايا، وفى اللحظة التى ظننت فيها أننى لا أقهر عرفت مكمن ضعفى».

ثم بكلمات واضحة موجزة باح يهوذا لأبنائه بكل تاريخ إسرائيل حتى ظهور المسيا وكانت آخر كلماته أن قال: «راعوا شرائع الرب كلها يا أبنائى، ففيها أمل كل من يحفظ كلماته. وها أنا اليوم أموت أمام أعينكم عن مئة وتسعة عشر عامًا، فلا تدفنونى فى ثياب غالية ولا تقطعوا بدنى لكى تحنطوه ولكن احملونى إلى حبرون».

وبعد ما انتهى من تلك الكلمات أسلم الروح.

تفرد قلب يساكر

عندما أحس يساكر بدنو أجله، استدعى بنيه وقال لهم: «اسمعوا يا أبنائى لأبيكم يساكر، وأنصتوا إلى كلام من يحبه الرب. لقد كنت خامس ابن يولد ليعقوب، مكافأة له على اللُفَّاح. وأحضر رأوبين اللُفَّاح من الحقل، وكانت تفاحات عطرة كانت تنمو فى أرض حاران فوق ربوة تحت أخدود. وقابلت راحيل رأوبين وأخذت اللُفَّاح منه فبكى الغلام فهرولت إليه أمه ليئة وقالت لراحيل: «أما كفاك أن أخذت زوجى منى؟ والآن تأخذين لُفَّاح ابنى كذلك؟» فردت راحيل قائلة: «انظرى.. ليكن يعقوب لك الليلة مقابل لُفَّاح ابنك». لكن ليئة أصرت وأجابتها: «يعقوب لى وأنا زوجة شبابه» فردت راحيل: «لا تتفاخرى ولا تنتفخى غرورا. لقد خطبنى أنا أولاً، وخدم أبى لأربعة عشر عامًا كرامة لى. وأنت لست زوجته ولكنهم أخذوك إليه بالخديعة والمكر بدلاً منى، لأن أبانا خدعنى وأبعدنى ليلة زفافك. ومع ذلك أعطنى اللُفَّاح وليكن يعقوب لك الليلة».

«ثم ولدتنى ليئة وأسمتنى يساكر، بسبب المكافأة التى منحتها راحيل لأمى. وفى ذلك الوقت ظهر ملاك من قبل الرب ليعقوب وكلمه قائلاً: «لن تلد راحيل إلا ولدين، لأنها رفضت زواج زوجها واختارت العِفَّة! لكن ليئة ولدت ستة أبناء لأنها أرادت أن تكون مع زوجها، وليس لأنها كانت مدفوعة بنوازع الشر، ولكن من أجل الأطفال. كذلك أجيبت دعوات راحيل بسبب اللُفَّاح، لأنها وإن كانت ترغب فى أكل التفاح، فلم تلمسه ولكنها وضعته فى بيت الرب وأعطته لكاهن العلىّ الذى كان فى تلك الأيام».

«عندما كبرت ونما عودى يا أولادى سلكت طريق الاستقامة وأصبحت فلاحًا أزرع الأرض لأبى ولإخوتى وكنت أجمع الثمار من الحقول فى أوان جمعها. وباركنى أبى لأنه رأى نقاء سريرتى. ولم أتزوج حتى بلغت الثلاثين من العمر، لأن العمل الشاق الذى كنت أقوم به كان يستنفد طاقتى، ولم أكن أجد فى نفسى حينها رغبة فى النساء، وإنما كنت آوى إلى فراشى آخر النهار مجهدًا من العمل فأروح فى سبات عميق. وكان أبى مسرورًا فى كل حين باستقامتى. فعندما يكلل عملى بالثمار الجيدة كنت أجلب أول ثمار عملى إلى كاهن الرب، ثم أذهب بالجمعة الثانية لأبى، ثم أفكر فى نفسى فى آخر المطاف. وضاعف الرب ما كانت تملكه يداى وكان يعقوب يعلم أن الرب يعيننى لطهارة قلبى، لأننى كنت من إخلاصى أعطى غلة الأرض للفقراء والمساكين.

«والآن أصغوا إلىّ يا أبنائى، وعيشوا بقلوب نقية لأن الرب يباركها دائمًا. فالرجل البسيط لا تتوق نفسه إلى الذهب، ولا يحتال على جاره، ولا تشتاق نفسه للحوم وأطايب الطعام أيّاً كان نوعها، ولا يبالى بالثياب المبهرجة، ولا يتمنى طول العمر، وإنما ينتظر قانعًا مشيئة الرب. وما لروح الخداع عليه من سلطان، لأنه لا ينظر إلى مفاتن النساء، لكيلا تزيغ الشهوة بصيرته. ولا ترد الغيرة على خواطره، ولا يدنس الحسد روحه، ولا يدفعه الجشع إلى التطلع لما فى يد الغير. إذًا فعليكم يا بنىَّ الالتزام بشريعة الرب، والاعتصام بالبساطة، وتنقية قلوبكم من كل شائبة قد تشوبها، ولا تشغلوا أنفسكم بأمور الآخرين. أحبوا الرب وأحبوا جيرانكم، كونوا رحماء بالفقراء والضعفاء، أحنوا ظهورهم لفلاحة الأرض، واشغلوا أنفسكم بالعمل فى الأرض، وأخرجوا الصدقات للرب شكرًا له على نعمه. لأن الرب قد باركهم وأنعم عليكم بأفضل ثمار الحقول، كما أنعم من قبل على جميع الصديقين من لدن آدم إلى أيامنا هذه.

«اعلموا يا أبنائى أن بنيكم فى الأيام الأخيرة سوف ينحرفون عن طريق

الاستقامة ويسيرون فى طريق الجشع. وليهجرونَّ طريق الاستقامة ويسلكون سبل الخداع، وسوف يهجرون أوامر الرب ويتبعون بيليار، وسوف يهجرون فلاحة الأرض ويتبعون سبل النهب والغواية، وسوف يتشتتون بين الوثنيين ويكونون عبيدًا لأعدائهم. قولوا ذلك لأولادكم، لعلهم إن أخطأوا سارعوا بالتوبة والعودة إلى طريق الرب، لأنه غفور رحيم، ولسوف يخرجهم من يد أعدائهم ويعيدهم إلى أرضهم».

«لقد بلغت المئة والثانية والعشرين من العمر ولا أرى فى نفسى أثرًا للخطيئة. فلم أعرف غير زوجتى امرأة أخرى. ولم تزن عيناى بالنظر إلى إمرأة لا تحل لى. لم أشرب الخمر لكيلا أضل عن الصراط السوى. لم أشته يومًا ما يملكه جارى، وما عرف المكر والزيف إلى قلبى سبيلا، وما نطقت شفتاى يومًا بالكذب. كنت أحزن مع المحزونين، وكنت أطعم المسكين. أحببت الرب بكل قوتى، كما أحببت كل البشرية. عليكم بفعل ذلك أنتم أيضًا يا أبنائى ولسوف تهرب منكم روح بيليار، ولن يكون لشرير عليكم من سلطان، وستقهرون حتى وحوش البرية، لأن رب السموات سيكون معكم».

وأمر يساكر بنيه بأن يحملوه إلى حبرون فيدفنوه هناك إلى جوار آبائه فى كهف المكفيلة، ثم مد قدميه ونام نومته الأبدية، بعد أن بلغ من العمر أرذله سليم البدن ولم يفقد شيئًا من حواسه ولا قوته.

زبولون يوصى بالرأفة

عندما بلغ زبولون من العمر مئة وأربعة عشر عامًا، أى بعد عامين من موت يوسف، دعى إليه بنيه وأوصاهم بالتقوى قائلاً: «أنا زبولون هدية نفيسة من والدى، لأننى عندما ولدت أصبح أبى ثريا جدا عن طريق العيدان المقلمة، بقطعان من الغنم وقطعان من الماشية. لا أعلم أننى قد ارتكبت أية خطيئة، ولا أذكر أننى قد أخطأت فى حق أحد كان، عدا خطيئتى الحمقاء فى حق يوسف عندما لم أخبر أبى بما فعله إخوتى فى ابنه المقرب إليه، احترامًا لإخوتى، وإن كنت قد ندمت على ذلك فى سرى أشد الندم. وكنت أخاف على نفسى من إخوتى لأنهم كانوا قد اتفقوا على قتل كل من يفشى سرهم. وعندما خططوا لقتل يوسف ناشدتهم باكيًا ألا يفعلوا ذلك.

«والآن يا أبنائى أنصتوا إلىَّ.. أوصيكم بمراعاة أوامر الرب، وكونوا رحماء بجيرانكم، وتحلوا بالرأفة ليس فقط مع البشر ولكن مع البهائم البكم كذلك. لأن الرب باركنى بسبب رأفتى، إذ سقط جميع إخوتى مرضى ذات حين أو آخر. إلا أنا فقد بقيت سليمًا معافى. كذلك عانى أبناء إخوتى من المرض وكادوا يهلكون جميعًا بسبب ما فعلوه فى يوسف، لأن قلوبهم كانت خالية من الشفقة. لكن بقى أبنائى سليمين معافين كما لابد تعلمون. وعندما كنت فى كنعان أصطاد السمك على شواطئ البحر من أجل أبى يعقوب، غرق الكثيرون فى البحر ونجوت أنا. فلابد أنكم تعلمون أننى كنت أنا أول من بنى القوارب للخوض بها فى البحار، وكنت أجوب البحر بها بمحاذاة الساحل، وكنت أصطاد السمك لبيت أبى وإلى وقت نزولنا إلى مصر. وكنت

من شفقتى أشرك الغريب فى غَلَّتى، فإن كان هذا الغريب مريضًا أو شيخًا كبيرًا تقدمت به السنون، كنت أعد له طبقًا شهيا وأناوله ليأكل حتى يشبع، رفيقًا بحاله ومتعاطفًا معه فى محنته ومشفقًا عليه. ولهذا كان الرب يجلب الكثير من السمك إلى شبكتى، لأن من يتصدق على جاره بشىء يرده الرب إليه أضعافًا مضاعفة. وظللت لخمسة أعوام اصطاد السمك فى الصيف وأرعى قطعان أبى مع إخوتى فى الشتاء.

«لهذا أوصيكم يا أبنائى أن ترحموا البشر جميعهم، فعلى قدر رحمتكم بالناس تكون رحمة الرب بكم. وعندما هبطنا إلى مصر لم يردَّ يوسف على سيئتنا بالسيئة. اقتدوا به ولا تردوا السيئة بالسيئة واعفوا واصفحوا، وإلا تقطعت الأرحام وتشتت الشمل ويئست الروح. انظروا إلى الماء! إذا جرى دون تفرق فإنه يحمل معه الحجر والخشب والرمل..! لكن إن تفرق فى عدة قنوات فإن الأرض تمتصه ويفقد قوته. وهكذا أنتم.. إن تباعدتم وتفرق شملكم فستكونون كالماء الموزع بين القنوات. لا تنقسموا على أنفسكم وتصبح لكم رأسان، فكل شىء خلقه الرب ليس له إلا رأس واحد. وقد خلق له كتفين ويدين وقدمين، لكن كل هذه الأعضاء تطيع رأسًا واحداً فقط».

وأنهى زبولون وصيته بالوحدة وعدم التشرذم بذكر الفرق التى ستكون فى إسرائيل، والتى كان قد قرأ عنها فى كتابات آبائه بما سيكونون عليه فى قادم الزمان، وبما سيسببه ذلك لإسرائيل من متاعب ومعاناة. ومع ذلك فقد شجع أبناءه قائلاً: «لا يحزننكم موتى ولا يفجعنكم فراقى لكم، لأننى سأنهض مرة أخرى بينكم ولسوف أعيش فى حبور بين أفراد قبيلتى أولئك الذين يستمسكون بشريعة الرب. أما الكفار فلسوف يهلكهم الرب فى النار الأبدية وليفنينهم فى جميع الأجيال. الآن سأسرع بالرحيل من هنا إلى مستقرى الأبدى لأرتاح مع آبائى. لكن عليكم أنتم أن تتقوا الرب إلهكم فى كل وقت وحين».

وبعد ما انتهى من قول ذلك، نام نومة الموت فوضعه أبناؤه فى تابوت ليحملوه فيما بعد إلى حبرون حيث يدفنونه مع آبائه.

اعتــراف دان

عندما جمع دان عائلته فى يوم موته قال لهم: «ها أنا ذا أعترف أمامكم اليوم يا أبنائى بأننى كنت قد عزمت على قتل يوسف، ذلك الرجل الصالح المستقيم، وبأننى قد فرحت لبيعه عبدًا، لأن أباه كان يحبه بأكثر مما كان يحبنا جميعًا. وكانت روح الحسد والغرور تحرضنى وتقول لى: «أنت أيضًا ابن يعقوب»، كما أثارتنى روح من أرواح بيخار قائلة: «خذ هذا السيف واقتل يوسف لأنه إن مات فلسوف يحبك أبوك». وكانت روح الغضب هى التى تحاول دفعى إلى سحق يوسف، كما يسحق الفهد طفلاً بين أنيابه. لكن رب أبينا يعقوب لم يسلمه إلى يدىَّ، فلم أنفرد به وحدى أبدًا، ولم يدعنى الرب أنفذ فعلتى الشريرة، لكيلا تهلك قبيلتان من بنى إسرائيل.

«والآن يا أبنائى، ها أنا على شفير الموت، ولا أكذبكم حين أوصيكم بألا تجعلوا لروح الكذب والغضب عليكم سبيلا، ولا حين أقول لكم أنكم إن لم تحبوا الصدق والكرم فسوف تهلكون. إن روح الغضب تلقى بشباك الخطأ حول ضحيتها وتعمى عينيه، بينما تحجب روح الكذب عقله وتعمى بصيرته. والشر غضب وهو قبر الروح. إياكم والغضب وعليكم ببغض الكذب، لكى يقيم الرب بينكم ويفر بيخار إذا رآكم. ليصدق أحدكم مع جاره، وبذا لن تقعوا فرائس للغضب والقلاقل، ولكنكم ستنعمون بالسلام حينها وسيكون رب السلام معكم ولن تنشب بينكم حرب.

«إنما أقول لكم ذلك لأننى أعلم أنكم ستنحرفون عن طريق الرب فى آخر الزمان، وسوف تشعلون شرارة غضب لاوى، وتتمردون على يهوذا،

لكنكم لن تكسبوا حربًا ضد أى منهما، لأن ملاك الرب يهديهما وسوف يفنى إسرائيل من خلالهما. فإن أنتم تمردتم ضد الرب اقترفتم كل شر وسلكتم سبيل الوثنيين وزنيتم بنساء الكفار وغلبتكم أرواح الغواية. ولهذا فسوف تقعون فى الأسر، وفى أرض منفاكم ستعانون من كل بلايا مصر ومن كل أوبئة الوثنيين. لكن عندما تتوبون إلى الرب، ستجدونه غفورًا رحيمًا. وحينها سيعيدكم إلى قدسه وينعم عليكم بالسلام.

«لهذا يا أبنائى عليكم بمخافة الرب كونوا على حذر من الشيطان وأرواحه. اجتنبوا كل شر، ونحوا عنكم الغضب، وأحبوا الصدق والتسامح، وما سمعتموه من أبيكم قولوه لأبنائكم. اجتنبوا طريق الضلالة واستمسكوا بشريعة الرب وادفنونى بالقرب من آبائى».

وبعد ما انتهى دان من كلامه قبَّل أبناءه ونام نومته الأخيرة.

رؤيا نفتالى عن انقسام القبائل

فى السنة الثانية والعشرين بعد المئة من حياته، دعا نفتالى جميع أبنائه إلى وليمة. وحين استيقظ فى الصباح التالى، أخبرهم أنه كان يحتضر لكنهم لم يصدقوه. لكنه رغم ذلك حمد الرب وأثنى عليه وأخبرهم أنه كان من المقدر أن يموت بعد وليمة الأمس. ثم كلم أولاده بكلماته الأخيرة قائلاً:

«ولدتنى بلهة، ولأن راحيل خدعت يعقوب وأعطته بلهة بدلاً من نفسها، سميت نفتالى. وكانت راحيل تحبنى لأننى ولدت على ركبتيها، وكانت معتادة على تقبيلى بينما كنت لا أزال طفلاً صغيرًا وتقول لى: «يا ليتنى كان لى أخ لك خرج من بطنى ويكون شبيهًا بك». ولهذا فقد كان يوسف يشبهنى فى كل شىء، استجابة لراحيل. كانت أمى بلهة ابنة روثيوس، وكان أخا لدبورة قابلة راحيل، وكانت قد ولدت فى نفس اليوم الذى ولدت فيه راحيل. أما روثيوس فقد كان من آل إبراهيم، وكان رجلاً كلدانيا تقيا وحرا كريم الأصل، وعندما سقط فى الأسر اشتراه لابان وزوجه بأَمَته عينة فولدت له ابنة فسماها زلفة، على اسم القرية التى تم فيها أسره. وسمى ابنته الثانية بلهة قائلاً: «هذه طفلة طائشة وبلهاء!!» إذ ما كادت تخرج من بطن أمها إلا وهرولت نحو ثديها ترضع.

«كنت سريعًا كالغزال ولذا فقد جعلنى أبى يعقوب رسوله، وعندما باركنى قال عنى أننى وَعْلَةٌ أطلق لها العنان. وكما يعرف صانع الفخار الأوانى التى يصوغها وكم ستستوعب ويستخدم الكمية المناسبة من الطين، فإن الرب يصنع

الجسد متوافقًا مع الروح، ويخلق الروح بمقدار ما يستطيع الجسد استيعابه. ويتوافق أحدهما مع الآخر نزولاً إلى ثلث عرض شعرة، لأن الكون كله مخلوق بالوزن والمعيار والقوانين. وكما يعرف صانع الفخار فائدة كل آنية يصنعها، فإن الرب يعلم (كل شىء فى جسد ما يخلقه)، ويعلم إلى متى يثبت على طريق الاستقامة ومتى ينحرف عنها. لهذا يا أبنائى عليكم بفعل الخير اتقاءً للرب، ولا تفعلوا الشر. فكما أنكم لن تسمعوا بأعينكم ولو أمرتموها بذلك، فكذلك لن تقدروا على فعل أمر هو نور بينما أنتم غارقون فى الظلمة».

كما قال نفتالى لأبنائه: «لن أوصيكم بفعل شىء يتعلق بذهبى ولا بفضتى ولا غيرها مما أملك وأورثكم إياه. وما سأوصيكم به ليس عسيرًا لن تستطيعوا إتيانه، وإنما سأحدثكم عن شىء إتيانه عليكم هين». فأجابه أبناؤه قائلين: «تكلم يا أبتاه فإنا لك سامعون». فواصل نفتالى كلامه وقال لهم: «لن آمركم بشىء سوى مخافة الرب وأن تعبدوه وتسيروا فى طريقه». فسأله بنوه: «ولماذا يطلب منا عبادتنا له؟». فأجابهم قائلاً: «إنه لا يحتاج إلى خلقه ولكن الخلائق كلها تحتاج إليه. ومع ذلك فلم يخلق العالم عبثًا وإنما لكى يخشاه البشر ولا يفعل امرؤ بجاره ما يكره أن يفعله به الناس». فسأله بنوه مرة أخرى: «وهل رأيتنا يا أبتاه ننحرف عن طريق الرب يمنة أو يسرة؟» فأجابهم: «يشهد الرب أن لا، وأنا عليه كذلك شهيد، ولكننى أخشى عليكم فى قادم الأيام أن تهجروا طريق الرب وتعبدوا أوثان الغرباء، وتسجدوا لتماثيل الوثنيين وتلتحقوا بأبناء يوسف بدلاً من الالتحاق بأبناء لاوى أو يهوذا». فرد أبناؤه قائلين: «ولماذا تأمرنا بذلك؟» فقال لهم نفتالى: «لأننى أعلم أن أبناء يوسف سيضلون ذات يوم عن طريق الرب رب آبائهم، وأنهم هم الذين سيقودون بنى إسرائيل إلى الخطيئة، بقدر ما كان يوسف هو سبب وقوعنا تحت استعباد المصريين».

«سأخبركم يا بنىَّ بالرؤيا التى رأيتها ذات منام وأنا لمَّا أزل بعدُ راعيًا للغنم. رأيت فى منامى إخوتى يرعون قطعانهم معى فاقترب منا أبونا وقال:

«انهضوا يا بنى وليأخذ كل منكم ما يستطيع فى حضورى!» فسألناه: «وما الذى سنأخذه؟ لا نرى هنا إلا الشمس والقمر والنجوم». فرد أبونا وقال: «ستأخذون هذه!» فلما سمع لاوى ذلك التقط عصا الثيران وقفز على ظهر الشمس فجلس عليه وركبه. وفعل يهوذا مثله فقفز على القمر وركبها. وفعل كل سبط من الأسباط التسعة الآخرين مثلما فعلا وامتطى كل منهما ظهر نجم من النجوم أو كوكب من كواكب السماء. لكن يوسف بقى بالخلف متأخرًا وحده على الأرض، فقال له أبونا يعقوب: «لماذا لم تفعل يا بنى مثلما فعل إخوتك؟» فأجابه يوسف: «بأى حق يصعد إلى السماء الرجال الذين ولدوا من أرحام النساء، بينما سيبقون فى النهاية على هذه الأرض؟» وبينما هو يتكلم ظهر فحل طويل أمامه، وكان له جناحان عظيمان مثل جناحى لقلق، بينما كان قرناه فى مثل طول قرنى غزال بريّ. واستحثه يعقوب قائلا: «أسرع يا بنى وامتط ظهر هذا الفحل!» ففعل يوسف كما أمره ابوه فانصرف يعقوب إلى حال سبيله. وظل يوسف فوق ظهر الفحل ما يقارب الساعتين يستعرض به، فتارة يخب به وتارة يطير حتى وصل إلى يهوذا. ثم فرد يوسف الهراوة التى فى يدى وظل يكيل الضربات ليهوذا بها، ولما سأله أخوه عن سبب ما يفعل رد قائلاً: «لأن فى يدك اثنا عشر قضيبًا، وليس فى يدى سوى قضيب واحد. أعطنى ما هو لى وسيحل بيننا السلام عند ذلك!» فرفض يهوذا فواصل يوسف ضربه حتى أسقط من يديه عشرة قضبان، ولم يبق فى قبضته سوى اثنين. بعد ذلك دعا يوسف إخوته ليتركوا يهوذا ويتبعوه هو. ففعلوا جميعًا إلا بنيامين الذى ظل وفيًا ليهوذا. وحزن لاوى على هجره ليهوذا وهبط عن ظهر الشمس. وقبيل المساء هبت عاصفة فرَّقت الإخوة بحيث لم يبق منهما اثنان معًا. وعندما قصصت على أبى رؤياى قال لى: «ما هى إلا حلم لا يضر ولا ينفع».

«وبعد ذلك بفترة قصيرة رأيت رؤيا ثانية، حيث رأيتنا جميعًا مع أبينا على شاطئ البحر فظهرت سفينة وسط البحر ولم يكن بها بحارة ولا

ملاحون. فقال لنا أبونا «أترون ما أرى؟» فلما أجبناه أن نعم، أمرنا أن نتبعه. فخلع ملابسه وقفز إلى الماء وقفزنا وراءه. وكان لاوى ويهوذا أول من وصلا إلى السفينة فناداهما أبونا قائلاً: «انظروا ما هو مكتوب على الشراع» إذ لا توجد سفينة لا تحمل على شراعها اسم مالكها. تفحَّص لاوى ويهوذا المكتوب على الشراع فكان ما يلى: «هذه السفينة وكل ما عليها من كنوز ملك لأبناء راحيل» فشكر يعقوب الرب على أن أنعم عليه، ليس فقط على ظهر الأرض وإنما كذلك على ظهر البحر، وقال لنا: «ليمد كل منكم يده فما تطوله يداه سيكون ملكًا له». فأمسك لاوى بالشراع الكبير، وأمسك يهوذا بالشراع الثانى المجاور لشراع لاوى، بينما أمسك باقى الإخوة، عدا يوسف، بالمجاديف، وأمسك يعقوب نفسه بالدفتين اللتين توجِّهان السفينة. وأمر يوسف بأن يمسك بمجداف هو الآخر، لكنه رفض تنفيذ أمر أبيه، فناوله يعقوب إحدى الدفتين. وبعدما أعلمنا أبونا بما سيفعله كل منا اختفى وأمسك يوسف بالدفة الأخرى كذلك. وسارت الأحوال على خير ما يرام لبرهة، وطالما كان يوسف ويهوذا يعملان معًا فى تفاهم، وأبقى يهوذا يوسف على علم باتجاه الإبحار. لكن نشب بينهما شجار ولم يقد يوسف السفينة فى الاتجاه الذى أمره به أبوه، فحاول يهوذا تصحيح خطأه فاصطدمت السفينة بصخرة وغرقت. نزل لاوى ويهوذا كل عن شراعه، وقفز الإخوة الآخرون من السفينة ونجوا بحياتهم إلى الشاطئ. وفى تلك اللحظة ظهر يعقوب من جديد فرآنا وقد تفرقنا وتشتت شملنا، فحكينا له كيف تسبب يوسف فى غرق السفينة لأنه رفض - غيرة من يهوذا ولاوى - أن يقودها بحسب توجيهاتهما. فطلب منا يعقوب أن نريه البقعة التى فقدنا فيها السفينة التى لم يظهر منها إذاك فوق سطح الماء إلا شراعها. فصفَّر يستدعينا جميعًا وقفز إلى الماء وأعاد السفينة كما كانت من قبل. ثم استدار إلى يوسف وقال: «لا تفعل ذلك يا ولدى أبدًا مرة أخرى، لا تجعل الغيرة من إخوتك تتحكم فيك، فقد كاد جميع إخوتك يهلكون بسببك».

«وعندما قصصت على أبى ما رأيت فى منامى، شبك يديه وانحدرت الدموع من عينيه وقال: «يا ولدى حيث رأيت هذه الرؤيا مرتين، فقد أحزنتنى، وأشعر بالخوف على ولدى يوسف لقد أحببته بأكثر مما أحببتكم جميعًا، لكن بسبب انحرافه ستقعون جميعًا فى الأسر وتتفرقون بين الأمم. ورؤيتك الأولى لا تختلف عن الثانية فمعناهما واحد».

«لهذا يا بنى فإننى آمركم بألا تتبعوا أبناء يوسف، ولكن الزموا أبناء لاوى ويهوذا. كما أخبركم بأن ميراثى الذى أورثكم إياه سيكون فى أفضل بقعة من فلسطين، منتصف الأرض. وستأكلون وستشبع النعم التى يفيض بها إرثى شهيتكم. لكننى أحذركم بألا تفجروا عندما تشبعون وتضلوا عن طريق الرب وترفضون أوامره وهو الذى أطعمكم من خير يديه، ولا تنسوا إلهكم الذى اختاره أبوكم إبراهيم عندما انقسمت عائلات الأرض أيام بيليج، ونزل الرب مع سبعين من الملائكة على رأسهم ميكائيل، وأمرهم أن يعلموا السبعين لغة لقبائل نوح السبعين. ففعل الملائكة ما أمرهم به الرب، ولم تبق اللغة العبرية المقدسة إلا فى بيت سام وعيبر، وفى بيت حفيدهما إبراهيم. وفى يوم تعليم اللغات هذا، ذهب ميكائيل إلى كل أمة على حدة فأوصل إليها الرسالة التى أرسله بها الرب قائلاً: «أعلم ما قمتم به من تمرد على الرب وعصيان له. فالآن اختاروا من تعبدون ومن سيكون لكم شفيعًا فى السماء؟» فقال النمرود الفاجر: «أنا لا أرى عظيمًا إلا من علمنى لغة قوش». كما أجابت الأمم الأخرى بمثل ذلك، وذكرت كل أمة منها اسم ملك من الملائكة. إلا إبراهيم فقد قال: «لا أختار إلا من قال للكون كن فكان. وبه وحده أومن، ومن بعدى ذريتى إلى الأبد». ومن ساعتها جعل الرب كل أمة فى حفظ ملك من الملائكة، واحتفظ بإبراهيم وذريته لنفسه.

«لهذا أوصيكم بألا تضلوا وتعبدوا معه آلهة أخرى وهو الذى اختاره آباؤنا. ويمكنكم أن تروا شيئًا من قوته فى خلقه الإنسان. فهو يسمع بأذنيه ويرى بعينيه ويفهم بعقله ويشم بأنفه؛ وينطق الأصوات بأنبوب حلقه ويبتلع

الطعام ببلعومه، ويتلفظ بلسانه ويكوِّن الكلمات بفمه، ويعمل أشغاله بيديه، ويتفكر بقلبه، ويضحك بطحاله ويغضب بكبده ويسحق الطعام بمعدته ويمشى بقدميه، ويتخذ القرارات بكليته ولا يعانى أى عضو من أعضائه اختلالاً فالكل يقوم بوظيفته المحددة. لهذا ينبغى على الإنسان أن يحب من خلقه ومن خلقه من قطرة كريهة الرائحة فى رحم المرأة، ومن أخرجه إلى نور العالم، ومنح البصر لعينيه ومنح قدميه القدرة على الحركة، ومن جعله يقف منتصبًا ونفخ فيه نفخة الحياة، ومن نفخ فيه من روحه. لهذا طاب وسعد من لم يطرد روح الرب من داخله بارتكابه الشرور، ويا سعداه لو أعاد هذه الروح سليمة كما تلقاها».

وبعد ما أوصى نفتالى بنيه بهذا الكلام وبغيره الكثير مثله، شدد عليهم بأن يحملوا رفاته إلى حبرون ليدفن بالقرب من آبائه. ثم أكل وشرب فى سعادة حتى امتلأ وغطى وجهه ومات ففعل بنوه كل ما أمرهم به أبوهم نفتالى.

كراهيــة جــاد

فى السنة الخامسة والعشرين بعد المئة من حياته، جمع جاد أبناءه وكلمهم قائلاً: «أنا الابن التاسع ليعقوب، وكنت راعيًا شجاعًا للقطعان. كنت أحرس القطعان فإذا اقترب منها أسد أو سبع كنت أطارده وأمسكه من قدميه وأرميه على مرمى حجر منى فيموت. وذات مرة رعى يوسف القطعان معنا، وظل معنا طوال ثلاثين يومًا، فلما عدنا إلى أبينا قال له يوسف إن أبناء بلهة وزلفة يذبحون أفضل ما فى القطيع ويأكلونه دون علم رأوبين ويهوذا. وكان يوسف قد رآنى ذات مرة أخلص حملاً من بين براثن دب وأقتل الدب ثم أذبح الحمل، فقد كانت جراحه بالغة ولم يكن هناك أمل فى نجاته. وغضبت من يوسف لوشايته تلك ولم يهدأ غضبى عليه حتى بيع إلى مصر. ولم أكن أكلمه ولا حتى أحب أن أسمع شيئًا عنه، لأنه لامنا فى وجوهنا لأننا قد أكلنا الحمل دون أن نستأذن أولاً من يهوذا. وكان أبى يصدق كل ما يقوله له يوسف أيّا كان.

«الآن سأعترف لكم يا أبنائى بخطيئتى.. لقد كنت أشتاق أحيانًا لقتله، إذ كنت أكرهه من أعماق قلبى، واشتد كرهى له بسبب رؤياه التى قصها علينا، وكنت أود لو أمحوه من على وجه الأرض. لكن يهوذا خدعنا وباعه خفية للإشماعيليين. وبهذه الطريقة أنقذه إله آبائنا من أيدينا ولم يدعنا نرتكب ذلك الجرم الشنيع الذى كان سيعود على إسرائيل بالوبال.

«اسمعوا الآن يا أبنائى لكلمات الصدق، لعلكم تلتزمون بالعدل وبشريعة العلى كلها، ولا تسمحوا لروح الكراهية بأن تستحوذ عليكم. إن الشر كره. لأنه

صديق للخداع لا يفارقه، وهو دائمًا يناقض الحقيقة. وهو يعظم هين الأمور، ويظن النور ظلمة، والحلو مرًّا، ويعلم الخزى ويشعل نار الغضب ويثير الحروب والعنف، ويملأ القلب بالسم الشيطانى. إننى أخبركم بتجربتى الشخصية يا أبنائى، لكى تنزعوا الكُرْهَ من قلوبكم وتستبدلوه بحب الرب. فالحق ينفى الكره والتواضع يقتله، لأن من يخاف عصيان الرب لن يطرأ ارتكاب الشرور بباله. إن هذا ما أدركته فى النهاية، بعد ما تبت من خطيئتى فى حق يوسف، لأن التوبة إن كانت صادقة يقبلها الرب فتنير البصيرة وتضىء الروح بنور المعرفة، وتشق طريقًا للخلاص. ولقد تبت بعد ما ابتلانى الرب بمرض فى كبدى. ولولا دعاء أبى يعقوب لكانت روحى قد فارقتنى، إذ يعاقب الإنسان على خطيته فى العضو الذى ارتكب هذه الخطية. فكما لم يشعر قلبى بأى شفقة تجاه يوسف، كان هذا الكبد القاسى سببًا لآلام رهيبة عانيتها. وقد ظلت عقوبتى قائمة طوال أحد عشر شهرًا، وهى نفس مدة كراهيتى له.

«والآن يا أبنائى يجب أن يحب أحدكم أخاه، وعليكم أن تجتثوا الكره من قلوبكم بأن يحب كل منكم الآخر بالفعل والقول، وبينه وبين نفسه. لأننى كنت أتكلم بود مع يوسف فى حضور أبينا، لكننى كنت عندما أغادره تعمي روح الكراهية بصيرتى وتحضنى على قتله. فإن رأيتم من هو أحسن منكم حظًّا فلا تحزنوا، ولكن ادعوا له أن تكتمل سعادته، وإن رأيتم شريرًا يزداد غنى، مثل عيسو أخى أبينا، فلا تحسدوه. لكن انتظروا نهايته التى لابد سيأتى بها الرب.

«قولوا هذا لأبنائكم أيضًا، لكى يوقروا يهوذا ولاوى لأن الرب سينشئ من ذريتهما من يخلص إسرائيل.. لأننى أعلم أن أبناءكم فى النهاية سينحرفون عن طريق الرب، وسيشاركون فى جميع الشرور والآثام والخطايا أمام عينى الرب».

وبعدما ارتاح جاد قليلاً تحدث ثانية وقال: «أنصتوا يا بنى لأبيكم وادفنونى مع آبائى». ثم مد قدميه ونام فى سلام. وبعد خمس سنوات حمل أبناؤه رفاته إلى حبرون حيث آبائه.

كلمات أشر الأخيرة

فى السنة الخامسة والعشرين بعد المئة من حياته، وبينما كان لا يزال فى كامل عافيته وصحته، استدعى أشر بنيه وأوصاهم بأن يسيروا فى طريق الفضيلة والخوف من الرب. وقال لهم: «اسمعوا يا أبناء أشر إلى أبيكم ولسوف أريكم كل ما يرضى عنه الرب. لقد مهد الرب للبشر طريقين ومنحهم غريزتين ونوعين من الأفعال وغايتين. لهذا فكل شىء منقسم إلى اثنين أحدهما عكس الآخر. لكن عليكم يا أبنائى ألا تكونوا مزدوجين وتسلكوا سبيل الخير والشر معًا. لكن التزموا طرق الخير فقط لأنها ترضى الرب ويشتاق لها البشر. وتجنبوا الشر لكى تستطيعوا قتل نوازعه. أنصتوا لأوامر الرب باتباع الحقيقة بقلب صادق. راعوا شريعة الرب ولا تستوى عندكم الحسنات والسيئات. ولكن انتبهوا دائمًا لما هو خير حقًا واحفظوه من خلال جميع أوامر الرب. فإن نهاية الإنسان، عندما يأتيه رسول الرب ورسول الشيطان، يظهر منها إن كان صالحًا فى حياته أم طالحًا. فإن فارقته روحه فى هياج أهلكتها روح الشر التى كانت تخدمها بشهواتها وسيئاتها، ولكن إن فارقته روحه فى سكينة وسلام فإن ملاك السلام سيقودها إلى الحياة الأبدية.

«لا تكونوا يا بنى مثل سدوم التى لم تعرف ملائكة الرب، لكيلا تسلموا إلى أيدى أعدائكم وتحل اللعنة على أرضكم ويتدمر حرمكم وتتفرقون فى أربعة أركان الأرض، وتحتقرون لاضطرابكم مثل الماء الآسن، حتى يزور العلى الأرض ويكسر رؤوس التنانين فى المياه. قولوا ذلك يا بنى لأبنائكم لكيلا

يعصوا الرب، لأننى قرأت فى اللوح المحفوظ أنكم ستكونون من العصاة المتمردين وأنكم سوف تعصونه بإهمالكم شريعته واتباع شرائع البشر الذين هم فاسدون بجهل الإنسان وضلاله. لهذا فسوف يتشتت شملكم مثل جاد وأشر أخوىَّ، ولن تعرفوا أرضكم ولا قبيلتكم ولا لسانكم. ومع ذلك فإن الرب سيجمعكم مع المؤمنين، برحمته الواسعة وكرامةً لإبراهيم وإسحق ويعقوب».

وعندما انتهى من كلامه أمرهم بدفنه فى حبرون، ثم راح فى سبات هنىء ومات. وفعل بنوه ما أمرهم به وحملوه ودفنوه مع آبائه.

بنيامين يثنى على يوسف

كان بنيامين فى الخامسة والعشرين بعد المئة من عمره عندما دعا إليه بنيه فجاءوه جميعًا فقبَّلهم وقال لهم: «كما وُلد إسحق لإبراهيم وقد طعن فى العمر وتقدمت به السنون، ولدت أنا كذلك ليعقوب بعدما بلغ من الكبر عتيا، ولهذا فقد سميت بنيامين أى «بن الأيام». وقد ماتت أمى راحيل أثناء ولادتى فأرضعتنى أَمَتُها بلهة. وقد بقيتْ راحيل بدون إنجاب طوال اثنتى عشرة سنة بعد يوسف ولذا فقد دعت الرب وصامت اثنى عشر يومًا فحملتنى ثم ولدتنى. وكان أبونا يحب راحيل حبّا جمّا وكان يتمنى لو أنجب منها ولدين.

«عندما نزلت إلى مصر عرفنى أخى يوسف وسألنى: «ما الذى قاله إخوتى لأبى عنِّى؟» فأخبرته أنهم قد أرسلوا إلى يعقوب بقميصه ملطخًا بالدماء وقالوا له: «أليس هذا قميص ابنك؟» فقال لى يوسف: «اسمع.. ما حدث لى هو أن تجارا من كنعان قد سرقونى بالقوة وأرادوا، ونحن فى الطريق، أن يخفوا قميصى ليبدو كأن سبعًا قد أكلنى، لكن الرجل الذى حاول إخفاء قميصى هجم عليه أسد وافترسه فتملك الرعب أصحابه وباعونى للإشماعيليين. وهكذا وكما ترى فإن إخوتى لم يخدعوا أبى ويكذبوا عليه عندما قالوا له أن سبعًا قد أكلنى». وكان يوسف يريد من ذلك إبقاء حقيقة ما فعله به إخوته من شر سرا لا أعرفه. كما دعا إليه إخوتى وأمرهم بألا يخبروا أبانا بما حدث وبأن يقصوا عليه ما حكاه هو لى إن سألهم أبوهم.

«والآن يا بنى، أحبوا الرب إله السماوات والأرض والتزموا بأوامره واتخذوا من ذلك الرجل الصالح يوسف قدوة لكم. فقد ظل يوسف ينكر ما فعله به إخوته، ولم يتكلم بشىء إلا بعد جهد جهيد وبعدما استحلفه يعقوب ليقول الحقيقة. وحتى عندما أخبر أباه بالحقيقة ناشده أن يستغفر الرب لإخوته لكيلا يؤاخذهم بجرمهم فى حقه. وعند ذلك صاح يعقوب وقد اغرورقت عيناه بالدموع قائلاً: «آه يا ولدى الطيب يوسف، لقد أظهرت أنك أكثر منى رحمة..!».

«هل رأيتم يا بنَىَّ كم كانت رحمة ذلك الرجل الصالح؟ اقتدوا به بقلوب نقية لكى ترتدوا أنتم كذلك تيجان المجد. الرجل الصالح لا يحسد أحدًا وتتسع رحمته للجميع بمن فيهم الخطاة، وإن كان هو نفسه عرضة لإساءتهم، ويتغلب على الشر بالخير طالما كان هذا الخير مأموراً به من الرب. وإن فعلتم الخير رحلت عنكم الأرواح الدنسة وخافتكم حتى الوحوش فى البرية. وليس للغرير بيخار من سلطان على نوازع الرجل الصالح، لأن ملاك السلام يهدى روحه. فروا من مكر بيخار الذى استل سيفه ليذبح به من يطيعونه، وسيفه هو أم الشرور السبعة: سفك الدماء والفساد والخطأ والعبودية والجوع والهلع والقحط. لهذا أسلم الرب قايين لسبع عقوبات. ولم يوبخه الرب إلا مرة واحدة طوال مئة سنة. وبدأت عقوبته عندما بلغ المئتين من عمره، ثم أهلكه الطوفان وهو فى التسعمئة من العمر، جزاء له على قتله أخاه الصالح هابيل. ومن هم مثل قايين سيلامون إلى الأبد ويعاقبون بنفس ما عوقب به.

«لتعلموا الآن يا بنى أنِّى على شفا الموت، فالتزموا الصدق والاستقامة وتمسكوا بشريعة الرب وأوامره.وها أنذا أورثكم إياه ميراثا وحيدا ليس معه شىء، وعليكم أن تورثوه لبنيكم ميراثا أبديًا. هكذا فعل إبراهيم وإسحق ويعقوب ونقلوه إلينا قائلين: «التزموا بأوامر الرب حتى يكشف الرب عن خلاصه أمام جميع الوثنيين». ثم سترون إينوخ ونوح وسام وعيبر وإبراهيم وإسحق ويعقوب

وهم يبعثون من موتهم لينعموا بحياة جديدة عن يمين الرب، كما سنبعث نحن أيضًا أبناء يعقوب، وكل منا على رأس قبيلته، ونوقر ملك السموات».

وبعدما انتهى بنيامين من كلامه قال لأبنائه: «آمركم يا بنى بأن تحملوا عظامى وتخرجوا بها من مصر وتدفنونى بالقرب من آبائى».

ولما انتهى من قول ذلك راح فى نوم أبدى وقد بلغ من العمر مبلغًا، فوضعوا جثمانه فى تابوت، وفى السنة الأولى بعد التسعين من مقامهم فى مصر حمل بنوه وأحفاده أبيهم سرّا ودفنوه فى حبرون عند أقدام آبائه. ثم عادوا من أرض كنعان وأقاموا بمصر إلى يوم خروجهم من تلك البلاد.

الكتاب الثالث: أيوب

أيــوب والآبــاء

كان أيوب ـ أتقى من عاش من «الأغيار»، وواحدا من القلائل الذين تشرفوا بحمل لقب «عبد الرب» ـ مزدوج القرابة من يعقوب، فقد كان حفيد أخى يعقوب عيسو، كما كان فى الوقت نفسه صهر يعقوب، إذ كان قد اتخذ من دينة ابنه يعقوب زوجة ثانية له. وكان يستحق تمامًا أن يكون فردًا من عائلة الآباء، إذ كان مستقيمًا تمام الاستقامة ويتقى الرب ويتجنب الشر. ولولا تضعضع إيمانه قليلاً فى المحنة العظيمة التى نزلت به وتلفظه بكلمات لا ترضى الرب، لكان قد تميز بأن قرن اسمه باسم الرب فى الصلاة، ولكان البشر دعوا رب أيوب كما يدعون الآن رب إبراهيم وإسحق ويعقوب. لكنه لم يثبت على الإيمان بمثل ثبات الآباء الثلاثة، ولذا فقد ضاع عليه الشرف العظيم الذى كان الرب يخبئه له.

ولامه الرب على قلة صبره قائلاً: «لماذا تذمرت عندما حلت بك المعاناة؟ هل تظن أنك أعظم من آدم الذى خلقته بيدى والذى كتبت عليه وعلى ذريته الموت بسبب خطيئة واحدة؟ ومع ذلك فلم يتذمر آدم. أم تراك أعظم شأنًا من إبراهيم الذى اختبرته بابتلاءات عديدة وعندما سألنى: «كيف سأعلم إننى سأرث الأرض؟» أجبته قائلاً: «ليكن فى يقينك أن ذريتك ستكون غريبة فى أرض ليست لهم وسوف يكونون عبيدًا لأهل هذه الأرض الذين سيسومونهم سوء العذاب طوال أربعمئة سنة» فلم يتذمر. أم تراك أجلُّ قدرًا

من موسى؟ وهو الذى لم أنعم عليه بنعمة دخول الأرض الموعودة لأنه قال: «اسمعوا الآن أيها الآبقون.. هل نخرج لكم من هذه الصخرة الماء؟» ومع ذلك فلم يتذمر. أم تراك أعظم شأنًا من هارون الذى أنعمت عليه بما لم أنعم على أحد بمثله، إذ أخرجت الملائكة من قدس الأقداس لما دخله هو؟ ومع ذلك فلم يتذمر عندما مات ولداه».

يظهر التناقض بين أيوب والآباء من الكلمات التى تلفظ بها وتلك التى قالها إبراهيم. فقد قال إبراهيم للرب: «ليس من صفاتك أبدًا أن تذبح المتقين مع المجرمين، وأن تساوى المتقين بالفجار». وتلقى كل منهما الجزاء الذى يستحقه، فقد أثيب إبراهيم وعوقب أيوب.

ومع اقتناعه بأن المعاناة التى كان يعانيها إنما كانت تمثل ظلمًا له، بلغت الوقاحة بأيوب (كذا) مبلغ أن خاطب الرب قائلاً: «يا رب العالم.. لقد خلقت الثور بظلف مشقوق وخلقت الحمار بحافر غير مشقوق.. وخلقت الجنة والنار.. وخلقت المتقين والفجار. لا يعجزك أحد وأنت تفعل ما تريد». فأجابه أصحابه قائلين: «صحيح أن الرب هو الذى خلق فى الإنسان نوازع الشر، ولكنه أعطاه كذلك التوراة لتعالج هذه النوازع. لهذا لا يستطيع الفجار التنصل من المسئولية عن آثامهم وإلقائها على عاتق الرب».

وكان السبب الذى حال دون إحجام أيوب عن التفوه بهذا الشطط من القول أنه كان ينكر بعث الموتى (كذا). وكان يرى أن ما فيه الفجار من سعادة وما به المتقين من شقاء ومحن إنما يعود كله لحظوظهم الدنيوية. وانطلاقًا من هذا المبدأ الفاسد كان يرى أنه من الممكن أن المحنة التى نزلت به إنما هى فى الأصل مقدرة لشخص آخر غيره، وبالتالى فإن الرب قد أخطأ فأنزل به عقوبة كان من المفترض أن تنزل بأحد الخطاة. لكن الرب قال له: «لقد خلقت فى رأس الإنسان شعرات كثيرة ولكل شعرة بصيلتها التى تغذيها، إذ لو اشتركت شعرتان فى بصيلة واحدة لفقد الإنسان بصره. ولم يحدث قط أن وضعت بصيلة فى غير مكانها المخصص لها. أأكون إذًا قد أخطأت أيوب بآخر؟ إنى لأنزل من السماء قطرات عديدة من المطر ولكل

قطرة ركام خاص بها، إذ لو نزلت قطرتان من نفس الركام لصارت الأرض موحلة إلى درجة تجعلها لا تنبت شيئًا البتة. ولم يحدث قط أن وضع ركامٌ فى غير مكانه المخصص له. أأكون إذًا قد أخطأت أيوب بغيره؟ وإنى لأثير رعودًآ كثيرة من السموات، لكن كلاّ منها يأتى من مساره المخصص له، إذ لو نزل اثنان من نفس المسار لهلك العالم كله. أأكون إذًا قد أخطأت أيوب بغيره؟ وتضع الغزالة وليدها على قمة الصخرة، ولكان هذا الوليد قد سقط فى الهاوية وانسحقت عظامه لو لم أرسل إليه بنسر يعيده إلى أمه. ولو تأخر ظهور النسر دقيقة أو تقدم دقيقة عن اللحظة المناسبة، لهلك الغزال الرضيع. ولم يحدث أبدًا أن تأخر النسر. أأكون إذًا قد أخطأت أيوب بغيره؟ وللريم رحم منغلق متشابك، ولن تستطيع أن تلد صغيرها لو لم أرسل لها تنينًا فى الثانية المناسبة ليعلق لها رحمها فيطريه فتقدر على ولادة صغيرها. ولو تأخر التنين ثانية أو تقدم عن اللحظة المناسبة لهلكت الريم. ولو لم يحدث قط أن تأخر التنين. أأكون إذًا قد أخطأت أيوب بغيره.»
وبالرغم من كلامه الذى لا يغتفر، فإن الرب قد غضب من انتقاد أصدقائه الحاد له «فلا يجب مؤاخذة الإنسان بما قد يتلفظ به وقت نزول المصيبة له». وقد كانت مصيبة أيوب عظيمة حقّا.

ثروة أيوب ومكرماته

سئل أيوب ذات مرة عن أشد مصيبة يمكن أن تنزل به، فأجاب قائلاً: «أن يشمت بى أعدائى». وعندما سأله الرب، بعد الاتهامات التى وجهها له الشيطان، عما إذا كان يفضل أن يبتلى بالفقر أم بالإيذاء البدنى، اختار أيوب الألم قائلاً: «يا رب العالم كله.. ابتلِ جسدى بكل صنوف العذاب، لكن احفظنى من الفقر». ويبدو أن الفقرِ كان يبدو بالنسبة له هو المصيبة الأعظم، إذ كان قبل محنته يشغل منصبًا مرموقًا بفضل ثروته العظيمة. وأنعم عليه الرب برحمة منه وفضل بهذا البشير بزمن المسيا. وقد تلا حرث أرضه الحصاد؛ فما كادت البذور تبذر فى جوراتها، إلا وأينعت ونضجت غزيرة وفيرة. كما لم يكن أقل نجاحًا مع ماشيته. فقد كانت أغنامه تقتل الذئاب، لكن لم يكن أى سبع يقدر على إيذائها. وكان عنده من الأغنام ما لا يقل عن مئة وثلاثين ألفًا، وكان يحتاج لثمانمائة كلب لحراستها، فضلاً عن المئتى كلب التى كان يحتاجها لحراسة بيته. بالإضافة إلى ذلك فقد كانت قطعانه تتكون من ثلاثمائة وأربعين ألف حمار وخمسة، وثلاث آلاف وخمسمائة زوج من الثيران. ولم يكن يستخدم كل هذه الثروات لإشباع ملذاته، ولكنه كان ينفق منها على الفقراء والمساكين الذين كان يطعمهم ويكسوهم ويزودهم بكل ما يلزمهم. وكان لكى يفعل كل ذلك، يستأجر سفناً لتحمل المؤن إلى جميع المدن والقرى والنجوع حيث المعدمين. وكان بيته له أبواب من الجهات الأربع لكى يدخل منها الفقراء وعابرو السبيل، أيًا كان الاتجاه الذى يأتون منه. وكان يعد فى بيته دائمًا ثلاثين مائدة عليها أطايب

الطعام، واثنتى عشرة مائدة أخرى للأيامى وحدهن، فكان كل من يدخل بيته يجد فيه ما يريد. وكان أيوب يهتم بالفقراء اهتمامًا بالغًا إلى درجة أنه خصص لهم خدمًا ليقفوا على حاجتهم باستمرار. وكان ضيوفه، تأثرًا بكرمه البالغ، يهرعون لخدمة الفقراء الوافدين إلى بيته، لكن أيوب كان يصر دائمًا على أن يدفع لهم أجرًا مقابل ما يقومون به. وإن أتاه أحد وطلب منه أن يقرضه قرضًا يتاجر به ووعده بأن ينفق من أرباحه شيئًا على الفقراء، لم يكن أيوب يطلب منه ضمانًا سوى أن يوقع له على سند الدين. وإن حدث ولم يستطع المقترض سداد دينه كان أيوب يعيد إليه السند ليمزقه أمام عينيه.

ولم يقنع أيوب بالاقتصار على تلبية الحاجات المادية للمحتاجين، وإنما سعى كذلك لتعريفهم بشريعة الرب. وكان من عادته بعد أن يفرغ من تناول الطعام معهم أن يأمر بالموسيقى فتعزف ثم يدعو الحاضرين إلى مشاركته الترنم بحمد الرب. ولم يكن يتعفف فى مثل هذه المناسبات عن مشاركة الموسيقيين فى العزف على القيثارة.

وكان أكثر ما يشغل أيوب به نفسه هو الاهتمام بأمر الأيامى والأيتام. ولم يكن يتأخر عن عيادة المرضى، فقراء كانوا أم أغنياء، وكان يجلب لهم الطبيب معه، إن استلزم الأمر ذلك. فإذا تبين أن المريض ميئوس من شفائه، لم يكن يتأخر عن مواساة أهله وتعزيتهم. وكان كلما همت زوجة المريض المحتضر بالبكاء، يشجعها قائلاً: «لا تيأسى أبدًا من رحمة الرب وكرمه. إنه لم يتخل عنك حتى الآن ولن يتخل عنك بعد الآن. سيتعافى زوجك وسيعود ينفق على أهله كما كان يفعل من قبل. لكن إذا حدث لا قدر الرب ومات زوجك، فإنى أشهد السماء على أننى سأتكفل بك وبأطفالك». وبعدما ينتهى من قول ذلك يرسل فى طلب أحد القانونيين ويطلب منه كتابة تعهد يوقع عليه فى حضور الشهود، ويلزم نفسه فيه بالتكفل بالأسرة إن توفى عائلها. وهكذا فقد كان المريض وزوجته يدعوان الرب له.

أحيانًا كان أيوب يظهر شيئًا من الشدة والقسوة، إن استدعى الأمر ذلك، وخصوصاً عند مساعدة أحد الفقراء على اقتضاء دين له. فإن كان أحد طرفى خصومة معروفًا بالعنف والشدة، كان أيوب يذهب إليه وحوله رجاله ويخيف المجرم حتى يظهر خضوعه لحكمه.

وكان أيوب حريصًا على زرع هذه الروح الخيرة فى نفوس أطفاله، عن طريق تشجيعهم على الاهتمام بالفقراء والمساكين. وكان فى كل صباح تال لوليمة يضحى فى سخاء للرب، ثم يوزع أضحيته المذبوحة على المذبح على الفقراء بالتعاون مع أطفاله. وكان يقول: «هيا.. ليأخذ كل منكم ما يريد بنفسه وادعوا الرب لأطفالى. ربما يكونوا قد أخطأوا وعصوا الرب بأن قالوا فى سرائرهم: «نحن أبناء هذا الرجل الغنى، وكل شىء ملك لنا فلماذا إذًا نخدم الفقراء؟».

الشيطان وأيوب

إن الحياة الهانئة التقية التى عاشها أيوب طوال سنوات عديدة قد أثارت حسد الشيطان وغيرته منه، وكان يحمل فى نفسه ضغينة قديمة تجاهه. فقد كان يوجد بالقرب من بيت أيوب صنم يعبده الناس. وفجأة ثارت الشكوك فى قلب أيوب وتساءل قائلاً: «هل هذا الصنم حقّا هو خالق السموات والأرض؟ كيف أستطيع معرفة حقيقة ذلك؟» وفى الليلة التالية سمع هاتفًا يهتف به قائلاً: «يوباب.. يوباب..! انهض وسوف أخبرك بمن هو من تريد أن تعرفه. إن هذا الذى يقدم له الناس القرابين ليس هو الرب، بل هو من صنع يدى الغَرور ليخدع به الناس». وعندما سمع أيوب هذه الكلمات ألقى بنفسه على الأرض وقال: «يا رب.. إن كان هذا الصنم هو من صنع يدى الغرور فائذن لى إذًا بتحطيمه. ولن يستطيع أحد منعى من ذلك لأننى ملك هذه البلاد».

وكان أيوب، أو يوباب كما كان يدعى أحيانًا، هو فعلاً ملك إدوم، تلك الأرض التى دبرت فيها كل المؤامرات ضد الرب، ولهذا فقد كانت تسمى كذلك «عوز»، أى «المجلس».

ظل الهاتف يتكلم وعرَّف نفسه بأنه صوت كبير ملائكة الرب، وكشف لأيوب أنه سيجلب على نفسه عداوة الشيطان إذا حطم ذلك الصنم، كما سيجلب على نفسه الكثير من المعاناة بفعله ذلك. لكن إن ثبت أيوب فى تلك المحنة، فسوف يبدل الرب آلامه هناء وفرحًا وسيبجل اسمه فى جميع أجيال البشرية، وسيكون له نصيب فى البعث إلى الحياة الأبدية(*). أجاب أيوب

(*) كيف يصدق كلام الملاك بالفوز بعد البعث وهو الذى لا يؤمن بالبعث كما يزعم اليهود!!

على الصوت قائلاً: «من حبى للرب أنا على أتم استعداد لتحمل كل شىء إلى يوم وفاتى. ولن يزعزعنى شىء». ثم نهض أيوب واصطحب معه خمسين رجلاً وذهب إلى الصنم وحطمه.

ولما كان أيوب يعلم أن الشيطان سيحاول الاقتراب منه فقد أمر حارسه بألا يأذن لأحد كان بالدخول إليه. ثم انسحب إلى غرفته بعد ذلك. وكان مصيبًا فيما ظن، إذ أتى الشيطان متنكرًا فى هيئة شحاذ وطلب الكلام إلى أيوب. لكن الحارس نفذ ما أمره به سيده ومنع الشيطان من الدخول. وعلم أيوب أنه الشيطان، وأرسل إليه قائلاً: «لا تتوقع أنك ستأكل من خبزى لأنه محرم عليك»، ثم وضع فى يد الحارس كسرة من خبز محروق ليناولها للشيطان. لكن الحارس خجل من أن يعطى شحاذاً خبزاً محروقاً واستبدل الكسرة التى ناولها له أيوب بأخرى طيبة. لكن الشيطان علم بما فعله الحارس وقال له ذلك فى وجهه، فعاد الحارس بالكسرة المحروقة ووضعها فى يد الشيطان مكررًا على مسمعه ما قاله أيوب. عند ذلك رد الشيطان قائلاً: «كما أن الخبز محروق سأشوه بدنك». فأجابه أيوب: «افعل ما شئت ونفذ خطتك. فأنا عن نفسى مستعد لتحمل أى معاناة ستجلبها علىّ».

عند ذلك هرول الشيطان إلى الرب وتوسل إليه ليجعل أيوب بين يديه قائلاً: «لقد قطعت الأرض جيئة وذهابًا وصعدت إلى أعلاها ونزلت إلى أسفلها، فلم أرَ رجلاً فى مثل تقوى إبراهيم. وقد وعدته بأرض فلسطين كلها، ومع ذلك فلم يستغل الموقف واكتفى منها بأرض تكفى قبرًا لسارة. أما أيوب، فلم أجد حقًا أحدًا يحبك مثل حبه لك، لكن إن سلطتنى عليه لأحوِّلَنَّ قلبه عنك». لكن الرب قال: «أيها الشيطان ما الذى تنوى عمله بعبدى أيوب الذى لا يوجد مثله على الأرض؟». لكن الشيطان واصل توسلاته حتى استجاب له الرب وجعل أيوب تحت سلطانه.

وكان ذلك اليوم الذى اتهم فيه أيوب هو يوم رأس السنة (العبرية) حيث تعرض أعمال الإنسان بخيرها وشرها على الرب.

معانـاة أيـوب

سعى الشيطان، متسلحاً بقوة لا حدود لها، إلى حرمان أيوب من كل ما كان يملكه، فأحرق قسماً من ماشيته واستولى الأعداء على القسم الآخر. وما آلم أيوب أكثر من كل ذلك أن من سلبوا ماله كانوا هم أنفسهم من كان يحسن إليهم.

وكان من خصومه الذين اعتدوا عليه، ليلث ملكة سبأ. وكانت تعيش على مسافة بعيدة جداً عن موطنه، وكانت الرحلة من وطنها تستغرق منها ومن جيشها ثلاثة أعوام. وانقضّت على ثيرانه وحميره واستولت عليها، بعدها ذبحت الحراس الذين أوكل إليهم أيوب مهمة حمايتها، ولم ينج منهم إلا رجل واحد، فهرع إلى أيوب، بجراحه وغارقاً فى دمائه يكاد يقع أرضاً من فرط الإعياء، وأبلغ سيده بما حدث ثم سقط جثة هامدة. واستولى الكلدانيون على الأغنام التى نجت من هجمة ملكة سبأ. وكان أول ما خطر ببال أيوب وعزم على القيام به هو شن الحرب على هؤلاء اللصوص، لكن عندما علم أن قسماً من أمواله قد التهمته نار من السماء، ثبط عزمه وقال: «إذا كانت السماء قد انقلبت ضدى، فليس فى مقدورى فعل شىء».

لكن الشيطان لم يقنع بكل ما حدث فتنكر فى هيئة ملك فارس وحاصر المدينة التى كان أيوب يقيم بها، وخاطب سكانها قائلاً: «لقد استولى هذا الرجل، أيوب، على كل متاع الدنيا ولم يترك لأحد شيئاً، كما هدم معبد إلهنا ولذا فسوف أجعله يدفع الآن ثمن ما اقترفت يداه. هيا معى ولندمر

منزله». وفى البداية رفض الناس الإنصات إلى كلمات الشيطان، إذ خافوا أن ينتفض أبناء وبنات أيوب ضدهم لاحقاً، وينتقمون لما فُعِل بأبيهم. لكن عندما هدم الشيطان المنزل الذى تجمع فيه أطفال أيوب الذين سقطوا قتلى تحت أنقاضه، فعل الناس ما أمرهم به الشيطان وخربوا بيت أيوب.

ولما رأى الشيطان أنه لم يؤثِّر على إيمان أيوب ما ضاع من أمواله ولا ما مات من أبنائه، ظهر الشيطان أمام الرب مرة أخرى وطلب منه أن يُوضع أيوب، بشحمه ولحمه، بين يديه. وقبل الرب طلب الشيطان، لكنه قيد سلطان الشيطان بجسد أيوب فقط، أما روحه فلم يكن له عليها من سلطان. وبوجه من الوجوه فقد كان موقف الشيطان أشد تأزماً من موقف أيوب، إذ كان الشيطان مثله مثل الخادم الذى أمره سيده بأن يكسر الزجاجة دون أن يريق ما بها من خمر.

بعد ذلك أثار الشيطان عاصفة مرعبة وجعلها تضرب بيت أيوب الذى أطاحت به الرياح من على عرشه وظل راقداً على الأرض لثلاث ساعات. ثم أصاب الشيطان بدنه بالجذام من إخمص قدميه إلى أم رأسه. وعند ذلك اضطر أيوب إلى مغادرة المدينة والجلوس خارجها على كومة من التراب، إذ كانت أطرافه السفلى تغطيها القروح وكان الصديد ينسال منها على التراب. أما نصفه الأعلى فقد غطته القروح الجافة التى كانت تسبب له أكلاناً فى جسده جعلته يخمش جلده بأظافره التى تساقطت مع أطراف أصابعه، فأحضر إليها (الشيطان) شَقَفَة ليحك جلده به. وانقضت على بدنه الهوام، لكن إذا حاول أحدها الزحف بعيداً كان أيوب يجبرها على البقاء قائلاً: «ابقى فى مكانك الذى أوكلت به حتى يوكلك الرب باستلام مكان آخر». وخافت زوجته ألا يصبر فى إيمان واحتساب على بلائه، فنصحته بأن يطلب من الرب أن يتوفاه لعله يضمن مفارقة الحياة وهو على الإيمان والاستقامة. لكنه رفض نصيحتها قائلاً: «لئن كنت فى أيام الرخاء التى تغرى الإنسان على البعد عن طريق الرب، قد ثَبتًّ على إيمانى ولم أسخط،

فإننى بكل تأكيد سأستطيع الثبات فى وقت المحنة، التى تجبر الإنسان على طاعة الرب» وبقى أيوب صامداً ثابتاً صابراً برغم كل معاناته، بينما لم تكن زوجته على نفس درجة إيمانه وثباته فى الاستسلام لمشيئة الرب.

وقد كان نصيبها حقّاً أشد مرارة، إذ اضطرت إلى العمل كحاملة للماء عند أحد السقّائين، فلما علم سيدها أنها تشارك أيوب طعامه صرفها من العمل عنده. ولكى تحافظ على حياة زوجها وتقيه غائلة التضور جوعاً، قصت شعرها واشترت به خبزاً. ولم يطلب منها بائع الخبز - وكان هو الشيطان نفسه - ثمناً سوى شعرها، وكان يريد بذلك امتحانها. وقال لها: «لو لم تكونى تستحقين هذه البلوى، لما نزلت بك». وكان ذلك يفوق قدرة المرأة المسكينة على الاحتمال، فانصرفت إلى زوجها دامعة العينين يتفطر قلبها حزناً، واستحثته على أن يكفر بالرب؟ ويموت. لكن أيوب لم تؤثر فيه كلماتها، لأنه استنتج على الفور أن الشيطان هو سبب ما فيه زوجته وأنه قد أغواها بالكلام على هذا النحو. واستدار أيوب إلى الغَرور وقال له: «لماذا لا تواجهنى؟ كُفَّ عن مراوغاتك هذه أيها البائس التعس!» وعندها ظهر الشيطان لأيوب وأقر له بأنه قد انهزم ثم انصرف يجر أذيال الخيبة والخزى.

الأصدقاء الأربعة

كان أصدقاء أيوب يعيشون فى أماكن مختلفة، وبحيث كان كل منهم يبعد عن الآخر مسيرة ثلاثمئة ميل. وبرغم ذلك فقد علموا جميعاً فى وقت واحد بما أصاب صديقهم من مكروه، وحدث ذلك على النحو التالى: كان كل منهم يوجد فى التاج الذى يلبسه على رأسه صور أصدقائه، فما إن يصيب أحدهم مكروه إلا ويظهر أثر ذلك فى صورة الصديق. وهكذا علم أصدقاء أيوب كلهم فى نفس الوقت معاً بما أصاب صديقهم، وأسرعوا لنجدته(*).

كان الأصدقاء الأربعة يمت كل منهم للآخر بصلة قرابة، ويمت كذلك بصلة قرابة لأيوب. فقد كان إليفاز ملك تيمان من أبناء عيسو، وكان بيلداد وزوفر وإليهو أبناء عمومة، إذ كان آباؤهم شواح ونعمات وبراجيل أولاد بوز الذى كان أخاً لأيوب وحفيداً لإبراهيم.

عندما وصل الأصدقاء إلى المدينة التى كان أيوب يعيش بها أخذهم أهلها خارج أسوارها وأشاروا لهم إلى هيكل متكئ على كومة تراب على مبعدة منهم، وقالوا لهم: «ها هو أيوب... هناك». وفى البداية لم يصدق الأصدقاء ما سمعوه وقرروا الاقتراب من الرجل للتفحص فى وجهه وتبين هويته، لكن الرائحة الكريهة التى كانت تنبعث منه كانت من القوة ما

(*) لاحظ عزيزى القارئ تجذُّر الاعتقاد فى السحر عند اليهود وبما يشبه مانجده فى أساطير اليونان والرومان. دينهم وضعوه بأيديهم.

أجبرهم على عدم الاقتراب منه. وعند ذلك أمروا جيوشهم بنثر العطور والأبخرة فى المكان، ولم يستطيعوا الاقتراب من الرجل المنبوذ للتأكد من شخصيته، إلا بعدما ظل جنودهم يفعلون ما أمروهم به طوال أربع ساعات.

بادر إليفاز بمخاطبة أيوب قائلاً: «أأنت حقا أيوب، الملك» وعندما أجابه أيوب بالإثبات، انفجروا فى النواح والبكاء المرير وصدحوا بأغنية رثاء ردد كلماتها معهم جيوشهم. ثم عاد إليفاز للكلام مرة أخرى وأخذ يندب سوء حظ أيوب ويعدد ما كان يعيش فيه من نِعم، قائلاً بين الفينة والأخرى: «أين ولَّى جلال عرشك؟».

أنصت أيوب طويلاً يستمع لنواح إليفاز ورفاقه وعويلهم، ثم قال: «اصمتوا وسأريكم عرشى وجلاله. سيفنى الملوك ويختفى الحكام، ولينقضين كِبْرُهم ويزول بريقهم كطيف قرَّ فى مرآة، لكن مملكتى ستدوم للأبد وما بعده، لأن المجد والجلال فى عربة أبى».

أثارت هذه الكلمات حنق أليفاز الذى استحث رفاقه على ترك أيوب لما هو فيه والانصراف إلى حال سبيلهم. لكن بيلداد حاول تهدئة غضبه مذكِّراً إياه بأنه لابد من التجاوز عما قد يقول رجل مر بمثل ما مر به أيوب من محن. وأخذ بيلداد يسأل أيوب بعض الأسئلة ليتأكد من سلامة قواه العقلية، وكان يريد أن يستخلص منه كيف تأتَّى أن الرب ـ الذى يعقد عليه أيوب آماله ـ من الممكن أن يصيبه بكل هذه المعاناة البالغة. فلا يعقل، ولا حتى من ملك أن يسمع بأن تؤول حال خادم أخلص له، إلى مثل هذه الحال التى عليها أيوب. كما كان بيلداد يريد أن يعرف من أيوب بعضَ المعلومات المتعلقة بحركة الأجرام السماوية.

لم يجب أيوب على كل هذه الأسئلة سوى بشىء واحد فقط: أن الإنسان ليس فى إمكانه أن يفهم الحكمة الإلهية، سواء تجلت فى الجمادات أو الحيوانات، أو فيما له علاقة بالبشر. وواصل أيوب كلامه

قائلاً: «لكن، ولكي أثبت لكم أننى مازلت فى كامل عقلى ورشدى، اسمعوا هذا السؤال الذى سأطرحه علكيم. إن الطعام الصلب والسوائل تجتمع وتتحد داخل جسم الإنسان ثم تنفصل عندما تغادر بدنه. فما الذى وراء هذا الانفصال؟» ولما أقر بيلداد بأنه لا يستطيع الإجابة على هذا السؤال، رد أيوب قائلاً: «لئن كنت لا تفهم ما يدور فى بدنك، كيف تأمل إذاً أن تفهم حركة الأجرام السماوية؟».

بعد هذا الكلام الذى قاله أيوب لبيلداد، اقتنع زوفر بأن مالاقاه أيوب من معاناة لم يكن له من تأثير على عقله، وسأله إن كان سيأذن لهم بأن يدعو أطباءهم الملكيين يفحصون حالته. لكن أيوب رفض عرضه قائلاً: «إن شفائى وعلاجى سيأتيان من ربى خالق جميع الأطباء».

وبينا أيوب يتحادث مع أصدقائه الملوك على هذا النحو، أتت زوجته زيتيدوس وقد لبست الخِرَق وألقت بنفسها عند أقدام أصدقاء زوجها، وقالت لهم باكية: «أوه يا إليفاز، ويا أصدقاء أيوب... تذكروا كيف كانت حالى فى سالف الأيام، وانظروا لما حدث لنا، فآتى أمامكم لابسة الخِرَق والبالى من الثياب». وأثَّر منظر المرأة البائسة فيهم تأثيراً بالغاً جعلهم يجهشون بالبكاء ولا يستطيعون نطقاً. لكن إليفاز خلع عنه عباءته الملكية وأحاط بها كتف المرأة المسكينة. وطلبت منهم زيتيدوس أن يؤدوا لها معروفاً واحداً فقط وهو أن يأمروا جنودهم فيزيلوا أنقاض المنزل الذى يرقد تحتها أطفالها، لكى تستطيع دفن رفاتهم دفناً كريماً. وفعل الأصدقاء ما طلبته منهم زيتيدوس وأمروا جنودهم بإزالة أنقاض البيت، لكن أيوب قال لهم: «لا تتعبوا أنفسكم دون جدوى، فلن تجدوا أطفالى تحته، لأنهم محفوظون فى أمان عند الرب البارئ» وعند ذلك ظن الأصدقاء أن أيوب قد جُنَّ مرة أخرى، لكنه نهض من بكائه ودعا الرب واجتهد فى الدعاء، وما إن انتهى من دعائه إلا وأمر أصدقاءه بأن ينظروا فى اتجاه الشرق. فلما نظروا حيث

أخبرهم أيوب رأوا أطفاله جالسين بجوار حاكم السماء وعلى رؤوسهم تيجان المجد. عند ذلك خرت زيتيدوس ساجدة وقالت: «الآن أعلم أن ذكراى تقيم مع الرب» وعادت إلى بيت سيدها حيث كانت قد تغيبت دون إذنه، إذ لم يشأ السماح لها بالانصراف مخافة أن يأخذها الملوك الثلاثة معهم.

فى المساء خلدت زيتيدوس إلى النوم بجوار معلف الماشية، لكنها لم تنهض من رقدتها أبداً لأنها ماتت من الإنهاك. وأقام أهل المدينة حداداً عظيماً عليها وكتبت مرثية فى الحزن عليها وسُجِّلت.

أيــوب يتعافــى

لحظة بعد أخرى كان يقين أصدقاء أيوب يزداد فى أنه قد جلب على نفسه عقوبة الرب جزاءً على خطاياه، وكانوا، كلما أكد لهم براءته المرة بعد المرة، يغضبون ويهمون بالانصراف عنه وتركه لمصيره. وقد وسوس الشيطان لإليهو خصوصاً واستحثه لقول كلام فاحش غليظ لأيوب، معاتباً إياه على ثقته التى لا تتزعزع بالرب. ثم ظهر الرب لهم، وظهر فى البداية لأيوب وكشف له عن خطأ ما ذهب إليه إليهو، وأن ما قاله إنما أوحاه إليه الشيطان. ثم ظهر الرب لإليفاز وكلمه قائلاً: «لقد ارتكبت أنت وصديقاك بيلداد وزوفر خطيئة وإثماً، لأنكم لم تقولوا الصدق عن عبدى أيوب. انهضوا ودعوه يجلب لكم قرباناً تكفيراً عن ذنبكم. لولاه لآخذتكم بخطيئتكم وأهلكتكم».

تقبل الرب بفضله القربان الذى قربه أيوب عن أصدقائه، وأنشد إليفاز يشكر الرب على عفوه وصفحه عنه وعن صديقيه. وأعلن فى الوقت نفسه أن اللعنة حلت على إليهو، أداة الشيطان.

ثم ظهر الرب لأيوب مرة أخرى، وأعطاه نطاقاً به ثلاثة أوشحة وأمره بأن يربطه حول وسطه. وما كاد أيوب يفعل ذلك حتى زالت جميع آلامه، بل إنه نسيها كلها، بل إن الرب جعله يرى كل ما حدث فى الماضى وما سوف يحدث فى المستقبل إلى يوم القيامة.

وبعد معاناة واحتمال للألم بسبعة أضعاف لسبع سنوات، استعاد أيوب قوته، وعاد إلى المدينة مع أصدقائه وأقام له أهلها احتفالاً، تكريماً له وشكراً للرب. وعاد إليه كل أصدقائه القدامى واستعاد شغله السابق، الاهتمام بالفقراء، الذى استعان بالمحيطين به للقيام به. وقال لهم: «ليعطنى كل واحد منكم رأساً من الغنم لأكسو بها الفقراء، وأربع دراخمات ذهبية أو فضية لألبِّى حاجياتهم». وبارك الرب أيوب فتضاعفت ثروته خلال أيام وأصبحت مِثْلَىْ ما كان لديه قبل أن تنزل به البلوى. ولما كانت زوجته زيتيدوس قد ماتت خلال سِنِي محنته، فقد اتخذ لنفسه زوجة ثانية، كانت دينة ابنة يعقوب فولدت له سبعة أبناء وثلاث بنات. ولم يجمع بين أكثر من زوجة أبداً، إذ كان يقول: «لو كان الرب يريد لآدم أن يتخذ عشر زوجات، لكان خلقهن له. لكنه لم يهبه إلا زوجة واحدة، ليبيِّن له أنه لا ينبغى أن يتخذ سوى زوجة واحدة، ولهذا فإن زوجة واحدة تكفينى، عنهن أيضاً».

عندما أحس أيوب بدنو أجله جمع أطفاله العشرة من حوله وحكى لهم قصته. وعندما انتهى من حكايته نصحهم قائلاً: «ها أنا ذا أوشك أن أموت وستخلفوننى حيث كنت. لا تهجروا الرب، وأحسنوا إلى الفقراء وكونوا رحماء بالضعفاء ولا تتزوجوا من نساء الأغيار».

وبعد ذلك قسم ممتلكاته بين أبنائه، وأعطى لبناته ما هو أنفس من كل متاع الدنيا، إذ أعطى لكل واحدة منهن شريطاً من النطاق السماوى الذى تلقاه من الرب. وكان لهذه الشرائط قوة سحرية تمثل فى أن مرتديها ما يكاد يلفها حول وسطه إلا ويتحول إلى كائن علوى ويروح ينشد بصوت سيرافىّ (نسبة للملائكة السيرافيم) تراتيل وتسابيح تشبه تسابيح الملائكة.

ظل أيوب راقداً على سريره طوال ثلاثة أيام، مريضاً لكن دون معاناة، إذ حصَّنه النطاق السماوى من كل معاناة. ثم فى اليوم الرابع رأى الملائكة تتنزل لتقبض روحه. وعند ذلك نهض من فراشه وناول قِيثارة لأكبر أبنائه

«جميمة» ـ أى «يوم» ـ وناول مبخرة لابنته الثانية عزياه، أى «عطر» وناول صَنّجاً لابنته الثالثة «أما لقياس»، أى «بوق»، وأمرهن بالترحيب بالملائكة على أصوات الموسيقى. فأخذت بناته تعزفن وتحمدن الرب بألسنة مقدسة. ثم ظهر ذلك الذى يجلس فى العربة العظيمة وقبَّل أيوب وانصرف بعربته حاملاً روحه متجهاً بها ناحية الشرق. ولم يرهما أحد سوى بنات أيوب.

حزن الناس على موت أيوب حزناً عظيماً، وخصوصاً الفقراء والأيامى والأيتام. وتركوا جثمانه لثلاثة أيام دون دفن، لأنهم لم يحتملوا الابتعاد عنه.

وكما سيظل اسم أيوب خالداً أبد الدهر بسبب تقواه، فإن الرب قد عوَّض أصدقاءه الثلاثة لتعاطفهم معه فى محنته، إذ بقى ذكرهم فى الناس ووقوا من عذاب النار، والأفضل من ذلك كله، أن الرب صب روحه القدس عليهم. لكن الشيطان، من كان السبب فى معاناة أيوب، أنزله الرب من السماء، لأن أيوب قد قهره شاكراً الرب ـ برغم كل معاناته ـ على كل ما فعله به.

الكتاب الرابع: موسى فى مصر

بداية الاستعباد المصرى

بمجرد أن مات يعقوب انغلقت أعين الإسرائيليين وقلوبهم وبدأوا يشعرون بتسلط الغرباء عليهم، وإن لم يسقطوا فى العبودية الفعلية إلا بعد ذلك بفترة. ولم يكن المصريون يجرؤون على التعرض للإسرائيليين، طالما بقى واحد من أبناء يعقوب على قيد الحياة. ولم تبدأ معاناة الإسرائيليين إلا بعد أن مات لاوى، آخر أبناء يعقوب لحوقاً بأبيه. صحيح أن معاملة المصريين للإسرائيلين قد تغيرت تغيراً ملحوظاً بعد موت يوسف مباشرة، لكنهم لم يزيلوا القناع عن مشاعرهم الحقيقية تجاه الإسرائيليين إلا بعد موت لاوى، وحينها بدأ استعبادهم للإسرائيليين يتخذ شكل الجدية.

كان أول عمل عدوانى يقوم به المصريون تجاه الاسرائيليين أن حرموهم من حقولهم وضياعهم والهبات التى كان يوسف قد وهبها لإخوته. ولم يقنعوا بذلك وحاولوا إيذاءهم بطرق أخرى. وكان سبب ذلك العداء هو حسد المصريين للإسرائيليين وخوفهم منهم، إذ كان الإسرائيليون قد تزايدت أعدادهم بطريقة معجزة، فعند موت أيوب كان السبعون شخصاً الذين جلبهم معه من فلسطين قد نموا وتكاثروا حتى صاروا ستمئة ألف وكانت أبدانهم الضخمة وبطولتهم الفائقة شيئاً دق أجراس الخطر فى نفوس المصريين. وقد حدثت مناسبات عديدة أظهر فيها الإسرائيليون

براعتهم، وبعد موت لاوى بزمن قصير تولى حكم مصر الملك المصرى مجرون الذى تربَّى على يدى يوسف ولذا فقد كان يشعر بالامتنان لكل ما فعله يوسف وعائلته من أجل رفاهية مصر. لكن ابنه وخليفته «معول» تنكر هو وبلاطه لأبناء يعقوب. ولكل ما حققوه من إنجازات، ولم يترددوا فى قهر العبريين.

وحدث الخلاف النهائى بين الطرفين خلال الحروب التى شنها «معلول» ضد زيفو بن عيسو. وبالرغم من أن الإسرائيليين قد أنقذوا المصريين فى هذه الحروب من هزيمة ساحقة ماحقة، فإن المصريين لم يحفظوا لهم الجميل واستداروا عليهم، مخافة أن تنقلب قوة العبريين الهائلة ضدهم.

مكـر فرعـون

ذهب حكماء وشيوخ مصر إلى فرعون وقالوا له: «إن شعب بنى إسرائيل أعظم منا وأشد قوة. وقد عاينت أنت بنفسك ما بهم من قوة ورثوها عن آبائهم، إذ تصدت قلة قليلة منهم لشعب فى مثل عدد رمل البحر، ولم يسقط منهم واحد. لهذا فإنًا قد جئناك لتشير علينا بما نفعله معهم لكى نقضى عليهم فى النهاية ونخرجهم من بيننا شيئاً فشيئاً، حتى لا تزيد أعدادهم فى بلادنا، إذ لو حدث ذلك وثارت بيننا وبين عدو لنا حرب فقد يلتحقون بأعدائنا، بأعدادهم الكبيرة، وينقضون علينا ويخرجوننا من أرضنا».

أجاب الملك على كلام الشيوخ قائلاً: «إليكم الخطة التى أشير عليكم بها ضد إسرائيل، والتى لن نحيد عنها أبداً. أن بيطوم ورعمسيس مدينتان ليستا محصنتين ضد الحروب. علينا إذاً أن نحصِّنهما. الآن فاذهبوا وامكروا ببنى إسرائيل وأعلنوا فى مصر وجاسان قائلين: «يا شعب مصر وجاسان» و «بتروس»، إن الملك قد أمرنا ببناء بيطوم ورعمسيس وتحصينهما. فمن أراد منكم، ومن بنى إسرائيل، ومن كل سكان المدن، أن يشاركنا فى البناء، فإنه سوف يتلقى أجره يوماً بيوم بأوامر الملك».

«ثم امضوا أنتم أولاً وأبدأوا فى بناء بيطوم ورعمسيس ونادوا بما أعلن الملك يومياً، فإذا ما أتاكم من بنى إسرائيل جمع ليشاركوكم البناء فآتوهم أجورهم يوماً بيوم، ثم تسللوا عنهم واتركوهم وحدهم شيئاً فشيئاً ورجلاً بعد آخر، خفية وخلسة. بعد ذلك ترأسوا عليهم وكونوا مشرفين على

أعمالهم واجعلوهم يعملون دون أجر. فإذا امتنعوا فأجبروهم على تنفيذ أوامركم بما استطعتم من قوة. فإذا ما فعلتم ذلك فإنا سوف نستفيد تحصيناً لبلادنا وتقوية لمدننا، أما بنو إسرائيل فسوف تنتهك قواهم وتتناقص أعدادهم بسبب ما هم فيه من عمل شاق، إذ ستحولون بينهم وبين مجامعة زوجاتهم».

فعل الشيوخ والحكماء وكل شعب مصر ما نصحهم به الملك. وظل عبيد فرعون يشاركون الإسرائيليين العمل طوال شهر، ثم أخذوا ينسلون من بينهم شيئاً فشيئاً، بينما واصل بنو إسرائيل العمل وتلقوا أجورهم يوماً بيوم، إذ كان بعض المصريين لا يزالون يشاركونهم البناء. وبعد فترة كان المصريون قد توقفوا جميعاً عن العمل وأصبحوا يشرفون على بنى إسرائيل ويترأسون عليهم أثناء العمل. ثم امتنعوا عن دفع أى أجور لهم، ولما رفض بعض الإسرائيليين العمل وفقاً لهذه الظروف، عذبهم المصريون وأجبروهم على مواصلة العمل مع إخوانهم. وازداد خوف بنى إسرائيل من المصريين وعادوا للعمل دون أجر، ما عدا قبيلة لاوى الذين لم يشتركوا مع إخوانهم فى العمل. وكان أبناء لاوى وذريته يعلمون أن ما أعلنه الملك إنما قصد به خداع الإسرائيليين، ولذا فلم يستجيبوا له، ولم يضطهدهم المصريون فيما بعد، إذ لم يبدأوا مع إخوانهم العمل. وبرغم أن المصريين قد مرَّروا عيشة الإسرائيليين بالعمل الشاق المنهك، فإنهم لم يتعرضوا لذرية لاوى بسوء. وسمَّى الإسرائيليون «معلول» ملك مصر باسم «مرور»، أى المرارة، لأن فى أيامه ذاق الإسرائيليون المر على أيدى المصريين.

لكن الملك لم يقنع بما أعلنه وبما سام به الإسرائيليين عن عسف وذل. فعلَّق فى رقبته «مِكْبسَ قرميد» وشارك فى بناء بيطوم ورعمسيس بنفسه. ولذا فكلما رفض أحد الإسرائيليين العمل متذرعاً بأنه عمل شاق لا يناسبه، كان المصريون يردون عليه فى حدة قائلين: «أتقصد أنك أكثر رقة وسمواً من مَلِكنا؟».

وأخذ الملك نفسه يستحث الإسرائيليين بكلام معسول ويقول لهم: «يا أبنائى أرجوكم من فضلكم افعلوا ذلك العمل وشيدوا هذا البناء من أجلى. وسوف أكافئكم مكافأة عظيمة على ذلك. واستطاع المصريون، بهذه الحيل وتلك الكلمات المعسولة، التسيُّد على الإسرائيليين، فلما أصبحوا تحت سلطانهم خلعوا عنهم كل الأقنعة وعاملوهم بوحشية مكشوفة. وتم إجبار النساء على القيام بأعمال الرجال، وإجبار الرجال على القيام بأعمال النساء.

لكن لم يكن بناء بيطوم ورعمسيس ذا نفع كبير للمصريين، إذ ما كادت أبنيتها تستقيم فوق الأرض حتى انهارت، وابتلعتها الأرض، ومات الكثير من الإسرائيليين بالسقوط من فوق هذه الأبنية الساحقة أثناء انهيارها، فضلاً عما لاقوه من عنت أثناء تشييدها.

لكن المصريين لم يبالوا بما قد ينتج من ثمرة عمل الإسرائيليين وكدِّهم، إذ كان كل همهم إعاقة تكاثرهم، ولهذا فقد أصدر الفرعون أمراً بألا يُسمح لهم بالبيات فى بيوتهم، لكى لا تتاح لهم الفرصة للاجتماع مع زوجاتهم. ونفَّذ الضباط أوامر ملكهم، متذرعين أمام العبريين بأن سبب ذلك الأمر هو الوقت الكبير الذى يضيع بين الذهاب إلى أماكن العمل والعودة إلى المنازل، ما يعوقهم عن استكمال صنع القرميد المطلوب للبناء. وهكذا فقد بقى الأزواج العبريين بعيدين عن زوجاتهم، وأجبروا على النوم على الأرض بعيداً عن منازلهم.

لكن الرب تكلم وقال: «لقد وعدت أباهم إبراهيم بأننى سأجعل ذريته فى مثل عدد النجوم فى السماء، وها أنتم تحتالون لتمنعوا تكاثرهم. سنرى من منا ستنفذ كلمته، أنا أم أنتم». ولذا فكلما ازداد اضطهاد المصريين لهم، كلما ازدادت أعدادهم وانتشروا فى الأرض. وأخذت أعدادهم تتزايد على الرغم من أمر فرعون بأن من لا يكمل منهم حصته من القرميد يتم حشره بين طبقات القرميد، ولذا فقد ماتت أعداد كبيرة من الإسرائيليين بسبب

ذلك. كما تم ذبح العديد من أطفالهم وتقديمها قرابين لأصنام المصريين، ولذا فقد انتقم الرب من هذه الأصنام عند خروج الإسرائيليين من مصر، فكما كانت هذه الأصنام سبباً فى هلاك أطفال الإسرائيليين، فقد تم تدميرها ونسفها وتسويتها بالأرض.



القابلتـان التقيتـان

عندما ظلت أعداد الإسرائيلين تتزايد - إذ صاروا أكثر كثافة من الأحراش الكثيفة، حيث كانت المرأة الواحدة تلد أكثر من طفل فى المرة الواحدة - ذهب المصريون إلى الفرعون مرة أخرى وناشدوه أن يبتكر وسيلة أخرى لتخليص البلاد من العبريين، إذ رأوا أعدادهم تتزايد بصورة هائلة، برغم ما كلفوا به من عمل شاق مميت. ولم يستطع فرعون ابتكار وسيلة أخرى ولذا فقط طلب النصح من مستشاريه فتكلم واحد منهم - وهو أيوب الذى من أرصا عوز - وكان فى «آرام - نحيرام»، وقال: «إن الخطة التى وضعها الملك، بإلزام الإسرائيليين بالعمل الشاق وإنهاكهم فيه، كانت صالحة فى زمانها، وعلينا أن نواصل تنفيذها الآن. لكن، ولكى نؤمِّن أنفسنا من احتمال انقضاض الإسرائيليين علينا فى أى حرب وقيامهم بطردنا من أرضنا وإخراجنا منها، فليصدر الملك أمراً بقتل كل ذكر من ذكورهم وقت ولادته. فإذا فعل ذلك فلن نخشى أن يغلبونا فى الحرب. والآن ليستدع مولاى الملك القابلات العبريات فليأتوا إلى هنا وليأمرهم بما أشرت به».

استحسن الفرعون والمصريون ما أشار به أيوب، إذ فضَّلوا أن تتولى القابلات العبريات ذبح أطفال اليهود بأنفسهن، لأنهم كانوا يخشون من عقاب الرب لو فعلوا ذلك هم بأنفسهم. واستدعى الفرعون القابلتين العبريتين لتمثلا أمامه، فلما جاءتاه أمرهما بذبح كل مولود ذكر من العبريين والإبقاء على الإناث، إذ كان المصريون حريصين على الحفاظ على حياة النساء العبريات، بقدر حرصهم على قتل الذكور - وكان سبب ذلك

الحرص هو أنهم كانوا شهوانيين ويريدون وجود أكبر عدد ممكن من النساء يقمن بخدمتهم.

لكن هذه الخطة، برغم أنه قد شُرِعَ فى تنفيذها، لم تكن خطة حكيمة، لأنه على الرغم من أن الرجل يستطيع الزواج من نساء كثيرات، فإن المرأة لا تستطيع الزواج إلا من رجل واحد. ولهذا فإن تقليل أعداد الرجال وما يقابله من زيادة فى أعداد النساء، لن يشكل تهديداً خطيراً إلى هذه الدرجة على بقاء أمة الإسرائيليين، بمثل ما قد تكون عليه الحال لو كان العكس هو الذى تم.

كانت القابلتان العبريتان هما يوكابد أم موسى وميريام أخته. وعندما مَثُلَتَا أمام فرعون صاحت ميريام قائلة: «ويل لذلك الإنسان الذى تنزل به عقوبة الرب جزاءً له على ما اقترفت يداه من إثم» وكاد الملك يقتلها لهذه الكلمات الجريئة، لولا أن أسرعت يوكابد تهدِّىء غضبه قائلة: «لماذا تسمع لكلامها يا مولاى؟ إنها مازالت طفلة ولا تدرى ما تقول». لكن ميريام، بالرغم من أنها لم تكن قد تجاوزت الخامسة من عمرها حينذاك، فقد كانت ترافقها وتساعدها فى توليد النساء العبريات وترضع المواليد(*) بينما تقوم يوكابد بغسلهم وتنظيفهم.

كان أمر فرعون كالتالى: «إذا وُلِدَ المولود فكان ذكراً فاقتليه؛ وإذا كان أنثى فليس عليك قتلها، ولك أن تحافظى على حياتها». فأجابته القابلتان: «وأنَّى لنا أن نعرف إن كان ذكراً أم أنثى؟» إذ كان الملك قد أمرهما بقتل المولود وهو نازل من رحم أمه. فأجابهما الفرعون قائلاً: «إذ نزل المولود من رحم أمه بوجهه للأمام، فإنه ذكر، إذ أنه ينظر إلى الأرض التى أُخِذَ منها الإنسان، أما إذا نزل بقدميه أولاً، فإنها أنثى لأنه تنظر إلى أعلى ناصية ضلع أمها، لأن المرأة قد خلقت من ضلع».

واستخدم الملك كل وسيلة لترغيب المرأتين فى تنفيذ أمره. وقدم لهما الوعود السخية التى رفضتاها، فلجأ إلى تهديدهما بالقتل حرقاً بالنار

(*) سبحان الله!! طفلة فى الخامسة من عمرها تقوم بإرضاع المواليد وتوليد النساء إنه الكذب المفضوح!!

لكنهما قالتا فى نفسيهما: «لقد افتتح أبونا إبراهيم حانة ليطعم فيها عابر السبيل، وإن كان وثنيا، فأنَّى لنا أن نهمل الأطفال، بل ونقتلهما كذلك!؟ لا.. بل سنحافظ على حياتهم ونصونها». وهكذا فلم تفعلا ما أمرهما به فرعون، وبدلاً من أن تقتلا الرضع، قدمتا لهم كل عناية ولبّتا حاجاتهم. فإذا كانت الوالدة ينقصها شىء من طعام أو شراب، تذهب القابلتان إلى النساء الثريات فتجلبا منهن ما يلزم للأم الوالدة، لكى لا يعانى الرضيع ولا يحتاج لشىء كان. كما فعلتا المزيد من أجل الصغار. إذ دعتا الرب قائلتين: «إنك لتعلم أننا لم ننفذ أمر فرعون، وإنما أنفذنا أمرك. فلتكن مشيئتك يا رب أن يأتى الأطفال إلى هذا العالم سليمين دون إعاقة آمنين، لكيلا يُرْتَابَ فى أننا قد قد حاولنا ذبحهم فأحدثنا بهم إعاقات واستجاب الرب لدعائهم فلم يولد مولود على يدى «شفره» و «بوعه» أو يوكابد وميريام ـ كما كانتا تسميان كذلك ـ وبه عرج أو عمى أو أى إعاقة كانت.

لما رأى فرعون أن أوامره لم تنفذ استدعى القابلتين وسألهما عن سبب عصيانهما أوامره، فأجابتاه قائلتين: «إن هذا الشعب مثل الحيوانات، وحقا فإن العبريين مثل الحيوانات: فكما أن الحيوانات لا تحتاج إلى قابلات أثناء الولادة، لا تحتاج نساء العبريين إلى قابلات». وقد أثيبت هاتان القابلتان التقيتان على ما صنعتاه من معروف، مكافأة عظيمة. فلم تنجوا من أيدى فرعون وحسب، وإنما صارتا جدَّتين لكهنة ولاويين وملوك وأمراء. وأصبحت يوكابد أم الكاهن هارون واللاوى موسى، ومن زواج ميريام بكَلِب نشأت سلالة داود الملكية، وتجلت قدرة الرب فى حياتها الزوجية. فقد أصابها مرض خطير ظن الكثيرون أنها لن تنجُ منه، ولكنها تعافت منه ورد عليها الرب شبابها ومنحها جمالاً غير عادى، فعاش زوجها معها فى سعادة متجددة، وهو الذى كان قد حرم من الاستمتاع بحياته الجنسية معها أثناء مرضها الطويل. وكان ما عاشه من سعادة وحبور مكافأة له على تقواه وثقته بالرب. كما عوِّضت ميريام بشىء آخر، إذ أنعم الرب عليها بإنجاب «بصلئيل» بانى الهيكل والذى أُنْعِمَ عليه بحكمة سماوية.

المستشـارون الثلاثـة

فى العـام الثـلاثين بعـد المائة من نزول الإسـرائيليـين إلى مـصـر رأى فرعون فى منامه أنه جالس على عرشه فرفع عينيه ونظر فإذا عجوز واقف قدامه وبيده ميزان، فـأخـذ كل شيوخ ونبـلاء وعظمـاء مصـر فـربطهم معـاً ووضعهم فى إحدى كفتى الميزان، ثم وضع طفلاً فى الكفة الأخـرى فرجحت كفة الطفل. نهض فرعون فى الصباح واستيقظ من نومه فاستدعى عبيده وحكماءه ليعبروا له حلمه، فارتعب الناس مما رأى فرعون فى منـامه وخافوا خوفـاً عظيمـاً. ثم تكلم بلعام بن بيـعور وقـال: «ليس لذلك الحلم من تأويل سوى أن شراً عظيما سيظهر فى مصر، وأن ولداً سيولد فى إسرائيل ليدمر أرضنا كلها ويقتل جميع سكانها ويخرج منها الإسرائيليين بسلطان عظيم - لهذا أيها الملك الزم مـا أشيـر عليك به، لعله يُحْبَطُ أمل إسـرائيل، قبل أن يثور ذلك الشر ضد مصر».

رد الملك قـائلاً: «وماذا تفعل بإسرائيل إذاً؟ لقد جـربنا كل ما فى وسعنا بإزاء هذا الشـعـب، لكننـا لم نفلح. دعنـى إذاً أسـمـع رأيك» وأرسل الملك، بمشورة من بلعام، إلى مستشاريه رعويل المديانى وأيوب العوزى، لكى يسمع منهمـا نصيحتهما له. وجاءه الرجـلان، فقال له رعويل: «إذا شـاء الملك وسره ذلك، فـلا يَقْرَبَنَّ العبـريين بسـوء لأن الرب قد اختـارهم من قـديم الزمـان، واعتبرهـم ميراثه من بين أمم الأرض جميعاً، فمن ذا الذى يجرؤ على بسط يديه إليهم بالسوء ولم يأخذه الرب على مـا اقتـرف من إثم فى حقـهم؟» ثم

استطرد رعويل ليعدِّد على مسامع القوم ما صنع الرب من معجزات من أجل إبراهيم وإسحق ويعقوب، ثم اختتم كلامه قائلاً: «بل إن جدكم الأكبر الفرعون قد رفع يوسف بن يعقوب فوق جميع أمراء مصر، لما تبيَّن حكمته التى نجّا بها أهل البلاد من المجاعة، فدعا بعدها يعقوب وبنيه ليأتوا إلى مصر ويقيموا بها، لعل أرض مصر وأرض جاسان تنجو من كل مجاعة كرامة لفضائلهم. لهذا إن شاء الملك فليدعْ عن باله التفكير فى إهلاك بنى إسرائيل، وإذا لم تكن تريد يا مولاى لهم الإقامة فى مصر، فأخرجهم من هنا ليذهبوا إلى أرض كنعان حيث كان أسلافهم يقيمون».

ولما سمع الملك كلمات يثرون - رعويل استشاط منه غضباً وطرده فى خزى من حضرته، فعاد إلى مديان.

ثم كلم الملك أيوب وقال له: «وبم تشير علىَّ يا أيوب، وما هى نصيحتك لى بشأن العبريين؟» فأجابه أيوب قائلاً: «إن سكان البلاد كلهم ملك يمين مولاى فليفعل بهم ما شاء».

وكان بلعام آخر من تكلم بأمر من الملك، فقال: «أيّاً كان ما سيخطط الملك لفعله ضد الإسرائيليين، فإنهم سينجون منه. فإذا فكرت فى إحراقهم بالنار فلن تفلح، لأن الرب قد نجا إبراهيم أباهم من النار التى ألقاه بها الكلدانيون. ولئن فكرت فى القضاء عليهم بالسيف، فإن أباهم إسحق قد نجا من الذبح بالسيف. وإن فكرت فى إهلاكهم بالعمل الشاق، فلن تفلح كذلك، فإن أباهم يعقوب خدم عند لابان وقام له بكل عمل شاق، ورغم ذلك فقد أفلح ونجح ولم يُقضَ عليه. لهذا، إذا شاء مولاى الملك، فليأمر بإلقاء كل مولود من بنى إسرائيل، من اليوم، فى الماء. فلعلك تبيدهم بذلك،إذ لم يجرِّب أىٌّ من آبائهم هذا المصير».

ذبــح الأبريــاء

تقبل الملك نصيحة بلعام، كما تقبلها المصريون إذ كانوا يعلمون أن الرب يجازى على السيئة بسيئة مثلها، ولهذا فقد ظنوا أن إغراق الذكور سيكون أكثر السبل أمناً للقضاء على العبريين، دون أن يجلبوا الضر على أنفسهم، لأن الرب كان قد أقسم لنوح بأنه لن يهلك العالم أبداً مرة أخرى بالماء. وهكذا فقد ظنوا أنهم ناجون من أى عقوبة، لكنهم كانوا فى ظنهم ذلك مخطيئن. فأولاً، وعلى الرغم من أن الرب قد أقسم ألا يضرب البشر بطوفان، فإن من الممكن أن يذهب بالبشر أنفسهم إلى الطوفان، وليس فى ذلك حنث باليمين ـ علاوة على ذلك فإن القسم الذى أقسمه الرب إنما ينطبق على البشرية كلها، وليس على أمة من الأمم بمفردها. وكانت نهاية المصريين أن لقوا حتوفهم بين ضفتى البحر الأحمر. وهكذا فقد «كان جزاءً وفاقاً»، فكما أغرقوا المواليد الذكور من بنى إسرائيل، فقد أهلكوا هم كذلك غرقاً.

بعد ذلك اتخذ فرعون خطوات عملية ليضمن بها تنفيذ ما أمر به تنفيذاً دقيقاً. فأرسل رجاله إلى بيوت الإسرائيليين ليبحثوا عن كل مولود أينما كان. ووضع المصريون خطة شيطانية ليضمنوا بها عدم إخفاء الإسرائيليات لأى مواليد؛إذ كانت نساؤهم تذهب بصغارهن إلى بيوت الإسرائيليات اللاتى يرتاب فى أنهن حاملات. وعندما يبدأ الصغار المصريون فى البكاء أو الصراخ، كان الأطفال العبريون المخبأون ينضمون إليهم، كعادة الرضع، فيكشفون عن مخائبهم فيمسك بهم المصريون ويأخذونهم.

فوق ذلك فقد أمر فرعون بألا يتم توليد أى امرأة من الإسرائيليات إلا على أيدى القابلات المصريات اللاتى كُنَّ يتأكدن تمامًا من ميعاد ولادتهن ويراقبهن جيداً، لكيلا ينجو مولود ذكر من مراقبتهن ويفلت بحياته. فإذا احتال أهل بيت من الإسرائيليين على أمر الفرعون فخبأوا وليداً لهم سرّاً، فإنه كان يتم قتلهم جميعاً وكل ما يمت لهم بصلة.

أهناك عجب إذاً، من أن الكثير من العبريين قد ابتعدوا عن زوجاتهم؟ لكن من وثقوا بالرب لم يتخل عنهنَّ. وكانت النسوة اللاتى بقين مع أزواجهن يذهبن إلى الحقول، إذا آن أوان ولادتهن، فيضعن أجنتهن ويتركنهم هناك ثم يعدن إلى بيوتهن ـ وكان الرب، الذى أقسم لأسلافهن بأنه سيكثرهن تكثيراً، يرسل ملائكته ليغسلوا الرضَّع ويعمدوهم ويفردوا أطرافهم ويلفوهم فى الأغطية ـ ثم يعطيهم الملاك حصاتين ناعمتين فيرضعن اللبن من إحداهما والعسل من الأخرى. كما جعل الرب شعر كل وليد يطول حتى يبلغ ركبتيه فيكون له كالثوب الذى يقيه، ثم يأمر الأرض باستقبال الرضع وحمايتهم حتى يكبروا فتفتح الأرض فمها حينذاك وتتقيأ الأطفال الذين ينبثقون من بطنها مثل عشب الأرض وحشائش الغابة. وبعد ذلك يعود كل منهم إلى أسرته وإلى منزل أبيه.

عندما رأى المصريون ذلك كان كل منهم يذهب إلى حقله ومعه ثيرانه تجر محراثه فيحرثها كما يحرث المرء أرضه عند نثر البذور بها. ومع ذلك فلم يستطيعوا إيذاء أطفال إسرائيل الذين ابتلعتهم الأرض ورقدوا فى أحضانها. وهكذا ازداد بنو إسرائيل عدداً وتكاثروا كثرة هائلة. وأمر فرعون ضباطه بالذهاب إلى جاسان ليبحثوا عن الذكور الرضع من بنى إسرائيل، فإذا وجدوا منهم أحداً انتزعوه بالقوة من على صدر أمه وألقوا به فى النهر. «لكن أحداً لا يقدر على منع الرب من إنفاذ مشيئته، وإن احتال عشرة آلاف حيلة لعمل ذلك». فالطفل الذى رآه فرعون فى منامه وتنبأ به عرَّافوه ومنجموه نشأ وترعرع خفيفة عن أعين الملك وجواسيسه. وحدث ذلك على النحو التالى:

والـدا موسـى

عندما أصدر الفرعون أمره بإلقاء كل مولود ذكر من الإسرائيليين فى النهر، رأى عَمْرَام ، رئيس السنهدرين، أن الأفضل فى هذه الظروف مفارقة الرجال لزوجاتهم، وابتدأ بنفسه فطلق زوجته، فحذا كل رجال إسرائيل حذوه، إذ كان يحظى بمكانة عظيمة بين بنى قومه، لأنه كان من سبط لاوى الذين أخلصوا للرب، حتى وهم فى أرض مصر، برغم انحراف الأسباط الأخرى عن طريق الرب ومحاولتهم التحالف مع المصريين، بل إن الشطط بلغ بهم حد أن تخلَّوا عن عهد إبراهيم مع الرب (= الختان) ولكي يعاقب العبريين على فسادهم، حوَّل الرب حب المصريين لهم إلى كراهية فعزموا على القضاء عليهم. وفى البداية لم يوافق فرعون ـ مراعاة لما كان يدين به هو وشعبه لما فعله يوسف معهم أثناء حكمه لهم ـ على تنفيذ الخطط الخبيثة التى اقترحها المصريون تربصاً بالإسرائيليين. وقال فرعون لشعبه حينذاك: «أيها الحمقى.. إننا مدينون لهؤلاء العبريين بكل ما ننعم به، ورغم ذلك تريدون الثورة عليهم؟» لكن ذلك لم يثنِ المصريين عما عزموا عليه من إهلاك الإسرائيليين والقضاء عليهم ـ وأخذوا يلحون على ملكهم ويحرضونه طوال ثلاثة أشهر، حتى أعلن استعداده تنفيذ ما رأوه، وسعى إلى القضاء على بنى إسرائيل بكل سبيل وحيلة. وكان ذلك ما جلبه الإسرائيليون على أنفسهم من شر، جزاءً وفاقاً لما اقترفوه من آثام وخطايا.

أما عمَرام، فقد كان يتمتع بمكانة عظيمة، حتى بين الأتقياء من السبط ليس فقط بسبب انتمائه لسبط لاوى الذى اشتهر بالتقوى والورع، وإنما

لتقواه البالغة كذلك. وكان واحداً من الأربعة الأتقياء، الذين لم يقعوا فى حبائل الخطيئة، ولم يكن للموت عليهم سلطان، لولا أن الفناء قد كتب على كل إنسان بسبب الزلّة التى سقط فيها أول رجل وأول امرأة(*). وكان الثلاثة الآخرون الذين عاشوا الحياة النقية من كل خطيئة هم بنيامين، ويَسَّى أبو داود وشيلياب بن داود ـ ولئن كانت الشكينة قد عادت مرة أخرى تحوم حول موطن الفانين (= البشر)، فإنما كان ذلك بفضل تقوى عمرام. وقد كانت الشكينة تقيم فى الأصل بين البشر، لكن عندما ارتكب آدم خطيئته، انسحبت الشكينة إلى السماء، حيث رجعت فى البداية إلى السماء الدنيا من بين السموات السبع. ثم تراجعت من تلك السماء الدنيا بسبب جريمة قايين وذهبت إلى السماء الثانية. ثم طردتها خطايا جيل إينوخ وأبعدتها أكثر عن البشر فذهبت إلى السماء الثالثة وأقامت بها، ثم ذهبت إلى السماء الرابعة بسبب خطايا وآثام جيل الطوفان؛ ثم إلى السماء الخامسة أثناء بناء صرح بابل وبلبلة الألسن، ثم إلى السادسة بسبب المصريين الأشرار فى زمن إبراهيم، ثم فى النهاية ذهبت إلى السماء السابعة بسبب فحش سكان سدوم (= قوم لوط). وأعاد ستة من الرجال الأتقياء الشكينة من السماء السابعة إلى الأولى واحداً بعد الآخر، وكانوا هم إبراهيم وإسحق ويعقوب ولاوى وقهات وعمرام؛ ثم من خلال الرجل الصالح موسى نزلت إلى الأرض وسكنت بين البشر كما كانت حالها من قبل.

لم تكن حكمة عمرام تقل عن تقواه وعلمه. فقد نجح المصريون فى استعباد الإسرائيليين بالوعود المغرية ـ وفى البداية كان يعطون كلاً منهم شاقلاً واحداً مقابل كل آجرة يصنعها، ويغرونهم بجنى المزيد من المال كلما زاد إنتاجهم، فانكبوا على عمل خارق منهك. وبعد ذلك، عندما أجبرهم المصريون على العمل دون أجر، فإنهم ألزموهم بصنع نفس القدر الذى كانوا يصنعونه من القرميد أيام كانوا ينالون على صنعه أجراً، لكنهم لم يلزموا

(*) بل إن الله عز وجل خلق الموت والحياة ليبلونا أينا أحسن عملاً كما أخبرنا بذلك فى سورة الملك.

عمرام إلا بصنع قرميدة واحدة كل يوم، لأنه كان الوحيد الذى لم يستجب لإغراءاتهم، إذ قنع بجنى شاقل واحد كل يوم، ولهذا فقد كان يصنع قرميدة واحدة كل يوم، فاضطروا إلى تقبلها منه فيما بعد، حصةً يومية لما يُكَلِّفونه به من عمل.

اختار عمرام شريكة لحياته عمته يوكابد، والتى كانت قد ولدت معه فى نفس اليوم، وكانت ابنة لاوى. وكان سبب تسميتها باسمها ذلك، ومعناه «البهاء الإلهى»، هو ذلك النور السماوى الذى كان يشع من قسمات وجهها. وكانت زوجة كفؤاً لزوجها، إذ كانت إحدى القابلتين اللتين ضحيتا بحياتهما فى سبيل إنقاذ الرضع العبريين ـ ولولا أن الرب قدر وقوع معجزة، لكانت لقت حتفها هى وابنتها ميريام على يدى فرعون بسبب مخالفة أوامره وإنقاذ أرواح الأطفال العبريين. وعندما أرسل الملك جلاديه إلى المرأتين، أخفاهما الرب عن أعينهما، فعاد الجلادون إلى ملكهم دون إتمام مهمتهم.

كانت أول ثمرة لزواج عمرام من يوكابد ـ وكانت فى السادسة والعشرين بعد المئة من العمر عند زواجها ـ بنتاً أسمتها أمها ميريام، أى «المرارة» إذ شرع المصريون وقت ولادتها فى تمرير حياة العبريين وسقيهم كأس المذلة والهوان. ثم أنجبت ابناً أسمته هارون، ومعناه «يا تُعْسَ هذا الحمل»، لأن فرعون أصدر أمره بقتل المواليد الذكور من العبريين، فى الشهور التى سبقت ولادة هارون.

ولادة موسى

عندما فارق عمرام زوجته بسبب المرسوم الذى صدر بقتل المواليد الذكور من بنى إسرائيل، وحذا جميع الرجال الإسرائيليين حذوه، قالت له ابنته ميريام: «إن مرسومك يا أبتاه لأسوأ من مرسوم فرعون. فإن المصريين إنما يريدون القضاء على الذكور من بنى إسرائيل، بينما تريد أنت القضاء على الذكور والإناث معاً. وإن فرعون ليحرم ضحاياه من حياتهم فى هذا العالم، ولكنك أنت تمنع الأطفال من الخروج إلى الدنيا، وبذلك تحرمهم من الحياة الآخرة كذلك. صحيح أنه قد عزم على القضاء علينا، لكن من أدراك أن نية الأشرار ستنفذ وتتم؟ إنك رجل تقى يا أبتاه، وإن الرب هو الذى ينفذ أفعال الأتقياء، ولذا فإن مرسومك لن يُنَفَّذ. ثم تبيَّن عمرام ما بكلامها من حكمة، فذهب إلى السنهدرين وعرض على مجلسهم الأمر، فقال لهم أعضاؤه: «لقد كنت أنت من فرق بين الرجال ونسائهم، ولذا فعليك أنت أن تصدر الأمر بأن يرد كل منهم زوجته». فاقترح عليهم عمرام عند ذلك بأن يرد كل عضو من أعضاء السنهدرين زوجته وأن يتزوجها سراً، لكن رفاقه رفضوا اقتراحه ذلك قائلين: «ومن ذا الذى سيخبر كل شعب إسرائيل بذلك؟».

وبالتالى وقف عمرام تحت كوشة الزواج مع طليقته يوكابد، بينما أخذ هارون وميريام يرقصان حوله، والملائكة تهتف قائلة: «لتفرح أم الأطفال وتسعدَ» وتم الاحتفال بزواجه من امرأته مرة أخرى فى احتفال عظيم انتهى بأن قام الرجال ـ الذين حذوا حذوه من قبل فطلقوا زوجاتهم ـ برد نسائهم مرة أخرى. وهكذا حدث ذلك.

وبالرغم من أن يوكابد كانت عجوزاً، فإنها استعادت شبابها فأصبح جلدها طرياً واختفت تجاعيد وجهها وعاد احمرار الشباب يلون وجنتيها، وحملت فى فترة قصيرة.

لكن عمرام أزعجه حمل امرأته كثيراً ولم يدر ماذا يفعل. فلجأ إلى الرب بالدعاء وتوسل إليه أن يرحم مَنْ لم يخالفوا شريعة عبادته، ويخلصهم من الشقاء الذى يعانونه، ويحبط أمل أعدائهم الذين يريدون تدمير أمتهم. ورحمه الرب ووقف إلى جواره أثناء نومه وحثه على ألا ييأس من انقلاب الحال لصالحه فى قادم الأيام، كما قال أنه لم يَنْسَ تقواهم وأنه سوف يكافئهم دوماً عليها، كما أنعم على آبائهم الأولين من قبل. وواصل الرب كلامه قائلاً: «لهذا فأعلم أننى سأزودكم بكل ما هو صالح لكم، ولك خصوصاً سأوفِّر كل ما يجعلك رفيع المقام بين الناس، إذ الطفل الذى من أجله كتب المصريون على أطفال الإسرائيليين الموت، سيكون هو طفلك، وسوف يظل مخفياً عن أعين أولئك الذين يترقبون ولادته ليهلكوه؟ وعندما يكبرُ ويترعرع، فإنه بطريقة معجزة، سوف يخلص الشعب العبرى من المحنة التى يقاسونها بسبب المصريين. وسوف تبقى ذكراه طيبة ما دام العالم، وليس فقط بين العبريين، ولكن بين الغرباء كذلك. وسوف يكون كل ذلك من فضلى عليك وعلى ذريتك. كذلك سيكون أخوه من المكانة ما يجعله يحصل على كهانتى لنفسه ولذريته من بعده، وإلى انقضاء العالم».

بعدما علم عمرام كل هذه الأشياء فى منامه استيقظ وأخبر زوجته يوكابد بها جميعاً.

كذلك رأت ابنته ميريام رؤيا نبوئية وقصتها على أبويها قائلة: «لقد رأيت الليلة رجلاً يرتدى ثياباً جميلة وقال لى: «أخبرى أباك وأمك أن من سيولد لهما سوف يلقى فى المياه وسوف تجف المياه من خلاله، وستجرى على يديه العجائب والمعجزات، وسوف يخلص شعب إسرائيل وسوف يكون قائدهم إلى الأبد».

أثناء فترة حملها لاحظت يوكابد أن الطفل مقدر له أن يقوم بأشياء عظيمة، إذ لم تشعر بألم طوال حملها له ولا عند ولادته، إذ أن النساء التقيات لا تشملهن اللعنة التى حلت على حواء، والتى قدرت لهن الألم أثناء الحمل وأثناء الولادة(*).

فى لحظة خروج الطفل امتلأ المنزل بضياء يعادل نور الشمس والقمر، كما حدثت معجزة أخرى أعظم من ذلك، إذ ما كاد الطفل يتم يوماً واحداً من عمره، إلا وبدأ يمشى ويتكلم مع والديه، ورفض أن يرضع من ثدى أمه وكأنه شاب بالغ.

ولدت يوكابد وليدها بعد حمله ستة أشهر. ولم يكن الضباط المصريون - الذين وكِّلوا بمراقبة كل امرأة حبلى لكى يأتوا عند ولادتها فيأخذوا الوليد - يتوقعون أن تضع حملها إلا بعد ثلاثة أشهر. ونجح الأبوان فى إخفاء الطفل عن الأعين طوال تلك الأشهر الثلاثة، بالرغم من أن كل بيت من بيوت اسرئيل كانت تحرسه اثنتان من النساء المصريات، إحداهما بداخله والأخرى خارجه. ثم فى نهاية تلك الأشهر الثلاثة قرر الأبوان أن يكشفا عن وجود الطفل، إذ خشى عمرام أن يتم قتله هو وابنه إذا فشا سرهما، ولذا فقد رأى أنه من الأفضل أن يثق فى حفظ الرب لطفله. وكان مقتنعاً بأن الرب سيحمى الطفل وسيفى بوعده له.

(*) دليل آخر على التحريف العلمى الذى يمارسه اليهود!!

موسى يُنتشَل من الماء

أعدت يوكابد تابوتاً من البوص ودهنته بالقار من الخارج ثم طلته بالطين من الداخل. وقد استخدمت البوص لأنه يطفو فوق سطح الماء، كما لم تدهنه بالقار إلا من الخارج لكى تحمى الطفل بقدر ما تستطيع من شم رائحته الكريهة. ثم وضعت فوق الطفل الراقد فى التابوت ظُلةً رقيقة لكى تظلل عليه، وقالت له: «لعلى لا أعيش حتى أراك تقف تحت ظلة الزواج». ثم تركت التابوت على شاطئ البحر الأحمر، لكنها لم تتركه دون حراسة إذ تركت ابنتها ميريام بالقرب منه، لتتأكد من تحقق نبؤءة كانت قد قالتها، إذ قبل ولادة الطفل كانت أخته قد تنبأت بأن أمها ستضع ابناً يخلِّص إسرائيل.

وعندما ولد الطفل وامتلأ المنزل بنور ساطع قبَّلها عمرام على جبينها، لكن عندما اضطر إلى المغامرة بالكشف عن وجود الطفل، ضربها على رأسها قائلاً: «ما الذى صارت إليه نبوءتك يا ابنتى؟» ولذا فقد بقيت ميريام بجوار التابوت ثم تمشت على الشاطئ لترى ما سيكون مصير الطفل وما ستصبر إليه نبوءتها بشأنه.

كان اليوم الذى تم فيه كشف الطفل هو اليوم الحادى والعشرون من شهر نيسان، وهو ذات اليوم الذى أنشد فيه بنو إسرائيل، يقودهم موسى، أنشودة حمد للرب أن نجَّاهم من مياه البحر وظهرت الملائكة أمام الرب وقالت: «يارب العالم، أيهلك اليوم فى مياه البحر من قُدِّر له أن ينشد لك أنشودة حمد فى ذلك اليوم من نيسان، شكراً لك على أن نجيته هو وقومه

من البحر؟» فأجاب الرب: «تعلمون جيداً أننى أرى كل شىء. ومهما حاول الإنسان ومكر، فلن يغير شيئاً مما شاءته حكمتى. ولا ينالون غرضهم من يحتالون بالمكر والخديعة ليضمنوا سلامتهم ويسعون إلى إهلاك إخوانهم من البشر، لكن من يثق بى فى محنته سأنجيه من أشد المحن وأنعم عليه بساعدة لم يكن ينتظرها. وهكذا ستتجلى قدرتى البالغة فى ما ستصير إليه حال هذا الرضيع».

فى اليوم الذى تم فيه هجر الطفل، أرسل الرب حرارة حارقة فأصابت المصريين وكانوا جميعاً يتألمون من البرص والدمامل المؤلمة. وحاولت ثيرموتيس ابنة فرعون الهروب من ذلك الألم الحارق بالاستحمام فى مياه النيل، لكن الأذى البدنى لم يكن وحده السبب الوحيد الذى دعاها لمغادرة قصر أبيها. فقد كانت عزفت على تطهير نفسها كذلك من دنس عبادة الأصنام التى كانت تملأ القصر.

وعندما رأت التابوت الصغير طافياً بين الأعلام على صفحة المياه، توقعت أنه يحتوى على أحد الرضع الذين أمر أبوها بإلقائهم فى النهر، فأمرت خادماتها بجلبه، لكنهن احتججن عليها قائلات: «يا سيدتى قد يحدث أن يصدر أحد الملوك أمراً فيخالفه أحد الرعية، لكن لا يليق بأطفاله وأهل بيته أن يخالفوه، فهل تريدين مخالفة أوامر والدك؟» وعند ذلك ظهر الملاك جبريل فقبض على جميع الخادمات ودفنهن فى باطن الأرض، عدا واحدة تركها لتقوم على خدمة أميرتها.

الآن شرعت ابنة فرعون فى تنفيذ ما أرادت، فمدت ذراعها وبالرغم من أن التابوت كان طافياً على مسافة ستين ذراعاً منها، أفلحت فى الإمساك به، لأن ذراعها قد استطالت بطريقة معجزة. وما كادت تلمس التابوت إلا وبرئت من البرص، فدفعها ذلك إلى تفحص التابوت ورؤية ما يحويه، فلما فتحته دهشت دهشة عظيمة إذ رأت رضيعاً بالغ الحسن، إذ كان الرب قد صاغ جسد الطفل العبرى بعناية خاصة، كما رأت الشكينة

بجواره. ولما رأت بدن الطفل يحمل علامة العهد الإبراهيمى (= الختان) علمت أنه من أطفال العبريين، فتذكرت المرسوم الذى أصدره أبوها بخصوص الأطفال العبريين ففكرت فى ترك الرضيع ليلقى مصيره. وعند ذلك أتى الملاك جبريل وضرب الرضيع ضربة قوية فأخذ يبكى بصوت عالٍ يشبه صوت شاب يافع . وأثّر بكاؤه الحار، وبكاء هارون الذى كان يرقد بجواره(*)، فى الأميرة فرق قلبها له وعزمت على إنقاذه فأمرت بإحضار امرأة مصرية لكى ترعى الطفل، لكنه رفض أن يرضع من ثديها، كما رفض الرضاعة من كل امرأة مصرية أتت بها ابنة الفرعون. وكان ذلك ما قضى به الرب لكيلا تتباهى إحداهن فيما بعد بذلك وتقول: «لقد أرضعته ذلك الذى يتكلم مع الشكينة»، ولا كان مقدراً كذلك لمن سيتحدث مع الرب أن يتغذى من بدن دنس لامرأة مصرية.

اقتربت ميريام من ثيرموتيس، وتظاهرت بأنها كانت واقفة فى المكان بالصدفة لتنظر إلى الطفل، وكلمت الأميرة قائلة: «ليس هناك جدوى يا مولاتى من استدعاء مرضعات للطفل وهن لسن من قومه، لكن إن أمرت بإحضار امرأة من العبريات، فقد يتقبل ثديها عندما يرى أنها من بنى قومه» فأمرت ثيرموتيس ميريام بإحضارة امرأة عبرية، فطارت ميريام إلى أمها وعادت بها إلى ابنة الفرعون، فقد كانت تعرف أنه لا يوجد أحد من الحاضرين يعرفها. عند ذلك أقبل الرضيع على ثدى أمه فالتقمه بإحكام وأخذ يرضع منه. وأوكلت الأميرة إلى يوكابد مهمة العناية بالطفل قائلة لها: «إليك.. خذيه فإنه لكِ، وأرضعى الرضيع واعتنى به من الآن فصاعداً وسأعطيك قطعتَىْ فضة أجراً لك».

وكانت عودة وليدها سالماً غانماً إليها بعدما كانت تركته وتخلت عنه، كانت ثواباً من الرب لها على حسناتها أن كانت واحدة من القابلتين اللتين تحديتا أوامر الفرعون وأنقذتا حياة أطفال العبريين.

(*) هكذا فجأة وبدون أية مقدمات يظهر هارون فى الصورة!! ما أكذبهم.

وبتعريضهما ابنهما للخطر، تسبب عمرام ويوكابد فى أن يلغى فرعون أوامره بشأن إهلاك الذكور من أطفال العبريين. ففى اليوم الذى ألقى فيه موسى فى التابوت فى النهر، أتى المنجمون إلى فرعون وأنبأوه بالأخبار السارة، أن الخطر الذى كان يتهدد المصريين بسبب صبى معين، مصيره فى الماء، قد زال الآن. وعند ذلك أمر فرعون بالكف عن إغراق أطفال العبريين الموجودين فى إمبراطوريته. وكان المنجمون قد رأوا شيئاً، لكنهم لم يعرفوا ما رأوا، وأعلنوا رسالة لم يفهموا مغزاها. فقد كان الماء حقا هو مصير موسى، لكن لم يكن ذلك يعنى أنه سيهلك فى مياه النيل. وإنما كان يشير إلى مياه «مريبه»، أى مياه الكفاح، وكيف ستؤدى إلى موته فى الصحراء قبل أن يكمل مهمته فى قيادة شعبه إلى الأرض الموعودة. أما فرعون فقد ضللته الرؤيا المبهمة التى رآها منجموه، وظن أن مخلِّص إسرائيل فى المستقبل سيفقد حياته غرقاً، ولذا فقد أمر بإلقاء كل الأطفال - حتى أطفال المصريين - الذين يولدون خلال فترة تسعة أشهر فى الماء، لكى يضمن هلاك الصبى الذى تنبأ منجموه بولادته.

كرامةً لموسى، فإن أطفال العبريين الستمئة ألف الذين ولدوا معه فى نفس الليلة وألقوا فى الماء فى نفس اليوم، نجوا بمعجزة كما نجا، ولذا فقد كان محقا عندما تباهى فيما بعد قائلاً: «إن الناس الذين خرجوا من المياه كرامة لى عددهم ستمئة ألف إنسان».

طفولـة موسـى

بقى الطفل الذى أنقذته ابنة فرعون مع والديه وقومه طوال عامين. وسموه بأسماء عديدة، سماه أبوه «حيبى»، لأنه «توحَّد» مع امرأته مرة أخرى كرامةً للطفل. أما أمه فقد سمته «يكوثيل»، لأنها، كما قالت: «وضعتُ ثقتى فى الرب فأعاده إلىّ». أما أخته ميريام فقد سمته «جيريد» لأنها «نزلت» إلى النهر لكى تتأكد من مصيره. وسماه أخوه هارون «أبى زنوعه»، لأن أباه، الذى كان قد «نبذ» أمه، قد ردها لأجل الطفل الذى سيولد. وسماه جده قوحان «أبى جلدِورن»، لأن الأب السماوى(*) قد «رتق» الخرق الذى كان فى إسرائيل، عندما أنجاه فمنع المصريين من إلقاء الذكور من أطفال العبريين فى الماء. وسمته مربيته «أبى سوكو»، لأنه ظل مخفياً فى «خيمة» طوال ثلاثة أشهر، فنجا من مطاردة المصريين له وسماه إسرائيل «شِماعَ ابن نثانيل» لأنه فى يومه سيسمع من الرب تنهيدات الشعب ويخلصهم من مضطهديهم، ومن خلاله «سيعطيهم» شريعة.

كان بنو قومه وكل الإسرائيليين يعلمون أن الطفل مقدر له أن يصنع أشياءً عظيمة، إذ لم يكد يتجاوز الأربعة أشهر من عمره حتى بدأ يتنبأ قائلاً: «فى قادم الأيام، سأتلقّى التوراة من الشعلة الملتهبة».

عندما ذهبت يوكابد بالطفل إلى القصر بعد انقضاء عامين، سمته ابنة فرعون «موسى»، لأنها «سحبته من الماء، ولأنه سوف «يسحب» بنى إسرائيل خارج أرض مصر فى يوم آتٍ. وكان ذلك هو الاسم الوحيد الذى نادى به

(*) يقصدون بذلك الله عز وجل الواحد الأحد الذى لا والد له ولا ولد.

الرب موسى بن عمرام، وهو الاسم الذى سمته به ابنة فرعون. وقال (الرب) للأميرة: «إن موسى لم يكن طفلك، ولكنك عامليته وكأنه طفلك. ولذا فسوف أدعوك ابنتى، مع أنك لستِ ابنتى». ولهذا فإن ابنة فرعون تحمل اسم «بَتّ هى» أى «ابنة الرب». وفيما بعد تزوجت من «كَلِب»، وكان زوجاً كفؤاً لها. فكما تصدت لمكر أبيها، فإن كَلِب هو الآخر قد تصدَّى لمكر زملائه من الرسل الذين أرسلوا للتجسس على أرض كنعان. وبسبب إنقاذها لموسى وغير ذلك من أعمال الخير، فقد أُذِنَ لها بدخول الجنة حيَّة(*).

لكى تتم معاملة موسى فى البلاط باعتباره أميراً، تظاهرت «بَتّ هى» لفترة بأنها حامل، قبل أن تجلبه من بيت أبويه. وكانت أمه الملكية بالتبنى تداعبه وتقبله باستمرار، وبسبب جماله الفائق لم تكن لتسمح له أبداً بمغادرة القصر. ومن كان ينظر إليه مرة لا يستطيع أن يحوِّل بصره عنه، ولذا فقد خافت «بَتّ هى» عليهِ من أن يغيب عن ناظريها للحظة.

كان ذكاء موسى يفوق كثيراً سنى عمره، ولاحظ مربُّوه أنه يتمتع بقدرة على الفهم والاستيعاب غير مألوفة لمن هو فى مثل سنه. وكانت كل أفعاله فى طفولته تبشر بأنه سيقوم بأفعال عظيمة عندما يبلغ مبلغ الرجال، ولما بلغ من العمر ثلاثة أعوام فقط بسط الرب فى جسمه. أما عن جماله، فإن كل من كان يصادفه فى الطريق تحمله مربيته، كان يضطر إلى الالتفات والتحديق فى وجهه، ويترك ما كان مشغولاً به ويقف متسمراً فى مكانه يتأمل جماله، إذ كان جمال الطفل عجيباً لدرجة أنه كان يأسر عينى الناظر إليه. ولما رأت ابنة فرعون أن موسى غلام غير عادى، تبنته، إذ لم يكن لها ولد. وأخبرت أباها بما نوت قائلة: «لقد ربيتُ طفلاً، بهى الطلعة ثاقب الذكاء، وحيث أننى كنت قد غنمته من النهر ذات يوم، فإننى رأيت أن أتخذه ابناً لى ووريثاً لمملكتك» ثم وضعت الطفل بين يدى فرعون الذى تناوله واحتضنه فى رفق.

(*) كما قلنا من قبل فإن اليهود ـ لشدة حرصهم على الحياة ـ يرون أن أعظم ثواب يمكن أن يناله إنسان هو عدم التعرض للموت ودخول الجنة دون المرور بعتبة الموت!

جبريل ينقذ موسى

بينما كان موسى فى عامه الثالث، كان فرعون يتناول عشاءه ذات يوم وقد جلست الملكة الفرعونة عن يمينه وجلست ابنته «بَتْ هى» عن شماله والطفل موسى فى حجرها، بينما جلس بلعام بن بيعور مع والديه وجميع الأمراء معاً على المائدة فى حضرة الفرعون. ثم حدث أن قام الطفل وأخذ التاج من على رأس الملك فوضعه على رأسه.

فلما رأى الملك والأمراء ذلك خافوا خوفاً شديداً وعبر كل منهم بدوره عن دهشته البالغة مما حدث - وقال الملك لأمرائه: «ماذا تقولون يا أمرائى فيما رأيتم؟ وماذا ترون من أمر نتخذه حيال هذا الطفل العبرى؟».

رد بلعام قائلاً: «تذكَّر يا مولاى الملك ذلك الحلم الذى رأيته فى منامك من سنين، وكيف فسره عبدك بلعام. إن هذا هو طفل العبريين الذين بَثَّ الرب فيهم روحه، ولا يظننَّ مولاى الملك أنه فعل ما فعل دون وعى منه لأنه طفل، إذ أنه طفل عبرى وبه حكمة وله قدرة على الفهم والتمييز، وإن كان لا يزال طفلاً. لذا فإنه قد فعل ما فعل عارفاً مدركاً واختار لنفسه مملكة مصر. إذ هذا دأب جميع العبريين أن يتملكوا الأرض ويفنوا أهلها.

«ولابد أن مولاى الملك يعلم أن أباهم إبراهيم قد فعل ذلك من قبل، لما قضى على جيوش نمرود ملك بابل وأبيمالك ملك جرار، واستولى على أرض بنى حثِ وعلى مملكة كنعان كلها. وقد ذهب أبوهم إبراهيم إلى مصر وقال عن زوجته سارة أنها أخته، لكى يكيد بملك مصر وأهلها.

كما كان ذلك دأب ابنه إسحق عندما ذهب إلى جرار فأقام فيها وتغلَّب بقوته على جيش أبيمالك وكاد لمملكة الفلسطينيين ومكر بهم عندما قال لهم أن زوجته «رِفْقة» هى أخته.

ولم يتوان يعقوب عن خيانة أخيه وسلبه حق البكورة والبركة التى كان يستحقها ثم ذهب بعد ذلك إلى فدَّان ـ أرام، إلى لابان خاله، واستولى على ابنتيه بالمكر والخديعة، كما استولى على جميع ماشيته وكل ما يخصه ثم فر إلى أرض كنعان إلى أبيه.

وباع أبناؤه أخاهم يوسف فذهب إلى مصر وصار فيها عبداً، ثم ألقى به فى السجن اثنتى عشرة سنة، إلى أن حرره الفرعون السابق من سجنه ورفعه على جميع أمراء مصر لأنه أوَّل للملك رؤياه. ولما ضرب الرب العالم كله بالمجاعة، أرسل يوسف فى طلب أبيه فأحضره إلى مصر ومعه إخوته وجميع أهل بيته وزودهم بالطعام دون مقابل، بينما استولى على مصر واستعبد جميع سكانها.

«لذلك كله يا مولاى الملك، فإن هذا الطفل قد قام مقامهما فى مصر، ليفعل مثلما فعلوا ويذل كل رجل، ملكاً كان أو أميراً أو قاضياً. فإذا شاء مولاى الملك مُرْنا فلنرِق دمه على الأرض، لكيلا يكبر ويخطف الحكم من يدك، فينقطع أمل مصر بعدما يصير هو حاكماً لها. وائذن لنا كذلك يا مولاى بأن ندعو جميع قضاة مصر وحكمائها، لنرى إن كان يستحق عقوبة الموت، ثم نذبحه».

عند ذلك أرسل فرعون فى طلب جميع حكماء مصر فأتوا إليه مسرعين، وجاء معهم الملاك جبريل متنكراً كواحدٍ منهم. فلما سألهم فرعون عن رأيهم فى الأمر انبرى له جبريل قائلاً: «إذا شاء مولاى الملك فليأمر بوضع جوهرة وجمرة من النار أمام الطفل، فإذا مد يده فتناول الجوهرة سندرك عند ذلك أنه قد فعل ما فعل مدركاً مميزاً، فنقتله. وأما إذا مد يده فالتقط الجمرة، فسندرك ساعتها أنه طفل لا يميز ولا يدرك ما

يفعل، فنتركه وشأنه».

استحسن الملك ذلك الرأى فأمر بتنفيذه. ولما وضعت الجوهرة والجمرة أمام موسى مد يده يريد التقاط الجوهرة، لكن الملاك جبريل حرك يده بعيداً عنها ووضعها فوق الجمرة فالتقطها ووضعها فى فمه فأحرقت يده وجزءاً من شفتيه ولسانه، فأثر ذلك عليه طوال حياته فأصبح بطىء الكلام لا يكاد يبين.

فلما رأى الملك وأمراؤه ذلك علموا أن موسى لم يأخذ تاج الملك من على رأسه إلا على سبيل اللهو وأنه ما فعل ذلك إلا لأنه لا يدرك وليس له قدرة على التمييز، فأحجموا عن قتله. وقلّب الرب قلب فرعون تجاه موسى فأحبه، والتقطته أمه بالتبنى ومضت به بعيداً عن مجلس القوم، وأمرت بتعليمه وتربيته بعناية خاصة، لكى يعتمد عليه العبريون ويدوم أملهم فيما سيقوم به من عظائم الأمور. لكن المصريين كان يشعرون بريبة مما قد تسفر عنه هذه التربية المخصوصة.

تَمَّ دعوة أكفأ المربين وأعلاهم أجرة إلى مصر، فقدموا من كل البلاد المجاورة لكى يقوموا على تربية وتأديب الطفل موسى. وقد جاء بعضهم من تلقاء نفسه، لكى يعلمه العلوم والفنون الحرة. وبفضل فطنته وذكائه البالغ، فإنه سرعان ما فاق معلميه علماً ومعرفة. وبدت عملية تعليمه وكأنها مجرد عملية تذكُّر، فإذا تعارضت آراء المعلمين كان يختار بغريزته الرأى الراجح الأصوب، لأن عقله كان يرفض تخزين أى شىء غير صائب.

لكن ما وصل إليه موسى من مكانة وعلم كان يعود إلى قوة إرادته، بأكثر كثيراً من قدراته الطبيعية. لأنه نجح فى تحويل ميله الطبيعى إلى الشر، إلى شخصية نبيلة سامية، وهو التحول الذى ساعده على إتمامه أكثر قوة عزيمته، كما أقر هو بنفسه لاحقاً.

فبعد الخروج العجيب للإسرائيليين من مصر، أرسل أحد ملوك العرب فناناً إلى موسى لكى يرسم له صورة شخصية، لأنه كان يريد الاحتفاظ

بصورة ذلك الرجل الربانى والتطلع إليه دائماً. وعاد الرسام حاملاً عمل يده فناوله للملك الذى دعا رجاله وحكماءه، وخصوصاً العالمون منهم بعلم قراءة الوجوه. فلما عرض عليهم الملك صورة موسى ودعاهم لاستقراء شخصيته من ملامحه التى يرونها فى الصورة، أجمعوا كلهم على أن هذه الملامح التى يرون إنما هى لرجل جشع متعجرف شهوانى، باختصار رجل به كل نقيصة ولا تغيب عنه رذيلة. فلما سمع الملك ذلك منهم ثار وغضب لأنهم ادعوا قدرتهم على قراءة الوجوه، بينما يقولون كل ذلك الكلام السيئ عن موسى ذلك الرجل الربانى الطاهر، وكأن الصورة التى رأوها إنما هى لشخص شيطانى، لا لرجل مثل موسى!! لكن حكماء الملك دافعوا عن رأيهم واتهموا الفنان بأنه لم يفلح فى رسم صورة موسى بدقة وإتقان، وإلا لما كانوا أخطأوا فى حكمهم على موسى. لكن الفنان، بدوره، أصر على أنه ما رسم إلا ما رآه أمام عينيه وأن الصورة التى رسمها تشبه الأصل شبهاً تاما.

اشتدت الحيرة بالملك فذهب بنفسه ليرى موسى ويقابله، فلما رآه بعينيه لم يجد بدّاً من الاعتراف بأن الصورة التى رسمها له الفنان كانت تحفة فنية. فموسى الذى رآه بشحمه ولحمه هو نفسه موسى المرسوم على اللوحة. وعند ذلك أيقن الملك أن علماءه الذين استقرأوا شخصية موسى من صورته، ما هم إلا ثلة من الجهال والكذابين. فأخبر موسى بكل ما حدث وبرأيه فيه. لكن موسى أجابه قائلاً: «بل إن الفنان والعلماء كليهما متقن لفنه متمكن منه، وقد أدى كل منهم واجبه ولم يقصر. فإن كان حسن طلعتى من فعل الطبيعة، فما كنت لأزيد مقاماً على جذع شجرة ملقى فى الطريق، فيظل دوماً كما صاغته الطبيعة دون تغيير، إن لم يتعفّن. لكننى لن أخجل من الاعتراف لك بأننى بطبعى فىّ كل الرذائل التى ذكرها علماؤك عنى، بل وإلى درجة أكبر مما يظنون. لكننى تغلبت على نوازعى الشريرة بقوة إرادتى، فأصبحت شخصيتى التى صغتها بنفسى، عكس طبعى الذى جُبِلْتُ عليه منذ ولادتى. ومن خلال ذلك التغيير الذى فرضته بقوة إرادتى، نلتَ المكانة العالية على الأرض، وفى السماء كذلك».

شــباب موســى

ذات يوم، بعدما كَبُر وتعدى سنَّ الطفولة، ذهب موسى إلى أرض جاسان التى كان يعيش فيها بنو إسرائيل، فرأى العنت الذى يلاقونه فسألهم عن سبب تكليفهم بالخدمة الشاقة. عند ذلك أخبره الإسرائيليون بكل ما حدث لهم، وقصوا عليه قصة ذلك الفرمان الوحشى الذى أصدره الفرعون قبيل ولادة موسى بقليل، وأخبروه بنصائح السوء التى نصح بلعام بها الفرعون بشأنه، وهو لمَّا يزال بَعْدُ طفلاً صغيراً فأخذ تاج الفرعون ووضعه على رأسه. فلما سمع موسى منهم ذلك اشتد حنقه على مستشار السوء، وفكر فى الانتقام منه دون أن يناله منه أذى. لكن بلعام اشتم رائحة غضب موسى فأخذ ولديه وفر من مصر وذهب إلى بلاط قيقانوس ملك إثيوبيا.

كان منظر قومه المستعبدين يدفع موسى إلى البكاء، فكان يبكى ويقول: «يا ويلى إذ أراكم تتعذبون هكذا! يا ليتنى مِتُّ ولا أراكم تعانون كل هذه المعاناة» ولم يتوان عن مساعدة إخوانه على مهامهم الشاقة، بما أوتى من قوة. ولم يفكر لحظة فى مكانته السامية فى البلاط، وكان يحمل عنهم أثقالهم، ويفلح الأرض بدلاً منهم. ولم تكن نتيجة ذلك أن خفف الحمل عن العمال المنهكين، وحسب، وإنما كسب مودة فرعون وتقديره، إذ ظن أن موسى إنما فعل ذلك حرصاً منه على التعجيل بتنفيذ أوامر فرعون. وقال الرب لموسى: «لقد نفضت عنك كل مشاغلك الأخرى وانضممت إلى بنى إسرائيل الذين عاملتهم كإخوة لك؛ ولهذا فسوف أنفض أنا أيضاً عنى كل المشاغل السماوية والأرضية، وأتحادث معك.!!

واصل موسى بذل كل ما فى وسعه للتخفيف عن إخوانه قدر ما يستطيع. وكان يشجعهم قائلاً: «تحمَّلوا يا إخوانى نصيبكم فى جَلَد. لا تدعوا عزائمكم تَهُنّ، ولا تتركوا الإنهاك الذى تعانيه أبدانكم يحبط روحكم. سوف تأتى أيام يتبدل فيها غمكم فرحاً. فالسحب تتلوها الشمس المشرقة، وتحل بعد العواصف السكينة، وتتحول كل الأشياء فى الدنيا إلى نواقضها، ولا شىء أكثر تبدلاً من أحوال الإنسان».

استغل موسى حب الملك المتزايد له، فى التخفيف من الحمل الملقى على عواتق بنى إسرائيل. وذات يوم كان فى حضرة الفرعون فقال له: «إن لدىَّ طلبا منك يا مولاى، وآمل ألا تردنى خائباً». فأجاب الفرعون قائلاً: «تكلم وقل ما شئت». فرد موسى قائلاً: «معلوم يا مولاى أن العبد إن لم يحصل على راحة ولو ليوم واحد فى الأسبوع، فإنه يموت من شدة الإنهاك. وسوف يهلك عبيدك العبريين دون شك، ما لم يأمر مولاى بيوم راحة لهم.» فاستجاب الملك لطلب موسى فأصدر مرسوماً أعلنه فى كل أنحاء مصر وجاسان وكان كالتالى: «إلى بنى إسرائيل.. هكذا قال الملك «لتعملوا ستة أيام فى الأسبوع، لكن فى اليوم السابع سوف تستريحون فلا تعملون فيه شيئاً. وهكذا سيكون حالكم فى كل وقت وحين، طبقاً لأوامر الملك، وأمر موسى بن «بت هى». وكان اليوم الذى جعله موسى يوماً للراحة هو يوم السبت، والذى منحه الرب للإسرائيليين فيما بعد يوماً للراحة.

بينما كان موسى يقيم فى جاسان حدثت واقعة كانت لها أهمية عظيمة. فقد كان لكل عشرة من بنى إسرائيل مشرف من بنى قومهم يقوم بالإشراف على عملهم، وضابط مصرى يرأس كل عشرة من هؤلاء المشرفين. وكان لواحد من هؤلاء المشرفين، وكان اسمه داثان، زوجة هى شلوميت بنت دِبْرى من سبط دان، وكانت فائقة الجمال، لكنها كانت تحب الثرثرة، حتى مع الغرباء. وكانت ـ كلما حضر الضابط المصرى المشرف على زوجها ـ إلى منزلهم تثرثر معه فى دلال وغنج، حتى أشغلت رغبة محمومة

فى نفسه، ففكر فى الاحتيال حتى ينال غرضه منها. وذات يوم ذهب إلى منزل داثان عند بزوغ الفجر وأوقظه من نومه وأمره بالذهاب لإيقاظ جماعته من العمال والبدء فى العمل. وما كاد الزوج يغادر المنزل، إلا ودخل الضابط المصرى إلى مخدع الزوجة وفعل بها فعلته، وكان ثمرة هذه الفعلة الشنعاء هو ذلك المجدِّف الذى أمر موسى بإعدامه أثناء الزحف من الصحراء (ربما يقصد موسى السامرى).

وعند مغادرة المصرى لمخدع شلومتِ عاد داثان إلى منزله ورآه يخرج من مخدعِ زوجته. عند ذلك انزعج المصرى وخاف من عواقب جريمته فأخذ يشتم داثان ويهينه ويضربه بقسوة ليقتله. وتصادف أن قدم موسى ليزور داثان فى تلك اللحظة، فى مكان عمله، فرأى ما يفعله به الضابط المصرى، كما أخبره الروح القدس بالفعلة الشنعاء التى ارتكبها المصرى. عند ذلك صرخ موسى غاضباً فى وجه المصرى: «أما كفاك أنك قد انتهكت شرف زوجة هذا الرجل، فتريد الآن قتله كذلك؟» ثم التفت إلى الرب وأكمل كلامه قائلاً: «أين وعدك الذى وعدته لإبراهيم بأنك ستجعل ذريته فى مثل عدد النجوم؟ كيف يتحقق وأطفاله قد سلمتهم إلى الموت؟ وما الذى يصير إليه حال الوحى فوق جبل سيناء، إذا تم القضاء على بنى إسرائيل؟».

وكان موسى يريد بذلك أن يرى إن كان أحد الإسرائيليين سيشعر بالغيرة على شريعة الرب، فيتقدم ويعلن استعداده الانتقام مما فعله ذلك المصرى. لكنه انتظر دون جدوى، فقرر أن يقوم هو بذلك. لكنه تردد قبل أن يفعل ما نوى ويقضى على حياة إنسان. فلم يكن على يقين من أن هذا الخاطئ الآثم قد يتوب عن فعلته ويعيش حياة الصالحين. كما رأى أنه قد يكون من ذرية هذا الآثم من يستحق الرحمة بسببه. لكن الروح القدس أزالت عنه كل شكوكه وأرته ألا أمل فى خير من ذلك الخاطئ ولا من أحد من ذريته. وعند ذلك أصبح موسى على استعداد لمعاقبته على جريمته. ومع ذلك فقد استشار الملائكة أولاً ليرى رأيهم فى المسألة، فاتفقوا جميعاً على

أن المصرى يستحق القتل فنفَّذ موسى ما رأوا.

ولم يَحْتَجْ موسى إلى قوة بدنية ولا إلى سلاح لتنفيذ غرضه، وإنما ما كاد يتلفظ باسم الرب إلا وسقط المصرى جثة هامدة. ثم كلم موسى الإسرائيليين الذين كانوا واقفين يتفرجون فقال لهم: «لقد شبهكم الرب برمل شاطئ البحر، لذا، وكما يتحرك الرمل دون أن يحدث صوتاً، لنجعل ما حدث ورأيتموه بأعينكم سرا بيننا. ولا يسمعن أحد شيئاً عما حدث».

لكن أمنية موسى لم تتحقق، فلم يبق قتل المصرى سرا، وكان الذين أفشياه من الإسرائيليين هم داثان وأبيرام ابنى بلّوع من سبط رأوبين الذين اشتهروا بالوقاحة والجدال. ففى اليوم التالى لما حدث مع المصرى، بدأ الأخوان يتشاجران، مكراً، وخديعة، لكى يَجُرَّا موسى إلى المشاجرة فتسنح لهما الفرصة لكشف سره. وقد نجحت خطتهما نجاحاً مدهشاً. ولما رأى موسى داثان يرفع يده ليضرب أبيرام، قال له: «يا لك من شرير إذ ترفع يدك على إسرائيلى، حتى وإن لم يكن أفضل منك» فأجابه داثان: «ومن ذا الذى جعلك حكماً بيننا أيها الفتى، وَلَمَّا تبلغ بعد سن الحلم؟ إنَّا لنعلم جيداً أنك ابن يوكابد، حتى وإن ادعى الناس أنك ابن الأميرة «بت هى»، ولئن حاولت أن تلعب دور الحكم بيننا والسيد علينا، لنبوحن بما فعلته مع المصرى ونعلنه على الملأ. أم تراك تنوى قتلنا نحن كذلك، كما قتلت ذلك المصرى، بأن تلفظت باسم الرب؟».

ولم يكتف الأخوان بذلك، وإنما هرولا إلى فرعون وقالا له: «لقد تعدَّى موسى على سلطانك». فأجابهما فرعون: «ليفعل ما يحلو له». فواصلا قائلين: «وإنه لينصر أعداءك يا فرعون». فأجابهما بمثل ما قال. فقال له: «لكنه ليس ابن بنتك(*)». وعند ذلك تغير قلبه وأصدر أمراً ملكياً بالقبض على موسى وقتله بالسيف.

(*) وكأنه لم يكن يعرف من قبل أنه ليس ابنها!!

أتت الملائكة إلى الرب وقالت له: «إن موسى، أليف بيتك، قد قبضوا عليه». فأجابهم الرب: «سأدافع عنه». فقالت الملائكة: «لقد أصدروا حكمهم عليه بقتله.. بل إنهم يقتادونه الآن إلى الإعدام». فأجابهم الرب كما سبق وقال: «سأدافع عنه».

صعد موسى إلى المقصلة ووضع على عنقه عشر مرات سيف ليس فى حدته سيف آخر، لكنه كان ينزلق دائماً ويقع عن رقبته، لأن عنقه كان فى صلابة العاج. كما حدثت معجزة أعظم. فقد أنزل الرب الملاك ميكائيل فى صورة الجلاد، بينما تحول شبه الجلاد البشرى الذى عَّينه فرعون، إلى صورة موسى. ثم قتل الملاك موسى المزيف بنفس السيف الذى كان يريد أن يقتل به ضحيته. وفى هذه الأثناء فر موسى هارباً فأمر فرعون بمطاردته، ولكن دون جدوى. إذ أصيبت قوات الملك بالعمى وبالبكم. فلم يستطع البكم منهم الإخبار بمكان موسى، كما لم يستطع العُمّىُ منهم الذهاب إلى مكانه، برغم أنهم كانوا يعرفونه.

الـهـروب

قاد ملاك من ملائكة الرب موسى إلى بقعة تبعد مسيرة أربعين يوماً عن مصر، فصار بعيداً عنها بعداً أزال عن نفسه كل خوف. وما كان قلقه وخوفه على نفسه، وإنما على مستقبل إسرائيل. وكانت العبودية التى ضُرِبت على قومه تمثل دائماً، بالنسبة له، لغزاً عجز عن تفسيره. وكان دائماً يتساءل لماذا يجب أن يعانى إسرائيل أكثر من جميع الأمم الأخرى؟ لكن عندما تذكر ما علمه عن بنى قومه من نميمة وغيبة، تساءل قائلاً: «وهل يستحق هؤلاء الناس النجاة؟»، وقد كانت الأحوال الدينية السائدة بين بنى إسرائيل فى ذلك الوقت من السوء لدرجة لا تجعلهم يرجون نجاة ولا يأملون خلاصاً. فلم يسمعوا لهارون ولا لأبناء زارح الخمسة، الذين كانوا أنبياء لهم وكانوا يحضونهم على خشية الرب. وبسبب فسادهم وعصيانهم، سُلِّطتْ عليهم يد فرعون الثقيلة وعذابه الشديد، إلى أن رحمهم الرب وأرسل موسى ليخلصهم من عبودية مصر.

عندما فرَّ موسى هارباً من سيف الجلاد، لم يكن يعلم أن عرشاً ملكيا كان بانتظاره. فقد حدث فى ذلك الوقت أن حرباً اندلعت بين إثيوبيا وبين أمم الشرق التى كانت خاضعة لها فى ذلك الحين. وزحف قيقانوس، ملك إثيوبيا، بجيش عظيم لملاقاة أعدائه، وترك خلفه بلعام وولديه يانِّس ويامبريس ليحموا عاصمته ويعتنوا بمن بقوا فى بيوتهم من أهل البلاد. واستغل بلعام فرصة غياب الملك عن مملكته، واستمال الناس إلى جانبه

وجلس على العرش ونصَّب ولديه قائدين للجيش. ولكي يحولوا دون عودة قيقانوس إلى عاصمته، قام بلعام وولداه بتحصين المدينة، لكيلا يستطيع أحد دخولها دون رغبتهم. فقاموا بتعلية سورين من أسوارها على جانبين، بينما حفروا فى الجانب الثالث شبكة من القنوات وأجروا بها مياه النهر الذى يحيط بإثيوبيا كلها، بينما استخدموا سحرهم فى حشد العقارب والثعابين على الجانب الرابع. وبذلك لم يكن أحد ليستطيع مغادرة المدينة أو الدخول إليها.

وفى تلك الأثناء كان قيقانوس قد نجح فى إخضاع من تمردوا على سلطانه، فلما عاد بجيشه الظافر ولمح أسوار المدينة العالية من على البعد، قال هو ورجاله: «لابد أن سكان المدينة، لما رأونا تأخرنا فى الحرب، قاموا بتعلية الأسوار وتحصينها لكيلا يقتحمها عليهم ملوك كنعان». وعندما اقتربوا من بوابات المدينة نادوا على حراسها لكى يفتحوا لهم الأبواب، لكن الحراس أبوا أن يدخلوهم، بناءً على أوامر بلعام. عند ذلك حدثت مناوشة بين الطرفين خسر فيها قيقانوس مئة وثلاثين من رجاله. ثم استؤنف القتال فى الصباح. ولما كان الملك وجيشه على الضفة الأخرى من النهر، فقد أمر ببناء أطواف ليعبر رجاله عليها النهر. وكان قد فقد ثلاثين من فرسانه حاولوا عبور النهر بأفراسهم. فلما وصلت الأطواف إلى القنوات المحيطة بالمدينة فارت المياه وابتلعت مئتين من رجال قيقانوس، وعشرين من على كل طوف.

وفى اليوم الثالث شرع قيقانوس وجيشه فى مهاجمة المدينة من الجانب الذى تحتله العقارب والثعابين، لكنهم لم يستطيعوا الوصول إليها، وقتلت تلك الزواحف مئة وسبعين رجلاً. عند ذلك تراجع الملك عن غزو المدينة، لكنه ظل يحاصرها طوال تسع سنوات، لكيلا يخرج منها أو يدخل إليها أحد.

أثناء الحصار وصل موسى إلى معسكر الملك قيقانوس، هارباً من فرعون، وسرعان ما أحبه الملك وجيشه. وقد كان كل من يراه يعجب به، إذ

كان رشيق القامة كالنخلة، مشرق الوجه وضَّاءه كشمس الصباح، قويا كالأسد. وقد بلغ إعجاب الملك به حد أن عيَّنه قائداً عاما لقواته.

وبعد انقضاء تسعة أعوام سقط قيقانوس صريع مرض مميت، ومات بعد سبعة أيام. وقام خدمه وعبيده بتحنيط جثمانه ثم دفنوه بإزاء أبواب المدينة تجاه أرض مصر، وأقاموا على قبره شاهداً عظيماً، قوياً وسامقاً، ونقشوا على جدرانه جميع الأعمال العظيمة والحروب الظافرة التى خاضها الملك الراحل.

بعد موت قيقانوس اهتم رجاله كثيراً بأمر الحرب. وقال بعضهم لبعض: «تُرَى ماذا سنفعل الآن؟ إنَّنا نقيم فى هذه البرية، بعيداً عن بيوتنا، منذ تسع سنوات. وإن حاربنا المدينة سيموت منَّا الكثيرون، كما سنموت ونهلك كذلك لو بقينا نحاصرها على هذا النحو. والآن سيسمع كل بنى آرام وكل بنى الشرق بخبر موت مليكنا فيباغتونا الهجوم، ولن يتولوا عنا حتى يهلك آخر رجل منَّا. لهذا فلنُقِمْ ملكاً علينا ونواصل حصار المدينة حتى تستسلم لنا».

ملك إثيوبيا

ولم يجدوا سوى موسى ليملكوه عليهم. فأسرعوا ونزعوا عن كل رجل رداءه وطرحوها أرضاً فى كومة عظيمة ثم أجلسوا موسى فوقها وقرعوا الطبول وصاحوا أمامه: «عاش الملك عاش الملك!» وأقسم له الشعب وجميع الأمراء يمين الولاء وأنهم سيزوّجونه «أدونيا»، الملكة الإثيوبية، أرملة قيقانوس الراحل. وجعلوا موسى ملكاً عليهم فى ذلك اليوم.

كما أصدروا أمراً وأعلنوه بأن يعطى كل رجل ما يملك لموسى، ثم نشروا ملاءة ألقى عليها كل رجل شيئاً، فرمى أحدهم حلق أنف ذهبياً، ورمى آخر عملة ورص ثالث بعض الجواهر والمقل واللآلئ والذهب والفضة حتى امتلأ بها المكان.

كان موسى فى السابعة والعشرين من عمره عندما صار ملكاً على إثيوبيا، وظل يحكمها لأربعين عاماً. وفى اليوم السابع من حكمه اجتمع الناس فجاءوه ليعرفوا رأيه فى كيفية التصرف حيال المدينة التى كانوا يحاصرونها. فأجابهم الملك موسى قائلاً: «إن تَرَوْا رأيى وتعملوا به، ستسقط المدينة فى أيدينا.. أعلنوا فى المعسكر كله قائلين: «هكذا أمر الملك! ليذهب كل رجل إلى الغابة فليُحْضِر فرخ لقلق ويعُدّ به فى يده. ومن يخالف أمر الملك يُقتَل وتصادر ممتلكاته.. وعندما تحضرون هذه الأفراخ ارعوها وقوموا بتربيتها حتى تكبر وعلموها الطيران كالصقور».

فعل الجميع ما نصحهم به موسى، فلما كبرت اللقالق ونمت أمر الناس

بتجويعها وعدم إطعامها أى شىء طوال ثلاثة أيام. وفى اليوم الثالث قال لهم الملك: «ليرتدِ كل منكم درعه ويمتشق ترسه ويمتطِ صهوة جواده ويضعْ طائره فوق رأسه، وسوف نهاجم المدينة من الناحية التى بها العقارب والحيات.» وعندما وصلوا إلى تلك الجهة قال لهم موسى: «ليُطلَق كل رجل طائره على العقارب والحيات». ففعلوا ما أمرهم به فانطلقت الطيور وانقضت على الزواحف وأكلتها فلم تُبقِ منها واحداً. عند ذلك انقض الرجال على المدينة من تلك الجهة وأخضعوها وقتلوا من كانوا بها، دون أن يُقتل منهم رجلٌ واحدٌ.

عندما رأى بلعام المدينة تسقط فى أيدى المهاجمين مارس سحره فطار فى الهواء وحمل معه ابنيه يانِّس ويامبرس وإخوته الثمانية، فلجأوا جميعاً إلى مصر.

لما رأى الناس أن مشورة الملك قد أنجتهم وأسقطت المدينة فى أيديهم، ازدادوا به ارتباطاً وله حبا، فوضعوا التاج الملكى على رأسه وزوجوه أدونيا، أرملة قيقانوس. لكن موسى خاف من رب آبائه الصارم، فلم يدخل بأدونيا ولا حتى نظر إليها، إذ تذكر كيف استحلف إبراهيم عبده إليعزر قائلاً: «لا تزوِّجن ابنى من بنات الكنعانيات الذين أقيم بينهم». كما تذكر ما فعله إسحق عندما فر يعقوب هارباً من أخيه عيسو، وكيف أمر ابنه قائلاً: «لا تتخذ لنفسك زوجة من بنات الكنعانيات، ولا تصاهِرنَّ أبداً بنى حام، لأن الرب إلهنا قد جعل حام بن نوح، وجميع ذريته، عبيداً لبنى سام ويافث إلى الأبد».

فى ذلك الوقت سمعت آرام وبنو الشرق بموت قيقانوس ملك إثيوبيا، فثاروا ضد الإثيوبيين، لكن موسى زحف بجيش عظيم للقاء المتمردين فأخضعهم لسلطانه، مبتدئاً ببنى الشرق ثم بآرام.

واصل موسى إدارة شئون مملكته، يخرج من نجاح إلى آخر. وأدار مملكته بالعدل والاستقامة والنزاهة، فأحبه شعبه وهابوه.

وفى السنة الأربعين من ملكه، وبينما هو جالس على عرشه ذات يوم يحيط به نبلاؤه وخاصته، نهضت الملكة، وكانت تجلس أمامه، فقالت: «ما هذا الذى فعلتموه يا أهل إثيوبيا؟ لا شك أنكم تعلمون أنه خلال الأربعين عاماً التى ملككم فيها هذا الرجل، لم يقربْنى مرة واحدة، ولا عَبَد آلهة إثيوبيا. لذا فلا تدعوه يملككم بعد الآن، لأنه ليس منا. ها هو ابنى موناركوس قد شب وكبر فاجعلوه عليكم ملكاً. وأفضل لكم أن تخدموا ابن مليككم الراحل، عن أن تستأمروا عليكم غريباً عنكم، هو عبد لملك مصر».

ظل الشعب والأمراء فى جدال محتدم طوال اليوم، ليروا إن كان لهم أن يسمعوا لكلام الملكة. وبقى ضباط الجيش على ولائهم لموسى، لكن أهل المدن مالوا إلى تتويج ابن الملك الراحل ملكاً عليهم. ثم هبوا فى اليوم التالى ونصَّبوا موناركوس بن قيقانوس ملكاً عليهم، لكنهم لم يجرؤوا على الاقتراب من موسى، لأن الرب كان معه. كما تذكروا القسم الذى أقسموه لموسى، ولذا فلم يقربوه بسوء. بل إنهم أهدوه الكثير من الهدايا وصرفوه فى احترام عظيم.

عندما غادر موسى إثيوبيا، فى عامه السابع والستين، كان قد آن الوقت الذى قدَّره الرب له من قديم ليخرج إسرائيل من عبودية بنى حام واضطهادهم له. لكن موسى خشى من العودة إلى مصر حيث فرعون، فارتحل قاصداً مديان.

يثـــرون

فى مدينة مدين - والتى سميت على اسم أحد أبناء إبراهيم من قطورة - كـان يعـيش ذلك الرجل يثـرون من سنين عـديدة، ويقـوم على الكهـانة للأصنام. ومع مـرور الزمن وتعـاقب الأيام كـان إيمـانه يتـزايد بـأن عـبـادة الأصنام باطل. وازداد بغضه لخدمة الكهانة التى يقوم بها، ولذا فقد عزم على تركهـا، فوقف أمـام أهل مدينته وقـال: «لقـد ظللت أقـوم على خدمـة أصنامكم منذ أمد بعيد وحتى الآن، لكنى قد كبر ت سنى ووهن عظمى وما عدت أقـدر على تحمل مسؤلية الكهانة. لهذا فـاختـاروا من شئتم ليقـوم مقامى». ثم سلَّم إلى الناس كل لوازم الكهانة وأمرهم أن يعطوها لمن يثقون فيـه ليحل محله. لكن الناس ارتابوا فى الدافع الذى دفع يثـرون لاعـتـزال الكهانة، فـقـرروا مقـاطعته جمـيعاً، حتى إن رعـاة أغنامه رفـضـوا مواصلة رعيها فاضطر إلى أن يوكل رعايتها لبناته السبع.

إن تحول يثرون من عبادة الأصنام إلى تقوى الرب ومخافته، ليتضح فى أسمائه السبعة التى تسمَّى بها: فهو يسمى «يتـر» لأن التوراة تحتوى على قسم «إضـافى» خـاص به. كمـا يسـمى «يثرون» لأنـه كـان «يفـيض» بأعمـال الخيـر. وسُمِّىَ «حُبَـا» لأنه كان «الابن المحبوب للرب»؛ وسمى «رعويل»، أى «صديق الرب»؛ وسمى «حبـر» أى «خليل الرب»؛ وسـمى «بوطيل» لأنه «أبطل عـبـادة الأصنام»؛ وسـمى «قَنِى» لأنه كـان «مـتـحـمـسـاً» للرب ولأنـه «اقـتـنى» التوراة.

بسبب ما كان بين يثرون وأهل المدينة، من عداوة، كان من عادة بناته أن تذهبن بأغنامهن إلى الآبار للسقاية قبل أن يذهب إليها الرعاة الآخرون. لكن ذلك لم يُجْدِهم نفعاً إذ كان الرعاة يطردونهن، ويسقون أغنامهم من المساقى التى قامت البنات بملئها. ولما وصل إلى مديان، توقف عند بئرها، وعاش تجربة كالتى عاشها إسحق ويعقوب. فقد وجد قرينته هناك. وكما اختار إليعزر «رفقة» زوجة لإسحق وهى مشغولة بسحب الماء له من البئر؛ وكما رأى يعقوب راحيلٍ لأول مرة وهى تسقى أغنامها، فإن موسى قابل زوجته فى المستقبل «صَفورة» عند بئر مدين.

بلغت وقاحة الرعاة ذروتها فى يوم وصول موسى. ففى البداية قاموا بالاستيلاء على الماء الذى سحبته البنات من البئر، وحاولوا الاعتداء عليهن ثم ألقوهن فى الماء بقصد إغراقهن. وفى هذه اللحظة ظهر موسى فى المكان فأخرج البنات من الماء وسقى القطعان، مبتدئاً بقطعان يثرون، ثم قطعان الرعاة، برغم أن هؤلاء الرعاة لم يكونوا يستحقون هذا المعروف منه. ولم يبذل فى سقاية القطعان جهداً، إذ كان يسحب الدلو من البئر فيفيض الماء منه ويكفى جميع القطعان، ولا ينقطع تدفق الماء من البئر حتى يكفَّ موسى ويبتعد عنه، وذلك البئر هو نفسه البئر الذى التقى يعقوب مع راحيل عنده لأول مرة، وهو نفسه كذلك البئر الذى خلقه الرب فى بدء العالم، وصنع فتحته عند زوال (= وقت الزوال) عشية أول يوم سبت.

شكرت بنات يثرون موسى على مساعدته لهن. لكن موسى قال لهن: «بل اشكرن المصرى الذى قتلته، وهربت بسببه من مصر. فلولاه لما كنت أنا هنا الآن».

موسى يتزوج «صفورة»

من بين البنات السبع اللاتى رآهن موسى عند البئر، جذبت واحدة منهن انتباهه بسبب أدبها ودماثة خلقها، فعرض عليها الزواج. لكن صَفُّورة رفضت قائلة: «لدى أبى فى حديقته شجرة يختبر بها كل رجل يريد الزواج من إحدى بناته، فما إن يلمس الخاطب الشجرة إلا وتلتهمه».

موسى: «ومن أين حصل على تلك الشجرة؟».

صفورة: «إنها القضيب الذى خلقه القدوس، تبارك وتعالى، عند زوال عشية أول سبت، وأعطاه لآدم الذى نقله إلى إينوخ ثم منه إلى نوح ثم إلى سام وإبراهيم وإسحق ثم أخيراً إلى يعقوب الذى أخذه معه إلى مصر وأعطاه لابنه يوسف. وعندما مات يوسف سلب المصريون بنتيه فوجدوا القضيب وذهبوا به إلى قصر فرعون. وقد كان أبى حينذاك من أخَصِّ كُتَّاب الملك، ولهذا فقد سنحت له رؤية القضيب. فاجتاحته رغبة عارمة بامتلاكه فسرقه وذهب به إلى بيته. وعلى هذا القضيب منقوش «الاسم الذى لا يمحى»، وكذلك البلايا العشرة التى سيضرب بها الرب المصريين فى قادم الأيام. وقد بقى فى بيت أبى طوال سينين عديدة. وذات يوم بينما هو يسير فى الحديقة غرسه فى الأرض ولما حاول انتزاعه وجده قد أنبت وخرجت منه البراعم والنوَّارات. وهو نفسه القضيب الذى يختبر به أى رجل يتقدم إليه طالباً الزواج من إحدى بناته. وهو يُصِرُّ على أن يحاول خطابنا انتزاعه من الأرض، لكنهم ما إن يلمسوه إلا ويلتهمهم».

وبعد ما حكت له صفُّورة حكاية القضيب الذى يمتلكه أبوها، عادت إلى بيتها ومعها أخواتها وتبعهن موسى.

كانت دهشة يثرون كبيرة عندما وجد أن بناته لم يتأخرن فى العودة إلى المنزل، إذ كُنَّ يتأخرن فى العودة من سقاية القطعان بسبب مضايقات الرعاة لهن. وما كاد يسمع منهن حكاية المصرى العجيب وما فعله معهن، إلا وصاح قائلاً: «لعله من ذرية إبراهيم، الذى منه بورك العالم كله!» ثم عاتب بناته أن لم يقمن بدعوة الغريب الذى أدى لهن هذه الخدمة الجليلة، إلى المنزل، وأمرهن بالعودة لإحضاره، على أمل أن يتزوج واحدة من بناته.

كان موسى يقف بالخارج أثناء ذلك، ولم يعترض على وصف بنات يثرون له بأنه مصرى، فلم يحتج ويؤكد على أصله العبرى. وقد عاقبه الرب على ذلك بأن جعله يموت خارج الأرض الموعودة، أما يوسف، الذى كان قد أعلن على الملأ أنه عبرى، فقد استراحت عظامه راحتها الأبدية فى أرض العبريين، لكن موسى، الذى لم يُظهر اعتراضاً على وصفه بالمصرى، فقد كتب عليه أن يعيش ويموت خارج تلك الأرض.

أسرعت صَفُّورة لتنفِّذ طلب أبيها، وما كادت تأذن لموسى بدخول المنزل إلا وطلب الزواج منها فأجابه يثرون: «إذا استطعت إحضار القضيب الذى فى حديقتى، سأعطيك إياها». فخرج موسى إلى الحديقة ووجد القضيب الذى وهبه الرب لآدم والذى كان يثرون قد غرسه فى الحديقة. انتزعه موسى من مكانه وناوله ليثرون الذى أدرك على الفور أن موسى ما هو إلا ذلك النبى الذى بُشِّر به بنو إسرائيل والذى تنبأ جميع حكماء مصر بأنه سيدمر أرضها ويقضى على أهلها. وما إن طرأ ذلك الخاطر بباله، إلا وأمسك بموسى وألقاه فى جُبٍّ لعله يلقى مصرعه فيها.

وقد كاد موسى يهلك فعلاً لولا أن احتالت صَفُّورة لإنقاذ حياته، إذ قالت لأبيها: «استمع لنصحيتى.. ليس لك زوجة ولكن لك بنات فقط. فهل

تريد لبناتك الست أن يترأسن أهل بيتك؟ إن كان ذلك ما تريد فسأخرج بالغنم. وإلاَّ فمُرْ أخواتى برعى القطيع وسأعتنى أنا بالمنزل». فأجابها أبوها: «كلامك جميل. لتخرج شقيقاتك الست بالغنم، وابْقَىْ أنتِ بالمنزل واعتنى به وبكل ما يخصنى فيه».

الآن أصبح فى مقدور صَفُّورة إمداد موسى بكل ما يحتاج إليه وهو ملقى فى الجب، وظلت تفعل ذلك طوال سبع سنوات. وبعد انقضاء هذه الأعوام السبعة، قالت لأبيها: «لقد تذكَّرتُ أنك قد ألقيت، ذات يوم، فى الجب رجلاً جلب لك قضيبك من الحديقة، وقد ارتكبت جرماً عظيماً بذلك. فإذا شئت فاكشف غطاء البئر وانظر فيه، فإذا كان ذلك الرجل قد مات فألقِ جثته بعيداً، لكيلا تملأ المنزل بالرائحة النتنة لكن إن وجدته حيا فلابد أن تؤمن وتُقِرَّ بأنه واحد من أولئك الأتقياء، وإلا لكان قد مات من الجوع.

رد يثرون عليها قائلاً: «رأى صائب. هل تذكرين اسمه؟ فأجابته صفورة: «أذكر أنه كان يسمِّى نفسه «موسى بن عمرام»، فهرول يثرون إلى البئر ونادى قائلاً: «موسى! يا موسى!» فرد موسى: «ها أنا ذا!» فأخرجه يثرون من البئر وقبَّله وقال له: «تبارك الرب الذى حماك طوال سبع سنين فى البئر. إنى لأقِرُّ بأنه يميت ويحيى، وبأنك واحد من التقاة الكاملين، وأن الرب سيهلك بك مصر فى قادم الأيام، ويخرج شعبه من أرضها، ويغرق فرعون وجيشه كله فى البحر».

ثم أعطى يثرون لموسى مالاً كثيراً وزوَّجه ابنته صفُّورة على شرط أن يتم تقسيم الأطفال الذين سينجبونهما إلى قسمين، فيكون نصفهما إسرائيليين والنصف الآخر مصريين. وعندما ولدت له صفّورة ولدا، ختنه موسى وأسماه «جيرشوم»، تذكيراً بالمعجزة التى صنعها الرب لأجله، إذ بالرغم من أنه قد عاش فى أرض «غريبة»، فإن الرب لم يرفض مساعدته «هناك».

ظلت صفُّورة ترضع طفلها حتى بلغ من العمر عامين، ثم فى العام الثالث ولدا ابناً ثانياً. ولمَّا تذكَّر موسى اتفاقه مع يثرون، أدرك أن حميه لن يدعه يختن ذلك الابن، لذا فقد قرر العودة إلى مصر، لكى يتسنَّى له تربية ابنه الثانى كإسرائيلى. وفى طريقه إلى مصر ظهر له الشيطان متنكراً فى هيئة حيَّة فابتلع موسى فى جوفه. وعلمت صَفُّورة أن ذلك إنما كان لأن موسى لم يختن ابنه الثانى فهرولت وختنته وأراقت دم الختان على قدم الحية، وما كادت تفعل ذلك إلا وسمعت هاتفاً سماويا يهتف بالحية قائلاً: «تقيئيه» فخرج موسى من جوف الحية واقفاً على قدميه. وهكذا أنقذت صفُّورة حياة موسى مرتين، من الهلاك فى البئر أولاً، ثم من الحية ثانياً.

عندما وصل موسى إلى مصر اقترب منه داثان وأبيرام، قائدا الإسرائيليين، وقالا له: «هل جئتنا لتذبحنا، أم تريد أن تفعل معنا مثل ما فعلت مع المصرى؟» فرجع موسى مهرولاً إلى مديان وبقى فيها لعامين، إلى أن كشف له الرب عن نفسه فى حوريب وقال له: «اذهب فأخرج أطفالى من أرض مصر».



عـلاج دمـوى

كانت السنون الأخيرة فى استعباد الإسرائيليين فى مصر هى الأسوأ. وعقاباً لفرعون على وحشيته مع بنى إسرائيل، بلاه الرب بالبرص الذى غطى بدنه كله، من أم رأسه إلى إخمص قدميه. وبدلاً من يتعظ ويعتبر بما بُلى به من مرض، بقى فرعون غليظ الرقبة وحاول استعادة عافيته عن طريق قتل الأطفال الإسرائيليين. واستشار مستشاريه الثلاثة بلعام ويثرون وأيوب، ليعرف كيف يتخلص من ذلك المرض البشع الذى أصابه، فأجابه بلعام قائلاً: «لن تستعيد عافيتك إلا إذا ذبحت أطفالاً إسرائيليين واستحممت فى دمائهم». وكره يثرون أن يشارك فى هذه الجريمة النكراء، فترك الملك وفر إلى مديان. أما أيوب فعلى الرغم من أنه استاء من نصيحة بلعام، فإنه قد التزم الصمت ولم يُبْد اعتراضاً عليها، فعاقبه الرب على ذلك بمعاناة دامت عاماً، لكنه أثابه فيما بعد بالاستمتاع بكل ملذات الحياة ومنحه سنين عديدة، لكى تكون مكافأة لهذا «الأممى» التقى فى هذه الدنيا على صنائعه الخيرة، ولكيلا يطالب بأى نعيم فى الحياة الآخرة.

تنفيذاً للنصيحة الدموية التى نصحه بها بلعام، أمر فرعون جلاديه بخطف الأطفال الإسرائيليين من على صدور أمهاتهم، وذبحهم، ثم اغتسل بدماء هؤلاء الأبرياء. وظل المرض ملازماً له طوال تسع سنوات، كان يقتل فيها كل يوم طفلاً إسرائيليا ليغتسل فى دمائه. لكن كان كل ذلك دون جدوى؛ بل إن برصه تحول فى نهاية تلك المدة إلى دمامل، زادته معاناة على معاناته.

وبينما فرعون يصطلى بنار آلامه، جاءه الخبر أن بنى إسرائيل المقيمين فى أرض جاسان قد بدأوا يتراخون ويتكاسلون فى عملهم المفروض عليهم. وزادت تلك الأخبار من معاناته وقال: «لابد أنهم سيسخرون مِنِّى ويستهزءون بى، وأنا مريض على هذه الحال. أعدوا لى عربتى لأذهب بنفسى إلى جاسان فأرى كيف يحتقرنى بنو اسرائيل». فحملوه وأركبوه جواده، إذ كان لا يقدر على امتطائه دون مساعدة. وعندما وصل هو ورجاله إلى الحدود بين مصر وجاسان دخل جواد الملك فى ممر ضيق، ولما كانت الجياد الأخرى تتبعه فى سرعة فقد اصطدم بعضها ببعض حتى اصطدمت بجواد الملك فأسقطته أرضاً وانقلبت عربته على وجهه وتبعها جواده. عند ذلك تمزق لحم الملك، إذ كان ذلك مِنْ فِعْل الرب، فقد سمع صرخات شعبه وأنينهم. حمل عبيد الملك ملكهم على أكتافهم وأعادوه إلى مصر ووضعوه فوق سريره.

علم الملك أن أجله قد اقترب، واجتمع حول فراشه الملكة والنبلاء، وبكوا معه بكاء مريراً.

نصح الأمراء والمستشارون ملكهم بأن يختار لنفسه خليفة، ليحكم بدلاً منه، وليختار من شاء من أبنائه. وكان له ثلاثة أبناء وبنتين من الملكة الفرعونة، مع أطفال آخرين أنجبهم من جواريه. وكان اسم ابنه البكر عترو، بينما كان اسم الثانى عدِقام، والثالث موريون. وكان اسم البنت الكبرى بَتّ هِى، والثانية عقوزيت. وكان الابن البكر معتوهاً وأبله وأخرق فى جميع أفعاله. أما عدقام، الابن الثانى، فقد كان ماكراً حاذقاً، عالماً بجميع علوم مصر، لكنه كان قبيح المنظر ممتلئ البدن قصير القامة، وكان طوله شبرا ونصف وكانت لحيته تتدلى إلى كاحليه.

قرر الملك أن يولِّى عدقام من بعده. وعندما بلغ هذا الابن العام الثانى عشر من عمره زوَّجه أبوه من جديده ابنة عبيلات، فولدت له أربعة أبناء. وفيما بعد تزوج عدقام من أخريات وأنجب ثمانية من الأبناء وثلاث بنات.

اشتد مرض الملك وانتشرت من لحمه رائحة نتنة كرائحة جيفة ملقاة فى أرض عراء تحت حرارة الشمس. وعندما رأى أن المرض قد بلغ مأربه منه وأطبق عليه، أمر بإحضار ابنه عدقام فولّاه ملك البلاد بدلاً منه.

وبعد ثلاث سنوات مات الملك العجوز فى خزى ومذلة، وبعد أن صار منظره منفراً لكل من يراه، فدفنوه فى مقبرة ملوك مصر فى «زوعان»، لكنهم لم يحنطوا جثمانه، كما هى العادة مع الملوك، لأن لحمه كان قد تعفن فلم يستطيعوا الاقتراب من جثمانه بسبب الرائحة النتنة التى كانت تفوح منه، فدفنوه فى سرعة واستعجال. وهكذا فقد جزاه الرب على السيئة بمثلها، جزاءً على ما اقترف من شرور فى حق بنى إسرائيل، ومات مرعوباً خزياناً بعد أن حكم البلاد أربعاً وتسعين سنة.

كان عدقام فى العشرين من عمره عندما خلف أباه، وحكم لأربع سنوات. وسماه أهل مصر «فرعون» كعادتهم فى تسمية ملوكهم، لكنَّ حكماءهم سموه «عقوز» لأن كلمة عقوز معناها «القصير»، باللغة المصرية، وقد كان عدقام بالغ القصر وكأنه قزم. وفاق الملك الجديد أباه «معلول» وجميع الملوك الذين سبقوه، فى الشرِّ وأثقل على بنى إسرائيل أكثر وأكثر. وذهب بنفسه مع عبيده إلى أرض جاسان وزاد الأعمال المفروضة عليهم وقال لهم: «أتموا عملكم، وأنجزوا مهمة كل يوم، ولا تتراخوا فى العمل بدءاً من اليوم، كما كنتم تفعلون أيام أبى». وأقام عليهم مشرفين من بنى إسرائيل، ثم أقام على هؤلاء المشرفين رؤساء من عبيده. وحدد لهم كمية معينة من القرميد يصنعونها كل يوم، فإذا حدث واكتشف نقصاً فى الكمية التى ينتجونها كل يوم، كان رئيس المشرفين يذهب إلى نساء بنى إسرائيل فيأخذ منهن أطفالهن بعدد يساوى النقص فى القرميد، ثم يضع هؤلاء الأطفال فى المبنى، تكملةً له، بدلاً من القرميد الناقص. وأجبر رؤساء العمل كل رجل من الإسرائيليين على وضع طفله فى المبنى. وكان الأب يضع ابنه داخل الحائط ثم يغطيه بالملاط، باكياً بكاءً مرا وتنحدر دموعه فوق طفله.

كان بنو إسرائيل لا يكفون عن الأنين كل يوم من العنت والمعاناة التى يعيشونها، إذ كانوا يظنون أنه بعد موت الفرعون سيخفف ابنه عنهم أحمالهم قليلاً، لكن الملك الجديد كان أسوأ من أبيه وأشد وطأة عليهم منه. ورأى الرب العذاب الذى يعيش فيه بنو إسرائيل وما فرض عليهم من عمل شاق، فقرر أن يخلِّصهم.

لكن لم يقرر الرب تخليص بنى إسرائيل كرامةً لهم، لأنهم كانوا بلا معروف وكان الرب يعلم مسبقاً أنهم ما إن يتم تخليصهم إلا ويثوروا ضده، وبل وسيعبدون العجل الذهبى كذلك. ومع ذلك فإنه قد رحمهم لأنه تذكَّر عهده مع آبائهم، ونظر إلى توبتهم، وقَبِلَ وعدهم بأنهم سينفذون كلمات الرب بعد خروجهم من مصر، حتى قبل أن يسمعوها.

لكن بنى إسرائيل لم يعدموا سجايا، فقد كانت لهم طبائع ممتازة للغاية، فلم تكن بينهم علاقات زنا محارم، ولم يكن لسانهم يقذف بالسوء، ولم يغيروا أسماءهم، وتشبثوا باللغة العبرية، ولم يتخلوا عنها أبداً، وكان يسود بينهم مودة أخوية عظيمة. فإذا حدث وأنهى أحدهم حصته من القرميد قبل جيرانه، كان يهرع لمساعدتهم. لهذا قال الرب: «إنهم يستحقون أن أرحمهم، إذ طالما أظهر الإنسان رحمته بالآخرين، سأرحمه أنا».

الراعــى الأميــن

عندما زوَّج يثرون ابنته صفُّورة لموسى قال لختنه فى المستقبل: «أعلم أن أباك يعقوب قد أخذ زوجتيه، ابنتَىْ لابان، ورحل بهما على غير رغبة أبيهما. والآن أقسم لى أنك لن تفعل مثل ما فعل»، فأقسم له موسى ألا يرحل دون رضاه، وبقى مع يثرون الذى جعله راعياً على قطعانه. ومن طريقة رعايته للغنم، رأى الرب صلاحيته لأن يكون راعياً لشعبه، إذ أن الرب لا يمنح أحداً أبداً منصباً سامياً، إلا إذا اختبره أولاً فى الأشياء البسيطة. وبهذه الطريقة تم امتحان موسى وداود فى رعى الغنم، ولم يجعلهما الرب سيدين على الرجال، إلا بعد أن أثبتا قدراتهما فى ذلك.

كان موسى يرعى القطعان فى حب واهتمام. وكان يترك الأغنام الصغيرة ترعى أولاً لكى تنال العشب اللين الممتلئ بالعصارة طعاماً لها، ثم يقود الأغنام الأكبر سنا ليجعلها ترعى على الأعشاب المناسبة لها، ثم يقود الأغنام القوية التى اكتمل نضجها فيعطيها الحشائش اليابسة التى تتبقى، والتى لم تستطع الأغنام الأخرى أكلها، ولكنها تعتبر غذاء جيداً للأغنام القوية. ثم قال الرب: «إن من يفهم كيف يطعم الأغنام، ويوفر لكلٍّ منها ما يصلح له، سوف يرعى شعبى».

وذات مرة فرَّ حمل من القطيع فتتبعه موسى فرآه يتوقف عند مجرَى

المياه ليشرب، فقال موسى: «أيها الفتى المسكين، لم أكن أعلم أنك عطشان وأنك كنت تجرى من أجل الماء! لابد أنك منهك». ثم حمله على كتفيه وأعاده إلى القطيع. فقال الرب: «إن بك رأفة بقطيع يخص رجلاً من لحم ودم! وحياتك لترعين إسرائيل قطيعى».

ولم يكن موسى يهتم فقط بألا يصيب القطعان المسئول عنها مكروه، ولكنه كان حريصاً كذلك على ألا تؤذى أحداً من البشر. وكان يختار دائماً مَرجاً مفتوحاً ليرعى فيه قطعانه، لكى يحول دون نفوش أغنامه فى مراعى الناس.

لم يجد يثرون سبباً يجعله يسخط على الخدمات التى يؤديها له زوج ابنته. فخلال الأربعين سنة التى عمل فيها موسى راعياً لأغنامه لم يتعرض سبع مرة أبداً لها، وتكاثرت القطعان إلى درجة غير معقولة. وذات يوم قاد الغنم فى الصحراء لمسيرة أربعين يوماً دون أن يجد مرعى لها، ومع ذلك فلم تضع منه غنمة واحدة.

كان حنين موسى إلى الصحراء أمراً لا يستطيع مقاومته، فقد رأى بروح النبوة أن عظمته وعظمة بنى إسرائيل سوف تتجلى فيها. وفى الصحراء سوف تظهر عجائب الرب، بالرغم من أنها ستكون فى الوقت نفسه قبراً للقطيع البشرى الذى سيؤتمن عليه فى المستقبل، وكذلك مستقره الأبدى. وهكذا فقد كان لديه حدسٌ غريزى فى بداية عمله يُنَبِّئُه بأن الصحراء ستكون مسرحاً لنشاطه، وهو الأمر الذى لم يتحقق فى سياق الأحداث الحالية وحسب، وإنما فى الأيام الأخيرة كذلك، عندما سيظهر فى الصحراء مرة أخرى ليقود إلى الأرض الموعودة ذلك الجيل الذى حرره من عبودية المصريين، بعدما يبعثون من قبورهم.

وأثناء تجواله فى الصحراء اقترب من جبل حوريب، والذى تطلق عليه ستة أسماء يدل كل منها على إحدى مميزاته. فهو «جبل الرب» حيث أوحى

الرب الإله شـريعـتـه؛ وهو «بسـبـات» لأن الرب «أتى هناك»؛ وهو «جـبل الأسنمة» لأن الرب أعلن عن عدم صلاحية جميع الجبال الأخرى للوحى، مثلما أن الحيوانات «محدودبة الظهر» غير صالحة للتقديم قرابين، وهو «جبل السُكّنَى» لأنه هو الجبل الذى اختاره الرب لسكناه؛ وهو «جبل سيناء» لأن «كـراهيـة» الرب للوثنيـين بدأت فى الوقت الذى تَلقَّى فيـه إسـرائيل الشـريعـة على ذلك الجبل، وهو جبل «حوريب»، أى «السـيف»، لأن سـيف الشريعة قد استُل هناك ضد الخطاة.

الحرشة المشتعلة

عندما اقترب موسى من جبل حوريب، علم على الفور أنه مكان مقدس، لأنه لاحظ أن الطيور المارة لم تَطِرْ مارةً من فوقه. وعند اقترابه منه بدأ الجبل يتحرك، وكأنه يريد التقدم لمقابلته، ولم يستقر إلا بعد أن وطئه بقدمه. وكان أول ما لاحظه موسى هو الحرشة المشتعلة الرائعة، والتى كان جزؤها العلوى عبارة عن لهيب متقد، لا هو يقضى على الحرشة ولا هو يمنعها من إنبات البراعم أثناء اشتعالها، لأن النار السماوية لها ثلاث خصائص فريدة هى: أنها تنتج براعم، ولا تقضى على الشىء الذى تتراقص من حوله، وهى سوداء اللون. وكانت النار التى رآها موسى فى الحرشة هى وجه الملاك ميكائيل الذى نزل بشيراً بالشكينة التى كانت ستتنزل هى الأخرى بنفسها فوراً. وكان الرب يريد محادثة موسى، والذى لم يكن يريد لشىء كان أن يشغله عن العمل الذى كُلِّف به. لهذا فإن الرب لفت نظره وأدهشه بظاهرة الحرشة المشتعلة، فتوقف موسى ثم تكلم الرب معه.

كانت هناك أسباب جديدة وراء اختيار الحرشة كوعاء للرؤيا الإلهية. فقد كانت «نظيفة»، إذ لا يستطيع الوثنيون استخدامها لصنع الأصنام. وقد أوحى اختيار الرب الإقامة فى الحرشة المُقَزَّمَة إلى موسى بأنه هو الآخر (= الرب) كان يعانى مع إسرائيل. كما علم موسى من ذلك أيضاً أنه لا يوجد شىء، ولا حتى الحرشة الحقيرة، دون وجود الشكينة. كما أنه يمكن اعتبار تلك الحرشة رمزاً لإسرائيل من نواحٍ عديدة. فكما أن هذه الحرشة

هى أدنى أنواع الأشجار، فإن حالة إسرائيل فى منفاه هى الدنيا، إذا ما قورنت بأحوال الأمم الأخرى؛ ولكن وكما أن الحرشة لا تفلت طائراً يحط عليها دون أن تمزِّق جناحيه، فإن الأمم التى تضطهد إسرائيل سوف تُعاقب. كذلك فإن سياج الحديقة يتكون من أحراش، وكذلك إسرائيل هو سياج العالم، الذى هو حديقة الرب، لأن العالم لا يمكن أن يستمر دون إسرائيل. وكما أن الحرشة تحمل الأشواك والأزهار معاً، فإن بإسرائيل الصالحون والطالحون، وكما تحتاج الحرشة إلى مياه وافرة لكى تنمو، فإن إسرائيل لا يمكن أن يزدهر إلا من خلال التوراة التى هى المياه السماوية. كما كانت الحرشة ـ التى تتكون ورقتها من خمس وريقات ـ قد أوحت لموسى بأن الرب لم يقدِّر تخليص إسرائيل إلا من أجل خاطر خمسة رجال أتقياء، هم إبراهيم وإسحق ويعقوب وهارون وموسى. والأرقام التى تمثلها الحروف التى تتكون منها كلمة حرشة بالعبرية، وهى «سِنيه»، ومجموعها مئة وعشرون، قد ألمحت إلى أن موسى سيعيش حتى يبلغ من العمر مئة وعشرين عاماً، وأن الشكينة سوف تستقر فوق جبل حوريب مئة وعشرون يوماً. وأخيراً، ولكى يُظْهِر لموسى تواضعه، فإن الرب قد نزل من سماواته العلى وكلَّمه من حرشة حقيرة بدلاً من أن يكلمه من على قمة جبل شاهق أو من على قمة شجرة أرز عالية(*).

(*) تعالى الله عن هذه الخرافات علوّا كبيراً!

صعـود موسـى

ظهرت رؤيا الحرشة المشتعلة لموسى وحده، ولم يرها الرعاة الآخرون الذين كانوا معه. فخطا خمس خطوات تجاه الحرشة ليراها عن كثب، فرأى الرب ملامح موسى وقد علاها الحزن والغم لمعاناة إسرائيل، فقال الرب: «إن هذا لجدير بأن يتولى مسئولية رعاية شعبى».

كان موسى لا يزال حديث عهد بالنبوة، ولذا فقد قال الرب لنفسه: «لو كشفت له نفسى بصوت عال، فسوف يضطرب، ولكن إذا كشفت له عن نفسى بصوت خفيض، سيستخفُّ بالنبوة» ولذا فقد أوحى له بصوت أبيه عمرام. وفرح موسى كثيراً عند سماع صوت أبيه، إذ طمأنه ذلك على أنه لا يزال حياً. وناداه الصوت باسمه مرتين، فردَّ قائلاً: «هاأنذا. ماذا يريد أبى؟» فأجابه الرب قائلاً: «لستُ أباك، ولكننى لم أشأ إفزاعك، ولهذا فقد كلمتك بصوت أبيك. أنا رب أبيك ورب إبراهيم ورب إسحق ورب يعقوب». وسرَّت هذه الكلمات موسى سروراً عظيماً، إذ لم يُنطق اسم أبيه عمرام فى نفس واحد مع أسماء الآباء الثلاثة، ولكنه سبقها كذلك، وكأنما هو أعلى منهم شأناً.

لم ينبس موسى بكلمة، وغطَّى وجهه فى مهاب صموت للرؤيا الإلهية، فلما كشف له الرب عن المهمة التى أوكله بها، وهى إخراج الإسرائيليين من أرض مصر، أجاب فى تواضع: «ومن أنا حتى أذهب إلى فرعون فأخرج بنى إسرائيل من أرض مصر؟» فقال له الرب: «أنت متواضع يا موسى وسوف

أكافئك على تواضعك. سأضع أرض مصر كلها بين يديك، كما سأرفعك إلى عِرش مجدى، فتنظر من فوقه إلى جميع ملائكة السماء».

ثم أمر الرب ميتاترون ملاك الوجه بقيادة موسى إلى المناطق السماوية وسط الموسيقى والأناشيد، كما أمره باستدعاء ثلاثين ألف ملك كحراس خصوصيين له، خمسة عشر ألفا عن يمينه وخمسة عشر ألفا عن شماله. وسأل موسى ميتاترون فى رعب: «من أنت؟» فأجابه الملاك: «أنا إينوخ بن جاريد جدك، وقد أمرنى الرب بمرافقتك إلى عرشه» لكن موسى اعترض قائلاً: «لكننى من لحم ودم ولا أستطيع النظر فى وجه أى ملاك!» فحوَّل ميتاترون لحم موسى إلى شعلات من النار وحوَّل عينيه إلى عجلات «مركبة» وحوَّل قوَّته إلى قوة ملاك، ولسانه إلى لهيب وأخذه إلى السماء مع موكب من ثلاثين ألف ملك، نصفهم عن يمينه ونصفهم عن شماله.

فى السماء الأولى رأى موسى أنهاراً فوق أنهار من الماء، ولاحظ أن السماء كلها كانت تتكون من نوافذ فى كل نافذة ملائكة. وأخذ ميتاترون يشير إلى كل نافذة من السماء ويذكر له اسمها: فهذه نافذة الوفرة وتلك نافذة القحط؛ وهذه نافذة الغِنى وتلك نافذة الفقر؛ وهذه نافذة الحرب وتلك نافذة السلم؛ وهذه نافذة الحمل وتلك نافذة الولادة؛ وهذه نافذة السيول وتلك نافذة الموت؛ وهذه نافذة الوباء وتلك نافذة الشفاء؛ وهذه نافذة السقم وتلك نافذة الصحة، وغيرها الكثير الكثير.

وفى السماء الثانية رأى موسى الملاك نورئيل وقد ارتفعت هامته ثلاثمائة فرسخ ومعه حشده من خمسين فوجاً من الملائكة، كلهم خلقوا من الماء والنار، وكلهم يولِّى وجهه قبالة الشكينة وهم ينشدون بحمد الرب. وشرح ميتاترون لموسى أن هؤلاء هم الملائكة الموكلون بالسحب والرياح والأمطار، والذين ما إن ينتهوا من مهامهم حتى يعودوا مسرعين إلى مقامهم فى السماء الثانية ليواصلوا حمد الرب.

وفى السماء الثالثة رأى موسى ملاكاً بلغ من الطول أن المرء ليحتاج إلى خمسمئة سنة حتى يتسلق إلى قمة رأسه. وكان له سبعون ألف رأس بكل رأس مثل ذلك من الأفواه وبكل فم مثل ذلك من الألسنة وينطق كل لسان بمثل ذلك من الأقوال، وكان هو والسبعون ألف ملك الذين معه، يلهجون بالثناء على الرب وحمده. وقال ميتاترون لموسى: «هؤلاء يسمَّوْن «عريليم» وهم موكلون بالعشب والأشجار والفواكه والحبوب، لكنهم ما إن ينتهوا من تنفيذ مشيئة خالقهم، حتى يعودوا إلى المكان المخصص لهم ويحمدوا الرب».

وفى السماء الرابعة رأى موسى هيكلاً أعمدته من النار الحمراء وموقده من النار الخضراء وعتباته من النار البيضاء وألواحه وكلاّباته من النار الملتهبة، وبواباته من الجمر وأبراجه من الياقوت وكانت الملائكة تدخل الهيكل فتحمد الرب فيه. ورداً على سؤال سأله موسى أخبره الميتاترون بأنهم الملائكة الموكلون بالأرض والشمس والقمر والنجوم وغيرها من الأجرام السماوية، وكلها كانت تترنم بترانيم للرب. كما لاحظ موسى كذلك فى هذه السماء الكوكبين العظيمين، الزهراء والمريخ، وكل منهما فى مثل حجم الأرض كلها فسأله موسى عن السبب الذى خلقا من أجله، فأجابه الميتاترون بأن الزهرة ترقد فوق الشمس لتبردَّه (= الشمس)(*) فى الصيف وإلا أحرق الأرض، بينما يرقد المريخ فوق القمر ليبث فيها (=القمر) الدفء»، وإلا جمَّد الأرض.

ولما وصل موسى إلى السماء الخامسة رأى فيها ملائكة نصفهم الأسفل من الثلج والأعلى من النار، لكن الثلج لا يذوب ولا النار تنطفئ، لأن الرب جعل بين العنصرين (= الثلج والنار) انسجاماً تاماً. وليس لهؤلاء الملائكة - وهم يسمَّون «إيشيم» - من شغل منذ خُلِقوا إلا التسبيح بحمد الرب والثناء عليه.

(*) تذكَّر أن الشمس (وفقاً للعقائد الوثنية اليونانية) لها إله مذكَّر، ولذا فالإشارة إليها هنا هى بضمير المذكرّ. أما القمر فله إلهة مؤنثة، ومن ثم الإشارة إليه بضمير المؤنث (المترجم).

وفى السماء السادسة كانت ملايين وألوف مؤلفة من الملائكة تحمد الرب، وكانت تُسمَّى «إرين» و «قداشيم»، أى «الراعون» و «القدوسون»، وكان رئيسهم مخلوقاً من البرد، وكان من الطول أن السير مسافة تعادل طول قامته يستغرق خمسمائة عام.

وفى السماء الأخيرة رأى موسى ملكين، طول كل منهما خمسمائة فرسخ، خُلِقَا من سلاسل من النار السوداء والنار الحمراء، وهما الملاكان «عَفّان»، أى الغضب، و «حَمَا» ، أى «السخْط»، وقد خلقهما الرب فى بداية خلق العالم، لكى ينفّذا مشيئته. وفزع موسى لمرآهما، لكن ميتاترون عانقه وقال له: «موسى، يا موسى.. أيها المفضل لدى الرب.. لا تخف ولا تفزع»، فهدأ روع موسى. كما كان فى السماء السابعة ملاك آخر، يختلف فى مظهره عن جميع الملائكة الأخرى، وذو هيئة مخيفة. وكان طوله عظيماً إلى درجة أن السير مسافة تعادله يستغرق خمسئمة عام، وكان مدججاً، من أم رأسه إلى إخمص قدميه بعيون متقِدة حتى إنَّ من يراه يخر مغشيا عليه من الخوف عند رؤيته. وقال ميتاترون لموسى: «هذا الملاك هو سَمَاعيل الذى يأخذ الروح من الإنسان». فسأله موسى: «وإلى أين هو ذاهب الآن؟» فأجابه الميتاترون: «لكى يجلب روح أيوب التقىّ». فدعا موسى الرب قائلاً: «لتكن مشيئتك يا ربى ورب آبائى ألاَّ أقع بين يدى هذا الملاك».

كما رأى كذلك، فى تلك السماء العليا، الملائكة السيرافيم بأجنحتها الستة. فهى تغطى وجهها بجناحين لكيلا تنظر إلى الشكينة، وتغطى بجناحين قدميها لأنها مثل أظلاف العجول، فتخفى (عن الرب) سر عبادة إسرائيل للعجل الذهبى - بينما تطير بالزوج الثالث من الأجنحة لتنفذ أوامر الرب، صائحة على الدوام: «قدوس قدوس رب الملائكة ؛ الأرض كلها مملوءة بمجده» وأجنحة هذه الملائكة هائلة الحجم، إذ يستغرق الرجل خمسمئة عام ليقطع المسافة بين طرفى جناحيها، وهى نفس المسافة التى يستغرقها سيراً من أحد طرفى الأرض إلى الطرف الآخر.

كما رأى موسى فى السماء السابعة الحيُّوت المقدسة والتى تحمل عرش الرب؛ كما رأى الملاك «زجزاجيل» أمير التوراة والحكمة والذى يعلِّم التوراة بسبعين لغة لأرواح البشر، لينعموا بعدها بالمبادئ التى فيها على هيئة قوانين وشرائع أنزلها الرب إلى موسى على جبل سيناء. وقد تعلم موسى من هذا الملاك نفسه الأسرار العشرة كلها.

وبعدما رأى موسى ما فى السموات السبع قال للرب: «لن أغادر السموات حتى تهبنى هبة» فأجابه الرب: «سأهبك التوراة وسوف يسميها البشر «شريعة موسى»».

موسى يزور الجنة والنار

عندما كان موسى على وشك مغادرة السموات، هتف هاتف سماوى قائلاً: «موسى... لقد جئت إلى هنا ورأيت عرش مجدى. سترى الآن كذلك الجنة والنار». وأرسل الربُّ جبريل لكى يُرىَ موسى النار. لكن موسى، عندما رأى نيران الجحيم عند دخوله من أبوابها، تملَّكه الخوف ورفض التقدم. لكن الملاك شجعه قائلاً: «هناك نار لا تحرق فقط، وإنما تُهْلِك أيضاً، وهذه النار ستحميك من نيران الجحيم، فتستطيع الجلوس عليها دون أن تمسَّك بسوء».

وعند دخول موسى إلى الجحيم تراجعت النار إلى الخلف مسافة خمسمئة فرسخ وسأله نَسرجيل، ملاك النار، قائلاً: «من أنت؟» فأجابه: «أنا موسى بن عمرام».

نَسرَجيل: «ليس هنا مكانك، وإنما مكانك فى الفردوس»..

موسى: «لقد جئت إلى هنا لأرى قدرة الرب».

ثم قال الرب لملاك الجحيم: اذهب وأرِ الجحيم لموسى، وكيف يعاملُ الأشرار فيه» فهبَّ من فوره مع موسى، سائراً أمامه كما يسير التلميذ أمام أستاذه، فدخلا إلى الجحيم معاً، ورأى موسى أناساً يتعذبون على أيدى «ملائكة الدمار»، وكان بعض الخطاة معلقين من أهدابهم، والبعض من آذانهم، والبعض من أيديهم، والبعض من ألسنتهم، وكانوا يبكون فى مرارة. ورأى نساء معلقاتٍ من شعرهن وأثدائهن، وبطرق أخرى، وجميعهن فى

سلاسل من النار. شرح له نسرجيل الأمر قائلاً: «هؤلاء معلقون من أعينهم لأنهم نظروا بها اشتهاءً لزوجات جيرانهم، ونظروا بعين الطمع لما فى أيدى غيرهم من الناس. وهؤلاء معلقون من آذانهم لأنهم أنصتوا لكلام فارغ عقيم، وسدُّوا آذانهم عن الاستماع إلى التوراة. وهؤلاء معلقون من ألسنتهم لأنهم تكلموا بالنميمة وعوَّدوا ألسنتهم على الثرثرة بالكلام السخيف. وهؤلاء معلقون من أقدامهم لأنهم مشوا بها لكى يتجسسوا على غيرهم، ولم يمشوا بها إلى الكنيس ليصلوا لخالقهم. وهؤلاء معلقون من أيديهم لأنهم سرقوا بها ما لجيرانهم وسفكوا بها الدماء. وهؤلاء النسوة معلقات من شعرهن وأثدائهن لأنهن لم يغطينها أمام الشباب فأغرينهم فوقعوا فى الخطيئة».

سمع موسى الجحيم يصرخ صرخة عظيمة ومريرة قائلاً لنسرجيل: «أعطنى شيئاً آكله، أنا جوعان». فقال له نسرجيل: «وماذا أعطيك؟» فرد الجحيم: «أعطنى أروح المتقين». فأجابه نسرجيل: «إن القدوس، تبارك وتعالى، لن يسلمك أرواح المتقين».

رأى موسى المكان الذى يُسَمَّى «علوقاه» (من التعليق) حيث عُلِّق الخطاة من أقدامهم فكانت رؤوسهم لأسفل، وتغطى أبدانهم ديدان سوداء طول كل منها خمسمئة فرسخ. وكانوا ينوحون ويصرخون قائلين: «ويل لنا من عذاب النار. أمتْنا كى نموت!». وشرح له نسرجيل الأمر قائلاً: «هؤلاء هم الخطاه الذين حلفوا كذباً واعتدوا فى السبت والأيام المقدسة، واحتقروا الحكماء، ولمزوا جيرانهم، وظلموا اليتيم والأرمل وشهدوا زوراً. لهذا سلَّمهم الرب إلى هذه الديدان».

ثم ذهب موسى إلى مكان آخر فرأى فيه خطاة قد استلقوا على وجوههم، وعلى كل منهم ألفان من العقارب تلسعهم وتعضهم وتعذبهم، والضحايا المعذبون يصرخون ويبكون بكاء مريراً ـ وكان لكل عقرب سبعون ألف رأس، ولكلٍّ سبعون ألف فم وفى كل فم سبعون ألف إبرة سم وفى كل إبرة سبعون ألف كيس من السم، وكان الخطاة يشربونها عن آخرها رغماً

عنهم، بالرغم من شدة الألم الذى كانت تتصهر منه أعينهم فى محاجرها. وشرح له نسرجيل ذلك قائلاً: «هؤلاء هم الخطاة الذين تسببوا فى ضياع أموال الإسرائيليين إلى أيدى «الأغيار» وأنكروا توراة موسى، وادَّعَوْا أن الرب ليس هو خالق العالم».

ثم رأى موسى المكان المدعو «تين باتعِون» حيث يقف الخطاة فى وحل يصل إلى خواصرهم بينما يضربهم ملائكة الدمار بسلاسل من النار، ويكسرون أسنانهم بأحجار من النار، من الصباح إلى المساء، ثم تنمو أسنانهم خلال الليل مرة أخرى، فيصل طولها فرسخا واحدا، لا لشىء إلا لكى يتم تحطيمها فى الصباح التالى. وشرح له نسرجيل قائلاً: «هؤلاء هم الخطاة الذين أكلوا الجيف واللحوم المحرمة، والذين أقرضوا بالربا، والذين كتبوا اسم الرب على تعاويذ وأعطوها للأغيار، والذين غشوا فى الموازين، وسرقوا المال من إخوانهم الإسرائيليين، والذين أكلوا فى يوم الغفران، وأكلوا الشحم المحرم، وأكلوا الحيوانات والزواحف النجسة، وشربوا الدماء».

ثم قال نسرجيل لموسى: «تعال وانظر كيف يحترق الخطاة فى الجحيم» فأجابه موسى: «لا أستطيع». فرد نسرجيل قائلاً: «ليستقْبل نور الشكينة فلا يكون لنار الجحيم عليك من سلطان». فأذعن له موسى ورأى كيف يحترق الخطاة، حيث يتم غمس أبدانهم إلى نصفها فى النار، والنصف الآخر فى الثلج، بينما تتغذى الديدان على لحمهم وتزحف على أجسادهم، ولا يكُفُّ ملائكة الدمار عن جَلدهم بالسياط. وشرح له نسرجيل قائلاً: «هؤلاء هم الخطاة الذين اقترفوا فاحشة زنا المحارم، والقتل وعبادة الأصنام، ولعنوا آباءهم ومعلميهم، وادعوا أنهم آلهة، مثل النمرود وغيره». وقد رأى موسى فى هذا المكان ـ الذى يدعى «عَبَدُّون» ـ الخطاة يسرقون الثلج خفيةً فيضعونه تحت آباطهم، لكى يخففوا من الألم الذى تسببه النار المستعرة، فاقتنع بصدق قول القائل: «لا يتوب الأشرار ولو كانوا عند أبواب الجحيم».

عند مغادرة موسى للجحيم دعا الرب قائلاً: «لتكن مشيئتك، يارب يا إلهى وإله آبائى، أن تنجينى أنا وشعب إسرائيل من الأماكن التى رأيتها فى الجحيم». لكن الرب أجابه قائلاً: «يا موسى.. إنى لا أعبأ بالأشخاص ولا أقبل الرشاوى... فمن يفعل خيراً يدخل الفردوس ومن يفعل الشر لابد أن يلقى به فى الجحيم». الآن، وبأمر من الرب، قاد جبريل موسى إلى الفردوس، وعند دخوله تقدم ناحيته ملكان وقالا له: «لم يحن بَعْدُ أوانُ مغادرتك الدنيا» فأجابهما موسى: «صدقتما لكن إنما جئتُ لأرى ثواب المتقين فى الفردوس». وعند ذلك أثنى الملكان على موسى قائلين: «طوبى لموسى.. عند الرب! طوبى لموسى الذى ولدته امرأة استحقت الصعود إلى السموات السبع! طوبى للشعب الذى أنتَ منه».

وتحت ظلال شجرة الحياة رأى رأس الملاك «شمشيل»، أمير الفرودس، والذى جال به فيه وأراه كل ما فيه. ورأى سبعين عرشاً صنعت من أحجار كريمة وتنتصب على أقدام من الذهب الخالص، ويحيط بكل عرش سبعون ملاكاً. لكنه رأى عرشاً من بينها كان أضخم من الجميع ويحيط به مئة وعشرون ملكاً. وكان ذلك عرش إبراهيم الذى ـ عندما رأى موسى وعلم مَنْ يكون ولم جاء لزيارة الفردوس، صاح قائلاً: «لتحمد الرب لأنه خير، ورحمته تدوم إلى الأبد».

سأل موسى شَمشيل عن حجم الفردوس، لكن شمشيل، برغم أنه أمير الفردوس، لم يستطع الإجابة على سؤاله، لأنه ليس فى مقدور أحدٍ كان حساب حجم الفردوس. ولا يمكن قياسه ولا سبر عمقه وتعداده. لكن شمشيل أوضح لموسى أمر العروش ولم هى مختلفة أحدها عن الآخر، فبعضها من الفضة وبعضها من الذهب وبعضها من الأحجار النفيسة واللآلئ واليواقيت والجمرات. فالعروش المصنوعة من اللآلئ هى لطالبى العلم الذين يدرسون التوراة ليل نهار حبا فيها فَحَسْبَ؛ أما العروش المصنوعة من الأحجار النفيسة فهى للمتقين، والمصنوعة من الياقوت فهى

للعادلين، والمصنوعة من الذهب للخطاة التائبين، والمصنوعة من الفضة للمتهودين الصالحين. وواصل شمشيل قائلاً: «وأعظمها جميعاً عرش إبراهيم، يليه حجماً عرشا إسحق ويعقوب، ثم عروش الأنبياء والصديقين والصالحين، وكل عرش يتناسب فى حجمه مع قيمة الرجل ومكانته وأعمال الخير التى فعلها فى حياته». ثم سأله موسى عن عرش النحاس الأحمر لمن يكون، فأجابه الملاك: «للخاطئ الذى له ولد تقىّ. فهو يفوز بهذا العرش نصيباً له، بفضل سجايا ولده».

ثم نظر موسى مرة أخرى فرأى نبعاً من الماء الحى يتدفق من تحت شجرة الحياة ثم يتفرع إلى أربعة أنهر، تمر من تحت عرش المجد ثم تحيط بالفردوس من أقصاه إلى أقصاه. كما رأى أن أربعة أنهر تفيض تحت كل عرش من عروش المتقين، وأحدها من الشهد والثانى من اللبن والثالث من الخمر والرابع من البلسم النقى.

فلما رأى موسى كل هذه الأشياء السارة المبهجة أحس بفرح عظيم وقال: «ما أعظم خيرك الذى أعددته لمن يخشونك، وهيأته لمن وثقوا بك، قبل ثقتهم ببنى آدم!» ثم غادر موسى الفردوس وعاد إلى الأرض.

وفى لحظة مغادرته هتف هاتف سماوى قائلاً: «يا موسى.. يا عبد الرب..! أنت يا من آمنت ببيته، حتى بعد أن رأيت الثواب الذى أعدَّ للمتقين فى العالم الآتى.. فكذلك ستستحق أن ترى حياة العالم فى قادم الزمان. ولترينَّ أنت وجميع بنى إسرائيل بناء المعبد من جديد وظهور المسيَّا وتشاهدون جمال الرب وتتفكرون فى معبده».

وفى العالم الآتى، سيواصل موسى - بجانب مشاركته بنى إسرائيل أفراحهم - نشاطه كمعلم لإسرائيل لأن الناس سيذهبون إلى إبراهيم فيسألونه أن يعلمهم التوراة، لكنه سيرسلهم إلى إسحق قائلاً: «اذهبوا إلى إسحق فقد درس من التوراة أكثر مما درستُ»، لكن إسحق سيرسلهم بدوره

إلى يعقوب قائلاً: «اذهبوا إلى إسحق فقد تحدث مع الحكماء بأكثر مما فعلتُ» فيرسلهم يعقوب إلى موسى قائلاً: «اذهبوا إلى موسى فقد تعلَّم التوراة من الرب نفسه».

وفى زمن المسيا سيكون موسى من الرعاة السبعة الذين سيكونون قادة لإسرائيل مع المسيا.



موسى يرفض المهمة

عندما التفت موسى جانباً ليرى ذلك المنظر العظيم، أن الحرشة لم تهلك بالنار، سمع هاتفاً يناديه قائلاً: «لا تقترب». وقد أريد بهذه الكلمات الإيحاء بأن الكرامة التى سينالها إنما قصد بها الرب موسى وحده، دون ذريته، وألا يحاول اغتصاب المكارم التى خُصَّ بها الآخرون، مثل الكهانة التى خُصَّ بها هارون وذريته، أو المُلْكَ الذى خُصَّ به داود وبيته.

ثم هتف الهاتف مرة أخرى قائلاً: «اخلع نعليك فإن المكان الذى تقف به هو أرض مقدسة». وقد أوحت هذه الكلمات برغبة الرب أن يقطع موسى كل صلة تصله بالمشاغل الدنيوية، بل وأن يُقلع عن مواصلة حياته الجنسية كذلك. وعند ذلك تكلم الملاك ميكائيل قائلاً: «يارب العالم.. أتكون مشيئتك أن تُفْنى البشر؟ فإن النعمة لن تحل ببنى آدم إلا إذا اتحد الذكر مع الأنثى، ومع ذلك فإنك قد أمرت موسى بهجر زوجته». فأجابه الرب قائلاً: «لقد أنجب موسى الذرية وقام بواجبه تجاه العالم. أريده الآن أن يتحد مع الشكينة لكى تتنزل على الأرض من أجله».

ثم قال الرب لموسى: «إنك لا ترى إلا ما سيقع فى المستقبل القريب، وهو أن إسرائيل سيتلقَّى التوراة على جبل سيناء، لكننى أنا أرى ما سيكون بعد ذلك وكيف سيعبد الشعب العجل الذين سيرون صورته على عَرَبَتى حتى أثناء تنزل الوحى على سيناء. وبذلك سيتثيرون غضبى. ومع ذلك، وبرغم أنى أعلم كل خبايا قلوبهم، وأنهم سيتمردون ضدى فى الصحراء،

فإنى سأخلصهُم الآن، لأننى أجزى ابن آدم على فعله الحالى، لا على ما يستحقه فى المستقبل. وقد وعدتُ أباهم يعقوب قائلاً: «سأهبط معك إلى مصر، ولأعودن بك منها إلى هنا»، والآن سأذهب إليها (= إلى مصر) لأخرج منها إسرائيل وفاءً بوعدى ليعقوب فأذهب بهم إلى الأرض التى أقسمت عليها لآبائهم، بأن ذريتهم سوف ترثها. وطالما لم ينقضِ زمن عذابهم الذى أخبرت إبراهيم فى الوحى بأنه سيحل على ذريته، لم أسمع لدعاء ذريته وأنينهم، لكن الأوان قد آن الآن وأتت نهاية ذلك العذاب. لهذا اذهب إلى فرعون ليُطلِق شعبى. ولو لم تخلصهم أنت فلن يفعلها غيرك، لأنه لن يقدر سواك على ذلك. وفيك يأمل إسرائيل وإياك ينتظر إسرائيل. والأمر بين يديك وحدك دون سواك».

لكن موسى رفض القيام بالمهمة وقال للرب: «حينما وعدتَ يعقوب قلت له: «لأخرجنك من مصر مرة أخرى». وبذا فقد تعهدت أن تقوم أنت بذلك بنفسك. فكيف تريد الآن إرسالى إلى هناك؟! ثم كيف يتأتَّى لى حقاً إنفاذ هذه المهمة العظيمة، مهمة إخراج بنى إسرائيل من مصر؟ وكيف سأوفر لهم ما يكفيهم من الطعام والشراب؟ إن النساء اللاتى على وشك الولادة كثيرات بينهم؛ والنساء الحبالى بينهم كثيرات وكذلك الأطفال..! كيف لى إذاً توفير الطعام لمن وَلَدْنَ، وكيف سآتى بأطايب اللحوم للحبالى، وكيف سآتى بالطعام الشهىّ للرُضَّع؟ وكيف سأخترق جيوش المصريين ومجرميهم؟ إنك تأمرنى بالذهاب إلى أعدائى.! إلى من ينتظروننى لقتلى. ولماذا أخاطر بحياتى ولست أرى فى إسرائيل من السجايا ما يستحق الخلاص من أجلها؟! لقد حسبت السنين جيداً ولاحظت أنه لم يمُرَّ منذ عهد الأجزاء الذى عاهدت به إبراهيم إلا مئتان وعشر سنين، وعلمت أنك حين عاهدته قضيت بأن تتعذب ذريته طوال أربعمئة سنة».

لكن الرب فَنَّد كل اعتراضاته ورد قائلاً: «سأكون معك وسأفعل كل ما تريد، وبحيث يكون الخلاص منِّى أنا بالفعل، وكما وعدتُ يعقوب. والصغار

الذين سيخرج بهم بنو إسرائيل من مصر، سأوفر لهم الطعام طيلة ثلاثين يوماً. وسيثبت لك ذلك كيف سأوفِّر احتياجات الجميع. وطالما كنت أنا بجانبك، فليس لك أن تخشى أحداً. أما فيما يتعلق بارتيابك فى مدى استحقاق بنى إسرائيل للخلاص، فإليك إجابتى: «سيؤذن لهم بالخروج من مصر بفضل السجايا التى سيكتسبونها على هذا الجبل حيث يتلقَّوْن التوراة من خلالك. كما أن حسابك لنهاية مدة عذابهم غير صحيح، لأن الأربعمئة سنة من العذاب إنما بدأت مع مولد إسحق، وليس مع ذهاب يعقوب إلى مصر. وبذلك فإن النهاية المحتومة قد حان حينُها».

بعد ما اقتنع موسى بعزم الرب على أن يخلص إسرائيل من مصر من خلاله، توسل إلى الرب ليعرِّفه باسمه الأعظم، لكيلا يقع فى حرج إذا سأله بنو إسرائيل عنه. فأجابه الرب قائلاً: «أتريد معرفة اسمى؟ إن اسمى يوافق أفعالى. فعندما أقضى بين مخلوقاتى أسمَّى «إلوهيم»، أى القاضى؛ وعندما أنهض لمحاربة الخطاة فأنا «رب الزيعوت»، أى «رب الجنود»؛ وعندما أصبر فى حِلْمٍ على العصاة حتى يتوبوا إلىَّ فإن اسمى يكون «إيل شَدَّاى»، وعندما أرحمُ العالم فأنا «أدوناى». لكن عليك أن تقول لبنى إسرائيل أننى أنا «هو من كان ومن هو كائن ومن سيكون إلى الأبد. وأننى أنا هو من معهم الآن فى عبوديتهم ومن سأكون معهم فى العبودية التى سيقعون فيها فى قادم الزمان».

ردّاً على كلمات الرب الأخيرة قال موسى: «يكفينى اليوم ما علمتُ من شر». فوافقه الرب على ما قال وأقرَّ بأنه ليس من المناسب أن يرغم موسى على معرفة ما سيلقاه بنو إسرائيل من معاناة فى المستقبل، بينما هم لا يزالون فى حاضر هو نفسه ملىء بالشر والأسى. وقال الرب لموسى: «إن ما قلتُه عن المستقبلِ إنما قلته لك أنت وحدك، وليس لهم هم أيضاً. وأخبر بنى إسرائيل كذلك أننى لو أمرت ملكاً لمد يده من السماء حتى تلمس الأرض؛ وأن ثلاثة من الملائكة يمكنهم أن يستظلوا بظل شجرة واحدة؛ وأن

جلالى يمكن أن يملأ العالم كله، إذْ عندما كانت تلك مشيئتى تبدَّى جلالى ليعقوب فى شعره، وعندما شئتُ ظهرت فى حرشة».

لكن أهم ما قاله الرب لموسى بخصوص الأسماء الإلهية، إنما كان الكلمات التالية: «برحمةٍ خلقتُ العالم؛ وبرحمةٍ أهديه؛ وسأعود إلى أورشليم بَرحَمات. لكن قل لبنى إسرائيل أن رحمتى حَلَّتْ بهم كرامةً لإبراهيم وإسحق ويعقوب».

وعندما سمع موسى تلك الكلمات قال للرب: «هل يوجد بشر يخطئون بعد موتهم؟» فلما أكَّد له الرب أنه يستحيل على البشر أن يقعوا فى الخطيئة بعد أن يموتوا، سأله موسى مرة أخرى: «لماذا إذاً كشفت لى عن نفسك على أنك إله أبى، ثم تجاوزته الآن فلم تذكره؟» فقال له الرب: «فى البداية كنت أريد مخاطبتك بكلمات لها وقع جميل على مسامعك، لكنك الآن تسمع الحقيقة كلها ودون نقصان أو زيادة، فأنا فقط رب إبراهيم ورب إسحق ورب يعقوب».

دعا موسى الرب متوسلاً له أن يكشف له عن اسمه العظيم والمقدس، لكى يدعوه به فتجاب كل دعواته وتتحقق كل أمنياته. فاستجاب الرب لدعاء موسى، ولما علم الملأ السماوى أن الرب قد كشف لموسى عن «الاسم الذى لا يمحى»، صاحوا قائلين: «تباركت ياربُّ.. يا واهب المعرفة فى كرمٍ!».

إن الرب يقدِّر دائماً مكانة الشيوخ فى أى شعب، وأمر موسى بأن يجمع شيوخ بنى إسرائيل ويعلن لهم أن خلاصهم وشيك. ولأن الرب كان يعلم مسبقاً أن وقاحة فرعون وعناده سوف تظهر من تلقاء نفسيهما، فإن الرب قد أخبر موسى بذلك على الفور، لكيلا يعاتب الرب فيما بعد على أنه لم يحذِّره من وقاحة الملك المصرى.

موسى يُعَاقب على عِناده

بالرغم من كل هذه الاحتياطات، فإن موسى لم يكن مستعدا بَعْدُ لقبول المهمة التى كلَّفه الربُّ بها، وواصل التعبير عن مخاوفه وهواجسه قائلاً: «لكنهم (بنو إسرائيل) لن يصدِّقونى ولن يسمعوا لى وسيقولون: «إن الرب لم يظهر لك». فقال له الرب: «ما تلك التى فى يدك؟» فأجابه موسى: «عصا». فرد الرب قائلاً: «إنك لتستحق أن تُضرب بها. إذا لم تكن تود القيام بالمهمة التى كلفتك بها، كان ينبغى عليك أن تقول لى ذلك من البداية، بدلاً من اللف والدوران والمراوغة فى الكلام حتى كشفتُ لك عن سرى العظيم، «اسمى الذى لا يمحى»، لكى تعرفه وتجيب به بنى إسرائيل إذا سألوك عنه. وبعد كل ذلك ها أنت تقول لى الآن أنك لن تذهب! لهذا إن لم تنفِّذ شيئين الآن وما كلفتك به، فإن هذه العصا ستقوم بتنفيذها. لقد أردتُ تمييزك وجعلك أداتى التى أجْرى المعجزات من خلالها. لكنك تستحق العقاب على الارتياب والتشكك فى قوة إيمان أطفالى. إن بنى إسرائيل مؤمنون وأبناء مؤمنين، لكنك أظهرت قلة إيمانك برسالتك، وكما حذوت حذو الحية الواشية، سأعاقبك بالبَرص الذى عوقبت به الحية».

ثم أمر الرب موسى بأن يُدْخِل يده فى جيبه ثم يخرجها، ثم ينظر إليها فإذا هى برصاء وبيضاء كالثلج. ثم أمره بأن يدخل يده فى جيبه مرة أخرى فإذا هى قد عادت إلى حالتها الأولى. وبالإضافة إلى كونها عقوبة له على تسرعه فى الكلام، فإن البليَّة التى بُلِيَتْ بها يده قُصِدَ منها أن يتعلَّم أنه كما

أن الأبرص يدنس فإن المصريين يدنسون بنى إسرائيل، وكما شفى موسى من دَنَسِه، فإن الرب سيطهر بنى إسرائيل من الدنس الذى دنَّسهم به المصريون.

كذلك كان للمعجزة الثانية المرتبطة بعصا موسى معنيان، إذ تشير من ناحية إلى خلاص بنى إسرائيل الوشيك، وتعلِّم موسى درساً خاصا من ناحية أخرى. فبأمر من الرب ألقى موسى عصاه على الأرض فصارت حيَّةً، لكى يبيِّن له أنه (= موسى) عندما شكك فى إيمان بنى إسرائيل إنما حذا فى ذلك حذو الحية الواشية، وليريه كذلك أن التنين العظيم الذى يرقد فى مياه نهر مصر، وبالرغم من أنه يمزق بنى إسرائيل بأسنانه إرباً، سيصير مسالماً لا يؤذى أحداً مثله مثل تلك العصا الخشبية التى لا تستطيع أن تعضَّ أحداً.

كذلك، ومن خلال المعجزة الثالثة التى أمره الرب بعملها، أوحى الرب إلى موسى ما سيحدث فى سنى حياته الأخيرة. وكانت الإشارة التى أعطاه إياها تبين له أنه قبل مجئ الماء، سوف يفيض الدم من الصخرة التى فى «مِريباه» عندما يضربها موسى بعد أن يتلفظ بالكلمات المتعجلة التى قُدِّر لها أن تقضى على حياته.

ظل الرب طوال سبعة أيام يحثُّ موسى على القيام بالمهمة التى كلفه بها. وكان يلجأ إلى الإقناع، لكيلا يقول الوثنيون أنه يسيىء استغلال سلطاته باعتباره حاكما للعالم (الكلام هنا عن الرب عز وجل وتعالى)، ويجبر البشر على تنفيذ أوامره رغماً عنهم. لكن موسى ظل على عناده ورفضه، ولم يقتنع، وإنما قال للرب: «لقد أخطأتَ فى حقى إذ ترسلنى إلى فرعون. ففى قصر ذلك الملك المصرى يوجد أناس يعرفون كيف يتكلمون بلغات العالم السبعين. وأيا كانت اللغة التى يتحدث بها أى إنسان، فسيوجد فى القصر من يفهمها. فإذا ذهبتُ إليهم ممثلاً لك فعلموا أننى أعجز عن الكلام باللغات السبعين، سيسخرون منى قائلين: «انظروا إلى هذا الرجل!

إنه يدَّعى أنه سفير خالق العالم، ومع ذلك فهو لا يستطيع الكلام باللغات السبعين!» فأجابه الرب على كلامه ذلك قائلاً: «إن آدم الذى لم يتعلم شيئاً من أحد، كان بمقدوره ذكر أسماء البهائم بسبعين لغة. ألم أكن أنا مَنْ جعله يتكلم بذلك؟».

لكن موسى لم يقتنع بذلك الكلام وواصل اعتراضاته قائلاً: «يا رب العالم. لقد كلفتنى بمهمة توبيخ مصر وتخليص إسرائيل، وأنا مستعد لأن أكون رسولك لكن هل يليق بالإنسان أن يتولَّى تنفيذ مهمتين فى وقتٍ واحد؟ لا يارب.. إن ذلك ليحتاج إلى رجلين!» فأجابه الرب قائلاً: «يا موسى إنى لأعلم جيداً من تقصد بقولك هذا، ومن تريده رفيقاً لك فى المهمة التى كلفتك بها. لذا فلتعلم أن الروح القدس قد حلَّت فعلاً على أخيك هارون، بل إنه لينتظرك الآن على الطريق إلى مصر، وسوف يفرح فرحاً عظيماً عندما تقع عيناه عليك».

كما قال الرب لموسى: «عندما ظهرت لك فى المرة الأولى كنت ليِّنَ العريكة وداريْتَ وجهك لكيلا ترى الرؤيا. من أين إذاً أتتك تلك الوقاحة، فصرت تخاطبنى كما يخاطب السيد عبده؟ لقد أكثرت فى الكلام معى. لعلك تظن أننى ليس لى رسل ولا ملائكة ولا سيرافيم ولا أوفانيم ولا ملائكة مستوزرين ولا عربات «مركبة» فأرسلها إلى مصر لأُخْرِج منها أطفالى، ولذا قلت: «أرسل بيده من تشاء»!! حقا إنك لتستحق أشد العقاب! لكن ما الذى بيدى لأفعله وأنا ربُّ الرحمة؟ فلئن نجوت من عقابى، فإنما ذلك كرامةٌ لأبيك عمرام الذى أدَّى خدماتٍ جليلة حفاظاً على الشعب الإسرائيلى فى مصر».

لكن موسى أجاب قائلاً: «يارب العالم. إنما أنا نَبى وابن نبى لم يُطعْ أمرك إلا بعد كثير ترددٍ، ولست أتوقع من فرعون، الشرير ابن الشرير، ولا من المصريين، ذلك الشعب العاصى ابن العصاة، أن يستمعوا لكلماتى. يارب العالم إنك أرسلتنى إلى مصر لأخلِّص مئات الآلاف من شعبك من اضطهاد

المصريين لهم. ولو كانت المسألة لا تتعدى حدود إنقاذ مئتى رجل، فإنها ستكون رغم ذلك مهمة بها من الصعوبة والمشقة الشيء الكثير. فكيف إذاً والمهمة تخليص مئات الآلاف من سيطرة فرعون!! ولو كنتَ أمرت المصريين بنبذ شرورهم بعد استعبادهم لبنى إسرائيل مباشرةً، فلربما كانوا انصاعوا لأمرك لكن إن ذهبتُ إليهم الآن فكلمتهم فى الأمر، بعدما ظلوا يتسلَّطون على بنى إسرائيل طوال هذه السنين المئتين والعشرة، لَيقُولَنَّ فرعون: «لئن كان عبدٌ خدم سيده عشر سنين فلم يحتجَّ ولم يتذمر مرةً واحدةً، فأنَّى لرجل أن يتخيل فكرة تحريره وإعتاقه هكذا فجأة ودون مقدمات؟» لا يارب العالم.. إن المهمة التى كلفتنى بها لَتفوقُ قدرتى على الاضطلاع بها!».

كما قال موسى: «لستُ بالرجل الفصيح، ولا أرى كيف يمكن للكلمات أن تنفع فى موقفٍ كهذا. إنك ترسلنى إلى رجل هو نفسه عبد، إلى فرعون الذى من قبيلة حام، ولن تقيم الكلمات اعوجاج عبدٍ أيّاً كان ـ لن أوافق على القيام بما كلفتنى به إلا إذا مكَّنتنى من معاقبة فرعون بقوة وحشية». فأجابه الرب على ذلك قائلاً: «لا يقلقنَّك أنك لست بالمتكلم البليغ. إننى أنا الذى خلقتُ فم كل متكلم، وأنا الذى جعلتُ البُكم بكماً. وأنا الذى أجعل رجلاً أعمى، وأجعل الآخر بصيراً؛ وأجعل الرجل سميعاً والآخر أصمَّ. ولو كنت أريد لجعلتك حاضر البديهة بليغاً. لكننى أردت إظهار معجزاتى فيك. ومتى شئتُ سينطلق لسانُك بما ألقى فى روعك من كلمات دون تردد. لكن ما قلته عن أن العبد لن تصلح حاله الكلمات، هو كلام صحيح، ولذا سأعطيك عصاى تضرب بها فرعون».

لكن موسى بقى جامداً فى مكانه ولم يحرك ساكناً، واعترض قائلاً: «إن حفيد المرء لهو أقرب إلى قلبه من ابن أخيه. ومع ذلك فعندما وقع لوط فى الأسر، أرسلت الملائكة لنجدته، وهو ابن أخى إبراهيم. لكن الآن، وعلى الرغم من أن حياة مئات الآلاف من أحفاد إبراهيم ـ الذين ينحدرون منه مباشرةً ـ على المحك، ترسلنى أنا ولا ترسل الملائكة لنجدتهم!! وعندما كانت الأمَةُ المصرية هاجر فى مَحنَة أرسلت إليها خمسة من الملائكة ليكونوا

بجوارها، ولم ترسل سواى لتخليص مئات الآلاف من أحفاد سارة!! يارب أتوسل إليك.. أرسلْ بيده ذلك الذى سترسله فى قادم الأيام». فأجابه الرب على ذلك قائلاً: «لم أقل إنِّى سأرسلك إلى إسرائيل، ولكن إلى فرعون. أما ذلك الذى ذكرته فإننى سأرسله إلى بنى إسرائيل فى آخر الزمان.. وسوف يظهر لهم «إيلياء» قبل اليوم العظيم والمرعب».

لئن كان موسى قد رفض القيام بالمهمة التى كلفه بها الرب، فقد كان لذلك سبب وجيه. فالرب كان قد كشف له كنوز التوراة والحكمة والمعرفة ومستقبل العالم كله. والآن رأى فى الغرفة الداخلية للرب صفوفاً من العلماء والقضاة يفسرون التوراة بتسع وأربعين طريقة مختلفة وهم يجلسون فى بهو من الحجر المقطوع؛ كما رأىً «الربِّى عقيبه» يشرح معنى التيجان التى على الحروف. ثم قال موسى: «لا يهمنى أن أكون من رسل الرب. لنُرسِل إذاً واحداً من هؤلاء العلماء العظماء». فأمر الرب ملاك الحكمة بأن يحمل موسى إلى مكان يعج بمئات العلماء، كلهم يُفَسِّر التوراة، وكلهم يستعملون التركيبة، وهذه هى «هالاكاه» أوحيت لموسى على جبل سيناء. والآن لاحظ موسى أنه حتى العلماء العظماء الذين سيكونون فى المستقبل سيعتمدون عليه، وعند ذلك قَبِل أخيراً تنفيذ المهمة التى كلفه الرب بها.

لكن موسى كان عليه أن يدفع غالياً ثمن تردده فى تنفيذ الأمر الإلهى. وقال له الرب: «لقد قدَّرتُ أن تكون أنت الكاهن، بينما يكون هارون هو «اللاوى». لأنك رفضت تنفيذ مشيئتى، فستكون أنت اللاوى وسيكون هارون هو الكاهن». وهى عقوبة لم تنزل بموسى شخصيا، وإنما حلَّت فقط بذريته، الذين هم كلهم لاويُّون. أما موسى نفسه فقد مارس الكهانة فى «الهيكل».

وكان موسى قد قال للرب: «لقد ظللت تتكلم معى كل هذه الأيام التى انقضت، ومع ذلك فمازلتُ بطىء الكلام ثقيل اللسان». فعوقب على ذلك بعقوبة أخرى إذ قال له الرب: «أستطيع أن أجعلك رجلاً آخر وأعالجك من ثقل لسانك، لكن ولأنك قد تفوَّهت بتلك الكلمات، فلن أشفيك من عيبك».

العـودة إلـى مصـر

عندما استسلم موسى فى النهاية لمشيئة الرب وأعلن عن استعداده الذهاب إلى مصر رسولاً من الرب، قيَّد موافقته بشرط أن يحقق له الرب كل ما يتمنى، فأجابه الرب على كل ما قال، عدا الخلود ودخول الأرض المقدسة. كما طمأنه الرب فيما يخص خوفه من الخطر الذى يتهدده من عدوَّيْه اللدودين داثان وأبيرام اللذين كانا السبب فى فراره من مصر. وأخبره الرب أنهما قد صارا فقيرين مُهْمَلَيْن، ولم تعد بهما أى قدرة على إيذائه.

لم يَنْسَ موسى قسمه لحميه يثرون بألاَّ ينزل أبداً إلى مصر دون موافقته. لهذا فقد كان أول ما شغله هو العودة إلى مدين واستئذان يثرون الذى أذن له عن طيب خاطر. بعد ذلك أصبح فى مقدور موسى بدء رحلته ولم يؤخره إلا إحضار زوجته وأطفاله ليذهبوا معه، وهو ما جعل حماه يقول له: «إن مَنْ هم فى مصر يودُّون لو خرجوا منها، بينما تريد أنت أن تأخذ أهلك إليها!!» فأجابه موسى: «إن العبيد الذين يسامون سوء العذاب فى مصر سيتحررون عما قريب، وسيخرجون من تلك الأرض ليتجمعوا على جبل سيناء ويسمعون الكلمات «أنا الرب إلهك»، فهل يليق بأبنائى ألا يكونوا حاضرين إذَّاك؟!» فاستحسن يثرون كلام موسى وقال له: «اذهب بسلام وادخل مصر بسلام وغادر الأرض بسلام».

أخيراً هرع موسى يبدأ الرحلة إلى مصر، يرافقه إليها زوجته وأطفاله. وامتطى نفس الحمار الذى حمل إبراهيم إلى «العِقَدَه» على جبل «الُمرِيَّا»،

وهو نفسه الحمار الذى سيظهر المسيًّا راكباً عليه فى آخر الزمان.

كان موسى لا يزال متردداً، حتى بعد أن بدأ رحلته. وظل يسير بحماره، يقدم رجلاً ويؤخر الأخرى، قائلاً لنفسه: «عندما أصل إلى مصر وأعلن لبنى إسرائيل أن نهاية عبوديتهم فى مصر قد حانت، سيقولون: «إنَّا لنعلم علم اليقين أن عبوديتنا لابد أن تدوم أربعمئة سنة، ولمَّا تحين النهاية بَعْدُ». لكن إن قلت ذلك للرب فسيثور غضباً علىّ. الأفضل لى أن أتلكأ ما استطعت فى طريقى إلى مصر».

واستاء الرب من مكر موسى وكلَّمه قائلاً: «لقد تنبأ يوسف من زمن طويل بأن اضطهاد المصريين لن يدوم إلا مئتى عام وعشرة». وقد عوقب موسى على قلة إيمانه، وهو فى طريقه إلى مصر، إذ ظهر له الملكان «عف» و «حِمىَ» فالتقما جسده كله حتى قدميه ولم يتحولا عنه إلا بعد ما قامت صفُّورة، وقد تملَّكها الخدر حتى صارت كالطائر الذبيح، بختان ابنها جيرشوم ولمست قدمَىْ زوجها بدم الختان. وكان سبب بقاء ابنهما دون ختان حتى ذلك الوقت أن يثرون كان قد اشترط على موسى ـ حينما وافق على زواجه من ابنته ـ أن ينشأ أول ثمرة لزواجهما «كالأغيار».

عندما أطلق الملكان موسى انقض عليهما فقتل «حمى» الذى فر الملائكة المرافقون له من أمام المهاجم لا يلوون على شىء.

فى نفس اللحظة التى سمع فيها موسى الصوت الإلهى يأمره فى مدين بالعودة إلى إخوته فى مصر، سمع هارون، الذى كان يقيم فى مصر، نفس الصوت يأمره قائلاً: «اذهب إلى البريَّة لتقابل موسى». والرب يتكلم بصوته بطريقة فيها إعجاز، ولذا فإن نفس الوحى يمكن أن يُفْهَمَ على نحو معين فى مدين، ويفهم على نحو آخر فى مصر.

كان اللقاء بين الأخوين حارّاً، فلم يكن للغيرة ولا للحسد مكان بينهما. وكان هارون قد سرَّه كثيراً أن الرب اختار أخاه الأصغر ليكون مُخَلِّصَ

بنى إسرائيل، كما سَرَّ موسى أن أخاه الأكبر قد نُصِّب الكاهن الأكبر فى بنى إسرائيل. وكان الرب يعلم ما فى صدريهما، إذ عندما كلف موسى بالمهمة المصرية، قال له موسى: «لقد ظل هارون طوال هذه السنوات نبيا فى بنى إسرائيل، فكيف لى أن أعتدى الآن على نبوته وأسبب له الإزعاج؟!» لكن الرب طمأنه قائلاً: «يا موسى إن أخاك هارون لن ينزعج، بل سيفرح برسالتك وليأتين إليك ليقابلك».

عَبَّر هارون بكامل حريته عن فرحه بلقاء أخيه، بعد كل هذه السنوات التى افترقا فيها، فلم ير أحدهما الآخر. أما عن فرحته بما نال موسى من التكريم، فلم يكن بوسعه أن يجد كلمات ليعبر بها عن ذلك. وقد أثابه الرب على طيبته وكرمه بأن أذن له بحمل «الأوريم» و «التُومِّيم» على قلبه، إذ قال الرب: «لأن هذا القلب الذى سرَّه سروراً عظيماً ما نال أخوه من التكريم، سوف يحمل الأوريم و الثوييم».

هرول هارون للقاء أخيه فاحتضنه وعانقه فى حرارة وسأله أين قضى كل تلك السنوات التى افترقا فيها. فلما أجابه موسى بأنه قد قضاها فى مدين، سأله هارون قائلاً: «ومن هؤلاء الذين معك؟».

موسى: «زوجتى وأبنائى».

هارون: «وإلى أين أنت ذاهب بهم؟».

موسى: «إلى مصر».

هارون: «إلى أين!! أما كفاك الألم والعذاب الذى نلقاه فى مصر، حتى تأخذهم هم أيضاً إليها؟!».

فعلم موسى أن هارون على حق فأعاد زوجته وأبناءه إلى حميه يثرون - ولم يكن موسى أقل عظمة من أخيه. فلئن كان الأخ الأكبر لم يحسد أخاه الأصغر على ما نال من تكريم، فإن الأخ الأصغر نفسه لم يكتم عنه شيئاً مما أوحى إليه من تعاليم وتنزيل. وبعد لقائه بهارون مباشرةً، أخبره موسى

بكل ما علَّمه الرب، حتى السر المرعب الخاص «بالاسم الذى لا يمحى» والذى أوحاه إليه الرب على جبل حوريب.

تنفيذاً لأوامر الرب اجتمع شيوخ الشعب وعمل موسى أمامهم العجائب التى ستبرهن على أنه هو المخلِّص الذى أرسل لتخليص الشعب. ومع ذلك فإن هذه العجائب التى فعلها لم تفلح فى إقناعهم بصدق رسالته، بقدر ما أفلحت فى ذلك الكلمات التى أوحاها إليه الرب معلناً اقتراب خلاصهم وكررها على مسامعهم. وكان شيوخ الشعب يعلمون أن يعقوب قد أفضى إلى يوسف بالعلامة السرية التى تميز المخلص، وأفضى بها يوسف بدوره إلى إخوته قبل موته. وكان أشر هو آخر من مات من أبناء يعقوب، فأفضى بسر تلك العلامة إلى ابنته «سيراح» قائلاً: «إن من يأتى فيعلن الخلاص بكلمات الرب «لقد زرتك بالفعل، ورأيت ما فُعِل بك فى مصر، هو المخلِّص الحقيقى». وكانت «سيراح» لا تزال على قيد الحياة عند عودة موسى، فهرول الشيوخ إليها وأخبروها بالكلمات التى نطق بها موسى معلناً خلاص الشعب. فلما سمعت سيراح أن كلماته هى نفس الكلمات التى أخبرها بها أبوها «أشِر»، علمت أنه هو المخلِّص الذى وُعِدَ به بنو إسرائيل، فآمن به جميع الشعب.

عند ذلك دعا موسى الشيوخ ليذهبوا معه إلى فرعون، لكنهم لم يقدروا على مواجهة الملك؟ وعلى الرغم من أنهم صحبوا موسى فى البداية، فإنهم أخذوا يتسللون فى الطريق واحداً بعد الآخر، حتى إذا ما وقف موسى وهارون أمام فرعون اكتشفا أنهما يقفان وحدهما وأن الجميع قد تخلَّى عنهما، ولم يُفلِتِ الشيوخ بفعلتهم هذه، إذ عاقبهم الرب بأن لم يأذن لهم بصعود الجبل المقدس مع موسى. وما جرءوا على مرافقته فى الطريق إلى الرب لأبعد مما رافقوه إلى فرعون، ثم اضطروا للتوقف حتى يعود إليهم.

موسى وهارون أمام فرعون

تصادف أن اليوم الذى حدده موسى وهارون للظهور أمام فرعون، هو يوم ميلاده، لذا فقد كان يحيط به الملوك، لأنه كان حاكم العالم كله وكان يوم ميلاده هو المناسبة التى يأتيه فيها ملوك الأرض ليُظْهِروا احترامهم وتوقيرهم له. وعندما أعلن الحاجب عن قدوم موسى وهارون، سأله فرعون إن كان هذان الشيخان (= موسى وهارون) قد أتياه بتاجين، فلما أجيب بالنفى أمر بمنعهما من المثول أمامه حتى ينتهى من استقبال جميع من جاءوا يقدمون إليه الهدايا.

كان قصر فرعون يحيط به جيش عظيم. وكان له أربعمئة باب، فى كل جانب مئة باب على كلٍّ منها ستون ألفاً من الجنود. وارتاع موسى وهارون لمرآى كل هؤلاء الجنود وتملَّكهما الخوف. لكن الملاك جبريل ظهر لهما على الفور وقادهما إلى داخل القصر، دون أن يراهما أحد من الحراس، فعاقب فرعون هؤلاء الحراس الغافلين عقاباً شديداً على سماحهم للشيخين بالدخول دون إذن منه. وصرف فرعون الحراس وأتى بآخرين فحلوا محلهم. لكن الأمر تكرر فى اليوم التالى، إذ دخل موسى وهارون إلى القصر دون أن يقدر الحراس المحيطون به على منعهما. عند ذلك سأل موسى عبيده كيف تمكن الرجلان من الدخول، فأجابوه: «لا ندرى! إنهما لم يدخلا من الأبواب. لا ريب أنهما ساحران».

ولم يكن يحرس أبواب القصر الجنود وحسب، وإنما وقف على كل باب أسدان، فلم يكن أحدٌ ليجرؤ على الاقتراب من الأبواب مخافة أن تمزقه الأسود إرباً، ولم يكن أحد يستطيع الدخول إلى القصر حتى يأتى مروضو الأسود ليصرفوها عن الأبواب. عند ذلك أشار بلعام ومن معه من الكتبة المقدسين المصريين على الملك بأن يطلق الحراسُ الأسودَ عندما يقترب موسى وهارون من القصر. لكن نصيحتهما لم تُجْدِ نفعاً، إذ ما كاد موسى يرفع عصاه ناحية الأسود إلا وجاءته تهرول فى سعادة وخنوع تتمسح فى قدميه وتبصبص بأذيالها كالكلاب إذا لقت سيدها لدى عودته إلى منزله.

بعد ما دخل موسى وهارون إلى القصر وجدا سبعين كاتباً مشغولين بمراجعة مراسلات فرعون، التى كانت تتم بسبعين لغة. فلما رأى الكتبة رسولى بنى إسرائيل، هَبُّوا واقفين فى رعب، إذ كان الرجلان يشبهان الملائكة، فقد كان قوامهما مثل أرز لبنان، وملامحهما وضاءة كنور الشمس، وكانت أحداق أعينهما مثل كرة نجم الصباح، ولحيتاهما مثل سعف النخيل، وكانت النيران تخرج من فم كل منهما عندما يتحدث. ومن شدة رعبهم منهما أطاح الكتبة بأقلامهم ودفاترهم وخروا ساجدين عند قدمى موسى وهارون.

الآن تقدم ممثلا بنى إسرائيل أمام فرعون وقالا له: «لقد قابلنا رب العبريين؛ لذا نرجوك دعنا نرتحل فى البرية ثلاثة أيام فنقدم القرابين للرب إلهنا، لكيلا يهلكنا بالوباء أو بالسيف». لكن فرعون أجابهما قائلاً: «وما اسم إلهكما؟ ومم تتكون قوته ومن أين تأتى قدرته؟ كم بلداً وكم إقليماً وكم مدينة تخضع لسلطانه؟ كم معركة انتصر فيها؟ كم أرضاً أخضع لسلطانه؟ كم مدينة استولى عليها؟ عندما يذهب إلى الحرب فكم محارباً وكم فارساً وكم عربة وكم قائد عربة يقود؟» فرد موسى وهارون: «إن قوته

وقدرته تملآن العالم كله. وصوته يتفجَّر منه اللهيب؟ وتزلزل كلماته الجبال وتسفها نسفاً. السماء عرشه والأرض موطئ قدمه. قوسه النار وسهامه ألسنة اللهب، ورماحه الشعلات ودرعه السحب وسيفه وميض البروق. هو خلق الجبال والوديان، وأخرج النفوس والأرواح، وبسط الأرض بكلمة، وصنع الجبال بحكمته، وهو يخلق الجنين فى بطن أمه، ويغطى السموات بسحابه، وبكلمة منه يتنزل الندى والمطر على الأرض، وهو يُنْبتُ النبات من الأرض، وهو يطعم العالم كله ويرزقه، من قرون الريم إلى بيض الهوام. وكلَّ يوم يميت أناساً ويحيى آخرين».

فأجابهما فرعون قائلاً: «لا حاجة لى به. لقد خلقتُ نفسى، ولئن قلتما أنه ينزل الندى والمطر، فلدىَّ النيل، ذلك النهر الذى ينبع من تحت شجرة الحياة، والأرض التى يغمرها بمياهه تنبت فواكه تبلغ من الضخامة حد أن تحتاج كل منها لحمارين ليحملاها. كما أنها شهية إلى درجة تفوق الوصف، لأن لها ثلاثمائة طعام مختلف».

ثم أرسل فرعون فى طلب كتب التقاويم الخاصة بمملكته، والتى دوِّنت فيها أسماء آلهة جميع الأمم، ليرى إن كان اسم الرب إله العبريين مسجلاً فيها. ثم قرأها وقال لهما: «ها هو اسم إله مؤاب، وها هو اسم إله عمون وها هو إله زيدون.. ما بالى لا أرى اسم إلهكم مُدَوَّناً هنا!!» فصاح به موسى وهارون: «أيها الغبى! إنك تبحث عن «الحى» فى قبور الموتى! إن هذه الأسماء التى تلوتها علينا ما هى إلا أسماء لأصنام لا تنطق، لكن الرب هو إله الحياة وملك الحياة الأبدية».

فلما رد فرعون قائلاً: «لا أعلم من هو هذا الرب». أجابه الرب بنفسه قائلاً: «أيها الوغد! أتقول لسفيرىّ «لا أعلم قوة ولا قدرة إلهكما؟» فلأجعلنك تقف لكى ترى قدرتى ولكى يُعْلَن اسمى فى جميع الأرض». (أى

لأجعلن جسدك لا يَفْنَى عبرةً وآيةً لكل الناس).

وبعدما بحث فرعون دون جدوى فى قائمة آلهة جميع الأمم، عن اسم إله العبريين، ذكر فرعون اسم إله العبريين أمام جميع حكماء مصر قائلاً لهم: «هل سمعتم أبداً عن اسم إله هؤلاء الناس؟» فأجابوه قائلين: «لقد قيل لنا أنه أحد أبناء الحكيم ابن الملوك القدماء». فتكلم الرب قائلاً: «أيها الحمقى! تدَّعون أنكم حكماء، بينما تقولون عنىِّ أننى ابن الحكيم فقط! لأجعلنَّ كل حكمتكم وكل فهمكم هباءً لا قيمة له».

لم يَنْثنِ فرعون عن حماقته ووقاحته، حتى بعدما أراه موسى وهارون معجزة العصا. ففى الوقت الذى نجح فيه العبريان (= موسى وهارون) فى دخول القصر، والأسود تحرسهما، كان فرعون قد أرسل فى طلب سحرته وعلى رأسهم بلعام وابناه يانِّس ويامِّبرس، فلما مثلوا أمامه أخبرهم بما رأى من عجائب وكيف أن الأسود قد تبعت الرجلين كالكلاب المستأنسة، وكيف أنها قامت بحراستهما من الجنود.

عند ذلك رأى بلعام أنهما ليس إلا ساحرين مثله هو ورفاقه، وتوسل إلى الملك أن يأمرهم جميعاً، هم وموسى وأخاه، بالمثول أمامه ليرى لمن ستكون الغلبة فى السحر، للمصريين أم للعبريين.

عند ذلك دعا فرعون موسى وهارون وقال لهما: «من ذا الذى سيصدقكما عندما تدعيان أنكما سفيرا الرب، كما تزعمان ما لم تقنعا الناس بما تأتيان من عجائب؟» فلما سمع هارون ذلك ألقى عصاه على الأرض فإذا هى حَيَّةٌ. فانفجر فرعون فى الضحك وصاح قائلاً: «أهذا كل ما قدر إلهكما على فعله؟ هل جئتما تبيعا الماء فى حارة السقَّائين؟ لعلكما لا تعرفان أننى ضليع بكل أنواع السحر!» ثم أمر بإحضار التلامذة الصغار الذين يدرسون فى المدارس فأتوا وفعلوا مثل ما فعل موسى وهارون، بل إن

زوجة فرعون نفسها قد فعلتها! عند ذلك سخر يانّس ويامبرس ابنا بلعام من موسى قائلين: «أتذهب بالقش إلى الفَرَّان!» فرد موسى قائلاً: «إلى حيث تكثر الخضروات، أذهبُ بالخضروات». (أى لا يفل الحديد إلا الحديد وهذا هو مجالكم الذى جئت أتحداكم فيه).

ولكى يُرى المصريين أن هارون يستطيع أن يفعل بعصاه ما لا يستطيع سحرتهم الإتيان بمثله، جعل الرب عصا هارون التى صارت حية تبتلع جميع عصى السحرة. لكن بلعام ومن معه قالوا: «ليس فى ذلك ما يدهش أو يذهل. إن حيتك قد ابتلعت حياتنا، وهو أمر يتفق مع قوانين الطبيعة حيث يلتهم كائن حى كائناً حيا آخر. وإذا أردت أن نقتنع بأن روح الرب فيك، فألق عصاك على الأرض، فإذا التقمت، وهى خشبة، عصينا الخشبية، فسنؤمن حينئذٍ بأن روح الرب فيك». وقبل هارون خوض الاختبار فأعاد عصاه إلى حالتها الأولى فابتلعت عصى المصريين، لكن حجمها لم يزدد. عند ذلك طرأ ببال فرعون أن عصا هارون هذه قد تبتلعه هو وعرشه، ومع ذلك فإنه قد رفض تنفيذ أمر الرب بترك بنى إسرائيل يمضون فى سلام، وقال: «لو كان يعقوب ـ إسرائيل بنفسه الآن أمامى، لكنت وضعت الجاروف والدلو فى يده وأمرته بالذهاب إلى العمل». ثم قال موسى وهارون: «لأنكما، مثل جميع سبط لاوى، معفيان من العمل، فقد جئتمانى تقولان: «دعنا نمضِ ونقدم القرابين إلى الرب». ولو كنتما طلبتما منى إطلاق ألف أو ألفين من الناس، لكنت لبيت لكما طلبكما، لكننى لن أسمح أبداً بإطلاق ستمئة ألف رجل وتركهم يذهبون من هنا».

المعاناة تشتد

بالإضافة إلى رفضه إطلاق بنى إسرائيل، فإن فرعون، فى نفس اليوم الذى وقف فيه موسى وهارون أمامه، قد أمر بأن يسلِّم الشعب الحصة المخصصة من القرميد، حتى دون أن يعطيهم المشرفون القش الذى يصنعونه منه. كما أصدر أمراً آخر يقضى بأن لا يُسمح لبنى إسرائيل بالراحة يوم السبت، لأن فرعون كان يعلم أنهم يستغلون وقت فراغهم فى قراءة اللفافات* التى تصف خلاصهم. وكان كل ذلك جزءاً من الخطة التى أعدها الرب، إذ أراد أن تزداد معاناة بنى إسرائيل أكثر وأكثر، كلما اقتربت ساعة خلاصهم أكثر وأكثر. وكانوا، كلما راحوا أو غدوا فى أرض مصر ليجمعوا القش الذى يصنعون منه القرميد، يسومهم المصريون سوء العذاب إذا أمسكوا بهم داخل حقولهم. وجعلت هذه الأفعال القاسية بنى إسرائيل لا يلقون باللوم كله على فرعون وحده لما يلاقون من عنتٍ ومذلة.

فقد كان جميع المصريين يظهرون قسوتهم تجاه الإسرائيليين كلما همُّوا بجمع القش، ولذا فقد حلت عقوبة الرب بالجميع على السواء.

دامت هذه الفترة العصيبة التى وصلت فيها معاناة بنى إسرائيل إلى ذروتها، ستة أشهر وفى تلك الأثناء ذهب موسى إلى مدين تاركاً هارون خلفه فى مصر وحده. وعندما عاد موسى فى نهاية عهد الرب، هاجمه اثنان من الضباط الإسرائيليين، هو وهارون، وأخذا يسبانهما لأنهما كانا

(*) المقصود بذلك لفافات التوراة، وهذه كذبة واضحة لأن التوراة لم تنزَّل إلا بعد ذلك بمدة.

السبب فى ازدياد معاناة شعبهما، بدلاً من التخفيف عنه. وقال لهما الإسرائيليان:

«لئن كنتما حقا سفيرى الرب، فلعله يفصل بيننا وبين فرعون. لكن إن كنتما تحاولان تخليص بنى إسرائيل من تلقاء نفسيكما، فلعل الرب يفصل بينكما وبين بنى إسرائيل. إنكما مسؤولان عن تلك الرائحة النتنة التى تفوح الآن من أبدان الإسرائيليين التى استخدمت كقرميد للبناء عندما لم تكتمل حصتنا. لم يكن المصريون يشكُّون تقريباً فى أننا ننتظر خلاصنا. إن الخطأ إذاً خطؤكم أن صاروا مدركين تماماً لذلك. لقد صرنا مثل الشاة المسكينة التى اختطفها الذئب فطارده الراعى وصار يجذب الشاة من ناحية ويجذبها الذئب من ناحية، حتى تمزقت أوصالها إرباً. هكذا هى حال إسرائيل الآن بينكما وبين فرعون».

كان الضابطان اللذان قالا هذه الكلمات الجارحة هما داثان وأبيرام، ولم تكن تلك هى المرة الأولى، ولا الأخيرة، التى يؤذيان فيها موسى بكلامهما الجارح. وكان الضباط الإسرائيليون الآخرون لطفاء وطيبين، وكانوا يفضلون أن يجلدهم المشرفون على أن يتعرضوا هم بسوء لبنى جلدتهم الذين وكلوا بالإشراف عليهم أثناء العمل.

دفعت المعاناة الوحشية التى كان يعانيها شعب موسى إلى أن يقول للرب:

«لقد قرأت سفر التكوين كله، وعلمت المصير الذى حلَّ بجيل الطوفان. ولقد كان عقاباً عادلاً. كما علمتُ العقاب الذى حل بجيل بلبلة الألسنة، وذلك الذى حل بأهل سدوم. وقد كانا كذلك عقابين عادلين. لكن ماذا فعلت هذه الأمة الإسرائيلية لك لكى تلقى ما لم تَلْقَ مثله أمة أخرى على مر التاريخ؟ ألأن إبراهيم قال: «وكيف سأعلم أننى سأرث الأرض؟» فعاتبته

على ضعف إيمانه قائلاً: «لتعلم يقيناً أن ذريتك ستكون غريبة فى أرض ليست بأرضهم؟»

فلماذا إذاً لم تُستَعبد ذرية عيسو وإسماعيل هما أيضاً؟ أليسوا هم أيضاً من نسل إبراهيم؟ وإذا قلتَ لى: «ليس هذا من شأنك» فسأسألك قائلاً: «ولم أرسلتنى إذاً إلى هنا رسولاً منك؟» إن اسمك العظيم الجليل المرعب تخشاه جميع الأمم، ومع ذلك فإن فرعون قد سمعنى أنطق به ولم يظهر خضوعاً ولا طاعة. أعلم أنك ستخلِّص إسرائيل وقتما تشاء، وأنك لا تبالى بهؤلاء الإسرائيليين المساكين الذين دفنوا وهم أحياء فى المبانى».

لو كان الرب رب عدل فقط، لكان أهلك موسى جزاءً له على وقاحته فى قول كلماته الأخيرة. ولكن ولأن موسى لم يقُل ما قاله إلا شفقة بحال بنى إسرائيل، فإن الرب قد عامله بكرم وحلم. وأجاب على كلام موسى قائلاً: «لترينَّ ما أفعل بفرعون»، وأوحت هذه الكلمات بأن موسى، وإن كان سيشهد بعينيه عقاب فرعون، لن يكون حاضراً عند معاقبة ملوك كنعان الواحد والثلاثين. وقد كان ذلك عقاباً له على وقاحته فى مخاطبة الرب. وفى الوقت نفسه فإن كلمات الرب كانت فيها إشارة إلى حديث آخر قاله موسى إذ قال: «يارب العالم.. إنى لأعلم أنك ستخرج أطفالك من مصر. فلتختر غيرى إذاً لتخرجهم به، لأنى لا أستحق أن أكون مخلِّص أطفالك». فأجابه الرب على ذلك قائلاً: «بلى، يا موسى. إنك لجدير بأن تكونه. ومن خلالك سأخرج أطفالى من مصر ولترين ما أفعل بفرعون».

كما عاتبه الرب فى الوقت نفسه على ضعف إيمانه به إذ قال: «واأسفا على من رحلوا!.. لم يعد لهم مثيل! لقد ظهرت لإبراهيم وإسحق ويعقوب، على أننى «إيل شدَّاى»، أى الرب القدير، لكننى لم أظهر لهم على أن اسمى هو «أدوناى» الرب الرحيم، كما ظهرتُ لك. ومع ذلك فلم يرتابوا فى

أفعالى. وقد قلتُ لإبراهيم: «لأعطينك الأرض»، لكنه عندما أوشك على دفن سارة، اضطر إلى دفع الذهب والفضة ليشتروا قبراً يستقر فيه بدنها، ومع ذلك فلم يخطئ فى حقى. وقلتُ ليعقوب: «الأرض التى ترقد عليها، سأعطيك، لك ولنسلك»، لكنه عندما أراد توسيع خيمته اضطر إلى شراء قطعة من الأرض مقابل مئة قطعة من المال، ومع ذلك فلم يخطئ فى حقى. ولم يطلب أحدهم منِّى معرفة اسمى. لكنك طلبت معرفته منذ البداية عندما أردت إرسالك إلى مصر، فلما كشفته لك قلت: «لقد قلتَ لى إنك تُدعى الرحمن والكريم والحليم والرحيم، لكننى ما كدتُ أنطق بهذه الأسماء أمام فرعون، حتى نزلت كل البلايا على شعب إسرائيل» والآن أريد الوفاء بعهدى مع الآباء الثلاثة وأعطى ذريتهم الأرض الموعودة، ثواباً لآبائهم على إيمانهم المطلق الراسخ بى، وكذلك إثابةً للشعب الذى لم يقرأ أفعالى، برغم كل معاناته. لهذا سأعطيهم الأرض التى لم يكونوا ليستحقونها لولا ذلك السبب. وأقسم بأنى سأفعل ذلك! وقد أقسم الرب لكى يطرد كل خوف وريبة من عقل موسى، بأن الرب سيتصرف وفقاً لعدله فقط، وبذا يؤجل خلاص إسرائيل حتى حين، عقاباً للشعب على خطاياه.

الآن صار خلاص إسرائيل حقيقة واقعة لا محالة، لكن قبل أن يستطيع موسى وهارون البدء فى تخليص الشعب، لفت الرب نظريهما لعدة نقاط، وأمرهما بأن يأخذاها فى الاعتبار. وقال لهما: «إن أطفالى معاندون وسريعا الغضب ومشاكسون. عليكما الاستعداد لتحمل إيذائهم، ولو وصل بهم الأمر إلى رجمكما بالحجارة. سأرسلكما إلى فرعون، وبالرغم من أننى سأعاقبه على ما اقترف من خطايا، فلا يفوتكما أن تعاملاه بما يليق بحاكم. كذلك احرصا على استشارة شيوخ الشعب فى كل شىء، ولتكن أول خطوة تخطوانها فى طريق الخلاص، أن تجعلا الشعب يهجر عبادة الأصنام».

وكانت هذه الأخيرة (جعل الشعب يهجر عبادة الأصنام) هى المهمة الأشق، حتى إن موسى صاح قائلاً: «لن يسمع بنو إسرائيل لكلامى. فأنَّى لفرعون إذاً أن يسمع لى؟» وكانت تلك هى ثالث مرة يرفض فيها موسى تنفيذ أمر الرب. ولذا فقد نفد صبر الرب فعاقب موسى. وفى البداية لم يُظْهِر الرب نفسه إلا لموسى، وكان الرب ينوى فى البداية ألا تجرى المعجزات إلا على يدى موسى وحده، لكن منذ تلك اللحظة صار الرب يشمل هارون بحديثه هو الآخر، وقسم له نصيباً من الإتيان بالعجائب.

العيـن بالعيـن

قسَّم الرب العقوبات العشر التى أنزلها بمصر إلى أربعة أجزاء، فاختص هارون بثلاثة، وموسى بثلاثة، وواحد للأخوين معاً، وثلاثة لنفسه وكلِّف هارون بما ينشأ من التراب والماء، وهما العنصران اللذان يتكونان من أجزاء صلبة تقريباً، وخُلق منهما جميع الكيانات المتميزة ذات الجسد؛ بينما كُلِّف موسى بما ينشأ من الهواء والنار، وهما العنصران الأكثر أهمية للحياة.

والرب قائد عسكرىٌّ مَحنَّك، وكما يبتكر الملك من بنى آدم خططاً عديدة ضد أعدائه، فإن الرب هاجم المصريين بطرق عديدة، وأنزل بهم عشر مصائب فعندما يتمرد إقليم ضد ملكه، فإن الملك يرسل جيشه فى البداية لكى يحاصره ويقطع عنه إمدادات المياه. فإن استسلم الناس فبها ونعمت؛ وإلا جلب عليهم مُحْدِثات الضجيج. فإن استسلم الناس فبها ونعمت؛ وإلاَّ أمر برميهم بالسهام فإن استسلم الناس فبها ونعمت؛ وإلا أمر جيوشه بمهاجمتهم. فإن استسلم الناس فبها ونعمت؛ وإلا أعمل فيهم السيف والأسر. فإن استسلم الناس فبها ونعمت؛ وإلا رماهم بالنفط الساخن. فإن استسلم الناس فبها ونعمت؛ وإلا رماهم بالمنجنيق. فإن استسلم الناس فبها ونعمت؛ وإلا أمر بالسلالم فنصبت على أسوارهم. فإن استسلم الناس فبها ونعمت؛ وإلا رماهم فى الزنازين؛ فإن استسلم الناس فبها ونعمت؛ وإلاَّ ذبح أعزَّاءهم.

هكذا تعامل الرب مع المصريين. ففى البداية قطع عنهم الماء بأن حوَّل ماء نهرهم إلى دماء. لكنهم رفضوا إطلاق الإسرائيليين، فأرسل عليهم الضفادع المزعجة تصدع رؤوسهم. لكنهم رفضوا إطلاق الإسرائيليين، فأرسل عليهم القُمَّل، يلدغ أجسادهم بلدغات أحمى من السهام. لكنهم رفضوا إطلاق الإسرائيليين، فأرسل عليهم فيالق بربرية، وكانت عبارة عن أسراب وقطعان من الوحوش البرية. لكنهم رفضوا إطلاق الإسرائيليين، فأرسل عليهم الذبح، ذلك الوباء الفظيع. لكنهم رفضوا إطلاق الإسرائيليين، فصب عليهم النفط، أى القروح والدمامل الحارقة. لكنهم رفضوا إطلاق الإسرائيليين فرماهم بالمنجنيق، أى الجليد الذى تساقط عليهم. لكنهم رفضوا إطلاق الإسرائيليين فنصب السلالم على أسوارهم ليتسلقها الجراد مثل المحاربين. لكنهم رفضوا إطلاق الإسرائيليين فرماهم فى زنازين الظلمة الحالكة. لكنهم رفضوا إطلاق الإسرائيليين، فذبح أعزَّاءهم، أى الأبكار من أولادهم.

وكانت البلايا التى أنزلها الرب بالمصريين تناظر الجرائم التى اقترفوها فى حق بنى إسرائيل. لأنهم أرغموا الإسرائيليين على جلب الماء لهم، ومنعوهم فى الوقت نفسه من استخدامه للاغتسال لممارسة شعائرهم، فإن الرب حوَّل ماءهم إلى دماء.

ولأنهم قالوا للإسرائيليين: «اذهبوا فاصطادوا السمك لنا»، أثار الرب عليهم الضفادع فملأت فسقياتهم، ودخلت إلى مخادعهم تتقافز وتنق وتصدع رؤوسهم أينما ذهبوا. وكانت أشد العقوبات التى نزلت بهم.

ولأنهم قالوا للإسرائيليين: «اذهبوا فاكنسوا ونظفوا شوارعنا وأفنيتنا وبيوتنا» فإن الرب قد حوَّل غبار الهواء إلى قُمَّل، حتى إن تلك الحشرات قد تكومت فى الشوارع لارتفاع ذراع كامل، فكان كلما ارتدى المصريون ثياباً جديدة يملأ القمل ثيابهم على الفور.

وكانت البلية الرابعة هى غزو أرضهم من جانب حشود وجحافل من جميع الحيوانات المفترسة من أسود ونمور وذئاب وفهود ودببة وغيرها. وهاجمت هذ الحيوانات المصريين فى بيوتهم، فإذا ما أغلق المصريون أبوابهم فى وجهها، جعل الرب أحد الحيوانات الصغيرة يتسلل إلى البيت فيفتح الأبواب لتدخله الدببة والفهود والأسود والذئاب لتلتهم كل من بالمنزل حتى الأطفال فى مهادها. وإذا ما استودع واحد من المصريين عشرة من أطفاله لواحد من الإسرائيليين ليأخذهم فى نزهة، كان يأتى أسد فيخطف طفلاً ويجرى به، ثم يأتى ذئب فيخطف طفلاً ثانياً، وتأتى حية فيخطف ثالثاً، .. وهكذا حتى يعود الإسرائيلى فى النهاية إلى بيته وحده. وقد حلت بهم هذه البلية لأنهم كانوا اعتادوا أن يأمروا الإسرائيليين باصطياد الذئاب والأسود لكى يشاهدوها فى ملاهيهم، وكانوا يكلفونهم بذلك لكى يقيموا فى الصحراء بعيداً عن زوجاتهم فلا يتناسلون ولا يتكاثرون.

ثم ضرب الرب قطعان ماشيتهم بوباء فتاك؛ لأنهم كانوا يرغمون الإسرائيليين على رعى مواشيهم وأغنامهم ويخصصون لهم مراعيَ نائية لكى يبقوهم بعيدين عن زوجاتهم. لهذا نزل هذا الوباء فقضى على الماشية والأغنام التى كان الإسرائيليون يرعونها.

وكانت البلية السادسة هى الدمامل التى انتشرت فى أبدان البشر والبهائم على السواء. وكانت تلك عقوبة للمصريين لأنهم كانوا يقولون لبنى إسرائيل «اذهبوا فأعدوا الحمَّام لنا لنطرِّى عن أجسادنا وعظامنا». لهذا فقد كتب عليهم أن يعانوا من الدمامل التى ألهبت أبدانهم ولم يستطيعوا الكف عن خدش لحمهم بسبب الحكة التى لازمتهم. وبينما كان المصريون يعانون على هذا النحو، استعمل بنو إسرائيل حمَّاماتهم واستمتعوا بها.

ولأنهم أرسلوا الإسرائيليين إلى حقولهم ليحرثوها لهم ويبذروا فيها

البذور، فقد تساقط الجليد عليهم فدمر أشجارهم ومحاصيلهم. وكانوا يقولون لبنى إسرائيل: «اذهبوا فاغرسوا لنا شجرة واحرسوا ثمرها». لهذا سلَّط الرب الجراد على المصريين ليأكل ما تبقى من زرعهم بعد تساقط الجليد، لأن أسنان الجراد هى أسنان الأسد، كما أن له ناب أسد عظيم.

ولأنهم كانوا يلقون بالإسرائيليين فى الزنازين، فقد ضربهم الرب بالظلمة الحالكة، ظلمة الجحيم، فصاروا يتحسسون طريقهم إذا مشوا. ومن كان منهم جالساً لا يستطيع النهوض على قدميه، ومن كان منهم واقفاً فلا يستطيع الجلوس. كما كان لهذه البلوى فائدة أخرى. فقد كان من بين الإسرائيليين الكثير من الأشرار الذين رفضوا مغادرة مصر، ولذا فقد قرر الرب التخلص منهم. ولكن، ولكى لا يظن المصريون أن البلوى نزلت بالإسرائيليين كما نزلت بهم، فإن الرب ذبحهم تحت جنح الظلام فدفنهم إخوانهم من الإسرائيليين ولم يشعر المصريون بشىء. لكن عدد هؤلاء الأشرار كان كبيراً جدا، حتى إن من تبقى من بنى إسرائيل عند مغادرتهم مصر كان كسراً صغيراً من العدد الأصلى لبنى إسرائيل.

كانت البلوى العاشرة هى قتل كل ولد بكر لهم، ونزلت بالمصريين بسبب نيتهم قتل المواليد الذكور من بنى إسرائيل عند ولادتهم. ثم فى النهاية أغرق فرعون وجنوده فى البحر الأحمر، لأن المصريين أمروا بإلقاء الأطفال الذكور من بنى إسرائيل فى الماء.

وكان لكل بلوى من البلاوى العشر التى نزلت بمصر نظير من المعاملة الوحشية التى كانوا يعاملون بها الإسرائيليين. فكانت البلوى جزاءً على قول فرعون فى غطرسة: «النيل نهرى ملكى أنا وأنا الذى صنعته لنفسى».

أما بلاء الضفادع فإن الرب أنزله بالمصريين «لأن الضفادع»، هكذا قال الرب، «التى تسكن الماء أحياناً، ستنتقم من المصريين لأنهم رغبوا فى تدمير الشعب الذى كُتب له أن يحمل التوراة التى هى مثل الماء».

كما أرسل الرب عليهم الهوام قائلاً: «دع القُمَّل، الذى صنع من تراب الأرض، ينتقم من المصريين الذين أرادوا إهلاك الشعب الذى نسله مثل تراب الأرض». وسلطت عليهم جحافل السباع والأسود والذئاب والحيَّات لأن، كما قال الرب، «هذه الحيوانات ستنتقم من المصريين لأنهم أرادوا إهلاك الشعب الذى هو مثل الأسود والذئاب والحيَّات».

وتفشى فيهم الوباء القاتل لأن، كما قال الرب، «الموت سينتقم من المصريين لأنهم أرادوا القضاء على الشعب الذى يواجه الموت من أجل تمجيد اسم الرب».

كما أصيبوا بالقروح وبالدمامل الحارقة لأن، كما قال الرب: «القروح التى تأتى من تراب الفرن ستنتقم من المصريين الذين أرادوا إهلاك الشعب الذى دخل جده الأكبر إبراهيم إلى النار المحرقة بقدميه لتمجيد اسم الرب».

كما أنزل عليهم الجليد لأن، كما قال الرب، «الجليد الأبيض سينتقم من المصريين لأنهم أرادوا القضاء على شعب ستكون خطاياه بيضاء». (أى مغفورة).

وسلِّط عليهم الجراد لأن، كما قال الرب، «الجراد، الذى هو جيش العظيم، سوف ينتقم من المصريين لأنهم أرادوا إهلاك الشعب الذى يُدّعى «جندى».

وقال الرب: «سوف يأتى الظلام - الذى ينقسم من النور - وينتقم من المصريين لأنهم أرادوا القضاء على الشعب الذى يشرق بنور الرب، بينما تلف الظلمة الحالكة الشعوب الأخرى».

وأنزل بهم الرب البلية العاشرة، وهى ذبح أبكارهم، قائلاً: «سأنتقم من المصريين لأنهم أرادوا إهلاك الشعب الذى هو بكْرى. فكما انقسم الليل لإبراهيم، لكى يفْنى أعداؤه، فإنى سأمر بمصر فى منتصف الليل، وكما ثبت إبراهيم فى الاختبارات العشرة، سأرسل عشرة بلايا على مصر التى هى عدو أطفاله».

البلايا التى نزلت
من خلال هارون

من أول يوم نزل فيه البلاء الأول، وحتى آخر يوم فى محنة البلاد الأخير، بل - حينما استسلم المصريون لكل ما طلبه منهم هارون وموسى - كان عام كامل قد مَرَّ، لأن اثنى عشر شهراً هى المدة التى قررها الرب تكفيراً عن الخطايا وقد دام الطوفان عاماً كاملاً؛ وظل أيوب يعانى لعام كامل؛ والخطاة لابد أن يتعذبوا فى الجحيم طوال عام كامل؛ كما أن الحكم الذى سينفذ على «جوج» فى آخر الزمان، سيدوم طوال عام كامل.

وأعلن موسى عن قدوم البلاء الأول لفرعون بينما كان يتمشى على ضفاف النهر. وكانت هذه النزهة الصباحية تساعده على ممارسة الخداع، إذ كان يَدَّعى أنه إله وأنه لا يشعر باحتياجات البشر. لذا، ولكى يمارس خداعه، فقد كان يذهب إلى ضفة النهر كل صباح فيقضى حاجته هناك وحده ودون أن يراه أحد. وقد ظهر له موسى فى ذلك الوقت فناداه قائلاً: «يا فرعون: أهناك إله يقضى حاجته مثل البشر؟» فرد فرعون قائلاً: «ما أنا بإله... لكننى أدَّعى ذلك أمام المصريين الذين هم أغبياء وحمقى لدرجة أن المرء يجب أن يعتبرهم حميراً، لا بشراً».

ثم أعلمه موسى بأن الرب سيحول ماء النهر إلى دم، إذا رفض إطلاق بنى إسرائيل. وفى ذلك التحذير تستطيع تبيُّنَ الفرق بين الرب والإنسان. فعندما يضمر الإنسان فى نفسه شرا لعدوٍّ، فإنه يظل كامناً منتظراً اللحظة

المناسبة لينقض على عدوه دون سابق إنذار. لكن الرب صريح، فقد كان يحذّر فرعون والمصريين علانيةً كلما أوشك أن يضربهم ببلاء، وكان موسى يواصل تكرار التحذير وإعلانه على الملأ طوال ثلاثة أسابيع، رغم أن البلاء نفسه لم يكن يدوم إلا أسبوعاً واحداً.

ولأن فرعون لم يكن يلقى بالاً لتحذير موسى، فإن البلاء كان ينزل به وبقومه؛ وهكذا صارت مياه النهر دماء. وكما يقول المثل: «اضرب المربوط يخاف السائب». فقد لوث الرب نهر النيل، الذى كان المصريون يعبدونه ويعتبرونه إلهاً، لكى يخيف فرعون وقومه ويرغمهم على تنفيذ الأمر الإلهى.

ولكى يُحْدث البلاء، كان هارون يأخذ عصاه ثم يمد يده فوق مياه مصر. ولم يكن لموسى دخل فى صنع هذه المعجزة، لأن الرب كان قد قال له: «إن الماء الذى رعاك وعَمِلَ على نجاتك حينما أُلقيت فى النيل، لن يعانى على يديك».

وما كاد هارون ينفذ أمر الرب، إلا وصارت كل مياه النيل دماء، حتى المياه التى كانت محفوظة فى أوان من الخشب أو الحجر. بل إن أى مصرى ما يكاد يرفع قنينة الماء عن فمه إلا وتتحول المياه فيها إلى دماء؛ كما تقاطرت الدماء كذلك من أصنام المصريين.

كان تحول المياه إلى دماء مقصوداً به فى الأساس أن يكون عقاباً للمضطهدين، ولكنه كان كذلك مصدراً لنفع المقهورين. فقد أتاح للإسرائيليين فرصة تجميع ثروات كبيرة(*)، إذ كان المصريون يدفعون إليهم أموالاً طائلة للحصول على بعض الماء منهم، لأنه إذا سحب مصرى وإسرائيلى الماء من نفس البئر، كانت مياه المصرى تتحول إلى دم، بينما تبقى مياه الإسرائيلى كما هى. لكن لم يكن ذلك ليجدى المصريين نفعاً، لأنهم حتى لو شربوا من نفس الإناء الذى يشرب منه الإسرائيليون، فإن

(*) أم هى عادة اليهود فى استغلال مصائب الناس والتربُّح من كوارثهم!!

ماءه كان يتحول إلى دماء بمجرد أن يدخل إلى فمه.

ومع ذلك فلم يقتنع فرعون بأن هذه المحنة هى عقاب أنزله به الرب، لأن سحرة مصر فعلوا نفس الظاهرة، بمساعدة ملائكة الهلاك، وحوّلوا الماء إلى دم. فلهذا فلم يُصّغ لكلمات موسى.

بعد ذلك حلت عليهم بلوى الضفادع، وجرت هى الأخرى على يد هارون الذى مَدَّ يده فوق مياه النيل فقفزت منه الضفادع وهجمت على أرض مصر. وأبقى موسى - الذى كانت نجاته بسبب المياه - بعيداً عن تلويث الماء الذى نجاه بهذه الزواحف. وفى البداية ظهر ضفدع واحد لكنه أخذ ينق ويصيح منادياً على رفاقه الذين اندفعوا خارج الماء فى جحافل غطت أرض مصر كلها. وحينما يكون مصرى تكون الضفادع التى كانت تخترق أصلب المعادن وأقوى أسوار قصور الأعيان المصريين، فلم تكن جدران قصورهم المصنوعة من الرخام لتمنع عنهم هذه البلوى. وكان كلما اقترب ضفدع من هذه الأسوار تنشطر فى الحال فتسمح له بالمرور منها. وكان الضفدع يصيح بالسور قائلاً: «أفسح الطريق لكى أنفذ مشيئة خالقى» فينصدع الرخام على الفور فيمر الضفدع من الصدع. بل إن الضفادع، من فرط حماستها لتنفيذ الأمر الإلهى، كانت تُلّقِى بنفسها فى الأفران المشتعلة وتلتهم ما بها من خبز. وفيما بعد ذلك بقرون، أمر نبوخذ نصر الأطفال المقدسين الثلاثة حنانيا ومشعيل وعزاريا بأن يعبدوا الأصنام وإلا ألقاهم فى الأفران المشتعلة، فقالوا له: «لئن كانت الضفادع - ولم تكن ملزمة بتمجيد اسم الرب - قد ألقت بنفسها فى النار لتنفذ المشيئة الإلهية الخاصة بعقاب المصريين، أنتوانى نحن عن التضحية بحياتنا وإلقاء أنفسنا فى النار لكى يتمجد اسم الرب أكثر وأكثر؟!» وقد كوفئت الضفادع المتحمسة على حماسها، إذ أنقذها الرب من الاحتراق ولم يكن للنار عليها من سلطان، بالرغم من هلاك الضفادع الأخرى عندما انقضت المدة المحددة للعقاب.

الآن، وبالرغم من أن سحرة مصر قد أخرجوا الضفادع من المياه بمساعدة الشياطين، فإن فرعون أعلن عن استعداده لإطلاق بنى إسرائيل لكى يقدموا القرابين للرب. وكان الفرق بين هذه البلوى والتى سبقتها، أن المياه عندما تحولت إلى دماء لم تسبب له إيذاءً بدنيا مباشراً، بينما آذته الضفادع بدنيا فوعد موسى بأنه سيطلق بنى إسرائيل ويتركهم يغادرون مصر، على أمل تخليص نفسه من الألم الذى عاناه من هجوم الضفادع. ووعده موسى بدوره بأنه سيتوسل للرب فى اليوم التالى ليكشف عنه هذه البلوى. ولم يكن من الممكن كشف البلاء فى الحال، لأن الأيام السبعة المقدرة لدوامه لم تكن قد انقضت بعد. واستجيبت دعوة موسى فهلكت الضفادع فى سرعة لم تتح لها الوقت للعودة إلى الماء، ولهذا امتلأت الأرض كلها برائحة جيفها، لأنها كانت من الكثرة حدًّ أن كل مصرى كان يجمع وحده كومتين عظيمتين منها. وبالرغم من أن الضفادع كانت تنتشر فى الأسواق والبيوت والطرقات، فإنها لم تقترب من الإسرائيليين وكأنها كانت تستطيع التمييز بين الشعبين، المصرى والإسرائيلى، وتعرف أيهما الذى يستحق العقاب، وأيهما الذى يستحق النجاة، كما أنها لم تتعدَّ حدود البلاد ولم تتعدَّ على أراضى الأمم المجاورة لمصر. بل إنها كانت سبيلاً لتسوية نزاع حدودى مزمن بين مصر وإثيوبيا، فحيثما توقفت الضفادع تنتهى حدود مصر، وتمتد حدود إثيوبيا فيما وراء ذلك.

كان فرعون مثله مثل العصاة الذين يلجأون إلى الرب وقت المحنة فإذا انكشفت عاد إلى سيرته الأولى. فما كادت بلوى الضفادع تتكشف عنه وعن بيوته وعبيده وقومه، إلا قسا قلبه مرة أخرى ورفض إطلاق بنى إسرائيل. وعند ذلك ابتلاه الرب بالقمَّل، وكانت آخر بلوى تحل بالمصريين على يدى هارون. ولم يكن لموسى دخل فيها لأن الرب قال: «لأن الأرض التى حمتك عندما تركتك تدفن المصرى الذى قتلته فى بطنها، لا يمكن أن تعانى على يديك».

وكان سحرة مصر قد تباهوا من قبل بأنهم يستطيعون إنزال البليتين

الأوليين، وكان ذلك تفاخراً فارغاً منهم لأنهم لم يقدروا على فعل ذلك بسبب قوة سحرهم، وإنما لأن موسى أرادهم أن يفعلوا ذلك. لكن الرب أخزاهم فى هذه البلوى الثالثة إذ حاولوا دون جدوى أن يقلِّدوها. ولم تستطع الشياطين مساعدتهم، لأن قدرة الشياطين مقصورة على إنتاج أشياء أكبر من حبة الشعير(*)، والقمل أصغر حجماً من ذلك بكثير. وعند ذلك لم يجد السحرة مفرّاً من الاعتراف بعجزهم قائلين: «هذه (من فعل) أصابع الرب». وقد وضع فشلهم فى ذلك نهاية لمحاولاتهم تقليد موسى فيما يفعل.

لكن قلب فرعون قسا من جديد، وكلم الرب موسى قائلاً: «إن هذا الشرير سيبقى قاسى القلب، برغم كل البلايا التى أنزلتها به. لهذا ستكون البلوى الرابعة أسوأ مما سبقتها. اذهب إليه وحذره، فالأفضل له أن يُطلق شعبى، لكيلا تنزل به البلوى».

(*) انظر إلى دقة التخصص!!

البلايا التى نزلت
من خلال موسى

تم إعلان الملك بالبلوى الرابعة أيضاً وهو يتمشى على ضفة النهر. وكان فرعون يذهب إلى هناك بانتظام، لأنه كان من السحرة الذين يحتاجون إلى الماء لممارسة طقوسهم السحرية. وكانت زيارات موسى الصباحية اليومية قد بدأت تثير انزعاجه، فغادر منزله مبكراً عن ذى قبل، أملاً فى تفادى زيارات موسى المفاجئة. لكن الرب، الذى يعلم خبيئة كل نفس، أرسل موسى إليه فى ذات اللحظة التى خرج منها من منزله.

ولما لم يكن لتحذير موسى من نزول البلوى الرابعة أدنى تأثير على فرعون، فقد أرسل الرب البلوى الرابعة على مصر وكانت خليطاً من الحيوانات المفترسة، كالأسود والدببة والذئاب والفهود، والعديد من الطيور الجارحة من كل صنف ونوع سدت صفحة السماء حتى إنها قد حجبت نور الشمس. وقد هجمت هذه البهائم على المصريين عقاباً لهم على رغبتهم فى إرغام نسل إبراهيم على الاختلاط بالأمم الأخرى. فعاقبهم الرب بجزاء من جنس عملهم بأن أرسل عليهم حشوداً مختلطة كلفتهم حياتهم.

وكما كان فرعون أول من خطط لأذية بنى إسرائيل، فإنه كان أول من تنزل به العقوبة. وقد هجمت الحشود المختلطة من الحيوانات المفترسة على بيته قبل كل بيت، ثم هاجمت بيوت بقية المصريين. أما جاسان، تلك الأرض

التى كان يقيم فيها الإسرائيليون، فلم يقترب منها حيوان واحد، لأن الرب وضع حدا فاصلاً بين الشعبين. وصحيح أن بنى إسرائيل قد ارتكبوا من الخطايا ما يكفى لإنزال العقوبة بهم، لكن القدوس تبارك وتعالى، جعل المصريين فداءً لهم.

ومرة أخرى أعلن فرعون عن استعداده لترك بنى إسرائيل يذهبون لتقديم القرابين إلى إلههم، لكن عليهم أن يبقوا داخل البلاد ولا يذهبوا إلى البرية. لكن موسى أوضح لفرعون أنه لا يليق بالإسرائيليين أن يذبحوا أمام أعين المصريين الحيوانات التى يقدسها المصريون، ليقدموها قرابين لإلههم. وعند ذلك وافق فرعون على تركهم يذهبون لما وراء حدود بلاده، لكن دون أن يمضوا بعيداً، فحاول موسى خداعه وطلب منه أن يأذن لهم بالخروج مسيرة ثلاثة أيام إلى البرية. لكن ما كاد موسى يدعو ربه لكشف البلاء، وما كاد البلاء ينكشف، إلا وقسا قلب فرعون من جديد ورفض ترك الشعب يمضى إلى حال سبيله.

كان انقطاع البلوى الرابعة معجزاً مثل البلاء نفسه. فنفس الحيوانات التى قتلها المصريون دفاعاً عن أنفسهم، عادت إليها الحياة من جديد وغادرت البلاد مع بقية الحيوانات. وقد قضى الرب بذلك كى يحول دون استفادة الظالمين الأشرار من العقوبة التى نزلت بهم، عن طريق الاستنفاع بجلود وفراء الحيوانات التى قتلوها. ولم تكن الحال هكذا مع الضفادع عديمة النفع، فقد ماتت من فورها فى أماكنها، وبقيت جثثها حيث سقطت.

كانت البلوى الخامسة التى أنزلها الرب بالمصريين وباء فتاكاً قضى على ماشيتهم وبهائمهم بالأساس، وإن امتد كذلك إلى البشر فقضى على كثير منهم. وقد كانت هذه البلوى مميزة، ولكنها صاحبت البلايا الأخرى كذلك، وهلك الكثير من المصريين بسببها. ومرة أخرى نجا الإسرائيليون منها ولم يُصَبْ أحد منهم بسوء. بل لو ادعى واحد من الإسرائيليين، عن

حقٍّ، أن له ظِلف بهيمة من بهائم المصريين، كانت البهيمة تنجو من الوباء كما نجا كذلك كل بهيمة اشترك فى امتلاكها واحد من الإسرائيليين وواحد من المصريين.

نزل البلاء السادس، الدمامل، على يدى موسى وهارون معاً بطريقة معجزة. فقد قبض كل منهما قبضة من تراب الفرن، ثم وضع موسى الحفنتين فى راحة يده فقذفهما فى الهواء فارتفعتا عالياً حتى وصلتا إلى عرش الرب، ولما نزل التراب انتشر فى مساحة مصر كلها، والتى تعادل أربعمئة فرسخ مربع. وأصاب الغبار المتساقط جلود المصريين بالبَرص وبدمامل من نوع خاص، كانت طرية من الداخل وجافة من الخارج.

حاول السحرة تقليد موسى وهارون فى إحداث البلايا الخمس الأولى ونجحوا فى ذلك إلى حدٍّ ما. لكنهم فى هذه البلية السادسة لم يستطيعوا مجاراة موسى، فأقلعوا من حينها فصاعداً عن محاولة تقليده فيما يفعل. إوكان سحرهم وبالاً عليهم، إذعلى الرغم من أنهم كانوا يستطيعون إنزال البلاء، فلم يكونوا يستطيعون كشفه. وكانوا يضعون أيديهم فى جيوبهم، مقلدين موسى، ثم يخرجونها فإذا هى برصاء، لكن جلودهم كانت تبقى برصاء حتى يوم موتهم. وحدث نفس الشىء فى البلاوى الأخرى التى حاولوا تقليد موسى فيها، فعاشوا إلى يوم موتهم موبوءين بالأمراض التى جلبوها على أنفسهم.

كما كان قلب فرعون يقسو بعد انكشاف كل بلوى، من البلايا الخمس فيرفض إطلاق بنى إسرائيل، ويعود إلى شروره، فإن الرب قد عاقبه بعد ذلك بحيث لا يستطيع التوبة، إن فكر فيها. وقال الرب: «حتى لو أراد التوبة الآن، فإنى سأجعل قلبه قاسياً حتى يسدِّد لى ديونه كلها».

لاحظ فرعون أنه كلما خرج يتمشى على ضفاف النيل يفاجئه موسى ويظهر له، ولذا فقد أقلع عن مزاولة رياضته الصباحية. لكن الرب أمر موسى بالذهاب إلى فرعون فى قصره فى الصباح الباكر وحثه على التوبة

والندم. ولذا فقد ذهب إليه موسى وكلمه باسم الرب قائلاً: «أيها الوغد الشرير! أتظن أننى لا أستطيع القضاء عليك ومحوك من على وجه الأرض؟ ألا تعلم أننى لو كنت أردتُ لكنت أهلكتك أنت وقومك بالوباء، بدلاً من إهلاك غنمك وماشيتك؛ ولكنتُ اجتثثتك من على وجه الأرض؟ إنى لم أنزل بك من البلاء إلا بما يريك قوتى وأنى المهمين على ذلك العالم كله. لكنك، رغم كل ذلك، لا تريد التوبة عن وطء شعبى تحت قدميك. غداً، عندما تكون الشمس عند هذه النقطة»، وأشار له موسى إلى نقطة على الحائط، «سأنزل عليكم جليداً مرعباً، لن يكون مثله مرة أخرى إلا عندما أهلك «جوج» بالجليد والنار والكبريت». لكن رحمة الرب وحلمه عظيمان لدرجة أنه فى غضبه وسخطه يرحم العصاة الأشرار، ولأنه لم يكن يريد فى المقام الأول إيذاء الناس والبهائم، ولكن إتلاف مزروعات المصريين، فقد أمر موسى بأن يحذِّر فرعون ليسرع بإعادة ماشيته وكل ما له من الحقول. لكن لم يلق تحذيرُ موسى آذاناً صاغية، فلم يُصغ له سوى أيوب (؟؟)، بينما أعرض عنه فرعون وقومه. لهذا جعل الرب الجليد يضرب البشر والبهائم على السواء، بدلاً من اقتصاره على أعشاب وأشجار الحقول، كما كان ينوى من البداية.

كقاعدة عامة لا يجتمع النار والماء معاً، لكن فى كرات الجليد المتساقطة التى ضربت أرض مصر، اجتمع النقيضان معاً. وكانت النار تستقر فى كرة الجليد كما يستقر الفتيل المشتعل على زيت المصباح، ولا يستطيع السائل المحيط به إطفاءه. وكان المصريون إما يصابون بالبرد أو بالنار، فكانا يحرقان أبدانهما، وكانت النار تلتهم أجساد الذين قضى عليهم البرد. وكانت كرات الجليد تتجمع وتتراكم فتكون مثل السور العالى، فلم يكن ممكناً إزالة جثث البهائم القتيلة، وإذا نجح الناس فى انتزاع جثث الحيوانات وحملها بعيداً، كانت الطيور الجارحة تنقض عليها وتخطفها فتطير بها بعيداً. لكن المزروعات فى الحقول عانت أكثر مما عاناه البشر

والبهائم، إذ كان البرد ينزل عليها كالفأس على الشجر فيجتثها اجتثاثاً. وكان معجزة أن نجا من ذلك القمح والشوفان.

وأخيراً أقر فرعون بذنبه وقال: «الرب صالح، وأنا وقومى أشرار عصاة. وقد كان بنا رحيماً إذ أمرنا بإعادة ماشيتنا قبل نزول الجليد، وكنا أنا وقومى أشراراً معاندين إذ لم نستمع لتحذيره لنا، فمات الناس والبهائم فى الحقول». ثم توسل إلى موسى مرة أخرى لكى يدعو ربه ليكشف عنه البلاء، واعداً إياه بأنه سيترك بنى إسرائيل لحالهم. ووافق موسى على طلبه، ولكنه قال له: «لا تظنَّنَّ أنى لا أعلم ماذا سيحدث بعدما ينكشف البلاء عنكم. إنى لأعلم أنك وقومك تخافون الرب عندما ينزل بكم البلاء، ثم تزول خشيتكم منه عندما ينكشف وتعودون لما كنتم فيه من قسوة قلب وعناد. لكن ولكى أريكم عظمته، سأدعوه ليكشف عنكم بلوى الجليد».

ابتعد موسى عن مدينة فرعون قليلاً، ومد يديه ودعا الرب؛ ولم يشأ أن يدعو الرب داخل المدينة حيث كانت توجد العديد من الأصنام والتماثيل. وفى الحال تعلَّق الجليد فى السماء. وقد نزل جزء منه عندما كان يوشع يحارب العموريين، بينما سيرسل الرب بقيته عندما يحل سخطه على «جوج». كما توقفت الرعود بشفاعة موسى، وأُجِّلتْ لوقت لاحق، لأنها كانت هى الجلبة التى أسمعها الرب للجنود السريان عند حصارهم للسامرة، ففروا عند الزوال.

وحدث ما توقعه موسى، فما كاد نزول الجليد يتوقف إلا وأخلف فرعون وعده ورفض إطلاق بنى إسرائيل. ولم يُضع موسى وقتاً فى تحذيره من نزول البلاء الثامن، بلاء الجراد. ولما لاحظ موسى أن كلماته قد أثَّرت على مستشارى الملك، التفت عن فرعون وانصرف وتركهم ليناقشوا الأمر فيما بينهم. وبالفعل أخذ عبيد الملك يستحثونه على السماح للإسرائيليين بالخروج وتقديم القرابين للرب إلههم. لكن عندما أصر موسى على خروج

جميع الشعب، صغاراً وكباراً، بنين وبنات، احتجَّ فرعون قائلاً: «أعلم أنه من المعتاد أن يذهب الرجال والنساء لتقديم القرابين، لكن الأطفال لا يذهبون بالقطع، ولذا فأنت تكشف لى عن سوء نيتك بطلبك خروج الأطفال معكم كذلك. إن قولك أنكم ستذهبون فى رحلة لثلاثة أيام فى البرية ثم تعودون، ما هى إلا ذريعة واهية وإنكم لابد تنوون الهروب وعدم العودة إلى البلاد مرة أخرى. لن أسمع لك أبداً مرة أخرى فيما يخص هذه المسألة، ولن يكون لى بها شأن من الآن فصاعداً. فإلهى «بعل - صفون» سيعترض طريقكم ويمنعكم من استكمال رحلتكم». وكان فى كلماته الأخيرة مكر ودهاء، فلأنه كان ساحراً فقد تنبأ بأن بنى إسرائيل - عند خروجهم من مصر - سيجدون أنفسهم داخل متاهات أمام معبد «بعل - صفون».

لم يقنع فرعون برفض طلب موسى وهارون، ولكنه أمر كذلك بطردهم بالقوة من قصره. ثم أنزل الرب بلاء الجراد الذى حذرهم منه موسى. وانقض الجراد يأكل كل عشب فى الأرض وكل ثمرة على الأشجار نجت من الجليد، ولم يبق فى البلاد كلها شىء أخضر. فأرسل فرعون مرة أخرى فى طلب موسى وهارون لكى يطلب منهما العفو والسماح، لخطيئته تجاه الرب أن لم يستمع لكلماته، ولجرمه فى حقهما إذ طردهما من قصره. وكما فعل من قبل، دعا موسى الرب فانكشف البلاء عن فرعون وقومه، وبطريقة مدهشة. فعندما بدأت جحافل الجراد تسد عنان السماء، اصطادها المصريون وحفظوها داخل أوعية خلٍّ لكى يأكلوها ويتلذذوا بطعمها فيما بعد. لكن الرب أرسل ريحاً غربية عاصفة جرفت الجراد أمامها وألقت به فى البحر الأحمر. حتى إن الجراد الذى كان محفوظاً داخل الأوانى طار وهرب بعيداً، فلم يتبق لدى المصريين شىء من الغنيمة التى كانوا ينتظرونها.

دامت البلوى قبل الأخيرة، مثلها مثل ما سبقها من بلاوى، سبعة أيام لف البلاد كلها فيها ظلام حالك، لكن بدرجات متفاوتة فى الشدة. ففى الأيام الثلاثة الأولى كان الظلام خفيفاً، فكان المصريون يستطيعون تغيير

أوضاعهم فيقف الجالس ويجلس الواقف. لكن فى الأيام الثلاثة الأخيرة اشتد الظلام حتى إنهم لم يستطيعوا التحرك فى أماكنهم، فكانوا إما يجلسون طوال الوقت، أو يظلون واقفين. وفى اليوم السابع لف الظلام المصريين، ليس فى بيوتهم وإنما عند البحر الأحمر أثناء مطاردتهم لبنى إسرائيل. ولم يكن ذلك الظلام من النوع العلوى المألوف فى دنيانا، وإنما كان آتياً من الجحيم وكان المصريون يستطيعون تحسسه. وكان غليظاً كثيفاً مثل الدينار، وطوال الوقت الذى ضرب فيه البلاد كان هناك نور سماوى يضئ بيوت بنى إسرائيل. فكانوا يستطيعون رؤية ما يفعله المصريون فى ظلامهم. وكان لذلك نفع عظيم بالنسبة لهم، إذ لما أوشكوا على مغادرة البلاد طلبوا من جيرانهم المصريين إقراضهم بعض الملابس والجواهر والحلى الذهبية والفضية، ليستعينوا بها فى رحلتهم، لكن المصريين حاولوا إنكار امتلاكهم لهذه الأشياء. لكن بنى إسرائيل، بعدما رأوا كل ما لدى المصريين أثناء الظلمة، أخذوا يصفون لهم شكل الأشياء التى يريدونها منهم بالتفصيل والأماكن التى يخفونها فيها. وعند ذلك آمن المصريون بصدق الإسرائيليين، وأدركوا إن الإسرائيليين، لو كانوا أشراراً، لسرقوا منهم هذه الأشياء أثناء الظلمة، طالما كانوا يرونها ويعرفون أماكنها. ولذا فقد أسرع المصريون يعطون بنى إسرائيل كل ما طلبوا.

كانت الظلمة التى ضربت المصريين من نوع لا تجدى معه الوسائل المصطنعة. فكانت النار التى يشعلها أهل بيت من بيوت المصريين ليستضيؤوا بها، إما تطفئها العاصفة، أو تلتهما الظلمة من شدتها. وعميت أبصارهم، برغم سلامة أعينهم، فتعطلت جميع حواسهم، إذ البصر قائدها وقد تعطل. فلم يستطع أحد منهم الكلام ولا السمع، ولا جرؤ واحد منهم على تناول طعامه، وإنما رقدوا فى أماكنهم جوعى وقد تعطلت كل حواسهم الخارجية. وهكذا عاشوا حتى رأف موسى بحالهم فدعا لهم الرب فمنحه القدرة على استعادة الطقس كما كان، فحل النور بدلاً من الظلمة، وجاء

النهار وانقشع الليل.

بثَّت هذه البلوى فى قلب فرعون الرعب، فأذن لموسى وقومه بالخروج، على شرط ترك بهائمهم وماشيتهم، لكن موسى قال له: «وحياتك، لنخرجن جميعاً من هنا ومعنا كل ماشيتنا وبهائمنا. بل لو كان ظلف بهيمة ملِكاً لواحد من الإسرائيليين، فلنأخذ البهيمة نفسها معنا». وأثارت هذه الكلمات سخط فرعون، كما لم يُثره شىء آخر من قبل، فتوعد موسى بأنه سيقتله لو رأى سحنته مرة أخرى.

وفى تلك اللحظة ظهر الرب لموسى وأمره بتحذير فرعون من قدوم البلاء الأخير، ألا وهو قتل أبكارهم. وكانت تلك هى المرة الأولى والأخيرة التى يظهر فيها الرب بنفسه فى القصر الملكى. وقد اختار المكان الذى يقيم به فرعون فى هذه المناسبة، لكى لا يقال أن موسى كذاب، لأنه قد رد على فرعون، عندما توعده بالقتل إن رأى سحنته مرة أخرى، قائلاً: «معك حق.. لن أرى سحنتك مرة أخرى».

أعلن موسى عن قدوم البلاء الأخير بصوت جهير، وختم إعلانه قائلاً: «وسوف يأتى إلىَّ عبيدك هؤلاء كلهم فيخرون ساجدين لى يتوسلون قائلين: «نرجوك اخرج من هنا، أنت وجميع شعبك» وبعد ذلك سأخرج». وكان موسى يعلم جيداً أن فرعون سيأتى إليه بنفسه ويتوسل إليه ليخرج بالإسرائيليين من مصر بأسرع ما يمكنه، لكنه لم يذكر فى كلامه إلا عبيد الملك، وليس الملك نفسه، لأنه لا ينسى أبداً الاحترام الواجب عليه تجاه الحاكم.

المـرور الأول

عندما اقترب الوقت الذى سيتم فيه تخليص ذرية إبراهيم، حسبما وُعدَ، تبين أنهم لم يفعلوا من الخيرات ما يستحقون الخلاص بسببه من العبودية. لهذا أوصاهم الرب وصيتين، الأولى أن يقرِّبوا حمل الفصح، والثانية أن يختتنوا أولادهم.

كما تسلَّموا مع الوصية الأولى التقديم الذى يستخدمه اليهود، لأن عيد المرور يجب أن يُحْتَفل به فى اليوم الخامس عشر من شهر نيسان، وتبدأ السنة (العبرية) بهذا الشهر لكن كان حساب التقويم صعباً ومربكاً لدرجة أن موسى لم يقدر على فهمه إلا بعد ما أراه الرب تحركات القمر ومنازله عياناً بياناً. كما كانت هناك ثلاثة أشياء أخرى لا تقل صعوبة، ولم يفهمها موسى كذلك إلا بعدما أراها له الرب عياناً بياناً.

وكانت هذه الأشياء الثلاثة هى: طريقة تركيب الزيت المقدس، تكوين الشمعدان فى الهيكل، والحيوانات التى أحلَّت لحومها وتلك التى حرِّمت.(*) كما كان تقدير أهِلَّة الشهور موضوعاً علَّمه الرب لموسى تعليماً مخصوصاً. ولكى يعلم موسى الطريقة الصحيحة لتقدير هلال كل شهر، ظهر له الرب مرتدياً عباءةً على أركانها خيوط، وأمر موسى بالوقوف عن يمينه وهارون بالوقوف عن شماله، ثم جعل ميكائيل وجبريل شاهدين، ثم أخذ يسأل

(*) كل ذلك تبرير فارغ للطقوس العديدة المعقدة التى اخترعها الأحبار لأكل أموال الناس بالباطل.

الملكين أسئلة يستفسر بها عن كيفية ظهور الهلال الجديد لهما. ثم خاطب الرب موسى وهارون قائلاً: «هكذا فليعلن أطفالى عن مولد الهلال الجديد، بشهادة شاهدين وعلى لسان رئيس المحكمة».

عندما ذهب موسى إلى بنى إسرائيل وأعلن أمامهم رسالة الرب بأن خلاصهم سيكون فى هذا الشهر، شهر نيسان، قالوا له:

«وكيف يكون خلاصنا الآن؟ ألا تمتلئ أرض مصر كلها بأصنامنا؟ ولم نفعل خيراً نستحق من أجله الخلاص؟» لكن موسى أجابهم قائلاً: «لأن الرب يريد تخليصكم فإنه لن يبالى بأصنامكم؛ وسيتجاوز عنها(*). كذلك فلن يأخذكم بخطاياكم ويحاسبكم عليها، ولكنه لن يراعى إلا طاعات الأتقياء منكم ويخلصكم بسببها».

وحقا ما كان الرب ليخلص بنى إسرائيل لو لم يهجروا عبادة أصنامهم. ولذا فقد أمرهم بالتضحية بحمل الفصح، فيُظْهروا تركهم وثنية المصريين، الذين كانوا يعبدون الكباش. وكانت الشريعة القديمة تختلف عن الممارسات التى جرت فى العصور اللاحقة، إذ كانوا يؤمرون باختيار الحيوان الذى سيضحُّون به قبل أربعة أيام من اليوم المخصص لتقديم القرابين، وإعلام الناس به على الملأ، لكى يبينوا أنهم لم يعودوا يخشون المصريين.

بقلوب ثقيلة وأنفس ملتاعة وقف المصريون يتفرجون على بنى إسرائيل وهم يجهزون للتضحية بالحيوانات التى يعبدونها. ورغم ذلك لم يجرؤ واحد منهم على الاعتراض، ولما حان وقت تقديم القرابين، استطاع بنو إسرائيل إقامة احتفالاتهم دون أى تردد، إذ رأوا، من خبرتهم فى الأيام الماضية، أن المصريين كانوا يخافون من الاقتراب منهم أو التعرض لهم. كما كانت هناك

(*) سبحان الله!! كيف ذلك والله عز وجل يقول فى محكم آياته: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾

شعيرة أخرى مرتبطة بالتضحية بحمل الفصح وقصد منها إعلام المصريين بأن الإسرائيليين لا يخافونهم مطلقاً. فكان بنو إسرائيل يأخذون دم الأضاحى فيلطخون به قوائم وعتبات بيوتهم، علناً وأمام الجميع.

عرَّف موسى شيوخ الشعب بالشرائع المنظمة لقرابين عيد المرور، فأخبر بها الشيوخ الشعب. وقد أثيب الشيوخ على دعمهم لزعيمهم (= موسى) منذ أول ظهور له، لأن إيمانهم بموسى دفع جميع الشعب لاتِّباعه على الفور. لهذا قال الرب: «سأثيب الشيوخ على بثهم الثقة فى نفوس الشعب تجاه موسى. سينالون شرف تخليص إسرائيل. وسيقودون الشعب خلال أضحيات عيد المرور، وسيكون خلاصهم من خلال ذلك».

كانت الاحتفالات المرتبطة بأضحيات عيد المرور مقصوداً منها إعلام إسرائيل بالماضى والمستقبل كذلك. فالدم الذى يلطخ به قائما المنزل وعتبته أريد به تذكير الشعب بإبراهيم وإسحق ويعقوب؛ كما أن حزمة العشب المستخدم فى رش القوائم والعتبات بالدم، قد أريد به التلميح إلى أنه بالرغم من أن مكانة إسرائيل بين شعوب الأرض فى مثل حقارة مكانة العشب بين النباتات، فإن هذا الشعب القليل عدده مترابط معاً كحزمة العشب، لأنه هو كنز الرب المخصوص.

أتاحت التضحية بحمل الفصح الفرصة لموسى أن يستحث بنى إسرائيل على ختان أنفسهم، إذ كان الكثيرون منهم قد رفضوا القيام بذلك حتى حينها بالرغم من توسلات موسى ومناشدته لهم ليفعلوا. لكن للرب طريقته فى الإقناع. فقد أثار ريحاً حملت عطر الفردوس إلى حمل موسى، ففاح العطر وانتشر فى أرض مصر كلها، وإلى مسيرة أربعين يوماً. عند ذلك تدافعت جموع الشعب تجاه حمل موسى وأرادوا المشاركة فيه، لكن موسى قال لهم:

«لا لقد أمرنى الرب وقال: «لا يأكلن منه من لم يختتن» فعزم الكثيرون منهم على الاختتان. وعندما مر الرب بأرض مصر، بارك كل إسرائيلى على تنفيذه لوصيتيه اللتين أوصى بهما بنى إسرائيل، وصية التضحية بالحَمل ووصية الاختتان.

أجرى الرب معجزة عظيمة للإسرائيليين. فلأنه من غير المسموح به أن يؤكل لحم أى أضحية خارج الأرض المقدسة، فقد حُمِل إليها بنو إسرائيل جميعاً على ظهر السحب، ثم أعيدوا إلى مصر بعدما انتهوا من أكل لحوم الأضاحى.

قتــل الأبكــار

عندمـا أعلن مـوسـى عن قـدوم بلوى الأبكار، هـرول الضـحـايا المنتظرين إلى آبائهم قـائلين: «لقـد تحـقق كل مـا توعّـدنا به مـوسـى. دعوا العـبـريين يذهبـون، وإلا مـتنا جـميـعـاً». لكن آباءهم ردُّوا قـائلين: «من الأفضل لنا أن يمـوت واحـد من كل عـشـرة منـا، على أن ينفـِّـذ العـبـريون مـآربهم». فـهـرول الأبكار إلى فـرعـون لكى يسـتـحـثـوه على إطلاق بنى إسـرائيل. لكن فـرعـون، وبأبعـد مـا يكون عن تلبـيـة مطلبـهم، أمـر عـبـيـده فـانقـضـوا عليـهم يـجلدونهم ويضـربونهم فى قـسـوة عقـابـاً لهم على وقـاحـتهم وجرأتهم. فلمـا رأوا أنهم لن يستطيعوا تحقيق مطلبهم باللين، لجـأوا إلى العنف.

كان فـرعـون، وكل من أنكـر على الأبكار مطلبـهم، يرون أن خـسـارة هذه النسـبـة الضـئـيلة من السكان لـيـسـت بـالأمـر الجلل. لكنهـم كـانوا فـى ذلك مـخطئين، لأن الأمـر الإلهى لم يقـتـصـر على الأبنـاء الأبكار فـقط، وإنمـا على البنات الأبكار كذلك، ولم يقـتـصـر كذلك على الأبكار من الزيجـات الحـاليـة، وإنما على أبكار الآباء والأمـهـات كذلك. ولما كـان المصـريون يعيـشـون حـيـاة الفـاحشة والفجور، فقـد تكرر كثيراً أن كل طفل من الأطفال العشرة أولاد أم واحـدة هو بكر أبيه. ثم قـرر الرب أخيراً أن يمـوت كبـيـر كل بيت، سـواء كـان هو بكر أبويه أم لم يكن. وتم مـا شـاء الرب. ففـى اللحظة التى نصـَّفت الليل تمامـاً ـ والتى لم يكن ليستطيع تحديدها بدقـة تامة سـوى الـرب نفسـه ـ ظهـر الرب فـى مـصـر يصـحـبـه تسـعـة آلاف ألف من مـلائكة الهـلاك الذين خلقـوا

بعضهم من البَرَد وبعضهم من النار، والذين تلقى نظراتهم الرعب والفزع فى قلب كل من ينظر إليهم. وكان هؤلاء الملائكة ينقضون على المصريين قتلاً وإهلاكاً، لكن الرب منعهم قائلاً: «لن يُشْفَى غليلى حتى أنتقم بنفسى من أعداء إسرائيل».

كان من المصريين من صدَّقوا كلمات موسى وحاولوا حماية أطفالهم الأبكار من الموت فأرسلوهم إلى جيرانهم العبريين ليقضوا تلك الليلة المرعبة معهم، على أمل أن يستثنى الرب منازل بنى إسرائيل من تلك البلوى. لكن عندما نهض الإسرائيليون من نومهم فى الصباح وجدوا جثث الهاربين المصريين ملقاة بجوارهم. وكانت تلك هى الليلة التى دعا فيها الإسرائيليون قبل أن يأووا إلى مضاجعهم قائلين: «فلتجعلنا، يا ربنا، نرقد فى سلام، واطرد الشيطان من أمامنا ومن خلفنا واحفظنا فى خروجنا من الحياة (=النوم) وفى دخولنا إليها (= الاستيقاظ) فى سلام» لأن الشيطان هو الذى كان قد أحدث فى المصريين هذا القتل الفظيع(*).

وكان من بين من قتلوا فى تلك الليلة، أبكار الشعوب الأخرى التى كانت تقيم فى مصر، وكذلك أبكار المصريين الذين كانوا يعيشون خارج بلادهم. وحتى الأبكار المصريين الذين ماتوا من زمن طويل، لم ينجوا من تلك الليلة، إذ نبشت الكلاب قبورهم وجرجرت جثتهم وطافت بها فى منازلهم، إذ كانت عادة المصريين دفن موتاهم داخل منازلهم. فلما رأى المصريون ذلك المنظر البشع ناحوا وبكوا على موتاهم وكأنما قد ماتوا لتوهم. وأما الآثار والنُّصُب التى أقيمت تذكاراً للأبكار الموتى، فقد تم تسويتها بالتراب وبعثرتها الرياح. كما لم ينجُ عبيدهم من ذلك المصير الفظيع، ولا الأبكار الذين كانوا محبوسين فى السجون، إذ كانوا كلهم، عبيداً وأحراراً، يكرهون الإسرائيليين يفرحون كلما سامهم المصريون مزيداً من العذاب. وكانت الأمهات اللاتى يطحنَّ الذرة فى الرحى يقلن: «لن نحزن لأننا كنا عبيدا، طالما تم كتم

(*) أصار الرب شيطاناً!! أستغفر الله تعالى.

أنفاس الإسرائيليين».

وفى عقابه للغرباء المقيمين فى أرض مصر، أظهر الرب فى نفس الوقت أنه هو سيد الأرض ورب الأرباب جميعاً، فلو لم يتم إهلاك العبيد وأسرى الحرب، لكانوا قالوا: «إن إلهنا قوى ولذا فقد حمانا من هذه البلوى». ولنفس السبب تم نسف جميع أصنام المصريين فى تلك الليلة. فقد تم سحق الأصنام المصنوعة من الحجر حتى استحالت تراباً، وتعفنت الأصنام الخشبية، وانصهرت المعدنية، وبذا لم يستطع المصريون الإدعاء بأن البلاء نزل بهم بسبب غضب آلهتهم عليهم. كذلك قتل الرب الإله أبكار الماشية، لأن المصريين كانوا يعبدون الحيوانات، ولذا فقد كان المحتمل أن يعزوا ما حل بهم من بلاء إلى تلك الحيوانات. وفى كل ذلك أراهم الرب أن آلهتهم ما هى إلا مجرد أوهام.

خــلاص إســرائيل
من استعباد المصريين

هب فرعون من فراشه فى ليلة قتل الأبكار، ولم ينتظر حتى الساعة الثالثة من الفجر، حيث هى عادة الملوك فى الاستيقاظ، ولا انتظر أن يوقظه أحد، ولكنه نهض وأوقظ عبيده من نومهم، وأوقظ جميع المصريين وخرجوا جميعاً يبحثون عن موسى وهارون. وكان فرعون يدرك جيداً أن موسى لم يكذب مرةً، وكما قال موسى: «لن أرى سحنتك مرة أخرى» فلم يكن بوسع فرعون الانتظار حتى يأتيه موسى. ولذا فلم يتبق أمامه شىء سوى الذهاب للبحث عن الزعيم الإسرائيلى. ولم يكن فرعون يعلم أين يعيش موسى ووجد مشقة كبيرة وأضاع وقتاً كبيراً فى البحث عن منزله، إذ كان الغلمان العبريون الذين يسألهم عندما يقابلونه فى الطريق، يخدعونه ويضللونه. وهكذا ظل تائهاً يجول دون هدف لفترة، وهو يبكى وينوح قائلاً: «يا موسى يا صديقى... ادع لى الرب!».

فى هذه الأثناء كان موسى وهارون وجميع بنى إسرائيل يتناولون وجبة الحَمَل ويشربون الخمر متكئين على جانب ويترنمون بحمد الرب منشدين أغنية «الهلل» التى كانوا هم أول من ترنَّم بها. وعندما وصل فرعون فى النهاية إلى باب المنزل الذى يقيم به موسى ناداه فسأله موسى: «من أنت، وما اسمك؟» فرد فرعون: «أنا فرعون الذى يقف هنا مهاناً ذليلاً». فسأله موسى مرة أخرى: «ولم جئتَ إلىّ بنفسك؟ أمن عادة الملوك التلكؤ عند

أبواب العامة؟» فأجابه فرعون: «أتوسل إليك يا مولاى... تعال فتشفع لنا وإلا فلن يبق مصرى واحد فى مصر حيا». فرد عليه موسى قائلاً: «لا يمكننى الخروج لأن الرب أمرنا قائلاً: «لا يخرجن أحد منكم من هذا المنزل أبداً إلى الصباح». لكن فرعون لم ييأس وواصل مناشدة موسى قائلاً: «تعال إذاً إلى النافذة وتحدث معى». فلما استجاب موسى لتوسلاته الذليلة وظهر له من النافذة، خاطبه قائلاً: «لقد قلت لى بالأمس» إن كل أبكار أرض مصر سوف يموتون»، لكن لقد مات الآن تسعة أعشار السكان».

كانت بَتْ هى، أم موسى التى ربته وابنة فرعون، ترافق أباها. وعاتبت موسى واتهمته بنكران الجميل لأنه جلب عليها وعلى بنى قومها البلايا. فأجابها موسى قائلاً: «لقد أنزل الرب عشر بلايا على مصر. فهل أصابك من أى منها مكروه؟ وهل مسك أحدها بسوء؟» فلما أقرت له بَتْ هى بأنه لم يصبها من كل ذلك مكروه، واصل موسى كلامه لها قائلاً: «وبالرغم من أنك بكر أمك، فلن تموتى، ولن يمسَّك سوء فى مصر». لكن بَتْ هى ردت قائلة: «وبم يفيدنى أن أكون آمنة مطمئنة وأنا أرى الملك، وأخى وجميع أهل بيته يتعرضون لهذه المصيبة البشعة، ويرون بأعينهم أبكارهم وأبكار المصريين جميعاً يهلكون»؟ فرد موسى قائلاً: «ولكن أخاك وأهل بيته ومن سواهم من المصريين لم يسمعوا لكلمات الرب، لهذا حلت بهم هذه البلوى».

ثم التفت موسى إلى فرعون وقال له: «بالرغم من كل ما حدث فسأعلمك شيئاً، إن كنت تريد التعلم، وحينها لن تموت وستنجو ارفع صوتك وقل: «يا بنى إسرائيل ـ أنتم سادة أنفسكم. تجهزوا لرحلتكم واخرجوا من بين شعبى. لقد كنتم حتى الآن عبيداً لفرعون؛ لكن من الآن فصاعداً ليس لأحد عليكم سلطان سوى الرب. فاعبدوا الرب إلهكم!». وجعله موسى يقول هذه الكلمات ثلاث مرات، وجعل الرب صوت فرعون مسموعاً فى جميع أرجاء أرض مصر، فعلم كل سكانها، سواء كانوا من أصلها أم غرباء عنها، أن فرعون قد أطلق بنى إسرائيل وحررهم من العبودية التى ضربت عليهم

طويلاً. فأخذ بنو إسرائيل جميعهم يغنون قائلين: «هللوا وسبِّحوا، أنتم يا عباد الرب.. واحمدوا اسم الرب»، لأنهم أصبحوا ينسبون إلى الرب، ولم يعودوا عبيداً لفرعون بعد الآن.

بعد ذلك أصر ملك مصر على مغاردتهم البلاد فوراً ودون أى تأخير. لكن موسى اعترض على ذلك قائلاً: «وهل نحن لصوص لنتسلل هكذا تحت جنح الليل؟ انتظر حتى الصباح». لكن فرعون أخذ يناشد موسى ويتوسل إليه لكى يرحل هو وقومه، معترفاً له أنه منزعج ومهموم خوفاً على حياته، لأنه هو نفسه، فرعون بكرٌ لأبيه، وكان يخشى أن يموت هو أيضاً. لكن موسى طمأن مخاوفه، وإن أثار غيرها، قائلاً: «لا تخف من الموت.. فهناك ما هو أدهى وأمر من الموت بانتظارك!» عند ذلك تملَّك الرعب جميع الناس، وخشى كل مصرى على حياته، وانضموا إلى فرعون يتوسلون إلى موسى ويرجونه أن يأخذ بنى إسرائيل ويغادر البلاد من فوره. وتكلم الرب قائلاً: «ستلقون جميعاً حتوفكم.. ليس هنا.. ولكن فى البحر الأحمر».

الخــروج

ترك فرعون والمصريون موتاهم دون دفن، وأسرعوا جميعاً يساعدون بنى إسرائيل فى تحميل ممتلكاتهم على العربات، لكى يغادروا البلاد بأسرع ما يمكن. وعندما غادر بنو إسرائيل مصر أخذوا معهم، بالإضافة إلى مواشيهم، الأغنام والثيران التى أمر فرعون نبلاءه بتقديمها إليهم هدايا. كما أجبر الملك نبلاءه وكبراء البلد على الاعتذار للإسرائيليين على كل ما عانوه على أيديهم، عالماً بأن الرب لا يغفر لأى إنسان خطأه فى حق أخيه إلا بعد أن يعفو الضحية عن طيب نفس عمن أخطأ فى حقه بعد أن يعتذر له الأخير ويعترف له بذنبه. ثم قال فرعون للإسرائيليين: «هيا ارحلوا! لا أريد منكم شيئاً سوى أن تدعوا لى الرب، لكى أنجو من الموت».

الآن تغيرت كراهية المصريين للإسرائيليين إلى النقيض، إذ بدأوا يشعرون بالحب والصداقة تجاههم وكادوا يرغمونهم على تقبل هداياهم من ثياب وفضة وذهب وجواهر ليأخذوها معهم فى رحلتهم، بالرغم من أن بنى إسرائيل لم يكونوا قد ردوا بَعْدُ ما كانوا قد اقترضوه منهم من قبل. وهذا التصرف يمكن تفسيره فى ضوء غرور وغطرسة فرعون وقومه، إذ كانوا يريدون الظهور أمام العالم على أنهم ذوو ثراء بالغ، استنباطاً من حجم الثروات التى سيراها الناس ملك عبيدهم من بنى إسرائيل - بل إن بنى

إسرائيل قد حملوا الكثير من ثروات مصر عند خروجهم منها، لدرجة أن أى رجل منهم كان يستطيع وحده تدبير كل نفقات بناء الهيكل وتجهيزه بما يلزمه، بجزء يسير مما معه.

عند مغادرتهم للبلاد، لم يحمل بنو إسرائيل معهم سوى الممتلكات الخاصة للمصريين. لكنهم عندما وصلوا إلى البحر الأحمر استولوا على الكنوز العامة كذلك، لأن فرعون، مثل كل الملوك، كان يحمل أموال الدولة معه فى حملاته العسكرية، لكى يستأجر بها المرتزقة والخونة إذا حدث وانهزم فى المعركة. وبرغم عظيم الثروات التى حملها بنو إسرائيل معهم عند خروجهم من مصر، فإن الغنيمة التى غنموها عند البحر الأحمر كانت تفوقها بمراحل عديدة.

لكن إذا كان بنو إسرائيل قد حمَّلوا أنفسهم بأحمال ثقيلة من المتاع والجواهر والأموال، فلم يكن ذلك لمجرد إرضاء شهوة حب الثروات، لأنهم يشتهون ما عند جيرانهم، كما قد يتقول به أى مزايد.

ففى المقام الأول كان يمكنهم اعتبار ما أخذوه أجوراً مستحقة لهم لدى هؤلاء المصريين الذين خدموهم سنين طويلة، كما أنه كان يحق لهم القصاص ممن ساموهم سوء العذاب وضربوهم بالذل لمدة طويلة. وحتى فى سلبهم أموال المصريين، فإن بنى إسرائيل لم يذيقوهم من كأس المر التى شربوها على أيديهم إلا بضع قطرات قليلة.

لم تخفف كل البلايا التى نزلت بالمصريين من غلواء وحشيتهم وقسوتهم تجاه العبريين. وقد بقيت هذه القسوة حتى آخر لحظة فى إقامتهم فى البلاد. وفى يوم الخروج ولدت راحيل ابنة شوطيلح طفلاً، بينما كانت هى وزوجها يعجنان الطين لصنع القرميد. وسقط الطفل من رحمها فى الطين وغاب عن الأنظار. وعند ذلك ظهر جبريل واقتطع قرميدة من

الطين كان الطفل بداخلها ورفعها إلى السماء العليا حيث جعلها كرسيا أمام العرش الإلهى. وفى تلك الليلة نظر الرب لمعاناة إسرائيل، وقتل أبكار المصريين، وكانت ليلة من الليالى الأربع التى نقشها الرب فى «كتاب التذكار». والليلة الأولى هى الليلة التى ظهر فيها الرب ليخلق العالم؛ وكان كل شىء خواءً وعدماً وكان الظلام يخيم على الهاوية إلى أن جاء الرب ونشر النور بكلمته. والليلة الثانية هى الليلة التى ظهر فيها الرب لإبراهيم ساعة عهد الأجزاء. وفى الليلة الثالثة ظهر فى أرض مصر وقتل أبكار المصريين بيده اليمنى، ووقى أبكار الإسرائيليين بيده اليسرى(*). والليلة الرابعة التى سيتم تسجيلها فى كتاب «التذكار»، ستكون هى الليلة التى يكتمل فيها الخلاص، عندما ينكسر النير الحديدى للملكة الشريرة، ويهلك الخطاة. ثم سيأتى موسى من الصحراء، ويأتى المسيا من روما، وكل منهم على رأس قطيعه، وتتوسط كلمة الرب بينهما، فتجعلهما يسيران فى توافق معاً فى نفس الاتجاه.

سيكون خلاص إسرائيل فى قادم الأيام فى اليوم الخامس عشر من نيسان، وهى ليلة خلاص بنى إسرائيل من مصر، لأن موسى ذكر ذلك حين قال: «فى هذه الليلة وقى الرب إسرائيل من ملائكة الهلاك، وفى هذه الليلة أيضاً سيخلص أجيال المستقبل».

وبالرغم من أن خلاص بنى إسرائيل قد تحقق بالفعل فى تلك الليلة، فإنهم لم يغادروا البلاد إلا فى الصباح التالى.

وخلال نفس الليلة اقتص الرب من المصريين على كل الجرائم التى ارتكبوها أمام أعين الشعب كله، وكانت الليلة مضيئة مثل نهار يوم صيف معتدل. ولم ينجُ واحد من المصريين من العقاب الشامل، إذ بتقدير الرب لم

(*) بل كلتا يدى ربى يمين، تعالى عما يقولون.

يغب أحد منهم عن بيته فى ذلك الوقت، ولذا فلم يَفُتْ أحداً منهم مشاهدة ذلك العقاب الجماعى.

علمت الملائكة فى السماء بما كان يجرى على الأرض، فعندما همُّوا بترديد أغنية الحمد، أسكتهم الرب قائلاً: «إن أطفالى على الأرض يغنون الآن»، لذا كان على الملأ السماوى التوقف عن الغناء والاستماع لأغنية إسرائيل.

وبالرغم من أن فرحة العبريين كانت عظيمة لخلاصهم من العبودية فى مصر، فإن فرحة فرعون وقومه قد فاقتها عندما رأوا عبيدهم يغادرون البلاد، إذ رحل معهم الخوف من الموت الذى تملك قلوب المصريين. وكانوا فى ذلك مثل الرجل الذى ركب الحمار دون أن يضع تحته برذعة، فطار فرحاً عندما انتهت رحلته إذ ستتوقف آلامه، لكن الحمار كان أشد فرحاً إذا انزاح عنه ذلك الحمل الثقيل المنهك. لذا كان المصريون أشد فرحاً بالخلاص من العبريين من فرح العبريين بخلاصهم من المصريين.

وبصفة عامة لم يكن الإسرائيليون يشعرون بالفرح، فقد كان الرجال يشعرون بالإنهاك، ذهنيا وبدنيا، من أثر التغير المفاجئ الذى حدث لأحوالهم من العبودية المذلة إلى الحرية الكاملة. ولم يستردوا عافيتهم ويستعيدوا تماسكهم إلا بعدما سمعوا الملائكة تترنم حمداً للرب على خلاص إسرائيل وخلاص الشكينة إذ طالما الشعب المختار منفى خارج أرضه، فإن الشكينة هى الأخرى، التى تقيم بين إسرائيل تكون منفية مطرودة. كما جعل الرب الأرض فى الوقت نفسه تزفر فتطلق عبيراً فواحاً شفاهم من جميع أمراضهم.

بدأ خروج الإسرائيليين من عند رعمسيس، وبالرغم من أن المسافة من رعمسيس حتى مدينة «مصرايم» (أو مِزْرعيم) حيث يقيم موسى، كانت تبلغ مسيرة أربعين يوماً، فإنهم سمعوا صوت زعيمهم يستحثهم على مغادرة

البلاد، فقطعوا المسافة من رعمسيس إلى سُكُّوتَ ـ وهى تعادل مسيرة ثلاثة أيام ـ فى لحظة؛ وفى سكُّوت لفهم الرب فى سبع سحابات من المجد، أربع أمامهم وخلفهم وعن كل جانب، وواحدة فوقهم لتقيهم المطر والبَرَدَ وأشعة الشمس، وواحدة من تحت أقدامهم لتقيهم من الأشواك والثعابين. وكانت السحابة السابعة تسبقهم وتسير أمامهم تمهِّد لهم الطريق فترفع الوديان وتخفض الجبال والتلال. ظلوا يسيرون على تلك الحال فى البرية طوال أربعين سنة. ولم يحتاجوا طوال هذه المدة لضوء اصطناعى، إذ كان يتبعهم شعاع من ظلة سماوية إلى أحلك الحجرات، فإذا ما اضطر واحد من الشعب إلى الخروج من المخيم، كانت الظلة تتبعه وتظل فوقه وتحميه ـ ولكى يكون هناك فارق بين الليل والنهار، كان يَحِلُّ محل الظلة فى الليل عمود من النار. ولم يترك أحدهما أبداً الشعب لحظة واحدة: فكان عمود النار يتوهج مضيئاً لهم الطريق قبل أن يتوارى عمود السحاب، وفى الصباح يظل الغمام موجوداً قبل أن تتلاشى النار. وقد أرسلت سحابات المجد وعمود النار لحماية إسرائيل وحده، دون غيره، وليس لحماية الوثنيين ولا للحشود المختلطة التى رافقتهم؛ إذ كان على هؤلاء الغرباء السير خارج نطاق الظلة.

كان الركب السائر على الطريق يتكون من ستمئة ألف رأس لعائلة يسيرون على أقدامهم ويصحب كل منهم خمسة أطفال على ظهور الجياد، كما يجب إضافة الحشود المختلطة إلى التعداد، وكانوا يفوقون العبريين عدداً بكثير.

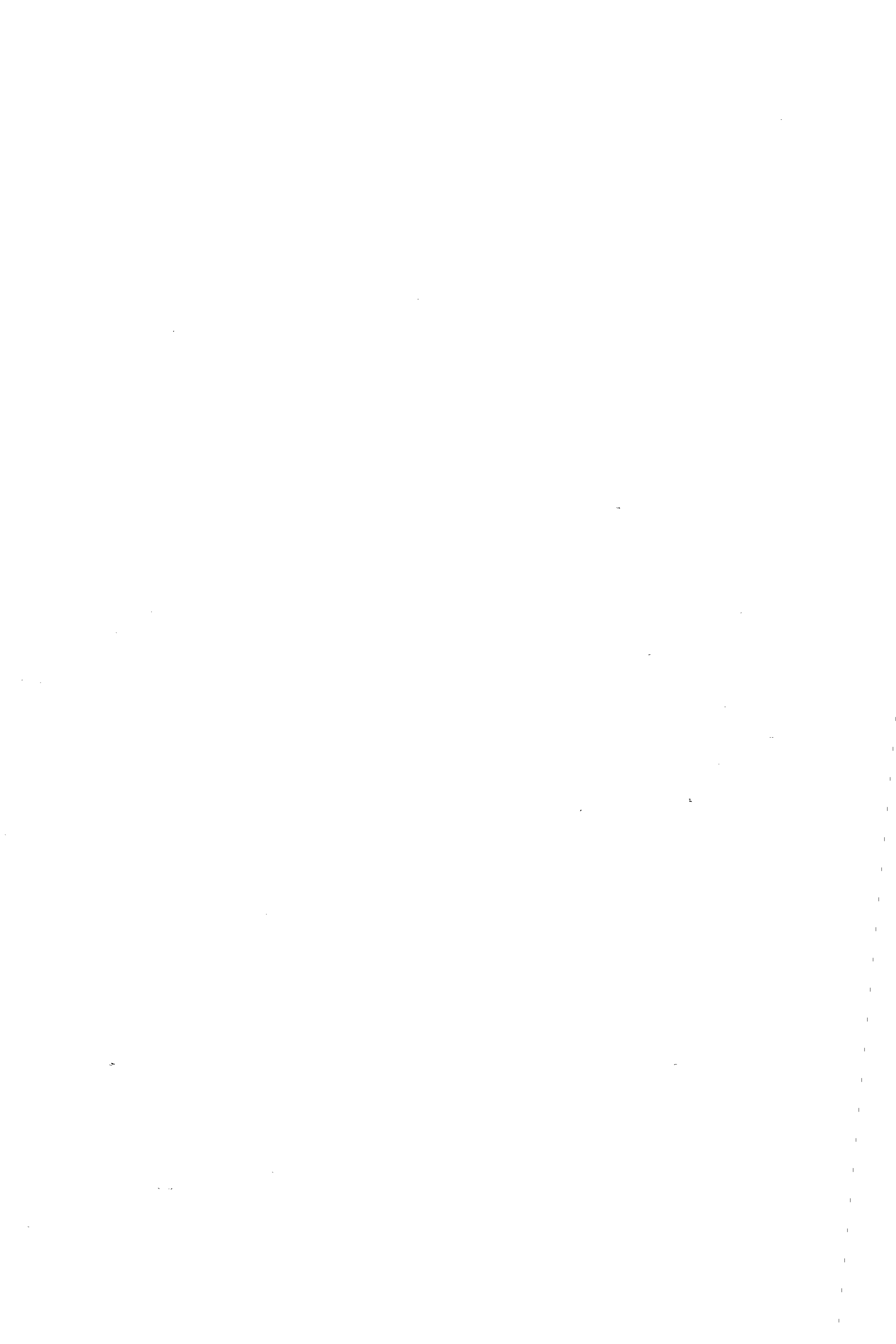
وقد كانت ثقة إسرائيل بالرب عميقة لدرجة أنهم تبعوا موسى إلى البرية دون أن يتذمر منهم واحد بحرف، ودون أن يتزودوا بأى زاد. ولم يأخذوا معهم زاداً يؤكل سوى الخبز غير المطهى والأعشاب اللاذعة، ولم

يأخذوها ليسكتوا جوعهم ولكن لأنهم لم يرغبوا فى فراق ما أعده تنفيذاً لأمر الرب.. وقد كانت هذه الأشياء عزيزة عليهم إلى درجة أنهم لم يأمنوا عليها أن تحملها مطاياهم، ولكن حملوها فوق أكتافهم.

انتهى المجلد الثانى بعونه وتوفيقه تعالى فى يوم السبت الموافق
٨/١٠/٢٠٠٥ الخامس من شهر رمضان المعظم عام ١٤٢٦هـ
ترجمه، الفقير إلى رحمة ربه تعالى:

حسن حمدى السماحى

ونحن نبرأ إلى الله من كل كلمة جاءت فيه، إلا ما كان من تسبيحه
وتقديسه وثناء عليه وعلى ملائكته ورسله وكتبه وتصديق برسالته
ونحن لا نصدق أهل الكتاب ولكن لا نكذبهم أيضاً فقد نصدق ما يكون كذباً أو نكذب ما يكون صدقاً ولكن نؤمن بما أنزل إلينا وأنزل إليهم وإلهنا وإلههم واحد ونحن به مؤمنون جل جلال الله تعالى.



فهرس المحتويات


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

الكتاب الأول: يوسف

الكتاب الثانى: أبناء يعقوب

الكتاب الثالث: أيوب

الكتاب الرابع: موسى فى مصر

3

أساطير اليهود

أحداث وشخصيات العهد القديم
من الخروج إلى وفاة موسى



لويس جنز برج

ترجمة: حسن حمدي السماحي



3

أساطير اليهود

أحداث وشخصيات العهد القديم

من الخروج إلى وفاة موسى

اسم الكتاب : أساطير اليهود جـ ٣

اسم المؤلف : لويس جنز بيرج

ترجمة : حسن حمدى

المراجعة اللغوية والتدقيق : طه عبدالرؤوف سعد

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية : ٢٠٠٦/٢٢٢٢٠

الترقيم الدولى : I.S.B.N. 977 - 376 - 220 - 3

تطلب كافة منشوراتنا :

حلب : دار الكتاب العربى ـ الجميلية أمام مسرح نقابة الفنانين ـ ت: ٢٢٥٦٨٧٠

دمشق : مكتبة رياض العلبى ـ خلف البريد ـ ت : ٢٢٣٦٧٢٨

مكتبة النورى ـ أمام البريد ت : ٢٢١٠٣١٤

مكتبة عالم المعرفة ـ جسر فيكتوريا ت : ٢٢٢٨٢٢٢

مكتبه الفتال ـ فرع أول ـ ت: ٢٤٥٦٧٨٦

فرع ثانى ـ ت : ٢٢٢٢٣٧٣

الطبعة الأولى

٢٠٠٧



E-mail:darkitab2003@yahoo.com

سوريا ـ دمشق ـ الحجاز ـ شارع مسلم البارودى هاتف: ٢٢٣٥٤٠١ ص. ب ٣٤٨٢٥ فاكس : ٢٢٤٧٢٩٧

مصر ـ القاهرة ـ ٥٢ شارع عبدالخالق ثروت ـ شقة ١١ تلفاكس : ٣٩١٦١٢٢

لبنان ـ تلفاكس : ٤٣٤١٨٦ / ٠٥ ـ تليفون : ٦٥٢٢٤١ / ٠٣ ـ ص. ب ٣٠٤٣ الشويفات

أساطير اليهود

أحداث وشخصيات العهد القديم
من الخروج إلى وفاة موسى

◆



لويس جنزبيرج

◆

الناشر

دار الكتاب العربي

دمشق - القاهرة

الإهداء

إلى أستاذى

ومعلمى...

الأستاذ فريد الفالوجى..

مع

خالص حبى

واحترامى...

حسن حمدى



مقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على كافة رسل الله وأنبيائه الكرام، وبعد..
فهذا هو الجزء الثالث من كتاب «أساطير اليهود من كتاب التلمود» لمؤلفه «لويس جنزبرج» أضعه بين يدى القارئ لنستكمل تلك الرحلة الطويلة التى بدأناها مع الجزء الأول، لنتعرف على أساطير اليهود التى تراكمت فى تراثهم عبر آلاف السنين وتعكس تصوراتهم عن الله والملائكة والأنبياء.. والأهم عن مكانة بنى إسرائيل بين أمم الأرض، والتى يراها اليهود مكانة متميزة تتفرد عن بقية الخلائق - بل وحتى عن الأنبياء أنفسهم - ولم ينالوها بسبب التزامهم بأوامر الله عز وجل واجتنابهم نواهيه، وإنما لسبب جوهرى وحيد: هو أنهم «بنو إسرائيل»..!

ويتناول الجزء الثالث من الكتاب قصة خروج موسى عليه السلام ببنى إسرائيل من مصر وهيمانهم فى صحراء سيناء على وجوههم طوال أربعين سنة قبل دخولهم إلى الأرض المقدسة التى سيفتحونها، ليس فى هذا الجزء، وإنما فى الجزء الرابع.. وإن كانت بشائر الفتح قد تبدت فى هذا الجزء أيضاً.

والذى ينبغى الانتباه إليه، عند قراءتنا لهذه الأساطير أنها تسعى للتأكيد على عدة أمور منها:

١ - حب الله عز وجل لهم حبّاً يفوق حبه لأنبيائه وملائكته الكرام.

٢ - حب بنى إسرائيل للمعصية وكثرة مخالفتهم لأوامر الله عز وجل.

٣ - كثرة مخالفتهم لموسى وهارون عليهما السلام، وإلصاق كل نقيصة

بهما، ارتكاناً إلى أنهما أقل شأناً من بنى إسرائيل، «الشعب الذى اختاره الله على العالمين».

٤ ـ الربط دائماً بين ماضى بنى إسرائيل وحاضرهم «للإيهام» بوحدة التاريخ اليهودى بكل مفرداته وفصوله وعلاماته.

٥ ـ التضخيم والمبالغة من قوة الأعداء الذين يواجهونهم، والذين ينتصر عليهم بنو إسرائيل دائماً.. لبث الرعب فى قلوب من يفكر فى التعرض لبنى إسرائيل، طالما أنهم قهروا عمالقة يبلغ طول الواحد منهم: «ثمانى عشرة ذراعاً»...!

٦ ـ الحسد الدائم الذى يعانيه بنو إسرائيل من جميع الأمم، لمكانتهم المتميزة عند الله... ولم يقتصر هذا الحسد على البشر وحدهم، وإنما امتد كذلك إلى الملائكة!!

٧ ـ أنهم أمة مضطهدة دائماً ممن يحيطون بها، ولذا فإن الرب ينصرهم دائماً على أعدائهم.. حتى وإن غرق بنو إسرائيل فى مستنقعات المعصية والرذيلة.

كل ذلك وأكثر منه عزيزى القارئ ستقابله أثناء تجوالك بين صفحات هذا الكتاب بأجزائه الأربعة ـ ولذا فقد أردت الإشارة السريعة إليه. وأود أن أشير إلى أننى لم أستخدم لفظ الجلالة، «الله»، فى هذا الكتاب تعففاً عن استخدام هذا اللفظ الجليل فى مواطن يخجل المرء من مجرد التفكير فى ذكر اسمه تعالى فيها.. لكن بنى إسرائيل لا يخجلون!

والله من وراء القصد وهو يهدى السبيل

الفصل الأول

الخروج من مصر

الطريق الطويل

لو بقيت عظام يوسف فى مصر فلم يأخذها بنو إسرائيل معهم، لاستحال عليهم الخروج من تلك البلاد. لهذا فإن موسى قد جعل شغله الشاغل البحث عن هذه العظام والعثور عليها بأى طريقة.. وفى الوقت نفسه فقد انشغل بنو إسرائيل بجمع كنوز المصريين والعَبِّ من ثرواتهم..!

لكن الوصول إلى المكان الذى دفنت فيه عظام يوسف لم يكن أبداً بالأمر الهيِّن..

وكان موسى يعلم أن يوسف قد دفن فى الجبَّانة الملكية مع من دُفِن فيها من ملوك المصريين.. لكن كانت المقبرة تحفل بالرفات... لدرجة أنه استحال على موسى تمييز رفات يوسف من بينها.

هرولت «يوكابد» أم موسى لتنجد ابنها.. وقادته إلى البقعة التى دفنت بها رفات يوسف. وعندما اقترب موسى من تلك البقعة، علم أنها هى مبتغاه وما يبحث عنه.. إذ فاح من الرفات عبير زكى عَبَّأ المكان كله.

أعند هذا الحد انتهت متاعبه؟

لا...

وعندما اقترب موسى من القبر، نبحه الكلبان.. فصاح فى دهشة: «تعالوا أيها الناس وانظروا العجب العجاب!! الكلاب الحقيقية لم تنبحنا..

وهذان الكلبان الزائفان اللذان صنعهما السحرة ينبحاننا؟!!».

وعندما قال موسى هذا الكلام، كان يشير إلى حقيقة معروفة.. وهى أن كلاب المصريين لم تنبح بنى إسرائيل أبداً طوال مقامهم فى مصر. على الرغم من أن هذه الكلاب نفسها كانت تنبح المصريين فى شراسة كلما ذهبوا لدفن أبكارهم الذين صرعهم الرب. (فى الضربات العشر التى وجهها يهوه إلى المصريين ـ المترجم).

وقد أثاب الرب كلاب المصريين على حسن صنيعها مع بنى إسرائيل.. إذ فرض على بنى إسرائيل أن يلقوا إلى هذه الكلاب بكل اللحوم التى حرَّم الرب عليهم أكلها..

فالرب «لا يحرم أحداً من خلقه من الثواب».

بل إن ثواب الكلاب كان مضاعفاً..

ففضلاتها تستخدم فى دباغة الرقاع التى تصنع منها لفائف التوراة، والأحجبة والتعاويذ كذلك.

والآن أصبح تابوت يوسف فى حوزة موسى وأصبح بإمكان بنى إسرائيل بدء رحلتهم. ولم يعترض المصريون طريقهم، بل إن فرعون رافقهم بنفسه حتى الحدود، ليتأكد من مغادرتهم البلاد بالفعل، وكان يمتاز بالغيظ والغضب من مستشاريه الذين كانوا قد نصحوه من قبل بعدم ترك بنى إسرائيل يغادرون البلاد... وبلغ غضبه منهم أنه ذبحهم جميعاً.

لم يشأ الرب أن يجعل بنى إسرائيل يتركون البلاد متخذين طريقاً مستقيماً.. وكان ذلك لأسباب عديدة: فقد كان يريد منهم أن يذهبوا إلى سيناء أولاً ليتلقوا الشريعة، كما أن الزمان الذى قدره الرب لإنهاء احتلال الأغيار للأرض المقدسة لم يكن قد انتهى بعد. وفوق كل هذا وذاك، كانت

إقامة بنى إسرائيل فى البرية تحفل بالفوائد، سواء روحيّاً أو ماديّاً. فلو كانوا وصلوا إلى فلسطين مباشرة بعد مغادرتهم مصر، لكانوا شغلوا أنفسهم بزراعة الأراضى التى خصصت لكلٍّ منهم، ولما تفرغوا لدراسات التوراة. لكن فى البرية زال عنهم عبء تدبير احتياجاتهم اليومية، ولذا فقد تيسر لهم تكريس كل جهودهم لاكتساب الشريعة. وعموماً، لم يكن من المستحسن لهم أن يتقدموا فى الحال إلى الأرض الموعودة ويتملكوها، إذ أن الكنعانيين لما سمعوا أن بنى إسرائيل فى طريقهم إلى فلسطين أحرقوا محاصيلهم، وقطعوا أشجارهم ودمروا مبانيهم وطمسوا آبارهم، وكل ذلك ليجعلوا العيش فى الأرض مستحيلاً. وعند ذلك تكلم الرب وقال: «لم أعِدْ آباءهم بأنى سأعطى أرضاً خربة لذريتهم، ولكن وعدتهم بأرض مليئة بالخيرات. لذا فسوف أقودهم فى البرية أربعين سنة، وأثناء ذلك سيكون الكنعانيون قد أصلحوا ما أفسدوه». كما أن المعجزات التى وقعت لبنى إسرائيل أثناء رحلتهم فى البرية قد ألقت الرعب فى قلوب الأمم الأخرى وذابت قلوبهم فرقاً منهم، ولم تتبق برجل منهم إثارة من شجاعة، ولم يجرؤوا على مهاجمة بنى إسرائيل، وهان فتح الأرض وتيسَّر أكثر وأكثر.

ولم يكن ذلك آخر سبب لتفضيل سلوك بنى إسرائيل هذا الطريق الطويل فى الصحراء. فقد كان إبراهيم قد أقسم قسماً جليلاً بالعيش مع الفلسطينيين فى سلام خلال فترة معينة، ولم تكن نهاية تلك الفترة قد أتت بعد. كما كان يُخْشى أن تثير رؤية بنى إسرائيل لأرض الفلسطينيين لذكريات حزينة فى نفوسهم، فيسرعوا بالعودة إلى مصر، إذ كان ذات يوم بعيد خيبة أملهم، بينما عاشوا فى مصر مئة وثمانين عاماً فى سلام ورخاء ولم يزعجهم شعبها ولو لحظة واحدة. وفجأة أتى «جابون»، وهو من ذرية يوسف، من سبط إفرايم، وقال: «لقد ظهر لى الرب وأمرنى بأن أقودكم لنخرج من مصر» ولم يسمع كلامه سوى سبط إفرايم. لهذا غادر

الإفرايميون البلاد ويمموا شطر فلسطين، تائهين بشرف نسبهم، إذ كانوا أحفاد يوسف، وواثقين بشجاعتهم وبأسهم، إذ كانوا أبطالاً صناديد.. ولم يحملوا معهم فى مسيرهم إلى الأرض المقدسة سوى السلاح والذهب والفضة ولم يأخذوا معهم مؤناً ولا زاداً للطريق، إذ كانوا ينوون شراء الطعام والشراب أو الاستيلاء عليهما عنوة. إن لم يشأ أصحابها بيعهما لهم.

وبعد مسيرة يوم وجدوا أنفسهم فى أجوار «جات»، حيث يتجمع رعاة سكان المدينة مع قطعانهم. وطلب منهم الإفرايميون أن يبيعوهم بعض أغنامهم ليذبحوها ويسكتوا جوعهم، لكن الرعاة رفضوا التعامل معهم وقالوا لهم: «وهل الأغنام ملكنا أو هل الماشية ماشيتنا لنتركها لكم لقاء المال؟» ولما رأى الأفرايميون أنهم لن ينالوا بالرضا مأربهم، استخدموا العنف. وتعالت صرخات الرعاة فتهرول أهل جات لنجدتهم فوقعت وقعة عظيمة دامت يوماً كاملاً بين الإسرائيليين والفلسطينيين.. ورأى أهل جات أنهم لن يستطيعوا بمفردهم للإفرايميين صرفاً ولا دفعاً، فاستغاثوا بأهل المدن الفلسطينية الأخرى. وفى اليوم التالى احتشد جيش من أربعين ألف مقاتل لمقاتلة الإفرايميين. ولما كان بنو إفرايم لم يذوقوا الطعام ولا الشراب طوال ثلاثة أيام فقد خارت قواهم وضعفت عزيمتهم فاستأصل أعداؤهم شأفتهم وأبادوهم عن بكرة أبيهم، ولم ينجُ منهم سوى عشرة لاذوا بالفرار مولِّين شطر مصر ليخبروا إفرايم بالكارثة التى حلت على ذريته، فناح عليهم أياماً عديدة.

وكانت هذه المحاولة الفاشلة من سبط إفرايم لمغادرة مصر، هى أول مناسبة لاضطهاد بنى إسرائيل. فبعدها أبقاهم المصريون فى البلاد بالقوة والعنف. أما عن تلك الكارثة التى حلت بسبط إفرايم فقد كانت لهم جزاءً وفاقاً، لأنهم لم يصغوا إلى رغبة أبيهم يوسف الذى كان قد شدَّد على ذريته، وهو على فراش الموت، بألا يفكروا مطلقاً فى مغادرة البلاد إلا بعد

أن يظهر المخلِّص وتبع قتلهم هذه القتلة الشنيعة لحوق الخزى والعار بهم، إذ بقيت جثثهم ملقاة فى أرض المعركة قرب «جات» ولم تدفن طوال سنوات عديدة، ولذا فقد أراد الرب لبنى إسرائيل أن يسيروا من الطريق الطويل إلى فلسطين ليجنبهم المرور بأرض تلك المعركة والتأذى بمنظر جثث إخوانهم الملقاة تنهشها الوحوش والطيور الجارحة. ولو كانوا رأوا هذه الجثث فلربما فارقتهم شجاعتهم، ولخافوا أن يلقوا مصير إخوانهم ولأسرعوا بالعودة إلى أرض العبودية.





فرعون يطارد العبريين

عندما أذن فرعون لبنى إسرائيل بمغادرة بلاده، كان يظن أنهم سيذهبون إلى البرية ويقيمون بها ثلاثة أيام يؤدون شعائر دينهم ثم يعودون إلى البلاد مرة أخرى. لذا فقد أرسل ضباطه معهم وكلفهم بإعادتهم بعد انقضاء الأيام الثلاثة. وكان الخروج فى يوم ثلاثاء.. وفى يوم الأحد التالى له لاحظ ضباط فرعون أن بنى إسرائيل أبعد ما يكونون عن التفكير فى العودة إلى مصر، بل إنهم شرعوا فى الإعداد لرحلة طويلة وإقامة أطول فى الصحراء. وعندها عنَّفهم الضباط واستحثوهم على الإسراع بالعودة إلى مصر. ورد الإسرائيليون عليهم مؤكدين بأن فرعون قد سمح لهم بالخروج ولن ينزعج لمغادرتهم البلاد، لكن الضباط لم يعبأوا بقولهم وأجابوهم قائلين: «أيها البلهاء!! عليكم تنفيذ ما تؤمرون به وحسب ! «لكن بنى إسرائيل لم يذعنوا لهذه الغطرسة وهجموا على الضباط فقتلوا بعضهم وجرحوا آخرين. وهرول الناجون منهم بجراحهم إلى مصر وأخبروا فرعون بتمرد بنى إسرائيل عليه. ولم يكن موسى يريد أن يظهر قومه بمظهر الفارين من المصريين، فأشار إليهم بالعودة إلى الحيروث وعند ذلك مزَّق قليلو الإيمان منهم شعورهم وشقوا ثيابهم يأساً وجزعاً، مع أن موسى قد أكَّد لهم، بكلمة من الرب، أنهم قد أصبحوا أحراراً ولم يعودوا عبيداً لفرعون. ولذا فقد عادوا أدراجهم إلى الحيروث حيث توجد صخرتان مستطيلتان تشكلاَّن مدخلاً للقدس العظيم للإله بعل صفون. وكانت هاتان

الصخرتان على شكل البشر، فإحداهما على شكل رجل والأخرى على شكل امرأة، ولم تنحتهما يد إنسان، ولكن الخالق بنفسه قد صاغهما وشكَّلهما على هيئتهما تلك. وكان ذلك المكان يدعى «بيطوم» فى سالف الزمان، ولكن سُمِّى الحيروث بسبب الأصنام التى نصبت فيه. وقد شاء الرب لحكمة خفية أن يَدَع الصنم «بعل صفون» سليماً دون أن يناله أحد بأذى، وحده ودوناً عن كل أوثان المصريين. وكان الرب يريد بذلك أن يجعل المصريين يعتقدون أن لهذا الوثن قوة بالغة يستطيع بها منع الإسرائيليين من مغادرة البلاد ومواصلة رحلتهم. ولكى يزيد الربُّ المصريين جهالة على جهالة، جعل الوحوش البرية تعترض طريق الإسرائيليين، فأيقن المصريين ساعتها أن صنمهم بعل صفون هو الذى كان وراء ذلك كله.

كانت حيروث، بجانب ذلك، مشهورة بالكنوز التى تحفل بها إذ كان يوسف قد قسَّم ما جمع من ثروات حصيلة بيعه للقمح أثناء سنى المجاعة، إلى ثلاثة أقسام، سلم أحدها إلى فرعون وأخفى الآخر فى البرية حيث عثر عليه قورح، وإن كان قد اختفى مرة أخرى ولن يعثر عليه أحد سوى فى زمان المسيَّا حيث ينعم به المتقون. أما القسم الثالث فقد أخفاه يوسف فى معبد بعل صفون، حيث اكتشفه الإسرائيليون وحملوه معهم غنيمة لهم.

عندما أخبر «مالك» والسحرة فرعون بأن الإسرائيليين قد قرروا عدم العودة إلى مصر، تغير قلبه هو وشعبه عليهم. وعند ذلك قال له مستشاروه، الذين كانوا قد نصحوه من قبل بترك الإسرائيليين وشأنهم: «لو كنا أُصبْنا بالبلايا التى نزلت علينا واكتفينا بذلك، لكنا قلنا إن ذلك من سوء أقدارنا. ولو كنا فوق ذلك ابتلينا بالاضطرار على ترك الإسرائيليين يغادرون البلاد، لكُنَّا صبرنا على ذلك أيضاً. لكن أن تصيبنا البلايا بسببهم، ثم نضطر إلى السماح لهم بمغادرة البلاد، ثم نقف مكتوفى الأيدى نتفرج عليهم وهم ينهبون ثرواتنا، فإن ذلك فوق ما نحتمل ونطيق..!!».

بعدما غادر بنو إسرائيل البلاد، أدرك المصريون عظم فائدتهم ونفعهم لبلادهم. والخلاصة أن زمن خروج بنى إسرائيل من مصر كان كارثة على سادتهم السابقين. فبالإضافة إلى فقدانهم سلطانهم على من كانوا يوماً عبيداً لهم، وجد المصريون أنفسهم يعانون من ثورات قامت بها شعوب كثيرة كانت خاضعة لهم، إذ كان فرعون فى ذلك الزمان حاكماً للعالم كله. وأخذ مَلِكُ مصر يستحث قومه على شن الحرب على الإسرائيليين قائلاً: «إن الجيش يسبق ملكه فى الحرب، ولكننى سأتقدمكم إلى الحرب.. ولئن كان من عادة الملوك أن يختاروا هم أولاً من الغنائم ما شاءوا وقدر ما شاءوا، فإنى لن آخذ عقالاً أزيد مما تأخذون، وعندما ننتهى من حربنا سأوزِّع عليكم كنوزى وثرواتى من الفضة والذهب والأحجار الكريمة».

ومن حماسته لم ينتظر فرعون حتى يجهز له خدمه عربته الحربية، وإنما أسرع هو بنفسه يعدها للحرب، وحذا أمراؤه حذوه. وأسرع «إسماعيل» فى معاونة الفرعون ووضع تحت تصرفه ستمئة عربة يقودها أفضل رجاله. وكانت تلك طبيعة الجيش الذى انضم إليه المصريون جميعاً بحشودهم الكثيفة من العربات الحربية والمحاربين الأشداء، فكانوا ما لا يقل عن ثلاثمئة ألف مقاتل مقابل مئة ألف إسرائيلى، ومع كل منهم سلاحه وعتاده. وكان من المعتاد أن يركب العربة اثنان من المحاربين، يتبادلان قيادتها، لكن فرعون أراد القضاء على الإسرائيليين فى سرعة فأمر بأن يركب كل عربة ثلاثة من المحاربين. وكان من نتيجة ذلك أنهم قطعوا فى يوم واحد المسيرة التى استغرق الإسرائيليون ثلاثة أيام ليقطعوها.

لم يكن بال المصريين فى هذه الغزوة مشغولاً بالأسلاب والغنائم، وإنما كان غرضهم الوحيد استئصال الإسرائيليين عن بكرة أبيهم. وإذ كان من عادة الوثنيين الاستبشار بالفؤول الحسنة كلما هموا بحربٍ أو قتال، فإن الرب قد شاء أن تسير استعداداتهم للحرب على خير ما يرام ودون أن يقع

بها ما ينذر بشؤم نهايتها. وكان كل شيء يسير وفق المرام ولا يُنَبِئُ إلا بالخير. بل إن فرعون نفسه - وكان بارعاً فى السحر والتنجيم - كان حدسه ينبِّئه بأن الإسرائيليين سيفقدون موسى فى البرية وستكون صحراء مصر مقبرة لهم جميعاً. لهذا كَلَّم داثان وأبيرام - اللذين بقيا فى مصر - وقال لهما: «إن موسى يقودهم بنفسه، لكنه لا يعلم إلى أين هم متجهون. بل إن الجمع الإسرائيلى سيرفعون أصواتهم فى البرية يصرخون، وسيهلكون جميعاً». وكان يظن حينما قال ذلك أن هذه الرؤَى التى رآها تشير إلى المصير الأسود - فى ظنه - الذى سيلقاه بنو إسرائيل حينما يلتقى بهم وهم عبيده فى السابق.. لكنه بكل تأكيد كان مخطئاً فى ظنه هذا، إذ كان ذلك هو مصيره الأسود الذى ينتظره هو، لا هم.

عندما وصل فرعون إلى معبد بعل صفون، فرح فرحاً عظيماً عندما رأى الصنم قد نجا من الدمار الذى حاق بالأصنام الأخرى، ولذا فلم يضيِّع وقتاً وأسرع يقرب له القرابين وأحس براحة كبيرة لأن بعل - صفون، كما قال، «قد رضى بما عزم عليه من إغراق بنى إسرائيل فى البحر».

عندما رأى بنو إسرائيل جحافل الجيش المصرى تزحف نحوهم، ولما علموا أنه كانت هناك قوات أخرى فى «مجدول» تفوق أعداد بنى إسرائيل، رجالاً ونساء وأطفالاً، لمَّا رأوا ذلك استولى عليهم الرعب. وكان أكثر ما أخافهم أن رأوا الملاك الموكل بحماية مصر يندفع فى الهواء كالسهم وهو يهرع لنجدة المصريين الذين تحت حمايته. عند ذلك التفت بنو إسرائيل إلى موسى وقالوا له: «ما الذى فعلته بنا؟ لابد أنهم سيثأرون مِنَّا الآن من أجل كل ما حَلَّ بهم بسببنا: من قتل أبكارهم ونفاد مالهم.. وكل ذلك بسببك أنت لأنك أنت الذى أمرتنا باقتراض ذهبهم وفضتهم وحملها معنا عند خروجنا من بلادهم».

كان الإسرائيليون فى موقف لا يحسدون عليه، فالبحر من أمامهم

والمصريون من خلفهم والصحراء المترامية عن أيمانهم وعن شمائلهم. وعند ذلك قال شرارهم لموسى: «أيام كنا فى مصر قلنا لك ولهارون: «منكما لله إذ جعلتمونا قذى فى أعين فرعون وعبيده ووضعتم سيفاً فى أيديهم ليذبحونا به» ثم مات بعد ذلك إخوة لنا فى أيام الظلمة الحالكة والتى كانت أسوأ من العبودية التى أذلنا بها المصريون. ولكن مصيرنا فى هذه الصحراء سيكون أفظع وأبشع من مصير إخوتنا، إذ وجدوا من ينوح عليهم ويوارى أجسادهم التراب، ولكن جيفنا ستلقى فى العراء يأكلها الحر فى النهار والقر فى الليل!!

وبحكمته وحلمه عرف موسى كيف يهدِّئ روع الآلاف ومئات الآلاف الذين كانوا تحت قيادته.. وقال لهم: «لا تجزعوا واثبتوا.. وستنظرون بأعينكم خلاص الرب» فسأله قومه: «ومتى يكون هذا الخلاص؟» فأجابهم بأنه سيظهر فى اليوم التالى لكنهم احتجوا عليه قائلين فى غضب: «وهل نستطيع الانتظار حتى الغد!!؟» فدعا موسى الرب فأراه حشود الملائكة الذين اصطفوا مستعدين لنجدة الشعب.

لكنهم لم يتفقوا على ما ينبغى عليهم عمله وانقسموا إلى أربعة أحزاب لكل حزب رأيه: فرأى فريق منهم أنه ينبغى عليهم إغراق أنفسهم فى البحر، بينما رأى فريق منهم وجوب العودة إلى مصر، ورأى فريق ثالث مجابهة العدو بينما كان من رأى الفريق الرابع إخافة المصريين ومحاولة التأثير عليهم بإحداث ضوضاء وجلبة شديدة. لكن موسى قال للفريق الأول: «اثبتوا وسترون بأعينكم خلاص الرب» وللفريق الثانى: إن المصريين الذين رأيتموهم اليوم لن تقع أعينكم عليهم مرة أخرى». وقال للفريق الثالث: «سيحارب الرب من أجلكم». وقال للفريق الرابع: «حافظوا على هدوئكم».

عند ذلك سألوا قائدهم موسى قائلين: «وما الذى ينبغى علينا عمله

إذاً؟» فأجابهم: «احمدوا الرب وسبحوه وقدسوه ومجدوه فهو رب الحرب» لهذا، وبدلاً من سيوفهم وأسلحتهم التى كانوا يحملونها، استخدموا أفواههم فكانت أعظم تأثيراً من جميع أسلحة الحرب والقتال، فقد سمع الرب دعاءهم وصلواتهم التى كان ينتظرها منهم.

كما خاطب موسى نفسه الرب قائلاً: «يارب العالم.. إن مثلى كمثل راعى الغنم الذى أقسم أن يجد مرعى لغنمه فساقهم بغباء حتى أتى بهم على شفير جرفٍ هار، ثم حار فى أمره أنَّى يخرج بهم من هذه الورطة. وهاهو فرعون من خلف قطيعى إسرائيل، ومن جنوب هناك بعل ـ صفون، ومن شمال «مِدّجون»، والبحر من أمامنا..! وإنك لتعلم يا ربُّ ألا أحد من بنى آدم فى قدرته ولا فى وسعه أن يجتاز بنا هذه الصعاب التى تعترض طريقنا. وحدك أنت ياربُّ القادر على إنقاذنا من هذا الجيش الذى خرج من مصر بمشيئتك.. لقد أيسنا من كل حولٍ إلا حولك، وتجردنا من كل أملٍ إلا الأمل فى عونك ونصرك. فانصرنا بحولكَ وقوتك فلا حول ولا قوة إلا بك».

وألح موسى فى الدعاء واجتهد فى الاستغاثة بالرب لينجد إسرائيل من هذا المأزق العصيب، لكن الرب قاطعه قائلاً: «يا موسى.. أيكون أولادى فى محنةٍ: فالبحر من أمامهم وفرعون يسعى خلفهم، بينما تقف أنت هنا تدعونى!! قد ينفع طول الدعاء أحياناً، ولكن قد يكون الإيجاز فيه أفضل، أحياناً. وإذا كنتُ قد جمعت الماء معاً فى مكانٍ واحد وأظهرت قاع البحر لآدم، وهو مجرد إنسان واحد، أفلا أفعل نفس الشىء لهذا الجمع المقدس!؟ لأنَجِّينَّهم، ولو كرامة لإبراهيمٍ فحسب، وهو الذى كان يضحى بابنه إسحاق (كذا) طاعة لى، ومن أجل وعدى الذى وعدت به يعقوب. والشمس والقمر شهيدان على أنى سأفرق البحر من أجل ذرية بنى إسرائيل الذين يستحقون نصرى إياهم لأنهم خرجوا إلىَّ فى البرية دون تردد. عليك فقط أن تتأكد من تخليهم عن أفكارهم الشريرة بالعودة إلى مصر، وعندها لن تكون

يا موسى بحاجة لأن تدعونى وتستنصرنى».

لكن موسى كان مضطرب الفؤاد مشتت الذهن، بسبب «سماعيل» الذى لم يكُفَّ عن توجيه الاتهامات ضد إسرائيل أمام الرب، منذ الخروج من مصر. وقد تعامل مع الرب مع هذه الإتهامات وصاحبها، بمثل ما فعله الراعى اللبيب الذى أراد أن يعبر بغنمه نهراً فوجد نفسه فى مواجهة ذئب مفترس، فألقى إلى الذئب بكبش أقرن قوى، فلما احتد العراك بين الكبش والذئب نقل غنمه وعبر بها النهر، ثم عاد إلى الذئب فاختطف فريسته منه وتركه يجر أذيال الخيبة والندم.

وقال «سماعيل» للرب: «أيعكف بنو إسرائيل على عبادة الأصنام، حتى وهم الآن فى هذه المحنة، وتعِدُهم أنت بهذه المعجزة العظيمة، أن تفرق البحر لهم؟» فماذا فعل الرب حينئذ؟ لقد أطلق «أيوب» على «سماعيل» قائلاً: «بينما ينشغل «سماعيل» بأيوب، أعبر أنا البحر بإسرائيل دون أن تبتل منهم قدم، ثم أعود إلى أيوب فأنقذه من «سماعيل»، بمجرد أن يصبح بنو إسرائيل فى أمان».

كذلك كان هناك ملائكة آخرون وقفوا ضد إسرائيل. فقد مَثُل «عوَّزا» الملاك المسئول عن حراسة مصر - أمام الرب وقال له: «يارب العالم! إن لى مظلمة عند هذا الشعب الذى أخرجته من مصر. فإذا شئت مُرْ ملاكهم «ميكائيل» ليأتى حتى أحاجَّه». فاستدعى الرب عند ذلك ميكائيل، فقال له «عوزَّا»: «يارب العالم.. لقد أمرت، فيما يخص شعب إسرائيل هذا، أن يستعبده شعبى، المصريون، لمدة أربعمئة عام. لكنهم لم يتسلطوا عليهم إلا ستة وثمانين عاماً فقط، ولذا فإن وقت خروجهم من مصر لم يَحِنْ بعدُ. وإذا شئتُ فائذن لى بأن أعيدهم إلى مصر، لكى يستكملوا سنى العبودية المتبقية، ثلاثمئة وأربعة عشر عاماً، حتى تتم كلماتك. فكما أنك لا تتبدل، لتكن كلماتك كذلك لا تتبدل!».

وقف ميكائيل صامتاً لا ينطق، إذ لم يَدْرِ كيف يرد على هذه الكلمات، وبدا الأمر وكأن «عوزّا» قد ربح القضية. لكن الرب بنفسه تولى قضية إسرائيل وقال لعوزا: «ما حكمت على أولادى بالعبودية لشعبك إلا بسبب كلمة غير لائقة تلفظ بها إبراهيم. إذ لما قلتُ له: «أنا الرب إلهك الذى أخرجك من «أور» الكلدانيين لأعطيك هذه الأرض لترثها». أجابنى قائلاً: «وكيف لى أن أعرف أننى سأرثها؟» ولهذا قلت له: «لتكونن ذريتك غريبة». وأنا أعلم، وهو كذلك جَلِيٌّ لدىَّ، أنهم كانوا «غرباء» من يوم ولد إسحاق، فإذا حسبنا المدة من يومها إلى الآن، سنجد أن مدة الأربعمئة سنة قد انقضت، لذا فلا حَقَّ لك فى أن تُبْقى أولادى فى العبودية لأطول من ذلك».



فلق البحر

كلم الرب موسى قائلاً له: «لماذا تقف هنا تدعونى؟ لقد سبقكك أولادى بالدعاء. أما أنت فما عليك إلا أن ترفع عصاك وتمد يدك فوق البحر وتفرقه». فرد موسى قائلاً: «تأمرنى بأن أفرق البحر بعصاى وأترك قاعه عارياً فى وسطه، وأنت نفسك الذى حكمت وحكمك لا يرد ولا يُبدَّل، بأن يحيط الرمل بماء البحر». فرد الرب قائلاً: «إنك لم تقرأ بداية التوراة يا موسى. أجل.. لقد قلتُ: «لتجتمع المياه الموجودة تحت السماء فى مكان واحد، ولتظهر الأرض اليابسة». وقد اشترطت فى ذلك الوقت أن تنقسم المياه أمام إسرائيل. خذ العصا التى أعطيتك إياها وامض إلى البحر كما أمرتُك وقل: «أنا الرسول الذى أرسله خالق العالم! فاكشف طرقك يا بحرُ، لكى يعبر أولادى على يابستك»».

ذهب موسى إلى البحر وكلمه بما أمره به الرب، لكن البحر رد قائلاً: «لن أفعل ما أمرتنى به، فما أنت إلا رجل وإنسان ولدته امرأة من النساء، كما أننى أكبر منك سناً أيها الإنسان بثلاثة أيام، لأنى خُلِقْتُ فى اليوم الثالث وأنت لم تخلق إلا فى اليوم السادس».

لم يضيِّع موسى وقتاً فهرول إلى الرب وأخبره بما قاله له البحر، فقال له الرب: «يا موسى.. ترى ماذا يفعل سيدٌ مع عبده الآبق العاصى؟» فأجابه موسى: «يضربه بعصاه». فأمره الرب قائلاً: «لتضربه بعصاك إذاً: ارفع عصاك ومُدَّ يدك فوقه واضربه فافرقه».

عند ذلك أسرع موسى إلى البحر ورفع عصاه ومدها فوقه، وهى نفسها العصا التى خلقت عند بدء الخليقة، وكان محفوراً عليها بحروف واضحة الاسم العظيم والعلىّ، وأسماء البلايا العشرة التى ضربت المصريين، وأسماء الآباء الثلاثة والأمهات الست(١)، وأسباط بنى إسرائيل الاثنى عشر.

لكن البحر واصل عصيانه لموسى فلجأ موسى إلى الرب وتوسل إليه أن يأمر هو البحر بنفسه مباشرة. لكن الرب رفض ذلك قائلاً لموسى: «لو أمرتُ أنا البحر بأن ينفلق؟، فلن يعود إلى حاله الأولى أبداً. لذا عليك أنت إذاً أن تبلِّغه بأمرى، لكيلا يصير يابساً إلى الأبد. لكنى سأمنحك شيئاً من قوتى ليصحبك، ولسوف يجبره ذلك على طاعتك». فلما رأى البحر قوة الرب عن يمين موسى، كلم الأرض قائلاً: «اصنعى لى حفراً لكى أختبئ بها من أمام رب الخلائق جميعاً، تبارك اسمه». ولما لاحظ موسى الرعب الذى استحوذ على البحر قال له: «ظللتُ أُحدثك يوماً بطوله وأخبرك بما أمرك به الرب أن تنقسم، لكنك لم تصغِ لى سمعاً ولا عبأت بكلامى؛ وحتى عندما أريتك عصاى لم تطعنى!! ما الذى حدث إذاً وجعلك تتكلم هكذا!!» فأجابه البحر: «لست أهرب منك وإنما من رب جميع الخلائق، تمجد اسمه فى الأرض كلها».

وانقسمت مياه البحر الأحمر. بل لم تنقسم مياه البحر الأحمر وحدها، وإنما حذت حذوها جميع المياه التى فى السماء والتى على الأرض، وكل ماء فى إناء، أو فى قنينة أو فى الآبار، وفى الكهوف والدنان وكؤوس الشرب وفى الأباريق. ولم يَعد أىٌّ من هذه المياه إلى حاله الأولى، إلا بعدما عبر إسرائيل البحر مشياً على يابسة قاعه.

كان الملاك جبريل متلهفاً على إغراق المصريين فى الليلة نفسها، لكن الرب أمره بأن ينتظر حتى الباكر من صباح الغد، حتى تحين ساعة النوبة

(١) الآباء الثلاثة هم إبراهيم وإسحاق ويعقوب، والأمهات الست هن: سارة ورفقة وراحيل وليئة وبلهة وزلفة. (المترجم).

الصباحية حين يستعد إبراهيم للانطلاق إلى التضحية بابنه. ومع ذلك فقد نجح جبريل فى حجز حائط المياه الذى كان على اليمين قائلاً: «حذارِ ولا تمسَسْن إسرائيل بسوء، وهو الذى سيتلقى الشريعة من يمين الرب فى قادم الأيام». ثم التفت إلى حائط المياه الذى كان على اليسار وقال له: «حذار ولا تمسسن إسرائيل بسوء، وهو الذى سيربط الأحجبة والتمائم حول يده اليسرى فى قادم الزمان».. وحذَّر الماء الذى كان خلفه قائلاً: «حذار ولا تمسسن إسرائيل بسوء، وهو الذى سيدع زيزيت يتدلى من على ظهره، فى قادم الأيام» وقال للمياه المحلقة من أمام: «حذارِ ولا تمسسن إسرائيل بسوء، وهو الذى سيحمل علامة العهد (= الختان) على بدنه».

وأمر الرب ريحاً شرقية قوية فدفعت مياه البحر وردتها إلى الوراء، وهى نفسها الريح التى يستخدمها الرب دائماً فى معاقبة الأمم. وكانت هذه الريح الشرقية هى نفسها التى أتت بالطوفان.. وهى التى دمرت صرح بابل.. وهى التى ستدمر «السامرة» و«أورشليم» و«طبرية» فى قادم الزمان. ومن خلالها سيتم إهلاك «روما» الثملانة من الفرح... فى قادم الزمان.

بالإضافة إلى ذلك، فإن الخطاة يتعذبون فى جهنم بريح شرقية.

وجعل الرب هذه الريح الشرقية تهب طوال الليل على البحر. ولكى يقى الرب بنى إسرائيل شر المصريين ويمنع هؤلاء الأعداء من إيذائهم.. لف مصر فى ظلام دامس بلغ من حُلْكته أن المرء لا يستطيع تحسسه.. فلم يقدر واحد من المصريين على الحركة أو تغيير وضعه: فمن كان منهم جالساً لم يقدر على الوقوف... ومن كان واقفاً لم يقدر على الجلوس.

ومع ذلك فقد رأى المصريون نوراً وضَّاءً يحيط بالإسرائيليين الذين كانوا يتمتعون بوليمة شهية حيث وقفوا.. فلما حاول المصريون رميهم بالسهام والرماح، انغرست قذائفهم فى السحاب وأمسك بها الملائكة الذين كانوا يحلِّقون بين معسكرى الفريقين.. فلم يُصَب واحد من بنى إسرائيل بسوء.

عبور البحر الأحمر

فى الصباح التالى لهذه الليلة الحافلة، كان بنو إسرائيل ـ بالرغم من عدم جفاف ماء البحر بعد ـ مملوئين ثقة فى الرب واستعداداً لإلقاء أنفسهم فى مياه البحر. وتشاجرت القبائل، بعضها مع بعض، على أيُّها ينال شرف القفز إلى الماء أولاً. ودون انتظار لنتيجة هذا الخلاف، ألقى سبط «بنيامين» بنفسه فى الماء، فاشتاط سبطٌ «يهوذا» غضباً لحرمانهم من نَيْل الريادة وشرف الإقدام عند الخطر، حتى إنهم بدأوا يقذفون سبط بنيامين بالحجارة.

وكان الرب يعلم نُبْل دافع كل سبطٍ لما فعله.. وأنهم إنما كانوا يتسابقون إلى المبادرة بتنفيذ أمر الرب وتمجيد اسمه. ولهذا أثاب الرب السبطين خيراً.. فأقامت الشكينة فى سبط بنيامين، بينما حاز سبط يهوذا ملك بنى إسرائيل.

عندما رأى الرب القبيلتين، بنيامين ويهوذا، وسط أمواج البحر.. نادى موسى قائلاً: «أيكون أحبائى يصارعون الموج العاتى، وأنت تقف هنا تدعو وتبتهل..!».

فسأله موسى: «وماذا أفعل يارب؟».

فقال الرب: «مر بنى إسرائيل فليتقدموا... أما أنت، فارفع عصاك فوق البحر وافرقه». ففعل موسى ما أمره به الرب.. فانفلق ماء البحر واجتازه بنو إسرائيل.

* * *

كان انفلاق مياه البحر.. مجرد معجزة واحدة من عشر معجزات وقعت عند عبور بنى إسرائيل له.

ففى البداية، تجمع شطرا المياه المنقسمة فوق رؤوسهم حتى صار مثل القبة العظيمة.

ثم انزاح ماء البحر كاشفاً عن اثنى عشر طريقاً.. لكل سبط طريق يمشى فيه.

وكانت حوائط المياه التى تفصل بين هذه الطرق شفافة مثل الزجاج.. فاستطاعت كل قبيلة رؤية القبائل الأخرى. وكانت التربة من تحت أقدامهم يابسة صلبة.. لكن لما خطا المصريون عليها صارت وحلاً.. وتحولت حوائط المياه المنقسمة إلى صخور صلبة.. فلما مر المصريون من بينها أطبقت عليهم وسحقتهم، وهى التى كانت من قَبْلُ عذبة روت ظمأ بنى إسرائيل.

وأخيراً، فإن هذه المياه العذبة تجمدت فى وسط البحر بعد أن ارتوى منها بنو إسرائيل.

كما حدثت معجزات أخرى كذلك. فكان البحر يعطى لبنى إسرائيل كل ما تمنته قلوبهم. فإذا ما بكى طفل على ذراع أمه مدَّت يدها فاقتطفت تفاحة وناولته إياها ليهدأ ويسكت. كما تجمعت المياه بعضها فوق بعض حتى بلغ ارتفاعها ستة عشر ميلاً، ورآها كل سكان الأرض.

وحدث عبور الإسرائيليين المعجز للبحر الأحمر فى حضور الآباء الثلاثة والأمهات الستة، إذ كان الرب قد أحضرهم من قبورهم إلى شواطئ البحر الأحمر، ليروا بأعينهم ما أجرى من معجزات من أجل أطفالهم.

لم تكن المعجزات التى حدثت عند إغراق المصريين أقل شأناً أو خطورة. ففى البداية وقبل كل شىء أحس الرب بأنه ملزم بالدفاع عن إسرائيل أمام الملاك «عُوَّزا» ملك المصريين الذى لم يكن يريد لشعبه أن

يهلك فى مياه البحر. وكان عوزا قد ظهر عند شاطئ البحر فى ذات اللحظة التى أراد الرب فيها إغراق المصريين، وقال له: «يارب العالم! إنك تدعى عادلاً ومستقيماً، ولا تظلم أحداً ولا تنسى ولا تضل ولا تبالى بالأشخاص. لماذا إذاً تريد إهلاك أطفالى فى البحر؟ هل يمكنك أن تدّعى أن أطفالى قد أغرقوا أو ذبحوا واحداً من أطفالك؟ وإن كنت تريد إغراقهم بسبب العبودية التى استعبدوا بها بنى إسرائيل، فلابد أن تراعى أن أطفالك قد تلقّوا أجورهم كاملة، كما أنهم أخذوا فضة شعبى وذهبه».

عند ذلك استدعى الرب أفراد عائلته السماوية كلهم ثم كلم ملأ الملائكة قائلاً:

«تعالوا احكموا بينى وبين عوزا ملاك المصريين. فى البداية ضربت شعبه بمجاعة وعيَّنت صديقى يوسف عليهم فأنقذهم بحكمته وأصبحوا كلهم عبيداً له. ثم ذهب أطفالى إلى أرضهم كغرباء، بسبب المجاعة التى ضربتهم فاستعبدوا أطفالى بنى إسرائيل وأوكلوا إليهم جميع الأعمال الشاقة المرهقة. واشتكى لى أطفالى من عبوديتهم المريرة فارتفع صراخهم وأنينهم إلىَّ فأرسلت موسى وهارون، رسولىّ الأمينين، إلى فرعون. ولما جاءا إلى ملك مصر قالا له: «يقول لك الرب إله إسرائيل، أرسل شعبى لكى يقيموا احتفالاً لى فى البرية» لكن هذا الخاطئ ـ فى وجود ملوك الشرق والغرب ـ بدأ يتباهى ويتفاخر قائلاً: «ومن هو هذا الرب الإله الذى يجب علىّ أن أسمع لصوته وأدع بنى إسرائيل يذهبون؟ لماذا لا يأتينى هو بنفسه، مثل كل ملوك العالم، ولماذا لا يرسل إلىّ بهدية كما فعل غيره من ملوك الأرض؟ هذا الرب الذى تتكلم عنه لا أعرفه مطلقاً! انتظرا حتى أنظر فى كتبى ودفاترى فلعلى أجد اسمه مدوناً فيها». لكن عبيده قالوا له: «لقد سمعنا أنه ابن الحكيم ابن الملوك القدماء». فسأل فرعون رسولىَّ قائلاً: «ما هى أعمال هذا الرب؟» فأجاباه: «هو رب الأرباب والإله فوق كل شىء، وهو

الذى خلق السموات والأرض» لكن فرعون شكك فى كلامهما وقال: «ليس هناك من إله فى الأرض كلها يستطيع أن يفعل مثل ما فعلت، فأنا الذى صنعتُ نفسى وأنا الذى خلقتُ النيل». ولأنه أنكرنى بهذه الطريقة ضربته بعشرة بلايا فاضطر لترك شعبى وما يريدون. ومع ذلك، وبرغم كل ما حدث فلم يتخلَّ عن شروره وحاول إعادتهم إلى العبودية. والآن، بعدما رأيتُ كل ما حدث له، وبعدما رأيت أنه لن يقر بألوهيتى وربوبيتى، ألا يستحق أن يغرق فى البحر هو وملأه؟».

عندما سمع الملأ السماوى ما قاله الرب، صاحوا قائلين: «بل لك كل الحق فى إغراقه فى البحر».

وعندما سمع عوزا ما حكموا به قال: «يارب العالم.. أعلمُ أن شعبى يستحق ما حكمت به عليه من العذاب، لكن أرجوك عاملهم برحمتك، واشفق على عمل يديك. لأن رحمتك تسع كل شىء».

وكاد الرب يستجيب لتوسلات عوزا، لولا أن أومأ ميكائيل خفية لجبريل الذى طار مسرعاً إلى مصر وأحضر قرميدة من التى كان يوضع الرضَّع من أطفال بنى إسرائيل مكانها. ثم حمل جبريل هذه القرميدة وخطا أمام الرب قائلاً: «يارب العالم، أتكون رحمتك بهذا الشعب الذى ذبح الرضع من أطفال شعبك بهذه الوحشية؟» وعند ذلك استدار الرب متحولاً عن رحمته واستوى على كرسى عدله وعزم على أن يهلك المصريين فى البحر.

كان أول من ينزل به العذاب هو عوزا ملاك المصريين، فألقى فى البحر. ثم لقى نفس مصيره راحاب ملاك البحر، هو وحشده، إذ كان قد تشفع لدى الرب من أجل المصريين قائلاً: «وما الداعى لإهلاك المصريين؟ لتكتَفِ بإنقاذ بنى إسرائيل من أيديهم وحسب». وعند ذلك وجَّه الرب ضربة لراحاب ولجيشه سقطوا على إثرها قتلى، ثم رمى جثثهم فى البحر، فكانت له هذه الرائحة الكريهة التى نعرفها.

إهلاك المصريين

فى اللحظة التى خرج فيها آخر واحد من بنى إسرائيل خارجاً من البحر، كان أول واحد من المصريين يخطو إليه، ولكن مياهه عادت إلى سيرتها الأولى فأطبقت على المصريين وأهلكتهم جميعاً.

لكن لم يكن الغرق فى مياه البحر هو كل العذاب الذى أنزله الرب بالمصريين، إذ شن عليهم حرباً شاملة. فعندما كان فرعون يتجهز للحاق ببنى إسرائيل، سأل قواده عن أسرع جواد يستطيع ركوبه واللحاق بالإسرائيليين بأقصى سرعة، فأجابوه: «ليس أسرع من المهرة الشهباء» ولذا فقد أسرع فرعون فامتطى المهرة الشهباء وطار بها فى اتجاه البحر ليلحق ببنى إسرائيل. وبينما كان فرعون يسأل قواده عن أسرع حيوان يركبه ليلحق ببنى إسرائيل، كان الرب يسأل ملائكته عن أسرع مخلوق يستخدمه ليلحق بفرعون. فأجابته الملائكة: «يارب العالم... كل شىء مِلْك لك وكلها من عمل يديك وأنت تعلمها جيداً.. كما أنك تعلم أنه من بين مخلوقاتك جميعاً ليس أسرع من الريح التى تهب من تحت عرش مجدك» فأسرع الرب وطار سريعاً على أجنحة الريح.

عند ذلك تقدمت الملائكة وأسرعت تلحق بالرب لتنصره فى حربه ضد المصريين. وجلب بعضها معه سيوفاً، والبعض سهاماً والبعض رماحاً. لكن الرب أشاح لهم بيده قائلاً: «إليكم عنِّى... لست بحاجة لعونكم» ورد الرب على السهام التى رمى بها المصريون بنى إسرائيل بسهام نارية انهمرت على

المصريين كالمطر؛ ولما لوَّح المصريون بسيوفهم وأرادوا الانقضاض على بنى إسرائيل، أرسل الرب رعوداً أطاحت بسيوفهم. وأخذ فرعون يرمى بنى إسرائيل بالقذائف، فرد الرب عليه بأن رماه بكرات من البرد وجمرات من النار. وتقدم المصريون زاحفين يريدون الإغارة على بنى إسرائيل وسط قرع الطبول ونفخ الأبواق، فدق الرب رعوده فى السماء وصاح العلىّ بصوته. وعبثاً حاول المصريون تنظيم صفوفهم والزحف بقواتهم زحفاً منظماً، فقد أطار الرب راياتهم وأربك صفوفهم فاختلط حابلهم بنابلهم. ولكى يغرى الرب جيادهم بخوض البحر والنزول إلى مياهه، هيأ لها الرب رؤية فحول كبيرة من الجياد وهى تعوم فى البحر، فاندفعت جياد المصريين إلى المياه، بمن على ظهورها من المصريين.

عند ذلك حاول المصريون الهروب من أرض المعركة فى عرباتهم التى كانت تقودها البغال. لكن، وكما عاملوا بنى إسرائيل بطريقة غير طبيعية فقد عاملهم الرب بطريقة غير طبيعية. فلم تكن البغال هى التى تجرجر العربات، وإنما العربات ـ بعد أن أحرقت نار من السماء عجلاتها، أخذت تجرجر راكبيها وحيواناتها وراءها وتدفعهم إلى البحر. وكانت تلك العربات محملة بكل أنواع الذهب والفضة والنفائس، والتى يحملها معه نهر سيحون من الفردوس ويلقى بها على نهر جيحون. ومن هنا فقط طفت هذه الكنوز فى مياه البحر الأحمر التى أخذت تلقى بها فى عربات المصريين. ولما رأى بنو إسرائيل ذلك اشتهوا هذه الكنوز وتاقت أنفسهم لها، ولهذا السبب فقد جعل الرب هذه العربات المحملة بالكنوز تتدحرج فى البحر الذى أخذ يلقيها على الشاطئ الآخر تحت أقدام بنى إسرائيل.

كما حارب الرب المصريين بعمود السحاب وبعمود النار. فأما عمود السحاب فقد جعل الأرض مملوءة بالضباب الذى أخذ عمود النار يسخنه ويسخنه حتى وصل إلى درجة الغليان، حتى تساقطت حوافر الجياد ولم

تستطع تحريك قوائمها.

كان العذاب الذى حصل بالمصريين عند البحر الأحمر يسبب لهم آلاماً أبشع وأفظع كثيراً مما عانوه بسبب البلايا التى كانت قد نزلت بهم وهم فى مصر، إذ أنه قد سلمهم لملائكة العذاب وهم عند ساحل البحر، فأخذ هؤلاء الملائكة يسومونهم صنوف العذاب ألواناً وألواناً. ولولا أن الرب قد منح المصريين قوةً مضاعفة عن غيرهم، لما تمكنوا من احتمال كل هذا العذاب للحظة واحدة.

كان العذاب الأخير الذى حل بالمصريين من جنس المخططات الشريرة التى دبرها ضد بنى إسرائيل ثلاثة فرق منهم عندما انطلقوا يطاردون بنى إسرائيل ويحاولون اللحاق بهم. فقد قال الفريق الأول منهم: «سنعيد بنى إسرائيل إلى مصر» وقال الثانى: «وسوف نجردهم من ثيابهم» وقال الثالث: «وسوف نذبحهم جميعاً». فأطلق الرب نفخة من فيه عليهم فابتلعت مياه البحر الفريق الأول؛ وألقى بالفريق الثانى فى مياه البحر؛ وألقى بالفريق الثالث فى قاع الهاوية. وكان قد ألقاهم كما تلقى ربة المنزل بالعدس فى الهواء لكى تنقيه من الشوائب، فصار عاليهم سافلهم وسافلهم عاليهم. وكان ذلك ما لاقاه المصريون، فكان يُطاح بالجواد وراكبه على ظهره فيطيرا فى الهواء ثم يهوى الاثنان إلى قاع البحر.

حاول المصريون إنقاذ أنفسهم مما هم فيه بالسحر، لأنهم كانوا سحرة كبارا. فمن بين العشرة أسهم التى خصصت للعالم من السحر، امتلك المصريون تسعاً. وبالفعل نجحوا لحظات فى ذلك، وهربوا من البحر، لكن البحر قال لنفسه على الفور: «كيف أسمح بأن يؤخذ منى ما وهبه الرب لى وائتمننى عليه؟» فاندفعت مياهه وراء المصريين وجرجرت كل رجل منهم وأعادتهم حيث كانوا.

كان من بين المصريين الساحران الكبيران «يَنِّس» و«يامبرس» اللذان

صنعا لهما أجنحة وطارا بها إلى السماء. كما قالا لفرعون: «لو كان الرب هو الذى فعل بنا ذلك، فلن تستطيع فعل شىء. لكن إن كان ملائكته هم الذين فعلوا ذلك نيابة عنه، فسوف نلقى بهم فى البحر». وأسرعوا يستخدمون سحرهم فأسقطوا الملائكة إلى البحر، فصاحت الملائكة تستصرخ الرب وتقول: «أغثنا يارب.. إن المياه تكاد تغرقنا!! انطق بكلمتك التى ستغرق هذين الساحرين وتقضى عليهما» وصرخ جبريل منادياً الرب: «بحق مجدك وجلالك، اسحق أعداءك ومزقهم إرباً». وعند ذلك أمر الرب ميكائيل بأن ينزل فيقضى بحكمه على هذين الساحرين. فأمسك بهما هذا الملاك العظيم من لُمَّة كل واحدٍ منهما، وضربهم فى مياه البحر، فتمزقا إرباً.

وهكذا غرق المصريون جميعاً. ولم ينجُ منهم إلا واحد فقط، هو فرعون نفسه. وعندما رفع بنو إسرائيل أصواتهم يترنمون بحمد الرب عند شاطئ البحر الأحمر، سمعهم فرعون وهو يصارع الأمواج التى أخذت تلقى به يميناً وشمالاً، فأشار بإصبعه نحو السماء ونادى قائلاً: «آمنت بك يا رب.. فأنت حق وعدل وأنا وشعبى خطاة ظالمون. وها أنا أشهد الآن أنه لا إله فى الكون إلا أنت». وعند ذلك أسرع جبريل فنزل إليه وطوَّق عنقه بسلسلة حديدية، ثم أمسك به فى إحكام وقال له: «أيها اللعين! كنت بالأمس تقول: «ومن هو هذا الرب الذى يجب أن أسمع لصوته؟» والآن تقول: «الرب حق وعدل»!! «ثم أغرقه فى أعماق البحر وأخذ يعذبه فيها طوال خمسين يوماً، لكى يريه قدرة الرب، ثم عيَّنه ملكاً على مدينة «نينوى». ثم بعد قرون عديدة لما جاء يونس وتنبأ لأهل نينوى بالعذاب الذى سينالهم لكفرهم وعنادهم، كان فرعون نفسه ـ وقد تملَّكه الخوف والفزع ولبس الجوخ والمسوح وافترش التراب ـ هو الذى صاح وأعلن فى نينوى مرسوماً ملكيًّاً قائلاً: «لا يذوقنَّ رجل ولا بهيمة ولا حيوان ولا أى شىء؛ لا يأكلن أى منهم شيئاً ولا يشربن ولا قطرة ماء؛ لأننى أعلم أنه لا إله فى الكون كله غير

الرب، وجميع كلماته حق وصدق، وجميع أحكامه عدل وقسط».

ولم يمت فرعون أبداً، ولن يموت مطلقاً، ولكنه يقف دائماً عند أبواب الجحيم، وكلما أتى ملك من ملوك الأمم ليلقى به فى الجحيم، يبين له فرعون قدرة الرب قائلاً: «أيها الغبى الأحمق!! لماذا لم تتخذ مما حدث لى وحلَّ بى عبرة لك؟! لقد كفرتُ بالرب الإله العظيم فأنزل بى عشراً من البلايا ورمانى فى قاع البحر وأبقانى هناك خمسين يوماً ثم أطلقنى وربَّانى - فلم أقدر إلا أن أؤمن به».

فى صراعهم مع الموت، جعل الرب البحر يقذف بالمصريين على شواطئه، وكان لذلك أربعة أسباب. فأولاً لكى لا يقول بنو إسرائيل إنهم كما نجوا هم أنفسهم، فإن المصريين قد نجوا وعبروا البحر دون أن يبتلوا. وثانياً لكى لا يظن المصريون أن بنى إسرائيل قد غرقوا فى البحر مثلهم. وثالثاً لكى يغنم بنو إسرائيل الذهب والفضة وغيرهما من الكنوز التى حملها المصريون معهم. ثم رابعاً وأخيراً لكى يُشفى الإسرائيليون غليلهم برؤية أعدائهم وهم يغرقون. وكان بنو إسرائيل يشيرون إلى المصريين، واحداً واحداً، ويقولون: «انظر هذا الرجل هناك كان المشرف علىّ وكان يضربنى بقبضتيه هاتين اللتين تنهشهما الكلاب الآن!! وانظر إلى ذلك المصرى الذى هناك! هاهى الكلاب تنهش قدمه التى كان يركلنى بها!».

وكان على المصريين أن يروا بأعينهم هلاكهم وهم راقدون على الشاطئ صرعى، وأن يروا كذلك بأعينهم انتصار بنى إسرائيل عليهم. كما رأوا معاناة إخوانهم من المصريين الذين بقوا خلفهم فى مصر، لأن الرب أنزل غضبه وعذابه بالمصريين جميعاً، سواء من ذهب منهم لملاحقة بنى إسرائيل، أو من بقى منهم فى مصر ولم يخرج.

أما جثث المصريين التى تراكمت على شاطئ البحر.. فلم تبق دون دفن، فقد ابتلعتها الأرض فى جوفها، مكافأة لفرعون على إقراره بعدالة العقوبة

التى نزلت به وبقومه.

وقبل أن يتم التخلص من جثثهم بهذه الطريقة.. وقع شجار بين البحر والأرض حول هذه المسألة..

إذ قال البحر: «أنتِ أيتها الأرض! خذى أبناءك إليك وأبعديهم عنِّى»!!

فردت الأرض فى حدة: «ولماذا آخذهم أنا؟ احتفظ أنت بمن ذبحتهم وصرعتهم!».

وكاد البحر يستجيب لأمرها.. لولا أن خاف أن يطلبهم الرب منه فى يوم القيامة.. بينما ترددت الأرض وخافت من ابتلاع جثثهم، إذ تذكّرت - والرعب يسرى فى بدنها - اللعنة التى حلت عليها عندما شربت دم هابيل.

ولم تجرؤ الأرض على ابتلاع جثث المصريين.. إلا بعدما أقسم لها الرب بأنه لن يعاقبها إذا فعلت ذلك.



أنشودة عند البحر

حقاً.. ما أعظم الإيمان..!

لقد حلَّت روح الرب على بنى إسرائيل.. مكافأة لهم على ثقتهم بالرب وبعبده موسى.. ومن فرحهم بذلك، أنشد بنو إسرائيل أنشودة حمد للرب جعلته يغفر لهم كل خطاياهم.

وكانت هذه الأنشودة هى الثانية... من بين تسعة أناشيد تَغَنَّى بها بنو إسرائيل حمداً للرب على مر تاريخهم كله.

ففى الليلة التى تحرروا فيها من العبودية فى مصر، اجتمعوا كلهم معاً وغنَّوا أنشودتهم الأولى.

ثم كانت الأنشودة الثانية، هى تلك التى تغنوا بها عند البحر الأحمر.. احتفالاً بانتصارهم على المصريين.

وكانت الثالثة تلك التى تغنوا بها عندما تفجرت لهم عيون الماء العذب فى قلب الصحراء.

وقبل موته، أنشد موسى الرابعة..

ثم أنشد «يشوع» الأنشودة الخامسة، بعد انتصاره على الملوك العموريين الخمسة.

ولما فتح «باراخ» و«دبورة» سيسيرا، أنشدا الأنشودة السادسة..

وعندما خلصه الرب من أيدى أعدائه جميعاً، أنشد «داود» الأنشودة السابعة حمداً لربه على ذلك... وعندما كرس سليمان هيكله الثانى للرب، أنشد الأنشودة الثامنة..

وعندما خرج «يهو شافاط» لحرب المؤابيين والعموريين، أنشد الأنشودة التاسعة.. ليظهر للجميع ثقته فى تأييد الرب ونصره له.

لكن الأنشودة العاشرة والأخيرة.. هى تلك التى سيتغنى بها بنو إسرائيل عندما يرفعون أصواتهم بحمد الرب لتخليصهم ونصرتهم.. فى قادم الزمان.. لأن ذلك سيكون هو الخلاص النهائى والأخير لهم.

* * *

تهيّأ بنو إسرائيل واستعدوا للتغنى بحمد الرب لتخليصه إياهم من أيدى المصريين، ومن الهلاك عند البحر الأحمر. وأقبل الملائكة على الرب.. ليشاركوا بنى إسرائيل غناءهم وأناشيدهم.

لكن الرب قال لهؤلاء الملائكة فى حزم:

«انتظروا حتى ينتهى بنو إسرائيل من ترانيمهم أولاً». وكان قد فعل ذلك ليُظْهِر لبنى إسرائيل اعترافه بأن بنى إسرائيل قد أكملوا العهد الذى عاهد به إبراهيم.

وهذه القصة تشبه قصة الملك الذى وجد ابنه وخادمه ـ عندما عاد ظافراً من إحدى المعارك ـ ينتظرانه بأكاليل الغار فى أيديهما وسأله الناس عمن الذى سيسمح له الملك بأن يكلله بالغار أولاً. فقال الملك: «يالكم من حمقى وأغبياء إذ تسألون أيهم أولاً، ابنى أم خادمى!! دعوا ابنى يأتِ أولاً!».

كانت هذه هى المرة الثانية التى يتم فيها إجبار الملائكة على التراجع وإفساح الطريق لبنى إسرائيل. فعندما وقف بنو إسرائيل عند شاطئ البحر محصورين بين مياهه الثائرة وأعدائهم المصريين من خلفهم، حضر الملائكة

أمام الرب ليترنموا بحمده الترنيمة اليومية التى اعتادوها، لكن الرب صاح فيهم قائلاً: «اصمتوا! أيكون أبنائى فى محنة وأنتم تريدون الغناء!!».

وحتى بعدما انتهى الرجال من الترنيم، لم يؤذن للملائكة برفع أصواتهم، إذ بعدما انتهى الرجال ابتدأت النساء من بنى إسرائيل يترنمن بحمد الرب، بعدما انتهوا حان دور الملائكة الذين تذمروا ضجرين قائلين: «أما يكفى أن يسبقنا الرجال لتسبقنا النساء أيضاً؟! «فرد الرب قائلاً: «وحياتكم هو كذلك».

فى البداية طلب بنو إسرائيل من قائدهم موسى أن يبدأ هو فى الإنشاد، لكنه رفض قائلاً: «لا.. ابدأوا أنتم أولاً، لأنه من علائم التكريم أن يحمد جمع كبير من الناس، لا رجل واحد» وفى الحال انطلق الشعب يغنى وينشد قائلاً: «سنمجد الباقى فى السرمدى، لأنه أرانا الآيات والمعجزات. فعندما حكم المصريون بعذابنا وقالوا: «ارموا كل ولد تلدونه فى النهر» ذهبت أمهاتنا إلى الحقول فألقيت عليهم النعاس فولدتنا دون أى ألم؛ ونزلت الملائكة من السماء ومسحتنا بالزيت وغسلتنا وألبستنا ثياباً حريرية ملونة، ووضعت فى يد كلٍّ منَّا قطعتين، واحدة من الزبد والأخرى من الشهد. وعندما استيقظت أمهاتنا ورأيننا قد غُسلنا ومُسحنا بالزيت وأُلبسنا الحرير، حمدنك قائلات: «الحمد للرب الذى لم يحوِّل نعمته وحبه عن ذرية أبينا إبراهيم؛ والآن هم فى يدك يارب فاصنع بهم ما شئت!!» ثم غادرن المكان. وعندما رآنا المصريون حاولوا قتلنا لكنك برحمتك الواسعة أمرت الأرض فابتعلتنا وأخرجتنا فى مكان آخر لم يرنا فيه المصريون.. ثم انظر! بهذه الطريقة أنجيتنا من أيديهم. وعندما كبرنا زحفنا إلى مصر حيث تعرَّف كلٌّ واحد منَّا على أبويه وأسرته. كل هذا صنعته من أجلنا، فلك الحمد وسنترنم بحمدك عليه يارب»..

عند ذلك قال موسى: «لقد شكرتم القدوس، تبارك وتعالى، ولا أحمده

أنا؟! لقد صنع المعجزات من أجلى وأرانى آياته. الرب قوتى وحولى وأغنيتى وقد أصبح هو خلاصى ونجاتى. وهو ربى وإلهى وسوف أقيم له مسكناً، فهو رب آبائى وسوف أمجِّده».

وقد كانت تلك الأنشودة عند البحر الأحمر هى أنشودة موسى بقدر ما كانت أنشودة بنى إسرائيل كلهم، لأن هذا الزعيم العظيم موسى اعتبر مكافئاً لبقية الإسرائيليين كلهم، كما أنه كان قد لَحَّن قسماً كبيراً من الأنشودة. وبفضل روح الرب التى حلَّت عليهم وهم ينشدون، أخذ موسى والشعب يكمِّل أحدهم الآخر، ولذا فما كاد موسى يكمل نصف الأنشودة إلا وكررها الشعب وأكمل بقيتها. ولذا فقد بدأ موسى يقول: «سأغنى للرب لأنه انتصر انتصاراً ساحقاً» فأجابه الشعب مكملاً: «وألقى الجواد وراكبه فى البحر» ثم سارت الأنشودة، بل حتى الرُّضع كذلك تركوا أثداء أمهاتهم ليشتركوا فى الغناء؛ بل حتى الأجنة فى أرحام أمهاتهن شاركوا فى اللحن، وملأت أصوات الملائكة المكان. وهكذا فقد ميز الرب بنى إسرائيل عند عبورهم البحر الأحمر، حتى إن الأطفال أنفسهم قد شاهدوا مجده، بل إن الإماء قد شاهدن من مجده مالم يؤذن حتى للنبى حزقيال بمشاهدته.

واختتم بنو إسرائيل أنشودتهم قائلين: «لنضع تاج المجد على رأس مخلِّصنا الذى يُفْنِى كل شىء ولا يَفْنَى؛ ولا يتغير. وله الملك والأمر لأنه هو ملك الملوك، فى هذا العالم وفى العالم الآتى؛ فالملك له الآن وفى كل آن إلى الأبد». وعند ذلك قال لهم موسى: «لقد رأيتم كل ما صنع لكم القدوس تبارك وتعالى من آيات ومعجزات، وسيصنع أعظم منها فى العالم الآتى؛ إذ أن هذه الدنيا ليست مثل الآخرة؛ لأن هذه الدنيا هى دنيا الحروب والمعاناة والشر والشيطان ولملاك الموت عليها سلطان؛ لكن فى الآخرة لن يكون هناك شقاء ولا عداوة ولا شيطان ولا ملاك الموت ولا أنين ولا اضطهاد ولا نوازع شريرة»..

وكما أنشد موسى والجنس الذى خرج معه من مصر أنشودة للرب عند البحر الأحمر، فإنهم سينشدون مرة أخرى فى العالم الآتى حينما تمر كل الأجيال أمام الرب. وتسأله عن الذى يجب أن ينشد أنشودة الحمد أولاً، وعندها سيردُّ قائلاً: «فى الماضى كان جيل موسى هو الذى أنشد لى أنشودة حمد. إذاً ليفعلوها الآن مرة أخرى؛ وكما قاد موسى الأنشودة عند البحر الأحمر، سيقود الإنشاد كذلك فى الآخرة».

كما ستكون الأحوال فى العالم الآتى مثلما كانت وقت أنشودة البحر، من نواحٍ كثيرة. إذ عندما أنشد بنو إسرائيل أنشودة الحمد، ارتدى الرب ثياب احتفال طرز عليها كل وعوده بمستقبل سعيد لإسرائيل. ومن بين هذه الوعود كُتب: «وعندها سيشرق نورك كالصباح». كما كتب: «لقد صنع لهم الربَ عظائم كثيرة».

ومثل ذلك الكثير. لكن عندما وقع بنو إسرائيل فى الخطيئة، أجَّر الرب هذا الثوب الاحتفالى ولن يسترده أو يرتديه مرة أخرى إلا فى العالم الآتى.

بعدما أكمل الرجال الأنشودة، رددت النساء نفس الأنشودة تحت قيادة «ميريام»، وهن يعزفن الموسيقى ويرقصن. وكانت الإسرائيليات يتحلّيْنَ بإيمان كامل، جعل الرب يصنع لهن الآيات والمعجزات، ومن هنا فقد أمسكن بالدفوف والنايات لكى يمجدن بها الرب ويحمدنه على المعجزات التى صنع من أجلهن. ثم قالت ميريام للنساء: «لننشد للرب الذى له القوة والتعالى، فهو ملك الملوك ورب الأرباب ويكره المتكبرين والطغاة. وقد أغرق جياد فرعون وعرباته فى البحر، لأن فرعون الشرير اضطهد بطغيانه شعب الرب، إسرائيل».

الصحراء الرهيبة

كما كان بنو إسرائيل غلاظ الرقبة قليلى الإيمان عند اقترابهم من البحر، كانوا كذلك عند مغادرتهم له. فما كادوا يرون المصريين يغرقون فى البحر إلا وقالوا لموسى: «إن الرب لم يخرجنا من مصر إلا ليمنحنا خمسة أشياء: ليعطينا ثروة مصر، ويجعلنا نسير فى غمام المجد وليفرق لنا البحر وينتقم لنا من المصريين ويدعنا ننشد له أنشودة الحمد. والآن قد تم كل ذلك، فلنعد إذاً إلى مصر» لكن موسى رد عليهم قائلاً: «إن الحى الذى لا يموت قال إنكم لن تروا المصريين مرة أخرى إلى الأبد». لكن الشعب لم يقتنع ورد قائلاً: «ولم لا؟ لقد مات جميع المصريين، فلماذا لا نعود إلى مصر؟!» فأجابهم موسى: «لأنكم لابد أن توفوا الآن بالدين الذى دانكم به الرب حين نجاكم من مصر؛ لأنه قال: «عندما تخرج الشعب من مصر، ستعبدوننى على هذا الجبل».

لكن الشعب لم يقتنع وبقى على عناده ولم يعبأوا بكلام موسى وبدأوا يتحركون فى طريق العودة إلى مصر، على هدى من صنم كانوا قد جلبوه معهم من مصر واحتفظوا به أثناء عبورهم البحر؛ ولم يستطع موسى إيقافهم إلا بالقوة والعنف. وكانت هذه هى المرة الثانية التى يقع فيها بنو إسرائيل فى الغواية، من المرات العشر التى سيمتحنهم فيها الرب خلال تجوالهم فى الصحراء.

كانت هنك عقبة أخرى، بالنسبة للشعب، كان على موسى أن يتغلب

عليها: أن البحر قد ألقى على شواطئه الكثير من الجواهر واللآلئ والكنوز الأخرى التى كنت تخص المصريين الذين غرقوا فى البحر، وكان صعباً على بنى إسرائيل أن يبتعدوا عن البقعة التى جلبت لهم كل هذه الثروات. لكن موسى قال لهم: «هل تظنون أن البحر سيظل يرمى إليكم بالجواهر واللآلئ هكذا؟!».

بعدما تحركوا وانصرفوا عن البحر، مشوا فى صحراء «شور»، وكانت قفراً موحشة رهيبة ملآنة بالثعابين والسحالى والعقارب، وتمتد لمساحة أميال وأميال.. وكانت ثعابين هذه الصحراء فتاكة لدرجة أنه إذا زحف واحد منها فوق ظل طائر يطير فى السماء، يسقط الطائر ممزقاً إرباً. وكان الملك «شابور» قد أرسل فرقة من جيشه فمرت فى هذه الصحراء فابتلعتها الثعابين ولم تُبْقِ منهم رجلاً. ثم أرسل فرقة ثانية وثالثة، لكنهما لقتا نفس المصير. ولما حَار الملك فى أمره استشار حكماءه فنصحوه بأن يعبئ أحمال البعير. بجمرات مشتعلة ثم يخبئها تحت القش ثم يرمى هذه الجمرات على الثعابين حتى تهلك.

ومما دلَّ على ثقة بنى إسرائيل الكبيرة فى الرب أنهم أطاعوا موسى وتبعوه دون تذمر أو تردد يخوضون هذه الصحراء الرهيبة. لهذا كافأهم الرب على ثقتهم به، إذ أنهم لم يخافوا من الثعابين والعقارب خلال إقامتهم الطويلة فى هذه الصحراء، التى امتدت سنين عددا، وحسب، وإنما زال عنهم كذلك كل خوف من هذه الزواحف التى لم تكن لترى أحداً من الإسرائيليين إلا وترقد على الأرض ذليلة خاشعة.

وظل بنو إسرائيل يسيرون هكذا فى الصحراء طوال ثلاثة أيام دون أن يشتكى منهم واحد، ثم لما نفد ماؤهم تذمر الشعب ضد موسى قائلين: «ماذا سنشرب الآن؟ ومن أين ستأتى بالماء؟» وكانوا قد تزودوا بالماء العذب أثناء عبورهم البحر الأحمر، إذ أن مياهه قد تحولت عذبة بمعجزة عظيمة،

لكن لما بدأ مخزونهم من الماء ينفد بدأوا يعبرون عن سخطهم. وفى هذه المرة كذلك كشفوا عن قلة إيمانهم وشدة جزعهم، إذ بدلاً من أن يطلبوا النصح والمشورة من قائدهم موسى، بدأوا يتذمرون ويتكلمون بالسخط تجاهه وتجاه الرب، بالرغم من أن ماءهم لم يكن قد نفد كله بعد!! وهكذا فقد فشلوا فشلاً ذريعاً وسقطوا فى الامتحان الذى امتحنهم به الرب، لأن الأرض التى كانوا يسيرون عليها كانت ملآنة بالماء العذب، لكنهم لم يكونوا واعين لذلك.. ولم يشأ الرب لهم أن يعلموا بهذه الحقيقة اختباراً لهم وليرى ما سيصنعون فى هذه الظروف.

تفجَّرت الينابيع بالمياه وطار الشعب فرحاً لما رأوها وأسرعوا يعبون منها عبّاً.. لكن فرحتهم تحولت إلى إحباط رهيب عندما وجدوا الماء مرّاً. وأثَّر ذلك عليهم نفسيّاً وبدنيّاً، ليس من أجلهم هم وإنما من أجل أطفالهم الصغار الذين أخذوا يناشدونهم ويتوسلون إليهم لكى يرووا ظمأهم، فانهمرت دموع الرجال أنهاراً. بل إن المرتابين منهم والمرجفين قالوا بأن الآيات التى جرت لهم من قبل إنما كانت خداعاً لهم ولتزيدهم غما على غم عندما يواجهون ما هم فيه الآن. كما قال هؤلاء أنهم يفضلون الموت على يد أعدائهم ثلاث مرات ولا يموتون عطشاً هكذا؛ إذ أن الموت السريع بالنسبة لأى رجل عاقل أهون من هذا القتل البطىء، وأن المرء لا يخاف من الموت بقدر ما يخاف من عذاب الاحتضار.

وبينما هم هكذا ينوحون ويندبون حظهم العاثر، دعا موسى الرب ليغفر لهم قلة إيمانهم وتزعزع ثقتهم به، وأن يزوِّدهم بما يحتاجون إليه. ولم يُطلْ موسى فى الدعاء، اغتماماً لحال شعبه؛ واستجاب الرب دعاءه سريعاً وأمره بأن يأخذ عصا من شجر الغار ويكتب عليه اسم الرب الأعظم ثم يرميه فى الماء ليصبح عذباً حلو المذاق.

إن الطرق التى يتبعها القدوس ليست مثل طرق البشر؛ فالإنسان يحوِّل

المر حلواً بوضع شيء حلو فيه، لكن الرب حوّل الماء المر بواسطة شجر الغار مر المذاق. وعندما رأى بنو إسرائيل هذه المعجزة استغفروا أباهم السماوى قائلين: «يارب العالم.. لقد أذنبنا وأخطأنا فى حقك عندما تذمرنا بسبب الماء».

ولم تصبح «مارَّة» (كناية عن المياه المرَّه) بقعة مهمة بالنسبة لبنى إسرائيل، بسبب هذه المعجزة وحدها، ولكن لأن الرب كذلك منحهم التعاليم المقدسة فى هذه البقعة، مثل ما يخص الراحة يوم السبت والأمور المتعلقة بالزواج والشرائع المدنية، وقال للشعب: «لو راعيتم هذه الشرائع، فسأمنحكم المزيد؛ الوصايا العشرة والهلكوت والهاجَّادوت. ومع ذلك فإن التوراة ستجلب لكم السعادة والحياة. وإذا حافظتم على الاستقامة فى كل ما تفعلون فى حياتكم، بحيث تتعاملون مع الناس بالخير، فسأعتبر أنكم قد نفذتم الوصايا العشرة ولن أبتليكم بما ابتليت به مصر من الأمراض. لكن لو لم تحفظوا شرائعى وسرتم فى طريق الغواية، ستصيبكم الأمراض التى لن تشفوا منها إلا لذا عدتم إلىَّ، إذ سأكون ساعتها طبيبكم».

كان سبب نفاد الماء عند «مارَّة» هو أن الشعب أهمل دراسة التوراة طوال ثلاثة أيام، ولهذا السبب فقد شرَّع أنبياء وشيوخ بنى إسرائيل عادة القراءة من التوراة فى أيام السبت والاثنين والخميس، فى الصلاة العامة، لكيلا تمر أبداً ثلاثة أيام دون القراءة من التوراة.

تحرك الشعب من «مارَّة» إلى «إيليم» وبدت لهم من على البعد أشجار النخيل التى جعلت المكان يبدو مشجعاً فى أعينهم، لكن عندما اقتربوا منها تملكتهم خيبة الأمل مرة أخرى.. لم يكن يوجد بالمكان إلا سبعون نخلة فقط وكانت ذابلة هزيلة بسبب نقص المياه، إذ بالرغم من أنه كان يوجد بالمكان اثنا عشر بئراً، فإن الأرض كانت مجدبة وجافة لدرجة أن الآبار ما كانت لتكفى لريها. وفى هذه المرة كذلك تدخل الرب لصالح بنى إسرائيل وأظهر آياته ومعجزاته، إذ أن هذه الكمية النادرة من الماء الموجودة فى «إيليم» -

والتى لا تكاد تكفى النخلات السبعين - قد كفت ستمئة ألف من الشعب الذى أقام بالمكان لعدة أيام.

إن اللبيب ذا العقل السليم والفكر الراجح ليستطيع أن يتبين فى هذه المناسبة كيف أن هذا الموقف الذى واجهه بنو إسرائيل فيه إشارة وتلميح لمصيرهم. فالآبار الاثنتا عشرة ترمز لأسباط بنى إسرائيل، التى ستصبح، إن حافظت على شرائع الرب، مثل البئر تفيض بالأعمال الصالحة دون أن ينضب معينها. كذلك كان بالمكان سبعون نخلة، مثل شيوخ بنى إسرائيل السبعين الذين يشبهون هذه الأشجار الكريمة التى هى أجمل الأشجار، سواء فى مظهرها، أو فى ثمرتها، كما أن جذورها لا تضرب فى أعماق الأرض مثل الأشجار الأخرى ولكنها تحلق عالياً فى السماء فى شموخ وتحيط فروعها بقمتها التى تتوسط هذه الفروع مثل القلب يتوسط أعضاء الجسم كملكة على عرشها ويحيط بها حراسها. كذلك فإن روح التقىٍّ تشبه ذلك.. فروحه قد تعلمت، أن تتطلع إلى السماء وترقى وتتسامى، كما أنه هو نفسه مشغول بكل ما هو روحانى وباستجلاء الجمال الإلهى واحتقار الأرضيات التى يراها مجرد لهو باطل، بينما هذا الطموح والتسامى هو وحده الشىء الجاد الوحيد.

وعند بدء الخليقة كان الرب قد صنع اثنتى عشرة بئراً من الماء فى إيليم هذه وخلق كذلك سبعين نخلة، لكى تناظر الأسباط الاثنى عشر وشيوخ بنى إسرائيل السبعين، لكى ينشغل الشعب هناك بدراسة الشريعة إذ أنهم قد درسوا الشرائع التى منحوا إياها فى «مارَّة».



الطعام السماوى

الخبز الذى حمله بنو إسرائيل معهم من مصر لم يكفهم إلا لواحد وثلاثين يوماً، فلما نفد كله وأتوا عليه بدأوا يتذمرون ضد قائدهم موسى.. ولم يكن ما غمهم هو حاجتهم إلى الطعام على الفور فقط، وإنما قلقهم كذلك على توافره فى المستقبل، إذ عندما رأوا تلك الصحراء الشاسعة القفر تترامى من أمامهم، تخلت عنهم شجاعتهم وقالوا: «لقد هاجرنا ونحن نتوقع الحرية.. لكننا الآن لسنا حتى أحراراً من التفكير فى قوت يومنا. لسنا سعداء، كما وعدنا زعيمنا، ولكننا أكثر الناس بؤساً وشقاءً!!! وبعدما جعلتنا كلمات زعيمنا نتوقع الأفضل والأحسن وملأتنا بالأمل الكذاب، هاهو يعذبنا بالجوع ولا يوفر لنا حتى القوت الضرورى. لقد خدع هذا الجمع الكبير بوعد كاذب بوطن جديد، بعدما نجح فى إخراجنا من بلد جربناه وعرفناه وقادنا إلى أرض موحشة، هاهو الآن يخطط لإرسالنا إلى العالم السفلى وإلى حتوفنا!! ألا ليتنا كنا متنا بيد الرب فى أيام الظلمة الثلاثة التى ضربت أرض مصر حينما كنا نتلذذ بأكل اللحم وكانت سلالنا ملآنة بالخبز!!».

ومن يأسهم وإحباطهم كذبوا فيما قالوا، إذ كانوا يعانون من قلة الطعام فى مصر، لأن المصريين لم يكونوا يعطونهم الطعام الكافى.

بالرغم مما كان موسى فيه من ضيق وعنت، فإنه لم يحزن لما قاله الناس، بقدر حزنه من قلة إيمانهم وضعف ثقتهم بالرب. فبعد كل هذه الأحداث الغريبة التى عاشوها، لم يكن لهم أى حق فى أن يتوقعوا أن يحدث لهم شىء عادى أو طبيعى وإنما عليهم أن يثقوا به، لأنهم قد عاينوا،

وعلى مرأى من الجميع، أكثر الشواهد صدقاً على أنه يمكن الاعتماد عليه. ومن جانب آخر فإن موسى عندما رأى ما هم فيه عذرهم وسامحهم؛ لأنه قال لنفسه أن أى جمع من الناس يكون متزعزعاً بطبعه ويتأثر بسهولة بالظروف الحالية التى يجد نفسه فيها فينسى الماضى وييأس من المستقبل.

كما غفر الرب لبنى إسرائيل تصرفاتهم الحمقاء، وبدلاً من أن يغضب منهم بسبب تذمرهم ضده، بدلاً من الثقة به فى هذا الموقف العصيب، كان مستعداً لنجدتهم وعونهم وقال الرب لموسى: «إنهم يتصرفون حسب طبعهم وسأتصرف أنا معهم بحكمتى وجلالى.. ولينزلن عليهم المن من السماء فى الصباح الباكر من الغد».

عندما أسرع إبراهيم يستجيب للرب عندما أمره بذبح إسحاق قائلاً: «هأنذا يارب»، وعده الرب بأن ينزل المن على ذرية إبراهيم بنفس الكلمات قائلاً: «وها أنذا» وبنفس الطريقة سدد الرب لبنى إسرائيل ـ أثناء تجوالهم فى البرية ـ دينهم الذى هو مدين به لجدهم عندما أكرم الملائكة الذين نزلوا له وزاروه. إذ أن إبراهيم أحضر لهم الخبز بنفسه ولذا فقد جعل الرب السماء تمطر خبزاً لبنى إسرائيل. وكما جرى إبراهيم أمام الضيوف ليعد لهم الطريق، تحرك الرب أمام بنى إسرائيل... وكما جلب إبراهيم الماء لضيوفه بنفسه، جعل الرب الماء ـ من خلال موسى ـ يتدفق من الصخور.. وكما دعاهم إبراهيم للاستظلال بظل الشجرة، ظلَّل الرب بغمامة فوق بنى إسرائيل. ثم كلم الرب موسى قائلاً له: «سأكشف نفسى على الفور بدون يعقوب.. وسأمطر خبزاً من خزائنى لكم؛ وسيخرج الشعب ليجمعوا منه قدراً معلوماً كل يوم».

كانت هناك أسباب وجيهة لعدم تجاوز قدر معلوم من المن الذى سينزل كل يوم.. أولها لكيلا يضطروا إلى حمل الزيادة معهم أثناء سيرهم، وثانيها لكى يحصلوا عليه كل يوم ساخناً شهيّاً، وثالثها وأخيرها لكى يعتمدوا على

عون الرب لهم يوماً بيوم ومن ثم يمارسون طاعته كل يوم.

بينما كان الشعب لايزال نائماً، لبى الرب حاجتهم وأنزل لهم المن من السماء وكان هذا المن قد خُلق فى اليوم الثانى لبدء الخليقة وطحنته الملائكة ثم نزل فيما بعد للمتجولين فى البرية والطواجن التى تم طحن هذا المن فيها موجودة فى السماء الثالثة، حيث يتم باستمرار طحن المن لكى يأكل منه المتقون عند حاجتهم إليه، حيث سيقدم لهم طعاماً فى الآخرة. ويسمى المن أيضاً «خبز الملائكة»، ليس فقط لأن الملائكة هم الذين أعدوه، وإنما كذلك لأن الذين أكلوه أصبحوا مثل الملائكة فى قوتهم، كما أصبحوا، مثل الملائكة، لا يعانون من الاضطرار إلى قضاء الحاجة، لأن المن يذوب كله داخل الجسم. ولم يضطروا لقضاء حاجتهم، مثل غيرهم من البشر الفانين، إلا بعد أن وقعوا فى الخطيئة.

كما أظهر المن أصله السماوى فى طعمه المعجز الذى تمتع به. فلم تكن هناك حاجة لطبخه أو خبزه، ولا احتاج إلى أى تجهيز آخر، ومع ذلك فقد كان طعمه طعم كل صنف من الطعام يمكن تخيله ـ وما كان على المرء سوى أن يتمنى تذوق طعم صنف معين، إلا ويكون للمن الطعم الذى تمناه. وكان المن نفسه له طعم يختلف من شخص إلى آخر. بحسب عمر الشخص، فبالنسبة للأطفال كان طعمه مثل اللبن، وللشباب الأقوياء كان بطعم الخبز، وبالنسبة للشيوخ كان مثل الشهد، وللمرضى كان مثل الرقاق بالزيت والعسل.

وبقدر ما كان طعم المن معجزاً، كان نزوله من السماء. ففى البداية هبت ريح شمالية كنست الأرض ونظفتها ثم نزل مطر غسلها تماماً ثم نزل الندى وتجلط وتجمد بفعل الرياح لكى يكون كالمائدة التى سينزل عليها الذهب السماوى (= المن). لكن، ولكى لا تتجمع الحشرات والهوام على المن، لم يكن الندى المتجمد يمثل مفرش المائدة وحسب، وإنما كان مثل الغطاء للمن الذى بقى محجوزا ومغطى به وكأنه موضوع فى سلة تحميه من الأتربة أو التلوث، سواء من فوق أو من تحت.

جمع المن

الآن ارتاح بال الشعب وأصبح فى مقدور كل فراد أداة صلاة الصبح فى منزله وتلاوة «الشِماع»[1]، ثم يذهب إلى باب خيمته فيجمع المن لنفسه ولأسرته. ولم يكن الرجال يبذلون جهداً كبيراً فى جمع المن، حتى أن الكسالى منهم كانوا يخرجون عند تساقطه ويمدون أيديهم فيسقط فيها.

كان المن ينزل حتى الساعة الرابعة من النهار فيسيح بفعل حرارة

(١) دعاء مشتق اسمه من كلمة «شَمَع» العبرية ومعناها «اسمع» (ويعرف أيضاً باسم «قريئات شماع» أى «قراءة اسمع» وتختصر إلى «قريشماع»). ويتكون هذا الدعاء من النصوص التالية التى تقرأ فى الصباح والمساء:

١ ـ اسمع يا إسرائيل الرب إلهنا رب واحد. فتحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل قوتك. وقُصَّها على أولادك وتكلم بها حين تجلس فى بيتك وحين تمشى فى الطريق وحين تنام وحين تقوم. واربطها علامة على يدك ولتكن عصائب بين عينيك. واكتبها على قوائم أبواب بيتك وعلى أبوابك» (تثنية ٦: ٤ ـ ٩).

٢ ـ «فإذا سمعتم لوصايا التى أنا أوصيكم بها اليوم لتحبوا الرب إلهكم وتعبدوه من كل قلوبكم ومن كل أنفسكم، أعطى مطر أرضكم فى حينه المبكر والمتأخر. فتجمع حنطتك وخمرك وزيتك. وأعطى لبهائمك عشباً فى حقلك فتأكل أنت وتشبع. فاحترزوا من أن تنغوى قلوبكم فتزيغ وتعبدوا آلهة أخرى وتسجدوا لها فيحمى غضب الرب عليكم ويغلق السماء فلا يكون مطر ولا تعطى الأرض غلتها. فتبيدون سريعاً عن الأرض الجيدة التى يعطيكم الرب. فضعوا كلماتى هذه على قلوبكم ونفوسكم واربطوها علامةً على أيديكم ولتكن عصائب بين عيونكم. وعلموها أولادكم متكلمين بها حين تجلسون فى بيوتكم وحين تمشون فى الطريق وحين تنامون وحين تقومون. واكتبها على قوائم أبواب بيتك وعلى أبوابك.. لكى تكثر أيامك وأيام أولادك على الأرض التى أقسم الرب لآبائك أن يعطيهم إياها كأيام السماء على الأرض» (تثنية ١١: ١٣ ـ ٢١). =

الشـمس لكن حـتى هذا المن السـائح لم يكن يضـيع هدراً، إذ منه تكونت الأنهـار التى سيـشـرب منهـا المتـقـون فى الآخـرة. وفى هذا الوقت (= فى الآخرة) سيحاول الوثنيون الشرب من هذه الأنهار لكن المن ـ الذى هو أحلى من العسل بالنسبة لليهود ـ سيكون طعمه مرّاً كالعلقم فى حلوق هؤلاء الوثنيين. ولن يستطيع هؤلاء الكفار المشاركة فى أكل المن إلا بطريق غير مباشرة: فقد اعتادوا صيد الحيوانات التى شربت المن السائح ووجدوا طعمها حلواً شديد الحلاوة فكانوا يصرخون قائلين: «يا لسعادة الشعب الذى خصص له هذا المن اللذيذ!» إذ لم يكن نزول المن من السماء بخاف على الوثنيين، لأنه كان قد تجمع متراكماً بعضه فوق بعض حتى صار جبالاً عالية رآها ملوك الشرق والغرب.

كانت كتلة المن تتناسب مع ارتفاعه إذ لم يكن ينزل منه كل يوم إلا ما يكفى ستمئة ألف إنسان، وبما يكفى لألفى عام. وقد نزلت هذه الوفرة من المن فوق جسم «يشوع» وحده، وبالقدر الذى يكفى الشعب كله. بل إن المن كان يتميز بأنه كان ينزل لكل فرد بنفس المقدار، وعندما حسبوا الكمية التى نزلت منه، بعد جمعها، وجدوا أنه قد نزل منه مقدار عُمر[1] واحد لكل رجل.

لقد كان نزول المن فيه حل لطيف للكثير من النزاعات والدعاوى القضائية. فإذا ما حضر زوجان إلى موسى مثلاً واشتكى كل منهما من

= ٣ ـ «وكلم الرب موسى قائلاً: كلِّم بنى إسرائيل وقل لهم إن يضعوا لهم أهداباً فى أذيال ثيابهم فى أجيالهم ويجعلوا على هدب الذيل عصابة من أسمانجونى. فتكون لكم هدباً فترونها وتذكرون كل وصايا الرب وتعلمونها ولا تطوفوا وراء قلوبكم وأعينكم التى أنتم فاسقون وراءها. لكى تذكروا وتعلموا وصاياى وتكونوا مقدسين لإلهكم. أنا الرب إلهكم الذى أخرجكم من أرض مصر ليكون لكم إلهاً. أنا الرب إلهكم» (عدد ١٥: ٣٧ ـ ٤١).

ويقرأ دعاء الشماع فى صلاة الصباح والمساء ولا يقرأ فى صلاة الظهر. وعلى اليهودى أن ينطق بعبارة التوحيد (أى «الرب إلهنا إله واحد») قبل موته، أو ينطق له بها أحد الواقفين بجواره. (المترجم).

(١) العُمر: مكيال للحبوب يعادل نحو اللترين ونصف اللتر. (المترجم).

خيانة الآخر له، كان موسى يقول لهما: «غداً فى الصباح سُيحكم بينكما». فإذا جاء صباح الغد ونزل المن الخاص بالمرأة أمام خيمة رجلها، عُلم أنه على حق؛ لكن إن نزل نصيبها من المن أمام خيمة والديها عُلِم أنها هى التى معها الحق.

ولم يكن المن ينزل فى أيام السبت والأعياد الدينية المقدسة، ولكنه كان ينزل منه فى اليوم السابق لهذه الأيام كمية مضاعفة - كما كانت هذه الأيام المقدسة تتميز بأن المن كان فيها يتألق ببريق غير عادى، ويكون طعمه أحلى وأشهى. لكن الشعب كالعادة كان قليل الإيمان وأراد الخروج لجمع المن من أول سبت. وأرادوا الخروج لجمعه فى الصباح كالعادة، بالرغم من أن موسى قد أعلن لهم أنه لن ينزل لهم منه شىء فى هذا اليوم. ومع ذلك فقد تصدَّى لهم موسى ومنعهم من الخروج فحاولوا الخروج مرة أخرى قرب حلول المساء لكن موسى منعهم ثانيةً قائلاً: «لن تجدوا منه شيئاً فى الحقل اليوم» وعند ذلك خافوا وارتعبوا، خشية ألا ينزل منه شيئاً مطلقاً بعد ذلك، لكن زعيمهم طمأنهم قائلاً: «لن تجدوا منه اليوم شيئاً، لكنكم ستجدونه بكل تأكيد غداً.. لن ينزل عليكم المن فى هذه الدنيا فى أيام السبوت، لكنه سينزل فيها بكل تأكيد فى العالم الآتى».

برغم كل ذلك، لم يُصخ المرتابون من بنى إسرائيل لكلمات الرب وخرجوا يوم السبت لجمع المن. وعند ذلك قال الرب لموسى: «أعلن لبنى إسرائيل هذه الكلمات: «لقد أخرجتكم من مصر وفرقتُ لكم البحر وأنزلتُ عليكم المن وفجَّرت لكم عيون الماء وأنزلت عليكم السلوى وحاربتُ العماليق من أجلكم.. وصنعت من أجلكم آيات ومعجزات أخرى.. ورغم كل ذلك فلا زلتم تعصون أوامرى وتخالفون شرائعى. بل إنكم لا تستطيعون التذرع بأننى قد فرضت عليكم فرائض كثيرة أرهقتكم، فلم أكلفكم فى «مارَّة» سوى مراعاة حرمة السبت فاعتديتم فيه».

وأكمل موسى قائلاً: «لو راعيتم حرمة السبت سيمنحكم الرب ثلاثة أعياد فى شهور نيسان وسيوان وتشرى.. ومكافأة لكم على مراعاة حرمة السبت سيمنحكم الرب ست هدايا هى أرض إسرائيل والفوز بالعالم الآتى، والعالم الجديد وملك آل داود وتعيين كهنة ولاويين منكم؛ وعلاوة على ذلك ستنجون من العذابات الثلاثة العظيمة: محنة يأجوج ومأجوج والاضطرابات والقلاقل التى ستحدث فى زمن المسيا ومن يوم الدينونة العظيمة».

عندما سمع بنو إسرائيل هذه الوعود والبشارات، عزموا على مراعاة حرمة السبت والتزموا بذلك. لكنهم بكل تأكيد لم يعلموا بعظم ما فاتهم عندما لم يراعوا حرمة أول سبت. فلو كانوا راعوا حرمة هذا السبت الأول، لما كان لأمة من الأمم سلطان عليهم أبداً.

لم تكن تلك هى الخطيئة الوحيدة التى وقع فيها بنو إسرائيل فى هذا الوقت، إذ أن بعضهم خالفوا الأمر الإلهى بخصوص المن، وهو ألا يخزنوا منه شيئاً. ولم يكن هذا البعض الخاطئ سوى داثان وأبيرام المجرمين، اللذين لم يسمعا لكلام الرب وخزنا المن. لكن إن كانا قد تخيلا أنهما سيستطيعان إخفاء معصيتهما، فقد أخطآ فى ذلك، إذ تجمعت على الذى خزنوا كميات هائلة من الهوام والحشرات ثم طارت فى أسراب هائلة من خيمتهما إلى خيام الآخرين، فعلم كل الناس ما فعله هذان الآثمان.

ولكى تعتبر الأجيال القادمة وتظل على يقين من قدرة الرب غير المحدودة، أمر الرب موسى بوضع إناء فخارى ملآن بالمن أمام تابوت العهد المقدس، وقد نفَّذ هذا الأمر هارون فى السنة الثانية من تجوالهم فى البرية.. وبعد ذلك بقرون عندما استحث النبى إرميا معاصريه على دراسة التوراة فردُّوا قائلين: «ومن الذى سيطعمنا ويسقينا إذاً؟» فرد عليهم النبى إرميا قائلاً: «يا أبناء جيلى... انظروا إلى كلمة الرب.. انظروا إلى ما قدَّم طعاماً لآبائكم عندما شغلوا أنفسهم بدراسة التوراة. وأنتم كذلك.. إن

كرستم أنفسكم لدراسة التوراة، فإن الرب سيقيتكم بنفس الطريقة».

وعندما أعلن للملك «يوشيا» عن قرب دمار «المعبد» أخفى التابوت المقدس وأخفى معه كذلك إناء المن وإبريق الزيت المقدس الذى استخدمه موسى فى مسح الأدوات المقدسة وغيرها من الأشياء المقدسة. وعندما يأتى زمن المسيا سيسترد النبى «إيلياء» هذه الأشياء المخفية جميعاً.

تلقَّى بنو إسرائيل ثلاث هدايا أثناء تجوالهم فى البرية: عين الماء وغمامات المجد والمن. وتلقَّوا الهدية الأولى كرامة لميريام، وتلقوا الثانية كرامة لهارون، بينما كانت الثالثة كرامة لموسى. وعندما ماتت ميريام اختفت العين لفترة، ثم عادت للظهور كرامةً لهارون وموسى. ولما مات هارون اختفت العين وغمامات المجد والمن إلى الأبد. وطوال أربعين سنة من تيههم فى البرية لم يكن المن طعاماً لهم فقط، وإنما كان السبب فى توفير الكلأ لمواشيهم، إذ أن الندى الذى كان يسبق نزول المن كان ينبت الحبوب. كما كان المن بديلاً للعطور بالنسبة لهم، إذ كان كل من يأكل منه تنبعث منه رائحة زكية فواحة.

على الرغم من كل المزايا التى كان يتمتع بها المن، فإن بنى إسرائيل لم يقنعوا به وطلبوا من هارون وموسى أن يعطياهم لحماً ليأكلوه، فأجاباهم قائلين: «سنتحمَّل تذمركم إذا تذمرتم ضدنا نحن فقط، لكنكم تجدفون وتتذمرون ضد الحى الذى لا يموت. تعالوا هنا لتستمعوا إلى حكم الرب». وفى الحال ظهر الرب لموسى وقال له: «لقد علمتُ ما قاله الشعب وما سيقولونه فيما بعد، لكن قل لهم: «لقد طلبتم شيئين فأعطيتكم إياهما، فطلبتم الخبز ومنحتكم إياه لأن الإنسان لا يعيش بدونه، ولكنكم الآن بعدما شبعتم تطلبون اللحم الآن وسأعطيكم إياه كذلك لكيلا تقولوا: «إن الرب لا يستطيع أن يرزقنا باللحم». ولكنكم ستكفِّرون عن ذلك فى المستقبل، فأنا الحكم ولسوف أعاقبكم على ذلك».

وأثناء ذلك استجاب الرب لهم فظهرت قرب الماء أسراب هائلة من السلوى قادمة من ناحية البحر وغطت المخيم كله، وكانت تطير بالقرب من الأرض، بارتفاع لا يزيد عن ذراعين، لكى يسهل اصطيادها. وعلى العكس من المن الذى كان يتساقط فى الصباح، فإن السلوى لم تكن تأتى قبل حلول المساء؛ وكان الرب قد رزقهم المن ووجهه مشرق، لكنه أرسل إليهم السلوى بوجه غاضب، تحت ستر الظلام. والآن، ولأن أحد الطعامين كان يأتى صباحاً والآخر يأتى فى المساء، فإن موسى عوَّد قومه على تناول وجبتين كل يوم، واحدة فى الصباح والأخرى فى المساء، وجعل وجبة المساء هى وجبة اللحم. كما علمهم الصلاة التى يشكرون فيها الرب على المن الذى رزقهم به، ويقولون فيها: «تباركت يارب، يا إلهنا، يا ملك العالم.. يا من بكرمك ترزق العالم كله؛ ويا من بفضلك ورأفتك ورحمتك تطعم كل مخلوق، لأن فضلك لا يزول.. وبفضل كرمك وفضلك العظيم، لم نحتج إلى الطعام، ولن نحتاج أبداً، من أجل اسمك العظيم. لأنك أنت ترزق الجميع وتطعم الجميع؛ وأنت كريم سخى وتطعم جميع مخلوقاتك التى صنعتها. تباركت يارب.. يا من ترزق الجميع».



بئـر ميريـام

الآن بعـدمـا ارتاح بـال بنى إسـرائيل من كل تفكيـر فى لقـمـة العـيش، بسبب المن، أصبح واجبهم الأساسى الانشغال التام بدراسة التوراة. لهذا، فعندما تباطئوا فى أداء هذا الواجب، حلت بهم العقوبة على الفور، متمثلة فى نقص المياه. وكانت هذه هى المرة الأولى التى يتعرضون فيها لهذا الموقف بالفعل، لأنهم عندما كانوا فى مارَّة كان معهم الماء، لكنهم كانوا يخافون نفاده، ولذا فقد تذمروا واشتكوا حينها. ومرةً أخرى، تأثروا بالمحنة التى يتعرضون لها وبدأوا يلومون قائدهم، دون حكمةٍ، وتجادلوا معه قائلين: «هل أخرجتنا من مصر لنموت نحن وأطفالنا وماشيتنا، من العطش؟ فأجابهم موسى قائلاً: «إنكم لا تتذمرون ضدى ولا تتقلبون علىَّ، وإنما تتقلبون على الرب، لكنه يصنع الآيات والعجائب من أجلكم، كلما تذمرتم ضدى، لكى يتمجد اسمه فى العالم كله».

وبالرغم من الأذى الذى تعرض له موسى من ألسنتهم، فإنه قد دعا لهم الرب لكى يقف بجانبهم ويعينهم فى محنتهم، قائلاً: «يارب العالم.. إننى ميتٌ ولا شك. فأنت تأمرنى بألا أوذيهم أو أضجر منهم، لكن إن أطعت كلماتك، فإنهم سيقتلوننى ولا شك». فأجاب الرب قائلاً: «يا موسى.. حاول أن تفعل مثلى.. فكما أنِّى أقابل السيئة بالحسنة، قابل أنت سيئاتهم بالحسنات واغفر لهم تجاوزهم فى حقك.. هيا امض أمام الشعب وسنرى من ذا الذى سيتجرأ على لمسك».

وما كاد موسى يظهر نفسه للشعب، إلا وهب الناس غاضبين، فقال له

الرب: «يا موسى.. لقد قلت لك أكثر من مرة ألا تغضب منهم، ولكن أن تقودهم كما يقود الراعى قطيعه؛ إننى ما رفعتك لما أنت عليه من مكانة إلا كرامةً لهم، ولن تجد نعمة فى عينىَّ ولا رحمة ولا فضلاً، إلا من أجلهم هم».

ثم أمره الرب بأن يمضى مع بعض شيوخ الشعب إلى الصخرة على جبل حوريب، ليجلبوا منها الماء. وقد أمره الرب بأن يصطحب الشيوخ معه، لكى يقتنعوا بأنه لن يجلب لهم الماء من إحدى الآبار، ولكنه سيفجِّر لهم الصخرة. ولكى تتم هذه المعجزة أمره الرب بأن يضرب الصخرة بعصاه، لأن الشعب كان يظن أن هذه العصا لا تجلب إلا الهلاك، إذ بها جلب موسى على المصريين البلايا العشرة فى مصر وعند البحر الأحمر. والآن سيرون أنها تجلب الخير أيضاً. وبأمر من الرب طلب موسى من الشعب أن يختار الصخرة التى يريدون منه أن يفجرها بالماء، وما كاد موسى يلمس الصخرة التى اختاروها بعصاه إلا وتدفق الماء منها. وسمَّى الرب البقعة التى حدث بها ذلك «مَسَّه» و«مريباح»، لأن بنى إسرائيل قد امتحنوا الرب. فيها قائلين: «لو كان الرب إلهاً فوق الكل، كما هو إله علينا، وإذا لبَّى لنا حاجاتنا وأظهر لنا أنه يعلم ما تخبئه صدورنا، فسوف نعبده.. لكن إن لم يفعل فلن نعبده».

ولم يكن الماء الذى تدفق فى هذه البقعة ريّاً لعطشهم فقط، وإنما كُشِف لهم فى هذه المناسبة بئر ماء لم يفارقهم طوال تيههم فى البرية، والذى دام أربعين سنة، وظلت هذه البئر ترافقهم أينما ذهبوا. وقد أجرى الرب هذه المعجزة العظيمة كرامة للنبيَّة «ميريام»، ومن هنا فقد سميت هذه البئر كذلك باسم «بئر ميريام». لكن هذه البئر يرجع تاريخها إلى بدء الخليقة، إذ خلقها الرب فى اليوم الثانى لبدء الخليقة، وكانت فى يوم من الأيام ملكاً لإبراهيم. وكانت هذه البئر نفسها هى البئر التى طلب إبراهيم استردادها من «أبيمالك» ملك الفلسطينيين بعدما كان عبيد هذا الملك قد اغتصبوها بالقوة. لكن عندما ادَّعى أبيمالك أنه لا يعرف شيئاً عن هذا الأمر وقال لإبراهيم: «لست أعلم من الذى فعل ذلك» رد عليه إبراهيم قائلاً: «ليُرسل كلٌّ منا أغنامه إلى البئر، وسنرى من منَّا هو صاحبها

الحقيقى الذى ستفيض البئر بالماء لأغنامه. ومن هذه البئر نفسها سيشرب الجيل السابع بعدى، أثناء تيههم فى البرية».

كانت هذه البئر فى صخرة تشبه المنخل يتدفق الماء منها وكأنما يتدفق من نافورة. وكانت تتبعهم أينما ذهبوا، إذا صعدوا تلاً أو هبطوا وادياً صعدت وهبطت معهم، وإذا توقفوا توقفت، واستقرت فى مقابل الهيكل. وعند ذلك سيظهر زعيم كل سبط من الأسباط الاثنى عشر، وكلٌّ منهم يحمل عصاه ويغنون للبئر قائلين: «فيضى أيتها البئر بالماء، وغنوا أيها الناس لها.. لقد حفرها نبلاء الشعب بتوجيه من مانح الشريعة» وعند ذلك سيتدفق الماء من أعماق البئر ويتفجر مرتفعاً لأعلى كالأعمدة العالية، ثم يفيض أنهاراً يمكن الإبحار فيها، فيركب اليهود السفن ويبحرون فى هذه الأنهار ليصلوا إلى المحيط ويعبُّوا من جميع كنوز العالم التى فيها..

وكانت هذه الأنهار تقسم المخيم إلى أقسام، ولذا فقد كانت النساء يضطررن إلى ركوب السفن، إذا أرادت إحداهن زيارة الأخرى. ثم فاض الماء إلى ما وراء المخيم حيث أحاط بسهل عظيم نبتت فيه كل أنواع النباتات والأشجار التى يمكن تخيلها، وكانت هذه الأشجار تحمل كل يوم ثمراً طازجاً، بفضل هذه المياه المعجزة. كما تنبت أعشاب زكية الرائحة، ولذا فلم تحتج النساء إلى أية عطور، إذ كانت هذه الأعشاب تؤدى ذلك الغرض. ونبتت كذلك أنواع طرية فواحة بالعطر من الحشائش استخدمها الفقراء كأرائك مريحة، عوضاً عن الوسائد والفُرُش. وعند دخولهم الأرض المقدسة اختفت هذه البئر وتم إخفاؤها فى بقعة معينة من بحيرة طبرية. وإذا وقف المرء على الكرمل(١) ونظر إلى البحر سيلاحظ وجود صخرة تشبه المنخل هى بئر ميريام. وحدث ذات مرة أن رجلاً أبرص استحم فى هذا المكان من بحيرة طبرية، وما كاد جسمه يلمس ماء بئر ميريام، إلا وشفى من فوره.

---

(١) جبل الكرمل فى فلسطين وهو سلسلة جبال تمتد حوالى عشرين ميلاً بمحاذاة ساحل البحر المتوسط، وتبدأ من عند مدينة حيفا إلى وادى يزرعيل فى الجنوب الشرقى. (المترجم).

الحرب مع عماليق

عقاباً لهم على قلة ثقتهم بالرب، وعلى ارتيابهم فى قدرته على الوفاء بكل ما يحتاجون إليه، وإهمالهم دراسة التوراة ومراعاة الشريعة، غَيَّر الرب قلب «عماليق» ضد بنى إسرائيل خلال إقامتهم فى «رفيديم» حيث ارتكبوا هذه المعاصى. وقد عاملهم الرب فى ذلك بمثل ما عامل به الرجل ابنه الذى حمله على كتفيه وعبر به النهر.وكان الطفل كلما رأى شيئاً وأعجبه يقول لأبيه: «اشتر هذا لى يا أبى» فيشتريه له أبوه. وبعدما اشترى الأب لابنه الكثير من الأشياء الجميلة فى الطريق، قال الابن لأبيه: «أتعلم من هو أبى؟» فصاح الرجل فى ابنه فى غضب: «أيها الغبى الذى يجلس على كتفىّ!! أبعدما جلبت لك كل ما تريد، ثم لا تعرف من هو أبوك وتسأل الرجل: «هل تعرف أبى؟!!» ثم ألقى الولد عن كتفيه فأتى كلب وعضه.

وهكذا كانت حال بنى إسرائيل.. فعندما خرجوا من مصر ظللهم الرب بسبع ظلل من المجد؛ وطلبوا الخبز فأنزل عليهم المن؛ وطلبوا اللحم فأنزل عليهم السلوى.. وبعدما أكلوا وشربوا وشبعوا بدأوا يرتابون ويقولون: «هل الرب معنا أم لا؟» فأجابهم الرب قائلاً: «إنكم ترتابون فى قدرتى.. فلتكتشفون قوتى طالما حييتم، وليعضنَّكم الكلب عما قريب». وعند ذلك جاءهم «عماليق»..

كان اسم هذا العدو، «عماليق»، يدل على السرعة التى تحرك بها ضد بنى إسرائيل حيث هجم عليهم بسرعة سربٍ من الجراد. كما كان اسمه

يدل كذلك على غرضه، إذا كان قد جاء ليمتص دم بنى إسرائيل. وكان «عماليق» هذا أحد أبناء إليفاز بكْر عيسو، وبالرغم من أن بنى إسرائيل كانوا ضعفاء فى السابق فإنه لم يهاجمهم أثناء ضعفهم. لغرض فى نفسه.

كان الرب قد أوحى لإبراهيم أن ذريته سوف تستعبد فى أرض المصريين وجعل سداد هذا الدين فى عنق إسحاق، ثم فى عنق يعقوب وذريته من بعده. والآن قال «عماليق» الشرير لنفسه: «لو قضيتُ على يعقوب وذريته سيجعل الرب دين العبودية للمصريين فى عنقى، فأنا حفيد عيسو الذى هو من ذرية إبراهيم» لهذا فقد صبر على بنى إسرائيل أيام إقامتهم فى مصر، ثم ما كاد بنو إسرائيل يتخلصون من عبودية المصريين إلا وشن عليهم الحرب بغية القضاء عليهم، خصوصاً وقد كان جده عيسو أوصاه بذلك وشَدَّد عليه.

ما كان «عماليق» يسمع بخروج بنى إسرائيل من مصر، إلا وخرج لحربهم والتقى بهم عند البحر الأحمر، لكنه لم يستطع إيذاءهم لأن موسى استعاذ منه بالاسم الأعظم فارتبك ارتباكاً عظيماً اضطر معه للتقهقر دون تحقيق غرضه.

وبعد ذلك بقى كامناً لبنى إسرائيل بعض الوقت، فظل بنو إسرائيل منشغلين به خائفين من انقضاضه عليهم فى أى وقت. لكنه ضاق بهذا الاختباء وأسفر عن وجه العداء لبنى إسرائيل. ولم يعلن الحرب على بنى إسرائيل وحده، وإنما أثار ضدهم كل الأمم الوثنية كذلك. وبالرغم من أن هؤلاء الوثنيين لم يستجيبوا فى البداية لتحريضه إياهم ضد بنى إسرائيل خوفاً من أن يلقوا مثل مصير المصريين، فإنهم قد وافقوا فى نهاية المطاف وانضموا إليه فى حربه ضد بنى إسرائيل.

وقال لهم عماليق: «انضموا إلىَّ وسيروا فى المؤخرة، فإن ظهر بنو إسرائيل

علىّ ستكون الفرصة متاحة أمامكم للهروب.. لكن إن كان النصر حليفى وانقلبت دفة الحرب لصالحى، فانضموا إلىّ وحاربوا بنى إسرائيل معى».

وبعد ذلك تقدم «عماليق» بجيشه من «سعير»، حيث كان يقيم، ولم تكن تبعد عن مخيم اليهود بأكثر من أربعمائة فرسخ.. وبالرغم من أنه كانت تقيم خمس من الأمم فى الأرض التى تفصل بين جيشه وجيش اليهود.. وهم الحيثيون والحيفيون واليبوسيون والعموريون والكنعانيون - فإنه أصر على أن يكون هو أول من يعلن الحرب على بنى إسرائيل.

وقد عاقب الرب بنى إسرائيل الذين أظهروا جحودهم، بأن أثار عليهم عدوّاً جاحداً هو الآخر ولا يعترف أبداً بأنه مدين بحياته لبنى يعقوب الذين كانوا بإمكانهم القضاء عليه عندما سحقوا عيسو وأتباعه، لكنهم لم يفعلوا.

استعان عماليق ببنى قومه، فى حربه ضد بنى إسرائيل. وقبل أن ينبذ إليهم بالحرب، خدع الكثير من اليهود بكلامه المعسول حتى لقوا حتوفهم. وكان قد جلب من مصر السجلات التى تحتوى على أنساب اليهود، إذ كان على كل يهودى فى مصر أن يسجل اسمه على كل قرميدة يضعها، وكانت هذه السجلات محفوظة فى السجلات المصرية. ولأن عماليق كان على علم بأسماء مختلف العائلات اليهودية، فقد كان يقترب من مخيم اليهود وينادى قائلاً: «يا فلان ابن فلان من سبط رأوبين.. يا فلان ابن علان من سبط يهوذا.. تعال أنت وأخوك إلىَّ.. تعالوا لى أعرض عليكم صفقة»..

وكان كل من يستجيب لندائه ويخرج إليه يلقى حتفه على الفور على يدى عماليق الذى لم يكن يكتفى بقتله وحسب، وإنما كان يمثل بجثته كذلك، حاذياً حذو جده الكبير عيسو فيقطع عضواً معيناً من أعضاء بدن الضحية ثم يلقى به نحو السماء قائلاً فى سخرية: «إليك.. ها هو ما تريد..» وكان يسخر بذلك من علامة عهد إبراهيم (= الختان).

لم يخرج موسى بنفسه لحرب عماليق، وإنما أرسل عبده «يشوع». وكانت له أسباب وجيهة. فقد كان موسى يعلم أنه لن يستطيع هزيمة «عماليق» إلا واحد من ذرية راحيل، مثل «يشوع» الذى ينتمى لسبط إفرايم. إذ كان جميع أبناء يعقوب قد اشتركوا فى المؤامرة ضد يوسف، ولذا فلم يكن لأحد من ذريتهم القدرة على الوقوف فى وجه ذرية عيسو.. لأن كل من لم يراع صلة الرحم فى تعامله مع أخيه، لم يكن الرب لينصره أو يؤيده فى حربه مع واحد من الأدوميين الذين لا يراعون صلات الرحم. وفقط ذرية يوسف ـ ذلك الرجل الذى كان كريماً وودوداً مع إخوته ـ هم الذين يمكن أن يتوقع تأييد الرب لهم فى حربهم ضد ذرية عيسو.

كما كان يوسف كذلك على النقيض من عيسو، من جوانب عديدة، وقد أفاد ذلك ذريته كثيراً فى حربهم ضد ذرية عيسو. فقد كان عيسو بكر أبيه لكنه فقد حق البكورة بسبب شروره.. أما يوسف فكان أصغر إخوته واستحق حق البكورة بسبب أعماله الخيّرة. كما كان يوسف يؤمن ببعث الموتى، بينما كان عيسو كافراً به.. ومن هنا قال الرب: «إن يوسف المؤمن سيكون هو الذى يُنزِل العقاب المستحق بعيسو الكافر».. وكان يوسف قريباً ومرتبطاً من اثنين كافرين، لكنه لم يحذُ حذوهما.. لكن عيسو كان قريباً ومرتبطاً باثنين تقيين، أبيه وأخيه، ولكنه لم يحذُ حذوهما. ولهذا قال الرب: «إن يوسف الذى لم يَحْذُ حذو الرجلين الكافرين، سيكون هو الذى ينزل على يديه العقاب المستحق بعيسو الذى لم يحذُ حذو الرجلين التقيين» وأفسد عيسو حياته بالفجور والقتل، بينما كان يوسف عفيفاً وغير ميّال لسفك الدماء، ولذا فقد أسلم الرب ذرية عيسو إلى أيدى ذرية يوسف. ولأنه على مدار التاريخ لم يستطع التغلب على ذرية عيسو إلا ذرية يوسف، فستكون الحال هكذا أيضاً فى المستقبل.. فى وقت الحرب الأخيرة لتسوية الحسابات بين ملاك عيسو وملائكة اليهود. وسيقول ملاك عيسو للملاك

رأوبين فى سخرية: «إنك تمثل رجلاً أقام علاقة غير شرعية مع زوجة أبيه».. بينما سيقال لملاكىْ شمعون ولاوى: «إنكما تمثلان رجلين ذبحا سكان شكيم».. بينما سيقال لملاك يهوذا: «لقد أقام يهوذا علاقات غير شرعية مع زوجة ابنه». كما سيطرد ملاك عيسو ملائكة الأسباط الأخرى، ويلومهم بأنهم تورطوا فى بيع يوسف. وسيكون ملاك يوسف هو الملاك الوحيد الذى سيرتد أمامه ملاك عيسو خائباً وسيقضى عليه ويسلم إلى يديه.. وسيكون يوسف هو الشعلة التى ستحترق فيها قشة عيسو.



هزيمة عماليق

وجَّه موسى يشوع لحرب عماليق قائلاً له: «اختر لنا الرجال واخرج لحرب عماليق» وكان قوله: «اختر لنا» يعبر عن تواضعه إذ عامل تابعه يشوع على قدم المساواة مع نفسه.. ليعلِّمنا أن نعامل أتباعنا وكأنهم مثلنا. وفى البداية تردد يشوع فى الخروج، لكيلا يخرج من تحت سحابة المجد، لكن موسى قال له «اخرج من تحت السحابة وانطلق لحرب عماليق... إذا كنت تريد أن تضع تاج المجد على رأسك». وأمره بأن يختار محاربيه من بين الأتقياء الذين يخشون الرب، كما وعده بأنه سيجعل اليوم التالى يوم صوم ودعا الرب، متوسلاً بحسنات الآباء وزوجاتهم، أن يؤيد بنى إسرائيل فى هذه الحرب.

فعل يشوع ما أمره به موسى وانطلق لحرب عماليق.. عازماً على هزيمة ذلك الخصم الذى لا تتطلب هزيمته مجرد البراعة العسكرية وإتقان فنون الحرب، وإنما تحتاج كذلك إلى خبرة عظيمة بالسحر، لأن عماليق كان من السحرة الكبار وكان يعلم ساعة سعد كل شخص وساعة سوء حظه، فكان ينظم غاراته على بنى إسرائيل وفقاً لذلك.. فكان يهجم بالليل على من يتنبأ بموته فى الليل، ويهجم بالنهار على من تتنبئه النجوم بأنه سيموت فى النهار.

لكن يشوع كان نداً له فى فن السحر.. إذ كان يشوع يعلم هو الآخر متى يهجم على عدوه، ولذا فقد قضى على عماليق وعلى أبنائه، وعلى الجيوش التى يقودها بنفسه وعلى تلك الجيوش التى يقودها أبناؤه. لكن يشوع كان يعامل أعداءه بمنتهى الإنسانية، حتى فى أحمى لحظات

الحرب... ولم يعاملهم بمثل شرهم.. واجتنب تماماً التمثيل بجثث أعدائه، كما كان عماليق يفعل، ولكنه قطع رؤوسهم بسيوف حادة... وهى طريقة فى القتل لا تهين كرامة القتيل.

لكن يشوع لم يهزم الأعداء إلا بمساعدة موسى.. فمع أن موسى لم يخرج للقتال، فإنه قد جلب النصر لبنى قومه بدعائه ومن خلال تحفيزه الناس وبث روح الإيمان فيهم. وأثناء اشتعال الحرب ضد عماليق، كان موسى يجلس على ربوة عالية ومعه هارون اللاوى وحور اليهوذى، ممثلين للسبطين النبيلين «لاوى» و«يهوذا»، وكان يقول: «يارب العالم... لقد أخرجت بنى إسرائيل من مصر من خلالى... وفرقت لهم البحر من خلالى.. وأجريت لهم المعجزات من خلالى... فالآن أجرِ المعجزات من أجلى وانصر بنى إسرائيل، لأننى أعلم أن جميع الشعوب الآخرى لا تقاتل إلا حتى الساعة السادسة من النهار، ولكن هذا الشعب الخاطئ يظل يحارب حتى غروب الشمس».

ولم يكتفِ موسى بدعاء الرب بمفرده، وإنما أشار بإصبعه إلى السماء ليومئ للشعب بأن يحذوا حذوه ويثقوا فى الرب. وفى نصره لهم. وفى الحال رفع الشعب كله أيديهم وألحوا فى الدعاء مع موسى، واثقين فى نصر الرب لهم.. وكانوا كلما استمروا فى رفع الأيدى بالدعاء تكون لهم الغلبة على عماليق، وكلما ضعفت ثقتهم فى الرب فأنزلوا أياديهم تكون الغلبة لعماليق.

لكن كان من العسير على موسى أن يواصل رفع يديه هكذاك، وكان ذلك عقاباً من الرب له على عدم إعداده العدة الكافية لحرب عماليق. ومن ثم فقد أسرع هارون وحور يسندان ذراعيه ويساعدانه فى دعائه. ولأنه لم يستطع الوقوف باستمرار، فقد جلس على صخرة، ورفض فى احتقار إحضار كرسى طرى ومريح ليجلس عليه، قائلاً: «طالما كان بنو إسرائيل فى محنة، فإننى سوف أشاركهم فى محنتهم».

عند حلول المساء لم تكن الحرب قد وضعت أوزارها بعد، ولهذا فإن

موسى دعا الرب لكى يؤخر غروب الشمس حتى ينتهى بنو إسرائيل من الحرب ويقضوا على عدوهم. واستجاب الرب لدعائه فلم تغرب الشمس إلا بعد أن قضى بنو إسرائيل على عدوهم تماماً. وعند ذلك بارك موسى يشوع قائلاً: «ستتوقف الشمس يوماً ما من أجلك، كما فعلت اليوم من أجلى».. وقد تحققت هذه النبوءة فيما بعد فى «جبعون» عندما توقفت الشمس لتساعد يشوع فى حربه ضد العموريين.

بالرغم من أن عماليق لم يحقق غرضه الذى خرج من أجله لحرب بنى إسرائيل، فإنه لم يرجع خائباً بالكلية. فقد كان لخروج الإسرائيليين من مصر بمعجزة، وانفلاق البحر لهم، تأثير رهيب على الوثنيين الذين خافوا من بنى إسرائيل ولم يجرؤوا على الإقتراب منهم. وبالرغم من أن عماليق قد انهزم هزيمة منكرة، فإن الخوف من حرب بنى إسرائيل قد زال.

وكانت الحال مع عماليق تشبه حال ذلك المغفل الذى سقط فى طست به ماء ساخن جدّاً، فمع أنه قد أصيب بحروق شديدة، فإن الماء فى الطست قد بَرُد بسبب سقوطه فيه. وهكذا فلم يقنع الرب بالعقوبة التى حلت بعماليق فى زمن موسى، ولكنه أقسم بعرشه وبيمينه أنه لن ينسى معاصى عماليق أبداً، وأنه سيعاقبه فى هذا العالم وفى زمن المسيَّا كذلك وأنه سوف يقضى عليه تماماً فى العالم الآتى. وطالما وجدت ذرية عماليق على قيد الحياة فإن وجه الرب سيبقى مغطى، كما كان، ولن يظهر إلاَّ عندما يتم القضاء تماماً على ذرية عماليق.

فى البداية ترك الرب أمر الحرب ضد عماليق بين يدى شعبه، ولهذا فقد أمر يشوع - الزعيم القادم للشعب - بألا ينسى أبداً الحرب ضد عماليق - ولو كان موسى قد أصغى سمعه جيداً، لكان سمع أمر الرب بأن يشوع مقدَّرٌ له أن يقود الشعب إلى الأرض الموعودة. لكن فيما بعد، عندما اشترك عماليق فى تدمير أورشليم، تولى الرب بنفسه أمر الحرب ضد

عماليق، قائلاً: «أقسم بعرشى ألا أترك واحداً من ذرية عماليق تحت السماء.. أجل.. لن يستطيع أحد أن يقول إن هذه العنزة أو هذا الجدى كان يخص واحداً من ذرية عماليق!!».

أمر الرب موسى بأن يأمر اليهود بألا يردوا أحداً من الوثنيين إن أراد أن يتهود، ولكن عليهم ألا يقبلوا أبداً تحول أحد من العماليق إلى دينهم. ومراعاةً لهذا الأمر قام داود فيما بعد بقتل العماليقى الذى أعلن له عن مقتل شاؤل ويونان؛ إذ لم ير فيه إلا وثنيّاً، وإن تظاهر باليهودية.

يرجع بعض السبب فى المصير الذى لقيه عماليق إلى أبيه أليفاز الذى كان من عادته أن يقول لابنه: «يا بنى... هل تريد حقّاً أن تعرف من الذى سيمتلك هذا العالم والعالم الآتى كذلك؟» ولم يكن عماليق يلتفت إلى تلميح أبيه عن مستقبل بنى إسرائيل، ولذا فقد كف أبوه عن الإلحاح عليه فى ذلك الأمر.. بالرغم من أن الواجب كان يحتم على أبيه أن يوجِّه ابنه التوجيه الصحيح، وبوضوح.. فقد كان واجباً عليه أن يقول لابنه: «يا بُنىّ إن بنى إسرائيل سيمتلكون هذا العالم والعالم الآتى كذلك. عليك إذاً أن تحفر لهم الآبار ليشربوا منها وأن تمهد لهم الطرق... لكى تستحق مشاركتهم فى العالم الآتى» لكن ولأن عماليق لم يتلقَّ التوجيه الصحيح من أبيه، فإن جنونه قد دفعه لمحاولة تدمير العالم كله. لكن الرب الذى يمتحن القلوب ويعلم ما فى الصدور قال له: «أيها الأحمق..! لقد خلقتك بعدما خلقت الأمم السبعين كلها.. لكن بسبب معاصيك ستكون أنت أول من يهوى فى الجحيم».

تمجيداً لانتصاره على عماليق، بنى موسى مذبحاً سماه الرب: «معجزتى»، لأن المعجزة التى حدثت فى الحرب ضد عماليق إنما كانت معجزة من الرب. وطالما كان بنو إسرائيل حزانى مهمومين، يكون الرب مثلهم محزوناً مهموماً، وعندما يفرحون يفرح!! ومن هنا فإن الانتصار المعجز لبنى إسرائيل على عدوهم إنما كان انتصاراً للرب كذلك.

يثــرون

«اضرب المربوط يخاف السائب».. لقد جعل هلاك عماليق، يثرون يفيق من غيبوبته.. وقد كان يثرون فى الأصل مشتركاً فى المؤامرة مع عماليق، وكان كلاهما قد عمل على تحريض فرعون ضد بنى إسرائيل».. لكن عندما رأى هلاك عماليق وخسارته لهذا العالم وللعالم الآتى كذلك، تاب عن غيه قائلاً: «ما بقى لى شىء سوى الذهاب إلى رب إسرائيل». وبالرغم من أنه كان يعيش فى ترف وبذخ، فإنه قد هجر عيشته تلك وتوجَّه إلى الصحراء قاصداً موسى وربه.

عندما وصل يثرون إلى مخيم بنى إسرائيل لم يستطع دخوله، لأنه كان محاطاً بسحابة لا يستطيع أحد اختراقها.. ولذا فقد كتب خطاباً إلى موسى وثبته فى طرف سهم ثم أطلقه فى اتجاه المخيم.. وكان يقول فى خطابه:

«أستحلفك بولديك وبربك إلا خرجت وقابلتنى واستقبلتنى بمودة. وإن لم تُرد فعل ذلك من أجلى أنا، ولا أردت فعله من أجلها فافعله من أجل ولديك».

وكان يثرون يقصد ابنته صفوره التى أحضرها معه، وكان موسى قد طلقها من قبل وتركها هى وولديها.. ولم تتزوج بعد فراقها لموسى.

فى البداية لم يلتفت موسى إلى الخطاب، لكن الرب قال له: «أنا الذى خلقتُ العالم بكلمة منى.. لا أرد أحداً عاد إلىّ. لقد سمحتُ ليثرون بالاقتراب منى ولم أرده خائباً. عليك إذاً أن تستقبل هذا الرجل الذى يريد أن يأوى تحت جناح الشكينة إن المرء ينبغى عليه أن يطرد بشماله ويومئ بالعودة بيمينه».

هرول موسى لاستقبال يثرون فى لطف ومودة، وخرج مع موسى هارون وناداب وأبيهو وشيوخ إسرائيل السبعون.. وأكرم موسى حماه حتى إنه انحنى له وقبَّله.. وقبل أن يخبر موسى حماه بالمعجزات العظيمة التى أجراها الرب فى مصر، حياه أولاً بتحية السلام.. لأنه حقّاً عظيم ذلك السلام الذى يسبق كل شىء... حتى حمد الرب.

بعدما حيًّا حماه بتحية السلام أخذ موسى يقص عليه المعجزات التى صنعها لهم الرب عند خروجهم من مصر وأثناء عبورهم البحر الأحمر وخلال الحرب مع العماليق.. وكان قصد موسى من ذلك التأثير على حميه وتقريبه من الرب ووحيه.

كما قال له موسى: «كان المن الذى أنزله الرب علينا له طعم الخبز واللحم والسمك.. باختصار، كان له طعم جميع الأطعمة. وفجَّر لنا الرب بئراً أخرجنا منها شراباً له طعم الخمر المعتقة والجديدة، وطعم اللبن وطعم العسل.. باختصار، كان له طعم جميع الأشربة. وسوف نتلقى ست هبات أخرى من الرب: وهى أرض إسرائيل والعالم الآتى والعالم الجديد وملك داود وتعيين الكهنة اللاويين».

عندما سمع يثرون كل ذلك عزم على أن يكون يهوديّاً وأن يؤمن بالإله الوحيد.. وبالرغم من أنه أحس بوخز فى قلبه عندما سمع بهلاك المصريين ـ لأنه لا ينبغى لأحد أن يشمت فى الوثنيين أمام متهوِّد ليست جذوره يهودية لعشرة أجيال فإنه قد ترنم بحمد الرب على ما صنعه من آيات ومعجزات من أجل شعبه.. وفى الحقيقة، فقد كان عاراً على موسى وعلى قومه أنهم لم يترنموا بحمد الرب على إخراجهم من مصر، إلا بعد أن أتى يثرون وفعل ذلك أولاً.

وقال يثرون مترنما: «الحمد للرب الذى نجَّى موسى وهارون وشعب إسرائيل كله، من عبودية فرعون ذلك التنين العظيم، ومن المصريين. بل

عظيم هو الرب وأعظم من كل الآلهة.. لأنه لم ينجِّ عبد من قبلُ من عبودية المصريين، ولكنه نجَّى ستمئة ألف من عبوديتهم. إننى لم أترك إلهاً لم أعبده فى حياتى.. ولكننى أعترف الآن أنه ليس إله مثل إله بنى إسرائيل. ولم أكن جاهلاً بهذا الإله من قبل، ولكننى الآن أعرفه بشكل أفضل، لأن اسمه سيتردد فى جميع العالم لأنه أنزل بالمصريين ما أرادوا ببنى إسرائيل.. فقد أرادوا إغراق بنى إسرائيل فى المياه، فغرقوا هم فى هذه المياه».

تم الاحتفال بقدوم يثرون بتقديم القرابين وإقامة الولائم.. لأنه بعدما أحرق القرابين على مقربة من الحرشة المشتعلة التى لم تهلكها النار، أعد يثرون وليمة كبيرة للشعب كله، شارك فيها موسى فى تقديم الواجب للضيوف بنفسه. وقد اقتدى فى ذلك بإبراهيم الذى أكرم ضيوفه، الملائكة الثلاثة، بنفسه، بالرغم من أنهم كانوا متنكرين فى هيئة عرب[*] وثنيين.

ومثلما فعل موسى، كان إبراهيم يريد السير على طريق الرب بأن يوفر لكل شخص ما يحتاجه، ويزوِّد كل إنسان بما ينقصه.. سواء كان هذا الإنسان مستقيماً أم وثنياً يستحق غضب الرب عليه بمعاصيه.

جلس الشعب فى هذه الوليمة، مرتبين كلٌّ حسب سبطه. وأكلوا وشربوا فى مرح واستمتاع، بينما أنشدها هارون ويثرون وأقاربهما أناشيد شكر للرب، وحمدوه خالقاً لهم وواهباً لهم حيواتهم وحرياتهم. وفى نفس الوقت وجهوا شكرهم العميق لموسى، الذى نالهم ما نالهم من الخير بفضل شجاعته. وفى شكره لموسى، أطنب يثرون كذلك فى مديح شعب إسرائيل، ولكنه اختص موسى بالثناء العظيم الذى أبدى شجاعة لا نظير لها فى تخليص أصدقائه.

---

(١) انتبه لذلك جيداً عزيزى القارئ.. إن كاتب التلمود يقول إن الملائكة ذهبت لزيارة إبراهيم متنكرين فى ثياب «عرب».. وماذا يعنى إذاً؟ بكل تأكيد يعني أن إبراهيم عليه السلام كان يعيش وسط العرب وأن «بيت إيل» الذى بناه إبراهيم هو الكعبة. (المترجم).

الفصل الثانى

فى قلب الصحراء

تعيين الشيوخ

أقام يثرون مع زوج ابنته لأكثر من عام، وكان قد وفد على موسى وقومه قبل نزول الوحى على جبل سيناء بفترة قصيرة. ومع ذلك فإن الفرصة لم تسنح له لمشاهدة موسى وهو يقوم بهمة القاضى بين أبناء شعبه، لأن موسى قضى الفترة من يوم الوحى إلى اليوم العاشر من شهر تشرى فى السماء. لهذا لم يتمكن يثرون من حضور أى جلسة قضاء لموسى، قبل اليوم الحادى عشر من تشرى، وهو أول يوم عاد فيه موسى من السماء.

الآن بعد عودة موسى، رآه يثرون وهو يجلس كالملك على عرشه بينما يتحلق حوله أفراد الشعب الذين جاءوا إليه ليفصل بينهم فيما يتنازعون فيه. وقد أزعج ذلك يثرون كثيراً حتى إنه قال لموسى: «لماذا تجلس هكذا وحدك تفصل بين الناس من الصباح حتى المساء!؟».

أجابه موسى: «لأن الناس تأتينى لتسألنى عن الرب. وهم لا يأتون إلىّ تكريماً لى وإنما تمجيداً للرب، إذ يريدون معرفة أحكامه.. فعندما يريدون معرفة إن كان نوع من اللحوم طاهراً أم نجساً.. أو عندما تثور بينهم منازعة، فإنهم يأتون إلىَّ لأقضى بينهم... وعندما يخرج المتنازعون من عندى، يخرجون أصدقاء وقد زالت العداوة من بينهم. كما أننى أفسر للشعب كلمات الرب وأحكامه».

فى اليوم الذى عاد فيه موسى للجلوس على كرسى القضاء، وسنحت الفرصة ليثرون لمشاهدته، جاءه ذلك الحشد المختلط من الناس يطلبون حصتهم من أسلاب المصريين، مثلهم مثل الإسرائيليين. وتعجب يثرون من طريقة موسى فى القضاء ورأى أنها مبهمة وغامضة، ولهذا قال له: «ليس حسناً ما تفعله.. لن تقدر على الاستمرار فى القضاء بين الناس، إذا واصلت العمل بهذه الطريقة.. لكن إن أنصت لكلامى ورضى الرب عما سأقوله لك، سترتاح كثيراً».

وصمت يثرون قليلاً ثم واصل كلامه قائلاً: «إن رأيى هو أن تقوم أنت بتوصيل وحى الرب إلى الناس بمجرد أن تتلقاه، لكى يفهموا أحكام التوراة وتعاليمها. كما يجب عليك أن تعلمهم كيف يؤدون صلواتهم فى الكنيس، وكيف يعالجون مرضاهم وكيف يدفنون موتاهم وكيف يتعاملون بعضهم مع بعض بالود والصداقة، وكيف يتعاملون بالعدل بعضهم مع بعض... وكيف يفضلون الرحمة على صرامة العدل، فى بعض الحالات. أما عن القضاء بين الناس والفصل فى منازعاتهم، فعليك، وأنت النبى الذى يوحى إليه الرب، أن تختار رجالاً يتسمون بالحكمة والخوف من الرب والتواضع وكراهية النظر لما فى يد الغير، وحب الحقيقة والبشر، وتكون سمعتهم بين الناس حسنة... وتوكل إلى هؤلاء الرجال مهمة الحكم بين الناس ودراسة التوراة. فإذا رضى الرب بما أقول، سترتاح أنت وهارون وأبناؤه والشيوخ السبعون وجميع الشعب».

لقيت هذه النصيحة استحساناً كبيراً من موسى الذى كان يعلم جيداً حجم الصعوبات والمشاكل التى كان عليه أن يواجهها إذ كان الشعب مولعاً بالنزاع وإثارة المشاكل وكل منهم على استعداد لإنفاق سبعين قطعة من الفضة على الدعاوى القضائية ليكسب قطعة واحدة من الفضة!! كما كانوا على أتم استعداد لإطالة أمد نزاعاتهم إلى أطول وقت ممكن. حتى إن

أحدهم ذات مرة، لما أوشك موسى أن يصدر الحكم ضده، طلب منه أن يؤجل القضية بحجة أن لديه شهوداً وبراهين لصالحه وسوف يحضرها فى المرة القادمة.

ولم يكن الشعب محبّاً للنزاع والخصام وحسب، وإنما كانوا كذلك سليطى الألسنة وسريعى الغضب من موسى والانفعال عليه. فلو صرف موسى الجلسة مبكراً يقولون: «انظروا إلى ابن عمرام هذا!! إنه يؤجل القضية ليمشى بيننا ليظهر لنا مكانته وتحكّمه فى أمورنا!!» وإن اختار طريقاً غير الذى يمشى فيه الناس، قالوا: «انظروا إلى ابن عمرام هذا الذى يتكبَّر علينا!!» وعند ذلك يقول لهم موسى فى نفاد صبر: «إن فعلت هذا لا ترضون.. وإن فعلت ذلك لا ترضون!! لن أستطيع تحملكم بعد الآن بمفردى!!» إن ربكم الباقى قد كثّركم فأصبحتم اليوم فى مثل عدد نجوم السماء. وقد كثَّر الرب، إله آبائكم، أعدادكم وباركَكم كما وعدكم.. فأنَّى لى أن أحمل حملكم كله بمفردى!!».

لكن بنى إسرائيل لم يرضوا بكلام موسى هذا، وقالوا له: «يا موسى.. يا معلمنا..! لا نريد بركتك، فقد مُنِحنَا بركات أعظم منها بكثير. لقد قال الرب لأبينا إبراهيم: «سأباركك وأكثر ذريتك حتى يصيروا مثل نجوم السماء ورمل البحر، عدداً». فكيف لنا أن ننتفع ببركتك المحدودة هذه!!».

عندئذٍ صرخ فيهم موسى قائلاً: «ما أنا إلا بشر من لحم ودم وقدراتى محدودة، ومن ثَم فبركتى محدودة!! لقد منحتكم بركتى، وتبقى بركة الرب لكم محفوظة، وسوف يبارككم بلا حدود ويكثِّر أعدادكم فتصيرون مثل سمك البحر ورمل الشاطئ وكنجوم السماء ونباتات الأرض».

وبعدما منحهم موسى بركته طلب منهم أن يقدموا له من بينهم رجالاً أتقياء أقوياء ليجعلهم قضاة وزعماء لهم. وقال لهم موسى: «لو تُرِكَ لى اختيار من أريد من بين من يتقدمون للترشيح لهذه المناصب الرفيعة، فلن

أستطيع الحكم عليهم وحدى.. فلا أعلم من هم ولا من أى سبطٍ يكونون. لكنكم أنتم تعرفونهم جيداً ولذا فالأفضل أن تقترحوا أنتم علىَّ من يَصلُح منهم. لكن لا تظنون أننى ملزم باختياراتكم، لأن الأمر موكول إلىَّ أنا وحدى بالأساس، وأنا الذى أحدد فى النهاية إن كانوا يصلحون أم لا».

تلهف الشعب على تنفيذ خطة موسى هذه وطلبوا منه تقرير الأمور بأسرع ما يمكن. لكن تسرعهم ذلك ولهفتهم هذه كانت وراءها مصالحهم الشخصية، إذ قال كل واحد منهم: «سيعين موسى الآن ثمانين ألف موظف رسمى تقريباً. فإن لم أكن أنا من بينهم، فسيكون ابنى بلا شك منهم.. فإن لم يكن ابنى فحفيدى إذاً.. ومع هدية أهديها له سيمكن أن يكون لى قاضٍ من أهلى يحكم لى ويرعى مصالحى أمام القضاء».

وبالطبع لم ينخدع موسى فى سبب تلهفهم على سرعة تنفيذ خطته، لكنه لم يصغِ لهم واختار هو بنفسه أفضل الرجال من بين أفراد الشعب، وإن كان هؤلاء المختارون لا يتحلون بجميع السمات الطيبة التى رأى يثرون أنها ضرورية فيمن يشغل منصب القاضى أو يقود الناس.

وجمع موسى هؤلاء المختارين وقال لهم: «بوركتم أيها القضاة الجديرون بقيادة أبناء إبراهيم وإسحاق ويعقوب... يا من تنتمون لشعب قال عنه الرب أنهم أصدقاؤه وإخوته وقطيعه وغيرها من تسميات المحبة».

كما شدد عليهم التحلى بالصبر وطول الأناة وعدم الاستسلام للغضب إذا قدمت لهم دعوى قضائية مرةً ثانية. وقال لهم: «قبل الآن كنتم تخصون أنفسكم.. لكن من الآن فصاعداً، أصبحتم ملكاً للشعب؛ لأنكم ستقضون بين الرجل وأخيه أو جاره. وإذا أردتم تعيين قاضٍ جديد فلا تنظروا إلى الشخص ولكن انظروا إلى أخلاقه.. لا تقولوا لأنفسكم: «سنعين فلاناً أو علاناً لأنه رجل وسيم أو لأنه رجل قوى. أو لأنه قريبى أو صهرى، أو لأنه متمكن باللغات». إن قضاة كهؤلاء سيجرمون البرئ ويبرئون المجرم، وإن لم

يفعلوا ذلك بسوء طوية، فسيفعلونه جهلاً.. وسوف يحاسبكم الرب على أحكام هؤلاء القضاة، لأنه عادل ولأنكم أنتم الذين فضلتموهم مراعاة للجاه وللحسب. وإن أتاكم رجل غنى وآخر فقير فى نزاع فلا يقولن أحدكم لنفسه: «ولِمَ أزعج هذا الشريف بسبب مسألة تافهة كهذه؟ لا.. سأحكم لصالحه ثم أنصحه خارج المحكمة بأن يعطى الفقير حقه». وإن كان الفقير على خطأ فلا يقولن أحدكم لنفسه: «إن الرجل الغنى ملزم بمساعدة الفقير على أية حال.. لذا سأحكم لصالح الفقير ليأخذ الآن بالقضاء ما قد يتسوله من الغنى غداً».. ولا تقولوا: «نخاف النطق بالحكم لكيلا يقتل المحكوم ضده ابنى أو يحرق جرنى أو يهلك حرثى» لأن الرب هو الذى يفصل بين الناس ولا يحق عنده إلا الحق».

وبعد أن فرغ موسى من توجيههم ونصحهم على هذا النحو، أخذ يعلم القضاة الجدد الإجراءات القضائية، فى القضايا المدنية والجنائية.. كما حض الناس على توقير القاضى واحترامه الاحترام الذى يستحقه. لأن العدل شديد الأهمية ومن يكرهه لا علاج له.. والقاضى الذى يحكم بالإنصاف ويراعى ضميره هو الصانع الحقيقى للسلام والسبب الحقيقى لرفاهية إسرائيل، بل وللأمم كلها ولجميع الكائنات الحية.



مكافأة يثرون

بالرغم من أن ما قام به موسى من تعيين الشيوخ لم يكن إلا طاعة لأمر الرب، فإنه إنما اعتمد فى ذلك على نصيحة يثرون الذى نصحه بأن يدعو الرب لكى يخفف عنه حمله ـ فيأذن له فى نقل بعضه إلى آخرين. ولهذا لم يُخْفِ موسى اسم الناصح الأمين الذى نصحه بذلك، ولكنه أعلنه على الشعب كله وخلَّد اسمه ناصحاً له، فى الوحى المكتوب... لأن موسى رأى أن من الفضل أن ينسب الفضل لأهله.

ومع ذلك فقد كان من تدبير الرب أن يثيب يثرون على الحب الذى كان يكنه للتوراة، ولهذا فقد شاء الرب أن يقبل موسى نصيحة يثرون بتعيين الشيوخ والقضاة، لكى يخصص الكتاب المقدس إصحاحاً كاملاً لمشورة يثرون الحكيمة.

ولم تكن تلك هى المكافأة الوحيدة التى نالها يثرون على تقواه وحبه للتوراة والذى فاق فيه جميع المتهودين. فقد وقعت معجزة عظيمة فى يوم وصوله إلى المخيم، إكراماً له.. إذ نزل المن من السماء فى ساعة الظهيرة عند وصوله، ونزل بكميات كبيرة تكفى الشعب كله. ولم يحتجْ يثرون إلى بذل أى مجهود لجمع المن، إذ كان يتساقط فوق جسمه فكان يمد يده إلى فيه ليأكل.

مع ذلك لم يبق يثرون مع موسى وإنما عاد إلى بلده وقومه. وقد حاول موسى بالطبع إقناع حميه بالبقاء قائلاً: «لا تظننَّ أننا سنظل نسير ببطء هكذا فى الصحراء.. لا.. سنسير الآن مباشرة إلى الأرض الموعودة».

وقد استخدم موسى كلمة «سنسير» لكى يقنع حميه بالبقاء معه لفترة أطول، موهماً إياه بأنه ـ موسى ـ سيدخل الأرض الموعودة معه، ليستحثه على البقاء، ولولا ذلك لما وافق يثرون على الذهاب معه إلى فلسطين.

وواصل موسى كلامه قائلاً: «لا أريد أن أخدعك.. إن الأرض الموعودة لن تقسم إلا بين الأسباط الاثنى عشر، فهكذا أمرنا الرب. لكنه أمرنا كذلك بأن نحسن معاملة المتهودين، وسوف نعاملك أنت أحسن مما نعامل غيرك».

لكن كل ذلك لم يُثْنِ عزم يثرون على الرجوع إلى وطنه، لأن أهل مدينته اعتادوا تخزين نفائسهم لديه، لما وجدوا فيه من أمانة لم تتحقق فى غيره. وإن بقى مع موسى لأطول من ذلك، سيقول الناس أنه قد خان الأمانة واستولى على ودائعهم وهرب بها إلى موسى ليشاركه فيما سرق، فتتلوث سمعة كليهما. كما أن يثرون كان مديناً بديون كثيرة.. إذ لما ضرب الرب مصر بالبرد أصابت مدينة يثرون مجاعة شديدة فوجد نفسه مضطراً إلى الاستدانة للإنفاق على فقراء قومه. وإذا لم يرجع إلى وطنه الآن، فسيقول الناس أنه هرب من ديونه، وهو ما لا يليق بمن يدَّعى التقوى والورع.

لذا قال يثرون لموسى: «هناك أناس لهم وطن لكنهم لا يمتلكون شيئاً فيه؛ ويوجد أناس لهم أملاك لكن ليس لهم وطن.. أما أنا فلى وطن ولى فيه أملاك وأهل وأسرة. لهذا فإننى أريد العودة إلى وطنى وأهلى وأملاكى».

لكن موسى لم يقتنع بذلك وقال لحميه: «إن لم تأتِ معنا طواعية، فسآمرك بأن تأتى معنا غصباً.. لكيلا يقول بنو إسرائيل أنك قد تهودت طامعاً فى حصة من الأرض الموعودة فلما علمت أنك لن تنال منها شيئاً رجعت عن رأيك. وسيقول الوثنيون كذلك عنا أننا لا نقبل الداخلين فى ديننا، إذ لم نقبل حتى أقرب الناس إلينا، وهو أنت حموى وجد ولدىّ. كما أن رفضك المجئ معنا مسبة لمجد الرب، إذ سيرفض الوثنيون الدخول فى

الإيمان الحقيقى. لكن إن سرت معنا فإننى أؤكد لك أن ذريتك ستشاركنا فى الهيكل وفى التوراة وفى الثواب الذى سيناله المتقون فى المستقبل. ثم كيف يتأتى لك، وأنت الذى رأيت بعينيك كل المعجزات التى صنعها الرب لنا وأن تسير معنا فى الصحراء.. وكنت شاهد عيان كيف أحبنا المصريون ألد أعدائنا... كيف يتأتى لك أن تفارقنا؟ أما يكفيك أن تصبح عضواً فى السنهدرين وأن تقوم بتعليم التوراة... أما يكفيك ذلك دافعاً لك لترافقنا؟ إنا لنريد منك أن تبقى معنا لنستفيد من حكمتك وثاقب بصيرتك فيما يشق علينا حله ويستعصى فهمه من أمورنا.. فأنت الذى أشرت علينا بمشورة رَضِيَ الرب عنها وأقرها..؟».

لكن يثيرون أجابه قائلاً: «إن الشمعة لا يظهر نورها إلا فى الظلام.. أما فى وجود الشمس والقمر فلا. فما فائدة شمعتى إذاً، إذا كانت شمسك ساطعة فيهم؟ لهذا فمن الأفضل لى أن أعود إلى وطنى وإلى بنى قومى فلعلى أفلح فى إدخالهم فى دينك وأعلمهم التوراة وأجعلهم ينضوون تحت جناح الشكينة؟».

وهكذا عاد يثرون إلى وطنه بعدما نال التكريم اللائق... وعاد إليهم محملاً بالهدايا الثمينة، وعمل بدأب وجهد بينهم حتى تحولوا إلى الإيمان الحق وساروا فى طريق الرب.

وفيما بَعْدُ استوطنت ذرية يثرون فلسطين حيث تم تخصيص أراضى أريحا الخصبة سكناً لهم. وبعد استيلاء بنى إسرائيل على فلسطين، اتفقت القبائل فيما بينها على تخصيص الشريط الخصب من الأراضى فى أريحا ليكون من نصيب القبيلة التى سيتم بناء الهيكل فى الأرض المخصصة لها. لكن عندما تأجل بناء الهيكل لزمن طويل، وافقوا على تخصيص هذه الأرض لأبناء يثرون لأنهم، كمتهودين، لم يكن لهم أملاك أخرى فى الأرض المقدسة. وظلت ذرية يثرون تقيم فى أريحا طوال أربعمئة وثمانين سنة، ثم

عندما تم بناء الهيكل تنازلوا عنها لسبط يهوذا الذين خصصوها لتوسعة الهيكل وضمان حدوده.

ورثت ذرية يثرون عنه الإخلاص للتوراة، وكرسوا حياتهم لدراستها، مثله. وطوال بقاء يوشع على قيد الحياة كانوا يجلسون عند قدمى هذا المعلم العظيم، لكن عندما مات قالوا: «إننا لم نفارق وطننا ونأتى إلى هنا إلا لدراسة التوراة، فإن أنهكنا عمرنا الآن فى زراعة الأرض وفلاحة التربة، فمتى إذاً سنجلس لدراسة التوراة؟» لهذا غادروا مكان إقامتهم وتوجهوا إلى البرية الباردة المجدبة، إلى Jaber الذى كان له بيت يقوم فيه هناك بتعليم الناس التوراة؛ لكن لما وصلوا إليه إليه وشاهدوا عنده الكهنة واللاويين ونبلاء اليهود، قالوا: «كيف لنا، نحن المتهودين، أن نجلس كتفاً بكتف هؤلاء الصفوة؟» لهذا فبدلاً من دخول بيت العلم، ظلوا واقفين ببابه حيث كانوا يستمعون إلى الدروس فتقدموا بهذه الطريقة كثيراً فى تُعلّم التوراة. وقد كوفئوا على تقواهم، فاستجاب الرب لدعائهم وحمى بنى إسرائيل بفضل صنائعهم الجيدة؛ وبسبب أفعالهم الخيِّرة أطلقت عليهم أسماء: «عائلات الكتبة» و«الشُرَّاح» والقَرائين والسوفريم، وكلها أسماء تدل على تقواهم وإخلاصهم للتوراة.

كان من ذرية يثرون، يوناداب، بن ركاب.. ولما سمع من أحد الأنبياء أن الرب سيدمر الهيكل، أمر أبناءه بألا يشربوا الخمر ولا يتمسحوا بالزيت ولا يحلقوا رؤوسهم ولا يقيموا فى المنازل. وفعل أبناؤهم ما أمرهم به فكافأهم الرب على ذلك بأن أقام معهم عهداً بأن يكون أحفادهم دائماً أعضاء فى السنهدرين ومعلمين لبنى إسرائيل. وكان ذلك العهد مع الركابيين أقوى من العهد مع داود الذى وعد الرب بيته بأنه لن يحفظ عهده معه إلا إذا كانت ذريته أتقياء.. بينما أقام مع الركابيين عهداً غير مشروط. وقد كافأهم الرب على إخلاصهم له بهذه الطريقة، بالرغم من أنهم لم يكونوا من الأمة اليهودية. ويستطيع المرء أن يستنتج من ذلك أن مكافأتهم كانت ستصبح أعظم لو كانوا من بنى إسرائيل.

الـوقت حـان

أرسل موسى حماه يثرون إلى وطنه، قبل نزول الوحى على جبل سيناء بقليل. وفكر موسى قائلاً فى نفسه: «عندما أمرنا الرب وصية واحدة من وصايا التوراة ونحن فى مصر، وهى صنع فطير الفصح، قال لنا: «لا يأكلن منها غريب» لهذا لا ينبغى أن يظل يثرون معنا ليشاهدنا ويتحسر والرب يعطينا التوراة كلها».

وكان موسى على حق.. فالرب لم يُرِدْ ليثرون أن يكون حاضراً عند نزول الوحى، إذ قال: «لقد كان بنو إسرائيل فى مصر يعانون من الاستعباد والقهر، بينما كان يثرون ينعم بالأمن والسكينة فى وطنه وبين أهله. إن من يشارك الناس أتراحهم لابد أن يشاركهم أفراحهم فى المستقبل، لكن من ينأى بنفسه عن الناس ويعيش دون أن يتألم معهم ويفرح معهم، لا يستحق أن يشاركهم أفراحهم».

ولم تكن فقط هناك أسباب وجيهة جعلت الرب يؤجل تنزيل التوراة إلى حين مغادرة يثرون، وإنما أيضاً لأنه كان قد اختار لتنزيلها وقتاً محدداً مناسباً لسبب وجيه، فكما تعيش المتهودة، أو الأمة التى تم عتقها ثلاثة أشهر كيهودية حرة أو أمة آبقة، قبل أن تتزوج أو تصبح حرة، فإن الرب قد انتظر ثلاثة أشهر بعد تحرر بنى إسرائيل من عبودية المصريين قبل أن يتحد معهم على جبل سيناء.

كما عامل الرب عروسه (= بنى إسرائيل!!) مثل الملك الذى لم يدخل على عروسه إلا بعدما عاد ظافراً منتصراً من الحرب وحاملاً معه الهدايا الكثيرة الغالية، لهذا فقد منح بنى إسرائيل المن فى البداية، ثم تلاه بالبئر وبالسلوى، ولم يمنحهم التوراة حتى ذلك الحين - وكان موسى - الذى وعده الرب فى أول لقاء معه بأنه سيعبده على هذا الجبل بعدما يخرج الشعب من مصر - ينتظر فى اشتياق مجىء ذلك الوقت الموعود قائلاً: «متى يحين هذا الوقت؟».. فلما اقترب الأجل، قال له الرب: «لقد قرب الوقت وعندما يحين سأفعل شيئاً جديداً تماماً».

وكانت هذه المعجزة الجديدة التى تكلم الرب عنها هى إشفاء مرضى اليهود. وكان الرب يريد إعطاء التوراة لليهود بعد خروجهم مباشرة من مصر لكن كان من بينهم الكثير من العرج والبكم والصم.. لهذا قال الرب: «إن التوراة سليمة بلا عيوب، لذا فلن أهبها لشعب به أناس مثقلون بهذه العيوب.. ولا أريد كذلك أن أنتظر حتى يكبر أبناؤهم ويبلغوا مبلغ الرجال، لأننى ما عدت أطيق الانتظار حتى أفرح بتنزيل التوراة».

لهذه الأسباب لم يجد الرب بدّاً من إشفاء المرضى بهذه الأمراض. وفى المدة التى انقضت بين خروج بنى إسرائيل من مصر ونزول الوحى على جبل سيناء، استرد جميع العمى أبصارهم، وعاد للبكم صوتهم، وسمع الصم كأنهم بلا صمم، حتى يمكن أن توهب التوراة لشعب سليم وصحيح. وقد أجرى الرب لهذا الجيل من الشعب نفس المعجزة التى سيجريها فى العالم الآتى، «عندما تنفتح أعين العمى، ويعود الصم يسمعون والعرج يمشون والبكم يغنون».

ولم يتحرر هذا الجيل من العيوب البدنية فقط، ولكنهم كانوا على مستوى روحى عالٍ، وقد كانت تلك الخصال الحميدة الراقية لهذا الجيل، هى التى جعلتهم يستحقون هذا الشرف العظيم.. فلم يعش من قَبْلُ، ولن

يعيش من بَعْدُ، جيل يستحق مثل هذا الجيل نزول التوراة عليهم. ولو كان فيهم عيبٌ واحد، لما كان الرب قد وهبهم التوراة.. «لأنه يؤتِ الحكمة للصالحين، ويثبت أقدام الأتقياء على طريق الحق..».

وأخَّر الرب تنزيل التوراة لسبب آخر كذلك.. فقد كان ينوى منحهم التوراة بعد خروجهم من مصر مباشرة، لكن عندما بدأوا يسيرون فى الصحراء نشب بينهم خلاف عظيم ولم يَسُدْ الوفاق بينهم مرة أخرى إلا بعد ظهور هلال الشهر الثالث عندما وصلوا إلى جبل سيناء حيث قال الرب: «إن سبل التوراة هى سبل المحبة، وكل طرقها طرق السلام.. لن أمنح التوراة إلا الشعب يعيش فى سلام ووئام».

إن قرار الرب بأن يمنحهم التوراة الآن إنما يُظهر عِظَم أثر التوبة. فقد كانوا عصاة خاطئين عند وصولهم إلى جبل سيناء، وواصلوا استفزاز الرب والارتياب فى قدرته البالغة. لكن بعد فترة تغيرت أنفسهم، وما كاد حالهم ينصلح إلا ووجدهم الرب مستحقين لتنزيل التوراة عليهم.

اختير الشهر الثالث لتنزيل التوراة لأن كل شىء وثيق الارتباط بالتوراة وببنى إسرائيل مثلث. فالتوراة تتكون من ثلاثة أجزاء هى «الأسفار الخمسة» و«الأنبياء» و«الأمثال والحكمة».. وبالمثل تتكون الشريعة الشفوية من المدراش والهالاكاه والهاجَّاداه. كما تم الاتصال بين الرب وبين بنى إسرائيل بواسطة ثلاثة هم موسى وهارون وميريام.. كما ينقسم بنو إسرائيل إلى ثلاثة: الكهنة واللاويين والعامة، كما أنهم ذرية الآباء الثلاثة إبراهيم وإسحاق ويعقوب.. كما أن الرب يفضل الثالث.. فالابن الثالث لآدم، وهو شيث، هو الذى أصبح جداً للبشرية.. كما كان الابن الثالث لنوح، وهو سام، هو الذى تولى منصب الكهانة السامية.. كما كان سليمان، الملك الثالث بين ملوك اليهود، هو الذى ميزه الرب عن جميع الملوك الآخرين.

ويلعب العدد ثلاثة دوراً مهمّاً فى حياة موسى.. فهو ينتمى إلى سبط لاوى الذى ليس هو فقط الثالث من بين الأسباط، وإنما يتكون اسمه كذلك من ثلاثة أحرف. كما كان موسى نفسه ثالث إخوته، كما أخفته أمه عن الأعين وهو طفل له من العمر ثلاثة أشهر.. كما أنه تلقى التوراة فى الشهر الثالث من السنة، بعد الاستعداد لذلك لمدة ثلاثة أيام.. وقد تلقى التوراة التى يتكون اسمها من ثلاثة أحرف أيضاً(❖).



(❖) المقصود بالعبرية، إذ تتكون من حروف التاء والراء والهاء. (المترجم)

الأغيار يرفضون التوراة

إن الجبل الذى أنزل الرب عليه التوراة له ستة أسماء: فهو يسمى «صحراء المعصية» لأن الرب أعلن وصاياه هناك.. كما يسمى «صحراء قادش» لأن إسرائيل تقدس هناك. ويسمى «صحراء قدموت» لأن التوراة القديمة، تنزلت عليه.. ويسمى «صحراء فاران» لأن بنى إسرائيل تكاثروا عنده كثيراً جدّاً.. ويسمى «صحراء سيناء» لأن كراهية الرب للوثنيين بدأت عنده لأنهم لم يقبلوا التوراة.. ولهذا السبب نفسه يسمى «حورب» لأن الرب فرض عنده القضاء على الوثنيين. لأن غضب الرب على الوثنيين إنما يعود فى بدايته لرفضهم التوراة التى عرضت عليهم.

قبل أن يعطى الرب بنى إسرائيل التوراة، اقترب من كل قبيلة ومن كل أمة وعرض التوراة عليهم، لكيلا يقولوا فيما بعد «لو كان القدوس، تبارك وتعالى، عرض علينا التوراة لكنا قبلناها». وهكذا ذهب الرب إلى ذرية عيسو وقال لهم: «هل تقبلون التوراة؟» فأجابوه قائلين: «وما المكتوب فيها؟»

فأجابهم الرب: «لا تقتل».

قالوا: «إذا ستحرمنا من البركة التى بورك بها أبونا عيسو، إذ قيل له «بسيفك ستعيش»؟ لا لن نقبل التوراة ولا نريدها».

عند ذلك ذهب الرب إلى ذرية لوط وقال لهم: «هل تقبلون التوراة؟»

فسألوه: «وما المكتوب فيها؟».

أجابهم: «لا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن».

فقالوا: «لقد ولدنا من الفاحشة ونعيش فيها.. لا.. لن نقبل التوراة ولا نريدها؟».

عند ذلك ذهب الرب إلى ذرية إسماعيل وقال لهم: «هل تقبلون التوراة؟»

فسألوه: «وما المكتوب فيها؟»

أجابهم: «لا تسرق».

فقالوا: «إذا ستحرمنا من البركة التى بورك بها أبونا، إذ قيل له: «ويدك تكون على كل رجل»!! لا.. لن نقبل التوراة».

وعند ذلك ذهب الرب إلى جميع الأمم الأخرى وعرض عليهم التوراة لكنهم رفضوها قائلين: «إننا لن نستغنى عن القوانين التى وضعها لنا آباؤنا.. لا، لن نقبل التوراة.. اذهب فأعطها إلى شعبك إسرائيل».

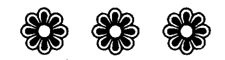
وعند ذلك أتى الرب إلى بنى إسرائيل وقال لهم: «هل تقبلون التوراة؟».

فسألوه: «وما المكتوب فيها؟».

أجابهم: «ستمئة وثلاث عشرة وصية».

فقالوا: «كل ما أمرنا به الرب سنفعله.. يارب العالم، لقد عملنا بأحكام التوراة من قبل أن تنزل علينا، فأبونا يعقوب حض أبناءه على ترك الآلهة الغريبة، مطيعاً بذلك أول الوصايا العشر. وإبراهيم نفذ وصية عدم الحلف باسم الرب عبثاً، إذ قال: «لقد دفعتُ يدى للرب الإله العلىّ».. ونفذ يوسف وصية احترام السبت وتقديسه، إذ لما جاءه إخوته أعد لهم كل شىء لتكريمهم، فى يوم الجمعة.. ونفذ إسحاق وصية إكرام الوالدين عندما سمح لإبراهيم بتقييده على المذبح ليضحى به للرب... ونفذ يهوذا وصية النهى عن القتل عندما قال لإخوته: «ماذا سنستفيد إذا ذبحنا أخانا وسفكنا

دمه؟».. والتزم يوسف بشريعة تجنب الزنا عندما لم يستجب لإغراءات زوجة فوطيفار.. والتزم أبناء يعقوب بوصية النهى عن السرقة، قائلين: «كيف لنا إذاً أن نسرق من بيت سيدك الذهب والفضة؟»[1].. والتزم إبراهيم بشريعة تجنب شهادة الزور لأنه كان شاهد عدل وشهد أمام العالم كله أنك أنت وحدك إله جميع الخلائق... كما كان إبراهيم كذلك هو الذى التزم بآخر الوصايا العشر، «لا تشتهِ ما ليس لك»، قائلاً: «لن آخذ ما ليس لى ولو كان سير حذاء».



(١) المقصود هنا ما حدث أثناء اتهام يوسف؛ لهم بأنهم سرقوا صواع الملك. (المترجم).

نـزاع الجبـال

بينما كانت الأمم والشعوب ترفض التوراة، كانت الجبال تتنازع فيما بينها على أيها ينال شرف تنزيل التوراة عليه. وقال أحدها: «لتنزلن علىّ سكينة الرب، وليكونن هذا المجد من نصيبى».. فقال جبل آخر: «لا.. بل ستنزل علىّ وسيكون هذا الشرف من نصيبى أنا». وقال جبل طابور لجبل حرمون: «ستتنزل السكينة علىّ وسيكون هذا الشرف من نصيبى، لأنه فى القدم عندما أغرق الطوفان الأرض أيام نوح، غطت المياه كل الجبال إلا أنا فأنا أعلى الجبال.. لهذا فأنا أستحق هذا الشرف».

فأجابه جبل حرمون: «لا.. بل سيكون من نصيبى أنا، لأننى أنا المكتوب لى أن أنال هذا الشرف.. لقد عبر بنو إسرائيل البحر الأحمر، ولم تبتل منهم قدم، بمساعدتى فأنا الذى فصلت بين الشَّطين وحجزت بين شطرى الماء.. لهذا فهذا الشرف لى وحدى». وظل جبل الكرمل صامتاً لا يتكلم، ثم مال على شاطئ البحر وفكر فى نفسه قائلاً: «إن كانت الشكينة ستتنزل على البحر فستنزل علىّ، وإن تنزلت على البر فسوف تتنزل علىّ».

عند ذلك هتف هاتف من السموات العُلا قائلاً: «لن تتنزل الشكينة على هذه الجبال السامقة المغرورة التى تتنازع فيما بينها وينظر أحدها إلى الآخر فى احتقار. لا.. بل يفضل الرب أن ينزل شكينته على الجبال المنخفضة، مثل جبل سيناء، لأنه أصغرها وأحقرها. وعليه سوف تستقر الشكينة».

وعند ذلك قالت الجبال الأخرى: «ألهذا الحد أنت غير منصف يارب

ولن تكرمنا أو تكافئنا على نوايانا الطيبة؟» فأجابهم الرب: «لا.. بل سأكافئكم على تنازعكم لنيل شرفى... فعلى جبل طابور سأساعد بنى إسرائيل فى زمن دبورة، وسأنصر إيلياء على جبل الكرمل».

ولم يُمْنَح جبل سيناء هذا الشرف لتواضعه فقط، وإنما كذلك لأنه لم يكن مكاناً لعبادة الأصنام.. بينما كانت الجبال الأخرى، لعلوها وارتفاعها السامق، محلاً لمعابد الأصنام.. كما كان لجبل سيناء أهمية أخرى، إذ كان فى الأصل جزءاً من جبل «المُريَّا» الذى كان إبراهيم سيضحى بابنه «إسحاق» عليه، لكن جبل سيناء انفصل عنه وذهب إلى الصحراء.

عندئذٍ قال الرب: «لأن أباهم إسحاق رقد على هذا الجبل مربوطاً مقيداً على وشك أن يقدم لى قرباناً، فمن اللائق إذاً أن أنزل التوراة لذريته على نفس الجبل». ومن هنا فقد اختار الرب هذا الجبل ليقيم فيه مؤقتاً أثناء تنزيل الوحى، ثم عاد إلى السماء مرة أخرى بعد تنزيل التوراة. وفى العالم الآتى سيعود جبل سيناء إلى مكانه الأصلى فى جبل «المريَّا».. عندما «يتم تأسيس جبل بيت الرب على قمة الجبال، ويرفع على جميع التلال»..

وكما اختير جبل سيناء لتنزيل الوحى بسبب تواضعه، كذلك كان موسى. فعندما قال الرب لموسى: «اذهب وخلص بنى إسرائيل»، قال له موسى فى تواضع: «ومن أنا لأذهب إلى فرعون فأخرج بنى إسرائيل من مصر؟ يوجد من هو أنبل منِّى وأكثر ثراءً». لكن الرب رد عليه قائلاً: «بل أنت رجل عظيم وقد اصطفيتك من بين جميع بنى إسرائيل، وسيقول عنك النبى الذى سيأتى فى المستقبل: «لقد استعنت بشخصٍ قوى، وتباهيت بمن تم اصطفاؤه على الشعب».

لكن موسى من تواضعه، تردد ولم يوافق على قبول المنصب الذى عرض عليه إلى أن قال له الرب: «لماذا تتردد وترفض؟ إن لم تخلِّصهم فلن يفعلها سواك». وبالمثل عندما قام موسى، بأمر من الرب، بتشييد الهيكل، لم يدخله تواضعاً منه إلا بعد أن قال له الرب: لماذا تقف بباب الهيكل؟ إنك لتستحق أن تعبدنى».

التوراة تعرض على بنى إسرائيل

فى اليوم الثانى من الشهر الثالث تلقَّى موسى أمراً من الرب بأن يذهب إلى جبل سيناء، فما كان ليذهب إلى الجبل دون أمر مباشر من الرب. وفى هذه المرة ـ كما فى جميع المرات الأخرى ـ لمَّا أراد الرب أن يتكلم مع موسى ناداه مرتين باسمه فلما أجابه موسى قائلاً: «هاأنذا يارب». أنزل عليه الوحى. ولما حُمِلَ موسى إلى الرب فى سحابة ـ كانت دائماً جاهزة لحمله إلى الرب وإعادته مرة أخرى إلى البشر ـ قال له الرب: «اذهب فعلِّم نساء إسرائيل مبادئ اليهودية وحاول إقناعهم فى لطف بقبول التوراة؛ أما الرجال منهم، فاشرح لهم جميع محتويات التوراة وكلمهم عنها بكلام مهيب».

وكانت هناك أسباب عديدة لذهاب موسى إلى النساء أولاً.. فقال قال الرب: «عندما خلقتُ العالم، نهيتُ آدم وحده عن أكل الثمرة المحرمة، ولم أنهِ حواء، وكان ذلك سهواً منِّى[1]، كان من أثره أن أغوت حواءُ آدم. لهذا فمن الأفضل أن تسمع النساء أولاً لوصاياى، ثم بعد ذلك يسمعها الرجال». كما كان الرب يعلم أن النساء أكثر ارتياباً فى التعاليم الدينية، لهذا فقد خاطبهن أولاً. كما توقع الرب من النساء أن يقمن بتعليم أطفالهن سبل التوراة، لهذا كان يرسل رسله إليهن أولاً.

توجه موسى إلى الشعب وخاطب النساء والرجال، وأعضاء السنهدرين والعامة، خاطبهم جميعاً على لسان الرب قائلاً: «لقد رأيتم بأعينكم ما

(١) وهل الرب يسهو مثل البشر أستغفر الله؟؟

فعلته من أجلكم فى مصر.. رأيتم بأعينكم ولم تقرؤوه فى كتاب ولا سمعتموه من شفاه أحد.. بل شاهدتم بأعينكم كيف أهلكت المصريين من أجلكم... إذ على الرغم من أنهم كانوا كفاراً يعبدون الأوثان وسفاكى دماء ويعيشون عيشة الفاحشة، فلم أعاقبهم بما عاقبتهم به، جزاءً لهم على خطاياهم هذه، وإنما لما ساموكم إياه من سوء عذاب وظلم وقهر. أما أنتم فسأحملكم على أجنحة النسور فى يوم الوحى على جبل سيناء، وإياكم سأحضر إلى ملئى عندما يتم تشييد الهيكل. وحيث إننى قد أجريت من أجلكم الكثير من المعجزات ولمَّا تتلقون التوراة بَعْدُ وتراعون الشريعة.. فكم من معجزة إذاً سأجريها لكم عندما تنزل عليكم التوراة وتلتزمون بالشرائع!! إن كل شىء فى بدايته صعب، لكن عندما تتعودون على الطاعة، سيهون عليكم كل شىء. فإذا حافظتم الآن على عهد إبراهيم وحافظتم على حرمة السبت واجتنبتم عبادة الأصنام، فستكونون ملكى وخاصّتى.. أجل.. فمع أن كل شىء ملكى ولى وحدى، فإن إسرائيل سيكون ملكى الخاص، لأننى أنا الذى أخرجتهم من مصر وحررتهم من الذل والعبودية. فحال الرب مع بنى إسرائيل مثل حال ذلك الرجل الذى ورث حقولاً وأراضى كثيرة، فكانت كلها عنده سواء إلا التى اشتراها بكده وعرقه فكانت أعزها وأقربها إلى قلبه. لذا سأحكم فوقكم وحدى ملكاً خاصّاً لى.. أنا وحدى ولا أحد غيرى مالككم، طالما اجتنبتم بقية الناس. فإن لم تفعلوا حكَّمتُ فيكم الآخرين. وإن أطعتمونى ستكونوا أمة ليست فقط خالية البال مرتاحته، ولكن سأجعلكم أمة من الكهنة وأمة مقدسة».

ولو لم يكن بنو إسرائيل قد سقطوا فى المعصية بعبادة «العجل الذهبى»، لما كان من بينهم «بعض» الكهنة، وإنما كانت الأمة كلها كهنة، ولم يفقد السواد الأعظم من هذه الأمة الحق فى الكهانة إلا بعد الوقوع فى هذه المعصية...

بعد ذلك أمر الرب موسى بأن ينقل للشعب كلامه دون زيادة أو نقصان، وبنفس الترتيب ونفس اللغة، العبرية. فاتجه موسى على الفور إلى الشعب ليبلغهم رسالة ربه، ولم يذهب إلى أهله أولاً. وفى البداية بلّغ كلام الرب إلى الشيوخ، إذ كان يعلم جيدا أن عليه تكريم الشيوخ وتوقيرهم كما يجب. ثم أعاد الكلام على مسامع الشعب كله. بعبارة رقيقة مرتّبة، بما فى ذلك النساء. وأجابه كل الشعب فى فرح وسرور بأنهم على استعداد تام لقبول التوراة، فعاد موسى إلى الرب ليبلّغه بقرار الشعب. وبالرغم من أن الرب عليم محيط بكل شىء فلا يحتاج لسماع قرار الشعب، فإنه من اللائق بالرسول أن يعود ليبلغ مرسله بالرد الذى تلقاه على رسالته.

وعند ذلك قال الرب لموسى: «سآتى إليك فى غمامة وأعيد عليك الوصايا التى أوصيتك بها على جبل «المريًّا»، لكى يبدو ما تخبر الناس به مهماً مثل ما يسمعونه منى. ولن يكون مفروضاً عليهم فقط الإيمان بك، وإنما كذلك الإيمان بجميع الأنبياء الذين سيأتون بعدك».

بعد ذلك عاد موسى مرةً أخرى إلى الشعب وشرح لهم العواقب الخطيرة التى ستحل بهم لو لم يراعوا الشريعة. وفى المرة الأولى التى كلمهم فيها عن التوراة، شرح لهم مواطن الجمال والحسن بها، لكى يستحثهم على قبولها؛ لكن عندما كلمهم عنها هذه المرة كلمهم عن العقوبات الفظيعة التى ستحل بهم إذا لم يراعوا الشرائع. ومع ذلك لم يتغير موقف الشعب من التوراة وأصروا على قبولها فى فرح وسعادة ـ وكل ما طلبوه من موسى هو أن ينقل للرب رغبتهم فى أن يوحى إليهم مباشرة، لهذا قالوا لموسى: «نريد أن نسمع كلام مَلِكنا (= الله تعالى عما يقولون) منه هو نفسه». ولم يقنعوا بذلك وإنما أرادوا رؤية الحضرة الإلهية لأنه «ليس راءٍ كمن سمع». ووافق الرب على تلبية رغبتيهما وأمر موسى بأن يخبرهم بأن يستعدوا لتلقِّى التوراة خلال اليومين القادمين.

الاستعداد لتلقى الوحى

مثلما أن كل من يدخل فى اليهودية لابد أن يذعن أولاً للشعائر الثلاث: الختان والتعميد والقربان، فإن إسرائيل لم يتلَقَّ التوراة إلا بعد أن أدوا الشعائر الثلاث. وكانوا قد اختتنوا بالفعل وهم فى مصر. أما التعميد فقد فُرض عليهم قبل نزول الوحى على جبل سيناء بيومين. وفى اليوم السابق لنزول الوحى سجَّلَ موسى فى كتاب العهد بين بنى إسرائيل وبين إلههم، ثم فى صباح يوم نزول الوحى تم تقديم القرابين تقويةً للعهد وتوكيداً له.

ولأنه لم يكن هناك كهنة فى ذلك الوقت، قام شيوخ إسرائيل بهذه الشعيرة، وكان هؤلاء الشيوخ قد أدوا هذه الشعيرة بنشاط وهمة على الرغم من كبر سنهم ووهن عظمهم. وشَيّد موسى مذبحاً على جبل سيناء، بالإضافة إلى اثنى عشر عموداً تذكارياً، واحدا لكل قبيلة، ثم أمر القبائل بإحضار الثيران لتقدم كقرابين محروقة وقرابين سلام. بعد ذلك تم تقسيم دماء هذه الذبائح إلى نصفين بالضبط. وقد حضر ذلك ميكائيل الذى أمسك بيد موسى وهو يقسم الدماء على نصفين، لكى لا يزيد نصف عن الآخر ولو بقطرة واحدة. وعند ذلك قال الرب لموسى: «انثر نصف الدماء على الشعب، وانثر النصف الآخر على المذبح، علامة عليهم، فلا أستبدلهم بأمة أخرى»[1]، ففعل موسى ما أمره به الرب، وها هى المعجزة تقع!! إن دماء هذه الحيوانات قليلة العدد قد كفت لنثرها على كل فرد من بنى إسرائيل..!!

(١) فكأن الرب شيخ قبيلة يحتاج لعلامة تذكّره بعبيده من الشعب المختار! أستغفر الله تعالى (المترجم).

وقبل أن يقيم الرب هذا العهد مع بنى إسرائيل، قرأ موسى على الشعب بصوت عالٍ التوراة كلها، لكى يعلموا جيداً ما سيلتزمون به ويلزمون به أنفسهم. ثم أقام موسى هذا العهد مرة أخرى فى صحراء مؤاب، ثم أقامه يشوع مرة ثالثة بعد دخول الأرض الموعودة على جَبَلَىْ جرزيم وعيبال.

وبالرغم من أن الشعب قد أعلن فى صراحة تامة استعداده لتقبُّل التوراة، فإن الرب تردد فى إعطائهم إياها وقال: «كيف لى أن أعطيكم التوراة هكذا بكل بساطة؟! لا.. أحضروا لى رجالاً منكم ضماناً حتى أعطيكم التوراة». فقال له بنو إسرائيل: «يارب العالم..! إن آباءنا رهينة لنا وضامنون». فأجاب لهم: «لا.. إن آباءكم مدينون لى، لذا فلا يصلحون ضماناً لكم.. فإبراهيم قال: «وكيف لى أن أعرف عهدك معى؟» فأثبت أن إيمانه قليل.. وإسحاق كان يحب عيسو الذى أكرهه، أما يعقوب فلم يلتزم بالنذر الذى نذره لى عند عودته من «فدان ـ أرام» مباشرة.. لذا فابحثوا عن غيرهم ضامنين لكم». فأجابه بنو إسرائيل: «فأنبياؤنا إذاً».

فقال الرب: «لا يصلحون، فلى مآخذ عليهم فهم «مثل الثعالب فى الصحراء»!!.

رد بنو إسرائيل: «فأبناؤنا إذاً».

فرد الرب قائلاً: «حسناً.. أبناؤكم ضمان جيد لكم، لذا سأعطيكم التوراة بضمانهم».

وعند ذلك أحضر الرجال زوجاتهم يحملن أطفالهن على صدورهن يرضعون، ونساءهم الحوامل اللائى جعل الرب بطونهن شفافة مثل الزجاج وخاطب الأجنة الذين فى بطون أمهاتهن قائلاً: «اسمعوا.. سأمنح آباءكم التوراة فهل تضمنون لى التزامهم بأحكامها؟».

أجابوه: «أجل».

فقال الرب: «أنا إلهكم».

فقالوا: «أجل».

فقال الرب: «لن تتخذوا آلهة غيرى»..

فقالوا: «لن نفعل».

وهكذا ظلت الأجنة تجيب على كل أمر بكلمة «أجل» وكل نهى قائلين: «لن نفعل».

ولأن الرب لم يمنح بنى إسرائيل التوراة إلا بضمان أطفالهم، فإن كثيرين من أطفال اليهود يموتون عندما يخالف آباؤهم أحكام التوراة(١).



(١) قارن ذلك بما ورد فى تثنية ٢٤: ١٦، «لا يقتل الآباء عن الأولاد ولا يقتل الأولاد عن الآباء. كل إنسان بخطيئته يُقتل» (المترجم).

الوحى على جبل سيناء

من أول يوم فى الشهر الثالث، وهو يوم وصول بنى إسرائيل إلى جبل سيناء، ظللتهم غمامة كثيفة وحُرِّم عليهم صعود الجبل، عدا موسى وحده.. أجل. فلم يجرؤ واحد منهم على الاقتراب منه خشية أن يصعق الرب من يقتربون منه ويضربهم بالبرد أو بسهام من نار.

وأعلن يوم الوحى عن نفسه بأنه يوم حافل بالأحداث العظيمة، حتى منذ صباحه الباكر إذ ترددت فى جنباته الرعود وانطلقت شرارات البرق المخيفة ومعها قصف مخيف للرياح فاضطرب الناس ووقع عليهم رعب عظيم. وطوى الرب السموات وحرَّك الأرض وهز أركان العالم فاضطربت أعماقه وارتعبت السموات. ومر مجده من خلال بوابات النار والزلازل والعواصف والبرد. واضطرب ملوك الأرض فى قصورهم وهرولوا جميعاً إلى «بلعام» الشرير وقالوا له: «لقد وعد الرب حقّاً بألا يضرب الأرض بالطوفان مرة أخرى، لكن ربما يريد الآن إهلاكها بالنار». فرد بلعام قائلاً: «أيها الحمقى... إن الرب لن يهلك الأرض بالنار ولا بالماء. إن هذا الاضطراب الذى نراه فى العالم لم يحدث إلا لأن الرب قد قرر أن يهب شعبه التوراة «فالباقى سيمنح شعبه القوة».

وعند ذلك صاح ملوك الأرض جميعاً قائلين: «فليبارك الباقى شعبه بالسلام». ثم عاد كل منهم إلى وطنه وبيته آمناً مطمئنّاً.

ومثلما اضطرب سكان الأرض وفزعوا عند نزول الوحى، اضطربت الأرض هى الأخرى وفزعت وظنت أن القيامة قد قامت وأن الموتى سيبعثون، وأنها ستسأل عن القتلى الذين امتصت هى دماؤهم، وعن جثثهم التى غطتها هى بترابها. ولم تهدأ الأرض ويذهب عنها الروع إلا بعدما سمعت الكلمات الأولى من الوصايا العشر.

وبالرغم من كل هذه الظواهر الغريبة التى شاهدها الجميع فى الصباح على جبل سيناء، فإن الرب لم يكشف عن نفسه للشعب إلا عند الظهيرة. لأن الشعب كان لا يزال نائماً فى الصباح الباكر، بسبب قصر ليالى الصيف وحلاوة النوم فى الصباح، ولذا فقد وجدهم الرب نائمين عندما نزل على جبل سيناء. وذهب موسى إلى المخيم وأيقظ الناس قائلاً: «استيقظوا أيها الناس.. ها هو العريس قد جاء ليأخذ عروسه ويقف بها تحت كوشة الزفاف». فاستيقظ الناس وقاد موسى الشعب إلى عريسه، الرب، إلى جبل سيناء، وسبقهم هو بنفسه وصعد إلى الجبل.

وقال موسى للرب: «أعلن كلماتك، فهاهم أطفالك قد جاءوا ومستعدين لطاعتك» وقد ترددت كلمات موسى هذه فى جميع الأنحاء وبلغت مسافات بعيدة، إذ كان لصوته وهو يكرر كلمات الرب للشعب، قوة مثل قوة الصوت الإلهى الذى سمعه.

وفى الحقيقة فإن بنى إسرائيل لم يعلنوا استعدادهم لقبول التوراة طواعية ومن تلقاء أنفسهم، إذ لما اقترب الشعب كله من جبل سيناء رفع الرب هذا الجبل فوق رؤوسهم قائلاً: «إن قبلتم التوراة، فبها ونعمت، وإلا فسأدفنكم تحت هذا الجبل». وعند ذلك تفجرت دموعهم وانفطرت قلوبهم وقالوا: «كل ما قاله الرب لنا سنفعل وسنطيع.. سمعاً وطاعة.. سمعاً وطاعة».

وما كادوا ينتهون من كلمات الطاعة هذه إلا ونزل ألف ألفٍ ومئتا ألف من الملائكة فتوجوا كل واحد أو واحدة منهم بتاج ونطاق من المجد الإلهى،

ولم يفقدوه إلا عندما عبدوا العجل الذهبى فأتى الملائكة وأخذوا منهم هذه التيجان. وفى نفس الوقت الذى تُوِّجوا فيه بهذه التيجان، أشرقت وجوههم بنور سماوى وضَّاء، ضاع منهم هو الآخر بعد ذلك بسبب معاصيهم. ولم يحتفظ بأى منهما سوى موسى الذى كان وجهه يشرق ببهاء وضاء إلى درجة أنه لو شُقَّ قبره اليوم فإن النور الذى يشع من بدنه سيكون من القوة أن يُهلك العالم كله.

وبعدما منح الرب هذه التيجان الجميلة لبنى إسرائيل، كان يريد أن يعلن لهم التوراة، لكنه لم يُرِدْ القيام بذلك بينما موسى لا يزال معه.. لكيلا يقول الشعب إن موسى هو الذى تكلم من الغمام. لهذا فقد تذرع الرب بذريعة ليتخلص من وجود موسى معه وقال له: «انزل إلى الشعب وحذرهم ألا يستعجلوا رؤيتى، لأنه لو هلك منهم واحد فكأنى خسرت الخليقة كلها. مُرْ كذلك ناداب وأبيهو والأبكار الذين سيقومون بالكهانة.. مُرْهم جميعاً ألا يستعجلوا رؤيتى».

لكن موسى لم يُردْ مفارقة الرب وقال له: «لقد حذرتهم بالفعل وحددتُ لهم حدوداً حذرتهم من تجاوزها».

فقال الرب لموسى: «فانزل إذاً واطلب من هارون أن يصعد معك، لكن اجعله خلفك بينما يبقى الشعب حيث هم وفى المواضع التى خصصتها لهم».

وما كاد موسى يغادر الجبل إلا وأوحى الرب التوراة للشعب.

وكان ذلك هى المرة السادسة التى ينزل فيها وحى الرب منذ بدء الخليقة. أما المرة العاشرة فستكون فى يوم القيامة.

انفتحت السموات وتحرر جبل سيناء من الأرض فارتفع فى الهواء حتى بلغت قمته عنان السماء بينما غطت جوانبه غمامة كثيفة، ولمست أقدام العرش الإلهى. وظهر بجانب الرب اثنان وعشرون ألف ملك ومعهم تيجان

من أجل اللاويين، إذ هم الوحيدون الذين ثبتوا على إيمانهم بالرب وعبادتهم له بينما عبد بقية الأسباط العجل الذهبى. وظهر على الجانب الآخر للرب ثلاثة آلاف وخمسمئة وخمسون ملكاً، وكل منهم يحمل تاجاً من النار لكل إسرائيلى. وكان على الجانب الثالث ضعف هذا العدد من الملائكة، بينما كان على الجانب الرابع عدد لا يُحصى من الملائكة. لأن الرب لم يظهر من اتجاه واحد، ولكن ظهر من الاتجاهات الأربع كلها فى وقت واحد، ومع ذلك فلم يَحُلْ ذلك دون أن يملأ مجده السموات والأرض. وعلى الرغم من وجود هذا العدد الهائل الذى لا يحصى من الملائكة، فلم يكن هناك ازدحام على جبل سيناء وكان المكان فسيحاً واسعاً يكفى جميع الملائكة الذين ظهروا تكريماً لإسرائيل وللتوراة. ومع ذلك فإن الرب كان قد أمرهم فى الوقت نفسه بالاستعداد لإهلاك بنى إسرائيل إن رفضوا التوراة.



الوصية الأولى

كانت كلمة الرب الأولى على جبل سيناء هى آنوخِى، أى «إننى أنا هو أنا».. ولم تكن هذه الكلمة كلمة عبرية، ولكن مصرية سمعها بنو إسرائيل لأول مرة من الرب. وقد قال لهم الرب تلك الكلمة، مثلما فعل الملك الذى استقبل ابنه الذى رجع إليه بعد غربة طويلة فخاطبه الملك بلغة البلد الغريب الذى أقام به مدة طويلة.

لهذا كلم الرب إسرائيل بهذه الكلمة المصرية، لأنها من اللغة التى يتحدثون بها. وفى الوقت نفسه فإن بنى إسرائيل قد علموا من هذه الكلمة أن الرب هو الذى يخاطبهم.. لأن يعقوب عندما جمع بنيه حوله وهو على فراش الموت وأوصاهم بأن يراعوا مجد الرب وأباح لهم بالأسرار التى سيكشفها لهم الرب فيما بعد باستخدام كلمة آنوخى.. وقال لهم يعقوب: «لقد خاطب جدى إبراهيم بالكلمة آنوخى؛ وبها خاطب أبى إسحاق، وبها خاطبنى أنا أيضاً. فاعلموا إذاً يا أبنائى أنه إذا جاءكم الرب وخاطبكم بهذه الكلمة، فاعلموا أنه هو من يكلمكم وليس أحد غيره».

عندما خرجت الكلمة الأولى من فم الرب، خرجت منه كذلك الرعود والبروق وتأججت شعلة عن يمينه وشعلة عن شماله وطار صوته فى الهواء قائلاً: «يا شعبى.. يا شعبى.. يا بيت إسرائيل.. أنا الحى إلهكم الذى أخرجكم من مصر» وعندما سمع بنو إسرائيل هذا الصوت الرهيب طاروا للخلف اثنى عشر ميلاً حتى هربت منهم أرواحهم.

عند ذلك استدارت التوراة إلى الرب وقالت: «يارب العالم.. هل وهبتنى للأحياء أم للأموات؟».

رد الرب قائلاً: «بل للأحياء».

فقالت التوراة: «لكنهم كلهم قد ماتوا!!».

فأجابهم الرب: «سأبعثهم من جديد من أجلك أنت».

ثم أنزل عليهم الندى الذى سيسقط فى الآخرة على الموتى، فعادوا جميعاً للحياة.

إن الاضطراب العظيم الذى وقع فى السموات والأرض عند سماعها الصوت الإلهى، قد بث الرعب فى قلوب بنى إسرائيل حتى ما كادوا يستطيعون الوقوف على أقدامهم، ولذا فقد أرسل الرب لكل واحد منهم ملكين: واحدا ليمسك بقلبه حتى لا تفارقه روحه، وواحدا ليرفع رأسه حتى يستطيع مشاهدة بهاء الخالق العظيم.

وشاهدوا مجد الرب وكلمته الخفية وهى تنبعث من الوجه الإلهى وتتدحرج حتى تصل إلى آذانهم حيث سمعوا الرب يقول لهم: «هل تقبلون التوراة التى تحتوى على مئتين وثمانية وأربعين أمراً، بمثل عدد أعضاء جسم كل إنسان؟» فأجابوه قائلين فى فرح: «أجل.. أجل..» فاستدارت الكلمة الإلهية من آذانهم إلى أفواههم حيث قبّلتهم، ثم تدحرجت مرة أخرى إلى الآذان ونادتهم قائلة: «هل تقبلون التوراة التى تحتوى على ثلاثمئة وخمسة وستين نهياً، تماثل عدد أيام السنة؟»، فلما أجابوه قائلين: «أجل.. أجل..» تحولت الكلمة من الآذان إلى الأفواه وقبّلتهم.

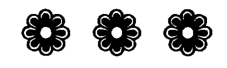
وبعدما أعلن بنو إسرائيل بهذه الطريقة عن استعدادهم للالتزام بأوامر التوراة ونواهيها، فتح الرب السماوات السبع والأرضين السبع وقال: «انظروا.. هؤلاء هم شهودى على أنه ليس مثلى فى الأعالى أو على

الأرض.. انظروا فأنا الواحد الأحد.. وقد كشفت لكم نفسى فى جلالى وبهائى.. فإن قال لكم أحد: «اعبدوا آلهة أخرى» فقولوا له: «أيمكن لأحد نظر خالقه فى بهائه وجلاله ومجده أن يتركه ويصبح عابداً للأوثان؟».. انظروا.. إنى أنا من حرركم من دار العبودية، وأنا الذى فرقتُ لكم البحر وقدتكم على اليابسة وأغرقت عدوكم فى أعماق البحر.. أنا رب اليابسة وأنا رب البحر.. وأنا رب الماضى ورب المستقبل.. وأنا رب هذا العالم ورب كل العوالم التى تكون فى المستقبل.. وأنا رب جميع الأمم، لكن اسمى لم يتحد إلا بإسرائيل؛ إذا أطاعوا أمرى ولبوا رغباتى أنا الباقى السرمدى الرحمن الرحيم الكريم الحليم وافر الخير والصدق.. لكن إن عصيتمونى فسأكون لكم قاضياً حازماً.. ولو لم تكونوا قد قبلتم التوراة لما كانت تحل بكم عقوبة على مخالفتها.. لكن طالما قبلتموها فأنتم ملزمون بطاعتها».

ولكى يقنع الرب بنى إسرائيل بأحديته وتفرده، أمر كل شىء بأن يتوقف ليرى بنو إسرائيل أنه لا شىء دونه. وعندما منحهم الرب التوراة لم يغرد طير ولم يَخُرّ ثور ولم تطر ملائكة الأوفانيم ولم تصح ملائكة السيرافيم قائلة: «قدوس.. قدوس.. قدوس»، ولم يهدر البحر ولم يتلفظ مخلوق بصوت.. بل الجميع أنصت لاهثاً للكلمات التى أعلنها صوت لا صدى له قائلاً: «أنا الرب إلهكم».

وهذه الكلمات وغيرها، التى أعلنها الرب على جبل سيناء، لم يسمعها بنو إسرائيل وحدهم وإنما سمعها كذلك جميع سكان الأرض. فقد انقسم الصوت الإلهى إلى لغات العالم السبعين لكى يفهم الجميع كلماته.. لكن بينما كان باستطاعة بنى إسرائيل سماعه دون ألم أو معاناة، فإن أرواح الوثنيين قد هربت منهم تقريباً. عندما سمعوه. وعندما تردد الصوت الإلهى، عاد جميع الموتى فى «شيول» للحياة ويمَّمُوا شطر سيناء.. إذ أن الوحى قد تنزل فى حضور الأحياء وكذلك الموتى.. أجل حتى إن أرواح

الذين لم يولدوا بعد كانت حاضرة آنذاك. وتلقى كل نبى وكل حكيم نصيبه من الوحى ثم أعلنه للبشرية فى زمانه المحدد له. وقد سمع جميعهم نفس الكلمات، لكن نفس الصوت تكلم مع كل واحد بما يفهمه. ومثلما اختلف سماع كل واحد منهم للصوت الإلهى بحسب شخصيته وطبيعته، فإن الوجه الإلهى قد ظهر لكل منهم مختلفاً، فعذرهم الرب من أن يظنوا أن هذه الهيئات المختلفة هى وجوه لأشخاص مختلفين، وقال لهم: «لا تظنوا، لأنكم رأيتمونى فى هيئات عديدة مختلفة، أن هناك آلهة عديدة.. فأنا هو نفس الذى ظهرت لكم عند البحر الأحمر كرب للحرب.. وعلى جبل سيناء كمعلم».



تنزيل الوصايا الأخرى

بعدما قبل بنو إسرائيل الوصية الأولى قائلين: «أجل.. أجل»، قال الرب: «طالما أقررتم الآن بأننى أنا سيدكم وإلهكم، يمكننى الآن أن أعطيكم الأوامر: لا تتخذوا آلهة الأمم الأخرى آلهة لكم فهى لا تضر ولا تنفع، لذا فلا تفعلوا ذلك طالما بقيت أنا موجوداً. لقد وهبتكم التوراة لكى أعيركم سيادتى، فلا تشعلوا غضبى عليكم بمخالفة عهدى معكم بعبادة الأصنام. ولا تعبدوا الأوثان الميتة، لكن اعبدوه هو من يحيى ويميت ومن كل الكائنات الحية بيده. لا تتعلموا أعمال الأمم الأخرى، فأعمالهم هباء. فأنا ربكم الباقى السرمدى أحكم الحماسة ولا تحكمنى.. وأنا أنتظر حتى الجيل الرابع لأنزل العقاب. لكن من يحبوننى ويخافوننى سأثيبهم ولو حتى الجيل الألفى من ذريتهم».

عندما سمع موسى هذه الكلمات بأن الرب لن يؤاخذ الأبناء بذنوب الآباء إلا عندما تكون أجيال الأبناء عاصية، خر ساجداً وشكر الرب على ذلك، لأنه كان يعلم جيداً أنه لم توجد فى بنى إسرائيل ثلاثة أجيال متعاقبة عاصية.

كانت الوصية الثالثة: «يا شعبى إسرائيل.. لا يقسمن أحدكم باسمى حانثاً، لأن من يحلف باسمى حانثاً سأحاسبه على ذلك يوم القيامة ولن يفلت من الحساب».

واليمين الكاذبة لها عواقب فظيعة، ليس فقط على الحالف وإنما على العالم كله. لأن الرب عندما خلق العالم وضع شَقْفَة على الهاوية وكتب عليها اسمه الأعظم، لكيلا تنفجر الهاوية وتهلك العالم. لكن عندما يحلف أحد بالاسم الأعظم كاذباً، تطير حروف الاسم الأعظم من على الشقفة، فيندفع المياه من الهاوية - بعدما زال ما كان يحجزها - وتهلك العالم كله. وبلا شك فإن ذلك كان ليحدث لولا أن الرب لم يرسل الملاك «يعسريل»، الموكل بالأقلام السبعين، لينقش الاسم الأعظم مرة أخرى على الشقفة.

بعد ذلك قال الرب لإسرائيل: «لو قبلتم التوراة والتزمتم بالشريعة فسأعطيكم إلى الأبد شيئاً هو أنفس ما أمتلك». فسأله بنو إسرائيل: «وما هذا الشىء النفيس الذى ستعطينا إياه لو أطعنا التوراة؟» فأجابهم الرب: «العالم الآتى». فقال بنو إسرائيل: «لكن حتى فى هذا العالم يجب أن نذوق شيئاً مما سنناله فى العالم الآتى». فقال الرب: «بالسبت ستذوقون شيئاً من العالم الآتى. لذا راعوا حرمة السبت فى اليوم السابع من بدء الخليقة».

لأنه عندما خلق الرب العالم أتى اليوم السابع إلى الرب وقال له: «لقد خلقت كل شىء زوجين، إلا أنا. فلماذا؟» فأجابه الرب: «سيكون بنو إسرائيل زوجك الذى تريد». لهذا فإن الرب الآن ذكّر الشعب بهذا الوعد الذى وعد به اليوم السابع، وهو يعطيهم الوصية الرابعة بأن يراعوا حرمة السبت.

* * *

عندما سمعت أمم الأرض الوصية الأولى، قالوا: «ما من ملك إلا ويحب أن يُقرَّ الجميع بملكه وسيادته، لهذا فإن الرب قد أراد من شعبه الإقرار بملكه وسيادته». وعندما سمعوا الوصية الثانية قالوا: «ما من مَلِك يحب أن يكون هناك مَلِك غيره، وهكذا حال إله بنى إسرائيل». وعندما سمعوا الوصية الثالثة قالوا: «وهل هناك ملك يحب أن يحلف شعبه باسمه حانثين؟» فلما سمعوا

الرابعة قالوا: «ما من ملك يكره أن يحتفل الناس بيوم ميلاده».

لكنهم عندما سمعوا الوصية الخامسة، وهى: «أكرم أباك وأمك»، قالوا: «فى شرائعنا من يلتحق بخدمة الملك يتبرأ من أبيه وأمه، لكن الرب فرض إكرام الأب والأم.. لأن هذا الكرم هو ما يليق بهذا الرب الكريم».

ثم أكد الرب على الوصية الخامسة قائلاً: «أكرم والديك، فأنت مدين بوجودك لهما، لذا أكرمهما إكرامك لى. أكرم البطن التى حملتك فيها والثدى الذى أرضعك.. واخدم والديك بكل قوتك فهما قد شاركا فى خلقك».

لأن الإنسان مدين بوجوده للرب وللأب وللأم، حيث إنه يأخذ من والديه خمساً من أعضاء جسمه، ويأخذ من الرب عشرة أعضاء. فالعظام والأوردة والأظافر والمخ وبياض العينين، تأتى كلها من الأب، بينما تمنح الأم وليدها الجلد والدم واللحم والشعر وحدقتى العينين. أما الرب فيعطيه النفس والروح ونور الوجه والبصر والسمع والنطق واللمس والإحساس والبصيرة والفهم. وعندما يكرم إنسان والديه يقول الرب: «كأنى أقيم بين البشر.. وكأن هذا الإنسان قد أكرمنى إذا أكرم والديه»، لكن إن عَقَّ إنسان والديه يقول الرب: «خير إذ لم أسكن بين البشر، وإلا لكانوا عاملونى أنا أيضاً بهذا العقوق».

إن الرب لم يأمر الإنسان بإكرام والديه مثل إكرامه لربه فقط، وإنما جعل إكرام الوالدين أعظم شأناً من إكرام الرب نفسه. فالإنسان غير ملزم بإعانة الفقراء وأداء الشعائر الدينية إلا إذا كان قادراً على ذلك، لكنه ملزم بالإنفاق على والديه، ولو اضطر إلى التسول من أجلهما.

* * *

وأوصى الرب بالوصية السادسة قائلاً: «يا شعبى إسرائيل.. لا تسفكوا

دماء الناس ولا تصاحبوا القتلة وانفروا منهم لكيلا يتعلم أطفالكم حرفة القتل». وعقاباً لجرائم القتل، سيشعل الرب حرباً مهلكة بين البشر. ويوجد في شيول[1] قسمان: واحد داخلي وآخر خارجي. وفي القسم الأخير، أي الخارجي، يوجد كل الذين ذبحوا قبل أوانهم، فيقولون في هذا القسم حيث يحين الأجل المقدر من قبل لموتهم... وعندما يقتل واحد من الناس ظلماً يقول الرب: «من ذا الذي قتل هذا وأجبرني على إبقائه في شيول الخارجية فأبدو قاسياً غير رحيم لأنني أخذته من الأرض قبل أوانه؟» وفي يوم القيامة سيظهر القتيل أمام الرب ويناشدونه قائلين: «يارب العالم... لقد شكّلتني وأنميتني وكنت كريماً معي وأنا في رحم أمي، حتى غادرته دون أن يمسني أذى. ورزقتني بكرمك وفضلك العظيمين.. يارب العالم.. خُذ لي حقي من هذا الشرير الذي قتلني ولم يرحمني». وعند ذلك سيحمى غضب الرب على القاتل فيلقيه في جهنم ويلعنه إلى الأبد، بينما يشاهد القتيل حقه وقد عاد إليه فيرضى ويطمئن.

وأوصى الرب بالوصية السابعة قائلاً: «يا شعبي إسرائيل.. لا تزنوا ولا تصاحبوا الزناة أو تشاركوهم في زناهم، لكيلا يصير أطفالكم من بعدكم زناه. لا تزنوا، لا بأيديكم ولا بأقدامكم ولا بأعينكم ولا بآذانكم.. وإلا ضربت العالم بالبلايا والأوبئة».

ثم كانت الوصية الثامنة: «لا تسرقوا.. ولا تصاحبوا اللصوص أو تشتركوا معهم في سرقاتهم، لكيلا يصبح أبناؤكم من بعدكم لصوصاً».

وسوف تضرب المجاعة العالم، عقاباً على السرقة. وقد يغفر الرب

(١) شيول كلمة عبرية تدل على أرض الموتى، وليس لها مقابل في اللغات السامية الأخرى وأصلها مجهول وتأتي دائماً في صيغة المؤنث وبدون أداة التعريف. وتشير الكلمة إلى المكان الذي يسكن فيه الموتى، وهي تقع إما تحت الأرض أو تحت الماء أو تحت قاعدة الجبال؛ ويتم تصويرها أحياناً على هيئة تنين مخيف. وحسب التصور اليهودي فإن شيول تعتبر أرضاً محايدة ليس فيها ثواب أو عقاب. (المترجم).

للمرء عبادته للأصنام[1]، لكنه لا يغفر السرقة أبداً، وهو دائماً مستعد لسماع الشكاوى ضد المزورين واللصوص.

ثم كانت الوصية التاسعة: «يا شعبى إسرائيل.. لا تشهدوا بالزور على رفاقكم، وإلا شتت السحاب فلا ينزل مطر وتضربكم المجاعة».

والرب حازم فى العقاب على شهادة الزور بالخصوص لأن شهادة الزور هى الخصلة الوحيدة التى لم يخلقها الرب، ولكنها من صنع البشر أنفسهم.

ثم كانت الوصية العاشرة: «يا شعبى إسرائيل. لا يَشْتَه أحدكم ملك جاره، حتى لا تصادر الحكومات ما بأيدى الناس فيغدو أغنى الأغنياء فقيراً ويُنْفَى خارج وطنه».

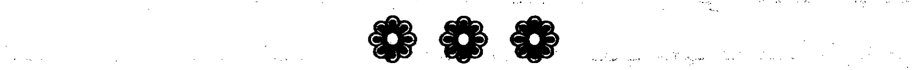
وهذه الوصية العاشرة تحذر من معصية قد تؤدى إلى مخالفة الوصايا العشرة جميعاً. فإذا اشتهى امرؤ زوجة جاره وارتكب معها فاحشة الزنا فإنه سينسى الوصية الأولى: «أنا الرب الباقى إلهك» لأنه سيرتكب جريمته فى الظلام ظاناً ألا أحد يراه، حتى الرب الذى تطفو عيناه فوق كل العالم ويرى الشر كما يرى الخير. كما أنه بفعله ذلك يخالف الوصية الثانية: «لا تتخذ آلهة غريبة غيرى.. فأنا رب غيور». يغضب على الخيانة سواء له أو لأحد من الناس.. كما أنه سيخالف الوصية الثالثة: «لا تحلف باسم الرب كاذباً»، لأنه سيحلف أنه لم يرتكب جريمة الزنا بالرغم من أنه قد ارتكبها. كما سيكون سبباً للاعتداء على حرمة السبت التى شدد الرب عليها فى الوصية الرابعة، لأنه بفعلته القبيحة سينجب ذرية تقوم بطقوس الكهانة فى الهيكل من يوم السبت، مع أنه لا يحق لهم ذلك باعتبارهم أبناء زنا. كما أن الوصية الخامسة سيخالفها أبناء هذا الزانى الذين سيكرمون رجلاً ليس بأبيهم، بل إنهم لن يعرفوا من هو أبوهم الحقيقى... كما سيخالف الزانى الوصية

---

(١) ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ (النساء: ٤٨).

السادسة «لا تقتل» لو بلغته الزوج.. إذ فى كل مرة يزنى فيها رجل، يفعل ذلك وهو مدرك أن ذلك قد يؤدى إلى قتله أو إلى قتل الزوج المسكين. كما سيؤدى ذلك إلى مخالفة الوصية السابعة: «لا تزنِ»، كنتيجة مباشرة لاشتهاء الحرام. وسيؤدى أيضاً إلى مخالفة الوصية الثامنة «لا تسرق»، إذ سرق سعادة غيره. ويؤدى كذلك إلى مخالفة الوصية التاسعة «لا تشهد زوراً»، إذ ستخالفها المرأة الزانية إذ ستتظاهر بأن ثمرة زناها هى طفل زوجها.

وهكذا نرى أن مخالفة الوصية العاشرة، لم تؤدِّ فقط إلى الوقوع فى جميع المعاصى الأخرى، بل كذلك إلى أن يترك الزوج المخدوع أملاكه كلها إرثاً لمن ليس بابنه، وبالتالى يسلبه الزانى ما يملك ويسلبه زوجته كذلك.



وحدة الوصايا العشر

إن الوصايا العشر متداخلة ومتشابكة، لدرجة أن مخالفة إحداها تؤدى إلى مخالفتها جميعاً. لكن توجد وحدة قوية بين الوصايا الخمس الأولى - المكتوبة فى لوح واحد وبين الوصايا الخمس الأخيرة، المكتوبة فى لوح واحد معاً.

فالوصية الأولى: «أنا الرب إلهك» تناظر الوصية السادسة: **«لا تقتل»**، إذ أن القاتل يقتل صورة الرب. والوصية الثانية: **«لا تتخذ آلهة غريبة غيرى»** تناظر الوصية السابعة «لا تزن» لأن الإيمان الكاذب بآلهة أخرى له نفس خطورة الزنا الذى هو خيانة فى حقيقته. والوصية الثالثة: **«لا تحلف باسم الرب كاذباً»** تناظر الوصية الثامنة «لا تسرق» لأن السرقة تؤدى إلى الحلف باسم الرب بالكذب. والوصية الرابعة: **«راع حرمة السبت وقدسه»** تناظر الوصية التاسعة «لا تشهد بالزور على جارك» لأن من يشهد بالزور على جاره يرتكب معصية كبيرة تماثل شهادته بالزور على ربه بأنه لم يخلق العالم فى ستة أيام وارتاح فى السابع، يوم السبت. والوصية الخامسة: **«أكرم أباك وأمك»** تناظر الوصية العاشرة **«لا تشته زوجة جارك»**، لأن من يشته زوجة جاره ويرتكب معها الزنا سينجب أولاداً لن يكرموا آباءهم وأمهاتهم الحقيقيين.

* * *

إن الوصايا العشر التى أوحاها الرب لأول مرة على جبل سيناء، تناظر فى طابعها الكلمات العشر التى استخدمها فى خلق العالم. فالوصية الأولى: «أنا الرب إلهك» تناظر الكلمة الأولى: «ليكن نور»، لأن الرب هو النور السرمدى. والوصية الثانية: «لا تتخذ آلهة غريبة غيرى» تناظر الكلمة الثانية «ليكن فلك فى وسط المياه فتقسم المياه الأولى عن المياه الثانية». لأن الرب قد قال: «اختر بينى وبين الأصنام.. فإما أن تختارنى أنا نبع المياه الحية، وبين الأصنام بركة المياه الآسنة».. أما الوصية الثالثة: «لا تحلف باسم الرب كاذباً» فهى تناظر الكلمة الثالثة: «لتجتمع المياه معاً»، فكما أن كمية قليلة جداً من المياه تتجمع فى الوعاء المشقوق، لن يتبقى للرجل مما مَلَك بالحلف الكاذب إلا أقل القليل. والوصية الرابعة: «راع حرمة السبت وقدسه» تناظر الكلمة الرابعة: «لتنبت الأرض عشباً» لأن منْ يراعى حرمة السبت سيعطيه الرب أشياء جيدة دون لأى أو مشقة، بمثل ما تنبت الأرض العشب دون بذار أو فلاحة. لأن عند بدء الخليقة كان الرب ينوى أن يكون الإنسان خالياً من الخطايا والمعاصى وأن يكون خالداً غير فانٍ وأن يستطيع البقاء حيّاً دون الحاجة إلى فلاحة الأرض وحرث التربة.

والوصية الخامسة: «أكرم أباك وأمك» تناظر الكلمة الخامسة: «لتكن أنوار فى فلك السموات»، لأن الرب قال للإنسان: «لقد أعطيتك نورين.. أباك وأمك، فأكرمهما واعتنِ بهما»..

والوصية السادسة: «لا تقتل» تناظر الكلمة السادسة «لِتَفِضْ المياه بدواب»، لأن الرب قد قال: «لا تكن مثل السمك يأكل كبيره صغيره».

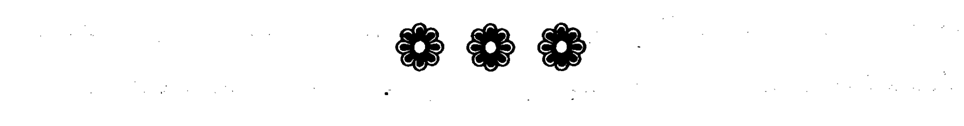
والوصية السابعة: «لا تزن» تناظر الكلمة السابعة: «لتنبت الأرض كائنات حية من جنسها»، لأن الرب قال: «لقد اخترت لك زوجة من جنسك فعش معها دائماً».

والوصية الثامنة: «لا تسرق» تناظر الكلمة الثامنة «انظر.. لقد أعطيتكم

البذور التى تنبت كل عشب»، لأن الرب قال إنه لا ينبغى لأحد أن يمس ما يملكه جاره، إلا ما نبت من تلقاء نفسه مثل العشب والكلأ الذى هو ملك للجميع.

والوصية التاسعة: «لا تشهد بالزور على جارك» تناظر الكلمة التاسعة: «لنعمل الإنسان على صورتنا»، فطالما أنك أنت وجارك قد خلقتما على صورة الرب، فلا تشهد بالزور على جارك.

والوصية العاشرة: «لا تشته زوجة جارك» تناظر الكلمة العاشرة «ليس حسناً أن يبقى الإنسان وحيداً بلا زوج»، لأن الرب قال: «لقد خلقت لك زوجةً فلا تشته زوجة جارك».



موسى الوسيط

بعدما سمع بنو إسرائيل فى تلك المناسبة الوصايا العشرة كلها، توقعوا أن يوحى لهم الرب بقية التوراة، لكن الرؤية الفظيعة التى رأوها على جبل سيناء - عندما سمعوا المرئى ورأوا المسموع - قد أنهكتهم لدرجة أنهم كادوا يهلكون لو كانوا سمعوا كلمة أخرى من الرب. لهذا ذهبوا إلى موسى وناشدوه أن يكون وسيطاً بينهم وبين الرب.. ووجد الرب أنهم على حق فيما رأوا لذا فلم يكتفِ بجعل موسى وسيطاً بينه وبينهم فى هذه المرة فقط، وإنما قرر كذلك ألا يوحى إليهم وحياً أبداً فى المستقبل إلا عن طريق أنبيائه ورسله.

واستدار الرب إلى موسى وقال له: «كل ما تكلموا به طيب... لو كان ذلك ممكناً لصرفت عنهم مَلَك الموت الآن فلا يموتون، لكننى كنت قد كتبت الموت بالفعل من قبل على بنى آدم، لذا فلا بد أن يبقى مصيرهم المحتوم. اذهب يا موسى إليهم وقل لهم: «عودوا إلى خيامكم» وابق أنت معى..» وبهذه الكمات أذن الرب لبنى إسرائيل بأن يعودوا لممارسة حياتهم الزوجية التى كانوا قد انقطعوا عنها طوال ثلاثة أيام، بينما كان على موسى أن يمتنع إلى الأبد عن كل الشهوات الأرضية.

ذهب موسى إلى الشعب وبحكمته استطاع تهدئة هذه الألوف المؤلفة من الناس بكلمات قليلة، إذ قال لهم: «لقد منحكم الرب التوراة وصنع العجائب من أجلكم لكى تلتزموا بها وبالشرائع التى فرضها عليكم ليفضّلكم

على جميع أمم الأرض. لكن بما أنكم كنتم حتى هذه اللحظة جاهلين بأوامر الرب، ولذا فقد عذرتم بجهلكم، فإنكم ستعلمون الآن وبكل دقة ما عليكم فعله وما عليكم اجتنابه.. وحتى هذه اللحظة لم تكونوا تعلمون أن الأبرار سيثابون وأن العصاة سيعاقبون فى العالم الآتى، لكنكم الآن قد عرفتم. لكن طالما بقى لديكم من الحياء شىء، فلن ترتكبوا المعاصى».

وعند ذلك انسحب الشعب عن جبل سيناء مسيرة اثنى عشر ميلاً، بينما خطا موسى واقترب من الرب تماماً.

بجوار الرب مباشرة توجد أرواح المتقين، ومن ورائها بقليل الرحمة والعدل، ثم قريباً من ذلك كان المكان الذى أذِن لموسى بأن يقف فيه. وقد كانت رؤية موسى للرب واضحة ومميزة بسبب قربه منه، على عكس الأنبياء الآخرين الذين لم يشاهدوا الرب إلا مشاهدة غير واضحة. كذلك تميز عن جميع الأنبياء الآخرين بأنه كان فى وعيه أثناء نزول الوحى عليه، بينما كان الأنبياء الآخرين فاقدين لوعيهم أثناء نزول الوحى. كما تميز موسى بميزة ثالثة، شاركه فيها فعلاً هارون وصموئيل، ألا وهى أن الرب تجلَّى له فى عمود من السحاب.

وعلى الرغم من علامات التكريم هذه التى كرِّم بها موسى، فإن الشعب قد لاحظ اختلاف الوصيتين الأوليين اللتين سمعوهما من الرب مباشرة، عن رواية موسى لهما. لأنهم لما سمعوا الكلمات: «أنا الباقى.. إلهكم»، تعمق فهم التوراة فى قلوبهم فلم ينسوا أبداً ما تعلموه. لكنهم نسوا بعض ما علمهم موسى إياه، إذ كما أن الإنسان من لحم ودم وفان، فكذلك تعليمه مؤقت ولا يدوم.

لهذا أتوا إلى موسى قائلين: «يا ليته يكشف لنا نفسه مرة أخرى!! ياليته يُقبِّلنا ثانية بقبلات فمه..! ياليته يفعل ذلك فيثبت فهم التوراة فى قلوبنا إلى الأبد، كما ثبت من قبل!» فأجابهم موسى: «لم يعد ذلك ممكناً

الآن.. لكن ستتمكنون من ذلك فى العالم الآتى عندما يكتب الرب شريعته فى أعضائكم الداخلية وينقشها فى قلوبها نقشاً».

كما كان هناك سبب آخر جعل بنى إسرائيل يندمون على اختيار وسيط بينهم وبين الرب.. إذ أنهم لما سمعوا الوصية الثانية: «لا تتخذ آلهة غريبة معى» زالت نزعة الشر تماماً من قلوبهم. لكن بمجرد أن طلبوا من موسى التوسط بينهم وبين الرب، عادت نزعة الشر مرة أخرى إلى قلوبهم. وعبثاً حاولوا إقناع موسى باستعادة التواصل المباشر مع الرب لكى تزول نوازع الشر من قلوبهم مرة أخرى. لأن موسى قال لهم: «لم يعد ذلك ممكناً الآن.. ولكن فى العالم الآتى سينزع قلوبكم المتحجرة من أبدانكم».

وبالرغم من أن بنى إسرائيل لم يسمعوا من الرب مباشرة إلا الوصيتين الأوليين، فإن الشبح الإلهى كان له تأثير هائل على ذلك الجيل.. فعل مدار حياتهم لم يُصَبْ واحد منهم بمرض ولا أوجعت الأسقام أبدانهم، بل إنهم لما ماتوا لم تقترب الديدان من جثثهم.



موسى يقاتل الملائكة من أجل التوراة

كان اليوم الذى كشف فيه الرب عن نفسه على جبل سيناء يماثل طوله طول يومين من الأيام العادية. إذ أن الشمس لم تغرب فى ذلك اليوم، وهى معجزة تكررت من أجل موسى أربع مرات. وعندما اقترب هذا اليوم الطويل من نهايته، صعد موسى الجبل المقدس وبقى فيه أسبوعاً ليتخلص من جميع الشوائب الدنيوية لكى يصعد إلى الرب فى السموات طاهراً. وفى نهاية هذه المدة ناداه الرب وطلب منه الصعود إليه، فظهرت أمامه سحابة، لكنه لم يعرف إن كان سيركب فوقها أو يتشبث بها. ثم فجأة انفتح فم السحابة فدخل موسى فيه ومشى فى فلك كما يمشى الإنسان على الأرض...! ثم قابل «قموئيل» البواب، وهو الملاك الذى تحت رياسته اثنا عشر ألف ملك من ملائكة العذاب يقفون على أبواب الفلك.

خاطب قموئيل موسى بلهجة فظة قائلاً: «ما الذى تفعله هنا يا بن عمرام، فى هذه البقعة الخاصة بملائكة النار؟».

أجابه موسى: «لم آتِ إلى هنا من تلقاء نفسى.. وإنما استدعانى القدوس لأتلقى التوراة وأبلغها إلى بنى إسرائيل».

لكن قموئيل لم يقتنع بكلام موسى وحاول منعه من الدخول بالقوة فلطمه موسى لطمة قضى بها عليه وواصل طريقه إلى أن لاقاه الملاك «حدرنيل».

كان حدرنيل هذا أطول من زميله المقتول بستمائة ألف فرسخ، وكان

كُلّما تفوه بكلمة خرج من فمه اثنا عشر ألف لسان من النار. فلما رأى حدرنيل موسى صاح فيه بصوت هادر قائلاً: «ما الذى تفعله هنا يا موسى يا بن عمرام، فى هذه البقعة التى تخص القدوس العلىّ؟» فلما سمع موسى صوته تملكه الرعب وانهمرت الدموع من عينيه وكاد يسقط من على السحابة. لكن شفقة الرب عليه استيقظت فى الحال وقال لحدرنيل: «أنتم أيها الملائكة مشاغبون من يوم خلقتكم..! ففى البداية عندما أردت خلق آدم تذمرتم وقلتم لى: «ما هذا الإنسان الذى تشغل به بالك!!» فحمى غضبى عليكم وأحرقت العشرات منكم بإصبعى الصغير.. والآن تشاغبون مرة أخرى مع ذلك المؤمن الذى ينتمى لبيتى والذى أمرته بأن يأتى إلىَّ هنا ليتلقى التوراة ثم يحملها معه إلى أطفالى المختارين بنى إسرائيل، وتفعلون ذلك على الرغم من أنكم تعلمون جيداً أنه لو لم يتلقَّ بنو إسرائيل التوراة، فلن يؤذن لكم بالبقاء فى السموات..!!».

فلما سمع حدرنيل ذلك أسرع يقول لسيده: «يارب العالم.. إنك لتعلم أننى لم أكن أعرف أنه قد جاء إلى هنا بإذن منك، لكن بما أنى قد علمت ذلك الآن فسأكون رسوله وأتقدم أمامه كتابع ذليل له».

وهرول حدرنيل فى ضعة وذلة يعدو أمام موسى، كما يعدو التابع أمام سيده، حتى وصل إلى ملك «الصندلفون» فقال لموسى: «لنذهب من هنا.. إننى لا أستطيع البقاء فى هذه البقعة وإلا أحرقتنى نار «الصندلفون».

وكان ملك الصندلفون هذا أطول من حدرنيل كثيراً لدرجة أن بلوغ هامته بالنظر يستغرق خمسمائة عام من الناظر إليه. ويجلس صندلفون خلف العرش الإلهى ويقوم بتنضيد باقات الورد لسيده. ورغم ذلك فإن صندلفون لا يعلم أين مكان الرب، لكى يضع التاج على رأسه، لكنه يقرأ تعاويذ سحرية على التاج فيرتفع من تلقاء نفسه وينحط على رأس الرب.. وبمجرد أن يأمر صندلفون التاج بالارتفاع لأعلى، يرتجف ملائكة الأعالى

ويستحوذ عليهم الرعب، وتصيح الحيوانات المقدسة فى رعب وفزع بينما يزأر ملائكة السيرافيم مثل الأسود ويقولون: «قدوس قدوس.. رب الملائكة.. والأرض كلها مملوءة بمجده». وعندما يصل التاج إلى عرش المجد، تتحرك عجلات العرش على الفور وتهتز أساسات موطئ قدمه، ويستحوذ على جميع السموات رعب وفزع عظيمان.

وعندما يمر التاج من فوق «عرش المجد»، لكى يستقر فى مكانه فوق رأس الرب، تفتح جميع ملائكة السموات أفواهها وتقول: «محمود هو مجد السرمدى من مكانه» وعندما يصل التاج إلى مبتغاه ويستقر فوق رأس الرب، فإن الحيوانات المقدسة كلها وملائكة السيرافيم وعجلات العرش وملائكة الأعالى وملائكة القروبيم وملائكة الحشماليم، تصيح كلها فى آن واحد وتقول: «السرمدى هو الملك.. السرمدى كان هو الملك.. السرمدى سيكون هو الملك إلى الأبد».

عندما رأى موسى الملاك «صندلفون» خاف خوفاً شديداً وكاد يسقط من على السحابة من خوفه. وبكى وذرف الدموع مناشداً الرب أن يرحمه، فاستجيب له. فمن فرط حب الرب لإسرائيل نزل من على عرش مجده ووقف أمام موسى حتى مر من نيران الصندلفون.

وبعدما تجاوز موسى نار الصندلفون، جرى عبر «ريجيون»، وهو نهر من النار به جمرات تحرق الملائكة الذين يغطسون فيه كل يوم فيحترقون ثم يخرجون أحياء سليمين من جديد. وهذا النهر، وجمرات النار التى فيه، ينشأ من تحت العرش الإلهى نتيجة للعرق الذى تفرزه أجساد «الهيوت» المقدسة خوفاً من الرب. لكن الرب سحب موسى بسرعة من نهر «ريجيون» دون أن يمسه أى أذى.

وبعد مروره من نهر «ريجيون» قابل موسى الملاك «جاليزور» والذى يسمى أيضاً «رازيل». وهذا الملاك هو الذى يكشف التعاليم لخالقه ويعلن فى

الكون كل ما يقدِّره الرب. فهو يجلس خلف الستائر المنسدلة أمام العرش الإلهى فيرى ويسمع كل شىء. ويسمع إيلياء على جبل حوريب ما ينادى به رازيل فى الكون ثم يحدِّث بما عرفه. كما أن لهذا الملاك وظيفة أخرى إذ أنه يقف أمام العرش الإلهى ويفرد جناحيه فيمتصان عرق «الهيوت» المقدسة، ولولا ذلك لأحرق عرقها النارى جميع الملائكة. كما أنه يضع جمرات نهر «ريجيون» فى جفنه متوهجة فيشع منها النور الذى يبث بعضاً منه فى وجوه الملوك والسادة والأمراء فيخشاهم الناس. ولما رأى موسى الملاك رازيل هذا ارتعب منه لكن الرب قاده وجعله يمر منه دون أن يصيبه مكروه.

بعد ذلك وصل موسى إلى فوج من ملائكة الرعب يحيطون بالعرش الإلهى، وهم أقوى الملائكة جميعاً وأشدهم بأساً. وأراد هؤلاء الملائكة إحراق موسى بأنفاسهم النارية لكن الرب نشر بهاء جلاله فوق موسى وقال له: «تشبث بعرش مجدى جيداً وأجبهم».

إذ ما إن لاحظ الملائكة وجود موسى فى السماوات، إلا وقالوا للرب: «ما الذى يفعله هذا المولود من امرأة هنا؟».

فأجابهم الرب: «لقد أتى ليتلقى التوراة؟».

فقالوا له: «يارب.. اكتفِ بنا نحن سكان السموات وأعطنا نحن التوراة فما حاجتك لسكان التراب؟».

فرد موسى قائلاً: «إنه مكتوب فى التوراة: «أنا الرب إلهك الذى أخرجك من مصر ومن بيت العبودية» فهل كنتم أنتم الذين استعبدتم فى مصر وأخرجكم الرب من عبوديتكم، ولهذا تطلبون التوراة؟ كما أنه مكتوب فى التوراة: «لا تتخذ آلهة أخرى» فهل هناك عابدو أصنام من بينكم لكى تحتاجوا إلى التوراة؟.. كما أنه مكتوب فى التوراة: «لا تحلف باسم الرب كاذباً» فهل توجد بينكم معاملاتا تجارية قد تضطرون فيها للحلف باسم الرب كذباً فأنتم فى حاجة للتوراة لتعلمكم تجنب ذلك؟.. ومكتوب فيها:

«راعِ حرمة السبت وقدِّسه» فهل تعملون لكى تحتاجوا إلى يومٍ للراحة فأنتم لذلكَ فى حاجة إلى التوراة لتعلمكم مراعاة حرمة هذا اليومٍ؟... ومكتوب فيها: «لا تقتل» فهل يوجد من بينكم قتلة فأنتم لذلك فى حاجة إلى التوراة لتنهاكم عن القتل؟ ومكتوب فيها كذلك: «لا تزن» فهل يوجد بينكم نساء لكى تزنوا بهنَّ؟.. ومكتوب فيها: «لا تسرق» فهل يوجد لديكم أموال قد تسرقونها؟.. ومكتوب: «لا تشهد بالزور على جارك». فهل بينكم شهود زور فأنتم فى حاجة إلى التوراة لتنهاكم عن شهادة الزور؟.. ومكتوب فيها: «لا تشته بيت جارك» فهل لديكم بيوت أو حقول أو كرمات فأنتم لذلك فى حاجة إلى التوراة لتنهاكم عن اشتهائها؟».

وعند ذلك كفَّ الملائكة عن ممانعتهم تلقِّى موسى للتوراة وتوصيلها إلى بنى إسرائيل وأقروا بأن الرب كان على حق عندما قرر منح التوراة للبشر، وقالوا: «يا ربنا السرمدى.. كم هو جليل اسمك فى الأرض كلها!! يا من أشرقت السموات بجلالك».

ظل موسى فى السموات أربعين يوماً ليتعلم التوراة من الرب، لكن عندما بدأ يهبط من السموات ومرَّ فى طريقه على ملائكة العذاب وملائكة الرعب وملائكة الاضطراب وملائكة الزلازل... نسى كل ما تعلمه..! وعند ذلك نادى الرب على الملاك: «يفيفياه» أمير التوراة والذى قام بتسليمها إلى يدى موسى «مرتبة فى كل شىء وموثوق منها» وصاحب هذا الملاك موسى فى طريق خروجه، كما صادقته جميع الملائكة الأخرى ومنحه كل منهم علاجاً وسرّاً من أسرار «الأسماء المقدسة»، على النحو المحتوى به فى التوارة، وعلى النحو الذى يتم تطبيقها به. بل إن ملاك الموت أعطاه علاجاً ضد الموت. وتعلم موسى من الملاكين «يفيفياه» أمير التوراة، و«ميتاترون» ملاك الوجه، طريقة استعمال هذه الأسماء المقدسة، فعلَّمها بدوره فيما بعد للكاهن الأعظم ألعازار الذى علَّمها بدوره لابنه فينحاس المعروف كذلك باسم «إيليا».

موسى يتلقَّى التوراة

عندما وصل موسى إلى السماء وجد الرب مشغُولاً بزخرفة الحروف التى ستكتب بها التوراة، بزخارف تيجانية صغيرة، ونظر إليه موسى دون أن يتكلم بكلمة واحدة. ثم قال له الرب: «ألا يعرف الناس فى بلدك شيئاً عن السلام على الناس عندما يدخلون عليهم؟!» فأجابه موسى: «وهل يليق بالعبد أن يقاطع سيده؟» فرد الرب قائلاً: «كنت على الأقل تتمنى لى النجاح فى العمل الذى أعمله!» فقال له موسى: «لتكن قدرة الرب عظيمة كما قلت».

ثم سأله موسى عن مغزى هذه التيجان التى كان الرب يزيِّن بها حروف التوراة، فأجابه الرب: «سيأتى زمان سيكون فيه رجل يسمَّى «عقيبا بن يوسف، سيؤلف جبلاً من تفاسير «الهالاكوت» بناءً على كل نقطة من نقاط هذه الحروف».

فقال موسى للرب: «أرنى هذا الرجل». فقال له الرب: «ارجع إلى الخلف ثمانى عشرة درجة». ففعل موسى ما أمره به الرب فسمع مناقشات ذلك المعلم المذكور مع أتباعه فى الدرجة الثامنة عشرة، لكنه لم يستطع متابعة هذه المناقشات التى أحزنته كثيراً.

لكن سمع الأتباع يسألون أستاذهم: «وكيف عرفت ذلك؟» فأجابهم المعلم: «هذه «هالاكاه» أعطيت لموسى على جبل سيناء». لكنه لم يرضَ بما سمع فعاد إلى الرب وقال له: «أيكون عندك رجل مثل «عقيبا» وتعطى

التوراة لبنى إسرائيل من خلالى؟!» لكن الرب أسكته قائلاً: «صَهْ.. لقد قررت ذلك وانتهى الأمر».

لكن موسى لم يسكت وقال: «يارب العالم.. لقد أريتنى تعليم هذا الرجل، فأرنى الثواب الذى أعددته له». فقال له الرب: عد إلى حيث كنت وانظر بنفسك» فلما عاد موسى إلى حيث كان رآهم يبيعون لحم الشهيد «عقيبا» فى سوق اللحم.. فقال موسى للرب:

«هل هذا هو ثواب من أخلص لك؟!» فقال له الرب: «صَهْ.. لقد قررت ذلك وانتهى الأمر»(١).

بعد ذلك رأى موسى الرب وهو يكتب كلمة «الحليم» فى التوراة فسأله: «هل تعنى هذه الكلمة أنك ستصبر على المتقين؟» فأجابه الرب: «بل أنا حليم أيضاً مع العصاة».

فرد موسى فى دهشة: «ماذا!! ليهلك العصاة!» فلم يجبه الرب بشىء.. لكن عندما توسل موسى للرب لكى يرحم بنى إسرائيل ويغفر لهم خطاياهم، قال له الرب: «ألم تُشِر أنت علىّ بألا أرحم العصاة وأن أهلكهم؟» فأجابه موسى: «بلى.. لكنك صرَّحت لى بأنك حليم كذلك مع العصاة.. فليكن صبرك إذاً عظيماً كما قلت أنت من قبل».

انشغل موسى تماماً بدراسة التوراة طوال الأيام الأربعين التى قضاها فى السموات، وتعلم التعاليم المكتوبة والشفوية كذلك، بل لقد أوحى إليه كذلك بكل العقائد التى سيتمكن أى عالم بالشريعة يوماً من تفسيرها وشرحها. وسُرَّ كثيرا، وعلى وجه خاص، لما سمع تعاليم «الربِّى إليعازر» وازداد فرحه أكثر عندما علم أن هذا العلامة سيكون من ذريته.

---

(١) ما المقصود بهذه الخرافة العجيبة؟! هل يقصدون وصم الرب تبارك وتعالى بالحمق، سبحانه وتعالى عما يصفون علواً كبيراً!!

تم جدولة دراسة موسى للتوراة طوال الأربعين يوماً التى قضاها عند الرب على النحو التالى: فى النهار يتدارس معه الرب التعاليم المكتوبة، وفى الليل التعاليم الشفاهية. وبهذه الطريقة استطاع التمييز بين الليل والنهار، لأنه فى السماء «يشرق الليل مثل إشراق النهار». كما كانت هناك علامات أخرى استطاع بواسطتها التمييز بين الليل والنهار.. فإذا سمع الملائكة تسبح للرب قائلة: «قدوس.. قدوس.. قدوس.. رب الملائكة» يعلم أن الوقت نهار؛ وإذا سمعهم يسبحون الرب قائلين: «حمداً للرب الذى هو أهل للحمد»، علم أن الوقت ليل. كما كان إذا رأى الشمس تظهر أمام الرب وتخر ساجدة يعلم أن الوقت ليل.. لكن إن رأى القمر هو الذى يسجد عند قدمى الرب، يعلم أن الوقت نهار. كما كان يعلم الوقت من العمل الذى تعمله الملائكة، إذ كانت تُعِدُّ المن لبنى إسرائيل فى النهار ثم تنزله على الأرض فى الليل. كما كانت الصلوات التى كان يؤديها فى السماء علامة أخرى له يعرف منها الوقت.. فإذا سمع «الشماع» يُتْلَى قبل الصلاة يعلم أن الوقت نهار.. لكن إذا سبقت الصلاة تلاوة «الشماع»، يعلم أن الوقت ليل.

وأثناء إقامة موسى مع الرب، أراه الرب السموات السبع والهيكل السماوى والألوان الأربعة التى كان عليه أن يستخدمها لتناسب الهيكل.. ووجد موسى أنه من الصعب عليه أن يحفظ الألوان والتمييز بينها فقال له الرب: «استدر إلى اليمين» فاستدار موسى فرأى فوجاً من الملائكة يلبسون ثياباً بلون البحر، وقال له الرب: «هذا هو اللون البنفسجى» ثم أمر موسى بأن يلتفت إلى اليسار حيث رأى فوجاً من الملائكة يلبسون ثياباً حمراء، فقال له الرب: هذا هو اللون الأرجوانى الملكى».. ثم التفت موسى إلى الخلف ورأى فوجاً من الملائكة يلبسون ثياباً لونها ليس بالأرجوانى ولا بالبنفسجى، فقال له الرب: «هذا هو اللون القرمزى».. ثم التفت موسى إلى الأمام ورأى فوجاً من الملائكة يلبسون ثياباً باللون الأبيض فقال له الرب:

«هذا هو لون الكتان الملوى».

على الرغم من أن موسى كرس ليله ونهاره لدراسة التوراة، فإنه لم يتعلم شيئاً منها. فما كان يحفظ شيئاً إلا ونسيه على الفور. وعند ذلك قال موسى للرب: «يارب العالم.. لقد كرست نفسى طوال أربعين يوماً لدراسة التوراة وحفظها، لكننى لم أحفظ منها شيئاً» لهذا وهبه الرب التوراة ونزل إلى بنى إسرائيل، إذ كان قد حفظها كلها الآن.

* * *

ما كاد موسى ينزل من السماء والتوراة معه، إلا وذهب الشيطان إلى الرب وقال له: «من فضلك.. فى أى مكان احتفظت بالتوراة؟» إذ لم يكن الشيطان يعلم شيئاً عن وحى الرب على جبل سيناء، لأن الرب كان قد تعمد إرساله إلى مكان آخر ليقضى له مصلحة ما، حتى لا يكون حاضراً أثناء تنزيل التوراة فيعترض على ذلك قائلاً: «هل ستعطى التوراة لشعب سيعبد العجل الذهبى فيما بعد؟».

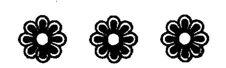
أجاب الرب على سؤال الشيطان عن مكان التوراة قائلاً: «لقد أعطيت التوراة للأرض». فالتفت الشيطان إلى الأرض وسألها: «أين التوراة؟» فأجابته: «الرب هو الذى يعلم مسارها ويعلم مستقرها لأنه «يرى ما فى أطراف الأرض ويعلم ما تحت السماء»». فذهب الشيطان إلى البحر ليبحث عن التوراة، لكن البحر قال له: «إنها ليست معى» وأجابته الهاوية والموت والهلاك بمثل ذلك.

عاد الشيطان إلى الرب وقال له: «يارب العالم.. لقد بحثت فى كل مكان عن التوراة ولكنى لم أجدها». فأجابه الرب: «اذهب وابحث عن ابن عمرام تجدها معه» فهرول الشيطان إلى موسى وسأله: «أين التوراة التى أعطاك الرب إياها؟» فأجابه موسى: «ومن أنا حتى يعطينى القدوس

التوراة؟» فقال الرب لموسى: «يا موسى.. إنك تكذب!» فقال موسى: «يا رب العالم... إنك تملك كنزاً مخيفاً يفرحك فى كل يوم. فهل أجرؤ أنا على ادعاء ملكيتى له؟» فقال له الرب: «ثواباً لك على تواضعك يا موسى، ستسمى التوراة باسمك فيقولون عنها «توراة موسى».

* * *

غادر موسى السموات ومعه لوحان كتب عليهما الوصايا العشر، وكما كانت الكلمات المكتوبة على اللوحين إلهية فى طبيعتها، فإن اللوح الذى كتبت عليه كان كذلك ذا طبيعة إلهية. وكان الرب قد صنع هذين اللوحين بيديه عند غسق السبت الأول فى نهاية خلق الخليقة، وصنعهما من حجر يشبه الياقوت الأزرق. وكتب على كل لوح من اللوحين الوصايا العشر مكررة أربع مرات، وكتبت بحيث يبدو النقش ظاهراً من على الوجهين، إذ أن الأقلام التى استخدمت فى كتابتها من مصدر سماوى هى الأخرى. وكتب بين كل وصية والوصية التالية لها، جميع تعاليم التوراة وأحكامها بكل تفاصيلها ودقائقها، بالرغم من أن هذين اللوحين لم يكن طولهما يزيد على سبعة أشبار وعرضهما مثل ذلك. كذلك كان من خصائص هذين اللوحين أنه كان يمكن طيهما على الرغم من أنهما مصنوعان من أصلب الأحجار. وعندما ناول الرب اللوحين لموسى كان الرب يمسك بهما من ثلثهما الأعلى بينما يمسك موسى بثلثهما الأسفل وبقى ثلث ثالث مكشوفاً فغمر النور الإلهى وجه موسى.



العجل الذهبى

عندما تجلى الرب لبنى إسرائيل على جبل سيناء، اندفعت جموع الشعب تلهج بالحمد فرحاً بهذا الشرف العظيم، إذ كان إيمانهم بالرب بلا قيود ولا حدود، وربما لن يكون له نظير إلا فى زمن المسيح المنتظر. وكذلك كانت الملائكة هى الأخرى فرحة سعيدة بهذا الحدث الجلل... إلا الرب وحده فقد بدا مهموماً حزيناً؟!!

فلما رأت الملائكة ما فيه الرب سألته: «لماذا لا تشاركنا فى هذه الفرحة؟».

فأجابهم: «إنكم لا تعلمون ما أعلم.. ولا تعلمون ما يحمله المستقبل!!»

فقد كان يعلم أن بنى إسرائيل لن يمر عليهم أربعون يوماً إلا ويكونوا قد خالفوا الوصية الأولى: «لا تتخذ آلهة أخرى معى».. وكان يعلم أنهم سيعبدون العجل الذهبى وينسون عهدهم مع الرب والتزامهم أمامه بطاعة كل وصاياه..!

ولقد كان الرب محقّاً فى حزنه على ارتكاب بنى إسرائيل لهذه المعصية.. إذ سيكون لها عاقبة أخطر كثيراً من أى معصية أخرى من المعاصى الكثيرة التى ارتكبوها. وذلك أن الرب عندما أنزل لهم التوراة قرر أن يهبهم الحياة الأبدية وألا يكون للموت عليهم سلطان. لكن هذه النعمة ستزول عنهم عندما يعبدون العجل الذهبى... وأن عقابه لهم على هذه المعصية سيكون بأن يقضى عليهم بدراسة التوراة فى ظل المعاناة والاستعباد

والأسر. منفيين عن أرضهم لا يذوقون للراحة طعماً وللعيش حلاوة.. حتى يأتى زمن المسيح المنتظر فيعوضهم الرب عن جميع ما عانوه، وكذلك سيعوضعهم عن كل ذلك فى العالم الآتى.

ومن الغريب أنه بينما كان الرب مشغولاً بإعداد اللوحين اللذين ستكتب عليهما التوراة، كان بنو إسرائيل قد بدأوا يفكرون فى عبادة العجل الذهبى..!

وقد حدث ذلك على النحو التالى:

عندما فارق موسى الشعب وأسرع إلى الرب ليتلقى منه التوراة، قال للناس: «سأذهب إلى الرب وأعود بعد أربعين يوماً ومعى التوراة».. لكن فى ظهيرة اليوم الأربعين جاء الشيطان إلى حيث كان الشعب ومارس بعض الطقوس السحرية حتى خُيِّلَ للناس أنهم يرون جثمان موسى ممدداً ميتاً على نعش ومعلقاً بين السماء والأرض..

عند ذلك صاح الناس فى أسى: «انظروا...! هذا هو موسى قائدنا الذى وعدنا بأن يذهب إلى الرب ليأتى بالتوراة..! لقد مات موسى..! ماذا سنفعل الآن؟!».

ثم هرولوا إلى هارون، يقودهم الساحران يانِّس ويامبرس، وقالوا له: «إن المصريين كانوا يحملون آلهتهم معهم أينما ذهبوا لكى يرى كل منهم إلهه الذى يعبده ويطمئن قلبه به.. فالآن اصنع لنا إلهاً مثلما للمصريين آلهة».

وأثار قولهم ذلك حمية وغضب حور بن ميريام فقال لهم غاضباً: «أيها الجاحدون المنكرون لنعمة الرب عليكم!! هل نسيتم هكذا بسرعة كل المعجزات التى صنعها لكم الرب؟!» فلما سمع منه الناس ذلك اشتاطوا غضباً وانقضوا عليه ففتكوا به وقتلوه...! ثم استداروا إلى هارون قائلين: «والآن.. هل ستصنع لنا إلهاً أم نجعلك تلحق بصاحبك؟».

وكاد هارون يرفض طلبهم، لولا أن فكر وقال فى نفسه: «لو رفضت

فسيقتلوننى ولن يغفر لهم الرب أبداً جريمة قتل كاهنهم الأعظم».

ولذا فقد رأى أنه من الأفضل أن يحمل على نفسه وزر هذه المعصية، ولا يوقع بنى إسرائيل فى هوة قتل كاهنهم الأعظم.. فالرب قد يغفر لهم عبادتهم للأوثان، ولكنه لن يغفر لهم أبداً جريمة قتل رجل فى مكانة هارون بينهم.

ورغم ذلك فإن هارون قد حاول مراوغتهم وتثبيطهم عما نووه بأن طلب منهم طلباً ظن أنهم لن يقدروا عليه أبداً.. أن يجمعوا له حُليَّهم وحلىَّ زوجاتهم وأبنائهم وبناتهم..!

لكن خاب ظنه.. فإنهم قد أسرعوا بجمع ما لديهم من حلىٍّ، إلا زوجاتهم فقد رفضن فى صرامة أن يتخلين عن حليهن من أجل صنم لن يضر ولن ينفع.. لهذا فقد أثاب الرب نساءهم على هذا الإيمان الثابت به بأن جعل غرة كل شهر عطلة وراحة لهن.. كما سيثيبهن فى العالم الآتى بأن يعود إليهن شبابهن ونضارة وجوههن فى أول كل شهر.. كما يولد القمر من جديد فى غرة كل شهر.

لم يكن هارون ليستطيع صنع عجل ذهبى، ولا فضى، من حليِّهم لولا أنه قد شاهد ذات مرةٍ شيئاً تعلَّم منه كيف يصنع ذلك العجل..

فعندما أراد موسى، فى زمن الخروج من مصر، العثور على تابوت يوسف ليحمله الشعب معهم أثناء خروجهم من مصر، علم أن التابوت فى قاع النيل.. فأتى بأربع ورقات من الفضة ونقش على كل ورقة صورة واحد من الحيوانات الأربعة التى توجد تماثيلها على العرش الإلهى، وهى الأسد والإنسان والنسر والثور. فلما ألقى موسى بورقة الأسد فى الماء، هاج الماء وزأر النيل بصوت مثل زئير الأسد.. فلما ألقى الورقة التى تحمل صورة الإنسان فى النهر، تجمعت عظام يوسف معاً حتى اكتمل بدنه كله.. فلما ألقى الورقة التى تحمل صورة النسر طار التابوت من تلقاء نفسه وطفا على

سطح الماء فالتقطه موسى وأخرجه من النهر.. وهكذا لما وجد موسى أنه ليس فى حاجة إلى الورقة الرابعة التى تحمل صورة الثور أعطاها لامرأة من بنى إسرائيل وطلب منها أن تحتفظ له بها.. ثم انشغل بعد ذلك بنقل التابوت وإخراج بنى إسرائيل من مصر، ونسى كل شىء عن هذه الورقة الرابعة.

ودارت الأيام وأتى الناس بهذه الورقة السحرية، ضمن ما جلبوه إلى هارون من حليهم وزينتهم. وبسبب ما لهذه الورقة من قوى سحرية، فإن هارون ما كاد يلقيها فى النار مع بقية الحلىّ إلا وتكوَّن من قلب الحلى عجل ذهبى وانتصب واقفاً على قوائمه.

عندما رأت جموع الوثنيين الذين كانوا مصاحبين للشعب عند خروج من مصر، العجل يقف على قوائمه ويتحرك كأنه حى، قالوا لبنى إسرائيل: «هذا هو إلهكم يا بنى إسرائيل!!».

فذهب الشعب إلى شيوخه وقالوا لهم: «تعالوا اعبدوا معنا هذا الثور فهو الذى أخرجنا من مصر.. إن الرب لم يخرجنا من مصر، وإنما أخرج نفسه منها حيث كان مستعبداً فيها». فغضب الشيوخ وانتهروهم وحذروهم من عاقبة كفرهم بالرب، لكن الناس لم يستمعوا لكلامهم، بل وانقضوا عليهم وقتلوهم. ثم ذهب الناس إلى شيوخ الأسباط الذين حذوا حذو الشيوخ فكان مصير هؤلاء مثل مصير أولئك..! لكن الرب كافأ المخلصين له بأن جعلهم مستحقين لمشاهدة ورؤية وجهه الكريم.

ولم يكتف الشعب بعبادة العجل الذهبى.. وإنما صنعوا كذلك ثلاثة عشر صنماً، واحدا لكل سبط، والثالث عشر يشترك فيه بنو إسرائيل جميعاً..! والأدهى من ذلك أن المن - الذى أنزله الرب عليهم فى هذا اليوم كذلك، برحمته البالغة برغم كفرهم - قدموه قرباناً لآلهتهم المنحوتة.

وقد كان السبب وراء تفضيل بنى إسرائيل عبادة هذا العجل بالذات. أنهم قد رأوا العرش الإلهى أثناء عبورهم البحر الأحمر ولمحوا صورة الثور عليه فظنوا أنه قد ساعد الرب فى إخراجهم من مصر، ولذا عبدوه بجوار الرب.

ثم أراد الشعب أن يبنى مذبحاً لإلههم الجديد... وحاول هارون تأخيرهم قدر ما يستطيع، فلعل موسى يعود إليهم فى هذه الأثناء.. ولهذا فقد قال لهم إنه هو الذى سيبنى المذبح بنفسه، تكريماً لإلههم.

لكن هارون خاب أمله.. فقد حلت ظهيرة اليوم التالى وانتهى من بناء المذبح.. دون أن يظهر موسى.. وبدا الناس يقدمون قرابينهم للصنم الذى صنعه لهم هارون!



لوم موسى على معصية بنى إسرائيل

عندما تحول الشعب عن ربه الحقيقى، التفت الرب إلى موسى وقال له: «انصرف من أمامى وعد من حيث أتيت.. إن قومك الذين أخرجتهم من مصر قد ضلوا وزاغوا عن الحق» وكان موسى حتى ذلك الحين يفوق الملائكة مكانة ومنزلة، لكن بسبب معصية بنى إسرائيل وكفرهم أصبح يخاف من الملائكة خوفاً عظيماً.

وعندما سمعت الملائكة أن الرب صرف موسى من حضرته أرادوا قتله لولا أن أخفاه الرب تحت عباءته فلم تستطع الملائكة إيذاءه، بالرغم من أنه قد خاض قتالاً شرساً مع خمسة من ملائكة العذاب هم: «قِذِيف»، و«عاف» و«حماه» و«مشحيت» و«حرون»، الذين كان الرب قد أنزلهم لإهلاك بنى إسرائيل. ثم هرول موسى مسرعاً إلى الآباء الثلاثة: إبراهيم وإسحاق ويعقوب وقال لهم: «إن كنتم ستشاركون فى الحياة الآتية فقفوا بجانبى فى هذه الساعة العصيبة، لأن أطفالكم قد أصبحوا مثل الخراف وسيساقون للذبح».

فأخذ الآباء الثلاثة يدعون الرب ويبتهلون إليه لكيلا ينزل غضبه على بنى إسرائيل.

ثم قال موسى للرب: «ألم تعد هؤلاء الآباء الثلاثة بأن تجعل ذريتهم فى مثل عدد نجوم السماء؟ لماذا تهلكهم الآن إذاً؟» فتذكَّر الرب وعده للآباء الثلاثة!! وأمر ثلاثة من الملائكة بالعودة، وأبقى اثنين فقط.. لكن موسى

أسرع يقول للرب: «بحق وعدك الذى وعدت به بنى إسرائيل ـ اصرف عنهم الملاك "مشحيت"».

فاستجاب الرب لدعائه وصرف هذا الملاك. ثم واصل موسى دعاءه وقال: «بحق وعدك الذى وعدتنى به اصرف عنهم الملاك "حرون" فوقف الرب بجوار موسى وأعانه على هزيمة هذا الملاك، بأن ضربه ضربة غاص منها فى الأرض فحبسه الرب فى هذه البقعة التى تقع ضمن أملاك سبط جاد.

وبقى الملاك «حرون» سجيناً فى تلك البقعة وموسى يحرسه طوال حياته.. فكلما وقع بنو إسرائيل فى المعصية حاول "حرون" الخروج من سجنه ليفتح فمه الواسع يهلك بنى إسرائيل بنفخة من أنفاسه النارية ـ لكن موسى يرده حيث كان بأن ينطق باسم الرب فيهوى "حرون" فى أعماق الأرض.

وعندما مات موسى دفنه الرب فى بقعة تقع فوق الهاوية التى سجن فيها "حرون"، حتى إذا ما أذنب بنو إسرائيل وصعد "حرون" فأراد إهلاكهم، يرى "حرون" جثمان موسى فيستولى عليه الرعب ويرتد حيث كان خائباً مذعوراً.

وتغلب موسى على ملائكة العذاب... لكن ماذا يفعل يا ترى لكى يهدئ غضب الرب الذى أثاره كفر بنى إسرائيل وعبادتهم للعجل الذهبى؟

وقال الرب لموسى فى غضب: «لقد دفعتنى معاصى البشر ذات يوم للنزول من السماء لأرى ماذا يفعلون.. فانزل أنت الآن كذلك من السموات وانظر ماذا يفعل شعبك.. جدير بك أن تعامل مثل العبيد!! إنى لم أمنحك شرف العروج إلى السموات إلا من أجل بنى إسرائيل، وهاهم قد أغضبونى وما عادوا يستحقون منى كرامة ولا فضلاً.. هيا اذهب من هنا واذهب فانظر ماذا يفعل شعبك!!».

فأجاب موسى قائلاً: «يارب العالم.. منذ قليل كنت تقول لى "اذهب فأخرج شعبى من مصر"، فهل أصبحوا الآن شعبى أنا لا شعبك أنت؟! إنهم

وإن أذنبوا وكفروا بك شعبك وأطفالك.. فما الذى ستصنعه بهم الآن؟».

فأجابه الرب: «سأهلكهم وأجعل منك شعباً عظيماً».

فقال موسى: «يارب العالم... إن الكرسى لا ينتصب قائماً على ثلاثة أرجل.. فأنّى لكرسىٍّ برجل واحدة أن يقف وينتصب!! لا تشمت بنا سحرة المصريين الذين تنبأوا بأن إلههم «رع» سيحل غضبه على بنى إسرائيل ويجْرى دماءهم أنهاراً..».

ثم أخذ يسترحم الرب لبنى إسرائيل قائلاً: «تذكَّر تلهفهم على تلقِّى التوراة، بينما رفضها بنو عيسو».

فقال له الرب: «لكنهم قد خالفوها يا موسى.. فبعدما كانوا مخلصين لى فى المساء، لم يأتِ الصباح إلا وقد تركونى وعبدوا غيرى!!».

فرد موسى قائلاً: «لكن تذكَّر أنك عندما أرسلتنى إليهم فى مصر فأخبرتُهم بأنك أنت قد أرسلتنى إليهم آمنوا بى على الفور وسجدوا لك وعبدوك».

فقال له الرب: «لكن هاهم أولاء يسجدون لغيرى ويخرون لصنم لا يضر ولا ينفع».

فقال موسى: «لكن تذكَّر أنهم قد أرسلوا إليك غلمانهم ليقدموها لك ذبيحة محروقة».

فقال الرب: «وهم الآن يقدمون القرابين للعجل الذهبى».

فأجابه موسى: «لكن تذكَّر أنهم قد أقروا، على جبل سيناء، بأنك أنت إلههم».

فرد إليه الرب قائلاً: «لكن هاهم أولاء يقرون بهذا الصنم إلهاً لهم!!».

ولم تفلح كل هذه المحاولات فى إثناء الرب عن غضبه على بنى إسرائيل.. حتى عندما أراد موسى أن يحمل على عاتقه وزر عبادتهم للعجل الذهبى...!

وقال له الرب: «يا موسى... أيام كان بنو إسرائيل فى مصر أرسلتك إليهم لتخرجهم منها وحذرتك من ألا تخرج معهم الأغراب الذين كانوا يريدون الانضمام إليهم... لكنك كنت رحيماً وعطوفاً وأقنعتنى بأن أقبل التائبين ولا أردهم ولذا أخذت هؤلاء الأغراب معك. واستجبت لك وتركتك تفعل ما أشرت به علىّ.. بالرغم من أنى كنتُ أعلم عاقبة ذلك وأن هؤلاء الأغراب، "شعبك"، سيغوون بنى إسرائيل ويقنعونهم بعبادة العجل الذهبى».

فلما سمع موسى ذلك من الرب ظن أن الرب لن يقبل شفاعته فى بنى إسرائيل وكاد يقلع عن التشفع لهم... وما كان يعلم أن الرب سيغفر لبنى إسرائيل فعلتهم الشنيعة وأنه فقط يريد سماع موسى وهو يدعوه ويتوسل إليه.

وبدأ الرب يكلمه فى رفق قائلاً له: «حتى عندما كانوا فى مصر، كنت أعلم ما سيفعله هذا الشعب بعد تخليصه من العبودية... أما أنت يا موسى، فلم تكن تستشرف إلا الوحى الذى سأنزله على جبل سيناء، ورأيت أنا عبادتهم للعجل الذهبى بعد خروجهم» وكان الرب يريد من هذا الكلام أن يعلم موسى أن الرب لم يفاجأ بكفر بنى إسرائيل... ولهذا فقد استجمع موسى شجاعته من جديد وحاول إقناع الرب مرة أخرى بالعفو عنهم..

وقال موسى للرب: «يارب العالم... أعلمُ أن بنى إسرائيل قد استحقوا غضبك عليهم بعبادتهم للعجل الذهبى... لكنى أعتقد أن العجل سيأمر القمر بالظهور، بينما تأمر أنت الشمس فتشرق... وأنك ستنزل الندى، وهو الذى سيحرك الرياح.. وأنك ستنزل الغيث، بينما سيخرج هو النبات».

فأجابه الرب قائلاً: «لا يا موسى... إنك مخطئ فى ظنك هذا، مثلما أخطأوا، ولا تعلم أن هذا الصنم الذى يعبدونه ليس بشىء على الإطلاق!!».

فرد موسى قائلاً: «وإذا كان هذا الصنم ليس بشىء على الإطلاق» فلم غضبت على شعبك إذاً من أجل "لا شىء؟"»... ثم إنك أنت الذى قلت

بنفسك أن "شعبى" ـ الحشود المختلطة من الأغراب ـ هم الذين أغووا شعبك وحضوهم على عبادة الصنم... فلماذا تغضب إذاً على شعبك؟ ولئن كنت غاضباً منهم بسبب مخالفتهم للتوراة، فإنى أتعهد لك بأن يراعيها رفاقى: مثل هارون وأبنائه ويوشع وكالب ويائير وماشير وغيرهم كثيرين من الأتقياء.. بالإضافة إلىَّ أنا نفسى».

فأجابه الرب: «لقد أقسمت لك بأن "من يقدم قرباناً لأى إله إلا الرب الإله، فسأهلكه وأفنيه تماماً" وطالما أقسمتُ فإنى لا أحنث بقسمى أبداً».

لكن موسى رد عليه قائلاً: «لكنك ياربُّ قد أحللت لنا التحلل من أيماننا.. وكل قاض لا يكون عادلاً إلا إذا التزم بالقانون وبالشريعة التى يحاكم بها الناس... وأنت نفسك الذى فرضت لنا شريعة التحلل من أيماننا على يدى عالم بالشريعة، فالآن يمكنك أن تتحلل من يمينك على يدىّ أنا فأنا عالم بالشريعة».

وعند ذلك أمسك موسى بيد الرب وقال له: «كرر ورائى... "لقد تبت وندمت على الشر الذى كنت أنوى فعله بشعبى" فقال الرب وراءه ذلك فقال له موسى: «الآن فإنى أحلُّك من قسمك الذى أقسمت»[1].



(١) أستغفر الله العظيم إن قولهم إلا ضلال كبير.

عقاب الخطاة

عندما نزل موسى من على جبل سيناء، وجد خادمه الأمين يشوع فى انتظاره، إذ ظل ينتظر سيده عند سفح الجبل طوال الأربعين يوماً التى قضاها موسى فى السماء.. فعادا معاً إلى المخيم.

ولما اقترب موسى ويشوع من المخيم سمعا صراخ الناس وصيحاتهم فقال يشوع لموسى: «أسمع أصواتاً وكأن حرباً تدور بالمخيم..!!».

فأجابه موسى موبخاً: «أيليق بك ألا تستطيع التمييز بين الأصوات، وأنت الرجل الذى قُدِّر له أن يقود عشرات الآلاف من بنى إسرائيل؟!.. إن ما تسمعه ليس صيحات للنصر ولا نواح الهزيمة، بل صوت عبادة الأصنام».

وعندما اقترب موسى من المخيم أكثر وشاهد قومه يعبدون الصنم قال لنفسه: «كيف لى أن أعطيهم اللوحين الآن وأحرمُ عليهم عبادة الأوثان، بينما هم مشغولون بعبادة هذا الوثن؟ أنَّى لى ذلك وهم يقترفون هذه المعصية التى يستحقون عليها القتل؟».

لهذا فقد تراجع إلى الخلف وحاول الرجوع من حيث أتى دون أن يسلم قومه اللوحين، لكن شيوخ بنى إسرائيل هرولوا إليه وحاولوا انتزاعهما منه بالقوة دون جدوى فقد كان يفوقهم قوة وبأساً على الرغم من ضخامة أجسامهم وشدة بأسهم.

وفجأة رأى موسى الكتابة المكتوبة على اللوحين تتلاشى وأحس فجأة بازدياد ثقلهما.. إذ كانا خفيفين طالما كانت الكتابة عليهما، فلما زالت أصبحا ثقيلين ينوء بحملهما الرجل القوى المتين. وعندما رأى موسى ذلك ازداد كرهاً ونفوراً من إعطاء قومه اللوحين، خصوصاً وقد أصبحا خاويين مطموسين..

وفكر موسى فى نفسه قائلاً: «لئن كان الرب قد حرَّم على بنى إسرائيل أن يشاركهم عابد واحد للأوثان الاحتفال بعيد الفصح.. فكم سيكون غضبه إذا أعطيت الآن التوراة لهذا الشعب الوثنى؟».

لهذا، ودون أن يستشير الرب، كسر موسى اللوحين وألقاهما.. ومع ذلك فإن الرب قد شكر موسى على تكسيره للوحين.

وما كاد موسى بكسر اللوحين، إلا وهاج البحر وماج وفارت مياهه وأراد إغراق العالم.. فأخذ موسى العجل الذى صنعه قومه وأحرقه فى النار ثم طحنه حتى صار مسحوقاً ثم ذرَّاه فى الماء قائلاً: «ما الذى أهاجك هكذا على اليابسة؟» فقال له البحر: «إن العالم كله لا يستقر إلا بمراعاة التوراة... ولكن إسرائيل قد خان التوراة الآن وخالفها».

فقال موسى للمياه: «ليكن كل من سجد للصنم وعبده من نصيبك. فهل أنت راضية الآن بهذه الآلاف؟».

لكن البحر لم يقنع ولم ترتد مياهه إلى حوضها، حتى بعدما ابتلعت الآلاف من العصاه، واشترطت على موسى أن يشرب منها أطفال بنى إسرائيل.

وكان الشرب من مياه البحر من العقوبات الكبرى التى أنزلها موسى بالخطاة الآثمين. فقد نادى موسى قومه قائلاً: «ليأتِ إلى جانبى كل من يقف فى صف الرب»، فتجمع حوله كل أبناء لاوى ـ ولم يكونوا شاركوا بنى جلدتهم فى عبادة الأصنام. فجعل منهم موسى القضاة وأوكل إليهم على الفور مهمة تنفيذ الحكم بقطع رأس كل من شهد الشهود على أنه سجد

للصنم أو شارك فى عبادته.

وقد أمرهم موسى بذلك، وكأن الرب قد كلفه بذلك.. لكن ذلك لم يكن صحيحاً فلم يكلفه الرب بذلك، وإنما هو الذى فعله من تلقاء نفسه لكى يتمكن القضاة الذين عينهم من معاقبة جميع الخطاة والمرتدين فى يوم واحد.

أما الخطاة الذين شهد الشهود بأنهم قد شاركوا فى عبادة العجل دون أن يحذرهم أحد مسبقاً من عاقبة ذلك، فلم يتم إعدامهم بقطع رؤوسهم وإنما أرغموا على شرب مياه البحر المالحة حتى الموت.. إذ كان تأثير هذه المياه مثل تأثير المياه الملعونة على المرأة الزانية..

وأما الخطاة الذين لم يشهد ضدهم أحد، فلم يفلتوا بجريمتهم وإنما ضربهم الرب بالطاعون فماتوا جميعاً.



موسى يتشفع للشعب

كان عدد المرتدين الذين نفذ فيهم موسى حكم الإعدام يبلغ ثلاثة آلاف... لهذا قال موسى للرب: «يارب العالم.. أيهلك ستمائة ألف من الناس والشباب والعبيد والأغراب، من أجل ثلاثة آلاف فقط؟! أين رحمتك وعدلك إذاً؟!».

وعند ذلك لم يستطع الرب منع رحمته لأكثر من هذا وقرر أن يغفر لبنى إسرائيل خطاياهم.. ولم يفلح موسى فى تهدئة غضب الرب إلا بعد طول دعاء وتوسل.. وما كاد ينزل من السماء إلا وهرول عائداً إليها ليتشفع للشعب عند الرب.. و قد كان موسى على استعداد تام للتضحية بنفسه من أجل العصاة.. وما كاد يتم تنفيذ حكم الإعدام فى المرتدين إلا والتفت موسى إلى الرب قائلاً: «يارب العالم.. لقد دَمَّرتُ العجل الذهبى وقتلتُ عابديه.. فهل بقى من سبب لغضبك على بنى إسرائيل؟ إنهم ما فعلوا فعلتهم إلا لأنك أغدقت عليهم بالذهب والفضة، لذا فإن الغلطة ليست كلها غلطتهم!! والآن إما أن تغفر لهم أو تشطب اسمى من الكتاب الذى كتبته».

ولم يفلت موسى بهذه الكلمات الجريئة.. فعلى الرغم من أن الرب أجابه قائلاً: «من يعصنى ويعبد غيرى أشطبه من كتبى»، فإن تلك الكلمات كانت سبباً فى شطب اسمه من أحد الأسفار الخمسة.

أما فيما يتعلق ببنى إسرائيل فإن الكلام الذى قاله موسى للرب ـ وعاقبه عليه بشطب اسمه من سفر من الأسفار الخمسة ـ قد جعل مشاعر

الرب تتغير تجاههم وخاطبهم قائلاً لهم بأنه سيرسل إليهم ملاكه ليقود الشعب إلى الأرض الموعودة. وعلم موسى من ذلك أن الرب لم يهدأ غضبه تماماً، كما علم ذلك أيضاً وتأكد منه أكثر من العقوبة التى حلت ببنى إسرائيل فى ذلك اليوم.. فالأسلحة العجيبة التى منحها لهم الرب فى يوم الوحى على جبل سيناء منقوشاً عليها اسم كل واحد منهم، هذه الأسلحة تم سحبها منهم، كما تم سحب ثيابهم الأرجوانية[1] منهم.

فلما رأى موسى من ذلك أن سخط الرب على بنى إسرائيل لم يزل تماماً بَعْدُ، وأنه لا يريد فعل شىء آخر بهم، نقض خيمته وأخرها بعيداً عن المخيم مسافة ميل واحدٍ قائلاً لنفسه: «لا ينبغى للتابع أن يتعامل مع قوم نبذهم سيده».

ولم يذهب الشعب وحده إلى هذه الخيمة كلما أراد الرب لقضاء حاجة، وإنما ذهب إليها كذلك الملائكة والسيرافيم والملأ السماوى والشمس والقمر والأجرام السماوية الأخرى... إذ كانت كلها تعلم أن الرب سيكون هناك وأن خيمة موسى هى المكان الذى يجب أن يذهبوا إليه إذا ما أرادوا المثول أمام خالقهم.

لكن الرب لم يرض أبداً عن اعتزال موسى للشعب بهذه الطريقة وقال له: «لقد اتفقنا معاً على أن تهدئنى إذا ما غضبتُ على الشعب، وأن أقوم أنا بتهدئتك كلما غضبت أنت منهم.. ألم يكن هذا هو اتفاقنا؟.. حسناً، ما الذى سيفعله الشعب المسكين الآن إذا غضبنا أنا وأنت منهم؟! عد إليهم وأقم خيمتك فى وسطهم. وإن لم تعد إليهم فلا تنسى أن يشوع هناك فى الحرم وجاهز لاحتلال مكانك».

فأجابه موسى: «ما غضبت منهم إلا من أجلك.. لكنى أرى الآن أنك لن تتخلى عنهم».

---

(١) الثياب الأرجوانية ترمز إلى الملك والسيادة. (المترجم).

فأجابه الرب: «لقد قلت لك بالفعل إننى سوف أرسل لهم ملاكاً نيابةً عنّى».

ولكن موسى لم يقنع بذلك وأخذ يستحث الرب على ألا يدع الشعب فى عهدة ملك من الملائكة وأن يقودهم الرب بنفسه ويوجههم بشخصه.

بقى موسى فى السموات أربعين يوماً وأربعين ليلة... من اليوم الثامن عشر من شهر تموز إلى اليوم الثامن والعشرين من شهر آب.. يناشد الرب ويتوسل إليه أن يعيد بنى إسرائيل إلى سابق مكانتهم الأثيرة لديه.. لكن دون جدوى.. وفى اليوم الأخير توسل إلى الرب بأن يغفر لهم بشفاعة صنائع المعروف التى صنعها الآباء الثلاثة.. فاستجيب لدعائه.

وقال موسى للرب: «إن كنت غاضباً على بنى إسرائيل بسبب مخالفتهم للوصايا العشر، فاغفر لهم ذلك بشفاعة الاختبارات العشرة التى اختبرت بها أباهم إبراهيم والتى اجتازها جميعاً ونجح فيها جميعاً.. وإن كان بنو إسرائيل يستحقون منك أن تحرقهم عقاباً لهم على خطاياهم، فتذكَّر النار المحرقة التى ألقى إبراهيم نفسه فيها ليتمجد اسمك.

وإن كان يستحقون الموت قتلاً بالسيف، فتذكر أن إسحاق لم يتردد لحظة واحدة فى الاستلقاء على المذبح ليُضَحَّى به قرباناً لك!! وإن كانوا يستحقون عقاب النفى من بلادهم، فتذكر أن يعقوب أسرع بالاستجابة لأمرك وترك وطنه وبيته وهرول إلى حاران».

كما قال موسى للرب: «أتُراك ستبعث الموتى يارب؟».

أجابه الرب: «هل كفرت يا موسى؟! هل تشك فى بعث الموتى؟!!».

فرد موسى قائلاً: «إن كنت لن تبعث الموتى أبداً، فأنزل غضبك وسخطك على بنى إسرائيل.. لكن إن كنت ستبعثهم فماذا ستقول لآباء هؤلاء إن سألوك عما فعلته بأبنائهم؟!».

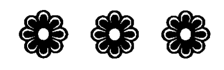
وسكت موسى قليلاً ثم واصل كلامه قائلاً: «لن أطلب منك شيئاً آخر

من أجل بنى إسرائيل.. سوى ما كنت مستعداً لمنحه لإبراهيم حينما تشفع لك فى سدوم. لقد قلت لإبراهيم إنك ستغفر لسدوم وتصفح عنها إن وجدت بها عشرة من المتقين.. وأنا الآن سأذكر لك عشرة من المتقين فى بنى إسرائيل: أنا وهارون وإليعزر... وإيثامار.. وفنحاس ويوشع.. وكَالب».

فأجابه الرب قائلاً: «لكن هؤلاء سبعة يا موسى وليسوا بعشرة!!».

فرد موسى قائلاً: «لكنك أنت الذى قلت لى الآن إنك ستبعث الموتى.. لتحسب إذاً من العشرة الآباء الثلاثة، فيكتمل عدد المتقين عشرة كما تريد».

وقد كان لذكر موسى للآباء الثلاثة فائدة أكبر من ذكره لبقية العشرة جميعاً.. فقد استجاب الرب لتوسلاته وغفر لبنى إسرائيل جريمتهم ووعد بأن يقودهم إلى الأرض الموعودة بنفسه.



حكمة الرب الخفية

لم يقنع موسى بما أنعم عليه الرب من غفران خطيئة بنى إسرائيل... فقد طلب منه ثلاث خصال أخرى: أن تقيم الشكينة فى وسط بنى إسرائيل، وألاَّ تقيم مع الأمم الأخرى، وأن يعلم حكمة الرب فى قضاء الخير والشر... إذ كان يرى المتقين أحياناً يعانون والعصاة أحياناً يتنعمون، ويرى الفريقين أحياناً فى عذاب ويراهما أحياناً فى نعيم..!!

وقد طلب موسى ذلك من الرب فى لحظة غضبه، ولهذا فقد طلب منه الرب أن يصبر حتى تزول فورة غضب الرب... ثم استجاب لطلبيه الأولين استجابة كاملة، ولم يستجب للثالث إلا بعض الاستجابة.

وأراه الرب خزائن ثواب المتقين والمقسطين، التى هيأها وخزنها لهم فى السموات وشرح لهم كل شىء بالتفصيل: فهنا ثواب المتصدقين.. وهنا ثواب من يكفلون الأيتام... ثم أخذ يشرح له ويريه غاية كل خزانة من خزائن الثواب حتى وصل به إلى خزانة هائلة الحجم..

سأل موسى الرب: «ولمن تكون هذه يا رب؟».

فأجابه الرب: «إن الخزائن التى أريتك إياها أثيب منها من استحقوا الثواب بأعمالهم.. أما هذه الخزانة الكبيرة التى تراها فإنى أثيب منها الذين لا يستحقون.. لأنى كريم جواد وليس لكرمى ولا لجودى حدود».

ورضى موسى بما قاله له الرب من ثواب الذين يستحقون.. دون أن

يعرف الحكمة من إثابة الذين لا يستحقون. لأن الرب إنما قال له إنه كريم حتى مع من لا يستحقون كرمه.. دون أن يبين له كيف ولماذا!!

لكنه لم يَرَ كذلك ثواب المتقين كاملاً.. فإن الرب لم يره إلا الثواب الذى يسبق الوليمة التى تقام لهم فى الفردوس... ولم يره الثواب الذى أعده لهم بعد تناول هذه الوليمة.. «فلم تَرَ عين، سوى عين الرب، ما أعده الرب للمتقين فى الجنان».

* * *

ثم حدثت حادثة أراد بها الرب أن يعرف موسى كيف أن الإنسان صغير لدرجة لا تمكّنه من فهم حكمة الرب البالغة فيما يشاء ويقدّر...

فبينما كان موسى على قمة جبل سيناء رأى من مكانه المرتفع رجلاً أتى إلى النهر فانحنى ليشرب منه فسقطت حافظة نقوده ولم ينتبه الرجل لذلك فشرب وانصرف... ثم جاء رجل آخر كان يرى ما حدث فالتقط الحافظة وأطلق ساقيه للريح. فلما أدرك صاحب الحافظة أنها قد ضاعت منه عاد إلى النهر فوجد رجلاً ثالثاً فظن أنه هو الذى أخذ نقوده فقال له: «أعد إلىّ نقودى على الفور وإلا قتلتك... فلم يأتِ بعدى إلى هنا سواك».. لكن الرجل أنكر ما يقوله صاحب الحافظة فاستل الأخير سيفه وقتله.

عند ذلك صاح موسى قائلاً فى فزع: «يارب.. أتوسل إليك أرنى حكمتك فيما رأيته بعينىّ.. لماذا تركت هذا البرئ يُقتل؛ بينما فر اللص هارباً دون أن يؤخذ بجريمته؟!».

فأجابه الرب: «إن الرجل الذى التقط الحافظة وهرب بها إنما استرد ماله، فقد سرقها منه الأول الذى سقطت منه عند النهر.. أما ذلك الرجل القتيل الذى تظنه بريئاً فإنما نال جزاء قتله لأبى القاتل فى الماضى، ولا يعلم أيهم بذلك».

ثم أطلع الرب موسى على المستقبل.. فأراه كل جيل وأنبياءه، وكل جيل وحكماءه، وكل جيل ومفسرى الشريعة فيه، وكل جيل وزعماءه وكل جيل وأتقياءه.

فقال موسى للرب: «يارب... أرجوك علِّمنى حكمتك فيما تشاء وتقدِّر.. فإنى أرى كثيراً من المتقين محظوظين، وكثيرين آخرين ليسوا كذلك.. وأرى أشراراً محظوظين، وغيرهم كثيرين مثلهم ليسوا كذلك..».

فأجابه الرب: «لن تستطيع إدراك حكمتى فى تصريف شئون العالم.. لكنى سأذكر لك شيئاً منها.. فعندما أرى بعضاً من بنى آدم لا يتوقعون منى ثواباً، لا على أفعالهم ولا على أفعال آبائهم.. ولكنهم يدعوننى ويتوسلون إلىّ، فإنى أستجيب لدعائهم وأرزقهم بما يطلبون لتوسلهم إلىّ».

* * *

وبرغم أن الرب قد استجاب لرغبات موسى كلها، فإنه قال للرب: «يارب.. أتوسل إليك أرنى مجدك». فأجابه الرب قائلاً: «لن ترى مجدى وإلا هلكتَ.. لكن حيث أننى أقسمت لك من قبل بأن ألبى كل رغباتك.. ولأنك الآن تمتلك اسمى السرى، فسألقاك حتى ألبى لك رغبتك فى رؤيتى.. ولكن جزئيّاً. ارفع فتحة الكهف وسآمر كل الملائكة الذين يخدموننى بأن يمروا أمامك فإذا سمعت «الاسم» الذى بُحْتُ لك به، فاعلم أنى هو فاثبت ولا تتزعزع».

وقد كان هناك سبب لئلا يرى الرب موسى مجده.. فقد قال له: «عندما كشفت لك عن نفسى فى الحرشة المشتعلة، لم تُرِدْ رؤيتى... والآن ها أنت تريد رؤيتى... لكننى لا أريد ذلك».

* * *

صفات الرب الثلاثة عشر

كان الكهف الذى توارى فيه موسى أثناء مرور الرب من أمامه مع موكبه السماوى، هو نفس الكهف الذى توارى فيه إيليا عندما كشف له الرب عن نفسه على جبل حوريب... ولو كان بهذا الكهف شق، ولو فى مثل صغر ثقب الإبرة، لهلك موسى وإيلياء من شدة النور الإلهى الذى بلغ من شدته أن انعكس إشراقه على وجه موسى فأنار بنور وضّاء، على الرغم من أنه قد أغلق الكهف على نفسه فى إحكام.

لكن موسى لم ينل هذا التكريم العظيم إلا بعد تعريض نفسه لخطر عظيم.. إذ ما كادت الملائكة تسمعه وهو يطلب من الرب أن يريه مجده، إلا وصاحت فى غضب قائلة: «نحن الذين نعبدك ليل نهار لا نرى مجدك... وهذا المولود من امرأة يطلب رؤيته!!» وهمُّوا بقتل موسى لولا أن حماه الرب بيده. ثم ظهر له الرب فى الغمام.

وكانت تلك هى المرة السابعة التى يظهر فيها الرب على الأرض.. وفى هذه المرة تنكَّر فى هيئة قائد فرقة المنشدين فى الهيكل، وقال لموسى: «إذا عصانى بنو إسرائيل ثم دعونى بالصفات الثلاثة عشر التالية، فسأغفر لهم خطاياهم: فأنا الإله الرزاق الذى يرزق الخلائق كلها.. وأنا الرحمن الذى يرحم البشر من كل شر.. وأنا الكريم الذى يعين وقت الحاجة.. وأنا الحليم مع المتقين ومع العصاة كذلك.. وأنا ذو الفضل المنعم على من لا يستحقون ثواباً لسوء أعمالهم.. وأنا الموفى بما وعدت به المتقين من ثواب، وأنعم

بثوابى على ذريتهم حتى الجيل الألفين... وأنا الغفار للمعاصى والكبائر، لمن يتوبون..».

فلما سمع موسى ذلك، وخصوصاً لما سمع أن الرب حليم مع الخطاة، دعا ربه قائلاً: «فاغفر إذاً يارب لبنى إسرائيل عبادتهم للعجل الذهبى».

ولو كان موسى دعا الرب ساعتها بأن يغفر لبنى إسرائيل ما تقدم من ذنوبهم وما تأخر لكان استجاب لدعائه.. إذ كان ذلك أوان رحمته.. لكن موسى لم يطلب إلا غفران خطيئة عبادة العجل فاستجاب له الرب وغفر لبنى إسرائيل ذلك.

* * *

كان اليوم الذى أظهر الرب فيه لموسى ولشعبه عِظَم رحمته، هو اليوم العاشر من شهر «تشرى».. وكان ذلك هو اليوم الذى تلقى موسى فيه من الرب لَوْحَى التوراة للمرة الثانية.. وقد قضى بنو إسرائيل كلهم هذا اليوم فى الصلاة والاستغفار.. لكيلا تضلهم روح الغواية مرة أخرى..

وارتفعت أصوات بكائهم ودعائهم إلى عنان السماء، مع دعاء موسى وصلواته، فأشفق الرب عليهم وقال لهم: «أقسم لكم يا أولادى أن تكون هذه الدموع التى تذرفونها الآن دموع فرح وسعادة.. وأن يكون هذا اليوم يوم الغفران والصفح وإلغاء كل معاصيكم.. لكم ولأطفالكم ولأطفال أطفالكم من بعدكم إلى نهاية الزمان».

ولم يَصِرْ هذا اليوم هو «عيد الغفران» السنوى، والذى لولاه لا يستطيع العالم البقاء، والذى سيستمر كذلك حتى فى العالم الآتى عندما تنتهى كل الأعياد الأخرى. ومع ذلك فليس «عيد الغفران» مجرد ذكرى لليوم الذى تصالح فيه الرب مع بنى إسرائيل وغفر لهم ذنوبهم، وإنما هو كذلك اليوم الذى تلقّى فيه بنو إسرائيل التوراة فى النهاية. إذ بعدما قضى موسى

أربعين يوماً فى الصلاة والدعاء حتى غفر الرب لبنى إسرائيل خطاياهم، بدأ يلوم نفسه على كسر اللوحين ويقول: «لقد طلب منى بنو إسرائيل أن أتشفع لهم عند الرب ليغفر لهم خطاياهم.. فمن ذا الذى سيتشفع لى عنده ليغفر لى خطيئتى؟».

فقال له الرب: «لا تحزن على ضياع اللوحين الأولين، فما كان بهما إلا الوصايا العشر - أما اللوحان الثانيان اللذان سأعطيكهما الآن، فسيحتويان على الهالاكوت والمدراش والهاجّادوت».

وفى غرة شهر أيلول، قرع موسى الطبول فى جميع أرجاء المخيم وأعلن للناس أنه سيذهب مرة أخرى إلى الرب ويبقى عنده أربعين يوماً، ليتلقى منه اللوحين الثانيين؛ وقال لهم ذلك لكى يعلموا مقدماً بغيابه فلا ينزعجوا. وبقى فى السماء أربعين يوماً، وحتى العاشر من شهر تشرى عندما عاد بالتوراة وسلّمها إلى بنى إسرائيل.



اللوحان الثانيان

بينمـا أعطى الـرب لموسى اللوحـين الأولين على جـبل سـيناء وسط احتفالات عظيمة، فإنه قد أعطاه اللوحين الثانيين بهدوء.. إذ قال الرب: «ليس أحب إلىَّ من التواضع الصموت.. لقد أعطيت موسى اللوحين الأولين وسط احتفالات صاخبة ولفتُّ نظر الحساد إليهما فأصابتهما العين.. فانكسرا فى النهاية!!».

كما أن اللوحين الثانيين تميزا عن الأولين بأنهما من صنع الإنسان.. وليس من صنع الرب... وقد عامل الرب بنى إسرائيل فى ذلك.. مثل الملك الذى اتخذ لنفسه زوجة وكتب عقد الزواج بيده. وذات يوم لاحظ الملك أن زوجته تتهامس فى حميميَّة مع أحد العبيد.. فغضب من فعلها المشين وطردها خارج منزله. ثم جاءه من زوَّجها له وقال له: «ألا تعلم يا مولاى... من أين اخترت عروسك؟ لقد تربت ونشأت وسط العبيد.. لهذا فهى تحبهم وتألفهم» وعند ذلك هدأ غضب الملك وقال: «خذ ورقاً ودواة ومُرْ كاتباً فليكتب عقد زواج جديد... وإليك ختمى فاختم به العقد».

وهكذا كانت حال بنى إسرائيل مع الرب..

فقد قال موسى له: «ألا تعلم.. من أين أخرجت بنى إسرائيل؟ ألا تعلم أنك أخرجتهم من أرض عبدة الأوثان؟» فأجابه الرب: «أتريدنى أن أغفر لهم؟ حسناً.. سأفعل. هاتِ لى هنا لوحين لأكتب لهم عليهما.. بدلاً من الأولين. ولكى أكافئك على مخاطرتك بحياتك من أجلهم، سأرسلك فى المستقبل مع إيلياء.. لكى تجهزا بنى إسرائيل لخلاصهم النهائى».

وجلب موسى اللوحين من منجم للماس أعلمه الرب بمكانه، والقشارة التى سقطت أثناء تهذيبه اللوحين جعلت موسى رجلاً عظيم الثراء.. لذا فقد أصبح يمتلك الآن جميع مؤهلات النبى: الثروة والقوة والتواضع والحكمة. وفيما يخص هذه الأخيرة.. أى الحكمة.. فقد أوكل الرب لموسى جميع بوابات الحكمة الخمسين.. عدا واحدة.

كما كانت القشارة التى تساقطت أثناء تهذيب اللوحين من نصيب موسى وحده.. كانت التوراة، التى كتبت فوق هذين اللوحين، مخصصة فى الأصل لموسى وحده ولذريته من بعده.. لكنه كان كريماً سخيّاً وأباح لبنى إسرائيل بالتوراة. وكانت هذه الثروة التى حازها موسى وهو يصوغ التوراة.. مكافأة له على توليه مسئولية جثمان يوسف، بينما كان جميع الشعب مشغولاً بجمع كنوز المصريين. والآن قال الرب: «إن موسى يستحق القشارة التى تسقط من اللوحين. أما بنو إسرائيل، الذين لم يشغلوا أنفسهم بالأعمال الصالحة، فقد غنموا أفضل كنوز المصريين عند خروجهم من مصر. فهل يبقى موسى فقيراً.. وهو الذى رأى جثمان يوسف؟ لهذا سأغنيه بهذه القشارة؟».

وخلال الأربعين يوماً التى قضاها فى السماء، تلقى موسى - بالإضافة إلى اللوحين - التوراة كلها.. أجل.. العهد القديم والمشنا والتلمود والهاجّاداه. بل أوحى إليه بكل ما سيسأل طلبة العلم الحاذقون أساتذتهم عنه.

وعندما أمره الرب بأن يعلِّم بنى إسرائيل كل ذلك.. طلب من الرب أن يكتب له التوراة كلها ليعطيها لبنى إسرائيل هكذا.. مكتوبة. ولكن الرب قال له: «وددتُ لو أعطيت بنى إسرائيل التوراة كلها مكتوبة.. لكن جميع الأمم ستقرأ التوراة فى المستقبل مترجمة إلى اللغة اليونانية ويقولون: «نحن بنو إسرائيل الحقيقيون.. نحن أطفال الرب» وساعتها سأقول لهم: «لو كنتم أطفالى حقّاً - كما تزعمون - فإن أطفالى لابد يعرفون السر الذى أفضيتُ

به إليكم... صحيح؟ قولوا لى الآن ما هى التعاليم الشفوية التى أسررت بها إليكم... إن كنتم أنتم أطفالى!».

وقد كان ذلك هو السبب الذى جعل الرب يعطى موسى «الأسفار الخمسة» فقط مكتوبة... بينما تلقَّى موسى جميع الأجزاء الأخرى من التوراة شفوية. ومن هنا فقد كان العهد الذى أقامه الرب مع بنى إسرائيل هو كالتالى: «لقد أعطيتكم المكتوب مكتوباً.. والشفوى شفويّاً. فإن خلطتم أحدهما بالآخر، فلن أثيبكم. ولم أُقِمْ هذا العهد معكم إلا من أجل التوراة وحدها.. ولو لم تكونوا قد اعترفتم بالتوراة وقبلتموها، لكنتُ تبرأتُ منكم أمام جميع الأمم. وقبل أن تقبلوا التوراة، كنتم كغيركم من الأمم.. ومن أجل التوراة وحدها رفعتكم على جميع الأمم الأخرى. وحتى ملككم، موسى، يدين بمكانته المتميزة، فى هذا العالم وفى العالم الآتى كذلك، للتوراة وحدها. ولو لم تكونوا قبلتم التوراة، لكنت أهلكت العالم العلوى والعالم السفلى».

الآن كرَّس موسى نفسه لدراسة التوراة.. أربعين يوماً وأربعين ليلة، وظل طوال هذه المدة لا يذوق طعاماً ولا شراباً.. عاملاً بالمثل القائل: «إذا كنتَ فى روما فافعل كما يفعل الرومان». وقد طبقت الملائكة هذا المثل عندما زارت إبراهيم، إذ أكلوا مثلما يأكل البشر.. وفعل موسى مثل ذلك عندما كان بين الملائكة فى السماء فلم يأكل مثلهم. وكان يتقوَّى ببهاء الشكينة التى يتغذى على بهائها كذلك «الهايُّوت» المقدسة الموجودة فى العرش الإلهى. وكان موسى يقضى النهار يتعلم التوراة من الرب، ثم يقضى الليل فى حفظ ما تعلمه. وقد جعل نفسه قدوة لبنى إسرائيل، لعلهم يتأسون به فيشغلون أنفسهم بدراسة التوراة ليلاً ونهاراً.

وخلال تلك الفترة كذلك، سجل موسى التوراة كتابةً، على الرغم من أن الملائكة استغربوا أن يكلفه الرب بكتابة التوراة.. وعبَّروا عن دهشتهم قائلين للرب: «كيف تأذن لموسى بأن يكتب ما يشاء ثم يقول لبنى إسرائيل: «لقد

أعطيتكم التوراة التى كتبتها بنفسى؟» لكن الرب أجابهم قائلاً: «لا.. لا.. بعيد على موسى التقىّ أن يفعل ذلك».

عندما انتهى موسى من كتابة التوراة مسح القلم الذى كان يكتب به فى لِمَّته، ومن هذا الحبر السماوى كان يشع النور من وجه موسى. وبهذه الطريقة أوفى الرب بوعده لموسى، عندما قال له: «سأصنع أمام أعين قومك كلهم، معجزات وعجائب لم ترها عين من قَبْلُ على الأرض، ولا رأتها أمة من الأمم».

وعندما عاد موسى من السماء، اندهش الشعب دهشة عظيمة عندما رأوا النور يشع من وجهه، واختلط عندهم الخوف بالدهشة. وقد كان خوفهم ذلك نابعاً من وقوعهم فى المعاصى.. إذ كانوا قبل الخطيئة قادرين على مشاهدة «مجد الرب الذى يشع كالنار الآكلة» دون رهبة. وذلك بالرغم من أن مجد الرب يتكون من سبع طبقات من النار إحداها فوق الأخرى. لكن بعد عبادتهم للعجل، لم يقدروا على النظر فى وجه الرجل الذى كان وسيطاً بينهم وبين الرب. لكن موسى هدَّأهم وأخذ فى الحال يبلغهم بالتوراة التى تلقاها من الرب.

وكانت طريقته فى تعليمهم كالتالى... فى البداية يأتى إليه هارون فيفضى إليه بكلام الرب.. ثم عندما ينتهى من هارون يأتى إليه ابنا هارون، ألعازار وإيثامار، فيعلمهما، بينما يجلس هارون عن يمينه مستمعاً. وعندما ينتهى من هؤلاء، يأتيه شيوخ الشعب فيتعلمون منه، بينما يجلس ألعازار عن يمين أبيه، بينما يجلس إيثامار عن يسار موسى، ويستمعان. ثم عندما ينتهى موسى من تعليم الشيوخ، يأتى بقية الشعب ليتعلموا من الشيوخ، بينما ينصرف موسى. ثم يقوم هارون بتكرار ما تعلمه، ثم يفعل ولداه مثله وكذلك الشيوخ، حتى إذا ما انتهوا من ذلك.. يكون كل واحد ـ بدءاً من هارون إلى أصغر فرد فى الشعب قد كرر ما تعلمه أربع مرات. لأن الرب قد أمر موسى بأن يكرر التوراة على الشعب أربع مرات.

إحصاء الشعب

عندما رأى الناس النور يشع من وجه موسى، قالوا له: «لقد أهاننا الرب بسبب المعصية التى ارتكبناها. وأنت تقول إن الرب قد غفر لنا ذلك وتصالح معنا. وقد كنت أنت يا موسى قد أُهِنْت معنا، لكننا نرى الآن أن الرب قد أكرمك مرة أخرى، وظللنا نحن مهانين، على الرغم من تصالح الرب معنا».

فذهب موسى إلى الرب وقال له: «عندما أهنتهم، أهنتنى أنا أيضاً معهم.. لهذا ينبغى أن تكرمهم كما أكرمتنى».

فأجابه الرب: «حقّاً.. كما أكرمتك ورفعت قدرك، سأكرمهم وأرفع قدرهم. قم بإحصاء عددهم ومن خلال ذلك أظْهِر للعالم مدى قرب هذا الشعب من قلبى، وهو الذى اختارنى مَلِكاً له وأنشد عند البحر الأحمر قائلاً: «هذا هو إلهى وسأمجده»».

فردَّ موسى قائلاً: «يارب العالم.. توجد أمم أخرى كثيرة لم تشغل نفسك بإحصاء عدد كل منها.. وتأمرنى بإحصاء عدد بنى إسرائيل وحدهم!» فأجابه الرب: «كل هذه الأمم الأخرى لا تخصنى.. فمصيرهم الهلاك فى نار جهنم.. أما إسرائيل فهو يخصنى، وكما يكون مِلْكُ المرء عزيزاً عليه، فإن إسرائيل عزيز علىّ، لأننى جعلته ملكاً لى بعدما بذلت جهوداً كبيرة من أجل ذلك»!!.

فقال موسى: «يارب العالم... لقد وعدت أبانا وإبراهيم قائلاً: «سأجعل ذريتك فى مثل عدد نجوم السماءِ.. والآن تأمرنى بإحصاء عدد بنى إسرائيل! فإذا كان أبوهم إبراهيم لم يقدر على عدِّهم.. فكيف لى أن أقدر على ذلك؟».

لكن الرب طمأن موسى قائلاً: «لست فى حاجة لأن تعدَّهم واحداً واحداً.. لكن عليك فقط أن تجمع القيم العددية لأسماء الأسباط وسيكون الناتج هو عددهم».

وقد فعل موسى ذلك بالفعل فاستطاع أن يعرف عدد اليهود.. فوجد أنهم ستمائة ألف إلا ثلاثة آلاف، هم الذين أهلكهم الوباء عقاباً لهم على عبادتهم للعجل الذهبى.

ومن هنا نعرف حقيقة الفرق بين عددهم عند خروجهم من مصر وعددهم عندما قام موسى بإحصائهم للمرة الثانية.

وقد عامل الرب بنى إسرائيل فى ذلك، بالطريقة التى عامل بها الملك قطيعه.. فعندما أخبر الرعاة أحد الملوك بأن الذئاب قد هاجمت قطيعه وقتلت بعضه أمرهم بأن يعدهم.. لكى يعرف حجمَ خسارته.

* * *

ولم تكن تلك هى المرة الأولى التى يتم فيها إحصاء عدد بنى إسرائيل... فقد أحصى يعقوب أهل بيته عند دخولهم إلى مصر.. وأحصى موسى بنى إسرائيل عند خروجهم من مصر.. ثم أحصاهم بعد عبادتهم للعجل الذهبى... ثم عند تقسيم المخيم إلى أقسام... وأحصوا مرة خامسة عند توزيع الأرض الموعودة عليهم... وأحصى شاؤول الشعب مرتين: مرة عندما انطلق لحرب «ناحاش» العمونى، ومرة أخرى عندما انطلق لحرب العماليق... ومما له دلالة على مدى الرفاهية التى صار إليها بنو إسرائيل،

أنهم عندما أحصاهم شاؤول فى المرة الأولى أحضر كل واحد منهم حصاة، أما فى المرة الثانية فقد أحضر كل واحد منهم شاة.

وفى عهد داود الملك تم إحصاء الشعب، لكن دون أن يأمره الرب بذلك، فكان عاقبة ذلك الإحصاء وخيمة... على الشعب وعلى الملك كذلك[١].

وأحصاهم "عزرا» للمرة الأخيرة عند عودتهمَ من الأسر البابلى.

وبصرف النظر عن هذه المرات التسع.. فإن الرب سيحصيهم بنفسه فى العالم الآتى.. عندما يزيد عددهم إلى درجة لا يستطيع معها بشر إحصاءهم.

* * *

وفى المرة الثانية التى أحصى فيها بنى إسرائيل، كان على كل واحد تخطى العشرين من عمره أن يقدم قرباناً نصف شاقل[٢]. لأن الرب قال لموسى: «إنَّهم يستحقون القتل عقاباً لهم على عبادة العجل الذهبى... لكن ليفتدى كلٌّ منهم روحه بالمال، لكى يخلِّص نفسه من عقوبة الإعدام».

وعندما سمع الناس ذلك أصابهم غم عظيم.. وقالوا لأنفسهم: «لئن قدمنا ما نهبناه من المصريين فداءً لأنفسنا، سنكون قد أضعنا تعبنا فى جمع كنوزهم سدى. إن الشريعة تفرض على الرجل الذى لوث شرف امرأة أن يكفر عن فعلته بثلاثين شاقلاً من الفضة، أما نحن الذين لوثنا كلمة الرب فينبغى علينا أن ندفع مبلغاً لا يقل عن ذلك. كما أن الشريعة تفرض على صاحب الثور الذى يَقتل ثوره عبداً، أن يدفع ثلاثين شاقلاً من

(١) الإشارة هنا إلى الإحصاء المزعوم فى العهد القديم (صموئيل الثانى - ٢٤) حيث أمر داود بإحصاء الشعب لمعرفة عدد الرجال القادرين على حمل السلاح، فغضب الرب منه، إذ لم يأمره بهذا الإحصاء، فضرب أورشليم بوباء دام ثلاثة أيام. (المترجم).

(٢) الشاقل وحدة وزن سامية قديمة وليست لها قياس ثابت محدد إذ كانت تختلف من مكان إلى آخر. (المترجم).

الفضة.. وبالتالى فعلى كل إسرائيلى منا أن يدفع الآن مبلغاً مماثلاً، لأننا جعلنا "مجدنا مثل الثور الذى يأكل العنب». لكن هاتين الغرامتين لن تكفيا، لأننا أسأنا للرب الذى أخرجنا من مصر، بعبادتنا للعجل الذهبى... والشريعة تعاقب على الإساءة بغرامة قدرها مئة شاقل من الفضل».

وعلم الرب ما قالوا فى أنفسهم، فقال لموسى: «اسألهم لماذا هم خائفون. إننى لم أطلب منهم دفع غرامة تماثل الغرامة التى يغرمها الذى يغوى امرأة أو يلوث شرفها.. ولا حتى أنزلت بهم غرامة الإساءة، ولا غرامة صاحب الثور النطّاح.. ولكن كل ما طلبتُه منهم هو ذلك». ثم أرى موسى عند النار عملة صغيرة تمثل ما قيمته نصف شاقل.. وكان على كل من عبر البحر الأحمر أن يدفع هذه العملة قرباناً.

وقد كانت هناك أسباب كثيرة جعلت الرب يغرمهم ما قيمته نصف شاقل.. فكما أنهم اقترفوا معصية عبادة العجل الذهبى فى منتصف النهار، سيدفعون نصف شاقل.. وكما أنهم اقترفوا هذه المعصية فى الساعة السادسة من النهار، فإن عليهم أن يدفعوا نصف شاقل، وهو مبلغ يساوى ست قمحات من الفضة. كما أن هذا النصف شاقل يحتوى على عشرة «جيره»، ومن هنا فقد كانت الغرامة مناسبة لمن "خالفوا الوصايا العشر". كما أن النصف شاقل سيكون غرامة يغرمها بنو يعقوب العشرة، على معصيتهم التى ارتكبوها عندما باعوا أخاهم يوسف عبداً.. إذ حصل كل منهم عند بيعه على نصف شاقل.

* * *

صدور الأمر ببناء الهيكل

فى ذلك اليوم المشهود، "يوم الغفران"، أعلن الرب غفرانه ذنب بنى إسرائيل قائلاً: «لقد غفرت لهم كما قلتُ»..

فقال موسى: «لقد اقتنعتُ الآن بأنك قد غفرت لبنى إسرائيل.. لكننى أريدك الآن أن تُرِىَ الأمم الأخرى أنك قد تصالحت مع بنى إسرائيل». لأن هذه الأمم الأخرى كانت تقول: «كيف لشعب أمره الرب على جبل سيناء بألا يتخذ آلهة أخرى غيره ثم يعبد بعدها بأربعين يوماً العجل الذهبى ـ كيف لشعب كهذا أن يتوقع من الرب أن يتصالح معه أبداً؟».

لهذا قال الرب لموسى: «وحياتك... لأجعلن الشكينة تقيم بينهم، لكى يعلم الجميع أننى قد غفرت لبنى إسرائيل. وسيكون حرمى وقدسى (= الهيكل) بينهم شهادة على غفرانى لذنوبهم، ولهذا سيسمَّى «هيكل الشهادة».

وكان تشييد الهيكل بين بنى إسرائيل استجابة مباشرة من الرب لطلب الشعب الذى قال: «يارب العالم... إن لملوك الأرض قصوراً بها مائدة وشمعدانات وغيرها من اللوازم الملكية.. فيُعْرَف بها ملوكهم. ألا يكون لك أنت أيضاً ـ وأنت ملكنا ومخلصنا ونصيرنا ـ لوازمك الملكية، ليعلم جميع ساكنى الأرض أنك أنت ملكهم؟».

فأجابهم الرب: «يا أولادى... إن الملوك الذين من لحم ودم يحتاجون

إلى هذه الأشياء.. لكنى لا أحتاج إليها.. لأننى لا أحتاج إلى طعام أو شراب. ولا أحتاج كذلك إلى النور.. فالشمس والقمر - اللذان هما من عبادى - ينيران العالم بالنور الذى يتلقيانه منى. لهذا فلا حاجة بكم لأن تضعوا هذه الأشياء من أجلى... إذ بدون أمارات التكريم هذه.. سأجعل كل الخيرات من نصيبكم.. اعترافاً منّى بكرامات آبائكم..».

لكن بنى إسرائيل أجابوه: «يارب العالم.. لا نريد أن نعتمد على آبائنا.. فلا شك فى أنك أنت أبونا.. وإن أنكرنا إبرَاهيم وتجاهلنا إسرائيل (=يعقوب)». وعند ذلك قال لهم الرب: «طالما تصرون على تحقيق رغبتكم، فافعلوا ما تريدون.. لكن افعلوا ذلك بالطريقة التى آمركم بها. فمن عادة الناس، إن كان لهم أطفال صغار، أن يعتنوا بهم ويمسحوهم بالزيت ويحموهم ويطعموهم ويحملوهم.. لكن عندما يكبر الطفل وينمو عوده فإنه يقيم لأبيه مسكناً جميلاً ومنضدة وشمعداناً. وعندما كنتم صغاراً كنت أطعمكم وأحمِّيكم وأناولكم الماء لتشربوا وأحملكم على أجنحة النسور.. لكنكم كبرتم الآن وبلغتم الحلم، فأريد منكم أن تبنوا لى بيتاً وتضعوا فيه منضدة وشمعداناً ومذبحاً تحرقون عليه البخور».

ثم ذكر لهم الرب بالتفصيل كيف يجهزون الهيكل وكيف يفرشونه.. قائلاً لموسى: «أخبرهم أننى آمرهم ببناء الهيكل... ليس لأننى لا أجد مسكناً أقيم فيه.. لأننى قبل أن أخلق العالم شيدت هيكلى فى السماء.. ولكن أريد منهم أن يشيدوه كعلامة على حبى لهم.. فسأغادر هيكلى السماوى وأقيم بينكم.. "فليصنعوا لى قدساً لعلى أقيم بينهم"».

وعندما سمع موسى هذه العبارة الأخيرة استولى عليه رعب عظيم.. لم يستولِ عليه من قبل إلا فى مناسبتين الأولى عندما قال له الرب: «ليفتدِ كل واحد منهم روحه»، فردَّ موسى قائلاً: «وإن دفع الإنسان كل ما يملك فداءً لروحه، فلن يكفى». لكن الرب طمأنه قائلاً: «إننى لا أطلب حقى.. ولكنى

أطلب ما يقدرون عليه.. وسيكفى نصف شاقل»... ثم كانت المرة الثانية عندما قال له الرب: «كلِّم بنى إسرائيل عن القربان الذى سيقربونه إلىّ... وعن خبزى وأضحياتى التى ستصنع بالنار». فقال موسى وهو يرتجف: «ومن ذا الذى يستطيع أن يقدم لك القرابين الكافية؟» فطمأنه الرب مرة أخرى قائلاً: «إننى لا أطلب منهم ما أستحق.. بل ما يقدرون على الوفاء به: شاة فى الصباح.. وشاة أخرى فى المساء».

ثم كانت المرة الثالثة عندما كان الرب يعطى موسى التعليمات الخاصة ببناء الهيكل، فصاح موسى فى رعب قائلاً: «إن السموات.. وسماء السموات لا تستطيع أن تحتويك.. فكيف لهذا الهيكل الصغير أن يسعك؟» وفى هذه المرة كذلك طمأنه الرب قائلاً: «لا أطلب منهم ما أستحقه.. بل ما يقدرون عليه: عشرين لوحاً إلى الشمال ومثلهم إلى الجنوب، وثمانية إلى الغرب.. وسوف أجمع الشكينة بعضها على بعض لكى تستطيع الانضواء تحتهم».

وقد كان الرب بالفعل حريصاً على بناء قدس له.. وكان ذلك هو الشرط الذى أخرج بنى إسرائيل من مصر وفقاً له.. أجل.. بل إن وجود العالم كله يتوقف بشكل أو بآخر على تشييد هذا الهيكل.. لأنه عندما تم تشييد هذا الهيكل ثبتت أركان العالم وقويت أساساته.. بينما كانت من قبل ذلك تتأرجح يمنة ويسرة.

وهكذا أيضاً فإن الهيكل - بكل جزء من أجزائه - يناظر السموات والأرض اللتين خلقتا فى اليوم الأول. فكما خلق الفلك فى اليوم الثانى، ليفصل بين المياه التى فوقه وتلك التى تحته.. فقد كانت هناك ستارة فى الهيكل تفصل بين المُقَدَّس والأقدس.. وكما خلق الرب البحر العظيم فى اليوم الثالث، فإنه قد جعل المغطس الموجود فى الهيكل رمزاً له.. وكما قدر فى هذا اليوم أن تكون مملكة النبات طعاماً للبشر، فإنه يطلب الآن أن تقام منضدة وعليها خبز فى الهيكل. أما الشمعدان الموجود فى الهيكل فيناظر

الجرمين المضيئين، الشمس والقمر اللذين خلقا فى اليوم الرابع. والفروع السبعة للشمعدان تناظر الكواكب السبعة: الشمس والزهرة وعطارد والقمر وزحل والمشترى والمريخ.

ويحتوى الهيكل على ما يناظر الطيور التى خلقت فى اليوم الخامس.. ألا وهى القروبيم التى لها أجنحة مثل الطيور. وفى اليوم السادس خُلق الإنسان على صورة الرب ليمجِّد خالقه.. وبالمثل تم مسح الكاهن الأكبر بالزيت ليقوم بالخدمة فى الهيكل أمام الرب والخالق.





الفصل الثالث

تشييد الهيكل

المواد التى استخدمت فى بناء الهيكل

عندما أمر الربُّ موسى فى يوم التكفير بأن يأمر بنى إسرائيل ببناء الهيكل، أمره بأن يطلب منهم أن يزينوه بالحُلَىّ الذهبية.. لترى الأمم أنه قد غفر لبنى إسرائيل عبادتهم للعجل الذهبى...

كما أمرهم الرب بأن يُحْضِروا اثنتى عشرة مادة أخرى لبناء الهيكل.. الفضة والنحاس الأصفر.. والأزرق والأرجوانى والقرمزى.. والكتان الجيد.. وشعر الماعز وجلد الكباش مصبوغاً بالأحمر.. وجلود تُخْس[1].. وخشب السنط.. وزيتاً للمصباح وأطياباً لدهن المسحة وللبخور.. وحجر الجزع.. وحجارة لترصع بها أردية الكهنة وصدرياتهم.

وقال لهم الرب أيضاً: «لا تظنوا أنكم ستقدمون إلىّ هذه الأشياء هدايا تتفضلون بها علىّ.. لا.. إنما ستقدمونها وفاء لدينى الذى داينتكم به فى مصر.. لأننى كسوتكم فى مصر بالثياب المطرزة وأدفأتكم بجلود التُخَس ومَنْطَقْتكم بالكتان الجيد وغطيتكم بالحرير.. وزينتكم بالحُلى ووضعتُ الأساور فى أذرعكم والسلال حول أعناقكم. وتوَّجت جباهكم بالجواهر وآذانكم بالحُلقان وألبستكم تيجاناً جميلة على رؤوسكم.. وفى العالم الآتى سأغدق عليكم بثلاث عشرة هدية مقابل هذه المواد الثلاث عشرة.. حقوق كل مثوى فى جبل صهيون، وعلى كل كنيسة، لما خلق غمامة ودخاناً فى

(١) مذكور بهذا الاسم فى العهد القديم، وهو حيوان الغُرَيْر وهو حيوان ثديى قصير القوائم يحتفر أوجرة يسكن فيها. (المترجم).

النهار وضوء النار المشتعلة فى الليل.. وسيكون هيكل ليكون لكم ظُلَّةً من حرارة الشمس ومأوى للخائفين وملاذاً لكم من العواصف والسيول».

وواصل الرب كلامه لهم قائلاً:

«ليسهم كل منكم فى بناء الهيكل بطيب نفس. ولا تظنوا أنكم ستنفقون مما تملكون، لأن كل ما تملكونه إنما هو ملكى ومنحتكم إياه عند عبوركم البحر الأحمر، ومما غنمتموه من المصريين. لكنكم لن تشيدوا لى هيكلاً فى هذا العالم فقط، وإنما فى العالم الآتى كذلك. ولقد كانت التوراة تقيم معى فى البداية.. لكنها صارت ملككم الآن، لذا فلابد أن تدعونى معكم لأكون مع التوراة»..

* * *

لقد كانت هذه المواد التى أمرهم الرب بتكريسها للهيكل.. تشير إلى تاريخ بنى إسرائيل كله. فالذهب يرمز إلى نير بابل «رؤوس الذهب». والفضة تشير إلى مُلْكِ فارس وميديا اللتين حاولتا إهلاك بنى إسرائيل من خلال الفضة.. أما النحاس الأصفر فيشير إلى «الإمبراطورية الرومانية»، إذ كما أن هذا المعدن أحقر المعادن، فإن هذه الإمبراطورية أحقر الإمبراطوريات.. فلم تكن تحكم العالم بمثل قوة الإمبراطوريات التى سبقتها.. ويشير جلد الكباش المصبوغ بالأحمر إلى سلطان «روما الحمراء».

* * *

ثم قال الرب لبنى إسرائيل:

«على الرغم من أنكم ترون الآن الأمم الأربع التى سيكون لها السلطان عليكم.. فإننى سأرسل إليكم نجدتى.. "زيت المصباح" .. المَسِيَّا الذى سيفتح أعين بنى إسرائيل والذى يستخدم الأطايب "زيتاً للمَسْحة" .. لأنه سيمسح الكاهن الأكبر... "لكى أقبُلكم مرة أخرى برائحتكم الطيبة».

وعندما كان موسى فى السماء، أراه الرب الهيكل، ونماذج جميع الأوعية المعكوسة التى ستكون فيه.. ولذا فقد ظن موسى أن الرب سيكلفه ببناء الهيكل بنفسه..

لكن الرب قال لموسى: «لقد جعلتُك ملكاً.. ولا يليق بالملك أن يقوم بعمل شىء بنفسه، وإنما عليه أن يأمر رعيته فتفعل ما يريد. لهذا فلن تقوم ببناء الهيكل بنفسك، ولكن ستقوم بإعطائهم الأوامر».

فسأل موسى ربه عن الرجل الذى اختاره لتنفيذ هذه المهمة.. فجلب الربُّ كتاب آدم ووضعه أمام موسى. وكان مَسَجَّلاً فى هذا الكتاب جميعُ الأجيال، من بدء الخليقة إلى بعث الموتى.. وأمام كل جيل كتب أسماء ملوكه وقادته وأنبيائه.

ثم قال الرب لموسى:

«فى تلك الساعة قدرت لكل إنسان مصيره.. وقَدَّرتُ أن يتولى "بَصَلْئيل" هذه المهمة».



بَصَلْئِيل

كان بصلئيل، قبل كل شيء، من سلالة نبيلة، فقد كان والده، "حور"، بن "كالب" من زواجه بميريام أخت موسى. وكان حور هذا قد فقد حياته وهو يحاول منع بنى إسرائيل من عبادة العجل الذهبى. ولذا فقد أثابه الرب على تضحيته بنفسه، بأن جعل ابنه "بصلئيل" يتولى بناء الهيكل. كما أن واحداً من ذرية "بصلئيل"، وهو الملك سليمان، سيبنى الهيكل فى أورشليم، فيما بعد.

ولم يكن بصلئيل من سلالة نبيلة وحسب، وإنما كان هو نفسه إنساناً وجيهاً أتاه الرب الحكمة والبصيرة والفهم، تلك الثلاث التى خلق بها الربُّ العالم. وبنى بصلئيل الهيكل... مستعيناً بهذه الثلاث. كما كان بصلئيل حكيماً بالتوراة وبصيراً بالهالاكوت وفاهماً للتلمود.. والأهم من ذلك أنه كان عالماً بحساب الجُمَّل، فعلم توليفة الحروف التى خلق بها الرب السموات والأرض.

وكان الاسم "بصلئيل" اسماً على مسمى.. فهذا الاسم يعنى: «فى ظل الرب»، وتسمى به ذلك الرجل الذى علم بحكمته أن الكل جاهل.. إلا من استظل «بظل الرب».

* * *

أراد موسى أن يختبر حكمة بصلئيل الذى كلَّفه الرب بتشييد الهيكل.

وكان الرب قد أمر موسى بأن يبنى الهيكل أولاً، ثم التابوت المقدس، ثم يزوِّد الهيكل فى النهاية بكل متاعه اللازم. لكن موسى، ولكى يختبر بصلئيل، أمره بأن يبنى التابوت المقدس أولاً، ثم يجهز المتاع والأثاث اللازم للهيكل.. وبعد ذلك فقط يقوم ببناء الهيكل.

عند ذلك قال بصلئيل لموسى: «أيها المعلم موسى... إن من عادة الإنسان أن يبنى بيته أولاً ثم يؤثثه بعد ذلك. لكنك الآن تأمرنى بأن أجهز المتاع والأثاث ثم أبنى البيت..!».

فَسُرَّ موسى بجواب الرجل ورد قائلاً: «حقّاً.. لقد أمرنى الرب بما قلتَ.. فهل كنت، بالصدفة، "فى ظل الرب" لتعلم ذلك؟».

وعلى الرغم من أن الرب كان يعلم أن بصلئيل هو الرجل المناسب لتولى أمر بناء الهيكل، فإنه قال لموسى: «هل تعتقد أن بصلئيل مناسب لهذه المهمة؟».

فأجابه موسى: «يارب العالم! طالما كنتَ ترى أنه مناسب.. فأنا أرى ما ترى بكل تأكيدٍ!».

لكن الرب قال له: «ولو... اذهب فانظر ماذا يرى بنو إسرائيل فى ذلك».

فلما سألهم موسى عن رأيهم قالوا: «طالما رأى الرب أنه مناسب... ورأيت أنت كذلك أنه مناسب.. فبكل تأكيد نراه كما رأيتموه».

وسمى الرب بصلئيل بخمسة أسماء أخرى.. باعتباره مسئولاً عن بناء الهيكل. فقد سماه "رأَيَا"، ومعناه "يرى"، لأن بصلئيل كان يرى الرب وموسى والشعب، أنه هو المختار لبناء الهيكل منذ بدء الخليقة.. كما سماه "بن شوبال"، لأنه بنى الهيكل الذى حَلَّق عالياً مثل برج الحمام.. وسماه "يحاط"، أى "المرتجف"، لأنه صنع الهيكل الذى هو موطن مخافة الرب... وسماه "أحامى"، لأنه بنى الهيكل الذى من خلاله اتحد الرب مع بنى إسرائيل..

وسماه أخيراً "لَحَاد"، لأنه هو الذى جلب لبنى إسرائيل البهاء والرفعة، لأن الهيكل هو كرامة بنى إسرائيل وبهاؤهم.

وإلى جوار بصلئيل اليهوذى[١] النبيل، عمل «أهولياب» الدانى[٢] الحقير. ليعلم أن الجميع سواء أمام الرب. وكما تم تشييد الهيكل الأول على أيدى بصلئيل اليهوذى وأهولياب الدانى.. فإن سليمان اليهوذى قد بنى الهيكل الثانى بمساعدة حيرام الدانى.



التابوت والقروبيم

أول ما بدأ بصلئيل بتكوينه كان «تابوت العهد»... مخالفاً بذلك أوامر موسى. ولكنه أفلح فى إقناع موسى بذلك..

إذ قال له: «وما الغرض من بناء الهيكل؟».

فقال موسى: «لكى يُنزل الرب سكينته عليه ويتعلم بنو إسرائيل التوراة».

فرد بصلئيل: «وأين ستحفظ التوراة إذاً؟».

موسى: «عندما ننتهى من بناء الهيكل، سنبنى التابوت لنحفظها فيه».

بصلئيل: «وهل يليق بنا أن نلقى التوراة جانباً إلى أن نصنع لها تابوتاً؟». أعتقد أنه من الأفضل أن نبنى التابوت أولاً ثم نضع فيه التوراة، وبعد ذلك نبنى الهيكل كما نريد».

فاقتنع موسى برأى بصلئيل الذى بدأ على الفور فى بناء التابوت.. حاذياً بذلك حذو الرب الذى خلق النور أول ما خلق[1]، ثم خلق جميع الأشياء بعد ذلك. وكذلك فإن التابوت قد وضعت فيه التوراة التى هى نور هذا العالم والعالم الآتى كذلك.

كان التابوت يتكون من ثلاثة صناديق: واحد من الذهب طوله عشرة أشبار وبضع قراريط... وبداخله صندوق خشبى طوله تسعة أشبار.. ثم

(١) نسبة إلى سبط يهوذا. (المترجم).

(٢) نسبة إلى سبط دان. (المترجم).

يوجد داخل هذا الصندوق الخشبى، صندوق ثالث ذهبى طوله ثمانية أشبار.. وبذا يكون الصندوق الخشبى مغطى من الداخل ومن الخارج بالذهب.

وكان التابوت يحتوى على لوحَىْ الوصايا العشر، بالإضافة إلى "الاسم الأعظم".. وجميع أسماء الرب الحسنى... وكان التابوت على هيئة العرش السماوى، ولذا فقد كان أهم جزء فى الهيكل... حتى إنهم كانوا ـ أثناء سيرهم فى الصحراء ـ يحملونه معهم مغطى بقماش أزرق اللون، لأنه لون العرش السماوى..

وكان التابوت كذلك مصدراً لجميع المعجزات التى حدثت فى البرية.. فقد انطلقت شرارتان من القروبيم اللذين يظللان التابوت، فقتلت جميع الأفاعى والحيّات التى اعترضت طريق الإسرائيليين، وأحرقت جميع الأشواك التى كانت تهددهم فى طريقهم.. وفوق ذلك فإن الدخان الناتج من احتراق هذه الأشواك قد تصاعد إلى أعلى على هيئة عمود فاح بعطر عبَّأ العالم كله بشذاه.. حتى إن أمم الأرض صاحت فى دهشة: «من هذا الذى يخرج من الصحراء مثل أعمدة الدخان ومعطراً بالمر والبخور وجميع عطارة العطارين؟».

بالإضافة إلى هذا التابوت الذى احتفظ به بنو إسرائيل فى الهيكل، كان لديهم تابوت آخر يحتوى على اللوحين اللذين كسرهما موسى.. وكانوا يحملونه دائماً معهم كلما خرجوا للحرب. كما استخدم التابوت الذى بناه بصلئيل مرة أخرى فى "هيكل" سليمان الذى احتفظ بالتابوت الذى استخدمه موسى.. بالرغم من أن جميع متاع الهيكل قد تم تجديده.. وبقى هذا التابوت فى الهيكل إلى الوقت الذى دمَّر فيه نبوخذنصر الهيكل، فتم إخفاؤه تحت رصيف المسكن، لكيلا يقع فى يد العدو. وقد بقى هذا المكان سرّاً لا يعلمه أحد. وذات مرة لاحظ أحد الكهنة وجود شىء مخبأ تحت أرضية المسكن فنادى على رفاقه، لكنه سقط ميتاً فجأة قبل أن يبوح بالسر[1]..!

(١) فى التراث الإسلامى أول ما خلق الله عز وجل هو القلم كما أخبرنا المصطفى ﷺ. (المترجم).

كان يوجد على التابوت القروبيم بوجوههم الطفولية وأجنحتهم المميزة. وكان عددهم اثنين، فى تناظر مع عدد ألواح الوصايا العشر، والأعين المقدسين للرب.. "أدوناى" و"إلوهيم".. اللذين يدلان على جوده وقدرته. وكان مقاس وجه كل قروبيم شبرا، بينما يمتد كل جناح بطول عشرة أشبار، فيكون المجموع اثنين وعشرين شبرا.. تناظر حروف العبرية الاثنين والعشرين.

وقد كلم الرب موسى «من بين القروبيمين».. إذ لم تنزل الشكينة أبداً كلها على الأرض، إلا مثلما لم يصعد فان أبداً إلى السماء.. بل حتى موسى وإيلياء قد وقفا على مسافة قريبة من السماء.. لأن السموات، وسماء السموات، هى ملك للرب... أما الأرض فقد أعطاها لبنى البشر».

لهذا فقد اختار الربُّ القروبيم التى ترتفع عن الأرض عشرة أشبار.. مكاناً تأوى إليه الشكينة لتتكلم مع موسى.

وكان وجها القروبيمين يلتفتان إلى الوراء قليلاً.. مثل التلميذ الذى يحيى أستاذه مودِّعاً له.. لكن، وكأمارة على رضا الرب عن بنى إسرائيل، كان القروبيمان ينظر أحدهما إلى الآخر، كلما أخلص بنو إسرائيل لربهم.. بل إنهما كانا يتعانقان فى فرح كالعاشقين.

وخلال احتفالات الحج، كان الكاهن يرفع الستار عن "قدس الأقداس" ليُرِى الحجاج مدى حب الرب لهم، بما يرونه من تعانق القروبيمين فى حرارة.

وعندما جلب سليمان القروبيمين إلى الهيكل، حدثت معجزة مزدوجة.. فقد استطال القضيبان الموصَّلان بالتابوت حتى لامسا الستار فظهر فى الستار بروزان مثل ثديى المرأة، كما استطالت أجنحة القروبين حتى لامست سقف "قدس الأقداس».

(١) مثل هذا المشهد الساذج يظهر كثيراً فى الأفلام العربية.

المنضدة والشمعدان

بينما كان عدد القروبيم فى الهيكل الأول مثله فى هيكل سليمان.. فإن سليمان وضع فى هيكله عشر مناضد، بدلاً من المنضدة الوحيدة التى كان موسى يضعها فى الهيكل. وكان السبب فى ذلك أن هذه المنضدة الواحدة كانت تكفى جميع بنى إسرائيل طوال تغذيهم على المن فى الصحراء.. لكنهم عندما استقروا فى الأرض الموعودة زادت حاجتهم إلى الطعام زيادة عظيمة، ولذا فقد نصب سليمان عشرة مناضد لهذا الغرض.

لكن، وبرغم ذلك، فقد ظلت منضدة موسى تحظى بنفس أهميتها السابقة.. إذ كان يوضع عليها خبز التقدمة، وكانت توضع فى المنتصف، بينما وضعت مناضد سليمان، خمس إلى الجنوب وخمس إلى الشمال. لأنه من الجنوب يأتى «ندى البركة ومطر الوفرة»... بينما يأتى الشر كله من الشمال ولهذا قال سليمان:

«إن المناضد الموضوعة فى الجهة الجنوبية ستجلب إلى العالم ندى البركة ومطر الوفرة.. بينما ستقى مناضد الشمال بنى إسرائيل من كل شر وسوء».

* * *

واجه موسى صعوبة كبيرة فى عمل الشمعدان، لأنه نسى كل ما تعلمه من الرب بخصوص صناعته، عندما نزل من السماء. ولهذا ذهب إلى الرب مرة أخرى ليذكِّره. بما نسيه... لكن دون جدوى..!

فما كاد ينزل إلى الأرض مرة أخرى، إلا ونسى مرة أخرى..!

فلما ذهب إلى الرب مرة ثالثة، التقط الرب شمعداناً من النار وأراه كل تفاصيله.. لكن موسى ظل غير قادر على الفهم بعد!!

ولكن الرب طمأنه قائلاً: «لا تشغل بالك بهذا الأمر.. اذهب إلى بصلئيل وحسب، وسيفعل المطلوب بالضبط».

فذهب موسى إلى بصلئيل وأخبره، فصنع بصلئيل الشمعدان على النور.. وعند ذلك صاح موسى فى دهشة:

«لقد أرانى الرب أكثر من مرة كيف أصنعه، فلم أستطع استيعاب الفكرة، والآن تقوم أنت باستيعابها بهذه السهولة دون أن يريك الرب شيئاً، وإنما تعتمد فقط على ذكائك وفطنتك..!! حقّاً إنك اسمٌ على مسمى! «فى ظل الرب»، هذا هو معنى اسمك، وحقّاً أنت كذلك، فكأنك كنت «فى ظل الرب» عندما أرانى كيف أصنع الشمعدان..!».

* * *

وفيما بعد، وضع الشمعدان فى هيكل سليمان... وعلى الرغم من أنه قد نصب عشرة شمعدانات أخرى، فقد كان هذا الشمعدان هو الذى يتم إضاءته أولاً.

وكان سليمان قد اختار وضع عشرة شمعدانات عن قصد.. فكلمات الرب التى أوحاها على جبل سيناء كانت عشراً.. وكان يوجد بكل شمعدان سبع شمعات، فيكون مجموعها سبعون، مناظراً لعدد الأمم السبعين.. فكان الحال أنه فى الليل تضاء هذه الشمعات فتبقى هذه الأمم واهنة ضعيفة، وفى النهار، عندما تطفأ الشمعات، تزداد قوة هذه الأمم.

* * *

كان الشمعدان منصوباً باتجاه الجنوب، بينما وضعت المنضدة فى الجهة الشمالية من الهيكل... وذلك لترمز المنضدة إلى النعيم الذى سيتنعم به المتقون فى الفردوس الذى يقع ناحية الشمال... بينما يرمز الشمعدان إلى نور الشكينة الذى لن يكون هناك غيره فى العالم الآتى.

ولقداسته كان الشمعدان واحداً من الأشياء الخمسة التى أخفاها الرب زمان تدمير الهيكل على يدى «نبوخذنصر»، والتى سوف يعيدها الرب ويظهرها مرة أخرى ـ عندما يشيد بحبه وعطفه «بيته» و«هيكله». وهذه الأشياء الخمسة هى: تابوت العهد والشمعدان ونار المذبح وروح النبوة المقدسة والقروبيم.



المـذبـح

كان المذبح من أكثر أجزاء الهيكل إعجازاً وإدهاشاً.. إذ لما أمر الرب موسى ببناء المذبح من خشب السنط وكسوته بالنحاس الأصفر، قال موسى: «وكيف لى أن أصنعه من الخشب المكسو بالنحاس الأصفر؟ ألن تأكل النار التى تشتعل فيه نحاسه ثم تقضى على خشبه؟!».

فأجابه الرب:

«يا موسى... إنك لتحكم بما تعرفه من قانون الطبيعة الذى وضعتُه أنا، فهل يسرى علىّ هذا القانون؟ هل ترى الملائكة الذين خلقتُهم من نار مشتعلة وإلى جوارهم خزائنى من الجليد والبَرَد؟ فهل يطفئ الجليد والبرد نارهم، أو تبخِّر نارهم هذا الجليد والبَرَد؟..

وانظر إلى «الهايُّوت» التى خلقتها هى الأخرى من النار وفوق رؤوسها بحر عظيم من الثلج لا يستطيع فانٍ عبوره إلا بعد مسيرة خمسمئة عام، لكن.. هل يطفئ الثلج النار أو يقضى النار على الثلج؟..

أنا الرب الذى يوفِّق بين هذه العناصر فى سمواتى العُلا.

لكن عندما أمرتُك بأن تشعل فى المذبح ناراً لتبقى مشتعلة فيه باستمرار.. خشيت أن تأكل النار خشب المذبح. ألا تعلم أنى أنا أحيى الموتى؟ كان عليك أن تتعلم مما رأيت..! لقد اخترقت غرف النار المستعرة فى السموات.. وجُزْت من بين الملائكة المشتعلين فى الأعالى.. بل إنك قد

اقتربت منى أنا.. وأنا النار المهلكة..! ورغم كل ذلك لم يمسسك سوء.. لأنك ذهبت حيث ذهبت بأمرى فحفظتُك. وكذلك لن يمس النحاس والخشب من سوء، ولو كانا فى مثل رقة الدينار».

* * *

عندما قال الرب «أنا أحيى الموتى» كان يشير بذلك إلى الحوادث التالية:

عندما وضع هارون عصاه فى الهيكل طوال الليل، أصبح عليه الصبح وقد نمت فيه البراعم وتفجَّر بالنَّوار.. بل إنه طرح ثمار الجوز كذلك..! وكذلك عندما أرسل حيرام ملك "صور" أشجار الأرز إلى سليمان لبناء هيكله.. تفجرت هذه الأشجار بالخضرة، بمجرد أن وصلها البخور المحروق فى الهيكل، وظلت تثمر على مر القرون ثماراً كان الكهنة الصغار يتغذون عليها.

وكانت الحادثة الثالثة التى أشار إليها الرب بكلامه، هى تمدُّد قضبان التابوت عندما وضعها سليمان فى "قدس الأقداس".. حتى إن هذه القضبان - التى ظلت جزءاً لصيقاً بالتابوت طوال أربعمئة وثمانين سنة. قد استطالت حتى لامست الستار..!

* * *

وبنى سليمان مذبحاً آخر لتحرق عليه القرابين.. ولكنه سماه باسم المذبح الأصلى الذى بناه موسى، لما يعلم من شدة حب الرب لمذبح موسى.

لكن الرب أظهر حبه لهذا المذبح النحاسى قائلاً: «لكى أكافئ إسرائيل على "إشعالها لنار تبقى متأججة فى المذبح باستمرار"، فإنى سأعاقب "المملكة المحمَّلة بالجريمة" بنار "لا تنطفئ ليلاً أو نهاراً، ويتصاعد دخانها إلى الأبد"..».

وبالإضافة إلى المذبح النحاسى، كان هناك مذبح ذهبى يرمز إلى الروح

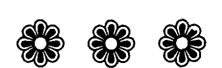
الإنسانية بينما يرمز المذبح النحاسى إلى الجسد... وكما أن الذهب أعلى من النحاس، فإن الروح أعظم من الجسد. لكن كان كلا المذبحين يستخدمان يوميّاً.. كما ينبغى على الإنسان أن يعبد خالقه بالروح والجسد. وكان يتم تقديم القرابين على المذبح النحاسى.. كما يتغذى جسد الإنسان بالطعام؛ أما المذبح الذهبى فكانت تقدم عليه البخور والعطور وتحرق.. لأن الروح لا تُسَر إلا بالعطور وحدها.

إن المواد التى استخدمت فى تكوين الهيكل، وخصوصاً الجلود والخشب، لم تكن من المواد العادية المألوفة. فقد خلق الرب حيوان "التخس" من أجل الوفاء بحاجة الهيكل من الجلد خصوصاً.. لأنه كان هائل الحجم، حتى إن جلده يصنع ستاراً طوله ثلاثون ذراعاً. وقد اختفى هذا الحيوان من على ظهر الأرض بمجرد الوفاء بحاجة الهيكل. كما أن أشجار الأرز التى بنى بها الهيكل، كانت هى الأخرى غير عادية.. إذ كيف كان لهم الحصول على شجر الأرز فى هذه الصحراء؟ ولكن بنى إسرائيل حصلوا على هذه الأشجار بفضل أبيهم يعقوب الذى زرعها بمجرد وصوله إلى مصر وحض أبناءه على محاكاته قائلاً لهم: «ستتحررون من العبودية عن مصر فى المستقبل، وسوف يطلب الرب منكم بناء هيكل له لتحمدوه فيه وتشكروه على نعمته عليكم. لذا عليكم أن تزرعوا أشجار الأرز لكى تتوفر لكم حينما يأمركم الرب ببناء الهيكل».

وفعل بنوه ما أمرهم به، وعند خروجهم من مصر أخذوا معهم أشجار الأرز ليبنوا بها الهيكل عندما يحين أوان بنائه. وكان من بين هذه الأشجار التى حملوها معهم عند خروجهم من مصر، كانت تلك الشجرة الرائعة والتى صنع منها "القضيب الأوسط فى منتصف الألواح، والذى كان يصل من الطرف إلى الطرف»... والتى كان يعقوب قد حملها معه من فلسطين عندما هاجر إلى مصر ثم تركها لتبقى مع ذريته.

وعندما اختار بنو إسرائيل الشجرات التى سيُبنى بها الهيكل، أنشدوا أغنية حمداً للرب على هذا الفضل.

لكن لم تستخدم الأنواع الأربعة والعشرون من الأرز فى بناء الهيكل.. ولا حتى الأنواع السبعة الأفضل من بينها... ولكن نوع «الشطيم»[1] فقط هو الذى وُجِدَ مستحقّاً لهذا الشرف. وكان ذلك لأن الرب، بعلمه المحيط بكل شىء، علِم أن بنى إسرائيل سيرتكبون معصية عظيمة فى مدينة "شطيم" ولذا فقد أمرهم باستخدام أشجار "الشطيم" تكفيراً عن هذه المعصية. كما أن أشجار الشطيم ترمز إلى "الحماقة" ولذا فإن بنى إسرائيل سيبنون المكان الذى يتوبون فيه عن "حماقة" عبادة العجل الذهبى، من خشب الشطيم، تكفيراً عن هذه "الحماقة". كما أن حروف كلمة "شطيم" تدل على "السلام" و"الخير" و"الخلاص" و"الغفران".



(١) أي أشجار السنط. (المترجم).

الدلالة الرمزية للهيكل

إن لكل جزء من أجزاء الهيكل دلالة رمزية مهمة.. إذ لكل شىء موجود بأعلى، يوجد شىء مناظر له بأسفل.

فالنجوم بأعلى... وبأسفل "سينبثق نجم من يعقوب".. وملائكة الرب بأعلى.. وشعبه إسرائيل بأسفل. وبأعلى يوجد "الأوفانيم".. وعلى الأرض يوجد "أوفان".. وللرب قروبيم بأعلى فى السموات.. له قروبيم كذلك فى هيكل إسرائيل. وللرب مسكن بأعلى... وله مسكن آخر بأسفل.. ثم أخيراً، لقد مد الرب السموات بأعلى مثل الستار.. وبأسفل فى الهيكل، توجد الأستار المصنوعة من شعر الماعز.

* * *

كما أن عدد الستائر الموجودة فى الهيكل تناظر عدد الستائر الموجودة فى السماء.. فهذه اثنتا عشرة، وتلك مثلها. وكان حجم الهيكل سبعين ذراعاً، ويناظر أعياد اليهود السبعين.. وهم: اثنان وخمسون سبتاً، وسبعة أعياد "فصح"، وثمانية للهيكل ويوم الفصح ويوم التكفير ورأس السنة العبرية.

وكذلك كان عدد الأوانى سبعين.. وكذلك للرب ولإسرائيل ولأورشليم سبعون اسماً.. كما عقد سبعون سنهدرينا فى الفترة الفاصلة بين بناء الهيكل الأول والثانى.

والمذبح أيضاً.. له أهمية رمزية، مثله مثل الهيكل.

فالمذبح كان طوله خمس أذرع، وعرضه خمس أذرع.. تناظر الوصايا العشر المكتوبة على اللوحين، خمساً على كل لوح. وكان ارتفاعه ثلاث أذرع.. يناظر المخلِّصين الثلاثة الذين أرسلهم الرب إلى بنى إسرائيل ليخرجوهم من مصر: موسى وهارون وميريام. وكان به أربعة قرون.. للتكفير عن خطايا الشعب التى ارتكبها والذى تلقى على جبل سيناء أربعة قرون: "قرن التوراة".. و"قرن الشكينة" و"قرن الكهانة".. و"قرن الملك".

* * *

وفى الهيكل الأول، كما فى الهيكل الثانى، استُخْدم الذهب والفضة والنحاس.. لكن لم يستخدم الحديد.

وكان الرب يريد من استثناء الحديد أن يشير إلى أنه فى العالم الآتى.. سيؤذن «لبابل الذهبية» و«ميديا الفضية» و«اليونان النحاسية» بتقديم الهدايا للهيكل الجديد.. لكن لن يؤذن «لروما الحديدية». وصحيح أن بابل قد دمرت هيكل الرب مثلما فعلت روما.. لكن ليس بنفس الشراسة والعنف. فأبناء روما دمروا الهيكل فى شراسة وهم يصرخون فى جنون: «أحرقوه..! أحرقوا!».. ولهذا السبب فلن تشارك روما فى الهيكل المسيانى.

وكما سيرفض الرب هدايا روما.. فإن المسيًّا سيرفضها هو الآخر، وهو الذى ستجرى إليه أمم الأرض لتقدم له الهدايا.

فستأتى إليه مصر تقدم إليه هداياها.. لكنه سيرفض قبول هداياها. ولكن الرب سيقول له: «اقبل هداياها.. فقد وفرت لأطفالى المأوى». فيقبل المسيا هدايا مصر.

ثم تأتيه جارتها إثيوبيا وهى تظن أنه سيقبل هداياها، طالما قبل هدايا جارتها مصر، وهى التى كانت من قبل تستعبد بنى إسرائيل. وسيقبل المسيا هداياها..

ثم تأتى إليه جميع الأمم الأخرى حاملة هداياها إليه.. فيقبلها جميعاً.. إلا روما. وعند ذلك ستحس روما بخيبة أمل عظيمة، فقد كانت تتوقع منه أن يقبل هداياها، فى ظل قرابتها لبنى إسرائيل.. وخصوصاً بعدما قَبِل هدايا الأمم الأخرى التى لا تمت لإسرائيل بصلة.

لكن سينادى الرب على المسيا قائلاً:

«كُنْ فظّاً غليظاً مع هذا الوحش (= روما) الذى يلتهم دُهْن الأمم الأخرى.. ويدَّعى الشرف لأنه من نسل عيسو بن إبراهيم.. ويغفر كل الخطايا مقابل المال.. وحال بين إسرائيل وبين دراسة التوراة وأغواهم إلى ارتكاب المعاصى الخطيرة التى لا ترضى إلا الشيطان!!».



ثيــاب الكهنــوت

فى نفس الوقت الذى تم فيه تشييد الهيكل وإعداد لوازمه.. تم عمل ثياب كهنوت لهارون ولأبنائه. كما عَرَّف الرب هارون بأمر تعيينه إياه كاهناً أكبر للشعب.

وقال الرب لموسى: «اذهب فاجعل كاهناً أكبر للشعب».

فسأله موسى: «من أى سبط؟».

فأجابه الرب: «من سبط لاوى».

ففرح موسى فرحاً عظيماً عندما علم أن الكاهن الأكبر سيكون من سبطه.. وازداد فرحاً على فرح عندما أضاف الرب قائلاً: «ليكن أخوك هارون هو الكاهن الأكبر».

لكن موسى، مع فرحه، قد أحس بخيبة أمل.. إذ كان يأمل أن يجعله الرب هو الكاهن الأكبر للشعب. لكن الرب اختار هارون بالذات لهذه المكانة الجليلة إثابة له على تقواه وثباته على الإيمان عندما عبد بنو إسرائيل العجل الذهبى. إذ لَمَّا عاد موسى من السماء ووجد العجل الذهبى الذى صنعه أخوه هارون.. ظن أن هارون لا يقل كفراناً عن بقية الشعب وأنه، مثلهم، قد تحول إلى عبادة الأصنام..

لكن الرب كان يعلم أن هارون ما فعل هذه الفعلة إلا بدافع من تقواه، لكى يعطِّل الشعب لأطول وقت ممكن، إلى وقت عودة موسى من عند ربه.

ولهذا فإن الرب قال لهارون: «إنى لأعلم تقواك وأعلم الدافع الذى حملك على ذلك الفعل.. ولذا، فوحياتك لأجعلنك حارساً على القرابين التى يقربها أطفالى إلىَّ».

ولكى يحافظ الرب على مشاعر موسى ولا يجرحها، أوكل إليه تعيين هارون فى منصب الكاهن الأكبر قائلاً: «كان بمقدورى أن أجعل أخاك كاهناً أكبر دون أن أخبرك بذلك.. لكننى أوكلتُ لك ذلك لكى تُظْهِر للناس تواضعك وأنك لا تسعى وراء هذا المنصب المرموق».

وبأمر الرب، جُعِل هارون وأبناؤه كهنة.. ليس فى هذا الوقت فقط، وإنما إلى الأبد.. وعلى الفور أخذ موسى يعلِّمهم شرائع الكهانة.

* * *

أمر الرب بصنع ثمانية أردية ليلبسها هارون باعتباره الكاهن الأكبر، وهى: زُنَّار وسروال وعمامة، ومنطقة وصُدْرة وإفود وقميص مخرم وصفيحة ذهبية. لكن اقتصرت ثياب أبنائه على الأربعة الأولى..

وكان لكل ثوب من هذه مزايا تكفيرية.. فقد كان كلٌّ منها يُكَفِّر نوعاً من أنواع المعاصى. فالزُّنار يكفر عن معصية القتل.. والسروال يكفر عن معصية الزنا.. والجبة تكفر عن معصية الكِبْر.. والمنطقة تكفر معصية السرقة.. والصُدرة تكفر الأحكام الجائرة.. والرداء يُكفر عبادة الأوثان.. والأجراس الموجودة على القميص المخرَّم تكفر معصية القذف.. بينما تكفر الصفيحة الذهبية معصية الوقاحة..

وتم ترصيع الصدرة والرداء بالأحجار النفيسة التى أهداها النبلاء إلى الهيكل.. وإن كانت ـ إن شئنا الدقة ـ فى حقيقتها هدية من الرب. إذ كانت الأحجار الكريمة واللآلئ قد هطلت كالمطر مع المن، فجمعها نبلاء بنى إسرائيل واحتفظوا بها إلى وقت تشييد الهيكل فأهدوها إليه.

ورصّع الرداء بحجرين فقط، واحد على كل كتف.. ونقش على كل حجر أسماء ستة أسباط وفقاً لترتيبهم: رأوبين ولاوى ويساكر ونفتالى وجاد ويهوسف.. على الكتف الأيمن، بينما نقشِ على حجر الكتف الأيسر أسماء: شمعون ويهوذا وزبولون ودان وأشر وبنيامين. وقد نقش اسم يوسف مكتوباً هكذا: "يهوسف".. وبذا نقش على كل حجر نفس العدد من الحروف.

أما الصدرة فكان عليها اثنا عشر حجراً كريماً نُقش عليها أسماء الآباء الثلاثة أولاً، ثم أسماء الأسباط الاثنى عشر.. ثم نقشت العبارة: «هذه هى أسباط بنى إسرائيل الاثنا عشر».



حجارة الصُّدرة

كانت الحجارة الاثنا عشر تختلف فيما بينها فى اللون وفى بعض الخصائص المميزة لكل منها.. وكان كل حجر يشير - من حيث لونه وخصائصه - إلى القبيلة التى يحمل اسمها.

كان حجر رأوبين هو الياقوت، ويتميز الياقوت بأنه إذا حكَّته امرأة بيدها ثم تذوقته فإنها تَحْبَل من فورها.. لأن رأوبين كان هو الذى عثر على نبات اللُّفَّاح الذى يحفِّز الحَمْل.

وكان حجر شمعون هو الزبرجد، ويتميز بأنه ينكسر من فوره إذا نظرت إليه امرأة غير عفيفة.. ولذا فقد كان مناسباً لحمل اسم سبط "شمعون" الذى اشتاط غضباً من فحش مدينة "شكيم". كما كان هذا الحجر فى الوقت نفسه تحذيراً دائماً لسبط شمعون الذين مارسوا الدعارة فى "شِطِّيم" مع بنات مؤاب.. وذلك لكى يراعوا العفة ويصيروا مثل حجرهم أعِفَّاء.

وكان حجر لاوى هو العقيق الأحمر الذى يتألق مثل البرق.. وبالمثل فإن وجوه أفراد هذا السبط تتألق وتشع بالنور من التقوى والاستقامة.. ولهذا الحجر ميزة أنه يجعل من يحمله حكيماً.. لكن الحكمة الحقيقية هى مخافة الرب، ولقد كان هذا السبط وحده هو الذى لم يشارك فى عبادة العجل الذهبى.

وكان حجر يهوذا هو الزمرد الأخضر الذى يتميز بأنه يجعل حامله ظافراً

فى كل حرب يخوضها.. ولذا فهو مناسب لهذا السبط الذى كان منه ملوك بنى إسرائيل، الذين قهروا كل الأعداء.. ويشير لونه الأخضر إلى الخزى الذى اخضر منه وجه يهوذا عندما اعترف على الملأ بجريمته مع "ثامار".

وكان حجر يساكر هو الياقوت الأزرق.. لأن هذا السبط قد كرس نفسه تماماً لدراسة التوراة، كما كان هذا الحجر نفسه هو الذى صُنع منه لوحا الشريعة. وهذا الحجر يزيد من قوة البصر ويشفى الكثير من الأمراض، مثلما أن التوراة - التى أخلص لها سبطه - تنير العينين وتشفى الجسد.

وكان العقيق الأبيض هو حجر زبولون الذى جابت سفنه البحار واستخرجت منها هذا الحجر وتاجرت به. وكانت ميزة هذا الحجر أنه يجلب النوم لحامله.. وهو ما كان فى صالح هذا السبط تماماً، وهو الذى كان يقضى الليل ساهراً يعمل ويتاجر للإنفاق على إخوته من سبط يساكر الذين تفرغوا تماماً لدراسة التوراة. علاوة على ذلك فإن هذا الحجر مكوَّر مثل حظ الأغنياء الذى ينقلب صعوداً وهبوطاً مثل العجلة.. وبهذه الطريقة ظل سبط زبولون دائماً على حذر من تقلب الأيام.

كان حجر دان نوعاً من أنواع التوباز الذى يظهر فيه وجه الإنسان منعكساً.. لأن سبط دان كانوا سبط خطاة عاصين يقلبون الخير شرّاً ولهذا فقد انعكس وجههم فى هذا الحجر.

وكان الفيروز هو حجر نفتالى.. لأنه يمنح صاحبه سرعة فى الركوب، وكان نفتالى «كالأيِّلة أطلقت ساقيها للرياح».

وكان حجر جاد هو البللور الذى يمنح صاحبه الشجاعة فى الميدان.. ولذا فقد كان مناسباً لهذا السبط المقدام الذى يخوض غمار المعارك غير آبه بالعدو ومتوكلاً على عناية الرب.

أما سبط أشر، فكان حجره هو الزبرجد الزيتونى الذى يسهِّل الهضم

ويجعل صاحبه قوياً متيناً.. ومثله كانت المنتجات الزراعية لهذا السبط ممتازة إلى درجة أنها تقوِّى بدن كل من يأكل منها.

وكان العقيق اليمانى هو حجر سبط يوسف، ولهذا الحجر ميزة أنه يمنح من يرتديه بهاء الطلعة.. ولقد حاز يوسف حب كل من وقعت عيناه عليه، من فرط بهاء طلعته.

وكان حجر بنيامين هو اليَشْب... وكما يتغير لون هذا الحجر، فيكون تارة أحمر وتارة أخضر وتارة أسود.. فإن مشاعر بنيامين تجاه إخوته قد تغيرت مرّاتٍ عديدة. ففى مرة حنق على إخوته لبيعهم يوسف - أخاه الوحيد من "راحيل" - عبداً وكاد يكشف سرهم لأبيهم.. لكنه لم يفعل لكيلا يفضحهم. وكتمانه للسر يشير إليه اسم هذا الحجر بالعبرية، "يَشْبَه"، ومعناه «هناك فم».. لأن بنيامين - بالرغم من أن له فما - لم ينطق بالكلمات التى تفضح إخوته وتكشف سرهم.

* * *

لقد كان لهذه الأحجار الاثنا عشر - بألوانها الزاهية - أهمية كبيرة عند إصدار الكاهن الأكبر لأحكامه.. فقد كان يستعين بهذه الأحجار ليجعل "الأوريم" و"التوميم" يقومان بوظائفهما. إذ كلما أراد ملك أو أحد رؤساء السنهدرين استشارة الأوريم والتوميم فى أمر ما.. كان يذهب إلى الكاهن الأكبر فيأمره الكاهن - الذى يرتدى ساعتها صدرته ورداءه - بالنظر فى وجهه وتوجيه الأسئلة التى يريدها. وبعد ذلك ينظر الكاهن الأكبر إلى صدرته ليرى أى حروف - من الحروف المنقوشة على الأحجار الاثنى عشر - هى التى ستتوهج أكثر ويكوِّن منها الإجابة المطلوبة.

فمثلاً، عندما ذهب داود إلى الكاهن الأكبر ليعرف من الأوريم والتوِّميم إن كان شاؤول[1] سيخلفه أم لا.. نظر الكاهن الأكبر إلى صدرته فرأى

(١) هو طالوت عليه السلام، المذكور في سورة البقرة. (المترجم).

الحروف التالية تتألف بشدة: الياء فى اسم يهوذا، والراء فى اسم رأوبين، والدال فى اسم دان.. ومن هنا فقد أجابه قائلاً: «يرِدِ» ومعناها «نعم سيخلفك»[1].

* * *

ولقد كانت المعلومات التى تأتى من هذه الطريقة موثوق بها دائماً.. إذ أن الاسم الحقيقى للأوريم والتوميم هو «هذه الإجابات تنشر النور والحقيقة».. لكن لم يكن كل كاهن أكبر بقادر على أن يحصل على هذه المعلومات الموثوق منها.

ووحده الكاهن الأكبر الذى تغشاه الروح القدس وتستقر عليه الشكينة، هو الذى يستطيع الحصول على الإجابة.. لأن الأحجار كان بريقها ينطفئ إذا لم تتوافر فى الكاهن الأكبر هذه الشروط. لكن إن كان مستوفياً لها.. فقد كان يحصل على إجابة لكل تساؤل.. لأن هذه الأحجار كان منقوشاً عليها جميع حروف الأبجدية العبرية، ولهذا فقد كان يمكن تكوين أى كلمة ـ مهما كانت ـ منها.



(١) لكن داود عليه الصلاة والسلام كان نبيّاً رسولاً وما كان في حاجة أبداً إلي الدجل !! (المترجم).

اكتمال الهيكل

فى اليوم الحادى عشر من شهر تشرى، جمع موسى الشعب وأخبرهم أن الرب قد أمره ببناء هيكل وأن على كل واحد منهم أن يخرج له قرباناً مما يحب. وفى الوقت نفسه فقد أكد لهم على أنه وإن كان بناء الهيكل عملاً من أعظم الأعمال التى ترضى الرب.. فإنه لا يجوز لهم أبداً الاعتداء على حرمة السبت بالعمل فيه بغية إكمال بناء الهيكل فى أسرع وقتٍ ممكن.

ثم شرح لهم موسى نوع الأعمال التى يجوز إتيانها فى يوم السبت.. ونوع الأعمال التى يحرم عليهم القيام بها فيه.. إذ كان هناك اثنان وتسعون عملاً إن تعدى أحد فعملها فى يوم السبت، فإنه يقتل عقاباً له.

ولما للسبت من حرمة عظيمة، فقد أسرع موسى فأعلن للشعب كل الشرائع الخاصة به.. وقال ذلك للناس كلهم، ولم يقتصر على الشيوخ وحدهم.

ولقد كان موسى فى ذلك موافقاً لأمر الرب له..

إذ قال له الرب:

«اذهب يا موسى فاجمع الشعب كله وأعلن لهم شرائع السبت.. لكى تحذو الأجيال القادمة حذوهم، فيتجمع الناس فى الكنيس ويعلِّمهم علماؤهم التوراة.. ليعلموا ما أحِلَّ لهم وما حُرِّم عليهم، ليتمجد اسمى بين أطفالى..».

وبروح هذا الأمر فرض موسى على الشعب أن تلقى عظة فى الكنيس،

فى كل عيد مقدس.. وأن يتم كذلك تعليم الشعب جميع التعاليم الخاصة بهذا العيد.

وجمع موسى الشعب وقال لهم: «إن اقتديتم بى، فسيحسبها الرب لكم خيراً عظيماً يماثل اعترافكم به ملكاً عليكم أمام العالم كله».

* * *

لقد كان ذلك التشديد الكبير على مراعاة حرمة السبت، أمراً ضرورياً تماماً.. فقد كان الناس متلهفين على حمل تقدماتهم والذهاب بها إلى الهيكل، لدرجة أن موسى أعلن عليهم الامتناع عن ذلك لأن حمل الأشياء محرم فى يوم السبت.

لكن بنى إسرائيل شعب عجيب! فقد أخرجوا حُلِيَّهم وزينتهم لصنع العجل الذهبى بحماسة بالغة.. وأخرجوا قرابينهم للهيكل بحماسة مثلها!! بل إنهم لم يكتفوا بإخراج كنوزهم وحُليهم طوعاً، وإنما أخذوا من زوجاتهم وبناتهم وأبنائهم زينتهم بالقوة وأعطوها لموسى من أجل بناء الهيكل. وكانوا يظنون أنهم يكفِّرون بذلك عن معصيتهم العظيمة المتمثلة فى عبادة العجل الذهبى.. إذ حينها استخدموا حليهم فى تكوين ذلك الصنم، ثم هاهم الآن يستخدمونها فى تكوين هيكل الرب.

لكن.. لم تكن النساء أقل من أزواجهن تحمساً لبناء الهيكل، ونشطن خصوصاً فى إنتاج وعمل الدلايات الصوفية.. وبطريقة معجزة كذلك!! فقد كُنَّ يغزلن الصوف وهو بَعْدُ على أبدان الغنم..!!

وفى البداية رفض موسى قبول هبات النساء..

لكنهن قلن له: «لماذا ترفض هباتنا؟ ألأنها مرايا نستخدمها للزينة؟ إذاً، فإليك عباءاتنا التى نتوارى بها عن أعين الرجال ونحافظ على عفتنا. لكن إن كنت لا تريد أن تقبل مِنَّا ما ليس لنا، فإليك مرايانا التى نملكها نحن ولا

يملكها أزواجنا».

ولما رأى موسى المرايا صاح غاضبا: «أتأتين إلىّ بالمرايا لأضعها فى هذا الحرم المقدس، وهى التى لا وظيفة لها سوى إثارة الشهوات الرخيصة؟!».

لكن الرب قال لموسى: «لكن هذه المرايا يا موسى هى أحب إلى من كل القرابين الأخرى.. فهى التى كانت السبب فى ميلاد مَلأى.. أجل.. فبينما كان شعبى إسرائيل فى مصر، كان الأزواج يعودون إلى زوجاتهم متعبين مرهقين من وطأة العمل.. فتمسك الزوجة بالمرآة وتتزين وتتجمل لزوجها فينسى تعبه وإرهاقه ويتغشاها فتحبل وتلد.. وبذا كُثر عدد أطفالى وزاد. لهذا خذ الآن هذه المرايا واستخدمها فى بناء المِغْطس الذى يحتوى على الماء الذى يستخدمه الكهنة فى التطهر».

وبالإضافة إلى ذلك فإن هذا المغطس نفسه كان له فائدة أخرى عظيمة.. إذ عندما يتم اتهام امرأة بالزنا، كانت ترغم على الشرب من ماء هذا المغطس فتظهر براءتها أو جرمها. وهكذا فكما كانت هذه المرايا تستخدم فى السابق فى إثارة العواطف الجنسية.. فإنها ستستخدم فيما بعد لإعادة الوئام بين الرجل وزوجته..



إنشاء الهيكل

تواصل العمل فى بناء الهيكل فى سرعة كبيرة، إذ كان قد تم إعداد كل شىء فى شهر «كسلون» لكن لم يُبْدأ فى العمل إلا لاحقاً، بعدها بثلاثة أشهر. وكان الشعب متلهفاً على الانتهاء من بناء الهيكل وتكريسه فى أسرع وقت، لكن الرب أمر موسى بالانتظار حتى أول يوم فى شهر نيسان.. لأن هذا اليوم هو اليوم الذى ولد فيه إسحاق، ولذا فقد أراد الرب أن يوافق الفرح ببناء الهيكل الفرح بهذه المناسبة العظيمة.

وبالطبع كان هناك أشخاص جهلاء من بين بنى إسرائيل لا يعرفون الحكمة من تأخير البدء فى بناء الهيكل إلى ذلك اليوم. وقد سخر هؤلاء من موسى قائلين: «أحقّاً ستستقر الشكينة على العمل الذى سيعمله ابن عمرام؟».

وفيما يتعلق ببناء الهيكل، كان على موسى أن يتحمل الكثير من إيذاء متصيدى الأخطاء وألسنة الأشرار. فإذا ظهر موسى فى الشارع ينادى أحدهم على الآخر قائلاً: «انظر إلى هذه الرقبة الغليظة والقفا العريض والسيقان المكتنزة لابن عمرام الذى يتغذى ويملأ بطنه من أموالنا!!».

فيجيبه الآخر قائلاً: «طبعاً.. وهل تظن أن من يتولى بناء الهيكل سيظل فقيراً!؟».

ولم يكن موسى يرد على هؤلاء بكلمة.. لكنه عزم بينه وبين نفسه على

أن يقدم للشعب كشف حساب مفصلا بكل ما تم إنفاقه فى بناء الهيكل، بمجرد أن يتم البناء.

وبالفعل، عندما اكتمل بناء الهيكل قدم موسى كشف حساب مفصلا للشعب بكل شاقل أنفقه فى بنائه.. ما عدا سبعمئة وخمسة وسبعين شاقلاً نسى أنه قد أنفقها على شراء الخطاطيف التى تعلق بها ستائر الهيكل.. وفى الحال عندما رفع موسى عينيه إلى أعلى رأى الشكينة تستقر فوق هذه الخطاطيف فتذكر أمرها على الفور وبرئت ذمته أمام الشعب الذى أدرك من ساعتها أن موسى قائد أمين ويمكن الاعتماد عليه.

ولأن المساهمات التى تبرع بها الشعب كانت قد فاضت عن حاجة الهيكل.. فقد قام موسى ببناء هيكل ثان خارج المخيم فى البقعة التى كان الرب يتجلَّى له فيها، وكان "هيكل الوحى" ذلك.. مشابهاً للهيكل الأصلى فى كل شىء.

عندما أصبح كل شىء جاهزاً، أحس الناس بخيبة أمل عظيمة لأن الشكينة لم تستقر على عملهم.. ولذا فقد ذهبوا إلى حكمائهم الذين سيشتركون فى تشييد الهيكل، وقالوا لهم:

«لماذا تجلسون هكذا خاملين؟ اذهبوا وأقيموا الهيكل، فلعل الشكينة تقيم بيننا».

وفى الحال ذهب هؤلاء الرجال وأقاموا الهيكل.. لكن دون جدوى. فما كادوا يقيمونه إلا وانهار.

عند ذلك ذهب الجميع إلى "بصلئيل" و "أُهولياب"...

وقالوا لهما: «أقيما أنتما الهيكل.. فلعله يبقى ثابتاً ولا ينهار». فحاول الرجلان.. لكنهما فشلا...!

عند ذلك صاح الناس فى ضجر: «انظروا إلى ما جلبه ابنُ عمرام

علينا!! لقد جعلنا ننفق أموالنا ونتعب أنفسنا عبثاً.. زاعماً لنا أن القدوس، تعالى، سينزل من سمائه مع ملائكته ويقيم بيننا فى بيت من شعر الماعز!!».

ثم ذهبوا إلى موسى وقالوا له:

«يا موسى.. يا معلمنا.. أغثنا!! لقد فعلنا كل ما أمرتنا به وقدمنا كل ما طلبته منَّا. فالآن انظر إلى هذا العمل الذى أكملناه وأَخْبرنا إن كان به خطأ ما.. أو إذا كنا قد نسينا شيئاً ما.. أو فعلنا ما ينبغى تركه.. هيا افحصه فى عنايةٍ وأخبرنا».

وتفحص موسى الهيكل فلم يجد به عيباً واحداً..!

فلما أخبر الناس بذلك قالوا له:

«لماذا إذاً لا يستقر ويثبت فى مكانه!؟ لقد فشل بصلئيل وأهولياب، فى تثبيته.. وفشل كذلك جميع الحكماء!!».

واغتمَّ موسى لذلك كثيراً..

لكن الرب قال له: «لقد أسِفتَ وحزنت من قَبْلُ يا موسى لأنك لم تشارك فى بناء الهيكل.. الذى تبرع الناس بكل ما يلزمه وتولى بصلئيل وأهولياب بناءه بعمل أيديهم. لهذا فلن يقدر أحد على إقامته وتثبيته سواك».

فرد موسى قائلاً: «يارب العالم.. لكنى لا أعرف كيف أقيمه!».

لكن الرب أجابه قائلاً: «اذهب وانشغل بتشييده، وسوف يستقر قائماً من تلقاء نفسه».

وبالفعل ما كاد موسى يلمس الهيكل.. إلا وانتصب قائماً.. فانخرست على الفور جميع الإشاعات التى كانت تتهم موسى بأنه شيد الهيكل بغير أمر من الرب.

ترسيم الكهنة

قبل أن يتم تكريس الهيكل والمتاع الخاص به، تم مسحهم بالزيت المقدس. وقد حدثت حينذاك معجزة عظيمة..

فقد استُخدم اثنا عشر مكيالاً من الزيت.. لم تكف فقط لمسح الهيكل ومتاعه وهارون وأبنائه طوال أيام الترسيم السبعة.. وإنما كفت كذلك لمسح جميع أبناء هارون الذين تولوا منصب الكهانة الكبرى، بالإضافة إلى العديد من الملوك إلى زمان "يوشيا". كما حدثت معجزة أخرى عند مسح هارون بالزيت...

فقد عَلَقَتْ بلحيته قطرتان صارتا كاللؤلؤ.. وكان يهذب لحيته دون أن تسقطا، وإنما كانتا ترتفعان إلى جذور الشعر..!

وفى البداية ظن موسى أن فى ذلك تدنيس للزيت المقدس وتضييعاً له.. لكن هتف به هاتف إلهى طمأنه، وسمع هارون نفس الهاتف يطمئنه.. وهو الذى كان قد خشى هو الآخر من أن يكون قد استخدم الزيت المقدس لمصلحته الشخصية.

* * *

لم يكن مسح هارون وولديه بالزيت المقدس هو الشعيرة الوحيدة لترسيمهم كهنة... فقد اضطرا للعيش قرب الهيكل لمدة أسبوع كامل، فى عزلة تامة عن العالم الخارجى. وطوال هذه المدة كان موسى هو الذى يقوم

بشعائر الكهانة، بل وكان يجلب القرابين إلى هارون وولديه ويرشهما بدم الذبائح المقدسة.

وكان الرب قد أمر موسى بترسيم هارون وولديه للكهانة، فى اليوم الثالث والعشرين من شهر آذار..

إذ قال الرب لموسى:

«اذهب وأقنع هارون بقبول منصب الكاهن الأكبر.. فأنا أعلم أنه رجل لا يحب المناصب. اذهب إليه وقم بترسيمه لهذا المنصب الجليل أمام أعين جميع الشعب، ليكون ذلك تكريماً له.. وفى الوقت نفسه حذِّر الناس من أن يدَّعى أحدهم لنفسه الكهانة، بعد ترسيم هارون. واجمع الشعب كله عند باب الهيكل».

وعندما سمع موسى هذه الجملة الأخيرة صاح فى دهشة:

«وكيف لى أن أجمع كل هذا الجمع الغفير من الناس فى هذا المكان الضيق!!؟».

فأجابه الرب:

«هل تعجب من ذلك يا موسى، وقد صنعتُ من قبل معجزات كثيرة؟ ألا تعلم أن السماء كانت فى الأصل فى مثل رقة شبكية العين فبسطتُها حتى غطت العالم من أقصاه إلى أقصاه؟ أجل... وفى العالم الآتى كذلك سأحشر كل الناس على جبل صهيون حتى يبلغ الزحام درجة أن يقول الواحد للآخر: «افسح لى قليلاً حتى لا أقع».. ولكن حينها سأبسط المدينة المقدسة حتى تتسع لكل الناس.. من آدم إلى يوم البعث».

وفعل موسى ما أمره به الرب واختار هارون وولديه أمام أعين الناس جميعاً... ثم انسحب هارون وولداه إلى الهيكل حيث أقاما خارج بابه طوال أسبوع. وأثناء هذه المدة كان موسى يجلب القرابين المخصصة للحرق

والقرابين المخصصة لتكثير الخطايا ويُرى هارون وولديه كيف يقومان بكل الطقوس الكهنوتية.

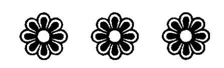
وقدَّم موسى قربان خطية.. لأنه كان يخشى من أن يكون ـ من بين التبرعات التى قدمت لبناء الهيكل ـ شىء حازه صاحبه بالظلم أو السُّحْت، والرب يحب العدل ويكره الغلول والسحت.

ومع ذلك فإن الهيكل لم يستخدم خلال هذا الأسبوع إلا بصفة مؤقتة.. فقد كان موسى يقيمه فى الصباح وعند المساء، ثم يطويه بعضه على بعض مرة أخرى.. ولم يستخدم الهيكل فى الخدمة العامة، إلا بعد انقضاء هذا الأسبوع. وبعد ذلك لم يكن موسى يطوى الهيكل.. إلا عندما ينقلون المخيم من مكان إلى آخر.

وقد خصصت هذه الأيام السبعة لهارون وولديه.. ليس فقط بغرض إعدادهم للخدمة فى الهيكل.. وإنما لسبب آخر كذلك.

فعندما قرر الرب إهلاك الأرض بالطوفان.. خصص الأسبوع السابق ليوم حلول الطوفان، أسبوع حداد على الضحايا الذين سيقتلهم الطوفان..

وبالمثل.. فقد جعل هارون وولديه يعيشان فى عزلة تامة عن العالم.. ليكون ذلك حداداً منهم ـ كما هو مفترض فى من هم فى مثل مكانهم ـ على المصيبة العظيمة التى ستنتظرهم ـ ألا وهى موت "ناداب" و"أبيهو".. فى هذه الأيام السعيدة..!



يوم التيجان العشرة

كان اليوم الأول من شهر نيسان يوماً حافلاً..

وكان بحق... «يوم التيجان العشرة»..

فأولاً: كان هو اليوم الذى بدأ فيه أمراء بنى إسرائيل يقدمون قرابينهم..

وثانياً: كان هو أول يوم تقيم فيه الشكينة بين بنى إسرائيل..

وثالثاً: كان هو اليوم الأول الذى يتم فيه تحريم تقديم القرابين فى أى مكان سوى المكان المخصص لذلك..

ورابعاً: كان هو اليوم الأول الذى منح فيه الكهنة بركتهم لبنى إسرائيل..

وخامساً: كان هو اليوم الأول الذى تقام فيه الخدمة العامة..

وسادساً: كان هو اليوم الأول الذى شارك فيه الكهنة فى تناول شىء من القرابين...

وسابعاً: كان هو اليوم الأول الذى تُرَى فيه النار السماوية فى المذبح..

وثامناً: كان هو أول يوم من أيام الأسبوع، يوم الأحد..

وتاسعاً: كان كذلك أول يوم فى السنة الجديدة..

وعاشراً: فى هذا اليوم نفسه... وبعد "أسبوع التدريب" الذى عاشه هارون وولداه...

قال الرب لموسى:

«هل تظن أننى سأجعلك كاهناً أكبر لأنك كنت تقوم بطقوس الكهانة خلال هذا الأسبوع؟.. لا.. بل نادِ هارون وأخبره أننى قد جعلته الكاهن الأكبر.. وفى الوقت نفسه نادِ على الشيوخ وأَعْلِمْهم، أمام هارون، أننى قد منحته هذا الشرف... لكيلا يقول أىٌّ منهم لنفسه إن هارون قد ادعاه لنفسه».

وفعل موسى ما أُمِرَ به.. وذهب أولاً إلى هارون ثم إلى ولديه بعد ذلك.. ثم إلى الشيوخ.. ليناقش معهم الاستعدادات التى ستتم لترسيم هارون فى هذا المنصب الجليل.

* * *

عندما أخبر موسى أخاه هارون بما أُمِرَ به من تعيينه كاهناً أكبر، أجابه هارون فى فزع: «ماذا تقول!! أتُتْهِك نفسك فى بنائه ثم آتى أنا وأستولى على منصب الكهانة فيه!؟».

لكن موسى رد قائلاً: «وحياتك يا هارون.. إنى لسعيد بذلك أكثر منك.. وكما فرحتَ أنت لى عندما رفعنى الرب وأعلى مقامى، فإنى لمسرور بهذا التكريم الذى كُرِّمتَ به..».

وصمت موسى لحظات ثم تابع:

«يا أخى يا هارون.. مع أن الرب قد تصالح مع بنى إسرائيل وغفر لهم معصيتهم، فإن عليك أن تغلق فم الشيطان بتقريب قربان خطيئة.. أجل.. فكما كدت تفقد شرفَ الكهانة بسبب عجل، عليك أن تقرب عجلاً قربان خطية، لكى لا يكرهك الشيطان عندما تدخل إلى الهيكل.. وتكون مستحقّاً لنيل شرف الكهانة فيه».

ثم التفت موسى إلى الشعب وقال له:

«لقد أذنبتم ذنبين عظيمين لابد لكما من التكفير عنهما.. فقد باع آباؤكم يوسف عبداً ولطخوا قميصه بدم شاة وادَّعوا أمام أبيه أن ذئباً أكله.. وأنتم أنفسكم عصيتم الرب وعبدتم العجل الذهبى. لهذا فقربوا طفلاً لتكفروا عن ذنبكم الذى أذنبتم مع طفل.. وقربوا عجلاً لتكفروا معصية عبادتكم للعجل. ولكى تطمئنوا وتتأكدوا من أن الرب قد صالحكم، قربوا ثوراً كذلك، لتُقِرُّوا أمام الرب بأنكم تذبحون صنمكم الذى عبدتموه حيناً من الزمن».

لكن الشعب رد قائلاً:

«وما جدوى أن يعبد شعب ملكه الذى لا يراه؟».

فأجابهم موسى:

«ولهذا السبب بالذات يأمركم الرب بأن تقربوا هذه القرابين لكى يُظْهِر نفسه لكم».

وعندما سمعوا ذلك فرحوا فرحاً عظيماً، إذ تأكدوا أن الرب قد صالحهم وهرولوا جميعاً ليحضروا القرابين إلى الهيكل.

وحضهم موسى قائلاً:

«احرصوا على طرد كل نوازع الشر من قلوبكم.. واحرصوا على شىء واحد فقط: عبادة الرب.. وأن تخلصوا نذوركم وقرابينكم للرب الواحد.. لأنه هو رب الأرباب وملك الملوك. وإن سمعتم كلامى وعملتم به، سيتجلَّى لكم مجد الرب».

* * *

لكن هارون، من تواضعه، لم يجرؤ بَعْدُ على القيام بطقوس الكهانة. ولقد كان منظر المذبح بقرنيه يبث الرعب فى قلبه.. إذ كان يذكِّره بعبادة

بنى إسرائيل للثور، تلك الحادثة التى لم يكن يظن أنه برئ تماماً من المشاركة فيها.

وكان على موسى أن يشجعه على التقدم نحو المذبح وتقديم القرابين. فتقدم هارون نحو المذبح وقرب القرابين ثم بدأ يمنح الشعب بركته وقد رفع يديه ويقول:

«ليباركم السرمدى ويحفظكم.. وليشرق السرمدى بوجهه عليكم ويكرمكم. ولينظر إليكم السرمدى ويمنحكم السلام».

وعلى الرغم من تقريب القرابين ومنح البركات، فلم يَظْهَر للشكينة أى أثر.. ولذا فقد اغتم هارون وحزن وقال فى نفسه: «لابد أن الرب غاضب منى ولذا فإن الشكينة لم تتنزل على بنى إسرائيل بسببى... يبدو أنه كان ينبغى علىّ ألا أدخل إلى الهيكل، لأن الطقوس التى قمت بها لم تجلب الشكينة». وعند ذلك ذهب موسى إلى أخيه هارون إلى الهيكل مرة أخرى وَوَحَّدا دعاءهما.. فتحقق لهما المراد، إذ أتت «نار من قِبَل الرب واشتعلت على المذبح لما يقرب من مئة وستة عشر عاماً، دون أن تحرق خشبه أو تصهر نحاسه».

وعندما رأى الناس تلك النار السماوية ـ والتى هى الأمارة على رضا الرب وصفحه عنهم ـ صاحوا وهللوا وخروا ساجدين حامدين الرب وتغنَّوْا بحمده. وساد الفرح، ليس فقط على الأرض وإنما فى السموات كذلك.. إذ فى هذا اليوم كان فرح الرب باكتمال بناء الهيكل لا يقل عن فرحته يوم خلق السموات والأرض والخليقة كلها.

لأن بناء الهيكل، على نحو ما، كان هو اللمسة الأخيرة لخلق الكون.. لأن العالم كائن بثلاثة: التوراة وعبادة الرب وأعمال الحب. ومن بدء الخليقة إلى لحظة نزول الوحى على جبل سيناء كان العالم يعيش بفضل الحب

والنعمة الإلهيين. ومن لحظة نزول الوحى على جبل سيناء إلى بناء الهيكل واكتماله كان العالم يعيش بفضل الحب الإلهى والتوراة.. وعندما اكتمل بناء الهيكل ثبتت أركان العالم، إذ توافرت دعائمه الثلاثة: الحب والتوراة وعبادة الرب.

ومن جانب آخر، فإن يوم اكتمال بناء الهيكل يمكن اعتباره من أيام الخليقة.. لأن الرب أقام وسط الفانين وأبقى الشكينة فى السموات، بسبب خطيئة آدم وحواء. لكن عندما تم بناء الهيكل وتكريسه للرب، عادت الشكينة إلى مثواها الأصلى: على الأرض بين الناس.

لهذا فقد بكى الملائكة فى هذا اليوم وناحوا قائلين:

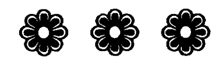
«الآن سيترك الرب ملأه السماوى ويقيم بين الفانين!».

لكن الرب طمأنهم قائلاً:

«وحياتكم.. ليبقينَّ مسكنى الحقيقى فى الأعالى».

لكنه لم يكن جاداً فى ذلك، فالأرض هى مسكنه الرئيسى[1].

وفقط بعد اكتمال بناء الهيكل على الأرض، أمر الرب الملائكة ببناء هيكل مماثل له فى السماء.. وفى هذا الهيكل يقوم الملاك «ميتاترون» بتقديم أرواح المتقين قرابين للرب تكفيراً عن خطايا بنى إسرائيل.. فى زمن النفى وبعد تدمير هيكله الأرضى.



(١) أستغفر الله العظيم.

يا فرحة ما تمت!

كانت أكثر النساء فرحاً فى هذا اليوم، هى "إليشيبا" بنت "عَمِّيناداب".. إذ بالإضافة إلى الفرح العام بتشييد الهيكل، اخْتُصت هذه المرأة بخمسة أحداث سعيدة.. فقد كان زوجها هارون هو الكاهن الأكبر.. وكان حموها موسى هو الملك.. وكان ابنها إلِعَازَار هو رئيس الكهنة... وكان حفيدها "فينحاس" هو كاهن الحرب... بينما كان أخوها «نحشون» أمير سبطه.

لكن سرعان ما استحال فرحها حزناً وغماً..!

فقد اقترب ابناها، ناداب وأبيهو، من الهيكل والمباخر فى أيديهما.. من فرط فرحهما بالنار السماوية ـ لكى يزيدا حرب الرب لإسرائيل بهذا القربان.. لكنهما دفعا حياتهما ثمناً له!! فقد انبعث من قدس الأقداس لسانان من النار، فى رقة الخيوط، ثم انقسما فصارا أربعاً ليخترق كل اثنان منها منخرى ناداب وأبيهو، فأهلكت روحاهما، وإن لم يصب بدن أى منهما ضرر.

ولم يكن موت هذين الكاهنين ظلماً.. فقد كانا قد ارتكبا الكثير من المعاصى. بل إنهما لم يتصرفا بلياقة عند جبل سيناء، وبدلاً من أن يحذوا حذو موسى فيشيحان بوجهيهما عن الوجه الإلهى.. أخذا يمعنان النظر فيه. وكان الرب قد عزم ساعتها على أن يهلكهما، لكنه لم يُرِدْ التنغيص على بنى إسرائيل فرحتهم بالتوراة.. لذا فقط انتظر حتى تم تشييد الهيكل.

وكان الرب قد تصرَّف فى ذلك مثل الملك الذى اكتشف فى يوم زفاف ابنته أن أفضل رجاله قد ارتكب خطيئة يستحق عليها القتل، فقال: «لو أعدمت أفضل رجالى فى هذه المناسبة، فسأحيل فرح ابنتى غمّاً وحزناً.. لأشنقنه فى يوم فرحى أنا، لا فى يوم فرح ابنتى».

وهكذا فقد شنق الرب ناداب وأبيهو « فى يوم فرح قلبه»، وليس فى يوم فرحة بنى إسرائيل بنزول التوراة.

* * *

وكان من بين الخطايا التى استحق عليها ناداب وأبيهو الموت.. خطية الكِبْر. فقد كان التكبر زادهما وأسلوب حياتهما، وعَبَّرا عن ذلك بطرق شتى..

فهما لم يتزوجا، إذ كانا يريان ألا امرأة تستحق شرف الزواج منهما.. وكان أحدهما يقول لنفسه: «إن عمى ملك وأبى الكاهن الأكبر وخالى أمير سبطه وأنا رئيس الكهنة.. فمن تلك المرأة التى تستحق شرف أن تكون زوجتى؟» وهكذا.. فقد بقيت نساء كثيرات من بنى إسرائيل دون زواج، فى انتظار أن يتقدم أحد هذين الشابين للزواج منهن.

بل إنهما من كبرهما كانا يتمنيان أن يأتى اليوم الذى يموت فيه موسى وهارون.. ليأخذا مكانهما فى قيادة الشعب... لكن الرب قال: «لا تتفاخرا ولا تتكبرا على عبادى.. فكم من مُهْرٍ مات قبل أمه، واسْتُخدِم جلدُه برذعة لتوضع على ظهرها».

وحتى عند وفاتهما أظهرا كبرهما. فلم يستأذنا موسى أو هارون فى تقديم القرابين. والأدهى من ذلك أن ناداب وأبيهو لم يستشر أحدهما الآخر، وذهب كل منهما إلى الهيكل بمفرده ودون علم أخيه.

* * *

عندمـا علم هـارون بموت ولديه قـال: «قـد رآك بنو إسـرائيل كلهم عند البـحر الأحمـر، وعند جبل سيناء كذلك، ولم يصبهمـا من سـوء.. لكن وَلَدىَّ اللذين أمرتهما يارب بأن يقيما فى الهيكل حيث لا يستطيع أى إنسان عادى أن يدخل إليه وإلا مات.. وخلا الهيكل ليشاهدا قوتك وقدرتك فماتا!!».

فقـال الرب لموسى: «قل لهـارون إننى قد أكرمتـه بقتل ابنيـه وإننى قد جُدت عليه بفضل عظيم بإحـراقى إياهمـا، بدلاً من أن أصيبهـمـا بالبـرص الذى قررته عـقوبة لكل من يدخل الـهيكل دون أن يؤمـر. فهل كان يحب أن يعيش ولداه منبوذين من الناس يفر النـاس من برصهما؟».

فقال هارون: «أشكرك يارب على فضلك الذى تفضلت به علىَّ بأن أمت ولدىّ بدلاً من أن تدعهما يعيشان أبرصين منبوذين بين النـاس».

وحـاول مـوسى التـخفيف عن أخيه المكروب وقـال له: «لقـد مـات ولداك وهمـا يحـاولان تمجيد اسم الرب، تبـارك اسـمه.. فعلى جبل سيناء قـال لى الرب : "وهـناك سـألتـقى ببنى إسـرائيل، وسـوف يقـدس الهـيكل كل من يمجدنى". وكنت أعلم أن الهيكل سيتقدس بموت الذين يقفون بالقرب منه.. لكننى كنت أظن أنه إما أنـا أو أنت هو المقـدر له ذلك.. لكن تبيَّن أن ولديك أقرب للرب منا».

فهدأ روع هـارون واطمـأن قلبـه وصبـر على قضـاء الـرب الذى أثابه على ذلك بحديثه إليه مباشـرة.

* * *

لم يسـتطع هـارون المشـاركـة فى دفن ولـديه نـاداب وأبيـهـو.. فليس مسـموحـاً للكاهن الأكبـر أن يشـترك فـى الجنـازات، حتـى ولـو كـان الميت من أقـرب النـاس إليـه. كذلـك لم يسـمح لإيثـامـار وإلعِـازَار، ولـدى هـارون اللذّين بقيـا على قيد الحياة، بالحـداد أو حضـور مـراسـم الجنـازة فى يوم تكريسهمـا

كاهنين.. ولذلك فقد حضر بدلاً منهما "ميشائيل" ، و"ألصَافان" اللاويان وأبناء عـمـومـة هـارون، وأقـرب الناس إلـى الميتـين.. وكـان هذان ابنَىّ رجل فاضل لم يكن قريباً لهارون فحسب، وإنما كان كذلك قريب الشبيه به فى أخلاقه وطباعه. فكما كان هارون رجلاً ميالاً بطبعه إلى السلام.. كان "عُزِّيئيل"، أبو مشيائيل وألصافان.

* * *

احتد الشعب كله على موت ناداب وأبيهو.. «فموت الرجل التقى الصالح يمثِّل بالنسبة لإسرائيل مصيبة أعظم من احتراق الهيكل عن آخره». ولم يؤذن لهارون ولا لولديه بأن يشاركا فى الحداد العام، وأمرهم موسى بأن يأخذوا من القرابين أنصبتهم المستحقة، وكأنما لم يحدث شىء. فلما رأى موسى أن هارون قد أحرق تماماً أحد قرابين الخطية الثلاثة التى قدمت فى ذلك اليوم، دون أن يذوق هو أو ولداه منها شيئاً... اشتعل غضبه من أخيه لكنه لم يوبخه هو وإنما صب جام غضبه على ولديه، مراعاة لسن هارون ومقامه.

ولامهما موسى وعنَّفهما على مخالفة أمر الرب بإحراق قربان والأكل من الاثنين الآخرين. كما سألهما إن كانا غبيين إلى درجة ألا يعتبرا مما حدث لأخويهما اللذين دفعا حياتهما ثمناً لعصيانهما.. خصوصاً وهما كذلك ـ إيثامار وألِعازارَ ـ كان مقدراً لهما الموت هما أيضاً، لولا أن دعاء موسى من أجل أخيه هارون قد جعله يحتفظ بنصف عدد أولاده.

لكن موسى كان ظالماً فى حكمه عليهما!!. فلم يفعل هارون وولداه إلا ما قضت به الشرائع، لكن موسى كان قد نسى فى هذه المرة ـ كما فعل فى مرتين أخريين ـ الأحكام التى علمها هو بنفسه لبنى إسرائيل. ولهذا فلم يخف هارون من هجوم موسى عليه وعارضه فى صراحة وأثبت له خطأه. وعند ذلك لم يتكبر موسى على الحق ولم يغضب لمراجعة هارون له، وإنما

أطلق منادياً ينادى فى المخيم قائلاً: «لقد أخطأت فى تفسير الشريعة وقد صحح هارون خطأى.. وكان إيثامار وأَلِعَازَار يعلمان الصواب أيضاً، لكنهما لم يعارضانى احتراماً لى».

وقد أثابهم الرب جميعاً على ذلك التواضع والثبات على الحق بأن أوحى لموسى شرائع خاصة وحضه على أن يخبر بها هارون وولديه إيثامار وألعازار.



هدايـا الأمـراء

عندمـا حض مـوسى الشـعب على التبـرع لبناء الهيكل، غـضب أمـراء الأسبـاط منه لأنه لم يتوجه إليهم بالخصوص ولم يطلب منهم التبـرع على أعين الناس. ولذلك فقد أحجموا عن التبرع بشىء وانتظروا حتى يقدم كل الشعب ما لديه ثم إذا ما انتهى وتبين أن هناك عجزا تقدموا هم فأكملوا الناقص فيشار إليهم بالبنان.. «فما كان الهيكل لينتصب قائماً لولاهم».

لكن خاب ظنهم... إذ تبرع أفراد الشعب بكل ما كان الهيكل يحتاجه، فلم يتبق للأمراء من شىء ليساهموا فيه.. إلا أن يتبرعوا بالجواهر اللازمة لثياب الكاهن الأكبر، لكنهم لم يشاركوا فى بناء وتشييد الهيكل..! وقد حاولوا إصلاح غلطتهم بالاقتداء بسبط «يسَّاكر» المشهورين بالحكمة والدهاء.. فأهدوا إلى الهيكل العربات التى ينتقل عليها الهيكل أثناء سيرهم فى الصحراء.

ولم يكن هؤلاء الأمراء مُحْدثى جاه أو شرف.. ولكنهم كانوا ذوى مكانة وجاه منذ أيام العبودية فى مصر، حتى إنهم كانوا يلقون عنتاً خاصّاً من المصريين..

وكانوا قد ساعدوا موسى فى إحصاء الشعب ووقفوا إلى جواره. ولذلك فقد قدم هؤلاء الأمراء قرباناً لموسى ست عربات مغطاة ومجهزة بكل شىء وملونة بالأزرق لون السماء.. بالإضافة إلى اثنى عشر ثوراً لتجر العربات.

وكان عدد العربات، وعدد الثيران كذلك، مختاراً بعناية..

فالعربات الست تناظر أيام الخليقة الست.. والأمهات الست: سارة ورفقة وراحيل ولئية وبلهة وزلفة.. والشرائع الست التى اختصت التوراة بها الملوك.. ومراتب المشنا الستة.. والسموات الستة.

أما الثيران الاثنا عشر فهى تناظر منازل الفلك الاثنا عشر والأسباط الاثنا عشر.

وفى البداية لم يكن موسى يريد قبول هذه التبرعات.. لكن الرب أمره بقبولها، بل وبأن يتحدث إلى الأمراء فى لطف وأن يشكرهم على هداياهم. وعند ذلك ظن موسى أن الشكينة قد هجرته ورحلت لتستقر على هؤلاء الأمراء، ظاناً أن الرب قد خاطب الأمراء مباشرة وأمرهم بتقديم هذه التبرعات.

لكن الرب قال لموسى: «لو أردت أن آمرهم مباشرة، لأمرتك أنت بأن تخبرهم بما أريد.. لكنهم إنما فعلوا ذلك من تلقاء أنفسهم فصادف ذلك مشيئتى» فتقبل موسى الهدايا، على حذر وخوف، أن تتكسر إحدى العربات فتظل إحدى القبائل دون أن يكون هناك ما يمثّلها. لكن الرب طمأنه بأنه لن يصيب أى عربة أو أى ثور مكروه.. بل حدثت معجزة عظيمة لهذه العربات وتلك الثيران: فقد عاشت الحيوانات إلى الأبد دون أن تشيخ أو تمرض.. كما بقيت العربات إلى الأبد.

* * *

لكن أمراء القبائل لم يقتنعوا بتقديم وسائل النقل، وإنما كانوا يريدون أن يكونوا هم كذلك أول من يقوم بتقديم القرابين، فى يوم تكريس الهيكل.. وكما كانت الحال مع العربات، فقد تردد موسى فى الإذن لهم بتقديمهم قرابينهم التى كانت غير عادية. لكن الرب أمره بقبول قرابين الأمراء، وإن ظل موسى غير متيقن من السماح لهم جميعاً بتقديم القرابين فى نفس

اليوم، أم يخصص يوماً لكل واحد منهم.. وإن خصص يوماً لكل واحد، فمن يكون أولاً ومن يكون ثانياً؟

وعند ذلك أوحى إليه الرب بأن يقدم أمير كل سبط القرابين فى يوم مخصوص، وأن يبدأ نحشون أمير سبط يهوذا. وقد أثاب الرب نحشون بذلك على سابق إخلاصه له عند عبور البحر الأحمر عندما تنازعت الأسباط فيما بينها على أيها ينال شرف العبور أولاً، فبادر نحشون، أمير يهوذا، فألقى بنفسه فى البحر وكله ثقة فى أن الرب سينصر بنى إسرائيل ويقف بجانبهم.

* * *

كانت القرابين التى قربتها الأسباط متطابقة، لكن كان لها مغزى خاص ودلالة معينة لكل سبط... فمن أيام يعقوب ـ الذى تنبأ لكل بمصيره ـ كان كل سبط يعلم تاريخه فى المستقبل وإلى زمان المسيا، ولهذا فعند تقديم القرابين قدم كل أمير من أمراء الأسباط قرابين ترمز لتاريخ سبطه.

فقد قدم «نحشون» أمير يهوذا، صحناً وسلطانية من الفضة.. وترمز الأولى إلى البحر والثانية إلى البر، لكى تشير إلى أنه سينشأ من هذا السبط رجال مثل سليمان والمسيا سيحكمون العالم كله، بره وبحره.. وقرَّب نحشون كذلك ملعقة فضية بوزن عشر شاقلات ترمز إلى الأجيال العشرة من بيريز بن يهوذا إلى داود أول ملوك يهوذا، والذى كانت جميع أفعاله حلوة مثل البخور الذى كانت تحتوى عليه الملعقة..

وقدَّم كذلك ثلاث محروقات: ثوراً مخصياً وكبشاً وحَمَلاً، ترمز إلى الآباء الثلاثة، إبراهيم وإسحاق ويعقوب.. بينما كان طفل المعزى تكفيراً عن خطية يهوذا الذى حاول خداع أبيه بدم طفل.

أما ثورا قربان السلام فكانا يرمزان إلى داود وسليمان، بينما كانت

الماشية الثلاثة الصغيرة، الكباش والشياه والحملان، تناظر ذرية وخلفاء هذين الملكين، ملك الذرية التى يمكن تقسيمها كذلك إلى ثلاثة أقسام: المتقين جداً والأشرار جداً... ومن ليسوا بهؤلاء ولا بأولئك.

فى اليوم الثانى لتقديم القرابين، تقدم أمير سبط يهوذا وأراد تقريب قرابينه قائلاً: «أما يكفى أن أُذِن لأمير يهوذا بتقديم القرابين قبلى..؟!» لكن موسى أخبره بأن الرب قد أمر بأن تقرب الأسباط قرابينها وفقاً للترتيب الذى سارت به فى الصحراء، ولذا فإن سبط يساكر هو التالى بعد سبط يهوذا.

وكان سبط يساكر يستحق أن يتقدم فى تقريب القرابين.. إذ كان قد كرس نفسه لدراسة التوراة منذ الأيام الأولى لنزولها، كما كان أول من اقترح على إخوته تقريب القرابين.

وكانت قرابين سبط يساكر ترمز إلى أشياء ترتبط بالتوراة...

فالصحن والسلطانية يرمزان إلى التوراة الشفوية والمكتوبة.. وكان كلاهما كذلك مملوءاً بالدقيق الجيد، لأن الشريعتين - التوراة الشفوية والمكتوبة - لا يتعارضان ولكنهما يشكلان وحدة واحدة من التعاليم. وخُلِط الدقيق الجيد بالزيت كما أنه ينبغى أن يضاف إلى العلم بالتوراة الأعمال الصالحة...

لأن من يشغل نفسه بالتوراة ويعمل الصالحات ويحفظ نفسه من المعاصى يُفْرِح خالقه.. وكانت الملعقتان الذهبيتان ترمزان إلى اللوحين اللذين كتب الرب عليهما بدواته "الوصايا العشر".. واللذين كانا يحتويان على جميع تفاصيل التوراة، بين سطور الوصايا العشر، مثلما أن الملعقتين مملوءتان بالبخور العطر.

أما المحروقات الثلاثة: الكبش والثور والحمل، فتناظر مجموعات الكهنة الثلاثة، اللاويين والإسرائيليين.. أما طفل المعزى فيشير إلى المتهوِّدين، إذ

لم تُنَزَّل فى التوراة إلى بنى إسرائيل وحدهم، وإنما إلى العالم كله.. والمتهوِّد الذى يدرس التوراة لا يقل مكانةً عن أى كاهن أكبر».. أما ثورا قربان السلام، فكانا يرمزان إلى التوراة المكتوبة والتوراة الشفوية، التى تجلب دراستها السلام على الأرض والسكينة فى السماء.

* * *

وبعد نحشون ، الملك المؤقت، و "نثنائيل" الملك الروحى.. جاء دور "آلياب" أمير سبط زبولون الذى حاز مكانته العالية من خلال ممارسته العمل بالتجارة وإنفاق أرباحها على إعاشة سبط يساكر الذين كرسوا أنفسهم تماماً لدراسة التوراة، فلم يكن لديهم ما يقتاتون به.

ويرمز الصحن والسلطانية اللذين قربهما "آلياب" إلى الطعام والشراب اللذين كانا يقدمهما سبط زبولون إلى سبط يساكر. وكانت الملعقة تشير إلى حدود البحر الذى منحه يعقوب لزبولون عند مباركته إياه، بينما كانت الشاقلات العشرة التى تمثل وزن هذه الملعقة ترمز إلى الكلمات العشر التى بارك بها يعقوب زبولون. وكان الثوران المخصيان يرمزان إلى البركتين اللتين منحهما موسى لسبط زبولون، بينما كانت الماشية الثلاث، الكبش والماعز والحَمَل، تشير إلى الأشياء الثلاثة التى تميزت بها ممتلكات زبولون عما عداها: وهى سمك التُّنّ والحلزون الأرجوانى والزجاج الأبيض.

* * *

بعد أن قربت أسباط معسكر يهوذا قرابينها، حل الدور على سبط رأوبين وأسباط معسكرها. وكانت قرابين سبط رأوبين ترمز إلى الأحداث التى شهدتها حياة جدها الأول رأوبين..

فالصحن الفضى كان يرمز إلى كلمات رأوبين التى قالها عند محاولته إنقاذ حياة يوسف.. إذ أن «لسان العادل مثل الفضة الخالصة». أما

السلطانية الفضية التى كانت تستخدم لرش دم القربان، فكانت ترمز إلى نفس الحادثة... فقد كان رأوبين هو الذى أشار على إخوته بأن يلقوا يوسف فى البئر بدلاً من قتله. أما ملعقة الشاقلات العشر فكانت ترمز إلى فعل رأوبين الذى حال بين بنى يعقوب وبين سفك الدماء.. ومن ثم فقد كان ذهب الملعقة لونه أحمر مثل الدم. وكانت الملعقة ملآنة بالبخور، وكذلك كانت أيام رأوبين ملآنة بالصيام والصلاة حتى غفر له الرب خطيئته مع بلهة وصعدت صلواته إلى الرب «مثل البخور». وتكفيراً عن هذه الجريمة قرب سبط رأوبين طفل معزى قربان خطية، بينما كان ثورا قربان السلام يناظران الفعلتين العظيمتين اللتين فعلهما رأوبين.. إنقاذ يوسف من الموت، وتوبته الطويلة عن معصيته.

* * *

ومثلما تدخل رأوبين لينقذ حياة أخيه يوسف، فإن شمعون قد ثار من أجل أخته "دينة" وانتقم لها من أهل "شكيم"، لما فعلوه بها. لهذا كان دور أمير سبط شمعون فى تقديم القرابين تالياً لأمير رأوبين.

وكما قُدِّر للهيكل أن يعاقب الفُحْش الذى يرتكبه بنو إسرائيل، فإن أمير سبط شمعون قد قدَّم قرابين ترمز لغيرة جدهم الأكبر على الشرف والكرامة..

فكان الصحن الكبير يرمز إلى الساحة المحيطة بالهيكل.. ولهذا فقد كان وزن الصحن مئة وثلاثين شاقلاً، ويناظر مساحة الساحة التى تبلغ مئة ذراع يشغل الهيكل منها ثلاثون ذراعاً.

أما السلطانية، وكان وزنها سبعين شاقلاً، فكانت تناظر المساحة الفارغة فى الهيكل. وكان الاثنان، الصحن والسلطانية، مملوءين بالدقيق الجيد المخلوط بالزيت.. لأن قرابين اللحم كانت تُقدَّم فى ساحة الهيكل مخلوطة بالزيت، بينما كان يقدم فى الهيكل نفسه خبز التقدمة المصنوع من

الدقيق الجيد، كما أن الشمعدان مملوء بالزيت.

وكانت الملعقة الذهبية ذات العشرة شاقلات وزناً تناظر لفيفة التوراة ولوحَيْ الوصايا العشر المستقرة داخل التابوت.

أما حيوانات الأضاحى، الثور المخصى والكبش والحمل وطفل الشاة، فكانت تناظر الأنواع الأربعة المختلفة للستائر والدلايات المستخدمة فى الهيكل، والتى كانت مصنوعة من جلود هذه الحيوانات.

وكان ثورا قربان السلام يناظران الستارتين: الأولى الموجودة فى مقدمة الهيكل.. والثانية الموجودة أمام ساحته؛ بينما كانت الأنواع الثلاثة للماشية الصغيرة المقدمة قرابين تناظر ستائر الساحة الثلاثة: الستارة الشمالية والستارة الجنوبية والستارة الغربية.. وكما كان طول كل ستارة يبلغ خمس أذرع، فقد تم تقديم خمس حيوانات من كل نوع قرباناً.

* * *

كما استل شمعون سيفه وحارب من أجل أخته.. استلت قبيلة "جاد" هى الأخرى سيوفها وانطلقت لتستولى على الأراضى الموجودة فيما وراء نهر الأردن.. من أجل إخوتها. لهذا فقد تلا أميرُهم "شَلُوميئيل" أمير سبط شمعون.

وهذا السبط، سبط "جاد"، كان نشيطاً فى الاستيلاء على الأرض الموعودة، ولذلك فقد كانت قرابينهم ترمز إلى الخروج من مصر، والذى لولاه لما أمكن الزحف إلى فلسطين..

فكان الصحن، ووزنه مئة وثلاثون شاقلاً، يشير إلى "يوكابد" التى حملت موسى وهى فى عامها الثلاثين بعد المائة.. وموسى نفسه له علاقة (بالسلطانية)، إذ كان قد أُلْقِى به فى النيل.. وهذه السلطانية، كما نعلم، وزنها سبعون شاقلاً، فكانت تناظر قيام موسى بنشر روح النبوة فيه على الشيوخ السبعين... وكما كانت السلطانية ملآنة بالدقيق الجيد، فإن روح النبوة فى

موسى لم تتضاءل أو تخبت.. لأن الشيوخ السبعين قد شاركوه فيها.

أما القرابين المحروقة الثلاثة فكانت تشير إلى الفضائل الثلاث التى كان بنو إسرائيل يتمتعون بها فى مصر، ولعبت دوراً بارزاً فى خلاصهم من العبودية فيها، وهى: أنهم لم يغيروا أسماءهم العبرية.. ولا لغتهم العبرية.. وعاشوا حياة الطهر والعفة.

أما قرابين الخطيَّة فكانت للتكفير عن الوثنية التى أدمنوها فى مصر، حتى إن الرب لم يأذن بخلاصهم إلا بعد أن تخلصوا من هذه الوثنية.

وكان ثورا قربان السلام يرمزان إلى يعقوب ويوسف اللذين خلص الرب بنى إسرائيل من عبودية مصر من أجلهما.

وقرَّب سبط "جاد" خمسة عشر رأساً من الماشية الصغيرة.. لأن الرب أوفى بوعده الذى وعد به الآباء الثلاثة والأجداد الاثنى عشر للأسباط، وخلص بنى إسرائيل من العبودية.

* * *

نال سبط "إفرايم" ميزة خاصة.. إذ أُذِن لأميرهم بأن يقدم قرابينه فى يوم السبت، وهو الذى لم يكن يسمح فيه إلا بتقديم القرابين اليومية العادية. وقد نالت هذه القبيلة هذه الميزة الخاصة إكراماً لجدها يوسف الذى كان يحافظ على حرمة السبت أيام كان حاكماً لمصر. وكانت قرابين سبطه ترمز إلى تاريخ يعقوب ويوسف.. إذ كانت ذرية يوسف مدينة بالكثير لحب يعقوب لابنه يوسف.

وكان الصحن الكبير يشير إلى يعقوب، والسلطانية ترمز إلى يوسف، وكما امتلأ هذان الوعاءان بالدقيق الجيد المخلوط بالزيت، كان يعقوب ويوسف رجلين تقيين للغاية وسارا بالاستقامة فى حياتهما.

وكانت الملعقة ترمز إلى يد يعقوب اليمنى التى وضعها على رأس

"إفرايم" ليباركه، وكانت الملعقة ملآنة بالبخور.. وكان يعقوب قد وضع يده على رأس إفرايم، ولم يضعها على يد أخيه الأكبر "مِنَسَّى»، فقد كان يعلم أن لإفرايم مكانة خاصة.

وكانت القرابين المحروقة الثلاثة ترمز إلى الآباء الثلاثة، بينما كان طفل المعزى يرمز إلى يوسف الذى تلطخ قميصه بدم طفل معزى. أما ثورا قربان السلام فكانا يرمزان إلى البركتين اللتين تلقَّاهما أبناء يوسف من جدهما يعقوب.. أما أنواع الماشية الثلاثة فكانت تناظر الأجيال الثلاثة من ذرية إفرايم، والتى رآها يوسف قبل موته

* * *

ولم يكن يوسف محافظاً على حرمة السبت وحسب، وإنما كان عفيفاً طاهراً لم يستسلم لإغراءات زوجة «"فوطيفار"، وكان مخلصاً لسيده فى خدمته.

لهذا قال الرب ليوسف:

«لقد حافظت على الوصية السابعة: "لا تزنِ"، فلم تزنِ مع زوجة فوطيفار.. كما حافظت على الوصية الثامنة: "لا تسرق"، فلم تسرق مال فوطيفار ولا سعادته الزوجية.. ولذلك فإنى سأكافئك مكافأة خاصة: فعندما يقوم أمراء الأسباط، فيما بعد، بتقديم قرابينهم عند تكريس المذبح، سأجعل أميرى ذريتك يقدمان قرابينهما، واحداً بعد الآخر، فى اليوم السابع واليوم الثامن للتكريس، لتنفيذك للوصية السابعة والوصية الثامنة».

لهذا فقد قدم أمير مِنسَّى قرابينه، محاولاً أن يجعلها ترمز إلى حياتى يوسف ويعقوب.. فالصحن، ووزنه مئة وثلاثون شاقلاً، كان يرمز إلى هجرة يعقوب إلى مصر وهو فى الثلاثين بعد المئة من عمره، وذلك من أجل يوسف. أما السلطانية ذات السبعين شاقلاً وزناً فهى ترمز إلى تسبب يوسف فى هجرة سبعين نفساً من العبريين إلى مصر. والملعقة ذات العشر

شاقلات ذهباً تشير إلى الأنصبة العشرة من الأرض التى وقعت فى نصيب منسى. والقرابين المحروقة الثلاثة تشير إلى الأجيال الثلاثة من ذرية منسى، والتى أُذِن ليوسف أن يراها قبل موته. بينما كان طفل المعزى يرمز إلى "يائير" بن منسى، والذى مات دون أن يولد له ولد. وكان ثورا قربان السلام يشيران إلى تقسيم ممتلكات سبط مِنَسىَّ إلى قسمين، واحد على هذا الجانب من نهر الأردن، والثانى على الجانب الآخر من النهر. أما الأنواع الثلاثة من ماشية قرابين الخطية فكانت ترمز إلى محاولة يوسف الثلاثية للتأثير على أبيه لمصلحة «منسى».. بينما كانت الرؤوس الخمسة لكل نوع ترمز إلى بنات «صلوفحاد» الخمس، وهى المرأة الوحيدة التى نالت نصيباً من الأرض الموعودة مثل الرجال.

* * *

وكما شيِّد الهيكل فى البداية فى "شيلوه"، التى هى من أملاك يوسف، ثم شيد بعد ذلك فى "أورشليم" التى هى من أملاك بنيامين.. فإن قرابين سبط بنيامين قد تلت قرابين سِبْطَىْ يوسف.

وكان الصحن الكبير يشير إلى "راحيل" أم بنيامين التى ولدته ليعقوب عندما كان فى عامه المائة.. تذكاراً لذلك، ولبلوغ بنيامين أيضاً الثلاثين من عمره عند قدومه إلى مصر، كان وزن الصحن مئة وثلاثون شاقلاً. أما السلطانية فكانت تشير إلى الكأس التى استخدمها يوسف ليكتشف مشاعر إخوته تجاه بنيامين.. كما أن امتلاء الوعاءين بالدقيق الجيد المخلوط بالزيت، يشير إلى صلاح أرض يوسف وبنيامين لاحتضان الهيكل، قدس الرب. أما الملعقة ذات الشاقلات العشر ذهباً، والمملوءة بالبخور العطر، فكانت ترمز إلى أبناء بنيامين العشرة الذين كانوا جميعاً رجالاً أتقياء. وكانت القرابين المحروقة الثلاثة تناظر الهياكل الثلاثة التى بنيت وستبنى فى أملاك بنيامين، وهى: "هيكل سليمان" و"هيكل العائدين من السبى

البابلى" و"الهيكل الذى سيبنى فى زمن المسيا". أما قربان الخطية، وهو طفل المعزى، فيشير إلى بناء الهيكل على يد الملك الشرير الفاسق "هيرود" والذى كفر عن نفيه للعلماء بتشييد الحرم. وكان ثورا قربان السلام يشيران إلى المُخَلِّصَيْن اللذين سيخلِّصان بنى إسرائيل وسيكونان من ذرية بنيامين.. وهما "موردخاى" و"إستير". بينما كانت الرؤوس الخمسة لكل نوع من أنواع الماشية الثلاثة المقدمة قرباناً للتكفير عن الخطية، فكانت ترمز إلى الميزة الثلاثية التى تميز بها بنيامين وسبطه بخمس هبات: هبة الشرف الذى أغدقه يوسف على أخيه بنيامين زائداً عما مُنِح لإخوته بخمسة أضعاف.. إذ لما عرَّف يوسف إخوته بنفسه منح بنيامين خمسة أثواب جديدة، كما مَنَحَ "أحشويروش" موردخاى البنيامينى خمسة أثواب رياسة.

* * *

عندما بارك يعقوبُ "دان"، شبَّهه بيهوذا.. ولهذا فقد كان سبط "دان" على رأس المعسكر الرابع لبنى إسرائيل، وقام أمير هذا السبط بتقريب قرابينه قبل أميرى سبْطَىْ "أشر" و"نفتالى". وعند مباركة يعقوب لدان، فإنما كان ما يجول فى خاطر يعقوب حينئذٍ هو البطل "شمشون".. ولهذا فإن هدايا سبط "دان" ترمز فى الأساس إلى تاريخ حياة هذا القاضى العظيم. وقد كان "شمشون" "مَنْذُوراً"(١). ولذلك فقد كان الصحن الفضى الذى يستخدم لتخزين الخبز، ومن المعلوم أن أى "منذور" لابد أن يقرِّب خبزاً عند التحلل من نذره. وكذلك كانت السلطانية تشير إلى «شمشون».. فالسلطانية تسمى بالعبرية "مِزْرَاق»، أى الزاحفة، وكان «شمشون» مصاباً بالعرج فى كلتا ساقيه، ولذا فقد كان يزحف على الأرض.

وكانت ملعقة الشاقلات الذهبية العشر تشير إلى الأحكام العشرة المفروضة على "المنذورين"، والتى كان على "شمشون" أن يلتزم بها. أما

(١) هو يهودى نُذِرَ لله فلا يحل له أن يعاقر الخمر أو يحلق شعره أو يمس جثة. (المترجم).

القرابين المحروقة الثلاثة فكانت تشير إلى الأشياء الثلاثة التى نهى الملاك أم «شمشون» عنها حين قال لزوجها "مَنوعه": «لا تجعلها تأكل من أى شىء يصنع من الكروم.. ولا تشرب خمراً أو مُسْكِراً.. ولا تأكل خبيثا».

أما قربان الخطية، وهو "طفل" المعزى، فيدعى بالعبرية "سَعِر".. وبذلك فهو يشير إلى أمر الملاك لأم شمشون بألا تحلق شعره والشعر بالعبرية يسمى "سعِر»".

وكان الثوران المقدمان قرباناً للسلام يشيران إلى العمودين اللذين أمسك بهما شمشون ليهدم بيت "الفلسطينين».. بينما كانت أنواع الماشية الصغيرة الثلاثة المقدمة قرباناً للخطية، تشير إلى المعارك الثلاثة التى خاضها شمشون ضد الفلسطينيين.

* * *

لابد أن ينطق القاضى بالحكم قبل أن يتم تنفيذه.. ولذلك فقد كان دور سبط "أشر"، وهم "منفذو الأحكام"، بعد سبط "دان" وهم القضاة.

وكان اسم "أشر" يعنى كذلك "الحظ السعيد"، وهو يشير إلى حظ بنى إسرائيل السعيد الذى اختارهم الرب ليكونوا شعبه... وكانت قرابين هذا السبط ترمز كذلك إلى تميز هذا الشعب..

فالصحن الكبير ذو المئة والثلاثين شاقلاً وزناً يشير إلى أمم الأرض المئة والثلاثين التى نبذها الرب ليختار إسرائيل شعباً له من دونها جميعاً.

أما السلطانية ذات السبعين شاقلاً ترمز إلى الأنفس السبعين الأتقياء الذين كانوا يمثلون شعب بنى إسرائيل عند دخولهم إلى مصر.

وكما كان كلا الوعاءين مملوءا دقيقاً، فإن الرب قد أرسل «أنبياءه» إلى الأمم كلها، فلم يقبل كلمته من بين الأمم سوى شعب إسرائيل الذى أعلن استعداده لقبول التوراة.

وقد قبل هذا الشعب كذلك تقريب "ملعقة وزنها عشر شاقلات ومملوءة بالبخور العطر».. بمثل ما قبل الوصايا العشر وقبل التوراة.

والقرابين الثلاثة المحروقة تشير إلى التيجان الثلاثة التى كلل بها الرب رأس إسرائيل: تاج التوراة، وتاج الكهانة وتاج الملك.. ولهذا السبب نفسه صيغت تيجان ذهبية على التابوت الذى كانت التوراة تحفظ فيه.. وعلى المذبح الذى يقدم الكهان القرابين عليه.. وعلى المنضدة التى ترمز إلى المُلك. لكن أفضلها جميعاً تاج السمعة الطيبة التى يحوزها الإنسان بأعماله الصالحة.. فالاختبار الصعب ليس هو دراسة التوراة، وإنما العيش وفقاً لأحكامها. ولهذا السبب نفسه كان من بين القرابين قربان خطية يرمز إلى تاج الأعمال الصالحة التى يمكن أن تكفِّر هى الأخرى الخطايا. أما الثوران فهما يرمزان إلى التوراتين اللتين وهبهما الرب لشعبه: التوراة المكتوبة والتوراة الشفوية.. بينما كانت رؤوس الماشية الخمسة عشر تشير إلى الآباء الثلاثة والأجداد الاثنى عشر للأسباط، لأن الرب قد اختار هؤلاء الخمسة عشر.

* * *

ثم حان دور سبط «نفتالى»..

وكان نفتالى بن يعقوب ابناً باراً بوالده لا يتأخر لحظة عن تنفيذ أوامره. وحذا أمير السبط حذو جده الأكبر وقرَّب قرابين تذكِّر بالآباء الثلاثة وبزوجاتهم.

فالصحن ذو المئة وثلاثين شاقلاً وزناً يشير إلى سارة التى تفردت على بنات جنسها بالجمال، حتى حينما بلغت المائة والثلاثين من عمرها. أما السلطانية ذات السبعين شاقلاً وزناً فكانت تذكِّر بإبراهيم الذى كان فى السبعين من عمره حينما أقام الرب معه عهد الإجزاء. والدقيق المخلوط

بالزيت فى الصحن والسلطانية يذكِّر بإبراهيم وسارة، فى حبهما البالغ لأعمال البر والخير. والملعقة ذات الشاقلات العشر وزناً تشير إلى إبراهيم الذى قاوم الإغراءات العشرة... والقرابين المحروقة تناظر القرابين التى قرَّبها إبراهيم عند عهد الإجزاء.. ويشير الثوران إلى "إسحاق» و"رفقة"، بينما تشير الأنواع الثلاثة للماشية إلى "يعقوب" و"ليئة" و"راحيل". والرؤوس الخمسة عشر لهذه الأنواع الثلاثة تناظر الآباء الثلاثة والأجداد الاثنى عشر للأسباط.



نزول الوحى فى الهيكل

«من يحاول الهرب من الجاه.. يطارده أينما ذهب».

عندما تم بناء الهيكل، أحس موسى أن رسالته قد تمت، وأن دوره كزعيم للشعب قد انتهى، إذ لم يعد بنو إسرائيل فى حاجة إلى قيادته لهم. لكن الرب قال: «وحياتك.. لقد احتفظت لك بمهمة أعظم من كل ما كلفتك به من قبل.. إذ عليك أن تُبَيِّن لأطفالى "الخبيث والطاهر"، وأن تعلِّمهم كيف يقرِّبون القرابين إلىَّ».

ثم نادى الرب على موسى ليأتى إلى الهيكل، ليوحى إليه بالتعاليم والشرائع. لكن موسى من تواضعه لم يجرؤ على دخول الهيكل بينما كانت تظلله غمامة، فهو يعلم أن هذه الغمامة هى علامة على «أن الشياطين تخيِّم فوقه».. ولذا فقد انتظر حتى تزول الغمامة.

وكان موسى قد سمع الصوت الذى ناداه نازلاً من السماء على هيئة لسان من النار استقر فوق القروبيمين اللذين ناديا على موسى. وكان هذا الصوت له من القوة مثل ما كان له عند نزول الوحى على جبل سيناء.. عندما هربت أرواح بنى إسرائيل منهم رعباً.. ورغم ذلك فلم يكن أحد يستطيع سماعه سوى موسى.

* * *

فى اليوم الأول لتكريس الهيكل، أوحى الرب إلى موسى مالا يقل عن

ثمانية أقسام مهمة من الشريعة. ومكافأة له على تقواه، تلقَّى هارون وأبناؤه إلى الأبد شريعة القداسة، والتى هى ميزة خاصة للكهان.. وقد أوحيت هذه الشريعة فى هذا اليوم الأول. وفى ذلك اليوم أيضاً استلم هارون وأبناؤه الهدايا الخاصة بالكهان إذ على الرغم من أنها قد خصصت لهم منذ يوم نزول الوحى على جبل سيناء، فإنها لم تُعْطَ إليهم إلا فى هذا اليوم بعدما تم مسح الهيكل بالزيت المقدس.

وكان ثانى الشرائع التى أوحيت فى اليوم الأول شريعة فصل اللاويين عن بقية بنى إسرائيل، لكى يكرسوا أنفسهم للهيكل. «فالرب لا يرفع أبداً أى إنسان إلى مكانة عالية إلا بعد أن يجربه ويجده مستحقّاً». والرب لم يقل: «اللاويون هم خاصتى» قبل أن يمتحن هذا السبط ويجده مستحقّاً لذلك. ففى مصر لم يكن من بنى إسرائيل من راعى شرائع التوراة والتزم بها وتمسك بعهد إبراهيم وحافظ عليه سوى اللاويين.. بينما هجرت الأسباط الأخرى التوراة وتخلوا عن أمارة عهد إبراهيم (= الختان) وشاركوا المصريين عبادتهم للأوثان..!

وفى الصحراء كذلك، كانت هذه القبيلة وحدها، قبيلة لاوى، هى التى لم تشترك فى عبادة العجل الذهبى. لهذا، فقد اختارهم الرب ليكونوا خداماً لحرمه وكهنة لهيكله.

* * *

كانت الطقوس التى تمت لتكريس اللاويين للكهانة، تشابه كثيراً تلك الطقوس الخاصة بتطهير البُرّص. ففى الأصل، كان أبكار الشعب يكرِّسون خداماً للهيكل، لكن بسبب عبادة الأسباط للعجل الذهبى، فقد الأبكار هذا الحق وذهب إلى اللاويين بدلاً منهم. ولهذا السبب كان على اللاويين أن يؤدوا الطقوس المرتبطة بتطهير البُرّص، لأنهم حلوا محل من دنَّسوا أنفسهم بالخطيئة.

كانت القرابين التى قدمها (اللاويين) فى ذلك اليوم عبارة عن ثورين مخصيين: أحدهما يقدم قربان خطية إذا ارتكب الشعب معصية عبادة الأوثان مستسلماً لإغواء الآخرين.. وما كان بنو إسرائيل ليقعوا فى مستنقع عبادة العجل الذهبى لولا أن أضلهم الأغيار.

«لكن من يعبد وثناً، فإنه يكون قد خالف التوراة كلها»... ولذلك فقد كان على اللاويين أن يقربوا قربان خطية آخر ثوراً مخصيّاً، طبقاً للشريعة التى تقضى بأنه «إذا ارتكب شعب إسرائيل كله معصية فيها مخالفة لأى أمر من أوامر الرب بفعل ما نهوا عنه.. فإن عليهم حينئذٍ أن يقدموا عجلاً مخصيّاً تكفيراً عن هذه الخطيئة».

وكما اختير اللاويون «ليقوموا بخدمة بنى إسرائيل فى هيكل الشعب ويكفِّروا عن خطايا بنى إسرائيل».. فقد أمر الرب شعب إسرائيل كله بالحضور أثناء تكريس اللاويين.. إذ أن كل من يخطئ ويريد تقريب قرباناً للتكفير عن خطيئته، فإن عليه أن يجلبه بنفسه إلى الهيكل. ولهذا السبب أيضاً، كان على شيوخ الشعب أن يضعوا أيديهم على اللاويين، وفقاً للشريعة التى تقضى بأن «يضع الشيوخ أيديهم على خطيَّة الشعب».

وقد شارك هارون أيضاً، مثله مثل الشيوخ، فى طقس التكريس.. إذ قام برفع كل لاوى عالياً علامة على أنه قد تم تكريسه للهيكل.. وما يبيِّن قوة هارون الهائلة أنه استطاع رفع اثنين وعشرين ألف رجل فى يوم واحد!!!



تطهير المخيم

كانت الشريعة الثالثة التى أوحيت فى هذا اليوم.. أن يقوم بنو إسرائيل بطرد كل أبْرَص ونجسٍ إلى خارج المخيم.

فعندما خرج بنو إسرائيل من مصر، كان من بينهم الكثيرون ممن فقدوا أحد أطرافهم أثناء العمل الشاق فى تلك البلاد، أو أصابه المرض من سوء ظروف معيشتهم فيها. وعندما وصلوا إلى جبل سيناء، كان بنو إسرائيل مجرد حشد من العُرْج والعُمْى والمعاقين..! ولذلك، فإن الرب استاء من ذلك وقال: «هل يليق بجلال التوراة أن أنزلها على شعب من العجزة والمعاقين!؟».

كما أن الرب لم يكن يستطيع الانتظار حتى ينشأ جيل آخر معافًى وسليم حتى يهبه التوراة ـ لذا فقد أنزل ملائكته فشفت جميع المرضى والمعاقين، وعاد الشعب كله شعباً من الأسوياء سليمى البدن. وقد ظلوا على هذه الحال من الصحة والنعمة إلى أن عبدو العجل الذهبى، فعادت إليهم جميع أمراضهم وأسقامهم السابقة..!

ووحدهن النساء هى اللاتى لم يعانين من عودة الأمراض والإعاقات.. إذ كُنَّ أول من بادر بقبول التوراة، فأثابهن الرب على ذلك.

وعندما انتهى موسى من تشييد الهيكل قال له الرب:

«عندما لم يكن بناء الهيكل قد تم بَعْدُ، لم أكن أمانع فى وجود العجزة والبرص بين الشعب.. لكن طالما أن الهيكل قد اكتمل والشكينة ستقيم

بينكم، فإننى مُصِرٌّ على أن تخرجوا من بينكم جميع هؤلاء البرص والعجزة، لكن لا يدنِّسوا المخيم الذى سأقيم فى وسطه».

وكان القانون الخاص بالبُرْص بالغ القسوة، إذ لم يؤذن لهم أبداً بالوجود داخل المخيم.. بينما مُنِع العجزة والمعاقون من البقاء قرب الهيكل فقط. وكان هؤلاء البرص هم أنفسهم الذين عبدوا العجل الذهبى فابتلاهم الرب بهذا المرض، ولهذا السبب فصلهم الرب عن بقية الناس[1].

إن الرب يعاقب بالبرص على ارتكاب ثلاث عشرة معصية: التجديف والزنا والقتل وسوء الظن والكبر والاستيلاء على حقوق الآخرين دون وجه حق والقذف والسرقة والحنث باليمين وتدنيس الاسم الإلهى وعبادة الأوثان والحسد وازدراء التوراة.

وقد عوقب "جالوت" بالبرص لأنه سَبَّ الرب.. وأصيبت بنات صهيون بالبرص لزناهن.. وعوقب "قايين" بالبرص لقتله "هابيل".

وعندما قال موسى للرب: «يارب.. إنهم لن يؤمنوا بى» قال له الرب: «بل إنهم مؤمنون وأبناء مؤمنين.. وقد افتريت عليهم وأسأت الظن بهم.. فالآن أدخل يدك فى جيبك» فلما أدخل موسى يده فى جيبه وأخرجها مرة أخرى وجدها برصاء كالثلج..! (والبرص يجعل اليد بيضاء).

وادَّعى "عوزيَّا" لنفسه الكهانة دون وجه حق وذهب إلى الهيكل ليحرق البخور على المذبح.. وما كاد يقترب من المذبح «إلا وضرب البَرَصُ جبينه»..! وأصاب البرص "نعمان" الذى تكبَّر على الناس متفاخراً بأعماله البطولية. وأصبحت "ميريام" برصاء كالثلج لأنها قذفت موسى.. وعوقب "جيحازى" بالبرص لأنه أحبط غرض "إليشع" الذى لم يكن يريد قبول شىء من "نعمان" (على معالجته له)، لكى يعرف الناس أن شفاءه إنما كان بفضل الرب.

(١) سبحان الله!! ألم تزعموا أن الله قد غفر لهم ذنبهم هذا فى مكان؟ وأنهم قتلوا بسبب ذلك فى مكان آخر؟ أم هو مجرد تبرير لهذه القسوة البالغة!!

كما أوحيت شريعة أخرى فى ذلك اليوم، وكانت تشير إلى الاحتفال «بوليمة الفصح الثانى». فقد كان "ميشائيل" و"ألصافان" اللذان حضرا جنازة "ناداب" و"أبيهو" - رجلين تقيين وحريصين أشد الحرص على تنفيذ أوامر الرب.. لهذا فقد ذهبا إلى البيت الذى كان هارون وموسى فيه يعلمان الناس وقالا لهما: «لقد دنَّسنا أنفسنا بلمس جثة ميت؛ لكن لماذا نُحْرَم من تقديم القرابين للرب فى عيده الذى جعله لبنى إسرائيل؟».

وفى البداية أجابهما موسى بأنه لا يجوز لهما المشاركة فى الفصح بسبب دنسهما، لكنهما جادلاه بأنه وإن لم يكن مسموحاً لهما بالمشاركة فى تناول طعام عيد الفصح، فربما يؤذن لهما، على الأقل، بالمشاركة فى تقريب «حَمَلِ الفُصْح»[1]، بأن يُرَشَّ دم الحمل من أجلهما. وعند ذلك أخبرهما موسى بأنه لا يستطيع أن يفتيهما فى ذلك إلا بعد أن ينزل عليه الوحى من الرب.. فقد كان موسى يمتاز بأنه يكون موقناً من تنزل وحى الرب عليه، كلما طلب ذلك من الرب. ولذلك فقد أمر الرجلين بالانتظار إلى حين نزول وحى الرب عليه.. وهو ما تحقق فى الحال.

* * *

وفى ذلك اليوم أيضاً قال الرب لموسى: «لقد أصيب هارون اليوم بمصيبة عظيمة، لكنه لم يقنط من رحمتى وحمدنى على الموت الذى حرمه من ولديه.. وهو ما يثبت ثقته بعدلى معهما، فقد كانا يستحقان عقوبة أقصى من ذلك. لذا فاذهب إليه وواسه، وقل له فى نفس الوقت «ألا يأتى إلى المكان المقدس.. إلا وهو منحنى الرأس أمام كرسى الرحمة الموجود فوق التابوت».

وأحزن ذلك موسى كثيراً وقال فى نفسه:

---

(١) هو حَمَل يضحى به ويؤكد فى عيد الفصح عند اليهود. (المترجم)

«يا ويحى!! يبدو لى أن هارون قد فقد مكانته العالية، إذ لم يؤذن له بالدخول إلى الهيكل فى كل وقت. كما لم يحدد الرب الفترات التى يدخل بعدها الهيكل، حتى إنى لا أعلم إن كان سيدخله كل ساعة أم كل يوم أم كل عام.. أم مرة فى كل اثنتى عشرة سنة، وربما كل سبعين سنة.. وربما لن يدخله أبداً..!»

لكن الرب أجابه قائلاً:

«لقد أخطأت فى ظنك يا موسى.. فلم أكن أفكر فى تحديد وقت معين لدخوله إلى الهيكل. إذ يستطيع هارون الدخول إلى الهيكل فى أى وقت يشاء.. لكن عليه أن يؤدى طقوساً معينة قبل ذلك».

وهذه الطقوس التى كان على هارون وكل كاهن أكبر أن يؤديَها قبل دخوله إلى قدس الأقداس.. إنما كانت ترمز إلى الآباء الثلاثة وزوجاتهم الأربع والأسباط الاثنى عشر. وبفضل كرامات هؤلاء الرجال والنساء فقط كان الكهنة الكبار يستطيعون الدخول إلى قدس الأقداس دون خوف من الملائكة الذين كانوا يملأون المكان.. والذين كانوا يتراجعون إلى الخلف عند دخول الكاهن الأكبر.. بل كان الشيطان نفسه يفر عندما يرى الكاهن الأكبر، ولا يجرؤ على اتهام إسرائيل أمام الرب.

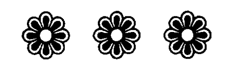
* * *

استحال حزن هارون لموت ابنيه فرحاً عندما أنعم عليه الرب فى يوم موتها بنعمة تلقِّى الوحى مباشرة.. وهو الأمر الذى حرَّم عليه وعلى ولديه، "إيثامار" و"أَلِعَازَار" شرب الخمر أو أى مسكر عند ذهابهم إلى الهيكل.

وفى ذلك اليوم أيضاً تنزل على موسى الوحى الخاص بالبقرة الحمراء، والذى لم يعرف إنسان غيره مغزاه وأهميته. وفى اليوم التالى تم ذبح هذه البقرة وحرقها، تحت إشراف أَليعَازَار بن هارون. وعلى الرغم من أن

الأجيال التالية قد ضحَّت بعدد من البقرات الحُمْر.. فإن هذه البقرة كانت لها ميزة أن الرماد المتخلف من حرقها قد ظل محفوظاً إلى الأبد، وكان يخلط مع رماد البقرات الحمر الأخر ليستخدم فى تطهير بنى إسرائيل.

لكن فى هذا العالم فقط يستطيع الكاهن تطهير المُدَنَّسين برشهم بماء التطهير الموجود حالياً.. بينما فى العالم الأتى «سيرش الرب الماء الطهور على بنى إسرائيل، ولكى يتطهروا من كل قذارة ومن كل وثنية».



إيقاد الشمعدان

كانت الشريعة الثامنة التى أوحيت فى هذا اليوم.. هى إيقاد الشمعدان. فبعد أن قرب أمراء الأسباط قرابينهم على مدار اثنى عشر يوماً.. فكر هارون فى نفسه وقال محزوناً: «يا ويحى..! يبدو أن سبطى قد حُرِم من شرف المشاركة فى تكريس الهيكل!!».

وعند ذلك قال الرب لموسى: «اذهب لهارون وقل له «لا تظنَّن أنى قد وضعتك وجعلتك أحقر منزلةً من أمراء الأسباط. بل ستتمتع بشرف أعظم من الكل.. فأنت الذى ستشعل مصابيح الشمعدان فى الهيكل».

وعندما سمع الشعب أمر الرب بإيقاد الشمعدان، قالوا:

«يارب العالم.. لقد أمرتنا بأن نوقد نوراً.. وأنت نور هذا العالم، والنور معك حيث كنت».

لكن الرب أجاب قائلاً:

«ما أمرتكم بإشعال الشمعدان لأننى أحتاج إلى نور.. ولكن لكى أميزكم فى أعين الأمم فتقول: «انظروا إلى شعب إسرائيل!! هاهم يحملون النور أمام من يمنح العالم نوره!!».. وتستطيعون أن تروا بأعينكم أننى لا أحتاج إلى النور مطلقاً.. ولديكم بياض العين وسوادها.. وبسوادها تتمكنون من رؤية الأشياء، وليس ببياضها. فكيف إذاً أحتاج أنا إلى نوركم!!».

كما قال الرب:

«إن الإنسان الفانى الذى هو من لحم ودم يشعل نوراً من نور آخر مشتعل.. لكننى أنا خلقت النور من الظلمة.. «ففى البدء كان على وجه القمر ظلمة».. فقلتُ: «ليكن نور، فكان نور». فهل أحتاج الآن إلى نوركم؟ لا.. بل إنما أمرتكم بإشعال أنوار الشمعدان لكى أميِّزكم وأمنحكم فرصة أخرى لعمل الصالحات.. فإذا عملتموها فإنى أثيبكم فى العالم الآتى بمنحكم نوراً عظيماً يشرق لكم.. وفوق ذلك ، فإن أضأتم الشموع أمامى فى حرمى، فسأقى من كل شرٍّ روحكم «التى هى شمعة الرب».

* * *

وفى نفس الوقت الذى تلقى فيه موسى الأمر الإلهى بإيقاد الشمعدان، أوحى إليه بالاحتفال بالسبت بإيقاد الشموع.. إذ قال له الرب: «تكلم إلى بنى إسرائيل وقل لهم: «إن أطاعوا أمرى فأوقدوا الشموع فى يوم السبت، فسأجعلكم تعيشون حتى تروا صهيون مضيئاً، حينما لا تحتاجون إلى نور الشمس، ولكن سيشرق لكم مجدى، فتهتدى الأمم بنوركم».

ولم يقتصر تكريم هارون وتفضيله على جعله هو الذى يوقد الشمعدان بنفسه، ولكن الرب أمر موسى بأن يبلغ أخاه قائلاً: «فى مناسبة أخرى سيتم تكريس الهيكل بإيقاد الشموع.. وحينها سيقوم بذلك ذرية هارون، الحشمونيون، الذين سأصنع المعجزات من أجلهم وأنعم عليهم بنعمى. وهكذا فقد قدَّرت لك تكريماً يفوق ما كرمت به جميع أمراء الأسباط الآخرين، فلن تستعمل قرابينهم إلا عدتها المحدودة.. لكن أضواء عيد الحانوخَه[1] ستشرق إلى الأبد.. كما ستمنح ذريتك لبنى إسرائيل بركة الكهانة، حتى بعد دمار الهيكل».

---

(١) عيد التدشين ويستمر ثمانية أيام بدءاً من ٢٥ كيسلو (يقابل شهر ديسمبر) إلى ٣ من شهر تبيت. وهو ذكرى دخول يهود الحشمونى (أو المكابى) القدس وإعادته للشعائر اليهودية فى الهيكل. (المترجم).

ولم يكن الشمعدان الذى أوقده هارون فى الهيكل من صنع أيدى البشر.. ولكنه صنع بمعجزة عظيمة..

فعندما أمر الرب موسى بصنع شمعدان، لم يدر موسى كيف يصنعه ولا كيف يقيس ويحسب كل تفاصيله المعقدة.

لهذا قال الرب لموسى: «سأريك نموذجاً لتصنع مثله».

ثم أخذ الرب ناراً بيضاء وناراً حمراء وناراً خضراء وناراً سوداء وصاغ من هذه النيران الأربع شمعداناً له قدم وأذرع وكؤوس. وحتى عندما أراه الرب هذا النموذج، لم يستطع موسى صنع آخر مثله، وعند ذلك رسم له الرب تصميمه على راحة يده قائلاً: «انظر إلى هذا الشمعدان ثم قلِّد التصميم الذى رسمته لك على راحة يدك». لكن موسى عجز رغم ذلك عن تقليد النموذج أو اتباع التصميم..!

وعند ذلك أمره الرب بأن يرمى (تالنت)[1] من الذهب فى النار.

فلما فعل موسى ما أمر به تشكل من النار شمعدان.

وكما حدث مع الشمعدان، كان الرب، فى مناسبات أخرى، يُرى موسى نماذج عملية للأشياء حتى يستطيع إدراك بعض الشرائع. وبهذه الطريقة مثلاً، عندما أوحى الرب لموسى بالشريعة الخاصة بالحيوانات الطاهرة والحيوانات الدنسة، أراه الرب حيوانا من كل نوع قائلاً له: «هذا تأكله.. وذلك لا تقربه».



(١) التالنت أو الطالن: هو وحدة وزن قديمة تبلغ حوالى ٣١ كجم. (المترجم).

الفصل الرابع

ناكرو الجميل

الأمراء الاثنا عشر

من حب الرب لبنى إسرائيل، أمر أكثر من مرة بتعدادهم.. وذلك لكى يعلم بكل دقة عدد شعبه المختار. وكان الشعب قد تضاعف عدده مرتين فى أقل من ستة أشهر، إحداهما قبيل تشييد الهيكل، والأخرى بعد تكريسه بشهر.

وأمر الرب موسى بأن يقوم بإحصاء جميع الرجال فيما فوق سن العشرين والذين يستطيعون حمل السلاح وخوض الحرب. واستعان موسى بأخيه هارون فى إجراء هذا الإحصاء.. كما استعان بإيثامار وأليعازار، ابنى هارون، بالإضافة إلى اثنى عشر رجلاً، واحد من كل سبط.

وقد تم تعيين هؤلاء الأمراء الاثنى عشر.. ليس فقط ليساعدوا فى إجراء الإحصاء، وإنما ليكونوا قادة ومرشدين روحيين للشعب، إذ ستقع كل خطايا الشعب على رؤوسهم.. إلا أن يبذلوا أقصى ما فى وسعهم لمنع ارتكاب هذه الخطايا. وحض موسى هؤلاء الأمراء على أن يترأفوا بالشعب وألا يستبدوا فى معاملتهم للناس، كما حض بنى إسرائيل من جانبهم على طاعة أمرائهم وتوقيرهم بما ينبغى.

* * *

كانت أسماء الأمراء الاثنى عشر ترمز إلى تاريخ كل سبط..

فأمير سبط «رأوبين» مثلاً، كان اسمه «أليصور» ومعناه «ربى صخرة»،

وفيه إشارة إلى الجد الأكبر لهذا السبط، "رأوبين"، والذى كان قد أذنب ثم تاب إلى ربه فغفر له ذنبه واحتمل معصيته كما تحمل الصخرة المنزل الذى يُبْنى عليها. وكان أبو "أليصور" اسمه "شَدِّيئور" ومعناه «ألقى فى النار».. لأن "رأوبين" عاد إلى رشده وتاب عن غيه من خلال "يهوذا" الذى اعترف بخطيته مع كنّته "ثامار" التى كادت تُلْقى فى النار.

وكان اسم أمير سبط "شمعون" هو "شلوميئيل".. أى «ربى السلام»، ليشير إلى أنه على الرغم من معصية "زيمرى" أمير هذا السبط، والتى مات بسببها أربعة وعشرون ألفاً من بنى إسرائيل.. فإن الرب قد سالم هذا السبط برغم ذلك.

أما سبط "يهوذا" فكان اسم أميره "نحشون"، أى «موج البحر»؛ وكان أبوه هو "عَمِّيناداب"، أى "أمير شعبى".. لأن هذا الأمير قد نال هذه المكرمة إثابة له على خوض ماء البحر الأحمر لتمجيد اسم الرب.

وكان "نثنائيل"، أى «الرب أعطى»، هو أمير سبط "يساكر".. لأن هذا السبط كرّس نفسه للتوراة التى أعطاها الرب لموسى.. وبالتالى فقد كان «نثنائيل» يسمى «ابن صُوغر»، أى «الحِمْل».. لأن سبط يساكر تولى حمل إصدار الأحكام فى الدعاوى القضائية للأسباط الأخرى.

ومثلما كانت مهنة سبط "زبولون" هى الإبحار بالسفن بحثاً «عن الكنوز المخبأة فى الرمال».. فإن أميره كان يُدْعَى "أليآب"، أى "السفينة"، ابن "حِيلُون»، أى الرمل.

و"أَلِيشَمَع بن عَمِّيهُود» هو اسم أمير سبط "إفراميم".. وهذا الاسم يشير إلى تاريخ يوسف، جدهم الأكبر. فقد قال الرب "أليشمع".. «أى هو أطاعنى». حينما أمره أن يكون عفيفاً ولا يشتهى زوجة سيده التى أرادت إغواءه.. بينما كان الاسم "عميهود" يعنى «لقد شرَّفنى أنا وحدى، وليس غيرى».

أما سبط يوسف الآخر، سبط "مِنَسَّى"، فقد سمى أميره بما يشير إلى جده الأكبر يوسف.. فكان اسم الأمير "جَمْليئيل بن فَدْهَصُور"، ومعناه: «الرب أثاب يوسف على تقواه بأن حرره من العبودية وجعله حاكماً لمصر».

وكان اسم أمير سبط "بنيامين" هو "أَبيدَنْ"، أى "أبى قَرَّر".. ابن "جدْعونى"، أى "الملأ القوى".. وكان يشير إلى الحادثة التالية: عندما أدركت "راحيل" أنها ستموت عند ولادتها لابنها، سمَّته "ابن الوَهَن"، وكانت تظن أن مصيره سيكون كذلك (أى سيكون ضعيفاً واهناً لعدم رضاعه من أمه).. وأنه سيموت صغيراً بسبب وهنه. لكن يعقوب، أبا الولد، سمَّاه "بنيامين"، أى «ابن القوة والسنوات الكثيرة».

أما سبط "دان" فكان أميره هو "أَخِيَعزَر"، أى "أخو النجدة"»، ابن "عمِّيشدَّاى"، أى "قاضى شعبى".. لأنه تعاون مع سبط يهوذا الخدوم عند بناء الهيكل، وأنجب قاضياً مقتدراً كفواً، هو "شمشون".

تميز سبط "أشر" بجمال نسائهم اللائى بلغن فيه حد أن العجائز من بينهن كُنَّ أجمل وأقوى من فتيات الأسباط الأخرى. ولهذا السبب فقد كان الملوك يختارون زوجاتهم من بنات هذا السبط، ولطالما تدخل هؤلاء الزوجات عند أزواجهن الملوك لإنقاذ حياة كثيرين حُكم عليهم بالموت. ولهذا فقد كان اسم أمير هذا السبط هو "فَجْعِيئيَل"، أى "المتشفِّع"، ابن "عُكْرَن"، أى "المكروب".. لأن نساء أشر كن يتشفعن من أجل "المكروبين".

وأخيراً، كان أمير سبط "نفتالى" هو "أَخِيَرع"، أى "المُرج المشتهى".. ابن "عِينَن"، أى السحاب، لأن أرض هذا السبط كانت تتميز بخصوبتها غير العادية. وكانت منتجاته هى ما "يشتهيه" أصحابه بالضبط، وكان ذلك بسبب وفرة مياهه، لأن "السحاب" كان يهطل بالغيث الوافر فوقه.

عند إحصاء الشعب، نُظِّمت صفوف القبائل بالترتيب الذى كان المخيم

مقاماً به، وبترتيب زحفها فى الصحراء. وكانت المجموعة الأولى تتكون من أسباط "يهوذا" و"يساكر" و"زبولون" فكانت قبيلة "يهوذا" مجموعةً مع سبط يسَّاكر سبط العلماء، ومع سبط "زبولون" الذى مَكَّن أخاه يساكر من التفرغ لدراسة التوراة، بالإنفاق عليه والسعى على حاجاته.

ثم كانت المجموعة الثانية تتكون من أسباط "رأوبين" و"شمعون" و"جاد".. فسبط "شمعون" العاصى يدعمه من على اليمين سبط "رأوبين" التائب، ومن على اليسار سبط "جاد" القوى.

وكانت أسباط "إفرايم" و"مِنَسَّى" و«بنيامين" تشكِّل مجموعة واحدة معاً.. لأن هذه الأسباط، من بين الأسباط جميعها، قُدِّر لها النصر والظفر على العماليق. وكان "يشوع" الإفرايمى هو أول من انتصر على "عماليق".. كما حذا "شاؤول" (= طالوت) البنيامينى حذوه فى حربه ضد "عجاج" ملك "عماليق".. ثم تحت قيادة رجال من سبط "مِنَسَّى"، نجح سبط "شمعون" فى أيام الملك "يهوشافاط" فى القضاء على بقية العماليق، وشكَّلوا مجموعةً واحدة معاً لكى يستولوا على أراضيه.. ولهذا فقد كانوا متحدين معاً بهذه الطريقة..

أما سبط "دان" فكانوا قد فكروا بالفعل، عند الخروج من مصر، فى نحت صنم ليعبدوه.. ولهذا السبب فقد رافقهم سبط "أشر" - الذى يأتى من تربته "زيت الإنارة" - لكى يطردوا من رؤوسهم ذلك "الخاطر الشرير".. ثم كان سبط "نفتالى" رفيقهم الثانى، لكى يشترك سبط "دان" فى بركة الرب الشاملة التى أغدقها على سبط "نفتالى".

وفى هذا الإحصاء الثالث(١) كان عدد الرجال القادرين على حمل السلاح هو نفس عددهم عند إجراء الإحصاء الثانى الذى تم فى نفس العام.. فلم يمت واحد من بنى إسرائيلَ خلال تلك الفترة، من وقت بناء الهيكل إلى زمن تكريسه.

(١) كانت المرة الأولى التى تم إحصاء الشعب فيها، قبل الخروج من مصر. (المترجم)

إحصاء اللاويين

عندما قام موسى بإحصاء الشعب، لم يضع اللاويين فى الاعتبار.. لأن الرب لم يأمره باختيار أمير من هذا السبط، ولذا فقد ظن موسى أنه ينبغى عليه ألا يحصيهم فيمن أحصى من الشعب.

وقال الرب لموسى: «لا تحصِ سبط لاوى، ولا تَعُدَّهم من بين بنى إسرائيل.. فلما سمع موسى ذلك خاف خوفاً عظيماً وظن أن سبطه لا يستحق أن يحسب من الشعب، لهذا فقد استثناه الرب من الإحصاء العام.

لكن الرب طمأنه قائلاً: «لا تحصِ اللاويين مع بنى إسرائيل.. ولكن أحصهم وحدهم».

وكانت هناك أسباب عديدة لإحصاء اللاويين بمفردهم... فالرب يعلم أنه سيهلك جميع الذكور الذين يستطيعون حمل السلاح، من سن العشرين فما فوق، بسبب خطيئة الجواسيس الذين أرسلوا للتجسس على الأرض الموعودة واستطلاع الأمور فيها.. فلو كان اللاويين قد حُسِبوا ضمن الشعب، لكان ملاك الموت قد أهلكهم مع من قضى عليه الهلاك. وكذلك كان اللاويون هم الحرس الخاص للرب والذين أوكل إليهم مهمة حماية هيكله.. وهذا سبب آخر لإحصائهم بمفردهم. وفى ذلك كان الرب مثل الملك الذى أمر وزيره بإحصاء جميع قواته قائلاً: «أحصِ عدد جميع الفرق.. ما عدا الفرقة المحيطة بىَ».

ويتضح مدى حب الرب لسبط لاوى من أمره لموسى بإحصاء «جميع ذكور اللاويين، من عمر شهر فما فوق».. بينما اقتصر إحصاء بقية الأسباط على من بلغ العشرين فما فوقها. وفى مناسبات أخرى أحصى الرب الأجنة من اللاويين كذلك. فعند دخول يعقوب إلى مصر تم حساب "يوكابد" أم موسى فى السبعين نفساً من بنى إسرائيل وكانت حينها جنيناً فى بطن أمها وبالمثل حدث ذلك فيما بعد عند العودة من السبى البابلى.. إذ حينها لم يعد من السبى إلا ثلاثة وعشرون بطناً من الكهنة، ولهذا السبب فإن الشعب حسب «بيجفاى» فيمن عاد ليكتمل العدد.. مع أن بيجفاى» - وكان ينتمى للبطن المفقود من بنى إسرائيل - كان لا يزال بعد جنيناً فى بطن أمه.

* * *

عند أمر الربُّ موسى بإحصاء جميع اللاويين، من عمر شهر فما فوق، قال موسى: «لقد أمرتنى يارب بأن أحصيهم جميعاً، من عمر شهر فما فوق.. فهل أطوف على أفنيتهم وأفتش فى بيوتهم لأحسب كل طفل لديهم؟».

فأجابه الرب: «بل افعل ما تقدر عليه.. وسأفعل أنا ما أقدر عليه».

وهكذا، فكلما ذهب موسى إلى خيمة أحد اللاويين وجد الشكينة تنتظره لتخبره بعدد الأطفال الموجودين فى الخيمة بالضبط، ودون الحاجة إلى عدِّهم بنفسه.

* * *

فى تفضيله لهذا السبط، سبط "لاوى"، أظهر الرب حبه لكل سابع.. فقد كان "لاوى" سابع رجل تقى من عهد آدم، فيكون السبعة هم: آدم ونوح وأخنوخ وإبراهيم وإسحاق ويعقوب ولاوى. كذلك يتضح حب الرب لكل سابع

فى أشياء أخرى.. فهو يقيم فى السماء السابعة.. ومن بين العوالم السبعة يقيم الإنسان فى العالم السابع.. ومن بين الأجيال الأولى للبشر كان الجيل السابع، جيل "أخنوخ"، هو الأفضل.. وكذلك كان موسى هو السابع فى الآباء، ووجد مستحقاً لتلقى التوراة.. واختير داود.. سابع أبناء "يَسَّى» - ملكاً - وفى الأوقات والأزمنة، السابع هو الأفضل كذلك.. فاليوم السابع هو يوم السبت المقدس... والشهر السابع، شهر «تشرى»، هو شهر الأيام المقدسة... والسنة السابعة هى السنة السبتية التى يرتاح الناس فيها.. وكل سنة سبتية سابعة هى سنة الاحتفال.

* * *

وكان من الأسباب الأخرى لعد كل لاوى، حتى أصغر صغارهم، أن سبط "لاوى"، ككل، كان مسئولاً عن التكفير عن خطايا أبكار بنى إسرائيل. لأن هؤلاء الأبكار هم الذين كانوا يقومون بطقوس الكهانة، حتى زمن عبادة العجل الذهبى.. فلما عبد بنو إسرائيل العجل، فقد الأبكار هذه الميزة وانتقلت إلى سبط لاوى الذين كرسوا أنفسهم لعبادة الرب، وكفّروا عن خطايا أبكار بنى إسرائيل لكيلا يهلكوا بذنوبهم.

لكن إحلال اللاويين محل الأبكار كان يمثّل مشكلة.. لأن الرب كان قد أبلغ موسى بعدد اللاويين قائلاً: «إن عددهم مساوٍ لعدد فيلقى» إذ أن الرب لما نزل إلى جبل سيناء، كان يحيط به اثنان وعشرون ألفاً من الملائكة، وكان عدد اللاويين حينها مساوياً لذلك بالضبط، ومن بين هؤلاء كان يوجد ثلاثمئة بكرٍ من اللاويين لا يمكن أن يحلوا محل أبكار بنى إسرائيل، لأنهم أبكار مثلهم، هم أيضاً..! ولأن عدد أبكار الأسباط الأخرى كان يزيد عن عدد اللاويين بمئتين وثلاث وسبعين، فإن هذه الزيادة من الأبكار قد بقيت دون وجود من يكفّر عنها خطاياها. ولهذا فإن الرب أمر موسى بأن يأخذ من كل واحدٍ من هؤلاء الأبكار خمس شاقلات كفّارة، فيعطيها للكهنة.

وقـد قـرر الرب عليـهم هـذه الكفـارة قـائلاً: «لقـد بعـتم بكر "راحـيل" (=يوسـف) بخمس شـاقلات، ولهذا فسـوف تكفرون عن خطية كل بكر بخمس شاقلات»..

ولكى لا يتنازع الأبكار فيما بينهم ويتشـاجـرون حـول أيهم يدفع الفـدية وأيهم يُعْفَـى منهـا.. أحـضـر مـوسـى اثـنين وعشـرين ألف قـصـاصـة من الورق وكتب علـى كل قـصـاصـة منهـا كلمـة "لاوى"، ثم أحـضـر اثـين وعـشـرين ألف قصاصة أخرى وكتب عليها "خمس شـاقلات.. ثم وضـعها جـميعاً داخل إناء كبير ثم خـلطهـا ببـعض جيداً.. وبعد ذلك يقـوم كل بكر من الأبكار بسـحب ورقة من داخل الإناء: فإذا وجـد مكتوباً عليها "لاوى" يُعْفَى الساحب من دفع الفدية.. وإن وجد مكتوباً عليها «خمس شـاقلات» يدفع.



الأقسام الأربعة لسبط لاوى

بصرف النظر عن إحصاء جميع ذكور اللاويين، قام موسى بإحصاء رجالهم من عمر ثلاثين إلى خمسين سنة، هو العمر الذى يؤذن فيه للاويين بأداء خدمة الكهانة فى الهيكل طوال زحفهم فى الصحراء.. وهى شريعة «بَطُل نفعها عندما استقر بنو إسرائيل فى الأرض المقدسة».

ثم قام موسى بعد ذلك بتقسيم هؤلاء الرجال، بالإضافة إلى الكهان، إلى ثمانية أقسام، وظلوا على هذه الحال حتى زاد النبى "صموئيل" العدد إلى ستة عشر، ثم أضاف إليه "داود" فيما بعد ثمانية.. فصاروا بعد ذلك أربعة وعشرين قسماً من اللاويين والكهنة.

تَمَيَّز من بين اللاويين؛ أبناء "قهات" والذين كانوا مسئولين ـ أثناء السير فى الصحراء ـ عن "قدس الأقداس" و"التابوت المقدس". وقد كان التابوت مسئولية محفوفة بالمخاطر.. إذا كان ينبعث من عارضته شرار يحرق أعداء إسرائيل، كما كانت هذه النار تهلك، من آن لآخر، الكثيرين من حاملى التابوت. لهذا فقد كان من عادة أبناء "قهات"، كلما حان وقت السير ونقل الهيكل، أن يسرع كل واحد منهم إلى الهيكل ليحمل شيئاً من متاعه، متفادياً المشاركة فى حمل التابوت. لكن ذلك أشعل غضب الرب عليهم أكثر وأكثر فأهلك منهم عدداً كبيراً، لحملهم التابوت عن غير طيب نفس وإخلاص.

ولكى يتم تفادى ذلك، أمر الرب هارون وأبناءه بأن يدخلوا إلى الهيكل

قبل بداية السير فى الصحراء، فيحددوا لكل واحد من أبناء "قهات" عمله المكلف به.

* * *

أثناء السير فى الصحراء، لم يكن مسموحاً للاويين بارتداء الأحذية، وإنما كان عليهم أن يسيروا حفاة الأقدام... لأنهم كانوا يحملون ويتعاملون مع أشياء مقدسة. وفوق ذلك كان على أبناء "قهات" أن يسيروا متقهقرين إلى الخلف، لكى لا ينظروا إلى التابوت المقدس فيهكلوا. وبالإضافة إلى ذلك، ولأنهم كانوا حملة التابوت، فقد امتازوا من بين اللاويين بأنهم كانوا أول من تم إحصاؤه من سبط لاوى، وإن كان أبناء "جرشون" قد حظوا بالريادة فى مناسباتٍ أخرى، لأن "جرشون" كان هو بكر "لاوى".

* * *

عند أمره بإحصاء أبناء "قهات"، ذكر الرب لموسى بصراحة أنه يجب أن يشاركه هارون فى الإحصاء.. لكن الرب لم يفعل ذلك، عندما أمر موسى بإحصاء أبناء جرشون. ولذلك فقد ظن موسى أن الرب قد تعمَّد ذلك لأن بنى "قهات" كانوا تحت إشراف هارون المباشر، على عكس بنى "جرشون". ومع ذلك، ومن احترامه لأخيه، أمر موسى أخاه هارون بأن يحضر أثناء إحصاء اللاويين، كما أمر أمراء الأسباط بذلك، بدافع اللياقة العامة، زاعماً أن الرب قد أمره بذلك.

وقد كان موسى مخطئاً فى ظنه ذلك، إذ أن الرب كان يريد حضور هارون أثناء إحصاء اللاويين. ولهذا السبب فقد ذكر الرب اسم هارون بصراحة لموسى، عندما أمره بإحضار القسم الثالث من اللاويين، وهم بنى "مَرَارى».

لكن هارون، عند تكليف كل لاوى بالخدمة التى يلتزم بها، لم يبالِ إلا ببنى "قهات" الذين كان لكلٍّ منهم مهمته المكلف بها.. بينما قام موسى

بتكليف بنى "جرشون" وبنى "مرارى" بالمهام الخاصة بهم.

وكان الرئيس الأعلى لأقسام اللاويين الأربعة هو "ألِعازار» الذى كان مكلفاً «بالإشراف على المسئولين عن خدمة الهيكل».. لكن "ألعازار"، من تواضعه، كان يشارك فى الخدمة بنفسه. وأثناء انتقالهم من مكان إلى آخر، كان ألعازَار يحمل بنفسه كل الأشياء اللازمة للخدمة اليومية.. وكان يحمل فى يده اليمنى الزيت الذى يوقد به الشمعدان، بينما كان يحمل البخور فى يده اليسرى بينما كان يحمل على كتفه الأشياء التى تصنع فى الطاسات، وعلَّق فى منطقته زجاجة زيت المسحة.

وكان لإيثامار، أخى ألعازار، هو الآخر واجبه الذى يقوم به فى الحرم.. إذ كلِّف بتوجيه بنى "جرشون" وبنى "مَرَارى" للكيفية الصحيحة لأداء طقوس الكهانة.. لكيلا يفعل جرشونى ما يجب أن يقوم به واحد من بنى "مرارى"، أو العكس. كما كان عليه أن يعرِّف كل واحد منهم بواجبه المختص به، حتى لا يتشاجروا فيما بينهم على أداء الطقوس والشعائر.



الرايات الأربع

عندما ظهر الرب على جبل سيناء، كان يحيط به اثنان وعشرون ألف مَلَك، وقد ارتدى كل منهم كامل ثيابه وانقسموا إلى أربعة أقسام لكل قسم منها رايته الخاصة. فلما رأى بنو إسرائيل هذا الملأ من الملائكة، تمنوا لو قُسِّموا مثلهم إلى أربعة أقسام وأن يكون لكل قسم رايته.. وحقق الرب لهم أمنيتهم.

وبعدما أتم موسى إحصاء الشعب قال له الرب: «حقق لهم أمنيتهم واجعل لهم راياتٍ كما أرادوا.. وليعسكر كل واحد من بنى إسرائيل حول رايته التى تحمل شعار جده الأكبر، وليعسكروا بعيداً عن هيكل الشعب».

فقال موسى لنفسه: «يا ويحى..! لو أمرتهم بذلك فسيختلفون علىَّ وتثور بينهم المشاجرات..! فلو أمرت سبط يهوذا بأن يخيِّم فى الشرق، فسيرفضون ويقولون لماذا لا يخيمون فى الغرب!! وسوف يعسكر كل سبط فى أى مكان.. إلا المكان الذى حددته له!!».

لكن الرب قال له: «لا تشغل بالك ولا تغتم بموضع كل راية.. فإن أباهم يعقوب قد أمرهم بأن يتحلقوا حول الهيكل بنفس الترتيب الذى تحلق به أبناؤه حول نعش أبيهم».

فلما أمر موسى الشعب بأن يخيموا حول الهيكل، انقسموا إلى مجموعات متحلقين بنفس الطريقة التى كان أبوهم يعقوب قد أوصاهم بها.

إن الرب لم يخلق شيئاً عبثاً.. وإنما خلق كل شىء بحكمة وكل شىء عنده بمقدار.. وهكذا، فلم يكن انقسام بنى إسرائيل إلى أربعة أقسام لكل قسم رايته، ولا أقسامهم الفرعية المنضوية تحت كل راية، لم يكن من قبيل المصادفة أو العشوائية.. وإنما كان وفقاً للترتيب الذى رتب به الرب كل شىء فى السموات.

فالعرش السماوى يحيط به أربعة من الملائكة: ميكائيل عن اليمين، وجبريل أمامه و"أورئيل" عن اليسار و"رافائيل" من خلفه. وبالمثل كانت قبائل "رأوبين" و"يهوذا" و"دان" و«إفرايم» تحمل الرايات الأربع... مناظرة لهؤلاء الملائكة الأربع.

فالملاك "ميكائيل"، ومعنى اسمه «مَنْ مِثْلُ الرب»، قد استحق اسمه بأن صاح عند عبور بنى إسرائيل البحر الأحمر وعند تلقِّى موسى التوراة، قائلاً: «من مثلك يارب؟!»... ولهذا فقد كان سبط "رأوبين" يحمل راية كتب عليها: «اسمع يا إسرائيل.. الرب إلهنا إله واحد». وهكذا فقد كان موضع "رأوبين" عن يمين الهيكل يناظر تماماً موضع "ميكائيل" عن يمين العرش.

وجبريل يعنى «الرب قوى». وهو يقف أمام العرش... وبالمثل فإن سبط "يهوذا"، الذى كان «أقوى إخوته»، كان يقف أمام الهيكل.

أما سبط "دان"، الذى «انبعث فيه ظلام الخطايا»، فكان يقف برايته فى يسار المخيم... مناظراً الملاك "أورئيل" الذى يعنى اسمه «الرب نورى» لأن الرب أضاء ظلام الخطيئة بتنزل التوراة التى علَّمها هذا الملاك لموسى.

وكان سبط "إفرايم" يحمل رايته ويقف فى مؤخرة المخيم، ليحتل نفس المكان الذى يحتله الملاك "رافائيل" ـ ومعنى اسمه «الرب يشفى» ـ خلف العرش السماوى.. لأن هذا السبط ـ الذى كان منه "يَرُبْعام" ـ كان فى حاجة إلى الشفاء من الجرح الذى تسبب فيه هذا الملك الشرير لإسرائيل.

وكان لدى الرب أسباب أخرى لتوزيع القبائل على النحو الذى تم..

فقد قال الرب لموسى: «فى الشرق من حيث يأتى النور سيكون سبط "يهوذا" الذى يشرق منه نور الملك، وليكن مع سبط "يسَّاكر" الذى يشرق بنور التوراة، وسبط "زبولون" الذى يشرق بنور الغِنى.. ومن الجنوب تأتى أنداء البركة وغيوث الوفرة، لذا فليُقم سبط «رأوبين» مَخَيَّمه فى الجنوب، فهذا السبط يدين بوجوده لتوبة جده الأكبر.. فلولا التوبة ما أحلَّ الرب بركته على العالم. وبجوار "رأوبين" ليكن سبط "جاد" المحارب، وليكن بينهما سبط "شمعون" الذى أضعف نفسه بارتكاب المعاصى، فإمَّا يحمى نفسه من جانب بتوبة رأوبين أو من الجانب الآخر ببطولة "جاد".. وفى الغرب توجد خزائنً الثلج وخزائن البرد والقر والحر، وكما أن الفانين لا حيلة لهم أمام هذه القوى الطبيعية، فلن تكون لهم حيلة أعداء أسباط "إفرايم" و"منسى" و"بنيامين".. لذا فليقيموا خيامهم فى غرب المخيم.

ومن الشمال يأتى ظلام الخطية، وحيث ينبغى أن يقيم سبط "إفرايم" الذى سيبادر وحده بقبول أصنام "يربعام". وليكن بجواره سبطا "أشر" المتألق بالنور و"نفتالى" المملوء من فيض الرب، لكى ينيرا ظلامه».

* * *

كانت الرايات تمتاز إحداها عن الأخرى بألوانها وبالكتابات والرسوم التى كتبت ورسمت عليها.

فكان لون راية "يهوذا" يناظر لون الأحجار الثلاثة التى رُصِّع بها صدرة الكاهن الأكبر ونقش عليها أسماء "يهوذا" و"يساكر" و"زبولون"... وكان اللون يتكون من الأحمر والأخضر والأحمر النارى. وكانت أسماء "يهوذا" و"يساكر" و"زبولون" مكتوبة على الراية وكتب بجوارها: «انهض يارب وشتت أعداءك واجعل من يكرهونك يفرون من أمامك».

كانت راية سبط "رأوبين" ينضوى تحتها سبطا "شمعون" و"جاد" أيضاً. وكانت ملونة بألوان الزمرد والياقوت الأزرق والسبحلوم، لأن أسماء هذه الأسباط كانت منقوشة على هذه الأحجار المرصع بها صورة الكاهن الأكبر. كما كتب على الراية كذلك: «اسمع يا إسرائيل.. الرب إلهنا إله واحد».

أما الراية الثالثة التى انضوى تحتها أسباط "إفرايم" و"مِنسَّى" و"بنيامين"، فكانت ملونة بألوان الماس والفيروز والجَمَشْت، إذ كانت أسماء الأسباط منقوشة على هذه الأحجار فى صدرة الكاهن الأكبر. وكتب كذلك على هذه الراية: «وكانت ظُلَّةُ الرب فوقهم فى النهار عندما يخرجون من المخيم».

وكانت الراية الرابعة تحمل أسماء "دان" و"أشر" و"نفتالى"، وملونة بألوان الزبرجد الزيتونى والبريل[1] وحجر الفهد[2] التى كانت تحمل أسماء هذه الأسباط فى صورة الكاهن الأكبر، وكتب على الراية «عد يا رب إلى آلاف بنى إسرائيل المؤلفة».

* * *

كما كانت للرايات خصائص متميزة..

فراية "يهوذا" كانت تحمل رسم الأسد، لأن الجد الأكبر لهذا السبط وصفه يعقوب بأنه "شبل الأسد"، كما كانت تحمل صور خطاطيف ذهبية تشبه السيوف، وكان الرب قد أنزل على هذه الخطاطيف شريطاً من غمامة المجد السابعة حيث تظهر الحروف الأولى من أسماء الآباء الثلاثة إبراهيم وإسحاق ويعقوب، وكانت هذه الحروف انعكاسات لنور الشكينة.

أما راية "رأوبين" فكانت تحمل صورة إنسان فى أعلاها، يناظر اللُّفَّاح

---

(١) حجر كريم يكون لونه أخضر فى العادة. (المترجم)

(٢) لونه وردى فاتح. (المترجم).

الذى عثر عليه رأوبين وكان يشبه هيئة الإنسان. كما كان عليها خطاطيف ذهبية تشبه التى فى راية «يهوذا»، لكن كان يظهر فيها، فى غمامة المجد، الحروف الثانية من أسماء الآباء الثلاثة، وهى "الباء" (فى إبراهيم) و"الصادى" (فى يتسحاق) و"العين" (فى يعقوب).

أما راية "إفرايم" فكان عليها صورة سمكة، وفيما عدا ذلك فقد كانت تشبه الرايتين السابقتين، إلا أن الحروف الثالثة من أسماء الآباء هى التى كانت تظهر فى انعكاس غمامة المجد على خطاطيفها الذهبية.

وكانت راية "دان" تحمل صورة "أفعى"، إذ كان "دان" ماكراً كالأفعى، فهكذا باركه يعقوب.. بينما تألقت فوق الراية الحروف: "ميم" من إبراهيم، و"قوف" فى إسحاق، و"بيت" فى يعقوب.

ولم يكن الحرف "هى" فى «إبراهيم» ظاهراً فوق الرايات.. ولكن الرب كان يدخره لشرف أكبر وأعظم. فقد أقام الرب فوق التابوت المقدس.. عموداً من السحاب كان يظهر فيه الحرفان "يود" و "هى" اللذان يكوِّنان الاسم "ياه" الذى خلق الرب به العالم. وكان هذا العمود يشرق بضوء الشمس فى النهار وبنور القمر فى الليل، لكى يميز بنو إسرائيل بين الليل والنهار، حيث كانوا يسيرون ملفوفين بالسحاب من كل جانب.

وكان الحرفان المقدسان، "يود" و"هى"، يطيران فى أيام الأسبوع فوق الرايات الأربع محلقين فى الهواء، وينتقلان من فوق راية لأخرى. لكن عندما ينتهى يوم الجمعة ويبدأ يوم السبت يسكن هذان الحرفان فوق البقعة التى يتصادف أن يكونا عندها.. ويظلان جامدين هكذا من أول لحظة فى يوم السبت حتى آخر لحظة فيه.

كان الرب، كلما أراد أن يتحرك بنو إسرائيل فى اتجاه معين، يرسل السحابة المستقرة فوق التابوت المقدس ـ حيث كان يستقر الحرفان

المقدسان "يود" و"هى" - فى الاتجاه الذى يريد لبنى إسرائيل التحرك فيه.. فتتجه شرائط السحاب الأربع الموجودة فوق الرايات الأربع فى نفس الاتجاه. وعندما يرى الكهنة السحاب يتحرك ينفخون فى الأبواق إعلاناً عن بدء التحرك، فتمتلئ الرياح بالبخور والشذى العطر.

وعلى الرغم من أن سحابات المجد هى التى كانت تعلن دائماً عن بدء التحرك وعن أوان التوقف وإنشاء المخيم.. فإنها كانت تنتظر دائماً أوامر موسى. فقبل التحرك يقف عمود السحاب أمام موسى وينحنى منتظراً أن يقول له موسى: «انهض يارب وشتت أعداءك واجعل من يكرهونك يفرون من أمامك».. فينطلق العمود ليتحرك فى الاتجاه المقدَّر.

وكان يتم نفس الشىء عندما يحين أوان التخييم، إذ كان العمود يقف منحنياً أمام موسى منتظراً قوله: «عد يارب إلى آلاف بنى إسرائيل المؤلفة» فيمتد ويستطيل أولاً فوق السبط الذى يحمل راية "يهوذا"، ثم فوق الهيكل من داخله ومن خارجه.



المخيم

كان المخيم على شكل مربع طوله وعرضه اثنا عشر ألف ذراع، وفى وسطه مساحة أربعة آلاف ذراع خصصت للهيكل ولإقامة الكهنة واللاويين. وإلى الشرق من الهيكل كان يعيش موسى وهارون وولداه.. بينما كان بنو "قهات" يعيشون إلى الجنوب، وبنو "جرشون" إلى الغرب، وبنو "مرارى" إلى الشمال.

وكان كل قسم من هذه الأقسام يقيم فى مساحة تبلغ مئة ذراع، بينما كانت كل مجموعة من مجموعات كل ثلاثة أسباط تنضوى تحت راية واحدة، تقيم فى مساحة مقدارها أربعة آلاف ذراع.

وكانت هذه المساحات مخصصة لإقامة الناس فقط، أما الماشية فكانت توجد خارج المخيم وكانت غمامات المجد تفصل مكان إقامة البشر عن مثوى الحيوانات. وكانت الأنهار تحيط بالمخيم من الخارج.. بينما كانت هناك أنهار تفصل بين مكان كل مجموعة وأخرى.. وكانت هناك جسور مقامة فوق هذه الأنهار، ليتمكن الناس من الزيارة والاختلاط فى يوم السبت الذى كان الركوب فيه محرماً.

وكان لون الغمام الأرجوانى منعكساً فى مياه الأنهار، حتى إن هذه الأنهار كانت تسطع بضوء يشبه ضوء الشمس والنجوم. وكان الوثنيون، كلما شاهدوا هذه الأنوار العجيبة التى تعكسها مياه الأنهار، يرتعبون ويخافون

من بنى إسرائيل، وإن حمدوا الرب فى الوقت نفسه على المعجزات التى صنعها لبنى إسرائيل.

* * *

وكانت هناك معجزات أخرى لم يشاهدها سوى بنى إسرائيل وحدهم.

فطوال الأربعين عاماً التى قضوها سائرين فى الصحراء، لم يكن بنو إسرائيل فى حاجة لتغيير ثيابهم. فعند خروجهم من مصر كسا الملائكة كل واحد من بنى إسرائيل بثوب ظل جديداً على الدوام... وكما تكبر قوقعة الحلزون مع نمو جسمه، كانت ثياب بنى إسرائيل تكبر مع نمو أبدانهم. ولم يكن للنار من سلطان على هذه الثياب.. وعلى الرغم من أنهم ظلوا يرتدون نفس الثياب طوال أربعين عاماً، فلم تزعجهم البراغيث والهوام، بل إن جثث أبناء هذا الجيل لم تتغذ الديدان عليها عندما ماتوا..!

* * *

أثناء زحفهم لم يكن بنو إسرائيل ينقسمون إلى أربعة أقسام لكل رايته، وكلٌّ ينقسم بدوره إلى ثلاثة أسباط.. بل كان لكل سبط بقعته الخاصة به وشعاره الخاص.

وكان علم "رأوبين" أحمر وعليه صور نبات اللُّفَّاح..

بينما كان علم "شمعون" أخضر وعليه صورة لمدينة "شِكِّيم" التى فتحها جدهم الأكبر.. وكان علم "يهوذا" أزرق بحرى وعليه صورة الأسد..

بينما كان علم "يساكر" أسود اللون وعليه صورة الشمس وصورة القمر.. إذ كان من هذا السبط العلماء الذين شغلوا أنفسهم بعلم التنجيم والفلك.. أما علم "زبولون" فكان أبيض وعليه صورة سفينة، إذ كرس هذا السبط نفسه لخوض غمار البحار..

وكان علم "دان" فى لون "الصفير" الأزرق وعليه رسم الأفعى... بينما كان علم "نفتالى" أحمر باهت بلون الخمر وعليه صورة أيلة تذكاراً لجدهم الأكبر الذى كان «مثل أيلة إذا أطلقت ساقيها للريح»..

وكان علم "أشر" أحمر مثل النار وعليه رسم شجرة زيتون، لأن هذا السبط كان يمتلك الكثير من زيت الزيتون الممتاز..

أما السبطان المنتميان لذرية يوسف، "إفرايم" و"مِنَسَّى"، فكان لون علمهما أسود داكن وعليه رسم يمثل مصر، وأشكال أخرى كذلك..

فكان علم "إفرايم" يحمل صورة الثور ليرمز إلى "يشوع" الذى ينتمى لهذا السبط، إذ كان مجده مثل «أول نتاج ثوره المحض الذى يدفع الناس إلى أطراف الأرض»..

بينما كان علم "مِنَسَّى" يحمل رسم وحيد القرن.. ليرمز إلى القاضى "جدعون" الذى ينحدر من هذا السبط والذى «دفع الشعب بقرنيه اللذين يشبهان قرن الخرتيت».

وكان علم "بنيامين" لونه يتكون من جميع الألوان الأخرى الأحد عشر وعليه رسم الذئب، فقد وصف يعقوب أبناء هذا السبط بأنهم «ذئاب تتضور جوعاً».

* * *

وكان ألوان الأعلام تناظر ألوان الحجارة الكريمة التى رصَّع بها صدرة الكاهن الأكبر ونقشت عليها أسماء الأسباط الاثنى عشر. فكان حجر رأوبين أحمر مثل لون علمه، وكذا كان علم شمعون أخضر مثل لون حجره.. وعلى ذلك كانت الحال مع ألوان بقية أعلام الأسباط.

* * *

المجدّف والمعتدى فى يوم السبت

عندما أنعم الرب على بنى إسرائيل بالتوراة، حسدتهم جميع الأمم الأخرى وقالوا: «لماذا اختار الرب هؤلاء علينا جميعاً؟».

لكن الرب أخسأهم جميعاً قائلاً: «أحضروا لى سجلات أنسابكم، وسيحضر أطفالى سجلات أنسابهم».

فلم تستطع الأمم إثبات نقاء نسبها، بينما تبين النقاء التام لأنساب بنى إسرائيل فحمدت الأمم الرب على اختياره لشعبه إسرائيل الذى أثابه الرب على ذلك الطهر والنقاء بأن منحه التوراة.

وتبين ذلك الطهر التام والعفة الخالصة لبنى إسرائيل عند تقسيم الشعب إلى أقسام لكل قسم رايته فمن بين عشرات الآلاف من الناس الذين راح كل منهم ينضوى تحت علم قبيلة معينة، لم يوجد إلا رجل واحد لم يكن نسبه خالصاً. وكان هذا الرجل ثمرة زنا أحد المصريين مع "شلومّية" التى تنتمى إلى هذا السبط. لكن الدانيين رفضوا ذلك ونبذوه قائلين: «لقد أمرنا الرب قائلاً: «لينضو كل رجل إلى رايته وتحت شعار أبيه».. إذاً فنسب الرجل يتحدد بأبيه، لاَ بأمه».

لكن الرجل لم يقتنع بذلك وذهب فاشتكى لموسى الذى حكم ضده فاشتاط الرجل غضباً وجدف على «الاسم الأعظم» ـ وكان قد سمعه على جبل سيناء ـ وأخذ يسب موسى ويلعنه. كما أخذ الرجل يسخر من شعيرة

خبز التقدمة الذى يوضع على المنضدة فى الهيكل كل سبت، ويقول: «الأليق بالملك أن يأكل خبزاً طازجاً.. لا خبزاً بائتاً!!».

وفى الوقت نفسه الذى ارتكب فيه ابن شلوميَّة جريمته النكراء، ارتكب رجل آخر جريمة أخرى تستحق الإعدام، وكان هذا الرجل اسمه «صلوفحاد» الذى قام فى نهار سبت بقطع الأشجار من الأرض، بالرغم من أن بعض الذين كانوا حاضرين عند قيامه بذلك قد حذروه من الاعتداء فى السبت. وفى الحال أمسك به المراقبون الذين كان موسى قد عيَّنهم ليراقبوا التزام الناس بحرمة السبت، ثم اقتادوه إلى المدرسة التى كان موسى وهارون وزعماء الشعب يدرسون فيها التوراة.

وفى كلتا الواقعتين لم يكن موسى على يقين من الحكم الذى ينبغى أن يحكم به ضد المجرمين.. فعلى الرغم من أنه كان يعلم أن جريمتيهما عقوبتهما القتل، فإنه لم يكن يدرى كيف ينفذ هذا الحكم فيهما، فلم يكن قد أوحى إليه فى هذا الشأن شىء بعد.

وفى تلك الأثناء تم إيداع «صلوفحاد» فى السجن إلى حين أن يفصل موسى فى قضيته، إذ تقضى الشرائع بأن يُحْبَس كل من يتهم فى جريمة عقوبتها الإعدام ولا يطلق سراحه حتى يفصل فى أمره.

ثم أوحى الرب لموسى بأن يحكم على «صلوفحاد» بالرجم حتى الموت، على أعين الناس جميعاً وقد تم ذلك بالفعل وبقيت جثته معلقة لفترة فى حبل المشقة.

أما جريمة الاعتداء فى السبت، فكانت السبب فى أن الرب فرض على بنى إسرائيل أمر "الزيزيت". لأن الرب قال لموسى: «هل تعلم كيف اعتدى هذا الرجل فى السبت؟» فلما أجابه موسى بالنفى، قال الرب: «لقد كان هذا الرجل يرتدى فى أيام الأسبوع أحجبة على رأسه وذراعه لتذكِّره

بواجباته، لكن فى يوم السبت، لم يحمل هذه الأحجبة ـ حيث هو محرم حملها ـ فنسى واجباته فاعتدى فى السبت. فالآن اذهب يا موسى وجد لبنى إسرائيل أمراً لا يُلْتَزَمُ به فى أيام الأسبوع فقط، وإنما يسرى مفعوله فى يوم السبت كذلك، وفى الأيام المقدسة أيضاً».

وعند ذلك اختار موسى أمر «الزيزيت» الذى ما إن يراه بنو إسرائيل حتى يتذكروا جميع أوامر الرب الأخرى.

بينما كان موسى موقناً باستحقاق «صلوفحاد» للموت، لاعتدائه فى السبت، وعدم تيقنه فقط من طريقة تنفيذ العقوبة، فإنه لم يكن متأكداً من طبيعة جريمة الرجل الذى سبه وجدَّف على "الاسم الأعظم"، ولم يكن يدرى بالمرة إن كان يستحق الإعدام على ذلك أم لا. ولهذا فلم يحبس الرجلين معاً فى زنزانة واحدة، إذ كانت جريمة أحدهما واضحة، بينما لم تكن جريمة الآخر كذلك. لكن الربَّ علَّم موسى أن المجدف يجب رجمه هو أيضاً بالحجارة حتى الموت، وأن هذه ستكون عقوبة كل مجدف فى المستقبل.

وكانت هناك حالتان أخريانِ لم يستطع موسى الفصل فيهما دون عون الرب. وكانت الأولى مطالبة بنات «صلوفحاد» بميراثهن من أبيهن، بينما كانت الأخرى منع الدَّنِس من المشاركة فى تقريب حمل الفصح. ولذلك فقد هرول موسى إلى الرب ليستشيره فى هاتين المسألتين، وإن كان قد تأنى فى الفصل فى الحالتين الأوليين إذ يتعلق بهما حياة إنسانين.

وقد ضرب موسى بذلك المثل والقدوة لكل قاضٍ بأن يسرع فى الفصل فى الدعاوى المدنية.. وأن يتأتى فى الفصل فى الدعاوى الجنائية. لكنه، برغم ذلك، قد أعلن، فى هذه القضايا الأربع، أنه لم يكن يعرف الحكم المناسب فى ساعته، ليتعلم منه قضاة بنى إسرائيل أنه ليس من المشين بالنسبة للقاضى أن يستشير الآخرين إذا لم يكن متيقناً من الحكم الصحيح.

جَمعٌ ناكرٌ للجميل!!

عندما أمر الرب بنى إسرائيل بالتحرك مبتعدين عن جبل سيناء، فرح الإسرائيليون بذلك كثيراً وتحركوا فى سرعة مبتعدين عنه.. إذ كان يفرض عليهم عند الجبل فى كل يوم شرائع جديدة، ولذا فقد أسرعوا بالابتعاد عنه على أمل ألا تفرض عليهم شرائع أخرى. وكانوا فى ذلك مثل التلميذ الذى ما إن يدق جرس نهاية اليوم السادس إلا وهو يهرول مبتعداً عن المدرسة خشية أن يعود أساتذته وينادون عليه ليعود إليها..!

لهذا، فقد قطع بنو إسرائيل مسيرة ثلاثة أيام فى يوم واحد، ليبتعدوا لأقصى مسافة ممكنة عن تلك البقعة المقدسة!!

وبالرغم من ذلك، فلم يغضب الرب منهم وجعل التابوت المقدس يتحرك من أمامهم كلما رغبوا فى مواصلة السير. إذ كانت هذه أمارة يعرف منها بنو إسرائيل أن الشكينة لاتزال بينهم، كما وعدهم الرب.

وكانوا كلما نقضوا المخيم وبدأوا فى الزحف، أو توقفوا ليخيموا، يقول موسى لهم: «افعلوا ما تأمركم به الشكينة التى فى التابوت». لكنهم لم يكونوا يصدقون أن الشكينة تقيم فى وسطهم، إلا إذا قال موسى: «انهض يارب وشتت أعداءك واجعل من يكرهونك يفرون من أمامك». فيبدأ التابوت فى التحرك، فيقتنعون ساعتها بأن الشكينة معهم.

كما كان التابوت يشير إليهم بوجوب نقض المخيم، وذلك بأن يحلق

عالياً فى الهواء ثم يندفع مبتعداً عن المخيم مسيرة ثلاثة أيام حتى يجد بقعة مناسبة ليقيم بنو إسرائيل عليها مخيمهم.

* * *

ما كاد بنو إسرائيل يبتعدون عن جبل سيناء .. إلا وعادوا إلى حياة الفسق والمعصية التى كانوا قد تركوها لفترة. وكانوا يتحينون الفرص لاختلاق ذريعة للتخلى عن عبادة الرب والتحول إلى عبادة الأوثان..!! فكانوا يشتكون ويتذمرون من إجبار الرب لهم على السير بعد ابتعادهم عن جبل سيناء.. فأظهروا بذلك نكرانهم لجميل الرب الذى كان يريدهم أن يبلغوا الأرض المقدسة فى أسرع وقت ممكن، حتى إنه كان يجعلهم يقطعون مسيرة أحد عشر يوماً فى ثلاثة أيام فقط. ورغم ذلك فقد كانوا يرفعون أصواتهم بالشكوى والتذمر.. على أمل أن يسمع الرب شكواهم وتذمرهم وتجديفهم. وعقاباً لهم على قساوة قلوبهم، أرسل الرب عليهم ناراً انبعثت من غمامة المجد مباشرة.

وقد أرسل الرب ناراً إلهية على الأرض فى اثنتى عشرة مناسبة، فكانت علامة على التكريم فى ست مرات، وعقاباً على المعاصى فى ستٍّ أخرى.. إذ كانت علامة على التكريم ورضا الرب عندما نزلت عند تكريس الهيكل، وعند تقديم "جدعون" و"منوعه" و"داود" لقرابينهم، وعند تكريس "هيكل سليمان"، وعند تقديم "إيلياء" لقربانه على "جبل الكرمل".

بينما كانت هذه النار السماوية عقاباً على المعصية فى الحالات التالية: عندما أهلكت "ناداب" و"أبيهو".. وعندما صرعت المتذمرين والساخطين من الشعب.. وعندما أهلكت رفاق "قورح".. وعندما أتت على غنم "أيوب".. وعندما أحرقت الفرقتين اللتين أرسلهما "أحازيا" الملك ضد "إيلياء".

* * *

عندما أرسل الرب هذه النار السماوية، أحدثت دماراً عظيماً بين سبط "دان" الوثنى وبين الأغيار الذين كانوا يرافقون بنى إسرائيل فى سيرهم. وعند ذلك هرول شيوخ الشعب إلى موسى وناشدوه أن يدعو الرب فيكشف البلاء عنهم.. وقد كانوا فى ذلك مثل ابن الملك الذى أغضب أباه فلم يذهب بنفسه ليسترضيه وإنما وسَّط أحد أصدقاء الملك ليتشفع له عنده.. ولذلك قال بنو إسرائيل لموسى: «اذهب فادع الرب لنا».

وفى الحال هرول موسى إلى الرب. يدعوه ويتوسل إليه فاستجاب له الرب على الفور وسحب ناره السماوية، لكنه لم يضعها فى مكان آخر.. وإلا انتشرت منه إلى كل مكان وأهلكت كل شىء. ولذلك فإن الرب لم يسحبها ويعيدها إلى السماء وإنما وضعها فى «تابوت العهد» لكى تحرق القرابين المقدمة على المذبح.. وكانت هذه النار نفسها هى النار التى أحرقت ابنى هارون.. ورفاق "قورح".. وهى نفسها النار التى يراها كل فانٍ لحظة موته.

وفى تلك المناسبة أيضاً تبين أن الأتقياء من البشر أعظم شأناً من الملائكة.. لأن موسى أخذ كرات من صوف القرابين ووضعها على النار فانطفأت.. ثم قال للشعب: «إن تبتم عن معاصيكم، فستخمد النار، وإلا فإنها ستتفجر من التابوت وتحرقكم جميعاً».



أوانى لحوم مصر

لم يرتدع بنو إسرائيل بالنار التى نزلت من السماء وأهلكت منهم خلقاً كثيراً.. وسرعان ما عادوا إلى سابق عادتهم فى التذمر والشكوى من الرب..!

وكما فى المرات السابقة، فإن الأغيار الذين كانوا مخالطين لبنى إسرائيل هم الذين تمردوا ضد الرب وموسى قائلين: «من ذا الذى سيعطينا الآن لحماً لنأكله؟ لازلنا نتذكر السمك اللذيذ الذى كنا نأكله فى مصر كيفما نشاء!! يا سلام!! والخيار والبطيخ والكراث والبصل والثوم!! لكن الآن جفت حلوقنا ولا نجد ما نأكله غير هذا المن الذى ملته أنفسنا!!».

لكن هذه الشكوى ما كانت سوى ذريعة للتحول عن عبادة الرب.. فقد كانوا يمتلكون بالفعل كثيراً من الماشية والغنم وبما يكفى ويزيد لسد جوعتهم إلى اللحم.. إن كان هذا حقّاً ما يشعرون به. ثم إن المن الذى «ملّته أنفسهم» كان بطعم جميع أنواع الطعام الذى يتمنون... وكان عليهم فقط أن يتمنوا أو يشتهوا طعاماً معيناً، عند تناول المن، ليصبح طعمه مثل أشهى هذا الطعام وألذه.

وصحيح أن المن لم يكن له أبداً طعم هذه الخضروات الخمس التى ذكروها، لكن كان عليهم أن يشكروا الرب على ذلك إذ صرف عنهم طعم هذه الخضروات الضارة بالصحة. وفى هذه المناسبة كذلك أظهروا

جحودهم لنعمة الرب عليهم، بدلاً من شكران نعمائه..! كما تذمروا من أكل المن كل يوم متذرعين بأنه يبقى داخل أجسادهم ولذا قالوا: «ستنتفخ بطوننا بالمن ثم تنفجر.. لأنه لا يوجد إنسان يأكل شيئاً دون أن يخرج فضلاته!!».

وكان الرب قد تفضل عليهم بهذا الطعام الخاص بالملائكة والذى يذوب فى الجسم ويستطيعون كذلك تناول ما شاءوا منه دون أن يضر ذلك صحتهم.. بل يقويها..

* * *

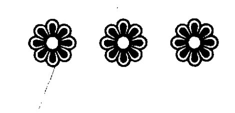
لكن كان السبب الحقيقى لتذمرهم وعصيانهم لموسى.. هو كرههم للشرائع المفروضة عليهم. فمن المؤكد أنهم لم يكونوا يأكلون فى مصر طعاماً ألذ وأشهى كما يزعمون.. ولكنهم كانوا فيها فى حل من الشرائع التى فرضت عليهم بعد الخروج منها ولذا فقد كانوا يعيشون فى مصر عيشة الانحلال والفجور، ولذا فقد اشتاقوا الآن إلى هذه الحياة وتمنوا لو عادت مرة أخرى..! وبالأخص، كانت شريعة الزواج هى أكره ما يكرهون.. ففى مصر لم يكن يحرم عليهم الزواج من أخواتهم ومحارمهم، كما أصبحت عليه الحال الآن..!!

لذلك، فقد بدأ بنو إسرائيل يتجمعون حول البيت الذى كان موسى يدرس فيه التوراة ويتحينون فرصة خروجه ليرفعوا أصواتهم بالشكوى والتذمر. وكانوا يقولون أنه هو المسئول عما لحق بهم من عنت ومشقة، لأنه جعلهم يتركون بلداً خصيباً ليهيموا فى هذه الصحراء المقفرة على وجوههم.. بدلاً من التمتع بالكنوز والثروات العظيمة التى أوهمهم موسى بها!

ثم انبرى واحد من الأتقياء ووبخ الناس ولامهم على سوء ظنهم بموسى وكثرة مخالفتهم له.. لكن ذلك أثار الجموع أكثر وأكثر فبدأوا يصيحون ويصرخون فى وجه موسى والرجل، ويسبونهما ويلعنونهما معاً..!

وعند ذلك اشتعل غضب الرب على بنى إسرائيل.. لكن موسى لم يتشفع لهم، كالعادة، عند الرب أو يَدّعُهُ ليغفر لهم.. وإنما ضاق ذرعاً ونفد صبره من كثرة مخالفتهم له وأعلن للرب أنه لم يعد يقدر على الوفاء بما ألزم به نفسه عندما كان فى مصر.. ألا وهو قيادة بنى إسرائيل من مصر إلى الأرض الموعودة والصبر على أذاهم.. مهما كان.. والأكثر من ذلك أن موسى بدأ يدعو الرب ويتوسل إليه لكى يخفف عنه حمل قيادة الشعب.. بطريقة أو بأخرى.

كما توسل للرب فى الوقت نفسه بأن يعينه فى هذه الورطة التى يجد نفسه فيها حالياً.. وأن يوفر للشعب حاجته من اللحوم.



تعيين الشيوخ السبعين

إن الورطة الشديدة التى وجد موسى نفسه فيها، إنما تعود بالأساس إلى كونه مضطرّاً لاحتمال شكوى الشعب وتذمره بمفرده، ودون معاونة الشيوخ السبعين، الذين تعوَّد على أن يعاونوه وقت الحاجة.. فمنذ الخروج من مصر كان الشيوخ السبعون يقفون دائماً إلى جواره ويعينونه على أمره، لكنهم كانوا قد قتلوا من وقت قريب بالنار السماوية التى نزلت عند «طيبارة».. ولذا فقد أصبح الآن وحيداً تماماً.

وكان هؤلاء الشيوخ السبعون قد أهلكوا لأنهم - مثلهم مثل "ناداب" و"أبيهو" لم يظهروا الاحترام الكافى عند صعودهم إلى جبل سيناء فى يوم نزول الوحى وتصرفوا تصرفات شائنة عندما رأوا "الوجه الإلهى". ومثل "ناداب" و"أبيهو"، كان من المفترض أن يلقى هؤلاء الشيوخ مصارعهم فى لحظتها، لولا أن الرب لم يشأ أن يطفئ شعلة الفرح بنزول الوحى، بموت هؤلاء. لكن الجميع لقوا العقوبة المستحقة آجلاً: فهلك "ناداب" و"أبيهو" عند تكريس الهيكل، بينما هلك الشيوخ بالمثل عند "طيبارة".

* * *

عندما رفض موسى أن يحمل وحده هم قيادة الشعب، قال له الرب:

«يا موسى لقد أنعمتُ عليك من الحكمة والفهم ما يجعلك تقود شعبى وحدك.. لكى أرفع قدرك بهذه المكرمة. لكنك الآن تريد لغيرك أن يشاركك

فى هذا التكريم! حسناً.. اذهب الآن فافعل ما شئت، لكن لا تنتظر منى عوناً أو مساعدة.. «فسآخذ من الروح التى وضعتها فيك وأضع عليهم» وليحملُنَّ حِمْل الشعب معك، فلا تعود تحمله بمفردك».

أمر الرب موسى بأن يختار معاونيه ممن كانوا قادةً وضباطاً فى مصر. وفى مصر، كان من المعتاد أن يُضْرب الضباط من بنى إسرائيل ويعاقبوا، إذا لم يتم بنو إسرائيل المهام الموكلة إليهم.. لكن «من يتطوع بالتضحية من أجل بنى إسرائيل، سينال شرف وكرامة ونعمة الروح القدس». وقد عانى هؤلاء الضباط فى مصر من أجل بنى إسرائيل.. ولذلك يتم تكريمهم الآن بنعمة الروح القدس.

كما قال الرب لموسى: «رحِّب بالشيوخ الجدد ولاطفهم قائلاً: «مرحباً بكم يا من وجدكم الرب مستحقين لهذه المكانة». ولكن عليك فى الوقت نفسه أن تخاطبهم فى لهجة حازمة وتقول لهم: "اعلموا أن بنى إسرائيل شعب كثير الشغب وغليظ الرقبة، وعليكم أن تحتملوا سبابهم لكم ولعنهم إياكم"».

* * *

عندما هَمَّ موسى باختيار الشيوخ السبعين، وجد نفسه فى ورطة أشد.. فكيف سيختار سبعين رجلاً من بين اثنى عشر سبطاً؟ وكيف يقسم العدد بالتساوى على جميع الأسباط؟

لكن "بصلئيل" بن "أورى" هرع إلى نجدته وأشار عليه بأن يحضر سبعين قصاصة من الورق فيكتب على كلٍّ منها كلمة "شيخ".. ثم يجلب قصاصتين أخريين دون أن يكتب عليهما شيئاً، ثم يخلط القصاصات جميعاً فى إناء.. وبعد ذلك يختار ستة شيوخ من كل سبط فيتقدم كل واحد منهم ويسحب قصاصة من الورق: فإذا وجد مكتوباً عليها "شيخ" يتم اختياره.. وإن سحب واحدة من القصاصتين الفارغتين، يتم استبعاده.

وبهذه الطريقة لن يجد بنو إسرائيل حجة لاتهام موسى بالتحيز لسبط دون الآخر.

وبهذه الطريقة تم اختيار ستة شيوخ من كل سبط، عدا سبط «لاوى».

وكانت أسماء من تم اختيارهم كالتالى:

سبط "رأوبين":

"هانوخ" و "كرسى" و"بالُّون" و "ذكُّور" و"إلياب" و"نموئيل".

سبط "شمعون":

"يامين"، و"ياكين" و"زوهار" و"أوحاد" و"شاؤول" و"زيمرى".

سبط "لاوى":

"عمرام" و"حنانيا" و"نثانئيل" و"سيترى".

سبط "يهوذا":

"زارح" و"دان" و"يوناداب" و"بصلئيل" و"شفاطاه" و"نحشون".

سبط "يساكر":

"صوعَر" و"عُوَّزا" و"بيجال" و"فلطى" و"أوثنئيل" و"حَجِّى".

سبط «زبولون":

"صيريد" و"عيلون" و"أوهولياب" و"إيلياهو" و"نمشى" و"صودى".

سبط "بنيامين":

"صنَّاع" و"كسلون" و"إيليداد" و"أخيطوب" و"يدائيل" و"متانيا".

سبط "يوسف":

"يائير" و"يوعزر"، و"ملاخيل" و"أدونيرام" و"أبيرام" و"سطحور".

سبط "نفتالى":

"إلحانان" و"إلياقيم" و"إليشاما" و"صماخيا" و"زبدى" و"يوحانان".

سبط "دان":

"جداليا" و"يوجلى" و"أحيزير" و"دانيال" و"أحينوعام" و"سراياح".

سبط "جاد":

"حَجَّاى" و"زرحى" و"قينى" و"متاتيان" و"زكريا" و"شونى" .

سبط "أشر":

"فشحور" و"شلومى" و"صموئيل" و"شالوم" و"شيقانيا" و"أبيهو".

* * *

جمع موسى هؤلاء الشيوخ الجدد، ذوى المكانة والتقى، حول الخيمة التى اعتاد الرب أن يتجلّى له فيها، آمراً ثلاثين منهم بالوقوف إلى جنوبها وثلاثين إلى شمالها، وعشرة إلى شرقها.. بينما وقف هو إلى الغرب. وكان الرب مسروراً للغاية بتعيين هؤلاء الشيوخ، حتى إن فرحه قد بلغ قدر فرحته يوم نزول الوحى على الجبل.. فنزل إلى الخيمة وأذن لروح النبوة أن تحل على كل واحد منهم، فلازمتهم حتى يوم مماتهم.. إذ أخذ الرب من روح النبوة فى موسى وأحل عليهم، دون أن تتأثر روح النبوة فى موسى بذلك.. فقد كان كالشمعة المضيئة تقاد منها شموع كثيرة دون أن يخبت نورها.

لكن لم يكن هؤلاء الشيوخ لهم من المكانة مثل ما لموسى.. فقد كان موسى ملكاً لبنى إسرائيل ولهذا أمره الرب بأن يجهز الأبواق والطبول لتقرع من أمامه كما يُفْعَل مع الملوك

* * *

إلداد وميداد

عندما فرغ موسى من تعيين الشيوخ أمرهم بمرافقته إلى الهيكل ليتلقوا من روح القدس هناك.. لكن "إلداد" و"ميداد" ـ وكانا من بين الشيوخ ـ لم يطيعا أمره، تواضعاً منهما، واختبآ بعيداً عن عينيه.. إذ رأوا أنفسهم غير مستحقين لهذا التكريم. وقد أثابهم الرب على ذلك بأن ميزهم على أقرانهم بخمس ميزات: فبينما كان الشيوخ يتنبأون بما سيحدث فى اليوم التالى، كان "إلداد" و"ميداد" يتنبآن بما سيقع فى المستقبل البعيد.. وبينما لم يتنبأ الشيوخ إلا بما سيقع فى اليوم التالى مباشرة ـ وهو نزول السلوى من السماء ـ فإن "إلداد" و"ميداد" احتفظا بروح النبوة طوال حياتهما. وبينما مات الشيوخ فى الصحراء، صار "إلداد" و"ميداد" زعيمين للشعب بعد موت "يشوع". كما أن الشيوخ لم يذكر أسماؤهم فى النصوص المقدسة، بينما ذكر أسماء الرجلين. وفوق ذلك فقد تلقى الشيوخ روح النبوة من موسى، لكن "إلداد" و"ميداد" تلقياها من الرب مباشرة.

* * *

بدأ "إلداد" يتنبأ قائلاً: «سيموت موسى وسيخلفه "يشوع" بن "نون" زعيماً وقائداً للشعب وسيقودهم إلى أرض كنعان ويمنحهم إياها مِلْكاً لهم».

أما "ميداد» فقد تنبأ قائلاً: «ستأتى طيور السلوى من اتجاه البحر وسوف تغطى مخيم بنى إسرائيل.. لكنها ستجلب الشر على الشعب».

كما تنبأ الاثنان معاً قائلين: «فى آخر الزمان سيأتى من أرض مأجوج ملك ستخضع له جميع الأمم. وسيجتمع الملوك المتوجون والأمراء والمحاربون الصناديد ليحاربوا العائدين من النفى فى أرض إسرائيل. لكن الرب القدير سيقف إلى جانب بنى إسرائيل فى وقت شدتهم ويهلك جميع أعدائهم بنار تنبعث من تحت عرشه المجيد.. فتحرق أرواح جنود جيش ملك "مأجوج" فيتساقطون صرعى فوق جبال أرض إسرائيل ويصيرون طعاماً لوحوش الأرض وجوارح السماء. ثم سيبعث جميع الموتى من بنى إسرائيل ويتنعَّمون بالخير الذى أُعِدَّ لهم منذ بدء الخليقة، ويتلقون الثواب على أعمالهم الصالحة».

* * *

عندما سمع "جرشون" ابن موسى هذه النبوءة هرول إلى أبيه فأخبره بها. ولما علم "يشوع" بنبوءة موت موسى فى الصحراء وخلافته له، انزعج بشدة وقال لموسى: «مولاى.. اقتل هؤلاء الناس الذين يتنبأون بهذه النبوءات الشريرة!!».

لكن موسى أجابه: «يا يشوع.. هل تظن أننى أحقد عليك للخير الذى سينالك فى المستقبل؟ بل إننى لأتمنى أن يُرْفَع قدرك مثلى وأن ترفع أقدار الشعب كله مثلك».

ولم يكن "إلداد" و"ميداد" يمتازان فقط بروح النبوءة، وإنما بُنبل محتدهما كذلك، إذ كانا أخوين غير شقيقين لموسى وهارون. فعندما تنزلت الشرائع الخاصة بالزواج، طلق كل رجل أخته وقريبته التى لا تحل له، ولذلك فقد انفصل "عمرام" هو الآخر عن زوجته "يوكابد" التى كانت عمته وتزوج امرأة أخرى وأنجب منها "إلداد"، ومعنى اسمه «ليس مولوداً من عمة» و"ميداد"، الذى يعنى اسمه «بدلاً من العمة».

السلـــوى

تحققت نبوءة "إلداد" و"ميداد" ونزلت طيور السلوى من السماء.. لكنها لم تكن نعمة للشعب، بالضبط كما قال الرب لموسى من قبل..!

فقد قال الرب لموسى: «أخبر الناس فليستعدوا للعقوبة التى توشك أن تنزل بهم.. فسيأكلون اللحم حتى يشبعوا، لكنهم سيكرهونه بعد ذلك، كما لم يكرهوا شيئاً مثله. وإنى لأعلم لماذا اشتهوا أكل اللحم.. فلأن شكِينتى بينهم فإنهم يظنون أن بإمكانهم اشتهاء ما شاءوا. ولو كنت سحبت شكينتى من وسطهم لما كانوا اشتهوا أبداً هذه الشهوة الحمقاء».

فلما أدرك موسى أن تلبية رغبة الشعب ستكون لها عاقبة وخيمة عليهم، قال للرب: «لكن لماذا يارب تمنحهم اللحم ثم تعاقبهم على خطيئتهم بذبحهم؟ من ذا سمع أن أحداً قال لحماره: «هيا كل هذه العلفة من التين لأقطع رقبتك؟ أو قال لرجل: «هاهنا رغيف لك.. كله ثم سأقضى عليك لأنك أكلته؟!».

فأجابه الرب: «وماذا كنت تفعل أنت يا موسى؟».

فأجاب موسى قائلاً: «كنت سأذهب إليهم وأحاول تثبيطهم عن هذه الشهوة الحمقاء».

فقال الرب: «لكننى أعلم أنك إن فعلت ذلك، فستبوء جهودك بالفشل».

فذهب موسى إلى الشعب وقال لهم: «هل وجدتم أن يد الرب أصبحت

عاجزة؟ انظروا.. لقد فجَّر هذه الصخرة فتدفقت منها المياه وجرت الأنهار. كما أنه أنزل لكم المن.. أفلا يقدر على أن يوفر لشعبه اللحم؟».

لكن الناس ردوا عليه قائلين: «إنك تحاول فقط خداعنا والضحك على ذقوننا.. إن الرب لا يقدر على تلبية رغبتنا».

وقد أخطأوا فى قولهم ذلك خطأً عظيماً..!

فما كاد الأتقياء منهم ينسحبون إلى خيامهم، إلا ونزلت طيور السلوى من السماء ككرات الثلج على رؤوس الفسقة المرتابين الذين بقوا فى العراء.. فمات منهم خلق كثيرون، أكثر ممن ماتوا بعدها بسبب أكل هذه الطيور..!

وكانت الطيور قد نزلت بكميات هائلة.. حتى إنها سدت ما بين السماء والأرض وغطت قرص الشمس واستقرت فوق الجانب الشمالى والجانب الجنوبى من المخيم.. وإن لم تحلِّق عالياً فى السماء وإنما طارت على ارتفاع ذراع واحدة من الأرض، لكى يستطيع الناس الإمساك بها فى سهولة ويسر. وفى ظل هذه الوفرة من الطيور، استطاع كل واحد من الناس ـ حتى الكسول والعاجز منهم ـ أن يجمع مالا يقل عن مئة "قور" منها.

لكن... على الرغم من هذه الكميات الهائلة من الطيور، فإنهم لم يستفيدوا منها.. فما كادوا يطعمونها إلا وفارقتهم أرواحهم على الفور.. وكانت تلك عقوبة كبار العصاة من بينهم، أما مرتكبو الصغائر فقد ظلوا يستمتعون بطعم الطيور طوال شهر قبل موتهم.. أما الأتقياء فلم يمسسهم مكروه، فكانوا يمسكون بالطيور ويذبحونها ثم يتلذذون بأكلها.

وكانت تلك أعنف ضربة تيلقاها بنو إسرائيل منذ خروجهم من مصر، ولذا فقد سموا المكان الذى حدثت به تلك الحادثة الأليمة باسم "قبُّوره ـ حَتُّوفاه".. أى «قبور الذين اشتهوا»، ليكون تذكاراً لمن هلكوا فيه.

وكانت الريح التى حملت هذه الطيور قد بلغت من شدتها أن كادت تهلك العالم كله، لولا أن صرفها الرب قبل ذلك.. إكراماً لموسى وهارون.

هارون وميريام يقذفان موسى

عندما تم تعيين الشيوخ السبعين وحلت عليهم روح الرب، أضاءت كل النساء شموعٍ الفرح احتفالاً برفع هؤلاء الرجال إلى مقام النبوة الكريمة. ولما رأت "صفورة" زوجة موسى هذه الشموع سألت "ميريام" عن سبب إيقادها، فأخبرتها بالسبب..

ثم أضافت: «يا لحسن حظ هؤلاء النسوة اللاتى نال أزواجهن هذا التكريم!».

فردّت "صَفّوره": «بل قولى.. يا ويح هؤلاء النسوة اللاتى لن يقربهن أزواجهن بعد الآن!».

ميريام: «وكيف عرفتِ ذلك؟!».

صفورة: «من سلوك أخيك معى.. فمنذ اختاره الرب ليتلقى الوحى، لم يعاشرنى مرةً واحدة..!».

فذهبت "ميريام" إلى هارون وقالت له: «لقد تلقَّيتُ أنا الأخرى الوحى.. لكنى لم أعتزل معاشرة زوجى».

فوافقها هارون قائلاً: «معك حق.. فأنا أيضاً تلقيت الوحى ولم أضطر إلى اعتزال زوجتى».

ثم قال كلاهما: «ولقد نزل الوحى على آبائنا لكن لم يعتزل أىّ منهم زوجته.. لكن موسى اعتزل زوجته تكبرا ورياءً!..».

ولم يكتفيا بذلك وإنما هرولا إلى موسى واتهماه بذلك أمام عينيه.. لكنه لم يجبهما بشىء وظل صامتاً، عالماً بأنه لم يفعل ما فعل إلا بأمر من ربه..

لهذا قال الرب: «لقد صبر موسى على الأذى الذى ناله ولم يفتح فيه (فمه) مثلما فعل حينما تولّى الشعب عنى فخطا أمامه ونادى «من كان فى صف الرب فليأتِ إلى جانبى».. لذا فسأنصره وأؤيده الآن».

* * *

ولم تكن تلك هى المرة الأولى التى يظهر فيها لطف موسى ووداعته، فقد كان ذلك شيئاً من أخص سماته وطباعه. ولم يكن أبداً من بين الفانين من كان فى مثل وداعة موسى وتواضعه. وحدهم الملائكة هم الذين كانوا يفوقونه تواضعاً.. لكن لم يَفُقْهُ فى ذلك أحد من البشر.. إذ أن الملائكة متواضعون لدرجة أنهم حين يتجمعون لحمد الرب ينادى أحدهم على الآخر ويطلب منه أن يبدأ قبله، ويقول له: «لتبدأ أنت فأنت أحق منى بذلك».

* * *

ونادى الرب بصوته الإلهى على "هارون" و"ميريام" و"موسى" معاً فى آن واحد.. فهرع موسى لتلبية نداء الرب، بينما فاجأ النداء "هارون" و"ميريام" وكل منهما فى حالة الجنابة مع زوجه فطفقا يصيحان قائلين: «ماء.. ماء.. أحضروا لى الماء!!» لكى يغتسلا ويتطهرا قبل المثول أمام الرب.

هرول "ميريام" و"هارون"، بعدما اغتسلا، وتبعا الصوت إلى حيث ظهر الرب فى عمود من السحاب... وما كاد الرب يبدأ فى الحديث إليهما، إلا وبدأ يقاطعانه، فقال لهما: «من فضلكما.. انتظرا حتى أنتهى من كلامى» فعلَّم الناس بتلك الكلمات أن يكونوا مؤدبين ولا يقاطعوا محدِّثيهم.

ثم قال لهما الرب: «منذ خلق العالم لم أوحِ لأحد من أنبيائى بشىء إلا فى المنام.. إلا موسى الذى أريته ما فوق فى السموات وما تحت.. وما هو

من قبل وما هو من بعد.. وما كان وما سيكون. وكشفت له كل ما فى الماء، وكل ما تحت الثرى. وأسررت له بحرص ورفعته فوق ملائكتى. وأنا الذى أمرته بأن يعتزل زوجته.. وقد أمرته بذلك بنفسى وعلى نحو صريح دون لف أو دوران.. لماذا إذاً قلتما ما قلتماه على عبدى وصفيِّى موسى؟ لقد قذفتمانى ولم تقذفاه، وانتقدتمانى ولم تنتقداه.. «فالذى يشترى من السارق هو لص مثله».. ولو لم يكن موسى مستحقاً لرسالته ـ لكنت أنا ـ وأنا الذى أرسلته ـ أستحق اللوم والعتاب»!!.



عقاب ميريام

بعد ذلك وبَّخ الرب "ميريام" و"هارون" بلطف على خطئهما فى حق موسى، ولم يطلق سورة غضبه عليهما إلا بعد أن عرَّفهما بذنبهما. وكان فى ذلك أسوة للإنسان بألا يغضب من جاره قبل أن يبيِّن له سبب غضبه.

وبعد ما تركهما الرب وانصرف حلت بها العقوبة.. فصارت "ميريام" برصاء كالثلج، فالبرص هو عقوبة من يقذف جيرانه بالباطل. لكن بَرَص هارون لمَ يُدِمْ سوى لحظةٍ واحدة، إذ كان ذنبه أخف من ذنب أخته التى كانت هى البادئة بسبٍّ موسى.

وبمجرد أن نظر "هارون: إلى جسده، زال برصه عنه.. فحاول أن يشفى أخته بالنظر إليها لكن جاءت النتيجة عكسية تماماً، إذ زاد برصها وانتشر..!!

فهرول هارون إلى موسى وقال له: «هل آذينا، أنا و"ميريام"، أحداً من قبل؟».

فأجابه موسى: «لا».

فواصل هارون: «فكيف لك إذاً أن تصدق أننا أردنا بك سوءاً؟ لقد نسينا أنفسنا للحظة فأفلت لسان كل منا وأخطأ فى حقك خطأ بسيطاً.. فهل نهلك من أجل خطأ تافه كهذا؟ وهل ترضى أن تهلك أختك فتعيش طول حياتها برصاء لا يقربها أحد؟ إنك لتعلم أن الأبرص لا يقدر على تطهيره إلا كاهن ليس قريباً له قرابة دم.. ولكن جميع الكهنة، أنا وأبنائى، أقارب لميريام وتربطنا بها صلة الدم.. لذا فسوف تعيش ـ إن لم تساعدها ـ

بقية حياتها كالميتة، فالأبرص ينجِّس كل من يلمسه.. وهل نتركها بعد كل ما فعلته من أجلنا؟ وبعدما كانت تحمل عَنَّا عبء تعليم النساء، لننصرف إلى تعليم الرجال؟».

لكن لم يكن لكلمات "هارون" فائدة، إذ كان موسى قد قرر من تلقاء نفسه - وبمجرد علمه بمرض أخته - أن يتشفع لها عند الرب..

وقال موسى لنفسه: «لا يليق بى أن تكون أختى تعانى وأجلس أنا مرتاح البال.» ولذا فقد رسم حول نفسه دائرة ثم نهض واقفاً وصلى للرب صلاة قصيرة أنهاها قائلاً: «لن أتزحزح عن هذه البقعة إلا بعد أن تكون أختى قد شفيت تماماً. وإن لم تشفها فسأشفيها أنا بنفسى... فأنت قد علمتنى كيف يصيب البرص بدن الإنسان وكيف يزول عنه».

فقال الرب لموسى: «ولماذا تصيح هكذا!؟».

فرد موسى: «لأنى أشعر بما تعانيه أختى.. فأنا نفسى قد عانيت منه من قبل وأحسست كأن يدى مقيدة».

فقال الرب: «لو كان أبوها، أو أى ملك من الملوك، قد بصق فى وجهها، أما كانت ستصاب بالخزى لسبعة أيام؟ فأنا، ملك الملوك، قد بصقتُ فى وجهها، ولذا فينبغى أن تخزى لأربعة عشر يوماً على الأقل.. ولأجل خاطرك سأخصم من خزيها سبعة أيام، ولتبقى طريدة خارج المخيم لسبعة أيام أخرى».

لو أنه لم يكن يوجد كاهن يصلح لإعلان طهرها من البرص، قام الرب بذلك نفسه وأعلن أن ميريام "نجسة" لمدة أسبوع وستطهر بعد انقضاء هذه المدة.

ورغم هذه العقوبة، فقد ظهرت كرامة "ميريام" ومكانتها السامية أمام الناس فى هذه المناسبة.. إذ اختفت سحابات المجد من أمامهم، واختفى البئر الذى ظل مرافقاً لهم طوال مسيرهم فى الصحراء.. ولم يظهر كلاهما إلا بعد عودة "ميريام" إلى المخيم.

إرسال الجواسيس

عندما اقترب بنو إسرائيل من حدود "فلسطين"، ذهب الناس إلى موسى وقالوا له: «سنرسل طليعة من أمامنا لتتعرف على البلاد وتخبرنا بمداخلها ومخارجها وبالمدن التى ينبغى أن نتوجه إليها أولاً».

فصاح الرب: «ماذا!! إنكم لم ترسلوا العيون قبل أن تشرعوا فى السير فى الصحراء المليئة بالحفر والجباب...! والآن تريدون إرسال جواسيس إلى أرض مليئة بالخيرات!».

ولم يكن امتزاحهم فقط هو المشين، وإنما كانت طريقتهم فى طلب ذلك من موسى مخزية وفاضحة لقلة إيمانهم بالرب ـ فقد تدافعوا وتزاحموا حول موسى، يدوس صغيرهم على كبيرهم ويركل كبيرهم صغيرهم..!

ولأنهم كانوا يعلمون سوء فعلتهم فقد تحججوا لموسى قائلين: «عندما كنا نسير فى البرية كانت سحابات المجد تقودنا وتستطلع لنا الطريق.. أما الآن فسوف تختفى هذه السحابات عند دخولنا إلى الأرض المقدسة، لذا فإننا نريد رجالاً نرسلهم إلى الأرض فليستطلعوا لنا طرقها ودروبها». كما تذرعوا بذريعة أخرى قائلين: «إن الكنعانيين يتوقعون هجومنا عليهم، ولذا فلابد أنهم قد قاموا بإخفاء كنوزهم، لذا فإنا نريد أن نرسل الجواسيس من أمامنا ليتجسسوا على الكنعانيين ويعرفوا أين خبّأوا كنوزهم».

وحاولوا جهدهم أن يتظاهروا أمام موسى بأن دافعهم الوحيد إلى طلب

إرسال الجواسيس إنما هو المحافظة على الشرائع.

وقالوا له: «ألم تقل لنا إن الصنم الذى لا يُعبَد نستطيع أن نستخدمه وإن كان يعبد يجب تدميره؟ فإذا دخلنا إلى أرض الكنعانيين سنجد أصناماً لن نعرف أيها يعبد فيجب تدميره.. وأيها لم يعدْ يُعبَد فنستطيع استخدامه».

كما قالوا له أخيراً: «لقد علَّمتنا، وأنت معلمنا، أن الرب سيطرد الكنعانيين شيئاً فشيئاً من أمامنا. لذا فإننا فى حاجة إلى إرسال الجواسيس لنعلم أى مدن الكنعانيين يجب أن ندخلها أولاً».

واقتنع موسى بكلامهم.. لكنه قرر استشارة الرب أولاً..

فأجابه الرب: «ليست هذه أول مرة لا يصدقون فيها وعودى لهم.. بل إنهم وهم فى مصر سخروا منى، حتى أصبحت تلك عادتهم... وإنى لأعلم ما حملهم على الرغبة فى إرسال العيون والجواسيس. وإن كنت تريد إرسال الجواسيس فافعل ما يحلو لك.. لكن لا تزعم أننى أمرتك بذلك».

وعند ذلك اختار موسى رجلاً من كل سبط ـ عدا سبط "لاوى" ـ وأرسلهم يتجسسون على الأرض المقدسة. وكان هؤلاء الرجال أبرز رجال الأسباط وأتقاهم، حتى إن الرب وافق على اختيار كل رجل منهم.

لكن ما كاد هؤلاء الرجال يباشرون مهمتهم، إلا وعزموا على الكذب على الشعب وتثبيط الناس عن دخول "فلسطين"..! وكان الذى دفعهم لذلك حرصهم على مصالحهم الشخصية.. إذ ظنوا أنهم سيحتفظون بمكانتهم تلك بين رجال الأسباط، طالما الشعب يسير فى البرية، وأنهم سيحرمون منها بمجرد دخول بنى إسرائيل إلى الأرض المقدسة.

* * *

أسماء لها معنى

كانت أسماء عشرة من هؤلاء الجواسيس تدل على نواياهم الخبيثة.. فمن سبط "رأوبين" كان "شموع بن ذَكُّور"، الذى سُمِّىَ كذلك لأنه لم يطع الرب فحسب ذلك عليه وكأنه قد مارس السحر والعِرافة. أما سبط "شمعون" فكان يمثله "شافاط بن حورى"، وكان معنى اسمه «إنه لم يتغلب على نوازعه الشريرة، ولذا فقد خرج خالى الوفاض ودون أن ينال شيئاً من الأرض الموعودة».

وكان "ييجال بن يوسف" هو ممثل سبط "يسَّاكر".. وقد تسمى بذلك الاسم لأنه دَنَّس سمعة الأرض المقدسة. ولذا فقد مات قبل أوانه. وكان ممثل سبط "بنيامين" هو "فلطى بن رافو"، وتسمى بهذا الاسم «لأنه نبذ طباع الخير التى كانت فيه ولذا فقد ضيَّع نفسه».

أما اسم "جَبِّيئيل بن سودى" - ممثل سبط "زبولون" - فكان معناه «لقد تكلم بأشياء مشينة فى حق الرب، تنفيذاً لخطة الجواسيس السرية». وكان ممثل سبط "مِنَسَّى" هو "جدِّى بن سوسى"، وتسمى بهذا الاسم لأنه جدف ضد الرب فحمى غضبه عليه.. لأنه كان هو الذى قال عن الأرض الموعودة «أنها تأكل سكانها»..

وكان أشرُّهم هو "عميئيل بن جَمَلَّى" ممثل سبط "دان"، لأنه كان هو الذى قال: «إن الأرض قوية حتى إن الرب نفسه لا يقدر على فتحها» ولذا

فقد تسمى بهذا الاسم الذى يعنى: «لقد أخْفَى قوة الرب».. وقد عوقب على هذه الكلمات الكفرية، بأن حرم من دخول الأرض.

وكان ممثل سبط "أشر" هو "سَتُّور بن ميخائيل" الذى بدلاً من أن يقول: «مَنْ مثل الرب؟» كفر وقال: «من هو هذا الرب؟»..

أما ممثل سبط "نفتالى" فكان "نحْيشى بن وَفْسِى" لأنه كتم الحق ولم يجد الإيمان سبيلاً إلى فمه، إذ كان يكذب ويفترى على الرب..

وكان آخر هؤلاء الجواسيس هو ممثل سبط "جاد"، وكان اسمه "جأوئيل ابن ماكى"، لأنه أُذِلَّ لكذبه وافترائه على الرب.

* * *

وكما سُمِّى العصاة العشرة بأسماء توافق أفعالهم، سُمِّى الجاسوسان التقيان بأسماء تناظر أفعالهما الصالحة.

فكان ممثل سبط "يهوذا" هو "كالب بن يَفُونَّه"، لأنه «تكلم بما جال فى قلبه ولم يُصْغِ سمعه لنصائح بقية الجواسيس».

وكان اسم ممثل سبط "إفرايم" هو "يهوشع بن نون"، وسمِّى بذلك لأنه كان حكيماً عاقلاً ولم يسمح لبقية الجواسيس الخطاة باصطياده كالسمكة(١). وقد غير موسى اسم "يهوشع" إلى "يشوع" قائلاً: «ليكن الرب دائماً معك فلا تستمع لنصح الجواسيس». وكان موسى يعلم مسبقاً ما سيفعله ويقوله كل واحد من الجواسيس بعد عودتهم من الأرض المقدسة.

* * *

(١) كلمة "نون" معناها سمكة بالعبرية. (المترجم)

الجواسيس فى فلسطين

فى اليوم السابع والعشرين من شهر "سيوان"، أرسل موسى الجواسيس من برية "فاران" فتوجهوا أولاً إلى جنوب فلسطين حيث أفقر مناطق الأرض المقدسة.. وكان فى ذلك مثل التاجر الذى يعرض أسوأ بضاعته أولاً ثم يعرض أحسنها شيئاً فشيئاً.

وعندما وصل الجواسيس إلى مدينة "حبرون" أدركوا مدى خصوبة هذه الأرض ووفرة خيراتها.. إذ على الرغم من أن "حبرون" كانت أفقر مناطق فلسطين كلها، فإنها كانت أكثر ثراءً وخصوبة من مدينة "صُوعن" فى مصر، والتى تعتبر أفضل مدنها. وكان أبناء "حام" قد شيدوا مدينة "حبرون" أول ما شيدوا ـ بسبب خصوبة أرضها ـ ثم بنوا مدينة "صوعن" فى مصر بعد ذلك بسبع سنوات كاملة.

* * *

كانت مهمة الجواسيس تسير فى يسر وسلامة.. فما كانوا يدخلون إلى مدينة إلا ويصيبها الرب بالطاعون لينشغل أهلها بموتاهم فلا ينتبهون للغرباء.. وبالرغم من أن سكان هذه المدن لم يتعرضوا للجواسيس بشىء، فإن الرعب قد استحوذ عليهم عندما رأوا العماليق الثلاثة "أخيمان" و"شيشاى" و"تلماى".

وكان هؤلاء العمالقة من الضخامة إلى حد أن الشمس كانت تصل

بالكاد إلى كعوبهم.. وقد اكتسبوا أسماءهم من ضخامتهم وقوتهم الهائلة. وكان أضخمهم هو "أخيمان" الذى كان المرء يظن - إذا وقف إلى جواره - أنه يقف تحت سطح أحد الجبال فيصيح فى رعب: «يا ويحى!! ما هذا الذى يكاد يدهسنى؟!».

وكان ثانيهم هو أخوه الثانى "شيشاى"، أى الرخام، إذ كان قوياً صلباً كالرخام.. أما الأخ الثالث فكان يسير بخطوات واسعة جداً وتتهد الأرض تحت أقدامه فتطاير منها كتل هائلة من الطين، ولذا فقد سمى "تلماى" أى "كتل الطين".

ولم يكن أبناء "عناق" من الذكور وحدهم هم العماليق... وإنما كانت بناته كذلك، وقد رآهن الجواسيس بالصدفة ذات مرة. إذ لما بلغ الجواسيس مدينة "كريات أربع" - أى مدينة الأربعة وقد سميت بذلك لأن "عناق" وأبناءه الثلاث كانوا يقيمون بها - استولى عليهم الرعب لمرآهم حتى إنهم - أسرعوا يبحثون عن مكان يختبأون فيه.. فدخلوا إلى كهف، وهكذا ظنوا.. لكنهم اكتشفوا فيما بعد أن هذا الكهف ما هو إلا قشرة رمانة ألقتها واحدة من بنات "عناق".. فتخشبت أقفيتهم وتصلبت شعورهم!! فهذه الابنة، بعدما أكلت الرمانة خافت أن تلقى قشرتها فى المنزل فيغضب أبوها "عناق" منها فرمتها فى الحديقة، دون أن تنتبه أن بداخلها اثنى عشر رجلاً طول كل منهم ستون ذراعاً..!

وعندما غادر الرجال "مخبأهم" قال أحدهم للآخر: «انظروا إلى قوة بناته!! فكيف يكون أبناؤه إذاً!!».

* * *

وسرعان ما أوقعهم حظهم فى طريق هؤلاء الأبناء..

إذ لما سمع العمالقة الثلاثة بوجود الإسرائيليين، طادروهم وصرخ واحد

من العمالقة صرخة سقط الجواسيس على إثرها كالصرعى... ولم يفيقوا من غيبوبتهم إلا بعد محاولات كثيرة من جانب العمالقة الذين سألوهم: «لماذا جئتم إلى بلادنا؟ أليس العالم كله ملكاً لإلهكم؟ أليس يطويه كيفما يشاء؟ هل جئتم هنا لتقطعوا أشجارنا المقدسة؟».

لكن الجواسيس ما كانوا لينجوا من أيدى هؤلاء العمالقة، لولا أن موسى قد زوَّدهم بسلاحين خطيرين: عصاه وسر «الاسم الإلهى»، واللذين كانا ينقذانهم كلما تعرضوا لمأزق أو أراد العمالقة الفتك بهم. لأن هؤلاء العماليق لم يكونوا غير ذرية الملائكة الساقطين فى حقبة ما قبل الطوفان. وكانوا ثمرة زواجهم من بنات البشر، كما كانوا نصف ملائكة ونصف آدميين. ولذا فقد كانوا نصف فانين: إذ كانوا يعيشون حتى يعمروا طويلاً ثم تتآكل نصف أجسادهم. ولما كان عيشهم على هذه الحال ـ نصف موتى ونصف أحياء ـ فيه خطر عليهم، فإنهم يفضلون الغوص حينئذٍ فى أعماق البحر، أو قتل أنفسهم بتناول عشب سحرى. كما كانوا من الضخامة إلى حد أن الجواسيس سمعوهم يقولون عنهم ذات مرة: «اسمعوا!! لقد رأينا ذات مرة جراداً عند الأشجار يشبه البشر». وكانوا يقصدون الجواسيس بهذا الكلام، فقد كان الجواسيس مجرد "جراد" فى نظر هؤلاء العمالقة.

* * *

كما قلنا، فإن الجواسيس ـ باستثناء "كالب" و"يوشع" ـ كانوا قد قرروا من البداية أن يخوِّفوا بنى إسرائيل من فلسطين، وقد كان تأثيرهم عظيماً لدرجة أن "كالب" خشى أن يستسلم لهم، ولذلك فقد هرول مسرعاً إلى "حبرون" حيث يرقد الآباء الثلاثة ووقف عند قبرهم وقال:

«يشوع لا يتأثر بتثبيط الجواسيس لأن موسى دعا له الرب. لذا فادعوا أنتم أيضاً الرب لى لكيلا أتأثر بكلامهم».

لقد كان "كالب" دائم النزاع مع رفاقه طوال تَنَقُّلهم فى فلسطين.. إذ كان يُصِرُّ على قطف شىء من ثمار البلاد ليريها للشعب، بينما كانوا هم يعارضون اقتراحه بشدة، لكيلا يعلم الشعب شيئاً عن جودة أراضى هذه البلاد ووفرة ثمارها.

ولم يرضخ رفاقه لكلامه إلا بعد ما استل سيفه وتوعدهم قائلاً:

-«إمَّا أن تقطفوا من ثمار هذه البلاد، وإما قاتلتكم حتى أقتلكم أو تقتلونى». فأذعنوا لكلامه وقطفوا عنقوداً واحداً من العنب بلغ من ثقله أن اضطر ثمانيتهم إلى حمله معاً.. بينما حمل الجاسوس التاسع رمانة، وحمل الجاسوس العاشر تينة، وكانوا قد أحضروها من مكان يخص "أشكول" - وكان أحد أصدقاء إبراهيم، - ولم يحمل "كالب" ولا "يشوع" شيئاً، فلا يليق بمكانتهما أن يحملا شيئاً كالآخرين.

وكان عنقود العنب الذى قطفوه وحملوه معهم، من الضخامة إلى درجة أن بنى إسرائيل عصروه فكفى عصيره طقوس الإراقة[1] التى قام بها بنو إسرائيل طوال مكثهم فى الصحراء لأربعين عاماً..!!

بعد قضاء أربعين يوماً جابوا فيها فلسطين من أقصاها إلى أقصاها.. عاد الجواسيس إلى موسى والشعب. وما كان لهم أن يقدروا على الطواف فى البلاد كلها لولا أن الرب «طوى الأرض من تحت أقدامهم».. فقطعوا مسافة عظيمة فى فترة قصيرة.

وكان الرب يعلم أن بنى إسرائيل سيمكثون فى الصحراء عدداً من السنين مساوياً لعدد الأيام التى سيقضيها الجواسيس فى فلسطين.. ولذا فقد عجل بعودة الجواسيس وقصر مقامهم فى فلسطين على أربعين يوماً، لكى لا يضطر بنو إسرائيل للمكوث فى الصحراء لمدة طويلة.

---

(١) طقس يهودى يقوم فيه الكاهن بإراقة شراب العنب على القرابين المذبوحة. (المترجم).

الكـــذّابــون !!

عندمـا سـمع مـوسى أن الجـواسـيس قـد عـادوا، ذهـب إلـى بيتـه العـظيم الذى كان يـدرس فيه التـوراة، واجتـمع معـه الشعب كله هنـاك.. إذ كـان المكان فسيحاً تبلغ مساحته اثنى عشر ميلاً تتسع للجميع.

وبدأ الجواسيس تقريرهم قائلين:

«لقـد ذهبنا فتجسسنا على الأرض التى أمـرتنا بالتـجسس عليها، وإنهـا لتفيض حقّاً باللبن والعسل.. لكن النـاس المقيمين فيها أناس أقوياء جبابرة، ومـدنها محصَّنة تحيط بهـا القلاع من كل جـانب.. وفـوق ذلك كله فقـد رأينا بنى "عَنَاق»، والعـمـاليق يسكنـون فى جنوب هذه الأرض.. فـإذا أردت دخـول هذه الأرضَ من المنطقة الجبلية لكى تتفـادى مواجهة العمـاليق، أو كنت تنوى دخولهـا من جهـة البـحـر.. فلتعلم إذاً أن الكنعـانيين يقـيمـون بجـانب البـحـر، وعلى طول نهر الأردن».

وبمجـرد أن انتهى الجـواسـيس من كـلامهم، هب "يشوع" واقـفـاً ليكذبهم فيما قالوا.. لكنهم لم يمنحوه فرصةً للكلام وقاطعوه فى حدة قائلين:

«بأى حق تـريد أن تتكلم أيهـا الرجل الغـبى!؟ ليس لك عـائلة ولا زوجـة ولا أولاد، لذا فلن تـأبه إذا هلكنا ونـحن نحـاول فـتح هذه الأرض؟. أمـا نـحن فلدينا زوجاتنا وأطفالنا لنهتم بهم ونخـاف عليهم».

فاضطر "يشوع" لالتزام الصمت، على مضض.

وعندما شاهد "كالب" ما حدث ظل برهة يفكر فى طريقة لإخبار موسى والشعب بالحقيقة دون أن يخرسه هؤلاء الجواسيس الخونة، كما فعلوا مع «يشوع».

* * *

كان "كالب" قد خدع رفاقه الجواسيس وأوهمهم بأنه يوافقهم على تثبيط الشعب عن دخول الأرض المقدسة.. عازماً بينه وبين نفسه على أن يصدع بالحقيقة فى الوقت المناسب.

لهذا، عندما نهض "كالب" واقفاً، ظن الجواسيس أنه سيؤيد كلامهم، ولذلك فقد جلسوا صامتين دون أن يفكر أحد منهم فى مقاطعته.

وبدأ "كالب" حديثه قائلاً:

«اصمتوا.. سأكشف أنا لكم عن الحقيقة.. ليس هذا هو كل ما يجب أن نشكر ابن عمرام عليه.. إنه هو الذى أخرجنا من مصر وفرق لنا البحر وأنزل لنا المن من السماء.. لهذا كله، فعلينا أن نطيعه فى كل ما يأمرنا به.. وإن أمرنا بتسلق السلالم للصعود إلى السماء..!».

وكان صوته قويّاً لدرجة أنه كان يسمع على مبعدة اثنى عشر ميلاً..!.

وكان هو نفس الصوت الذى أنقذ الجواسيس أنفسهم ذات مرة..

إذ عندما علم الكنعانيون لأول مرة بوجودهم فى أرضهم وارتابوا فى كونهم جواسيس جاءوا للتجسس على بلادهم، طاردهم العمالقة الثلاثة "أخيمان" و"شيشاى" و"تلماى" حتى لحقوا بهم عند سهل اليهودية. وفى هذه الأثناء كان "كالب" قد اختبأ خلف أحد السياجات ورأى العمالقة يكادون يمسكون برفاقه، فأطلق صرخة عظيمة سقط من هولها العمالقة أرضاً فاقدين لوعيهم.. فلما استرد العمالقة وعيهم أعلنوا أنهم لم يطاردوا الإسرائيليين بسبب الثمار... وإنما لأنهم ارتابوا فى مجيئهم لحرق مدنهم.

لكن صوت "كالب" وحديثه لم يؤثرا فى الشعب ولا فى الجواسيس الذين واصلوا إصرارهم على الكذب وقالوا:

«لن نقدر على محاربة أهل هذه الأرض، فهم أقوى منا.. بل إنهم أقوياء لدرجة أن الرب نفسه لا يقدر على هزيمتهم.. إن الأرض التى تجسسنا عليها هى أرض تأكل سكانها بالأمراض.. وجميع الناس الذين رأيناهم هناك أهل شر وسوء. كما رأينا فيها أناساً كدنا نفقد وعينا لمرآهم، خوفاً وفَرَقاً من منظرهم.. ألا وهم العماليق أبناء "عناق" الذين ولدوا من عمالقة. ورأينا أنفسنا كالجراد فى أعيننا.. وكنا كالجراد فى أعينهم».

وعندما سمع الرب هذه الكلمات الأخيرة قال:

«ليس لدى اعتراض على قولكم «رأينا أنفسنا كالجراد فى أعيننا»، لكن ساءنى أن تقولوا «وكنا كالجراد فى أعينهم».. إذ كيف لكم.. كيف جعلتكم تبدون فى أعينهم؟ كيف لكم أن تعرفوا أنى لم أجعلكم فى أعينهم مثل الملائكة؟».



ليلة الدموع

لقيت كلمات الجواسيس آذاناً صاغية..

فقد قال الشعب لموسى:

«يا موسى.. يا معلمنا.. لو كانوا اثنين فقط لكنا قبلنا شهادتهم، كما تأمرنا الشريعة بذلك.. ولكنهم عشرة.. عشرة يا موسى!! فكيف لنا ألا نصدقهم؟! إن الرب يكرهنا ولذا فقد أخرجنا من مصر ليسلمنا إلى أيدى الأموريين ليذبحونا..!»

وقد كشفوا بذلك عن كرههم للرب.. إذ «لا يتمنى المرء لجاره، إلا ما يظن أن جاره يتمناه له»..!

ثم قالوا: «ألو كان لملك ولدان وحقلان أحدهما ترويه مياه النهر والآخر ترويه الأمطار، ألن يعطى الحقل الذى يرويه النهر لأحب ولديه إليه، ويعطى الآخر الحقل الذى ترويه الأمطار؟ إن الرب أخرجنا من مصر، وهى الأرض التى لا تحتاج إلى مياه الأمطار.. ليعطينا كنعان التى لا تثمر إلا إذا نزل عليها المطر..!».

ولم يكن الجواسيس يريدون فقط تثبيط الناس عن دخول الأرض المقدسة، وإنما كانوا يريدون كذلك دفعهم إلى التمرد على موسى وعصيان أوامره..! وفى المساء التالى ولّى كل منهم إلى منزله ولبس ثياب حداده وأخذ يبكى وينوح.

فلما سألهم أزواجهم عن سبب بكائهم قال كل منهم، مواصلاً النحيب:

«يا ويحى وويح أبنائى وبناتى وكنّاتى اللاتى كتب عليهن أن يغتصبهن الغرل[1] ويلقين فرائس للشهوات الرخيصة!! لقد رأينا رجالاً ليسوا كالبشر.. بل أقوياء ومقتدرين كالملائكة.. والواحد منهم يستطيع قتل ألف منّا..! وكيف سنقدر على التطلع فى وجوه رجال لهم أظافر من حديد حتى إن الواحد منهم ليقدر على سد نبع من الماء بإظفره!!».

فانفجر نساؤهم وأطفالهم وجميع أهل بيوتهم فى العويل والبكاء والنواح..! فلما سمع جيرانهم بالأمر هرولوا إليهم فأخبروهم بسبب بكائهم فشاركهم الجيران مندبتهم..!

وسمع الرب أصوات بكائهم وعويلهم فقال:

«إنكم تبكون اليوم وتنوحون دون سبب.. فلأجعلنكم تنوحون وتولولون فى المستقبل لسبب وجيه..!».

وعندما قرر الرب تدمير الهيكل فى اليوم التاسع من شهر "آب".. وهو اليوم الذى بكى فيه بنو إسرائيل فى البرية دون سبب، ولهذا فقد أصبح هذا اليوم يوماً للدموع.. إلى الأبد.

لكن الشعب لم يقنع بالبكاء وإنما أرادوا خلع موسى وهارون وداثان وأبيرام وجعل قادة مكانهم ليقودوهم عائدين إلى مصر.. والأنكى من ذلك أنهم أنكروا ربهم وأرادوا نصب صنم ليعبدوه ويتخذوه إلهاً لهم..!

ولم يكن الأغيار المخالطون والعصاة من بنى إسرائيل هم وحدهم الذين تمردوا على موسى وهارون، وإنما الأتقياء منهم كذلك، إذ قالوا:

«ياليت الرب كان أماتنا فى مصر! ياليتنا كنا متنا فى هذه الصحراء!».

فلما سمع "يشوع" و"كالب" ذلك شقوا ثيابهم ولطموا وبكوا وأرادوا ردع

(١) أى غير المختونين.

الناس عن كفرهم وحضِّهم على عدم الخوف من الكنعانيين.. لأنه قد حان الوقت الذى وعد الرب إبراهيم بأن يمنح فيه ذريته أرض الكنعانيين.. وكذلك لأنه لا يوجد من بين سكان الأرض أناس أتقياء يستحقون أن يترك لهم الرب أرضهم ملكاً لهم.

كما أكدا لهم أن الرب قد طرد الملائكة الحارسين لسكان فلسطين من السماء، ولذا فإن سكان هذه الأرض قد أصبحوا دون نصير أو سند..

لكن الناس أجابوهم قائلين: «لسنا نصدقكم.. بل نصدق كلام الجواسيس الآخرين، فهم أقرب إلينا وأحب منكما».

وعبثاً حاول موسى بدوره تشجيع الناس قائلاً:

«إن الذى صنع لكم كل هذه الآيات والمعجزات التى رأيتموها بأعينكم فى مصر ومنذ الخروج منها إلى الآن.. لقدير على أن يصنع لكم مثلها وأعظم منها إذا دخلتم الأرض الموعودة. لابد لكم أن تتعلموا من الماضى وتعتبروا به».

لكن بنى إسرائيل ردوا قائلين:

«لو كنا سمعنا ما سمعنا من غرباء، لما كنا صدقنا.. ولكنا سمعناه من أبنائنا وبنى أبنائنا.. ومن رجال أبناؤنا أبناؤهم وبناتنا بناتهم».

ثم حاولوا الانقضاض على موسى وهارون وقتلهما، لكن الرب أرسل غمامة مجده فاختبا فيها.. وبالرغم من ذلك فلم يتعظ الناس من هذه المعجزة وإنما أخذوا يقذفون الغمامة بالحجارة لكى يقتلوا الرجلين..!

وعند هذا الحد نفد صبر الرب على كفرهم وحماقتهم!! فقرر على الفور إهلاك الجواسيس وإنزال أشد العقاب بالشعب الناكر للجميل.

* * *

عقاب ناكرى الجميل

ظهر الرب لموسى وأمره أن يوصل لشعبه الكلمات التالية:

«لقد أشعلتم غضبى بسبب ذات النعم التى أنعمت بها عليكم.. فعندما فرقتُ لكم البحر وتركت المصريين عالقين بوحله فى القاع، قلتم: «كنا فى مصر نمشى على الوحل، وما أخرجنا الرب منها إلا لندوس عليه مرة أخرى».. وأنزلتُ عليكم المن لتأكلوا وتسمنوا، فقلتم: «سنموت لأننا لا نخرج فضلات المن الذى نأكله».. وعندما أرسلتم جواسيسكم إلى فلسطين كنت أميتُ ملِكَ كل مدينة يدخلونها لكى ينشغل أهلها بموته عنهم، وبدلاً من أن يشكرونى على ذلك عاد جواسيسكم وقالوا لكم إنها أرض تأكل سكانها..

وأنزلت التوراة لكم هدى ونوراً.. ومن أجلكم أمرت ملاك الموت بأن يواصل قبض أرواح الناس فى كل الأمم، ويكفَّ يده عنكم لأنكم شعبى الذى اخترته من بين جميع الشعوب.. لكنكم فعلتم مثلما فعل آدم الذى أنعمت عليه ووعدته بحياة لا يذوق فيها الموت فعصى أمرى وأكل من الشجرة وجلب على نفسه الموت والهلاك» وبالمثل قلت لكم: «إنكم ملائكة»... لكنكم حذوتم حذو آدم فى معصيته، ومثله ستموتون.

وكنت أتمنى أن تسيروا فى الدنيا بسيرة الآباء، لكنكم سلكتم سنن سدوم التى أحرقتُها بالنار عقاباً لها على خطاياهم..»

ثم واصل الرب حديثه قائلاً لموسى:

«لو كانوا يظنون أننى أحتاج إلى سيوف أو رماح لكى أقضى عليهم، فهم بلا شك مخطئون.. فكما خلقتُ العالم بكلمة، أفنيه بكلمة، وأهلكهم بكلمة جزاءً وفاقاً لهم على إغضابى بكلامهم.. أما أنت فتكون وريثهم فأجعلك أمة عظيمة».

فقال موسى:

«إن كان الكرسى الذى له ثلاثة أرجل لا يحتمل غضبك، فأنَّى لكرسى برجل واحدة احتماله؟ إنك تريد إهلاك ذرية الآباء «الثلاثة».. فكيف لى أنا وحدى أن أحتمل أنا وذريتى غضبك؟ لكن ليس هذا وحده هو السبب الذى يمنعك من إهلاكهم..

فلو أهلكتهم لقال الأدوميون والمؤابيون وجميع سكان كنعان إنك ما أهلكتهم إلا لأنك لم تقدر على حفظ شعبك.. كما سيقولون أن آلهة كنعان أقوى من آلهة مصر، إذ انتصرت على آلهة النهر فى مصر.. لكنك لم تقدر على هزيمة آلهة كنعان..

والأدهى من ذلك أن أمم الأرض سيتهمونك بأنك رب لا تكف عن استعمال القسوة مع خلقه ويقولون: «لقد أهلك جيل الطوفان بالماء، وأسقط بناة صرح بابل وأمطر على سدوم ناراً وكبريتاً، ولم يكن مصير المصريين أفضل إذ أغرقهم فى البحر. والآن ها هو يدمر بنى إسرائيل الذين قال عنهم من قبل «هم ابنى البكر».. بينما يفعل مثل "ليليث" التى تقتل أولادها عندما لا تجد من تقتله، ولذا فقد قتل ابنه البكر..!»».

ثم أضاف موسى:

«لكل رجل تقى فضيلة يمتاز بها.. فهلا أظهرت الآن فضيلتك؟».

فسأله الرب:

««وما هى فضيلتى تلك؟».

فقال موسى:

«الحلم والودُّ والرحم.. فـأنت حليم مع من يسـخطونك وتغـدق عليـهم رحـمـتك. وفى رحـمـتك تتـجلى قـدرتك.. لذا فـلا تطبق كل عـدلك على أطفالك ولكن أغدق عليهم واسع رحمتك».

عندما قـال مـوسى ذلك للرب، كـان يعلم أن الرحـمـة هى الفـضيلة العظمى للرب. وتذكَّـر مـوسى أنه تشـفع لبنى إسـرائيل عند الرب، عندمـا وقعوا فى خطيئة عبادة العجل الذهبى.. وقال له آنذاك:

«قل لى يارب.. ما أعظم فضائلك؟».

فأجابه الرب:

«أنى ودود رحيم حليم».

فقال موسى:

«فهل يَدَعُ حلمك الخطاة يفلتون بخطاياهم؟».

فلم يجبه الرب بشىء.

لذا فقد قال موسى الآن:

«فلتتصرف إذاً بما وافقت عليه حينذاك. فعدلك ـ الذى يقضى بهلاك بنى إسرائيل عقاباً لهم على خطيئتهم ـ فى كفة، لكنه موزون تماماً بصلواتى ودعائى فى الكفة الأخرى. فَلْنَرَ إذاً أى كفة هى الراجحة».

فأجابه الرب:

«وحياتك يا مـوسى.. لتـرجَحَنَّ كفـة دعائِك وتجـعل الميـزان يمـيل إلى جانب رحمـتى.. ولأجلك ينبغى علىَّ أن ألغى قـرارى بإهلاك بنـى إسـرائيل، ليصيح المصريين قائلين: «يا سَعْد عبد يلبى سيده رغباته!».

لكننى سأقتضى منهم دينى على مدار أربعين سنة. لذا قل لهم: «لَتَسْقُطَنَّ جثثكم فى هذه الصحراء، وكذا جثث كل الذين تذمروا ضدى. وليهيمَنَّ أطفالكم على وجوههم فى هذه البرية أربعين عاماً وليحملن عُمْرُكم حتى تتآكل جيفهم فى الصحراء».

* * *

لكن هذه العقوبة لم تكن بالقسوة التى قد تبدو عليها لأول وهلة.. فلم يمت من الشعب أحد دون سن الستين، بينما عوفى من العقوبة كل من كانوا فى دون العشرين أو فوق الستين عند الخروج من مصر. وبالإضافة إلى ذلك، فلم يمت منهم إلا من اتبعوا نصح الجواسيس.. بينما نجا الآخرون واللاويون والنساء.

كما أن الموت حل بالعصاة على نحو جعلهم يدركون أنه عقوبة على معاصيهم.. فطوال العام كله لم يمت واحد منهم.. وفى اليوم الثامن من شهر "آب" أرسل موسى منادياً نادى فى المخيم:

«ليجهِّز كل واحد قبره».

فحفروا قبورهم وباتوا ليلتهم إلى جوارها.. وكانت هى نفسها الليلة التى اتبعوا فيها - من عام مضى - نصيحة الجواسيس وثاروا ضد الرب وضد موسى.

وفى الصباح التالى نادى منادٍ فى الناس قائلاً:

«ليفترق الأحياء عن الأموات».

فنهض من لم يموتوا.. وبقى ميتاً فى القبور خمسة عشر ألفا.

لكن بعد انتهاء الأعوام الأربعين نادى المنادى كعادته فى صباح اليوم التاسع من "آب".. فنهض الجميع وليس من بينهم ميت..!

سنوات السخط

بالرغم من أن الرب قد ألغى قراره بإهلاك بنى إسرائيل.. فإنه لم يتصالح معهم بَعْدُ، وظل الرب ساخطاً عليهم طوال السنوات التالية التى واصلوا فيها زحفهم فى الصحراء... وذلك كما يتبيَّن من خلال العديد من الحوادث..

فخلال سنى السخط هذه، لم تهب الرياح الشمالية، فكان من نتيجة ذلك أن الصبيان الذين ولدوا فى الصحراء لم يتم ختانهم.. إذ أدى غياب الرياح إلى ارتفاع درجة الحرارة إلى درجة عالية لا تطاق، فأصبح الجو فى حالة تصبح معها مغامرة ختان هؤلاء الصغار.

ولأن الشريعة تحظر على بنى إسرائيل الاحتفال بحمل الفصح إلا بعد ختان الذكور، فقد ظل بنو إسرائيل طوال هذه المدة دون أن يحتفلوا بعيد الفصح.. بعد ما كان من أمرهم مع الجواسيس.

كما نال موسى من الحب جانباً..! فطوال تلك المدة لم يتلقَّ من الرب إلا الشرائع الضرورية فقط، وعداها لم يتنزل عليه أى وحى..!

وما كان ذلك إلا لأن موسى ـ مثله مثل جميع الأنبياء الآخرين ـ لمَ يَنلْ هذا التكريم إلا من أجل بنى إسرائيل.. لذا فطالما أن الرب ساخط على بنى إسرائيل، فإنه لم يكن يكلم موسى إلا ببرود شديد. بل إن مصير موسى الذى كُتِبَ عليه ـ وهو أن يموت، فى الصحراء دون أن يدخل الأرض الموعودة ـ إنما تقرر مع مصير هذا الجيل الذى قاده فأخرجه من مصر..!

لكن أقسى العقوبات كانت تلك التى حلت بالجواسيس الذين جلبوا هذه الكارثة العامة بألسنتهم الشريرة. ولذا فقد عاقبهم الرب.. عيناً بعين وسنّاً بسن.. فقد استطالت ألسنتهم حتى بلغت السُّرَّة، وماتوا وهم على هذه الحال البشعة.. أما "يشوع" و"كالب" اللذَيْن ثبتا على الثقة بالرب والإيمان به.. فلم ينجوَا من هذا المصير البائس وحسب، بل إن الرب أثابهما على تقاهما بأن ملَّكهم من «الأرض المقدسة» ما كان نصيباً للجواسيس الآخرين الخونة.

وكان "كالب" فى الأربعين من عمره عندما أرسل للتجسس على الأرض الموعودة. وكان قد تزوج فى سن مبكرة وأنجب ولداً وهو فى العاشرة من عمره.. فلما بلغ الخامسة بعد الثمانين من عمره، ظل قوياً عفيّاً بما مكَّنه من التمتع بأملاكه فى الأرض المقدسة.

* * *

لكن رحمة الرب لا تغفل العصاة كذلك..

ولذا فقد قال الرب لموسى:

«إن العماليق والكنعانيين يقيمون الآن فى الوادى.. لذا مُرْ بنى إسرائيل ليعودوا أدراجهم ويدخلوا إلى البرية عن طريق البحر الأحمر».

وكان الرب قد فعل ذلك لأنه كان قد قرر من قبل أنه إذا وقعت حرب بين بنى إسرائيل وبين سكان فلسطين، فلن يؤيد بنى إسرائيل أو ينصرهم. ولأنه يعلم أنهم فى حالة مزرية الآن، فقد أمرهم بألا يحاولوا دخول البلاد عنوة.

وقال الرب لهم:

«لقد كنت أنوى رفعكم وتعظيم أمركم.. لكن لو حاولتم الآن شن الحرب على سكان فلسطين فسوف يكون الخزى مصيركم».

* * *

لكن الشـعب لم ينصت لكلام الرب وشنوا الحـرب على الأمـوريين، فانهزموا هزيمة نكراء ولم يستجب الرب لتوسلاتهم ولا دعائهم. وقد لقى خلق كثير منهم حتوفهم، وكان منهم "صلوفحاد"، بينما جرجر جمع آخر أذيالهم وانسحبوا إلى المخيم وأبدانهم تأكلها الجروح.

وعلا نحيبهم وعويلهم، لكن الرب لم يَلِنْ وظل على موقفه منهم..

وقال الرب لموسى:

«لو عاملتهم بعدلى، لما جعلتهم يدخلون الأرض أبداً. لكننى، بعد حين، سأدعهم يتملكونها، لأوفى بوعدى الذى وعدتُ به آباءهم».

* * *

ولكن يشجع الناس ويبث فيهم روح الأمل من جديد، أمر الربُّ موسى بأن يعلن عليهم فرض الشرائع الخاصة بذبائح القرابين وغيرها من الأحكام الخاصة بالعيش فى الأرض المقدسة.. وذلك لكى يعلموا أن الرب لن يبقى غاضباً عليهم إلى الأبد.

وعندما أعلن موسى ذلك بين الناس، تشاجر بنو إسرائيل مع الأغيار المتهودين، إذ زعم بنو إسرائيل أنهم هم وحدهم المسموح لهم بتقديم القرابين للرب فى هيكله.

فسأل الرب موسى: «لماذا يتشاجرون هكذا دائماً فيما بينهم؟».

فأجابه موسى: «إنك لتعلم السبب».

فقال الرب: «ألم أقل لك إنها شريعة واحدة لهم ولجميع الغرباء الذين يقيمون بينهم؟».

* * *

وعلى الرغم من أن مكث بنى إسرائيل فى الصحراء طوال أربعين عاماً

كان عقوبة من الرب لهم.. فقد كان فى ذلك ميزة لهم. فعندما خرج بنو إسرائيل من مصر، كانت فلسطين فى حال يرثى لها: فقد ذبلت الأشجار التى كانت مزروعة فيها من أيام «نوح»..

ولهذا قال الرب:

«ماذا!؟ هل أدع بنى إسرائيل يدخلون إلى أرض مهجورة؟ لا.. سآمرهم بالمكث فى الصحراء أربعين سنة، إلى أن يكون الكنعانيون قد قطعوا تلك الأشجار القديمة الذابلة وزرعوا أشجاراً أخرى بدلاً منها.. حتى إذا ما دخل بنو إسرائيل إلى الأرض وجدوها خضرة تفيض بالخيرات».

وهكذا كانت الحال..

فعندما دخل بنو إسرائيل إلى الأرض المقدسة، لم يجدوها مزروعة من جديد وحسب، وإنما وجدوها تفيض بالكنوز والخيرات من كل صنف ولون. وكان سكان هذه الأرض من البخل إلى حد أن أحدهم لا يضع ولو قطرة زيت واحدة على ثُرَيِّده، ولو انكسرت بيضة لا يأكلونها، بل يبيعونها ويتسلمون ثمنها! لكن الرب قد منح بنى إسرائيل، فيما بعد، ما جمعه هؤلاء الكنعانيون البخلاء المرابون بالربا والسحت والبخل.



الفصل الخامس

انشقــاق خطيــر

تمرد «قورح»

لم يكن الكنعانيون وحدهم هم الذين لم يتمتعوا بثرواتهم وأموالهم.. ولكن كان مصير "قورح" مثل مصير هؤلاء الكنعانيين.

كان "قورح" خازن فرعون، وكان لديه من الكنوز ما جعله يستخدم ثلاثمئة بغل أبيض لحمل مفاتيح خزائنه.. لكن "لا يتباهيَنَّ غنى بغناه"..! فقد خسر "قورح" بخطاياه... حياته وكنوزه.

وكان "قورح" قد اكتشف أحد المخابئ الثلاث التى كان "يوسف" قد أخفى فيها كنوز فرعون فى سنى الجدب والمجاعة.. فاستولى على الكنوز وصار يتعالى على الناس وقال "قورح" لنفسه:

«لقد كان لجدى أربعة أبناء: عمرام ويِصَّهار وحبرون وعُزِّيئيل.. وكان لعمرام البكر مزايا استفاد بها بنوه فصار هارون الكاهن الأكبر وصار موسى الملك. لكن أليس لى، وأنا ابن "يصهار" الابن الثانى "لقهات"، حق فى ترأس بنى "قهات"؟ ومع ذلك فإن موسى قد تجاوزنى وعيَّن بدلاً منى "ألصافان" الذى كان أبوه "عُزِّيئيل" أصغر أبناء جدى. لهذا فلأثورن ضد موسى ولأقلبن وجوه الناس ضده وأهدم كل النظام الذى أسسه وبناه».

ولم يتعظ "قورح" مما فُعِل بمن سبقوه فتمردوا ضد موسى فأهلكهم

الرب.. وخانه ظنه وخدعته نُبّوته.. فقد رأى بعين نبوته أنه سيكون من ذرتيه "صموئيل" النبى الذى هو أعظم شأناً من موسى وهارون معاً، وظن أن الرب لن يسمح بهلاك جد نبى عظيم مثل "صموئيل".. لكنه لم يكن يعلم أن الرب سيهلكه بذنبه وأن بنيه سيتوبون من بعده فيمنحهم الرب نعمته.

وكان اسم هذا المتمرد العاصى يشير إلى مصيره ويدل عليه.. فاسمه "قورح" يعنى "الصلع".. وسيحدث موته فى بنى إسرائيل صلعاً. كما كان اسم أبيه "يصهار"، ومعناه "حر الظهيرة".. لأنه تسبب فى جعل الأرض تغلى مثل "حر الظهيرة". وفوق ذلك فقد كان يُكَنّى بأنه "ابن قهات"، واسم "قهات" يعنى "الثّلم" فمن خلال خطيته جعل "أسنان بنيه تتثلّم". أما وصفه بأنه "ابن لاوى" - أى "المسير"- فيشير إلى النهاية التى لقيها.. إذ "سيق إلى الجحيم».

لكن لم يكن "قورح" هو وحده الذى حاول خلع موسى والتمرد ضده. فقد كان معه، قبل الكل، "داثان"، و"أبيرام" اللذان من سبط "رأوبين"، واللذان يستحقان اسميهما فعلاً..

فاسم "داثان" معناه.. «المخالف للشريعة الإلهية».

واسم "أبيرام" معناه.. «الفظ العنيد».

وبالإضافة إليهما، كان هناك مئتان وخمسون رجلاً آخرون، كانوا من خيرة بنى إسرائيل جاهاً ومكانةً.. بل كان من بينهم بعض أمراء الأسباط..!

وباتحاد بنى "رأوبين" مع "قورح" صدق المثل القائل:

«من جاور السعيد يسعد، ومن جاور الحداد يكتوى بناره».

إذ كان بنو "رأوبين" يقيمون فى الجهة الجنوبية من المخيم، حيث كان "قورح" يقيم.. ولذا فقد نشأت بينهما صداقة جعلتهم ينضمون إليه فى مسعاه المهلك.

وزادت زوجة "قورح" حقده على موسى اشتعالاً..

فقد عاد ذات يوم إلى منزله وقد قُصَّ شعر رأسه ولحيته. فأنكرته زوجته وسألته فى دهشة: «من فعل بك هذا؟!».

فأجابها: «موسى».

فقالت: «إن موسى يكرهك ويريد إهانتك أمام الناس..!».

فرد "قودح" قائلاً: «ولكنه فعل مثل ذلك بأبنائه..!».

فأجابته فى غيظ: «وهل يبالى إن أهين أبناؤه.. طالما نال منك مأربه؟»

لا شك أنه كان مستعداً لفعل ذلك بأبنائه، من أجل إذلالك أنت».

وكان كلما سار فى الشارع أنكره الناس وسألوه، عمن شوَّه خلقته على هذا النحو، فيجيبهم فى سخط:

«موسى هو الذى فعل بى هذه الفعلة..! ولم يكتف بذلك بل رفعنى من يدى وقَدَمَىَّ ليرى «إن كنت نظيفاً أم لا»!! أما هارون.. فقد ترك هارون كما هو.. بل إنه زيَّنه كالعروس وأمره بأن يأخذ مكانه فى الهيكل!!».

وعندما سمع بنو عشيرته ذلك صاحوا فى مرارة وسخط:

«موسى ملك وجعل أخاه كاهناً أكبر وبنى أخيه رؤساء للكهنة.. ويخصص لهؤلاء الكهنة المزعومين أكوام الذبائح والقرابين..!».

ثم حاول تحقير موسى والتقليل من مكانته فى أعين الناس..

فقبل تلك الحادثة بوقت قصير، كان موسى يعلِّم الناس شريعة صنع الأهداب فى أذيال الأثواب التى يرتدونها؛ فصنع "قورح" للرجال المئتين والخمسين الذين كانوا معه أثواباً أرجوانية..

ثم تقدم نحو موسى، ومعه جماعته، وقال له:

«هل نجعل فى أذيال ثيابنا هذه أهداباً يا موسى؟».

فأجابه موسى: «أجل».

فقال "قورح": «فإن كان هُدّب أرجوانى واحد يكفى تنفيذاً لهذه الشريعة، أما يكفى ثوب أرجوانى كامل نلبسه، حتى ولو لم يكن فى ذيله أهداب؟!».

ثم سأل موسى سؤالاً آخر قائلاً:

«هل يجب تثبيت مزوزاه[1] فى قائم البيت المملوء بالكتب المقدسة؟»

فأجابه موسى بالإيجاب، فواصل:

«فإن كان مئتان وسبعون قسماً من التوراة، فى هذا البيت، لا تكفى.. أفيكفى قسمان نعلقهما فى قائم البيت؟!».

ثم طرح على موسى سؤالاً ثالثاً:

- «إن ظهرت على جلد رجل بقعة بيضاء، فى مثل حجم حبة الفول.. فهل هو طاهر أم نجس؟».

فأجابه موسى: «بل نجس».

فرد "قورح": «فإذا انتشرت هذه البقعة حتى غطت بدنه كله.. أيكون حينها طاهراً أم نجساً؟».

فقال موسى: «بل يكون طاهراً».

فعلق "قورح" ساخراً: «يا لهذه الشرائع الحمقاء!! لا يمكن أن تكون هذه شرائع الرب، بل أنت وأخوك الذين كتبتما التوراة التى تعلمانها لبنى إسرائيل.. وما هى من عند الرب.. لذا فلا أنت بنبى، ولا هارون أخوك بكاهن أكبر!!».

---

(١) كلمة عبرية جمعها «مزوزات» وتدل على الإطار الخشبى الذى يثبت فيه الباب، وهى رقية أو تميمة تعلق على أبواب البيوت التى يسكن فيها اليهود، وهى على شكل صندوق صغير بداخله قطعة من جلد حيوان طاهر بحسب الشرائع اليهودية ومنقوش عليها الفقرتان الأوليان من دعاء الشماع (تثنية ٩: ٤ ـ ٩، ١١: ١٣ ـ ٢١)، ومكتوب عليها كلمة «شَدَّاى» التى هى اختصار لعبارة «شومير دلاتوت يسرائيل» أى (حارس أبواب إسرائيل) كما أنها أحد أسماء إله اليهود. (المترجم).

«قورح» يَسُبُّ موسى والتوراة

بعد ذلك ذهب "قورح" إلى الناس وراح يؤلبهم على موسى وهارون..
وحكى لهم هذه الحكاية المختلقة..

إذ قال "قورح":

«كان يعيش على مقربة من منزلى أَيِّمٌ ولها ابنتان، وكانوا يعيشون على نتاج حقل لهم يكفيهم حاجتهم. وعندما أرادت هذه المرأة أن تحرث حقلها جاءها موسى وقال لها: «لا يجوز لكِ أن تحرثى حقلك بثور وحمارٍ معاً».

فلما بدأت تبذر الحقل جاءها موسى وقال لها: «لا يجوز لك أن تبذرى أكثر من نوع واحد من الغلال». فلما بدأت بواكير الثمار تظهر فى حقل المرأة المسكينة، جاءها موسى وأمرها بأن تعطى حصيد حقلها إلى الكهنة الذين «يستحقون باكورة ثمرة الأرض».. فلما حان أخيراً وقت الحصاد، جاءها موسى وأمرها «بألا تحصد زرعها كله، وبألا تجمع لُقاطة[1] الحقل وأن تتركه للفقراء».

فلما فعلت كل ما أمرها به موسى وأوشكت أن تدرس القمح جاءها موسى وقال لها: «أعطنى قربان الطرحة، وأعطِ العشرين الأول والثانى للكاهن»..

فلما أدركت المرأة المسكينة أنها قد لا تستطيع كفاية حاجتها وحاجة بناتها من نتاج الحقل بعد اقتطاع كل هذه «الإتاوات» التى فرضها موسى

(١) هو ما يتخلف فى الحقل بعد الحصاد. (المترجم)

منه.. باعته واشترت نعاجاً لعلها تستفيد من صوفها ومن صغارها. لكنها كانت بكل تأكيد مخطئة فى ظنها..

إذ عندما وُلِدَ أول صغير لنعاجها، جاءها "هارون" وطلبه منها لأن "بِكْر النعاج يخصُّ الكاهن".. ولم يكن حظها مع أصوافها بأفضل من ذلك..!

إذ حينما حان وقت جز صوف الغنم، جاءها "هارون" وطلب منها أن تعطيه "أول جَزَّة للغنم"، والذى يخصه بحسب شريعة موسى. لكنه لم يكتفِ بذلك، وإنما جاءها بعد ذلك بمدة وطلب منها أن تعطيه شاة من كل عشرِ قرباناً مستحقّاً له.. بحسب شريعة موسى كذلك..!

وعند هذا الحد، لم تستطع المرأة المسكينة الاحتمال لأكثر من ذلك، فذبحت الغنم.. على أمل أن تنال لحومها.. ملكاً خالصاً لها.. لكن.. خاب أملك يا امرأة..!

لقد جاءها هارون وتحجج بالتوراة وطلب منها، كتف الشاه ووجنتيها وأفخاذها..!

وعند ذلك صاحت المرأة فى حسرة:

- «واخيبتاه!! إن ذبح الشاة لم ينقذها من يدك!»

فأجابها "هارون":

«ألا تعلمى يا امرأة أن كل قربان فى إسرائيل مِلْكٌ لى؟»

ثم وَلَّى عنها حاملاً معه شاتها العزيزة.. وترك المرأة وبناتها يبكين فى مرارة.. وجوع.

ثم أنهى "قورح" حكايته قائلاً:

«هاهما موسى وهارون - اللذان يفرضان على الناس شرائعهما القاسية ويدعيانِ أنها من عند الرب...!».

وأثار ذلك حزب "قورح" كثيراً، حتى إنهم هرولوا إلى موسى وقالوا له فى سخط:

«إن حملك الذى تحمله علينا لأثقل من حمل المصريين.. كما أنك ألزمتنا، منذ واقعة الجواسيس، بأن تقدم إتاوة للموت كل عام، خمسة عشر ألف رجل منا.. ألا ليتنا كنا بقينا فى مصر ولم نخرج معك..!».

كما اتهموا موسى وهارون بحب التسلط، قائلين:

«لقد سمع كل الشعب على جبل سيناء الرب وهو يقول: «أنا الرب إلهك». فبأى حق إذاً ترفعان أنفسكما فوق جماعة الرب؟».

واشتطوا فى اتهام موسى بالفسق والفجور.. بل إنهم حذروا زوجاتهم منه..! ولم يكتفوا بالسباب والكلمات المهينة، وإنما حاولوا رجم موسى بالحجارة.. فهرع إلى الرب وطلب عونه ونصره..

وقال موسى للرب:

«لا أبالى إن أهانونى أو أهانوا هارون.. لكننى أصر على أن تنتقم منهم لإهانتهم للتوراة.. لئن مات هؤلاء الخطاة «كما يموت الناس» فلأكفرن أنا أيضاً ولأقولن على الملأ إنك لم تنزل التوراة..!»!!!

* * *

موسى يحاول عبثاً استتابة «قورح»

استاء موسى كثيراً من تعدى "قورح" وعصيانه، إذ خاف ألا يغفر لهم الرب ذنوبهم أبداً بعد ذلك. لهذا لم يبت موسى فى هذا الأمر من فوره، وإنما حض الناس على الانتظار إلى اليوم التالى، على أمل أن يراجع "قورح" وجماعته أنفسهم بعد أن تزول حدة غضبهم.

وقال لهم موسى:

«لن أذهب إلى الرب الآن.. لكن غداً سيبين الرب من هم جماعته.. ألا تعلمون أن الرب قد حد حدوداً فاصلة بين الليل والنهار، وبين النور والظلمة؟ وبالمثل، فقد اختار إسرائيل على غيره من الأمم، ثم اختار هارون على غيره من بنى إسرائيل. وإن كنتم تقدرون على إزالة الحد الفاصل بين الليل والنهار، فستقدرون على إزالة الحد الفاصل بين إسرائيل وغيره من الشعوب.. وإلا، فلا.

إن الشعوب الأخرى لها ديانات عديدة، وكهنة كثيرون ويتعبدون فى معابد مختلفة.. لكن لنا نحن إله واحد وتوراة واحدة وشريعة واحدة ومذبح واحد، وكاهن أكبر واحد... بينما أنتم مئتان وخمسون رجلاً وكل منكم يريد الكهانة العظمى لنفسه، كما أنِّى أنا نفسى أود لو كنت أنا الكاهن الأكبر.. إن كان أمراً كهذا ممكناً. لكن.. إن كنتم تريدون التأكد من استحقاق هارون لمنصب الكهانة العظمى، فخذوا مباخركم.. أنت يا "قورح" وجميع جماعتك.. خذوا مباخركم وضعوا فيها البخور وأحرقوه للرب فى الغد.. إن تقريب

البخور أحب ما يحبه الرب، لكن ليس كل واحد يقدر على تقريبه.. هل تتذكرون ما حدث لناداب وأبيهو؟ لكننى أخاف عليكم وأستحلفكم بالرب ألا تهلكوا أنفسكم.. فلن يبقى حيّاً إلا الذى اختاره الرب كاهناً أكبر.. بينما سيفقد الجميع حياتهم على تقريبهم للبخور».

لكن "قورح" ازداد عناداً وإصراراً على غيِّه.. فقد كان يستشعر بأنه سيكون جدّاً لأنبياء ومرتلين فى المعبد وأن الرب سيختاره كاهناً أكبر.

* * *

وعندما رأى موسى أن "قورح" لن يتوب عن غيه، توجه بكلامه إلى اللاويين الآخرين.. رجال عشيرة "قورح"، إذ خاف عليهم من أن ينضموا إلى "قورح" فى تمرده وعصيانه. وحضهم موسى على الاكتفاء والرضا بما شرفهم به الرب وألا يحاولوا اغتصاب كهانة ليست لهم.

ثم ختم موسى كلامه معاوداً الحديث إلى "قورح" بألا يثير فتنة وشقاقاً فى بنى إسرائيل..

وقال له موسى:

«لو كان هارون قد استحوذ على هذا المنصب من تلقاء نفسه، لكان من حقك أن تعارضه أو تتمرد عليه.. لكن الرب هو الذى اختاره وهو الذى ألبسه هذا الثوب الذى تريد أنت منازعته فيه.. لذا فإنك لا تتمرد على هارون، بل على الرب نفسه». ولم يجبه "قورح" بشىء ورأى أن من الحكمة ألا يحاول الجدال مع حكيم عظيم مثل موسى.. موقناً بأنه لو جادل موسى فسيندم أمامه ويضطر إلى التسليم بكل ما يقوله «موسى».

* * *

فلما يأس موسى من ارتداع "قورح" عن غوايته، أرسل إلى "داثان" و"أبيرام" لكى يحضرا إلى بيت القضاء.. فالشريعة تلزم القاضى بإحضار

المتهم لسماع دفاعه قبل الحكم عليه..

لكنهما أجابا على رسول "موسى" قائلين:

- «لن نصعد!»

وقد كانا على حق.. فما "صعدا" إلى موسى، وإنما هبطا إلى أسافل الجحيم..! ولم يكتفيا بهذا الرد الوقح، وإنما طلبا من الرسول إبلاغه بالآتى:

«لماذا تجعل نفسك سيداً علينا؟ وأى فائدة جنيناها من ورائك؟ لقد أخرجتنا من مصر، تلك الأرض التى هى "جنة الرب"، فلم تُدْخِلنا إلى كنعان وإنما تركتنا نهيم على وجوهنا فى هذه الصحراء القفر، لتأكلنا البلايا كل يوم..! بل إنك كنت تحاول التَرَيُّس علينا، تماماً كما تحاول ذلك الآن. ولقد خدعت الشعب عند خروجهم من مصر، إذ وعدتهم بأن تقودهم إلى أرض تفيض لبناً وعسلاً فلما تبعوك - من غفلتهم وجهالتهم - خيَّبت آمالهم. والآن تحاول خداعنا، كما فعلت معهم.. لكن هيهات، فلن نأتيك أو نصغى لكلامك..!».

* * *

عندما عاد رسول موسى إليه وأخبره بما قاله "داثان" و"أبيرام"، اشتاط موسى غضباً ودعا الرب قائلاً:

«يارب العالم..! إن هؤلاء الخطاة العصاة كانوا يشاركون الشعب فى تقديم القرابين.. فإذا انسحبوا من الجماعة وشقوا صف الشعب، فلا تقبل منهم قرباناً. لقد عاملونى أنا بهذه الطريقة.. وأنا الذى لم آخذ من الشعب أجراً على ما صنعت وأصنع من أجلهم، بالرغم من أنى أستحق ذلك.. ومع أن أى شخص يخدم الهيكل والحرم لابد وأن يتلقى أجراً على خدمته.. فإنى سافرت إلى مصر على حمارى ولم أستعمل أيّاً من مطاياهم، بالرغم من أننى لم أسافر إلا لقضاء مصالحهم. يارب العالم.. أعلم أن أى خصمين

لابد وأن يتقاضيا عند القاضى.. لكننى لم أكن أنتظر ذلك أبداً وكنت أفصل فى نزاعاتهم بإنصاف فلم أبرِّئ ساحة مذنب ولم أُدِنْ بريئاً..!».

قضى "قورح" ليلته وهو يحاول كسب الناس إلى صفه.. وقد أفلح فى ذلك. وأخذ يدور على جميع الأسباط والعشائر ويقول لهم:

«لا تظنوا أنى أسعى لنيل شرف أو مكانة لنفسى ـ لا.. بل إنما أريد أن يكون هذا الشرف دولةً بيننا جميعاً، بينما موسى هو وحده الملك وأخوه هو الكاهن الأكبر».

وفى الصباح التالى ذهب الشعب كله ـ وليس "قورح" وجماعته فقط ـ إلى الهيكل وبدأوا يتناوشون مع موسى وهارون. ولذا فقد خاف موسى من أن يهلك الرب الشعب كله لأنهم انضموا إلى جانب "قورح»".

لهذا دعا موسى ربه قائلاً:

«يارب العالم.. لو تمرد بلد على مليكه أو سفير مَلِكِه بسبب ثورة عشرة أو عشرين من الناس.. فسيرسل الملك قواته لتبيد أهل البلد جميعاً، بريئهم قبل مذنبهم لأنه لن يستطيع تمييز البرئ من المتمرد.. لكنك أنت رب العالم وتعلم ما فى الصدور وتكنّه القلوب.. فهل يخطئ إذاً واحد، فتهلك الشعب كله؟».

فقال الرب لموسى:

«لقد سمعت دعاءك يا موسى.. قل لهم إذاً أن ينفضُّوا عن هيكل "قورح" و"داثان" و"أبيرام" وليبتعدوا عن مساكنهم».

عند ذلك حاول موسى إثناء "قورح" وبطانته ـ للمرة الأخيرة ـ عن غيهم، لكن لم يُجْدِ ذلك نفعاً معهم..

وعند ذلك التفت إلى الناس وقال:

- «أناشدكم بالرب أن تبتعدوا عن خيام هؤلاء العصاة الذين كانوا يستحقون الموت والهلاك، حتى وهم فى شبابهم.. ففى مصر أفشوا سر قتلى للمصرى.. وعند البحر الأحمر كانوا هم الذين أثاروا سخط الرب عندما أرادوا العودة إلى مصر.. وفى "علوش" اعتدوا فى السبت.. وهاهم الآن يحتشدون ليتمردوا ضد الرب. لذا فلسوف يحل عليهم غضب الرب ويهكلوا عن آخرهم.. لذا أناشدكم ألا تلمسوا شيئاً من أشيائهم لكيلا تتدنسوا بخطاياهم».

وعندما سمع الشعب ذلك فزعوا وانفضوا مهرولين مبتعدين عن خيام "داثان" و"أبيرام" و"قورح"، الذين لم يتغير موقفهم ولم يتزحزحوا عن غيهم.. بل وقفوا بأبواب خيامهم يستهزئون بموسى ويسبونه ويلعنونه.

فالتفت موسى ودعا الرب قائلاً:

«لئن مات هؤلاء موتة طبيعة، على أسرَّتهم وبين أهليهم - فلأمشين بين الناس وأقــول إن الرب لم يرسلنى إليكم لأصنع لكم كل هذا، وأننى إنما فعلته من تلقاء نفسى».

فسأله الرب: «وماذا تريد منى أن أفعل؟».

فقال موسى: «لو كنت قد خلقت للأرض فماً فمرها فلتبتلعهم الآن.. وإلاّ فاجعل لها فماً الآن».

فقال الرب: «لقد قلت.. وسأنفذ لك ما تريد».

ولم يكن موسى وحده هو الذى أصر على أن يكون "قورح" وبطانته عبرة لمن يعتبر.. بل إن الشمس والقمر أيضاً ظهرا أمام الرب وقالا له: إن لم يعاقب هؤلاء الأشرار بما يريده موسى فلن يدورا فى فلكيهما من بعد.

عقاب "قورح" وبطانته

إن الرب لا يتأخر أبداً عن نصر عبده المؤمن..

اقترب فم الجحيم من البقعة التى كانت توجد فيها خيام "داثان" و"أبيرام" وعائلاتهما وانشقت الأرض من تحت أقدامهم وبدأت تنحدر وتميل حتى إن أحدهم لم يقدر على الوقوف فى مكانه... إنما تدحرجوا رغماً عنهم إلى شقوق الأرض وسقطوا فيها. ولم تبتلع الأرض هؤلاء العصاة الأشرار وحدهم.. وإنما ابتلعت كذلك كل ممتلكاتهم.. بل حتى ثيابهم التى كانت فى المغاسل، والدبابيس التى كانت تخصهم واستعارها غيرهم منهم.. طارت من أماكنها وتدحرجت نحو الهاوية وغاصت فى بطن الأرض. ولم يبق لهم أثر على وجه الأرض.. لا هم ولا أى شىء من ممتلكاتهم.. بل إن أسماءهم قد محيت من جميع السجلات التى كانت مكتوبة فيها.

وعلى الرغم من ذلك، فلم يموتوا من فورهم.. وإنما غاصوا فى فم الأرض شيئاً فشيئاً، وأخذت فتحات الأرض تضيق على قدر حجم كل منهم وتعصرهم شيئاً فشيئاً وعضواً فعضواً.

وعندها صرخوا فى رعب هائل:

- «إن موسى على حق.. وتوراته حق.. نُقِرُّ ونعترف بأن موسى ملك حق ونبى حق.. وهارون هو الكاهن الأكبر الشرعى.. وأن التوراة منزلة من عند الرب.. أنقذنا يا موسى.. يا موسى..!!».

لكن.. ولات حين مناص!!

* * *

أما المئتان وخمسون رجلاً الآخرون، فقد ذهبوا إلى الهيكل مع هارون وقربوا مباخرهم معه فنزلت النار السماوية وأحرقتهم جميعاً.. إلا هارون وحده..!

وكانت أبشع موتة هى موتة "قورح" الذى أحرقته النار السماوية فتكور جسمه حتى صار مثل كرة من اللهب تدحرجت حتى سقطت إلى فم الأرض وغاصت فى بطنها. وقد كان هناك سبب وجيه لهذه العقوبة المزدوجة.

فلو أحرقته نار البخور فقط لقال الذين ابتلعتهم الأرض:

«لقد أضلنا "قورح" وجرجرنا إلى هذا المصير.. ولكنه نجا منه!!»

ولو ابتلعته الأرض فقط، لقال الذين أحرقتهم النار:

«لقد أغوانا "قورح" وقادنا للهلاك، وبرغم ذلك فإن الرب نجّاه..!».

* * *

لكن هذه العقوبة لم تكن كافية وحدها للتكفير عن خطايا "قورح" وجماعته.. إذ لازالوا يعذبون فى الجحيم، وفى نهاية كل ثلاثين يوماً يلقيهم الجحيم خارجه قرب سطح الأرض عند البقعة التى ابتلعتهم فيها الأرض. ولو تصادف أن وضع امرؤ أذنه على الأرض وتنصت لسمع صوتاً يصرخ فى رعب هائل:

«موسى على حق.. وتوراته حق... ونحن الكذابون!!».

ولن يتوقف عذابهم إلا عند البعث.. فعلى الرغم من خطورة معصيتهم، فإنهم لا يستحقون بسببها اللعنة الأبدية.

وقد ظل "قورح" وجماعته لفترة آيسين من الخلاص من هذا العذاب، إلى أن بَثَّت فيهم "حَنَّة" الأمل من جديد عندما تنبأت قائلة:

«الرب يُنْزِل أقواماً إلى شيؤول[١]، ثم يرفع».

وفى البداية لم يؤمنوا بصدق هذه النبوءة، ولكن بعد أن دمر الرب الهيكل وألقى بأبوابه إلى الجحيم تعلَّقوا بها وصاحوا: «لو رفع الرب هذه الأبواب مرة أخرى، فسنرتفع نحن أيضاً معها».

وعند ذلك جعلهم الرب حراساً لهذه الأبواب إلى أن تعود مرة أخرى إلى العالم العلوى.



(١) أى الجحيم. (المترجم)

نجاة "أون" وأبناء "قورح" الثلاثة

لم ينّج مما حدث لقورح وجماعته إلا أربعة هم: "أون بن فَالت" وأبناء قورح الثلاثة ـ وأما الباقون، فقد ابتلعتهم الأرض جميعاً، نساءً وشيوخاً وأطفالاً. وقد كان الفضل فى نجاة "أون" يعود إلى زوجته.. بمثل ما كانت زوجة "قورح" سبباً فى هلاكه.

وكان "أون" فى الأصل منضماً للتمرد الذى قاده "قورح" ضد موسى. وعندما عاد "أون" إلى منزله ذات ليلة، قالت له زوجته:

«ما الذى ستجنيه من وراء ذلك؟ فإما يظل موسى هو السيد وتبقى أنت تابعاً له.. أو يصبح "قورح" السيد، وتبقى أنت كذلك تابعاً له..؟!».

فهز "أون" رأسه موافقاً على كلامها، لكنه أخبرها أنه أقسم لقورح بأن ينصره ويؤيده ولذا فهو لا يستطيع الحنث بيمينه.. عند ذلك ربَّتت زوجته على كتفه وناشدته أن يبقى فى المنزل. ولكى تتأكد من عدم مغادرته للمنزل، سقته خمراً قوية جعلته يغط فى سبات عميق..

وبعد ذلك قالت زوجة "أون" لنفسها:

ـ «إن الجماعة كلهم متدينون ولن يجرؤوا على الدخول إلى المنزل إذا رأونى قد كشفت شعرى».

ثم راحت فكشفت شعرها ووقفت بباب الخيمة، فلما اقترب جماعة "قورح" ليأخذوا "أون" معهم، رأوها وهى على تلك الحال فخجلوا وانصرفوا،

وبذا فلم يشترك "أون" فى هذا التمرد.. بفضل حسن تدبير زوجته.

وفى الصباح التالى اهتزت الأرض وبدأ السرير الذى رقد عليه "أون" غارقاً فى سبات عميق، يهتز ويتدحرج متجهاً إلى شفا الهاوية.. فأمسكت زوجته بقوائمه ودعت الرب قائلة:

«يارب العالم.. لقد أقسم زوجى على ألا يشترك أبداً بعد اليوم فى أى تمرد، فنجِّه الآن وإن عاد فخالف يمينه فاصنع به ما شئت».

فاستجاب الرب لدعائها ونجَّا "أون" من الهلاك.

وعندما أفاق "أون" من نومه وعلم بما حدث، ناشدته زوجته أن يذهب إلى موسى ويطلب منه الصفح والعفو عنه.. لكنه رفض قائلاً لها إنه لن يستطيع النظر فى وجه موسى، لخجله مما فعل..

فذهبت زوجته إلى موسى بدلاً منه، وفى البداية لم يأذن لها موسى بالدخول، فلم يكن يحب الحديث إلى النساء، ولكنها بكت وتوسلت إليه فأذن لها فدخلت وأخبرته بكل ما كان من أمر زوجها..

عند ذلك هب موسى واقفاً وهرول معها إلى منزلها حيث نادى على "أون" صائحاً: «يا أون بن فالت.. اخرج إلىَّ وسيغفر لك الرب خطاياك».

وقد سمى هذا الرجل بذلك الاسم، لنجاته بمعجزة من المصير الذى حاق بقورح وجماعته.. فاسمه "أون" معناه "التائب"، أما اسم أبيه "فالت" فيعنى "معجزة". أما اسمه الحقيقى فكان "نموئيل بن آلياب"، وكان شقيقاً لداثان وأبيرام.

* * *

وكان الأكثر إعجازاً من نجاة "أون"، هو نجاة أبناء "قورح" الثلاثة. فعندما تثاءبت الأرض وفتحت فاها لتبتلع "قورح" وجماعته، صاح أبناء

"قورح": «النجدة! الغوث! أغثنا يا موسى!».

وعند ذلك قالت الشكينة:

«لو تاب هؤلاء الرجال، فسينجون.. أريد التوبة وليس سواها».

وكان أبناء "قورح" يريدون ثلاثتهم أن يتوبوا، لكنهم لم يستطيعوا فتح أفواههم إذ كانت النار تستعر من حولهم، والجحيم فاغر فاه من تحت أقدامهم. لكن الرب رضى بعزمهم التوبة فأرسل - على أعين بنى إسرائيل جميعاً - عموداً ألقوا بأنفسهم عليه فارتفع بهم من الجحيم.. فجلسوا عليه يسبحون الرب ويحمدونه بترانيم أعذب من أى تسابيح ترنم بها البشر من قبل، حتى إن موسى وجميع الشعب أنصتوا لهم فى شغف.

كما أنعم الرب عليهم بأن منحهم موهبة النبوة فتكلموا فى ترانيمهم بأحداث ستقع فى العالم فى المستقبل.

وقالوا: «لا تخف من اليوم الذى فيه سيقبض الرب على أطراف الأرض فيهزها ليسَّاقط الأشرار منها».. لأن المتقين سيثبتون حينئذٍ بعرش المجد ويحتمون بظل الشكينة..

لا تخافوا، أيها المتقون، من يوم الدينونة.. لأن دينونة الخطاة لن يكون لها عليكم سلطان، مثلما لم يكن لها علينا من سلطان عندما هلك الآخرون ونجونا».



بـراءة هـارون

بعد موت أتباع "قورح" المئتين والخمسين بالنار السماوية فى الهيكل.. أُمِرَ "إلعازار" بن هارون «بأن يجمع مباخرهم من الحريق» وأن يصنع من هذه المباخر النحاسية غطاءً للمذبح.

وقد كُلِّف "إلعازار"، وليس أبوه هارون الكاهن الأكبر، بذلك..

حيث قال الرب:

«إن المباخر كانت سبباً فى موت اثنين من أبناء هارون.. لذا فليكن الثالث هو الذى يجلب المباخر الآن ويكفِّر عن ذنوب العصاة».

وكان الغرض من صنع غطاء للمذبح من هذه المباخر:

«تذكير بنى إسرائيل على الدوام بأنه لا يجوز لأى غريب ليس من أبناء هارون أن يقترب من المذبح ويحرق عليه البخور من أجل الرب».

فإن فعلها أحد ـ غير أبناء هارون وذريته ـ فلن يعاقب بمثل ما عوقب به "قورح" وجماعته، ولكن بما عوقب به موسى.. أى بالبَرص.

وقد عوقب بهذه العقوبة الملكُ "عُزَيًّا» الذى حاول تقريب البخور قائلاً إن الملك ملتزم بأداء هذه الخدمة "لملك الملوك". فلما اقترب أسرعت السماء لترسل نارها فتحرقه ـ كما حدث مع المئتين وخمسين رجلاً.. وهرولت الأرض لتبتلعه، كما ابتلعت "قورح" وجماعته..

لكن هتف هاتف سماوى قائلاً:

«لن يعاقب أحد غير قورح وبطانته بهذه العقوبة. أما هذا الرجل فستكون عقوبته هى البرص».

ومن هنا أصبح الملك "عُزّيا" أبرص.

* * *

لكن.. لم يَحُلَّ السلام على المخيم بعد هلاك "قورح" ومن كان معه. ففى اليوم التالى مباشرة، ثار تمرد ضد موسى وكان أعنف وأخطر.. فعلى الرغم من أن الناس قد أيقنوا أن كل ما حدث إنما حدث بإرادة الرب، فإنهم قد ألقوا باللائمة على موسى بزعم أن الرب إنما فعل ذلك من أجله، ولذا فهو المسئول عن كل ذلك العنف والخراب الذى وقع بالمخيم.. وليس المسئول عن ذلك - فى نظرهم - معاصى هؤلاء العصاة الهالكين..! كما اتهموه بأنه تسبب فى مصرع كثير من نبلائهم، لكى لا يجرؤ أحد من الشعب بعد ذلك على محاسبته أو مراجعته فى أى شىء، أو ينازع أخاه هارون فى رياسته ومنصبه.

وهبَّ أقارب الذين هلكوا يثيرون الناس ويؤلبونهم على الثورة ضد موسى ووضع حدٍّ لحبه للسلطة.. زاعمين أن سلام الشعب ورفاهه يتطلب ذلك. وقد أثار عليهم تمردهم ذلك سخط الرب إلى درجة أنه أراد إهلاكهم جميعاً.. بل إنه أمر هارون وموسى بالابتعاد عن جماعة الشعب لكى يهلكهم على الفور.

وعندما رأى موسى أن الرب غاضب من الشعب إلى هذه الدرجة.. هرول إلى أخيه هارون وقال له:

«خذ جمرتك وضع فيها البخور واذهب إلى المذبح فأحرق عليه البخور تكفيراً عن الشعب.. لكيلا يهلكهم الرب ويبيدهم جميعاً..!».

وقد تعلَّم موسى هذا الدواء من ملاك الموت نفسه، عندما كان مقيماً فى السماء ليتعلم التوراة. وكان موسى فى ذلك الوقت قد تلقَّى هدية من كل ملاك، وكانت هدية ملاك الموت له أن كشف له عن سر قدرة البخور على إنقاذه من الهلاك. كما أراد موسى من ذلك أن يتخلى الناس عن تشاؤمهم من البخور والاعتقاد بأنه «لا يجلب إلا الموت»، لأنه تسبب من قبل فى إهلاك "ناداب" و"أبيهو"، بالإضافة إلى أتباع "قورح" المئتين والخمسين.

لكن هارون لم يفطن إلى مراد موسى...

وقال لموسى فَزِعاً:

«يا مولاى موسى.. هل تريد إهلاكى؟ إن وَلَدىَّ قد احترقا لأنهما جلبا ناراً غريبة إلى المباخر.. فهل أجلب أنا الآن ناراً مقدسة من المذبح لأحملها إلى خارجه؟ لو فعلت ذلك، فسألقى حتفى بكل تأكيد!!».

فأجابه موسى: «هيا أسرع فافعل ما أمرتك به.. فبينما أنت تقف هنا وتجادلنى، يموت الناس».

فأسرع هارون ينفذ ما أمر به قائلاً: «حتى لو كان فى ذلك هلاكى، فإنى لا أتأخر فيما فيه فائدة لبنى إسرائيل».

فى تلك الأثناء، كان ملاك الموت يحصد الشعب حصداً، كما يحصد الحاصد بمنجله صفوف القمح واحداً بعد الآخر.. فلا يُفْلت المنجل عوداً إلا أطاح به. وظهر هارون فى المشهد وهرول فوقف بين صفوف القتلى وصفوف الأحياء، وقد أمسك مبخرته فى يده والبخور يتصاعد منها.. فتوقف ملاك الموت عن القتل رغماً عنه.

وقال ملاك الموت لهارون:

- «إليك عنى ودعنى أتابع عملى الذى أمرنى به الرب.. بينما لم يأمرك بما تفعل الآن إلا بشر من لحم ودم..!».

لكن هارون لم يستسلم ورد قائلاً:

«إن موسى لم يأمرنى بما أفعله الآن.. إلا لأن الرب قد أمره بذلك. وإن كنت لا تصدقنى، فهاهما، موسى والرب، الآن فى الهيكل.. فتعال بنا نحتكم إليهما». لكن ملاك الموت رفض اقتراح هارون ولم يتزحزح عن مكانه، فأسرع هارون فوضع المبخرة تحت ذقن الملاك وأمسك به من قفاه فجره جرّاً إلى الهيكل.. فحبسه فيه، فتوقف القتل.

* * *

وبهذه الطريقة سدَّد "هارون" لموسى ديناً قديماً.

فبعد ما عبد الناس العجل الذهبى ـ وهى الخطية التى كان لهارون يَدٌ فيها ـ قرر الرب إماتة أبناء هارون الأربعة لولا أن هرول موسى فدعا الرب فأمات اثنين وأبقى على اثنين ـ وهاهو هارون الآن قد وقف بين صفوف الأموات والأحياء فأنقذ جمعاً غفيراً من بنى إسرائيل من الموت.

* * *

ومن عطف الرب وكرمه شاء أن تظهر الحقيقة ويقتنع الناس بحق هارون فى تولى منصب الكهانة العظمى.. فقد أمر الربُّ موسى بأن يأخذ قضيباً من خشب فيقسمه إلى اثنى عشر قضيباً يسلم كل واحد منها لأحد أمراء الأسباط لكى يكتب اسمه على القضيب بيده، ثم وضع القضبان جميعاً أمام الهيكل حتى صباح اليوم التالى.

وفى الصباح وجد الناس القضيب الذى يحمل اسم هارون ـ أمير سبط لاوى ـ وقد كُتِبَ عليه "الاسم الأعظم" فاخضر وبزغت براعمه ونبتت فيه اللوزات والنَّوار.

وعند ذلك تيقن الشعب أن الرب قد اختار بيت هارون وحده للكهانة.

مياه «مريبَة»

حدث تمرد "قورح" أثناءِ إقامة بنى إسرائيل فى "قَادَش ـ بَرْنيع"، وقد ظلوا مقيمين فيها طوال تسع عشرة سنة، ثم هاموا بعدها لمدة مماثلة فى الصحراء يرتحلون من مكان إلى آخر دون هدف. وعندما انتهى أخيراً الوقت الذى قدره الرب لبقائهم فى الصحراء، ومات الجيل الذى كُتِبَ عليه الموت فيها، عاد بنو إسرائيل مرة أخرى إلى "قادش" فرحين بعودتهم ثانية إلى ذلك المكان الذى أحبوه وارتبطوا به من طول الإقامة فيه من قبل.. وتوقعوا أن يقضوا فيه زمناً آخر بهيجاً ممتعاً.

لكن كانت النبية "ميريام" تحتضر ثم سرعان ما ماتت، فكان لموتها تأثير على جميع أفراد الشعب.. من أتقاهم إلى أشقاهم. وكانت "ميريام" هى المرأة الوحيدة التى تموت أثناء زحفهم فى الصحراء، وقد كان ذلك لسببين..

أولهما: أن "ميريام" كانت قائدة للشعب مع أخويها "موسى" و"هارون"، وحيث أنه لم يكتب لهم دخول الأرض الموعودة، فكان عليها أن تموت الآن مع اقتراب بنى إسرائيل من دخول الأرض.

وثانيهما: أن العين التى تسمَّت باسمها كانت هبة من الرب لبنى إسرائيل طوال سيرهم فى الصحراء، ولما كان بنو إسرائيل على وشك الدخول إلى الأرض المقدسة، فلن يكون هناك حاجة للعين.. ولا للمرأة التى تحمل العين اسمها.

وما كادت "ميريام" تموت، إلا وجفت العين ونضب ماؤها وعم الجدب، فعلم بنو إسرائيل وأيقنوا أن الماء الغزير الذى كان ينعمون به، إنما كان كرامة لهذه النبية الصالحة.

وبينما كان موسى وهارون مشغولين بالحزن لموت أختهما، اقترب منهما جماعة من الشعب..

فسأل موسى أخاه:

«ترى.. ما الذى جاء بهؤلاء إلينا؟».

أجابه هارون:

«إن بنى إبراهيم وإسحاق ويعقوب طيبون وأبناء طيبين؛ لا شك أنهم قد جاءوا ليواسونا فى مصابنا».

فرد موسى ساخراً:

«يبدو أنك لا تقدر على التمييز بين جماعة تسير فى موكب منظم، وأخرى تسير فى هرج ومرج!! لو كان هؤلاء قد جاءوا لمواساتنا لكانوا ساروا فى طوابير يقُودها أمراؤهم وشيوخ عشائرهم.. لكن انظر إليهم! إنهم يعدون نحونا كالمجانين!!».

ولم تَطُل حيرة الأخوين كثيراً..

اقترب منهما الناس وقالوا لهما فى غضب:

«فى البداية مات أربعة عشر ألفا وسبعمئة من رجالنا بالوباء، فقلنا نصبر.. ثم ابتلعت الأرض فريقاً منا فقلنا نصبر.. ثم أحرقت النار السماوية فريقاً منا راح يقرِّب البخور، فقلنا نصبر، رغم أن غطاء المذبح يذكِّرنا كل حين بفجيعتنا فيهم.. لكن أبعد كل هذا نهلك عطشاً!؟ ألا ليتنا كنا متنا معهم!!».

وفى بداية الكلام كانوا يعنِّفون موسى وحده، ثم انقلبوا على هارون هو الآخر وقالوا للأخوين:

«فى البداية، كنا كلما شكونا لكما من المصائب التى تنهال على رؤوسنا، كنتما تقولان لنا إن ذلك إنما كان بسبب وجود الخطاة والآثمين بيننا.. لكن. ها نحن قد صرنا كلنا «جماعة الرب»، كما تقولان، فلماذا جئتما بنا إلى هذا المكان القفر الذى لا يقدر مخلوق على العيش فيه؟ ولماذا لا تدعوانِ لنا الرب فيرحمنا ويجلب لنا الماء، بعدما نضبت عين "ميريام" بعد موتها!؟».

ولم يغضب الرب من كلامهم، ولا غضب منه كذلك هارون وموسى - فهما يعلمان أنهم فى كرب شديد وأن العاقل ينبغى عليه ألا يحاسب المكروب على كلام قاله فى وقت شدته..

وهرول هارون وموسى إلى الهيكل وأخذا يدعوانِ الرب ليفرِّج عن الشعب كربه.. فقال لهما الرب:

«أتقفانِ هنا تدعوانى، بينما يموت الناس من شدة العطش!!». ثم أمر موسى بأن يأمر الصخر فتنفجر منه المياه.. لكنه شدد عليه بألا يخرج منه سوى الماء، وألا يخرج زيتاً أو عسلاً، وفى ذلك ما يدل على قدرة الرب الذى لا يقدر على أن يخرج من الصخر ما خزِّن فيه وحسب، وإنما يقدر كذلك على تفجير المياه منه، والمعلوم أن المياه لا توجد فى الصخور أبداً. كما أن الرب أمر موسى "بالكلام" إلى الصخر، وليس "بضربه بعصاه" كما اعتاد أن يفعل..

وقال الرب:

«لست فى حاجة لأن تضرب الصخر بعصاك لينفجر منه الماء.. بل إن سجايا أولئك الراقدين فى «كهف المكفيلة» تكفى وحدها لسقيا ذريتهم بالمياه العذبة».

وهرول موسى وهارون إلى الهيكل حيث أحضر موسى عصاه ثم خرجا متوجهين نحو الصخور، وتبعهما كل الشعب، وكانوا يتوقفون من آن لآخر عند كل صخرة يقابلونها، ظنّاً منهم أنها هى التى ستتفجر بالمياه.

ثم بدأ الساخطون يؤلبون الناس على موسى وهارون..

قائلين: «ألا تعلمون أن ابن عمرام كان فى يوم من الأيام راعياً على غنم "يثيرون"، ولذا فهو يعلم - لأنه راعى غنم - جميع الأماكن التى توجد فيها المياه؟

سيحاول موسى الآن أن يقودنا إلى مكان يعلم أن فيه الماء، ثم يقول لنا أنه قد جلب منه الماء «بمعجزة من الرب»!! ولئن كان حقّاً قادراً على إخراج المياه من أى صخرة، فليفجرها لنا إذاً من أى صخرة نحددها نحن له».

وقد كان بإمكان موسى أن يفعل ذلك..

إذ أن الرب أمره قائلاً:

«أخرج لهم المياه من أى صخرة يريدون».

لكنه عندما التفت وراءه ورآهم قد تحلقوا فى مجموعات، حول الصخرة التى تريدها كل مجموعة، أشار إليهم جميعاً بأن يتبعوه إلى حيث الصخرة التى يحددها هو..

لكنهم تذمروا قائلين فى غضب:

«بل أخرج لنا الماء من الصخور التى اخترناها، وإلا فلا تفعل».



غضب موسى يجلب عليه الوبال

طوال أربعين عاماً، جاهد موسى كثيراً ليمنع نفسه من مخاطبة الشعب بأسلوب عنيف، عالماً أنه لو فقد السيطرة على أعصابه - ولو لمرة واحدة - فإن الرب سيقضى عليه بالموت فى الصحراء. لكن صبره نفاد بعد كل هذه السنين وفقد السيطرة على أعصابه.

وصاح فى الناس قائلاً فى غضب شديد:

«أيها الحمقى وغليظى الرقبة! يا من تريدون تعليم معلمكم وتقذفون قادتكم بسهامكم..! هل تظنون أننا سنستطيع إخراج الماء من هذه الصخرة التى اخترتموها؟ أقسم أننى لن أخرج الماء إلا من الصخرة التى اخترتها أنا؟».

ولم يكون يوجِّه هذه الكلمات لجماعة قليلة من الشعب، وإنما للشعب كله.. فقد اتسعت المساحة الصغيرة الموجودة أمام الصخرة - بمعجزة من الرب - لجميع أفراد الشعب. وأنساه غضبه نفسه فضرب الصخرة بعصاه - بدلاً من أن يأمرها بالكلام كما أمره الرب - فلم تخرج منها إلا بضع قطرات من الماء..!

عند ذلك صاح به المستهزئون ساخرين: «انظروا ماذا جلب لنا ابن عمرام؟ ترى... هل أخرجت لنا هذه القطرات لفطم صغارنا؟!».

فاشتد غضب موسى وضرب الصخرة بعصاه ثانية، فتدفق منها تيار قوى من المياه جرف كثيراً من الناس وقضى عليهم.. كما تفجرت صخور

وحجارة الصحراء بالمياه.

وعند ذلك قال الرب لموسى:

- «أنت وهارون لا تصدِّقانى.. لقد نهيتك عن ضرب الصخرة، ولكنك ضربتها.. إنك لم تقدسنى فى أعين بنى إسرائيل لأنك لم تخرج لهم الماء من الصخرة التى يريدونها.. وقد عصيتنى إذ قلت لهم: «هل تظنون أننا سنستطيع إخراج الماء من الصخرة التى اخترتموها؟».. ثم فعلت عكس ما أمرتك به، إذ لم تتكلم إلى الصخرة كما أمرتك. لهذا فإننى أقسم الآن أنك لن تقود هذه الجماعة إلى الأرض التى أعطيتها لهم.. ولن تقودا بنى إسرائيل إلى الأرض المقدسة «إلا فى زمن المسيا»..»

أطرق موسى برأسه إلى الأرض خجلاً..

فأضاف الرب:

«كان ينبغى عليك أن تتخذ مما حدث مع «إسماعيل» عبرة لك، فتكون أكثر ثقةً وإيماناً بى.. لقد فجرت له الماء فى الصحراء، وما كان سوى نفس بشرية واحدة، وذلك كرامةً لأبيه إبراهيم.. فكيف إذاً بكل هؤلاء الذين قبلوا التوراة وأطاعوا كثيراً من أوامرى..؟ بل كان عليك أن تتعظ مما حدث معك أنت نفسك وتكون أكثر إيماناً بحكمتى فى اختيارك أنت لتقود بنى إسرائيل.. عندما قلت لى فى "رفيديم": «إنهم يكادون يقذفوننى بالحجارة» ألم أقل لك ساعتها: «لماذا تتهم أطفالى ظلماً وتسىء الظن بهم؟ اذهب فاضرب بعصاك الحجر على أعين الشعب ليتفجر الحجر بالماء..» .. فإذا كنتُ قد صنعت لهم هذه المعجزة وهم لَمَّا يقبلوا التوراة بعد، أما كان ينبغى عليك أن تدرك كم من المعجزات سأصنعها لهم الآن بعدما قبلوا التوراة؟».

«إن الرب ليصطاد الحكيم بحكمته..».

لقد قرر الرب قبل هذا الوقت بكثير أن يموت موسى فى الصحراء،

وما كانت خطية موسى فى "قادش" إلا ذريعة استعملها الرب، لكيلا يبدو قراره ظالماً. لكنه أوضح لموسى السبب الحقيقى لعدم الإذن له بدخول الأرض الموعودة..

إذ قال له الرب: «ألن يسىء لسمعتك أن تقود جيلاً جديداً إلى الأرض الموعودة، بعدما أخرجت من مصر ستمئة ألف لتدفنهم فى الصحراء؟ لو فعلت ذلك، لقال الناس أن جيل الصحراء ليس له نصيب فى العالم الآتى.. لذا فابق معهم لكى تقودهم فتدخل بهم الأرض الموعودة بعد البعث».

فقال موسى للرب: «لقد قضيت علىَّ بأن أموت فى الصحراء، مثل جيل الصحراء الذين أغضبوك. لذا فإننى أتوسل إليك أن تكتب فى توراتك سبب عقابك لى، لكيلا تقول الأجيال فى المستقبل إننى قد عصيتك وأغضبتك مثل جيل الصحراء». وقد استجاب الرب لطلبه ولذا فإنه توجد نصوص كثيرة فى التوراة تذكر المعصية الحقيقية التى قضى الرب بسببها على موسى بالموت فى الصحراء. ولم يكن ذلك إلا بسبب معصيته عند "قادش" حينما فشل موسى فى تقديس الرب فى أعين بنى إسرائيل، وتقدس الرب بتطبيقه للعدالة بصرف النظر عن الأشخاص. ولهذا فإن ذلك المكان قد دُعِىَ "قادش" أى "القداسة".. كما دعى "عين مِشْفاط" أى "عين العدالة"، لأنه فى هذه البقعة حُكِم على موسى، وبهذا الحكم تقدس اسم الرب.

ولأن الماء كان هو السبب فى عقاب موسى، فإن الرب لم يقل إن ما خلقه فى اليوم الثانى لبدء الخليقة «كان جيداً».. لأنه خلق الماء فى ذلك اليوم، ولذا فإن ما تسبب فى موت موسى «ليس جيداً».

وبالرغم من أن موت موسى كان عقوبة لا تتناسب مطلقاً مع حجم معصيته، فإن ما كان أقسى منه هو الحكم بموت هارون هو الآخر فى البرية دون دخول الأرض المقدسة.. وإن كان هارون قد رضى بقضاء الرب كعادته.. فشكر له موسى والرب ذلك.

عدوانية «أدوم»

من مكانه فى "قَادَش"، أرسل موسى سفراء إلى ملك "أدوم" يستأذنه فى المرور بأراضيه قائلاً لنفسه:

«إن جدى يعقوب عندما خطط للعودة إلى بيت أبيه.. والذى لم يكن ضمن أملاك "عيسو" - أرسل من قبله رسولاً إلى "عيسو" ليستأذنه فى المرور عبر أراضيه. إذاً، فكم هو حرى بنا، ونحن ألوف مؤلفة، ألا ندخل أراضى "أدوم" قبل استئذانه».

لذا فقد أرسل موسى سفراءه ليحملوا إلى ملك "أدوم" الرسالة التالية:

«من أيام أبينا إبراهيم كان علينا - نحن بنى إسرائيل وأنتم بنى عيسو - دين لابد أن نسدده.. إذ كتب عليه الرب أن تستعبد ذريته فى مصر وتعذب. ولقد كان تسديد هذا الدَّين لزاماً عليكم، وعلينا، وأنت لابد تعلم أننا قد سددنا ما يخصنا منه. وكما تعلم فإن الرب قد وعد أبانا إبراهيم بأن ذريته التى استعبدت فى مصر ستحصل على «كنعان» مكافأة لهم. لهذا فإن أرض "كنعان" ملك لنا نحن الذين كنا فى مصر، كما أن لكم - أنتم الذى أُعفيتم من سداد هذا الدين - نصيب فى هذه الأرض. لذا دعنا نمر فى أرضكم حتى نصل إلى أرضنا.. ولتعلموا كذلك أن الآباء فى قبورهم يتعاطفون معنا، من أجل ما عانيناه فى مصر، وأننا عندما دعونا الرب استجاب لنا وأرسل لنا واحداً من ملائكته المستوزرين ليخرجنا من مصر. لذا فلا تظننَّ أن

أسلحتكم ستجديكم نفعاً إذا كان الرب فى صفنا، وهو فى صفنا وسينصرنا عليكم - إن فكرتم فى حربنا - لأن هذا ميراثنا المستحق لنا، ولأن "دعاء يعقوب" لا يضيع سُدًى أبداً.

وإن كنتم تخافون من أن نسبب لكم الفوضى والقلاقل أثناء عبورنا أراضيكم، فها أنا ذا أعدكم بأننا سنشترى الماء والطعام منكم لكى تستفيدون من عبورنا».

ولم يكن موسى إلا جاداً فى وعده، لأنه كان قد طلب من الناس أن ينفقوا فى سخاء أثناء عبورهم أراضى "أدوم"، لكيلا يظن أهل هذه البلاد أنهم مجرد عبيد فقراء لا يملكون شيئاً. كما وعده موسى كذلك بأن يضع اللُّجَم على أفواه الماشية، لكيلا تتلف شيئاً من زرع الأدوميين.

ثم اختتم موسى رسالته قائلاً:

«بحسب أمر الرب لنا، فإننا قد نضرب إلى اليمين أو إلى الشمال من أرضكم لكننا لن نمسَّ شيئاً من ممتلكاتكم».

* * *

لكن لم تجِد مناشدات موسى وتهديداته نفعاً..!

فقد رد ملك "أدوم" على رسالة موسى قائلاً:

- «إن كنت تعتمد على ميراثك، وهو "دعاء يعقوب" الذى لا يُرَد، فإننا نعتمد على ميراثنا، ألا وهو «سيف "عيسو" ويده».

وعند ذلك وجد بنو إسرائيل أنفسهم مضطرين إلى التخلى عن محاولة الوصول إلى أرضهم مروراً بأرض "أدوم".. ليس خوفاً من الأدوميين، وإنما لأن الرب قد حرَّم عليهم محاربتهم، حتى من قبل أن يصلهم رد ملك "أدوم".

* * *

إن صحبة الشقى تجلب الشقاء..

فعند حدود "أدوم" فقد بنو إسرائيل "هارون" ودفنوه على جبل "هور"..
كما كانت الغمامة التى تظللهم تسوى لهم جميع الجبال حتى يسيروا على أرض مستوية، لكن الرب أبقى على ثلاثة جبال: جبل سيناء حيث تنزل الوحى، وجبل "نبو" حيث دفن موسى؛ وجبل "هور" حيث دفن "هارون"، وكان جبلاً ذا قمة مزدوجة.



الرعاة الثلاثة

مات هارون بعد موت أخته بأربعة أشهر، بينما مات موسى بعدها بعام تقريباً. فقد ماتت "ميريام" فى أول يوم من شهر نيسان، بينما مات موسى فى اليوم السابع من شهر "آذار"، فى نفس العام. وبالرغم من أنهم لم يموتوا جميعاً فى نفس الشهر، فإن الرب قال عن موتهم:

- «وسأقطع خبر هؤلاء الرعاة الثلاثة فى نفس الشهر».

لأنه كان قد قرر أن يموتوا ثلاثتهم فى شهر واحد.

ومن عادة الرب أن يقسم الناس إلى مجموعات متشابهة، ولذا فلم يقرر موت هؤلاء الثلاثة التقاة مع جيل الخطاة الهائمين فى الصحراء، لكن بعدما مات هذا الجيل الخاطئ، صُدِّق على موت الثلاثة.. فماتت "ميريام" أولاً، ثم لحق بها أخواها كنتيجة مترتبة على موتها.

* * *

اغتم الجميع لموت "ميريام" وطغى عليهم الحزن، فبكى عليها موسى وهارون فى خيمتيهما، بينما ناح الناس عليهما فى الشوراع. وظل موسى ست ساعات بعد موتها وهو لا يعلم باختفاء عين الماء مع موت أخته..

إلى أن جاءه بنو إسرائيل وقالوا له:

- «إلى متى ستجلس هكذا تبكى وتنوح؟!».

فرد فى أسى:

- «أفلا أبكى وأنوح على أختى التى ماتت؟».

فقالوا له:

- «بدلاً من أن تبكى على روح واحدة، ابكِ على أرواحنا جميعاً؟».

فسألهم موسى فى دهشة:

- «ولِم!؟».

فأجابه الناس نائحين:

- «ما عاد لدينا ماء نشربه!!».

فخرج لهم موسى وذهب إلى العين فنظر فيها فلم يجد بها ماءً، فبدأ يتشاجر معهم.. وقال لهم فى حدة:

- «ألم أقل لكم إننى لن أحتمل قيادتكم بمفردى؟ إن لديكم قُوَّاد آلاف وقواد مئات وقواد عشرات وأمراء ورؤساء شيوخاً وكبراء.. دعوهم إذاً فليهتموا بأموركم!».

لكنهم أجابوه فى غضب:

- «لكنها مسئوليتك أنت! فأنت الذى أخرجتنا من مصر لتأتى بنا إلى هذا المكان المقفر الذى لا زرع به ولا ماء! فإما تدبِّر لنا حاجتنا من الماء، وإلا رجمناك!!».

وعندما سمع موسى ذلك فر منهم وهرول مسرعاً إلى الهيكل.

وهناك سأله الرب:

- «ما بك؟».

فأجابه موسى:

«يارب العالم.. إن أطفالك يريدون رجمى بالحجارة، ولولا أنِّى فررت منهم لكانوا قد قتلونى رجماً الآن!!».

فرد الرب قائلاً:

- «يا موسى.. ألن تكفَّ عن اتهام أطفالى بالباطل؟ ألا يكفى أنك قلت لى فى "حوريب" «إنهم يكادون يرجموننى بالحجارة»، فقلت لك ساعتها: «فاخرج لهم إذاً ولْنَرَ إن كان واحد منهم يجرؤ على ذلك»!... هيا اذهب فاجمع الناس من حولك وخذ عصاك وأخاك هارون معك، ثم تكلم إلى الصخرة أمامهم جميعاً، لتتفجر بالمياه».

* * *

ذهب موسى ومعه جميع الشعب، ليبحث عن الصخرة التى يجب أن يتفجر الماء منها، إذ كانت الصخرة التى كانت تنبع منها "عين ميريام" قد اختفت مع موتها.. ولم يكن يعلم أى صخرة أرادها الرب بكلامه. وفى طريقهم وجدوا صخرة تتقاطر منها المياه فتوقفوا أمامها. وعندما رآهم موسى قد توقفوا، التفت وهم بمواصلة السير.

فسألوه:

«إلى متى ستقودنا هكذا؟».

فأجابهم:

- «حتى أخرج لكم الماء من الصخرة؟».

فقال الناس:

- «بل أخرج لنا الماء حالاً، لنشرب ونرتوى».

فرد موسى مغتاظاً:

- «إلى متى تتذمرون وتتاكفوننى؟! هل هناك مخلوق فى الكون كله يحتج

ويتذمر ضد خالقه مثلما تفعلون..! وهذا بينما أنتم موقنون بأن الرب سيخرج لكم الماء من الصخر، حتى لو كنت أنا لا أعلم من أى صخرة!!».

فأجابه الناس فى دهشة:

- «أتكون نبيّاً وراعياً لنا طوال سيرنا فى الصحراء، ثم تقول لنا إنك لا تعلم من أى صخرة سيخرج الماء!!».

عندئذٍ جمعهم موسى حول إحدى الصخور، قائلاً فى نفسه:

«لو أمرتُ الصخرة الآن فإن تخرج الماء فلم تفعل، لسخروا منى واستهزأوا بى وقالوا لى: "أين نبوتك يا نبى!!"».

ثم قال موسى للناس:

- «تعلمون أن المرء لا يعرف شيئاً إلا أن يعرِّفه الرب به، ولن تجدى حكمته ونبوته نفعاً طالما الرب لم يُرِدْ له أن يعرف».

ثم رفع عصاه فى بطء قائلاً (وكأنه يكلم الصخرة):

- «هل نخرج لكم الماء من... هنا!!».

فبدأ الماء يخرج من الصخرة، فضربها موسى بعصاه فتوقف خروج الماء.. وخرج بدلاً منه دم..!

فاشتكى موسى للرب...

فقال الرب للصخرة:

- «لماذا لم تخرجى الماء وأخرجت بدلاً منه الدم!؟».

فقالت الصخرة:

- «لماذا ضربنى موسى بعصاه؟ ألم تأمره بأن يتكلم إلى فقط ولا يضربنى؟».

فقال الرب لموسى:

- «ألم آمرك بالكلام إلى الصخرة، وليس بضربها؟».

فأجابه موسى:

- «لكننى حدثتها فلم تخرج الماء».

فقال الرب لموسى:

- «أما علَّمت بنى إسرائيل «أن يحكموا على جيرانهم بالعدل»؟ فلماذا إذاً لم تحكم على هذه الصخرة بالعدل؟ وهى التى آوتك فى مصر وأخرجت لك العسل، ولم تكتفِ بذلك وإنما رحت تصف شعبى بأنهم حمقى وأغبياء!! فإذا كنت حقّاً حكيماً، كما تزعم، فكيف لك أن تتعامل مع أناس "أغبياء وحمقى"؟ لهذا كله فلن تعرف أنت - ولا هم - أرض إسرائيل. أجل.. لن تضع أنت - ولا أختك ولا أخوك - قدميك على أرض إسرائيل».

لأن الرب حذر موسى وهارون - حتى وهما فى مصر - من أن يصفا بنى إسرائيل بالحمقى والأغبياء.. بينما راح موسى - وهارون يسمع ولا يعترض - يصفهم بذلك عند "قادش".. ولذا فقد كتب عليهما الموت عقاباً لهما على ذلك.

ثم التفت الرب إلى الصخرة وقال:

- «حوِّلى دمك إلى ماء».

ففعلت.



إعداد هارون لموته الوشيك

من نِعَم الرب على المتقين أنه يخبرهم بيوم موتهم، لكى ينقلوا تيجانهم إلى أبنائهم. وهكذا فقد رأى الرب أنه من اللائق - على وجه الخصوص - أن يخبر هارون وموسى بيوم وفاتهما..

وقال الرب لنفسه:

- «إن هذين الرجلين التقيين لم يفعلا شيئاً طوال حياتهما دون استشارتى، لهذا فلن آخذهم من هذا العالم قبل أن «أعلمهما باليوم الذى يموت فيه كل منهما»، ولذلك ، فعندما قرُب أجل هارون..

قال الرب لموسى:

«يا عبدى موسى.. يا من كنت "مخلصاً لى فى كل بيتى".. إن لدىّ شيئاً أريد أن أحدثك به.. لكننى لا أعرف من أين أبدأ ولا كيف أقول..».

فسأله موسى:

- «وما ذاك يارب؟».

فقال الرب:

- «هارون سيجمعُ إلى قومه.. لأنه لن يدخل إلى الأرض التى أعطيتُها لبنى إسرائيل لأنك تذمرت ضد كلمتى عند مياه "مَرِيبة" . ».

فأجابه موسى:

- «يارب العالم.. إنه لجلىٌّ وبيِّنٌ أمام عرش مجدك أنك أنت إله الكون كله وإله كل المخلوقات التى خلقتها أنت فيه.. ولذا فنحن ملك يدك وبيدك أن تفعل بنا ما تشاء. لكننى لا أرانى أقدر على الذهاب إلى هارون، أخى الأكبر، لأقول له: «اذهب إلى جبل هور لتموت هناك».

فقال له الرب:

«لن تخبره بذلك بالكلام.. بل خذ "هارون" و"ألعازار" ابنه واذهب بهما إلى جبل "هور".. واصعد أنت أيضاً معهما على الجبل ثم كلِّمه بكلام لطيف جميل يجعله مستعداً للمصير الذى ينتظره.. ثم بعدما يكون ثلاثتكم فوق الجبل، انزع ثياب هارون عنه وألبسها لابنه "ألعازار" - وسوف ينضم هارون إلى قومه، ويموت هناك. فاصنع بى معروفاً وأعد هارون لموته، فأنا خجلان منه ولا أستطيع إخباره بذلك بنفسى»!!!.

وعندما سمع موسى ذلك اغتم كثيراً وأحس بثقل فى قلبه، وبكى بكاءً حاراً مريراً كاد يودى بحياته هو نفسه. لكن ولأنه خادم أمين مطيع للرب، فما بقى له من شىء ليفعله، سوى أن ينفذ أمر سيده، ولذا فقد أخذ هارون وذهب به إلى الهيكل ليخبره بموته الوشيك.

* * *

كان من عادة بنى إسرائيل، طوال مكثهم فى الصحراء لأربعين سنة، أن يتجمعوا كل يوم أمام شيوخهم الذين يقودونهم ليذهبوا إلى أمراء الأسباط، ثم يذهبوا جميعاً إلى هارون وابنه "ألعازار" ليأخذهما ويذهبوا جميعاً إلى موسى.. ليحيوه تحية الصباح.

ثم غير موسى هذه العادة..

فعند الفجر، وبعدما قضى الليل كله فى البكاء، استدعى "ألعازار" فحضر إليه ثم قال له موسى:

- «اذهب فأحضر لى الشيوخ والأمراء، فلدىّ أمر من الرب لأخبرهم به».

فلما حضر إليه الشيوخ والأمراء صحبهم وذهب إلى هارون..

فلما رآهم هارون سأل موسى:

- «لماذا غيّرت عادتنا؟».

فأجابه موسى:

- «لأن هناك أمراً أمرنى الرب أن أخبركم به».

فقال هارون:

- «وما ذاك؟».

فأجابه موسى:

- «اصبر حتى نخرج».

فارتدى هارون ثياب الكهنوت الثمانية وخرج كلاهما معاً.

* * *

كان من عادة موسى، كلما ذهب من بيته إلى الهيكل، أن يسير فى المنتصف وهارون عن يمينه و"ألعازار" عن شماله، والشيوخ على الجانبين، ثم يتبعهم الشعب من خلفهم. ثم عند الوصول إلى الهيكل، كان هارون يجلس عن يمين موسى، وألعازار عن شماله ويجلس الشيوخ والأمراء أمامهم.

لكن موسى غير العادة فى هذا اليوم.. فسار "هارون" فى المنتصف وموسى عن يمينه و"ألعازار" عن شماله، والشيوخ والأمراء على الجانبين، بينما الشعب كله من خلفهم.

وعندما رأى بنو إسرائيل ذلك، فرحوا وقالوا:

- لقد نال هارون الآن درجة أعلى من الروح القدس، فصار أعلى

مقارنة مع موسى، ولذا فقد جعله موسى يسير فى مكان الشرف، فى المنتصف».

وقد قالوا ذلك لأنهم كانوا يحبون "هارون" أكثر من حبهم لموسى.. إذ أن هارون، منذ أن جلب عليهم الوبال بمشاركته فى صناعة العجل الذهبى، جعل شغله الشاغل التكفير عن هذه الخطية..

فكان يذهب من بيت إلى بيت ليعلّم من لا يعرف تلاوة «الشماع».. وإذا وجد شخصاً لا يعرف كيف يصلى، كان يعلمه كيف يصلى.. وإذا وجد شخصاً لا يعرف كيف يدرس التوراة ويحفظها، علّمه ذلك.. لكنه لم يعتبر أن مهمته مقصورة على إعادة السلام بين الرب وبين بنى إسرائيل.. وبين المتعلمين وبين بعضهم البعض... وبين الجهال وبين بعضهم البعض.. بل وحتى بين الرجل وزوجته.

لهذا فقد كان بنو إسرائيل يحبونه كثيراً، وابتهجوا كثيراً عندما ظنوا أنه قد نال مكانة أعلى من مكانة موسى.

* * *

عندما وصلوا إلى الهيكل توقف موسى وقال لأخيه:

- «سنذهب الآن لما وراء المخيم».

فلما تجاوز حدود المخيم قال هارون:

- «قل لى الآن بم أمرك الرب».

فقال موسى:

- «ليس الآن.. حتى نصعد إلى الجبل».

ثم صحبه هو وألعازار ابنه وصعدوا الجبل، وأمر الناس بالبقاء عند سفحه.

موت هارون

كان موسى يريد إخبار أخيه بأنه يوشك أن يموت، لكنه لم يكن يدرى من أين يبدأ.

وقال موسى لأخيه:

- «ألم يستأمنك الرب على شىء يا هارون؟».

فأجابه هارون:

- «بلى.. المذبح والمنضدة التى يوضع عليها خبز التقدمة».

فقال موسى:

- «إذاً.. فلعله يطلب منك الآن أن ترد له أمانته».

فسأله هارون:

- «ما الذى تعنيه بذلك؟».

فسأله موسى: «ألم يستأمنك على نور؟».

فأجاب هارون:

- «بلى على أنوار الشمعدان السبعة المضاءة الآن فى الحرم».

فهز موسى رأسه مبتسماً، فلم يفهم هارون أنه يلمح إلى الروح التى هى «نور الرب»..

ثم غمغم موسى فى هدوء:

- «لقد كان الرب على حق عندما قال عنك إنك رجل طيب القلب سليم النية».

وبينما هما يتحدثان انفتح كهف أمامهما، فطلب موسى من أخيه أن يدخل إليه، فنفذ هارون على الفور طلب أخيه. ثم وقف موسى متحيراً.. فمن المفروض، كما أمره الرب، أن ينزع عن أخيه ثياب الكهانة ليلبسها لابنه "ألعازار".. لكن كيف؟

ثم قال لأخيه أخيراً: «اسمع يا هارون.. أرى أنك لابد أن تخلع عنك ثياب الكهانة قبل أن ننزل فى هذا الكهف.. فلربما تتسخ».

فوافق هارون على الفور.. وخلع موسى عن أخيه ثيابه ليلبسها لابنه.

وقد حدثت معجزة عظيمة إذ ذاك..

فلأنه لم يكن من اللائق أن يدفن هارون فى قبره عارياً، فقد كان، كلما خلع عنه موسى ثوباً من ثياب الكهانة، يُكْسَى بثوب سماوى.. كما أن موسى قد استطاع نزع ثياب أخيه الداخلية قبل الخارجية.. وتلك معجزة أخرى.. وذلك لأن الشريعة تحظر على الكاهن أن يلبس ثياب الكهانة كثياب داخلية.. وهو ما كان سيقع فيه ألعازار لو خلع موسى ثياب أخيه الخارجية وألبسها لابنه واحداً بعد الآخر.

بعد ذلك قال موسى وهارون لألعازار:

«انتظرنا هنا حتى نعود من الكهف».

ثم دخلاه معاً فشاهدا فيه أريكة قد وضعت ومائدة قد أعدت وشمعة قد أضيئت، والملائكة المستوزرين يحيطون بالأريكة.

ثم قال هارون لموسى:

- «إلى متى تخفى عنى الأمر الذى أمرك الرب أن تبلغنى به؟ لقد قال

لك الرب بنفسه من قبل أننى سيسرنى لقاؤك. وتنفيذ ما تطلب منى، أيّاً كان.. فلماذا إذاً لا تخبرنى! حتى لو كنت ستخبرنى بموتى، فإننى سأتلقى الخبر منك باشّاً هاشّاً».

فأجابه موسى: «طالما بدأت أنت فذكرت الموت، فإننى مأمور بأن أخبرك أنك ستموت الآن. لقد كنت متردداً ولا أدرى كيف أخبرك بذلك، لكن الآن بعدما شاهدتُ ما تشاهده الآن من الكهف، فإنى أقول لنفسى، ألا ليتنى مت مثل موتتك المتميزة!».

وعندما وصف موسى موتة هارون بأنها «متميزة»، فإنما كان يشير بذلك إلى حقيقة أن هارون ـ مثله مثل أخته «ميريام» وأخيه موسى ـ لن يموت بقبض ملاك الموت لروحه، وإنما بقبلة من فم الرب.

لكن هارون رد قائلاً فى جزع:

ـ «ولماذا لم تخبرنى يا أخى يا موسى فى حضور أمى وزوجتى وأطفالى؟».

فأجابه موسى:

ـ «يا هارون.. لقد قضى الرب عليك الموت منذ أربعين عاماً، عندما قدت الناس لعبادة العجل الذهبى ولولا أنى قد ناشدته من أجلك لكنت مُتَّ من حينها. ثم.. إننى لأتمنى أن أموت مثلك..! إذ عندما ستموت سيدفنك أخوك، أما أنا فلن أجد أخاً يدفننى عندما أموت.. كما أن ابنك سيرثك من بعدك، أما أنا فسيرثنى الغرباء».

وظل موسى يكلمه بكلام من هذا القبيل، حتى اطمأنت روحه وهدأ روعه وأصبح على استعداد لاستقبال الموت برباطة جأش.

ثم رقد هارون على الأريكة واستقبل الرب روحه، وغادر موسى الكهف الذى اختفى لكيلا يعرف أحد مكانه فلما رأى ألعازار عمه يخرج وحده، سأله:

- «أين أبى؟».

فأجابه موسى: «لقد دخل الجنة».

ثم هبط الاثنان عن الجبل وذهبا إلى المخيم.

وعندما رأى بنو إسرائيل موسى وألعازار يعودان إليهم دون هارون.. لم يصدقوا أن هارون - الذى تغلب من قبل على ملاك الموت - قد انهزم أمامه.

وانقسموا فى رأيهم حول ذلك إلى ثلاث فرق:

فرقة تقول إن موسى قد قتل هارون حسداً له على حب الشعب له..

وفرقة تقول إن ألعازار هو الذى قتل هارون ليحتل منصب الكهانة العظمى مكانه..

وفرقة ثالثة تعتقد أن هارون رُفِعَ إلى السماء.

وأثار الشيطان الشعب ضد موسى وألعازار، حتى إنهم أرادوا رجمهما بالحجارة..!

وعندئذٍ دعا موسى الرب قائلاً:

- «يارب خلصنا من هذه التهمة الظالمة، أنا وألعازار، وأظهر للناس نعش هارون، لكى يعلموا ويتيقنوا أنه قد مات، لأنهم، من حبهم له لا يصدقون ذلك ويتهموننا ظلماً بقتله».

فقال الرب للملائكة: «ارفعوا عالياً نعش صديقى هارون لكى يعلم بنو إسرائيل أنه قد مات ولا يتعرضوا لموسى ولا لألعازار».

ففعل الملائكة ما أمروا به فرأى بنو إسرائيل نعش هارون طائراً فى الهواء والرب يسير من أمامه والملائكة من خلفه ينشدون لحناً جنائزيّاً من أجل هارون.

الحداد العام على هارون

عندما شاهد بنو إسرائيل الشعائر الجنائزية التى قام بها الرب وملائكته من أجل هارون، أعدوا هم أيضاً احتفالاً جنائزيّاً دام ثلاثين يوماً وشارك فيه الجميع! نساءً ورجالاً وشيوخاً وأطفالاً. ولم يكن ذلك نابعاً فقط من حرصهم على تقليد ما قام به الرب وملائكته، ولا تقليداً للطقوس التى قام بها موسى وألعازار.. وإنما كان، قبل كل شىء، لحبهم البالغ لهارون. وقد احتدوا على موت هارون، بأكثر مما فعلوا عندما مات موسى.. فعند موت موسى لم يحتد عليه إلا قسم من الشعب.. أما الحداد على هارون فقد اشترك فيه كل الناس بلا استثناء. وكما قلنا فإن ذلك كان راجعاً لأن موت هارون أثّر فى نفوس الجمع تأثيراً عظيماً..

وقد كان موسى، بحكم أنه قاض، يقوم بتطبيق القانون على الجميع وإدانة المذنب أيّاً كان.. ولذا فقد كانً له أعداء وكارهون من بين الشعب. كما كان موسى، أحياناً، قاسياً عليهم عندما يقعون فى المعصية.. أما هارون فلم يكن كذلك أبداً.

وقد كان هارون محبّاً للسلام ساعياً به بين الناس، ومحبّاً للناس وعاملاً قدر جهده على تقريبهم من التوراة. وكان متواضعاً لا يأنف من ابتداء أقل الناس شأناً بالسلام، ولا يترفع عن مخاطبة العصاة والتكلم معهم بود وبشاشة، حتى إن بعضهم كان يمتنع عن ارتكاب المعاصى.. خجلاً من هارون. كذلك فقد كان هارون يسعى كثيراً للصلح بين كل متخاصمين

وينتقل من أحدهما إلى الآخر ساعياً بالخير ومحاولة الإصلاح، فلا يهدأ باله حتى يعود الوئام بينهما من جديد. ولم يكتفِ بذلك، وإنما سعى كثيراً للتوفيق بين كل زوجين على وشك الطلاق، من كثرة الخلافات، ولا تقر عينه إلا بإعادة السلام بين الزوجين.. ولذا فقد سمَّى كثير من الأسر أبناءهم على اسمه، حتى إنه قد شارك فى الحداد عليه ما لا يقل عن ثمانين ألف رجل يحملون اسمه.

* * *

وعندما رأى موسى ذلك الحزن العظيم الذى لَفَّ الكائنات السماوية والأرضية كذلك على موت هارون، بكى فى مرارة..

قائلاً:

- «يا ويحى! أنا الذى بقيتُ وحيداً! فعندما ماتت "ميريام" لم يمش فى جنازتها ويحمل نعشها سواى وهارون وابنيه. ولما مات هارون كنا أنا وابنيه عند نعشه لنكرمه التكريم الأخير قبل وفاته.. لكن.. يا لسوء حظى أنا..! فمن ذا الذى سيكون حاضراً عند موتى؟ فلا أب لى ولا أم.. ولا أخ لى ولا أخت.. فمن ذا الذى سيبكينى؟»

لكن الرب قال له:

«لا تخف يا موسى.. فسأدفنك أنا بنفسى مع تكريمك التكريم اللائق.. وكما اختفى الكهف الذى دفن فيه هارون فلم يعلم إنسان مكانه، سأخفى المكان الذى ستدفن فيه حتى لا يعلم مخلوق مكانه. وكما لم يكن لملك الموت على هارون من سلطان، فمات بقبلة منى، فلن يكون لملك الموت عليك أنت كذلك من سلطان ولتموتن «بقبلة منى»».

فاطمأنت نفس موسى وهدأ روعه.. إذ علم أن له مكاناً بين المتقين.

الأصدقاء المزيفون

عندما مات هارون اختفت سحابات المجد التى كانت تظلل المخيم، وفزع بنو إسرائيل لذلك كثيراً وعلموا حقيقة خسارتهم بموت هارون. فقد أصبحوا الآن بلا حماية وعرضة للهجوم من أعدائهم الكثيرين الذين كانوا يتربصون بهم ويتحينون الفرص للانقضاض عليهم واستئصال شأفتهم.

وكان من بين هؤلاء الأعداء "عماليق" الذى ما إن سمع خبر اختفاء سحابات المجد، إلا وقرر شن الهجوم على بنى إسرائيل.. كما أوصاه جده "عيسو" قبل موته. وقد كان "عماليق" يتربص ببنى إسرائيل دائماً ويتحين كل فرصة للانقضاض عليهم». فعندما ارتاب الناس وتساءلوا: «هل الرب معنا؟» ظهر "عماليق" على الفور. وما كاد بنو إسرائيل يصدقون دسائس الجواسيس الخونة ويقررون العودة إلى مصر، إلا وظهر عماليق وهجم عليهم. كذلك عندما زحف "نبوخذ نصر" قاصداً أورشليم لتدميرها، وقف "عماليق" بجنوده على مقربة من الميدان قائلاً لنفسه إنه سينتظر فإذا دارت الدائرة لنبوخذ نصر، هجم على المدينة ليعمل سيفه فى بنى إسرائيل، وإذا دارت الدائرة لبنى إسرائيل سيقول لهم إنه ما جاء إلا لنجدتهم.. وعندما غزا "نبوخذ نصر" المدينة وفتحها، أسرع "عماليق" فأجهز على فلول الهاربين من بنى إسرائيل ولم يكتف بذلك وإنما راح يسب الرب والشعب ويسخر منهم.

والآن، بعدما مات هارون، رأى "عماليق" أن الفرصة سانحة للإجهاز

على بنى إسرائيل وتحقيق حلمه الذى يراوده من زمن طويل.. وهو واثق من أنهم قد صاروا ضعفاء بعد أن زالت سحابات المجد التى كانت تحميهم. ولكنه لم يحاربهم بطريقة مباشرة وإنما لجأ إلى الحيلة والخداع.. فبعد موت هارون ذهب "عماليق" وجنوده إلى مخيم بنى إسرائيل متذرعين بأنهم جاءوا للتعزية فى موت هارون، ثم إذا ما سنحت لهم الفرصة انقضوا على الإسرائيليين وأخذوهم على غرة.

ولم يكتف بنو عماليق بذلك وإنما تنكروا فى ثياب الكنعانيين وتكلموا بلسانهم، حتى إذا ما دعا بنو إسرائيل ربهم لإنقاذهم من "كنعان"، لم يصب "عماليق" شىء واستطاعوا تنفيذ هجومهم.

ولكن بنى إسرائيل، عندما رأوا "عماليق" متنكراً فى هذه الهيئة، احتاروا وترددوا.. ثم دعوا الرب قائلين:

- «يارب العالم.. إنا لا نعلم أى أمة هى هذه التى جاءت لحربنا، ولا ندرى إن كانوا "عماليق" أم "كنعان".. فانصرنا على عدونا، أيًّا كان».

فسمع الرب دعاءهم ووعد بنصرهم وأمرهم بالقضاء على عدوهم واستئصال شأفتهم قائلاً:

- «بالرغم من أنكم تواجهون الآن "عماليق"، فلا تعاملوه مثل معاملتكم لأبناء "عيسو" الآخرين الذين حرمتُ عليكم محاربتهم.. أما هؤلاء فأفنوهم وكأنهم كنعانيون». فنفذ الإسرائيليون أمر الرب وأبادوا "عماليق" وكرسوا مدنه للرب.

ولم يربح عماليق فى هذه المعركة سوى امرأة سبيَّة، كانت ملكهم فى الأصل ثم استولى عليها منهم بنو إسرائيل.

* * *

وقد كان لهجوم "عماليق" عواقب وخيمة على بنى إسرائيل..

إذ عندما علم بنو إسرائيل باقتراب العدو خافوا وارتعبوا وقرروا العودة إلى مصر، فلم تعد سحابات المجد تحميهم بعد موت هارون. وبالفعل تراجعوا ثمانية محطات عن مكانهم، لكن اللاويين طاردوهم فحدثت فى "مسيروت" مشاجرة مريرة بين من أرادوا العودة إلى مصر وبين اللاويين الذين أصروا على مواصلة الزحف إلى فلسطين.. وكان من نتيجة هذه الوقعة أن المنسحبين هلك منهم ثمان عشائر فى القتال مع اللاويين، فهلكت خمس عشائر من سبط "بنيامين"، وعشرة من سبط "جاد" وأخرى من سبط "شمعون" وثالثة من سبط "أشر" ـ أما اللاويون فقد أبيدت منهم عشيرة واحدة فلم يبق منها شخص واحد، بينما فقدت ثلاث عشائر كثيراً من أفرادها حتى إنها لم تعد إلى سابق كثرتها إلا فى أيام "داود" الملك.

وفى النهاية انتصر اللاويون إذ أدرك خصومهم مدى حمقهم وغباوتهم عندما فكروا فى العودة إلى مصر، كما أدركوا أنهم ما فقدوا من فقدوه إلا عقاباً لهم على عدم إعدادهم لاحتفال جنائزى يليق بمكانة هارون. وعند ذلك أقاموا فى "مسيروت" احتفالاً جنائزيّاً عظيماً حداداً على موت هارون.. ولهذا فإن الناس قد قالوا عن هذا المكان، فيما بعد، أنه هو المكان الذى مات فيه هارون لأن الحداد عليه إنما كان فى هذا المكان.



الحية النحاسية

عندما رفض ملك "أدوم" مرور بنى إسرائيل خلال أراضيه، اضطر بنو إسرائيل إلى مواصلة الزحف ـ بعدما كانوا ظنوا أن رحلتهم قد انتهت ـ للدوران حول أرض "أدوم". وعند ذلك أصبح الناس شرسين نكدين ساخطين من طول السير وأخذوا يقولون:

ـ «بعد أن كنا قريبين من الأرض الموعودة، نرجع فندور حولها ونبدأ السير من جديد».

ولقد كان ذلك حظ آبائنا أيضاً، فبعد ما اقتربوا من غايتهم وجدوا أنفسهم مضطرين للهيمان فى الصحراء على وجوههم طوال ثمانية وثلاثين عاماً.. ويبدو أننا سنفعل مثلما فعلوا!».

ثم أخذوا يجدفون على الرب وعلى موسى.. ويشتكون من المعاناة التى يلاقونها، وخصوصاً بعدما أصبحوا على أطراف الأرض الموعودة وجلب إليهم التجار الذين يجولون فى المخيم من منتجات الأرض المقدسة وذاقوا حلاوتها وتمنوا لو صاروا فيها وأصبحت هذه الخيرات ملكاً لهم.

ثم هتف بهم هاتف سماوى يقول: «انظروا أيها البشر.. انظروا إلى الحية التى قضيت عليها بأن يكون طعامها التراب فلم تشتكِ ولم تندم وإنما رضيت بقضائى وصبرت على حكمى..! أما أنتم حين نزلت لكم المن من السماء والسلوى من البحر اشتكيتم وتذمرتم وقلتم لن نصبر على طعام

واحد!! لذا فإن الحية، التى كانت أول مخلوق تتذمر على خالقها، ستكون هى التى ستعاقب هذا الشعب الجاحد الناكر للجميل».

وهكذا، فبعدما ظلت سحابات المجد تحرق الحيات طوال أربعين عاماً، أخذت هذه الحيات الآن تعض الناس فمات منهم خلق كثير.

وعند ذلك هرول الناس إلى موسى وقالوا له:

ـ «أغثنا يا موسى..! لقد أخطأنا فى حقك وأذنبنا فى حق الرب إذ سخطنا وتذمرنا.. وإنا لنقر الآن بخطأنا فادع الرب لنا ليكشف عنا هذه البلوى!».

ورأف موسى بحال الناس فدعا لهم الرب الذى غفر لهم ذنبهم ـ كالعادة ـ بمجرد أن تابوا عنه وأنابوا إليه.. فضرب بذلك المثل للإنسان بأن يغفر لأخيه خطأه إن اعتذر له وطلب صفحه.

ثم أمر الربُّ موسى بأن يصنع حية من نحاس ثم يعلقها على سارية فإذا رآها من عضته الحيات يحيا ولا يموت. فأسرع موسى ففعل ما أمره به الرب وبمجرد أن رفع الحية عالياً طافت فى الهواء وحلقت عالياً ليستطيع جميع الناس مشاهدتها.

وقد صنع موسى هذه الحية من النحاس لأن كلمة "نَحَشَ" بالعبرية معناها "حية"، بينما كلمة "نِحِشوت" تعنى بالعبرية "نحاس".. ولذا فقد صنع موسى الحية من مادة يشبه اسمها اسم الحية. ومع ذلك فلم يكن مجرد النظر إلى الحية يشفى من عضتها، وإنما إذا نظر إليها واستسلم بقلبه لمشيئة أبيه السماوى يشفى.. فإذا لم يستسلم بقلبه للرب لا يشفى.

وقد كان النظر إلى هذه الحية لا يشفى فقط من تعضه الحيات، وإنما من عضته الكلاب والحيوانات الأخرى كذلك. بل إن من تعضه الحيوانات والكلاب كان يُشفى من العضة بنظرة سريعة إلى الحية.. بينما الذى تعضه الحيات كان يحتاج إلى التأمل فى الحية النحاسية طويلاً.

فـى أرنـون

حـدثت واقـعـة الحـيـات فـى "صلمـونة"، وكـانت مكاناً مليـئـاً بالأشـواك والأحـراش. ومنهـا تحـرك الشـعـب إلى «فُنُون» حـيث حل بهم عـقـاب الرب. وفى المحطتـين التـاليـتـين كـذلك، وكـانتـا "أوبوت" و"عَـيِّـىَ عَبَـاريم"، واصلوا تمردهم وسخطهم على الرب الذى اشتعل سخطه وغضبه عليهم ولم يرضَ عنهم ثانية إلا بعد أن وصلوا إلى "أرنون"، حيث صنع معجزات عظيمة من أجلهم، فاقت المعجزات التى صنعها لهم عند البحر الأحمر.

كان وادى "أرنون" وادياً بين جبلين شاهقين كانت قمتاهما متقاربتين إلى درجة أن الواقفين عليهما يستطيعون التحدث بعضهم مع بعض ويسمع أحدهم الآخر بوضوح، وفى نفس الوقت فقد كانت المسافة بين القمتين تبلغ سبعة أميال، نزولاً من إحدى القمتين وصعوداً إلى الأخرى.

ولما كان الأموريون يعلمون أن بنى إسرائيل سيجتازون هذا الوادى فى طريقهم، فإنهم قد احتشدوا فى حشود كبيرة لا يحصى عددها، واختبأ بعضهم فى الكهوف التى كانت تملأ منحدرات الجبل، بينما كمن آخرون لبنى إسرائيل فى الوادى انتظاراً لمرور بنى إسرائيل فيه.

لكن الرب أحبط هذه الخطة فلم يجعل بنى إسرائيل يهبطون إلى الوادى مطلقاً وإنما ظلوا فوق الجبل وعبروا إلى الجبل الآخر بمعجزة عظيمة.. فبينما كان أحد الجبلين مليئاً بالكهوف والمغارات، كان الجبل

الآخر عبارة عن صخور ناتئة حادة ولم يكن فيه كهف واحد.. فحرَّك الرب هذا الجبل الملىء بالصخور الحادة حتى انغرست هذه الصخور كالسكاكين فى كهوف الجبل الآخر فسحقت الأموريين المختبئين فيه سحقاً.

وفى هذه المعجزة، كان الجبل الصخرى هو الذى تحرك - وليس الآخر الملىء بالكهوف - وذلك لأن هذا الجبل كان هو بداية الأرض الموعودة التى أسرعت للقاء بنى إسرائيل ولم تستطع الانتظار.

* * *

يقول المثل: «إذا أعطيت طفلاً كسرة خبز فأخبر أمه بذلك».

لهذا لمَّا كان بنو إسرائيل غافلين عن هذه المعجزة العظيمة التى صنعها الرب من أجلهم، فلم يكونوا على علم بكمين الأموريين.. جعل الرب البئر التى ظهرت منذ مقامهم فى "بعيروت" تفيض بمائها ليغسل الكهوف والمغارات من الجثث التى ملأتها فجرفت مياه البئر هذه الجثث وأزاحتها بعيداً. وعندما عاد بنو إسرائيل ليشاهدوا البئر التى كانوا قد اكتشفوها فى وادى "أرنون"، وجدوها تتألق بنور مثل نور القمر ورأوا مياهها وهى تجرف جثث الأموريين وعند ذلك أدركوا بالمعجزة التى صنعها لهم الرب دون أن يشعروا وأنه أنقذهم من هلاك محقق.. فأخذوا ينشدون ويترنمون بحمد الرب...



«سيحون» ملك الأموريين

لم يكن سحق المختبئين فى الكهوف إلا بداية المعجزات الكثيرة التى صنعها الرب من أجل بنى إسرائيل خلال فتحهم للأرض الموعودة.. وفى "أرنون" كذلك تم إبادة وسحق "سيحون" ملك الأموريين وقومه الذين بادروا بالهجوم على بنى إسرائيل بمجرد علمهم بوفاة هارون.

كان "سيحون" هو "عوج" ملك "باشان" من أبناء "أَخيا" الذى كان أبوه "شيمحازاى" أحد الملائكة الساقطين وبسبب انحداره من نسل الملائكة، فقد كان "سيحون" عملاقاً لا يقدر أحد على مقاومته.. إذ كان بالغ الضخامة حتى إنه كان أطول قامة من أعلى صرح فى العالم كله!! وكذلك كان طول عظمة فخذه ثمانية عشر ذراعاً، إذا وضعنا فى اعتبارنا كِبرَ مقاس الذراع فى تلك الأيام..! وبالرغم من ضخامته البالغة فقد كان سريعاً كالريح، ولذا فقد سمِّى "سيحون"، أى "المهْر".. نظراً للسرعة التى كان يعدو بها؛ بينما كان اسمه الأصلى "عراد".

* * *

كان موسى خائفاً للغاية من محاربة هذا الملك العملاق، لكن الرب قيَّد الملائكة الحارسين "لسيحون" و"عوج" بالسلاسل وقال لموسى:

- «انظر.. لقد بدأتُ أهيئ لك سيحون وأرضه لكى تمتلكها وترثها»

وأكد الرب لموسى أنه «سيلقى الرعب منه ومن شعبه فى قلوب جميع

الساكنين تحت السماء» وذلك بأن يأمر الشمس بالسكون والتوقف عن الحركة أثناء حربه ضد "سيحون" لكى يرى العالم كله أن الرب يحارب من أجل موسى.

لكن موسى طلب من الرب أن يرسل أولاً رسلاً إلى "سيحون" يطلب منه الإذن لبنى إسرائيل بالمرور فى أراضيه..

فغضب منه الرب وقال له: «أقول لك أنى قد هيأت لك سيحون وشعبه لتمتلك أرضهم وترثها، وتريد أنت إرسال الرسل إليه أولاً!».

فأجابه موسى:«إنى لن أفعل إلا ما فعلته أنت من قبل حينما أرسلتى رسولاً إلى فرعون ليدع بنى إسرائيل يخرجون من أرضه، مع أنك كنت تستطيع تدمير مصر كلها دون الحاجة لإرسالى إليه».

وعند ذلك اقتنع الرب برأى موسى وأمره بألا يحارب أية أمة أبداً فى المستقبل قبل أن يرسل إليها رسولاً أن يحض الناس على الاستسلام.

بعد ذلك أرسل موسى رسلاً إلى "سيحون" يطلب منه الإذن بالمرور فى أراضيه ، ووعده بألا يتعرض أحد من بنى إسرائيل لسكان البلاد بسوء، وألا يقوم أحد منهم باغتصاب النساء المتزوجات أو غواية البنات الأبكار.

وواصل موسى رسالته قائلاً: «بل سندفع لك ثمن الماء الذى سنشربه والطعام الذى سنأكله فى أرضكم وسندفع ثمناً سخيّاً».

ثم اختتم رسالته بتهديد "سيحون" بأنه سيشن عليه الحرب إن لم يأذن لهم. لكن "سيحون" رأى أن هذه الرسالة تشبه استئذان حارس بستان فى حصاد البستان، ولذا فقد أجاب عليها قائلاً:

- «إن جميع الملوك الكنعانيين يدفعون لى ولأخى "عوج" إتاوات لكى لا نسمح لأعدائهم بالمرور خلال أراضيهم.. وتأتى أنت الآن وتطلب منى الإذن لكم بدخول كنعان!!».

وهكذا فلم يكن من الحرب بد وانتصر بنو إسرائيل انتصاراً ساحقاً وقتل فى المعركة "سيحون" وابنه الذى لم يكن أقل منه ضخامة فى الجسم والقوة. وشاء الرب ألا يحارب بنو إسرائيل مدن مملكة "سيحون" واحدة بعد الأخرى، وإنما جمع كل شعب الملك "سيحون" معاً فى "حشبون"، فلما انهزمت هذه المدينة أمام بنى إسرائيل، انفتحت جميع مدن المملكة أمامهم من تلقاء أنفسها.

وقد كان انتصار بنى إسرائيل على مدينة "حشبون" انتصاراً معجزاً، فقد كانت مدينة محصنة للغاية تستعصى على الفاتحين، خصوصاً لو كان سكانها من العمالقة مثل "سيحون" وابنه. وقد نصر الرب بنى إسرائيل على هذه المدينة بأن شل حركة "سيحون" وابنه وجميع قواتهما فلم يستطيعوا التحرك أو رفع يد فى وجه بنى إسرائيل الذين حصدوهم بسيوفهم حصداً. كما أعمى الرب عيونهم فلم يستطيعوا رؤية شىء وقتلوا أنفسهم بأنفسهم.

ومع سقوط "حشبون" استولى بنو إسرائيل على جميع أرض "سيحون" ما عدا "يعزِير" التى أرسل موسى جواسيسه ليتحسسوا أخبارها وتحصيناتها. وقد كان الرجلان اللذان أرسلهما موسى إليها ـ وكانا "كالب" "وفينحاس" ـ محاربين أقوياء ورجالاً أتقياء كذلك.

وقد قال هذان الرجلان:

ـ «لقد أرسل موسى من قبل جواسيس جلبوا على أنفسهم وشعبهم الوبال.. لذا فإننا سنهاجم هذه المدينة واثقين من نصر الرب لنا، ونحن واثقون من أننا لن نهلك فيها لأن موسى دعى الرب لنا لينصرنا ويُظْهِرَنا على عدونا».

ولهذا فقد هجما على "يعزير" وفتحاها ثم عادا إلى موسى فأخبراه بأنهما قد فتحا المدينة وذبحا سكانها.

«عوج» العملاق

وقعت الحرب ضد "سيحون" فى شهر أيلول، وفى شهر "تشرى" التالى، ارتاح بنو إسرائيل بسبب الأيام المقدسة، فما إن انقضت هذه الأيام إلا وشنوا الحرب على "عوج".

وكان "عوج" قد تأخر عن نجدة أخيه "سيحون" فى حربه ضد بنى إسرائيل، على الرغم من أنه كان على مبعدة يوم واحد منه.. وذلك لأنه ظن أنه قادر على إبادة الإسرائيليين بمفرده.. لكنه أخطأ فى ظنه هذا، بمثل ما أخطأ من قبل فى أشياء أخرى...

ففى الماضى، كان "عوج" هو الذى حمل لإبراهيم أنباء أسر ابن أخيه "لوط"، ظاناً أن إبراهيم سيسرع لنجدة ابن أخيه ويقتل فى المعركة فيستحوذ "عوج" على "سارة" الجميلة لنفسه. لكن الرب لا يدع مجرماً يفلت بجريمته، ولا يحرم طائعاً من الثواب. فقد أثاب الرب "عوج" على هرولته لإخبار إبراهيم بما حدث، وجعله يعيش خمسمئة عام، لكنه فى النهاية قُتِلَ لخبث غرضه الذى جعله يسرع لإخبار إبراهيم بذلك.

* * *

حدثت المعركة ضد "عوج" فى "إذْرَعى" التى وصل إليها بنو إسرائيل عند حلول الظلام.. وفى الفجر التالى نهض موسى من نومه لكى يعد العدة لاقتحام المدينة لكنه صاح فى دهشة:

ـ «انظروا! لقد بنوا سوراً آخر يحيط بالمدينة فى الليل!!».

ولم يكن موسى يرى بوضوح فى ضباب الصبح، فما كان هذا السور الذى تخيله سوى العملاق "عوج" وقد جلس على سور المدينة ودلدل ساقيه حتى لامست قدماه الأرض. وكان موسى معذوراً فى تخيله ذلك، لضخامة حجم "عوج" الذى بلغ طول عظمة فخذه ـ حسب رواية أحد حفارى القبور فيما بعد ـ أكثر من ثلاثة فراسخ[1]..

إذ يقول هذا الحفار، واسمه أباً شاؤول:

ـ «كنت أطارد غزالاً ذات مرة فدخل إلى عظمة فخذ رجل ميت فدخل وراءه وظللت أجرى لمسافة ثلاثة فراسخ. ولم أصل إلى نهايتها».

وقد تبين فيما بعد ـ من التحريات التى تمت[2] ـ أنها كانت عظمة فخذ "عوج"».

* * *

ولم يستعمل هذا العملاق أبداً طوال حياته كرسيّاً أو سريراً من الخشب، لكيلا تتكسر تحت وطأة وزنه الهائل.. ولكنه كان يجلس على كرسى من الحديد وينام على سرير من الحديد.. ولم يكن بالغ القوة والضخامة فقط، وإنما كان عرضه هائلاً وبما لا يتناسب مع طوله، إذ كان عرضه يبلغ نصف طوله.. بينما النسبة المعتادة هى أن يكون عرض الإنسان ثلث طوله تقريباً..

وكان "عوج" فى شبابه عبداً لإبراهيم أهداه إليه "النمرود"، فما كان "عوج" سوى "أليعزر" خادم إبراهيم. وذات يوم وبخه إبراهيم على خطأ ما وصرخ فى وجهه فارتعب "عوج" جداً حتى إن سِنَّة من أسنانه سقطت على الأرض فأخذها إبراهيم وصنع منها سريراً كان ينام عليه دائماً. وكان "عوج"

(١) أى حوالى ١٥ كيلو متراً!! (المترجم).

(٢) يا سلام على الدقة!! (المترجم).

يلتهم كل يوم ألف ثور أو عدداً مماثلاً من الحيوانات الأخرى ويشرب كمية مماثلة تبلغ ألف مكيال من الماء!! وقد ظل "عوج" فى خدمة إبراهيم إلى أن تزوج "إسحاق" فأعتقه إبراهيم مكافأة له على الدور الذى لعبه فى زواج ابنه من "رفقة". كما أن الرب قد كافأه فى هذا العالم لكى لا يكون له حق فى العالم الآخر، فجعله الرب ملكاً فأسس أثناء فترة ملكه ستين مدينة أحاطها بالأسوار العالية كان أوطاها يبلغ ارتفاعه ستين ميلاً على الأقل.

* * *

وعندما رأى موسى ذلك العملاق وتبين له ضخامته البالغة وقوته الهائلة، خاف موسى وارتعب، ليس فقط بسبب قوته البالغة وإنما كذلك لأنه خاف أن يكون "عوج" قد صنع خيرات رضى الرب عنه بسببها فجعله يعيش حتى يبلغ من العمر خمسمئة سنة. كما تذكر موسى أن "عوج" كان هو العملاق الوحيد الذى نجا من أيدى "أمرافيل"[1]، ما يدل على أن "عوج" أو يحظى برضا الرب، بشكل أو بآخر.. كما كان موسى يخشى أن يكون قومه قد ارتكبوا معاصى فى حربهم ضد "سيحون" فلا ينصرهم الرب على "عوج" وقومه بسبب هذه المعاصى. ولكل هذا فقد أحجم موسى عن مقاتلة هذا العملاق، بالرغم من أن الرب قد وعده بأن ينصره على جميع أعدائه.

ولهذا قال الرب له:

- «فيمَ ترددك وإحجامك عن مقاتلته، وقد حكمتُ عليه بالموت والهلاك منذ أن نظر بعين الشر ليعقوب وأهله عندما وصلوا إلى مصر».

فالرب كان قد قال لعوج حينذاك:

- «أيها الوغد الشرير! لماذا تنظر إليهم بعين الشر؟ إذاً، لتنفجرن عينك ولتقعن فى أيديهم».

---

(١) هو حمورابى صاحب القوانين المشهورة. (المترجم).

وقد لقى "عوج" مصرعه بالطريقة التالية:

عندما رأى عوج معسكر بنى إسرائيل، قال لنفسه:

- «سآخذ جبلاً مساحته ثلاثة فراسخ، مثل محيط المخيم، وألقيه فوقهم فيسحقون تحته».

ثم تناول جبلاً مساحته ثلاثة فراسخ ورفعه فوق رأسه وتقدم صوب معسكر بنى إسرائيل لينفذ خطته.

فماذا فعل الرب حينئذٍ؟

لقد جعل الرب النمل يثقب الجبل من وسطه فسقط منزلقاً فمرت رأسه من وسط الجبل وانحشر الجبل حول عنقه عندما حاول فتح فمه ليقضمه بأسنانه التى انحشرت فى الجبل.. فوقف "عوج" فى مكانه لا يدرى كيف يخلِّص نفسه.. وعندما رأى موسى ذلك التقط فأساً طولها اثنا عشر ذراعاً ثم قفز فى الهواء لارتفاع عشرة أذرع وضرب "عوج" ضربة قوية فى كاحله قضت عليه(١).

* * *

ومع موت "عوج" سقطت جميع بلاده فى أيدى الإسرائيليين دون ضربة سيف أو رمية رمح، إذ شاء الرب أن يكون جميع جنود "عوج" ورجاله معه عند هجومه على بنى إسرائيل، فلما هزمهم بنو إسرائيل، لم يبق بالمدن كلها إلا النساء والأطفال.

* * *

ولم يكن "سيحون" و"عوج" ملكا الأموريين وحدهما هما العمالقة.. وإنما كان جميع الأموريين عمالقة كذلك. إذ عندما فتح الإمبراطور "هادريان" أورشليم وتفاخر بانتصاره على سكانها، قال له: «الربِّى يوحانان» بن "زَكَّاى":

(١) قارن ذلك بما ورد فى الأساطير اليونانية عن طريقة قتل أخيليس. (المترجم)

«لا تتفاخر هكذا بانتصارك على أورشليم، فلولا أن الرب قد فتحها لك، لما كنت قدرت أبداً على فتحها».

ثم قاده إلى كهف حيث كانت جثث الأموريين مكومة فيه، وكانت كل جثة منها يبلغ طولها ثمانية عشر ذراعاً»..

ثم قال له الربى "يوحاثان":

- «عندما كنا أهلاً لنصر الرب، سقط هؤلاء فى أيدينا.. لكن لما عصينا الرب جئت أنت فتسلطت علينا».

* * *

ودون عون الرب لم يكن لبنى إسرائيل من قدرة على الانتصار على الأموريين وعمالقتهم.. فقد أرسل الرب على هؤلاء الأموريين زنابير أخذت تلدغهم وتقتلهم بسمها الفتاك. وقد توقفت هذه الزنابير على الضفة الشرقية لنهر الأردن ولم تعبر إلى الضفة الأخرى وراء بنى إسرائيل.. ومع ذلك فقد وقفت على حافة النهر وأخذت تطلق قذائف سمها لتعمى عيون الكنعانيين الموجودين على الضفة المقابلة.

وقال الرب لبنى إسرائيل:

«فى هذا العالم لن يكون لكم سلطان على جبل "سعير" - أرض "أدوم" - ولكن فى العالم الآتى، عندما تتحررون ستمتلكونه. لكن حين يأتى ذلك الزمان، كونوا على حذر من أبناء "عيسو" وخصوصاً إذا خافوا منكم وجعلوكم تعيشون فى وسطهم».



وصيــة موســى

كما فعل آباؤه إبراهيم وإسحاق ويعقوب من قبل، حض موسى الشعب على طاعة الرب والتزام طريقه والعمل بأحكام التوراة. وقد كان لوصيته هذه تأثير عظيم على الناس حتى إن الرب قرر إثابته على ذلك بأن جعلها تُنسَبُ إلى موسى، بالرغم من أن الرب هو الذى أمره بقول كلمات الوصية للناس.

لكن موسى لم يشأ وعظ قومه إلا بعد الانتصار على "سيحون" و"عوج"، خشية أن يقولوا إنه لم يستطع قيادتهم إلى الأرض الموعودة فتذرع بمعاصيهم ليبرر بها عدم قدرته على الانتصار على "سيحون" و"عوج". لكن بعدما أثبت موسى لهم عملياً أنه يستطيع الانتصار على هؤلاء الأعداء، أخذ يعظهم ويأمرهم باجتناب المعاصى ويذكّرهم بخطاياهم..

ثم جمع موسى الشعب كله، وضيعهم ورفيعهم، وقال لهم:

- «سأوبخكم الآن بشدة على المعاصى والخطايا التى اقترفتموها، فإن كان لأحدكم عذر فى ارتكاب معصية قد اقترفها، فليخبرنى به».

ثم أخذ يذكّرهم بمعاصيهم العشرة التى أخطأوا بها فى حق الرب:

إذ عند البحر الأحمر ندموا على طاعتهم للرب، بل وتقهقروا عائدين إلى مصر..

وعندما فرق لهم البحر تجرأوا على الرب وقالوا إنه فرق البحر للمصريين كذلك وليس لبنى إسرائيل وحدهم.. ثم عند "مارَّة" و"رفيديم"

تذمروا ضد الرب بسبب عدم وجود مياه للشرب، ثم تذمروا ضده بسبب المن، فخالفوا الشريعتين اللتين فرضهما الرب بخصوص المن: فخزنوه لليوم التالى حيث حَرَّم الرب عليهم ذلك، وجمعوه فى يوم السبت رغم حُرْمة ذلك.. كما تجاوزوا فى حق الرب مرتين، بسبب شرههم لأكل اللحم: فطلبوا أكله عندما كان المن يتنزل عليهم، ثم عندما استجاب الرب لطلبهم وأرسل لهم السلوى تذمروا وسخطوا.. ثم كان الأدهى من ذلك والأمر، عبادتهم للعجل الذهبى.. ثم فى "فاران" استمعوا لوشاية الجواسيس وتذمروا ضد الرب وأرادوا صنع صنم ليعبدوه ويقودهم إلى مصر..!

وبعد ذلك أخبرهم موسى بأن الرب كتب عليهم أن يهيموا فى الصحراء على وجوههم طوال أربعين سنة، ولم يدخلوا الأرض المقدسة مباشرة بعد خروجهم من مصر، كما كان الرب ينوى أن يفعل بهم.. وكل ذلك بسبب عصيانهم للرب وتذمرهم ضده. ثم ذكَّرهم موسى بسخطهم عليه هو نفسه، وثورتهم ضده أكثر من مرة ومخالفتهم لأوامره.

وفى هذه المناسبة تبيَّن مدى تقوى هذا الجيل الذى كان موسى يحدثه.. فلم يكونوا هم الذين ارتكبوا هذه الخطايا والمعاصى، إنما كان آباؤهم الذين كانوا قد ماتوا من زمن.. ورغم ذلك فإن سامعيه قد أطرقوا برؤوسهم إلى الأرض ولم يفتح واحد منهم فاه اعتراضاً على تأنيب موسى وتقريعه لهم.

ثم طلب منهم موسى أن يأتى إليه كل من تعلم منه آية من التوراة أو شريعة أو فصلاً، ليسمع له ما تعلمه ويعيد حفظه على يديه مرة أخرى، ثم كرر لهم موسى ما تعلموه وعلمهم التوراة كلها بلغات العالم السبعين، لكى تستمع جميع أمم الأغيار لكلام الرب، فلا يكون مقصوراً على بنى إسرائيل وحدهم.

وقد فعل موسى ذلك لأنه، كما قال، قد اقترب أجله وأوشك موته.

بالاق ملك مؤاب

«لا يضيع الرب أجر من أحسن عملاً، ولو كان كلمة طيبة».

كانت أكبر ابنتى "لوط" قد أسمت ابنها الذى أنجبته من زناها مع أبيها[١]، باسم "مؤاب" أى "من الأب"، بينما سمَّت أختها ابن زناها الآخر "عَمُّون"، أى "ابن العم"، مراعاة للياقة والذوق العام ولكى لا تفضح أباها.. ولهذا فقد كافأها الرب على ذلك، إذ عندما أراد موسى إبادة ذرية "لوط" قال له الرب:

- «إن خططى تختلف عن خططك.. ولسوف ينشأ من هذه الأمة يمامتان هما: "رعواث" المؤابية و"نُعْمِى" العمُّونية، ... ولهذا كُفَّ يدك عن هاتين الأمتين».

لكن لم يأمر الرب بنى إسرائيل بمعاملة الأمتين بالمثل..

فبالنسبة لمؤاب، قال الرب:

- «لا تزعجوا مؤاب ولا تحاربوهم».

وهو ما يعنى أن على بنى إسرائيل ألا يحاربوا بنى "مؤاب" ولكن يمكنهم سرقة أموالهم أو استرقاقهم.

أما "بنى عمُّون"، فقد حرَّم الرب على بنى إسرائيل التعرض لهؤلاء العمونيون بسوء، أو حتى مجرد محاولة إزعاجهم أو مضايقتهم بشىء.. لذا

(١) هكذا يقول قتلة الأنبياء لعنهم الله تـالى.

فلم يتعرض بنو إسرائيل مطلقاً للعمونيين.

إن معاملة بنى إسرائيل للمؤابيين ـ وإن كانت عدوانية فقط ولم تكن قتالية ـ قد بثت الرعب فى نفوس هؤلاء المؤابيين وملكهم من بنى إسرائيل، حتى إنهم خافوا أن يلقوا نفس المصير الذى لقيه المصريون على أيديهم.. إذ أن بنى إسرائيل كانوا قد وفدوا على مصر غرباء، ثم انتهى بهم المطاف إلى تملك البلاد كلها، حتى إن المصريين اضطروا لاستئجار بيوتهم منهم..! كما تضاعف خوف المؤابيين عندما رأوا أن بنى إسرائيل لن يبالوا بأمر الرب لهم بالامتناع عن حرب ذرية "لوط".

وقد انبنى ظنهم ذلك على حقيقة استيلاء بنى إسرائيل على مملكتى "سيحون" و"عوج"، حتى وإن كانت هاتان المملكتان فى الأصل من أملاك "عَمُّون" و"مؤاب". وكان "حشبون" ـ عاصمة مملكة "سيحون" ـ ملكاً فى الماضى لمؤاب، لكن الأموريين استولوا عليها وعلى مناطق أخرى، بفضل دعم "بلعام" وأبيه "بعور" لهم. وكان الأموريون قد انهزموا هزيمة منكرة أمام "سيحون".

وقد لعن العرَّافات مؤاب بكلمات من قبيل:

«ويل لك يا مؤاب! لقد هلكتم يا أهل كموش!»

وكانت "كَمُوش" صخرة سوداء على شكل امرأة، كان المؤابيون يعبدونها ويتخذونها إلهاً لهم.

* * *

وكما سقط جزء من أراضى "مؤاب" فى أيدى "سيحون"، فقد سقط كذلك جزء من أراضى "عَمُّون" فى أيدى "عوج"، وحيث أن بنى إسرائيل قد استولوا على أراضى "سيحون" و"عوج".. فقد خاف المؤابيون أن يستولى الإسرائيليون على أراضيهم كلها.

ولذلك فقد احتشدوا على عجل وفى خوف داخل قلاعهم المحصنة التى ظنوا أنها ستحميهم من بطش بنى إسرائيل . لكن لم يكن لخوفهم أساس على أرض الواقع، لأن بنى إسرائيل لم يحلموا حتى بمخالفة أمر الرب لهم بالامتناع عن حرب ذرية "لوط"، وإن كان بإمكانهم الاحتفاظ بالأقاليم التى كانت تخص قديماً "مؤاب" و"عَمُّون"، لأنهم لم يأخذوها منهما، وإنما من "سيحون" و"عوج".

* * *

فى تلك الفترة كان ملك "مؤاب" هو "بالاق" الذى كان من قَبْلُ تابعاً لسيحون، فلُقِّب لذلك باسم "صِور". وبعد موت "سيحون" اختير "بالاق" ملكاً، بالرغم من أنه لم يكن يستحق مكانة عالية كهذه. وقد كان اسمه "بالاق" على مسمى لأنه أراد إهلاك بنى إسرائيل، ولذا فقد سُمِّى كذلك "ابن صَفُّور" لأنه جرى بسرعة الطائر ليلعن إسرائيل.

وكان "بالاق" ساحراً متمكناً يستعمل فى سحره طائراً قدماه وبدنه ورأسه من الذهب وفمه من الفضة وجناحاه من البرونز؛ وجعل له لسان طائر «يَدَوعة».. ثم كان يضع هذا الطائر بجوار نافذة تشرق عليها الشمس فى النهار والقمر فى الليل ويبقى عندها لسبعة أيام تقدم له فيها الذبائح وتقام الاحتفالات. وفى نهاية هذا الأسبوع يبدأ لسان الطائر فى التحرك فإذا وُخِزَ بإبرة ذهبية يكشف عن أسرار خطيرة. وذات يوم احترق جناحا الطائر فجأة فارتعب "بالاق" كثيراً إذ ظن أن اقتراب بنى إسرائيل من أرضه هو الذى سبَّب ذلك.

فلما رأى المؤابيون أن عدوهم ـ بنى إسرائيل ـ يستعين بقوى تفوق الطبيعة، سألوا أهل مديان فأخبروهم أن قائدهم ـ موسى ـ قوته فى لسانه، فقرر أهل مؤاب مواجهته برجل تكمن قوته فى لسانه.

* * *

الفصل السابع

بشـائر الفتـح

«بلعام»... النبى الوثنى

لم يكن الرجل الذى اختاره المؤابيون والمديانيون لمقارعة موسى، سوى "لابان"، عدو إسرائيل، والذى كان يريد فى الماضى اجتثاث "يعقوب" وجميع عائلته من على وجه الأرض، ثم فيما بعد أثار "فرعون" و"عماليق" ضد بنى إسرائيل. ومن هنا فقد لُقِّب "بَلْعَام" ، أى "مُبْتَلِع الأمم" لأنه كان يريد ابتلاع أمة بنى إسرائيل.

وكان "بلعام" فى هذا الوقت قد بلغ أوج قوته ونفوذه.. إذ كان هو الذى تنبأ بهزيمة المؤابيين أمام "سيحون" - بسبب اللعنة التى جلبها عليهم - فتحققت نبوءته بتسلط مواطنه "سيحون" على المُلْك؛ لذا فقد كان ملوك البلاد يسعون إليه ويخطبون وده ويطلبون منه النصح والمشورة. وكان قد ارتقى وتبدل حاله من مجرد مفسر للأحلام إلى عراف ومتنبئ لا تخطئ له نبوءة، بالرغم من أنه لم يكن قد نال بَعْدُ شرف النبوة، ففاق بذلك أباه الذى كان نبيّاً فعلاً، وإن لم يكن مشهوراً مثل ابنه.

* * *

إن الرب لا يحرم الوثنيين من نعمه، فيجعل منهم الملوك والحكماء والأنبياء، تماماً مثلما يفعل مع بنى إسرائيل.. لكن بينما يثبت بنو إسرائيل استحقاقهم لهذه النعم، فإن الوثنيين يثبتون أنهم غير جديرين بها..

فقد كان كلٌّ من "سليمان" و"نُبُوخَذْ نَصّر" مَلِكَيْن حكم كل منهما العالم وتسلَّط عليه.. لكن بينما بنى "سليمان" الهيكل وألَّف آلاف المزامير

والصلوات، فإن "نبوخذ نصر" قد دمر الهيكل وتكبَّر وتجبر وقال إنه سيصبح مثل "العلىّ"».

وأنعم الرب على "داود" و"هامان" بثروات عظيمة.. لكن بينما استعملها "داود" فى تدبير موقع لبناء هيكل الرب وقدسه، فإن "هامان" حاول استخدامها فى تدمير الأمة اليهودية كلها..

وكان "موسى" نبى بنى إسرائيل، بينما كان "بلعام" نبى الوثنيين.. لكن شتان (الفارق) بين الاثنين! فبينما كان موسى يحض قومه على هجر المعاصى والتقرب إلى الرب، فإن "بلعام" راح يحض الوثنيين على الإنغماس فى المعاصى والشهوات والوقوع فى مستنقعات الفحش والرذيلة..! كما كان "بلعام" يختلف عن أنبياء بنى إسرائيل فى قسوته ورحمتهم.. فبينما كان أنبياء بنى إسرائيل يتألمون لما يصيب الأمم الوثنية من كوارث ومصائب، فإن "بلعام" كان من القسوة إلى حد أنه كان يود لو استطاع تدمير أمة بكاملها.. ودون سبب!!

إن حياة "بلعام" وما فعله خلالها ليتبيَّن منها السبب الذى دفع الرب لحرمان الوثنيين من نعمة النبوة.

لقد كان بلعام آخر أنبياء الوثنيين، وكان "سام" بن نوح أولهم حيث ظل يدعو الناس لقبول التوراة ووحى الرب طوال أربعمئة سنة، فلم يستجب له أحد. ومن بعده كان أنبياء الوثنيين هم "أيوب" وأصدقاؤه الأربعة: "أليفاز" و"صوفار" و"بيلداد" و"أليهو"، بالإضافة إلى "بلعام".. وكانوا كلهم من ذرية "ناحور" أخى "إبراهيم"، وأمهم "مَلكة". ولكيلا يقول الوثنيون أنهم كانوا ليقبلوا التوراة لو أن الرب أرسل لهم نبيّاً مثل موسى، فإن الرب قد أرسل لهم "بلعام" الذى لم يكن يقل قدراً أو قوة عن "موسى".. وإن تميز موسى عنه بالحديث إلى الرب مباشرة، وتميز "بلعام" عنه بمعرفة حكمة الرب مباشرة. لكن بسبب شر "بلعام" وخبث طويته فإن الرب أقسم لشعبه بأنه لن يستبدلهم أبداً بأمة أخرى وأنه لن يسمح لهم أبداً بالإقامة فى أى مكان آخر غير "فلسطين".

رسالة «بالاق» إلى «بلعام»

أرسل "بالاق بن صَفور" رسالة إلى "بلعام" كان نصها التالى:

«أما بعد.. فلا تحسبن أنى أطلب منك مساعدتى ضد بنى إسرائيل ابتغاءً لمصلحتى أنا فقط، ولا أنك ستنال مكافأتك على هذه الخدمة منى وحدى.. فإن جميع الأمم، ومصر وكنعان ستهرول إليك لتخر عند قدميك عندما تقوم بالقضاء على بنى إسرائيل. فهذه الأمة التى خرجت من مصر قد دفنت تحت التراب "سيحون" و"عوج" وهما اللذان كانا يحرسان البلاد كلها، ثم هاهم قد هَمُّوا بالقضاء علينا. وما هم بأكثر منِّا عدداً أو أشد منا بأساً وإنما يغلبوننا بالدعاء.. ولك ما لا نقدر عليه ولا طاقة لنا به. فالآن ابذل قصارى جهدك حتى أصبح سيداً عليهم شيئاً فشيئاً وأقضى ولو على نسبة منهم.. وإن لم تتجاوز أربعة وعشرين بالمئة.

والسلام

"بالاق بن صفور"

وأرسل "بالاق" هذه الرسالة مع شيوخ "مؤاب" و"مديان". وكان شيوخ "مديان" أنفسهم سحرة كباراً فتنبأوا بحق أنه لو لَبَّى "بلعام" طلب "بالاق" فستكون الغلبة لهم على بنى إسرائيل، وإن تردد لحظة واحدة.. فلا أمل لهم فى ذلك. لهذا فعندما وصلوا إلى "بلعام" وأمرهم بالانتظار حتى الصباح التالى، عاد شيوخ "مديان" من فورهم إلى ديارهم إذ تيقنوا أن مسعاهم قد خاب.

وقد صدق ظنهم إذ أن "بلعام" لم يسرع من فوره لمرافقتهم إلى "بالاق"، انتظارا لما سيأمره الرب به فى الليل، إذ الرب لا يزور أنبياء الوثنيين سوى فى الليل. وكما توقع "بلعام" فقد زاره الرب فى الليل وسأله عمن يكون الناس الذين معه.

* * *

كان "بلعام" واحداً من ثلاثة رجال امتحنهم الرب فرسبوا فى الامتحان بجدارة!! إذ عندما ظهر الرب لقايين وسأله: «أين أخوك "هابيل"؟» حاول "قايين" خداع الرب وقال له: «وما أدرانى! هل كنت حارساً لأخى؟!» لهذا فإن الرب قد لعنه وطرده من رحمته..

وحذا "حزقيا" حذو "قايين" عندما جاءه رُسُل ملك "بابل" وسأله النبى "أشعيا": «ماذا قال لك هؤلاء الرجال؟ ومن أين أتوا؟»... وكان ينبغى على "حزقيا" أن يجيبه «إنك نَبىٌّ من أنبياء الرب فلماذا تسألنى؟» ولكنه أجابه فى تعالٍ وغطرسة: «لقد جاءونى من بلاد بعيدة، بل جاءوا من بابل»..

وبسبب هذا الرد المتغطرس تنبأ له "أشعيا" بالنبوءة التالية: «اسمع.. سيأتى يوم يُحْمَل جميع ما فى بيتك إلى "بابل"، وسيكون من أولادك الذين سينحدرون منك خِصِىٌّ فى قصر ملك "بابل"».

وبالمثل كان على الوغد "بلعام" أن يجيب الرب قائلاً:

- «يارب العالم! إنك تعلم كل شىء ولا يخفى عليك شىء فلماذا تسألنى؟»

ولكنه أجاب بإجابة مختلفة تماماً إذ قال:

- «بالرغم من أنك لم ترفع قدرى وتُعْلِ مكانتى، فإن ملوك الأرض تسعى إلىّ.. لقد أرسل "بالاق" ملك "مؤاب" إلىّ يطلب منى أن ألعن بنى إسرائيل».

فقال له الرب:

- «لأنك تتكلم معى بهذه اللهجة فلن تلعنهم.. أيها الوغد الحقير!! ألم أقل عن إسرائيل أن من يمسهم بسوء فكأنه اقتلع جوهرة عينى!! ومع ذلك تريد أنت أن تمسهم بالسوء وتلعنهم!! لهذا فلأعْمِيَنَّ عينك!!».

لهذا فقد صار "بلعام" أعور، كما كان أعرج فى إحدى قدميه.

فلما أدرك "بلعام" أن الرب لا يريده أن يلعن بنى إسرائيل قال له:

- «إذا كان ذلك ما تريده، فلأباركهم إذاً؟».

فأجابه الرب:

- «ليسوا فى حاجة إلى بركتك يا شاطر!! إنهم مباركون».

وبهذا كان الرب كأنما يقول لبلعام:

«يا نحلة لا تقرصينى ولا أريد منك عسلاً!».



«بلعام» يقبل دعوة «بالاق»

فى الصباح التالى، أجاب "بلعام" على رسالة شيوخ "مؤاب" بالقول إنه لن يلبى طلب بالاق.. ولكنه لم يفصح لهم عن حقيقة أن الرب قد حرَّم عليه لعن بنى إسرائيل.

وقال لهم "بلعام":

- «لقد قال لى الرب «لا تذهب مع هؤلاء الناس، فذلك لا يناسب قَدْرَك، ولكن انتظر حتى يأتيك سفراء أعلى مكانة».

وكان يريد بذلك أن يهين "بالاق" فيحجم عن إرسال المزيد من الرسل إليه فلا يكتشف أحد أن السبب الحقيقى لرفضه هو أنه لا يقدر على فعل شىء يخالف كلام الرب.

لكن خاب ظنه..

فقد أوصل الرسل رده إلى ملكهم بكل أمانة - دون أن يشعروا بأى مهانة فيه - فأخبروه بأن "بلعام" يتعالى عن مرافقتهم وأنه لم يذكر شيئاً عن الرب، لذا فيبدو أنه هو الذى يرفض.. لا الرب.

وعند ذلك أرسل "بالاق" رسلاً أرفع شأناً حتى اضطر "بلعام" فى النهاية للإقرار بأنه لا يستطيع مخالفة أمر الرب.. وحتى عندما فعل ذلك فإنه لم يبيِّن لهم أن رفضه أو قبوله لدعوة "بالاق" تتوقف على إرادة الرب

بالكامل، ولكنه صرَّح لهم بأنه يستطيع فعل ما يريد، لكنه لا يريد مخالفة أوامر الرب.

وفى هذه السفارة الثانية وعد "بالاق" بأن يمنح "بلعام" أكثر وأكثر لقاء خدمته له، لكن "بلعام" أجاب السفراء قائلاً:

- «حتى لو أعطانى بالاق ملء بيته ذهباً وفضة فإننى لا أقدر على مخالفة أمر ربى ومولاى».

وفى رده ذلك تجلَّت رذائله الثلاث: الحسد والكِبْر والجشَع..

فمن حسده لبنى إسرائيل كان يريد تدميرهم..

ومن كِبْره أخبر السفارة الأولى بأن الرب لم يرد له مرافقتهم لأنهم ليسوا من مقامه.. وتَجلَّى جشعه فى قوله للسفارة الثانية بأن ذهب وفضة "بالاق" لن تعوضاه التعويض المناسب عن خدماته، قائلاً:

- «لو استأجر "بالاق" ألوف الألوف من المحاربين ليهزم بنى إسرائيل ويقضى عليهم فلن يستطيع.. أما إذا استأجرنى أنا فسيكون واثقاً من النصر».

وبالرغم من ذلك فإنه لم يجب على السفارة الثانية برد حاسم وإنما طلب منهم الانتظار حتى الصباح ليستشير الرب ويعرف هل يأذن له بمرافقتهم أم لا.

«إن الرب يهدى كُلاّ إلى الطريق الذى يختاره»..

وهكذا فمع أن الرب قد أمره من المرة الأولى بعدم الذهاب معهم، فإنه لم يرتدع وظل يلح فى طلب مرافقتهم.. ولذا فإن الرب قد تركه ليفعل ما اختاره وقال له عندما ظهر له فى المرة الثانية:

- «إذا طلب منك الرجال مرافقتهم فانهض واذهب معهم.. لكن لا تفعل إلا ما كلمتك به».

«الوقح ينال ما يريد.. حتى من الرب !!».

وهكذا فإن إلحاح "بلعام" على ما يريد جعله ينتزع من الرب موافقته على ذهابه إلى "مؤاب".

ومع ذلك فقد حذره الرب من مغبة فعله، قائلاً:

- «إنى لا أتلذذ بمعاقبة الخطاة وإهلاكهم.. لكن إن كنت أنت مصرّاً على أن تجلب الهلاك لنفسك، فأنت وما تريد! وتذكَّر أن من يحفر لأخيه حفرة يقع هو فيها!».

وقد أساء "بلعام" فهم سلوك الرب معه، ولذا فقد أودى بنفسه إلى الهلاك. فعندما ظهر له الرب فى المرة الأولى وسأله:

- «من هؤلاء الرجال الذين معك؟».

فكر هذا المجدِّف فى نفسه قائلاً: «إن الرب لا يعرف من يكونون! يبدو أنه تأتى عليه أوقات لا يعرفون فيها ماذا يجرى فى هذا العالم، ولذا فلربما أستطيع فعل ما أريد بأطفاله دون أن يدرى».

وقد أضل الربُّ "بلعام" لأنه أغوى بكلماته أناساً كانوا حتى ذلك الوقت أبرياء. وقد حيَّره كثيراً تغيير الرب لقراره بشأن الذهاب إلى "مؤاب"..

حتى إنه قال لنفسه:

- «فى البداية رفض ثم بعد ذلك وافق.. وفى البداية نهانى عن لعنهم. ربما يوافق على ذلك فيما بعد».

ولم يكن الرسل الذين أرسلوا إليه أقل منه تَحيُّراً وارتباكاً[1].

---

(١) كل هذا اللف والدوران المقصود منه تبرير هذا التناقض العجيب فى نهى الرب له عن مرافقتهم (عدد ٢٢: ١٢)، ثم أمره له بمرافقتهم بعدها بقليل (عدد ٢٢: ٣٠)؛ وانظر كذلك (عدد ٢٢: ٣٣) (المترجم).

أتان [١]« بلعام »

لم يطق "بلعام" الانتظار حتى الصباح، وما إن لاحت تباشير الفجر حتى أسرع يعد أتانه للركوب بنفسه، بالرغم من أنه كان لديه خدم كثيرون...!

ولهذا قال الرب:

- «أيها الوغد الشرير! لقد سبقك إبراهيم بهذه الفَعْلَة ولكن لمرضاتى.. فقد أسرع يُعدُّ أتانه بنفسه ليأخذ "إسحق" إلى حيث أمرته ليضحِّى به تنفيذاً لأمرى»!!!.

وهذه الأتان التى ركبها "بلعام" فى طريقه إلى "مؤاب"، كانت قد خُلِقَت فى اليوم السادس لبدء الخليقة. وكان "يعقوب" قد رشا بها "بلعام" لكيلا يشى ببنى يعقوب عند "فرعون".. ومع ذلك فإن "فرعون" قد أرغم بنى إسرائيل على صنع القرميد، بمشورة "بلعام" نفسه..!

وقد اصطحب "بلعام" فى رحلته إلى "مؤاب" ابنيه "يانِّس" و"يَانْبِرس"، إذ هو أليق بالرجل النبيل دائماً أنا يصطحب معه رفيقين على الأقل فى أى رحلة يقوم بها».

* * *

(١) أنثى الحمار. (المترجم)

وبالرغم من أن الرب أذن له بالقيام بهذه الرحلة، فإن غضبه قد حمى عليه لأنه شرع فيها بالفعل.. وذلك لأن الرب كان يعلم أن هذا الوغد الشرير يضمر فى نفسه الشر لبنى إسرائيل. ولذا فقد كان من نتيجة هذا الشر الذى أضمره فى نفسه أن عاداه "ملاك الرحمة" وراح يعترض طريقه.

وفى البداية لم يَرَ الملاكَ إلا الأتان وحدها، بينما لم يَرَه "بلعام"، لأن الرب شاء ألا يرى بنو آدم الملائكة، لكيلا يفقدوا رشدهم من شدة الخوف.

وفى البداية أيضاً وقف الملاك فى طريق الأتان مُفْسِحاً لها طريقاً للمرور عن اليمين وعن الشمال.. فلما مالت إلى أحد الجانبين سد عليها الطريق ولم يفسح لها إلا ناحية واحدة من الطريق.. ثم وصلت إلى بقعة سدت فيها طريقها تماماً.. وكان ذلك ليتعلم "بلعام" درساً مهمّاً: فإذا أراد لعن أبناء "إبراهيم"، فلديه أبناء "إسماعيل" وأبناء "قطورة" عن يمين وشمال.. وإذا أراد لعن أبناء "إسحق" فلديه أبناء "عيسو" فليلعنهم كيفما شاء.. أما إذا أراد لعن أبناء "يعقوب"، فلا سبيل له إلى ذلك فهم محميون عن جانب بإبراهيم وإسحاق، وعن الجانب الآخر بيعقوب ولاوى، والرب يحميهم من فوق.

وعندما وصلت الأتان إلى الحائط الذى كان "لابان" و"يعقوب" قد بنياه معاً علامة على أنه "لا يجوز لأحدهما تخطيه ليعتدى على الآخر"، رفسته الأتان بساقيها فانقلب من على ظهرها.. لتعاقبه بذلك على مخالفته لاتفاقه مع يعقوب.

وانهال "بلعام" على الأتان ضرباً بعصاه، لكنها ربضت على الأرض وأبت التحرك! فأخذ يضربها بعنف أكثر وأكثر، ثم فتح الرب فمها فقالت له:

- «ماذا فعلت لك لكى تضربنى هكذا ثلاث مرات؟».

وقد اختارت عبارة «ثلاث مرات» بعناية، وكان لها مغزى.

فقد أرادت الأتان أن تذكِّره بأنه أراد «ثلاث مرات» الشروع فى شره

ضد بنى إسرائيل الذين يحجون إلى الرب «ثلاث مرات» فى العام. كما كان كلام الأتان تحذيراً لبلعام بأن يحترس من كلامه فلا يلعن بنى إسرائيل. وكانت تريد تعليمه بكلامها، أن الفم واللسان بيد الرب.

ورد "بلعام" على الأتان باللغة التى استخدمتها، وهى العبرية، بالرغم من أنه لم يكن يتقنها.. وقال لها فى غضب:

- «ليتنى كنت أحمل سيفاً لأقتلك به، لاستهزائك بى!!».

فأجابته الأتان ساخرة: «إنك لا تستطيع قتلى إلا بسيف تحمله فى يدك.. فكيف لك إذاً أن تقدر على تدمير شعب بكلمة من فمك!!؟».

فلزم "بلعام" الصمت ولم يجد ما يجيبها به.

ثم سخرت منه الأتان وجعلته أضحوكة أمام شيوخ "مؤاب" الذين كانوا فى صحبته، عندما سألوه لماذا لم يركب جواده بدلاً من هذه الأتان، فأجابهم بأن جواده قد ذهب للرعى..

فردت الأتان عليه ساخرة: «وهل كان لديك قط جواد!؟ ألست أنا أتانك الذى ركبت عليها طوال حياتك؟»

فأجابها مرتبكاً:

- «إنما أستخدمك لأحمل عليك أثقالى، لا لأرتحل هنا أو هناك».

فردت فى حدة:

- «يا شيخ! لتقل كلاماً غير ذلك!! إنك تركبنى فى رحلاتك منذ صغرك، ولطالما كنت تعاملنى بمنتهى اللطف والعطف.. وكأننى زوجتك، لا أتانك!!» وقد أمات الرب هذه الأتان على الفور، لكيلا يعبدها الوثنيون أو تفضح "بلعام" أمام الناس.

«بلعام» يسير برجليه إلى حتفه

كان كل ذلك يحدث و"بلعام" لا يرى ملاك الرب، ثم أراه الرب الملاك فجأة فخر على وجهه ساجداً أمام الملاك، لأن "بلعام" غير مختون لذا فلا يمكنه الاستماع إلى كلام الرب أو كلام الملائكة وهو منتصب واقفاً..! وكان الملاك يحمل فى يده "سيفاً"، لم يكن يريد قتل "بلعام" به وإنما توصيل الرسالة التالية إليه:

«أن "يعقوب" أعطى فماً[١]، بينما أُعْطِىَ "عيسو" والأمم الأخرى السيف. وها أنت توشك أن تغيِّر مهنتك وتحارب بنى إسرائيل بسلاحهم الخاص بهم[٢]، ولذا فسوف تلقى مصرعك بالسيف الذى هو سلاحك».

* * *

ثم قال الملاك لبلعام:

- «لو كان الرب قد أرسلنى للاقتصاص للأتان منك، لما كفانى قتلك.. فكيف بك إذا أرسلنى للاقتصاص منك لشعب له من أفعال آبائه وفضائلهم يَدٌ عند الرب وكرامة!؟ لكن، لماذا ضربت الأتان وما حادت عن الطريق إلا لأنها رأتنى فخافت وارتعبت؟».

فأجابه "بلعام" قائلاً فى خبث:

(١) المقصود هو الدعاء. (المترجم)

(٢) أى بالدعاء عليهم ولعنهم. (المترجم).

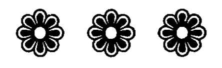
- «لقد أخطأت يا سيدى وعصيت.. لكننى لم أخرج إلا لأن الرب قال لى: «انهض واذهب معهم» وها أنت الآن تقول لى «عُدْ من حيث أتيت».. لكن الرب يفعل ذلك دائماً: فقد أمر إبراهيم بأن يضحى بابنه ثم أرسل له ملاكاً ينهاه عن أن يفعل.

ولذا فقد قال لى فعلاً: «اذهب معهم».. لكن إن كان ذلك يسوءك فسأعود من حيث أتيت».

فأجابه الملاك:

- «إنما فعلت ما فعلته لمصلحتك.. لكن إن كنت تريد إهلاك نفسك فأنت وشأنك.. اذهب مع هؤلاء الناس، لكن اعلم أنه كُتِبَ عليكم جميعاً الهلاك. لكن لا تحسبن أنك ستفعل ما تريد، فلن تتكلم إلا بما أريدك أن تتكلم به.. ولن تمتنع إلا عما أريدك أن تمتنع عنه».

وعلى الرغم من تحذير الرب والملاك له، فإنه لم يرتدع عن القيام بهذه الخطوة المميتة.. ولكن كرهه لبنى إسرائيل جعله يحلم بأن يلبى له الرب رغبته فى لعنهم.. ولذا فقد واصل رحلته سعيداً نشواناً يحدوه هذا الأمل الخائب!!



«بلعام عند «بالاق»

عندما يريد الرب إذلال الأشرار يرفعهم أولاً لكى يملأهم بالكبر والغرور ثم ينزلهم على جذور رقابهم فيتحطم كبرهم ويتفتت غرورهم..!

وهكذا كانت الحال مع بلعام..

فعندما أرسل إليه "بالاق" فى المرة الأولى سفراء قليلى الشأن، نهاه الرب عن الذهاب معهم.. ثم عندما عاد "بالاق" فأرسل إليه سفارة أعظم من سابقتها شأناً ومكانة أمره الرب بالذهاب معهم. لكن هذه الرحلة لم تجلب له إلا الهوان والهلاك.. إذ كان حاله كما يقول المثل:

«يسبق الكِبْرُ كل هلاك، ويغتر المغرور قبل وقوعه».

ولا يفعل الرب ذلك بالخطاة، إلا لكيلا يقول الناس أنه لم يقدر إلا على الضعفاء والمتصنعين.

عندما اقترب "بلعام" من حدود "مؤاب"، أرسل رسلاً إلى "بالاق" ليعلن له عن وصوله.. فخرج "بالاق" لمقابلته.

وأشار "بالاق" إلى حدود بلاده قائلاً لبلعام:

ـ «هذه الحدود مرسومة من أيام نوح لكيلا تتعدى أمة على حدود أمة أخرى.. لكن هاهم بنو إسرائيل قد جاءوا يريدون محوها والاستيلاء على أرضنا كما فعلوا مع "سيحون" و"عوج".

ثم حيَّاه قائلاً:

- «لقد أرسلت لك مرتين، فلماذا لم تأتِ إلىَّ؟ أحقّاً لا أقدر على إكرامك؟»

وكان فى كلام "بالاق" نبوءة صدق.. إذ سيخرج "بلعام" من عنده ذليلاً مهاناً بعد فشله، فى لعن بنى إسرائيل.. ولو كان يريد حقّاً خدمة "بالاق" لكان حذره من إضمار الشر بشعب الرب، ولكنه راح يعد له فضائله وقدراته باعتباره آخر أنبياء الوثنيين..

ثم أضاف قائلاً: «وباعتبارى آخر أنبياء الوثنيين فإنى أنصحك بالآتى: إن أسلاف أمة بنى إسرائيل قد أقاموا للرب مذبحاً يحج إليه أبناؤهم وذريتهم من كل عام ثلاث مرات ويقربوا القرابين. لذا فابنِ أنت سبعة مذابح للرب وقرب على كلٍّ منها سبعة كباش وسبعة ثيران».

وعندما سمع الرب ذلك ضحك قائلاً: «لى كل بهيمة فى الغابة وكل غنمة فى آلاف التلال.. وأعلم كل حيوان أو طائر فى الجبال.. والحيوانات البرية فى الحقول لى.. ولو كنت جائعاً لما أخبرتك بذلك، إذ العالم ملكى وما فيه لى. فهل سآكل لحم الثيران أو أشرب دم الشاء؟»

وبعد ذلك قاد "بالاق" ضيفه "بلعام" إلى داخل البلاد وأراه حوانيتها وشوارعها وأشار إلى أهلها وأطفالها قائلاً:

- «انظر.. يريد بنو إسرائيل القضاء على هذه الحشود من البشر الذين لم يتعرضوا لهم بسوء».

ثم أخذه إلى مقره وذبح له ثوراً وشاة، فقال "بلعام" فى نفسه:

- «أهذا هو كل ما قدر على تقديمه طعاماً لى؟!».

وقرر من فوره أن يأمره فى الغد بتقريب الكثير من القرابين.. عقاباً "لبالاق" على قلة ذوقه معه!!

رفض قرابين "بلعام"

فى الصباح التالى أخذ "بالاق" ضيفه "بلعام" إلى مرتفعات "بَعْل". إذ كان "بالاق" نفسه ساحراً أعظم من "بلعام" ولكنه تركه ليسوقه كالبهيمة وراءه!! وقد قاده "بالاق" إلى هذه المرتفعات لأنه كان يعلم أن بنى إسرائيل سيلقون معاناة شديدة عند مرتفعات "بَعْل بعور"، لذا فقد ظن أن لعن "بلعام" لهم هو الذى سيتسبب فى هذه المعاناة.

وكانت علاقة هذين الرجلين، أحدهما بالآخر، مثل علاقة رجلين مع أحدهما سكين فى يده لكنه لا يعلم أن يطعن ليقتل، بينما يعلم الآخر مكان الطعنة لكنه لا يحمل سكيناً ليطعن به.. فقد كان "بالاق" يعلم المكان الذى تنتظر بنى إسرائيل فيه الكارثة، لكنه لا يدرى كيف يجلبها عليهم.. بينما كان "بلعام" يعرف كيف يجلبها عليهم ولكنه لا يعرف المكان المناسب..!

وكانت ميزة "بلعام" التى يمتاز بها على "بالاق" وغيره من السحرة هى أنه يعلم اللحظة التى يغضب فيها الرب ولذا فإن لعناته تكون مؤثرة عندما ينطق بها فى لحظة غضب الرب بالضبط. وصحيح أن الرب يغضب فى لحظة معينة، هى الساعة الثالثة من النهار، عندما يتعبد الملوك للشمس وتيجانهم على رؤوسهم، ولكنها لحظة متناهية فى القصر. والساعة الواحدة من الزمان بها خمسة وثمانون ألف وثمانون لحظة كهذه[1]، ولهذا فإنه لا يقدر مخلوق سوى "بلعام" على تحديدها بدقة.. بالرغم من أن لها تجليات

(١) هاهم قد سبقوا الدكتور أحمد زويل فى اكتشاف الفيمتو ثانية!!

فى الطبيعة، إذ فيها يبيضُّ عُرْفُ الديك تماماً حتى لا يبقى فيه أثر للاحمرار. لكن حب الرب لبنى إسرائيل قد بلغ درجة أنه عندما نطق "بلعام" بلغته فى تلك اللحظة لم يغضب الرب على الإطلاق، ولذا فقد انتظر "بلعام" دون جدوى لحظة غضب الرب.

* * *

أراد "بلعام" أن يحصل على موافقة الرب على لعن بنى إسرائيل، ولذا فقد أمر "بالاق" بتشييد سبعة مذابح فوق مرتفعات "بَعْل" تناظر المذابح السبعة التى أقامها - منذ عهد آدم - سبعة رجال أتقياء، هم: "آدم"، و"هابيل" و"نوح" و"إبراهيم" و"إسحاق" و"يعقوب" و"موسى".

وبعدما تم تشييد المذابح السبعة، قال "بلعام" للرب:

- «لماذا تفضِّل هذا الشعب على غيره، إن لم يكن من أجل القرابين التى يقربونها إليك؟

وأليس من الأفضل لك أن تعبدك سبعون أمة على أن تعبدك أمة واحدة فقط؟».

لكن الروح القدس أجابه:

- «لقمة هنية وعيشة رضية، أفضل من بيت مملوء بالطعام.. والشقاق» لوجبة يابسة تُقرِّبُ إلىّ لهى أفضل عندى من كل هذه القرابين التى تقربها سعياً لإثارة الشقاق بينى وبين إسرائيل».

والآن تقرر مصير "بلعام".. إذ أنه بما فعل قد وضع نفسه فى موضع الخصومة مع الرب فحكم عليه بالهلاك، ومن تلك اللحظة فصاعداً فارقته روح النبوة وبقيت فيه روح السحر والعرافة. ولكن الرب، ومن أجل خاطر بنى إسرائيل، منحه شرف تلقى الوحى منه، وإن فعل الرب ذلك فى اشمئزاز وتأفف، كما يتأفف المرء من لمس شىء نجس. ولذا فلم يأذن له

الرب بعد ذلك بالذهاب إليه، ولكن الرب كان هو الذى يظهر "لبلعام".

وواضح بالطبع اختلاف معاملة الرب لموسى عن معاملته لبلعام عند تَلَقِّى كل منهما وحيه.. إذ كان موسى يذهب إلى الرب فى الهيكل ليتلقى الوحى، بينما كان الوحى يتنزل على "بلعام" فى أى مكان..

وكما يقولون، ذهب رجلان ذات مرة إلى أحد الأعيان، وكان أحدهما صديقه والآخر كان أبرص يتسول.. فقال النبيل لخدامه:

- «أدخلوا صديقى إلىَّ هنا.. أما ذلك الأبرص فأرسلوا صدقته إليه ولا تجعلوه يدخل لكيلا يوسِّخ قصرى».

وهكذا فقد كان الرب يدعو موسى ليذهب إليه.. بينما لم يكن يريد أن يأتى إليه "بلعام"، ولذا فقد كان يذهب إليه بنفسه.

وذهب الرب إلى "بلعام" فوجده عند المذابح السبعة التى شيدها..

فسأله الرب: «ما الذى تفعله هنا!؟».

فأجابه "بلعام": «لقد بنيت لك مذابح بعدد ما شيده لك الآباء الثلاثة لبنى إسرائيل من مذابح» وقرَّبت لك عليها الكباش والثيران..

لكن الرب قال له: «خبز وملح مع حب ومودة، خير من لحم ومرق وكراهية».. إن الخبز غير المختمر والملح الذى كان بنو إسرائيل يقربونه إلىَّ فى مصر لهو أفضل عندى من الثيران التى تقربها إلىَّ كراهية فيهم.. أيها الوغد الحقير! لو كنت أريد القرابين لأمرت "ميكائيل" "وجبريل" ليجلباها إلىّ.. لكننى أقسمت ألا أقبل قرابين من أى أمة إلا بنى إسرائيل وحدهم» ثم سلَّمه الرب إلى ملاك فدخل فى حلق "بلعام" وجلس متربعاً فلم يستطع أن ينطق بحرف عندما أراد لعن بنى إسرائيل.

* * *

«بلعام» يثنى على بنى إسرائيل

بعد ذلك التفت "بلعام" إلى "بالاق" الذى كان ينتظره مع أمرائه.. وعندما أراد فتح فمه ليلعن بنى إسرائيل، حَوَّل الملاك لسانه فانطلق يثنى عليهم ويباركهم قائلاً:

ـ «أجد نفسى على رُبا عالية مع الآباء لتأتى أنت يا "بالاق" لتُسْقِطنى من على هذه الرُّبا، إذ بسببك أفقد نعمة النبوة. وليكونَنَّ كلانا ناكراً للجميل إن أردنا ببنى إسرائيل الشر، إذ لولا أبوهم إبراهيم ـ الذى من أجله أنقذ الربُّ «لوطاً» من دمار المدن ـ لما كنت أنت يا "بالاق" موجوداً، فأنت من ذرية "لوط" ـ ولولا "يعقوب"، لما كنت أنا ـ وأنا من ذرية "لابان" ـ موجوداً فلم يكن للابان من ذرية إلا بعدما دخل يعقوب إلى بيته. ولقد أتيت بى من "أرام" لألعن بنى إسرائيل.. لكن أباهم إبراهيم غادر هذه الأرض نفسها مُحمَّلاً بالبركات، وهى نفسها الأرض التى دخلها أبوهم "يعقوب" مُحَمَّلاً بالبركات. فهل ستخرج من هذه الأرض لعنة عليهم؟ وكيف لى أن ألعنهم إذا كان من يلعنهم يجلب على نفسه اللعنة؟ وفوق كل هذا فإنك تريد منى أن ألعن «يعقوب»!! ولو كنت طلبت منِّى لعن أمة من ذرية "إبراهيم" أو "إسحق"، فلربما قدرت على تلبية طلبك.. لكن أن يلعن امرؤ بنى إسرائيل فكأنما يذهب إلى الملك ليقول له: «التاج الذى على رأسك لا تستحقه» فهل ينجو امرؤ كهذا بحياته؟ إن نصيب الرب هو شعبه الذى اختاره، ويعقوب هو نصيبه فى الميراث.. فقد قال الرب: «فى إسرائيل سأتمجدن. فكيف لى

الآن أن ألعنهم؟ وكيف أقدر على لعن من لم يلعنه الرب؟ إنه لم يلعنهم حتى عندما كانوا يستحقون اللعنة!! فعندما ذهب "يعقوب" ليتلقى البركة خدع أباه "إسحاق" وادَّعى بالكذب أنه "عيسو"، وكان يستحق اللعنة من أجل هذه الكذبة، ولكنه بورك!! وأى قرية تتمرد على ملكها يُحْكم على أهلها بالموت، ولكن بنى إسرائيل تمردوا على الرب وعبدوا الأوثان فلم يُمِتْهُم ولا حتى تخلَّى عن حبه لهم وإنما ترك لهم سحابات المجد والعين والمن، حتى بعدما عبدوا العجل الذهبى.. ولطالما عصوا وأذنبوا فهددهم الرب باللعنة لكنه لم يلعنهم، ولكن كلما وعدهم ببركة نَفَّذها بنفسه لهم. فكيف لى إذاً أن ألعن عندما لا يلعن الربُّ!!».

«إن بنى إسرائيل أمة فكر الرب فيها حتى قبل أن يفكر فى خلق الكون. وهم الصخرة التى تأسس عليها الكون. فعندما قرر الرب خلق العالم رأى بعلمه جيل "أخنوخ" الذين عبدوا الأوثان فأحجم عن خلق العالم، ولكنه لما رأى إبراهيم قال: «ها هى صخرة أستطيع البناء عليها، وإنسان أستطيع أن أؤسس عليه العالم».

وكيف لى كذلك أن ألعن هذه الأمة التى حمتها وحفظتها سجايا الآباء وزوجاتهم وكأنما هى قلاع وجبال سامقة تحيط بهم، فكلما أخطأوا يغفر الرب لهم بمجرد أن يدعوه موسى من أجلهم مذكِّر له بسجايا الآباء!! لقد أخطأتُ إذ ظننت أننى أستطيع الهجوم على بنى إسرائيل بسهولة، لكننى قد علمت الآن أنهما ضاربون بجذورهم فى الأرض، فلا يمكن اقتلاعهم منها. والرب يغفر لهم خطايا كثيرة بسبب حفاظهم على أمارة عهد إبراهيم[1]، وبقدر عجزى عن لعنهم بمفردى، فإننى لعاجز عن لعنهم مع أمة بأكملها إذ هم «أمة نسيج وحدها ومتفردة عن باقى الأمم» وإسرائيل أمة متفردة على جميع الأمم الأخرى فى عادتها وطعامها وعلامة العهد على أبدانها[2]

(١، ٢) أى الختان. (المترجم).

وعلامة الدم على قوائم بيوتها.. ولذا فإن الرب لا يحاسبهم مع الأمم الأخرى التى يحاسبها فى ظلام الليل، بينما يحاسب بنى إسرائيل فى وضح النهار. وإسرائيل شعب مستقل بذاته ينعم بالبركات التى أغدقها عليه الرب، ولا يشاركه فيها شعب آخر. ولينعمن بنو إسرائيل فى زمن المسيًّا وحدهم بالمسرات والنعائم، بينما يمكنهم فى هذا العالم أن يشاركوا غيرهم من الأمم فى التمتع بمباهج الحياة.

«إننى لا أستطيع القيام بشىء مطلقاً ضد أمة تسارع فى حماسة لتنفيذ أوامر الرب وتدين بوجودها للإخلاص الذى أطاعت به زوجات الآباء أوامر الرب ووصاياه.

ربٍّ توفنى فى الصالحين واجعل نهايتى مثل نهايتهم..».

* * *

وهكذا اختتم بلعام كلامه فتنبأ بأنه لن يموت ميتة الصالحين - وهى الميتة الطبيعية - بل سيموت ميتة عنيفة، ولذا فلن يكون له نصيب فى العالم الآتى مثل الصالحين.



إحباط آمال «بلعام»

عندما رأى "بالاق" أن "بلعام" قد بارك بنى إسرائيل بدلاً من لعنهم، أخذه على "رأس الفِسْجَة" على أمل أن ينجح هناك فى لعنهم، إذ كان "بالاق" قد رأى بعين عرافته وسحره أن مصيبة عظيمة ستحل ببنى إسرائيل فى هذا المكان ولكنه لم يكن يعلم أن هذه المصيبة إنما هى موت قائده "موسى" هناك.

وظهر الرب مرة أخرى لبلعام وأمره بأن يذهب إلى "بالاق" مرة أخرى فيبارك بنى إسرائيل مرة أخرى.. فذهب "بلعام؛ على مضض وأثنى عليهم وباركهم أمام "بالاق" مرة أخرى.

فلما رأى "بالاق" أن "بلعام" قد أثنى على بنى إسرائيل وباركهم للمرة الثانية، أخذه إلى "رأس فغور"، ظاناً أن الرب قد يرضى عن لعنهم فى ذلك المكان.

وكان "بالاق" قد اختار ذلك المكان بالذات لأنه رأى بعين سحر أن مصيبة ستقع لبنى إسرائيل عند "رأس فغور"، فظن أنها قد تحدث بسبب لعن "بلعام" لهم.

لكنه أخطأ فى ظنه للمرة الثانية، إذ لم تكن تلك المصيبة سوى خطية بنى إسرائيل مع بنات "مؤاب" وعقاب الرب لهم على ذلك.

ومن جانبه فلم يحاول "بلعام" مرة أخرى مناشدة الرب ليوافق له على

لعن بنى إسرائيل، ولكنه ظن أنه قد يقدر على إثارة غضب الرب عليهم إذا ذكَّره بكل المعاصى والآثام التى ارتكبوها فى الصحراء.. لكن هذه الصحراء هى نفسها المكان الذى قَبِلَ فيه بنو إسرائيل التوراة، ولذا فإن ذِكْر "بلعام" للصحراء قد أثار "حب" الرب لبنى إسرائيل، لا غضبه عليهم.

و"بلعام" نفسه، عندما طاف ببصره مخيم بنى إسرائيل ورأى خيامهم قد أخفضت فلا يستطيع أحدهم رؤية ما يفعله جاره، وجد نفسه مضطرّاً لمدحهم والثناء عليهم.. وبتأثير من روح النبوة الكامنة فيه انقلبت اللعنات التى كانت على طرف لسانه إلى بركات وأخذ يتحدث عن مساحة مملكة إسرائيل وأهميتها.

لكن بينما كان موسى يمدح قومه بصوت هادئ خفيض، فإن "بلعام" راح يثنى عليهم بصوت جهورى عالٍ سمعته كل الأمم.. لكى يثير حسد هذه الأمم لبنى إسرائيل فيشنوا الحرب عليهم.. ولهذا فإن مباركته لبنى إسرائيل لم تحسب له وإنما عليه..

وقال الرب:

- «لقد وعدت "إبراهيم" بأن أبارك مباركيه وألعن لاعنيه.. ولذا فإننى سأحسب بركات "بلعام" لعنات».

وبالفعل تحولت جميع بركات "بلعام" فيما بعد إلى لعنات حلت ببنى إسرائيل.. فيما عدا بركته لهم بألا تغلق أبداً دور العبادة والعلم فى بنى إسرائيل..

* * *

وقد سمعت جميع أمم الأرض كلمات "بلعام".. إذ منح الرب صوته قوة بالغة، لأنه كان يعلم أنه سيجىء فى المستقبل رجل «ولد من امرأة» ليزعم أنه إله فيضل العالم كله. ولهذا فإن الرب قد أسمع العالم كله كلمات "بلعام"

التى يقول فيها:

- «إن الرب ليس بإنسان.. وأى إنسان يَدَّعى أنه الرب إنما هو كاذب» لكن من يُضِلُّ العالم مدعياً أنه سيختفى لفترة ثم يظهر ثانية، لن يستطيع أبداً تحقيق وعده. ويل إذاً لهذه الأمة التى ستستجيب لذلك الذى سيدَّعى أنه الرب»[١].

كما تنبأ "بلعام" كذلك بالأحداث التى ستقع فى مُلْك "داود" وبما سيحدث فى آخر الزمان، فى زمن المسِيَّا.. عندما تقضى إسرائيل على "روما" وجميع الأمم الأخرى، ما عدا ذرية "يثرون" فقط الذين سيشاركون بنى إسرائيل أفراحهم وأتراحهم..

أجل فسيكون بنو "قايين" هم الذين سيعلنون لبنى إسرائيل عن ظهور المسيا.. وسيكون أبناء "يوناداب" القينى هم أول من يُحْضِر القرابين إلى الهيكل ويعلنوا عن خلاص "أورشليم».

* * *

وكانت هذه آخر نبوءات "بلعام" وبعدها فارقته روح النبوة، وبذا حقق الرب أمنية موسى بأن تقتصر نعمة النبوة على بنى إسرائيل.. فقد كان "بلعام" آخر نبى يظهر فى الوثنيين.



(١) هذا الكلام فيه إشارة صريحة للسيد المسيح عليه السلام، وبالقطع فإن السيد المسيح لم يدَّعى أنه إله، ويبدو أن هذه الحكاية قد ألفت بعد بعث السيد المسيح ورفعه بمدة نكاية فى المسلمين من أتباعه وتشنيعاً عليهم.

مشـورة السـوء

على الرغم من أن بلعـام لم يتـمكن من تحـقـيق رغـبـتـه فى لعن بنى إسـرائيل، فـإنه لم يتـرك "بالاق" دون أن يخـبـره بما يمكن أن يجلب غـضب الرب عليهم.

وقال له:

- «إن رب هؤلاء الناس يكره الفـاحشة، ولكنهم متلهفون على شـراء ثياب من الكتان الجيد.. لذا فانصب خياماً وضع على أبوابها عـجائز ليقمن ببيع هذه الثيـاب وبذا فلن يحجموا عن دخول هذه الخيام.. إذ صويحباتها نساء عـجـائز لا شـهـوة فـيـهن.. فـإذا مـا دخلوها فـاجـئـهم بعـاهرات صـغـيـرات حسناوات ليغرينهم بالفاحشة فيزنوا معهن فيعاقبهم الرب على خطيتهم».

* * *

حقّاً إن "الطبع يغلب التطبع»...!

إن بنى "مـؤاب" الذى يدين بوجـوده لـعـلاقـة الزنا التـى كانت بين "لوط" وبين ابنتـيـه[1] لم يتتكروا لأصلهم وتقـبلوا مـشـورة "بلعـام" بصـدر رحب وأسرعوا ينفذونها..!!

أقام بنو "مـؤاب" خياماً ملأوها بالنساء الشابات الفاتنات، وأوقفوا على مداخلها نساءً عجائز ليغرين المارِّين من بنى إسرائيل بالدخول إليها، فإذا

(١) هكذا يقول المغضوب عليهم.

مر رجل من بنى إسرائيل بإحدى هذه الخيام، تقول له العجوز:

- «ألا تود شراء ثياب كتان صنعت فى "بيت شان"؟».

ثم تريه عينة من البضاعة وتغريه بسعر زهيد..

ثم تضيف:

- «ادخل إلى الخيمة وتفرج لتجد أفضل وأجود من ذلك».

فإذا دخل إلى الخيمة وجد شابة حسناء قد تزينت وتعطرت ولبست ثياباً شفافة كاشفة عن مفاتنها، فتحدد له سعراً يقل كثيراً عن قيمة البضاعة ثم تدعوه للتصرف على راحته وكأنه فى بيته واختيار ما يحب. ثم بينما هو جالس مفتوناً بجمالها، تُقَدِّم إليه الخمر وتدعوه الشابة للشرب.. قائلة:

- «لماذا نحبك وتكرهنا؟ ألسنا جميعاً أبناء امرأة واحدة؟ ألم تكن "تيره" جدتنا كما هى جدتك؟ وإن لم تكن تريد الأكل من قرابيننا أو الطعام الذى طهوناه بأنفسنا، فها هنا عجول وطيور تستطيع أن تذبحها وتأكل منها وفقاً لشريعتك».

لكن ما إن يستسلم الإسرائيلى لإغواء المرأة فيشرب الخمر، إلا ويقع تحت سيطرة المرأة تماماً وتشتعل شهوته تجاهها.. لكنها لا تدعه يشبع حاجته من جسدها إلا بعدما يسجد لصنمها "بعل فغور" إله المؤابيين. ولم تكن شعائر عبادة هذا الصنم سوى التعرى تماماً من الثياب، ولذا فإن الإسرائيلى لا يجد ضرراً فى ذلك فيتجرد من ثيابه ويزنى بالمرأة.. ليقع بذلك فى معصية عبادة هذا الصنم، ومعصية الزنا فى الوقت نفسه.

وفى البداية كان الرجال يشعرون بالخجل والخزى من هذه الخطية، فكانوا لا يزنون بنساء المؤابيين إلاَّ سرّاً.. ثم سرعان ما خلعوا عن أوجههم

برقع الحياء فصاروا يمارسون هذه الفاحشة اثنين اثنين!!

* * *

ولم يكن انحطاط بنى إسرائيل فى مهاوى الزنا إلا بسبب وجودهم فى مكان يؤثر عليهم ويغريهم تلقائيّاً بارتكاب الفاحشة[1]. إذ توجد فى هذا المكان ينابيع لمياهها تأثيرات عديدة على من يشربونها. فأحدها يقوى والآخر يضعف.. وثالث يجمِّل ورابع يُقَبِّح.. وخامس يجعل المرء عفيفاً.. وسادس يجعله فاسقاً عربيداً!!.

وكان فى «شطيم» - حيث بنو إسرائيل يقيمون - "عين الخلاعة"، والتى كان سكان "سدوم" يشربون منها لفترة من الزمان، ولكن منذ دمار هذه المدينة الخاطئة، لم يشرب منها أحد ولذا فقد ظل الناس حتى ذلك الوقت أعفاء..

لكن.. ما إن ذاق بنو إسرائيل هذه المياه، إلا وتخلوا عن حياة العفة والطهر التى التزموا بها. ولن تفقد هذه العين قوتها المهلكة إلا فى زمن المسيا عندما يُنْضِب الرب ماءها.



(١) عدنا لتبرير الخطايا من جديد!!

«فينحاس» يغضب من أجل الرب

عندما انتشر الزنا بين الشعب وخلعوا عن وجههم براقع الحياء فصاروا يزنون بنساء "مؤاب" جهاراً نهاراً، أمر الربُّ موسى بتعيين قضاة لمعاقبة الخطاة.. ولأنه كان من الصعب إدانة الخطاة بشهادة الشهود، فقد جعل الرب علامة على كل خاطئ زانٍ أن تتكشف عنه سحابة المجد التى كانت تظلل المخيم. ولذا فقد كان كلٌ من لا تغطيه السحابة يُحَكَمُ فوراً بزناه. وعين الرب ثمانية وسبعين ألفا وستمئة قاض كانوا هم ضباط الشعب، وأمرهم بأن يقوم كل واحد منهم بإعدام اثنين من الخطاة.. فنفذ هؤلاء الأمر وقاموا برجم الزناة وبقيت جثثهم معلقة على المشانق لفترة. وكانت هذه هى العقوبة الشرعية لهم..! إذ لم يكتف هؤلاء العصاة بارتكاب جريمة الزنا مع نساء "مؤاب"، وإنما عبدوا كذلك صنمهم "فغور"، وهى جريمة عقوبتها القتل رجماً.

* * *

وبينما كان القضاة يمارسون مهمتهم، هرول سبط "شمعون" إلى أميرهم "زيمرى" وقالوا له:

- «الناس تُعْدَم وأنت تجلس هنا وكأنه لم يحدث شىء!!».

فنهض من فوره واصطحب أربعة وعشرين ألف رجل منهم وذهب إلى "كُزْبى". بنت "بالاق"، ودون أن يراعى حرمة للرب أو يخجل من الناس، طلب

منها على أعين الناس أن يعاشرها..!

وكان "بالاق" أبوها قد طلب منها ألا تسلِّم نفسها لأحدٍ سوى موسى، قائلاً لنفسه إنه إن أفلح فى إغواء موسى فسيحل غضب الرب عليه وعلى بنى إسرائيل جميعاً فيكونون فريسة سهلة فى يده.

لهذا ردت "كُزْبِى" على "زيمرى" قائلة:

- «لقد أمرنى أبى بألاَّ أشبع رغبة أحد سوى موسى وحده.. إذ هو الملك وأنا ابنة الملك، ولا يناسب ابنة الملك إلا ملك».

فأجابها "زيمرى" فى غضب:

- «بل أنا أعظم من موسى هذا، فإن كان هو أمير للقبيلة الثالثة فقط من بنى إسرائيل.. فأنا أمير للسبط الثانى من إسرائيل، سبط شمعون، وإن شئتِ أريتُك أننى أعظم من موسى هذا، فسآخذك وأفعل بك فى حضوره ودون أن أبالى وآبه به!».

ثم أمسكها من ضفائرها وجرجرها فذهب بها إلى حيث موسى...

ثم قال لموسى فى سخرية:

- «قل لى يا موسى... أهذه المرأة حلال لى أم حرام علىّ؟»

فأجابه موسى:

- «بل هى محرمة عليك!».

فرد "زيمرى" فى تهكم:

- هل أنت حقّاً المفسر الأمين للتوراة، والذى قال عنه الرب: «إنه أمين فى كل بيتى؟» فإن كنت كذلك حقّاً، فكيف تقول لى أن هذه المرأة محرمة علىّ لأنها مديانية بينما زوجتك أنت أيضاً مديانية!؟ ثم هذه المرأة ابنة ملك، بينما لم تكن زوجتك "صَفُّورة" سوى ابنة كاهن وثنى!!؟.

وعندما قال "زيمرى" ذلك أخذ موسى و"ألعازار" والشيوخ يبكون من وقاحته مع موسى ومن عجزهم عن ردعه.

فقال الرب لموسى:

- «أين حكمتك يا موسى؟ إنك لم تَحتَجْ إلا إلى التلفظ بكلمة واحدة فابتلعت الأرض "قورح" وجماعته.. ألا تستطيع أن تفعل شيئاً من البكاء؟».

وقد عاقب الرب موسى على تردده وعجزه عن اتخاذ القرار المناسب بأن جعل المكان الذى دفن فيه سرّاً لا يعلمه أحد من البشر.

وبينما موسى والناس على هذه الحال، قال "فينحاس" لموسى:

- «يا جدِّى[1] يا موسى... ألم تعلمنى عندما عُدْت من جبل سيناء أن الواجب يحتِّم على كل من يغار على شريعة الرب أن يذبح كل من يمارسون الزنا مع النساء غير اليهوديات؟»

فأجابه موسى:

- «ليكن قارئ الرسالة حاملها كذلك».

وقد أراد بذلك التلميح إليه أن يطبق كلامه بنفسه فيعاقب الخطاة.

* * *

ظل «فينحاس" لفترة متردداً ولا يجد فى نفسه الجرأة على معاقبة الخطاة بنفسه.. إذ كان يتوقع أن يلقى مصرعه على أيديهم فهما اثنان - "زيمرى" و"كزبى" - بينما هو واحد. لكن عندما فشا الوباء الذى أرسله الرب عقاباً للخطاة وانتشر بسرعة أكبر بين الناس، قرر "فينحاس" المخاطرة بحياته محاولاً قتل الخطأة.

وقال لنفسه:

(١) فينحاس هو ابن "ألعازار" بن هارون أخى موسى. (المترجم)

- «إن الجواد ليخوض غمار الحرب طائعاً ليخدم سيده.. فكم هو حَرِىٌّ بى أن أخاطر بحياتى ليتمجد اسم ربى!».

ووجد نفسه مضطراً إلى القيام بذلك بنفسه، لأنه لا يستطيع ترك الأمر لغيره ليقوم به.

وقال لنفسه:

- «لن يستطيع بنو "رأوبين" فعل شىء، إذ كان جدهم الأكبر "رأوبين" نفسه متهماً بارتكابه الزنا.. ولا أتوقع من سبط "شمعون" شيئاً، إذ هم يسيرون وراء هذا الفاسق "زيمرى".. أما سبط "يهوذا"، فلا فائدة ترجى منهم إذ ارتكب جدهم الأكبر "يهوذا" جريمة الزنا مع كَنَّته "ثامار".. أما موسى نفسه فهو عاجز عن القيام بأى شىء، فامرأته "صفورة" هى نفسها امرأة مديانية.. لذا فلم يبق لى إلا أن أقوم بذلك بنفسى».



اثنتا عشرة معجزة

غـادر "فـينحـاس" بيت العلم، حـيث كـان ينـاقش مع مـوسـى والرجـال الأتقياء الآخرين أمر معاقبة "زيمرى"، ثم توجه إلى حيث هذا الخاطئ.. ولم يكن معه سوى حربته التى خلع رأسها المدبب فأخفاه فى ثيابه واستند على عودها وكأنه عكاز.

وعندما وصل إلى البيت الذى كان "زيمرى" يمارس فيه زناه مع "كزبى"، سأله الناس:

- «**إلى أين يا فينحاس؟**»

فأجابهم فى هدوء:

- «ألا تعلمون أنه حيث يكون سبط "شمعون" يكون دائماً سبط "لاوى"؟»

فتركوه يدخل، ولكنهم قالوا:

- «يبدو أن الفريسيين قد رُخِّصَ لهم بالزنا مع النساء الوثنيات!».

فلما دخل أخرج رأس الحربة من ثيابه وثبَّته فى عمودها ثم دخل على الخاطئين.. «فطعن كليهما الرجل الإسرائيلى والمرأة فى بطنهما»[1].

* * *

ولم تتحقق مخاوف "فينحاس" بأن يهاجمه هذان الاثنان.. إذ صنع له

(١) منقولة بالنص من سفر العدد إصحاح ٢٥ : ٨. (المترجم)

الرب اثنتى عشرة معجزة على الأقل، فلم يعجز هذان الخاطئان فقط عن مقاومته، إنما تبيَّن كذلك للناس أن الرب راضٍ عما فعل..

فكانت المعجزة الأولى أن ملاكاً لم يسمح للزوجين بالانفصال عندما فاجأهما فينحاس..

وكانت الثانية أن الملاك سدَّ فاهيهما فلم يستطيعا الصراخ..

وكانت الثالثة أن حربة "فينحاس" قد طعنت الرجل والمرأة فى فرجيهما..

والرابعة أن رأس الحربة استطال فاستطاع اختراق فرج الرجل وفرج المرأة معاً..

والخامسة أن ذراع "فينحاس" قويت بما مكَّنه من حملهما معاً على سن حربته..

والسادسة أن عمود الحربة الخشبى استطاع تحمل وزنيهما..

والسابعة أن كليهما ظل معلقاً على الحربة ولم يسقط من عليها..

والثامنة أن الملاك أدار الاثنين حتى يرى الجميع أن "فينحاس" قد ضبطهما فى حالة تلبس...

والتاسعة أنه لم ينزف منهما دم بالرغم من طعنهما، وإلا تنجَّس "فينحاس"..

والعاشرة أنهما لم يموتا أثناء حمل "فينحاس" لهما على سن حربته، لكيلا يتنجس "فينحاس"..

والحادية عشرة أن الملاك رفع قائمى الباب فاستطاع فينحاس أن يمر من خلاله وهو يحملهما على سن حربته..

والثانية عشرة أن الرب ضرب سبط "شمعون" بوباء عندما أرادوا

الانتقام لمصرع أميرهم على يدى "فينحاس"، فلم يحرّكوا ساكناً حياله..

* * *

ولم يكتفِ "فينحاس" بذلك، وإنما أراد كذلك مصالحة الرب على بنى إسرائيل فصاح قائلاً:

- «يارب.. أَمِنْ أجل اثنين من الخطاة تهلك أربعة وعشرين ألف إسرائيلى!!».

فقد كان ذلك هو العدد الذى قتله الوباء.

وأرادت الملائكة معاقبته على جرأته، لكن الرب قال:

- «دعوه وشأنه» إنه غيور ابن غيور، ومهدئ لغضبى وابن مهدئ لغضبى..



مكافأة "فينحاس"

بالرغم من سخط بعض الناس على "فينحاس" لما فعله ومعايرتهم له بأنه حفيد "يثرون" الكاهن الوثنى ـ قبل تهوُّده ـ فإن الرب قد رضى عما فعل..

وقال الرب لموسى:

ـ «"فينحاس" بن ألعازار بن هارون الكاهن حوَّل غضبى على بنى إسرائيل ولذا فإنى أحييه بتحية السلام لأنه هو الذى غضب لى فحافظ على ذرية إبراهيم».

وقد أراد الرب بذلك أن يقطع ألسنة كل من كان يعاير "فينحاس" بأنه من نسل "يثرون" متجاهلين أنه فى الوقت نفسه حفيد "هارون" الكاهن الأكبر أمام الرب.

كما أمر الرب موسى بأن يخبر فينحاس بالآتى:

ـ «بفمك حاميت عن بنى إسرائيل ولذا فسوف يكون نصيبك ككاهن عظام الفك للقرابين والأضاحى.. وبحربتك طعنت بطن الخاطئين، فليكونن من نصيبك بطون الأضاحى.. وكما جاهدت بذراعك لتذبح العصاة، فليكونن من نصيبك أكتاف الأضاحى. وكما سعيت لإحلال السلام بين البشر، فلتمنحنَّ بركات كهانتك لأطفالى فتباركهم بالسلام».

ومكافأةً له على هذه الفعلة التقية (= قتل الزانيين) جعله الرب كاهناً

له الأنصبة الأربعة والعشرون المقررة للكهنة.

* * *

لكن كانت المكافأة العظمى لفينحاس هى أن الرب منحه نعمة الكهانة الأبدية.. فليس "فينحاس" سوى النبى "إيلياء". ومهمته التكفير عن ذنوب بنى إسرائيل، فلذا فهو يقوم بواجبات كهانته الأبدية، دون أن يذوق الموت، فيقرِّب كل يوم قرابين عن بنى إسرائيل ويسجل على جلودها الأحداث التى تقع فى كل يوم.

كما قال الرب لفينحاس:

- «لقد أحللت السلام بينى وبين بنى إسرائيل فى هذا العالم... ولذا فإنك أنت الذى ستقوم بإحلال السلام بينى وبينهم كذلك فى العالم الآتى».

وهكذا فقد تقرر أن يكون هو البشير بظهور "المَسِيَّا" ليُحِلَّ السلام على الأرض قبل مجيئه..

* * *

عندما لزم بنو إسرائيل حياة الفسق والفجور فى "شِطِّيم"، فرحت أمم العالم فرحاً عظيماً، فقد كانوا يعلمون أن الرب لم يفضِّل بنى إسرائيل عليهم ويمنحهم التوراة إلا لأنهم كانوا يعيشون حياة الطهر والعفاف..

وقالت هذه الأمم:

- «الآن نُزِعَ التاج عن رأس بنى إسرائيل وولت عنهم كرامتهم، فما عادوا أفضل منا!».

لكن الرب رفع إسرائيل من هذه السقطة بأن أرسل عليهم الوباء فى "شِطِّيم" فتطهروا بذلك، فأصبح بمقدورهم التباهى بنقاء نسلهم الذى تميزوا به عن جميع أمم الأرض.

لهذا أمر الربُّ بنى إسرائيل بإجراء إحصاء.. لكى يُظْهِر بهذه الطريقة أنهم قد ظلوا محافظين على تقاليد جدهم الأكبر "إبراهيم" بالحفاظ على طهارة حياتهم العائلية من الزنا. وفى هذا الإحصاء تبيَّن أن الكثير من الأسباط قد فقدت عشائر بأكملها، فى الفترة من دخولهم إلى مصر إلى دخولهم إلى الأرض الموعودة.

وكان من هذه العشائر التى هلكت تلك التى فنيت فى مصر، أى أولئك الذين ماتوا فى أيام الظلمة الحالكة بسبب تمسكهم بالخطيئة إلى درجة دفعتهم لعدم الرغبة فى الرحيل من مصر.

لكن كانت أكثر الخسائر فداحة تلك التى منيت بها عشائر "بنيامين" وعشائر "شمعون".. إذ خلال المعركة التى وقعت بين اللاويين وبين الأسباط الأخرى بعد موت هارون ـ عندما أرادت الأسباط العودة إلى مصر خوفاً من الكنعانيين ـ فقد "البنياميون" ما لا يقل عن عشرة عشائر.

لكن كان الأربعة والعشرون ألف شخص الذين هلكوا فى الوباء الذى حل ببنى إسرائيل فى "شِطِّيم"، جميعاً من سبط "شمعون" الذى تناقصت أعداده لأقل من النصف أثناء السير فى الصحراء.

أما سبط "دان" فقد نما وكثر عدده كثيراً جدّاً.. فبينما كانوا عند دخولهم إلى مصر مجرد عشيرة واحدة، فقد فاق عددهم بعد ذلك أعداد جميع الأسباط الأخرى، فيما عدا سبط "يهوذا".



بنات "صَلُوفحاد"

وكان هناك سبب آخر للتأكد من طهارة أنساب بنى إسرائيل عن طريق الإحصاء الذى تم فى "عَربات مؤاب".. إذ أن الرب عندما سلَّم موسى شعبه عند الخروج من مصر، كان قد عَدَّ قطيعه وعرف عدده.. لذا فلابد من أن يقوم موسى بإحصاء "القطيع" مرة أخرى لتسليمه إلى الرب، قبل أن يفارق موسى القطيع ويرحل عن الدنيا.

* * *

بعدما تم إحصاء الشعب، أمر الربُّ موسى بأن يقسِّم الأرض الموعودة بينهم تبعاً لأعدادهم. وكان "يعقوب" قد حدَّد بالفعل ـ وهو على فراش الموت ـ لكل سبط نصيبه وميراثه فى الأرض الموعودة، ولكن لكيلا تتشاجر الأسباط فيما بينها وتتقاتل على الأراضى، قرر الرب أن يتم تخصيص الحصص لكل سبط عن طريق القرعة والتى أجراها "يشوع بن نون" و"ألعازار بن هارون"، بعد فتح الأرض. وقد حدثت معجزة عند إجراء هذه القرعة: إذ كلما سحب "ألعازار" ورقة من الإناء تنطق الورقة وتقول:

«أنا من نصيب سبط فلان أو عشيرة عِلاَّن».

وبهذه الطريقة تم تجنيب "ألعازار" اتهام الساخطين له بأنه جامل أصحابه فمنحهم الأرض التى يريدون.

عندما سمعت بنات "صَلُوفحاد بن حَافَر" ـ وكُنَّ تقيات صالحات مثل

آبائهم وأجدادهم ـ أن الأرض تقسم بين ذكور القبائل، وليس بين نسائها، تشاوَرْنَ فيما بينهن لكيلا «يخرجن من المولد بلا حمص».

وقلن لأنفسهن:

ـ «إن حب الرب ليس كحب الأب من البشر الذى يفضل أبناءه على بناته.. أما الرب فيحب الكل ذكوراً وإناثاً، إذ تسع رحمته كل شىء، فهو خالق كل شىء».

وكُنَّ يأملن فى أن يشملهن الرب بعطفه فيجعل لهن نصيباً فى الأرض الموعودة التى كُنَّ يحببنها حبّاً لا يقل عن حب جدهم الأكبر "يوسف" لها إذ أوصى بنيه بدفنه فيها.

* * *

وتحيَّنَ فرصة جلوس موسى فى بيت العلم لمناقشة شريعة زواج أخى المتوفى بلا عقب من زوجته.

واقترين منه وقلن له:

ـ «إن كنا صالحات مثل إخوتنا، فلنا الحق فى ميراث أبينا ونصيبه فى الأرض الموعودة.. لكن إن كنا غير صالحات فينبغى أن تتزوج أمنا من عمنا إذ لم ينجب أبونا أحداً، طالما أننا لا قيمة لنا ولا وزن. ولو كان لأبينا ولد فمات هذا الابن تاركاً خلفةً من بعده ـ ابناً كانت أو بنتاً ـ فلن يكون لنا حق فى أن نرثه.. وإذ نحن ذرية أبينا التى لم ينجب غيرها، فإن لنا أن نطالب بميراث أبينا فى الأرض الموعودة».

* * *

وكانت بنات "صَلُوفحاد" قد حملن مظلمتهن فى البداية إلى قائد العشرة فى عشيرتهن ولكنه رأى أنه لا يستطيع البت فيها فحملها بدوره إلى

قائد المئة الذى حملها بدوره إلى الرئيس الأعلى منه.. وهكذا حتى وصلت فى النهاية إلى "موسى" الذى كان بإمكانه أن يبت فيها بنفسه ولكنه، من تواضعه، رأى أن عليه أن يُرّجِع البت فى هذه المسألة إلى الرب.. إذ الرب هو السلطة الأعلى من موسى.

عندئذٍ قال الرب لموسى:

ـ «أعط بنات "صلوفحاد" ميراث أبيهن إذ هذا حقهن الذى كتبته منذ الأزل فى سمواتى.. وأعطهن كذلك ثلثى ممتلكات جدهن "حَافر" الذى كان أبوهن "صلوفحاد" بكره لذا فكان يستحق نصيباً مضاعفاً».

وكانت بنات "صلوفحاد" غير متزوجات حتى ذلك الوقت ـ بالرغم من أن صغراهن كانت فى عامها الأربعين ـ ولذا فقد أمرهن الرب بالزواج من أبناء عمهن، بالرغم من أن الرب قد أوصاهن بذلك ولم يفرضه عليهن.

* * *

«إن الرب ليجازى المحسن بإحسانه، والمخطئ بخطيئته».

إن الفصول الخاصة بشرائع الرب التى نشرها موسى وأضافها إلى التوراة بنفسه، لتشمل واقعة بنات "صلوفحاد"، كان من الممكن أن تضاف دون ذكر هؤلاء البنات.. ولكن الرب أثابهن على تقواهن بأن جعلهن سبباً مباشراً لإضافة هذه الشرائع.

وفى نفس الوقت فقد كانت حالة هؤلاء النسوة سبباً لتعليم موسى عدة دروس...

فأولاً أُرِيدَ لموسى ألا يغتر بنفسه لتضحيته من أجل رسالته السماوية بالامتناع عن معاشرة زوجته ـ فهؤلاء البنات بلغن من الكِبَر عتيّاً دون أن يتزوجن، فقط لأنهن لم يجدن أزواجاً مناسبين..

وثانياً، أريد بهذه الواقعة أن يتعلم موسى التواضع وعدم الاغترار بما لديه من علم ومعرفة بالشريعة.. فقد أمر الشيوخ عندما عيَّنهم بأن يأتوا إليه فيسألوه عن أى مسألة يصعب عليهم البت فيها.. فكانت مسألة توريث بنات "صلفحاد" التى لم يستطع البت فيها دون استشارة الرب.

* * *

وقد عوقب "داود" بمثل ذلك، عندما قال مفترّاً بنفسه:

ـ «لقد استوعبتُ وفقهتُ شرائع التوراة حتى أضحت سهلة يسيرة بالنسبة لى وكأنها ترنيمة أترنم بها».

ولذا فقد قال الرب:

ـ «أهكذا!؟ إذاً فوحياتك لأنسينك شريعة من شرائع التوراة، يعلمها حتى أطفال المدارس».

وهكذا فعندما أمر "داود" بإحضار "التابوت المقدس" من "جبعية" إلى "صهيون" نسى أمر التوراة بألا يُحْمل التابوت إلا على الأكتاف، فأتى بالتابوت محمولاً على العربات، فحدثت معجزة إذ قفز التابوت وطار فى الهواء وسقطت الثيران التى كانت تجر العربات على الأرض، فمد "عُوَّزا" ـ الذى كان مكلفاً بإحضار التابوت ـ يده فى الهواء محاولاً منع سقوط التابوت على الأرض، ومات هو من فوره.. إذ "الإهمال فى حفظ شرائع الرب يساوى مخالفتها مع العلم بها» ولذا فقد عوقب "عُوَّزا" بالموت على تجاهله لفرائض الرب.



تعيين «يشوع»

عندما رأى موسى أن الرب قد استجاب لطلب بنات "صلوفحاد"، ظن أن الفرصة سانحة لأن يطلب من الرب بأن يرثه أبناؤه من بعده، فيقودون الشعب.

ولذا فقد دعا الرب قائلاً:

- «يارب العالم.. يا من تعلم ما فى الصدور وتُكِنُّه القلوب.. إنك لتعلم أن لكل رجل أفكاره وطريقته فى التفكير، فاجعل على شعبك قائداً يعامل كُلاً على قدر عقله وفهمه».

وقد كان موسى رجلاً تقيّاً بحق، ولذا فما كان يريد إلا صالح الناس ولذا فقد كان يريد أن يتولى أمرهم قائد كفؤ وجدير بقيادتهم..

ولذا فقد واصل دعاءه للرب قائلاً:

- «يارب العالم.. لا تجعل حظ خليفتى من بعدى مثل حظى.. فإذا كنت كتبت علىّ ألا أقود شعبك إلى الأرض المقدسة، فاكتب لخليفتى أن يقودهم فيدخل بهم إلى الأرض. واجعله يارب رجلاً مقداماً يتقدم صفوفهم فى الحرب، ولا يكون مثل ملوك الوثنيين فى مؤخرة الصفوف. واجعله ظافراً فى كل حرب يخوضها، ولا تجعله يفقد أيّاً من جنوده فى الحرب، بل كما دخل بهم يخرج بهم... يارب العالم، إنك لم تخرج شعبك من مصر لكى تعاقبهم وإنما لكى تغفر لهم وتصفح عنهم.. وما أخرجتهم منها ليهيموا فى الصحراء بلا قائد ولا راعٍ يرعاهم.. ولكن لكى تجعل لهم قادة ورعاة. ولذا

فإنى أصر الآن على أن تجيبنى... هل ستجعل لهم قائداً أم لا؟».

فلبَّى له الرب رغبته وأجابه قائلاً:

- «لقد طلبت منى أن أذكر لك إن كنت سأجعل خليفة من بعدك على الشعب أم لا. ولأفعلن ما هو أكثر من ذلك.. فسأخبرك بكل القادة والزعماء الذين سيكونون فى شعبك من الآن وإلى يوم البعث».

ثم ذكر له كل خلفاءه من بعده، من أول "يشوع بن نون" إلى آخر واحد فيهم.. ثم أضاف الرب قائلاً:

- «وسيكون لكل واحد من هؤلاء روحه ومعرفته الخاصة به.. لكن لن يكون ذلك الذى تتمنى أن يكون خليفتك وأن تضم روحه أرواح الستمئة ألف نفس من بنى إسرائيل، ويستطيع أن يخاطب كلاً منهم على قدر عقله وفهمه.. لن يكون ذلك إلا فى آخر الزمان.. عندما سيظهر "المَسيًّا" فألهمه بروح منّى تجعله يخاطب العالم كله ويفهم العالم كله»[1].

أما عن خليفتك الذى سيخلفك بعد موتك مباشرة، فلتعلم أن «طباخ السُّمِّ لابد أن يذوقه»، ولذا فلن يرثك أبناؤك من بعدك، إذ لم يتفرغوا لدراسة التوراة. لذا فسيكون تابعك الأمين وخادمك المخلص "يشوع بن نون" هو خليفتك من بعدك.. فقرِّبه إليك وقدمه للناس وعلمه الشرائع ومُرْه فليعلن أحكام الشريعة على الشعب ويقضى فى أقضيتهم أمامك وقبل موتك، حتى إذا ما توفيتك لا يقولوا أنه لم يجرؤ على الرياسة، فى حياتك، وما صدَّق أنك مت إلا واستولى على ما ليس له. ولأجعلنه قائداً لهم ولأنصرنه على عدوهم وليكونَنَّ عندى مقدما حتى على "ألعازار" الكاهن الأكبر ابن أخيك الذى سيطلب منه المشورة طبقاً لأحكام "الأوريم"».

* * *

(١) هنا إشارة على عالمية رسالة "المسيا" أو المسيح المنتظر، وهو محمد ﷺ الذى أشارت كل النبوءات الكتابية إليه والذى ستكون رسالته لجميع أهل الأرض.

بعدما حض موسى "يشوع" بكلمات رقيقة لطيفة على قبول قيادة الشعب من بعده مشيراً إليه بالثواب العظيم الذى ينتظر قادة بنى إسرائيل فى العالم الآتى.. أخذ "يشوع" وقدَّمه على الجميع، بمن فيهم "ألعازار" الكاهن الأكبر «لكى يعترف به الجميع فيما بعد خليفة لموسى».

ثم أمر "يشوع" بأن يجلس إلى جواره على الأريكة - وكان يجلس على الأرض مثل الباقين - فجلس يشوع قائلاً:

- «الحمد للرب الذى أنعم بالتوراة على بنى إسرائيل بتنزيلها على موسى» كما أكرم موسى "يشوع" بأكثر من هذا عندما قطع حديثه عند دخول يشوع إلى الهيكل، ثم لم يستأنفه إلا بعدما جلس "يشوع" فى مكانه.

كما أرسل موسى منادياً نادى فى المخيم قائلاً:

- «هذا الرجل يشوع بن نون لجدير بأن يجعله الرب راعياً لخرافه».

* * *

لم يميِّز موسى "يشوع" لأن الرب أمره بذلك، وإنما لأنه كان سعيداً بانتقال مكانته إلى يشوع.. مثلما يُسَرُّ الأب بوراثة ابنه له. وهكذا فبينما أمر الرب موسى بأن يضع يده على يشوع ليباركه فإن موسى وضع كلتا يديه عليه ليمنحه الحكمة والفهم، بالإضافة إلى الطلعة المشرقة فيصبح وجهه وضَّاء مثل وجه موسى الذى كان يشع بمثل نور الشمس.. ولم يفقد موسى شيئاً من بهائه عندما منح "يشوع" ذلك النور، فإنما موسى مثل الشعلة ويشوع مثل الشمعة.. فكما أنه يمكن إيقاد الشمعة من الشعلة دون أن يخبت ضوء الشعلة، فكذا حال موسى ويشوع.

كذلك كان هذا النور الذى يشع من وجه "يشوع" هو الذى جعل الشعب يخافه ويهابه.

وصية موسى ليشوع

بعدما أعلن موسى أمام جماعة الرب كلها أن "يشوع" هو خليفته من بعده، أسرَّ إلى "يشوع" بأن أجله قد اقترب وأنه سيرحل إلى آبائه، ثم أعطى ليشوع، ميراثاً له، كتاب نبوة أوصى "يشوع" بأن يمسحه بزيت الأرز ثم يضعه داخل إناء فخارى ليضعه فى البقعة التى خصصت له منذ بدء الخليقة، لكى يُسْتَحضر اسم الرب فيها. وكان هذا الكتاب يحتوى على تاريخ موجز لأمة بنى إسرائيل من أول دخولهم إلى الأرض الموعودة وحتى زمن تأسيس مملكة الرب على الأرض عندما ينهض الرب من على عرش قدرته ـ غضباً من أجل شعبه ـ ويخرج من مسكن قداسته.

فلما سمع يشوع ذلك من موسى، خر عند قدميه باكيا يقول:

ـ «كيف تواسينى بقولك إنك سترحل وتترك شعبك؟ وأى مكان ذا الذى سيستقبلك؟ وأى شاهد سيشير إلى قبرك؟ أم من ذا الذى سيجرؤ على نقل جثمانك من مكان إلى آخر، وكأنه جثمان رجل عادى؟ ولكل رجل قَبْرٌ على قدر منزلته.. لكن قبرك يمتد من مشرق الشمس إلى مغربها، ومن الشمال إلى الجنوب، والأرض كلها قبرك. فهل تتركنا وترحل؟ ومن ذا الذى سيهتم بأمر شعبك يا سيدى ومعلمى؟ من ذا الذى سيشفق عليهم ويهديهم إلى الصراط المستقيم؟ ومن ذا الذى سيدعو لهم الرب باستمرار لكى أستطيع قيادتهم إلى أرض آبائهم؟ وكيف سأقدر على توفير الطعام الذى يريدون، أو الماء الذى يحبون؟ لقد كانوا فى البداية ستين ألف نفس، لكنهم زادوا حتى

صار عددهم لا يحصى.. بفضل دعائك لهم. ومن ذا الذى سأستقى منه الحكمة والفهم لكى أتمكن من الفصل فى أقضيتهم؟ بل إن ملوك الأموريين سيقولون: «هَلُمَّ بنا فلنسحق هذا الشعب، فما عاد له ذلك القائد العظيم والروح العلية والسيد الجدير بنصر الرب له والحارس الأمين لكلمات الرب ووحيه.. والنبى الرسول إلى جميع العالم.. ولن يكون لهم قائد من بعده مثله. فإن أخطأوا وعصوا الرب فاستغفروه فلن يغفر لهم، إذ ليس فيهم "موسى" ليستغفر لهم الرب فيغفر لهم وينصرهم على أعدائهم» لمن إذا ستترك شعبك يا مولاى وسيدى؟!».

وبعدما انتهى "يشوع" من قول ذلك خر عند قدمى موسى مرة أخرى، فأنهضه موسى وأجلسه أمامه ثم قال له:

ـ «لا تقلِّل من شأن نفسك يا يشوع وأنصت لما سأقوله لك.. إن الرب قد خلق جميع الأمم التى تسكن هذا الكون، مثلما خلقنا. ولقد أحاط بنا وبهم علماً حتى من قبل أن يخلقنا أو يخلقهم.. وقد جعلنى رسولاً فيهم لأكفر عن خطاياهم بدعائى وصلاتى واستغفارى لهم. وما كان الرب ليختارنى لميزة أمتاز بها عن غيرى.. وإنما اختارنى واصطفانى برحمته وفضله.. وإنى لأؤكد لك يا يشوع أنك لن تقضى على الوثنيين بميزة يمتاز بها هذا الشعب، فكل السموات وكل الأرض قد خلقها الرب وهى مطوية بيمينه يفعل فيها ما يشاء. لهذا فإن من يحفظون وصاياه ويلتزمون أوامره ويجتنبون نواهيه، ينعم عليهم ويكرمهم.. أما هؤلاء الذين يعصونه ويخالفون أمره سيمتلكون الأرض الموعودة لتتسلط عليهم الأمم الوثنية وتنتشر فيهم الأوبئة. لكن يستحيل أن يفنيهم الرب أو يتخلى عنهم، حسب وعده الذى وعد به آباءهم والعهد الذى أقامه معهم. وعندها سيتقدم الرب لنصرتهم وستمتلئ يد الملاك وسيعيِّن رئيساً لينتقم لهم من أعدائهم».

* * *

حملة موسى الأخيرة

كان "بلعام" قد تنبأ قائلاً:

«لن يرقد قبل أن يأكل من الفريسة ويشرب من دم الذبيحة».

وسرعان ما تحققت نبوءته.

فقد قال الرب لموسى:

ـ «وحياتك، لن تفارق هذه الدنيا قبل أن تنتقم ممن أغووا بنى إسرائيل وأوقعوهم فى الرذيلة. فلتنتقم إذاً من المديانيين، ثم لتنضم بعدها إلى قومك».

كما وبخ الرب موسى على ضعف همته فى "شطيم" قائلاً:

ـ «عندما كانت كل قبائل بنى إسرائيل ضدك ـ عدا قبيلة "لاوى" ـ لم تنقصك شجاعة التصدى لجميع الشعب وردعهم عن عبادة العجل الذهبى.. لكن فى "شطيم"، عندما كانت كل القبائل معك، عدا قبيلة "شمعون"، تقاعست عن ردع العصاة عن معاصيهم!» وعندما تلقى موسى أمر الرب بشن الحرب على من أغووا بنى إسرائيل وجعلوهم يرتكبون جريمة الزنا، قال للرب:

ـ «بالأمس كنت تنهانى عن إزعاج المؤابيين، واليوم تأمرنى بحربهم!!».

فأجابه الرب:

- «عندما قلت لك «لا تزعج بنى مؤاب» فإنما سميتهم باسم جدهم الأكبر، "مؤاب" بن "لوط".. لكنهم - بخطيئتهم - لم يصبحوا من ذريته، ولذا فسأدعوهم بالمديانيين».

كما أمره الرب، ليس فقط بحرب المؤابيين وذرية "لوط" عموماً، وإنما بأن يقسو عليهم كذلك ويظهر لهم عداوة تفوق عداء بنى إسرائيل لأى أمة أخرى. وقد اشتد سخط الرب على ذرية "لوط" لأنهم أغووا بنى إسرائيل.. و"العاصى يفقد نصيبه فى هذه الدنيا، لكن من يغوى غيره لا يكون له نصيب فى هذه الدنيا ولا فى العالم الآتى».

وأُمر بنو إسرائيل بشن الحرب على "المديانيين" وعلى "المؤابيين" فى الوقت نفسه.. لكن بينما قام موسى بحرب "مديان"، فإن بنى إسرائيل لم يشنوا حرباً مدمرة ضد المؤابيين، إلا فى زمان "داود".

وكانت هناك أسباب كثيرة تدعو لحرب "المديانيين" ومعاقبتهم أولاً.. فكراهية "مؤاب" لبنى إسرائيل كانت تعود إلى سرقتهم لأرضهم ونهبهم لثرواتهم، ولذا فقد كانوا يحاولون بكل سبيل الخلاص من بنى إسرائيل. أما "مديان" فلم يكن هناك من داع يدعوها للانضمام إلى المؤابيين فى كراهيتهم لبنى إسرائيل.. علاوة على أن "مؤاب" كانت تريد قتل بنى إسرائيل، أما "مديان" فكانت تريد إغواءهم وإيقاعهم فى الخطيئة، وهو ما يعتبر أخطر من القتل.

كما أن تأخير معاقبة "مؤاب" قد توافق، من ناحية أخرى، مع ما كان الرب يخطط له.. إذ أن الرب قَدَّر أن تكون "راعوث" المؤابية أمّاً لأسرة "داود" الملكية.. ولذا فقد قال الرب لإسرائيل:

- «انتظروا قليلاً ولا تشنوا الحرب على "مؤاب" الآن، فلى حاجة عندهم. وعندما أجد حاجتى فيهم، انتقموا منهم لأنفسكم..

أبان الرب لموسى أن حربه ضد "مديان" ستكون آخر حروب موسى..

قائلاً له:

ـ «انتقم لبنى إسرائيل من "مديان"، ثم الحق بعدها بقومك».

وكانت العلاقة بين هذه الحرب وبين موت موسى كالتالى.. فعندما أعلن الرب لموسى أنه سيموت على هذه الضفة من نهر «الأردن»..

ناشد موسى ربه قائلاً:

ـ «يارب العالم.. أمن العدل أن أموت هكذا بسرعة وأنا الذى سرت فى طريقك وعملت بحكمتك وأنفذتُ مشيئتك!».

فأجابه الرب:

ـ «يا موسى.. لو كان طول الحياة خيرا للناس، لما كنت أمتُّ أسلافك، لكن خير لك أن آخذك من هذا العالم على أن أتركك فيه».

لكن موسى لم يقتنع بهذه الإجابة..

فأضاف الرب:

ـ «حسناً ـ لتعش كما تريد، ولو حتى لألف عام أخرى ـ لكن اعلم أن بنى إسرائيل لن ينتصروا على أعدائهم ولن تقع "مديان" تحت نيرهم».

ففكر موسى فى نفسه قائلاً:

ـ «إن لم أمت اليوم فسأموت غداً.. فإنى ميت ميت، وما فى ذلك من شك.. إذاً فالأفضل أن يهزم بنو إسرائيل أعداءهم ويخضعوا "مديان" لنيرهم.. على أن أعيش أنا لمدة أطول».

وهكذا كان.

ثم فكر موسى فى نفسه قائلاً:

- «إنى لأعلم أننى لو حاربت "مديان" الآن، سيقول الناس أننى أسعى لحتفى إذ أوقف الرب حياتى على معاقبة "مديان"، بينما خيَّرنى الرب فى أن أعيش للمدة التى أريدها».

ولكن هذا الخاطر لم يجعله يتردد لحظة فى شن الحرب على "مديان"، كما أمره الرب. وهكذا كان موسى دائماً لا يتردد لحظة فى تنفيذ أمر من أوامر الرب، أو السعى لما فيه مصلحة بنى إسرائيل.. ولو كان فى ذلك تهديد لحياته.

لكن لم يكن "يشوع" كذلك..

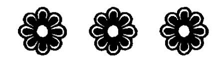
إذ عندما فكر فى شن الحرب على "كنعان"، قال لنفسه:

- «لو شننتُ الحرب على "كنعان" دون توقف، فسأموت بمجرد أن أقهرهم وأستولى على بلادهم.. لذا فسأحاربهم على مهل لأعيش لأطول مدة ممكنة».

ولهذا فقد كان يتقدم ببطء شديد فى فتحه للأرض الموعودة، لكى يضمن حياة طويلة.

لكن «أيّاً كان ما يضمره المرء فى نفسه، فإن الرب يعلمه وإرادته هى الغالبة».

وهكذا فبينما كان "يشوع" يخطط للعيش مدة طويلة، فإنه قد مات قبل أجله الذى قدَّره له الرب!! بعشر سنوات (كذا).. إذ مات فى المائة والعشرين من عمره.



القضاء على "مديان" وإبادتها

بينما لبى موسى أمر ربه بشن الحرب على "مديان"، دون أن يبالى بمصيره.. فإن بنى إسرائيل امتنعوا عن الاستجابة لأمر موسى بالاستعداد للحرب، خوفاً من فقدان زعيمهم، ومفضلين فى الوقت نفسه فوات فرصة النصر على فقدان قائدهم. وأسرع كل منهم فاختبأ عن الأعين.. ولذا فقد أمر الرب موسى بأن يجرى قرعة ليقرر من يذهب منهم إلى الحرب، وكان على من أصابتهم القرعة، أن يذهبوا إلى الحرب على الرغم منهم.

وأعلن موسى النفير فى بنى إسرائيل قائلاً:

- «ليستعد المحاربون منكم لتنفيذ انتقام الرب من مديان».

وقد سماه موسى «انتقام الرب، لا انتقام إسرائيل»..

لأن موسى كان قد قال للرب:

- «يارب العالم.. لو كنا عبدنا النجوم أو الكواكب، لما كرهنا المديانيون.. فهم إنما يكرهوننا بسبب التوراة والوصايا التى أوصيتنا بها، لذا فانتقم لنفسك منهم»..

* * *

ولم يقم موسى بقيادة المحاربين بنفسه، عملاً بالمثل القائل:

«لا تلق الحجارة فى البئر التى شربت منها».

فهو كان قد فر ذات يوم من مصر ولجأ إلى "مديان"، ولذا فلم تطاوعه نفسه بشن الحرب على البلد الذى آواه وحماه.. ولهذا فقد تخلى عن قيادة الشعب لحفيد أخيه، "فينحاس بن ألعازار"، لأن " من بدأ جميلاً عليه أن يُتِمَّهُ»، وقد كان "فينحاس" هو الذى بدأ حرب الرب ضد المديانيين بذبحه للأميرة "كُزِبى"، عشيقة "زيمرى" ـ ولذا فإن عليه إكمال هذه الحرب حتى نهايتها. كما كان هناك سبب آخر يدعو فينحاس ـ وهو من ذرية "يوسف" ـ للانتقام من المديانيين.. إذ كان هؤلاء المديانيون هم الذين باعوا «يوسف» عبداً فى مصر.

* * *

كانت القوات التى تحت إمرة "فينحاس" تتكون من ستة وثلاثين ألف رجل: ثلثهم سيشاركون فى القتال، والثلث سيتولون حراسة الأمتعة، والثلث الثالث لدعاء الرب والصلاة من أجل نصر مقاتلى بنى إسرائيل. ولم يسلِّمه موسى التابوت المقدس وحده ـ والذى كان بنو إسرائيل يحملونه دائماً معهم كلما خرجوا للحرب ـ وإنما سلمه كذلك "الأوريم" "والتومِّيم"، فلعله يحتاج إلى استشارة الرب..

وبصرف النظر عن ذلك، فقد تسلَّم "فينحاس" كذلك الصفيحة الذهبية من على جبة الكاهن الأكبر، إذ قال له موسى:

ـ «إن الوغد الشرير "بلعام" سيطير فى الهواء وربما يجعل ملوك المديانيين الخمسة يطيرون معه، فإذا فعلوا ذلك ترفع الصفيحة الذهبية، التى نقش عليها اسم الرب، فى وجوههم فيسقطون».

وحدث بالفعل ما توقعه موسى، وسقط "بلعام" فى أيدى الإسرائيليين الذين أعدموه بالطريقة التى تنص عليها الشريعة: فشنقوه ثم أشعلوا ناراً من تحته ثم ضربوا عنقه بالسيف فسقط جسمه فى النار واحترق.

وبالرغم من أن بنى إسرائيل قد حاربوا المديانيين بأمر الرب، فإنهم قد عاملوهم بمنتى الرأفة والإنسانية. فقد هاجموا مدنهم من ثلاث جهات فقط وتركوا لهم الجهة الرابعة ليفروا منها. وكان النصر حليف بنى إسرائيل فسقطت المدن الخمس فى أيديهم: بكل معابدها وأصنامها وقصورها. ولقى ملوك "مديان" الخمسة مصيراً مماثلاً لمصير "بلعام" فذُبحوا جميعاً، كما تآمروا جميعاً على غواية بنى إسرائيل. أما "بلعام"، الذى جاء من موطنه فى بلاد ما بين النهرين ليتلقى مكافأة على غوايته لبنى إسرائيل.. فقد نال بدلاً من المكافأة عقوبة مستحقة له ولأمثاله على أيدى اليهود.





الفصل السابع

وفـاة موســى

آخر أيام موسى

فى اليوم السابع من شهر آذار، كان موسى يعلم أنه سيموت فى هذا اليوم.. إذ هتف به هاتف سماوى، قائلاً:

ـ «احترس يا موسى.. فما عاد لديك سوى يوم واحد لتحياه».

فماذا فعل موسى؟

لقد كتب ثلاث عشرة لفيفة من التوراة، اثنتى عشرة للأسباط، وواحدة وضعها فى التابوت المقدس.. حتى إذا أراد بنو إسرائيل تحريف التوراة، تبقى النسخة الموجودة فى التابوت دون أن تُمَس..

وفكر موسى فى نفسه قائلاً:

ـ «لو شغلت نفسى اليوم بالتوراة، التى هى شجرة الحياة، فستنقضى ساعات هذا اليوم سريعاً فلا أحمل عبء التفكير فيها».

لكن الرب أومأ للشمس فعارضت موت موسى بشدة قائلة:

ـ «لن أغرب طالما بقى موسى حيّاً».

فلما انتهى موسى من كتابة لفائف التوراة، وجد أن نصف اليوم بالكاد قد انقضى.. ولذا فقد دعا إليه الأسباط فسلمهم بيده لفائف التوراة وحضهم، رجالاً ونساءً كلاّ بمفرده، على الالتزام بأحكام التوراة وشرائعها. وكانت أجمل اللفائف هى تلك التى جلبها «جبريل»، والذى ذهب بها إلى

الملأ السماوى الأعلى ليُظْهِر تقوى موسى الذى التزم بجميع ما فى التوراة.. وطاف «جبريل» بهذه اللفيفة فى السموات كلها، لكى يشهد الجميع على تقوى موسى.

وهذه اللفيفة هى نفسها اللفيفة التى تتلو منها أرواح المتقين فى يومى الاثنين والخميس وكذلك فى يوم السبت والأيام المقدسة.

* * *

فى هذا اليوم أظهر موسى تكريماً عظيماً لحواريِّه "يشوع"، على مرأى من بنى إسرائيل جميعاً. وأرسل موسى منادياً ينادى فى المخيم:

- «تعالوا فاسمعوا كلام النبى الجديد الذى بُعِثَ فينا اليوم!»

فاجتمع كل الشعب لتكريم «يشوع».

بعد ذلك أمر موسى بإحضار عرش ذهبى وتاج من اللآلئ وخوذة ملكية وثوباً أرجوانيّاً. وقام موسى بنفسه بإعداد ووضع المقاعد لاجتماع السنهدرين، ومقاعد لقواد الجيش ومقاعد للكهان. ثم ذهب موسى إلى "يشوع" فألبسه ثيابه ووضع التاج على رأسه وأمره بالجلوس على العرش الذهبى ليلقى منه خطبة على الشعب.. وبعد ذلك همس "يشوع" بالكلمات التالية فى أذنى "كَالِب" الذى أعلنها على الناس بصوت جهورى قائلاً:

- «استيقظى يا سماء السموات.. وافرحوا أنتم يا من بأعلى! وترنمى يا أسس الأرض التى من تحت.. وترنمى وصيحى بفرح يا تلال الأرض.. استيقظوا يا مراتب الخلق.. استيقظى يا جبال يا أبدية وأنشدى.. اسيتقظوا وانفجروا بالغناء يا ملائكة السماء.. غنى واحكى يا خيام «يعقوب».. غنى يا مسكن إسرائيل غنوا وأنصتوا لجميع كلمات الرب مليككم.. وأصخوا بقلوبكم لجميع كلماته والتزموا بكل وصايا الرب واحفظوها فى قلوبكم. افتحوا أفواهكم ودعوا ألسنتكم تنطق، ومجدوا

الرب الذى هو معينكم وناصركم.. واشكروا إلهكم وضعوا ثقتكم فيه. لأنه الواحد ولا ثانى له.. وليس مثله فى الآلهة وليس من الملائكة من هو مثله.. وليس إله غيره لكم. وليس لحمده حدود.. ولا شهرته حدود.. ولا نهاية.. وليس لمعجزاته انتهاء أو حدود.. ولا لأعماله حصر. لقد أوفى بعهده الذى عاهد به الآباء، من خلال معلمكم موسى. وأكمل معهم عهده وحبه وقسمه الذى أقسم لهم، لأنه خلَّصنا بمعجزات وعجائب عديدة وأخرجنا من العبودية، والذل إلى الحرية.. وفرق لنا البحر ووهبنا ستمئة وثلاث عشرة شريعة».

عندما انتهى "يشوع"، هتف هاتف من السماء قائلاً لموسى:

- «لم يتبق لك سوى خمس ساعات على قيد الحياة».

فنادى موسى على "يشوع" قائلاً:

- «اجلس كالملوك أمام الشعب!».

ثم بدأ كلاهما يتكلم أمام جميع الشعب.. فيقرأ موسى نصوص التوراة ويقوم "يشوع" بتفسيرها. ولم يكن هناك خلاف فى الرأى بينهما، واتفقت كلمات الاثنين مثل اللآلئ فى تاج ملكى. لكن كان وجه موسى يشرق كالشمس، بينما كان وجه "يشوع" مضيئاً كالقمر.

وبينما هما جالسان أمام الشعب..

هتف هاتف سماوى قائلاً:

- «يا موسى.. لم يتبق لك سوى أربع ساعات على قيد الحياة».

فبدأ موسى يناشد الرب قائلاً:

- «يارب العالم.. إن كنت سأموت فقط من أجل تابعى، فلاحظ أننى أعامله كأنه أستاذى وأنا تلميذه.. ليكن هو كاهناً أكبر وأنا مجرد كاهن

عادى.. أو ليكن ملكاً وأنا أحد خدمه».

فأجابه الرب:

- «لقد أقسمت باسمى العظيم الذى لا تسعه السماء ولا سماء السموات، ألاَّ تعبر نهر الأردن».

فقال موسى:

- «يارب العالم.. إذاً فبقوة اسمك الأعظم دعنى أَطِرْ كالعصافير فى الهواء.. أو اجعلنى سمكة وحوِّل ذراعى إلى زعانف وشعرى إلى قشور لعلى أعبر نهر الأردن مثل السمك فأرى أرض إسرائيل».

فأجابه الرب:

- «لو أجبتك لما تطلب، لحنثت بقسمى».

فقال موسى:

- «يارب العالم.. فارفعنى على السحاب لأعلى من "الأردن" حتى يكون السحاب من تحتى، فأرى الأرض المقدسة من مكانى».

فأجابه الرب:

- «لا.. سيبدو ذلك أيضاً وكأنى حنثتُ بقسمى الذى أقسمت».

فقال موسى:

- «فدعنى إذاً أُلْقِى نظرة سريعة عليها».

فأجابه الرب:

«سأستجيب لطلبك فى هذه النقطة. سترى الأرض من أمامك لكن لن تتحرك من مكانك» ثم أراه الرب أرض إسرائيل كلها من أقصاها إلى أقصاها، ما كَمُن فى باطنها.. وقرَّب له بعيدها وأظهر له باطنها.. فرأى كل شىء.

موسى يرى المستقبل

ثم أشار الرب إلى الأرض وقال له:

- «هذه هى الأرض التى أقسمت لإبراهيم وإسحاق ويعقوب بأن أعطيها ملكاً لذريتهم.. وقد وعدتهم بها، لكننى أريتك إياها».

ولم ير موسى الأرض فقط.. وإنما أشار الرب له إلى كل شبر فيها: فأراه نصيب يهوذا ونصيب "إفرايم"... وأنصبة باقى الأسباط منها. وأخبر الرب موسى بتاريخ الأرض كلها.. وتاريخ كل جزء فيها: وأراه إياها وهى فى عز مجدها.. وأراه إياها وهى تحت حكم الغرباء.

ولم يكشف له الرب عن كامل تاريخ إسرائيل الذى سيكون فى "الأرض المقدسة» وحسب، وإنما كشف له كذلك عن كل مخلوقاتها إلى يوم القيامة حينما يبعث الموتى من قبورهم.

وأراه حرب "يشوع" ضد الكنعانيين..

وتخليص إسرائيل من الفلسطينيين على أيدى "شمشون"..

ومجد إسرائيل تحت حكم "داود"..

وبناء المعبد تحت حكم "سليمان"..

ثم دماره..

وسلالة الملوك من بيت "داود"..

وسلالة الأنبياء من بيت "راحاب"..

وهلاك "يأجوج" و"مأجوج" فى سهول "أريحا"..

أراه الرب كل ذلك وأكثر منه. وكما أراه كل ما سيحدث فى العالم، أراه كذلك "الفردوس" وسكانه الأتقياء، والجحيم والأشرار الذين يملأونه.

* * *

كان المكان الذى وقف عليه موسى فشاهد «الأرض المقدسة» جبلاً له أربعة أسماء: جبل "نبو" و"أباريم" و"هور" و"الفِسْجَة". وقد كان سبب اختلاف تسميته أن الممالك المختلفة كانت تعده شرفاً عظيماً أن تمتلك مناطق فى "الأرض المقدسة".. وقد قُسِّم هذا الجبل بين أربعة ممالك وأسمته كل مملكة باسم خاص بها. ويبدو أن أنسب اسم له هو جبل "نبو".. إذ عليه مات ثلاثة "نَبِيِّيم» ـ أى أنبياء ـ بلا خطيئة: موسى وهارون ومريم.

* * *

بأمر من الرب، ذهب موسى إلى هذا الجبل عند ظهر اليوم الذى مات فيه. وفى هذه المناسبة ، كما فى مناسبتين أخريين، شاء الرب أن يتم تنفيذ أوامره عند الظهر، ليرى البشر أنه لا يقدر أحد منهم على تعطيل قضائه، وإن أراد فلو كان موسى مات على جبل "نبو" ليلاً، لقال بنو إسرائيل:

ـ «لقد استغفلنا الرب وأماته بالليل ونحن لا ندرى. ولو كنا علمنا أنه ذهب إلى "نبو" ليموت لما كنا تركناه يذهب. بل ما كنا لنسمح بموته وهو الذى أخرجنا من مصر وفرق لنا البحر وأنزل لنا المن وفَجّر لنا عين الماء وأمر طيور السلوى فطارت إلينا.. وصنع الكثير من المعجزات من أجلنا».

لهذا فقد أمر الرب موسى بأن يتوجه إلى جبل "نبو" عند الظهر ليموت هناك أمام أعين الجميع و"ليضرب المعترض من بنى إسرائيل رأسه فى أقرب حائط!».

وكانت الكلمات التى أمر بها الرب موسى أن يذهب إلى الجبل ليموت، إنما تعنى الرفعة لا الهلاك..

فقد قال له الرب:

ـ «مُتْ فى الجبل الذى تصعد إليه.. واصعد بمفردك ولا تدع أحداً يرافقك. لقد رافق "أليعازار" بن هارون أباه عند موته.. أما أنت فلا تدع أحداً يرافقك ليرى الكرامة والثواب اللذيْن ينتظرانك عند موتك. فهناك ستلحق بقومك: آباء إسرائيل، إبراهيم وإسحاق ويعقوب، وبأبويك، "قهات" و"عمرام"، كما ستلحق بأخيك هارون وبأختك ميريام.. مثلما مات أخوك هارون على جبل "هور" ولحق بآبائه».

إذ عندما أوشك هارون على الموت، خلع عنه موسى ثيابه قطعة قطعة وسلَّمها لابنه "ألعازار" ثم ألبسه كفنه وقال له نم على الأريكة فنام ثم أمره بأن يغلق عينيه ويمد ساقيه.. ثم أسلم الروح.

وعندما رأى موسى هارون يموت هكذا بلا ألم، قال:

ـ «يا سَعْد من يموت هذه الموتة الهنيئة!».

ولهذا فعندما اقترب موت موسى قال له الرب:

«لتموتن الموتة التى تمنيتها، بلا ألم وفى هدوء وسكينة مثل أخيك هارون»..



موسى يقابل المسيا فى السماء

«نال موسى تكريماً آخر فى يوم موته، إذ أذن له الرب فى ذلك اليوم أن يصعد إلى السموات العلى وأراه الثواب الذى أعده له فى السماء، وفى المستقبل.

ثم ظهرت رحمة الرب أمامه وقالت له:

ـ «جئتك بالبشرى! التفت وانظر إلى عرش الرحمة».

فالتفت موسى ونظر فرأى الرب يبنى الهيكل من الجواهر واللآلئ، بينما تلألأت الشكينة بين اللآلئ وقد طغى بريقها على بريق جميع هذه اللآلئ. وشاهد من هذا الهيكل "المسيا"، بن "داود"[1]، وأخاه "هارون" وقد وقف مرتدياً ثوب الكهانة العظمى. ثم قال هارون لموسى:

ـ «لا تقترب، فهنا تقيم الشكينة ولتعلم أنه لا يقدر أحد على الدخول إلى حيث الشكينة إلا بعد أن يذوق الموت ويُسَلَّم إلى يدى ملك الموت.

فخر موسى ساجداً ودعا الرب قائلاً:

ـ «ايذن لى أن أتكلم مع "المَسِيَّا" قبل أن أموت».

(١) بالقطع ليس المَسِيَّا أو المسيح المنتظر من ذرية داود، فالسيد المسيح نفسه يقرر ذلك:

«٤١ وقال لهم كيف يقولون إن المسيح ابن داود، ٤٢ وداود نفسه يقول فى كتاب المزامير قال الرب لربى اجلس عن يمينى ٤٣ حتى أضع أعداءك موطئاً لقدميك ٤٤ فإذا داود يدعوه رباً فكيف يكون ابنه» (لوقا ٢٠: ٤١ ـ ٤٤).

ويبدو أن هذه الكذبة قد دُسَّت خصيصاً لصرف الأذهان عن كون محمداً ﷺ هو المسيح المنتظر.

فقال له الرب:

ـ «تعال إذاً لأعلمك اسمى الأعظم، لكيلا تهلكك الشكينة».

فلما رأى المسيَّا، بن داود، وهارون موسى يقترب منهما، علما أن الرب قد علَّمه اسمه الأعظم، وحيياه قائلين:

ـ «مبارك هو الآتى باسم الرب».

فقال موسى للمَسيًّا:

ـ «لقد أخبرنى الرب بأن إسرائيل سيبنى هيكلاً للرب على الأرض، لكنى أرى الرب الآن يبنى هيكله بنفسه، وفى السماء!!».

فأجابه المَسيًّا:

ـ «لقد رأى أبوك "يعقوب" الهيكل الذى سيشيَّد على الأرض، وكذلك الهيكل الذى يرعاه الرب بيده فى السماء.. وقد فهم بوضوح أن الهيكل الذى شيده الرب بيده فى السماء، على شكل بيت من الجواهر واللآلئ ونور الشكينة، هو الذى سيحفظ لإسرائيل إلى الأبد وإلى نهاية الأجيال. وقد كان ذلك فى الليلة التى نام فيها "يعقوب" مستنداً برأسه على حجر فشاهد فى منامه «أورشليم» على الأرض، و«أورشليم» أخرى فى السماء.. فقال الرب ساعتها ليعقوب: «يا ابنى يا يعقوب.. اليوم أقف فوقك كما سيقف أبناؤك فى المستقبل أمامى». وعندما رأى يعقوب هاتين الأورشليمين، التى فى السماء والتى على الأرض، قال: «أورشليم[1] التى على الأرض ليست بشىء، فليس هذا هو البيت الذى سيحفظ لأطفالى فى جميع الأجيال، ولكنه فعلاً ذلك البيت الآخر للرب، والذى يبنيه بيديه».. وإذا قلت أنت يا موسى: «أنه يبنى لنفسه هيكلاً بيديه فى السماء، فلتعلم كذلك أنه بيديه

(١) معني «أورشاليم» هو «مدينة السلام»، وبالتالى فهي ليست مكاناً محدداً بذاته وإنما هي وصف لمدينة مقدسة نعمت بالأمن فى كل العصور. (المترجم)

سيبنى الهيكل على الأرض».

وعندما سمع موسى هذه الكلمات من فم المَسِيًّا سر وابتهج كثيراً.

ثم رفع وجهه إلى الرب قائلاً:

- «يارب العالم... متى سينزل هذا الهيكل السماوى إلى الأرض؟».

فأجابه الرب: «إنى لم أخبر مخلوقاً بوقت حدوث ذلك، فلم أخبر مخلوقاً من الأجيال السابقة ولن أخبر مخلوقاً من الأجيال التالية.. فكيف أخبرك أنت إذاً؟».

فقال موسى:

- «فأعطنى إذاً علامة، فلعلى أعرف متى سيحدث ذلك، إذا وقعت أحداث معينة فى العالم».

فقال الرب:

«سأقطع إسرائيل أولاً وأبعثرهم فى أرجاء الأرض كلها، حتى يتفرقوا بين أمم الأرض فى أركانها الأربعة.. ثم «سأضع يدى مرة أخرى فى المرة الثانية» وأجمع مَنْ هاجروا مع "يونا" بن "أمِيتَّاى" إلى أرض "باتروس"، وأولئك الذى يسكنون فى أرض "شِنْعار"، و"حماة" و"عيلام" وجزائر البحر».

وعندما سمع موسى ذلك غادر السماء وقد ابتهجت روحه. وتبعه ملك الموت إلى الأرض، لكنه لم يستطع امتلاك روح موسى الذى رفض أن يسلمها له وصمم على أنه لن يسلمها لأ:حد سوى الرب نفسه.



الساعات الأخيرة

بعدما انتهى موسى من رؤية الأرض الموعودة ورؤية المستقبل، كان قد بقى على موته ساعة.

وهتف به هاتف سماوى قائلاً:

- «لا تحاول دون جدوى أن تبقى على قيد الحياة يا موسى!».

لكن موسى لم ييأس ودعا الرب قائلاً:

- «يارب العالم.. دعنى أبقَ على هذا الجانب من نهر الأردن مع أبناء «رأوبين» وأبناء "جاد" فأكون واحداً منهم، بينما يكون "يشوع" ملكاً على إسرائيل ويدخل بهم الأرض فيما وراء "الأردن"».

لكن الرب أجابه:

- «هل تريدنى أن أجعلها بلا معنى كلمات التوراة التى تقول ثلاث مرات فى العام سيظهر كل ذكورك أمام الرب الإله»؟ ولو رأى بنو إسرائيل أنك لا تحج إلى الحرم فسيحجمون هم أيضاً عن زيارته، وبذا ستتسبب فى مخالفة أوامرى. كما أنى كتبت فى التوراة وقلتُ: «فى نهاية كل سبع سنين، وفى الوقت المقدر لسنة الراحة، عندما يأتى كل إسرائيل ليظهروا أمام الرب إلهك، فى المكان الذى سيختاره، ستقرأ هذه الشريعة أمام جميع إسرائيل وعلى مسامعهم» فلو عشت أنت فلم تمت، فلن يحترم الشعب سلطة "يشوع" وسيقولون لأنفسهم "هَلُمَّ" بنا نسمع من المعلم ونتعلم منه، بدلاً

من أن نسمع من تابعه». وعندها سيهجر إسرائيل يشوع ويذهبون إليك، فتثير بذلك تمردهم ضد توراتى التى كتبتُ فيها أن الملك يجب أن يقرأ منها أمام جميع إسرائيل فى الوقت المقدر لسنة الراحة».

* * *

فى هذه الأثناء كان الشرير "سماعيل" ينتظر على أحر من الجمر أن يموت موسى لكى يستولى على روحه، مثلما يفعل مع غيره من الفانين.. بينما كان "ميكائيل"، الملاك الحارس لبنى إسرائيل يبكى وينتحب..

لكن «ميكائيل» قال «لسماعيل»:

ـ «لا تشمت هكذا فىّ يا عدوى.. فإذا سقطتُ الآن، فسأرتفع مرة أخرى وعندما أجلس فى الظلمة سيكون الرب لى نوراً؛ وحتى لو سقطتُ بسبب موت موسى، فإننى سأرتفع مرة أخرى من خلال "يشوع" عندما يهزم ملوك فلسطين الواحد والثلاثين. وحتى إن جلستُ فى الظلام بسبب تدمير الهيكلين الأول والثانى، فسيكون الرب نورى فى يوم المَسِيًّا».

* * *

ثم مرت ساعة أخرى وهتف الهاتف قائلاً:

ـ «ما عاد لك سوى ساعة واحدة يا موسى!».

فقال موسى:

ـ «يارب العالم.. إن كنت قد كتبت علىّ ألا أدخل أرض إسرائيل، فاتركنى فى هذا العالم، لكى أحيا ولا أموت».

فأجابه الرب:

ـ «لو لم أُمِتْك فى هذا العالم، فكيف سأبعثك فى العالم الآتى؟ كما أنك حينئذٍ ستكذِّب التوراة التى كتبت فيها أنه لا يوجد على الأرض من

يقدر على الإفلات من يدى».

لكن موسى قال:

- «يارب العالم.. إن لم تأذن لى بدخول أرض إسرائيل، فاتركنى أحيا كبهائم الحقل وأتغذى على الأعشاب وأشرب الماء.. اتركنى أحيا وأرى الدنيا.. اتركنى كواحدة من هذه البهائم».

لكن الرب نهره قائلاً:

- «كفاك يا موسى!!».

ولكن موسى واصل إلحاحه قائلاً:

- «إذاً فاجعلنى أحيا فى هذه الدنيا كطائر يحلق فى أربعة أرجاء العالم ويجمع طعامه كل يوم من الأرض ويشرب الماء من الجداول والأنهار ثم يعود عند المساء إلى عشه».

لكن الرب أجابه:

- «لقد أكثرت فى الكلام معى يا موسى!».

* * *

ثم رفع موسى صوته بالبكاء قائلاً:

- «إلى من ألجأ لكى يتوسل للرب فيرحمنى؟».

ثم ذهب إلى جميع الخلائق وطلب منها أن تتوسل له، فأجابته:

- «إننا لا نستطيع أن نطلب الرحمة حتى لأنفسنا.. فكل شىء يكون جميلاً فى أوانه، فإذا انقضى عمره «يذهب الكل إلى مكان واحد.. فالكل من التراب وإلى التراب يعود»، إذ ستتلاشى السماء كالدخان وتشيخ الأرض مثلما تبلى الثياب».

وعند ذلك قال موسى:

- «الرب هو الصخرة.. وجميع أعماله متقنة، لأن كل طرقه حكمة، وهو رب العدل ويكره الظلم.. عادل وحكيم هو».

* * *

وعندما رأى موسى ألا مناص له من الموت، نادى على "يشوع" ثم جمع بنى إسرائيل كلهم وقال له أمامهم جميعاً:

- «اسمع يا بنى.. إن هذا الشعب الذى أتركه أمانة بين يديك، هو شعب الرب. إنه لا يزال شابّاً غير ذى خبرة فى مراعاة أوامر الرب، لذا فلا تقسُ عليهم فى الكلام لأنهم أطفال «القدوس» الذى أسماهم «بِكْرى إسرائيل» وأحبهم وفضَّلهم على جميع الأمم الأخرى».

فقال الرب فى الحال ليشوع:

- «يا يشوع لقد نقل معلمك موسى مكانته إليك.. فاتَّبع إذاً خطواته، خذ قضيباً واضرب على الرأس، «إسرائيل طفل، ولذا فأنا أحبه» و«أدب طفلك بالعصا»».

فقال يشوع لموسى:

- «يا موسى.. يا معلمى.. ماذا ستكون حالى؟ إن أعطيت أحدهم نصيباً فى الجبل، سيريد نصيبه فى السهل، وإن أعطيت آخر نصيبه فى السهل، سيريد نصيبه فى الجبل!!».

فطمأنه موسى قائلاً:

- «اسألنى عن جميع الشرائع التى لا تستطيع فهمها، لأننى سأفارقك ولن ترانى بعد الآن».

فأجابه يسوع:

- «متى تركتُك يا معلمى، ليلاً أو نهاراً، لأكون فى شكٍّ من أى شىء علَّمته لى؟».

فأجابه موسى:

- «إذاً فتعال إلى هنا لأقبِّلك».

فذهب إليه "يشوع" وقبله موسى وبكى على كتفه وباركه مرة أخرى قائلاً:

- «لتنعم بالسلام، وليكن بينك وبين إسرائيل السلام».



بركات موسى

والآن جاء بنو إسرائيل إلى موسى وقالوا له:

- «يا موسى.. لقد اقتربت ساعة وفاتك».

فأجابهم:

- «فانتظروا إذاً حتى أبارككم. لطالما كنت قاسياً عليكم: أوبخكم وأحضكم على إطاعة أوامر الرب واجتناب نواهيه.. لهذا فإنى لا أريد أن أرحل عن هذه الدنيا دون أن أبارككم».

وقد كان موسى طوال حياته يريد مباركة بنى إسرائيل، لولا أن «ملاك الموت» كان يحول بينه وبين ذلك.. ولذا فقد كبَّل ملاك الموت بالأغلال ووضعه تحت قدميه وبارك بنى إسرائيل برغم أنف عدوهم[1].

قائلاً:

- «نَجِّ يارب شعبك وبارك ميراثك.. وأطعمهم واحتملهم إلى الأبد».

ولم يكن موسى أول من يمنح بركاته، إذ فعلها كثيرون غيره فى الأجيال السابقة، ولكن لم تكن لبركات أحدهم من تأثير مثلما كان لبركات موسى.. فقد بارك «نوح» أبناءه، لكنها كانت بركة منقسمة إذ قصد بها..

---

(١) أى ملاك الموت، فهو أعدى أعداء اليهود إذ هم أحرص الناس على حياة، كما أخبرنا القرآن بذلك: ﴿ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر﴾.

"سام"؛ بينما لُعِنَ "حام" بدلاً من أن يبارك. وبارك يعقوب أبناءه، ولكن بركاته لم تكن خالصة بلا عيوب... إذ فى بركته لهم وبخ "رأوبين" ودعا عليه بأن يدفع ثمن خطاياه.

بل إن بركات موسى فاقت فى عددها بركات سابقيه.. إذ عندما خلق الرب العالم بارك "آدم" و"حواء" وبقيت هذه البركة فى الدنيا إلى الطوفان ثم توقفت.

وعندما غادر "نوح" السفينة ظهر له الرب ومنحه من جديد البركة التى اختفت من على الأرض أثناء الطوفان، وظلت هذه البركة فى الأرض إلى أن جاء "إبراهيم" فمنحه الرب بركة ثانية قائلاً له:

- «وسأجعل منك أمة عظيمة وأبارك مباركيك وألعن لاعنيك».

ثم قال له الرب بعد ذلك:

- «لكنى لن أبارك أحداً من البشر بنفسى بعد الآن؛ وسأترك لك مسألة البركة فمن تباركه يكون مباركاً عندى، ومن تلعنه فعندى يكون ملعوناً».

لكن «إبراهيم» لم يبارك ابنه «إسحق»، لكيلا يكون للشرير «عيسو» نصيب فى البركة. أما «يعقوب» فلم يتلقَّ بركتين من أبيه فحسب، وإنما منحه الملاك الذى صارعه بركة ثالثة، ومنحه الرب بركة رابعة.. كما أن البركة التى كانت فى بيت إبراهيم قد انتقلت إلى «يعقوب» كذلك.

وعندما بارك "يعقوب" أبناءه، نقل إليهم البركات الخمس التى تلقَّاها وأضاف سادسة من عنده.

وكان من المفترض أن يبارك «بلعام» بنى إسرائيل بسبع بركات، من المذابح السبعة التى شيَّدها، لكنه كان يحسد بنى إسرائيل حسداً عظيماً، ولذا فلم يباركهم إلا بثلاث بركات.

وعند ذلك قال الرب:

- «أيها الوغد الشرير الذى يحقد على بنى إسرائيل ويحسدهم على بركاتهم! لن أدعك تمنح بنى إسرائيل كل البركات التى يستحقونها، فسيباركهم موسى ذو العين الخيِّرة».

وهكذا كان.

فأضاف موسى بركة سابعة إلى البركات الست التى منحها يعقوب لأبنائه الاثنى عشر. ومع ذلك فلم تكن تلك أول مرة يبارك فيها موسى بنى إسرائيل، فقد باركهم عند تشييد الهيكل... ثم باركهم عند تكريسه.. ثم باركهم مرة ثالثة عند تعيين القضاة.. ثم باركهم مرة رابعة يوم وفاته.

ولكن موسى لم يبارك بنى إسرائيل إلا بعدما أنشد بحمد الرب على جميع ما صنعه له ولبنى إسرائيل، وعلى التوراة التى أنزلها على جبل سيناء».

بعد ذلك بدأ موسى يمنح بركاته للأسباط..

فبارك "رأوبين" قائلاً: «ليحيا "رأوبين" مرة أخرى فى العالم الآتى، ثواباً له على إنقاذه ليوسف. ولا يظل ميتاً إلى الأبد بسبب خطيته مع «بلهة». ولتكن ذرية «رأوبين» أبطالاً فى الحرب وأبطالاً فى معرفة التوراة».

فاستجاب له الرب وغفر لرأوبين خطيته، وعلم موسى ذلك على الفور عندما رأى الأحجار الاثنى عشر المرصع بها صدره الكاهن تتألق، إلا حجر "رأوبين».. وعند ذلك بارك موسى "يهوذا" قائلاً:

- «ألم يكن "يهوذا" هو الذى شجَّع "رأوبين" على التوبة والاستغفار، من خلال اعترافه بخطيئته مع كَنَّته "ثامار" وندمه عليها!!».

وطلب موسى من الرب أن يغفر ليهوذا ذنبه فى إخلافه لوعده الذى وعد به أباه بأن يعيد إليه "بنيامين".. فاستجاب الرب له والتحمت عظام

"يهوذا" معاً من جديد بعدما كانت متفرقة فى تابوته..

وواصل موسى دعاءه لسبط "يهوذا" قائلاً:

- «ألحقه بقومه، ولتَكْفِهِ يده وأعنه على أعدائه».

ثم دعا موسى لذرية يهوذا، وخصوصاً سلالة "داود" الملكية..

فقال: «وإذا دعاك "داود" مَلِكُ إسرائيل وقت الشدة فاستجب له يارب. واسمع يارب لصوته وكن له عوناً على أعدائه ثم ألحقه بقومه فى سلام. وعندما ينطلق وحده لمحاربة "جالوت"، فاجعل يديه تكفيانه وكن له نصيراً على خصومه».

ودعا لسبط «يهوذا» بأن يسدد رميتهم، فقد كان سلاحهم فى الحرب هو القِسِيّ.

ولأن موسى لم يغفر أبداً لسبط "شمعون" خطيئتهم مع بنات "مؤاب"، فإنه لم يباركهم، وإن شملهم فى بركته لسبط "يهوذا" عندما دعا الرب بأن يستجيب ليهوذا إذا دعاه من أجل "شمعون" فى وقت شدتهم وأن يسكنهم الأرض المقدسة بجوار سبط "يهوذا".

وقد «شرب "شمعون" و"لاوى" من نفس الكأس». إذ استل كل منهما سيفه وذبحا سكان «شكِّيم»، لكن بينما كفر "لاوى" عن خطيئته، فإن "شمعون" زاد خطاياه خطية أخرى. وقد كان اللاويون هم الذين استلوا سيوفهم فذبحوا الذين عبدوا العجل الذهبى.. كما كان "فينحاس" اللاوى هو الذى غضب للرب وذبح أمير شمعون الزانى وعشيقته. ولذا فقد بارك موسى سبط "لاوى" وأثنى عليهم، بينما لم يُعَبِّر "شمعون" بكلمة.

* * *

ثم بارك «موسى» جميع الأسباط الأخرى.

الرب يُقبّلُ روح موسى

بعدما بارك موسى شعبه، هتف الهاتف قائلاً:

ـ «يا موسى.. لماذا تحاول دون فائدة التشبث بالحياة الدنيا؟ لقد حانت آخر ثانية لك فى هذه الدنيا».

فنهض موسى من فوره ودعا قائلاً:

ـ «يارب العالم.. تذكَّر ذلك اليوم الذى تجلَّيتَ فيه لى فى الحرشة، وتذكَّر كذلك اليوم الذى أصعدتنى فيه إلى السماء ولم أذق طعاماً أو شراباً طوال أربعين يوماً. فلا تسلمنى، يا رحمن يا رحيم، إلى يدى "سماعيل"».

فأجابه الرب:

ـ «لقد سمعت دعاءك يا موسى.. وسأحضر أنا بنفسى وأدفنك»

فلما نزل الرب ورآه موسى قال:

«يارب العالم.. بالحب خلقت الكون وبالحب تهديه.. فعاملنى أنا أيضاً بالحب ولا تسلِّمنى إلى يدى "ملك الموت"».

فهتف به هاتف سماوى قائلاً:

ـ «يا موسى.. لا تخف، ستكون استقامتك من أمامك وسيكون مجد الرب ثوابك»..

نزل مع الرب من السماء ثلاثة ملائكة هم «جبريل»، و«ميكائيل»

و«زجزاجيل». فرتَّب «جبريل» أريكة موسى، وفرش عليها «ميكائيل» فراشاً أرجوانياً[1]، بينما وضع عليها «زجزاجيل» وسادة من الصوف. ووقف الرب عند رأس موسى، بينما وقف «ميكائيل» عند يمينه و«جبريل» عن شماله، و«زجزاجيل» عند قدميه..

ثم أمر الربُّ موسى بأن يشبِّك قدميه ويطوى يديه ويضعهما على صدره ويغلق عينيه، ففعل موسى ما أمره به الرب..

ثم قال الرب لروح موسى:

- «يا ابنتى.. لقد كتبتُ عليك أن تسكنى بدن هذا الرجل التقى طوال مئة وعشرين عاماً، فلا تترددى الآن فى مفارقته لأن أجلك قد حان».

فأجابته الروح:

- «أعلم أنك رب الأنفس والأرواح.. وأن بيدك أرواح الموتى والأحياء. ولقد خلقتنى ووضعتنى فى بدن هذا الرجل التقى.. فهل فى العالم كله بدن فى طهره ونقائه؟ فلم تقف عليه ذبابة يوماً، ولا أصابه قطُّ البرص. لهذا فإنى أحبه ولا أريد مفارقته».

فأجابها الرب:

- «لا تترددى يا ابنتى فقد حانت ساعتك. سآخذك أنا بنفسى إلى السموات العلى وأجعلك تقيمين تحت عرش مجدى مثل السيرافيم والأوفانيم والقروبيم والملائكة الأخرى».

لكن الروح أجابته:

«يارب العالم.. لكنى أريد أن أبقى مع هذا الرجل الصالح.. إذ بينما انحرف الملاكان "عَزًّا" و"عزازيل" عندما هبطا من السماء إلى الأرض

---

(١) علامة على المُلْك. (المترجم)

وعشقا بنات البشر، فإن "ابن عمرام"، الذى هو من لحم ودم، لم يقرب زوجته منذ اليوم الذى تجليت فيه له فى الحرشة. لذا فدعنى أبقَ حيث أنا».

فلما رأى موسى روحه لا تريد مفارقته، سألها:

- «أترفضين مفارقتى لأن «ملاك الموت» يريد ممارسة سلطانه عليك؟»

فأجابته الروح:

- «لا، فالرب لا يريد تسليمى إلى يديه».

فقال موسى:

«فلعلك إذاً ستبكين عند موتى مع بكاء الناس علىَّ؟».

فأجابته الروح:

- «لقد حرر الرب عينىَّ من البكاء».

فسألها موسى:

«إذاً، فلعلك ستذهبين إلى الجحيم عندما أموت؟».

فأجابته:

«بل سأسير أمام الرب فى أرض الأحياء».

فلما سمع موسى كل ذلك أمر روحه بمفارقته قائلاً:

- «عودى إلى مستقر راحتك يا روحى.. لأن الرب قد أكرمك وأنعم عليك» وعندها أخذ الرب روح موسى بقبلة من فمه.

* * *

ومع ذلك، فلم يتوقف نشاط موسى بموته، إذ فى السماء هو واحد من خدم الرب.. ودفن الرب موسى فى بقعة لم يعرفها أحد، ولا موسى نفسه. وكل ما نعرفه عنها هو أنه يوجد بها سرداب تحت الأرض يوصِّل إلى قبور الآباء.. وبالرغم من أن جثة موسى ترقد فى قبره، فإنها لا تزال نضرة كيوم عاش.

انتهى بعون الله الجزء الثالث

ويليه إن شاء الله الجزء الرابع

حسن حمدى

القاهرة ٢٠٠٦/٣/٤



فهرس المحتويات



4



أساطير اليهود

أحداث وشخصيات العهد القديم من يوشع إلى إستر



لويس جنز برج

ترجمة: حسن حمدي السماحي



4

أساطير اليهود

أحداث وشخصيات العهد القديم

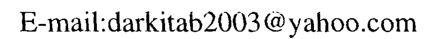
من يوشع إلى استير

اسم الكتاب : أساطير اليهود جـ ٤
اسم المؤلف : لويس جنز بيرج
ترجمة : حسن حمدى
المراجعة اللغوية والتدقيق : طه عبدالرؤوف سعد
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية : ٢٠٠٦/٢٢٢١٩
الترقيم الدولى : I.S.B.N. 977 - 376 - 219 - X

تطلب كافة منشوراتنا :
حلب : دار الكتاب العربى ـ الجميلية أمام مسرح نقابة الفنانين ـ ت: ٢٢٥٦٨٧٠
دمشق : مكتبة رياض العلبى ـ خلف البريد ـ ت : ٢٢٣٦٧٢٨
مكتبة النورى ـ أمام البريد ت : ٢٢١٠٣١٤
مكتبة عالم المعرفة ـ جسر فيكتوريا ت : ٢٢٢٨٢٢٢
مكتبه الفتال ـ فرع أول ـ ت: ٢٤٥٦٧٨٦
فرع ثانى ـ ت : ٢٢٢٢٣٧٣

الطبعة الأولى
٢٠٠٧





E-mail:darkitab2003@yahoo.com

سوريا ـ دمشق ـ الحجاز ـ شارع مسلم البارودى هاتف: ٢٢٣٥٤٠١ ص. ب ٣٤٨٢٥ فاكس : ٢٢٤٧٢٩٧
مصر ـ القاهرة ـ ٥٢ شارع عبدالخالق ثروت ـ شقة ١١ تلفاكس : ٣٩١٦١٢٢
لبنان ـ تلفاكس : ٤٣٤١٨٦ / ٠٥ ـ تليفون : ٦٥٢٢٤١ / ٠٣ ـ ص. ب ٣٠٤٣ الشويفات

أساطير اليهود

أحداث وشخصيات العهد القديم
من يوشع إلى استير

◆

لويس جنزبيرج

◆

الناشر
دار الكتاب العربي
دمشق - القاهرة



الإهداء

إلى أستاذى...

وأبى الروحى..

الأستاذ طه سبع،

أهدى هذا الكتاب

مع وافر حبى وموفور امتنانى،

حسن حمدى



مقدمة المترجم

الحمد لله والصلاة والسلام على كافة رسل الله وأنبيائه.

وبعد.

فها نحن بهذا الكتاب نصل إلى المجلد الرابع من كتاب «أساطير اليهود من كتاب التلمود» لمؤلفه الأستاذ «لويس جنزبرج».

وكما نعلم من المجلدات الثلاثة الأولى، فقد وصلنا فى رحلتنا فى بحر الأساطير اليهودية إلى وفاة موسى قبل دخول بنى إسرائيل إلى «الأرض المقدسة».

كان ذلك آخر ما قرأناه فى المجلد الثالث.

ثم ها هو المجلد الرابع يمسك بطرف الحكاية ليواصل السرد بدءًا من تولى «يشوع» فتى موسى أمر أمة بنى إسرائيل وخوضه حروباً كثيرة دموية ووحشية للاستيلاء على «الأرض الموعودة». ثم تتتابع بعد ذلك فصول الحكاية ووقائعها، مروراً بعهد القضاةالذين تولَّوْا أمر بنى إسرائيل، ثم عهد ملوك اليهود الذين كان أولهم «شاؤول»، ثم داود وسليمان.. إلخ حتى نصل إلى مرحلة التشقق والانقسام لينتهى المطاف ببنى إسرائيل ومملكتهم إلى الزوال بعد الوقوع فى الأسر البابلى.

والذى أود الإشارة إليه فى هذا المقام هو مسألة التدقيق فى أسماء الأعلام والأماكن.. إذ قد يجد القارئ اختلافاً فى تهجية أسماء بعض

الشخصيات والأماكن عما يألفه.. والسبب هنا هو عدم التيقن حتى الآن من هوية هؤلاء الأعلام وعدم الاطمئنان إلى هوية الأماكن المذكورة سواء فى الكتاب المقدس أو فى الأساطير اليهودية بشكل عام. إذ المعلوم لدى معظم الباحثين أن تاريخ بنى إسرائيل ومجموعة الحكايات الواردة عنهم من كتابهم المقدس هى أشبه «بالهلام الأسطورى» الذى لم يتم تحديد هويته والإمساك بتفاصيله الدقيقة حتى الآن.. ولا تعدو محاولات تحديد حقيقة الأسماء والأماكن مجرد تخمينات وظنون لاتقوم على دليل قوى وأساس متين. ولهذا فقد يجد القارئ اختلافاً بسيطاً فى تهجية بعض أسماء الأعلام والأماكن، وغموضاً فى أسماء البعض الآخر.. ولم أجهد نفسى بالبحث فى حقيقة تلك الأسماء، إذ الكتاب يتناول «أساطير» تشكلت فى الوعى اليهودى الجمعى عبر قرون طويلة، ولايتناول «حقائق تاريخية» ثابتة.

وأخيراً أود الإشارة على أن الكتاب له أجزاء أخرى سأحاول بعون الله البحث عنها وترجمتها وتقديمها إلى القارئ العربى، إذ فى رأيى المتواضع فإن هذه الأجزاء الباقية هى الأهم، لأنها تحمل تعليق مؤلف الكتاب ـ وكان من أكبر الأحبار اليهود ـ على هذه الأساطير ونقدها نقداً علميّاً يحاول استكشاف غوامضها.

لهذا كله فإننى أختم هذه المقدمة هنا حتى لا أطيل على القارئ وأدعوه مباشرة إلى مواصلة القراءة على أمل اللقاء به قريباً إن شاء الله.

والله من وراء القصد وهو يهدى السبيل.

القاهرة: ١٥/٦/٢٠٠٦

حسن حمدى

الفصل الأول

يشوع بن نون



عبـــد موســـى

فى البـدايات يتـشـابه تاريخ حـيـاة «يشـوع بن نون»، أول فـاتح فى تـاريخ اليهود... مع تاريخ حياة «موسى»، أول من شَرَّع لليهود...

فقد أُلْقِى موسى فى قبر مائى وأُنْقِذَ منه لينشأ فيما بعدُ فى بلاط ملك مصـر.. أمـا «يشـوع» فقـد ابتلعـه حـوت عظيم وهو فـى طفـولتـه، ثم نجـا منه بأعجوبة عندمـا تقيَّأه الحـوت بالقـرب من الشـاطئ... فـخـرج سـليمـاً لم يُمَسَّ فالتقطه بعض المارة ورَبَّوْه بينهم ونشأ جاهلاً بأصله..

وبعـد ذلك، عينتـه حكومـة البـلاد ليتـولى تنفيـذ أحكام الإعدام.. ثم شـاء القدر أن ينفِّذ حكم الإعدام فى أبيه؛ ولَمَّا كانت شريعة تلك البـلاد تقضى بأن تؤول زوجة المحكوم عليه بالإعدام إلى مُنَفِّذ الحكم... فإن يشوع كاد يزيد طينه بَلَّه فيتزوج أمه بعد أن قتل أباه!!

ولكن حدثت معجزة عظيمة...

إذ عندمـا اقترب يشـوع من زوجه الجـديدة.. وهو لا يدرى أنهـا أمه.. وأراد مجـامعـتهـا، تـدفَّق اللبن من ثدييهـا فى غـزارة.. فـارتاب فى أمـرهـا وأحـجم عن معـاشـرتهـا؛ ثم اسـتعلم عن أصلهـا وفصلهـا فتوصَّل إلى حقيقـة نسـبه فـأعلنهـا على الناس.

وفيـمـا بعـد أصـبح «يشـوع» ـ الـذى بلغ من جهله أن لقـبـه النـاس «بالغبى» ـ وزيراً لموسى وخدمه فى إخلاص شديد جعل الرب يثيبه على ذلك الإخلاص بأن عيَّنه خليفـة لموسى. وقد تبوَّأ «يشوع» هذه المكانة خلال حربه مع العماليق،

والتى أمره سيده «موسى» بشنها عليهم، حيث تجلت عناية الرب «بيشوع» عندما حكم على قسم من العماليق بالقتل الفورى... فنزل السيف السماوى فأبادهم فى الحال.

ومع ذلك، فقد كان بين «يشوع» و«موسى» اختلاف كبير يماثل الفرق بين الشمس والقمر.. إذ بالرغم من أن الرب لم يخذل «يشوع» مطلقاً، فإنه لم يكن قريباً منه قربه من «موسى».

وقد تجلَّى ذلك فور رحيل موسى، عن هذه الدنيا..

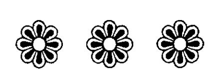
إذ قبلما يفارق موسى هذه الدنيا طلب من «يشوع» أن يسأله عن كل ما يُشْكل عليه فهمه، فأجابه «يشوع» بأنه لا يوجد شىء من هذا القبيل.. فنسى فى الحال ثلاثمئة من تعاليم الهالاخوت، وأُشْكِل عليه فهم سبعمئة أُخَر!!

وعند ذلك كاد الشعب يفتكون به لعجزه عن حل نزاعاتهم القانونية.. ولم يستطع اللجوء إلى الرب، إذ أن التوراة تصبح تحت سلطان وتصرف البشر بعد تنزيلها. ولذا، فبعد موت موسى مباشرة، أمر الرب «يشُوع» بالبدء فى الحرب فوراً... فلعل الناس تنشغل بها عن السخط عليه.

لكن يخطئ من يظن أن هذا الفاتح العظيم كان مجرد بطل عسكرى.. إذ عندما ظهر له الرب ليخبره بما يريد منه فعله فى الحرب، وجد «يشوع» ممسكاً بسفر التثنية...

فناداه الرب وقال له:

- «يا يشوع.. كُنْ قويّاً وشجاعاً ولن يفارق سفر الشريعة فمك أبداً».



دخول الأرض الموعودة

كانت أول خطوات الإعداد للحرب هى اختيار الجواسيس.

ولكى يتجنب «يشوع» تكرار ما حدث مع موسى عند إرساله للجواسيس(١)، اختاره «كَالِب بن يَفُنَّة» و«فينحاس بن ألعازار بن هارون».. حيث كانا رجلين تقيين يستطيع الاعتماد عليهما فى جميع الظروف. وقد صحب الجاسوسين فى رحلتهما شيطانان كانا زَوْجَىْ الشيطانتين لِيليث ومَحْلَه... وكان الشيطانان قد عرضا على «يشوع» خدماتهما أثناء شروعه فى التخطيط للحرب.. لكنهما كانا قد ظهرا لأهل أريحا بوجهين غاية فى القبح والبشاعة فارتعب الناس من منظريهما وتملكهم ذعر شديد.

* * *

عندما وصل الجاسوسان إلى أريحا، توجَّها إلى بيت «راحاب» الزانية التى ظلت تعيش حياة العُهْر والفاحشة طوال أربعين سنة.. لكن لَمَّا اقترب بنو إسرائيل من المدينة أنابت للإله الحقيقى وعاشت حياة الأتقياء المتهوِّدين؛ ثم فيما بعد تزوجها «يشوع» وأصبحت جَدةً لثمانية أحفاد والنبية «خُلْدة». وقدَّر الرب أن يشهد بيت «راحاب» المعجزات..

إذ عندما جاءت شرطة الملك إلى بيتها ليبحثوا عن الجاسوسين، حاولت «راحاب» إخفاء الإسرائيليين.

(١) هو هنا يشير إلى ما ورد فى الجزء الثالث، عندما أرسل موسى اثنى عشر جاسوساً ليستطلعوا أحوال الأرض المقدسة ويتعرفوا على مواطن الضعف والقوة فيها، فعاد الجواسيس وخوفوا بنى إسرائيل منها.. فيما عدا «كالب» و«يشوع» نفسه. (المترجم).

لكن «فينحاس» طمأنها قائلاً:

- «لا تخافى ولا تنزعجى... فأنا كاهن والكهنة مثل الملائكة يظهرون للناس عندما يريدون ويختفون عن أعينهم عندما يريدون».

عندما عاد الجاسوسان إلى «يشوع» وأخبراه بما رأيا وبما سمعا، قرر أن يعبر نهر «الأردن» حيث وقعت معجزات كثيرة أراد بها الرب تثبيت مكانته بين الناس.. فما كاد الكهنة يضعون أقدامهم فى مياه النهر ـ وكانوا قد تولّوا فى هذه اللحظة المهيبة حمل تابوت العهد بدلاً من اللاويين ـ إلا وانحسرت المياه من أمامهم إلى ثلاثمئة ميل..! وكانت أمم الأرض كلها شاهدةً على هذه المعجزة!!

ثم جمع «يشوع» الشعب كله حول تابوت العهد على أرض قاع النهر الذى اتسع مجراه الضيق لهذه الألوف المؤلفة من بنى إسرائيل، وتلك معجزة أخرى! وبعد ذلك أعلن «يشوع» على مسامع الشعب الشروط التى اشترطها الرب على بنى إسرائيل ليمنحهم «فلسطين»، إن هم التزموا بجميع هذه الشروط.. فإن رفضوها انطبقت عليهم مياه النهر فى الحال..

وبعد ذلك زحف الجميع خلال النهر ـ فلما وصلوا إلى الضفة الأخرى، اندفع التابوت المقدس الذى كان لايزال حتى الآن راقداً على أرضية القاع، نحو الضفة الأخرى ليسبق جميع الناس ويجرجر الكهنة من ورائه..!

* * *

وتواصلت الأحداث الحافلة فى ذلك اليوم..

سار بنو إسرائيل دون أن يلقوا مقاومة من أحد، مسافة سبعين ميلاً حتى وصلوا إلى جبل «جرزيم» وجبل «عيبال»، فأدوا الشعيرة التى أمرهم بها موسى فى سفر التثنية.. ألا وهى: أن تصعد ست من القبائل على جبل «جرزيم»، بينما تصعد القبائل الأخرى على جبل «عيبال». ثم تجمع الكهنة واللاويون حول التابوت المقدس، تابوت العهد، فى الوادى بين الجبلين.. ثم أدار اللاويون

وجوههم تجاه جبل «جرزيم» وقالوا:

- «طوبى لكل من لا يصنع صنماً، فذلك الذى يكرهه الرب».

وأمَّن جميع الشعب وراءهم.

وبعدما تلفظ اللاويون باثنتى عشرة تسبيحة كهذه، أداروا وجوههم تجاه ناحية جبل «عيبال» وتلفظوا باثنتى عشرة لعنة... وكان الشعب يردد وراءهم فى كل مرة «آمين.. آمين».

وبعد ذلك أقام الشعب مذبحاً على جبل عيبال بالأحجار الاثنى عشر التى أخذها بنو إسرائيل من قاع الأردن عند مرورهم به... وكان كل حجر منها يزن أربعين سيناً. وبعد ذلك طلوا المذبح بالجير وكتبت عليه التوراة بسبعين لغة، لكى تتاح الفرصة للأمم الوثنية لتعلم الشريعة. وفى النهاية قيل فى وضوح، إن الوثنيين الموجودين خارج أراضى فلسطين سوف يقبلهم اليهود بكل لطف وعطف - إن هم هجروا عبادة الأصنام.

وحدث كل ذلك فى يوم واحد، هو يوم عبور نهر الأردن.. واجتمع الشعب على جبل «جرزيم» وجبل «عيبال» وهو ذات اليوم الذى وصل فيه الشعب إلى جلجال حيث تركوا الأحجار التى بُنى منها المذبح.

وعند «جلجال» أدَّى «يشوع» شريعة ختان من ولدوا فى الصحراء، إذ كانوا قد ظلوا إلى حينها دون ختان بسبب سوء الطقس.. ولأسباب أخرى. وعاد المن يتساقط من جديد فى ذلك اليوم.. إذ كان نزوله قد انقطع منذ موت موسى، لكن الخزين الذى كان الشعب يحتفظ به منه قد كفاه إلى حين.

لكن.. ما كاد بنو إسرائيل يجدون أنفسهم فى حاجة لتدبير احتياجاتهم اليومية بأنفسهم، إلا وأهملوا دراسة التوراة.. ولهذا فقد أمر ملاك الرب «يشوع» بأن يخلع نعليه حزناً على إهمال الشعب دراسة التوراة. وخلع النعلين دلالة على الحزان والحداد. كما وبخ الملاك «يشوع» على إهماله وسماحه بأن

يتسبب الإعداد للحرب فى إهمال دراسة التوراة وإقامة الشعائر.

وربما تكون خطيئة إهمال إقامة الشعائر من الصغائر واللمم.. لكن إهمال دراسة التوراة خطيئة مستوجبة للعقاب. كما أكد ملاك الرب كذلك «ليشوع» أنه قد أتى ليعينه ويساعده، وناشده بألا يرفض معونته، كما فعل موسى من قبل عندما رفض نصائح الملاك المفيدة له ولقومه.

ولم يكن ذلك الملاك الذى تحدث إلى «يشوع» سوى «ميكائيل» كبير الملائكة.



فتـــح الأرض

كان أول نصر يحققه «يشوع» هو استيلاؤه العجيب على «أريحا». وعندما فتحها، أعلن أن المدينة كلها حرام، لأنها فتحت فى نهار السبت. وقد رأى «يشوع» أن السبت مقدس ولذا فلابد أن يتم تقديس كل بلد يُفْتَح فيه.

ثم تبع ذلك النصر الساحق، الهزيمة الماحقة فى عاى، حيث قتل «يائير بن منَسَّى»، فكانت خسارة تعادل تدمير القسم الأكبر من السنهدرين.

ومن فوره أدرك «يشوع» أن سبب هذه الهزيمة المخزية، إنما هو ولوغ بنى إسرائيل فى الخطيئة التى تمثلت فى الغلول الذى غلَّه «آخان» حينما سرق جزءاً من غنائم أريحا. وكان «آخان» هذا مجرماً غليظ القلب منذ زمن بعيد.. ففى زمان موسى كان كثيراً ما يستولى على أشياء أُعلنت حراماً، بالإضافة إلى ارتكابه للكثير من الجرائم الأخرى التى كان يستحق القتل جزءاً عليها.

ولم يؤاخذ الرب بنى إسرائيل بذنوب «آخان» قبل عبورهم نهر الأردن، إذ كانت خطاياه مقصورة عليه وحده ولم يشاركه فيها الشعب. لكن عندما صنع «آخان» صنماً فى أريحا، شاركه الشعب فى عبادته والسجود له.. فحاقت بهم الهزيمة فى «عاى» على الفور.

وعندما سأل «يشوع» الرب عن سبب تلك الهزيمة، لم يرد الرب على سؤاله، إذ الرب ليس مشَّاءً بالنميمة... ولكنه أمره بأن يجرى قرعة ليعرف مرتكب الخطيئة.

عند ذلك استدعى «يشوع» الكاهن الأكبر، فرأى أن الأحجار الاثنى عشر التى تزين صدرته تتلألأ كلها.. إلا حجر «يهوذا» فأجرى «يشوع» القرعة بين بنى «يهوذا» فأصابت «آخان»..

لكن «آخان» رفض الامتثال للقرعة.

وقال ليشوع:

- «إنك و«فينحاس» أتقى الناس... لكن إن أجرينا بينكما قرعة، فلابد أن تصيب أحدكما.. أفيصبح مجرماً عند ذلك؟! حقا! ما كاد ينقضى شهر على وفاة أستاذك «موسى»، إلا وبدأت تضل من بعده.. إذ نسيت أن الذنب لا يتم إثباته على أحد إلا بشهادة شاهدين».

وفى هذه اللحظة حل الروح القدس على «يشوع» فرأى بعين النبوة أن الأرض المقدسة سيتم توزيعها على الأسباط بالقرعة.. ولهذا فلم يُردْ لشىء، أيّاً كان، أن يشكك فى عدالة توزيع الأرض بهذه الطريقة. ولذا حاول «يشوع» إقناع «آخان» ليعترف بخطيئته.

عند ذلك لم يجد «آخان» بدّاً من الاعتراف بخطيئته فكلفه هذا الاعتراف حياته.. لكنه أنقذ نصيبه فى الآخرة من الضياع.

* * *

على الرغم من الهزيمة المفاجئة التى حلت ببنى إسرائيل فى «عاى»، فإن الكنعانيين قد استولى الرعب على قلوبهم تجاه الغزاة.. ولهذا فقد قرر الجدعونيون مداهنة الغزاة، وتحالفوا معهم.

وقبل أن يبدأ «يشوع» حملته أعلن على الأمم ثلاثة خيارات: من يرد الرحيل فليرحل ولن يعترض أحد طريقه؛ ومن أراد مسالمة بنى إسرائيل فلا يتردد؛ ومن يرد الحرب فليستعد لها.

ولو كان الجيعونيون قد سعوا إلى مسالمة بنى إسرائيل عندما بلغهم ذلك

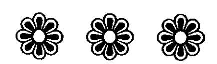
الإعلان، لما كانت هناك حاجة فيما بعد إلى لجوئهم إلى المكر والخديعة.. لكن كان على الكنعانيين أن يروا بأعينهم طبيعة العدو الذى يواجهونه، ولذا فقد أعدت كل أمة للحرب عدتها.

ثم كان نتيجة تلك الحرب أن هلك ملوك فلسطين جميعاً، وكانوا واحداً وثلاثين ملكاً، بالإضافة إلى هلاك العديد من مرازبة الملوك الأجانب الذين كانوا يتفاخرون بأن لهم إمارات فى الأرض المقدسة. ولم يرحل عن الأرض سوى الجرجاشيون... فكافأهم الرب على مسالمتهم لبنى إسرائيل بأن أورثهم أفريقيا..

أما الجبعونيون، فلم يكونوا يستحقون أقل مما لاقاه غيرهم من الكنعانيين، إذ كان عهدهم مع «يشوع» مبنيّاً على الزيف والخداع.. ولكن «يشوع» حافظ على عهده معهم تقديساً لاسم الرب بأن أرى العالم كله كيف يحافظ بنو إسرائيل على أيمانهم ولا يجرؤون على نقض عهودهم.

ثم تبيَّن، مع مرور الأيام، أن الجبعونيين ليسوا أهلاً للاندماج فى المجتمع اليهودى.. وعند ذلك اقتدى «داود» بيشوع وأقصاهم إلى الأبد.

وسيظل ذلك حكماً نافذاً إلى زمن «المسيًّا».



الشمس تطيع «يشوع»

حافظ «يشوع» على وعده الذى وعد به الجبعونيين، بنصرتهم ظالمين أو مظلومين.. لكنه كان يفعل ذلك متردداً مرتاباً. وعندما استنجد به الجبعونيون ذات مرة، تردد قليلاً.. لكن الرب أزال عنه كل تردد.

إذ قال له الرب:

- «إذا لم تقرب إليك البعيدين عنك، ليتفرقن عنك القريبون منك» ثم نصر الرب «يشوع» فى صراعه مع الذين اعتدوا على الجبعونيين حلفائه، إذ أن الحجارة الملتهبة التى بقيت معلقة فى السماء أيام «موسى» وكانت تتساقط على المصريين، قد هطلت الآن على الكنعانيين.

ثم بعد ذلك حدثت معجزة.. إذ توقفت الشمس وانحبست، وهى سادس معجزة عظيمة تحدث منذ بدء الخليقة.

وقد وقعت هذه المعركة فى يوم الجمعة، وكان «يشوع» يعلم أن الشعب سيسيؤه كثيراً أن يضطر إلى انتهاك حرمة السبت المقدس. كما أنه لاحظ أن الكنعانيين الوثنيين يلجأون إلى السحر والعرافة لكى تساعدهم الأرواح السماوية فى حربهم ضد بنى إسرائيل. ولهذا فقد تلفظ «يشوع» باسم الرب الإله فتوقفت الشمس والقمر والنجوم وثبت كل منها فى مكانه.

وفى البداية رفضت الشمس تنفيذ طلب «يشوع»، لأنها رأت أنها أكبر سنّاً من الإنسان بيومين..

لكن «يشوع» رد على ذلك بأن قال إنه لا يرى سبباً يمنع شابّاً حراً من ممارسة سلطانه على عبد عجوز يملكه، ثم: «ألم يعط الرب الشمس والقمر لأبينا إبراهيم؟».

هكذا قال «يشوع» وأضاف:

ـ «بل إن الشمس قد خرت ساجدة كالأَمة أمام «يوسف»».

فأجابته الشمس قائلة:

ـ «لكن.. ومن ذا الذى سيسبح بحمد الرب إن أنا توقفت والتزمتُ الصمت!؟»

فرد يشوع:

ـ لتصمتى أنتِ وسوف أترنم أنا بترنيمة حمدٍ للرب».

ثم أخذ ينشد قائلاً:

١ ـ ياربُّ.. لقد أتيت بأفعال جليلة وصنعت أموراً عظيمة. من مثلك يارب؟ لتترنمن شفتاى باسمك.

٢ ـ يا خيرى وحصنى وملاذى... لأنشدن لك أنشودة جديدة ولأترنمن مسبحاً بحمدك، فأنت قوة خلاصى.

٣ ـ ليسبحَنَّ بحمدك كل ملوك الأرض، وليترنَّمنَّ أمير العالم بحمدك وليفرحن بنو إسرائيل بخلاصك، وليُسَبِّحُنَّ بحمدك تمجيداً وتعظيماً لقدرتك.

٤ ـ بك نثق يارب... وقد قلنا إنك أنت إلهنا، ولطالما كنت أنت درعنا وحصننا صُد عدونا.

٥ ـ لك ذرفنا الدموع.. ولم نخجل. وبك وثقنا.. فنجونا. وعندما بكينا واستغثنا بك سمعت صوتنا وخلّصت أرواحنا من السيف.

٦ - أظهرت لنا رحمتك ومنحتنا خلاصك.. وفرَّحت قلوبنا بقوَّتك.

٧ - سعيت لخلاصنا.. وبقوة ذراعك خلَّصت شعبك.. وواسيت أرواحنا من سموات قداستك.. وأنقذتنا من عشرات الآلاف.

٨ - سكّنت الشمس والقمر فى السماء.. وأنزلت غضبك على قاهرينا، وأنفذت فيهم عدلك.

٩ - انتفض جميع أمراء الأرض... وتجمع ملوك أمم الأرض.. فاجتمعوا ولم يراعوك وأرادوا حربك.

١٠ - فانتفضت أنت فيهم بغضبك وأحللت عليهم سخطك وأهلكتهم بسعيرك وبحنقك أفنيتهم جميعاً.

١١ - ثارت الأمم رعباً منك - وتمزقت الممالك بسخطك، وجرحت الملوك فى يوم غضبك.

١٢ - صببت عليهم غضبك صبّاً.. وأحللت بهم سخطك.. وقلبت عليهم ظلمهم وأهلكتهم بذنوبهم.

١٣ - ونصبوا فخّاً.. فسقطوا فيه، وسقطت أقدامهم فى الشبكة التى نصبوها.

١٤ - عثرت يدك على جميع أعدائك الذين قالوا إنهم تملكوا الأرض بسيوفهم وأنهم سكنوا المدينة بقوة سواعدهم.

١٥ - ملأت وجوههم بالخزى وأرغمت أنوفهم فى التراب.

١٦ - أرعبتهم بسخطك وأهلكتهم أمامك.

١٧ - اهتزت الأرض وارتجفت من ضجيج رعودك ضدهم.. ولم تحجب أرواحهم عن الأرض.. ودفنت حيواناتهم فى القبور.

١٨ - لاحقتهم بعواصفك وأفنيتهم فى الأعاصير.. وحولت مطرهم إلى بَرَد وسيول، فغرقوا فى الفيضانات ولم تقم لهم قائمة.

١٩ ـ فأصبحت جيفهم كالقمامة الملقاة فى عرض الطريق.

٢٠ ـ وفنوا وهلكوا من أمامك... وخلصت شعبك بقدرتك.

٢١ ـ لهذا تفرح قلوبنا لك وتنتشى أرواحنا بخلاصك.

٢٢ ـ وستحكى ألستنا عن قدرتك... وسننشد بأعمالك العجيبة ونحمدك.

٢٣ ـ لأنك أنقذتنا من أعدائنا... وخلصتنا ممن ثاروا ضدنا ودمرتهم أمام أعيننا وجعلتهم تحت أقدامنا.

٢٤ ـ وهكذا سيهلك جميع أعدائك يارب وسيكون الأشرار كالهشيم تذروه الرياح وسيكون أحباؤك مثل الأشجار ترويها المياه.



الحرب مع الأرمينيين

لم تتوقف انتصارات يوشع عند حد فتح الأرض المقدسة، وإنما كانت حربه مع الأرمينيين، بعدما أخضع فلسطين، ذروة أعماله البطولية. فمن بين الملوك الواحد والثلاثين الذين ذبحهم يوشع، كان ابن أحدهم هو شوباخ ملك أرمينيا الذى أراد حرب يوشع فوحَّد ملوك فارس وميديا الخمسة والأربعين وانضم إليهم البطل المشهور «يافث» وأرسل الملوك المتحالفون إلى يوشع برسالة ينذرونه فيها بما عزموا عليه من حربه وقالوا له فيها: «من المجلس النبيل الجليل لملوك فارس وميديا إلى يوشع، سلام عليكم. أيها الذئب الصحراوى لنعرفنَّك (جزاء) ما فعلت بأهلنا. لقد دمرت قصورنا؛ وذبحت كبارنا وصغارنا دون رحمة؛ وجندلت بالسيف آباءنا وحولت مدنهم إلى صحارى. لتعلم إذاً أننا آتون إليك فى غضون ثلاثين يوماً، ولنأتين إليك نحن الملوك الخمسة والأربعين، ومع كلٍّ منا ستون ألفاً من الصناديد المسلحين بالقسى والسهام والمتمنطقين بالسيوف، وكلنا ماهر بالحرب خبير بدوربها، ومعنا البطل يافث. فلتُعِدَّ إذاً للوقعة عدتك وقد أعذرناك إذ أنذرناك».

وصل الرسول حاملاً هذه الرسالة فى اليوم السابق لعيد الأسابيع وبالرغم من انزعاجه الشديد من هذه الرسالة وما جاء فيها، فإنه لم يخبر الشعب بشىء منها وأجل ذلك لما بعد العيد، لكى لا ينغص على الناس فرحتهم بالعيد. ثم عندما انتهت الوليمة أخبر الشعب بالرسالة التى وصلته، والتى جعلته، وهو المحارب المجرِّب، يضطرب ويرتجف فرقاً من إنذار العدو الزاحف له بالحرب.

ومع ذلك فقد عزم يشوع على قول التحدى، وقرر من أول لحظة أن يُرِىَ الوثنيين كيف أن تهديداتهم له لم تهَزَّ شعرة واحدة من رأسه وهو الذى يثق بالرب. وكان رده على هذه الرسالة كالتالى: «باسم الرب إله إسرائيل، الذى يذهب بقوة المحارب الباطش ويبيد العاصى الآبق، ويفرق حشود المعتدين الخطاة، ويشد أزر المتقين والأبرار المبعثرين، وهو رب الأرباب، رب إبراهيم وإسحاق ويعقوب. فالرب هو إله الحرب! ومنى أنا يوشع، عبد الرب، ومن المجمع المقدس المختار.. إلى الأمم الخاطية التى تعبد التماثيل وتسجد للأصنام: لا سلام لكم، هكذا يقول ربى! ولتعلموا أنكم تهورتهم إذ أيقظتم الأسد الغافى، وجذبتم لبدته فأثرتم غضبه. أنا على أتم استعداد لمجازاتكم بما تستحقون. فلتتهيأوا إذاً لملاقاتى، لأننى سأكون عندكم خلال أسبوع لأذبح صناديدكم فلا يبقى منهم رجل».

ثم استطرد يشوع يحكى لهم كل العجائب التى صنعها الرب كرامة لإسرائيل، الذى ليس بحاجة لأن يخشى أى قوة على ظهر الأرض، ثم أنهى رسالته قائلاً: «لئن كان البطل يافث معكم، فمعنا وبيننا بطل الأبطال، والعلىُّ فوق كل عالٍ».

عندما وصلت رسالة يوشع إلى الوثنيين تملكهم الرعب الذى ازداد بعدما قص عليهم رسولهم ما رآه من النظام المثالى للجيش الإسرائيلى، والضخامة البالغة والقوة الهائلة التى يتمتع بها يشوع، فقد كان يبلغ خمسة أذرع طولاً؛ وما حكاه لهم عن ثياب يوشع الملكية وتاجه المنقوش عليه اسم الرب. وفى نهاية اليوم السابع ظهر لهم يشوع ومعه اثنا عشر ألف مقاتل. وعندما رأت أم الملك شوباخ - وكانت عَرافة وساحرة ذات بأس - جيش يشوع، مارست فنونها السحرية وأحاطت الجيش الإسرائيلى بسبعة أسوار. وعند ذلك أرسل يشوع حمامة لتبلِّغ نابياه ملك قبائل عبر الأردن بمحنته التى ألمت به، ويستحثه على الإسراع بنجدته وإحضار الكاهن فنحاس والطبول المقدسة معه. ولم يتأخر نابياه. وقبل وصول المدد إلى يشوع وجيشه، أخبرت أم شوباخ ابنها أنها رأت

نجماً يصعد من الشرق فلا يَجدى معه سحرها نفعاً. وعندما سمع شوباخ ذلك أمسك بأمه فألقاها من فوق الأسوار، ثم سرعان ما قُتِل هوق نفسه على يدى نابياه. ووصل فنحاس فى هذه الأثناء وقرع الطبول فانهارت الأسوار. ثم وقعت معركة حامية بين الفريقين فَنِىَ فيها الوثنيون عن بكرة أبيهم.



تخصيص الأرض

وبعد سبع سنوات من الحرب، استطاع يشوع أخيراً أن يوزع الأرض المقدسة بين الأسباط، وقد فعل ذلك على النحو التالى: وقف الكاهن الأكبر «إلعازار» ـ وكان معه يشوع وجميع الشعب ـ أمام وعاءين، وكان يرتدى الأوريم والثوميم. وكانت إحدى الآنيتين تحتوى على أسماء الأسباط، بينما كانت الأخرى تحتوى على أسماء المناطق التى ستوزع وجعله الروح القدس يصيح قائلاً: «زبولون» ثم يمد يده فى الوعاء الأول ويسحب منه اسم زبولون ثم يسحب من الوعاء الآخر كلمة «أكو»، أى منطقة «أكو» ـ واستمر يفعل ذلك حتى انتهى من توزيع الأرض على جميع القبائل، ولكى تكون الحدود الفاصلة بين أقسام الأرض ثابتة ولا تتغير أمر يوشع بزراعة «الحزوبه» على الحدود الفاصلة بين تلك الأقسام. ومن المعروف أن جذور هذا النبات بعد أن تستقر فى أى منطقة لا يمكن خلعها منها إلا بصعوبة بالغة. وقد يشق المحراث قنيان عميقة فوقه لكنه يُنّبِت خِلفاً جديدة وينمو مرة أخرى وسط الحبوب، ليدل على الحدود القديمة.

أصدر يشوع عشرة أحكام تتعلق بتوزيع الأرض، وقد قصد منها تنظيم الحقوق فى الملكيات الخاصة. فالرعى فى الغابة من حق الشعب. ويسمح لأى شخص بجمع الحطب من الأراضى. كما يسرى نفس الأمر على جمع الحشائش أينما نمت، إلا إذا كانت فى حقل تمت زراعته بالبوص الذى يحتاج إلى العشب لحمايته. من حق أى شخص أن يقطع قطعاً من الأشجار بغرض التطعيم، فيما

عدا أشجار الزيتون. كل نبع ماء يخص المدينة التى فيها كلها. يسمح لكل شخص بالصيد فى بحيرة طبرية، بشرط ألا يعيق الملاحة. باستطاعة أى عابر سبيل أن يقضى حاجته فى المنطقة الخارجية الملاصقة لسور أى حقل. من مختتم الحصاد إلى اليوم السابع عشر من «مارشيتوان»، يحظر على الكل عبور الحقول. أى مسافر يضل طريقه فى حقول العنب لا يمكن مساءلته عما قد يتسبب فيه من خسائر أثناء بحثه عن الطريق الصحيحة. أى جثة توجد فى حقل معين يتم دفنها فى ذات البقعة التى وجدت بها.

وقد استغرق توزيع الأرض بين القبائل وتقسيم أرض كل قبيلة فيما بين رجالها، استغرق زمناً مماثلاً لما استغرقه فتح الأرض.

عندما عادت القبيلتان ونصف اللتان تنتميان للأرض الواقعة فيما وراء الأردن، عندما عادتا إلى موطنهما بعد غياب أربعة عشر عاماً، أدهشهما كثيراً أن تجد أن الصبيان الذين كانوا صغاراً على الذهاب إلى الحرب قد أصبحوا رجالاً كباراً ناضجين يستحقون أن يفخر بهم آباؤهم، إذ استطاعوا صد القبائل الإشماعيلية التى استغلت فرصة غياب الرجال القادرين على حمل السلاح وهاجمت نساء هذه القبائل وأطفالها.

بعد زعامة استمرت ثمانية وعشرين عاماً وتميزت بالنجاح الباهر فى السلم وفى الحرب، غادر يشوع هذه الحياة. ووضع أتباعه السكاكين التى استخدمها فى ختان الإسرائيليين فى قبره، وأقاموا فوق القبر عموداً تذكاراً لانحباس الشمس فوق عجالون. وفوق ذلك فلم يكن الحداد على يشوع عظيماً كما قد يتوقع البعض، فقد انشغلت القبائل بزراعة الأرض المفتوحة حديثاً انشغالاً بلغ بهم أنهم كادوا ينسون الرجل الذى يدينون بالفضل له فى امتلاك هذه الأرض. وكعقاب لهم على نكرانهم للجميل، أمات الرب كاهنهم الأكبر إليعزر وغيره من الكبراء، بعد موت يشوع بقليل، وبدأ الجبل الذى دفن فوقه يشوع يهتز ويهدد بابتلاع اليهود.

الفصل الثانى

القضـــاة



القاضى الأول

بعد موت يشوع سأل الإسرائيليون الرب إن كانوا يستطيعون شن الحرب على الكنعانيين أم لا، فأتتهم الإجابة: «إن كانت قلوبكم تقية فاذهبوا إلى الحرب؛ لكن إن كانت الخطايا قد دنست قلوبكم فلا تذهبوا». فسألوا كيف يستطيعون اختبار قلوب الشعب، فأمرهم الرب بأن يجروا القرعة ويختاروا من ستقع القرعة عليهم، إذ سيكون هؤلاء هم الخطاة من بينهم. ثم لما دعا الشعب الرب ليعطيه مرشداً وقائداً أجابه ملاك قائلاً: «اقترعوا بين قبيلة كلب». فاختارت القرعة «قيناز» فجعلوه أميراً على إسرائيل.

كان أول ما فعله قيناز بعد توليه حكم إسرائيل أن أجرى قرعة ليعرف الخطاة من الشعب ويعرف فيم يفكرون. وأعلن على الناس قائلاً: «إن أختارتنى القرعة أنا وأهل بيتى فعاملونا بما نستحق وأحرقونا بالنار». فوافق الشعب وأجريت القرعة فخرج من قبيلة يهوذا ٣٤٥، ومن رأوبين ٥٦٠، ومن شمعون ٧٧٥، ومن لاوى ١٥٠، ومن يساكر ٦٦٥، ومن زبولون ٥٤٥، ومن جاد ٣٨٠، ومن أشر ٦٦٥، ومن منسى ٤٨٠، ومن إفرايم ٤٤٨، ومن بينامين ٢٦٧. وهكذا تم وضع ٦١١٠ أشخاص فى السجن، إلى أن يحكم الرب فى أمرهم. ودعا قيناز والكاهن الأكبر إليعزر وشيوخ المجمع معاً، فأجيبوا: «بأن يطلبوا من المحبوسين أن يعترفوا بخطاياهم الآن، وسوف يحرقون بالنار». فاستحثهم قيناز قائلاً: «تعلمون أن آخان بن زبدى ارتكب خطيئة أخذ الحرام، لكن القرعة كشفته واعترف بخطيئته. اعترفوا أنتم أيضاً بخطاياكم لكى تحيوا مع من سيبعثهم الرب فى يوم البعث».

عند ذلك رد عليه أحد المسجونين، وكان رجلاً اسمه إيله، وقال: «إن أردت معرفة الحقيقة فخاطب كل قبيلة على حدة». فبدأ قيناز بمخاطبة قبيلته هو، قبيلة يهوذا فاعترف خطاتها بأنهم عبدوا العجل الذهبى، مثلما فعل أسلافهم من قبل فى الصحراء: أما خطاة رأوبين فاعترفوا بأنهم قدموا القرابين للأصنام. وقال اللاويون: «كنا نريد أن نعرف إن كان التابوت مقدساً أم لا؟». وقال خطاة يساكر: «استشرنا الأصنام لنعرف منها ماذا سيحدث لنا» وقال خطاة قبيلة زبولون: «أردنا أن نأكل لحم أبنائنا وبناتنا لنعرف إن كان الرب يحبهم أم لا». واعترف خطاة دان بأنهم قد علموا أطفالهم من كتب العموريين التى أخفوها تحت جبل عباريم حيث عثر قيناز عليها. واعترف النفتاليون بارتكاب نفس الخطيئة لكن مع إخفاء الكتب فى خيمة «إيله»، وعثر عليها قيناز. واعترف خطاة جاد بأنهم عاشوا حياة الفاحشة، أما خطاة أشر فقد اعترفوا بأنهم وجدوا العجول الذهبية السبعة التى يسميها العموريون «الحوريات المقدسة»، وبأنهم أخفوها تحت جبل شكيم، وهى نفس العجول التى كان قد صنعها بعد الطوفان بطريقة معجزة الخطاة السبعة: كنعان وبوط وشيلح ونمرود وعيلات ودعول وشواح. وكانت هذه العجول مصنوعة من أحجار نفيسة من «حويلة»، وكانت تشع ضوءاً يجعل الليل نهاراً مشرقاً. كما كان لهذه العجول ميزة نادرة، وهى أنه لو قَبَّل أحد الرجال العمى العموريين ولمس عين العجل فى نفس الوقت فإنه يسترد بصره على الفور. ثم اعترف خطاة منسى بأنهم قد اعتدوا فى السبت. واعترف خطاة إفرايم بأنهم قد ضحوا بأطفالهم لمولوخ. وفى النهاية قال البنياميون: «كنا نريد أن نعرف إن كانت الشريعة هى من موسى أم من الرب».

بأمر من الرب تم إحراق هؤلاء الخطاة وجميع ممتلكاتهم فى النار عند جدول فيشون. لكن كتب العموريين وأحجارهم النفيسة بقيت سليمة لم تُمَسَّ، فلا أثرت فيها النار ولا أضرها الماء. وقرر قيناز أن يكرس الأصنام للرب، لكن نزل عليه وحى قائلاً: «لئن تقبّل الرب من أعلن أنه حرام، فلماذا لا يفعلها إذاً الإنسان؟» وأكّد له بأن الرب سيدمر هذه الأشياء التى ليس للبشر عليها من

سلطان. وبوحى من الرب حمل قيناز هذه الأشياء إلى قمة أحد الجبال حيث شيد مذبحاً وضع الكتب والأصنام عليه وقدم الشعب الكثير من القرابين واحتفلوا باليوم كله باعتباره مهرجاناً وعيداً. وفى الليلة التالية رأى قيناز الندى يرتفع من ثلج الجنة ويهبط على الكتب حيث محا حروف الكلمات المكتوبة فيها، ثم أتى ملاك ودمَّر ما تبقى منها. وفى نفس الليلة أتى ملاك آخر وحمل الأصنام السبعة وألقى بها فى البحر، بينما أتى ملاك ثالث باثنتى عشرة جوهرة أخرى محفور عليها أسماء أبناء يعقوب الاثنى عشر. ولم تكن جوهرتان من هذه الجواهر تتشابه فى شىء، فالأولى التى كانت تحمل اسم رأوبين كانت مثل الصرد[1]، وكانت الثانية التى تحمل اسم شمعون مثل التوباز؛ والثالثة تحمل اسم لاوى، وهى مثل الزمرد، بينما كانت الرابعة التى تحمل اسم يهوذا مثل عقيق أحمر؛ أما الخامسة التى كانت تحمل اسم يساكر فهى مثل حجر السفير؛ والسادسة التى تحمل اسم زبولون مثل حجر الشب؛ والسابعة التى تحمل اسم دان مثل حجر الكيغور (حجر كريم)؛ والثامنة التى تحمل اسم نفتالى مثل حجر الجمشت؛ وكانت التاسعة التى تحمل اسم جاد مثل العقيق؛ والعاشرة التى تحمل اسم أشر مثل حجر كريم أخضر زيتونى؛ والحادية عشرة التى تحمل اسم يوسف مثل حجر البريل؛ أما الثانية عشرة التى كانت تحمل اسم بنيامين فكانت مثل العقيق الثمانى.

ثم أمر الرب قيناز أن يضع فى التابوت المقدس اثنى عشر حجراً، لتبقى فيه حتى يحين الزمن الذى سيبنى فيه سليمان الهيكل ويوصلها بالقروبيم. كما أوحى الرب إلى قيناز قائلاً: «كما أنه عندما تكتمل خطيئة بنى البشر بتدنيس معبدى، المعبد الذى سيبنونه هم بأنفسهم، سآخذ هذه الأحجار مع جداول الشريعة، وأضعها فى مكان كانت قد انتزعت منه من القدم، وستبقى فيه حتى نهاية الزمان عندما أزور سكان الأرض. ثم بعد ذلك سآخذها وستكون نوراً دائماً لمن يحبوننى ويحفظون وصاياى». وعندما حمل قيناز هذه الأحجار إلى الحرم، أضاءت الأرض مثل الشمس الساطعة فى كبد السماء.

(١) نوع من العقيق الأحمر البرتقالى اللون.

حملات قيناز العسكرية

بعدما أكمل قيناز هذه الاستعدادات خرج لملاقاة العدو ومعه ثلاثمئة ألف رجل. وفى اليوم الأول من المعركة ذبح ثمانية آلاف من جنود العدو، وذبح خمسة آلاف فى اليوم الثانى. لكن لم يكن جميع الشعب مخلصاً لقيناز، إذ أخذ البعض يلسنون عليه ويقولون: «قيناز يجلس آمناً فى بيته ويعرضنا نحن للحرب والقتل». وأبلغ عبيد قيناز سيدهم بهذا الكلام فأمر بحبس الرجال السبعة والثلاثين الذين تكلموا فى حقه وأقسم بأنه سيقتلهم، لو أعانه الرب كرامة لشعبه.

وبعد ذلك جمع ثلاثمئة رجل من جلسائه وخاصته وزودهم بالخيل وأمرهم بالاستعداد لشن هجوم مفاجئ أثناء الليل، لكنه لم يبح لأحد بما كان يدور فى صدره ويخطط له.

وعاد الجواسيس الذين كان قيناز قد أرسلهم أمامه، فأخبروه بأن العموريين من القوة مالا يطيق الصمود أمامه. لكن لم يفت ذلك فى عضد قيناز ولم يُثْنِه عما عزم عليه. وعند انتصاف الليل تقدم هو وخاصته الثلاثمئة إلى معسكر العموريين فلما اقتربوا منه أمر رجاله بالتوقف وعدم التحرك إلا عندما يسمعون دقات الطبول فيستكملون حينئذٍ زحفهم. فإذا لم يسمعوا قرع الطبول فعليهم أن يعودوا أدراجهم.

تقدم قيناز وحده إلى معسكر العدو وأخذ يدعو الرب ويلح فى الدعاء أن يرسل إليه إشارة، ويقول: «لتكن هذه إشارة خلاصك التى سترسلها لى اليوم

يارب.. سأستل سيفى من غمده وألوح به فى الهواء ليلمع فى معسكر العموريين. فإذا تعرَّف العدو عليه وأدرك أنه سيف قيناز، فسأعلم حينها أنك ستسلمهم إلىّ؛ وإذا لم يتعرفوا عليه فسأعلم أنك لم تتقبل دعائى، وأنك تريدنى أن أقع فى يد العدو بسبب خطاياى».

وسمع العموريين يقولون: «هيا بنا نقاتل الإسرائيليين، لأن آلهتنا المقدسة، الحوريات؛ بين أيديهم وسوف تعيننا عليهم فنهزمهم». فلما سمع ذلك حلت عليه روح الرب وهب واقفاً ولوح بسيفه فوق رأسه. وما كاد العموريون يرون السيف يتلألأ فى الهواء، إلا وصاحوا قائلين: «ما هذا إلا سيف قيناز الذى جاءنا بالجراح والآلام. لكننا نعلم أن آلهتنا التى هى بين أيدى الإسرائيليين، سوف توقعهم بين أيدينا. فهيا بنا إذاً إلى المعركة!» فلما علم قيناز من ذلك أن الرب قد استجاب لدعائه، ألقى بنفسه بينهم فأطاح برؤوس خمسة وأربعين ألف رجل منهم، وقتل مثلهم على أيدى إخوانهم، إذ أرسل الرب الملاك جبريل لينصر قيناز، فأعمى أبصار العموريين فأطاح بعضهم برقاب بعض ـ ومن شدة الضربات التى كان قيناز يلقيها يمنة ويسرة على العدو، التصق سيفه بيده فأوقف عمورياً فارّاً من أرض المعركة وسأله كيف يخلص سيفه. فأشار عليه الرجل بأن السيف لن ينحل من يده إلا إذا ذبح عبريّاً وغمسها فى دمائه الساخنة، ففعل قيناز كما نصحه الرجل، غير أنه غمس يده فى دم الرجل نفسه بعد أن ذبحه، فانحل السيف من يده.

عندما عاد قيناز إلى رجاله وجدهم غارقين فى سبات عميق كان قد تغشَّاهم لكيلا يروا العجائب التى صُنِعَتْ كرامةً لقائدهم. فلما استيقظوا أدهشهم أن رأوا السهل كله مبذوراً بجثث العموريين. ثم قال لهم قيناز: «هل طرق الرب مثل طرق الإنسان؟ لقد أرسل الرب الخلاص لشعبه من خلالى. انهضوا الآن وعودوا إلى خيمكم». فأدرك القوم أن معجزة عظيمة قد وقعت، وقالوا: «الآن نعلم أن الرب قد خلَّص شعبه؛ وهو لا يحتاج إلى أعداد ولكن إلى القداسة فقط».

عند عودة قيناز من حملته استقبله الشعب بفرح عظيم وشكر الشعب كله الرب أن جعله قائداً لهم. وأرادوا أن يعرفوا كيف حقق هذا النصر العظيم، فلم يجبهم قيباز بشىء سوى أن قال: «اسألوا من كانوا معى عما صنعته». وهكذا اضطر رجاله إلى الاعتراف بأنهم لا يعلمون شيئاً مما حدث، وأن كل ما يعرفونه هو أنهم استيقظوا فرأوا الجثث تملأ السهل، ولم يعرفوا كيف حدث ذلك. ثم التفت قيناز إلى الرجال السبعة والثلاثين الذين كان قد حبسهم قبل خروجه للحرب لافترائهم عليه، وقال لهم: «والآن.. أى تهمة تتهموننى بها؟» فلما رأوا أن حتفهم واقع لا محالة، اعترفوا بأنهم كانوا مثل الخطاة الذين أعدمهم قيناز والشعب؛ وبأن الرب قد سلمهم الآن إلى يديه جزاءً لهم على شرورهم. فأحرقوا بالنار هم كذلك.

ظل قيناز يحكم الشعب طوال سبعة وأربعين عاماً، فلما أحس باقتراب أجله دعى إليه النبيئيين فنحاس ويابص، وكان معهما الكاهن فنحاس بن إليعزر، وكلمهم فقال لهم: «إننى أعرف قلب هذا الشعب، وأعلم أنه سيحيد عن طريق الرب. لهذا فأنا أشهد أمامكم عليه بذلك». فأجابه فنحاس بن إليعزر: «كما شهد عليه موسى ويوشع، فأنا كذلك أشهد عليه؛ إذ كان موسى ويوشع قد تنبأ بالكرمة، تلك الغرسة الجميلة الربانية، والتى لا نعلم من غرسها، ولا تعرف من يتعهدها بالرعاية، لذلك فإن هذه الكرمة قد هلكت فلم تثمر ثمراً. هذه هى الكلمات التى أمرنى أبى بأن أقولها لهذا الشعب».

عند ذلك أجهش قيناز بالبكاء، وبكى معه الشيوخ والشعب، وفاضت دموعهم وعلا نحيبهم، وأخذ قيناز يقول: «أمن أجل خطية الخراف يهلك الراعى؟ فليرحم الرب إرثه فلا يضيع سدى».

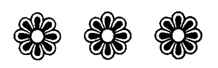
نزلت روح الرب على قيناز فرأى رؤيا، وتنبأ بأن هذه العالم لن يدوم إلا لسبعة آلاف سنة، ثم تأتى مملكة السماء. وبعدما انتهى من قول ذلك فارقته روح النبوءة، فنسى من فوره ما قاله أثناء الرؤيا. وقبل أن يرحل عن هذه

الحياة تكلم مرة أخرى. وقال: «لئن كانت تلك هى البقية التى ينالها المتقون بعد موتهم، فمن الأفضل لهم إذاً أن يموتوا، على أن يعيشوا فى هذا العالم الفاسد ويروا شروره».

ولمَّا لم يترك ڤيناز وارثين ذكوراً من بعده، فقد عُيِّن زبول خليفة له. واعترافاً منه بالصنائع العظيمة التى صنعها ڤيناز من أجل الأمة، تعهَّد زبول بنات سلفه الثلاث اللائى لم يتزوجن بالرعاية وكان لهم أباً. واقتدى به الشعب وخصص هدية زواج عظيمة لكل واحدة منهم، إذ مُنِحت كل واحدة منهن أراض كبيرة ملكاً خالصاً لها. وزوَّج الكبرى، وكان اسمها «إثيمان»، من إيليزفان، بينما زوَّج الثانية، واسمها فِعلة، من أوديحيل، وزوج زيلباح الصغرى من دوعيل.

أسس القاضى زبول بيتاً للمال فى شيلوه وأمر الشعب بأن يقدم له العطايا، سواء كانت ذهباً أم فضة. وشدد عليهم بألا يتبرع أى منهم لبيت المال بشىء كان يخص فى الأصل وثناً. وكللت جهوده بالنجاح، إذ بلغت العطايا المقدمة إلى بيت المال عشرين تالتاً من الذهب ومئتين وخمسين طالناً من الفضة.

ودام حكم زبول خمسة وعشرين عاماً وأوصى الشعب قبل موته بتقوى الرب والاستمساك بالشريعة.



«عثنيئيــل»

كان عثنيئيل قاضياً من نوع مختلف تماماً. وقال معاصروه إنه قبل غروب شمس يشوع لاحت فى الأفق شمس عثنيئيل خليفته على الشعب. وكان الاسم الحقيقى للزعيم الجديد هو يهوذا، وكان عثنيئيل من ألقابه، كما كان يلقب كذلك باسم يابص.

كان عثنيئيل يمثل فئة العلماء، مِنْ بين مَنْ حكموا من القضاة. وقد كان حاضر الذهن شديد الذكاء، بلغ من الحذق درجة أنه استعاد، عن طريق الحوار المنطقى، التقاليد الألف وسبعمئة التى كان موسى قد علَّمها للشعب، وكانت قد نُسيت خلال زمن الحِداد على موسى. ولم تكن حماسته لتشجيع دراسة التوراة أقل من علمه وفقهه. وقد غادرت قبيلة يثرون أريحا حيث كانوا يقيمون، وتوجهوا إلى عراد ليجلسوا عند قدميه ويتعلموا منه. ولم تكن زوجته - وكانت ابنة أخيه غير الشقيق - راضية عنه وكانت تشتكى لأبيها وتقول إن بيتهم خاوٍ من كل متاع إلا علم عثنيئيل بالتوراة.

وكان أول عمل جليل يقوم به عثنيئيل، فى فترة حكمه التى دامت أربعين سنة، هو انتصاره على أدونى - بيزيق، والذى لم يكن يحتل منصباً مرموقاً بين الحكام الكنعانيين، ولا حتى كان محسوباً من بين ملوكهم، إلا أنه كان قد غزا سبعين مملكة وقهرها. ثم تلا ذلك استيلاء الإسرائيليين على مدينة لوز، والتى لم يكن من مدخل يؤدى إليها سوى كهف كان الطريق إليه يبدأ من قلب شجرة لوز جوفاء. ولولا أن أفشى أحد سكان هذه المدينة بذلك المدخل السرى

للإسرائيليين، لاستحال عليهم الوصول إليها. وقد أثاب الرب ذلك الدليل الذى فتح الطريق أمام الإسرائيليين للاستيلاء على المدينة، إذ أسس ذلك الرجل مدينة لم يستطع أحد مسها بسوء ولا حتى سِنَّخريب ولا نبوخذ نصر، ولا كان لملاك الموت نفسه من سلطان على سكانها الذين لا يموتون، إلا أن يمل أحدهم حياته فيغادر المدينة.

لكن لم يشهد حكم عثنيئيل نفس النجاح والفلاح، إذ ظل الإسرائيليون لثمان سنوات يعانون على يدى قوشان، ذلك الشرير الذى كان قد هدد الأب يعقوب قديماً بالموت، ويسعى الآن لتدمير ذرية يعقوب؛ إذ لم يكن قوشان إلا لقباً من ألقاب لابان.

لكن عثنيئيل لم يكن مسؤولاً عما ارتكبه الشعب من خطايا وتعرض للعقوبة بسببها؛ إذ منحه الرب الحياة الأبدية وكان من القلائل الذين وصلوا إلى الجنة وهم أحياء.



بوعز وراعوث

حدثت قصة «راعوث» بعد عهد عشتيئيل بمئة عام. وكانت الأحوال قد وصلت فى فلسطين حد أنه إذا قال قاض لرجل: «أزلِ القذى من عينك»، يقول له: «اخلع أنت أولاً الخشبة التى فى عينك!».

ولكى يؤدب الرب بنى إسرائيل، ضربهم بمجاعة من المجاعات العشر التى كتبها على بنى آدم، من خلق آدم إلى زمان المسيًّا. ولم يحاول أليميليك ـ وكان من أعيان البلاد ـ ولا أبناؤه إصلاح ذلك الجيل العاصى الذى تسبب بمعاصيه فى إصابة البلاد بهذه المجاعة، ولا حتى حاولوا كذلك تخفيف آثارها الفظيعة. وغادروا فلسطين، ليخذلوا بذلك من كانوا يأملون منهم العون والنجدة، وولّوا وجوههم شطر «مؤاب» حيث تم تعيينهم ضباطاً فى الجيش، لحسبهم وثرواتهم.

وارتفعت ابنا أليميليك، أكثر وأكثر، إذ تزوّجا من بنات الملك المؤابى «عجلون»، لكن ذلك لم يحدث إلا بعد موت أبيهم الذى كان يعارض بشدة زواجهم من بنات «الأغيار». لكن لم تغنهم ثرواتهم ولا مصاهرتهم للملك من الرب شيئاً. ففى البداية أصابهم الفقر والعوز، ثم لما تمادوا فى معاصيهم أماتهم الرب.

ثم قررت «نعمى» أمهم أن تعود إلى موطنها، وكانت لا تطيق فراق زوجتى ابنيها لما كانتا تحملانه من حب لزوجيهما الراحلين دفعهما لأن ترفضا الزواج من بعدهما. لكنها خافت أن تأخذهما معها إلى فلسطين، خوفاً من الاحتقار

الذى كانتا تعاملان به هناك؛ باعتبارهما امرأتين مؤابيتين. واقتنعت عُرْفَه بسهولة برأى حماتها وبقيت فى بلدها، بعد أن رافقتها مسيرة أربعة أميال ثم ودعتها بعد أن ذرفت أربع دمعات فقط حزناً على فراقها. وفيما بعد تَبيَّن أنها لم تكن تستحق الدخول إلى المجتمع اليهودى، إذ ما كادت تودع حماتها إلا وغرقت فى حياة الرذيلة!! لكن الرب لا تضيع عنده صنائع المعروف! إذ أثيبت على الأميال الأربعة التى رافقت فيها «نُعْمِى» بإنجاب أربعة عمالقة، هم «جالوت» وإخوته الثلاثة.

* * *

أما «راعوث»، كنة (زوجة ابن) «نُعْمِى» الأخرى، فقد كانت حياتها وسيرتها مختلفة تمام الاختلاف عن أختها. فقد قررت أن تصير يهودية، ولم يتأثر قرارها بما أخبرته بها «نُعْمِى» من صعوبة الشرائع اليهودية. وكانت «نُعْمِى» قد أخبرتها أن بنى إسرائيل ملزمون بالمحافظة على حرمة السبت والأعياد، وأن بنات إسرائيل ليس من عادتهن زيارة مسارح الوثنيين واحتفالاتهم.

لكن «راعوث» ما أجابتها إلا بالتأكيد فى سرعة على استعدادها التام لالتزام الأعراف اليهودية..

ولما قالت لها «نُعْمى»:

- «ليس لنا سوى توراة واحدة ووصية واحدة: «الرب إلهنا السرمدى إله واحد ولا إله معه».

قالت لها «راعوث»:

- «سيكون قومك قومى وإلهك إلهى».

ولذا فقد ارتحلت المرأتان معاً إلى «بيت لحم» لتصلا إليه فى ذات اليوم الذى كانت فيه زوجة «بوعز» تُدْفن، فرأى المشيعون «راعوث» تعود مع «نُعْمى».

عاشت راعوث مع حماتها، تقيتان نفسيهما من سنابل القمح القليلة التى

كانت راعوث تجمعها من الحقل. وقد أثر ارتباطها بامرأة فى مثل تقوى «نعمى» على حياتها وأخلاقها كثيراً. ودهش «بوعز» كثيراً لما رآه من ورعها وتقواها؛ إذ ما كانت تجمع من سقط الحقل أكثر من سنبلتين، كما تنص الشريعة. كما أعجب بوعز بلطفها ودماثة خلقها ورزانتها. فلما علم من تكون، نصحها بأن تدخل فى اليهودية...

لكن راعوث أجابته:

- «إن أسلافك لم يرضوا حتى بامرأة مثل «تمنِة» سليلة الملوك. فما شأنى أنا وأنا من قوم وُضعَاء كرههم إلهك وحقّرهم واستثناهم من جماعة إسرائيل».

وعندها نسى «بوعز» تعاليم «الهالاخاة» الخاصة بالمؤابيين والعمونيين. لكن هاتفاً هتف به من السماء فذكّره بأن ذكور هذين الشعبين فقط، لا نساءهما، هم الذين تنطبق عليهم هذه التعاليم.

وكرامة لما صنعته من أجل حماتها، كتُِبَ لراعوث أن تنجب الملوك والأنبياء.

* * *

لم يظهر عطف بوعز مع راعوث ونعمى فقط، وإنما مع موتاهما كذلك، إذ لم يَألُ جهداً فى دفن بقايا «إليميليك» وابنيه دفناً كريماً. وجعل ذلك كله «نعمى» تظن أن بوعز يفكر فى الزواج من راعوث. ولذا فقد حاولت أن تستنطق راعوث بالسر، إن كان ثمة سر. فلما لم تستطع استخلاص شىء من كنتها، عزمت على أن تشركها معها فى تنفيذ خطة تجبر «بوعز» على اتخاذ خطوة حاسمة. واتبعت «راعوث» توجيهات «نعمى» بكل دقة، سوى أنها لم تغتسل وتمسح نفسها بالزيت وترتدى ثوباً جميلاً إلا بعد أن وصلت إلى مبتغاها. وكان ذلك خشيتها من أن تجذب انتباه الفُسَّاق إن هى سارت فى الطرقات متزينة متعطرة.

كانت الحالة الأخلاقية فى تلك الأيام فى منتهى التدنى.. وبالرغم من أن

«بوعز» كان رجلاً موسراً وذا جاه، فإنه كان ينام فى حجرة درس القمح، لكى ينأى بنفسه عن الفسق والفجور. وبينما هو غارق فى نومه، فوجئ «بوعز» بوجود شخص ينام بجواره. وفى البداية ظن أنه شيطان..

لكن «راعوث» طمأنته قائلة:

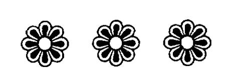
- «اطمأن ولا تجزع.. فأنت رأس القضاة، وكان أسلافك الأمراء، كما أنك أنت نفسك رجل شريف ومن أقارب زوجى الراحل. أمَّا أنا فأنا فى ريعان شبابى، ومنذ فارقت بيت أبوَىَّ حيث تعبد الأصنام، لم يكفَّ الشباب الفاسق لحظة عن مطاردتى ومضايقتى.. ولذا فقد جئت إلى هنا لعلك تفرد إزارك علىّ وتخلصنى».

وعند ذلك طمأنها «بوعز» بأنه إن لم يخلصها أخوه الأصغر طوب، فسوف يخلصها هو بنفسه.

وفى الصباح التالى ذهب «بوعز» إلى السنهدرين ليناقش المسألة ويجد لها حلاّ. وسرعان ما لحق به أخوه طوب، إذ ظهر له ملاك وقاده إلى حيث يجب أن يكون، ولكيلا يطول انتظار «بوعز» و«راعوث».

ولم يكن طوب - الذى لم يكن عالماً بالتوراة - يدرى أن الحظر المفروض ضد المؤابيين، لا يشمل إلا ذكورهم. ولهذا فقد رفض الزواج من «راعوث».

لهذا فقد اتخذها «بوعز» - ذو الثمانين عاماً - زوجة لنفسه. وكانت هى نفسها فى الأربعين من عمرها، فى وقت زواجها للمرة الثانية، ولهذا فلم يكن أحد يتوقع أبداً، أن تنجب ذرية من زوجها الشيخ العجوز... ولكنها أنجبت منه «عوبديا» التقى، وعاشت طويلاً حتى رأت ملك «سليمان» مجده، ولكن «بوعز» نفسه مات فى اليوم التالى للزفاف.



«دبـــورة»

لم يمض زمان طويل على راحيل «راعوث»، إلا وظهر فى بنى إسرائيل امرأة متميزة أخرى.. هى النبية «دبورة».

وعندما مات «إهود» لم يوجد من يحل محله ليقضى بين بنى إسرائيل، فانحرف الناس عن طريق الرب وخالفوا شريعته. لهذا أرسل الرب إليهم ملاكاً فقال لهم:

«من بين شعوب الأرض اخترت شعباً لى، وظننتُ أن مجدى سيحل عليهم ما دامت الدنيا. وأرسلت إليهم عبدى «موسى» ليعلمهم الخير والاستقامة.. لكنهم ضلوا عن طريقى.

لهذا لأثيرن عليهم أعداءهم فيتسلطون عليهم.. وليصرخُنَّ قائلين: «يا ويلينا... حدنا عن طريق آبائنا فكان ذلك جزاءنا!».

ثم لأرسلن إليهم امرأة فيدوم نورها عليهم طوال أربعين سنة».

* * *

كان ذلك العدو الذى أثاره الرب على بنى إسرائيل هو «يابل بن حاصور»، فاضطهدهم وكان بأسه عليهم شديداً. وكان الأسوأ من هذا الملك هو قائده «سيسرا»، والذى كان من أعظم الأبطال فى التاريخ.. إذ كان قد غزا العالم كله وهو لا يزال فى الثلاثين من عمره. وكانت أقوى الأسوار وأمنعها «تتهاوى من صرخته، فتسقط كومة من التراب.. بينما تجمد وحوش البرية فى أماكنها

فَرَقاً من صوته.

وكان «سيسيرا» هذا بالغ الضخامة إلى درجة لا يمكن تخيلها..! فإذا نزل بنهر ليستحم وغاص تحت الماء يَعْلَقُ بلحيته كمية من السمك تكفى لإطعام جيش بأكمله..! وكان يجر عربته مالا يقل عن تسعمئة جواد...!

ولكى يخلِّص الرب بنى إسرائيل من هذا العملاق، بعث «دبورة» وزوجها «باراق» الذى كان رجلاً جهولاً... مثله مثل معظم الرجال فى زمنه، إذ كان العلم شحيحاً فى بنى إسرائيل فى تلك الأيام. وكان «باراق»، إذا أراد أن يقوم بعمل ذى أهمية ـ فيما يتعلق بالخدمة الدينية ـ يحمل الشموع إلى الهيكل، حاذياً حذو زوجته.. ولذا فقد أطلق عليه اسم «لَفِدُوت»، أى «ألسنة اللهب».

وكان من عادة «دبورة» أن تصنع الشمعات بفتائل سميكة، لكى تظل مشتعلة لفترة أطول. ولهذا فقد كافأها الرب على ذلك وأثابها عليه..

إذ قال الرب:

«إنك تتعبين نفسك لكى تنيرى بيتى... ولهذا لأجعلن نورك ولهبك يشرق على العالم كله»..

وهكذا كان... فأصبحت «دبورة» قاضية ونبية. وكانت تقضى بين الناس فى العراء.. إذ ليس من اللائق أن يذهب الرجال إلى بيت امرأة.

* * *

لكن... على الرغم من أنها كانت نبية، فقد كانت عرضة لما يتصف به بنات جنسها من ضعف، فقد كانت مغرورة وكانت ترسل إلى «باراق» زوجها ليأتى إليها بدلاً من أن تذهب هى إليه.. كما كانت تمدح فى نفسها أكثر من اللازم، كلما أنشدت أو ترنمت.. وكانت نتيجة ذلك أن فارقتها روح النبوءة لفترة.. أثناء محاولتها تأليف أنشودتها.

ولم يخلِّص الرب بنى إسرائيل من عدوهم، إلا بعدما اجتمع الشعب على

جبل «يهوذا» واعترفوا بخطاياهم علناً أمام الرب واستغاثوا به. وتم إعلان صيام سبعة أيام، صامها الرجال والنساء، والكبار والصغار.

وعند ذلك عزم الرب على تخليص بنى إسرائيل، ليس كرامةً لهم هم، وإنما كرامةً للقسم الذى كان أقسمه لآبائهم الأوَّلين بألا يخذل ذريتهم أبداً.

ولهذا أرسل «دبورة» إليهم.

ولم تكن المهمة التى كُلِّف بها «دبورة» و«باراق» بالمهمة الهينة أبداً.. ولا تقل خطورة عن فتح «يشوع» لكنعان. بل إن «يشوع» لم يقهر إلا واحداً وثلاثين من ملوك فلسطين الاثنين وستين.. وترك مثلهم دون أن يتعرض لهم. وقد تجمع هؤلاء الملوك الواحد والثلاثون تحت قيادة «سيسرا»، لمحاربة بنى إسرائيل وقهرهم. وهكذا اجتمع ضد «دبورة» و«باراق» مالا يقل عن أربعين ألف جيش بكل جيش مئة ألف مقاتل على الأقل.

ونصر الرب بنى إسرائيل بالماء والنار.. فقد وقف نهر «فيشون» وجميع شهب السماء - عدا النجم «ميروس» - فى صف بنى إسرائيل فى حربهم ضد «سيسرا». وكان نهر «فيشون» هذا قد ألح كثيراً على الرب مناشداً إياه أن يجعل له دوراً فى القضاء على «سيسرا» وجنده..

إذ عندما غرق المصريون فى البحر الأحمر، أمر الربُّ ملاك البحر بأن يلقى جثثهم على الشاطئ لكى يقتنع الإسرائيليون بهلاك عدوهم فلا يظنوا أنهم قد نجوا مثلهم. لكن ملاك البحر أحزنه أن يسترد الرب منه هديةً أهداها إليه، لكن الرب طيب خاطره بأن وعده بأنه سيعوضه عن ذلك فى المستقبل. وهكذا عندما حان دور «فيشون» فى إهلاك أعداء بنى إسرائيل، قدم له الرب ضمانة هى أنه سيسترد ثانية نصف عدد الجثث التى سيتخلى عنها الآن. وهكذا كان..

إذ عندما فر جد «سيسرا» إلى ماء النهر هرباً من حرارة الأجرام السماوية، أمر الرب نهر «فيشون» بأن يحقق مطلبه، فأطبق النهر على

الوثنيين وحملتهم أمواجه فألقتهم إلى البحر..

وعند ذلك صاح السمك فى الماء قائلاً:

- «حقاً!! من أوفى بوعده من الرب!».

* * *

ولم يكن حظ «سيسرا» بأفضل من حظ جنده..

فقد فر على ظهر جواده، عندما رأى جيشه العظيم يقع فريسة للهلاك. فلما رأته «ياعيل» يقترب من خيمتها، خرجت لاستقباله مرتدية أبهى الثياب والحلى. وكانت امرأة بالغة الجمال وذات إغراء وسحر لم يكونا لأحد من النساء.

وقالت له «ياعيل»:

- «ادخل يا سيدى إلى خيمتى وتناول شيئاً من الطعام وارتح قليلاً.. ثم سأرسل رجالى معك ليصحبوك إلى بيتك.. فإنى أعلم أن مكافأتى لن تضيع عندك».

فخطا «سيسرا» إلى خيمتها ورأى الفراش قد زينته الورود، فقرر أن يأخذها معه إلى أمه ويتخذها زوجة له، ما إن يستقر حاله ويبلغ مأمنه.

ثم طلب منها لبناً ليشربه قائلاً:

- «روحى تلتهب من نار الأجرام السماوية التى رأيتها تحارب مع بنى إسرائيل» فذهبت «ياعيل» لتحلب عنزتها وهى تدعو الرب لينجدها ويعينها.. ودعت قائلة:

«ياربُّ... أدعوك لتقوِّى أمتك على عدوك.. واجعل لى علامة على استجابتك لدعائى، إننى إذا دخلت الخيمة يستيقظ «سيسرا» ويطلب منى ماءً ليشربه» وما كادت تتجاوز عتبة باب خيمتها، إلا واستيقظ «سيسرا» وطلب منها ماءً ليطفى لهيب عطشه.. فناولته «ياعيل» ماءً مخلوطاً بخمر، فشربه

فراح فى سبات عميق.

وعند ذلك أخذت المرأة حربة من خشب فى يدها اليسرى واقتربت من المحارب النائم وقالت:

- «ليكن علامة لى يارب أنك ستجعله بين يدىَّ.. إننى سأقدر على سحبه من على السرير إلى الأرض دون أن يستيقظ».

ثم نغزت «سيسرا» بلطف فلم يستيقظ، ثم أنزلته من على السرير ووضعته على الأرض... دون أن يتململ أو يبدو عليه أية علامة على التنُّبه والاستيقاظ.

ثم دعت «ياعيل» الرب قائلة:

- «ياربُّ قوِّى ساعد أَمَتِكَ اليوم... من أجلك ومن أجل شعبك ومن أجل كل الذين يرجون خلاصك».

ثم رفعت الحربة وهوت بها على رأس «سيسرا» فانغرست فى جبهته..

فصرخ «سيسرا» بصوت متحشرج قائلاً:

- «يا ويحى إذ تقتلنى امرأة!».

فأجابته «ياعيل» ساخرةً:

- «اذهب إلى الجحيم والحق بآبائك.. وهناك أخبرهم أنك قد جئت إليهم على يد امرأة!.

* * *

بعد ذلك جاء «باراق» وأخذ جثة «سيسرا» وأرسلها إلى أمه قائلاً:

- «هاهو ابنك الذى كنت تنتظرين عودته إليك محمَّلاً بالأسلاب والغنائم».

وعندما قال ذلك، كان يجول فى خاطره منظر أم «سيسرا» وصاحباتها عند خروج ابنها للحرب، ورأى بعين خياله الفرحة فى أعينهن وهن يتنبأن به نائماً فى فراش امرأة يهودية ويفسرن ذلك على أنه سيعود بالكثير من الأسرى اليهود.

وعندها كُنَّ يقلن لأنفسهن:

ـ امرأة لكل مقاتل.. بل امرأتان.

ولهذا فقد كانت خيبة أملهن عظيمة... إذ يرونه عائداً قتيلاً، بدلاً من عودته إليهن سائقاً خلفه أسرى اليهود!!

وبعد ذلك أنشدت «دبورة» و«باراق» أنشودة شاكرين الرب على تخليص بنى إسرائيل من تسلط «سيسرا».

* * *

وظلت «دبورة» ترعى مصالح شعبها طوال أربعين سنة... ثم فارقت هذه الدنيا. وكانت آخر كلمات لها إلى شعبها حضّاً لهم على ألا يعتمدوا على الموتى الذين لا يملكون للأحياء ضرّاً ولا نفعاً.

فطالما المرء على قيد الحياة، فإن دعاءه سيكون خيراً له وللآخرين.

فإذا مات.. لم ينفع الأحياء بشىء.

واحتد الشعب كله على «دبورة» طوال سبعين يوماً وهى التى جعلت شعبها يعيش فى سلام وسكينة طوال أربعين عاماً.



جـدعـون

عندما نصر الرب شعبه إسرائيل على «سيسرا» وجنده، ترنموا بحمد الرب.. فغفر لهم خطاياهم وتجاوز عن تعديهم على الشريعة. لكنهم... سرعان ما انزلقوا ثانية إلى مهاوى الخطية، فنزلت بهم العقوبة القديمة.

وكان انتكاسهم إلى الخطيئة مرة أخرى، بسبب سحر ساحر من أهل «مديان» اسمه «عود» وجعل عود هذا الشمس تشرق فى منتصف الليل فأقنع بذلك بنى إسرائيل أن أصنام «مديان» أقوى من الرب.. فعاقبهم الرب بأن سلَّط عليهم المديانيين. كما عبد بنو إسرائيل صورهم المعكوسة على صفحة المياه، فضربهم الرب بفقر مدقع، حتى إنهم لم يقدروا على تقديم وجبة طعام قرباناً، وهذا أقل قربان يقدمه الفقير.

وفى عشية يوم فصح اشتكى «جدعون» قائلاً:

- «أين كل العجائب التى صنعها الرب لآبائنا فى ليلة كهذه، عندما ذبح أبكار المصريين وحرر شعب إسرائيل من العبودية؟».

فظهر له الرب وقال له:

- «إنك لرجل شجاع شجاعة تكفى لأن تكون بطلاً لبنى إسرائيل.. ولذا فإنك لجدير بأن أخلِّص بنى إسرائيل كرامةً لك». ثم ظهر ملاك وناشده «جدعون» أن يمنحه علامة على أن خلاص بنى إسرائيل سيكون على يديه هو. وبرَّر طلبه ذلك، بأنه يحذو حذو موسى - أول نبى - الذى طلب من الرب

علامة.. عند ذلك أمره الملاك بأن يريق الماء على الصخرة، ثم يختار إلى أى صورة سيتحول هذا الماء. فطلب «جدعون» أن يتحول نصف الماء إلى دم، بينما يتحول نصفه الآخر إلى نار. وهكذا كان.. فاختلط الدم بالنار، لكن لم يطفئ الدمُ النارَ، ولا جففت النارُ الدم.

وعند ذلك تشجع «جدعون» وقرر أن يقود بنى إسرائيل فى حربهم ضد المديانيين، بفرقة من ثلاثمئة رجل ممن يخافون الرب ويخشونه.. وكان النجاح حليفه. إذ سقط من العدو مئة وعشرون ألف مقاتل فى أرض المعركة، بينما لاذ الباقون بالفرار.

وكان «جدعون» يستحق أن يكون خلاص بنى إسرائيل على يديه لأنه كان ابناً جديراً بذلك، فقد كان أبوه شيخاً كبيراً وكان يخاف أن يُدّرسَ حنطته بسبب بطش المديانيين.

وذات مرة خرج «جدعون» إلى الحقل وقال:

- «يا أبتاه.. لقد بلغت من الكبر مالا يجعلك تقدر على القيام بذلك، فعد إلى البيت وسأقوم أنا بذلك بدلاً منك. وإذا باغتنى المديانيون وأنا أدرس الحنطة، فإننى سأستطيع الهرب والفرار، بينما لن تقدر أنت على ذلك بسبب كبر سنك».

* * *

وقد حقق «جدعون» النصر على المديانيين فى يوم عيد الفصح، وكانت كعكة خبز الشعير التى قلبت مخيم العدو رأساً على عقب - والتى كان المديانيون يحلمون بالحصول عليها - علامة من الرب على أنه سينصر شعبه مكافأةً لهم على تقديمهم كعكة شعير كقربان.

وبعدما خلَّص الرب بنى إسرائيل ونصرهم على عدوهم على يديه، صنع «جدعون» أفوداً. ولم يكن يوسف ممثلاً على صدرية الكاهن الأكبر إلا بإفرايم

فقط، وليس بمنسَّى كذلك. ولكى يزيل هذه الوصمة عن سبطه، صنع «جدعون» أفوداً وعليه اسم ««منَسَّى»». وكرس الأفود للرب.. لكن بعد موته بدأ الشعب يتخذه صنماً. وكان بنو إسرائيل فى تلك الأيام مدمنين لعبادة «بعلزبوب» إلى درجة أنهم كانوا يحملون دائماً تماثيل صغيرة لهذا الصنم فى جيوبهم، ثم يخرجونها بين الحين والآخر ليقبِّلوها فى حرارة.

وكان من هؤلاء الوثنيين أولئك الأشرار الذين ساعدوا «أبيمالك» - بن جدعون من سريته «شكيم» - ليقتل إخوته من أبيه.

لكن الرب عادل...

فكما ذبح «أبيمالك» إخوته على صخرة، فقد لقى حتفه هو أيضاً بسبب حجر رحى. ولذا فقد كان «يوثام» على حق عندما شَبَّه «أبيمالك» بالعوسج، وشبَّه أسلافه «عثنيئيل» و«دبورة» و«جدعون» بشجرة الزيتون أو شجرة التين أو الكرمة... وذلك مثله المشهور الذى ضربه لقومه. وكان «يوثام» هذا - وهو أصغر أبناء «جدعون» - أكثر من مجرد راوٍ للأمثال والحِكم. فد كان يعلم أن السامريين سيقدسون جبل «جرزيم» بعدها بفترة طويلة، بسبب البركة التى بورك بها الشعب من فوقه. ولهذا فقد اختار «يوثام» هذا الجبل بالذات ليلعن من عليه «شكيم» وأهلها.

ولم يكن خليفة «أبيمالك» يقل عنه شرّاً وخبثاً.. إن لم يزد. فقد شيّد «يائير» - الذى خلف «أبيمالك» - مذبحاً للصنم «بعل» وأجبر الشعب على السجود له وهدد الممتنع بالإعدام. فأطاعه جميع الشعب.. إلا سبعة من الرجال ثبتوا على الإيمان ولم يتزعزعوا لحظة من عبادة الرب.

وكان هؤلاء السبعة هم: «دعوئيل» و«أبيت يسرائيل» و«يقوئيل» و«شالوم» و«أشور» و«يهوناداب» و«شمعيئيل».

وقالوا ليائير:

- «لازلنا نتذكر الدروس التى عَلَّمنا إياها معلمونا وأمنا «دبورة»، عندما قالوا لنا: اسمعوا كلامنا ولا تميلوا يمنةً أو يسرة وحافظوا على دراسة التوراة ليلاً ونهاراً» فلماذا إذاً تحاول إضلال الناس وتقول لهم إن «بعل» هو الرب فاسجدوا له واعبدوه؟ فإذا كان إلهاً كما تدَّعى، فليتكلم كما يتكلم الإله وسوف نعبده عندئذٍ».

فاغتاظ «يائير» من تجديفهم فى حق «بعل» وأمر بإحراقهم فى النار. وعندما هَمَّ جنوده بتنفيذ أوامره، أرسل الرب الملاك: «ثنائيل»، ملاك النار، فأطفأ النار بعدما أهلكت جنود «يائير». ولم يَنْجُ الرجال السبعة من الحرق وحسب، ولكن الملاك قال كذلك ليائير:

«أنصت لكلام الرب قبلما تموت. لقد جعلتك أميراً على شعبى فخالفت عهدى وأغويت شعبى وحاولت حرق عبيدى بالنار... لكنى أنجيتهم من يدك وأنقذتهم بنارى السماوية من نارك الأرضية.

أما أنت.. فلتموتن ولتهلكن بالنار.. ولأدخلنَّك ناراً لا تخرج منها أبداً!».

ثم أحرقه الملاك مع ألف رجل آخرين، كانوا قد طاوعوه فى السجود للصنم «بعل».



«يفـتـــاح»

كان «يفتاح» هو أول قاض له أهمية فى تاريخ بنى إسرائيل بعد «جدعون». لكنه هو الآخر، لم يكن المثال الذى ينبغى أن يكون عليه أى زعيم يهودى.. إذ كان أبوه قد تزوج امرأة من قبيلة أخرى، فى حادثة غير عادية فى زمن كان يُنْظَر فيه باحتقار لأى امرأة تترك قبيلتها وتلتحق بقبيلة أخرى. ولذا فقد كان على «يفتاح» أن يحمل وصمة أمه وعارها فوق جبينه.. ولذا فقد عانى كثيراً من المشاكل والمتاعب، من غمز الناس ولمزهم، حتى إنه اضطر فى النهاية إلى مغادرة موطنه والإقامة فى منطقة يقطن فيها الوثنيون.

* * *

فى البداية رفض «يفتاح» قبول الزعامة التى عرضها عليه الشعب فى اجتماع عقدوه فى «المصفاة».. إذ لم يكن قد نسى بَعْدُ ما عاناه من ألسنة الناس. لكنه فى النهاية رضخ لمطلبهم وقاد الشعب فى حربهم ضد جطال ملك العمونيين. وقبل رحيله نذر أن يُضَحِّى للرب بما ومن يقابله عند أبواب بيته إذا عاد منتصراً من الحرب.

وعند ذلك غضب منه الرب وقال:

- «إذاً فقد نذر «يفتاح» أن يضحِّى لى بأول شىء يقابله عند عودته من الحرب!! إذاً فإن قابله كلب سيضحى به لى؟ لأجعلنَّ قسمه يحل على بكره، فلذة كبده.. أجل، ليقعنَّ نذره على ابنته وحَبَّة عينه.. لكننى سأخلص شعبى بكل تأكيد، لا كرامة ليفتاح، ولكن من أجل دعاء إسرائيل».

ثم عاد «يفتاح» من حربه ظافراً منتصراً..

وكان أول من قابله هو ابنته «شيلة»..!

فلما وقعت عيناه عليها صاح فى لوعة:

- «حقّاً.. كان اسمك على مسمى...! فأنت «شيلة»، أى المطلوبة، وقد طُلِبْتِ للتضحية.. واحسرتاه عليك يا ابنتى! أأبكى أم أفرح؟ أبكى لأنى سأفقدك.. أم أفرح لأن الرب نصرنى على عدوى؟! واحرَّ قلبى عليك يا صغيرتاه!!».

فأجابته «شيلة» قائلة:

- «لماذا تبكى علىّ يا أبتاه، وقد خلص الرب قومنا من عدوِّهم؟ ألا تذكر ما فعله آباؤنا الأوَّلون؟.. عندما قدَّم الأب ابنه قرباناً للرب، فلم يرفض الابن ولم يجزع.. فأثيب كلاهما واستحال غمهما فرحاً؟

لذا فأوفِ بنذرك الذى نذرت.. لكن لى طلب أريدك أن تحققه لى قبل أن أموت.. إيذن لى فلأخرج مع أترابى إلى الجبال وأقيم بين التلال وأخطو على الصخور لأذرف عليها أدمع شبابى الذى ضاع منِّى.. ولتبكينَّ أشجار البرية علىَّ... لتنوحنَّ بهائمها على زهرة شبابى الذى كان.. لا أبكى على شبابى.. ولا أبكى خوفاً من الموت.. وإنما لأن أبى عندما تلفظ بنذره لم يفكر فى ابنته وحيدته.. لذا أخشى ألا يتقبل الرب تضحيته بى ويضيع موتى سدى!!».

* * *

بعد ذلك ذهبت «شيلة» إلى حكماء الشعب... لكن لم يمد لها أحد منهم يداً بالمساعدة!!

فذهبت إلى جبل «طلغ»، حيث ظهر لها الرب ليلاً..

وقال لها:

«لقد أغلقت أفواه حكماء الشعب من هذا الجيل، لكيلا يتفوَّهُوا بكلمة إلى

«شيلة» ابنة «يفتاح».. لكى يُوفَى بالنذر الذى نُذِر لى ولا يبقى شىء يخصنى ناقصاً.

إنى لأعلم أنها عاقلة، بل وأعقل من أبيها ومن جميع الحكماء فى هذا الشعب. ولذا فإننى قد تقبَّلت روحها، وليكونن موتها ذا قيمة عالية عندى على مر الزمان».

وعند ذلك بدأت «شيلة» تبكى وتنوح قائلة:

- «أنصتى أيتها الجبال إلى نواحى.. ولتذرفى الدمع حزناً يا تلال! واشهدى يا صخور على بكائى ونواحى.. واصعدى يا كلماتى إلى عنان السماء.. ولتكتب عَبَراتى فى الأفلاك، فما ذُقتُ حلاوة الزواج، ولا حَتَّى اكتمل نظم عِقْدُ خطبتى!! وما زينونى لعريسى.. ولا ألبسونى أحلى الثياب.. ولا عطروا بدنى بالمر والعطور..! ولا مسحونى بالزيت الذى كانوا قد أعدوه ليوم زفافى..! واحسرتاه...!

يا ليتك يا أماه لم تلدينى... فالقبر مصيرى.. والموت عريسى..!! والزيت الذى أعددتيه ليوم زفافى.. سيُسْكب..

وثياب العرس التى حِكْتِها لى.. ستأكلها العتة!!

نوحوا علىَّ يا بنات صهيون ولولوا..! واذرفوا الدموع على زهرة الشباب.. وتذكروها فى يوم عرسكم!!

واحسرتاه!. وا لوعتاه!!».

لكن كل هذا النواح ضاع سدى...

فلم يَلنْ أبوها ويتنازل عن التضحية بها.. حتى بعدما أثبتت له بكل سبيل أن التوراة لا تذكر شيئاً عن التضحية بالبشر، وأن الأضاحى مقصورة على الحيوانات...

حتى بعدما ذكَّرته بيعقوب الذى نذر أن يعشِّر للرب كل ما يملك.. ورغم

ذلك فلم يرد فى خاطره أبداً التضحية بأحد أبنائه..!!

فقد ظل «يفتاح» ثابتاً على موقفه.. لا يتزعزع.

وكل ما أذن لها به.. هو أن تذهب إلى العلماء والفقهاء لتعرض عليهم قضيتها، وإن كان لأبيها أن يتحلل من نذره. طبقاً للتوراة فإن «يفتاح» فى حِلٍّ من نذره.. بل إنه غير مطالب حتى بالتكفير عنه بالمال.

لكن الفقهاء لم يتذكَّروا هذا الحكم.. ولم يكن ذلك خطأهم.. بل إن الرب هو الذى أنساهم هذا الحكم، عقاباً ليفتاح الذى كان قد ذبح الآلاف من سبط «إفرايم».

لكن..

كان يعيش فى ذلك الوقت رجل واحد فقط، كان يستطيع الفصل فى القضية لو كانوا عرضوها عليه.. ألا وهو الكاهن الأكبر «فينحاس».

لكنه تكبَّر وقال فى تعالٍ:

- «أأكون أنا الكاهن الأكبر.. وابن الكاهن الأكبر، ثم أهين نفسى بالذهاب إلى فتاة نكرة لا وزن لها!!».

ومن جانبه تكبَّر «يفتاح» على الذهاب إلى «فينحاس».

فقد قال «يفتاح» فى غطرسة:

- «أأكون أنا قائد الشعب وأهين نفسى بالذهاب إلى رجل أقل منِّى شأناً!!».

وهكذا ضاعت حياة الفتاة سُدًى بين تكبر الأب وغطرسة الكاهن..! لكن.. لم يفلت أىٌّ منها بجريمته.. فقد مات «يفتاح» أبشع موتة بأن قُطِّعت أطرافه.. طرفاً طرفاً.

أما «فينحاس» فقد فارقته الروح القدس وعُزِل من منصب الكهانة.

وبعد «يفتاح»، خلفه «عبدن بن هِلِّيل» الذى جعل شغله الشاغل حماية إسرائيل من أعدائهم العمونيين.

شمشــون

كان «شمشون» هو القاضى قبل الأخير... وباستثناء «جالوت»، فقد كان أعظم الأبطال على مر التاريخ، كما كان أعظم قضاة بنى إسرائيل وكان أبوه اسمه «مَنُوح»، من سبط دان، بينما كانت أمه هى زَلَبونية من سبط «يهوذا»، وقد أنجباه بعدما يَئِسَا من الإنجاب.

وكان ميلاد «شمشون» مثالاً مدهشاً على انعدام بصيرة البشر.. فالقاضى إبصان لم يدعُ «منوح» وزوجته أبداً إلى أى وليمة من الولائم المئة والعشرين التى أقامها احتفالاً بزفاف أبنائه الستين.. وذلك لأنه قال فى نفسه:

- «إن هذه «البغلة» العقيم لن تستطيع أبداً رد الجميل.. إذ هى عاقر ولن تنجب ابناً أو بنتاً لتدعونى يوم زفافهما».

لكن شاءت حكمة الرب أن يهب ابن «منوح» وزوجته حكمة وبصيرة وقوة.. بينما لم يمت القاضى إلا وقد رأى بعينيه حتوف أولاده الستين..!

* * *

كانت قوة «شمشون» تفوق طبيعة البشر... كما كان بالغ الضخمة حتى إن المسافة بين كتفيه كانت تبلغ ستين شبراً..! ومع ذلك فقد كان به عيب واحد.. أنه كان مشلولاً!

قد تجلَّى أول مظهر من مظاهر قوته الهائلة.. عندما اقتلع جبلين وحكَّ أحدهما بالآخر ليشعل ناراً! وكان تظهر عليه هذه الكرامات كلما حل عليه روح

الرب. وكان حلول روح الرب عليه يتجلَّى فى شَعره الذى ينتصب واقفاً ويصدر صوتاً يشبه قرع الأجراس، ويُسْمَع على مسافة بعيدة. كما أنه كان يستطيع - طالما روح الرب حالة عليه - أن يخطو مسافة تعادل المسافة بين «صُرْعة» و«أشتأول».

وبسبب هذه القوة غير الطبيعية، ظن «يعقوب» أن شمشون هو المَسيًّا، لكن لما أراه الرب النهاية التى ستنتهى بها حياته، عَلِم «يعقوب» أن العالم الجديد لن يأتى على يدى هذا القاضى البطل(١).

وقد حقق «شمشون» أول انتصاراته على الفلسطينين باستخدام عظمة فك الحمار الذى ركبه «إبراهيم» وهو فى طريقه إلى جبل «المُرَّيا»، وقد حافظ الرب على عظام هذا الحمار فلم تَبْلَ، وكانت تلك معجزة كبيرة.. كما وقعت معجزة أخرى كبيرة بعد انتصار «شمشمون» على أعدائه، إذ كان على شفا الموت عطشاً.. لكن الماء تدفَّق فجأة من هذه العظمة، وكأنما يتدفق من نبع دفَّاق..!

وبالإضافة إلى قوته الهائلة، كان «شمشمون» يتمتع بمزايا روحية عديدة.. فلم يكن به أثر لحب الذات وكان خدوماً لقومه إلى أبعد حد. وعندما أخبر زوجته «دليلة» بأنه «منذور» للرب، تيقنت ساعتها أنها قد توصلت إلى سر قوته الهائلة - كما كانت تعلم طباعه جيداً، فعلمت أنه ما كان ليحلف بالرب أبداً كاذباً.

كما كانت هناك نقطة ضعف أخرى فى شخصيته.. فقد كان شهوانيّاً يترك شهواته تتسلط عليه. وكان نتيجة ذلك أن «من يدع عينيه تضلانه.. يفقدهما». وهكذا فقد «شمشمون» بصره، وإن لم يؤثر ذلك على شخصيته إذ ظل يمارس شهوانيته فى السجن.. وشجعه الفلسطينيون على ذلك، إذ كانوا يتمنون أن يعاشر بناتهم لينجب منهم ذرية تكون فى مثل قوته.

(١) نلاحظ هنا أن «المسيا» أو المسيح الذى ينتظره اليهود لابد أن يكون ظافراً منتصراً على جميع أعدائه، ولذا فإن أوصاف «المسيا» لا تنطبق على «شمشون» الذى هزمه أعداؤه فى النهاية.. والعجيب أنها لا تنطبق كذلك على عيسى ابن مريم عليه السلام (المترجم).

وكما ظل «شمشمون» يتمتع بقوة بدنية هائلة طوال حياته.. تجلت هذه القوة كذلك عند موته.. وقد توسَّل إلى الرب أن يحقق فيه بركة «يعقوب» فيمنحه القوة الربانية..

وفى لحظة موته صرخ قائلاً:

«يا سيد الكون! عوِّضنى فى هذه الحياة عن إحدى عينىَّ.. وسأصبر على فقدان الأخرى حتى تعوِّضنى عنها فى العالم الآتى..

وحتى بعد موته، ظل «شمشمون» درعاً يحتمى به بنو إسرائيل.. إذ ظل الفلسطينيون على خوفهم ورعبهم منه، حتى إنهم لم يجرؤوا على مهاجمة الإسرائيليين طوال عشرين عاماً.



جريمة سبط «بنيامين»

كافأ زعماء الفلسطينيين «دليلة» على خيانتها لزوجها «شمشمون» وكشفها لسره، فأعطوها مالاً أعطت جزءاً منه لابنها «ميخا» الذى استخدمه لصنع صنم لنفسه. وكانت تلك خطيئة لا تغتفر، إذ كان «ميخا» هذا نفسه يدين بحياته لمعجزة صنعها موسى له.. ففى أيام العبودية فى مصر، كان المصريون يعاقبون الإسرائيليين الذين لا يكملون حصتهم المقررة من القرميد، بأن يستخدموا أبناءهم بدلاً من القرميد الناقص.. وكان «ميخا» سيلقى هذا المصير، لولا أن نجا بمعجزة..

فقد كتب موسى «اسم الرب» ووضع الكلمات على بدن «ميخا» الميت فعادت إليه روحه فسحبه موسى فأخرجه من الحائط الذى كان مدفوناً فيه وسط القرميد.

لكن «ميخا» أظهر أنه لا يستأهل المعجزة التى جرت من أجله.. فحتى قبل خروج بنى إسرائيل من مصر، صنع لنفسه صنماً، كما كان هو نفسه الذى صنع العجل الذهبى. وفى أيام «عثنيئيل» القاضى، أقام «ميخا» فى مكان يبعد عن الحرم فى »شيلوه» بمسافة لا تقل عن ثلاثة أميال، وأقنع حفيد «موسى» بأن يكون هذا الحفيد كاهناً لصنمه الذى صنعه بيديه.

وقد أقام «ميخا» معبداً لصنمه كان يحتوى على أصنام كثيرة. فقد كان يوجد به ثلاثة تماثيل لأولاد، وثلاثة لعجول وتمثال لأسد وآخر لنسر وثالث لتنين ورابع لحمامة.

وعندما كان يأتيه رجل يريد الزواج، يقوم «ميخا» بتوجيهه إلى تمثال الحمامة؛ فإذا كانت الثروة هى مطلبه، يتوجه إلى تمثال النسر.. أما إذا أراد إنجاب البنات فإنه يتعبد لتماثيل العجول... وإن أراد القوة يتعبد لتمثال الأسد.. وإن أراد طول العمر يتعبد لتمثال التنين.

وكانت تقرب القرابين لهذه الأصنام ويحرق أمامها البخور، وكان «ميخا» يبيع القرابين والبخور للناس مقابل المال الذى يدفعونه إليه عداً ونقداً.. بل كان يغالى فى أثمانها فيبيع القربان بعشرة دراخمات، بينما يبيع البخور بدراخمة واحدة لكل أوقية..!

* * *

وهذا التدهور السريع فى الأحوال الدينية لذرية «موسى» إنما يعود إلى حقيقة زواجه من ابنة كاهن كان يقوم على خدمة الأصنام. ومع ذلك فلم يكن حفيد موسى مجرد وثنى عادى.. بل كانت وثنيته لا تخلو من جانب أخلاقى مهم. فقد كان يسمع كثيراً جده وهو يقول إن الرجل الحق لابد أن يعتمد على نفسه، حتى ولو اضطر لعمل «الغريب».. والمقصود بالغريب هنا هو أن يعمل أى شىء ولو كان عملاً غير معتاد أو مُحْتَقر عند الناس.. ولكن هذا الحفيد فهم كلام جده بالمعنى الآخر. إذ فهم عمل الغريب هنا على أنه «خدمة الآلهة الغريبة».

وقد كان هذا الحفيد يُبّعد الناس عن عبادة هذه الأصنام، أكثر مما يقربهم إليها.. إذ كان كلما أتاه آتٍ من الناس حاملاً معه حيواناً ليضحى به قرباناً لأحد الأصنام، يقول له:

- «ماذا يستطيع هذا الصنم أن يفعل لك؟ إنه لا يقدر أن يسمعك ولا حتى يستطيع الكلام معك!».

ثم يتمالك نفسه، لكيلا يفقد مصدر رزقه، فيضيف:

- «يكفيك أن تحضر طبقاً مملوءاً بالدقيق، مع بعض البيض».

وذلك لكى يأكل هو نفسه هذا القربان اللذيذ!!

* * *

وفى أيام «داود»، تم تعيينه خازناً لبيت المال. وقد عيَّنه «داود» فى هذا المنصب لأنه كان يرى أن الرجل الذى لا يمانع فى القيام بالكهانة لصنم جرياً وراء لقمة العيش، أهلٌ للثقة.

ومع أن هذا الحفيد قد تاب توبة نصوحا عن عبادة الأصنام، فى أيام «داود» فإنه سرعان ما عاد إلى سيرته الأولى عندما عزله «سليمان» عن منصبه، إذ كان «سليمان» قد عزل جميع رجال الدولة الذين كانوا أيام أبيه وعيَّن رجالاً آخرين بدلاً منهم. وفى نهاية المطاف، تاب هذا الحفيد عن عبادة الأصنام تماماً وعاش حياة تقية نقية، فأثابه الرب على ذلك بأن وهبه نعمة النبوة. وقد حدث ذلك فى اليوم الذى جاء فيه «رجل الله» من «يهوذا» إلى «يربعام».. إذ أن حفيد موسى هذا ما هو إلا النبى العجوز الذى كان فى «بيت إيل» ودعا رجل الله من يهوذا واستضافه فى بيته[1].

* * *

وانتشر الفساد الذى بدأه «ميخا» أكثر وأكثر.. وكان أكثر من أظهروا إخلاصهم لعبادة هذه الأصنام هم سبط «بنيامين». ولذا فقد قرر الرب معاقبة بنى إسرائيل على ذلك الكفر.. ولم تتأخر العقوبة كثيراً..

فلم يمر وقت طويل حتى ارتكب البنياميون فعلتهم الشنعية فى «جبعية»، حينما قلدوا أهل «سدوم» فى أفعالهم الشنيعة التى تغضب الرب، وقد فعلوا ذلك أمام بيت رجل يدعى "بَصِق"، وكان شيخاً كبيراً ذا رأى ومكانة.. تماماً كما فعلها أهل «سدوم» أمام بيت رجل الله «لوط»[2].

---

(١) إشارة لما ورد فى ملوك الأول (١٣: ١١ ـ ٣٤).

(٢) الإشارة هنا إلى واقعة اغتصاب بنى بنيامين لامرأة هذا الرجل، بعد أن فشلوا فى اغتصابه =

وعندما غضب الأسباط الآخرون من سبط «بنيامين» وطلبوا منهم الاعتذار فرفضوا، نشبت حرب فتاكة بين الفريقين.. وفى البداية كانت الغلبة لسبط «بنيامين»، على الرغم من أن «فينحاس» كان قد استشار الأوريم والتوِّميم فتلَّقى منهما إجابة مشجعة على خوض هذه الحرب.. وبعدما تجرعت الأسباط الأخرى كأس الهزيمة المرة بعد الأخرى، أمام سبط «بنيامين»، علموا أن سبب الهزيمة هو أن الرب أراد معاقبتهم على خطاياهم.

لهذا قررت الأسباط المهزومة تخصيص يوم للصيام والدعاء أمام التابوت المقدس وأخذ «فينحاس» بن ألعازار، الكاهن الأكبر، يدعو الرب ويتوسل إليه قائلاً:

- ياربُّ.. هل تريد أن تُضِلَّنا؟ هل يرضيك ما فعله بنو بنيامين؟ إذاً... لماذا لم تأمرنا بالكف عن حربهم؟ لكن إن كان ما فعله إخواننا، بنو بنيامين، شرّاً فى عينيك فلماذا جعلتنا ننهزم أمامهم!؟ يارب العالم.. بحق آبائنا الأوَّلين استجب لى.. وبيِّن لعبدك اليوم إن كنت راضياً عن حربنا هذه، أم كنت تريد معاقبة شعبك على خطاياهم، لكى يتوب العصاة عن معاصيهم..

يارب العالم.. لازلتُ أذكر ما فعلته أيام صباى، فى حياة «موسى»، عندما قتلت اثنين بخطيئة «زيمرى»، غضباً لك.. وعندما أراد أنصاره إيذائى أرسلت إليهم ملاكاً فقتل أربعة وعشرين ألفاً منهم ونجَّانى من شرهم وما مكروا بى.

لكن الآن.. خرج أحد عشر سبطاً من شعبك لينفذوا أمرك ولينتقموا لك ويذبحوا من أغضبوك... لكنهم تعرضوا هم للذبح!!

ولذا فقد ظنوا أن وحيك كذب وغش.

= هو نفسه ـ حتى إن المرأة ماتت من بشاعة الاعتداء عليها. والغريب أن الرجل نفسه بعد ذلك قام «بتقطيع» جثة امرأته إلى اثنتى عشرة قطعة وأرسل كل قطعة إلى سبط من الأسباط ليروا بأعينهم ما فعله بنو بنيامين بامرأته.. ومن هنا نشبت هذه الحرب الضرورس بين الفريقين. والقصة كلها مذكورة فى سفر القضاة (١٩: ١١ ـ ٣٠، ٢٠ كله). وهى تدل على وحشية هؤلاء القوم الذين يدَّعون أنهم «شعب الله المختار» (المترجم).

يارب العالم ورب آبائنا... لا تخفى عليك خافية. فأخبرنا لماذا حدث لنا كل ذلك!!»..

* * *

ثم بعد طول مناشدة وتضرع من فينحاس، أجابه الرب وأخبره أنه أحل بهم تلك الهزائم عقاباً لهم على سماحهم لميخا وأمه «دليلة» بارتكاب الشرور والمنكرات، دون أن ينهاهم أحد أو يردعهم عن غيهم.. على الرغم من حماستهم البالغة للأخذ بثأر المرأة التى اغتصبت فى «جبعية». لهذا، فما إن مات جميع الذين ناصروا «ميخا» وأمه وساروا وراءهما فى طريق الوثنية وعبادة الأصنام، إلا وصفح الرب عن الشعب وأعلن استعداده لنصرتهم على بنى «بنيامين».

وهكذا كان..

ففى الواقعة التى دارت رحاها بين الفريقين بعدها بقليل، سقط خمسة وسبعون ألفاً من بنى «بنيامين» قتلى.. ولم ينجُ من هذا السبط إلا ستمئة شخص خافوا على حياتهم من البقاء فى «فلسطين» فهاجروا إلى «إيطاليا» وإلى «ألمانيا».

* * *

وعلى الرغم من كل شرور «ميخا»، فقد كان يتمتع بفضيلة واحدة جعلها الرب تحاجى عنه أمام الملائكة الذين وقفوا ضده متهمين له. وكانت هذه الفضيلة أنه كان بالغ الكرم، إذ كانت أبواب بيته تبقى دائماً مفتوحة على مصاريعها أمام كل عابر سبيل.. وبسبب هذا الكرم حُفِظ له مكان فى العالم الآتى.

ويوجد «ميخا» فى القسم السادس من الجحيم، ذلك القسم الذى يشرف عليه الملاك «حدرئيل».. و«ميخا» هو الوحيد فى ذلك القسم الذى عوفى من العذاب فيه.

وكان ابن ميخا هو «يرّبُعام» الذى صنع عجولاً ذهبية كانت أشر وأكفر من كل ما صنعه أبوه.

* * *

وفى تلك الأيام أمر الربُّ «فينحاس» بأن يذهب إلى جبل «دنبين» ويبقى فيه لسنين عديدة، إذ كان قد بلغ من العمر مئة وعشرين عاماً، وهو، كما قال الربُّ، العمر الطبيعى لبنى آدم.

وأضاف الرب:

- «وسآمر النسور فتأتيك بالطعام، لكى لا تعود بحاجة إلى البشر فلا تعود إليهم إلى اليوم الذى تفضُّ فيه ختم السحاب فتفتحه مرة أخرى.

وبعد ذلك، سأحملك إلى المكان الذى يوجد فيه من كانوا قبلك، لتبقى فيه إلى اليوم الذى أزور فيه العالم وآتى بك من مكانك لتذوق الموت».



الفصل الثالث

«صموئيل وشاؤول»



«ألقانة» و«حنَّة»

يربط عهد النبى «صموئيل» بين عهدى القضاة والملوك فى بنى إسرائيل، وهذا النبى هو نفسه الذى عيَّن «شاءول» و«داود» ملكين. ولم يكن «صموئيل» وحده نبيّاً، وإنما كان كذلك أجداده وأبواه «ألقانة» و«حنة» يتمتعان بنعمة النبوة.

وإلى جانب روح النبوءة، كان «ألقانة» رجلاً ذا فضل وفضيلة لم يَحُزْهما أحد من بنى عصره، وكان «إبراهيم» ثانياً.. إذ كان الرجل التقىّ الوحيد فى جيله ولولاه لكان الرب قد أهلك جيله، غضباً وسخطاً على عبادتهم للأوثان. وكانت سجيته الكبرى هى أنه ضرب المثل لأهل عصره فتبعوه حاجّين إلى «شيلوه»، ذلك المركز المقدس لبنى إسرائيل فى تلك الأيام.

وكان «ألقانة» يصحب جميع أهل بيته وأقاربه ويخرج بهم جميعاً متوجهين إلى «شيلوه»، ثلاث مرات فى العام، كما تقرر الشريعة. وبالرغم من ضيق ذات يده وقلة يساره، فقد كان موكب حجه عظيماً، فما يكاد يبلغ مدينة فى طريقه إلى «شيلوه» إلا ويخرج أهل المدينة جميعاً فى دهشة من هذا الموكب العظيم.

ويتساءلون قائلين:

- «إلى أين هم ذاهبون هؤلاء الناس.. وبهذه الأعداد الغفيرة؟!».

فيجيبهم «ألقانة»:

- «نحن ذاهبون إلى بيت الرب فى «شيلوه»، إذ هناك تنزلت الشريعة.

لماذا لا تنضمون إلينا وترافقوننا فى رحلتنا؟».

وكان الناس يتأثرون بلطيف كلامه وحسن حديثه.. وهكذا ففى أول عام خرج معه خمسة بيوت، ثم فى العام التالى صاروا عشرا، ثم فى العام الثالث أصبحوا عشرين.. وهكذا إلى أن جاء عام خرجت فيه كل المدينة معه للحج إلى «شيلوه».

وكان «ألقانة» يغيِّر طريقه الذى يسلكه فى كل عام، لكى يمر على مدن جديدة فيعظ أهلها وينضم لقافلة الإيمان تائبون جدد.

* * *

لكن....

على الرغم من أنه كان رجلاً صالحاً يخشى الرب ويتقيه، فلم يكن «ألقانة» سعيداً فى حياته العائلية، إذ كان متزوجاً من «حَنَّة» من عشر سنوات ومع ذلك فلم يرزقه الرب منها الذرية. وكان يحب امرأته حبّاً جمّاً عوّضه عن ذلك.. لكن «حنة» نفسها أصرت على أن يتخذ لنفسه زوجة ثانية. وهكذا تزوج «ألقانة» امرأة أخرى، كان اسمها «فِنَنَّة».

ولم تكن «فِنَنَّة» هذه تضيع فرصة لإغاظة «حَنَّة» ومعايرتها بالعقم وعدم إنجاب الذرية.

ولذا فقد ناشدت «حنة» ربها ودعته قائلة:

«يارب العالم... لقد خلقت كل شىء بحكمة وجعلت لكل شىء وظيفته التى يقوم بها... فقد خلقت لنا الأعين لنرى بها، والآذان لنسمع بها، وخلقت لنا أنفاً لنشم به، وفماً لنأكل به..

فهل خلقتَ لى ثدييّ هذين إلا لكى يرضع منهما ولد لى أحمله فى أحشائى ويطمئن به قلبى؟

يارب العالم - يا من تسود فوق الجميع.. وأنت رب لكل شىء.. الخلائق الأرضية الفانية، والسماوية الخالدة.

إنك لتعلم أن الخلائق السماوية لا تأكل ولا تشرب ولا تتكاثر ولا تموت بل تعيش إلى الأبد...

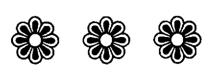
لكن الخلائق الأرضية تأكل وتشرب وتتكاثر لأنها بحاجة إلى الحفاظ على نوعها.. فإن كنتُ أنا من الخلائق السماوية، فاجعلنى أعيش إلى الأبد.. ولكن إن كنتُ من البشر الفانين فأعنى على القيام بدورى فى الحفاظ على النوع البشرى.

وكان الكاهن الأكبر فى تلك الأيام هو «عالى» فلما سمع دعاءها أخطأ فى فهمه...

وباركها قائلاً:

- «ليبارك ابنك الذى ستلدين ويفقه فى الشريعة» وعندما غادرت «حَنَّة» الحرم، انفرجت أساريرها وأحست وكأن همّاً كبيراً قد انزاح عن صدرها.

وأيقنت، كل اليقين، أن بركات «عالى» ستتحقق.



شباب «صموئيل»

سمع الرب دعاء «حَنَّة»، فولدت «صموئيل» بعد ستة أشهر وبضع أيام، فى العام التاسع عشر من زواجها، وبعدما صار لها من العمر مئة وثلاثون سنة.

وكان «صموئيل» هزيلاً نحيلاً وفى حاجة إلى عناية وتغذية جيدة. ولهذا، فلم يستطع، لا هو ولا أمه، أن يرافقا «ألقانة» فى حجه إلى بيت الرب. وظلت «حنة» تمنع وليدها عن الحرم لبضع سنوات. وقبل ميلاد «صموئيل»، كان هاتف سماوى قد هتف معلناً أنه سيولد رجل عظيم وسيكون اسمه «صموئيل»... ولهذا فقد أسمت كل أم وليدها باسم «صموئيل». وكانت الأمهات يجتمعن معاً لتحكى كل واحدة منهن للأخريات عما يفعله صغيرها، ليرين أى هؤلاء الصغار ستتحقق فيه تلك النبوءة.

لكن... عندما ولد «صموئيل» الموعود وفاقت صنائعه العجيبة كل أعمال أترابه، تبين فى وضوح من هو الذى ستتحقق فيه كلمة الرب.

وهكذا، بعدما تبين لها مكانة ابنها وقدره، لم تعد «حَنَّة» تمانع فى فراقه لها.

* * *

وقد تجلت فطنة «صموئيل» منذ أوائل أيامه.. إذ فى يوم من الأيام، وكان حينها له عامان من العمر، ذهبت به إلى الحرم فى «شيلوه» لتتركه هناك بصفة دائمة.

وقد حدثت عند ذلك واقعة أظهرت ذكاءه الشديد وجرأته البالغة، وبدرجة

أثارت دهشة الكاهن الأكبر «عالى» نفسه. فعندما دخل «صموئيل» إلى الحرم لاحظ أنهم يبحثون عن كاهن ليذبح إحدى القرابين، فما كان منه إلا أن قال لأصحاب القربان إنهم ليسوا فى حاجة إلى كاهن للذبح. وفى تلك اللحظة دخل «عالى» فرأى القربان يُذّبح وعلم أن الذى يقوم بذبحه ليس كاهناً، كما علم أن «صموئيل» هو الذى أفتى بذلك. وعندها اشتعل «عالى» غضباً وأراد قتل «صموئيل» لولا أن ناشدته أمه بألا يفعل..

لكن «عالى» قال لها:

- ليُمتْ.. وسأدعو الرب ليرزقك بطفل آخر».

لكنها أجابته فى سرعة:

- «لكننى نذرته للرب.. فمهما فعل فهو لا يخصنى ولا يخصك، وإنما هو ملك للرب». وعندها هدأ غضب «عالى» وتخلَّى عن فكرة قتل «صموئيل»، فطفقت «حنة» تترنم بحمد الرب، وتنبأت بعظائم سيصنعها ابنها.. وقد واسى إنشادها بنى «قورح» وخفف عنهم آلامهم فى الجحيم، فمنذ دخلوه وهم إلى أسفل وأسفل كل يوم، لكنها ما إن قالت:

«الرب يُنّزِل فى «شيول» ويصْعد».

إلا وتوقف هبوط أبناء «قورح» فى مهاوى الجحيم..

ولم تعش «حنة» إلى اليوم الذى رأت فيه عظمة ابنها وحسب، وإنما كذلك عاشت حتى رأت تدهور حال ضرتها «فننَّة» التى كانت تفقد اثنين من أطفالها كلما ولدت «حنة» ولداً.. إلى أن مات ثمانية من أبناء «فِنَنَّة».. وكادت تفقد جميع أبنائها لولا أن تشفعت لها «حنة» عند الرب.



«عالى» وأبناؤه

قبل أن يبدأ «صموئيل» حياة الرهبنة بقليل، كان «عالى» قد حاز المناصب الثلاثة الأعلى فى البلاد: فقد كان الكاهن الأكبر ورئيس «السنهدرين» وحاكماً سياسيا لبنى إسرائيل. وقد كان «عالى» رجلاً تقيا مكرساً كل وقته لدراسة التوراة ولهذا فقد عاش طويلاً ونال من التكريم كثيرا. وفى منصبه كاهناً أكبر، كان خليفة لشخصية عظيمة مثل «فينحاس» الذى كان قد فقد مكانته العالية بسبب تعاليه على «يَفْتَاح».

وبعالى الكاهن، سادت ذرية «إيثامار» على ذرية «ألعازار»(١).. ومع ذلك فإن الأفعال الشائنة التى أتاها ولده، قد جلبتا على «عالى» وأسرته الوبال، وإن كان ينبغى عدم فهم قصتهما التى وردت فى الكتاب المقدس، فهماً حرفياً(٢). فلم يَتَعَدَّ أبناء «عالى» إلا من حيث أنهم كانوا يؤخرون النساء اللائى كنَّ يأتين إلى الحرم لإحضار قرابين التطهير، وبالتالى فقد كُنَّ يتأخرن فى العودة إلى بيوتهن. وقد كان ذلك تَعَدٍّ كبير لا يفترض أن يقوم به كاهن للرب. وقد عوقب «عالى» على ذلك بأن شاخ قبل الأوان، كما اضطر إلى التخلى عن العديد من مناصبه الكثيرة.

وفى حياة «عالى» تقلَّد ابنه الأصغر «فينحاس» ـ وكان أفضل ولديه ـ

(١) هما «إيثامار» و«ألعازار» ابنا هارون أخى موسى.

(٢) الإشارة هنا إلى ما ورد فى سفر «صموئيل» الأول ٢ : ٢٢ والنص كالتالى:

«وشاخ عالى جدّاً وسمع بكل ما عمله بنوه بجميع إسرائيل وبأنهم كانوا يضاجعون النساء المجتمعات فى باب خيمة الاجتماع» أى زنا علنى فى مكان مقدس، ولا تعليق!!.

منصب الكهانة العظمى. وكانت الملامة الوحيدة التى حوسب عليها «فينحاس» أنه لم ينْه أخاه عن المنكرات التى كان يرتكبها.

* * *

وقد علم «عالى» بأسوأ ما قرره الرب تجاهه من «ألقانة»، ذلك الرجل التقى، عندما جاء إلى «عالى» وأعلن له أن شرف الكهانة العظمى سينزع من بيته ليعود إلى آل «ألعازار»، كما أعلن له أن جميع ذريته ستموت فى ريعان شبابها، وهذا المصير الأخير - الموت - يمكن رفعه بالأفعال الحسنة والإخلاص فى الصلاة ودراسة التوراة. ولطالما استخدمت هذه الوسائل وكان لها أثرها الفعَّال. لكن لن تجدى حيلة فى زوال منصب الكهانة العظمى من بيته، إذ قد فقده آل «عالى» إلى الأبد. ولذا فقد كان على «أبياثار» وهو حفيد ابن «فينحاس» ابن «عالى»، وآخر كاهن أكبر فى ذرية، «إيثامار» - أن يستسلم لقرار «داود» بتحويل شرف هذا المنصب إلى «صادوق» الذى استقر هذا الشرف فى بيته إلى الأبد.

* * *

وقد جلب بنو «عالى» الوبال على شعب إسرائيل كله.. فبسبب خطاياهم وشرورهم نشبت الحرب المدمرة مع الفلسطينيين. ولم يستطع التابوت المقدس - حيث كان يحفظ لوحا الشريعة - أن ينفع بنى إسرائيل فى هذه الحرب ولا أن يجلب لهم النصر. وقد حدث ما كان «عالى» يخشاه.. فقد حض ولديه على ألا يرياه وجهيهما إذا فقد التابوت المقدس فى الحرب. ولكنهما لم يعيشا حتى يفقدوه، فقد سقطا قتيلين فى أرض المعركة التى شهدت هزيمة ساحقة لأمتهما.

لكن.. كان على الفلسطينيين أن يدفعوا ثمناً فادحاً لانتصارهم على بنى إسرائيل فى هذه الحرب، ولاسيما أولئك الذين تلفظوا بكلمات ملؤها الاحتقار عندما ظهر التابوت المقدس فى معكسر الإسرائيليين..

فقد قال هؤلاء:

«إن رب الإسرائيليين كان عنده عشر بلايا فأنزلهم على المصريين، وهكذا فلم يعد فى مقدوره إصابة كائناً من كان بالأذى».

لكن الرب قال:

- «هكذا!؟.. إذاً فانتظروا فلأضربنكم ببلوى لم يكن مثلها أبداً من قبل!» وكانت هذه البلوى فئراناً كانت تخرج من الأرض كلما ذهب أحد الفلسطينيين ليقضى حاجته، فتمسك بأحشائه وتنتزعها من بطنه وتمزقها تمزيقاً!! فإذا استخدم الفلسطينيون أوانٍ نحاسية ليقضوا حاجتهم فيها، كانت هذه الأوانى تنشق بمجرد لمس الفئران لها. فيصيروا تحت رحمة هذه الفئران مرة أخرى. وبعد شهور عديدة، تبينوا أن إلههم «داجون» قد أصبح ضحية، لا منتصراً، ولذا فقد قرروا إعادة التابوت المقدس مرة أخرى إلى الإسرائيلين. ومع ذلك فلم يقتنع كثيرون من الفلسطينيين بعدُ بقدرة الرب.. لكن ما رأوه وما سمعوه من البقرتين المرضعتين اللتين لم يوضع عليهما نير[1]، قد سوَّى كل الحسابات عندهم.

فما كادت البقرتان تسحبان العربة التى كان التابوت موضوعاً عليها، إلا ورفعتا صوتيهما بالغناء قائلتين:

- «انهض يا «سَنط»[2] وحلِّق عالياً بكامل مجدك..

أنت يا أيها المزين بالمطرزات الذهبية..

يا أيها المقدس فى أقدس الأماكن.

يا من يغطيك القروبيم!».

وهكذا وصلت البقرتان إلى أرض الإسرائيليين الذين طاروا فرحاً عندما شاهدوا التابوت المقدس يعود إليهم.. ومع ذلك فلم يتصرف الشعب بالاحترام

(١) الإشارة إلى ما ورد فى سفر صموئيل الأول ٦ : ١ - ٢٦، والحكاية باختصار أن الفلسطينيين خافوا من الدمار الذى حاق بهم وبمعبودهم «داجون» بسبب وجود التابوت عندهم فأعادوه إلى بنى إسرائيل محملاً على عربة تجرها بقرتان.

(٢) الإشارة إلى التابوت المقدس، فقد كان مصنوعاً من خشب شجرة السنط.

اللائق مع مناسبة كهذه!! فقد أسرعوا ينزلون التابوت المقدس من على العربة، بينما كانوا مرتدين ثياب العمل، ولذا فقد عاقبهم الرب بقسوة. إذ هلك أعضاء السنهدرين السبعون جميعاً، وهلك معهم خمسون ألفاً من الشعب.

وقد كان لهذه العقوبة سبب آخر..

فعندما وقعت أعينهم على التابوت، صاحت ثلة من الشعب قائلين:

- «ما الذى أزعجك فغضبت منا.. ثم الآن رضيت عنَّا!!»[1].



---

(١) يقصد السخرية من التابوت المقدس، والمراد كأنهم يقولون له فى استهزاء: «وما الذى أغضبك يا تابوت فتخليت عنا فى الحرب والآن تعود لنا من تلقاء نفسك!».

صنائع صموئيل

فى وسط الهزائم والكوارث التى حلت ببنى إسرائيل، ازدادت سلطة «صموئيل» وازداد احترام الناس له. حتى أقروا أخيراً بأنه هو معين الشعب ونصيره. وكان أول ما قام به أن حاول تخفيف الفساد الأخلاقى الذى كان قد استشرى فى بنى إسرائيل.

ولما جمع «صموئيل» الشعب عند «المصفاة» للصلاة، حاول التمييز بين المؤمنين وبين عبَّاد الأوثان، لكى ينزل العقاب بالوثنيين. ولذا فقد أمر جميع الناس بالشرب من الماء، حتى لا يستطيع عباد الأوثان فتح أفواههم. وهكذا تاب معظم الناس عن خطاياهم وشرورهم..

ودعا «صموئيل» الرب لهم، قائلاً:

- «يارب العالم.. إنك لا تريد من الإنسان إلا أن يتوب عن معاصيه. فقد تاب إليك بنو إسرائيل، ولذا فاصفح عنهم وتب عليهم..

فصفح الرب عنهم وتاب عليهم..

وعندما قاد «صموئيل» الشعب فى أول هجمة على الفلسطينيين، لم يمنع الرب نصره عنهم وأرعب العدو، فى البداية بأن ضربهم بزلزال، ثم أرسل عليهم الرعود والبروق، فتفرقوا وهاموا على وجوههم لا يلوون على شىء.. وهوى منهم خلق كثير فى حفر الأرض، بينما أحرقت وجوه البقية الباقية منهم، ومن هلعهم تساقطت أسلحتهم من أيديهم.

وفى أوقات السلم ـ كما كان فى أوقات الحرب ـ كان «صموئيل» قاضياً منصفاً ونزيهاً، ولم يكن يتقاضى شيئاً عن عمله وقضائه... أيّاً كان. لكن أبناءه لم يقتدوا بأبيهم وساروا على نقيضه. إذ بدلاً من أن يواصلوا نهج أبيهم فى الارتحال من مكان إلى آخر للقضاء بين الناس وحل خلافاتهم، جعلوا الناس يأتون إليهم حيث هم... كما أحاطوا أنفسهم ببطانة فاسدة كانت تمتص دم الناس وأموالهم.

ولهذا، فإن نبوءة «عالى» التى تنبأ بها عن «صموئيل» وحذره منها، أيام شبابه، قد تحققت على نحو أو آخر. فقد كانت ذرية كلٍّ منهما وصمة عار لأبيها. لكن «صموئيل»، على الأقل قد رأى توبة أولاده بعينيه، وكان واحداً منهم هو النبى «يوئيل» الذى تكوّن نبوءاته سفراً من أسفار الكتاب المقدس.

* * *

وعلى الرغم من أن أبناء «صموئيل» ـ طبقاً لهذه الرواية ـ لم يكونوا بالسوء الذين يمكن استنتاجه مما ورد عنهم فى الكتاب المقدس من ذم وقدح شديدين، فإن الرب قد استجاب لطلب شيوخ الشعب بأن يجعل عليهم ملكاً منهم. فقد كان كل ما يريدونه هو ملك، لا قاضٍ.

لكن ما أحمى غضب الرب عليهم وأثار قلق «صموئيل»، هو الطريقة البذيئة التى صاغ بها عامة الشعب طلبهم.

إذ قالوا:

ـ «نريد ملكاً.. حتى نكون مثل بقية الأمم الأخرى».



حكم «شاؤول»

كان لاختيار «شاؤول» ملكاً أسباب عديدة..

ففى الوقعة العظيمة التى حدثت بين الفلسطينيين والإسرائيليين تحت قيادة ابنى «عالى»، قام «شاؤول» بالعديد من أفعال البطولة والشجاعة.. فعندما استولى «جالوت» على لوحى الشريعة، وسمع «شاؤول» بذلك، سار ستين ميلاً من «شيلوه» إلى معسكر الفلسطينيين ثم انتزع اللوحين بالقوة من العملاق «جالوت» وعاد بهما إلى الكاهن «عالى»، حاملاً معه خبر اندحار بنى إسرائيل. بالإضافة إلى ذلك، فقد كان «شاؤول» جميلاً بالغ الجمال، وكان ذلك هو السبب الذى دفع الفتيات إلى إبطائه للتحدث معه لأطول وقت ممكن، عندما ذهب إلى المدينة ليقابل «الرائى»[1]. كما كان فى الوقت نفسه شديد التواضع، إذ عندما فشل هو وغلامه فى العثور على الأُتن التى كانت قد ضاعت منه، قال له:

- «الآن سينشغل أبى علينا».

مساوياً نفسه بذلك مع غلامه الذى هو خادمه..

كذلك، فعند مسحه ملكاً على الشعب، رفض أن يقبل شرف الملك إلا بعد أن تتم استشارة «الأوريم» و«التوِّميم».

(١) أى النبى «صموئيل»، كما ورد فى سفر صموئيل الأول. والغريب أن الكتاب المقدس يقول إن «النبى اليوم كان يدعى سابقاً الرائى»، فما المقصود بذلك؟ وأى يوم هو المشار إليه؟ وما الفرق بين «النبى» و«الرائى» خصوصاً وكلمة «نبى» أطلقت على أناس كثيرين ليس منهم من نعرف أنه نبى؟! (انظر صموئيل الأول الإصحاح التاسع).

لكن.. كانت فضيلته الكبرى هى براءته، فقد كان بريئاً براءة «طفل فى العام الأول من عمره»... ولذا فلا عجب أنه قد وُهِبَ نعمة النبوة، وكانت نبوءاته تدور حول حرب «يأجوج» و«مأجوج» وعن الثواب والعقاب الذى سيكون فى يوم الدينونة الأخيرة. وأخيراً، فقد كان اختياره للمُلك بسبب سجايا آبائه وأجداده، ولاسيما جده «أبيئيل» الذى كان حريصاً على مصلحة الشعب ورفاهه حتى إنه كان يحرص على إيقاد المصابيح فى الشوارع لكى يذهب الناس إلى بيوت الدرس والعلم بعد حلول الظلام.

* * *

كان أول هجوم ناجح يقوده «شاؤول» بعد توليه الملك، هو هجومه على «ناحاش» ملك العمونيين، والذى كان قد أمر الجلعاديين بأن يحذفوا من التوراة الأوامر التى تحظر عَدَّ بنى عمون، من شعب إسرائيل.

وفى حملته التالية ضد الفلسطينيين، أظهر «شاؤول» تقواه وورعه. فقد كان ابنه «يوناثان» قد خالف أمراً أصدره «شاؤول» ذات يوم محرِّماً الأكل من طعام معين فى هذا اليوم، وعندها لم يتردد «شاؤول» فى تقرير حكم الإعدام فى ابنه فلذة كبده.

وقد علم «شاؤول» بخطيئة ابنه وتعديه من خلال صدرة الكاهن الأكبر.. فقد كانت جميع الأحجار التى عليها متألقة إلا حجر «بنيامين». وعندها تم إجراء القرعة (!!!) فُعِلمَ أن السبب هو «يوناثان» الذى هو من سبط «بنيامين».

ولم يرجع «شاؤول» عن قراره بإعدام ابنه، إلا بعد أن علم أنه قد فعل ما فعل بطريق الخطأ، وعند ذلك كفَّر عن خطيئة ابنه بقربان محروق وتقديم مثل وزنه ذهباً.

وفى نفس الحرب، أظهر «شاؤول» حماسته لمراقبة القرابين أثناء تقديمها والتأكد من أن ذلك إنما يتم وفقاً للشريعة. وهكذا، فقد وبَّخَ جنوده على أكل لحوم الأضاحى قبل أن يتم رش دمائها على المذبح، كما حرص على بقاء سكين

الذبح فى الحالة المنصوص عليها فى الشريعة. ومكافأةً له على ذلك، أحضر إليه الملاك سيفاً، فكان هو الوحيد فى الجيش الذى يحمل سيفاً.

* * *

وفى الحرب التالية، مع العماليق الذين أمر الرب بنى إسرائيل باستئصال شأفتهم، أظهر شاؤول روحاً مختلفة وأغضب الرب. فلما أبلغه النبى «صموئيل» بغضب الرب منه، قال له:

- «إذا كانت التوراة تأمر بالتضحية بعجلة فى الوادى تكفيراً عن موت رجل واحد، فكم تكون إذاً كفارة ذبح مثل هذا العدد الضخم من الرجال؟ وحتى ولو كان هم خطاة عاصين، فما ذنب ماشيتهم ليقضى عليهم؟ وإذا كان كبارهم يستحقون القتل، فأى ذنب جناه أطفالهم حتى يذبحوا؟».

وعند ذلك هتف هاتف سماوى قائلاً:

- «لا تبالغ فى تطبيق العدالة».

وفيما بعد عندما كلَّف «شاؤول» دواغ بقتل الكنة فى نوب، سمع نفس الصوت يقول:

- «لا تبالغ فى ارتكاب الشر».

وكان دواغ هذا هو الذى قُدِّر له أن يلعب دوراً مشئوماً فى حياة «شاؤول» عندما أشار عليه بالإبقاء على حياة «اجاج» ملك عماليق. وكانت حجته فى ذلك أن الشريعة تحظر ذبح حيوان وصغيره فى نفس اليوم، وإذاً، فكم هو محرَّم أن يتم قتل الصغار والكبار، والرجال والأطفال، معاً فى نفس اليوم؟ ولأن «شاؤول» لم يخرج إلى حرب القضاء على عماليق إلا مضطرّاً وعلى مضض، فقد كان سهلاً إقناعه بترك هؤلاء الناس يحتفظون بجزء من ماشيتهم. من جانبه هو، فلم يكن مهتمّاً بأخذ شىء من الأسلاب والغنائم، فقد بلغ ثراؤه أن قام بإحصاء جنود جيشه بأن أعطى كل واحدٍ منهم شاة، فبلغ ما

وزعه عليهم مئتى ألف شاة..!

* * *

إذا قارنا خطايا «شاؤول» بما فعله «داود»، فلن نجدها بالخطر الذى يبرر انتزاع شرف الملك منه ومن أهل بيته. ولكن كان عيبه الرئيس الذى يعيبه هو أنه كان رقيق القلب لأبعد حد، وهى نقيصة خطيرة فى أى حاكم[1]. بالإضافة إلى ذلك فقد كان بيته يتمتع بنبل بلغ حد أن خيف معه من أن يشتطّوا فى التعالى على الناس إذا خلفوا أباهم فى الحكم.

وهكذا عندما خالف «شاؤول» الأمر الإلهى بإبادة العماليق، أعلن له النبى «صموئيل» أن الملك سينتزع منه ويعطى لآخر غيره. ولم يذكر له النبى «صموئيل» اسم خليفته فى هذه المرة، ولكنه أعطاه علامة ليعرف بها الملك الذى سيخلفه على كرسيه: فمن سيقطع طرف عباءة «شاؤول»، سيحكم بدلاً منه. وفيما بعد، عندما قابل «داود» الملك «شاؤول» فى الكهف وقطع مِزقة من تنورة الملك، أيقن «شاؤول» أن هذا هو الذى سيكون خليفته.

* * *

وهكذا.. على الرغم من أن «شاؤول» قد فقد ملكه بسبب حرصه على الإبقاء على حياة «أجاج» ملك العماليق، فإنه لم يحقق غرضه هذا، إذ أن النبى «صموئيل» قد تسبب فى أن يموت هذا الملك العماليقى أبشع ميتة، وطبقاً لعدالة الوثنيين، لا طبقاً لعدالة اليهود. ولم يُمكن إحضار أى شهود على جريمة «أجاج»، كما لم يمكن إثبات أنه قد تم تحذير «أجاج» - وفقاً للشريعة - عندما هم بارتكاب جريمته.

وعلى الرغم من أن «أجاج» قد نال الجزاء الذى يستحقه، فإن ذلك قد تأخر كثيراً. فلو كان «شاؤول» قد قام بقتله فى أرض المعركة، لكان وفَّر على

(١) سبحان الله!! وكأن المطلوب من حكام بنى إسرائيل أن يكونوا قساة القلوب لا يرحمون..! وصدق الله العظيم إذ قال: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ (البقرة:٧٤).

اليهود الاضطهاد الذى لاقوه على أيدى «هامان» سلف «أجاج».

* * *

كانت حرب العماليق هى آخر الحروب العظيمة الظاهرة التى يخوضها «شاؤول» وبعدها بقليل استحوذت عليه روح شريرة فأخذ يضطهد «داود» وأتباعه. وكان «شاؤول» ليموت بعد حرب العماليق مباشرة، لولا أن «صموئيل» قد تشفع له ودعاه لكى يبقى على حياة هذا الملك العاصى، على الأقل إلى أن ينتهى العمر المقدر له.

وقال «صموئيل» للرب:

- «إنك تساوينى بموسى وهارون.. فإن كنتُ مثلهما، فإنك لم تأذن بهلاك عمل أيديهما أمام أعينهما فى حياتهما.. لذا فلا تجعلنى أرى هلاك عمل يدىَّ أمام عينى فى حياتى».

فقال له الرب:

- «وماذا أفعل الآن؟ إن «صموئيل» لن يدعنى آخذ حياة «شاؤول»، ولئن أَمَتُّ «صموئيل» قبل الأوان، سيلعنه الشعب ويتقولوا عليه. لكن.. إن حكم «داود» يقترب، ولازال «شاؤول» حاكماً، ولا يجوز أن يتداخل حكما ملكين معاً!».

ولذا فقد جعل الرب «صموئيل» يشيخ فجأة، ولهذا فعندما مات فى الثانية والخمسين من عمره، تولَّد فى أذهان الشعب انطباع بأنه قد مات فى أوانه.

وكان «شاؤول» فى أمان، طالما «صموئيل» على قيد الحياة.. لكن، ما إن مات «صموئيل»، إلا وبدأ الفلسطينيون يهددون بنى إسرائيل وملكهم. وعندها تبين للجمع كم كان النبى الراحل يستحق كل مراسم الحداد التى جرت عليه فى جميع المدن الإسرائيلية.

ولم يحزن أحد فى الشعب على رحيل «صموئيل» بقدر حزن «شاؤول»

الذى ما إن وجد نفسه وحيداً منعزلاً دون سند أو نصير أمام الرب، إلا وسعى بكل وسيلة ممكنة وغير ممكنة للاتصال مع النبى الراحل. وهكذا فقد اصطحب معه مساعِديْه «أبنير» و«أماسا» وهرول إلى أم «أبنير»، عَرَّافة عين دور، ولم يكشف لها الملك عن هويته ولكنها عرفت من يكون، بكل سهولة.

عند استحضار أرواح الموتى، تقول القاعدة إن الذى يفعل ذلك لابد أن يكون ملكاً، وإلاَّ فإن الروح التى ستظهر ستكون رأسها لأسفل وقدماها لأعلى[1]. لكن ذلك بالطبع لم يحدث لروح النبى «صموئيل» التى حضرت واقفة على قدميها، فعلمت العرَّافة أن الملك «شاؤول» هو الذى يقف بجوارها. وبالرغم من أنها قد رأت «صموئيل»، فإنها لم تسمع ما قاله، إذ سمعه شاؤول وحده وإن لم يستطع رؤيته.. وهذه هى من قوانين استحضار الأرواح: أن يرى المستحضر صورة الروح لكن لا يسمع صوتها إلا من تم استحضارها من أجله!!

* * *

وازدادت الإثارة التى شعرت بها المرأة عندما رأت عدداً من الأرواح تقف إلى جوار «صموئيل»، إذ كان هذا النبى الميت قد ظن أن القيامة قد قامت عندما تم استحضار روحه من عالم الأرواح. ولهذا فقد اصطحب معه «موسى» ليشهد له بأنه قد طبَّق كل ما أمرت به التوراة وانتهى عند كل ما نهت عنه ومع هذين الزعيمين الروحيين العظيمين، نهض عدد من أرواح المتقين كذلك؟ إذ ظنوا جميعاً أن القيامة قد قامت. وكان «صموئيل» يرتدى «الثوب الخارجى» الذى كانت أمه قد أعدته له عندما سلمته للحرم. وقد ارتدى هذا الثوب طوال حياته، كما تم دفنه فيه. وعند البعث يقوم الموتى وهم مرتدون الأكفان التى كفِّنوا فيها عند دفنهم، ولذا فقد كان ذلك سبب ظهور صموئيل أمام «شاؤول» وهو يرتدى «ثوبه الخارجى» الذى كان معروفاً به.

---

(١) هذه نظرية طريفة تشبه نظرية تكوَّن الصور خلف العدسات المحدبة!! ولذا ربما يكون من الأفضل أن يتم استحضار الروح باستخدام عدستين محدبتين لكى تتعدل روح الميت فلا يموت مرة أخرى من طول الوقوف على رأسه!!

ولم تحفظ لنا الكتب المقدسة إلا متفرقات من الحديث الذى دار بين «صموئيل» وبين «شاؤول».

وقد وبخ «صموئيل» الملك شاؤول على إزعاجه له قائلاً:

- «أما كفاك أن أسخطت خالقك عليك باستدعاء أرواح الموتى؟ هل تريد أن تجعلنى عابداً للأوثان؟ إذا لم يُقَلْ أن المعبود سيعاقب عقوبة العابد؟».

ثم وافق «صموئيل» على إخبار الملك بقرار الرب بانتزاع المُلْكِ منه وكسوة «داود» بثوب المُلْك وشرفه.

وعند ذلك قال له «شاؤول»:

- «لكنك لم تقل لى ذلك من قبل!!».

فأجابه «صموئيل» فى حدة: عندما كنا نعيش معاً، كنا نعيش فى عالم الكذب والخداع.. لكننى الآن فى عالم الصدق، وإذَّاك سمعت منى كلاماً كله كذب لأننى كنت أخشى غضبك وانتقامك. ولكن لأننى الآن أعيش فى دار الصدق فإن ما تسمعه منى هو الصدق والحقيقة. أما عما فعله بك الرب، فإنك تستحق ذلك... لأنك لم تُطِع الرب ولم تنفِّذ انتقامه الشديد على العماليق.

فسأله «شاؤول»:

- «وهل أستطيع إذا أن أنقذ نفسى بالهرب؟».

فأجابه «صموئيل»:

- «أجل.. لو هربت لنجوت. لكن إذا رضيت بقضاء الرب، فإنك ستكون فى الفردوس معى غداً».

وعندما عاد «شاؤول» وسأله «أبنير» و«أماسا» عَمَّا دار بينه وبين «صموئيل»، قال لهما:

- «لقد أخبرنى أننى ينبغى علىَّ الذهاب إلى الحرب غداً، وأننى سأعود

منها ظافراً منتصراً. والأكثر من ذلك أنه أخبرنى أن أبنائى سترتفع مكانتهم بسبب براعتهم فى القتال».

وفى اليوم التالى خرج معه أبناؤه الثلاثة إلى الحرب، لكنهم قُتلوا جميعاً!

وجمع الرب الملائكة وقال لهم:

- «انظروا إلى هذا الكائن الذى خلقته فى عالمى..! إن الأب يخشى بفطرته اصطحاب أبنائه إلى موضع يخاف عليهم منه، ولو كان إلى وليمة، لكى لا تنظرهم عين الحسد وتؤذيهم.. لكن «شاؤول» يذهب إلى الحرب وهو يعلم أنه سيُقتل فيها، ومع ذلك يأخذ أبناءه الثلاثة معه ويقبل فى رضا العقاب الذى قررته عليه!».

وهكذا كانت نهاية أول ملك يهودى... وكان بطلاً وكان قديساً. وقد قضى أيامه الأخيرة نادماً على إعدام كهنة «نوب»، وبندمه وتوبته صفح عنه الرب.. ولقد بلغ من تقواه أن لم يكن له نظير فى مثل تقواه، ولا حتى «داود» نفسه.. إذ كان لدواد العديد من الزوجات والجوارى، أما «شاؤول» فلم يتخذ سوى زوجة واحدة. وبينما لم يخرج «داود» للحرب وخاف على نفسه من ابنه «أبشالوم»، فإن «شاؤول» قد خرج إلى الحرب عالماً أنه لن يعود منها حيّاً. وبينما عاش «شاؤول» حياة طاهرة عفيفة ملتزماً بتعاليم الشريعة بكل تفاصيلها، فإن الرب قد عاتب «داود» على لعنه لشاؤول فى مزاميره.. كما عوقب «داود» فى شيخوخته على قطعه طرف ثوب «شاؤول»، فلم تكف أية أثواب لستر بدنه وتدفئته. ثم أخيراً عندما حلت بالبلاد مجاعة عظيمة أثناء حكم «داود» لبنى إسرائيل، أخبره الرب أنها إنما نزلت بهم لأنه لم يتم دفن رفات «شاؤول» بالتكريم الذى يستحقه، وفى تلك اللحظة تردد فى السماء صوت قائلاً:

«شاؤول هو المختار من الرب».

بـلاط «شاؤول»

كان أهم شخص فى بلاط «شاؤول» هو ابن عمه «أبنير» والذى كانت أمه عرَّافة عين دور، وكان «أبنير» هذا عملاقاً ضخم الجثة وكان حجمه غير عادى، إذ كان يمكن تحريك حائط يبلغ سمكه ستة أشبار بسهولة عن تحريك إحدى قدمىَّ «أبنير». وذات يوم، بينما كان «أبنير» نائماً انحشر «داود» بين قدميه فكاد يلقى حتفه بسبب ذلك، إلا أن «أبنير» حرك قدميه فأفلت «داود» من الموت بأعجوبة!! ولإدراكه لقوته الهائلة، فقد صاح «أبنير» ذات يوم قائلاً:

- «آه لو استطعت أن أمسك بالأرض بيدىّ! لكنت رجحتها رَجّاً!!» وحتى فى لحظة موته، بعدما أصيب بجرح مميت على يد «يوآب»، فقد أمسك بقاتله وكاد يفتك به لولا أن صاح به الناس قائلين:

- «لو قتلته سنصبح يتامى وَيُسّبى الفلسطينيون نساءنا ويتيمون أطفالنا!».

فأجابهم «أبنير» قائلاً:

- «وماذا أفعل؟ لقد كاد يطفئ نورى؟».

فأجابه الناس مواسين:

- «سلِّم أمرك للقاضى الحقيقى»(١).

وعندها أفلت «أبنير» عدوه من بين يديه دون أن يصاب بأذى، ومات «أبنير» على الفور، إذ كان الرب قد قضى بذلك عليه.. فقد كان الحق فى

(١) يقصد لله سبحانه وتعالى.

جانب «يوآب» إذ كان ينتقم لأخيه «أشائيل» الذى كان «أبنير» قد قتله من قبل. وكان «أشائيل» - الذى كان سريعاً كالسهم - هو البادئ بالهجوم، ولذا فإن «أبنير» كان يتذرع بأنه إنما كان يدافع عن نفسه عندما قتل «أشائيل». وقبل أن يصيبه «يوآب» بالجرح المميت، كان قد عقد له محاكمة وسأله قائلاً:

- «لماذا لم توفِّر حياته فتجرحه بدلاً من أن تقتله؟».

لكن «أبنير» قال أنه لم يستطع ذلك، فصاح فيه «يوآب» قائلاً:

- «ماذا!! ألئن كنت قد استطعت إصابته تحت ضلعه الخامس، أما كنت تقدر على أن تصيبه بجرح مؤلم بدلاً من أن تقتله؟!».

وعلى الرغم من أن «أبنير» كان قديساً، بل وحتى «أسداً فى الشريعة»، فقد ارتكب الكثير من الآثام التى جعلت موته العنيف البشع يبدو عادلاً. ومن فضائله أنه رفض تنفيذ أوامر «شاؤول» بقتل كهنة «نوب». ومع ذلك فإن رجلاً مثله ما كان ينبغى له أن يكتفى بالأعتراض السلبى على قرار «شاؤول»، إذ كان يجب عليه أن يتصرف بإيجابية ويمنع «شاؤول» بالقوة من تنفيذ هذه الجريمة. بالإضافة إلى ذلك، فمع التسليم بأنه ما كان له أن يفلح فى التأثير عل الملك ودفعه إلى تغيير رأيه، فقد كان من الواجب عليه أن يحاول إصلاح الأموربين الملك وبين «داود». وعندما أمسك «داود» فى يده بالمزقة التى اقتطعها من ثوب «شاؤول» وحاول إثبات براءته له، كان «أبنير» هو الذى تدخَّل لكى لا يعفو الملك عن «داود».

ومن جانب آخر، فإن «أبنير» لا يلام على مناصرته لتمرد ابن «شاؤول» ضد «داود» طوال عام ونصف العام. فقد كان يعلم أن الرب قد اختار «داود» ليكون ملكاً، لكن، وطبقاً للتقاليد القديمة، فإن الرب قد قدَّر لسبط بنيامين أن يكون منهم ملكان، ولذا فقد اعتبر «أبنير» أن الواجب يحتِّم عليه أن ينقل شرف أبيه إلى ابن «شاؤول» البنيامينى.

من الشخصيات الأخرى المهمة فى بلاط الملك «شاؤول»، وإن كان ذا

شخصية تختلف تماماً عن شخصية «أبنير»، «دواغ» الذى كان صديقاً لشاؤول من أيام الصبا، ومات وهو فى الرابعة والثلاثين من عمره.. ومع ذلك، وفى هذا العمر المبكر، فقد كان رئيساً للسنهدرين كما كان أكبر علماء عصره. وكان يسمَّى «أدومى»، أى «الذى يستحى منه «الجميع»، إذ بسبب علمه ورجاحة عقله البالغة كان يخزى كل من يخوض جدالاً معه. لكن علمه الواسع هذا لم يكن يتجاوز شفتيه، أما قلبه فلم يكن مشغولاً به، فقد كان شغله الشاغل أن يحظى بإعجاب الناس ومديحهم له. لا عجب إذاً أن كانت نهايته نهاية مأساوية.

وعند وفاته كانت حالته قد تدنَّت إلى الحضيض، وإلى درجة أنه قد فقد كل فرص الفوز بالنعيم فى العالم الآتى. وكانت كبرياؤه هى السبب فى عدائه لداود الذى كان قد هزمه فى إحدى المجادلات الفقهية، ومن تلك اللحظة بدأ «دواغ» يدس لداود عند «شاؤول»، وذلك بمدح «داود» والمبالغة فى الثناء عليه أمام «شاؤول» فأثار غيرة «شاؤول» منه. كما كان يعزف على وتر كون «داود» من نسل المؤابيين، ويقول أنه بسبب ذلك ليس من حق «داود» أن ينضم إلى جماعة شعب إسرائيل. وكان على «صموئيل» وغيره من الرجال العظماء أن يبذلوا قصارى جهودهم لحماية «داود» من عواقب وشاية «دواغ» بداود عند الملك «شاؤول».

ومع كل ذلك، فقد كانت خطيئة «دواغ» العظمى وشايته بكهنة «نوب» الذين اتهمهم بخيانة الملك وأعدمهم جميعاً. وبالإضافة إلى كل هذه الأفعال المشينة، فقد كان يستغل الشريعة لصالحه ويبرر بها معاصيه وآثامه. واعترف الكاهن «أخيمالك»، كاهن «نوب»، أمام الملك «شاؤول» بأنه قد استشار الأوريم والتوميم لمصلحة «داود». وقد استغل «دواغ» هذا الاعتراف ليتهم الكاهن بالخيانة العظمى، إذ قال للملك إن الشريعة تأمر بألا تتم استشارة الأوريم والتوميم إلا من أجل الملك فقط. وعبثاً حاول «أبنير» و«أماسا» وباقى أعضاء السنهدرين، إقناع الملك بأن الأوريم والتوميم يمكن استشارتهما من أجل أى شخص تؤثر أفعاله على رفاهية الشعب.

لكن «دواغ» لم يتراجع عن غيِّه، حتى إنه قرر أن يقوم هو بنفسه بتنفيذ حكم الإعدام فى الكهنة، عندما لم يجد من ينفذ الحكم. وهكذا كانت طبيعته الدموية، إذ طالما استحوذ عليه شيطان القتل لا يراعى حرمة حياة قريب أو بعيد!! وبالإضافة إلى كل هذه الجرائم، فقد استطاع إقناع الملك بأن زواج «داود» من ابنته «ميكال» قد فقد شرعيته من اللحظة التى تمرد فيها «داود» على الملك. وطالما كان ذلك كذلك، فإن «داود» يعتبر ميتاً.. فالمتمرد على سلطان الملك منبوذ، وبالتالى فإن زوجته لم تعد مرتبطة معه بأى رباط.

وقد عوقب «دواغ» بما يكافئ جرائمه..

فهذا الذى كان يتباهى على الجميع بعلمه التام بالشريعة، قد نسى الشريعة كلها، بل إن أصدق أصدقائه وأخلص عبيده قد ثاروا ضده وطردوه من بيت العلم..!

ولكن هذه الميتة الشنيعة التى ماتها لم تكفِّر عن سئياته وخطاياه.. فقد نزل ملاك من السماء فأحرق روحه، بينما نزل ملاك آخر فبعثر رماده فى بيت الدراسة والصلاة.

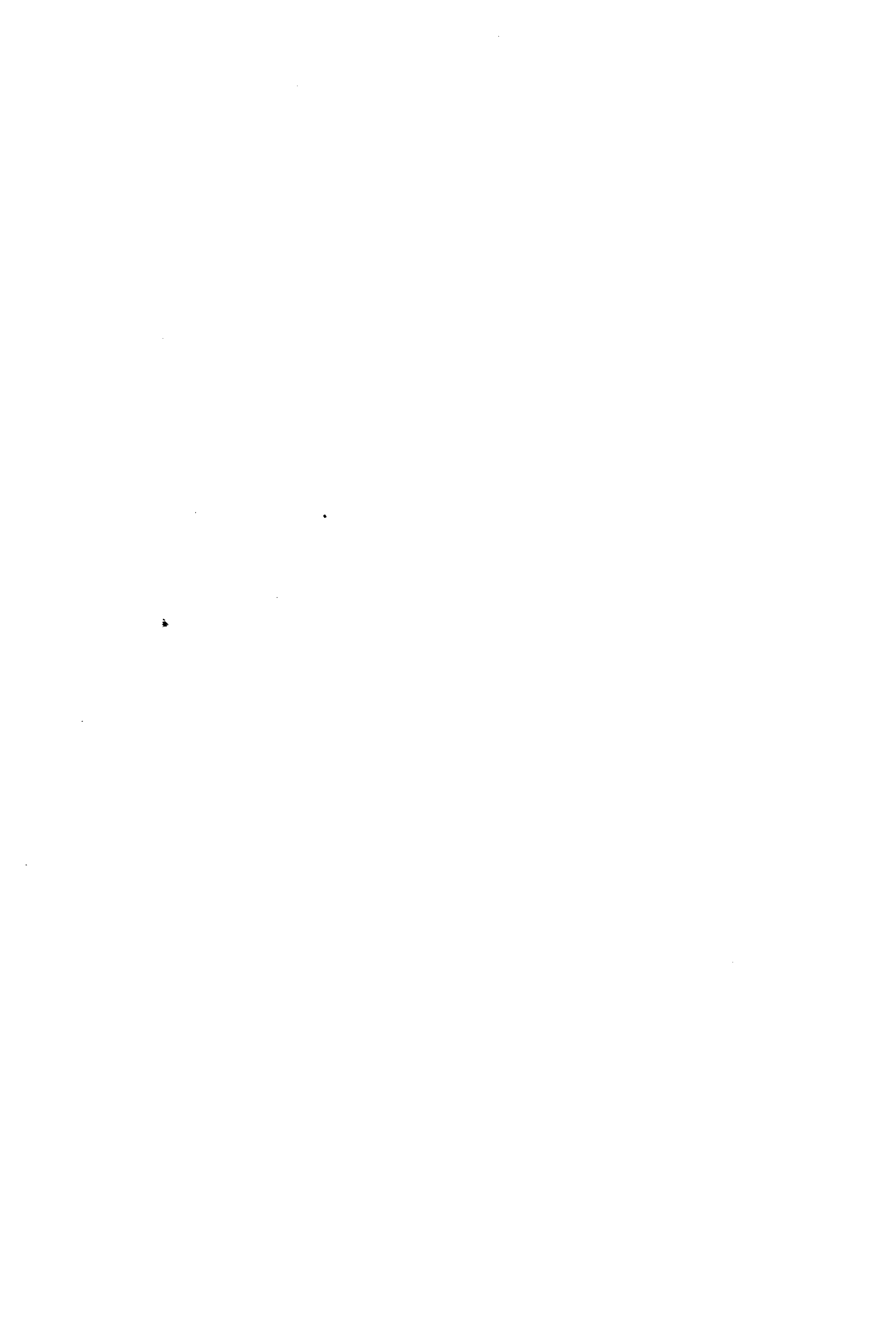
وكان ابن «دواغ» هو حامل سلاح «شاؤول»، وقد قتله «داود» عقاباً له على تجرئه على قتل الملك «شاؤول».. حتى وإن كان الملك هو الذى أمره بذلك.

وبالإضافة إلى هذين الرجلين، تميز «يوناثان» بن «شاؤول» ببراعته العسكرية وتبحره فى علوم الشريعة، وهو ما جعله عضواً فى «بيت الدين»، ومع ذلك فقد كان متواضعاً، بل وأكثر الرجال تواضعاً فى التاريخ. وكان «أميناداب» ابناً آخر لشاؤول، لا يقل شرفاً ونبلاً عن أبيه، ولذا فقد سمى «يِشْفِى». وكذلك كان «مفِبوشيت» حفيد «شاؤول»، رجلاً عظيماً، حتى إن «داود» نفسه كان يجلس عند قدميه ويتعلم منه.



الفصل الرابع

«داود»



ميلاد «داود» ونسبه

إن «داود»، الذى هو «المختار من الرب»، ينحدر نسبه من أسرة هى نفسها «صفوة بنى إسرائيل»، فأسلافه الذين ترد أسماؤهم فى مواضع كثيرة فى الكتاب المقدس، كانوا جميعاً رجالاً متميزين. بالإضافة إلى ذلك فإن «داود» ينحدر نسبه من «ميريام» أخت «موسى»، وبالتالى فإن العرق الملكى فى دمائه قد تقوَّى أكثر باتحاده مع عرق الكهانة.

كما لم يكن «داود» أول من جلس على كرسى الملك فى أسرته. إذ أن جده الأكبر «بوعز» هو نفسه «إبصان» قاضى بيت لحم. كذلك فإن «عُثَنيئيل» - أول قضاة إسرائيل بعد موت «يشوع» - و«كالب» أخا «عثنيئيل»، يرتبطان هما أيضاً بأسرة «داود».

ومن حيث التقوى والورع، فقد كان لداود قدوة فى أبيه وفى جده من قبله. وقد كانت حياة جده كلها سلسلة طويلة من عبادة الرب، ومن هنا كان اسمه «عوبيد»، أى العابد؛ كما كان أبوه «يَسَّى» واحداً من أعلم علماء عصره، كما كان واحداً من أربعةٍ ماتوا بلا خطيئة. ولولا أن الرب قد كتب الموت على جميع ذرية «آدم» «وحواء» بعد سقطوطهما فى الخطيئة، لكان «يسَّى» قد عاش إلى الأبد[1]. لكنه مات بعدما بلغ أربعمئة سنة من العمر، ومات ميتة فظيعة على يد الملك المؤابى الذى كان «داود» قد استأمنه (مطمئناً للقرابة التى تربط بين المؤابيين وبين ذرية «راعوث») على أسرته عندما فر من وجه «شاؤول».

(١) لاحظ أن فكرة خلود المتقين وعدم تعرضهم «لعقوبة» الموت تتكرر كثيراً فى هذا الكتاب، ما يدل على أنها بالفعل من العقائد الأساسية فى الفكر اليهودى.

لكن تقوى ««يسّى» لن تضيع سدى، ففى زمن «المَسِيًّا» سيكون واحداً من الأمراء الثمانية الذين سيحكمون العالم.

لكن... على الرغم من تقواه، لم يكن «يسًّى» معصوماً من الغواية. إذ أغوته إحدى إمائه وكاد يقع فى الخطيئة لولا أن تدخلت زوجته - «نصبة» بنت «عديئيل» - فى اللحظة الحاسمة، فتنكرت فى زى الأمَة ودخلت على «يَسًّى» الذى عاشرها مخدوعاً ظاناً أنها هى الأمة، فولدت له ولداً تم إعتاقه هو والأمة، لكى لا يكتشف «يسًّى» الخدعة التى خدعته بها زوجته. وكان الطفل هو «داود».

* * *

وإلى حدٍّ ما، يدين «داود» بحياته لآدم. ففى البداية لم يكن مكتوباً له أن يعيش إلا ثلاث ساعات فقط. لكن عندما أمر الرب جميع أجيال المستقبل تمر من أمام «آدم»، ناشد الرب لكى يمنح «داود» سبعين سنة من الألف عام التى كتب الرب لآدم أن يعيشها. فوافق الرب على طلب «آدم» وأمر الملاك «ميتاترون» بكتابة «عقد هبة» ووقع عليه كل من الرب و«آدم». وهكذا تم بشكل قانونى نقل سبعين سنة من عمر «آدم» إلى عمر «داود» ثم مَنح «داود» الجمال والملك والموهبة الشعرية...حسب طلب آدم.



«داود» الملك المسيح

لكن الجمال والموهبة ـ اللذين منحهما «داود» وفقاً لرغبة «آدم» ـ لم يحمياه من الضنك والعنت. فباعتباره ابناً لأَمَة ـ كما كان أبوه يعتقد ـ حرم «داود» من الارتباط بإخوته، وقضى أيامه فى الصحراء يرعى غنم أبيه. وكانت حياة الرعى هذه هى التى هيأته لتولى مكانته السامية فيما بعد. وكان يقود أغنامه فى البرية ويرعاها بعطف وحكمة، إذ كان يسوق الحملان الصغيران إلى مراعى العشب الطرى اللين؛ بينما كان يُطْعِم الأغنام الكبيرة على العشب الأقل طراوة»..

ولذلك قال الرب:

«إن داود يعرف كيف يرعى الغنم.. لذا فليكونَنَّ راعياً لخراف إسرائيل»[1].

* * *

وفى الصحراء، بعزلتها ووحشتها.. فقد أتيحت لداود الفرصة لإظهار قوته البدنية غير العادية.. ففى يوم من الأيام ذبح أربعة أسود وثلاث دببة، مع أنه لم يكن يحمل معه سلاحاً. وكانت أخطر مغامراته هى تلك التى حدثت له مع غزال الريم.

إذ ذات يوم قابل «داود» فى طريقه حيواناً ضخماً فظن أنه جبل وبدأ بتسلقه لكن فجأة استيقظ «داود» ووجد «داود» نفسه محلقاً عالياً فى الهواء محمولاً على قرنيه. وعندها نذر إن نجاه الرب من هذه الورطة، أن يبنى

(١) تذكرنا هذه الجملة بما حدث مع موسى، كما تذكرنا بحديث النبى ﷺ الذى ورد فيه أنه ما بعث الله من نبى إلا ورعى الغنم.

هيكلاً ارتفاعه مئة ذراع، بقدر ارتفاع قرنى الريم، وعندها أرسل الرب أسداً فألقى ملك الغابة الرعب فى قلب «داود» فألقى نفسه على الأرض خائفاً مذعوراً، فهبط «داود» من على قرنيه بسهولة. وفى تلك اللحظة ظهرت غزالة فانطلق الأسد وراءها يطاردها، وهكذا نجا «داود» من الأسد أيضاً.

* * *

وظل «داود» يعيش هكذا راعياً للغنم إلى أن بلغ الثمانية والعشرين من عمره، فقام يمسحه ملكاً النبى «صموئيل» الذى كان قد رأى رؤيا بأن الابن المحتقر من أبناء «بسى» سيكون ملكاً. وكان «صموئيل» قد كُلِّف فى البداية، بأن يمسح واحداً من أبناء «يسى» ملكاً، لكن لم يُحدّد على وجه اليقين أى ابن. فلما رأى «صموئيل» الابن الأكبر «آلياب»، ظن أنه هو الملك الذى اختاره الرب. وقد تعمد الرب خداع «صموئيل» عقاباً له على اغتراره بنفسه إذ سَمَّى نفسه «الرائى»، إذ بهذه الطريقة تبين له أنه لا يستطيع «رؤية» كل شىء. لكن كان خطأ «صموئيل» يمكن غفرانه، إذ أن الرب فى البداية كان قد اختار «آلياب»، ولكن بسبب طبيعته العنيفة وسرعة غضبه من «داود»، فقد نقل الرب الشرف الذى كان معدّاً له إلى أخيه الأصغر. وقد تم تعويض «آلياب» نسبيّاً بأن كُتِب له أن يرى ابنته زوجة لرحبعام، وبالتالى فقد كتب له أن يسعد بكونه من أسلاف ملوك يهوذا، وبذا أيضا لم تتحول رؤيا «صموئيل» بتملك «آلياب» إلى زيف مطلق.

* * *

إن اختيار «داود» لشرف الملك قد تبين بوضوح مما حدث للزيت المقدس الذى تم مسحه به. إذ عندما حاول «صموئيل» مسح إخوة «داود» بالزيت، لم ينسكب الزيت وبقى فى القرن.. لكن عندما جاء الدور على «داود» سال الزيت من تلقاء نفسه وانسكب عليه. وتحولت القطرات التى سقطت على ثيابه إلى ماسات ولآلئ ثم بعدما انتهى «صموئيل» من مسحه، بقى قرن الزيت ممتلئاً كما هو.

وعندما مسح «صموئيل» داود معلناً اختيار الرب له ليكون ملكاً لبنى إسرائيل، علت الدهشة وجوه جميع الحاضرين، إذ كان الجميع يظن أن «داود» إنما هو ابن الجارية. وعند ذلك لم تستطع أم «داود» الصبر لأطول من هذا وكشفت عن سرها وأعلنت أنها هى أم «داود» الحقيقية.

ظل مسح «داود» سرّاً مخفيّاً لفترة، لكن ظهر تأثيره فى روح النبوة التى تجلَّت فى «داود» وفى تطوره الروحى غير العادى. وقد أثار ذلك حسد البعض له وغيرتهم منه. وكان أشد الناس غيرة منه هو «دواغ»، أعلم علماء عصره. وعندما سمع «دواغ» أن «شاؤول» يرتِّب لإحضار «داود» إلى بلاطه ليكون جليسه، بدأ يمدح فى «داود» ويثنى عليه ويبالغ فى ذلك؛ قاصداً إثارة غيرة «شاؤول» منه، وهو ما أفلح فيه.. لكن ذلك لم يُثْنِ عزم «شاؤول» عن ضم «داود» إلى بلاطه، إذ كان الملك يعرف «داود» منذ شبابه ولطالما أعجب به. وكان لذلك قصة..

إذ ذات يوم اضطرت إحدى النساء الثريات لمغادرة بيتها لفترة، ولم تستطع حمل كنوزها معها، ولا كانت تثق فى أحد لتحتفظ بها عنده. وعند ذلك قابلت المرأة فوضعت أموالها فى جرار عسل وأودعتها أمانة عند جارها. لكن الجار اكتشف بالصدفة ما كان فى الجرار، فأخذ الذهب الذى فيها لنفسه. وعندما عادت المرأة من سفرها استردت جرارها، لكنها لم تجد ذهبها فيه. وهكذا فلم تجد شاهداً، يشهد على خيانة جارها للأمانة، فرفضت المحكمة دعواها عليه. وعند ذلك لجأت إلى الملك الذى لم يستطع بدوره مساعدتها، وخرجت المرأة من قصره حزينة مهمومة فوجدت «داود» يلعب مع رفاقه. فلما لاحظ «داود» ما هى فيه من غم وحزن وعلم قصتها طلب من الملك أن يأذن له بإعادة التحقيق فى القضية، فأذن له. وعند ذلك أخذ «داود» جرار العسل وأمر بكسرها فعثر فيها على قطعتين من النقود كانتا قد التصقتا بجدار إحدى الجرار. وعند ذلك تبين صدق المرأة وخيانة الرجل فألقى القبض عليه وأعيد للمرأة ذهبها المسروق.

اللقاء مع «جالوت»

لم يستمتع «داود» طويلاً بالجلوس فى بلاط الملك، إذ أن عدوان «جالوت» على الشعب قد اضطره إلى الإسراع إلى الجبهة. وكانت صدفة غريبة هى تلك التى كتب لداود أن يكون قاتلاً لجالوت الذى كان يرتبط به برباط دم، إذ أن «جالوت» هو ابن «عُرفة» المؤابية التى كانت كنَّة «راعوث» جدة «داود»، كذلك أختها، وكانتا ابنتى الملك المؤابى «عجلون». لكن كان الفرق بين «داود» وبين «جالوت» شاسعاً، بمثل ما كان الفرق بين جدتيهما. إذ على النقيض من «راعوث» اليهودية التقية، عاشت «عُرّفة» حياة الفاحشة والزنا، حتى إن ابنها «جالوت» كان الناس يعايرونه بأنه «ابن مئة أبٍ وأم واحدة»..!

لكن الرب لا يغفل عن مجازاة الطيب بالطيب، ولو صدر من الأشرار العصاة. إن مكافأة لها على الخطوات الأربعين التى سارتها مع حماتها «نعمى» كُتِب لابنها الفلسطينى «جالوت»[1] أن يستعرض قوته ومهاراته طوال أربعين يوماً.. وبالإضافة إلى ذلك فقد كوفئت «عرفة» على العبرات الأربع التى ذرفتها على فراقها لحماتها «راعوث» بأن أنجبت أربعة أبناء عماليق.

ومن هؤلاء الأبناء الأربعة كان «جالوت» هو الأقوى والأضخم. وما ورد

---

(١) هذه إشارة من إشارات عديدة وردت فى هذا الكتاب تدل على الاختلاط والمصاهرة التى حدثت بين بنى إسرائيل وبين الفلسطينيين (سكان فلسطين عموماً)، ما يؤكد على زيف دعوى «نقاء» الدم اليهودى ونقاء العرق الإسرائيلى (نسبة إلى نبى الله يعقوب أو إسرائيل) خالصاً دون اختلاط. راجع العهد القديم لتحصل على المزيد من الأمثلة، بما فيها اتخاذ أسماء عربية واكتساب العادات العربية.

بالكتب المقدسة عنه ما هو إلا غيض من فيض يمكن أن يحكى عنه. فهذه الكتب تغفل عن عمد الإطناب فى الكلام عن آثم مثله، كما لا تخبرنا هذه الكتب عن تحديه لإله إسرائيل ودعوته له لكى ينزل فيصارعه، ولا كيف يحاول هذا الآثم كثيراً وبكل ما فى وسعه منع بنى إسرائيل عن عبادة ربهم. فقد كان يظهر فى المخيم كل صباح ومساء ليمنع الإسرائيليين من تلاوة دعاء الشماع.

وهكذا فقد كان كل ذلك سبباً قويّاً دفع «داود» لكراهية «جالوت» والعزم على القضاء عليه. وكان أبوه «يَسَّى» يشجعه على منازلة جالوت والقضاء عليه، إذ كان يعتبر أن واجب «داود» يحتم عليه أن يحمى الملك «شاؤول» البنيامينى من هذا العملاق.. رداً لدين جدهم الأكبر «يهوذا» الذى حمى «بنيامين» وحافظ على حياته، وبنيامين كما نعرف هو جد «شاؤول».

وكان «جالوت» عازماً كل العزم على قتل «شاؤول»، وذلك لأنه فى إحدى المناوشات التى حدثت بين الفلسطينيين وبين الإسرائيليين استطاع «جالوت» الاستيلاء على لوحى الشريعة.. لكن «شاؤول» أخذهما بالقوة من هذا العملاق. ولهذا فقد دعا «جالوت» الملك «شاؤول» للخروج إليه لمنازلته فأيهما يغلب يكون له ولقومه الملك والسيادة. لكن «شاؤول» كان مريضاً، ولذا فقد أوكل المهمة إلى «داود» ليقوم بمنازلة «جالوت» بدلاً منه.

وهكذا لبس «داود» درع «شاؤول» واستعد لملاقاته. فلما رأى «شاؤول» أن درعه قد تغير بمعجزة ليتناسب مع حجم «داود» الذى كان أضأل منه كثيراً، علم أن «داود» هو المكتوب له أن يكون خليفته من بعده... وقد أثار ذلك غيرة «شاؤول» منه. ولهذا السبب نفسه قرر «داود» أن يخلع عنه درع الملك ويخرج للقاء «جالوت» بثياب الرعى العادية. وعندما خرج «داود» لمنازلة العملاق طارت خمس حصوات من تلقاء نفسها وذهبت إلى يد «داود» فلما لمسها صارت كلها معاً حصاة واحدة كبيرة. وكانت هذه الحصوات الخمس تمثل الرب والآباء الثلاثة وهارون. أما «حفنى» و«فينحاس» حفيدى هارون، فقد قتلا على يد

العملاق قبل ذلك بفترة قصيرة.

ما كاد «داود» يخطو للقاء «جالوت»، إلا وأدرك هذا العملاق على الفور القوة السحرية التى يتمتع بها هذا الشاب الغض الإهاب.. فقد نظر «داود» لعدوه نظرةً أصابته بالبرص، كما تسمر فى الأرض على الفور فلم يستطع حراكاً. وعند ذلك اضطرب «جالوت» واختلط حابله بنابله ولم يدر ما يقول فأخذ يهذى ويتوعد «داود» بأنه سيقتله ويرمى لحمه لماشية الحقل، وكأن الماشية تأكل اللحم!! فلما سمع «داود» ذلك قال لنفسه إن «جالوت» يهذى وأن نهايته قد أوشكت. ثم رد عليه «داود» واثقاً من النصر، وقال له:

- «لأقطعنك إرباً وأرمى جثتك لتنهشها النسور».

فرفع «جالوت» رأسه لينظر إن كان بالسماء نسور أم لا، فانتهز «داود» الفرصة وسدد الحصاة الكبيرة إلى جبهته فأسقطته أيضاً على وجهه فامتلأ فمه الذى طالما جدَّف على الرب بالتراب وانغرس تمثال معبوده «داجون» فى الوحل، وسقطت رأسه بين قدمى «داود» الذى لم يجد صعوبة فى الإجهاز عليه.

وهكذا سقط «جالوت» فريسة سهلة بين يدى «داود» الذى أراد قطع رأسه لكنه لم يعرف كيف يزيل كل هذه الدروع الثقيلة من على رأس هذا العملاق ليطيح بها.. فوق محيراً لا يدرى ما يفعل.

وعند ذلك أسرع إليه «أوريا» الحثى وعرض عليه بأن يساعده.. بشرط أن يزوجه «داود» من إحدى الفتيات الإسرائيليات. فوافق «داود» وأسرع «أوريا» يخبر «داود» بطريقة فك أثواب الدروع التى تغطى جسم هذا العملاق.

* * *

وأشعل انتصار «داود» على العملاق «جالوت» غيرة «شاؤول منه أكثر وأكثر.. وأرسل «شاؤول» قائد قواته «أبنير» ليسأل إن كان «داود» ينتمى إلى عشيرة «فارص» أم إلى عشيرة «زارح»، وكلاهما من سبط «يهوذا». فإذا كان

ينتمى لعشيرة فارض فإن استيلاءه على الملك مؤكد. لكن «دواغ» ـ عدو «داود» القديم ـ أكد له أن «داود» ـ الذى ينحدر من ذرية «راعوث» المؤابية ـ لا ينتمى بالمرة إلى الجماعة اليهودية، ولذا فليس هناك ما يخشاه «شاؤول» فيما يخص هذه المسألة.

ثم نشبت مجادلة حامية الوطيس بين «أبنير» و«دواغ» عما إذا كان التشريع الوارد فى سفر التثنية بخصوص المؤابيين، يتعلق برحالهم فقط، أم يشمل نساءهم أيضاً. ولما كان «دواغ» فقيهاً متمكناً من الشريعة، فقد فنَّد فى براعة جميع النقاط التى أثارها «أبنير» مؤيداً بها انطباق التشريع على النساء كذلك واحتد الجدل بين الفريقين حتى وصل إلى مرحلة لزم معها تدخل النبى «صموئيل» لحسم صحة آراء أبنير». بل إن الخلاف قد وصل إلى درجة لم يمكن معه حسمها إلا بالتهديد باللجوء إلى العنف لفرض الرأى.. حتى إن يثرا أبا أماسا قد هَدَّد ـ على طريقة «العرب»[1]، ولهذا فقد كان يدعى «إسماعيليّاً» ـ بأن يمزِّق بسيفه كل من يرفض تفسير «صموئيل» الشريعة بأن رجال المؤابيين والعمونيين مستثنون إلى الأبد من جماعة إسرائيل، لكن ذلك لا ينطبق على نسائهم.



(١) وها هو دليل آخر على أن إسماعيل عليه السلام قد تربى وسط العرب، أى فى مكة، وهو ما يثبت أن بيت إيل الذى بناه إبراهيم إنما هو فى مكة ـ كذلك جبل المريا هو جبل المروة.

المطارد من «شاؤول»

كما نصر الرب «داود» فى قتاله مع «جالوت»، نصره وأيّده فى العديد من المحن الأخرى التى تعرض لها. وكان كلما يأس وظن أن لا خلاص له، يجد ذراع الرب تؤيده، بطرق غير متوقعة على الإطلاق، فلا يرتاح من غمه وتخف حدة محنته وحسب، وإنما يتأكد كذلك حكمة الرب وعدله فى تصريف شئون الكون.

وذات مرة قال «داود» للرب:

- «إن الكون كله جميل وجيد.. إلا شيئاً واحداً لا أجد له تفسيراً، وهو الجنون. فما الفائدة التى تعود على العالم من وجود رجل مجنون يهيم على وجهه هنا وهناك ويمزق ثيابه ويطارده الأطفال هازئين به وساخرين منه؟».

فأجابه الرب:

- «حقّاً أقول لك، سيأتى وقت ستدعونى فيه لكى أصيبك بالجنون».

وهكذا فعندما فر «داود» من وجه «شاؤول» ووصل إلى «أخيش» ملك الفلسطينيين، وكان يعيش فى «جَتٍّ»، كان حراس هذا الملك هم إخوة «جالوت» الذى قتله «داود»، ولذا فقد أرادوا الثأر لأخيهم.

لكن «أخيش» وإن كان وثنيا، كان تقيا، ولذا فقد دُعِىَ فى المزامير باسم «أبيمالك» ملك «جَرَار» الذى كان مشهوراً بتقواه. ولفت الملك «أخيش» نظر الإخوة إلى أن «جالوت» هو الذى بدأ بتحدى اليهود ودعوتهم لمنازلته، ولذا فإنه هو المسئول الأول والأخير عما حدث له. لكن إخوة «جالوت» ردوا عليه بأنه لو

كان ما يقوله صحيحاً فإنه على الملك «أخيش» نفسه أن يتنازل عن ملكه لداود، حسبما يقضى العرف بأن المنتصر لابد أن تكون له السيادة على المهزوم.

وهكذا وجد «داود» نفسه فى ورطة فدعا الرب ليجعله يبدو وكالمجنون فى نظر «أخيش» وحاشيته. واستجاب الرب له فبدا «داود» كالمجنون فى عينى الملك الفلسطينى الذى صرخ قائلاً:

- «وهل أنا فى حاجة للمزيد من المجانين، لكى تأتوا إلىّ بهذا المجنون!!» وذلك لأن زوجته وابنته كانتا مجنونتين.

وهكذا نجا «داود» من مكر إخوة «جالوت»، ولهذا فقد ألَّف المزمور الذى يقول فى بدايته:

- «سأحمد الرب فى كل وقت وحين».

بما فى ذلك وقت جنونه.

* * *

وفى مناسبة أخرى عبَّر «داود» عن ارتيابه فى حكمة الرب لخلقه أشياء تبدو فى ظاهرها بلا فائدة.. مثل العناكب التى لا تفعل شيئاً سوى نسج شبكة لا فائدة منها.

لكن - ثبت له بالدليل القاطع أن لهذه الشبكات غرض مهم وفائدة عظيمة.. ففى إحدى المرات كان «شاؤول» ورجاله يطاردون «داود» الذى لجأ إلى إحدى الكهوف واختبأ به فدخل «شاؤول» وراءه يبحث عنه، فأرسل الرب عنكبوتاً نسجت شبكة سدت مدخل الكهف فلما رآها «شاؤول» أمر رجاله بالكف عن البحث فى هذا الكهف الذى يبدو، من شبكة العنكبوت التى تسد مدخله، ألا أحد قد مر من خلال هذا المدخل[1].

(١) قصة شبيهة بقصة الهجرة التى حدثت للنبى الأكرم ﷺ، وإذا صدق اليهود هذه، فلماذا ينكرون تلك؟

وبالمثل يدين «داود» بحياته لدُبّور، بعدما كان معتاداً على السخرية من الدبابير. وكان يظن ألا فائدة ولا نفع لهذه الدبابير سوى إنجاب اليرقات المقرفة. لكن ذات مرة فاجأ «داود» الملك «شاؤولَ» ورفاقه بينما كانوا غارقين فى النوم فى معسكرهم، وقرر أن يسرق الإبريق من بين قدمى العملاق «أبنير»، ليتباهى به فيما بعد ويستشهد به على تغلبه عليهم. فلما اقترب «داود» من «أبنير» رفع «أبنير» ركبتيه متململاً فى نومه، فأضحت الفرصة مهيأة أمام «داود» لتنفيذ غرضه.

لكن... ما كاد «داود» يحنى رأسه لالتقاط الإبريق، إلا وفرد «أبنير» ركبتيه مرة أخرى فانحشرت رأس داود بين قدمى هذا العملاق وكاد يلقى حتفه، لولا أن لدغ دبور «أبنير» فتململ فى نومه وأثنى ركبتيه مفلتاً «داود» فى اللحظة الأخيرة، بعد أن جحظت عيناه وتدلى لسانه وكان على شفير الموت.

* * *

كما حدثت معجزات أخرى لداود أثناء هروبه من وجه «شاؤول».. ففى إحدى المرات أحاط «شاؤول» وجنوده بداود من كل الجهات وكادوا يقضون عليه، لولا أن ظهر ملاك فاستدعى «داود» لكى يعود إلى موطنه ليصد غارة الفلسطينيين على البلاد. وعندها كف «شاؤول» عن مطاردة «داود».. لكنه لم يفعل ذلك إلا بعدما قررت الأغلبية ذلك، إذ أن البعض كانوا قد رأوا أن القبض على «داود» لا يقل أهمية عن طرد العدو وصد هجمته على البلاد.

وفى حربه مع العماليق تدخلت القوات السماوية مباشرة لمعاونة «داود». فقد شقت الرعود والبروق صفحة السماء وأحالت ظلمة الليل البهيم نهاراً فاستطاع مواصلة القتال.



حـــرب « داود »

كـان أول مـا عـزم عليـه «داود» بعـد أن جلس على العـرش، هو أن ينتـزع «أورشليم» ـ المقدسة من أيام آدم ونوح وإبراهيم ـ من قبضة الوثنيين ـ لكن لم يكن ذلك سهلاً، لعدة أسباب...

فأولاً: إن اليـبـوسـيـين الذين كانت «أورشليم» تحت أيديهم إنما كـانوا من ذرية أبناء «حث» الذين تنازلوا عن كهف المكفيلة لإبراهيم بشـرط ألا يُغْتَصب من ذريتـهم عـاصمـتـهم «أورشليم». وتذكاراً لهـذا الاتفـاق الذى تم بين إبراهيم وبين أبناء «حِثّ»، تم إقامـة نُصُب من النحـاس الأصـفـر... فلمـا اقـترب «داود» بجيوشه من «أورشليم» أشار لهم اليبوسيون إلى هذه النصب ليذكّروهم باتفاق إبراهيم الذى كان لا يزال واضحاً يسهل قراءته. وقال اليبوسيون لداود وجنوده أنهم لو أرادوا الاستيلاء على المدينة ـ التى كانت تحيطها أسوار عالية ـ فإن عليهم أولاً أن يدمروا هذه النصب.

لكن «يوآب» ابتكر حيلة طريفة للقفـز من فوق هذه الأسـوار.. فـقـد وقف على رأس «داود» بقرب الحـائط وأحضـر شـجـرة سَرْو عـالية وأمسك بطرفها وجذبها إليه بقوة ثم خَفَّف الشد فارتد طرف الشجرة مستقيماً حـاملاً معه «يوآب» وطائراً به فوق سـور المدينة فـألقـاه داخلها. فلمـا صـار «يوآب» داخل المدينة انقض على النصب فدمره وسيطر على المدينة.

أما «داود» فقد حدثت له معجزة، إذ جثم السور على الأرض فعبره «داود» بكل سـهـولة داخلاً إلى المدينة، ومع ذلك فلم يكن «داود» يريد إهراق الدمـاء

ولذا فقد عرض على اليبوسين ستمئة شاقل، خمسين عن كل سبط من أسباط بنى إسرائيل، فقبل اليبوسيون المال وباعوا لداود المدينة وأعطوه صكا بذلك.

* * *

وهكذا، بعدما استولى على «أورشليم»، بدأ «داود» يتجهز لحربه مع الفلسطينيين، وهى الحرب التى أظهر فيها شجاعته البطولية وثقته التى لا تتزعزع بالرب، تلك الثقة التى تجلت بأوضح ما يكون فى المعركة التى حدثت فى «وادى العمالقة»..

كان الرب قد أمر «داود» بألا يبدأ فى مهاجمة أفواج الفلسطينيين إلا بعد أن يسمع «صوت الزحف من قمم أشجار التوت». وكان الرب يريد بذلك معاقبة الملائكة الحارسين للوثنيين، قبل أن يسلِّم هؤلاء الوثنيون أنفسهم لأيدى المتقين، وكان صوت قمم الأشجار هو العلامة على إمكانية البدء فى القتال[1].

تقدم العدو حتى صار على مبعدة أربعة أذرع من صفوف الإسرائيليين الذين كادوا ينقضون على أعدائهم، لولا أن منعهم «داود» قائلاً:

- «على رسلكم! لقد نهانى الرب عن مهاجمة الفلسطينيين إلا بعد أن تتحرك قمم الأشجار. وإن خالفنا أمر الرب، سنموت حتماً. وإذا تأخرنا فلم نسارع بالهجوم، فلربما نموت... ولكننا سنموت حينها أتقياء منفذين لأمر الرب. وفوق كل شىء، لنكن واثقين بالرب» وما كاد ينتهى من كلامه، إلا وتحركت قمم الأشجار، فانقض «داود» على الفور على صفوف الفلسطينيين، وكانت غارة ناجحة للغاية.

وعندها التفت الرب على الملائكة وقال لهم:

---

(١) هذا المشهد يذكرنا بما ورد فى مسرحية «ماكبث» للمسرحى الإنجليزى الشهير ويليام شكسبير، حينما تنبأت له «العرافات» بأن يخشى على نفسه وملكه عندما يرى الأشجار تتحرك!!

- «انظروا إلى الفرق بين «داود» و«شاؤول»!».

وقد قال ذلك لهم لأنهم كانوا يتساءلون دائماً عن سبب نزعه للملك من «شاؤول» ومنحه لداود.

* * *

أما عن حروب «داود» الأخرى فقد كان أشهرها حربه ضد «شوباخ» الأرامى الذى قهره «داود» على الرغم من حجمه الهائل وقوته الخيالية. فقد كان «شوباخ» هذا طويلاً للغاية، فكان فى طول برج الحمام، وكانت نظرة واحدة له كفيلة بإلقاء الرعب فى قلب الناظر. وكان هذا القائد الآرامى يظن أن «داود» سيعامل السريانيين بلطف بسبب النصب التذكارى - وكان لا يزال موجوداً حينها - الذى أقامه «يعقوب» و«لابان» علامة على العهد الذى قطعه كل منهم للآخر بألا تشن ذرية أحدهما الحرب على ذرية الآخر.

لكن «داود» دمَّر هذا النصب. وبالمثل كان الفلسطينون يضعون ثقتهم فى رفات البغل الذى كان أهداه الأب «إسحق» لملكهم «أبيمالك»، علامة على العهد بين إسرائيل وبين شعبه. لكن «داود» انتزع هذه الرفات بالقوة منهم.

لكن «داود» كان عادلاً، بقدر ما كان جريئاً. ولقد كان نقض هذه العهود التى قطعها الآباء بعيداً كل البعد عن تفكيره، لكنه قبل أن يخرج لحرب الآراميين والفلسطينيين أمر السنهدرين بأن يحقق فى دقة فى مزاعمهم. وتبين أن مزاعم الفلسطينيين ليس لها أساس من الصحة فلم يكونوا هم ذرية الفلسطينيين الذين قطعوا العهد مع «إسحق»، إذ كانوا قد هاجروا من «قبرص» بعد ذلك بكثير. أما الآراميون فلم يكن لهم حق إذ كانوا هم الذين نقضوا العهد أولاً، وذلك تحت حكم ملكهم «كوشان».



«أخيطـو فيل»

من بين جلسـاء «داود» ومـسـتـشـاريه، كـان «أخـيطوفـيل» يحظى بمكانة متميزة، وكان يمت بصلة قرابة للملك، إذ كانت «بنت شوعة» حفيدته. وكانت حكمة «أخيطوفيل» حكمة سامية، إذ كانت نصائحه تتوافق دائماً مع مشورة الأوريم والتومِّيم.. كما لم يكن علمه يقل قدراً عن حكمته.. ولهذا فلم يكن «داود» يتردد فى الأخذ بتوجيهاته، حتى وإن كان «أخيطوفيل» حينها شابا يافعاً، إذ مات وهو فى الثالثة والثلاثين من عمره. وكان عيبه الوحيد هو قلة ورعه وإخلاصه، وكان تلك هى القشة التى قصمت ظهره فى النهاية، إذ دفعته إلى الانضمام إلى «أبشالوم» فى تمرده ضد «داود». وبذا ضاع منه أيضاً نصيبه فى العالم الآتى.

وكان سبب سلوكه هذه الطريق المهلكة إيمانه بالنجوم وغيرها من علامات الفلك التى أخطأ فى تفسيرها على أنها نبوءات عن توليه الملك، بينما كانت تشير فى الحقيقة إلى ما كُتِب لذرية «بنت شوعة» حفيدته من تقلد السلطان. وهكذا، مدفوعاً بتصديقه هذه النبوءات الخاطئة، أخذ يستحث «أبشالوم» فى مكر ودهاء ليرتكب جريمة خفية، وذلك لكيلا يستفيد أبشالوم من تمرده شيئاً.. إذ على الرغم من أنه سيكون سبباً فى زوال حكم أبيه، فلقى هو نفسه جزاء الموت عقاباً له على تدنيسه لشرف أسرته، ومن ثم ينفتح الطريق أمام «أخيطوفيل» للجلوس على العرش.

وقد كانت العلاقة بين «داود» و«أخيطوفيل» علاقة متوترة، حتى من قبل

أن يتمرد «أبشالوم» على «داود». فقد كان «أخيطوفيل» يحمل فى قلبه الضغينة تجاه «داود» عندما قام فى يوم واحد بتعيين ما لا يقل عن تسعين ألفاً فى المناصب المختلفة، متجاهلاً «أخيطوفيل» بالمرة.

وقد حدثت واقعة عجيبة فى ذلك اليوم..

فعندما قام الكهنة بحمل التابوت المقدس لينقلوه من «جبع» إلى «أورشليم»، طاروا فى الهواء ثم سقطوا على الأرض فى عنف. وعند ذلك التفت الملك إلى «أخيطوفيل» يطلب منه النصح والمشورة فى هذه الورطة الكبيرة.

فأجابه «أخيطوفيل» ساخراً:

- «اسأل رجالك الحكماء الذين عيَّنتهم للتو فى مناصبهم!!».

فتلفَّظ «داود» بلعنةٍ على كل من يعرف العلاج ويمتنع عن ذكره.. وعندها خاف «أخيطوفيل» على نفسه وأخبر «داود» بأن عليه أن يقرِّب قرباناً عن كل خطوة خطاها الكهنة. ففعل «داود» ما نصحه به الرجل.

وعلى الرغم من أن النصيحة كانت فعالة، فلم تقع كوارث أخرى من التابوت المقدس، فإن «أخيطوفيل» لم يكن مخلصاً فى نصيحته، إذ كان يعلم السبب الحقيقى فى وقوع هذه الكارثة ولكنه أخفاه عن «داود».. فقد كان السبب الحقيقى فى حدوث ما حدث هو أن «داود» قد وضع التابوت على العربات بدلاً من أن يحمله الكهنة على أكتافهم، حسب أمر الرب.

* * *

كذلك تجلَّت عداوة «أخيطوفيل» لداود فى المناسبة التالية..

إذ عندما كان «داود» يحفر أساسات الهيكل، وجد «شقفة» على عمق ألف وخمسئمة ذراع...

وعندما هم «داود» برفعها، صاحت الشقفة:

ـ «لا تفعل ذلك! لا يمكنك القيام بذلك!!».

فسألها «داود» متعجباً:

ـ «ولِمَ؟!».

فأجابته:

ـ «لأننى مستقرة فوق الهاوية».

سألها «داود»:

ـ «ومنذ متى ذلك؟».

فأجابته:

ـ منذ الساعة التى نطق فيها الرب بالوحى من على جبل سيناء قائلاً: «أنا الرب إلهك»، فاهتزت الأرض واضطربت وغاصت متجهة إلى الهاوية، فأنا هنا فوق الهاوية من ساعتها لأسد فتحتها».

ورغم ذلك رفع «داود» الشقفة فارتفعت مياه الهاوية وكادت تغرق الأرض.

وكان «أخيطوفيل» يقف بجواره، ففكر فى نفسه وقال:

ـ «الآن سيلقى «داود» مصرعه وسأكون أنا الملك».

وعند ذلك قال «داود»:

ـ «من يعرف كيف يوقف الطوفان فلا يفعل، فإنما سيؤدى بنفسه للهلاك».

فأسرع «أخيطوفيل» وأمر بنقش اسم الرب على الشقفة ثم أمر بإلقائها فى الهاوية وفى الحال بدأت مياه الهاوية تتراجع.. إلا أنها غاصت على عمق كبير جدّاً خشى «داود» معه أن تفقد الأرض ماءها فأخذ يغنى وينشد مزامير «الصعود» الخمسة عشر لكى يرفع الماء لأعلى مرة أخرى.

وبالـرغم مـن ذلك فـقـد تحـقـقت لعنة «داود» وأنهى «أخـيطوفـيل» حـيـاته بشنق نفسه...

وفى آخر وصاياه كتب القواعد الأخلاقية الثلاثة التالية:

١ ـ إياك ومخالفة من يكون فى برج سعده.

٢ ـ إياك والتمرد على بيت «داود» الملكى.

٣ ـ إذا تصادف أن جاء «عيد الخمسين» فى يوم أحد، فأبذر القمح.

وقد ورثت الأجيال التالية نزراً يسيراً من حكمة «أخيطوفيل»، وإن كان من مصدرين مختلفين أشد الاختلاف، وهما: من خلال «سقراط» تلميذه، ومن خلال كتاب الحظ الذى كتبه «أخيطوفيل» بنفسه.



«يـــوآب»

كان «يوآب» الجندى المقاتل، على النقيض التام من «أخيطوفيل».. فقد كان «يوآب» الذراع اليـمنى لداود. وقـد قـيل إنه لو لـم يقم «يوآب» بقـيـادة جيـوش «داود»، لما وجد «داود» متسعاً من الوقت لدراسـة التوراة. وقـد كـان «يوآب» هو النمـوذج المثـالى للبطل اليـهودى الحـقيـقى، إذ كـان يتـميـز على أقـرانه بالعلم والتقـوى والصـلاح. وكان بيتـه يبقى مفتوح الأبواب على مصاريعها أمام كل آتٍ، كما كانـت الحمـلات العسكرية التى قـادها خيـراً ومنفعـة لجميع الشعـب.. وكان الشعب يدين له بما شهده من رفاهية ونعيم، بل والأهم من ذلك، أنه كان يهتم بأمر العلماء إذا كان هو نفسه رئيس السنهدرين.

* * *

كان «يوآب» مهتماً بتحليل شخصيات الرجال وآرائهم. وعندما سمع قول الملك «داود»: «كـمـا يشـفق الوالد ويحنو على أولاده، فـإن الرب يحنو على المتقين». عبَّر عن دهشته البالغة من تشبيه محبة الرب للمتقين بمحبة الأب لأولاده، وليس بمحـبـة الأم لهم... إذ أن المعـروف أن حب الأم لأولادها أقـوى وأنها أكثـر استـعداداً للتضحـية من أجلهم. وهكذا فقـد أبقى «يوآب» عينيه مفتوحتين ليرى ويتأكد إن كانت الحقائق المشاهدة فى الواقع تؤيد رأى «داود».

وفى إحدى رحلاته تصادف أن مر على بيت رجل عجوز فقير كان له اثنا عشر طفلاً، يرعاهم العجوز جميعاً وإن كان عن إعسار وضيق ذات يدٍ من عمل وكد يده. وعرض «يوآب» على الرجل أن يبيعه أحد أطفاله لينتفع بثمنه

ويستطيع الإنفاق على بقية أولاده، لكن الرجل رفض عرض «يوآب» فى حدة وسرعة. وعند ذلك اقترب «يوآب» من الأم وعرض عليها مئة دينار ذهبى مقابل واحدٍ من أطفالها.. وفى البداية رفضت الأم إغراءه، لكنها استسلمت له فى نهاية المطاف. وعندما عاد الرجل فى المساء إلى بيته قسم الخبز إلى أربع عشرة قطعة، لنفسه ولزوجته ولأبنائه.. لكنه عندما قام بتوزيع القطع تبيَّن غياب أحد أطفاله فأصر على أن تخبره زوجته بالحقيقة وأين ذلك الولد. وتحت ضغطه وتهديده لها، اعترفت له الأم بالحقيقة وأنها قد باعت الولد أثناء غيابه. وعندها لم يقرب الرجل طعاماً ولا شراباً ثم هب من نومه فى الصباح الباكر عازماً على إعادة المال إلى «يوآب» وقتله إن استلزم الأمر، لاستعادة وليده. وبعد الكثير من المناوشات، وبعدما هدده الرجل بالقتل، وافق «يوآب» على إعادة الولد لأبيه، وصاح قائلاً:

ـ «لقد كان «داود» محقا عندما شبَّه حب الرب للمتقين بحب الأب لأبنائه!. فها هو الرجل العجوز المسكين كان مستعدا للقتال حتى الموت من أجل واحد من أولاده الاثنى عشر الذين لا يكاد يقدر على إعالتهم.. بينما باعته لى أمه وجلست فى بيتها راضية مطمئنة!!».

* * *

من بين جميع أعماله البطولية، كان الأبرز استيلاؤه على عاصمة العماليق. فقد ظلت صفوة الجيش الإسرائيلى ـ وكان عددهم اثنى عشر ألفاً ـ يحاصرون المدينة مع قائده «يوآب» طوال ستة أشهر كاملة.. دون نتيجة. ثم بدأ الجنود يتذمرون ويطلبون من قائدهم العودة إلى بلادهم بدلاً من هذا الحصار الذى لا معنى له.

لكن «يوآب» ذكَّرهم بأن انسحابهم لن يجلب عليهم الخزى والعار وحسب، ولكنه سيشجع الوثنيين على الإغارة عليهم. ثم اقترح عليهم أن يقذفوه إلى داخل المدينة مستخدمين المنجنيق ثم ينتظروا أربعين يوماً. فإذا انتهت الأربعون

يوماً ورأوا الدماء تتدفق من أبواب المدينة، فستكون هذه علامة لهم على أنه لا يزال حيا.

وافق الجنود وتم تنفيذ الخطة.. وأخذ «يوآب» معه ألف قطعة من المال مع سيفه، فلما قذفوه بالمنجنيق سقط فى بناء بيت إحدى النساء الأيامى، ففقد وعيه وسحبته ابنة المرأة إلى الداخل. وبعد قليل استعاد «يوآب» وعيه وتظاهر بأنه من عماليق وكان أسيراً لدى بنى إسرائيل الذين قاموا برميه إلى داخل المدينة على أمل أن يسقط سقطة عنيفة فيموت. ولأنه كان مزوداً بالمال، فقد أنفقه بسخاء على المرأة وابنتها فأحسنتا معاملته وألبستاه ثياب العماليق.

وبعد عشرة أيام، خرج يوآب مرتدياً ثياب العماليق، وأخذ يتجول فى المدينة ليستطلع أحوالها ويتعرف على نقاط القوة والضعف فيها. وبعد ذلك ذهب إلى أحد الحدادين ليصلح له سيفه الذى كان قد انكسر من جراء سقوطه داخل المدينة، وعندما تناول الرجل سيف «يوآب» وتفحصه ارتد مذعوراً إلى الخلف، إذ لم يَرَ فى حياته سيفاً مثله. وعند ذلك حاول خَداع يوآب ـ فصنع له سيفاً مزيفاً.. وما كاد «يوآب» يمسك بالسيف المزيف إلا وانشطر إلى نصفين.. ثم تكررت الحكاية مع سيف ثان.. وثالث. وفى النهاية تمكن من وضع سيف لم ينشطر فى يد «يوآب» الذى تناوله فى رضا ثم سأل الحداد:

ـ «من تحب أن أقتل بهذا السيف؟».

فأجابه الرجل:

ـ «يوآب قائد جيش الإسرائيليين».

فأجابه «يوآب» ساخراً:

ـ «فأنا هو».

وقبل أن يدرك الرجل ما يحدث، استدار «يوآب» على عقبه فى سرعة البرق وضرب الرجل ضربة شقه بها نصفين. ثم هرول خارجاً وذبح خمسمئة

من العماليق، كان قد قابلهم فى طريقه، ولم يفلت واحد منهم ليشى به عند أهل المدينة. وعند ذلك انتشرت الشائعات فى المدينة بأن «أزموديوس» ملك الشياطين يُعْمِل سيفه بين أهل المدينة ويذبح منهم أعداداً كبيرة..

وبعد عشرة أيام أخرى، قضاها «يوآب» معتكفاً فى بيت مضيفتيه، خرج «يوآب» مرة أخرى وأعمل سيفه فى العماليق إلى درجة أن التصق سيفه بيده وتجمد فى يده مؤقتاً فلم يستطع إفلات السيف منها. وعند ذلك هرول مسرعاً إلى بيت الأيم وابنتها ليصب ماءً ساخناً على يده ليحرر السيف منها.

لكن المرأة قابلته فى الطريق وصاحت به:

- «أيها الخؤون!! تأكل خبزنا وتشرب ماءنا ثم تقتل رجالنا!».

وعندما لم يجد «يوآب» بداً من قتل المرأة. وما كاد سيفه يلمس المرأة إلا وانفكت عقدة يده وأفلت السيف من يده، إذ كانت المرأة حُبْلَى فى جنين فشق السيف بطنها وسالت دماء الجنين.. والمعروف أن دماء الأجنة هى التى تحل السيف المعقود باليد(1).

وبعدما ذبح «يوآب» الآلاف، وبعدما كاد الإسرائيليون الرابضون بالخارج ييأسون من نجاة قائدهم ويستعدون للنواح عليه، رأوا الدماء تتدفق من بوابات المدينة..

فصاحوا جميعاً فى صوت واحد:

- «اسمع يا إسرائيل الرب إلهنا إله واحد».

فارتقى «يوآب» قمة برج عالٍ وصاح قائلاً:

- «لن يخذل الرب شعبه!».

وعندها دبت الحماسة فى نفوس الإسرائيليين وطلبوا الإذن ببدء الهجوم على المدينة والاستيلاء عليها. ثم عندما بدأ «يوآب» ينزل عن على قمة البرج،

(1) هذا فى عقيدة اليهود الدموية وفى شريعتهم الشيطانية!!

رأى ستة أعداد من أحد المزامير منقوشة على قدمه، وكان أولها يبدأ هكذا:

«الرب يسمع لك فى يوم محنتك، واسم إله يعقوب حاميك».

وفيما بعد أضاف «داود» ثلاثة أعداد أخرى وأكمل المزمور.

ثم انقض الجنود الإسرائيليون على المدينة واستولوا عليها ودمروا معابد الوثنيين التى كانت فى المدينة، وذبحوا جميع سكانها فيما عدا ملكها الذى أحضروه لابساً تاج ملكه وأوقفوه أمام «داود».



تقوى «داود» وخطيئته

لا إنجازاته العظيمة فى الحروب ولا حظه السعيد الذى لازمه طوال حياته، حوَّلا «داود» عن طريقه المستقيم أو غيَّرا أسلوب عيشه. وحتى بعدما صار ملكاً للشعب، ظل مواظباً على الجلوس عند قدمى معلِّميْه «عيدا» اليائيرى و«مفبوشت» الذى كان يستفتيه دائماً فيما يعن له من أمور الدين، حتى يتأكد دائماً من سيره على هدى الشريعة. وكان «داود» ينتهز كل لحظة من وقت فراغه للتعلم والصلاة. وكان يُقْنِع نفسه بالاكتفاء فقط «بستين نَفَساً» من النوم. وكان، فى منتصف كل ليلة، تبدأ أوتار قيثارته ـ التى صيغت من شعر الكبش الذى ضحى به «إبراهيم» على جبل المريا ـ فى الاهتزاز فيوقظ صوتها «داود» الذى ينهض من فوره ليجتهد فى دراسة التوراة.

وبجانب دراسة التوراة، فقد كان تأليف المزامير وتلحينها يستهلك جزءاً كبيراً من وقت «داود» بطبيعة الحال. وقد ملأ الغرور قلبه عندما أكمل سفر المزامير، وصاح قائلاً:

ـ «يارب العالم! هل هناك مخلوق آخر فى هذا الكون مدحك مثلى؟».

وعندها أتى إليه ضفدع وقال له:

ـ «لا يملأنَّ الغرور قلبك هكذا.. فأنا نفسى قد ألفتُ مزامير أكثر منك، كما أن كل مزمور أنشدته ضربت عليه ثلاثة آلاف مثل».

لكن، وإن كان الغرور قد أصاب «داود» هكذا، فإن ذلك لم يدم إلا للحظات. إذ كان بصفة عامة مثالاً فى التواضع. وكانت العملات التى سكها

تحمل على أحد وجهيها عصا راعى الغنم وعلى الوجه الآخر صورةً لبرج «داود». كما كان يمشى فى تواضع وخشوع، وكأنه مازال راعياً للغنم.

وقد بلغ من تقوى «داود» أنه كان مستجاب الدعاء، لدرجة أنه لو دعا بأنه تسقط نجوم السماء على الأرض لفعلت. وكان من الطبيعى أن يستخدم ملك فى مثل تقواه أول غنائم يحوزها من حروبه فى تنفيذ ما عزم عليه من قبل ببناء بيت لعبادة الرب. لكن فى ذات الليلة التى فكر فيها «داود» فى بناء الهيكل، قال الرب لناثان النبى:

- «أسرع بالذهاب إلى «داود».. إنى لأعلم أنه رجل متسرع، فما يكاد تعن له فكرة إلا ويبادر بتنفيذها، ولا أحب أن يستأجر العمال لبناء الهيكل، ثم يُحْبط أمله فيعود يشتكى منى. كما أنى أعلم أنه رجل يلزم نفسه بالوفاء بما نذر من عمل صالح، وأريد أن أوفر عليه مشقة اللجوء إلى السنهدرين لإحلاله من نذره».

فلما وصلت الرسالة إلى «داود» بدأ يرتجف ويقول:

- «ويحى!.. لقد وجدنى الرب غير مستحق لإقامة هيكله!».

لكن الرب أجابه قائلاً:

- «لا.. بل إن الدم الذى أرقته أعتبره دم قربان، لكننى لا أبالى إن شيدت الهيكل، لأنه سيكون خالداً وغير قابل للتدمير».

فرد «داود» متعجباً:

- «وماذا فى ذلك؟ ألن يكون ذلك رائعاً!؟».

فأجابه الرب:

- «إنى أعلم أن بنى إسرائيل سوف يرتكبون الخطايا والمعاصى.. وسوف أنزل غضبى على الهيكل، لينجو بنو إسرائيل من الهلاك. ومع ذلك فلسوف أثيبك على نواياك الطيبة بما تستحق. فلسوف يدعى الهيكل باسمك، حتى

وإن كان سليمان هو بانيه».

كان كل تفكير «داود» منصباً على كل عمل طيب وصالح. وقد كان من الرجال المعدودين الذين لم يكن لنوازع الشر عليهم من سلطان. ولم يكن بطبيعته ميَّالاً لارتكاب فاحشة كالتى اشتملت عليها علاقته مع «بنت شوعة». لكن كان الرب نفسه هو الذى دفعه لارتكاب هذه الفاحشة لكى يقول للخطاة: «اذهبوا إلى «داود» وتعلموا منه كيف تتوبون».

كذلك ليس من الإنصاف أن يدان «داود» بالإسراف فى القتل ولا بالزنا.. فقد كانت هناك ظروف مخففة[١]. ففى تلك الأيام جرت العادة على أن يعطى الجنود - الذين يخرجون إلى الجبهة للقتال - لزوجاتهم كتاب طلاق لا يسرى مفعوله إلا إذا لم يعودوا من الحرب. وهكذا، فعندما قتل «أوريّا» الحثى فى ميدان القتال، أصبحت زوجته «بنت شوعة» طالق منه رسميّاً. أما عن موت زوجها، فلا يمكن إلقاء اللوم كله فى موته على عاتق «داود»، إذ أن «أوريّا» نفسه قد استحق عقوبة الموت برفضه أمر الملك له بأخذ راحته فى بيته.

بالإضافة إلى ذلك فإن «بنت شوعة» كانت مكتوبة زوجة لداود من البداية، لكن الرب ولكى يعاقبه على وعده لأوريا الحثى بأن يزوجه من امرأة إسرائيلية - قد جعله يتعرض أولاً لمحن وتجارب عديدة.



(١) الظروف المخففة هى التى تدفع القاضى لتخفيف الحكم الصادر على المجرم.

تمرُّد «أبشالوم»

لكن ـ من بين كل العقوبات التى عاقب بها الرب «داود»، كان أقساها عليه وأشدها هى تمرد ابنه فلذة كبده ضده.

وقد كان «أبشالوم» هائل الحجم لدرجة أن أى رجل عملاق ضخم يرى نفسه كالذبابة أمام «أبشالوم». وأما شعره العجيب، فإن ما ورد عنه فى الكتاب المقدس لا يعطى فكرة كافية عن طوله غير العادى. ولأن «أبشالوم» كان قد نذر نفسه للرب، ولأن نذره هذا كان نذراً أبديا، ولأن شعره كان ينمو بغزارة غير عادية، فإن الشريعة قد أجازت له قص شىء يسير منه كل أسبوع. وهذا النذر «اليسير» الذى قصه من شعره كان يزن مئتى شاقل!!

* * *

أعد «أبشالوم» لتمرده فى مكر ودهاء..

فقد زوَّر كتاباً ملكيا باسم أبيه يعطيه الحق فى اختيار اثنين من الشيوخ فى كل مدينة لكى ينضما إليه. وهكذا حمل هذا الكتاب وطاف به كل أرجاء فلسطين. وكان يدخل كل مدينة فيتوجه فوراً إلى أبرز رجلين فيها وأعلى رجالها مكانةً، فيريهما كتاب أبيه المزور ويدعوهما للانضمام إليه، مؤكداً لهما أنه ما اختارهما إلا لمعزتهما عنده. وهكذا استطاع أن يجمع حوله رؤساء مئتى بلاط، فلما تم له ذلك أعد وليمة عظيمة ورتب الرجال بحيث يقف واحد من حاشيته بين كل اثنين من هؤلاء الرجال ليقنعهما بالانضمام إلى «أبشالوم» فى تمرده ضد أبيه. لكن هذه الخطة لم تنجح نجاحاً كاملاً ـ لأن هؤلاء الرؤساء،

وإن كانوا قد وقفوا فى صف «أبشالوم»، فإنهم كانوا يتمنون فى أعماق قلوبهم انتصار «داود».

ولما علم داود أن أنصار ابنه كانوا يتعاطفون مع «داود» سرا، وأن أصدقاءه قد ظلوا مخلصين له، تعزَّى فى محنته وخفت أحزانه قليلاً. وأيقن فى قرارة نفسه أنه لو بلغت الأمور الأسوأ، فإن «أبشالوم» سوف يشفق على أبيه.. على الأقل.

ومع ذلك فقد كان يأس «داود» فى البداية لا حدود له، حتى إنه كاد يكفر بالرب ويتحول إلى عبادة الأوثان..

وعندما دنا منه صديقه «هوشيا الأرخى» وقال له:

ـ «سيتعجب الناس من أن ملكاً مثلك يعبد الأوثان».

فأجابه «داود» محزوناً:

ـ «وهل المفروض أن يُقتل ملك مثلى على يد ابنه؟ إنى لأفضل أن أعبد الأصنام على أن يتهم الناس الرب بأنه كان السبب فى محنتى هذه، ومن ثم يسبون الرب ويجدفون على اسمه».

فوبخه هوشيا قائلاً:

ـ «ولماذا تتزوج من أسيرة؟».

فرد «داود»:

ـ «وما الخطأ فى ذلك؟ إن الشريعة تبيح لنا ذلك».

فعارضه هوشيا قائلاً:

ـ «لكنك تجاهلت العدد الذى بعده مباشرة.. والذى يحذر من أن ثمرة زواج كهذا ستكون ابناً عاصيا عاقاً ومتمرداً على والده».

ولم يكن هوشيا الصديق المخلص الوحيد لداود، فقد هرع بعض أصدقاؤه

لنجدته على غير توقع منه، مثل «شوبه» بن «ناحاش» وهو الملك العمونى «حنون» الذى كان ألد أعدًاء «داود» فى البداية، ثم صار حليفاً له. كذلك فوجئ «داود» بإسراع صديقه برصلّى لنجدته وقت الشدة، إذ لم يكن هذه الصديق يتمتع، بصفة عامة، بأخلاق حسنة.

* * *

وقد مات «أبشالوم» ميتة بشعة، إذ عندما انحشر بين أغصان شجرة البلوط وهم بقطع شعره بسيفه، رأى الجحيم قد فغر فاه من تحته واستعد لابتلاعه، ولذا فقد فضَّل أن يبقى معلقاً هكذا بين أغصان الشجرة حتى يموت، على أن يسقط فى هاوية الجحيم. وقد كان «أبشالوم» يستحق أن يتعذب أشد العذاب عند موته، عقاباً له على جرائمه، ولهذا فهو واحد من اليهود القلائل الذين حرموا من نصيبهم فى العالم الآتى.

ويقيم «أبشالوم» فى الجحيم حيث يتولى مسئولية سبع أمم وثنية فى القسم الثانى من الجحيم. وفى كل مرة يجلس فيها ملائكة الانتقام للفصل بين الأمم، يخطر ببالهم أن ينزلوا بأبشالوم العقاب الذى يستحقه».

لكن فى كل مرة يهتف بهم هاتف سماوى قائلاً:

- «لا تعاقبوه.. لا تحرقوه.. فهو إسرائيلى وابن عبدى «داود» ولذا يجلس «أبشالوم» على عرشه ويعامل المعاملة التى يستحقها أى ملك.

وعندما مات «أبشالوم» لم يترك ذرية من بعده، إذ مات أبناؤه الثلاثة وابنته الوحيدة فى حياته عقاباً له على إحراقه لأحد حقول «يوآب».



التكفير عن خطيئة «داود»

لم تكف كل هذه المعاناة التى عاشها «داود» للتكفير عن خطيئته..

وقد قال له الرب ذات مرة:

- «إلى متى تظل خطيئتك هذه مخفية ولا تكفِّر عنها؟ بسببك تم تدمير مدينة «نوب» وكهنتها.. وبسببك نُبِذ «دواغ» الأدومى من جماعة المتقين.. وبسببك تم ذبح «شاؤول» وأبنائه الثلاثة..! ما الذى تريده الآن؟ أن يهلك آل بيتك، أو تُسَلَّم أنتَ نفسك إلى أيدى أعدائك؟».

وعندها اختار «داود» المصير الأخير..

وذات يوم، بينما كان «داود» يصطاد، تنكر الشيطان فى هيئة غزالة وأخذ يغريه بمطاردته متوغلاً أكثر وأكثر فى أراضى الفلسطينيين حيث تعرَّف عليه إشبى العملاق أخو «جالوت» خصمه اللدود. وعند ذلك أمسك به العملاق ورماه فى معصرة خمر فكاد «داود» يلقى حتفه بأبشع ميتة، لولا أن غاصت الأرض من تحته بمعجزة فأفسحت له مكاناً بعيداً عن حجر المعصرة، فنجا بذلك من الموت.

لكن محنته دامت وظلت كما هى... واحتاج إلى معجزة أخرى ليتم إنقاذه. وفى تلك الساعة كان «أبيشاى» ابن عم «داود» يتجهز لاستقبال السبت، إذ حدثت هذه المحنة للملك فى عصر الجمعة قرب حلول ليلة السبت. وعندما صب «أبيشاى» الماء لنفسه ليغتسل، لاحظ فجأة وجود قطرات من الدماء فيه..

وفى تلك اللحظة أفزعته حمامة طارت فجأة ووقفت قريباً منه وأخذت تنتزع ريشها باكية مولولة.

وعند ذلك صاح «أبيشاى» قائلاً:

- «إن الحمامة هى رمز بنى إسرائيل.. إذاً فلابد أن «داود» ملك إسرائيل فى محنة!».

فلما هرول إلى بيت الملك ليطمئن عليه ولم يجده تأكدت مخاوفه فانطلق لكى يبحث عن «داود» وقرر أن يمتطى صهوة أسرع حيوان وجده، وكان مطية الملك الخاصة. لكن كان عليه أولاً أن يحصل على موافقة حكماء الشعب على ركوب جواد الملك، إذ أن الشريعة تحرِّم على أى واحد من الرعية استخدام شىء يخص الملك.. ولم يكن يبرر الاستثناء من هذه الشريعة، سوى الخطر المحدق بالأمة الإسرائيلية.

وما كاد «أبيشاى» يمتطى صهوة جواد الملك، إلا ووجد نفسه فى أرض الفلسطينيين، إذ أن الأرض قد طويت من تحته بمعجزة..! وقابل الرجل «عرفة» أم العمالقة الأربعة وكادت تقتله لولا أن تفادى الضربة وعاجلها بضربة قضت عليها. فلما وجد العملاق إشبى نفسه فى مواجهة خصمين، غرس حربته فى الأرض ورفع «داود» عالياً فى الهواء لكى يسقط على سن الحربة فتخترق أحشاءه ويموت. لكن فى نفس اللحظة التى رمى فيها العملاق «داود» فى الهواء ظهر «أبيشاى» ونطق الاسم الأعظم فبقى «داود» معلقاً بين السماء والأرض. وعندما سأل «أبيشاى» الملك «داود» عن سبب ما هو فيه وأجابه بأنه قد دعا الرب بأن يجعله يقع فى يد عدوه بدلاً من أن يهلك آل بيته، أمره «أبيشاى» بأن يعكس دعوته ليدعو الرب له بإنقاذه، ففعل «داود» وانضم إليه «أبيشاى» فى الدعاء وتلفَّظ بالاسم الأعظم فسقط «داود» على الأرض سليماً لم يمس. وعندما علم العملاق بمقتل أمه خارت قواه فانقض عليه «داود» و«أبيشاى» وذبحاه.

البــلايـــا

من بين المصائب التى حلت بداود، تلك البلايا التى ضربت فلسطين فى عهده، وأحس بأنه كان السبب فيها جميعاً بخطيئته التى ارتكبها. وفى البداية كانت المجاعة التى كانت من الشدة والقسوة حد أنها حسبت من بين أقسى وأشد عشر مجاعات ستحدث من أيام آدم إلى زمن المسيا. وفى أول عام حلت فيه هذه المجاعة، ما أمر «داود» بإجراء تحقيق موسع ليتأكد من عدم ممارسة عبادة الأصنام فى البلاد وبسببها ضرب القحط البلاد.

لكن خاب ظنه..

وفى العام الثانى تفقد الأحوال الأخلاقية لملكته، إذ أن الفسق والفجور فى المملكة، يجلبان نفس العقوبة التى تجلبها عبادة الأصنام. لكن، خاب ظنه هذه المرة أيضاً..

وفى العام الثالث اهتم بفعل الخيرات، فلربما قصَّر الشعب فى هذه النقطة واستحقوا هذه البلوى بسبب ذلك.. لكن خاب ظنه للمرة الثالثة. وعند ذلك سأل «داود» ربه عن سبب هذه البلوى...

فقال له الرب:

ـ «ألم يكن «شاؤول» ملكاً تم مسحه بالزيت المقدس؟ ألم يبطل عبادة الأصنام؟ أليس رفيق «صموئيل» فى الفردوس؟ ومع ذلك فكلكم تقيمون داخل أرض إسرائيل، بينما يقيم هو خارجها». وعلى الفور توجه «داود» مع علماء

الشعب وأعيانه إلى «يابيش جلعاد» ونبش قبرى «شاؤول» وابنه «يوناثان» ثم حمل رفاتيهما فى موكب مهيب وطاف بهما فى جميع أرض إسرائيل متوجهاً إلى ميراث سبط «بنيامين»، حيث دفن الرفات هناك.

وهكذا تأثر الرب بهذا الحب الكبير الذى أظهره الشعب لملكهم الراحل فأنهى المجاعة التى قصمت ظهر البلاد.

* * *

وهكذا تم التكفير عن الخطأ فى حق «شاؤول»...

لكن بقيت خطيئة «شاؤول» نفسه فى تعاملاته مع الجبعونيين الذين اتهموه بقتل سبعة منهم. وسأل «داود» الربَّ عن سبب عقابه لشعبه الذى اختاره من أجل «حفنة» من المتهودين..

فأجابه الرب:

- «إذا لم تقرِّب إليك البعيدين عنك، سيبتعد عنك القريبون منك». ولكى يرتاح الجبعونيون ويشفوا غليلهم، طلبوا قتل سبعة من آل بيت «شاؤول» وحاول «داود» استرضاءهم مبيِّنًا لهم أنهم لن يستفيدوا شيئاً من قتل هؤلاء السبعة، وعرض عليهم إعطاءهم الذهب والفضة بدلاً من ذلك. لكن الجبعونيين رفضوا فى إصرار ما عرضه عليهم «داود».

فلما أدرك قساوة قلوبهم صاح قائلاً:

- «لقد أنعم الرب على بنى إسرائيل بثلاث خصال: الرحمة والطهر والكرم. ولا يمتلك الجبعونيون أولى هذه الخصال، ولذا فلابد أن يُقْصَوْا من جماعة إسرائيل».

* * *

تم تحديد السبعة الذين سيقتلون من ذرية «شاؤول» بأن أمرت ذريته كلها بالمرور من أمام تابوت الشريعة، فإذا تَسَمَّر منهم واحد أمام التابوت فلم

يستطع التحرك، يكون هو المكتوب عليه أن يقتل.. وكاد «مفيبوشت» أن يكون واحداً من هؤلاء السبعة، لولا أن نفد بأعجوبة بفضل دعاء «داود» له، إذ كان يحظى بِمَعزَّة خاصة لدى «داود»، ليس فقط لأنه ابن صديقه العزيز «يوناثان»، ولكن باعتباره كذلك معلمه الذى تعلم التوراة على يديه.

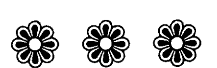
وقد كان لهذه النهاية المؤسفة التى وقعت لذرية «شاؤول» أثر عظيم.. إذ أن جميع الوثنيين لما شاهدوها صاحوا قائلين:

- «ليس إله مثل إله إسرائيل! وما من أمة مثل أمة بنى إسرائيل! لقد اقتص إلههم للمتهودين البائسين من أولاد ملوكهم!!».

أما «داود» نفسه فكانت خطيئته تتمثل فى أنه لم يساعد شعبه أثناء المجاعة، بالرغم من أنه مدين بثروته لهم، فعندما عاد من قتال «جالوت» أهدته نساء بنى إسرائيل حليهن الذهبية والفضية التى خزَّنها لبناء الهيكل ولم يقربها، حتى فى أيام المجاعة.

ولهذا فقد قال له الرب:

- «لقد أحجمت عن إنقاذ البشر من الموت لكى تدخر أموالك للهيكل..! إذاً فوحياتك لن تبنى الهيكل.. وليبنينه «سليمان»، لا أنت!!».



مــوت «داود»

ذات مرة ناشد «داود» الربَّ ليخبره بالوقت الذى سيموت فيه، لكن الرب لم يستجب له لأنه قد كتب من قبل ألا يعلم أحد من البشر مسبقاً الوقت الذى يموت فيه. ومع ذلك فقد كشف له الرب عن أمر واحد، ألا وهو أنه سيموت وهو فى السبعين من عمره وفى يوم سبت.

فلما عرف «داود» ذلك طلب من الرب أن يموت فى يوم جمعة.. لكن الرب رفض هذا الطلب كذلك، إذ أن الرب، حسبما قال له، يفضِّل اليوم الذى يقضيه «داود» فى دراسة التوراة، على ألف قربان محروق يقدمها «سليمان» فى الهيكل.

ثم طلب «داود» من الرب أن يميته فى يوم أحد.. لكن طلبه رُفض، لأن الرب قال له إن ذلك سيكون تعدياً على حقوق «سليمان».. إذ لا ينبغى أن يتداخل عهد ملك من الملوك مع عهد ملك آخر.

وعندئذٍ قرر "داود" أن يقضى كل يوم سبت فى دراسة التوراة، حتى لا يكون لملاك الموت عليه سلطان، إذ أن ملاك الموت لا يستطيع ذبح إنسان أثناء قيامه بتنفيذ أوامر الرب. وهكذا كان على ملاك الموت أن يلجأ إلى المكر والخديعة لكى يستحوذ على روح «داود»!!

ففى يوم سبت، وكان أيضاً يوم «خمسين»، وكان «داود» منهكماً فى دراسة التوراة فسمع صوتاً فى الحديقة، فنهض واقفاً لينزل من على سلالم قصره إلى الحديقة ليعرف مصدر الصوت وسببه. وما كاد يضع قدمه على السلالم،

إلا واضطربت فتعثر «داود» وسقط قتيلاً. وكان ملاك الموت قد أحدث هذا الصوت لكى يقطع «داود» دراسته للتوراة فيتمكن ملاك الموت منه.

لكن، ولأن "داود" قد مات فى يوم سبت، فلم يتمكن أحد من رفع جثته ودفنها. وقد أحزن ذلك أهله كثيراً إذ ظلت جثته ملقاة فى الحديقة تحت أشعة الشمس الحارقة.. لكن «سليمان» استدعى عدة نسور وأمرها بأن تخيم فوق جثة أبيه وتظللها بأجنحتها لتقيها من حرارة الشمس.

لكن موت "داود" لم يعنِ انتهاء مجده وعزه.. وإنما تغيرت الصورة فقط. ففى عالم السموات، كما على الأرض، يحل "داود" بين الأوائل. والتاج الذى يلبسه على رأسه يشرق بنور يطغى على كل ما عداه، وكلما يخرج من الفردوس ليَمْثُل أمام الرب، تهرول الشموس والنجوم والملائكة والسيرافيم وغيرها من الكائنات العلوية لمقابلته.

وفى البلاط السماوى شُيِّد له عرش من النار هائل الحجم، وقد وضع فى مقابل الرب مباشرة. ويجلس «داود» على هذا العرش يحيط به ملوك بيت «داود» غيرهم من ملوك إسرائيل، وينشد مزاميره بصوت عذب رخيم.

وفى نهاية إنشاده يترنم قائلاً:

- «الرب يحكم إلى أبد الآبدين..

فيجيبه الملاك الريس «ميتاترون» ومن معه قائلين:

- «قدوس.. قدوس.. قدوس... رب الجنود!».

وهذه هى الإشارة التى ينتظرها الهايوت المقدسة والسموات والأرض، لكى تنضم إلى موكب الحمد.

وفى النهاية ينشد ملوك بيت "داود" قائلين:

- «سيكون الرب ملكاً إلى الأبد فوق الجميع، وفى هذا اليوم سيكون الرب واحداً، واسمه واحداً»..

آل بيت «داود»

كان لداود ست زوجات، من بينهن «ميكال» ابنة «شاؤول» التى يوردها الكتاب المقدس باسم «عجِلة». وقد كانت «ميكال» ذات جمال فتان، كما كانت زوجة محبة رؤوما. ولم تكتف فقط بإنقاذ "داود" من بطش أبيها، ولكن عندما أمرها أبوها بأن تتزوج من رجل آخر تظاهرت بالموافقة وتزوجت زواجاً صوريا كيلا تثير غضب أبيها الذى رأى أنه فى حل من ارتباطه مع "داود" لأسباب كان يظنها قانونية.

وقد كانت "ميكال" طيبة بقدر ما كانت جميلة.. فقد أظهرت عطفاً ورحمةً بأطفال أختها "مَيْرَب" جعل الكتاب المقدس يحكى عن «أبناء ميكال الخمسة الذين ولدتهم «لعدريئيل». لكن «عدريئيل» لم يكن زوجها، وإنما كان زوج أختها ولكنها ربت له أولاده وعاملتهم كما تعامل الأم أطفالها. وقد كانت «ميكال» مثالاً للتقوى، ولكن الرب قد عاقبها بقسوة برغم ذلك، بسبب سخريتها من «داود» عندما رقص وغنى للرب. ولذلك فقد بقيت لفترة طويلة دون إنجاب أطفال، وفى النهاية عندما ولدت طفلاً تركته وماتت عند ولادته.

لكن كانت أهم زوجات «داود» هى «أبيجايل» التى جمعت بين الجمال والحكمة ومواهب النبوة. وتشكل «أبيجايل» مع «سارة» و«راحاب» و«أستير» أجمل أربع نساء فى التاريخ. وقد بلغ من جمالها أن الشهوة كانت تغلب الرجال لمجرد التفكير فيها!!

وقد أظهرت «أبيجايل» براعتها فى أول لقاء لها مع «داود» عندما سألته

سؤالاً يتعلق بالطقوس الدينية وهى فى منتهى الهدوء، بالرغم من أنها كانت تفور قلقاً على زوجها «نابال». لكن «داود» رفض الإجابة على سؤالها متحججاً بأنه سؤال يجاب عليه بالنهار لا بالليل. لكن «أبيجايل» ردت عليه بأن تنفيذ حكم الإعدام فى أى شخص لابد أن يتم بالنهار، وليس بالليل. وحتى لو كان «داود» محقا، فإن الشريعة تلزمه بأن ينتظر طلوع النهار لكى ينفذ الحكم الذى حكم به على «نابال». فلما اعترض «داود» عليها بأن متمرداً مثل «نابال» ليس من حقه مناقشة الإجراءات القانونية، اعترضت عليه قائلة:

- «لكن «شاؤول» مازال هو الملك، ولم يعترف بك جميع الناس ملكاً بعد».

وكاد «داود» يأسرها فى ذلك اليوم بسبب جمالها الفتان، لولا أن تراجع بسبب ما يعلمه من تقواها وورعها. وقد حذرته قائلة له: «إن ذلك لن يكون لك» ملمِّحة بذلك إلى أن يومه لم يحن بَعْدُ، ولكن سيأتى يوم ستلعب فيه امرأة، هى «بنت شوعة»، دوراً قاتلاً فى حياته.

* * *

من بين أبناء «داود» يستحق «أدونياه» ابنه من «حجيث»، ذكراً خاصا، وهو الذى طالب بالعرش دون حق. وكان الرجال الخمسون الذين كان قد أعدَّهم ليسيروا من أمامه قد أعدوا أنفسهم ليقوموا بدور المنادين، وذلك بأن قطع كل واحد منهم طحاله (!!) ولحم باطن قدمه. وقد تجلَّى بوضوح أن «أدونياه» هذا لم يكن مناسباً بالمرة لجلال الملك، من خلال عدم مناسبة تاج «داود» لرأسه. وقد كان هذا التاج يتمتع بميزة خاصة هى أنه يناسب دائماً الوريث الشرعى للعرش.





الفصل الخامس

«سليمــان»



سليمان يعاقب «يوآب»

وهو فى الثانية عشرة من عمره، خلف «سليمان» أباه «داود» ملكاً على إسرائيل. وكان اسمه الحقيقى «يديدياه» أى «صديق الرب»، ولكن كان يُكْنى بسليمان لأن السلام الحقيقى إنما حل فى عهده. وكان له كذلك ثلاثة أسماء أخرى: «بَنِ» و«ياقح» و«عثيئيل».

وقد دعى باسم «بَنِ» لأنه «بانى» الهيكل.. وُسِمِّى باسم «ياقح» لأنه كان حاكماً للعالم كله، بينما دَعى باسم «عثيئيل» لأن الرب كان معه.

وقد تم إخضاع التمرد الذى كان «أدونياه» بن «داود» يريد القيام به، فى حياة «داود»، وذلك بأن قام «داود» بمسح «سليمان» ملكاً أمام الناس. وفى تلك المناسبة ركب «سليمان» على بغلة متميزة، وكانت متميزة لأنها لم تكن نتاج تهجين بين الحمار والمهر، وإنما خلقها الرب خصيصاً من أجله.

وبمجرد جلوسه على العرش، شرع «سليمان» يُنَفِّذ التعليمات التى أصدرها له أبوه وهو على فراش الموت، وكان أولها معاقبة «يوآب»، وعلى الرغم من جميع الخصال المتميزة التى كان يتمتع بها «يوآب» ولم يجعل منه القائد الأول لقوات «داود» وحسب وإنما جعلته كذلك رئيساً «للأكاديمية»، فإنه قد ارتكب جرائم فظيعة، وكان لابد أن يكفِّر عنها. فإلى جانب قتله لأبنير و«أمصيا»، ارتكب «يوآب» أخطاءً فى حق «داود» نفسه، إذ كان قادة جيوش «داود» قد اتهموا «يوآب» بأنه قد تخلص من «أوريَّا» الحثى لغرض فى نفسه، فأسرع يدافع عن نفسه بإلقاء التهمة على «داود». وقد كان بإمكان «داود» أن يصفح

عنه، ولكنه أراده أن يكفِّر عن خطاياه فى هذا العالم، لكى ينجو من العقاب فى العالم الآخر.

ولما علم "يوآب" أن «سليمان» يريد إعدامه، فَرّ واحتمى بالهيكل... بالرغم من أنه كان يعلم تماماً أنه لن ينجو بذلك، إذ أن يد العدالة تطول المجرم، ليس فقط فى الهيكل، ولكن ولو كان حتى محتمياً بمذبح الرب. ولكن ما كان يريده «يوآب» هو أن تعقد له محاكمة عادية، ولا يُقتَل بأمر من الملك وحسب. ففى الحالة الأخيرة ستُصادر ثرواته ويقضى على حياته.. بينما كان يريد أن يترك لأطفاله ما يغنيهم عن ذل السؤال.

وعن ذلك أرسل له «سليمان» من يخبره بأنه لا ينوى مصادرة ممتلكاته. وعلى الرغم من أن «سليمان» كان مقتنعاً فى قرارة نفسه بذنب «يوآب»، فإنه قد أتاح له الفرصة للدفاع عن نفسه..

وقد سأله الملك:

ـ «لماذا قتلت «أبنير»؟».

يوآب: «كنت أثأر منه لأخى «أشائيل» الذى ذبحه «أبنير».

سليمان: «لكن «أشائيل» هو الذى كان يريد قتل «أبنير» أولاً، ولذا فقد كان «أبنير» يدافع عن نفسه!».

يوآب: «كان بإمكانه إذاً أن يسيطر عليه ويدفع شره بدلاً من قتله؟».

سليمان: «ما كان يقدر على القيام بذلك».

يوآب: «ماذا!! إن «أبنير» سدد حربته فى ضلع «أشائيل» الخامس، ثم تأتى لتقول لى أنه لم يكن فى مقدوره تفادى قتله!؟».

فأجابه سليمان:

ـ «حسناً.. حسناً.. لنتجاهل قضية «أبنير» الآن.. لكن.. لماذا ذبحت أمصيا»؟».

فرد «يوآب»:

- «لأنه تجاهل أوامر الملك «داود» له بإعداد جيش فى غضون ثلاثة أيام، ولذا فقد كان يستحق الموت عقاباً له على مخالفة أوامر الملك».

فرد «سليمان»:

- «لكن «أمصيا» لم يستطع تنفيذ أوامر الملك لأن علماءنا وفقهاءنا أفتوه بأن أوامر الملك ينبغى تجاهلها إذا اشتملت على تجاهل لدراسة التوراة.. وقد كان ذلك ينطبق على الأوامر التى صدرت لأمصيا. لكن..».

وصمت سليمان هنيهة ثم استطرد قائلاً:

- «.. لكن لم يكن «أمصيا» هو الذى تمرد ضد الملك، وإنما كان أنت نفسك الذى تمردت ضد الملك إذ كنت على وشك الانضمام إلى «أبشالوم».. وإذ كنت قد تراجعت فى اللحظات الأخيرة، فإنما كان ذلك لأنك خفت من قبضة «داود» القوية».

فلما رأى «يوآب» أنه لن يفلت، كلم «بناياه» المكلف بتنفيذ حكم الإعدام فيه.. وقال له:

- «قل للملك، إذا كان سيقتلنى فلا يمكن له أن يوقع علىَّ عقوبتين فى وقت واحد.. فليحل أولاً اللعنة التى لعننى بها.. "داود" وذريته بسبب قتلى "أبنير". فإذا لم يفعل، فلا يمكنه قتلى».

وأدرك سليمان فيما بعد عدالة مطلب "يوآب".. إذ أعدمه على هذه الحال فتحولت لعنته إلى ذرية سليمان نفسه، فأصيب "رحبعام" ابنه بمرض، وأصيب «عُزِّيا» بالبرص، بينما اضطر «آسا» لاستدانة عصا ليتوكأ عليها فى شيخوخته.. وُقتِل «يوشيا» التقى بسيف فرعون، بينما عاش يكنيا متسوِّلاً.

* * *

زواج «سليمان»

كان الضحية التالية الذى لقى نفس مصير «يوآب» هو «شمعى بن جيرا»، والذى أثارت معاملته لداود مشاعر السخط والغضب عند أهل بيته. وكان موته نذير شؤم على "سليمان" نفسه.. إذ طوال حياة "شمعى" - الذى كان معلم «سليمان» - لم يجرؤ «سليمان» على الزواج من ابنة فرعون. لكن، بعد أن مات «شمعى» وتزوجها «سليمان»، نزل الملاك الرئيسى «جبريل» من السماء وغرس بوصةً فى قلب البحر، ثم ترسبت حول هذه البوصة طين يوماً بعد يوم.. إلى اليوم الذى نصب فيه «يربعام» العجول الذهبية، بُنَى كوخ صغير على الجزيرة المتكونة من ترسب الطين حول البوصة.. وكان هذا الكوخ أول مَسْكنٍ فى «روما»[1]..

* * *

أقام «سليمان» حفل زواجه من الأميرة المصرية فى نفس اليوم الذى تم فيه تكريس الهيكل. وكان الفرح بزواج الملك أكبر من الفرح باكتمال الهيكل. وكما يقول المثل: «الكل ينافق الملك». وعند ذلك قرر الرب أن يخطط لتدمير «أورشليم». وكان الأمر كما قال النبى: «لطالما كانت هذه المدينة مثيرة لغضبى وسخطى من يوم شيدوها إلى هذا اليوم!».

وفى ليلة الدخلة أخذت الأميرة المصرية ووصيفاتها يعزفن على آلاف الآلات الموسيقية التى كانت قد أحضرتها معها من بلدها، وأخذن يترنمن باسم

(١) روما تمثل فى التراث والعقيدة اليهودية مملكة الشر التى ستدمر دولة إسرائيل.

أصنامهن مع كل نغمة تعزف على واحدة من هذه الآلات. ولكى تُبْقى الملك تحت تأثير سحرها، فرشت الأميرة فوق سريره فراشاً مطرزاً ومرصعاً بالماسات واللآلئ التى كان تلمع وتتلألأ مثل النجوم، فكان الملك كلما أراد النهوض من نومه عند الفجر، يرى هذه اللآلئ والماسات فيحسب أنها النجوم وأن الوقت مازال ليلاً.. فيواصل نومه».

وهكذا ظل «سليمان» لا ينهض من نومه ولم يقرِّب قربان الصبح فى يوم تكريس الهيكل.. وحزن الشعب لذلك كثيراً إذ لم يكن فى استطاعة أحد فتح أبواب الهيكل لأن «سليمان» كان يحتفظ بمفاتيحه تحت وسادته..

وعند ذلك ذهب الناس إلى أمه «بنت شوعه» واشتكوا لها..

فذهبت أمه إليه وعنّفته قائلة:

- «فى كل مرة كانت تحبل فيها واحدة من زوجات أبيك، كانت تدعو الرب ليرزقها بولد ليكون ملكاً من بعده. لكننا كنا ندعو الرب ليكون ولداً صالحاً جديراً بموهبة النبوة. احذر يا بنىَّ ولا تضيِّع كل قوتك على النساء ولا تسر فى الطريقة التى تؤدى إلى هلاك الملوك!».

* * *

وإلى جانبٍ زواجه من «الأغيار»[1] الذين لم يتحوَّلوا إلى اليهودية إلا لأغراض فى نفوسهم، فإن «سليمان» قد خالف شريعتين من الشرائع الموحى بها. فقد كان لديه جياد كثيرة، وهو ما لا يجوز لملك يهودى عمله.. كما أنه كوَّم الذهب والفضة فى خزائنه، وهو ما تمقته الشريعة جدّاً. وفى أيام حكم «سليمان» توافر الذهب والفضة فى غزارة بلغت أن كان الناس العاديون يصنعون أوانيهم منها، بدلاً من صنعها من المعادن الرخيصة.

ولكل ذلك.. كان عليه أن يكفِّر عن خطاياه، وعلى نحو مؤلمٍ للغاية.

(١) الأغيار فى عرف اليهود هم من ليسوا من بنى إسرائيل.

حكمة «سليمان»

لكن.. لا تقارن ثروة سليمان ومُلكه بما كان يتمتع به من حكمة.. فعندما ظهر له الرب فى «جبعون» فى رؤيا رآها بالنهار، وأذن له بأن يطلب منه ما شاء - وهى نعمة لم يُنَعِّم بها على أحد سوى «آحاز» ملك يهوذا، ولم يوعد بها أحد فى المستقبل إلا المسيح وفى العالم الآتى كذلك - اختار "سليمان" أن يطلب الحكمة، عالماً أنه إن حاز الحكمة فسيأتيه كل شىء من تلقاء نفسه.

وتشهد الكتب المقدسة نفسها على أن حكمته كانت أعظم من حكمة «إيُتان الإذرحى» ومن حكمة «هامان» و«كلكول» و«درده»، أبناء «محول». ويعنى ذلك أنه كان أكثر حكمة من «إبراهيم» و«موسى» و«يوسف».. بل وأكثر حكمة من «آدم» نفسه!!

* * *

وكان أول دليل على حكمة "سليمان" العظيمة ما تجلَّى فى الحكم الذى أصدره فى قضية المرأتين اللتين تنازعتا على رضيع وادَّعت كل منهما أنها أمه، وذلك بأن أمر بشقه نصفين وإعطاء كلِّ امرأة نصفاً، فقبلت إحداهما ورفضت الأخرى وطلبت أن يعطيه كله للأولى.. وعند ذلك حكم «سليمان» بأن الرضيع هو ابن المرأة التى رفضت قطع ابنها إلى نصفين. وكان الرب قد شاء أن تحدث هذه الواقعة بالخصوص لكى تتجلى حكمة "سليمان" أمام الجميع، ولاسيما أمام شيوخ بنى إسرائيل الذين ظنوا فى البداية أنه لن يستطيع الفصل فى هذه القضية لأنه شاب، وتحسَّروا على ما آلت إليه حال إسرائيل إذ

تولَّى أمرها شاب يافع أخضر العود.

وفى حياة أبيه «داود»، حسم «سليمان» قضية خطيرة ومعضلة. فقد حدث أن كان هناك رجل ثرى أرسل ابنه فى رحلة عمل إلى أفريقيا، ثم مات الأب أثناء غياب الابن فاستولى أحد عبيده على كنوزه وأمواله وطرد جميع العبيد الآخرين وادَّعى أنه هو ابن الميت، وأن الابن الحقيقى ما هو إلا عبد. وعندما عاد الابن وعرف ما حدث عرض قضيته على «داود» الذى لم يستطع إنصافه، إذ لم يكن فى مقدور الابن إحضار شهود يشهدون لصالحه. وعندما علم الطفل «سليمان» بالقضية ابتكر حلاً فريداً لها.. فقد أمر بتدخين[1] جثة الأب الميت ثم إحضار عظمة من عظامه ودهنها بعينة من دماء كلا الطرفين المتنازعين. وعند ذلك تشرَّبت العظمة دم الابن الحقيقى بينما ظل دم الابن المزيف عالقاً على سطحها، وفى الحال حكم «سليمان» لصالح الابن الحقيقى.

* * *

وبعد جلوسه على العرش، حدث نزاع غريب بين بعض الورثة الذين لجأوا إلى سليمان للفصل بينهم. وكان «أزموديوس» ملك العفاريت قد قال لسليمان ذات مرة:

- «أنت أحكم إنسان، لكننى سأريك شيئاً لم تره من قبل».

ثم غز الأرض بإصبعه فانبعث منها رجل له رأسان، وكان من «القينيين» الذين يعيشون تحت الأرض وهم مختلفون فى طبيعتهم وعاداتهم اختلافاً تامّاً عن المقيمين فوق الأرض. ولما حاول القينى العودة إلى موطنه تحت الأرض ظهر أنه لا يستطيع، ولا حتى «أزموديوس» نفسه استطاع أن يفعل له شيئاً. وهكذا استسلم القينى للأمر الواقع وبقى على سطح الأرض واتخذ لنفسه زوجة وأنجب سبعة من الأبناء، كان أحدهم يشبه أباه فى أن له رأسين مثله. وعندما مات القينى نشب بين أبنائه نزاع على كيفية توزيع تركته فيما بينهم، إذ زعم الابن ذو الرأسين أن له نصيبين فى تركة أبيه.

(١) التدخين هو حرق الجثة بتعريضها لحرارة الدخان لإبقاء العظام سليمة.

واجتمع سليمان بأعضاء السنهدرين ووجدوا أنفسهم فى ورطة كبيرة.. إذ لم يعرفوا لأمر كهذا سابقة قد حدثت من قبل يستطيعون أن يقيسوا عليها.

ثم دعا سليمان الربَّ قائلاً:

- «يارب الكل.. عندما ظهرت لى فى «جبعون» وأذنت لى فى أن أطلب ما أشاء لم أطلب ذهباً ولا فضة وإنما طلبت منك أن تهبنى الحكمة وحسب، لكى أستطيع الحكم بين الناس بالعدل».

وسمع الرب دعاءه وفتح عليه..

- وعندما عاد أبناء إلقينى إلى «سليمان» أمر بماء ساخن فصبه على إحدى رأسى الابن المزدوج الرأس، فصرخ الرأسان وتكلم الفمان قائلين:

- «سنموت.. سنموت! أنجدونا! نحن واحد لا اثنين!».

وعند ذلك قرر سليمان أن هذا الابن، ما هو إلا كائن واحد مفرد.



ملكة «سـبأ»

يجب أن نتذكَّر أن «سليمان» كان حاكما، ليس للبشر فقط، وإنما كذلك لوحوش البرية وطيور السماء وللعفاريت والأرواح وأشباح الليل. وكان يعرف لغات هذه المخلوقات جميعاً، كما كانوا يفهمون حديثه.

وذات يوم أكثر «سليمان» من شرب الخمر فلعبت برأسه فاستدعى وحوش البرية وطيور السماء والزواحف والظلال والأطياف والأشباح، لكى يرقصوا أو يغنوا له أمام الملوك والجيران الذين كان سليمان قد دعاهم ليأتوا ويشاهدوا قوته وعظمته. وأخذ كتبة الملك يستدعون الحيوانات والأرواح، كلاً باسمه واحداً وراء الآخر، فحضروا جميعاً من تلقاء أنفسهم دون الاضطرار إلى تقييدهم فى السلاسل أو جرجرتهم أو قيادتهم إلى حيث الملك.

وذات مرة غاب الهدهد عن اجتماع عقده الملك، فبحث عنه خدم الملك فلم يعثروا عليه فى أى مكان. وعند ذلك اشتاط الملك غضباً وأمر بإحضاره ولو من تحت الأرض، ومعاقبته على تلكؤه.

وبعد قليل حضر الهدد وقال:

ـ «مولاى الملك، يا سيد العالم... أصخ إلىَّ واستمع لكلماتى.. منذ ثلاثة أشهر وأنا أفكر فى عمل أعمله ويكون جديراً بعظمتك.. فظللت دون أكل أو شرب طائراً حول العالم كله لأرى وأتأكد إن كانت هناك بقعة لا تخضع لسلطانك. فوصلت إلى مدينة «قطور»، وهى مدينة فى الشرق. وهناك يا مولاى الملك فى هذه المدينة، التراب أغلى من الذهب، بينما الفضة أرخص من

طين الشوارع. ووجدت أشجارها قد نمت من بداية الخليقة وظلت كما هى تسقى بماء يتدفق من جنة عدن.

وهذه المدينة يا مولاى الملك مزدحمة بالرجال الذين يرتدون على رؤوسهم باقاتٍ من زهور الجنة، لكنهم لا يعرفون كيف يقاتلون عدوّاً، ولا كيف يرمون بقوس أو سهم. ووجدت التى تحكمهم امرأة يطلقون عليها «ملكة سبأ». فإذا سر مولاى الملك ذلك سأتمنطق كالأبطال وأطير عائداً إلى مدينة «قطور» فى أرض «سبأ»، وعندما أصل إليها سأقيد ملوكها بالسلاسل وحكامها بالأغلال وأحضرهم جميعاً أذلةً أمام مولاى الملك».

وعندما سمع الملك ذلك سُرَّ من حديث الهدهد وصفح عنه، ثم استدعى كاتبه وأمره بكتابة رسالة علقها فى جناح الهدهد الذى طار وصاح بصوته المعروف وتوجهاً إلى المدينة، وتبعته جميع الطيور.

ثم وصل السرب إلى مدينة «قطور» فى أرض «سبأ».

وعندما وصلت الطيور كان الصبح قد لاح وخرجت الملكة لتصلى وتتعبد للشمس. ثم فجأة حجبت الطيور نور الشمس فرفعت الملكة رأسها فلما رأت ذلك، شقت ثوبها ولطمت خدها. ثم حط الهدهد بالقرب منها وألقى إليها برسالة الملك «سليمان»، فالتقطتها وقرأتها، فكانت كالتالى:

«من الملك سليمان..

سلام عليك وعلى نبلاء مملكتك..

ألا فلتعلمى أن الرب قد جعلنى ملكاً على وحوش البرية وطيور السماء والعفاريت والأرواح والأشباح.. ويأتينى ملوك الشرق والغرب جميعاً معلنين خضوعهم لى واعترافهم بسلطانى. فإذا حذوتِ حذوهم فسأمنحك مجداً لا يدانيه مجد أى ملك من الملوك الذين يجالسوننى. وإلا فسوف أرسل إليك ملوكاً وجيوشاً وفرسان لا قبل لكِ بهم.

وإذا سألتنى من هم هؤلاء الملوك وما هذه الجيوش والفرسان؛ فلتعلمى أن وحوش البرية هى ملوكى وأن طيور السماء هى فرسانى وأن العفاريت والأرواح وأشباح الليل هى جيوشى وفيالقى.

وسوف تخنقك العفاريت وأنتِ على فراشك فى الليل، بينما ستلتهم الوحوش لحمك فى البرية وتنقض الطيور الجارحة على ما تبقى من جيفتك».

فلما فرغت من قراءة الرسالة شقت ثوبها ولطمت خدها مرة أخرى، ثم استدعت شيوخ مدينتها وأمراءها وقالت لهم:

- «ألا تعلمون بما كتبه لى سليمان الملك؟».

فردوا قائلين فى تكبر:

- «ومن «سليمان» هذا؟ إننا لا نعرفه ولا نأبه بمملكته!».

ولكنها استسخفت حديثهم، ثم هرولت فأعدت جميع سفنها وحمَّلتها بجميع أنواع الخشب واللآلئ والأحجار النفيسة، ثم أرسلتها إلى «سليمان» ومعها ستة آلاف شاب وفتاة، ولدوا جميعاً فى نفس العام، وفى نفس الشهر وفى نفس اليوم وفى نفس الساعة، وكلهم طول واحد وحجم واحد، وكلهم يرتدون ثياباً أرجوانية اللون.

ثم أرسلت معهم رسالة إلى الملك «سليمان» كانت كالتالى:

«إن الرحلة من مدينة «قطور» إلى أرض إسرائيل تستغرق سبع سنين. ولأن مولاى طلب منِّى أن أزوره لأعلن له خضوعى، فإنى سأسرع لأكون فى «أورشليم» فى نهاية ثلاث سنين».

* * *

وعندما اقترب موعد وصولها، أرسل «سليمان» «بنانياه» بن «يهويا داع» لكى يستقبلها. وكان «بنانياه» فى سرعة البرق فى سيره. فلما اقترب من الملكة ولمحته ترجَّلت عن عربتها لتحييه، فسألها «بنانياه» عن سبب نزولها من العربة.

فسألته:

- «ألستَ أنت الملك سليمان؟».

فأجابها قائلاً:

- «لا.. بل أنا أحد خدمه».

وعندئذٍ استدارت إلى نبلائها وقالت لهم:

- «إذا لم تكونوا قد شاهدتم الأسد، فها أنتم على الأقل قد شاهدتم عرينه - وإذا لم تكونوا قد شاهدتم الملك سليمان، فها أنتم على الأقل قد شاهدتم بأعينكم جمال الذى يقف فى حضرته».

ثم قادها «بنانياه» إلى حيث الملك «سليمان» الذى كان قد ذهب وجلس ليستقبلها فى بيت من الزجاج. وعندما دخلت الملكة إلى البيت، خدعها بصرها وظنت أن الملك يجلس على الماء فخطت إليه كاشفة ثوبها عن ساقيها لكيلا يبتل بالماء.

فلما فعلت ذلك، لاحظ الملك أن ساقيها بهما شعر، فقال لها:

- «جمالك جمال امرأة.. لكن شعر ساقيك يشبه شعر سيقان الرجال!! إن الشعر زينة للرجل، وفضيحة للمرأة!!».

فقالت له الملكة:

- «لطالما سمعتُ عنك وعن حكمتك البالغة.. تُرَى هل ستجيبنى إن أنا سألتك الآن عن مسألة ما؟».

فأجابها قائلاً:

- «الرب يهب الحكمة لمن يشاء، وهو أحكم الحاكمين... سلينى عمَّا يحلو لك».

فقالت:

ـ «سبعة تخرج وتسعة تدخل.. واثنان يطعمان وواحد يأكل».

فأجابها:

ـ «سبعة هى أيام حيض المرأة، وتسعة هى شهور حملها.. واثنان يطعمان هما ثدياها وواحد يأكل هو رضيعها».

فهزت رأسها وقالت:

ـ «حقا.. إنك لحكيم!».

ثم عادت فسألته:

ـ «امرأة قالت لابنها «أبوك أبى وجدك زوجى وأنت ابنى وأنا أختك؟».

فأجابها:

ـ «هذه هى ابنة لوط ولا شك التى قالت ذلك لابنها»[1].

ثم عادت بعد ذلك فأحضرت أمامه عدداً من الذكور والإناث المتطابقين تماماً فى الهيئة والثياب، ثم طلبت منه أن يميِّز بينهم. وعند ذلك أشار إلى خصيَّه فأحضروا له كمية من الجوز وعدداً من سنابل القمح المشوية، ثم أمر بمناولتها للشباب، وعند ذلك مد الذكور أياديهم فتناولوها دون أن يخافوا من حرارة السنابل المشوية، بينما ارتدت الفتيات قفازاتها أولاً.

عند ذلك قال لها «سليمان»:

ـ «هؤلاء هم الذكور.. وهؤلاء هم الإناث».

ثم أحضرت أمامه عدداً من الرجال، بعضم غلف لم يختتنوا، والبعض الآخر مختتنون، ثم طلب منه التمييز بينهم.. وعند ذلك أشار «سليمان إلى الكاهن الأكبر فأحضر تابوت العهد فانحنى أمامه عدد من الرجال وأضاءت وجوههم بنور الشكينة، بينما خر آخرون على الأرض.

---

(١) هم يعتقدون أن نبى الله لوطاً عليه السلام قد زنى بابنتيه وأنجب منهما، قاتلهم الله أنَّى يؤفكون!!

فالتفت إليها سليمان قائلاً:

- «انحنى المختتنون.. وانبطح الغلف».

ثم أخذت تسأله أسئلة أخرى عديدة أجاب عليها جميعاً..

الملكة: «ولم يولد ولم يمت.. فمن هو؟».

سليمان: «رب العالمين».

الملكة: «أرض لم تر الشمس إلا مرة واحدة؟».

سليمان: «الأرض التى جمع الرب عليها الماء فى بدء الخليقة، وأرض البحر الأحمر فى يوم عبور بنى إسرائيل».

الملكة: «غرفة لها عشرة أبواب، إذا فُتح واحد انغلقت تسعة؛ وإذا انفتحت تسعة انغلق واحد؟».

سليمان: «الرَّحِم.. والأبواب العشرة هى فتحات الإنسان: عيناه وأذناه ومنخراه وفمه وفتحة شرجه وفتحة بوله وسرَّته.. فعندما يكون الطفل جنيناً تنفتح سرته وتغلق جميع فتحاته الأخرى، لكن عندما يولد تنغلق السرة وتنفتح الفتحات التسعة الأخرى».

الملكة: «وهو حَىٌّ لا يتحرك.. فإذا قطعت رأسه تحرك؟».

سليمان: «السفينة فى البحر».



بناء الهيكل

يأتى الهيكل العظيم الذى بناه "سليمان" كأهم الإنجازات التى حققها فى عهده. وقد ظل "سليمان" لفترة طويلة متردداً فى تحديد المكان الذى سيبنيه فيه. لكن هتف به هاتف سماوى وأمره بأن يذهب إلى جبل «صهيون» ليلاً إلى حيث كان حقل يملكه أخوان، كان أحدهما أعزبَ وفقيراً بينما كان الآخرُ مُنْعَماً عليه بالثروة الواسعة والذرية الكثيرة الطيبة، وكان الأخ الفقير يذهب ليلاً تحت ستر الظلام ليضيف من قمحه على قمح أخيه الغنى، إذ كان يظن أن أخاه يحتاج إلى المزيد من القمح بسبب كثرة عياله. وبنفس الطريقة كان الأخ الغنى يذهب ليضيف من قمحه إلى قمح أخيه الفقير، ظاناً أنه لا يجد ما يسد رمقه.

وعندما ذهب «سليمان» إلى هذا الحقل وشاهد هذه المحبة الأخوية الفائقة، أيقن أن هذا الحقل هو أفضل مكان يقام فيه هيكل الرب.. ولذا فقد اشتراه منهما.

* * *

وبعدما اشترى سليمان الأرض التى سيبنى عليها الهيكل، أعد كل الأدوات والمواد اللازمة لبنائه واجتهد فى تشييده اجتهاداً كبيراً، حتى إن بناءه لم يستغرق سوى سبع سنوات، وهى نصف المدة التى استغرقها بناء قصر الملك، على الرغم من أن الهيكل كان أعظم وأكبر من القصر. وقد كافأه الرب على حماسه وهمته فى تشييد الهيكل، فلم يمنع عنه عونه. ففى السنوات السبع

التى استغرقها بناء الهيكل، لم يمت واحد من العمال الذين استعملهم «سليمان»، ولا حتى مرض واحد منهم. ولأن العمال قد ظلوا بكامل صحتهم وعافيتهم من أول يوم فى بناء الهيكل إلى آخر يوم، فقد ظل عملهم وأدواتهم على حالتها الابتدائية من الإتقان والجودة.

لكن بعدما تم بناء الهيكل تماماً، مات هؤلاء العمال كلهم، خشية أن يقوموا ببناء مبنى مماثل له من أجل آلهة الوثنيين. أما عن أجرهم على العمل، فسوف يتلقون أجورهم كاملة غير منقوصة فى العالم الآتى، كما أن الرب قد كافأ رئيس هؤلاء العمال، واسمه "حيرام"، بأن جعله يدخل الجنة حيا.

وقد تم الانتهاء من بناء الهيكل فى شهر «بول» الذى يُدّعَى الآن باسم «مَرْحيشوان»، لكن الهيكل ظل مغلقاً لفترة تقرب من العام، لأن الرب شاء أن يتم تكريسه فى الشهر الذى ولد فيه «إبراهيم».

ولذلك، فرح أعداء "سليمان" وابتهجوا فى قلوبهم، شماتَةً فيه..

وقالوا:

- «ألم يكن ابن «بتشبع» هو الذى بنى الهيكل؟ فكيف إذاً يدع الرب شكينته تسكن فيه؟».

فلما تم تكريسه ونزلت النار السماوية على مذبحه، أدركوا خطأهم.

* * *

وبمجرد أن تم تشييد الهيكل، ظهرت أهميته للجميع.. إذ أن السيول التى كانت تسقط منذ الفيضان وطوال أربعين يوماً تبدأ مع بداية شهر «مرحيشوان»، قد توقفت لأول مرة.. ثم لم تسقط بعد ذلك.

كما كان فرح الشعب بذلك عظيماً حتى إنهم أقاموا احتفالات التكريس فى «يوم التكفير». ومما زادهم فرحاً على فرح أن سمعوا هاتفاً سماويّاً يقول:

- سيكون لكم جميعاً نصيب فى العالم الآتى».

عرش "سليمان"

يأتى فى المرتبة الثانية بعد الهيكل.. عرش الملك «سليمان».

فلم يصنع أحد من قبل «سليمان» ولا أحد من بعده عملاً فنيا مثل هذا العرش.. حتى إن الملوك الذين كانوا تحت سلطانه عندما رأوه خروا ساجدين وحمدوا الرب.

وكان هذا العرش مغطى بذهب خالص من «عُفِير»، ومرصع بأحجار البريل ومطعم بالرخام ومرصع بالزمرد والياقوت واللآلئ وجميع أنواع الجواهر. وكان على درجة من درجاته الست يوجد أسدان ونسران من الذهب.. إذ يوجد أسد ونسر على اليسار، وأسد ونسر على اليمين.. وكانت التماثيل تقف وجهاً لوجه بحيث أن المخلب الأيمن للأسد يواجه الجناح الأيسر للنسر، بينما كان المخلب الأيسر للأسد الآخر يواجه الجناح الأيمن للنسر الآخر. بينما كان يوجد على القمة الكرسى الملكى، وكان مستدير الشكل.

* * *

كان يوجد على أول درجة من درجات العرش ثور رابض وأسد فى مقابله.. وعلى الدرجة الثانية ذئب وَحَمل.. وعلى الثالثة فهد وشاة.. وعلى الرابعة نسر وطاووس.. وعلى الخامسة صقر وديك.. وعلى السادسة باز وعصفور... وجميعها قد صنعت من الذهب. وكان يوجد على قمة العرش حمامة تقبض بمخلبيها على باز، إشارة إلى أنه سيجىء وقت ستخضع فيه جميع الشعوب لبنى إسرائيل.

وكان يتدلى على كرسى العرش شمعدان به مصابيح ورمانات وأطباق نشوق ومجامر بخور وسلاسل وسوسنات.. وكلها من الذهب. وكان يمتد من كل جانب سبعة أغصان.

وعلى ذراعى الكرسى من ناحية اليمين كانت توجد تماثيل لآباء العالم السبعة: «آدم» و«نوح» و«سام» و«أيوب» و«إبراهيم» و«إسحق» و«يعقوب».

وعلى الذراعين الأيسرين كانت توجد تماثيل للرجال الأتقياء السبعة فى العالم: «قهات» و«عمرام» و«موسى» و«هارون» و«إلداد» و«ميداد» والنبى «حور».

وكان يتصل بقمة الشمعدان طبق واسع من الذهب مملوء بأنقى أنواع زيت الزيتون، لكى يستعمل فى إضاءة الشمعدان فى الهيكل؛ وكان بأسفل حوض ذهبى مملوء هو الآخر بأنقى أنواع زيت الزيتون، لكى يضاء به الشمعدان الموجود فوق العرش.

وكان الطبق الواسع عليه تمثال الكاهن الأكبر «عالى» بينما كان تمثالاً بنيه «حُفْنِى» و«فينحاس» منحوتة على الصنبورين البارزين من الحوض؛ وكان يوجد تمثالا «ناداب» و«أبيهو» على الأنبوبتين اللتين تصلان بين الصنبورين وبين الحوض.

كان يوجد على الجزء العلوى من العرش سبعون كرسياً ذهبياً لأعضاء السنهدرين، بالإضافة إلى كرسيين آخرين للكاهن الأكبر وللحبر الأعظم. وعندما جاء الكاهن الأكبر لكى يقدم احتراماته للملك، حضر معه كذلك أعضاء السنهدرين وجلس كل منهم فى مكانه عن يمين ويسار الملك، استعداداً للفصل فى قضايا الناس.

وعندما يقترب الشهود من العرش تبدأ آليته فى العمل: إذ تدور العجلات وينحنى الثور ويزأر الأسد ويعوى الذئب ويثغو الحَمَل ويزأر الفهد وتثغو الشاه ويصرخ الصقر ويصيح الطاووس والديك ويصرخ الباز ويغرد العصفور.. وكل ذلك لكى يخيفوا الشهود ويردعوهم عن شهادة الزور.

وعندما صعد «سليمان» لأول مرة على العرش بدأت آلية العرش فى العمل: إذ نهض الثور الذهبى وقاده إلى الدرجة الثانية ثم تركه فى رعاية الحيوانين اللذين يحرسانها واللذين سلماه بدورهما إلى حراس الدرجة الثالثة... وهكذا حتى صعد إلى الدرجة السادسة حيث استقبله النسران ووضعا التاج الذهبى فوق رأسه. ثم يزحف ثعبان عظيم على الدرجات سائقاً الحيوانات أمامه حتى تصعد إلى قمة العرش وتحيط بالملك. ثم تطير حمامة ذهبية نازلة من على عمود العرش ثم تخرج اللفافة المقدسة من الصندوق وتعطيها للملك لكى يطيع أوامر الوحى بأن يحتفظ بالتوراة معه ويقرأ منها فى جميع أيام حياته.. وفوق العرش كانت تتشابك أربع وعشرون كرمة لتشكِّل ظُلَّة فوق رأس الملك، بينما كانت ينبعث من الأسدين الذهبيين أريج عطر أثناء صعود سليمان للجلوس على العرش.

وكانت مهمة البشيرين أن يعملوا دائماً على تذكير «سليمان» بواجباته كقاض وكملك. وعندما يضع الملك قدمه على الدرجة الأولى يذكِّره البشير الأول بألا يتزوج بأكثر من زوجة، بينما يذكره الثانى بألا يكثر من اقتناء الجياد، والثالث بألا يكنز الذهب والفضة، والرابع بألا يظلم فى القضاء، والخامس بألا ينظر إلى الأشخاص، والسادس بألا يقبل هدية وهكذا.



دروس فى التواضع

على الرغم من عظمة «سليمان» وحكمته، فقد كان بحاجة لأحداث تذكِّره بأن الإنسان الفانى ينبغى ألا ينزلق إلى مهاوى الغرور والغطرسة.

* * *

كان لسليمان بساط ثمين تبلغ مساحته ستين ميلاً، وكان يطير عليه ليذهب أينما شاء، حتى إنه كان بمقدوره تناول إفطاره فى «دمشق» وتناول العشاء فى «ميديا» وكان يوجد من بين رجاله «آصف بن برخيا»، لينفذ له أوامره، ومن العفاريت كان يوجد العفريت «رميرات»، والأسد من بين الوحوش، والنسر من بين الطيور.

وذات يوم استحوذ الغرور على «سليمان» أثناء طيرانه على بساطه..

وقال لنفسه:

- «ليس فى هذا العالم أحد مثلى منحه الرب الحكمة والبصيرة والذكاء والمعرفة، بالإضافة إلى جعله حاكماً للعالم كله».

وفى تلك اللحظة اهتز البساط فسقط من فوقه أربعون ألف رجل. وعندها أمر الملك الرياح بالتوقف عن الهبوب وقلقلة البساط..

لكن الرياح ردت قائلة:

- «توقف أنت أولاً عن الغرور وعد متواضعاً للرب.. لكى أتوقف عنا عن الهيجان». وعندها أدرك الملك خطأه وتعديه.

وفى مـرة أخـرى ضل طريقـه حـتى أتى على وادٍ للنمل، أثناء تجـواله. ثم سـمع نملة تأمـر بقـيـة النمل بالإسـراع فى الهـرب، لكيـلا تنسـحق تحت أقـدام «سليـمـان» وجنوده. وعند ذلك توقف الملك واسـتـدعى النملة التى قـالت ذلك لأخواتهـا، وسـألهـا عن سبب قولهـا.. فـأخبـرته أنها ملكة النمل وأخبـرته عن السبب. فلما سـألها الملك عن سؤال آخر، رفضت الإجابة إلا بعد أن يحـملها الملك ويضعها على راحة يده.

فوافق ووضعها فى راحة يده، ثم سألها:

- «وهل هناك من هو أعظم منى فى هذا العالم؟».

فأجابته النملة بالإيجاب فسألها عمن يكون هذا الأعظم من الملك.

فأجابته النملة:

- «أنا أعظم منك».

وعندها ضحك سليمان وسألها متعجباً:

- «أنتِ!! وكيف ذلك!؟».

فردت النملة فى ثقة:

- «لو لم أكن أعظم منك، لما ساقك الرب إلى هنا لتحملنى فوق يدك».

فألقاها «سليمان» على الأرض مذهولاً من إجابتها..

ثم قال لها:

- «ألا تعلمين من أكون؟ أنا سليمان بن داود».

فردت النملة فى ثقة:

- «لكنك من تراب وإلى التراب تعود.. فعلام التكبر!».

* * *

ثم بعد ذلك صادف «سليمان» قصراً عظيماً وحاول دخوله لكنه لم يستطع إذ لم يجد له باباً، فأرسل العفاريت فأخذت تبحث طويلاً ثم وصلت إلى نسر بلغ من العمر سبعمئة عام فسألوه عن ذلك القصر فلم يجدوا لديه جواباً، ولكنه طار إلى نسر آخر أخ له كان أكبر منه سنا وكان وكره فى مكان أعلى، وظن أنه سيكون لديه من العلم ما يمكّنه من إخبارهم عن حقيقة هذا القصر. ولكن هذا النسر الثانى أرسلهم بدوره إلى نسر ثالث أكبر منه سنا كان له من العمر ألف وثلاثمئة سنة. وعندما وصلوا إلى هذا النسر العجوز أخبرهم أنه لازال يتذكر أن أباه قد أخبره ذات مرة بأنه كان لهذا القصر باب ناحية الغرب، لكنه دفن تحت التراب من كر السنين وطول هجره.

عاد العفاريت إلى حيث القصر وأخبروا الملك بما سمعوه فأمرهم بالحفر فوجدوا بالفعل باباً حديديا صدئاً نُقِش عليه التالى:

«نحن سكان هذا القصر عشنا سنوات طويلة فى عز ورخاء ثم اضطرنا الجوع بعد أن ساءت حالنا إلى طحن الجواهر واللآلئ لنصنع منها دقيقاً نصنع منه خبزاً لنأكله.. وهكذا عندما أوشكنا على الموت ورَّثنا هذا القصر لنسور». ثم وجدوا نقشاً ثانياً يذكر تفاصيل هذا القصر الرائع، والمكان الذى تحفظ فيه مفاتيح غرفه.

اتبع «سليمان» التعليمات الموجودة على الباب ودخل إلى القصر وأخذ يستكشف أركانه ووجد أن أجنحته قد صنعت من اللآلئ والأحجار النفيسة. ثم وجد منقوشاً على الأبواب الأمثال الثلاثة التالية:

١ - يا ابن آدم.. لا تدع الزمن يغرك، فلابد أن يأتى يوم تموت فيه وتترك مكانك وتقيم رغماً عنك تحت التراب.

٢ - يا ابن آدم.. لا تعجل فى مشيك وامشِ متمهلاً، لأن الدنيا ترفع أقواماً وتذل آخرين».

٣ - يا ابن آدم.. جهِّز الزاد للطريق، وأعَدَّ طعامك طالما النهار باق، لأنك لن

تبقى على الأرض إلى الأبد، ولا تعرف متى ستموت».

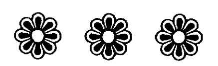
وفى أحد الغرف وجد «سليمان» عدداً من التماثيل، ووجد واحداً من بينها بدا وكأنه حىّ..

وعندما اقترب منه «سليمان»، صاح التمثال قائلاً:

ـ «اهربوا أيها الشياطين! ها قد جاء «سليمان» ليقضى عليكم!».

ثم فجأة حدث هرج ومرج عظيمين بين التماثيل، فنطق «سليمان» بالاسم الأعظم فاستقر كلٌّ فى مكانه.. وسقطت التماثيل وهرب أبناء الشيطان إلى البحر وغرقوا فيه. وتقدم «سليمان» نحو التمثال الذى يبدو حيا وانتزع من خلقه صفيحة فضية نقشت عليها حروف لم يستطع فهمها، لكن أخبر أحد شبان الصحراء الملك بأن هذه الحروف حروف يونانية وأنها تقول التالى:

«أنا «شداد بن عاد» حكمت ألف ألف إقليم، وركبت على ألف ألف جواد، وكان يخضع لسلطانى ألف ألف ملكٍ، وذبحت ألف ألف بطلٍ، وعندما اقترب ملاك الموت منِّى.. صرت بلا حول ولا قوة!».



أزموديـــوس

عندما زاد «سليمان» وتعاظمت ثرواته، نسى الرب وشرائعه.. وأخذ يكثر من الزوجات ويقتنى الكثير من الخيول ويكنز الذهب والفضة.. وعند ذلك وقف «سفر التثنية» أمام الرب وقال له:

- «يارب العالم.. انظر، هاهو «سليمان» يريد أن ينزع حرف الياء منِّى.. إذ أنتَ قد كتبت فىّ: «لا يُكْثِرنَّ الملك من جياده ولا يعدِّد الزوجات ولا يكنزن لنفسه الذهب والفضة»، ولكن «سليمان» فعل كل ذلك!».

وعند ذلك قال له الرب:

- «وحياتك يا سفر التثنية، ليفقدن «سليمان» مئة من ذريته قبل أن يُحْذَف منك حرف واحد».

وهكذا كان..

وكان ذلك على النحو التالى...

أثناء بناء الهيكل احتاج «سليمان» إلى شىء يقطع به أحجار الجبل لكى تناسب المذبح. ولكن لأن الشريعة كانت تحظر استخدام أى أدوات حديدية فى صناعة المذبح، فقد حار «سليمان» فى أمره ولم يدرِ كيف يتصرف. ثم أشار عليه شيوخ الشعب بأن يبحث عن الشامير الذى استخدمه موسى لنقش أسماء الأسباط الاثنى عشر على الأحجار النفيسة التى رصع بها إفود الكاهن الأكبر.

جمع "سليمان" العفاريت وسألهم عن الشامير، لكنهم أخبروه بأنهم لا

يعرفون أين يكون بالضبط. ثم أشاروا عليه بأن «أزموديوس» ملك العفاريت يعلم سر الشامير وأين يكون.

أرسل «سليمان» رَجُله «بنانياه بن يهوياداع» لكى يأتيه بأزموديوس، وأعطى رجله طوقاً نقش عليه الاسم الأعظم مع كرة من الصوف وزق خمر.

وكان "أزموديوس" يعيش فى أحد الجبال ويشرب الماء من بئر مخصوصة كان يغطيها بصخرة عظيمة قبل أن يطير صاعداً إلى السماء لكى يشترك فى المناقشات العلمية التى تجرى فى الأكاديمية السماوية، وعندما يعود يتأكد من أن أحداً لم يشرب من بئره، مستدلا على ذلك بعدم تحرك الصخرة من مكانها..

وذهب «بنانياه» إلى جبل «أزموديوس» ثم توجه إلى البئر وحفر ثقباً فى الصخرة سحب منه ماء البئر ثم صب الخمر ليملأ بها البئر، بدلاً من الماء، ثم اختفى وراء شجرة. وعندما عاد «أزموديوس» وفتح البئر ليشرب دهش إذ رأى فيه خمراً بدلاً من الماء، وكان سبب دهشته أنه وجد كل شىء فى مكانه، أى أن أحداً لم يقترب من بئره..

ووقف «أزموديوس» فترة متحيراً.. فقد كان عطشاناً ولكنه لم يجرؤ على الشرب من الخمر، لأنه يعلم أن الشريعة تنهى عن ذلك. ثم بعد مدة، ألهبه الظمأ واضطر للشرب... شيئاً فشيئاً.. حتى إذا ارتوى وأثرت عليه الخمر، راح فى سبات عميق...

عند ذلك خرج «بنانياه» من مخبأه ووضع الطوق حول عنق «أزموديوس» الذى استيقظ وحاول المقاومة، فقال له بنانياه:

- «إياك! الاسم الأعظم حول عنقك!».

فاستسلم «أزموديوس» للأمر الواقع وجرجره «بنانياه» فى رحلة العودة إلى «سليمان» فى أورشليم.

وفى الطريق أخذ أزموديوس يأتى بتصرفات عجيبة..

فقد ركل نخلة فأطاح بها مقتلعاً إياها من جذورها..

ثم ركل بيتاً وقلبه رأساً على عقب...

ثم كاد يطيح بكوخ امرأة عجوز، لولا أن ناشدته ألا يفعل، فتفادى الكوخ ولكنه كسر للمرأة ساقاً...

ثم صادف رجلاً أعمى فى الطريق فأمسك بذراعه وأوصله إلى حيث يريد.. ثم صادف رجلاً مخموراً ضالاً فى طريقه فأوصله إلى مبتغاه..

ثم قابله موكب عرس فبكى بكاءً مرّاً..

ثم صادف رجلاً يطلب من صانع أحذية أن يصنع له حذاءً يعيش سبع سنوات، فقهقه «أزموديوس» بصوت عالٍ..

ثم صادف ساحراً يستعرض سحره أمام الناس، فانفجر "أزموديوس» فى الضحك...

وأخيراً وصلا إلى «سليمان» الذى سأله عن سبب تصرفاته الغريبة، فأجابه قائلاً:

- «إنى لأحكم على الناس بما فى قلوبهم، وليس من مظاهرهم الخارجية..

فقد بكيت عندما رأيت العرس لأنى أعلم أن العريس سيموت بعد أقل من شهر.. وضحكت من الرجل الذى طلب حذاءً يدوم لسبع سنين لأنه هو نفسه لن يكمل سبعة أيام حيّاً.. وسخرت ضاحكاً من الساحر لأنه يكذب على الناس ويقول لهم إنه سيأتى بالعجائب، بينما يوجد تحت قدميه كنز وهو لا يعلم عنه شيئاً.. وهذا الأعمى الذى أوصلته إلى حيث يريد هو واحد من «الأتقياء الكاملين» ولذا أحببت أن أخدمه..

أما السكران فالكل فى السموات يعلم أنه ليس أشر منه.. ولكنه كان قد

صنع معروفاً ذات يوم، وكان ما فعلته ثواباً لمعروفه».

ثم أخبر سليمان عن مكان الشامير، فأحضره سليمان.

وعلى الرغم من أن «سليمان» لم يأسر «أزموديوس» إلا لكى يحصل على الشامير، فإنه قد استبقاه معه حتى بعدما تم الانتهاء من تشييد الهيكل.

وذات يوم تعجب الملك من أن عملاقاً مثل «أزموديوس» يمكن أن يخضع لسلطان بشر فان مثله.. فأجابه «أزموديوس» بأنه لو نزع «سليمان» الطوق الذى يحمل الاسم الأعظم عن عنقه، فسوف يثبت لسليمان عظمته.

فوافق «سليمان» ونزع عنه الطوق...

فوقف «أزموديوس» أمام «سليمان» وأحد جناحيه يصل إلى السماء، بينما يلمس الآخر الأرض.. ثم التقط «سليمان» وألقاه فطار إلى مسافة أربعمئة فرسخ من أورشليم..

ثم جلس «أزموديوس» على العرش..

وجعل نفسه ملكاً...

بدلاً من «سليمان»...!



الشحـــاذ

وهكذا طُرد «سليمان» من بلده وحُرِم من ملكه وهام على وجهه فى بلاد بعيدة، غريباً بين غرباء، يتسول قوت يومه. ولم تنته مآسيه عند هذا الحد.. وإنما حسبه الناس مخبولاً، إذا لم يكلَّ عن إخبارهم بأنه هو «سليمان» ملك يهوذا العظيم والقوى. وكان أذَل ما تعرض له، عندما قابل شخصاً يعرفه فتذكَّر مواقفه وأحواله معه قديماً.. زادته الذكريات غمّاً على غم وحزناً على أحزان..

فقد قابل «سليمان» فى تجواله رجلاً كان يعرفه فى السابق، وكان الرجل موسراً فدعاه إلى وليمة تكريماً له. وأثناء تناول الطعام أخذ الرجل يحكى له عن ذكريات عرش الملك وعن جلاله وعظمته فهطلت دموع «سليمان» حتى ابتلت منها ثيابه.

ثم قابل واحداً آخر من معارفه، ورغم أن الرجل كان فقيراً ضيق اليد، فقد دعا «سليمان» إلى منزله ليشاركه كسرات الخبز التى يرزقه بها الرب. وعندما ذهب «سليمان» إلى بيت الرجل وجد أن كل ما قدر عليه الرجل المسكين هو تقديم طبق من الخضروات لا يكاد يسد جوعة صبى صغيرا لكن الرجل حاول بكل وسيلة التخفيف عن أحزان «سليمان»..

وقال له:

- «يا مولاى الملك.. إن الرب قد أقسم لداود أنه لن ينزع المُلْك أبداً من بيته، لكن الرب اعتاد أن يؤدب الذين يحبهم إذا ما أخطأوا. لذا فليطمئن

قلبك وكن على ثقة بأنك ستستعيد ملكك فى الوقت المناسب».

ونزلت هذه الكلمات التى تفوه بها الرجل المسكين برداً وسلاماً على قلب «سليمان»، وخففت عنه أكثر مما فعلت الوليمة الفاخرة التى أعدها له من قبل الرجل الغنى.

وصدق المثل القائل:

- «بصلة المحب خروف»!

* * *

ظل «سليمان» طوال ثلاث سنوات يهيم على وجهه منتقلاً من بلد إلى بلد ومن مدينة إلى مدينة، يتسول قوت يومه.. تكفيراً عن خطاياه الثلاث التى خالف بها الشريعة «الزواج من أكثر من واحدة» و«اقتناء الجياد الكثيرة» و«كنز الذهب والفضة»..

ثم رحمه الرب وصفح عنه، كرامةً لأبيه «داود»، وكرامةً للأميرة التقية «نُعْمة» ابنة الملك العمونى، والتى كان الرب قد قرر أن تصير زوجة لسليمان وتحكم فى أورشليم، إذ سيكون «المسيا» من نسلها. ولهذا قاد الرب «سليمان» إلى عاصمة «عمون» حيث عمل غلاماً للطاهى الخاص بقصر الملك، حيث أثبت كفاءة فى عمله جعلت ملك «عمون» يرفعه إلى مقام رئيس الطهاة. وبذا فقد أصبح فى دائرة الأميرة «نعمة» وقريباً منها؛ وما إن وقعت عيناها عليه إلا ووقعت أسيرة حبه.. هو طاهى أبيها. وقررت الأميرة الزواج منه وصممت على قرارها بالرغم من كل الضغوط التى بذلها والداها عليها لكى تختار زوجاً آخر يناسبها جاهاً ومكانةً.. كما ظلت على إصرارها حتى بعدما هددها أبوها بقتل حبيبها..

ثم نفى ملك «عمون» الحبيبين إلى الصحراء، آملاً أن يهلكا فيها من الجوع.

وهام «سليمان» وزوجه «نعمة» على وجهيهما فى الصحراء، حتى وصلا إلى مدينة تقع على شاطىء البحر فاشتريا سمكة ليدفعا عن أنفسهما غائلة الجوع. ولما ذهبت «نعمة» لتطهو السمكة، وجدت فيها الخاتم السحرى الذى يخص "سليمان"، وكان «أزموديوس» قد ألقاه فى البحر.

وعلى الفور وضع «سليمان» الخاتم فى إصبعه فعادت إليه قوته وعاد إليه سلطانه فطار عائداً إلى «أورشليم» وطرد «أزموديوس» الذى كان يجلس على العرش متخذاً صورة الملك سليمان، واستعاد ملكه ومملكته.



الفصل السادس

مملكة يهوذا
ومملكة إسرائيل



انقسام مملكة اليهود

حدث انقسام مملكة بنى إسرائيل إلى مملكتَىْ «يهوذا» و«إسرائيل» بعد موت الملك «سليمان» مباشرة.. ولكن بشائر الانقسام كانت قد تجلَّت قبل ذلك بكثير..

ففى الليلة التى دخل فيها «سليمان» بالأميرة المصرية وتأخر فى النوم فلم يمارس الخدمة المعتادة فى الهيكل، اصطحب «يربعام» معه ثمانين ألفاً من سبط «إفرايم» وذهب إلى الملك فى قصره وعنَّفه بشدة وطلب منه أن يقدم تفسيراً لما حدث.

لكن الرب عاتب «يربعام» قائلاً:

- «كيف تتجرأ على معاتبة ملكٍ من ملوك إسرائيل؟ وحياتك لتذوقن من أسلوب حكمه ولتفعلن مثل فعله!».

وفى مرة أخرى حدث صدام بين «يربعام» وبين «سليمان». وكان سبب النزاع أن «سليمان» كان قد أمر رجاله بإغلاق الفتحات التى كان «داود» قد صنعها فى أسوار أورشليم ليسهل على الحجاج زيارة المدينة. وبذلك اضطر جميع الحجاج للمرور من بوابات المدينة ودفع ضرائب عند الدخول إليها. ثم جمع «سليمان» هذه الضرائب التى حصَّلها من الحجاج وأعطاها لزوجته ابنة فرعون، لتصرف منها على نفقاتها الشخصية. ولما علم «يربعام» بذلك اشتاط غضباً واستجوب الملك عليه علناً أمام الشعب.

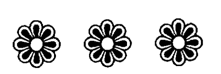
وفى مرات أخرى لم يظهر الاحترام الواجب للملك، إذ كان أبوه من قبله،

وهو شبع بن بيشرى الذى كان قد تمرد على «داود» من قبل، وضللته النجوم والأمارات فظن أنها تدل على أنه سيتقلد الملك والسلطان.. بينما كانت فى الحقيقة تشير إلى هلاكه..

وبينما كان يربعام يتجهز للرحيل عن «أورشليم» إلى الأبد، لكى يفر من وجه الملك سليمان ومن مطاردته له، قابله «أخيَّا» الذى من «شيلوه»، وكان من سبط «لاوى» حاملاً إليه نبوءات إلهية بأنه سيصير ملكاً. ولم يكن هذا النبى «أخيَّا» يحظى بمكانة عالية بسبب تقدمه الكبير فى العمر، إذ كان قد ولد قبل الخروج من مصر بستين سنة على الأقل، ولكن بسبب تقواه البالغة التى دفعت قديساً من القديسين الواقفين أمام «شمعون بن يوهاى» إلى ربط «أخيَّا» بنفسه.

وقد صاح «شمعون» ذات مرة قائلاً:

- «إن سجاياى أنا و«أخيَّا» تكفيان معاً للتكفير عن جميع الخطايا التى ارتكبها البشر من زمن «إبراهيم» إلى زمن «المسيا».!!.



يَـرُبْـعـام

كان «يربعام» تلميذاً حقيقياً لهذا النبى العظيم، «أَخَيَّا» الذى من «شيلوه»، والذى كانت عقيدته صافية فى مثل صفاء ونقاء الثوب الجديد الذى كان «أخيَّا» يرتديه عندما قابل «يربعام» قرب «أورشليم».. كما كان عِلْم «يربعام» يفوق تعليم جميع علماء عصره، فيما عدا النبى «أخيَّا». وكان من عادة النبى أن يناقش مع «يربعام» الحب السرى للرب وغيرها من مسائل التوراة التى لا يعلمها سواهما.

ولو كان «يربعام» قد أثبت استحقاقه لمكانته العالية، لكان عهده قد طال حتى أصبح مساوياً لطول عهد «داود». لكن غروره قاده إلى حتفه.. فقد نصب العجول الذهبية لكى يعبدها الشعب، لكى يصرفهم عن عادتهم فى الحج إلى "أورشليم». وكان "يربعام" يعلم أنه ليس مسموحاً بالجلوس فى الهيكل إلا لذرية "داود" وحده. ولم يكن هناك استثناء ليربعام، ولذا فقد كان عليه أن يبقى منتظراً حتى يدخل «رحبعام» ويأخذ مكانه. وبدلاً من أن يسير «يربعام» فى ظل الملك اليهودى "رحبعام"، دعا الناس إلى عبادة الأصنام، وهو ما جعله صاحب مكانة وقدر وسلطان بينهم.

وقد استخدم «يربعام» مكره ودهاءه الشديدين لكى ينفذ خطته، وأعانه على ذلك ما عُرف به بين الناس من علمه وتقواه. وقد قام بذلك بأن كان يُجْلس رجلاً فاسقاً بجوار آخر تقى، ثم يقول لهما:

ـ «هل توقعان شهوداً على أى شىء أنوى عمله؟».

فيجيبه الاثنان بالإيجاب.

فيسألهما:

- «هل تريدان أن أكون أنا الملك؟».

فيرد الرجلان بالإيجاب كذلك.

فيسألهما من جديد:

- «وتفعلان ما آمركما به مهما كان؟».

فيجيباه أن نعم، فيسألهما:

- «إذا.. أستنتج من ذلك أننى لو أمرتكم بعبادة الأصنام ستفعلان؟».

وعندها يصيح الرجل التقى:

- «لا..! أعوذ بالرب!».

فيرد عليه الفاسق قائلاً:

- «يا رجل! هل تظن ولو لحظة واحدة أن رجلاً مثل «يربعام» يمكن أن يعبد الأصنام؟ إنه يريد فقط اختبار ولائنا له؟».

وهكذا استطاع أن يحصل على دعم أتقى الناس، حتى النبى "أخيًّا» نفسه!!

* * *

وهكذا كسب «يربعام» الناس فى صفه وقادهم لتنفيذ أشر الأعمال فى إسرائيل وتسبب فى انقسام مملكة اليهود إلى مملكتَىْ «يهوذا» و«إسرائيل».. وهو ما لم يقدر أبوه «شبع بن بشِيرى» على فعله أيام حكم «داود» لأن الرب كان يريد أن يتم تشييد الهيكل قبل حدوث هذا الانقسام.

ولم يكتف يربعام بذلك، وإنما سعى لدفع الأسباط العشرة إلى شن الحرب على «يهوذا» و«أورشليم». لكن شعب المملكة الشمالية رفضوا الاعتداء على

إخـوتهم ولا على حـاكم إخـوتهـم الذى هـو من ذرية «داود». وعند ذلك لجـأ «يربعام» إلى شيوخ إسـرائيل فـأحـالوه إلى بنى «بنيـامين» الذين كانوا أشد بنى إسرائيل بأساً فى الحروب؛ لكن البنياميين بدورهم أقسموا برأس «دان» جدهم الأكبر أنهم لن يشتركوا أبداً فى سفك دماء إخوتهم. بل إنهم كادوا يثورون على «يربعام» نفسه، لولا أن أمر الرب بنى «دان» بمغادرة فلسطين.

وغـادر بنو «بنيـامين» فِلَسْطين، وكـانوا ينوون فى البـداية التوجه إلـى مصـر ليقيـموا فيـهـا بعـد أن يسـتولوا عليـهـا من أهلهـا، لـولا أن ذكـرَّهـم أمـراؤهـم بأن الشريعة تحظر عليهم الإقامة فى مصر. كذلك أحجموا عن مهـاجمة الأدوميين والعمونيين والمؤابيين، لأن التوراة تحض على معاملتهم بالحسنى. ثم فى نهاية المطاف قرر بنو «دان» الخروج إلى مصر، لا ليقيموا فيها، وإنما لكى يمروا عبر أراضيها فى طريقهم إلى «أثيوبيا». واستولى الرعب من المصريين عندما علموا باقتراب الدانية منهم فأخرجوا أشد محاربى مصـر بأساً وجعلوهم يرافقـون بنى دان فى طريقهم ليتأكدوا من مغادرتهم البلاد.

وعندمـا غـادر بنو "دان" فلسطين، أحس أهل «يهوذا» بالراحة إذ زال عنهم تهديد «يربعام» لهم بغزو أراضيهم، لكن الخطر جاءهم من مكان آخر. إذ أن «شيشق» ملك مصر وحما «سليمان» جاء إلى «أورشليم» طالباً المهر العقارى[1] لابنته. وهكذا فقد حمل «شيشق» عرش «سليمان» بالإضافة إلى الكنوز التى كان الإسرائيليون قد أخذوها من مصر فى زمن الخروج. وهكذا عادت أموال المصريين إليهم.



(١) أى العقارات والأبنية التى دفعها «سليمان» مهراً لابنة شيشق.

«أبَيَّــا» و«أبَيَّــا»

لم يتَخل «يربعام» عن خطته فى شن الحرب على «يهوذا» لكنها لم تتم إلا بعدما خلف «أَبَيَّا» أباه «رحبعام» على عرش «أورشليم». وبالرغم من أن ملك يهوذا كان له النصر، فإنه لم يستمتع بنصره كثيراً إذ مات بعدها بقليل، وذلك بسبب جرائمه. ففى حربه ضد "يربعام"، أسرف فى الوحشية إذ أمر بالتمثيل بجثث أعدائه ولم يسمح بدفنهم إلا بعدما تحللت جثثهم وتعفنت وقد كان لهذه الجريمة آثار مضاعفة، إذ أن أرامل القتلى لم يستطعن الزواج مرة أخرى، فقد استحال التعرف على هوية القتلى بسبب فظاعة التمثيل بجثثهم.

علاوة على ذلك، فقد كان «أبيَّا» يسب النبى «أبيَّا» الشيلونى بأقذع الألفاظ، إذ سماه «ابن بليعال» فى خطابه للشعب على جبل زمارين. وكان ذلك يكفى فى حد ذاته لإنزال أقسى العقوبات به، وفى النهاية هدأت بسرعة حماسته التى كانت متقدة للإخلاص فى عبادة الرب، والتى كان «أبيَّا» يزعم أنها هى السبب فى الحرب بينه وبين "يربعام".. إذ عندما صار «بيت إيل» تحت سلطانه، لم يستطع إزالة الأصنام منه.

وفى هذه الناحية، فإن الملك الإسرائيلى «أبَيَّا» ابن يربعام ـ والذى يشابه اسمه اسم «أبيَّا» ابن «رحبعام» ـ كان يفوقه كثيراً. فنزعه للحراس الموضوعين عند الحدود، كان يتحدى أوامر أبيه الذى أمر بقتل كل من يحج إلى «أورشليم» بل إنه تجرأ وذهب بنفسه إلى «أورشليم» حاجّاً.

* * *

آســـــا

كان "آسا" ـ ابن «أَبَيَّا» ملك يهوذا ـ حاكماً أتقى وأفضل مما كان عليه أبوه، فقد أبطل عبادة الصنم "بريابوس" الذى كانت تتعبد له أمه. وقد كافأه الرب على ذلك بأن نصره على «سيراح» ملك الأثيوبيين. وبسبب ذلك الانتصار استرد «آسا» عرش "سليمان" والكنوز التى كان «شيشق» قد أخذها من جده والتى كان «سيراح» بدوره قد استولى عليها من «شيشق».

لكن "آسا" لم يحتفظ بهذه الكنوز كثيراً.. فقد هاجمه «بعاشا» ملك إسرائيل و«بن هدد» ملك آرام، فحاول "آسا" استرضاء «ابن هدد» بإعطائه هذه الكنوز.

وقد عاتبه النبى على وضعه ثقته فى الأمراء، وليس فى الرب، وذلك على الرغم من تجلِّى نصر الرب له فى حربه ضد الأثيبوبيين وضد اللوبيميين. وعموماً فقد أظهر "آسا" قلة ثقته بالرب، وأظهر كثرة اعتماده على مهاراته الخاصة. وبالتالى فقد جَنَّد أعلم علماء شعبه وجعلهم يخرجون للحرب ضد «بعاشا». وقد عاقبه الرب على ذلك بأن أصابه بمرض «النقرس»، على الرغم من أنه كان يتميز من بين جميع الرجال بقوة قدميه. بالإضافة إلى ذلك، فقد جعل الرب انقسام إسرائيل يدوم إلى الأبد، على الرغم من أنه كان ينوى فى البداية أن يقصره على مدة ست وثلاثين سنة.

فى قوته وثروته، فاق "آخاب" ملك السامرة صديقه "يهوشافاط"، إذ أن "آخاب" من الملوك القلائل الذين سادوا العالم كله. لكن ما يميز "آخاب" عن

بقية الملوك اليهود ليس قوته ولا ثروته، ولكن خطاياه. فبالنسبة له كانت أفظع خطايا "يربعام" تبدو بجانب خطاياه مجرد صغائر لا قيمة لها. وبأمر منه نُقِش على أبواب السامرة الجملة:

«آخاب يكفر بإله إسرائيل». وكانت زوجته «إيزابل» قد ضللته وجعلته يتحول إلى عبادة الأصنام، حتى إن حقول فلسطين قد امتلأت بالأصنام.

لكن، على الرغم من ذلك فقد كان "آخاب" يتمتع ببعض الصفات الطيبة.. فقد كان سخيّاً كريماً مع العلماء وكان يُظْهِر احتراماً عظيماً للتوراة التى كان يدرسها بحماس. وعندما طلب منه «بن هدد» أن يسلمه جميع ما يملك، من ثروات وزوجات وأطفال، وافق على طلب «بن هدد» إلا شيئاً واحداً.. وهو التنازل عن التوراة. وفى الحرب التى تلت ذلك بينه وبين الآشوريين، بلغ به الغضب من ثورة الآراميين عليه حَدَّ أنه جهز جواده بنفسه وخاض به الحرب ضدهم. وقد كافأه الرب فنصره فى معركة سقط فيها من الآشوريين ما لا يقل عن مئة ألف محارب، وذلك كما بشره الرائى الذى حذره كذلك من معاملة «بن هدد» باللين أو التسامح.

ومع أن «آخاب» قد تجاهل تحذير الرائى وأطلق «بن هدد» من الأسر، فإن المصير البشع الذى لاقاه لم يكن له علاقة بذلك، ولكن بسبب قتله.



«يهوشافاط» و«آخاب»

كان خليفتا «عُمْرى» و«آسا»، كلاّ على طريقته، ابناً يناسب أباه. فقد كان يهوشافاط ابن «آسا» غنيا جدا. وقد عادت إليه الكنوز التى كان أبوه قد أرسلها إلى الملك الآرامى «بَنْ هَدَدَ»، نتيجة لانتصاره على العمونيين الذين كانوا قد قهروا الآراميين وسلبوهم من كل ما يمتلكون. وقد كان "يهو شافاط» يتمتع بقوة هائلة إذ كانت كل فرقة من فرق جيشه لا يقل عددها عن مئة وستين ألف محارب. ومع كل قوته وغناه، فقد كان بالغ التواضع، إذ رفض أن يرتدى ثياب المُلك عندما ذهب إلى بيت النبى «إليشع» ليستشيره، وظهر أمام النبى لابساً ثياب عامة الشعب. وعلى النقيض من أبيه الذى لم يكن يحترم العلماء كثيراً، كان «يهوشافاط» يُظْهر تقديره الخاص لهم، إذ كان كلما جاءه واحد من العلماء، كان يهوشافاط ينتفض واقفاً ويهرول إلى العالم ليستقبله فيقبِّله ويعانقه ويحييه قائلاً له: «رَبّى! رَبِّى!»[1].

وكان «يهوشافاط» مشغولاً للغاية بطهارة الهيكل وقداسته. وكان هو الذى سن شريعة تحريم صعود جبل الهيكل على كل من لم تنتهِ بَعْدُ مدة نجاسته، حتى ولو اغتسل الاغتسال الذى تنص عليه الشريعة. وقد جعلته ثقته الصريحة بالرب النقيض التام لأبيه الذى كان شكاكاً مرتاباً. فقد كان يلجأ إلى الرب يطلب عونه ونصره، إذا ما استيأس وبدا الفرج مستحيلاً.

أَمَّا آخاب فيكفى ما فعله فى قريبه «نباط»، إذ اتهمه «آخاب» بالخيانة

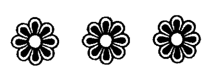
(١) أىّ يا معلمى! يا معلمى!.

ونفذ فيه حكم الإعدام، لكى يستولى على ثرواته. وقد كان «نباط» ضحيته رجلاً تقيّاً وكان معتاداً على الذهاب للحج إلى «أورشليم» فى أيام الأعياد والاحتفالات. ولأنه كان منشداً عظيماً، فإن وجوده فى «المدينة المقدسة» كان يجذب الكثير من الحجاج إليها. وعندما تخلف ذات مرة فلم يحج إلى «أورشليم»، انتهز «آخاب» الفرصة وأدانه بالخيانة وقتله.

ولكن «آخاب» تاب عن جريمته تحت تأثير «يهوشافاط» ونصيحته.

وفى المحكمة السماوية للعدالة، عند محاكمة «آخاب»، تعادلت شهادة شهود الإثبات ضد «آخاب» مع شهادات شهود النفى، إلى أن ظهرت روح «نباط» فقلبت كفة الميزان كلها ضد «آخاب» كما كانت روح «نباط» هى التى أضلت أنبياء «آخاب» وجعلتهم كلهم يستخدمون نفس الكلمات متنبئين بانتصاره عند «راموت جلعاد». وقد آثار هذا الإجماع من جانب الأنبياء شكوك «يهوشافاط» الذى طلب من الرب أن يرسل «نبيّاً من عنده».. لأن الشريعة تقول: «إن نفس الفكرة توحى إلى العديد من الأنبياء، ولكن كل نبى يعبِّر عنها بكلام مختلف».

وقد صدقت شكوك «يهوشافاط» مع اندلاع الحرب، حيث ذُبح «آخاب» بطريقة معجزة على يد «نعمان» الذى لم يكن ساعتها إلا جنديا عادياً وحسب.



إيــزابــل

كانت «إيزابل» زوجة «آخاب» لا تقل عن زوجها شرّاً. بل إنها كانت تقريباً هى السبب الرئيس فى كل المعاناة التى لاقاها.. وقد أدرك «آخاب» نفسه ذلك.

وفى يوم من الأيام كان الربِّى «ليڤى» يشرح الوحى الذى يذكر جرائم «آخاب» وخطاياه وقوة تأثير زوجته عليه، إذ كان قد ظل يشرح فى النصف الأول من الأصحاح طوال شهرين. ثم زاره «آخاب» فى المنام وعاتبه على الإطالة فى تفسير النصف الأول من الأصحاح، على حساب النصف الثانى. وعند ذلك أخذ الربِّى «ليڤى» يشرح ويفسر فى النصف الثانى طوال شهرين تاليين ويؤكد طوال محاضراته ودروسه على أن «إيزابل» هى التى دفعت "آخاب» لارتكاب جرائمه. ولم يغفل الكتاب المقدس الإشارة إلى أفعالها الشريرة التى يجب أن يُحْسب منها قيامها بتثبيت تماثيل الأصنام فى عربة «آخاب» لكى تستثير شهوته. ولهذا فإن دماءه قد غطت عربته عندما سقط فى أيدى أعدائه، ولاسيما المواضع التى كان مثبتاً فيها تلك الأصنام.

وكانت «إيزابل» تقوم بوزن زوجها كل يوم وكانت تقيس الزيارة فى وزنه ثم تخرج بمقدارها ذهباً قرباناً للأصنام. ولم تكن «إيزابل» ابنة ملك وزوجة ملك وحسب، وإنما كانت تشارك زوجها فى الحكم، وبذا كانت هى الملكة اليهودية فى التاريخ، باستثناء «أثاليا».

* * *

«يورام» الإسرائيلى

لا نستطيع أن نقول عن «يورام» بن «آخاب» سوى أنه قد ورث شرور أبيه دون أن يرث فضائله. فقد كان "آخاب" كريماً بينما كان «يورام» بخيلاً.. بل كان مرابياً يتعامل مع الناس بالربا! وعندما آوى «عوبديا» التقى الأنبياء الهاربين، ذهب إليه «يورام» وطلب منه دفع فوائد عالية جدّاً على الطعام والشراب الذى كان يمدهم به ولهذا فعند موته اخترق سهم صدره وشق قلبه وخرج من ظهره، لأنه كان يمد ذراعيه ليتسلم بها الربا، وقسَّى قلبه فلم تعرف الرحمة سبيلاً له.

وطوال عهده كله لم يفعل ما يستحق الذكر سوى حملته ضد «مؤاب» التى قام بها بالتحالف مع ملكى «يهوذا» و«أدوم» وانتهت بانتصار باهر للملوك المتحالفين. لكن «يورام» وقومه لم يتعلموا من هذه الحرب، إذ واصلوا عصيانهم للرب. أما ملك «مؤاب» فقد حاول بكل جهده التقرب إلى الرب. وجمع ملك «مؤاب» منجميه وسألهم عن سبب هزيمة المؤابيين بالرغم من انتصارهم على جميع الأمم الأخرى. فأخبروه بأن الرب أكرم بنى إسرائيل لأن جدهم الأكبر «إبراهيم» كان على استعداد للتضحية بابنه إسحق!! تنفيذاً لأمر الرب وطاعة له. ولذا فقد حاول الملك تقليد «إبراهيم» وفكر فى التضحية بابنه وريث عرشه، قرباناً لإله إسرائيل.

لكن الرب قال:

- «هذا الوثنى لا يعرفنى جيداً ويعصانى بسبب جهله.. لكنكم أنتم أيها الإسرائيليين، فتعرفونى ومع ذلك تتمردون علىَّ!!».

ونتيجة لذلك ضرب الرب السامرة بمجاعة دامت سبع سنين.

الفصل السابع

«إيليـاء»

«إيلياء» قبل صعوده

إن ما ذُكر فى الكتاب المقدس عن النبى إيلياء أيام حكم «آخاب» وابنه «يورام» من بعده، لا يذكر إلا القليل عن شخصية هذا النبى الذى يبدأ تاريخه مع إقامة بنى إسرائيل فى مصر، ولن ينتهى إلا عندما يعود بنو إسرائيل مرة أخرى ليستوطنوا فلسطين يقودهم النبى «إيلياء»..

لقد كان «إيلياء» كاهناً مثله مثل «فينحاس» الكاهن الذى غضب من أجل الرب وقتل «زيمرى» الفاجر، فرفع الرب قدره أثناء رحلة بنى إسرائيل خلال الصحراء، ثم لعب دوراً بارزاً فيما بعد فى زمن القضاة.

كان أول ظهور لإيلياء فى زمن الملوك لقاءه مع «آخاب» فى بيت «حيئيل» البيتئيلى (أى الذى من «بيت إيل»)، والقائد العام للجيش الإسرائيلى والذى كان يزوره لمواساته والتخفيف عنه فى مصابه فى موت أولاده. وكان الرب هو الذى أمر «إيلياء» بالذهاب إلى «حيئيل» ومواساته، إذ كان منصبه يستلزم ذلك. وفى البداية رفض «إيلياء» أن يسعى إلى ذلك الخاطئ الذى خالف نهى الرب عن إعادة بناء «أريحا»، وقال إن حديث التجديف الذى يتكلم به هؤلاء الخطاة يغضبه دائماً. وعند ذلك وعد الربُّ النبىَّ «إيلياء» بأنه سيحقق أى لعنة قد تخرج عفواً من بين شفتى «إيلياء» فى غضبه على هؤلاء الخطاة بسبب كلامهم الكفرى. وعندما دخل النبى إيلياء إلى حديقة «حيئيل» سمعه يقول:

ـ «تبارك الرب مولانا رب المتقين الذى يحقق كلام من يخافونه».

وهكذا فقد أقر «حيئيل» بنفسه أنه يستحق اللغة التى لعن بها «يشوع» كل

من يقوم ببناء «أريحا» من جديد.

وقد سأله «آخاب» ساخراً:

- «يا «إيلياء».. ألم يكن «موسى» أعظم من «يشوع» وقال إن الرب لن يدع المطر يسقط على الأرض، إذ عبد بنو إسرائيل الأصنام؟ لا يوجد صنم لا أعبده.. ومع ذلك نعيش كلنا فى خير ورخاء. فهل تظن أنه لو بقى دعاء موسى لا يتحقق، أن دعاء «يشوع» سيتحقق؟».

فأجابه «إيلياء» فى حدة:

- «ليكن كما قلت.. فوحق إله إسرائيل الذى أقف أمامه لن يكون مطر ولا ندى على إسرائيل فى هذه السنوات.. إلا عندما أقول أنا ذلك».

وأوفى الرب وعده لإيلياء فلم يسقط مطر ولا ندى على إسرائيل. فوقعت المجاعة وحاول «آخاب» الانتقام من النبى الذى فر واختبأ منه. وكانت الغربان تحمل إليه طعامه من خزانة الملك التقى «يهوشافاط»، بينما كانت هذه الغربان نفسها لا تقترب من بيت الملك الخاطى «آخاب».

لكن الرب الذى يرحم حتى العصاة، حاول التأثير على النبى لكى يحله من وعده الذى وعده به، ولكى يؤثر على إيلياء، جعل الرب النهر الذى يشرب منه يجف... لكن «إيلياء» لم يلن، فلجأ الرب إلى حيلة أخرى[1]!!.. فقد جعل ابن المرأة التى كان إيليا يقيم عندها يموت.. وعند ذلك أخذت المرأة تنوح وتولول وتناشد النبى حتى رقَّ لها ودعا الرب لكى يحيى الصبى. لكن الرب اشترط عليه أن يُحلَّه أولاً من الوعد الذى وعده به، إذ أن إحياء الموتى غير ممكن بدون الندى الذى توقف بسبب دعاء «إيلياء». وعند ذلك لم يجد «إيلياء» بُدّاً من الاستسلام لإرادة الرب..

ومع ذلك فإن «إيلياء» قد هرول أولاً إلى «آخاب» لكى يرد الشعب عن معاصيهم، إذ لم تردعهم المجاعة والقحط عن غيِّهم. وهناك.. رأى قوم «آخاب»

(١) نستغفر الله تعالى.

بأعينهم المعجزات والعجائب، إذ شاهدوا بأعينهم المعركة التى حدثت بين الرب وبين «بعل» على جبل الكرمل، وقد تم تعويض الجبل الذى شهد أعظم حدث فى التاريخ الإسرائيلى - وهو تنزيل الشريعة - من خلال الآيات والعجائب التى حدثت عليه، إذ كان قد أحس بخيبة الأمل من قبل عندما فُضِّل جباء سيناء عليه.

* * *

وكانت المعجزة الأولى هى معجزة الثيران..

فقد تم إحضار ثورين توأمين وأجريت قرعة بين المتنافسين لكى يُعْرَف أى الثورين يخص الرب وأيهما يخص «بعل». وعندما تقدم «إيلياء» ليقرب ثور الرب، لم يجد صعوبة فى ذلك.. وعندما هم كهنة بعل بتقديم ثورهم لبعل، وكانوا ثمانمئة وخمسين، لم يتحرك الثور قيد أنملة..! وعندما حاول «إيلياء» إقناع ثور «بعل» بالتحرك.

قال له الثور:

- «أنا وهذ الثور الآخر خرجنا معاً من نفس الرحم، وأكلنا من نفس المعلف، والآن كُتب له أن يقدم قرباناً للرب تمجيداً لاسمه المجيد، بينما سأقدم أنا لبعل كأداة لإغضاب خالقى».

فاستحثه «إيلياء» على التحرك قائلاً:

- «عليك فقط أن تطيع كهنة «بعل» لكيلا تكون لهم حجة، وسيكون لك عندئذٍ نصيب فى تمجيد الرب وتشارك أخاك فى ذلك».

فأجابه الثور قائلاً:

- «سأنفذ نصيحتك.. لكن أقسم أننى لن أتزحزح عن مكانى إلا إذا قدتنى أنت بنفسك».

فقاده «إيلياء» إلى كهنة «بعل»..

وعلى الرغم من وقوع هذه المعجزة، فإن كهنة «بعل» حاولوا خداع الناس إذ غطوا مذبحهم وتسلل «حيئيل» بنفسه واختبأ تحت المذبح لكى يشعل النار عندما ينطق الكهنة باسم «بعل». لكن الرب أرسل إليه ثعباناً ليقتله. وأخذ الكهنة المزيفون ينادون دون جدوى على «بعل». ولكن النار لم تشتعل. ولكى يزيد الرب من ارتباكهم واضطرابهم فرض الرب الصمت على العالم كله[1]، لكى يصخى الجميع فإذا صدر أقل صوت سيقول الكهنة إنه صوت «بعل».

ولكى تكتمل جميع الاستعدادات فى يوم واحد، أمر «إيليا» الشمس بالسكون، وقال لها:

- «لقد سكنْتِ من قبلُ عندما أمرك «يشوع» بذلك، لكى ينتصر بنو إسرائيل على أعدائهم؛ لذا اسكنى، ليس من أجلى ولا من أجل شعب إسرائيل، ولكن لكى يتمجد اسم الرب» فأطاعت الشمس كلامه.

وقرب حلول المساء استدعى «إيلياء» تلميذه «إليشع» وأمره بأن يصب الماء على يديه، فحدثت معجزة عظيمة: إذ تدفق الماء من بين أصابع «إيلياء» حتى ملأ الخندق الذى تم حفره ليكون أساساً للمذبح. ثم دعا النبى الرب لكى يُنْزِل النار، لكن بطريقة يعلم معها الجميع أنها آية من السماء وليست من صنع وألاعيب ساحر.

ودعا «إيلياء» الرب قائلاً:

- «يارب العالم.. إنك سترسلنى رسولاً إلى العالم «فى نهاية الزمان، لكن إن لم يتحقق كلامى الآن، فلن يصدقنى اليهود فى الزمن الأخير».

فسُمع دعاؤه ونزلت نار من السماء لم تحرق فقط كل ما لمسته، وإنما امتصت الماء كذلك.

ولم يكن ذلك هو كل ما حدث..

(١) حتى لا يتحجج الكهنة مثلاً بأن «بعل» لم يسمع نداءهم بسبب وجود ضوضاء.

فقد استجيب دعاؤه ونزل المطر.

فما كاد يقول:

- «حتى وإن لم يكن لنا فضائل أخرى غير ذلك، فاذكر يارب علامة العهد التى يحملها بنو إسرائيل على أبدانهم».

إلا ونزل المطر على الأرض.

لكن.. برغم كل هذه المعجزات ظل الناس على ضلالهم وكفرهم. وحتى السبعة آلاف الذين لم يركعوا للبعل، لم يكونوا يستحقون شرف الإنتماء إلى بنى إسرائيل، إذ أنهم عبدوا عجول «يربعام» الذهبية.

وازداد شعب إسرائيل غيّاً وفساداً حتى وصلوا إلى مرحلة لم تعد تنفعهم فيها سجايا آبائهم؛ لقد سحبوا رصيدهم كله لدى الرب ولم يعد لهم عنده من شىء. وعندما انحدروا إلى درجة من الإنحطاط تخلوا فيها عن علامة العهد، لم يستطع «إيلياء» السيطرة على نفسه لأكثر من ذلك، ولجأ إلى الرب واتهمهم أمامه.

والتقى الرب مع «إيلياء» فى صدع الصخور الذى كان قد التقى فيه ذات مرة مع «موسى» وأخبره بأنه حليم صبور.. وقال الرب لإيلياء ونصحه بأكثر من طريقة بأن يحاول الدفاع عن بنى إسرائيل بدلاً من اتهامهم، لأن ذلك أفضل له ولمصلحتهم لكن «إيلياء» من حماسته للرب، لم يلن، فأمره الرب بأن يعيِّن «إليشع» خليفةً له، وأخبره أنه لا يستطيع تنفيذ طلبات إيلياء. كما اتهمه الرب قائلاً:

- «بدلاً من الوقوف هكذا أمامى واتهام أطفالى بالزور، اذهب إلى «دمشق» التى يقيم فيها الوثنيون صنماً لكل يوم من أيام السنة. حتى إن بنى إسرائيل قد هدموا مذابحى وذبحوا أنبيائى، فما شأنك أنت بهذا؟».

وبعد ذلك بثلاث سنوات تقريباً، رُفِع «إيليا» إلى السماء.. لكن بعد أن

خاض صراعاً شرساً مع ملاك الموت الذى رفض السماح لإيلياء بالدخول إلى السماء عند صعوده، متعللاً بأنه لابد أن يمارس عمله على جميع بنى آدم، وليس «إيلياء» بمستثنى من ذلك.

ويعيش «إيلياء» فى السماء إلى الأبد. ويجلس هناك يسجِّل أعمال الناس وتاريخ العالم. كما أن له وظيفة أخرى، فهو رجل المرور الذى يقف عند مفارق طرق الجنة فيقود المتقين إلى أماكنهم المخصصة لهم، ويخرج أرواح الخطاة من جهنم عند اقتراب يوم «السبت»، ثم يعيدهم إليها مرة أخرى عند قرب انتهاء يوم الراحة؛ كما أنه يقود هذه الأرواح نفسها بعد أن يتم التكفير عن خطاياهم، إلى مكان النعمة الأبدية.

* * *

لن نستطيع أن نتفهم المعجزات التى صنعها «إيلياء» إلا إذا تذكَّرنا أنه كان ملاكاً من البداية، وحتى قبل انتهاء مهمته الأرضية. فعندما هم الرب بخلق الإنسان، قال له «إيلياء»:

- «يا سيد العالم.. لو سرَّك هذا وأذنت لى فإنى سأنزل إلى الأرض لكى أخدم أبناء آدم وقتما يحتاجون إلىَّ».

فوافق الرب وغير اسمه الملائكى، ثم فيما بعد، فى ظل حكم «آخاب»، سمع له بأن يقيم على الأرض بين البشر لكى يدعو الناس إلى الإيمان بأن الرب هو إله الجميع.

وهكذا عندما اكتملت مهمته، أخذه الرب مرة أخرى إلى السماء..

وقال له:

- «كن أنت الروح التى تحرس أطفالى إلى الأبد، وانشر الإيمان بى فى جميع أنحاء العالم».

واسمه الملائكى هو «صندلفون»، وهو من أعظم وأقوى الملائكة النارية.

ومهمته كملاك أن يصنع من صلوات بنى إسرائيل التى تصعد للرب، عقوداً وأكاليل ليتوَّج بها الرب. بالإضافة إلى ذلك، يقوم «إيلياء» بتقديم القرابين إلى الحرم الخفى، إذ أن الهيكل لم يتم تدميره إلا فى الظاهر فقط، ولكنه يوجد فى الحقيقة مخفيّاً عن عيون البشر العاديين.



«إيلياء» بعد صعوده

إن ارتفاع «إيلياء» عن الأرض، لم يكن بأى حال من الأحوال قطعاً لعلاقته بالبشر، وإنما يعتبر علامة على بدء نشاطه الحقيقى كمعين للبشر فى وقت الحاجة، وكمعلم دليل يرشدهم.

وفى البداية لم يكن «إيلياء» يتدخل فى الشئون الأرضية كثيراً. لكن بعد سبع سنوات من صعوده، كتب كتاباً إلى الملك الشرير «يهورام» ملك يهوذا. ثم كانت المرة الثانية التى يتدخل فيها فى الشئون الأرضية فى زمن «أحشويرش» وفى هذه المرة وقف لصالح بنى إسرائيل عندما تنكَّر فى هيئة «هربونه» واستغل اللحظة المناسبة وحرَّض الملك «أحشويرش» ضد «هامان».

* * *

ذات مرة حدث أن الرَّبى «ناحوم» كان مسافراً إلى «روما» حاملاً معه صندوقاً فيه جواهر ولآلئ قد أرسله بها شعب إسرائيل لتقديمها هديةً للإمبراطور تعبيراً عن حبهم وتقديرهم له. لكن فى الطريق سطا عليه اللصوص ووضعوا له دون أن يدرى تراباً فى الصندوق بدلاً من الجواهر.

وهكذا، عندما وصل «ناحوم» إلى الإمبراطور وقدم الصندوق له، فتحه الإمبراطور فلم يجد فيه إلا التراب، فاشتاط غضباً إذ ظن أن اليهود قد أرادوا السخرية منه. وأمر بقتل «ناحوم».. لكن هذا الربِّى التقى كان واثقاً بالرب وموقناً بأنه سينجيه من محنته.

وفجأة ظهر «إيلياء» فى بلاط الإمبراطور متنكراً فى هيئة واحد من رجاله..

وقال إيلياء للإمبراطور:

ـ «يا مولاى الملك.. ربما هذا التراب هو من نفس نوعية التراب الذى استخدمه «إبراهيم» من قبل فى حربه على أعدائه وانتصر به عليهم. لذا فلربما تكفى حفنة منه وتغنى عن كثير من السيوف والسهام».

وفى الحال أمر الإمبراطور بالتأكد من كلام «إيلياء»، وأمر رجاله باستخدام التراب فى حرب مدينة كان جنود الإمبراطور يحاصرونها من مدة طويلة وتستعصى على جميع الأسلحة والغارات. وبالفعل انهارات قوات المدينة وتهدمت أسوارها بمجرد رميها بحفنة من التراب، وثبت أن ما قاله «إيلياء» المتنكر للإمبراطور صحيح. وعند ذلك أفرج الإمبراطور عن «ناحوم» وأعاده إلى قومه محملاً بالهدايا بعدما خرج بنفسه لتوديعه».

* * *

وفى مرة أخرى كان الرِّبى «شيلة» فى محنة وهرول إليه «إيلياء» لينقذه متنكراً فى هيئة رجل من بلاد فارس. وفى مرة أخرى كان الضباط الرومان يطاردون الرِّبى «مائير» فأسرع إليه لينقذه متنكراً فى هيئة عاهرة. وعندما شاهد الضباط الرومان «إيلياء» المتنكر بجوار الرِّبى «مائيون»، تركوه وانصرفوا إذ ظنوا أنه لا يمكن أن يكون هو الرِّبى التقى المعروف[1].

وكذلك فى نفس زمن الربِّى «مائير»، كان يوجد الربِّى «شمعون بن يوهاى» وكان يختبئ فى أحد الكهوف فى الجبال هرباً من اضطهاد الإمبراطور له. وعندما مات هذا الإمبراطور ذهب «إيلياء» إلى الربِّى فى كهفه لكى يخبره بموت مضطهده.

كذلك لم تكن مساعدات «إيلياء» للفقراء أقل ولا أبطأ.. إذ كان يذهب إليهم كثيراً ويعطيهم ثروات كبيرة. فالربِّى «كاهاناً» مثلاً كان فقيراً معوزاً

(١) يبدو أنها حكاية ملفقة لفقها أحبار اليهود ليدافعوا بها عن الممارسات الشاذة لبعض أحبارهم وعلمائهم.

لدرجة أنه كان يعمل بائعاً متجولاً يطوف بالقرى ليبيع بعض الأدوات المنزلية التى يحملها على ظهره.

وفى يوم من الأيام حاولت امرأة ذات ثراء وسعة إغوائه ليمارس معها الفاحشة لكن الربِّى «كاهانا» فضل الموت على ارتكاب جريمة الزنا فألقى بنفسه من أعلى مكان فى القصر. وبالرغم من أن «إيلياء» كان يبعد عن موقع الحادث بأربعمئة فرسخ، فقد أسرع إلى المكان ليلتقط الربِّى قبل أن يصطدم بالأرض. وبالإضافة إلى ذلك فقد أعطى «إيلياء» للربِّى الكثير من اللآلئ التى أغنته عن التجول بهذه الطريقة المهينة ببضاعته التى لا تساوى شيئاً.

ولم تقتصر مساعدة «إيلياء» على معلمى الشريعة الفقراء، وإنما كان يساعد كل من يحتاج إلى مساعدته ويستحقها..

فذات مرة كان هناك رجل فقير يعول عائلة كبيرة ولا يكاد يستطيع إعالتها. ود ما هذا الرجل الرب قائلاً:

- «يارب العالم.. إنك لتعلم أنه لا يوجد من أشكو إليه فقرى ومذلتى.. ولا أحد سيسمعنى أو يواسينى، فلا أخ لى ولا قريب ولا صديق.. وهاهم أطفالى الصغار يصرخون من الجوع ولا أقدر على توفير الطعام لهم. فارحمنى يارب وإلا أمتنى أنا وأطفالى وارحمنا مما نحن فيه».

وفى الحال ظهر «إيلياء» للرجل وسأله عن سبب حزنه، فلما علم مأساته طلب منه أن يذهب به إلى سوق العبيد ليبيعه وينتفع بثمنه. وبعد تردد وافق الرجل وباع «إيلياء» لأحد الأمراء وقبض ثمانمئة دينار ثمناً له، فكانت نواةً للثروة التى كوَّنها الرجل ولم تفارقه إلى يوم وفاته.

أما «إيلياء» فإن الأمير الذى اشتراه فرح جدّاً عندما علم أن العبد الذى اشتراه مهندس معمارى، إذ كان يريد بناء قصر عظيم، ووعد «إيلياء» بإطلاق سراحه وإعتاقه إن هو بنى له القصر.. وهكذا كان.

الرقيب والمنتقم

لم تكن شخصية «إيلياء» وصفاته تقتصر فقط على مد يد المساعدة لمن يحتاجها أو الرحمة والعطف على المساكين، فقد ظل دائماً الرقيب الصارم الذى كان يخشاه «آخاب». ولم يفقد أبداً حماسته القديمة للصدق والخير، فقد قتل إنساناً ذات يوم لأنه لم يؤدِّ الشعائر بالخشوع المفترض.

* * *

كان هناك أخوان، أحدهما ثرى وجشع والآخر فقير وطيب. ذهب «إيلياء» إلى الأخ الثرى متنكراً فى هيئة شحاذ عجوز، وطلب منه أن يعطيه كسرة خبز يأكلها يسد بها جوعته. لكن الرجل الثرى طرده فاتجه إلى أخيه الفقير الذى استقبله بود وترحاب ودعاه ليشاركه لقيماته التى رزقه بها الرب.

وعند مغادرته للرجل وزوجته الكريمة، قال لهما «إيلياء»:

- «ليجزك الرب خيراً وليبارك لك فى أول شىء تناوله بيدك فيكثر ويزداد ويزداد إلى أن تقول أنت «كفى!»».

وفى الحال ذهب الرجل إلى غرفته وأخرج نقوده القليلة وأخذ يعدها ليعلم هل ستكفى لشراء طعام الغد أم لا..

لكن الرجل أخذ يعد فى النقود.. ويعد.. ويعد.. والنقود تزيد وتزيد. وقضى الرجل اليوم كله يعد نقوده.. ثم واصل العد فى اليوم التالى.. إلى أن حل الليل وهو لا يزال يعد فى نقوده التى تزداد مع كل دينار يعده.. حتى

استبد التعب بالرجل ولم يعد قادراً على عد المزيد.. فصاح قائلاً: «كفى!» فتوقفت النقود عن الزيادة.

وقد كان ذلك فعلاً فيه الكفاية وأكثر.. فقد أصبح الرجل غنيا غنى لم يكن أحد يتخيله. وعلم أخوه الغنى الجشع بما حدث فقرر أن يظهر الوجه الطيب الودود لإيلياء إذا سنحت له الفرصة.. ولم تتأخر الفرصة طويلاً. إذ بعد بضعة أيام شاهد الرجل الشحاذ العجوز يمر من أمام منزله فهرول إليه وصافحه واعتذر له عن سوء معاملته له فى المرة الأولى وألح عليه فى الدخول إلى بيته وتناول العشاء معه ـ فاستجاب له «إيلياء».

وعند خروج «إيلياء» التفت إلى الرجل ودعا قائلاً:

ـ «لا ينتهى أول شىء تقوم به وليستمر إلى الأبد».

ثم تركه وانصرف.

فقالت زوجته له:

ـ «لقد دعا لنا.. سنعد أكواماً وأكواماً من الذهب. لكن هيا الآن نستمتع بليلتنا ثم بعدها نقوم لنعد أكوام الذهب».

فقام الرجل إليها ليجامعها.. فظل يجامعها المرة.. بعد الأخرى دون أن يستطيع التوقف.. إلى أن نفدت كل قواهما وهلكا معاً!!

* * *

لكن.. كان «إيلياء» فى غاية القسوة مع مفسرى الشريعة وعلماء بنى إسرائيل ولا يكتفى منهم بالالتزام الحرفى بما جاء فى الشريعة..

ومن أمثلة ذلك قصته مع الرِّبى «أنان»..

ففى يوم من الأيام أهدى رجل طبقاً من السمك للرِّبى «أنان» وطب منه فى الوقت نفسه أن يفصل له فى قضية تخصه. وعند ذلك رفض الرِّبى أن

تصل الهدية وردها للرجل قائلاً له أنه لا يستطيع قبولها طالما سيحكم فى قضية هو أحد طرفيها. لكن الرجل ألح عليه بأن يقبل هديته ثم ليعط القضية إلى ربِّى آخر إن شاء. وعندها وافق الربِّى «أنان» على طلب الرجل وأخذ منه الطبق وسلَّم القضية إلى ربِّى زميل له قائلاً بأنه لا يستطيع الفصل فيها لظروف شخصية. وعند ذلك استنتج الربِّى الآخر أن الرجل الذى أهدى السمك أحد أقارب الربِّى «أنان» فجامله فى القضية ففاز بها على حساب الطرف الآخر.

وعندما علم «إيلياء» بذلك قاطع الربِّى «أنان» ولم يعد يزوره أو يعلِّمه شيئًا من الشريعة، وكان «إيلياء» من قبل صديقاً عزيزاً للربِّى «أنان» ولا ينقطع عنه يوماً واحداً. ورغم أن الربِّى «أنان» قد أحس بغلطته وصام أياماً كثيرة وصلَّى صلوات كثيرة، فإن «إيلياء» لم يسامحه حتى بعدما عاد يزوره من جديد، إذ لم يكن يكلمه أو يهتم به.

* * *

وأحياناً كان إيلياء يعتبر أن من واجبه إجبار الناس على ترك العادات السيئة..

فى يوم من الأيام كان هناك رجل غنى ذاهباً إلى السوق ليشترى ثيراناً من سوق الماشية، وقابله «إيلياء» فى الطريق وسأله إلى أين هو ذاهب.

فأجابه الرجل:

- «أنا ذاهب إلى السوق لأشترى ثيراناً».

فقال له «إيلياء»:

- «قل إن شاء الرب».

فرد الرجل ساخراً:

- ولماذا أقول ذلك؟ شاء الرب أم لم يشأ سأشترى الثيران.. فالمال فى

جيبى والثيران فى السوق!».

فرد «إيلياء»:

- «لا حالفك الحظ».

ثم تركه وانصرف.

وعندما وصل الرجل إلى السوق وهم بشراء الثيران، اكتشف أن نقوده قد ضاعت فعاد إلى بيته ليحضر نقوداً أخرى. وعندما خرج إلى السوق اتبع طريقاً آخر لكيلا يقابله نذير الشؤم الذى قابله بالأمس.. ولكن الرجل قابل عجوزاً آخر وكرر معه نفس حكاية الأمس.. وكرر الرجل نفس إجابته. فلما وصل إلى السوق اكتشف ضياع كيس نقوده هذه المرة أيضاً..

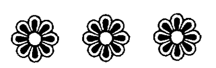
عاد الرجل إلى بيته للمرة الثانية وقد تعلم الدرس..

ولما خرج إلى السوق اتبع طريقاً ثالثاً ولكنه فوجئ «بإيلياء» يعترض طريقه يسأله كما سأله فى اليومين السابقين.

لكن الرجل أجاب هذه المرة قائلاً:

- «إن شاء الرب أنا ذاهب إلى السوق لأشترى ثيراناً».

فلما وصل إلى السوق وجد أن نقوده لم تضع هذه المرة، وعندما أراد شراء ثورين جيدين وعلم أن نقوده لن تكفى، وجد كيسا النقود اللذين قد ضاعا منه موجودين فى جيب ثوبه فاشترى الثورين وعاد بهما إلى بيته. وبعد ذلك بقليل باع الثورين إلى الملك وربح مالاً كثيرة فصار غنيا جدا[١].



(١) حكاية تكاد تتطابق مع نادره جحا المعروفة.

علاقته بالعلماء

لم تتجل علاقات «إيلياء» البشرية مع العالم بمثل ما تجلَّت به فى علاقته مع علماء إسرائيل، وخصوصاً الربانيين الذين عاشوا فى زمن التلمود، فقد كان معلمهم وتلميذهم فى الوقت نفسه.. إذ كان يلجأ إلى أحدهم كلما استشكل عليه فهم مسألة من مسائل الشريعة، بينما يهرع لتعليم آخر شيئاً لم يستطع إدراكه.. وبطبيعة الحال فإن معرفته العميقة بالعالم العلوى قد جعلته يقوم بدور المعطى أكثر من قيامه بدور المتلقِّى. وقد تعلَّم أحبار بنى إسرائيل الكثير من الحقائق السرية الخفية من «إيلياء».. كما كان يحمل تعاليم أحد الربانيين إلى زميل له يبعد عنه بآلاف الأميال، متنقلاً بين الاثنين فى سرعة البرق.

وبهذه الطريقة كان «إيلياء» هو الذى علَّم الربِّى «يوسى» المعنى العميق الكامن فى العدد الذى ورد بالكتاب المقدس ويجعل من المرأة معيناً للرجل. وقد ضرب «إيلياء» أمثلة للربى «يوسى» ليبين له صحة هذا الوحى.

ومن جانبه استفاد الربِّى «نهوراى» من علم «إيلياء» فى تفسيره لحكمة الرب من وراء خلق المخلوقات عديمة الفائدة، بل والضارة كذلك. وقد بيَّن هذا الربِّى المتبحِّر فى علوم الشريعة أن سبب وجود مثل هذه المخلوقات هو أن رؤية الرب لها، مع كونها عديمة الجدوى ولا لزوم لخلقها، يخفف من غضب الرب على بنى آدم كلما أغضبوه وهم بإهلاكهم وندم على خلقه لها!!. إذ فى هذه الحالة يقول الرب لنفسه:

- «طالما خلقتُ هذه المخلوقات التى لا تضر ولا تنفع وصبرت عليها، أفلا

أصبر على بنى آدم وهناك احتمالات قوية بأن يصنعوا الخير!؟».

كما أخبر «إيلياء» الربِّى «نيهوراى» أن الرب يضرب الأرض بالزلازل وغيرها من الكوارث كلما رأى أماكن اللهو ترفل فى النعيم والعز بينما يرقد الهيكل أنقاضاً وأطلالاً.

وفى حالة اختلاف آراء العلماء، كانوا يلجأون لإيلياء ليحل الخلاف فيما بينهم. ففى مرة من المرات اختلف العلماء حول نوايا «أستير» عندما دعت «هامان» إلى الوليمة التى أعدتها للملوك. ولما سأل الربِّى «بَرْأبَّاهو» إيلياء عن غرض «أستير» من وراء هذه الدعوة، أوضح له إيلياء أن جميع العلماء على حق فيما رأوا، إذ أن «أستير» قد دعت «هامان» لأغراض متعددة وليس لغرض واحد.

أما بخصوص الخلاف الكبير الذى نشب بين الربِّى «إليعزر بن هيركانوس» وبين جميع العلماء وأصر العلماء على صحة رأيهم بالرغم من أنهم قد سمعوا هاتفاً سماويا يهتف مؤكداً صحة رأى الربِّى هيركانوس، أخبر «إيلياء» الربِّى «ناثان» أن الرب قد صاح فى السماء قائلاً فى حزن:

- «لقد غلبنى أطفالى!».

* * *

وفى مرة من المرات دفع «إيلياء» ثمناً غالياً لأنه كشف سر ما يحدث فى الملأ السماوى لتلاميذه من العلماء والأحبار. فقد كان «إيلياء» يواظب على الحضور يومياً فى مدرسة الربِّى «يهودا الناسى». وذات يوم، وكان أول يوم فى الشهر القمرى الجديد، تأخر "إيلياء" عن حضور الدرس. وكان سبب تأخره هو أنه كان مكلفاً فى السماء يوميا بإيقاظ الآباء الثلاثة وغسل أيديهم لكى يصلُّوا للرب، ثم بعد انتهاء الصلاة يقودهم مرة أخرى إلى مثاويهم. وفى هذا اليوم الذى تأخر فيه «إيلياء» عن حضور الدرس، كان سبب تأخره أن صلاة الآباء قد استغرقت وقتاً طويلاً، ومن ثم فلم يستطع الذهاب إلى الدرس فى الموعد المعتاد. وعندما سأله الربِّى عن سبب تأخره أخبره بذلك، ثم لم يكتف بهذا

القدر وإنما أخبره بأنه قد مل هذه الشغلانة المزعجة، لأن الآباء الثلاثة ليس مسموحاً لهم بأداء الصلاة معاً فى نفس الوقت، لأنهم لو فعلوا ذلك ودعوا الرب معاً فسيكون لدعائهم قوة تُجبر الرب على تنفيذ ما يريدون!! وعندما سأله الربِّى عما إذا كان هناك أحد آخر لدعائه نفس قوة التأثير، أجابه «إيلياء» بأن ذلك لا ينطبق إلا على الربِّى «هَيَّا» وولديه.

وفى الحال، انطلق الربِّى «يهودا» إلى الربى «هَيَّا» وأعلن يوماً للصيام والصلاة والدعاء، على أن يؤم الربِّى «هيَّا» وولداه بالدعاء. ثم بدأ الربِّى «هيَّا» وولداه يقرؤون البركات الثمانى عشرة، فلما نطقوا بكلمة «ريح» هبت عاصفة شديدة، فلما واصلوا الصلاة صلُّوا طالبين المطر، نزل المطر فى الحال.. لكن عندما اقتربوا من الفقرة الخاصة بإحياء الموتى حدث هرج ومرج فى السماء.. فلما عُلِم أن «إيلياء» هو الذى كشف سر قوة دعاء الرجال الثلاثة، عوقب بضربات نارية. وعندها سيطر الخوف على «إيلياء» فتنكر فى هيئة دبٍّ وانقض على المصلين فتركوا الصلاة وولوا هاربين..!

* * *

وعلى العكس من ذلك، كان «إيلياء» معتاداً على نقل ما يحدث على الأرض إلى الملأ السماوى. فقد أخبر الربِّى «بَرْشيله» أن سبب عدم الاقتباس عن تفاسير الربِّى «مائير» فى أكاديمية السماء هو أن له معلِّماً شريراً هو «أليشع ابن أبوياه».

لكن الربَّا بَرَر له سبب تصرفات الربِّى «مائير» بالتمثيل له بقضية خرافية مجازية.. إذ قال له الربَّا:

- «لقد وجد الربِّى «مائير» رُمَّانة فاستفاد من ثمرتها ورمى القشرة» وعندها اقتنع «إيلياء» بهذا الدفاع ونقله إلى جميع القوى السماوية التى صفحت عن الربِّى «مائير» وبدأت تستشهد بتفسيراته فى أكاديمية السماء.

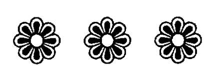
* * *

كما كان إيلياء يهتم بتعاليم الأحبار، بنفس درجة اهتمامه بشخصياتهم. فمثلاً عندما علم أن الربِّى «أليعزر بن هيركانوس» ـ الذى أصبح حبراً مشهوراً فيما بعد ـ قد قرر تكريس نفسه لدراسة الشريعة، ذهب إليه وأوصاه بأن يذهب إلى «أورشليم» ليجلس عند قدمى الربِّى «يوحانان بن زكَّاى».

وبطريقة أخرى عَلَّمَ «إيلياء» الناس الأهمية العظيمة لدراسة التوراة. فقد تنكَّر ذات مرة فى هيئة ربِّى، فاقترب منه أحد الرجال ووعده بأنه سوف يهتم بكل شئونه المادية ويرعاه إذا تعطَّف عليه ولازمه.

لكن «إيلياء»، رافض مغادرة يَبْنه، قال للرجل:

ـ «حتى لو عرضت علىَّ مليون دينار ذهبى، فلن أنزل «يَفْنه» حيث تُدَرَّسُ التوراة لأذهب معك إلى مكان لا توجد فيه التوراة...



المبيّن لعدالة الرب

من بين جميع أفعال الخير التى عملها «إيلياء» يستحق منا ذكراً خاصا حرصه الشديد على إظهار حكمة الرب فى كل ما يقضى به.

وكان «إيلياء» يستغل كل فرصة لإيضاح ذلك بالدليل العملى. وذات مرة طلب منه صديقه الربِّى «يشوع بن ليفى» أن يحقق له أى أمنية يطلبها منه، فوافق «إيلياء».. وكان كل ما طلبه الربى من «إيلياء» هو أن يسمح له بمرافقته فى تجواله فى أنحاء الأرض.

واستعد إيلياء لاصطحاب صديقه معه، لكنه اشترط عليه شرطاً واحداً: ألا يسأله عن شىء أبداً مهما بدا له غريباً. فوافق الربِّى وانطلقا معاً.

عندما وصل الصديقان إلى أول مدينة نزلا عند امرأة فقيرة لا تملك من حطام الدنيا سوى بقرة واحدة. وأكرمت المرأة وقادتهما ولم تدخِّر جهداً فى إكرام ضيفيها فأكلا وشربا وباتا ليلتهما فى منزل المرأة. وفى الصباح عند مغادرتهما منزل المرأة فوجئ الربِّى «يشوع» بصديقه «إيلياء» يدعو الرب أن تموت بقرة المرأة العجوز. وعندما سمعه «يشوع» كاد يُجَنُّ وفكر فى نفسه قائلاً:

- «أهذه هى المكافأة التى تستحقها هذه المرأة الطيبة على حسن ضيافتها لنا وإكرامنا!؟».

وما كادا يغادران منزل المرأة إلا وماتت البقرة. لكن الربِّى لم يسأل «إيلياء» وأمسك لسانه بعد مجاهدة مع نفسه.

ثم أتيا إلى مدينة أخرى فنزلا عند رجل غنى موسر ولكنه بخيل... إذ على الرغم من أنهما قد باتا ليلتهما فى منزل الرجل، فإنه لم يقدم لهما طعاماً ولا شراباً.. وفى صباح اليوم التالى وبينما الصديقان على وشك مغادرة المنزل وجدا جداراً فى بيت الرجل متهدماً فدعا «إيلياء» الرب ليقيم الجدار فأقام الجدار سليماً وكأنه مبنى للتو!! وعندها كذلك كاد الربِّى «يشوع» يُجَنُّ من تصرف «إيلياء».. ولكنه أمسك لسانه كما وعده فلم يسأله.

ثم انطلقا معاً حتى إذا أتيا إلى مدينة أخرى ودخلا إلى كنيس فيها وجداه مزخرفاً ومجهزاً بأفخم الأثاث والمتاع.. لكن عندما طلبا من المتعبدين فى هذا الكنيس تقديم الطعام والشراب لهما باعتبارهما عابرى سبيل قد أنهكهما طول السفر، رفض الناس متعللين بأنهم لا يجدون هم أنفسهم ما يأكلون أو يشربون.. وفى الصباح التالى وبينما الصديقان على وشك مغادرة البلدة سمع "يشوع" صديقه يدعو الرب لكى يرفع أهل هذا الكنيس ليكونوا جميعاً «رؤساء». ومرة ثالثة اضطر الربِّى «يشوع» لبذل مجهود كبير لمنع نفسه من سؤال «إيلياء» عن سبب تصرفه، كما تعاهدوا منذ بداية الرحلة..

ثم أتيا إلى مدينة رابعة فضيَّفهما أهلها وأحسنوا معاملتهما وأكرموا وفادتهما.. وعند مغادرتهما لهذه المدينة فى الصباح التالى دعا «إيلياء» الرب لأهل المدينة بأن يجعلهم «رأساً واحدة». وعند ذلك لم يطق الربِّى «يشوع» صبراً وسأل «إيلياء» عن سبب كل هذه التصرفات الغريبة..

فأجابه إيلياء:

ـ «أما المرأة الفقيرة صاحبة البقرة، فإنى قد علمت أن الرب قد قرر أن يميتها فدعوته لكى يميت بقرتها بدلاً منها.. وأما الرجل الغنى البخيل صاحب الجدار فقد كان تحت الجدار كنز وأردت ألا يحصل عليه ذلك البخيل متحجر القلب.. وأما أصحاب الكنيس البخلاء فقد دعوت الرب ليجعلهم جميعاً رؤوساً ورؤساء حتى تتفرق كلمتهم وتنحط حالهم.. وأما أهل البلدة الطيبة فإنى

دعوت الرب لكى يجلعهم رأساً واحدة، أى يجعلهم متفقين ولا يكون بينهم خلاف حتى تتصلح حالهم..

وهكذا كما ترى فإن للرب حكمة خفية فى قضائه لا يعلمها كل واحد من الناس...

لكن وحيث أننا تعاهدنا على ألا تسألنى عن شىء وإلا فارقتك.. فلابد أن نفترق الآن».

وهكذا افترق الصديقان بعدما تبيَّن للربِّى يشوع بالتجربة العملية أن للرب حكمة خفية فى كل ما يقضى به فى شئون الناس، حتى وإن بدا فى الظاهر غير ذلك[1]..



(١) قصة شبيهة بقصة سيدنا موسى عليه السلام مع العبد الصالح والتى ورد ذكرها فى سورة الكهف.

«إيلياء» وملاك الموت

من بين أفعال الخير الكثيرة التى قام بها «إيلياء» لابد أن نذكر إنقاذه لأولئك الذين صدر قرار سماوى بتسليمهم لقبضة ملاك الموت. وكان ينقذ هؤلاء الضحايا بأن يحذرهم من اقتراب موتهم ويستحثهم على فعل الخيرات التى تجنبهم عاقبة الموت.

ففى مرة من المرات كان هناك رجل غنى وتقى وله ابنة جميلة وطيبة. لكن كان حظ هذه الابنة سيئاً إذ كانت كلما تزوجت رجلاً يموت فى اليوم التالى ليوم زفافهما. وهكذا بعدما مات لها ثلاثة أزواج بهذه الطريقة، قررت عدم الزواج مرة أخرى.

وكان لهذه الابنة ابن عم حمله الفقر ودفعته الحاجة إلى شد الرحال إلى حيث عمه لكى يطلب منه مساعدته وعونه. وعندما وصل الشاب إلى بيت عمه ووقعت عيناه على ابنة عمه، وقع فى غرامها واستحوذ حبها على قلبه وقرر الزواج منها. وعبثاً حاول عمه إثناء ابن أخيه عن الزواج من ابنته.. إذ بالرغم من أنه قد أخبره بما آل إليه مصير أزواجها الثلاثة السابقين، لم يخف الشاب ولم يرجع عن قراره. وهكذا استسلم العم وتم الزواج..

وبينما كان الشاب يجلس بجوار عروسه فى كوشة الزفاف، اقترب منه «إيلياء» متنكراً فى هيئة رجل عجوز وقال له:

- «عندى لك نصيحة يا ولدى.. إذا اقترب منك شحاذ عجوز قذر الهيئة رث الثياب كأن شعره أظافر، فاستقبله بود وترحاب وأجلسه إلى جوارك على

المائدة وقدم له أطايب الطعام، فإذا فعلت ذلك لن يمسسك سوء» ثم تركه «إيلياء» وانصرف.

وعندما أقيمت وليمة الزفاف وجلس إليها الشاب وعروسه، ظهر الشحاذ الذى تكلم عنه «إيلياء» فهرول إليه الشاب وفعل ما نصحه به «إيلياء». وبعدما انتهت الوليمة كشف الغريب عن حقيقته للشاب قائلاً:

- «أنا ملاك الموت وقد أرسلنى الرب إليك لآخذ روحك».

وعبثاً حاول الشاب التوسل إليه لإثنائه عن قراره.. ثم اقتربت منه العروس وقالت له:

- «إن التوراة تعفى المتزوج حديثاً من الالتزام بأية فرائض لعام كامل. فإذا أنت قمت الآن بقبض روحه فسوق تكذِّب التوراة».

وعند ذلك أمر الرب ملاك الموت بالعدول عما جاء من أجله فنجا الشاب، وعندما جهز له أقاربه قبره واستعدوا لدفنه جاءوا إليه فوجدوه سليماً لم يمسسه سوء.

* * *

وحدث شىء مماثل لابن العالم الكبير والحبر العظيم الرِّبى «رأوبين» الذى جاءه ملاك الموت وأخبره أن ابنه الوحيد سيموت.

وعند ذلك قال له الرجل التقى فى استسلام:

- «ليس لنا من حيلة - نحن البشر الفانين - فى منع قضاء الرب إذا حلَّ بنا.. لكن أرجوك أمهلنى ثلاثين يوماً حتى أزوِّج ابنى وأفرح به..

فوافق ملاك الموت، ولم يخبر الرِّبى أحداً بما حدث وانتظر حتى كان آخر يوم فى المهلة فأعد وليمة زفاف. وفى ذلك اليوم التقى «إيلياء» مع العريس وأخبره بدنو أجله.

لكن الابن التقى الذى يشبه أباه فى تقواه، قال له:

- «ومن ذا الذى يقدر على الاعتراض على قضاء الرب؟ وهل أنا أفضل من إبراهيم وإسحق ويعقوب الذين نفد فيهم قضاء الرب جميعاً فماتوا؟».

كما أخبره «إيلياء» بأنه سيأتيه شحاذ عجوز رث الثياب باليها وأوصاه بأن يبالغ فى أكرامه قدر استطاعته، وساعتها لن يمسَّه سوء. وحدث ما أخبر به «إيلياء» وظهر ملاك الموت متنكراً فى هيئة الشحاذ العجوز فهرول إليه الشاب وأكرمه وأطعمه وسقاه بيديه. وتأثر ملاك الموت بمعاملة الشاب الطيبة..

وعندما كشف ملاك الموت عن نفسه للشاب وأخبره بالمهمة التى جاء من أجلها، لم يستطع ملاك الموت الصمود أمام توسلات الأب التقى ودموع الابن الطيب وصراخ وتضرعات العروس الجميلة التى ذكَّرت ملاك الموت بما تنص عليه الشريعة من إعفاء المتزوجين حديثاً من الالتزام بأية فروض طوال عام كامل. وهرول ملاك الموت بنفسه ووقف أمام عرش الرب وناشده من أجل الإبقاء على حياة الابن.. فوافق الرب وعاش ابن الرِّبى «رأوبين» سبعين عاماً أخرى فى صحة وعافية..



معلم «القبالة»

لم تكن للقاءات المتكررة بين «إيلياء» وبين علماء الشريعة فى زمن التلمود من أثر على تطور التوراة نفسها، فقد كانت هذه اللقاءات ذات طابع شخصى بحت. وقد كانت علاقة «إيلياء» بالعلوم الروحانية علاقة ذات طابع خاص، بل يمكن القول بأنه يمثل بالنسبة لعلوم «القبالة» ما يمثله «موسى» بالنسبة للتوراة.

وقد تأسست علاقته فى بدايتها بهذه العلوم من خلال الربِّى «شمعون بن يوهاى» وابنه الرِّبى «أليعزر»، فقد ظل يواظب على زيارتهما مرتين يومياً وطوال ثلاث عشرة سنة، فى مخبئهما تحت الأرض، فيبوح لهما بأسرار التوراة.

وبعد ذلك بألف عام، أعطى إيلياء دفعة مماثلة لتطوير «القبالة»، إذ كان هو الذى أباح بأسرارها للمنذور «الربى يعقوب» فى البداية، ثم لتلميذه «إبراهام بن داود» والأسرار الموجودة فى الكتابين «فيليه» و «كانه»، يدين مؤلفهما «ألقانة» بهما كلها لإيلياء الذى ظهر له فى هيئة رجل عجوز مهيب الطلعة وأباح له بالأسرار العلوية التى يتم تعليمها فى الأكاديمية السماوية. بالإضافة إلى ذلك فقد قاده إلى صخرة نارية نُقش عليها حروف غامضة قام «ألقانة» بفك رموزها.

وبعد أن تشبع تلميذه بهذه الطريقة تماماً بالتعاليم الروحانية، أخذه «إيلياء» إلى قبر الآباء ثم من هناك إلى الأكاديمية السماوية. لكن الملائكة لم يرتاحوا لوجود هذا الضيف «المولود من امرأة» فضايقوه لدرجة جعلته يتوسل لإيلياء لكى يعيده إلى الأرض. لكن معلِّمه هدأ روعه وواصل تعليمه.

وبصفة عامة تميز القبَّاليون بقدرتهم العظيمة على استحضار «إيلياء» باتباع طقوس معينة. وذات مرة قام واحد منهم، وهو الرِّبى «يوسف الرنياوى»، باستحضار «إيلياء» متبعاً هذه الطقوس، ولكن تسبب ذلك فى مصرعه. فقد كان هذا الرِّبى من العلماء الأتقياء ومن شدة حبه للبشر رأى أن واجبه يحتم عليه العمل بكل وسيلة لخلاص الإنسان عن طريق قهر الملاك «سماعيل» أمير الشر وبعد صلوات كثيرة وسهر ليال طويلة وصوم أيام عديدة وأداء الكثير من الطقوس الروحانية الأخرى، وجدَ الرِّبى يوسف نفسه مع تلاميذه الخمسة لاستحضار «إيلياء» الذى حضر فأخبره الربِّى بمقصده.. لكن «إيلياء» حذره من مغبة فعله وأن ذلك قد يؤدى إلى هلاكه. لكن الربِّى لم يتراجع عن عزمه وصمم عليه، فأخبره «إيلياء» بما يجب عليه فعله لكى يقف الملاك العظيم «صندلفون» فى جانبه أثناء خوضه للحرب مع الشيطان، وعلَّمه كذلك الخطط التى يجب عليه اتباعها فى هذه الحرب ليخرج منها منتصراً.

وبالفعل، اتبع الربِّى تعليمات وتوجيهات «إيلياء» بحرص وعناية بالغين وأفلح فى استدعاء الملاك «صندلفون» الذى هرع إلى مساعدته. ولو كان الربِّى «يوسف» قد واصل اتباع تعليمات «إيلياء» بكل دقة ونفَّذ جميع نصائح الملاك «صندلفون»، لكان قد قضى على الشيطان وأراح البشرية من الخطيئة مبكراً. لكنه لسوء الحظ، نسى إحدى التعليمات وخالف نصيحة من نصائح الملاك «صندلفون» فانتهز الشيطان الفرصة واستجمع قواه وقضى عليه.



البشير بمجىء «المسيَّا»

على الرغم من تعدد الأدوار التى لعبها ويلعبها «إيلياء» فى تاريخ البشرية، فلا يمكن مقارنتها، رغم أهميتها، بما يُتوقع منه أن يفعله فى نهاية الزمان حينما يجىء زمن «المسيَّا». إذ أن «إيلياء» مكلَّف بالإعداد للزمان الأخير وبإعادة ذرية «يعقوب». وهكذا فإن مهمة «إيلياء» المسيانية لها جانبان: أنه سيكون البشير بمجىء المسيا، ومع ذلك فسيدرك هو نفسه الخطة الموعودة للخلاص. وستكون مهمته الأولى حض بنى إسرائيل على التوبة عند اقتراب زمن ظهور «المسيا»، وإحلال السلام والوفاق فى العالم. ومن ثَمَّ، فسيكون عليه أن يعمل على حل جميع المشاكل القانونية وتسوية جميع القضايا الشرعية التى تراكمت من قديم الزمان، وتسوية الخلافات بين وجهات نظر العلماء. وباختصار سيتم إزالة جميع الاختلافات من الآراء، من طريق المسيا. وسوف يواصل «إيلياء» منصبه هذا كمفسر للشريعة حتى بعد أن يتأسس عهد السلام على الأرض، وستكون علاقته بموسى مثلما كانت علاقة «هارون» به.

* * *

سيبدأ «إيلياء» عمله التحضيرى قبل ظهور المسيا بثلاثة أيام. ثم سيظهر فى فلسطين لينوح على دمار الأرض المقدسة، وسوف يسمع العالم كله نواحه.

وستكون آخر كلمات مرثيته هى:

«الآن سيحل السلام على الأرض!».

وعندما يسمع فاعلو الشر هذه الكلمات سيفرحون ويبتهجون.

وفى اليوم الثانى سيظهر مرة أخرى ويصيح معلناً:

- «سيحل الخير على الأرض!».

ثم يظهر فى اليوم الثالث ليقول:

- «سيأتى الخلاص إلى الأرض!».

ثم سينفخ «ميكائيل» فى البوق ليظهر «إيلياء» مرة أخرى، لكن هذه المرة ليعلن عن ظهور «المسيِّا». ولكى يتأكد اليهود من شخصية «المسيا» سيطلبون منه صنع معجزة إحياء الموتى أمام أعينهم، فيطلبون منه إحياء أناس يعرفونهم شخصيا..

لكن المسيا سيصنع المعجزات السبع التالية:

سيعيد «موسى» وجيل الصحراء إلى الحياة..

سيرفع «قورح» وبطانته من بطن الأرض..

سيبعث «المسيا» الإفرايمى الذى ذبح..

سيظهر الأوانى المقدسة الثلاثة فى الهيكل، وهى تابوت العهد وقارورة المن وزجاجة الزيت المقدس، والتى كانت ثلاثتها قد اختفت بطريقة غامضة..

سيلوِّح بالصولجان الذى أعطاه الرب له..

سيطحن جبال الأرض المقدسة حتى تصير مثل عيدان القش..

وسيكشف عن سر الخلاص..

وعند ذلك سيصدق اليهود أن «إيلياء» الذى يرونه هو نفسه «إيلياء» الذى وعدوا به، وأن «المسيا» الذى أعلن عنه هو «المسِّيا» الذى ينتظرونه.

بعد ذلك سيأمر «المسِّيا» إيلياء بالنفخ فى البوق، وعند النفخة الأولى

سيعود النور الأوَّل الذى كان قبل بدء الخليقة للظهور من جديد، وعند النفخة الثانية سيقوم الموتى من قبورهم؛ وعند النفخة الثالثة ستظهر الشكينة للجميع؛ وعند النفخة الرابعة ستتهد الجبال وتُسَوَّى بالأرض؛ وسينتصب الهيكل تاما كاملاً كما وصفه «حزقيال»..

وخلال عهد السلام، سيكون «إيلياء» واحداً من الأمراء الثمانية الذين يشكّلون مجلس ولاة «المسيّا». وفى ذلك اليوم سيتم حساب أطفال الأشرار الذين ماتوا فى طفولتهم، من بين المتقين.. بينما ستحِسب آباؤهم بين العاصين. وسيناشد الأطفال آباءهم الانضمام إليهم، لكن الرب لن يسمح بذلك.

وعندها سيذهب الأطفال ويقفون أمام الرب ويقولون له:

- «أليس رحمتك أعظم من عقوبتك؟ وإذا كان كذلك فإنَّا قد متنا بسبب خطايا آبائنا.. أفلا يغفر لهم الآن من أجلنا، ويؤذن لهم بالانضمام إلينا فى الجنة؟».

وعند ذلك سيوافق الرب على طلبهم...

وبذلك سيكون «إيلياء» قد حقق نبوءة النبى «ملاخى» الذى قال:

- «ويرد الآباء إلى أطفالهم».

وسيكون آخر ما يقوم به «إيلياء» هو تنفيذ أمر الرب بذبح «سماعيل» وبذا ينتهى الشر من على الأرض إلى الأبد.



الفصل الثامن

«إليشع ويونان»



«إليشع» تلميذ «إيلياء»

عندما صعد «إيلياء» إلى السماء، سكتت جميع أصوات أنبياء زمانه. إذ معه اختفت روح النبوة وفارقت أولئك الذين كانوا من قَبْلُ لا يقلون عنه منزلةً. وكان «إليشع» هو الوحيد من بينهم الذى لم تخبُ فيه هذه الروح، بل على العكس زادت وقويت ثوابا له على إسراعه دائماً بتنفيذ أوامر وتعليمات «إيلياء».. تاركاً حقله الذى كان يحرثه، مع جميع ما كان يملكه لصالح المجتمع. ومن ساعتها ظل رفيقاً ملازماً لإيلياء. وعندما نزل الملاك من السماء ليأخذ «إيلياء» وجد الرجلين منهمكين فى نقاش علمى، فلم يستطع مقاطعتهما وعاد من حيث أتى دون أن يكمل مهمته..

وعندما وعد «إيلياء» تلميذه المخلص بأن يمنحه نصيباً مضاعفاً من روحه العجيبة، تحقق الوعد فى الحال. وخلال حياته صنع «إليشع» ست عشرة معجزة، كان أولها عبور نهر «الأردن» والتى تعتبر معجزة أعظم من العجيبة التى صنعها «إيلياء».. إذ أن «إليشع» قد عبر النهر بمفرده، بينما كان «إيلياء» يرافقه «إليشع» عندما عبره. وذلك لأن للقديسين قوة أكبر من قديس واحد.

لكن المعجزة الثانية التى صنعها - وهى معالجة مياه «أريحا» حتى عادت صالحة للشرب - قد آذته هو نفسه.. إذ أن الناس الذين كانوا يستغلون الظروف لبيع الماء للشعب قد اشتاطوا غضباً عندما أفسد عليهم النبى تجارتهم بهذه المعجزة التى أوقفت حالهم. وقد كان «إليشع» يعلم - بروح النبوة - أن التجار ليس فى قلوبهم ذرة خير، ولا آباؤهم أو أجدادهم من قبل كانوا

كذلك.. ولهذا فقد لعنهم فظهرت فى المكان فجأة غابة انطلق منها دببة انقضوا عليهم وافترسوهم. ومع أن هؤلاء التجار الخطاة كانوا يستحقون ما حدث لهم، فإن «إليشع» قد عانى من مرض خطير جدا، لأنه كان استسلم لغضبه. وفى ذلك شابه «إليشع» أستاذه «إيلياء» الذى سمح للغضب والحماسة بأن يسيطرا عليه ويوجها أفعاله. وقد أراد الرب تطهير النبييّن من هذه الخطئية ولهذا فعندما وبخ «إليشع» الملك «يهورام» ملك إسرائيل، هجرته روح النبوة وكان عليه أن يلجأ لوسائل مصطنعة لكى يوقظ هذه الروح داخل نفسه.

مثله مثل أستاذه، كان «إليشع» على استعداد دائم لمساعدة الفقراء والمحتاجين، كما يشهد بذلك تعاطفه مع أرملة واحد من أبناء الأنبياء، ومن العون الفعال الذى قدمه لها. ولم يكن زوج هذه المرأة سوى «عوبديا» الذى كان بالرغم من أنه نبى من الموظفين الكبار فى بلاط الملك الخاطئ العاصى «آخاب» وكان الرب قد ألهم «عوبديا» الذى كان «أدومى» المولد - لكى يتنبأ ضد أدوم. وكان «عوبديا» يعتبر فى نفسه تجسيداً للنقيض من «عيسو» الذى كان قد عاش مع والديه التقيين دون أن يحذو حذوهما أو يقتدى بهما، بينما كان «عوبديا» يتعامل يوميا مع الملك الطاغية «آخاب» وزوجته الأشر منه «إيزابل» دون أن يؤثرا عليه بأفعالهما الكفرية. «وعوبديا» هذا نفسه لم يكتفِ باستخدام ثروته للإنفاق على الأنبياء الذين كانوا مختبئين عنده، وإنما استدان كذلك المال بالربا من الملك لكى يقوم بذلك.

وعند موته حاول الملك إلقاء تبعة الدين على عاتق أطفاله، ومن يأسها ذهبت أرملته إلى القبر وصرخت قائلة: «أيها الرجل التقىّ!».

وفى الحال سمعت صوتاً من السماء يجيبها قائلاً:

- «يوجد أربعة رجال أتقياء: إبراهيم ويوسف وأيوب وعوبدديا. فأيهم تكلمين؟».

فأجابته قائلة:

ـ «إلى ذلك الذى قيل عنه «كان يخشى الرب ويخافه جدا».

فقيدت إلى قبر النبى «عوبديا» حيث حكت قصتها الحزينة فأمرها «عوبديا» بأن تأخذ الكم القليل المتبقى من الزيت الذى لازال عندها وتذهب إلى النبى «إليشع» وتطلب منها أن يتوسل لها عند الرب.

وأضاف «عوبديا» قائلاً:

ـ «لأن الرب مدين لى بإطعامى للأنبياء المئة، ليس فقط بالخبز والماء، ولكن كذلك بالزيت الذى استخدمته لإضاءة مخبئهم، ألا تقول التوراة:

«إن من يعطف على الفقراء يداين الرب؟».

وفى الحال أسرعت المرأة تنفذ ما أمرها به..

وذهبت إلى «إليشع» الذى جعل كمية الزيت القليلة تكفى لملء آلاف المصابيح فأخذت تعبئه فى أوان لا عدد لها فلما نفدت الأوانى أحضرت زجاجات مكسورة راجية أن يصلحها لها الرب. وهكذا كان.

ولم يتوقف الزيت عن التدفق والفيضان إلا بعدما نفدت جميع الأوانى والزجاجات. ومن تقواها أرادت المرأة إخراج عشر ما تملكه صدقةً، لكن «إليشع» رأى أنه طالما أن الزيت قد حصلت عليه بمعجزة، فإنها تستطيع الإحتفاظ به كله وتستخدمه كله لنفسها. كما أكَّد لها «إليشع» على أن الأمراء أبناء الملك لا يستطيعون إيذاءها.

وقال لها «إليشع»: ـ «لأن الرب الذى سينجِّى «دانيال» من فم الأسد، والذى أغلق أفواه الكلاب فى مصر، سيعمى عيون أبناء «آخاب» ويصم آذانهم فلا يقدرون على إيذائك»..

وهكذا فلم تخرج المرأة المسكينة من أزمتها وحسب، وإنما ظلت ذريتها إلى الأبد دون أن تحتاج لشىء أو يصيبها فقر. إذ ارتفع سعر الزيت فجنى منه أطفالها ثروة كفت حاجتهم إلى الأبد.

«الشونميـــة»

المرأة العظيمة التى من «شونم»، والتى كانت أخت «أبيشج» وزوجة للنبى «عِدُّو»، وهى الأخرى كانت تدين للنبى «إليشع» بالفضل العظيم. إذ عندما وصل «إليشع» إلى «شونم» فى رحلته خلال أرض إسرائيل، أثَّر على الشونمية تأثيراً عظيماً بروح نبوته. بل لقد كانت طلعة هذا النبى العظيم مهيبة حتى إنه لم تكن هناك امرأة تقدر على التطلع إلى وجهه وتبقى على قيد الحياة.

وعلى العكس من باقى النساء اللائى يتعاملن بالشح والبخل، أسرفت المرأة الشونمية فى إكرام النبى «إليشع» عندما نزل ضيفاً عليها. ولاحظت أنه حتى الذباب لا يجرؤ على الاقتراب من ذلك الرجل القديس، وأن بدنه يفوح بشذى عطر.

فقالت المرأة لنفسها:

- «لو لم يكن قديساً عظيماً وروح الرب عليه، لما انبعثت منه هذه الرائحة الزكية»...

ولكى لا يزعجه أحد فى نومه خصصت هذه المرأة له أفضل غرفة فى بيتها.. أما هو، فمن جانبه لم يجد ما يكافئها به على كرمها البالغ معه، سوى أن وعدها بأن الرب سينعم عليها بطفل خلال عام.

لكن المرأة احتجت قائلة:

- «لكن زوجى شيخ كبير، وأنا عجوز وما عاد لى فى إنجاب الأطفال! لا يمكن أن يتحقق وعد كهذا!!!».

لكن وعد النبى تحقق، فما كاد يمر اثنا عشر شهراً إلا وأصبحت أمّاً.

وبعد ذلك بسنوات مات ابنها فجأة فهرولت المرأة إلى النبى وقالت له فى لوعة: «ياليت وعائى كان قد ظل خاوياً، بدلاً من أن يُمّلأ ثم يضحى خاوياً.. فأقر لها النبى بأنه وإن كان الرب، بصفة عامة، يخبره بكل ما سيحدث فى المستقبل، فإنه لم يخبره من قبل بتلك المصيبة التى حلت بها. ثم ناول النبى عصاه لتلميذه «جيحازى» وفى ثقة بالرب أمره بأن يذهب المرأة ليحيى لها ابنها.

لكن «جيحازى» لم يكن تلميذاً يناسب أستاذه.. إذ تصرف مع المرأة تصرفاً لا يليق بتلميذ لنبى، وعلاوة على ذلك، وفوق كل شىء، لم يكن لديه إيمان بإمكانية نجاحه فى المهمة التى كُلِّف بها. وبدلاً من أن ينفذ تعليمات «أليشع» بألا يتحدث بكلمة مع ابن المرأة أثناء سيرهما فى الطريق، فإن «جيحازى» قد استهان بمهمته وأفسدها. إذ كان كلما قابل رجلاً فى الطريق يسأله:

- «هل تظن أن هذه العصا يمكن أن تحيى الموتى؟».

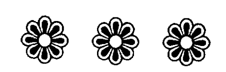
وكان من نتيجة ذلك أن ضاعت منه القوة التى كان سيتم بها مهمته التى كلف بها. ولذا فقد كان على «إليشع» أن يقوم بها بنفسه.

وأحب النبى ودعا قائلاً:

«يارب العالم.. كما صنعت المعجزات من خلال أستاذى «إيلياء» وأحييت الموتى على يديه، مكّنى أنا أيضاً من صنع المعجزات وأعد الحياة لهذا الغلام».

فاستجاب له الرب وبعث الغلام حيّاً من جديد.

وهذه المعجزة تبين اعتراف «إليشع» بجميل المرأة، إذ صنع معها هذه المعجزة التى رفضت من قبل القيام بها مع أقرب أقربائه»..



«جيحازى»

إن «جيحازى» الذى أثبت عدم جدارته فى تلك المناسبة، عاد ليثبتها من جديد عندما خالف أمر النبى «إليشع» له بعدم قبول أية أموال من «نعمان» الزعيم الآشورى. لكنه لم يفلح فى خداع النبى ـ فعند عودته من عند «نعمان» وجد «إليشع» مشغولاً بقراءة الفصل من المشنا شباط الذى يتعامل مع الزواحف الثمانية.

واستقبله النبى «إليشع» معاتباً قائلاً:

ـ «أيها الوغد الشرير! لقد حان الوقت الذى أكافأ فيه على دراستى لأجزاء المشنا التى تتعلق بالزواحف الثمانية. فلتكن مكافأتى أن يصيبك الرب أنت وذريتك إلى الأبد بالمرض الذى كان ابتلى به «نعمان»».

وما كاد ينتهى من آخر حرف من هذه الكلمات، إلا وانتشر البرص فى وجه «جيحازى» الذى كان يستحق هذه العقوبة بسبب شخصيته الوضيعة، فقد كان شهوانيا حسَّاداً ولا يؤمن ببعث الموتى. كما اتضحت طباعه الدنيئة فى تصرفه مع المرأة الشونمية ومع تلاميذ «إليشع». إذ عندما هرعت المرأة الجميلة إلى النبى تشكو له مصيبتها، بموت ابنها، احتضنها «جيحازى» فى عنف وتحسس صدرها، متظاهراً بأنه يبعدها عن النبى الذى كانت قد أمسكت بطرف ثوبه تناشده وتتوسل إليه.

أما عن تلاميذ «إليشع» الآخرين، فقد حاول إبعادهم عن بيت النبى. فقد كان من عادته الوقوف عند الباب فعندما يراه كثير من التلاميذ ينفرون

ويعودون أدراجهم من حيث جاءوا، إذ كانوا يقولون لأنفسهم أنه لو لم يكن البيت مملوءاً عن آخره بالناس، لما كان «جيحازى» يقف هكذا خارجه. ولم يتزايد عدد تلاميذ «إليشع» بصورة مذهلة إلا بعد طرد «جيحازى». أما عدم إيمانه ببعث الموتى فقد تجلَّى بوضوح فى عدم تصديقه لإمكانية إحياء ابن المرأة الشونمية.

* * *

لكن...

على الرغم من كل هذه الخطايا، فإن «إليشع» ندم على طرده لتلميذه «جيحازى» الذى كان متبحراً فى الشريعة، وكذلك خصوصاً لأن «جيحازى» قد انغمس فى حياة الخطيئة بعد طرده. وقد استطاع جعل العجول الذهبية التى فى بيت إيل تطير فى الهواء بواسطة المغنطيسية، لذا فقد آمن كثير من الجهلة بأن هذه الأصنام هى آلهة. بالإضافة إلى ذلك فقد حفر «الاسم الأعظم» فى أفواهها، وبذا فقد استطاعت أن تتكلم وتنطق بنفس الكلمات التى نطق بها الرب على جبل سيناء:

- «أنا الرب إلهك فلا تتخذ لك آلهة غيرى».

لهذا كله قرر «إليشع» التوجه إلى «دمشق» لكى يرد «جيحازى» إلى طريق الطاعة مرة أخرى. لكن هذا الخاطئ ظل مصرّاً على كفره..

إذ قال:

- «لقد تعلَّمتُ منك أنه لا توبة لمن لا يكتفى بالوقوع فى الخطيئة بنفسه وإنما يحض الناس عليها».

ولهذا فقد مات «جيحازى» دون أن يفعل شيئاً يكفر به عن خطاياه. التى بلغت من الكبر حد أنه من اليهود المعدودين الذين لا نصيب لهم فى الجنة، وقد ورث أطفاله عنه البرص الذى عوقب به، إذ أنه هو وأبناؤه الثلاثة هم

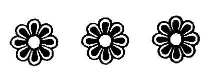
الرجال البرص الأربعة الذين أخبروا ملك إسرائيل بهروب الجنود الآشوريين.

* * *

إن قسوة «إليشع» مع عبده «جيحازى» ومع أطفال «أريحا» الذين سخروا منه[1]، لم يمرا دون عقاب، إذ كان عليه أن يمر بفترتين تعرض فيهما للمرض، ثم أدَّى المرض الثالث الذى أصابه إلى وفاته. وقد كان «إليشع» هو الوحيد فى تاريخ البشرية الذى يمرض ثم لا يموت، إذ من قبله كان الموت هو النتيجة الحتمية للمرض.

وقد حدثت معجزة عظيمة صاحبت انتهاء حياة حافلة بالمعجزات.. إذ بُعِث رجل ميت عند لمس نعش «إليشع»، وقام واقفاً على رجليه. وكان هذا الميت شخصية متميزة تستحق هذه المعجزة، فقد كان «شالوم» ابن «تقفة» زوج «خلدة» النبية، وكان رجلاً شريفاً تميز فى حياته بالأخلاق الطيبة. وكان من عادته أن يحمل سطلاً كبيراً للماء ثم يخرج على طريق المدينة ليسقى عابرى السبيل. وكان ذلك صنيعاً جميلاً منه استحق عليه مكافأة مزدوجة إذ أصبحت زوجته نبية ثم بُعِثَ هو نفسه حيّاً وعاش لينجب ابناً أسماه «حتميل».

وكان موت «إليشع» نذير شؤم على بنى إسرائيل إذ غزا الآراميون أرضهم لأول مرة فى يوم دفنه.



(١) هذه قصة من أعجب وأبشع القصص التى وردت فى الكتاب المقدس، وسوف أنقلها للقارئ دون تعليق:

ثم صعد من هناك إلى بيت إيل. وفيما هو صاعد فى الطريق إذا بصُبيان صغار خرجوا من المدينة وسخروا منه وقالوا له اصعد يا أقرع، اصعد يا أقرع، ٢٤ فالتفت إلى ورائه ونظر إليهم ولعنهم باسم الرب، فخرجت دُبَّتان من الوعر وافترست منهم اثنين وأربعين ولداً» (سفر أخبار الملوك الثانى، الأصحاح الثانى العددان ٢٣، ٢٤)..!

فرار يــونان[1]

من بين آلاف التلاميذ الذين اتبعوا النبى «إليشع» خلال الأعوام الستين التى مارس فيها نشاطه، كان الأبرز هو النبى «يونان» وفى حياة أستاذه، تم تكليف «يونان» بمسح «ياهو» ملكاً. ثم كانت مهمته الثانية أن يعلن لسكان «أورشليم» عن قرب هلاكهم. لكن ذلك لم يحدث لأنهم تابوا فرحمهم الرب وصفح عنهم. لهذا فقد كان «يونان» معروفاً باسم «النبى الكذاب» بين بنى إسرائيل!!!

لهذا عندما أرسل الرب «يونان» إلى أهل «نينوى» لكى يحذرهم من اقتراب هلاكهم، فكر فى نفسه وقال:

- «أعلم تماماً أن هؤلاء الوثنيين سيندمون ويقلعون عن معاصيهم ويتوبون إلى الرب، فيرحمهم ولا ينزل بهم العقاب الذى سأحذرهم منه.. وهكذا سيقولون هم أيضاً عنِّى أنى «نبى كذاب».

ولذا فقد قرر أن يتفادى هذا الخزى بأن يقيم فى البحر حيث لا يوجد ناس يمكن إبلاغهم بالنبوءات.

وعندما وصل «يونان» إلى «يوبَّه» لم يجد سفناً بالبحر. ولكى يجربه الرب، أثار عاصفة قوية، فحملت سفينة وأعادتها إلى «يوَّبة» وكانت قد انحرفت عن طريقها صارت على مبعدة يومين من الميناء. وفهم النبى من هذه المصادفة أن الرب راض عما فعل. وبلغ من فرحه بمواتاة هذه الفرصة حَدَّ أنه دفع كل الأجرة مقدَّماً، وكانت لا تقل عن أربعة آلاف دينار ذهبى. وبعد الإقلاع والسير

(١) هو يونس عليه السلام.

فى البحر مسيرة يوم من الشاطئ، هبت عاصفة مرعبة.

والعجيب أنها لم تؤثر على سفينة أخرى فى البحر سوى سفينة «يونان»!! وهكذا تعلَّم أن الرب إله الأرض والسماء والبحر، وأن الإنسان لا يستطيع الفرار من الرب.. مهما فعل.

وكان يوجد على ظهر السفينة ممثلون لأمم الأرض السبعين، وكلٌّ منهم يحمل صنمه الخاص به. فلما هبت العاصفة ورأوا أنهم على شفير الغرق قرر كل واحد منهم أن يدعو إلهه ويتوسل له لينقذهم، وأن يعترفوا جميعاً بالصنم الذى ينقذهم كإله حقيقى وحيد للجميع. لكن.. لم يتحرك صنم واحد أو يقدم لهم أى عون أو غوث..!

وعند ذلك اقترب ربان السفينة من «يونان» الذى كان غارقاً فى النوم، وقال له:

- «أنكون بين الحياة والموت وأنت نائم هنا؟! قل لى من أى أمة أنت؟»

فأجابه «يونان»:

- «أنا رجل عبرانى».

فرد الربان قائلاً:

- «لقد سمعنا أن إله العبرانيين هو القوى. اصرخ له إذاً طالباً النجاة، فلربما يصنع لنا معجزة مثل التى صنعها قديماً لليهود عند البحر الأحمر». فلما سمع «يونان» ذلك اعترف للرجل بأنه هو السبب فيما يحدث لهم، وناشده بأن يلقيه فى البحر لكى تهدأ العاصفة وتزول. لكن الركاب الآخرين رفضوا القيام بفعل وحشى كهذا. وبالرغم من أنهم أجروا قرعة كانت فى كل مرة تصيب «يونان»، فإنهم حاولوا فى البداية إنقاذ السفينة بإلقاء حمولتها فى البحر.. لكن دون جدوى.

وعند ذلك رفعوا «يونان» فدلوه من على جانب السفينة.

وقالوا:

- «يارب العالم.. لا تؤاخذنا بهذه الفعلة وتحاسبنا على أننا قد قتلنا نفساً بريئة.. فهذا الرجل نفسه هو الذى يأمرنا بإلقائه فى البحر».

وحتى عند ذلك لم يجمعوا أمرهم على إلقائه فى البحر..

وفى البداية أنزلوه حتى غطى الماء ركبتيه فتوقفت العاصفة.. فسحبوه إلى السفينة فهبت العاصفة من جديد بكل قوتها. وحاولوا مرتين أخريين، فأنزلوه إلى سرته ثم رفعوه من الماء عندما توقفت العاصفة. لكن العاصفة عادت تهب فى قسوة عندما أخرجوه من الماء.

وفى المرة الأخيرة أقنعتهم العاصفة بقوتها بأن ما هم فيه من خطر إنما سببه خطية «يونان» فألقوه فى الماء وتركوه يواجه مصيره.

وهكذا فقد سقط «يونان» فى البحر..

وفى الحال هدأت العاصفة.. وسكنت الرياح.



«يونان» فى بطن الحوت

عند خلق العالم، صنع الرب حوتاً كانت مهمته أن يستضيف «يونان» فى بطنه، فقد كان ضخماً لدرجة أن النبى كان بداخله وكأنه فى قاعة فسيحة رحبة. وكنت عينا الحوت مثل النوافذ بالنسبة ليونان، كما أن جوهرتيهما كانتا مثل نور الشمس له فى وضح النهار، ولذا فقد كان باستطاعة «يونان» رؤية كل شىء فى أعمق أعماق البحر.

من المعلوم أنه عندما يقترب أجل جميع سمك البحر، يذهب إلى «ليفياثان» ليأكله ويتغذى على لحمه.. ولمَّا كانت حياة حوت «يونان» على وشك الانتهاء، حذر «يونان» مما سيحدث. وعندما ذهب الحوت، ويونان فى بطنه، وقدَّم نفسه إلى «ليفياثان»..

قال النبى لذلك الوحش:

- «لقد جئت إلى هنا من أجلك، وكان ينبغى علىّ أن أعرف أين تقيم لأن مهمتى التى كُلِّفتُ بها هى أن أصطادك فى العالم الأتى وأذبحك لكى تكون طعاماً للمنصفين والمتقين».

فلما شاهد الوحش علامة العهد على جسد "يونان" فر مذعوراً، وهكذا نجا من بطشه «يونان» وحوته. ولكى يُظْهِر الحوت امتنانه ليونان، عرض عليه أن يُرِيَهُ كل ما يجب أن يراه. وهكذا كان..

فقد أراه النهر الذى يتدفق منه المحيط..

وأراه البقعة التى عبر عندها بنو إسرائيل البحر الأحمر..

وأراه «جهنم» و«شيول».. وغير ذلك الكثير والكثير من الأماكن الخفية والعجيبة...

ظل «يونان» فى بطن الحوت ثلاثة أيام، ومع ذلك فلم يشعر بأى تعب حتى إنه لم يخطر بباله مناشدة الرب لينقذه أو يغير حاله!! لكن الرب أرسل سمكة كبيرة ومعها ثلاثمئة وخمسة وستون ألف سمكة صغيرة إلى حوت «يونان» وطلبت منه أن يسلمهم ضيفه، وإلا التهموه هو وضيفه فى وقت واحد.

لكن حوت "يونان" لم يصدق كلام السمكة، ولذا فقد جاء «ليفياثان» بنفسه ليؤكد صدق السمكة وشهد بأنه سمع بأذنيه الرب وهو يرسل السمكة ويكلفها بهذه المهمة. وهكذا استسلم «يونان» وذهب مع السمكة.

لكن مسكنه الجديد - الذى كان يشاركه فيه السمكات الثلاثمئة وخمسة وستون ألفا - لم يكن مريحاً كسابقه، ولذا فقد دعا "يونان" الرب وناشده لكى يخلِّصه مما هو فيه. ولأن دعاء «يونان» كان نابعاً من قلبه، فقد سمح له الرب وأمر السمكة فقذفت «يونان» بعيداً فطار ونزل على اليابسة.. على بعد تسعمئة وخمسة وستين فرسخا.

وعندما رأى ركاب السفينة هذه المعجزات كلها آمنوا بإله «يونان» وتركوا عبادة الأصنام، فأصبحوا جميعاً متهودين أتقياء.



توبة أهل «نينوى»

على الفور ذهب «يونان» إلى «نينوى» تلك المدينة العظيمة الممتدة فوق مساحة أربعين فرسخاً مربعاً وبها مليون ونصف المليون من الناس. ولم يضيع وقتاً وأعلن للناس عن قرب هلاكهم.. وكان صوت النبى رناناً حتى إنه تردد فى جميع أرجاء المدينة العظيمة من أقصاها إلى أقصاها. فلما سمع الناس تحذير «يونان» خافوا وندموا على شرورهم وقرروا الرجوع عن طريق المعصية.

وكان على رأس التائبين الملك «عوزنبَّر» ملك آشور الذى نزل من على عرشه وخلع تاجه فألقاه على الأرض ووضع بدلاً منه التراب على رأسه وخلع ثيابه الأرجوانية، ثياب المُلك، وتمرغ فى تراب الطرق. ثم أرسل الملك منادياً فنادى بين الناس آمراً إياهم بصوم ثلاثة أيام ولبس الخيش والابتهال إلى الرب بالدموع والصلوات ليصرف عنهم القضاء القريب. ورفع أهل «نينوى» أطفالهم الرضَّع على أيديهم وخرجوا فى الشوارع يبكون ويتوسلون إلى الرب ليصفح عنهم.. «من أجل هؤلاء الرُضَّع الأبرياء». وعلا الصراخ والنواح والدعاء فى المدينة وجلجلت أصوات الناس تتضرع وتتوسل للرب..

فلما رأى الرب أنهم قد تابوا عن طريقهم الأولى وأن قلوبهم قد تغيرت بالفعل وسكنتها الخشية منه، عفا عنهم وتاب عليهم. وعند ذلك تشجع «يونان» وتضرع للرب ليغفر له فراره من وجهه، فقال له الرب:

- «لقد كنت تريد أن تمجدنى فأخطأت دون قصد يا يونان، ولذا فقد هربت إلى البحر. ولهذا فقد عاملتك بالرحمة وأنقذتك من أحشاء شيول».

الفصل التاسع

«آخر ملوك يهوذا»



«يـــوآش»

عندما قام النبى «يونان» ـ بأمر من أستاذه ـ إليشع ـ بمسح «ياهو» ملكاً، لم يمسحه بزيت موضوع فى قرن، ولكن فى قنينة، وذلك ليدل على أن حكم هذا الملك لن يدوم طويلاً.

وفى البداية، وعلى الرغم من أنه كان ملكاً غبيا إلى حدٍّ ما، فقد كان «ياهو» تقيا على الأقل، لكنه هجر طريق خشية الرب من اللحظة التى رأى فيها الوثيقة التى تحمل توقيع النبى «أخيَّا» الذى من «شيلوه» والتى تلزم الموقعين عليها بالطاعة الكاملة ليربعام. فقد استدل الملك من ذلك على أن النبى قد وافق على عبادة العجول الذهبية. وهكذا فإن ياهو الذى قضى على عبادة الصنم «بعل» لم يحرِّك ساكناً لمقاومة عبادة الأصنام التى أسسها «يربعام» فى بيت إيل.

ولم يكن خلفاء «ياهو» بأفضل منه، بل كانوا أشر وأسوأ، ولهذا فقد انتهت أسرة «ياهو» الملكية فى جيلها الخامس على أيدى القتلة.

* * *

لم يختلف ملوك يهوذا كثيراً عن أقرانهم فى الشمال فمثلاً كان «أحزيا» ـ الذى قتله «ياهو» ـ خاطئاً وقحاً لا يخجل من خطاياه.. فقد أمر بإزالة اسم الرب من كل موضع ورد فيه فى الكتاب المقدس، ووضع بدلاً منه أسماء الأصنام بدلاً منه..!

وبعد مقتل «أحزيا» حل عهد الرعب فى ظل حكم الملكة «أتاليا» عندما انتقم الرب من بيت «داود» بسبب صلته بإبادة كهنة «نوب».

وكما لم يَنْجُ من اضطهاد «شاؤول» لذرية «أبيمالك» سوى «أبياثار»، لم ينج من ذرية «داود» بعدما طاح سيف الملكة «أتاليا» فيها - سوى «يوآش» ذلك الطفل الذى تم إخفاؤه فى قدس الأقداس بالمعبد على يد الكاهن «يهوياداع» وزوجته «يهوشيبا».. وفيما بعد دافع الكاهن «يهوياداع» عن حق «يوآش» فى عرش أبيه وعيَّنه ملكاً على «يهوذا». وكان التاج الملكى الذى كان يلبسه آل «داود» هو نفسه دليلاً على شرعية الأمير الصغير، إذ كان لا يناسب حجم رأس أحد سوى الوريث الشرعى لداود.

* * *

وبتحريض وحضٍّ من «يهوياداع»، قام الملك «يوآش» بتجديد الهيكل وقد تم العمل بسرعة بالغة حتى إن من كان يعيش أيام بناء الهيكل فى زمن الملك «سيلمان»، قد عاش ليرى الهيكل بعد تجديده، بعد وفاة الملك بفترة قصيرة. وطوال اتباع «يوآش» لتوجيهات ونصائح «يهوياداع» ، كان ملكاً تقيا... فلما مات «يهوياداع»، بدأ حاشية «يوآش» يبالغون فى نفاقه ويقولون له:

- «لو لم تكن إلهاً، لما كنت تستطيع الدخول إلى قدس الأقداس الذى لا يستطيع حتى الكاهن الأكبر دخوله إلا مرة واحدة فى العام».

فاطمأن الملك لنفاقهم وسمح للناس بعبادته..

لكن عندما بلغت حماقة الملك مداها وقرر نصب صنم فى الهيكل، ذهب إليه «زكريا» بن «يهوياداع» واعترض طريقه إلى الهيكل قائلاً له:

- «لن تفعل ذلك إلا على جثتى!».

ومع أن «زكريا» كان الكاهن الأعلى وكان نبيا وقاضياً وقريباً للملك، فإن «يوآش» لم يتورع عن قتله بسبب جرأته عليه.. ولا ارتدع الملك حتى بأن اليوم

كان يوم التكفير والذى صادف أن كان يوم سبت.

لكن الدماء البريئة التى لطخت قاعة الكهنة لم تضع هدراً..

إذ ظلت هذه الدماء تراق وتسيل وتصرخ إلى الرب طالبة الانتقام طوال مئتين واثنتين وخمسين سنة.. إلى أن أمر «بنو زارادان» قائد قوات «نبوخذنصر» بمذبحة كبيرة وسط اليهوذيين.. انتقاماً لمقتل «زكريا».

أما «يوآش» قاتل «زكريا» نفسه، فقد لقى مصيراً أسودَ.. فقد سقط فى أيدى الآشوريين فعذبوه بطريقتهم الوحشية.. وقبل أن يتعافى من آثار تعذيبهم، انقض عليه عبيده وقتلوه..

* * *

ثم خلف «يوآش» على العرش ابنه «أمصيا» الذى شابه أباه فى الكثير. ففى بداية عهده كان تقيا يخاف الرب، لكن عندما نصره الرب على الأدوميين نصراً حاسماً، لم يجد طريقة أفضل للتعبير عن امتنانه لجميل الرب عليه سوى أن نشر فى «أورشليم» عبادة الأصنام التى كان يعبدها أعداؤه الذين انتصر عليهم. ولكى يوقعه الرب فى شر أعماله دفعه لشن الحرب ضد «يوآش» ملك المملكة الجنوبية. ومع أن «يوآش» حاول فى البداية إثناءه عن العدوان عليه وذكَّره بمصير مدينة «شكيم» التى هلكت بسبب اعتدائها على «دينة» ابنة «يعقوب»، فإنه لم يرتدع ولم يرعو فنشبت الحرب التى هُزم فيها «أمصيا» هزيمة نكراء انتهت بقتله على أيدى رَعاياه أنفسهم..!



الأنبياء العظام

يعتبر حكم الملك «عُزَيَّا» - الذى جلس على العرش لفترة قصيرة فى حياة والده - مهما لأنه يمثل بداية نشاط ثلاثة من الأنبياء هم «هوشع» و«عاموس» و«أشعيا». وكان أكبر الثلاثة سنا هو النبى «هوشع» ابن النبى والأمير «بئيرى» الذى أسره فيما بعد ملك آشور «تجلة بلشاصر». ولم يحتفظ لنا «أشعيا» سوى بنبوءتين من نبوءات «بئيرى».

ولم يكن الزواج الغريب الذى قام به «هوشع» بأمر من الرب نفسه بلا سبب[1] إذ عندما كلَّم الرب «هوشع» وحدثه عن خطايا بنى إسرائيل متوقعاً منه أن يدافع عنهم، قال «هوشع» فى مرارة:

- «يارب العالم.. إن الأرض كلها ملك لك، فاستبدل بنى إسرائيل بأمة ثانية واتخذها شعباً لك من بين جميع أمم الأرض».

ولهذا فإن الرب قد أمره بأن يأخذ لنفسه زوجة امرأةً زانية، لكى يتبين حقيقة علاقة بنى إسرائيل مع الرب. ففعل «هوشع» ما أمره به الرب واتخذ امرأة زانية زوجةً له، وبعدما ولدت له عدة أطفال قال له الرب فجأة:

- لماذا لم تقتدِ بمعلمك «موسى» الذى امتنع عن متع الحياة الزوجية بعد أن اخترته للنبوة؟».

(١) الإشارة إلى ما ورد فى الكتاب المقدس والنص كالتالى:

«٢ أول ما كلم الرب هوشع قال الرب لهوشع اذهب خذ لنفسك امرأة زنا لأن الأرض قد زنت زنا تاركة الرب» (هوشع ١ : ٢) ولا تعليق!.

فأجابه «هوشع»:

ـ «لا أستطيع طرد امرأتى ولا حتى تطليقها، فقد أنجبت لى أطفالاً».

فقال له الرب:

ـ «فإذا كنت لا تستطيع التخلى عن زوجتك التى تعلم أنها زانية ولست متأكداً من أن أطفالك هم أطفالك وليسوا أولاد زنا، فكيف لى إذاً أن أتخلى عن أطفالى، وهم أطفال مختارىّ «إبراهيم» و«إسحق» و«يعقوب»!

وعند ذلك تضرع «هوشع» للرب ليغفر له..

لكن الرب قال له:

ـ «كان الأفضل لك أن تدعونى من أجل بنى إسرائيل، لأننى بسببك قررت عليهم ثلاث عقوبات!».

فدعا «هوشع» الرب لبنى إسرائيل كما أمره، وبفضل دعائه تم إلغاء العقوبة الثلاثية التى كادت تنزل بهم.

* * *

ومات «هوشع» فى «بابل» فى زمن كانت فيه الرحلة من «بابل» إلى فلسطين محفوفة بالمخاطر. ولأنه كان يريد لرفاته أن تستقر فى أرض مقدسة، فقد أوصى قبل موته بوضع نعشه على ظهر جمل ثم ترك الجمل يمشى كيفما يريد وفى البقعة التى يتوقف فيها يتم دفنه. وهكذا كان ووصل الجمل دون أى مشاكل إلى «صفد» حيث توقف فى الجبانة اليهودية فى تلك المدينة وتم دفن رفات «هوشع» فيا وشهد الدفن حشد عظيم.

بدأت مهمة «عاموس» كنبى بعد انتهاء رسالة «هوشع»، وقبل ابتداء رسالة «أشعيا». وعلى الرغم من أن لسان «عاموس» كان ثقيلاً، فقد أطاع أمر الرب وذهب إلى بيت إيل ليبلغ أهلها الخطاة بالرسالة الإلهية التى كُلِّف بتبليغها.

وعلى الرغم من وشاية الكاهن «أمصيا»، كاهن بيت إيل، ضد النبى «عاموس» عند الملك «يربعام» ملك إسرائيل، فلم يمسس النبى «عاموس» ضر.. إذ بالرغم من أن «يربعام» كان وثنيا يعبد الأصنام، فإنه كان يكُنّ احتراماً كبيراً لعاموس..

وقال «يربعام» لنفسه:

- «معاذ الرب أن أظن بعاموس أنه يخطط لخيانتى! وحتى إذا كان كذلك، فلابد أن الرب هو الذى أمره بذلك».

وقد كوفئ «يربعام» على ذلك، فلم تبلغ المملكة الشمالية القوة مثل ما بلغته فى عهده.

ومع ذلك فإن جرأة «عاموس» قد أدت إلى موته فى النهاية. إذ ضربه الملك «عزيا» ضربة قاتلة على جبهته بحديدة متوهجة فمات.

بعد موت «عاموس» بعامين، نزل الوحى على «أشعياء» لأول مرة. وكان ذلك فى اليوم الذى اغتصب فيه الملك «عُزِّيا» لنفسه منصب الكهانة، بعد أن أسكرته انتصاراته وتحول الأمور لصالحه. وقد حاول هذا الملك تقديم القرابين على المذبح، فلما حاول الكاهن الأكبر «عَزَريا» منعه، هدد بذبحه وذبح أى كاهن يتعاطف معه إذا لم يلزموا الصمت.

ثم فجأة اهتزت الأرض بشدة حتى انشق الهيكل وانبعث منه شعاع وهَّاج وضرب الملك فى جبهته فأصابه البرص. ولم يكن ذلك هو كل ما نتج عن الزلزال من دمار، إذ فى الناحية الغربية من «أورشليم» انشق نصف الجبل وانفصل وتدحرج ساقطاً على الطريق لمسافة تبعد أربعة فراسخ.

ولم تغضب السماء والأرض فقط بسبب فظاعة «عزيا» ووحشيته؛ بل إن ملائكة النار، وهى السيرافيم، كادت تنزل إلى الأرض لتهلكه، لولا أن هتف هاتف من السماء وأعلن أن عقوبة «عزيا» لن تكون مثل عاقبة «قورح» وبطانته.. على الرغم من أن جريمتيهما متشابهتان».

عندما رأى «أشعيا» عرش الرب المهيب فى ذلك اليوم المشهود، استبد به

الخوف ولام نفسه على عدم محاولته نهى الملك عن رغبته الشريرة. ولما سمع ترنيم الملائكة بحمد الرب، اقشعر بدنه وانعقد لسانه فعجز عن أن يشاركهم..

بل صاح قائلاً فى رعب:

- «يا ويلى! يا ويلى! ويلى إذ سكتُّ فلم أتكلم! ويلى إذ خرست فلم أشارك الملائكة حمدها للرب! لو كنت فعلت لكنت أصبحت مثلهم خالداً، إذ أُذِن لى بأن أرى ما أدَّى إلى قتل آخرين».

ثم بدأ يتلمس لنفسه الأعذار قائلاً:

- «لكننى إنسان شفتاه نجستان ويعيش وسط أناس شفاههم نجسة».

وفى الحال سمع صوت الرب يعاتبه قائلاً:

- «قل ما شئت عن نفسك فلا حرج عليك فى ذلك.. لكن من أعطاك الحق لتسب بنى إسرائيل أطفالى وتصفهم بأنهم «أناس شفاههم نجسة؟» وسمع «أشعياء» الرب وهو يأمر واحداً من الملائكة بتناول جمرة من المذبح ولسع شفاه «أشعيا» بها. وعلى الرغم من أنها كانت ملتهبة جدّاً حتى إن الملاك احتاج لماسك يمسك به الجمرة تناولها من المذبح، فإنها لم تلسع«أشعيا» ولكنه تعلم الدرس.. أن واجبه ومهمته الرئيسية هى أن يدافع عن بنى إسرائيل ولا يشتمهم أو يلعنهم.. مهما فعلوا!!.

ومن حينها لم يعد للنبى من شغل يشغله إلا الثناء على بنى إسرائيل ومديح بطولاتهم، فكوفئ على ذلك بأن أوحى إليه بنبوءات عن بنى إسرائيل والأمم الأخرى، أكثر من النبوءات التى أوحى بها لأى نبى قبله أو بعده.

بالإضافة إلى ذلك فقد جعل الرب «أشعياء» «نبياً للمواساة» وهكذا فإن أشعيا الذى تنبأ فى نبوءاته الأولى عن نفى بنى إسرائيل ودمار الهيكل، هو نفسه الذى وصف بألفاظ أوضح من أى ألفاظ استخدمها نبى آخر - المصير الباهر الذى ينتظر بنى إسرائيل فى المستقبل.

عقاب الملكتين

بعدما أصيب بالبرص لم يعد «عزيا» صالحاً للحكم، ولذا فقد تولَّى «يوثام» إدارة شئون «يهوذا» طوال خمسة وعشرين عاماً قبل موت أبيه. وقد كان «يوثام» تقيا لدرجة أن تقواه إذا أضيفت لتقوى رجلين تقيين آخرين فإنها ستكفى للتكفير عن ذنوب جميع بنى آدم التى ارتكبوها من بدء الخليقة وإلى نهاية الزمان.

أما «آحاز» بن «يوثام» فلم يكن مثله مطلقاً.. «فقد كان عاصياً من البداية إلى النهاية.. إذ أبطل عبادة الرب وحرَّم دراسة التوراة ونصب صنماً فى الغرفة العلوية للهيكل وتجاهل الشرائع اليهودية الخاصة بالزواج. وقد كان ذنبه كبيراً لا يمكن غفرانه، وخصوصاً لأنه كان يعلم قدر الرب وجلاله، وذلك كما يتضح من إجابته على النبى «أشعيا»...

فقد قال له «أشعياء»:

ـ «اطلب آية من الرب... كأن يقوم الموتى أو يصعد «قورح» من «شيول» أو ينزل «إيلياء» من السماء».

فأجابه «آحاز»: «أعلم أنك تستطيع صنع أى معجزة من هذه المعجزات... لكننى لا أريد أن يتمجد اسم الرب من خلالى».

وكانت الخصلة الوحيدة الطيبة فى «آحاز» هى احترامه للنبى «أشعياء». ولكى يتفادى توبيخ النبى له، كان «آحاز» يتنكر كلما خرج لكى لا يتعرف النبى عليه وبسبب ذلك، وأيضاً لأنه كان ابن رجل تقى وأنجب رجلاً تقياً، فإن «آحاز» ـ على الرغم من كل شروره ـ ليس ممن فقدوا نصيبهم فى العالم الآتى. ولكنه لم ينجُ من العقوبة.. بل إن عقابه كان قاسياً، ليس فقط كملك

ولكن كإنسان أيضاً. فأثناء حربه الشؤم مع «فيكاح» ملك المملكة الشمالية، فقد ابنه البكر والذى كان بطلاً عظيماً.

لكن «فيكاح» لم يُتَح له الاستمتاع بثمرة انتصاره، إذ غزا ملك آشور مملكته واستولى على العجل الذهبى الموجود فى «دان»، وساق القبائل الموجودة على الضفة الشرقية لنهر الأردن أسرى أمامه. ثم توقف تمزيق أوصال المملكة الإسرائيلية لبضع سنوات، ثم فى عهد «هوشيا» استولى الآشوريون على العجل الذهبى الثانى وأسروا قبائل «أشر» و«يساكر» و«زبولون» و«نفتالى» ولم يتركوا فى أراضى الإسرائيليين إلا ثُمن قبائلهم. ونفى القسم الأكبر من بنى إسرائيل إلى «دمشق». وبعد ذلك تسارع انهيار «إسرائيل» حتى إن آخر ملوك مملكة «إسرائيل» عجَّل بنهاية مملكته بقيامه بفعل طاعة.

وبعد استيلاء الآشوريين على العجلين الذهبيين، أبطل «هوشيا» ملك المملكة الشمالية المرسوم الذى يقضى بوضع حراس على الحدود بين مملكة «يهوذا» ومملكة إسرائيل لمنع الحجاج القاصدين «أورشليم» لكن الشعب لم يلتفت إلى ذلك وواصل عبادة الأصنام فعجَّل ذلك بعقوبتهم. إذ طوال وضع ملوكهم العراقيل فى طريقهم كانوا يتذرعون بذلك عن امتناعهم عن عبادة الرب بالطريقة الصحيحة لكن ما صنعه ملكهم «هوشيا» ألغى كل حجة لهم. وعندما غزا الآشوريون إسرائيل للمرة الثالثة، دُمِّرت المملكة الشمالية إلى الأبد، وتم حمل الشعب كله إلى المنفى.

أما الشعوب الوثنية التى وطّنها الآشوريون فى «السامرة» مكان القبائل العشرة التى تم ترحيلها، فقد أرغمهم الرب على قبول دين اليهود الحقيقى.

ومع ذلك فقد واصلوا عبادة أصنامهم القديمة..

إذ عبد أهل «بابل» دجاجة، بينما عبد أهل «كوشان» ديكاً وعبد شعب «حماة» كبشاً.. بينما كان الكلب والحمار هما إلها «العفيين»، وكان البغل والحصان هما إلاها «السفرويين»

«حـزقيـا»

بينما كانت المملكة الشمالية تسقط فى أتون الهلاك، اكتسبت مملكة «يهوذا» دفعة عظيمة، سواء روحيا أو ماديا، وذلك على يد ملكها «حزقيا».

وفى طفولته كُتب على الملك «حزقيا» أن يقدم أضحية «لمولوخ» فأنقذته أمه بدم سلمندر، ما جعله لا يتأثر بالنار.. وكان «حزقيا» على النقيض من أبيه من كل وجه.. فكما كان أبوه يُعَدُّ من أكبر الخاطئين، فإن «حزقيا» يعتبر من أتقى الناس. وقد تبيَّن من أول شىء قام به بعد توليه الملك على أنه ان يضع تمجيد الرب فى المقام الأول ويجعل منه الهم الأول قبل أى شىء.. فقد رفض دفن أبيه فى مراسم ملكية ودفنه مثلما يدفن العامة والرعاع.. وبسبب شروره ومعاصيه، فقد كان «آحاز» يستحق ذلك ولا أقل منه.

وقد أظهر الرب بنفسه ذلك لحزقيا من خلال آية أظهرها له دلت على أن أباه لا يستحق أى تكريم منه. ففى اليوم الذى تم فيه دفن الملك «أحزيا» لم يَدُم النهار إلا ساعتين فقط ولذا فقد كان من المحتم دفن جثمانه تحت جنح الظلام.

* * *

خلال عهده كله حرص «حزقيا» أشد الحرص على نشر دراسة التوراة التى كان أبوه قد أبطلها وحرَّمها. ربما كان الأب يحرِّم دراسة الشريعة فإن «حزقيا» أصدر أمراً يقول فيه:

«كل من لا يشغل نفسه بدراسة التوراة يعرض نفسه للقتل على الفور».

وأعاد «حزقيا» فتح مدارس الشريعة التى كان أبوه قد أغلقها.. كما جعلها تفتح أبوابها ليلاً ونهاراً. وكان الملك يقوم بنفسه بملء مصابيح هذه المدارس بالزيت اللازم للإضاءة.. وشيئاً فشيئاً انتشر العلم بين الشعب حتى إن المرء يستطيع التجول فى طول البلاد وعرضها، من «دان» وإلى «بئر سبع»، ولا يعثر على شخص واحد جاهل. بل إن النساء والأطفال، والأولاد والبنات كانوا يعلمون شريعة «الطاهر والنجس».

ومكافأة له على ذلك أنعم الرب على «حزقيا» بانتصار باهر على «سنِّخريب». فقد جهز هذا الملك الآشورى الذى غزا العالم جيشاً ضد «حزقيا» لم يكن مثله من قبل، فيما عدا جيش الملوك الأربعة الذين قهرهم «إبراهيم»، أو الجيش الذى سيجهزه الرب فى زمن المسيا ضد «يأجوج» و«مأجوج». وكان جيش «سنِّخريب» يتكون من مليونين ونصف المليون من الفرسان، من بينهم خمسة وأربعون ألف أمير على عربات ومع كل أمير عروسه، وثمانين ألف جندى مغطى بالدروع من أم رأسه إلى إخمص قدميه، بالإضافة إلى ستين ألف محارب بالسيف.

وخيم هذا الجيش الهائل على مساحة تبلغ أربعمئة فرسخ، بينما كانت الخيول التى اصطفت عنقاً إلى عنق تشكل خطا طوله أربعين فرسخاً..! وانقسم الجيش إلى أربع فرق، عندما مرت الأولى منها فى نهر الأردن لم يعد بالنهر ماء، إذ كان الجنود قد رووا ظمأهم منه. ولم تجد الفرقة الثانية ماء لتشربه، فيما عدا الماء المتجمع تحت حوافر الخيل. أما الفرقة الثالثة فقد اضطرت لحفر الآبار، وعندما عبرت الفرقة الرابعة النهر، أثارت عاصفة عظيمة من التراب!!

قاد «سنخريب» هذا الجيش العظيم وأسرع به للقاء «حزقيا»، واضعاً فى اعتباره تحذير منجميه له بأنه لن يتمكن من الاستيلاء على «أورشليم» لو لم

يصل إليها فى اليوم الذى حددوه له. ولما رأى أن رحلته قد استغرقت يوماً واحداً فقط، بدلاً من عشرة أيام كما كان يتوقع، ارتاح بجيشه عند «نوب».. وهناك أقاموا له منصة عالية لكى يقف عليها ويشاهد «أورشليم».

وعندما رآها الملك لأول مرة، صاح قائلاً:

«ماذا!؟ أهذه هى المدينة التى حشدت من أجلها جيشى كله ولم أتقدم لغزوها إلا بعد أن قهرت جميع البلاد؟ أليست أصغر وأضعف من جميع المدن والبلاد التى قهرتها بقوة يدى!؟».

ثم شد قامته وهز رأسه ولوح بيده استهزاءً ناحية جبل الهيكل والمعبد الذى يتوج قمته.

وعندما ألح عليه جنوده بالتقدم للاستيلاء على «أورشليم»، أمرهم بالثبات والبقاء فى المكان للراحة لمدة ليلة واحدة ثم ليستعدوا لاجتياح المدينة فى اليوم التالى. وقد بدأ ذلك مجرد نزهة عابرة.. إذ بدأ الأمر وكأن كل جندى ما عليه سوى أن يخلع من أسوار المدينة ما يكفى لختم رسالة به، وعندها ستختفى المدينة ولن يكون لها من أثر.

لكن «سنخريب» أخطأ خطأ فادحاً، أنه لم يتقدم على الفور لمهاجمة المدينة. فلو كان شن هجومه فى نفس اليوم لكان اجتاح المدينة واستولى عليها، إذ أن خطية شاؤول التى ارتكبها عندما قتل كهنة «نوب» لم تكن قد تم التكفير عنها تماماً بعد.. لكن فى اليوم التالى، وكان يوم الفصح، كان قد تم التكفير عن هذه الخطية، وبينما كان «حزقيا» والشعب يترنمون بترانيم التهليل كان الجيش الغازى قد أبيد. فقد أرسل الرب الملاك «جبريل» وأمره بإبادة الجيش الغازى، وهو ما فعله بمنتهى الدقة.. فمن بين هذه الملايين لم ينجُ سوى «سنخريب» وابناه، بالإضافة إلى «نبوخذنصر» و«نبو زادادان».

وقد كانت هذه النهاية نهاية مستحقة لسنخريب الذى فر من «أورشليم» فقابله شبح إلهى متنكراً فى هيئة رجل عجوز وسأله عماذا سيقول للملوك

المتحالفين معه وهو يفر هارباً كالفئران بهذه الطريقة، وذلك عندما يسألونه عن مصير أولادهم الذين قادهم لغزو «أورشليم». وعند ذلك اعترف له «سنخريب» بخوفه من لقاء هؤلاء الملوك فنصحه العجوز أن يقص شعر رأسه كله لكى لا يعرفه أحد أو يتعرف عليه، فوافق «سنخريب» فأرسله العجوز إلى بيت قريب ليحضر منه مقصاً يحلق به شعره. فلما دخل البيت وجد بعض الناس ـ وكانوا ملائكة متنكرين ـ منشغلين بطاحونة يدوية. ولما طلب منهم مقصا وافقوا بشرط أن يطحن لهم مقداراً من القمح. ولذا فعندما عاد إلى العجوز كان الظلام قد حل وكان عليه أن يشعل ناراً ليقص له الرجل شعره فى ضوئها ولكن بينما هو يحلق شعره أمسكت النار فى ذقنه فاحترقت لحيته وبذا فقد لحيته كذلك. فلما عاد إلى آشور قتله أبناؤه وفروا إلى «كاردو» حيث أطلقوا سراح اليهود المأسورين هناك بأعداد هائلة وساقوهم فأعادوهم إلى «أورشليم» ودخلوا فى ديانتهم. وكان من ذريتهم العالمان «شمعى» و«أبطاليون».



« مِنَسَّـــى »

بعد طول إلحـاح من «أشعيـا»، قـرر «حـزقيـا» الزواج واتخذ لنفسـه زوجة كانت هى بنت النبى «أشعيـا». لكنه تزوجهـا متـردداً، إذ كـان يتمتـع بروح نبـوة أنبـأته بأن أبناءه الذين سينجبهم ثمرة لهذا الزواج سيكونون عصاة، وأن الشـر الذى سيجلبوه على البلاد سيجعل موتهم خيراً من حياتهم. وقد حدث مـا كان يخشاه بسرعة كبيرة.

ففى طفولتهمـا، أظهر ابناه «رفشكح» و«مِنَسى» أنهمـا على النقيض التـام من أبويهمـا.. وذات مرة وبينما «حزقيـا» يحمل ولديه على كتفه ذاهباً بهمـا إلى «بيت الدرس»، وصل إلى أذنيه حوارهما التالى..

إذ قال أحدهما:

- «صلعة أبى جميلة حتى إنها تصلح لأن تُقْلَى فى الزيت!».

فرد عليه الآخر:

- «بل تصلح لأن تكون قرباناً جيداً للأصنام!».

فـاشتـاط «حزقيا» غضباً فـألقى ولديه من فوق رأسـه فقُتل «رفشكح» من أثر السقطة، بينمـا نجـا «مِنَسَّى» سليمـاً دون أن يصاب بأذى. ويـاليته كـان لقى مـصـيـر أخـيـه، إذ لم يحيَ إلا ليـقـتـل ويعـبـد الأصنام ويرتكب غـيـرهـا من الفظائع...!

* * *

بعدما فارق «حزقيا» الحياة، توقف «منسى» عن عبادة إله أبيه. وفعل ما هيأه له خياله الشرير.. فدمَّر المذبح ونصب فى الباحة الداخلية للهيكل صنماً له أربعة وجوه تشبه الوجوه الأربعة الموجودة على عرش الرب وقد وضعها بحيث أن أى داخل إلى المعبد من أى اتجاه سيجد وجهاً للصنم ينظر إليه.

ولم يكتفِ «منسى» بذلك، وإنما صاغ صنماً بلغ من كبر حجمه أن احتاج إلى ١٠٠٠ رجل ليحملوه، وكان يعيِّن مجموعة جديدة من الرجال كل يوم للقيام بهذه المهمة، إذ كان يأمر بقتل كل مجموعة من الحمَّالين. وكان فى كل أفعاله يحرص على تنفير الناس من اليهودية ومن مبادئها. ولم يقنع بمحو اسم الرب من التوراة، ولكنه أطلق خطباء كانت كل مهمتهم السخرية من التوراة. وقد غادر «أشعيا» والأنبياء الآخرون - «ميخا» و«يوئيل» و«حبقوق» - «أورشليم» واتجهوا إلى أحد الجبال فى الصحراء لكيلا يشاهدوا بأعينهم هذه الفظائع التى يرتكبها الملك المجرم..

لكن الملك علم بمكانهم..

فقد كان هناك سامرىّ من ذرية النبى الكذاب «صدقيا» وكان قد لجأ إلى «أورشليم» بعد تدمير الهيكل. ولكنه لم يبقَ فى «أورشليم» طويلاً، إذ أُتهم عند الملك التقى «حزقيا» فهرب إلى «بيت لحم» حيث جمع حوله البلطجية وقطاع الطرق. وهذا السامرىّ هو الذى اقتفى آثار الأنبياء الهاربين حتى علم مكانهم ثم وشى بهم عند الملك «منسى» الذى أمر بإلقاء القبض عليهم.

فلما مَثُل «أشعيا» أمام الملك حكم عليه بالموت متهماً إياه بأن نبوءاته فيها تعاليم تتناقض مع شريعة موسى... فقد قال الرب لموسى: «لا تستطيع أن ترى وجهى لأنه لا يمكن أن يرى إنسان وجهى ثم يبقى على قيد الحياة»..

ذلك بينما قال «أشعيا» فى نبوءاته:

- «رأيت الرب جالساً على عرش عالٍ وسامق».

كما اتهم «أشعياء» بأنه قارن أمراء بنى إسرائيل وعامة الشعب بأهل «سدوم» و«عمورة» المنحرفين، وتنبأ بسقوط «أورشليم» وتدمير الهيكل.

ولم يدافع النبى عن نفسه بشىء، إذ كان يعلم ألا فائدة من الدفاع، وفضَّل أن يتصرف «منسى» وفقاً لجهله، لا انطلاقاً من شره. ومع ذلك فقد هرب «أشعياء» لينجو بحياته، وعندما سمع ضباط الملك قد أتوا للقبض عليه نطق «الاسم الأعظم» فابتلعته شجرة أرز، فأمر الملك بتقطيع الشجرة بالمنشار الذى عندما شق لحاء الشجرة فى الموضع الذى يوجد تحته فم «أشعياء»، مات «أشعياء» على الفور فقد كان وفمه هو العضو الوحيد الضعيف فى بدنه، لأنه عندما كلَّفه الرب برسالته تلفَّظ بكلمات احتقار عن «الشعب نجس الشفاه»، وكان يعنى بذلك شعب إسرائيل، وقد مات «أشعياء» بعدما بلغ من العمر مئة وعشرين سنة، ومات على يد حفيده.

* * *

الرب حليم وصبور ولكنه يمهل ولا يهمل...

ففى النهاية استحق «منسى» أن ينزل به العقاب على كل ما ارتكب من جرائم. ففى السنة الثانية والعشرين من حكمه غزا الآشوريون بلاده وحملوه إلى «بابل» مقيداً فى الأغلال، كما حملوا معه صنم «دان» القديم الذى كان «ميخا» قد صنعه وجعل الناس يعبدونه. وعندما وصل إلى «بابل» وضع الآشوريون «منسى» فى قرن كان يسخَّن من أسفل، فلما وجد نفسه فى هذه المحنة أخذ يدعو أصنامه واحداً بعد الآخر.. وما من مجيب.

وعند ذلك قال «منسى» لنفسه:

- «إننى لأذكر أن التوراة تقول إن المرء فى وقت المحنة لو عاد إلى ربه وتاب وأناب، فلسوف ينجيه من كل شىء.. حسناً.. لأدعُ الرب إذاً فإن لم يستجب لى، سأعلم أن كل الآلهة سواء».

وعند ذلك أسرعت الملائكة تسد نواقد السماء لكيلا يصل دعاء «منسى» للرب وقالوا للرب:

- «يارب العالم.. هل ستسمع لدعاء هذا الذى عبد الأصنام، بل ونصب صنماً داخل الهيكل كذلك!؟».

فأجابهم الرب:

- «لو لم أسمع لدعائه، فلن يتوب إلىَّ خاطئ واحد».

ثم فتح فُرْجة صغيرة فى عرشه فوصل إليه منها دعاء «منسى».

وفجأة هبت ريح شديدة فحملت «منسى» فأعادته إلى «أورشليم». وهكذا فإن توبته للرب لم تنجِّه فقط من الموت حرقاً، وإنما غفرت له كل خطاياه كذلك، ولذلك فإنه لم يضيع نصيبه فى العالم الآتى.

* * *

ثم خلف «آمون» أباه «منسى» فكان أشر من أبيه. وكان من عادته أن يقول إن أباه عاش حياته كلها عاصياً للرب ثم تاب فى شيخوخته ولذا فسيحذو حذوه فيفعل كل ما يحلو له فى شبابه ثم فيما بعد يتوب إلى الرب. وهكذا فقد ارتكب جميع الموبقات الممكنة، من قتل وسرقة وزنا محارم وحرق للتوراة وهجر للهيكل.. لكنه لم يُمْنح وقتاً للتوبة، إذ اختطفه الموت وهو فى ريعان شبابه.



«يوشيًّا» وخلفاؤه

ثم خلف آمون ابنه «يوشيا» الذى لولاه لكان نصيب آمون فى العالم الآتى قد ضاع. ويعتبر «يوشيا» مثالاً رائعاً للتوبة الصادقة. فعلى الرغم من أنه سار فى طريق أبيه فى بداية الأمر، فإنه سرعان ما تاب ورجع إلى طريق الحق وأصبح واحداً من أتقى ملوك بنى إسرائيل، وعمل قدر وسعه على إعادة الشعب مرة أخرى إلى طريق الإيمان الحق. وتعود توبته هذه إلى اليوم الذى عُثِر فيه على نسخة من التوراة فى الهيكل، وكانت قد نجت من الحريق الذى أشعله أبوه وجده من قبله بهدف القضاء على التوراة تماماً. وعندما فتح «يوشيا» هذه النسخة كانت أول آية تقع عليها عيناه هى الآية التى تقول:

«سينفيك الرب أنت وملكك إلى أمة لم تعرفها».

وعندها خاف «يوشيا» من أن يحيق به هذا المصير فسعى إلى استرضاء الرب ومصالحته من خلال إصلاح شعبه.

وكانت أول خطوة يقوم بها «يوشيا» هى اللجوء إلى عون الأنبياء، لكنه لم يلجأ إلى النبى «إرميا»، ولكنه إلى النبية «خُلْدة» عالماً أن النساء يسهل التأثير عليهن وإثارة تعاطفهن معه. ولأن «إرميا» كان قريباً للنبية «خلدة» - إذ كانا يشتركان فى الجدين الأكبرين «يشوع» و«راحاب» - فإن يوشيا لم يخشَ أن يغار «إرميا» أو يغضب من عدم لجوئه إليه. لكن النبية أجابته فى كبرياء وتعالٍ أن المصير الذى كتب عليه لا مفر منه.. ولكن لن يتم تدمير الهيكل إلا بعد موت «يوشيا» نفسه. وهكذا، عندما علم «يوشيا» بقرب تدمير الهيكل أخفى التابوت المقدس وجميع لوازمه، لكيلا تتدنس بالوقوع فى أيدى الأعداء.

لكن كل الجهود التى بذلها الملك فى إصلاح الشعب لم تُجْدِ نفعاً. فعلى الرغم من أنه حال دون عبادة الأصنام علانيةً، فإن رعاياه عرفوا كيف يخدعونه. فكان «يوشيا» يرسل رقباءه الأتقياء ليفتشوا فى بيوت الناس، ثم يعودوا إليه ليخبروه بأنهم لم يجدوا أية أصنام.. غير عالمين بأن هؤلاء الناس المجرمين كانوا يعلقون نصفى الصنم فى كل درفة من درفتى الباب فلا يراهما رقباء «يوشيا».

وهذا الجيل الكافر الذى عاصر «يوشيا»، كان هو السبب فى موته إذ عندما أراد فرعون مصر المرور بأراضى فلسطين فى طريقه لغزو آشور، نصح النبى «إرميا» الملك الإسرائيلى بألا يرفض طلب الفرعون، مستشهداً بنبوءة أستاذه «أشعياء» عن الحرب بين «مصر» وآشور. لكن «يوشيا» رد عليه فى عنف:

- «لقد قال معلمك «موسى» أنه سيقيم السلام فى بلادنا هذه، فلا يرفع فيها سيف.

لذا فلن أسمح برفع سيف على أرضى ولو كان غير موجَّه لبنى إسرائيل».
وانخدع الملك فى الشعب ولم يعلم أنه يعبد الأصنام وبذا فإن نبوءة التوراة عن نجاته لا تنطبق عليه. وهكذا رفض الملك طلب فرعون مصر فنشبت الحرب بين الفريقين وأدت إلى قتل الملك «يوشيا» إذ أصابه ما لا يقل عن ثلاثمئة سهم.

وعند موته لم يشتك «يوشيا» بكلمة واحدة..

سوى أن قال:

- «الرب عادل وأستحق ما أصابنى لأننى خالفت أوامره».

ولم يستمتع فرعون مصر بانتصاره طويلاً، إذ حاول نزول عرش «سليمان» العجيب فضربته الأسود التى تحرسه ضربة ولَّى بعدما هارباً بعد أن أصيب بالعرج فى ساقه.

* * *

أجلس الشعب «يهو آحاز» على العرش ليخلف «يوشيا»، على الرغم من أن أخاه «يهوياقيم» كان أكبر منه بعامين. ولكى يُسْكِت الملك الجديد المطالب الشرعية لأخيه «يهوياقيم»، خاض مراسم المسح بالزيت المقدس لكن حكمه لم يدم طويلاً، إذ بعد ثلاثة أشهر من توليه العرش حمله فرعون أسيراً إلى مصر، فخلفه أخوه «يهوياقيم» من بعده.

وكان «يهوياقيم» من الملوك الخطاة الأشرار الذين حكموا اليهود، فكان لا يرحم رعيته ولا يعبأ بالرب ولا بشرائعه. وكان يلبس لباس الرجال والنساء ويغطى جسمه كله بوشم بأسماء الأصنام ، كما أنه لم يكتفِ بذلك وإنما أجرى جراحة له فرقع غلفته لكيلا يبدو مشابهاً لليهود. وارتكب العديد من جرائم زنا المحارم والفواحش، كما اعتاد قتل الناس ليفوز بزوجاتهم لنفسه ويصادر ممتلكاتهم. وقد بلغ من كفره أنه كان يقول:

- «إن أسلافى لم يعرفوا كيف يثيرون غضب الرب.. أما أنا فأقول إننا لسنا فى حاجة إلى هذا الرب ونستطيع الاستغناء عن ذلك النور الذى يعطينا إياه، إذ يمكننا استبداله بذهب البارفيم».

وبالفعل غضب الرب منه وكاد يعيد العالم إلى حالة الفوضى التى كان عليها قبل بدء الخليقة.. لولا أن الشعب كان تقيا فى أيامه.. لكن «يهوياقيم» لم ينجُ من العقاب.. إذ بعد أحد عشر عاماً من حكمه قضى عليه «نبوخذ نَصَّر» إذ تقدم «نبوخذ نصر» بجيشه حتى بلغ «دفنة» حيث التقى مع أعضاء السنهدرين الذين سألوه إن كان قد جاء لتدمير الهيكل، فأكد لهم أنه ما جاء إلا طالباً «يهوياقيم» الذى تمرد على سلطانه. فلما عاد أعضاء السنهدرين إلى «أورشليم» أخبروا «يهوياقيم» بما عزم عليه «نبوخذ نصر». وعبثاً حاول الملك إقناعهم بالعدول عن فكرة تسليمه إلى «نبوخذ نصر» لإنقاذ أنفسهم من القتل.. إذ قيدوه بالأغلال ودلَّوه من فوق أسوار المدينة فالتقطه البابليون وجرجره «نبوخذ نصر» مقيداً بالسلاسل وطاف به مدن فلسطين كلها ثم ذبحه

وألقى جثته لتنهشها الكلاب التى لم تُبْقِ على شلو منها..!

ثم عاد «نبوخذ نصر» إلى بلاده بعد أن عيَّن «متانياه» ابن «يهوياقيم» خلفاً لأبيه. وكان «متانياه» يلقب باسم «يهوياكين» وُجعل ملكاً على مملكة «يهوذا». لكن حكماء «نبوخذ نصر» ومستشاريه حذروه من أن الملك الجديد قد يثأر لأبيه أو يتبع طريقه فيتمرد على الملك البابلى كما تمرد أبوه من قبل.

وفى الحال عاد «نبوخذ نصر» إلى «دَفْنَة» حيث التقى بأعضاء السنهدرين وطلب منهم تسليم «يهواكين» له وإلا فإنه سيدمر الهيكل. فلما عادوا إلى «يهواكين» وأخبروه بما حدث، صعد إلى سطح الهيكل حاملاً معه كل مفاتيح الهيكل ونظر إلى السماء وصاح قائلاً:

ـ «لقد كنت تثق بنا يارب وتحتفظ معنا بمفتايح بيتك.. لذا فخذ مفاتيحك طالما أصبحت لا تثق بنا».

وفى الحال امتدت يد من السماء فأخذت منه المفاتيح.

ثم استسلم لنبوخذ نصر الذى ألقى به فى السجن فعاش فيه طوال حياته.



الفصل العاشر

«النـفـى»



«صـدقـيا»

لم يكن إعدام مَلِكٍ ونفى الآخر إلا مجرد مقدمة للكارثة العظيمة التى حلت بالشعب فى زمن «صدقيا»، ألا وهى تدمير الهيكل وترحيل الشعب كله إلى المنفى. إذ بعدما نفى «نبوخذ نصر» «يهواكين» أى أبناء آخرين ليوشيا. ولم يتبق من أبناء «يوشيا» إلا «متانيا»، فجعله ملكاً بعد أن أسماه «صدقيا» على أمل أن يكون ابناً صالحاً لأب صالح. لكن الاسم أصبح نذير شؤم بالكارثة التى ستحدث فى زمن هذا الملك.

وقبل أن يعينه ملكاً، أمر «نبوخذ نصر» الملك الجديد «صدقيا» بأن يقسم له يمين الولاء، وعندما هم «صدقيا» بأن يقسم بروحه على ذلك، قاطعه «نبوخذنصر» وأحضر لفافة من لفائف التوراة وجعله يقسم عليها. ومع ذلك فلم يحفظ قسمه مع ملك «بابل» طويلاً.. ولا حتى اكتفى بخيانته لنبوخذ نصَّر، وإنما ضبط ملك «بابل» وهو يأكل لحم أرنب نيئاً، مثل المتوحشين البرابرة تماماً..! وعندها انزعج «نبوخذ نصر» لأن «صدقيا» قد كشف سره واستحلفه بألا يبوح بهذا السر لأحد ومع أن «نبوخذ نصر» كان يعامله مثلما يعامل الصديق صديقه، بل جعل له سلطاناً على خمسة ملوك من التابعين له، فإنه أثبت عدم جدارته بهذه الثقة التى أوليت له..

فما كاد الملوك الخمسة يقولون لصدقيا ذات مرة:

ـ «لو كانت الأمور تسير على النحو الصحيح لكنت أنت الجالس فى عرش «نبوخذ نصر» إلا وصاح «صدقيا» قائلاً:

- «أجل... أجل..! أنا أستحق العرش أكثر من نبوخذ نصر الذى رأيته يأكل الأرنب حيّاً!».

وفى الحال هرول الملوك الخمسة إلى «نبوخذ نصر» فأبلغوه بما قاله «صدقيا» عنه. فاشتاط ملك «بابل» غضباً وزحف إلى «دفنة» لكى يعاقب ملك «يهوذا» على حنثه بقسمه الذى أقسم له. وعندما وصل إلى «دفنة»، وهى قرب أنطاكية، وجد أعضاء السنهدرين الذين هرعوا لاستقباله فاستقبلهم بود وأكرمهم وأحضر لهم المقاعد الوثيرة وأمرهم بالجلوس عليها..

ثم طلب منهم أن يحضروا التوراة فيقرأوا سفر «العدد» وخصوصاً الآيات التى تتحدث عن عقوبة الحنث باليمين. فلما قرأوها عليه استوقفهم..

ثم سألهم:

- «إذا أقسم الإنسان يميناً، وأراد أن يتحلل منها، فما الذى يجب عليه عمله؟» فأجابوه:

- «يذهب إلى أحد العلماء لكى يحلّه من يمينه».

وعندها صاح «نبوخذ نصر» فى غضب قائلاً:

- «إذاً.. فأنتم الذين أحللتم «صدقيا» من يمينه الذى أقسمه لى!» ثم أمرهم بالركوع أمامه على الأرض فهرولوا راكعين أمامه فى ذلة وخضوع. وأقروا له بأنهم أخطأوا إذ أحلوا «صدقيا» من قسمه وخالفوا بذلك الشريعة. وقد عوقب «صدقيا» بقسوة على حنثه بيمينه..

إذ عندما سقطت «أورشليم» فى يد «نبوخذ نصر»، حاول «صدقيا» الهروب خلال سرداب كان يمتد من بيته إلى «أريحا»، لكن الرب أرسل غزالة فى معسكر الكلدانيين الذين انطلقوا يطاردونها حتى وصلوا إلى الطرف الآخر من السرداب فى نفس اللحظة التى كان «صدقيا» يخرج فيها منه، فقبضوا على الملك اليهودى وأحضروه مع أبنائه العشرة أمام «نبوخذ نصر» الذى قال له:

ـ لو عاقبتك وفقاً لشريعة إلهك، لكنت تستحق الإعدام لأنك أقسمت باسم الرب كاذباً؛ وكذلك لن تستحق عقوبة أقل من الموت إذا عاقبتك وفقاً لقانون دولتى، لأنك لم تحفظ عهدك وولاءك لسيدك».

وعند ذلك توسل «صدقيا» إليه ليقتل قبل أن يقتل أبناءه لكى يوفر عليه بشاعة رؤيتهم يقتلون أمام عينيه.. ومن جانبهم توسل أبناؤه أن يتم قتلهم قبل أبيهم لكيلا يصيبهم الخزى بمشاهدتهم له وهو يذبح أمام أعينهم دون أن يقدروا على عمل شىء له. لكن «نبوخذ نصر» كان يُعِدُّ لهم شيئاً آخر.. فقد أمر بذبح أبناء «صدقيا» أمام عينى أبيهم.. ثم أمر بفقأ عينى الأب نفسه. وكان «صدقيا» منعماً عليه بعينين لهما قوة تفوق قوة البشر، فقد كانتا عينا آدم».. ولذا فإن الحراب الحديدية التى غرسوها فى عينيه لم تستطع إصابتها بسوء. لكنه أعمى وفقد بصره بسبب الدموع التى ذرفها حسرةً على أولاده. وأدرك ساعتها كم كان «إرميا محقا عندما تنبأ بنفى الشعب إلى «بابل» حيث سيعيش إلى نهاية حياته، لكن دون أن يتمكن من مشاهدة البلاد بعينيه.. ولأن «صدقيا» قد رأى أن هذه النبوءة غير معقولة، فلم يصدق كلام «إرميا» فى حينه ولم يستمع لنصيحته عندما نصحه بأن يسالم «نبوخذ نصر».

وها هى جميع نبوءات «إرميا» قد تحققت.. إذ تم نفيه إلى «بابل» مأسوراً ذليلاً، وأعمى بالإضافة إلى ذلك.. ولذا فلم يتمكن من رؤية أرض غربته..!



« إرميـــــا »

فى هذا الزمن البائس، كان «إرميا» هو الذى استأمنه الرب على تبليغ رسالته إلى بنى إسرائيل. وكان «إرميا» من ذرية «يشوع» و«راحاب»، كما كان أبوه هو النبى «حلقيا». وكان «إرميا» قد ولد أثناء فرار أبيه من وجه «إيزابل» التى كانت تضطهد الأنبياء. وقد أظهرت عليه علامات عند خروجه من بطن أمه، دلت على أنه سيكون له شأن عظيم..

فقد ولد مختوناً، وما كاد يغادر رحم أمه إلا وانفجر فى النواح، ولم يكن صوته عند ذلك صوت رضيع، وإنما صوت شاب..

فقد صاح قائلاً:

- «أحشائى تضطرب وجدران قلبى ترتجف وترتعش أطرافى، وهلاكاً بعد آخر أجلب للأرض!!».

وظل هكذا ينوح ويولول على عدم وفاء أمه، فلما تعجبت من كلامه وهو بَعْدُ رضيع، قال لها إرميا:

- «لا أقصدك أنتِ يا أماه، ولا تشير نبوءتى إليك.. وإنما أتحدث عن «صهيون» ونبوءتى عن «أورشليم» التى تزين بناتها وتلبسهم الأرجوان وتضع التيجان الذهبية على رؤوسهن، لكن سيأتى اللصوص ليسرقوا منهم زينتهن!!».

* * *

وفى صباه تلقى «إرميا» الأمر بأن يكون نبيّاً..

لكن رفض قائلاً:

- «لا يارب.. لا أريد أن أكون نبيا لبنى إسرائيل، فهل من نبى إلا وأرادوا قتله؟ فقد حاولوا رجم موسى وهارون بالحجارة؛ وسخروا من «إيلياء» التشبى لأن شعره طال؛ واستهزأوا بإليشع قائلين له: «اصْلع يا أقرع»!.. لا لا..! لا أريد أن أتنبأ لبنى إسرائيل فمازلتُ صبيا!».

لكن الرب أجابه:

- «أنا أحب الشباب لأنه برىء.. وعندما أخرجتُ إسرائيل من مصر دعوته صبيا، وعندما أرضى عن إسرائيل أسميه صبيا. والآن.. «كأس الغضب» واسقِ الأمم منها».

فسأله «إرميا» عن أى أرض ستشربها أولاً...

فأجابه الرب:

- «أورشليم» أولاً، فهى رأس جميع الأمم... ثم بعدها مدن يهوذا» فلما سمع النبى ذلك لعن اليوم الذى ولد فيه، وقال:

- «أنا مثل الكاهن الأكبر الذى يضطر لإعطاء كأس «الماء المُرّ» لامرأة متهمة بالزنا، ثم عندما يقترب منها يجدها أمه التى ولدته! ولقد كنت أظن يا أمى يا صهيون، عندما استدعيت للنبوة، أننى سأعلن عِزَّك وخلاصك.. لكننى أرى أن رسالتى إليك ستكون إعلاناً بالشر والهلاك!!».

* * *

وكان أول ظهور لإرميا على الملأ فى أيام «يوشيا» عندما أخذ يسير فى الشوارع وينادى قائلاً:

- «لو تبتم إلى الرب وأنبتم فسوف يرفعكم فوق جميع الأمم وإلاَّ فسوف

يسلِّم بيته إلى أيدى الأعداء فيعاملونه بما يستحقه».

وفى عهد الملك «صدقيا» مرّ إرميا بأوقات عصيبة إذ كان الملك وبلاطه ضده. ولم يكن من الغريب أن يأتى يوم لا يكون فيه حتى كهنة الهيكل أنفسهم مختونين! وقد أثار «إرميا» الجميع ضده عندما أعلن على الملأ معارضته لتحالف المملكة مع «مصر» ضد «بابل» مفضلاً مسالمة «نبوخذ نصر» ، وذلك على الرغم من أن الظواهر كلها كانت تشير إلى أن التحالف مع المصريين فى صالح الشعب.

وكان جنود الفرعون المصرى «نيخو» قد انطلقوا بالفعل من «مصر» متوجهين إلى فلسطين لينضموا إلى اليهود فى حربهم ضد بابل.. ولكن وبينما هم فى وسط البحر، أمر الرب مياه البحر بأن تحمل فوقها جثثاً. فلما رأى المصريون تلك الجثث تعجبوا وتساءلوا من أين جاءت.. فأتتهم الإجابة على الفور.. إنها جثث أجدادهم الذين أغرقهم الرب فى البحر الأحمر من أجل اليهود الذين تمردوا على الحكم المصرى. ولهذا فقد تراجع المصريون وعادوا إلى بلادهم، فصدق بذلك كلام إرميا عن أنه لا يمكن الاعتماد على وعود المصريين!!

ورغم ذلك فلم يتعظ الملك ولا عامة الشعب... إذ أخذوا يسخرون من «إرميا» ويضطهدونه فزادت معاناته يوماً بعد يوم وتمنى لو أنه لم يكن قد وُلد..!



«نبوخذ نصَّر»

لكن معاناة «إرميا» انتهت عندما استولى «نبوخذ نصر» على أورشليم. وقد كان «نبوخذ نصر» هذا ابناً للملك «سليمان» من زوجته ملكة سبأ. وكان أول لقاء له مع اليهود فى أيام أبيه «سِنَّخريب» عندما رافق أباه فى حملته ضد «حزقيا» وعندما رأى «نبوخذ نصر» بعينيه دمار جيش الآشوريين عند أسوار أورشليم، حتى إنه لم ينجُ من الجيش سواه وأربعة آخرون، امتلأ قلبه بالخوف من الرب. وفيما بعد، عندما كان وزيراً للملك «مروداخ بالادان»، كان هو الذى لفت نظر سيده إلى ذكر اسم الملك اليهودى قبل اسم الرب. ثم أسرع «نبوخذ نصر» بنفسه وراء الرسول لكى يسترد منه الخطاب ويقوم بتغيير ديباجته. وما كاد يخطو ثلاث خطوات بالكاد، إلا وأوقفه الملاك «جبريل». وهكذا، وبسبب هذه الخطوات التى خطاها فى سبيل الرب، على قلة عددها، أُنْعِم عليه بسلطان عظيم على الإسرائيليين. لكن لو كان قد خطا خطوة أخرى لكانت قدرته قد بلغت حدّاً يُنْزِل ببنى إسرائيل ضرراً ماحقاً..!

* * *

طول ثمانية عشر عاماً ظل هاتف سماوى يهتف فى قصر «نبوخذ نصر» كل يوم قائلاً:

- «أيها العبد البائس اذهب فأهلك بيت سيدك؛ لأن أطفاله لا ينصتون إليه!!».

لكن «نبوخذ نصر» ظل خائفاً من القيام بعمل كهذا خشية أن يلقى مصيراً

مماثلاً لمصير أبيه «سنخريب».. ولجأ إلى المنجمين ليعرف مصير حربه ضد «أورشليم» وإن كانت ستنتهى لصالحه أم لا. فلما ألقى السهام لكى يعرف إن كان سيذهب إلى «روما» أم إلى «الإسكندرية»، لم يخرج سهم واحد لمصلحته. لكن عندما استهم من أجل «أورشليم»، خرج سهم.

ومع ذلك فلم تخف مخاوف «نبوخذ نصر» ولم يتشجع على الهجوم على المدينة المقدسة إلا بعد أن أراه الرب بنفسه أنه قد قيد يدى الملاك الرئيس «ميكائيل» الذى يحرس اليهود، خلف ظهره لكى يمنعه من مساعدة اليهود.

ولذا فقد انطلق «نبوخذ نصر» قاصداً أورشليم بجيش عظيم. لكن لو كان البابليون قد ظنوا أن الاستيلاء على «أورشليم» أمر هين، فقد أخطأوا كثيراً ولا شك. إذ أن الرب قد قوَّى سكانها فظلوا صامدين طوال ثلاث سنوات فى وجه حصار الأعداء، على أمل أن يتوب اليهود عن شرورهم ويرجعوا عن طريق الخطية الذى ساروا فيه من زمن، لكى يرفع عنهم العقوبة التى تتهددهم ليل نهار.

وقد تميز من بين الأبطال المدافعين عن المدينة بطل كان يعرف باسم «عقيبة». وكان «عقيبة» هذا كلما قذف الأعداء المدينة بالحجارة مستخدمين المنجنيق، يلتقط هذه الحجارة ويركلها بقدمه ليقذفها على المهاجمين مرة أخرى. وفى مرة من المرات وبينما هو يلتقط الحجارة أخطأ فى الحركة فسقط بين السور الداخلى والسور الخارجى للمدينة فأسرع يطمئن أصدقاءه أنه لم يتأذ من السقطة.. لكنه مضطرب قليلاً وواهن بعض الشىء. ثم بعدما تناول وجبة الغداء اليومية المعتادة ـ وكانت ثوراً مشوياً ـ استعاد عافيته وواصل الصراع ضد غزاة «بابل». لكن قدرة البشر ومكرهم لا تجديهم نفعاً أمام بطش الرب.. إذ هبت نفخة ريح فأطاحت بعقيبة وألقته من فوق السور فسقط على الأرض ومات. وعند ذلك استطاع الكلدانيون إحداث ثغرة فى الحائط واخترقوا منها المدينة.

لكن ما كان البابليون لينجحوا فى الاستيلاء على المدينة لو كان «إرميا» موجوداً بها. فقد كانت أعمال «إرميا» عموداً قويا راسخاً تستند إليه المدينة، كما كانت صلواته مثل سور صخرى متين يحيط بها ويمنعها من أعدائها. ولهذا فقد أرسل الربُّ النبى إلى خارج المدينة فى مهمة ما، إلى مسقط رأسه «عناتوت» لكى يتسلم حقلاً يستحقه بالميراث. واستبشر «إرميا» بذلك وظن أنه علامة على أن الرب سيكرم «يهوذا»، وإلا لما كان أمره بأن يتملك قطعة من أرضها. وما كاد النبى يغادر المدينة، إلا ونزل ملاك من السماء وأحدث ثغرة فى سور المدينة، صائحاً:

ـ «ليأتِ العدو وليدخل إلى البيت، لأن سيد البيت لم يعد موجودا به. لقد أُذِن للعدو بأن يخرِّب المدينة ويدمرها. اذهبوا إلى الكرمة وخربوها لأن الحارس قد انصرف وهجرها ومضى. لكن لا يفخرن أحد ويتباهى قائلاً إنه هو وجنوده قد دمروا المدينة. لقد قهرتم مدينة مقهورة وقتلتم شعباً ميتاً».



رحلة «إرميا» إلى «بابل»

عندما أرسل «نبوخذ نصر» قائده «نبو زارادان» للاستيلاء على «أورشليم»، أمره بحسن معاملة «إرميا»، قائلاً:

- «خذه وانظر له باحترام ولا تؤذه.. لكن افعل به كل ما آمرك به».

وفى نفس الوقت أمره بأن يستخدم ما فى وسعه من القسوة مع بقية الشعب. لكن النبى «إرميا» أراد أن يشارك إخوانه وبنى قومه مأساتهم ومحنتهم، كان كلما رأى قفصاً فيه مجموعة من الشباب يدس رأسه فيه، لكن «نبو زارادان» كان يخرجه دائماً منه. وبعد ذلك كان «إرميا» كلما رأى جماعة من الشيوخ قد كُبِّلوا بالأغلال أراد الانضمام إليهم ليشاركهم ما هم فيه من ذل، إلى أن يأتى «نبو زارادان» فيطلقه.

وفى النهاية قال نبوزارادان لإرميا:

- اسمع.. أنت واحد من ثلاثة: فإما أنك متنبئ تتنبأ بالكواذب، أو أنك تحتقر الألم والمعاناة، أو أنت سفاك الدماء. فأما أنك متنبئ بالكواذب لأنك ظللت سنين طوالاً تتنبأ بسقوط المدينة فلما سقطت أخذت تنوح وتبكى، وإما أنك تحتقر الألم والمعاناة لأننى كلما أردت إبعاد الأذى عنك أسرعت لتعرض نفسك له وكأنك تقول لى: «أنا لا أبالى بالألم»!! وإما أنك سفاك للدماء لأن الملك قد أمرنى بأن أعتنى بك ولا أدع أذى يصيبك، لكن طالما أنك تريد إيذاء نفسك، لابد أن السبب أنك تريد أن يسمع الملك تأذيك ويقتلنى بسببك».

فهرس المحتويات

ـ الفصل الثانى

ـ الفصل الثالث

- الفصل الرابع

- الفصل الخامس

- الفصل السادس

ـ الفصل السابع

ـ الفصل الثامن

ـ الفصل التاسع

ـ الفصل العاشر